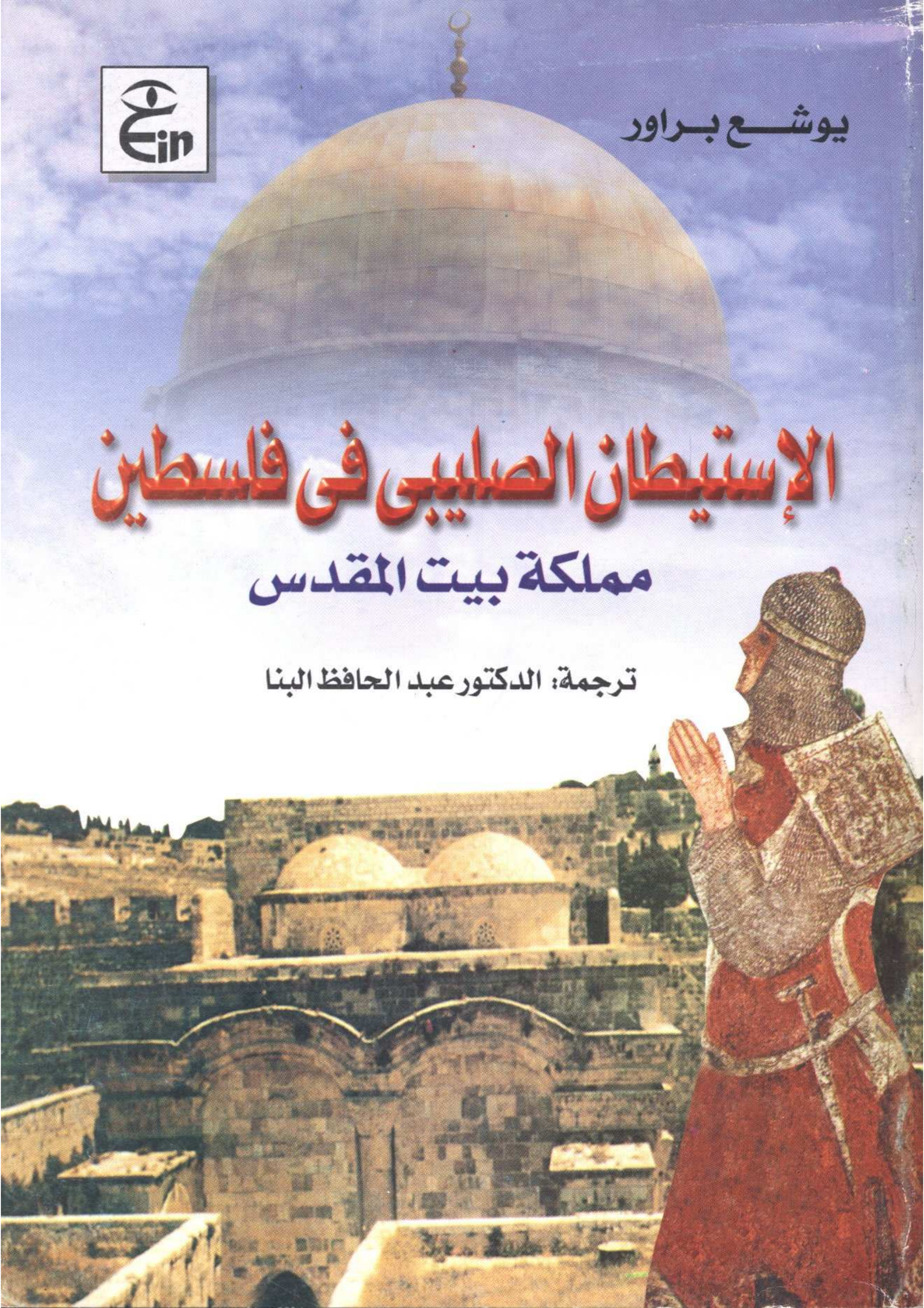


Ein
يوشع براور
الإستيطان الصليبى فى فلسطين
مملكة بيت المقدس
ترجمة: الدكتور عبد الحافظ البنا

يوشع براور

الاستيطان الصليبي في فلسطين

مملكة بيت المقدس اللاتينية

ترجمة
دكتور عبد الحافظ عبد الخالق البنا
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى
٢٠٠١م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

هذه ترجمة كتاب:

Prawer , Yoshua, The Latin Kingdom of Jerusalem
European Colonialism in the Middle Ages London , 1973 ,

المشرف العام د. قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:ÉIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

محتويات الكتاب

إهـــداء

إلى محمد الدُّرة ...

شهيداً وشاهداً

مقدمة المترجم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

الواقع إنه لايزال موضوع الحروب الصليبية من الموضوعات التاريخية التى تحظى باهتمام المؤرخين حتى الآن فى كل من أوربا وأمريكا والعالم العربى الإسلامى. ويرجع سبب هذا الاهتمام إلى أن هذه الحقبة الصليبية بأحداثها ونتائجها تعتبر مجالا رحبا للبحث والدراسة. وحقيقة الأمر أن هذه الحروب الصليبية التى شنها الغرب الأوربى الكاثوليكى ضد منطقة الشرق العرب الإسلامى فى العصور الوسطى كانت بمثابة حروب استيطانية استعمارية ، تسربلت برداء الدين زورا وبهتانا ، حيث رفع المحاربون الأوربيون الصليب شعارا لهم فى أثناء زحفهم صوب فلسطين وبلاد الشام.

لقد كان الصراع الإسلامى الصليبى صراعا حضاريًا فى جوهره ، وسياسيا وعسكريا فى ظاهره، صراعا بين حضارتين الحضارة العربية الإسلامية التى كانت لاتزال تحتفظ ببعض مقومات قوتها والحضارة الأوربية التى انطلقت من عقالها تشق طريقها صوب القوة والتوسع الخارجى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، فأرادت أوربا الكاثوليكية التوسع الخارجى على حساب القوى العربية الإسلامية المعاصرة التى كانت تعانى وقتئذ من حالة التشرذم السياسى. ونجح الصليبيون فى النهاية فى تأسيس كيانات صليبية لهم على التراب العربى ، وأسسوا مملكة لاتينية فى فلسطين وبلاد الشام عاشت قرابة قرنين من الزمان. وقد ترك هذا الوجود الصليبى فى المنطقة العربية تأثيرات سلبية على جميع المستويات والأصعدة. ويقينا أن فهمنا لطبيعة التحدى الذى فرضه الوجود الصليبى فى المنطقة العربية يجعلنا أكثر حيطة وحذراً فى كيفية مواجهة التحديات التى تواجه أمتنا العربية الإسلامية فى الوقت الحالى. ولذا فإن موضوع الحروب الصليبية يهم كل مثقف وقارىء عربى الآن.

وإذا كان المؤرخون الأوربيون والأمريكيون فى العصر الحديث قد ساهموا بقسط كبير فى مجال الدراسات المتعلقة بالحروب الصليبية، فإن المؤرخين اليهود من أمثال البروفيسور يوشع براور وآشتور وينتفنستى وغيرهم قد اهتموا أيضا بهذا النمط من الدراسات وحرص هؤلاء المؤرخون اليهود على دراسة هذه التجربة الاستيطانية الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام،

والتعرف على طبيعتها ومعوقات نجاحها ، والمعضلات التى وقفت حجر عثرة أمام تطور المؤسسات الصليبية فى الأرض العربية، وذلك لتوظيف خبرة هذه التجربة فى خدمة الأغراض الاستيطانية الإسرائيلية فى فلسطين فى الوقت الحالى.

والكتاب الذى نقدمه اليوم للقارىء والمثقف العربى فى أمتنا العربية الإسلامية نقلا عن اللغة الإنجليزية يعتبر واحداً من هذه الدراسات الشاملة المتعلقة بالحروب الصليبية والتجربة الاستيطانية الاستعمارية الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى العصور الوسطى، ومؤلف هذا الكتاب هو البروفيسور اليهودى الاسرائيلى يوشع براور أستاذ تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية بالجامعة العبرية بالقدس سابقًا. ولاشك فى أن هذا المؤلف صاحب دراسات متعددة وجادة فى تاريخ المؤسسات الصليبية التى أسسها الصليبيون فى فلسطين وبلاد الشام، خلال فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان. ولم يكن هذا الكتاب الذى قمنا بترجمته للمؤرخ يوشع بروار هو الكتاب الأول، ولكن سبقنا فى هذا المجال أحد أساتذتنا الأجلاء البارزين فى تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية فى مصر والعالم العربى وهو الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم الذى ترجم كتابا للمؤلف يوشع براور بعنوان «عالم الصليبيين» وذلك منذ ما يقرب من عشرين عاما مضت.

ويحمل الكتاب الذى قمنا بترجمته إلى لغة الضاد عنوان «الاستيطان الصليبى فى فلسطين وبلاد الشام. المملكة اللاتينية فى بيت المقدس »، وهذا الكتاب يعالج فى فصوله الثمانية عشر مجمل تاريخ الحركة الصليبية ، وقصة الاستيطان الصليبى فى الأرض العربية، وطبيعة المؤسسات الصليبية التى شيدها الصليبيون فى هذه المناطق العربية وقد التزم المؤلف بالموضوعية التاريخية خلال معظم فصول كتابه ماعدا الفصل الخاص باليهود ، فقد حاول المؤلف أن يجنح بالموضوعية التاريخية كثيرا حين أراد أن يبرز دورا لليهود خلال حقبة الصراع الإسلامى الصليبى، الأمر الذى يجافى الواقع التاريخى، ولاشك أن غرض المؤلف من وراء ذلك هو خدمة الأهداف الصهيونية الاستيطانية فى إثبات فرية الوطن القومى لليهود فى فلسطين. وكان لزاما على المترجم أن يدون تعليقاته فى الهوامش للرد على هذه الآراء ووجهات النظر المفعمة بالتعصب ولي عنق الحقيقة التاريخية.

وينبغى أن أشير إلى أننى قد حرصت فى الترجمة على الأسلوب العربى قدر الإمكان ، وفى نفس الوقت قد راعيت حرفية النص الإنجليزى ، وإن كنت أحيانا ألجأ إلى استخدام

مفردات عربية فى بعض المواضع تخدم السياق العام. وقد حرصت أيضا على تدوين التعليقات فى الهوامش كلما تطلب الأمر ذلك. وأعترف فى هذا المقام بأن عملية الترجمة من المهام الشاقة، وإننى أرى هذا العناء أمراً عاديًا وأترك للقارىء والمثقف العربى الفرصة للتعرف على محتويات هذا الكتاب وهذا السفر المهم.

وأرجو أن أكون قد حالفنى توفيق الله تعالى فى تقديم هذا العمل ، وإننى لا أبغى من ورائه سوى رضوان الله وتقديم النفع للدارسين فى حقل ومجال الدراسات التاريخية عامة وتاريخ الحروب الصليبية بشكل خاص.

فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسى

دكتور / عبد الحافظ عبد الخالق البنا

تبوك فى يناير ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

لاتعتبر هذه الدراسة تاريخًا جديداً للحروب الصليبية وإقامة الكيان الصليبى فى منطقة الشرق العربى، وإنما هى بمثابة محاولة لوصف وتحليل بنية المجتمع الصليبى الأوربى الذى انتقل إلى منطقة شرق البحر المتوسط، والذى احتفظ بأنماط حياته الاجتماعية والثقافية الأوربية فى هذه المناطق الجديدة فى الشرق والتى تقع جغرافيا خارج حدود أوربا. وإذا كانت ظاهرة الاستيطان ليست جديدة فى التاريخ الأوربى، فإنه منذ الحروب الصليبية فقط أصبحت هناك أصول أولى تربط بين الحركات الاستعمارية الأوربية. ومنذ ذلك التاريخ ، استمرت ظاهرة الاستعمار بمثابة عامل رئيسى فى التاريخ الأوربى وغير الأوربى.

وتعريف الحروب الصليبية بأنها حركة استيطانية استعمارية لم يستخدم بشكل واضح خلال قرون عديدة انقضت ، وخلال هذه الفترة لم تحمل الدلالة اللفظية لمصطلح الحروب الصليبية أى معنى يحمل فى طياته الازدراء والبغض. ولم تكتسب الحروب الصليبية معناها الذميم إلا فى القرن الثامن عشر من الميلاد وأصبحت منذ ذلك التاريخ مصطلحًا ذميمًا ممقوتًا، ولاسيما فى أثناء الطور الأخير من مراحل الحركة الاستعمارية فى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، واستمرت هكذا حتى أيامنا هذه .

وعلى أى حال، فإنه لم يتم تصنيف الحروب الصليبية فى معظم الدراسات على أنها حركة استعمارية باكرة، وكذلك لم يتم تحليل ودراسة اقامة الكيان الصليبى فى منطقة الشرق العربى من وجهة النظر هذه. والتعريف المنطقى للحركة الصليبية يرى أن الحروب الصليبية وتأسيس الكيان الصليبى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى (فى بيت المقدس) يعتبر ارهاصًا لحركة التوسع الاستعمارى الأوربى، دون التوقف مليًا لتفسير جوهر وطبيعة هذا التوسع والمد الاستعمارى. ولم تحظ الحروب الصليبية وتأسيس المملكة اللاتينية فى بيت المقدس بنصيب مناسب فى الدراسات الخاصة بتاريخ الحركة الاستعمارية . والواقع أن معظم المؤرخين قد أشاروا إلى الحروب الصليبية عند تعليقاتهم الافتتاحية عن حركة الاستعمار الأوربى وكان هؤلاء المؤرخون يطرحون أسئلة قليلة تدور حول ماهية وطبيعة هذه الحركة بغية الوصول إلى تأكيد حقيقة أن حركة الاستعمار الأوربية قد بدأت بشكل فعلى منذ سبعة قرون مضت ، ولم تكن وليدة القرن الثامن عشر أو التاسع عشر من الميلاد.

ولاشك فإن المقدمات المنطقية والخلفية الأيديولوجية للحركة الصليبية واقامة الكيان الصليبى فى منطقة الشرق العربى بمؤسساته وانجازاته من الموضوعات الرئيسية التى سوف تعالجها هذه الدراسة. ونأمل من وراء هذه الدراسة أن نكون قد ساهمنا فى دراسة تاريخ العصور الوسطى، وكذلك فى تاريخ الحركات الاستيطانية الاستعمارية .

وتولدت فكرة تأليف هذا الكتاب بعد خمسة وعشرين عامًا أو ينيف قضيتها فى دراسة الحروب الصليبية وحياة الصليبيين فى المناطق الجديدة فى بلاد الشام وفلسطين. واقتضت فكرة تأليف هذا الكتاب مناقشة العديد من الاشكاليات المتعلقة بموضوع الدراسة مع أحد الزملاء فى الجامعة العبرية بالقدس، وهو الدكتور يونينا تالمون Yonina Talmon أستاذ علم الاجتماع. وكانت وفاته المفاجئة تعد خسارة فادحة وفجيعة لجميع أصدقائه وللجامعة أيضا. واستغرق إعداد هذا البحث سنين عددا . وعندما اكتمل هذا العمل أقحمت ناشرى مؤلفاتى فى امتحان عسير . وأود فى هذا المقام أن أقدم شكرى لجميع الناشرين لمساعدتهم لى وجميل صبرهم ورفقهم بى. ودعنى أيضًا أعبر عن جزيل شكرى وعرفانى للسيد سيروت وزوجته فى باريس حيث كتبت الشطر الأعظم من هذا المؤلف فى منزلهما بباريس. وأننى مدين بالعرفان والجميل للسيد بن ياكوف Ben Yakov لجهوده المخلصة التى أنفقها بصدر رحب فى إعداد مسوّدة هذا المؤلف للنشر.

وفى النهاية ، يسعدنى أن أقدم شكرى لأصدقائى المقربين وهم البروفيسور س . ن ايسينستاد Eisen Stadt ، والبروفيسور ج. ب تالمون J. B. Talmon الذى تجشّم عناء قراءة النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة ، وقد استفدت شخصيًا من نصائحه العديدة ومن علمه الغزير، وكذلك البروفيسور م. باراش M. Barash الذى قرأ الفصل الخاص بالفنون، والدكتور ب - كدار B. Kedar لملاحظاته ونقده الموضوعى القيم، والسيدة س. شاين S. Schein سكرتيرتى ، التى رتبت وأعدت الفهرس ، وأدين بالعرفان والشكر الجزيل لبعض المؤرخين الآخرين الذين أقروا صحة قائمة المصادر والمراجع والهوامش. وفى هذا المقام أيضا اعترف بشكل خاص بأننى مدين بالجميل والعرفان لأصدقائى ، ومنهم كلود كاهين C. Cahen من السوربون، وجان ريتشارد J. Richard الأستاذ بجامعة ديجون Dijon ، وهانز ماير H. Mayer الأستاذ بجامعة كييل الألمانية ، وذلك لدراساتهم ومؤلفاتهم التى فتحت ويسرت لى آفاق البحث، ومن بين أجنحتها تم تأليف هذا الكتاب.

يوشع براور

الجامعة العبرية - القدس

أغسطس ١٩٧٢

يقول فوشيه الشارترى :

« ..... وعندما كنت أصلى للرب جال بخاطرى وفكرت مليًا فى كيف أن الرب فى أيامنا هذه قد حول الغرب إلى شرق ، فالذين كانوا بالأمس غربيين أصبحوا الآن شرقيين. ومن كان من البيزنطيين أو من الفرنج أصبح الآن من الجليل أو من سكان فلسطين. والذين كانوا من مواطنى وأبناء ريمس أو شارتر أصبحوا الآن مواطنين من مواطنى صور أو أنطاكية . لقد نسينا الأوطان التى ولدنا فيها، وأصبحنا الآن نجهل أوطاننا ، أو على الأقل لم نعد نذكرها . وبعض الفرنج تزوجوا سوريات أو أرمينيات، أو حتى من المسلمات اللائى ظفرت بنعمة التعميد وتحولن إلى المسيحية . وبسبب هذه المصاهرة والتزاوج، أصبح لبعض الفرنجة حماة أو حمى، أو زوجة ابن، أو ابن الزوجة، أو زوجًا للأم. وكان هناك أحفاد. والآن تعددت اللغات واللهجات ، وأصبحت هذه اللغات معروفة لدى كل الأجناس والجماعات الدينية المتعددة، الذين انحدروا من مناطق أجنبية ..... والذين كانوا أجانب أصبحوا الآن وطنيين، والذى كان يقيم فى هذه المناطق مؤقتًا أصبح الآن يقيم بشكل دائم. ومن وقت لآخر، يأتى أقاربنا لكى يلحقوا بنا، ويتركون كل أملاكهم فى أوربا. ولهذا فإنك ترى أن هذا الذى يحدث بمثابة معجزة عظيمة وكيف لايدهش المرء بشكل كبير من كل ما يحدث فى هذا العالم. ومن ذا الذى سمع أو رأى أى شىء مثل هذا ؟

الفصل الأول

عشية الحملة الصليبية الأولى

تمتد أراضى منطقة الليفانت (الشرق) على طول الساحل الشرقى للبحر المتوسط فى شكل خط مستقيم مباشر. واستقرت الشعوب القديمة فى هذه المنطقة فى السهول والتلال الواقعة بين التلال الرملية غربًا وبين الصحراء القاحلة شرقًا، وشهدت هذه المناطق تدفق موجات عديدة من عمليات الغزو والغزاة. وكانت الشعوب القوية القاطنة فى المنطقة الواقعة بين الهلال الخصيب شمالاً ووادى نهر النيل جنوبًا تقوم باغارات دورية من أجل تطويق وحصار الإقليم الشاسع من امبراطوريتهم واحكام سيطرتهم المستمرة على أعدائهم حكام بلاد الشام وكنعان وخلق منطقة حاجزة حول مناطق سيادتهم.

وتعتبر مراكز الثقافة القديمة فى هذه المناطق موطنًا ومهداً للديانات التوحيدية -اليهودية والمسيحية- والتى اعتنقتها جماعات كبيرة فى الامبراطورية الرومانية ، وخضعت هذه المراكز فى العصر القديم لسلطة قوية موحدة. وفى النهاية استطاعت القوى الروحية وديانات هذه الشعوب التى كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية من التغلغل والانتشار داخل الامبراطورية، وفرضت عقائدها وقوانينها الأخلاقية فى كل مكان من اقليم الامبراطورية الشاسعة.

وعاش سكان فلسطين* حياتهم الخاصة تحت نير الحكم الرومانى ، غير أن هذه المناطق التى شهدت ميلاد الديانات السماوية قد ساهمت بقسط كبير فى العلوم الفلسفية والجدل اللاهوتى والهرطقة الدينية. فمنذ ظهور الهرطقات الغنوصية** فى القرن الثانى الميلادى وحتى نهاية

---

* لم يذكر المؤلف كلمة فلسطين بشكل مباشر بل حورها إلى كلمة موطن العقيدة والقوانين الأخلاقية Thie birth of Religion and ethics ، ويمكن تفسير هذا الموقف من جانب المؤلف فى ضوء الصراع العربى الاسرائيلى (المترجم) .

** الغنوصية : هى احدى الفرق التى ظهرت فى المسيحية فى قرونها الأولى، وهى تعتمد على المعرفة (gnoisis) أساسا ، لا الايمان، طريق الخلاص . وإن كان الإنسان بنفسه عاجزاً عن ادراك أسمى مراتب المعرفة. ولكنها مع ذلك تصل إليه بواسطة كائن يأتيه من العالم العلوى، وقد أنكرت الغنوصية ما أحاط بشخص المسيح وأعماله من معجزات وتمثلت حياته الذاتية كنتيجة لفيض أو انبثاق من الكائن الأعلى (راجع ، رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة، جـ٣، ص٢١) .

القرن السابع الميلادى، حيث تبلورت الديانة المسيحية، استطاعت بلاد الشام وفلسطين أن تلعب دوراً حاسمًا فى تشكيل بناء الديانة المسيحية باحكام واتقان.

وعندما أقرت حكومة الامبراطورية الرومانية حرية ممارسة العقائد والديانات المقبولة بموجب المرسوم الامبراطورى تحولت بلاد الشام وفلسطين والمناطق الواقعة فى الشرق من السيطرة الرومانية المباشرة وأصبحت موطنًا للهرطقات. وامتزج سكان هذه المناطق من الساميين والفينيقيين واليهود مع البيزنطيين والسكان الرومان وفى أعقاب الخلافات الدينية المستعمرة انقسم هؤلاء السكان إلى طوائف وجماعات جديدة.

وفى الربع الثانى من القرن السابع الميلادى انتشرت رايات الاسلام وارتفعت فوق الطوائف المسيحية المتصارعة . فقد كان الاسلام متسامحًا مع المسيحيين الشرقيين الذين يقطنون بلاد الشام أو فلسطين، ولكن الكنيسة البيزنطية كانت أكثر تعسفًا مع هؤلاء المسيحيين الشرقيين فى الأراضى المقدسة، بالإضافة إلى باقى سكان هذه المناطق من السامرة واليهود. وأدى ظهور قوة الاسلام الجديدة فى القرن السابع الميلادى إلى تمزيق أوصال حدود الامبراطورية البيزنطية واخلال التوازن فى هذه الحدود واضطرابها ولاسيما المناطق من الفرات إلى دلتا النيل التى دخلت فى الإسلام. واندفع الفرسان المسلمون يحملون رماحهم وأسلحتهم من منطقة شبه الجزيرة العربية صوب الشمال ، وخلال جيل واحد استطاعت الجيوش الإسلامية الوصول إلى مصر وبلاد العراق. وبعد جيلين ، وفى بداية القرن الثامن الميلادى استطاعت الجيوش العربية الإسلامية مواصلة الفتوحات حتى اقتربت من بوابات القسطنطينية ، فى حين كانت طبول الحرب تقرع لحنها الحزين لهزيمة أسبانيا المسيحية على يد المسلمين عند اكسيرز Xerez من فرونتيرا عام ٧١١م. وامتدت الفتوحات الإسلامية لتشمل المنطقة الواقعة بين جبال البراتس شمالاً ، وهى شمال أفريقيا ، وفلسطين ، وبلاد الشام، وأسيا الصغرى. ووصل المسلمون إلى معظم بلاد الهند، وأصبحت الملايين من شعوب هذه المناطق تيمم وجوهها صوب مكة بفعل قوة المسلمين* .

وفى بداية القرن الثامن الميلادى استطاع الشكل السياسى الجديد المتمثل فى القوة الإسلامية الجديدة أن يحدد مصير كل منطقة الشرق العربى وأوربا. وهكذا شهدت منطقة البحر

---

* هنا يؤكد المؤلف على فرية طالما رددها المؤرخون الغربيون وهى انتشار الاسلام بحد السيف وهذا قول يجافى الواقع التاريجى، والدليل هو بقاء عدد كبير من أهل الذمة -اليهود والنصارى- على دياناتهم ولم يجبروا أحد على اعتناق الاسلام مقابل دفع ضريبة بسيطة هى الجزية (المترجم) .

المتوسط ثلاث قوى عالمية متصارعة. وباتت امبراطورية الفرنجة الجرمانية القوية فى مواجهة الاسلام والمسلمين فى منطقة شبه الجزيرة الايبيرية فى أسبانيا وعلى امتداد الشواطىء الشمالية للبحر المتوسط . ودخلت الإمبراطورية فى نزاع مع القوة الإسلامية الفتية فى المنطقة الممتدة من شاطىء الادرياتيك إلى جبال طوروس بالإضافة إلى الأودية الخصيبة لمنطقة العراق والجزيرة. وأصبح البحر المتوسط- والذى كان فى وقت ما بحيرة داخلية للامبراطورية الرومانية- يشكل خطراً حيث كان يضم القوى الاسلامية المناوئة للامبراطورية . وهكذا اقتطعت من أوربا الجديدة أغنى أقاليمها الاقتصادية والثقافية فى شمال أفريقيا وآسيا، وخصصت هذه الأقاليم للسيادة الاسلامية .

وعندما فقدت الإمبراطورية البيزنطية أقاليمها الجنوبية بدأت فى ترتيب قواتها الباقية فى منطقة البلقان وفى آسيا الصغرى من جديد. وباتت هذه الامبراطورية فى موقف دفاعى عن أراضيها بشكل أكبر عن ذى قبل.

وكرست القوى الإسلامية جهودها فى غزو أراضى واسعة جديدة، ونشر الاسلام بين سكان هذه الأقاليم. ولم تحتفظ الدولة الإسلامية بفتوحاتها الأولى تحت حكم الأمويين وبحلول منتصف القرن الثامن الميلادى تأسست خلافة أموية مستقلة فى بلاد الأندلس ، وفى بداية القرن التاسع الميلادى عانت الخلافة العباسية فى بغداد من منافسة الفاطميين الشيعة الهراطقة فى القاهرة . وعلى أثر هذا التمزق السياسى للدولة الإسلامية ضعفت الخلافة العباسية وخارت قواها. وفى بداية القرن الحادى عشر الميلادى، وجد الخليفة العباسى أنه محروم من بسط سيادته السياسية على أقرب منطقة من عاصمة ملكه فى بغداد . وعلى الرغم من اعتناق الأقاليم التى فتحها المسلمون الدين الإسلامى، فإن هذه الأقاليم استردت هويتها العرقية والثقافية على يد الأسرات الحاكمة المحلية. واعترف الأمراء المحليون بسيادة الخليفة العباسى وحرصوا على ذكر اسمه والدعاء له فى خطبة الجمعة على الرغم من تمتع هؤلاء الأمراء المحليين بالقدر الأكبر من الاستقلال الفعلى داخل اطار الخلافة العباسية الضعيفة.

وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى توقف التفسخ والضعف الذى أصاب الخلافة العباسية وذلك بفضل ظهور قوة الأتراك السلاجقة، تلك القبائل التركية التى اعتنقت الإسلام. وقد اندفعت قبائل الأتراك السلاجقة من منطقة الاسبتس فى وسط آسيا الصغرى وتحركت صوب بلاد الهند وايران ومنطقة العراق، واستطاع السلاجقة تقديم العون العسكرى والسياسى

للخلافة العباسية المتهاوية . وأعلن السلاجقة فى بغداد أنهم الذراع الطولى للخليفة العباسى، الأمر الذى جعل الخليفة العباسى ينعم على قائدهم طغرل بك فى عام ١٠٥٦ بلقب سلطان الذى يعنى «الحاكم المخلص» فى الخلافة العباسية وفى كل الأقطار التى ستفتح فى المستقبل.

اتجهت توسعات الأتراك السلاجقة صوب الغرب، وألحقوا هزيمة منكرة بالجيش البيزنطى فى موقعة ملاذكرد فى عام ١٠٧١ * واستولوا على معظم آسيا الصغرى وواصل السلاجقة الزحف حتى أصبحوا على مقربة من بوابات القسطنطينية . وتحولوا فى غزوهم جهة الجنوب ، واستطاعت أحد جيوشهم اجتياح بلاد الشام وفلسطين وتحطيم قوة المصريين الفاطمية، وهى القوة التى احتفظت فقط بالمدن الساحلية.

وتركزت مناطق الغزو السلجوقى فى إيران ، واتخذ السلطان السلجوقى من مدينة الرى Reyy القريبة من طهران مستقراً ومقامًا . واستمرت الدولة السلجوقية فى الوجود لمدة جيل واحد فقط وبصعوبة. وعلى الرغم من ذلك فإن أقاليم الخلافة العباسية أعلنت أن خليفة بغداد العباسى هو الحاكم الشرعى فقط وأن السلطان السلجوقى هو حاكمهم المبرز، وبسرعة انقسمت الدولة السلجوقية إلى ولايات مستقلة ، واستمر النزاع قائمًا بين الامارات السلجوقية فى آسيا الصغرى ، وفى بلاد الشام وفلسطين وفى تلك الاثناء ، وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى إلى آسيا الصغرى ، وبعد أن أحرزت النصر على الأتراك السلاجقة فى ضورليوم (اسكى شهر) **، واصلت الجيوش الصليبية زحفها إلى بلاد الشام وفلسطين.

---

* موقعة ملاذكرد : من أشهر المعارك العسكرية التى دارت رحاها بين المسلمين السلاجقة وبين الجيش البيزنطى ، حيث استطاعت قوات السلاجقة بقيادة ألب أرسلان أن تلحق الهزيمة المرة بالجيش البيزنطى بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع الذى وقع أسيرا بيد السلاجقة . (المترجم) .

** موقعة ضورليوم (اسكى شهر) : هى الموقعة والمعركة الشهيرة فى تاريخ الزحف الصليبى صوب المنطقة العربية ، ففى أول يولية سنة ١٠٩٧م أحرز الجيش الصليبى انتصارا حاسما ضد الأتراك السلاجقة ، وغنم الصليبيون كميات ضخمة من المؤن والغنائم . (المترجم) .

الفصل الثانى

الحملة الصليبية الأولى

كان المؤرخون اللاتين يطلقون على الحروب الصليبية أسماءً عديدة منها الحج، والحملة العسكرية، والحرب المقدسة، وحرب الاستيطان ، وحركة الهجرة الكبيرة، وكانت كل هذه المسميات تتفق تمامًا مع طبيعة ومزاج هؤلاء المؤرخين ومع مناخ الرأى العام الذى كان سائدا وقت تدوين قصة هذه الحروب. وسواء مدح هؤلاء المؤرخون هذه الحروب أولاقت منهم القدح والذم، فإن الحروب الصليبية كانت بمثابة مؤامرة بابوية شريرة، وقناع يستتر وراءه مظاهر الجشع الدنيوى المادى، كما كانت هذه الحروب تمثل نذيراً بالحركة الاستعمارية، أو الاضطراب الفعلى للجموع البشرية التى أصابها الهواس وأصبحت مسعورة، بل كانت أيضًا تمثل مشروعًا ضخمًا لتحقيق مثل رفيعة وسامية، وتعبيراً واضحًا للأسف الجماعى نتيجة الانحراف عن مبادىء الحركة المسيحية ، تلك الحركة التى كانت من المفروض أن تقود البشر إلى يوم الدينونة، وأن تصل بهم إلى المملكة السماوية حيث عرش الرب.

ولم تكن وجهات النظر هذه جديدة. وعندما تجمعت جيوش الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) عبر المؤرخون اللاتين عن ذعرهم ورعبهم. وبعد خمسين عامًا وفى أثناء الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٥٠م) وخاصة بعد فشلها- ارتفع أكثر من صوت يثير الشكوك حول الخطة الملهمة والمقدسة لهذه الحرب وعدم جدواها. وتعرضت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧-١١٩٠م) للنقد المرير اللاذع لأنها كانت تناقض التعاليم المسيحية الرئيسة . وكانت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤م) والتى انتهت باخضاع ونهب مدينة القسطنطينية المسيحية واستباحتها لأعمال السلب والحرق- بمثابة فضيحة وخزى مبين ألحق بالديانة المسيحية. وفى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى هبت رياح المعارضة بشدة فى وجه الحركة الصليبية، وتعالت صيحات الاحتجاج والمعارضين، وجاءت الانتقادات المريرة القاسية من كل صوب وحدب ومن جميع العناصر اللاهوتية والعلمانية ، والتروبادور، ورجال الدولة، والمبشرين ، والتجار وأرباب المصالح التجارية ، ومن الرهبان الدومينيكان

والفرنسيسكان*. وانتاب الخوف والقلق أحد الرهبان الدومينيكان ويدعى هيومبرت الرومانسى Hambert de Romans وأبدى تخوفه من توسع المسلمين فى أوربا (وهو الشعور الذى تحقق بعد مائتى عام من هذا التاريخ بظهور الدولة العثمانية)، وقد أجاب خصوم الحركة الصليبية ومعارضيها بغضب بأن «الكنيسة تهدف من وراء هذه الحرب الصليبية ملأ الأرض بالشهداء، وإنما الهدف الحقيقى الذى يباركه الرب هو ملأ السماء بهؤلاء الشهداء». ولم تتردد البابوية فى تنفيذ هذا المشروع الصليبى فقط، بل كانت من أقوى المروجين للفكرة والدعاية الصليبية وظلت تؤازر هذه الفكرة طيلة قرنين من الزمان.

وثمة اشكاليات صعبة تواجه البحث التاريخى ومن أهمها الأسئلة الخاصة بدوافع الحروب الصليبية، وكذلك كيف تطورت الفكرة الصليبية وخرجت إلى الواقع. ويبدو أنه من غير المؤكد أن نعزو بداية الحركة الصليبية إلى شخص أو فرد، أو إلى مؤسسة أو إلى أيديولوجية، فقد تعددت الأحداث فى مجالات الحياة المختلفة وفى فترات مختلفة، وفى أقطار مختلفة، وكانت هذه الأحداث بمثابة مرحلة إعداد المسيحية الكاثوليكية الأوربية لتنفيذ الحملة الصليبية الأولى. واستطاعت السياسة البابوية صهر هذه العوامل فى بوتقة واحدة، لكى تتبنى حركة محددة الهدف ، ومحددة الزمان والمكان.

ومن المؤكد أن الظروف المادية والحياتية التى شهدها المجتمع الأوربى فى فترة ما قبل الحروب الصليبية هى التى مهدت التربة لاخراج هذه الحروب إلى حيز التنفيذ . وحتى وقت الحروب الصليبية لم تكن حركة الهجرة على أى نطاق معروفة فى التاريخ الأوربى منذ المعجزة التى يصعب تصديقها Völker Wanderung ولم يكن لدى أوربا مستودع للقوة البشرية يمكن الاستفادة منه فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى وكذلك خلال المائتين عامًا التالية. ومع ذلك، فإن الآراء التى تعزو الحروب الصليبية إلى الانفجار السكانى أو على الأقل النمو السكانى فى أوربا والذى لم يسبق له مثيل خلال القرن الحادى عشر الميلادى غير مقنعة لتفسير الأسباب الدوافع. وثمة قليل من السك حول مصداقية هذه الحقيقة. لقد وجدت هذه

---

* الدومينيكان والفرنسيسكان : من أشهر التنظيمات الدينية الديرية التى ظهرت فى أوربا فى القرن الثالث عشر الميلادى، وكان رهبان هذين التنظيمين انعكاسا لحالة الزهد الجديدة التى باركتها بابوية أنوسنت الثالث ، والذين قدموا خدمة للبابوية فى تعضيد نفوذها ، حيث الجهود التنصيرية التى قاموا بها وكذلك الوعظ الدينى فى أرجاء الكنائس فى أوربا . (المترجم) .

الزيادة السكانية فى عدد الفلاحين فى أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى منفذا لها ومتنفسًا من خلال الموجة الكبيرة من حركة الاستيطان الداخلى. وعلى مدى قرنين من الزمان فى أوربا، تم ازالة الغابات وتجفيف المستنقعات، وتأسيس آلاف من القرى الجديدة. واقترنت الزراعة الكثيفة بعملية إعادة تقسيم وحدات الأراضى الزراعية الخاصة بالأسرة من أجل استثمارها. وقد ذكر الراهب الفرنسى راؤول جلابير قبل منتصف القرن الحادى عشر الميلادى أن أوربا شهدت تشييد عدد كبير من الكنائس والأديرة الجديدة، وأن هذه الفترة أيضا شهدت كثافة سكانية كبيرة فى أوربا. وساهمت الأعداد الكبيرة من السكان فى تأسيس واقامة المدن وخلق الثورة الحضرية فى القرن الثانى عشر الميلادى. وكان فائض انتاج الأرض من المحاصيل يوفر الطعام لجميع السكان، واستطاعت الزراعة الكثيفة تلبية حاجة كل الذين لايعملون بالزراعة كالصناع والتجار من الطعام.

وفى بعض المناطق ساهمت حركة الاستيطان الداخلية هذه فى خدمة أغراض أخرى بالاضافة إلى الأغراض الاقتصادية. فاستيطان الجرمان فى الأراضى السلافية كان يحمل معنى سياسيًا والاتجاه الاقتصادى صوب الشرق والذى مهد الطريق لحركة التوسع فى المستقبل. ووفرة القوى البشرية وزيادة عدد السكان فى أوربا هو الذى جعل من الممكن حدوث الحروب الصليبية، وإن كانت هذه الزيادة البشرية غير مسئولة عن حدوثها مثل هذه الحروب.

لم يكن تطور طبقة النبلاء المحاربين فى أوربا وليد القرن الحادى عشر الميلادى. إذ ترجع أصول هذا التطور إلى الفترة الكارولنجية الباكرة، حيث ظهر نمط جديد من التماسك الاجتماعى -احداث نوع من العلاقات المباشرة والقوية بين السيد الاقطاعى وبين فصله أو تابعيه- هذا النظام الذى ظهر نتيجة عدم الاستقرار والاضطراب الأمنى داخل المجتمع الأوربى فى أعقاب انهيار الادارة الرومانية وعدم فعاليتها وتفسخ العرف الجرمانى القبلى الباكر. وتمخض عن التقسيم الطبقى داخل المجتمع الأوربى ظهور طبقة من المحاربين المحترفين ضمن طبقات المجتمع. ويبدو أن طبقة النبلاء الوراثية قد وجدت فى القرن الحادى عشر الميلادى. ولم تدون مبادىء وقواعد السلوك والتصرفات التى كانت تميز طبقة المحاربين من النبلاء. ومع عملية التطور الاجتماعى هذه، حظيت مبادىء وقواعد السلوك لطبقة النبلاء المحاربين باعتراف واقرارالكنيسة، وكان هذا الاعتراف الكنسى بمثابة مرحلة مهمة من مراحل تطور هذه الطبقة. فقد كانت الكنيسة تعارض من حيث المبدأ القتل وسفك الدماء، ولم تبارك الحروب

الأهلية الداخلية التى كانت تشن وفق مثل أعلى معينة. ولكى يصبح المحارب جديراً بمكانته كان عليه أن يتطلع إلى مهنة تجعل منه جنديًا من جنود المسيح. وفى اطار هذه المهمة والوظيفة الجديدة للفارس كانت المزايا التى يتمتع بها المحارب الجرمانى من فنون الحرب والشجاعة فى ساحات الوغى والاخلاص تتفق تمامًا مع تعاليم الانجيل التى تحث على الدفاع عن الضعيف والمظلوم والذود عن حياض الكنيسة لقد ولدت فكرة الفروسية المسيحية. فقد كان طقس الاحتفال القديم المصاحب لتدشين الفارس عبارة عن منح هذا الفارس الأسلحة التى يستخدمها فى الحرب، ولكن منذ الآن فصاعداً أصبح هذا الاحتفال الخاص بتدشين الفارس يتم فى رحاب الكنيسة. وكانت أداء صلوات المساء فى الكنيسة تصاحب عملية اعداد وتدشين حامل دروع الفارس Squre الصغير وتجهيزه لمسئولياته المستقبلية . وكان أحد القساوسة يبارك الأسلحة التى يتسلمها هذا الفتى الصغير الذى سيصبح فارسًا ، ويعلن أنه قد أسبغ بركته الخاصة على هذا الفارس المرتقب. وأصبح الطقس المصاحب لتدشين الفارس بمثابة التعميد الثانى للنبيل البالغ الذى شب عن الطوق.

لقد كانت طبقة النبلاء المحاربين المشاغبين فى مملكة آل كابيه فى فرنسا وهى الطبقة التى استطاعت الكنيسة كبح جماح تجاوزاتها من خلال حركتى سلام الرب وهدفه الرب * (فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى) تمثل الدعامة الرئيسة للمجتمع عشية الحروب الصليبية . وكان من المتوقع أن يصبح أفراد هذه الطبقة المحاربة العماد الرئيسى للأمن الداخلى فى المجتمع. واشتركت الكنيسة والسلطة الملكية والرأى العام فى شجب الحروب الأهلية الاقطاعية التى كانت تنشب بين الأخوة ، ووضع حد لهذه الحروب التى عصفت بالمجتمع والتى كان يقتل فيها الأخ أخاه، ووجدت الطاقات الزائدة والتقاليد الفروسية لأفراد هذه الطبقة متنفسًا لها من خلال المشاركة الفعلية فى الحروب الصليبية. فالآن يستطيع الفرسان النبلاء قتال المسلمين (الهراطقة)** بموافقة كاملة من الكنيسة ومباركتها .

---

* سلام الرب وهدنة الرب : ظهرت حركة سلام الرب وهدنة الرب فى المجتمع الأوربى فى القرنين العاشر والحادى عشر من الميلادى بهدف تقييد الحروب الاقطاعية فى أيام معينة لتحديد نطاقها ومحاصرة أضرارها، وكانت هذه الحركة تهدف إلى حماية أملاك التجار والفلاحين ورجال الدين من الحرب وأضرارها. وقد تولت الكنيسة الكاثوليكية دورا مهما فى حركة السلام هذه استخدمها موسيلة لزيادة سلطانها ونفوذها (المترجم).

** اعتادت البابوية الكاثوليكية أن تصف المسلمين بالهراطقة فى اطار الدعاية المسعورة الكاذبة وفى اطار التعصب الدينى المقيت ضد الأديان السماوية الأخرى غير المسيحية، وذلك لاقناع البسطاء من الأوروبيين للاشتراك فى الحرب ضد المسلمين. (المترجم) .

وبينما كانت طبقة النبلاء تخضع للتغير الاجتماعى العميق وهو التغير الذى كان العماد الرئيسى فى الحرب ضد المسلمين، اتجه البعض الآخر صوب الديانة المسيحية حيث أعمال الرهبنة فى أحد الأديرة. وفى الغالب لم تكن كل مظاهر النزعة الدينية لأفراد هذه الطبقة المحاربة ترتبط بحركة الاصلاح الكلونية الكبيرة للديرية الغربية وحركة الاصلاح البابوية وهى الحركات الاصلاحية وثيقة الصلة بموضوع الدراسة بشكل مباشر. وبالرغم من ذلك فإن هذه الحركات الاصلاحية بشكل عام قد هيأت المناخ الملائم لنضج الايديولوجية الصليبية .

وكانت ممارسة الحج على نطاق واسع تعبيراً مهمًا عن حالة التجديد والإحياء الكنسى والروحى الاصلاحى الذى قامت به الأديرة الكلونية . وكان الحج يعتبر بمثابة عمل تكفيرى يعقب حالة شعور بالندم والأسف لارتكاب الذنوب والآثام ، وأصبح الحج ممارسة يحظى صاحبها الاحترام والتقدير الاجتماعى ووسيلة لإظهار التدين وتوبة للخاطئين . وظهرت بدعة جديدة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ومن أبرز سمات هذه البدعة هو اعتبار الحج إلى المزارات المقدسة بمثابة وسيلة للتكفير الجماعى. فقد انقضى الألف عام الأولى من تاريخ المسيحية ، وتوقع كثير من الناس أن عام ١٠٠٠م هو الألف الأولى بعد صلب المسيح فى حين اعتقدآخرون أن عام ١٠٣٣ هو الألف الأولى بعد صلب المسيح وكان انقضاء عام ١٠٠٠م، أو عام ١٠٣٣ ينذر بقرب دخول العالم عصر جديد. وتوقع البعض بقرب يوم الدينونة والمجيىء الثانى للمسيح. ومرت السنون والأعوام دون تغير منظور ، ولكن هذه الفكرة العاطفية ظلت مترسبة فى الوجدان المسيحى فى أوربا. وشعر الناس فى أوربا شعوراً عميقًا بوطأة الذنوب والخطايا التى اقترفوها فى حياتهم الدنيوية. ويبدو أن الكوارث الطبيعية التى حلت بأوربا آنذاك كانت كثيرة ومتعددة (أو أن مؤرخى القرن الحادى عشر الميلادى كانوا يفضلون ذكر تفاصيل هذه الأوبئة والكوارث الطبيعية التى حلت بأوربا باسهاب شديد). وازداد شعور الناس بالضيق والضجر والحزن من جراء انتشار المجاعات والفيضانات والأوبئة ، وقد فسر الناس هذه الكوارث الطبيعية على أنها تذير بقرب يوم الدينونة وجمع الناس للحساب .
وكانت المجابهة الدرامية الكبيرة بين البابوية وبين الامبراطورية إبان فترة الصراع حول التقليد العلمانى بمثابة مكيدة ضد المسيح. فقد اعتزل كثير من الناس الحياة العامة وىمحوا وجوههم شطر الأديرة بحثًا عن خلاص أرواحهم ، وأذعن الآخرون لدعوة المبشرين العجيبة من أجل التوبة. بالرجوع إلى حياة الفقر الحوارى، وهى الحياة الزاهدة التى كان يحياها الحواريون

الأوائل. وفى ظل هذا الجو المحموم بالخوف من اقتراب يوم الدينونة بفعل الأفكار الألفية، أصبحت التوبة والتكفير تعبيراً عاماً عن مشاعر التدين. وتحول الحج إلى المزارات المقدسة من ممارسة للتدين الفردى إلى نوعٍ من العمل التكفيرى الجماعى. واحتشدت أعداد كبيرة من الناس من كل الطبقات ، من رجال الدين ومن العامة من أجل القيام برحلات الحج الجماعى، واتجه بعضهم صوب الأراضى المقدسة فى بلاد الشام. ولم تستطع هذه التطورات المختلفة الاندماج فى حركة كبيرة واسعة. واستطاعت احدى الأحداث السياسة * وكذلك عبقرية البابا من احضار هذه الجماعات الغفيرة معا إلى الأراضى المقدسة فى بلاد الشام وفلسطين . فقبيل بدء الحرب الصليبية بعشر سنوات، يمم الإمبراطور البيزنطى شطر الغرب الأوربى يطلب منه المساعدة، ونظراً للتهديدات المستمرة من جراء الغزوات السلجوقية للإمارات البيزنطية فى آسيا الصغرى ، قام الإمبراطور البيزنطى بالبحث عن المساعدة العسكرية عند روبرت كونت الفلاندرز . واستجابة لمطلب الامبراطور أرسل بعض الفرسان الأوربيين إلى القسطنطينية. ومن المحتمل أن هذه التجربة قد كتب لها النجاح ، وذلك لأنه فى عام ١٠٩٥ ، كرر الامبراطور البيزنطى نفس المطلب. وفى تلك الآونة أيضا أرسل الامبراطور البيزنطى سفراءه إلى المجمع الكنسى الذى كان يعقد برئاسة البابا فى بياكنزا . وشرح أعضاء السفارة البيزنطية مدى الخطر الذى تتعرض له المسيحية الشرقية ، والكارثة التى يمكن أن تحدث إذا سقطت الكنيسة الشرقية ومسيحيوها فى يد المسلمين إذا اجتاح المسلمون الامبراطورية البيزنطية وقهروها. وعلى الرغم من موضوعية هذا الكلام وهذا الادعاء ، فإن الموقف العسكرى البيزنطى فى ذلك الوقت لم يكن حرجًا بل كان مستقراً بصورة أفضل عن الوضع الذى كان عليه قبل جيل مضى- ومما يذكر أن تصميم السفراء البيزنطيين والحاحهم فى طلب المساعدة من الغرب الأوربى ومن البابوية هو الذى أوحى بالصورة القائمة لوضع الامبراطورية البيزنطية.

ورحب البابا اربان الثانى بمطلب الامبراطور البيزنطى واستجاب له. ولم يكن هناك ما يثير الشك حول مدى اهتمام البابا المخلص بالمسيحيين الشرقيين فى الشرق البيزنطى، بالرغم من أن البابوية كانت تسعى من وراء هذه الاستجابة تحقيق هدف شخص لها. فقد تسببت القطيعة

* المقصود بالحدث السياسى هو هزيمة الجيش البيزنطى أمام الجيش الإسلامى السلجوقى فى موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١ م . (المترجم) .

الكبرى عام ١٠٥٤ * فى احداث الانقسام بين الكنائس الشرقية والكنائس الغربية. وكانت ثمة اختلافات بسيطة بين الكنيستين فى المسائل المتعلقة بالعقيدة، وأيضا فى الطقوس والممارسات الدينية. وتمثلت المشكلة الكبرى فى الخلاف بين الكنيستين الشرقية والقريبة فى عدم اعتراف البطريرك البيزنطى فى القسطنطينية بسيادة البابوية وكنيسة روما اللاتينية . وانقطعت العلاقات بين روما وبين القسطنطينية منذ بابوية ليو التاسع والبطريرك البيزنطى ميخائيل كريولاريوس (١٠٥٤م) فقد رأى البابا اربان الثانى فى المطلب الامبراطورى فرصة عظيمة لتوحيد الكنيستين واعادة تأكيد سيادة بابوات روما. ولم تكن هذه فكرة جديدة. فقد اقترحها البابا جريجورى السابع قبل جيل مضى. ففى أحد الخطابات التى أرسلها البابا جريجورى السابع إلى الامبراطورى هنرى الرابع فى عام ١٠٧٤ يعلن تصميمه من أجل تنظيم واعداد جيش غربى أوربى يتحرك صوب القسطنطينية . وبالإضافة إلى ذلك، ، فإن البابا اعتزم قيادة هذا الجيش بنفسه والوصول به إلى كنيسة أيا صوفيا. وهكذا يمكن انقاذ بيزنطة من الخطر الإسلامى، وتندمل جراح القطيعة بين الكنيستين ، ويتم الاعتراف بالسلطة العليا للبابا على جميع العالم المسيحى. وهكذا فإن هذه الاستجابة لمطلب الامبراطور البيزنطى ستكون بمثابة انتصار عظيم يتردد صداه عاليا فى الغرب الأوربى. فقد كانت المهمة التقليدية للأباطرة الرومان -حماية المسيحية- وهى فكرة تطورت فى بلاط شارلمان وتوارثها خلفاؤه من الأباطرة، وسوف تضطلع البابوية بهذه المهمة . وتلك خطوة مهمة ومذهلة سوف تقلب ميزان القوى لصالح البابا فى صراعه مع السلطة العلمانية، وهو الصراع الذى عرف باسم الصراع حول التقليد العلمانى والذى نشب بين الدولة والكنيسة ، وساهم فى تمزيق أوربا وانقسامها**.

---

* قطيعة فوشيوس ١٠٥٤ : عرفت هذه الحادثة فى تاريخ الكنيسة العالمية المسيحية باسم الانشقاق الأعظم بين الكنيستين الكاثوليكية فى روما والارثوذكسية فى القسطنطينية فقد تم الانفصال نهائيا بين هاتين الكنيستين فى أعقاب زيارة مندوب البابا لكنيسة القسطنطينية فى عام ١٠٥٤ ورفض البطريريك البيزنطى لمطالب المندوب البابوى. وتركت هذه الحادثة نتائجها السلبية على الإمبراطورية البيزنطية داخليا وخارجيا. (المترجم) .

** الصراع حول التقليد العلمانى بين الدولة والكنيسة: وهو الصراع الذى نشب فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى، بين البابا جريجورى السابع (الشيطان المقدس) وبين أكبر عاهل أوربى وهو الامبراطور الألمانى هنرى الرابع، وكان البابا يهدف من هذا الصراع تأكيد زعامة البابوية على العالم الأوربى، وقد تعددت مراحل هذا الصراع وترك تأثيرات سلبية على الأوضاع الأوربية فى العصور الوسطى (المترجم) .

غادر البابا اربان الثانى ايطاليا إلى فرنسا وهو يحمل فى ذهنه بعض الأفكار. وواصل رحلته ببطء إلى الأقاليم الجنوبية، وهنا دعا إلى عقد مجمع كنسى فى كليرمون فى اقليم برجاندى عام ١٠٩٥م. وكانت المهمة الرئيسة لهذا المجمع الكنسى اصلاح الكنيسة الفرنسية، وحل المشكلة الشائكة المتعلقة بالملك الفرنسى فيليب الأول الذى تعرض لعقوبة الحرمان الكنسى لارتكابه جريمة الزنا مع احدى عشيقاته.

وواصل البابا رحلته عبر مناطق وأراض كانت على اتصال مباشر بعض الوقت بأسبانيا المسيحية . وفى تلك الآونة. تم اثارة الشعور بالخطر الاسلامى فى أسبانيا المسيحية وضرورة الاستعداد لحرب مقدسة ضد المسلمين . ووجدت حركة الاسترداد الأسبانية ضد المسلمين فى الأندلسى نصيراً لها فى فرنسا، وشارك الفرسان والنبلاء الفرنسيون من إقليم لانجدوك فى بعض الحملات العسكرية ضد المسلمين فى أسبانيا. ومن المحتمل أن البابا اربان الثانى كان يحمل أفكاراً محددة وهو فى طريقه إلى كليرمون لحضور المجمع ولاسيما بعد مقابلته للمبعوثين والسفراء البيزنطيين فى بياكنزا . وشهد المجمع بعض الأساقفة الفرنسيين وبعض النبلاء المحليين. ومنع الملك الفرنسى فيليب الأول من آل كابيه أساقفته من الحضور إلى مجمع كليرمون. وفى اليوم الأخير من انعقاد المجمع وهو يوم ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ أعلن البابا اربان الثانى الدعوة للحروب الصليبية ومن سخرية الأقدار التاريخية أن الخطاب الذى القاه البابا فى مجمع كليرمون لم يدون وقت القائه، الأمر الذى جعلنا نستقى نص هذا الخطاب من عدة روايات دونت فى فترة متأخرة من القائه ، ودونت بعض هذه الروايات فى أثناء أحداث الحرب الصليبية الأولى*. لقد وجه البابا دعوته إلى كل الفرسان الغربيين وخاصة الفرسان الفرنسيين للاشتراك فى حملة عسكرية تتجه صوب الشرق . وظل البابا يؤكد فى خطابه على مدى خطر المسلمين الذى بات يهدد المسيحيين الشرقيين. وناشد كل المقاتلين الأقوياء فى الغرب الأوربى لاسراع الخطى صوب الشرق لانقاذ إخوانهم فى الدين. ولكن البابا عند هذه النقطة بانقاذ المسيحيين الشرقيين ينكث بوعده الذى قطعه على نفسه بخصوص تلبية مطلب الامبراطور البيزنطى، فلم تعد القسطنطينية هى الهدف الرئيسى، بل كان الهدف الأسمى هو تحرير

---

* الرواية التى دونت فى أثناء الحملة الصليبية الأولى هى رواية المؤرخ اللاتينى فوشيه الشارترى الذى عاصر أحداث هذه الحملة (المترجم).

الأراضى المقدسة ، وتخليص القبر المقدس من نير المسلمين الهراطقة*. وأصبح هذا الهدف الرئيسى الجديد يمثل نقطة تحول مهمة فى تاريخ أوربا. ولم تجد الدعوة لمساعدة القسطنطينية أو المسيحيين الشرقيين آذانا صاغية فى الغرب الأوربى، ومن ثم لم تحظ هذه الدعوة بالاستجابة الضخمة التى ولدتها دعوة البابا فى مجمع كليرمون. وكان القليل من الذين حضروا المجمع يعرفون بعض الشىء عن الظروف التى تمر بها الامبراطورية البيزنطية، وأقل القليل من هؤلاء الحضور كانوا يهتمون بهذه الظروف . فى حين كانت أسماء مثل مدينة القدس والضريح المقدس تتردد صداها وتُمجد فى كل كنيسة صغيرة وكبيرة ودير فى الغرب الأوربى. وكانت كلمات مثل القدس والضريح المقدس تتردد فى كل صلاة يؤديها المسيحيون الأوربيون، وهكذا كانت هذه الأسماء واقعًا حيًا. فقد كان الأوربى الكاثوليكى لايعرف اسم الاقليم المجاور للإقليم الذى يقطنه، ولكنه كان يعرف مدنًا مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصرة ، والتى كانت تمثل جزءاً رئيسًا من عقيدته وتنشئته الدينية.

لقد كانت الاستجابة القوية لدعوة البابا التى أطلقها فى مجمع كليرمون أمراً غير متوقع وانهارت الحواجز العاطفية، وتدفق طوفان قوى من المشاعر الدينية الحماسية المتأججة لدى الجموع الأوربية ذوى الأرواح الظامئة إلى الخلاص . وبدأ المبشرون الجوالون الكنسيون وغير الكنسيين يطوفون القرى والمدن الأوربية والقلاع الاقطاعية يستحثون الأهالى من أجل المشاركة فى تحرير الأرض المقدسة فى فلسطين. ولم تقتصر دعوة الوعاظ الجوالين على تحرير الضريح المقدس الذى دنسه الحكام المسلمون (الكفرة) فحسب، بل تضمنت دعوتهم أيضا تحرير وفك أسر المسيح نفسه وانقاذه من يد المسلمين وإعادته إلى المجد.

ووصلت دعوة البابا اربان الثانى التى أطلقها فى مجمع كليرمون إلى الأديرة الصامتة والكنائس الكبرى الشهيرة. وإلى كبار السادة الاقطاعيين فى قلاعهم ، وكذلك إلى الجموع البائسة من الفلاحين . واستجاب عشرة آلاف محارب لدعوة البابا. واختلفت دوافع الذين استجابوا لدعوة البابا من شخص إلى شخص . ومن طبقة إلى طبقة . فقد رأت طبقة النبلاء المحاربة فى المشاركة فى الحرب الصليبية متنفسًا لإظهار قوتهم ومهارتهم العسكرية. ولم تكن

---

* ليس بالأمر الغريب أن يصف الصليبيون المسلمين بلفظ الكفار والهراطقة، وهذا شىء عادى فى ضوء العداء والصراع العسكرى بينهما فى تلك الفترة (المترجم) .

الحرب ضد الكفار عملاً كريمًا وبارزا فقط، بل كانت هذه الحرب يباركها الرب ويأمر بها. وشعر رجال الدين من طبقة النبلاء أن الاشتراك فى الحرب الصليبية هو الطريق إلى الخلاص . ووعد البابا اربان الثانى كل المشاركين فى الحرب الصليبية والذين يحملون الصليب بغفران جزئى لذنوبهم الدنيوية. وأصبح الصليب -أداة تعذيب وآلام المسيح- رمزاً وشعاراً لجنود المسيح، الذين عقدوا العزم على تحرير قبر المخلّص ، وتحرير الأرض التى ستشهد الظهور الثانى للمسيح وكان الزحف صوب مدينة القدس يُعد حجا مسلحًا ، وعملا تكفيريًا تطهريًا لجميع المشاركين فى هذا الزحف سواء الذين واصلوا رحلتهم ووصلوا إلى هذا المدينة، أو الذين نالوا مجد الاستشهاد على الطريق المقدس أثناء مرحلة الذهاب إلى القدس . وكانت الحروب الصليبية بالنسبة للطبقات المحبطة البائسة بمثابة طريق الأمل لمستقبل أفضل للحياة والتخلص من اسار الفقر. وكان النبلاء يحدوهم الأمل من وراء الاشتراك فى الحرب الصليبية والاستجابة لدعوة البابا فى تأسيس إمارات لهم خارج أوربا ، والحصول على القلاع والضياع والغنائم والأسلاب من الفلاحين. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الفلاحين الذين لحقوا بالجيوش الصليبية كانوا يطمحون من وراء ذلك التخلص من نير العبودية والقنية، والحصول على الحرية لكى يصبحوا أحراراً .

ولم تقتصر الحماسة الدينية على الطبقات العليا فى المجتمع الأوربى، ولكن الحقيقة أن عدداً كبيراً من المسيحيين الغربيين قد أظهروا نوبة مستعرة من الحماس الدينى بلغت الذروة . وبعد عام من انعقاد مجمع كليرمون وقبل أن تتحرك الحملة الصليبية المنظمة، انطلقت جيوش الفلاحين غير المنظمة من كل أنحاء فرنسا، وتحركت صوب أودية نهرى الراين والدانوب. وأحيانا كانت بعض جموع الفلاحين تنضوى تحت لواء الفرسان المحليين، إذ كان الكثير من جماعات الفلاحين والجيوش الشعبية تنتخب سادتهم المباشرين لقيادتهم . واتبع أحد هذه الجيوش الشعبية بطة فى سيره صوب الأراضى المقدسة اعتقاداً فى أن هذه البطة تلهمها الروح القدسية، وكانت البطة رمزاً للسحر فى العصور الوسطى. وافتقرت هذه الحملة الشعبية للقيادة المنظمة ، واعتقدت الجموع الشعبية فى عدم جدوى القيادة المنظمة. ولأن الرب يريد هذه الحرب (تحت قيادة الرب) ، تحركت جموع الدهماء بنسائهم وأطفالهم يركبون عرباتهم الثقيلة ويحملون معهم أمتعتهم الهزيلة . وبسرعة تحركت هذه الجموع الشعبية واجتازت الأقاليم المجاورة المعروفة، وكذلك الأقاليم التى لم يعرفوها من قبل ، وعندما كانوا يقتربون من كل مدينة جديدة يسألون هل هذه هى مدينة بيت المقدس السماوية.

لقد ازدهرت المسيحية فى العصر القديم، على الرغم من انتشار الفقر المسيحى الحوارى فى المجتمع المسيحى الجديد فى مدينة بيت المقدس . وتأثر المجتمع المسيحى فى الفترة الباكرة بتعاليم المبشرين الصوفيين الذين كانوا يتوقون إلى إنقاذ الأرواح واصلاح العالم، وكان هؤلاء المبشرون يشبهون الحواريين الذين هجروا الحياة الدنيا لكى يعيشوا فى فقر تمثلاً بحياة المسيح، وأكد الحواريون أن الفقير فقط هو الذى سيدخل مملكة الرب. وكان الفقر فقط هو الذى يحظى بقبول ورضا هذا المجتمع، إذ كان كل مسيحى يذكر فى صلاته مقولة «يارب دع مملكتك تأتى».

كانت الدوافع التى حركت الجموع الصليبية للمشاركة فى الحملة الشعبية خليطا من حب المغامرة والجشع الدنيوى ، والتقوى، وحب النساء والرغبة الجنسية. وعندما احتشدت الجموع الأولى من العامة وبدأت فى تحركها صوب الشرق، تزايدت هذه الجموع من مجموعات صغيرة إلى فيالق كبيرة العدد، ويمكن أن نعزو ذلك إلى الظروف الاجتماعية المحبطة السيئة التى كان يعيشها أفراد هذه الطبقة الشعبية ، وأيضا بسبب حالة التعصب الدينى المستعر التى كانت تحكم طبقات العامة فى المجتمع الاقطاعى الأورروبى آنئذ. وكما ذكرنا آنفا كان الفلاحون هم الذين تحركوا أولاً. وتحركت جموع الحملة الشعبية عبر الراين وعلى امتداد نهر الدانوب وفى أثناء الزحف ارتكب الصليبيون أبشع أنواع الجرائم والاضطهادات ضد اليهود من مذابح مروعة لم يشهدها التاريخ الأوربى من قبل ، وليس لها نظير فى وقتنا الحاضر. فقد أبيدت وبقسوة الجماعات اليهودية التى كانت تسكن أراضى الراين منذ زمن الرومان، وقبل أن تستقر القبائل الجرمانية فى هذه المناطق . وحاول الأساقفة فى كل الأقاليم الأوربية حماية الجماعات اليهودية من موجة الاعتداءات والاضطهادات الصليبية* وذلك من خلال إدانة هذه الممارسات الصليبية تارة، وتارة أخرى من خلال الرشوة التى كان يقدمها اليهود لرجال الدين اللاتين، ومع بعض الاستثناءات ، لم تكن هذه الوسيلة ذات جدوى لانحسار موجة الاضطهادات الصليبية ضد

---

* الاضطهادات الصليبية لليهود : لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع انظر د. قاسم عبده قاسم الاضطهادات يشير المؤلف إلى الاضطهاد النازى لليهود فى العصر الحديث واعدام اليهود حرقًا. وحركة معاداة السامية وقد أكدت بعض الأبحاث التاريخية الموضوعية زيف هذا التهام (المترجم) .

وللوقوف على تفاصيل أحداث الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا انظر : قاسم عبده قاسم : «الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا » ندوة التاريخ الإسلامى الوسيط، ١٩٨٣ ، ص١٢٥ .

اليهود. وكانت الطريقة الوحيدة التى تكفل توفير الحماية لليهود هى اشتراك اليهود فى قتال المسلمين خارج أوربا، وعندئذ كان يتحتم على هذا المحارب ترك أملاكه ومنزله تحت حماية رجال الكنيسة، وأصبح أمام الجماعات اليهودية أحد الاختيارين إما الارتداد عن العقيدة اليهودية apostasy أو الموت. وتم تعميد بعض اليهود عنوة ؛ وتبل آخرون -تحت التهديد بالقتل- أن يرشوا بالماء المقدس ؛ واختار البعض الاستشهاد ، يستمدون الإلهام من قصة حنا وأولادها السبعة المكابيون (Macc 7) أو استلهامًا من المقاومة البطولية الأخيرة للنبى اسرائيل ضد رومى Rome عند ماسادا Masada ، وشهد عصرنا الحالى أيضا اعدام ملايين من اليهود حرقًا ، وتذكر ذلك الحوليات العبرية المعاصرة* . واستكمالاً لقس الاستشهاد والتضحية الذى مارسه بعض اليهود، قام الآباء بقتل زوجاتهم وأطفالهم وقتل أنفسهم زيضا فى شكل طقس قربان للهروب من تدنيس وفساد سادتهم المسيحيين . لقد كانت المذبحة الضخمة التى تعرض لها اليهود والتى دمرت مراكز التعليم وكل الجماعات اليهودية علامة لبداية ألف عام من المأساة التى ألمت باليهود فى الفترة التالية.

لقد كانت المذابح التى تعرض اليهود على يد الصليبيين بمثابة دينونة عام ١٠٩٦، كما أن هذه الحادثة عرفت فى المصادر التاريخية اليهودية بالحادثة المروعة التى لم تنساها الأمة اليهودية، وهى الجريمة التى ارتكبها أولئك الذين ادعوا ملكية الأراضى المقدسة وفقًا لما ذكرته الكتب المقدسة اليهودية ، وهم الصليبيون الذين ذهبوا إلى هناك لتحرير ضريح الرب المحب وارساء دعائم السلام الشامل.

وانتهت الحملة الشعبية بكارثة. فقد عانت هذه الجموع الصليبية الشعبية من نقص المؤن عندما وصلت إلى بلاد بوهيميا (براغ) وبدأت هذه الجموع فى أعمال السلب والنهب. وقتل عدد كبير منهم على يد المقاومة المحلية فى بلاد هنغاريا (المجر) وفى مناطق البلقان البيزنطية. وأخيراً وصلت أعداد صغيرة من أفراد الحملة الشعبية إلى شواطىء البوسفور . ويعتبر مؤرخ بوهيميا المعاصر للأحداث كوزماس من براغ Cosmas of Praque الابادة والفناء التى تعرض لها أفراد الحملة الشعبية هى من قبيل عدالة الرب . وعقاب إلهى لما اقترفته هذه الجموع من مذابح ضد اليهود.

---

* يقصد المؤلف هنا ما تعرض له اليهود من اضطهاد على يد النازية ، ويبالغ فى وصف هذه الاضطهادات النازية ضد اليهود ، وقد أثبتت بعض الدراسات التاريخية زيف هذا الاتهام اليهودى للنازية . (المترجم).

وفى تلك الأثناء احتشدت أربعة جيوش كبيرة فى فرنسا: كان الجيش الأول يضم النورمان والأنجلو تورمان بقيادة الدوق روبرت النورماندى ، والفلمنكيين بقيادة روبرت الفلاندرز وستيفن كونت بلوا؛ والجيش الثالث كان يضم فرسانا من شمال وغرب فرنسا بقيادة جودفرى البويونى، وكان الجيش الرابع يضم البروفنسال تحت قيادة ريموند السانجيلى كونت تولوز، وكان الجيش النورمانى من ايطاليا بقيادة بوهمند وتنكرد وكان المندوب البابوى أديمار أسقف لى بوى يمارس نوعًا من القيادة العليا. وسلك جيش جودفرى البويونى نفس الطريق البرى الذى سلكته من قبل جيوش الحملة الشعبية؛ وسلك جيش ريموند السانجيلى طريق الليريا أو عبر الأدرياتيك إلى البلقان. وبحلول ربيع عام ١٠٩٧ وصل هذان الجيشان إلى مدينة القسطنطينية.

لم يطمئن البيزنطيون لوصول الجيوش الصليبية التى جاءت لمساعدتهم . ففى بياكنزا كان السفراء البيزنطيون يطلبون من البابا إمداد بيزنطة بفرسان محاربين أوربيين بشكل مؤقت . وهكذا قدر للإمبراطورية البيزنطية أن تستقبل جيشًا ضخمًا قام بسلب ونهب الأقاليم التى مر بها وهو فى طريقة إلى القسطنطينية ، ويحرق المنازل والأحياء فى المدن، ويظهر غطرسة وكبرياء ويتوق إلى جمع الغنائم والأسلاب بغير حق . ولم يغفل البيزنطيون حقيقة أن من بين الجيوش الصليبية التى وصلت إلى القسطنطينية كان جيش النورمان الإيطالى الذى حاول منذ عدة سنوات مضت الاعتداء على الأقاليم البيزنطية فى مطنقة البلقان.

وعندما وصلت هذه الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية بدأت سلسلة من المفاوضات بين الامبراطور البيزنطى وبين قادة الجيوش الصليبية . وإذا كانت القيادة لهذه الجيوش لم تكن من نصيب الإمبراطور، فإنه على الأقل أراد التأكد من أن هذه الجيوش المحاربة سوف تخوض القتال من أجل تحقيق منافع ومكاسب خاصة بهم. وكانت الظروف الراهنة تعضد رغبة الامبراطور وذلك من خلال حاجة الجيوش الصليبية إلى أدلاء ومرشدين ومؤن لعبور آسيا الصغرى- وهو الاقليم الذى كان تابعًا للسيادة البيزنطية منذ جيل مضى، والآن أصبح هذا الاقليم خاضعا للسيادة السلجوقية- ومن آسيا الصغرى تتحرك الجيوش الصليبية إلى بلاد الشام والأراضى المقدسة.

وبعد مفاوضات طويلة ومتعددة، وعد قادة الجيوش الصليبية بتأدية قسم الولاء والاخلاص فقد أدى بعض القادة الصليبيين قسم الولاء الاقطاعى للامبراطور البيزنطى ، وأدى البعض الآخر يمين التبعية الاقطاعية. وهكذا تأكدت الادعاءات البيزنطية فى ملكية الأراضى التى

سيتم احتلالها على يد الجيوش الصليبية فى المستقبل. وتعهد الإمبراطور بتزويد الجيوش الصليبية بالمرشدين والمؤن. ولم يف أى جانب بوعده ، وسادت روح الشك وعدم الثقة بين الطرفين البيزنطى والصليبى. وفى ظل هذه الظروف المشئومة عبرت القوات الصليبية مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى . وعندئذ تنفس الامبراطور البيزنطى الصعداء وأخيراً تقابل الصليبيون وجها لوجه مع الأتراك السلاجقة . وفى احدى المعارك البارزة وهى معركة ضوريليوم (اسكى شهر) الآن فى يولية ١٠٩٧م ألحق الجيش الصليبى بالسلاجقة هزيمة منكرة وخارت قوتهم وأصبحت الأراضى التى كان يحتلها السلاجقة من قبل فى آسيا الصغرى فريسة سهلة وغنيمة يسيرة للصليبيين .

وشهد الزحف الصليبى الطويل خلال قفار وصحارى آسيا الصغرى سقوط الكثير من القتلى من صفوة المقاتلين الصليبيين بالإضافة إلى الأهوال والمعاناة الرهيبة التى تعرض لها الجيش الصليبى. وبعد عبور جبال طوروس انقسم الجيش الصليبى ووصل جيش ريموند السانجيلى إلى قليقية. وتحرك جيش بلدوين البويونى بسرعة صوب الشرق إلى الفرات –حيث طلب الأرمن المسيحيون المقيمون داخل وخارج الرها العون والمساعدة من جيش بلدوين– وتحركت أعداد كبيرة من الجيش الصليبى جهة الجنوب بمحاذاة الساحل الشامى.

وعندما انتشرت أنباء الزحف الصليبى أغلقت المدن الساحلية فى بلاد الشام بواباتها ، ولكن الحملة الصليبية لم تلق مقاومة قوية حتى وصلت إلى مدينة أنطاكية . وبعد فترة الحصار الطويل والمضنى لمدينة أنطاكية تم احتلالها فى يونية عام ١٠٩٨م بسبب خيانة أحد قادة حاميتها. وكان هذا الاحتلال الصليبى لأنطاكية بمثابة معجزة لأن جيشاً سلجوقياً كبيراً كان قد تحرك صوب أنطاكية لانقاذها بعد أيام قليلة من سقوطها. وما فتىء الصليبيون الذين كانوا يحاصرون أنطاكية بالأمس أن وجدوا أنفسهم محاصرين فى المدينة التى احتلوها . فقد نفذت المؤن والطعام أثناء فترة الحصار السابقة، وانتشرت المجاعة والأمراض بين صفوة الجيش الصليبى خلال تواجدهم فى أنطاكية . وبات موقف الصليبيين حرجًا ، وحفر الصليبيون قبورهم بأيديهم فى أنطاكية لتعرضهم للهلاك والابادة وفى أثناء لحظة اليأس العام الذى خيم على الصليبيين المحاصرين فى أنطاكية ظهرت معجزة اكتشاف الحربة المقدسة ، التى يرجع تاريخها إلى ألف عام قبل الحروب الصليبية ، والتى يدعى أنها اخترقت جسد المسيح أثناء الصلب، وكان اكتشاف هذه الحربة بمثابة معجزة . وساهمت فكرة اكتشاف الحربة المقدسة فى رفع معنويات المقاتلين الصليبيين وشحذ هممهم، واحتشدت القوات الصليبية واستطاعت الحاق

الهزيمة بالقوات الإسلامية السلجوقية التى جاءت لانقاذ أنطاكية . وعندئذ انتهى الحصار السلجوقى، وسقطت أنطاكية فى يد الصليبيين وبات الطريق ممهداً للزحف صوب القدس.

وعند هذه المرحلة، أصبح كل الذين يكتمون الطموح والغيرة الدينية من الصليبيين يمثلون تهديداً يعادل الخطر الإسلامى . ارتكب أفراد الجيش الصليبى الكثير من الأفعال الشائنة التى تعبر عن مظاهر الافلاس الايدولوجى والفساد الأخلاقى. وترك القادة الصليبيون مدينة أنطاكية من أجل غزو الأقاليم الإسلامية فى بلاد الشام ، وحاول كل قائد الحصول على منطقة نفوذ له خارج أنطاكية. ونجح بعض هؤلاء القادة فى تحقيق هذا المأرب فى حين أصيب الكثير منهم بالاحباط بسبب تعنت الصديق أو مقاومة العدو. ومع هذا كانت الجموع الصليبية المحاربة تتلكأ وتطيل المناقشة بشأن الزحف إلى الأراضى المقدسة وبلاد الشام. فقد ظهرت الأرض المقدسة على ساحل نهر العاصى (الأورنت) وليست فى جبال يهودا (القدس) . وهى الجبال التى شهدت الرؤى المقدسة والتى توحى بالأمل من أجل تشييد مملكة جديدة للرب. وتخلى القادة الصليبيون عن المثل والأفكار الصليبية وتجلت الأهداف والرغبات الدنيوية الأساسية خلال مسيرتهم، وأصبح لها القدح المعلى فى تاريخ المسيرة الصليبية. وبسبب هذا الموقف المتخاذل للقادة الصليبيين الذين تقاعسوا عن المسير صوب الأراضى المقدسة ظهر رد الفعل من جانب صغار المحاربين ومن الفلاحين الفقراء الذين كانوا ضمن الجموع الصليبية المحاربة والتى كانت أعدادهم كبيرة فى الجيش البروفنسال . وتطور الأمر إلى حدوث تذمر وثورة شعبية قام بها هؤلاء المتحمسون لاكمال المسيرة إلى القدس وأصبحت هذه الحركة تهدد القادة الصليبيين وفى الحال ضغط المتزمرون على قادتهم من أجل مغادرة انطاكية ومواصلة الزحف صوب مدينة القدسى، وهددوا بتدمير أسوار أنطاكية واشعال النار فيها إذا لم يذعن قادتهم لمطلبهم هذا. وتعتبر هذه الحادثة بمثابة صوت جديد للحركة الصليبية، هذا الصوت الذى أحدث الارتباك والتشوش فى عقول الكثيرين من الصليبيين ، وأصبح من الصعب على هؤلاء التميز بين مدينة بيت المقدس السماوية وبين القدس الأرضية أى أنهم خلطوا بين المدينتين . وكان هؤلاء الأشرار يقودون مجموعة من المتعصبين عرفوا باسم «طافور»، هذه المجموعة التى كانت تحارب مترجلة دون استخدام الترس أو أى من أدوات الحماية اعتقاداً منهم أن العناية الإلهية هى التى ستحفظ لهم حياتهم وتقيهم من الردى. ولم تقتصر الأفعال الشائنة لأفراد هذه المجموعة الصليبية المتعصبة على قتل المسلمين بقسوة فحسب، بل أيضا كانوا يأكلون لحوم القتلى من المسلمين . واستطاع هذا العنصر الشعبى من المتعصبين اضرام نار الحماسة الصليبية.

لقد كانت هذه التهديدات والانذرات التى أطلقها صغار المحاربين والمجموعات الصليبية الشعبية المتأججة بنار التعصب المقيت السبب فى استجابة القادة الصليبيين لمطالبهم فاندفع الجيش الصليبى جهة الجنوب، وتوقف فقط عند طرابلس ولم يكن من اليسير احتلال المدن اللبنانية. ومن هذه المناطق واصلت الجيوش الصليبية زحفها صوب مدينة القدس. وابتعدت الجيوش الصليبية عن المدن الساحلية اللبنانية والفلسطينية الواقعة تحت السيادة المصرية الفاطمية، وسارت هذه الجيوش على الطريق البرى بين قيسارية ويافا، وتوقفت عند رام الله، التى هجرها سكانها المسلمون ، وفى منتصف شهر يونية عام ١٠٩٩ م عبر الصليبيون الجبال، وعندئذ صافحت أعينهم أسوار مدينة القدس.

الفصل الثالث

الغزو الصليبى وتأسيس المملكة اللاتينية

والواقع أنه قبل أن يهاجم الصليبيون أسوار مدينة بيت المقدس غداة الحملة الصليبية الأولى كانت قد تشكلت خريطة سياسية جديدة لمنطقة الشرق العربى. فقد استطاع الزحف الصليبى المظفر أن يطوى أمامه بعض أقاليم اسيا الصغرى وأن يدمر قوة الأتراك السلاجقة التى كانت تهدد باستمرار مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية . وبعد انتصارات الصليبيين أصبحت الامبراطورية البيزنطية قادرة على استرداد أملاكها وأقاليمها التى فقدتها من قبل واستطاعت كذلك توسيع حدودها ومناطق نفوذها إلى ساحل بحر ايجه وإلى حدود جبال طوروس .

لقد كانت الجماعات الأرمينية المسيحية التى تعيش عند جبال طوروس فى مأمن من الخطر الإسلامى، وكانت هذه الجماعات الأرمينية تتوق إلى تثبيت حدود مملكتهم المرتقبة وهى مملكة أرمينية الصغرى .

واستطاع الصليبيون تأسيس امارة صليبية فى بلاد الشام وهى إمارة أنطاكية فيما وراء الحاجز الجبلى، وإلى الشرق من هذه الامارة، استطاع بلدوين الشرى أصبح فيما بعد ملك بيت المقدس الصليبى تأسيس إمارة الرها فى منطقة الفرات والتى كانت خاضعة للحكم الأرمنى.

وفى أقصى الجنوب، وعلى ساحل لبنان، أسس الجيش الصليبى رأس جسر ليكون نقطة انطلاق لاحتلال طرابلس فى المستقبل . وأخيرا ، وفى الخامس عشر من شهر يولية عام ١٠٩٩م وبعد حصار دام خمسة أسابيع، استطاع الصليبيون احتلال مدينة القدس من حاميتها المصرية. وأعقب هذا الغزو استباحة مدينة القدس مدة ثلاثة أيام، أعمل الصليبيون خلالها سيف القتل والذبح للمدافعين عن هذه المدينة من المسلمين واليهود*، وقتل الجيش الصليبى ما

---

* يذكر المؤلف أن اليهود قد شاركوا فى الدفاع عن مدينة القدس ضد الغزو الصليبى، وهذا يجافى الواقع التاريخى، فلم يحدث أن شارك أهل الذمة فى الجيش الإسلامى، والمؤلف هنا يخلق دوراً لليهود فى الصراع الإسلامى الصليبى . (المترجم) .

يقرب من عشرين أو ثلاثين ألفا من سكان المدينة، وهكذا ارتكب جيش الرب أبشع مذبحة فى المدينة المقدسة. وبعد هذه المذابح المروعة لسكان القدس، ذهب الصليبيون الملطخة أيديهم بدم الضحايا إلى الضريح المقدس يؤدون صلاة الشكر، وظلت جثث القتلى ملقاة فى شوارع القدس مدة ثلاثة أيام تفوح منها الرائحة الكريهة بسبب تعفن هذه الجثث الآدمية، وأضرم الصليبيون النار فى المسجد والمعابد اليهودية، والمنازل الموجودة فى بيت المقدس، وأتت النيران على كل هذا وأحرقته .

لقد كان احتلال مدينة القدس نهاية وخاتمة لملحمة الحملة الصليبية الأولى التى ظلت ثلاث سنوات. وبلغ الجيش الصليبى المنتصر هدفه المعلن: وهو تحرير القبر المقدس من يد المسلمين. وأصبح للصليبيين عاصمة، وتأسست المملكة اللاتينية فى بيت المقدس. وكان المسلمون يحيطون بالمملكة الصليبية، إذ أن مصير هذه المملكة الصليبية الجديدة كان ما زال يكتنفه حالة عدم الاستقرار . وكان بمقدور أى قوة عسكرية محتشدة ومتحدة أن أن تضع نهاية لهذا الاستيطان اللاتينى المتقلقل غير المستقر فى منطقة الشرق العربى.

وعلى أية حال ، فإن المسلمين فى هذه اللحظة العصيبة كانو عاجزين عن تنسيق جهودهم وتوحيد كلمتهم. فقد كان التشرذم السياسى والصراع الشديد بين الحكام المسلمين فى كل من دمشق والقاهرة هو السبب فى تعطيل وشل حركة أى هجوم اسلامى فعال وقوى على المستوطنات الصليبية ، كما أن ايران، مركز القوة السلجوقية كانت عاجزة أيضا لفرض سيطرتها الفعالة والقوية على الامارات السلجوقية التابعة لها فى بلاد الشام.

واستفاد الصليبيون من حالة التشرذم السياسى والشلل التام الذى أصاب القوة الإسلامية الذى أعقب صدمة الغزو فى تحقيق النجاح فى اضافة مملكة قوية تمامًا إلى عاصمتها فى مدينة القدس فى أقل من عشر سنوات. ولم تستطع مدينة بيت المقدس الواقعة فى قلب جبال يهودا أن تتوقع مساعدة من الحصون والامارات الصليبية الموجودة فى الشمال ، والتى تبعد عنها بمئات الأميال . فالمستعمرات الصليبية الجديدة والناشئة فى أنطاكية وفى الرها كانت مشغولة بأمر الدفاع عن نفسها وعن وجودها ، ولم تستطع توفير الرجال أو السلاح للمملكة اللاتينية فى بيت المقدس. وبات بقاء مملكة بيت المقدس اللاتينية يعتمد على احتلال المدن الساحلية والموانى المهمة على البحر المتوسط وعلى اقامة خط اتصال مباشر مع أوربا ومع الأساطيل المسيحية .

وفى الطريق من بيت المقدس، تحركت الجيوش الصليبية براً من مدينة قيسارية نحو رام الله. وعندما ظهر الجيش الصليبى، أصيب المسلمون بالذعر وتركوا يافا والرملة، التى احتلها الصليبيون على الفور. وأقام الصليبيون حاميات عسكرية صغيرة فى هاتين المنطقتين الاستراتيجيتين لتأمين خطوط الاتصال بين القدس وبين الساحل . وظل الطريق إلى الرملة من يافا والذى يسير بمحاذاة سهل شارون الخصيب غير آمن لمدة تزيد عن عقد من الزمان، وكان الطريق المار بشعاب جبل يهودا والذى يبدأ من الرملة عبر جبل النبى صامؤيل (جبل السعادة للصليبيين) يصعب اجتيازه بدون حراسة مسلحة، على الرغم من عدم وجود حصون عسكرية إسلامية على امتداد هذا الطريق العام*. ولم يستطع التجار أو الحجاج اجتياز هذا الطريق من وإلى مدينة القدس بدون حراسة مسلحة. وفى فترة متأخرة أدرك المصريون والدماشقة أهمية الطريق الذى يربط بين مدينة القدس وبين يافا ، ولكن بعد فوات الأوان. وخلال الأعوام الستة التى تلت الغزو الصليبى (١٠٩٩-١١٠٥م) تعددت الهجمات الإسلامية السنوية ضد الرملة ومهاجمة المناطق الريفية المحيطة بها ولم تسفر هذه الهجمات عن أكثر من تخريب مدينة الرملة. وفى تلك الأثناء، استمر تدفق الامدادات العسكرية من أوربا إلى الصليبيين فى بلاد الشام. وكانت أعداد الصليبيين فى بلاد الشام أقل من المتوقع، غير أن هذا كان كافيًا للمحافظة على المنشآت الصليبية، ويكفل لها وجودها وعدم القضاء عليها .

ويبدو أن الساحل الفلسطينى والمدن الساحلية الواقعة عليه كانت محصنة عشية الحروب الصليبية. بالإضافة إلى بعض القلاع والحصون التى تحمى الطريق العام من دمشق إلى معان Moab وايدوميا Edumaea ، الذى يرتبط بطريق الحجاز إلى مكة وطريق الصحراء عبر سيناء. كانت المناطق الفلسطينية الداخلية جبلية وكثيرة التلال وتضم يهودا (القدس) والسامرة (نابلس) والجليل ، وكانت هذه المناطق خالية من القلاع والتحصينات العسكرية.

ومن المحقق أن المناطق الداخلية الفلسطينية كانت ضعيفة التحصين، ولذا اندفع تانكرد جهة الجنوب لكى يستولى على نابلس وبيسان ، حيث يتقاطع نهر الأردن مع وادى جزريل Jezrel . وفى أقصى الشمال، استولى تانكرد على طبرية الواقعة على شاطيء بحيرة طبرية. وهكذا وبضربة واحدة استطاع تانكرد أن يضم حيفا (وكان ميناءً صغيراً لبناء وتشييد السفن

---

* كان هذا الطريق يفتقر إلى الأمان بسبب قطاع الطرق واللصوص الذين انتشروا على امتداد هذا الطريق يسلبون القوافل التجارية، وقد ذكر الرحالة الأجانب الذين زاروا الأماكن المقدسة نشاط هؤلاء اللصوص (المترجم) .

الفاطمية) ، لكى يضمن لامارته الجديدة التى ظفر بها منفذاً بحريًا وتحطمت طموحات تانكرد على يد الملك الصليبى بلدوين الأول، الذى أقطع حيفا إلى أحد أفصاله الاقطاعيين فى عام ١١٠٠م. وعندما أحبطت محاولات تانكرد للتوسع جهة الشرق، أراد أن يحصل على تعويض مناسب من الأقاليم الشرقية. وحضر قائد نورمانى جسور من صقلية يقود عدداً من الفرسان يزيد عددهم عن الثمانية ، وعبر بهم نهر الأردن، واخترق السهل المرتفع الخصيب الواقع عند القمة الجنوبية لسلسلة جبال لبنان. ومن هذا الموقع شن القائد النورمانى سلسلة من حملات الغزو والنهب، وظفر بمنطقة دمشق الجنوبية الغنية بانتاج القمح والحنطة. فقد تم سلب ونهب المناطق الريفية عديمة التحصين والغنية بانتاج المحاصيل الزراعية والمراعى بشكل منتظم . وارتفعت أسعار المواد الغذائية فى مدينة دمشق وظهرت البوادر الأولى لندرة الطعام هناك. وفى ساحة القتال هذه، ظفر تانكرد بمكانة سياسية بارزة ، على الرغم من أنه لم يحقق نصراً عسكريًا. فقد أجبر حكام دمشق على الاعتراف بظهور قوة جديدة فى الشرق الأوسط وهى القوة التى عقدت العزم على الاستمرار والبقاء . وأجبر هؤلاء الحكام على التفاوض مع الفرنجة واقرار وجود حدود الكيان الصليبى القريب. هذا الاقرار الذى بمقتضاه تظل الجولان وهى الأراضى الواقعة شرق بحيرة طبرية والواقعة جنوب دمشق خاضعة لسيادة مشتركة بين المسلمين والصليبيين ولم يوافق الطرفان الإسلامى والصليبى على تحصين هذه المنطقة . ولكنهم وافقوا على اقتسام انتاجها ومواردها فيما بينهما وتكون القسمة كالآتى: ثلث الانتاج للحكام المسلمين فى دمشق والثلث الثانى للسلطات الصليبية، ويمنح الثلث الأخير للفلاحين المسلمين الذين يزرعون الأرض ويفلحونها ، على الرغم من أن الدماشقة قد خرقوا هذه الاتفاقية عدة مرات وهم الذين حاولوا احتلال معان Idumaeq Moab ايدوميا *، فإن الدماشقة أقروا معظم الاتفاقيات السابقة التى عقدوها مع الصليبيين. واكتشفت دمشق فى الأوقات التالية أن الجيران الصليبيين أكثر أمنًا وأخف وطأة من القوة الإسلامية التى حاولت انقاذ دمشق من الخطر الصليبى وضمها للسيادة الإسلامية الموحدة. وهكذا فإنه فى العقد الثانى من عمر المملكة الصليبية – وتحت الاكراه والتهديد– تم اقرار معاهدة الصلح بين الفرنجة وبين

---

* ايدوميا Edumeaq : ضاحية فى فلسطين تقع على الحدود بين منطقة يهودا (القدس) ومنطقة البتراء العربية (المترجم) .

حكام دمشق وأصبحت هذه الاتفاقية حجر الزاوية فى سياسة حكام دمشق. ومن الغريب أن هذه المعاهدة قد ظلت سارية المفعول ومعمولا بها حتى بعد سقوط دمشق فى قبضة نور الدين محمود، وأصبحت ضمن سياسة الوحدة العربية التى تبناها نور الدين محمود، وظلت هذه المعاهدة كذلك حتى حدوث هزيمة الصليبيين النكراء فى موقعة حطين الشهيرة فى عام ١١٨٧م. وكان تأسيس إمارة الجليل الصليبية نتيجة مغامرة فردية وبسرعة استطاع الملك بلدوين الأول ضم إمارة الجليل ، وذلك عندما غادر تاتنكرد الامارة فى طريقه إلى أنطاكية لكى يتولى حكم إمارة أنطاكية الصليبية التى أسسها بوهمند من قبل.

وفى تلك الأثناء ، قام الصليبيون بمحاولات متكررة للاستيلاء على المواقع المتقدمة ورؤس الجسور الممتدة على ساحل البحر المتوسط. وباعتلاء الملك الصليبى بلدوين الأول عرش المملكة اللاتينية فى عام ١١٠١م خضعت يافا وحيفا تحت السيادة الصليبية. وكان الساحل تتناثر على امتداده مدن بعضها لم يزد أهميتها عن كونها موانىء لصيد الأسماك مثل أرسوف ؛ والبعض الآخر كانت قد فقدت شهرتها ومجدها القديم مثل مدينة قيسارية ، فى حين كانت بعض المدن الساحلية مازالت تحتفظ بأهميتها الاستراتيجية مثل مدينتى صور وعكا بموانيها المصطنعة التى شيدت فى القرن التاسع الميلادى إبان العصر الطولونى . وكان الخليج الطبيعى لميناء عكا يوفر الأمان للسفن التى ترسو فيه، وهذا ما كانت تفتقر إليه الموانىء الأخرى الممتدة على ساحل البحر المتوسط. ويقع ميناء عكا عند نقطة تلاقى الطريق الساحلى الممتد من الجنوب إلى الشمال والطريق المستعرض الواصل إلى سهل جزريك وإلى الجليل وما وراء نهر الأردن.

وقد ثبت أن استيلاء الصليبيين على الساحل الشرقى للبحر المتوسط على يد الفرسان الراكبة والمشاة كان من المهام الصعبة الواقعة على عاتق المملكة اللاتينة، وقد كلفها ذلك من أمرها عُسراً . فمن الناحية العملية كان من المستحيل فرض الحصار على مثل هذه المدن الساحلية، التى كانت تصلها الامدادات والقوات العسكرية بحراً من مصر أو صور ، ولم تتوقف هذه المساعدات والامدادات لهذه المدن الساحلية برغم ظهور القوى البحرية الايطالية النشطة . وكان لبعض هذه القوى البحرية الايطالية مثل أمالفى صلاتها وعلاقاتها التجارية مع مناطق شرق البحر المتوسط منذ فترة طويلة مضت . وكان التجار الأمالفيون يرتادون ميناء الاسكندرية وأسواقها بشكل مستمر ، واستطاع هؤلاد التجار أيضا ارتياد أسواق مدينة

القدس ويؤسسوا لأنفسهم كنيسة ودار ضيافة فى مدينة القدس فى الربع الآخر من القرن الحادى عشر الميلادى. ولكن قوة أمالقى كانت قد أصابها الضعف والخور بشكل عملى منذ أن استولى عليها النورمان. وبدأت المدن الايطالية الفتية الأخرى مثل البندقية تحتل الريادة التجارية فى هذه المنطقة ، وحتى ذلك الوقت لم يكن للبندقية اتصالات تجارية مع منطقة الشرق العربى. فقد كانت البندقية نصف حليف ونصف منافس للقسطنطينية ، وكان التاجر البندقى الذى اعتاد الذهاب إلى أسواق الاسكندرية يتردد كثيراً قبل أن يرتدى لباس الحرب ضد المسلمين ، وهى الحرب التى ستلحق الضرر بالتجارة المربحة مع المسلمين فى منطقة الشرق العربى؛ ولكن جنوا وبيزا، أصحاب السفن التى كانت ترتاد شواطىء غرب ايطاليا وجنوب فرنسا أدارت وجهها بشغف صوب منطقة الشرق العربى بقصد الحصول على أسواق جديدة وموارد مالية وفيرة . وأحيانا كانت المشروعات التجارية للأفراد المتجهة صوب أسواق الشرق مزودة بسفن تجارية ؛ وكان الأسطول التجارى البندقى أكثر قوة وتجهيزا للمشاركة فى تجارة القوميون ، وخضع هذا الأسطول التجارى البندقى لقيادة أحد الحكام العلمانيين أو الكنسيين البنادقة . ومما يذكر أن العاطفة الدينية المسيحية ، وحب المغامرة والرغبة فى الثراء، كل هذه العوامل أدت إلى انطلاق الأساطيل الأوربية الضخمة بقواتها صوب الأراضى المقدسة. وقد أبرمت اتفاقيات بين المملكة اللاتينية وبين البيازنة والجنوية، وبمقتضى هذه التفاقيات حصل الأخيرون على الغنائم والأسلاب الوفيرة والامتيازات التجارية الواسعة فى كل المناطق التى سيتم احتلالها على يد الصليبيين. وبعد وقت قصير، أصبحت البندقية تمتلك أقوى أسطول وربطت قدرها ومصيرها بمصيرها الوجود الصليبى فى الامارات اللاتينية الجديدة. وكانت مدينة القديس مارك St. Mark (البندقية) أكثر حساسية تجاه الكسب المالى وأكثر حبًا للمارك الفضى.

وحشدت الأساطيل الايطالية قواتها وتعارضت فيما بينها لتقديم العون العسكرى والمالى للصليبيين، وتحول ميزان القوى لصالح الصليبيين. فلم تستطع الأساطيل المصرية التى حاربت الأوربيين بنجاح فى البحار المعروفة من قبل السيطرة على سواحل هذه البحار والموانىء القريبة منها بسهولة إبان فترة الصراع الإسلامى الصليبى. وكان الظهور المتقطع للأساطيل المصرية يدل دلالة واضحة على مدى الضعف والفتور الذى لحق بها، وانتهت المعارك البحرية القليلة بين الصليبيين وبين المسلمين بانسحاب الأسطول المصرى إلى قاعدته الرئيسة فى عسقلان. وكان

فشل الأسطول المصرى فى اعتراض السفن الصليبية بمثابة الاخفاق والاحباط العسكرى الرئيسى الذى أدى إلى فقدان المسلمين كل مدن الساحل الشرقى للبحر المتوسط سهّل اقامة الكيان الصليبى النهائى.

وتعددت رحلات الأساطيل الايطالية من أوربا إلى منطقة الشرق العربى كل عام، وذلك فى فترة ما بين عيد الفصح وأواخر الخريف (إذ كان الشتاء ما يزال يمثل خطرا على البحارة والسفن) ، وقامت الجيوش الصليبية بمهاجمة بعض الموانىء والمدن الساحلية الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط ، فى حين فرضت السفن الايطالية الحصار البحرى عليها. وبعد حصار عنيف وقوى دام أسابيع قليلة تم احتلال الصليبيين ميناء يافا. وقام الصليبيون بنهب وسلب هذه المدن وذبح أهلها. وفى العقد الثانى من عمر المملكة اللاتينية، كان ثمة تحول ملحوظ فى هذه السياسة التعسفية. ففى تلك الأثناء ، حاول أفراد طبقة النبلاء الصليبيين منع عملية ونهب وسلب وذبح أهالى المدن الجديدة التى يستولى عليها الصليبيون من يد المسلمين، وذلك بغية الحصول على هذه المدن فى شكل اقطاعات . ومن الواضح أن أفراد طبقة النبلاء الصليبيين كانوا يفضلون استلام هذه المدن بأسواقها التجارية وورشها الصناعية سليمة دون أن يلحقها الدمار، وليست كومات من الأطلال.

وحوالى عام ١١١٠م، سقطت كل المدن الساحلية فى يد الصليبيين باستثناء مدينتين. ففى الشمال ، ظلت مدينة صور بمينائها الجميل خارج نطاق السيطرة الصليبية حتى عام ١١٢٤م. وفى الجنوب ، حول المصريون مدينة عسقلان إلى حصن منيع ذلك الحصن الذى ظل يهدد الصليبيين فى مدينة القدس ، ورام الله ويافا. وظلت عسقلان تحت سيادة المسلمين حتى عام ١١٥٣م.

وفى منتصف عشرينيات القرن الثانى عشر الميلادى، جدد الصليبيون أهدافهم العسكرية وسياستهم الاستراتيجية التوسعية وتحقيق التوسع للحدود الطبيعية لمملكتهم . لم تكن الأنهار الفلسطينية تستخدم كحدود. وكان من اليسير العبور إلى الأردن عن طريق اجتياز المخاضات الضحلة لنهر الأردن، وكانت الشمس تسلط حرارتها على معظم المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من الأردن والخالية من الأنهار على الإطلاق . واتخذ الصليبيون من الصحراء حداً طبيعياً لمملكتهم. إلا أنه فى الشمال الغربى ، حيث الطريق بين البحر وبين جبال لبنان والذى كان يربط مملكة بيت المقدس اللاتينية بامارة طرابلس، وفى الغرب كان البحر يحمى المملكة،

وهكذا أقام الصليبيون حدود مملكتهم فى خط محصور بين مناطق آهلة بالسكان وصالحة للزراعة وبين الصحراء . وكما ذكرنا آنفا ، فإن الأراضى الواقعة بين بحيرة طبرية ودمشق، وهى الجولان التورانية، وباشان Bashan ظلت منطقة تخضع للإدارة المدنية وغير محصنة وتحت السيادة المشتركة للصليبيين والدماشقة وفى الجنوب، وجد الصليبيون حلفاءً لهم من بين السيادة المحليين (الموارنة- السوريان- الأرمن) ووضعوا أسس قيام امارة صليبية فى هذه المنطقة ، وهى امارة ما وراء نهر الاردن . وقام الصليبيون بتقوية وتحصين المواقع والأماكن القديمة وشيدوا تحصينات جديدة قرب الينابيع على امتداد الطريق المشهور، وخضعت كل المناطق الواقعة بين عَمَّان والعقبة تحت السيادة الصليبية. وأصبح أى تقارب بين دمشق ومصر مصدر خطر وازعاج للصليبيين ، الأمر الذى جعل الصليبيين يعملون على تعطيل هذا التقارب، حتى تنفصم عرى الاتصالات المباشرة بين مصر وبين بلاد الشام. وفى نفس الوقت ، أصبحت القلاع الصليبية الجديدة بمثابة الشرايين الرئيسة للمرور والتجارة فى العالم الإسلامى.

وتحركت حدود مناطق السيادة الصليبية فى بلاد الشام إلى مقربة من حافة الصحراء وذلك بعد أن أسس الصليبيون مناطق سيادة لهم فى منطقة ما وراء نهر الأردن، وقد أعاقت هذه الحدود حركة تمركز القوات المصرية والهجوم على المناطق الصليبية من جهة الشرق. وابتكر الصليبيون نظامًا متقنًا فى بناء القلاع والحاميات العسكرية فى هذه المناطق الشرقية ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك حماية الحد الشرقى لمناطق نفوذهم من أية محاولة لهجوم عدائى ضد الصليبيين من جهة الشرق. وبمرور الوقت، تم تأسيس نظام مناطق المقاسمات الغريب، وأصبحت مناطق المقاسمات هذه تخضع للسيادة المشتركة الصليبية والإسلامية فى الشرق. ولم تكن فى نية الصليبيين عرقلة وتعطيل حركة التجارة أو الحج. بل كانوا يكفلون الأمن لمرور القوافل التجارية الإسلامية إلى الأسواق الصليبية حتى يجنوا الأرباح من رسوم وجمارك هذا المرور ، وفى سبيل تحقيق ذلك أعد الصليبيون حاميات عسكرية مسلحة ترافق هذه القوافل التجارية وتمنع ابتزاز التجار وتحمى أموالهم.

ومما يذكر أن الحدود الشرقية للمناطق الصليبية فى بلاد الشام كانت تشهد استقراراً نسبيًا وذلك لأنه لم تكن هناك قوة عسكرية مناوئة تبدد هذا الاستقرار ، ولكن وضع الحدود الجنوبية لهذه المناطق كان مختلفًا تمامًا. فمنذ رحيل البيزنطيين زحفت الكثبان الرملية من المناطق التى

تقع جنوب يافا والتى تمتد على الساحل إلى المناطق الداخلية. ولذا لم يكن هناك مناطق للاستيطان ذات أهمية. وفى أقصى جنوب الساحل كانت ما تزال توجد المدن القديمة مثل عسقلان وغزة ورفح، واعتمد سكان هذه المدن فى حياتهم على شريط ضيق من الأرض الخصبة التى تقع خلف الكثبان الرملية، كما اعتمدوا على التجارة الساحلية ومن مرور القوافل التجارية التى كانت تتردد على الأسواق المصرية عبر الطريق الجنوبى الذى يمر بسيناء. وبعد شهر من احتلال الصليبيين مدينة القدس كاد الصليبيون يحتلون مدينة عسقلان فقد بث الجيش الصليبى الرعب فى أوصال أهل عسقلان ، واقتربت لحظة استسلام المدينة، وتردد أهل عسقلان فى تسليم مدينتهم، وازدادوا قوة واصراراً للدفاع عنها عندما علموا بأخبار المنازعات التى نشبت بين القادة الصليبيين. وهذا النزاع المتكرر بين قادة الصليبيين كلفهم خمسين عاما من العنت والنضال للاستيلاء على عسقلان. وظلت عسقلان مدة جيلين كاملين من الزمان تمثل شوكة فى جسد المملكة الصليبية . وأدرك المصريون الأهمية الحقيقية لمدينة عسقلان باعتبارها مدينة آهلة بالسكان ومحصنة جيداً عبر صحراء سيناء واستخدمها المصريون كنقطة انطلاق للهجوم ضد المملكة الصليبية. وكانت مدينة عسقلان بمثابة المستودع الرئيسى للمؤن والمعدات العسكرية الاسلامية، ومكان إقامة الحامية العسكرية، وكان ميناؤها مركزاً لانطلاق الأسطول المصرى، الأمر الذى جعلها منيعة ومحصنة أمام القوات الصليبية الهزيلة. وبذل المصريون قصارى جهدهم فى سبيل الاحتفاظ بعسقلان ، إذ كانوا يقومون بتعزيز وتقوية الحامية العسكرية فى عسقلان ثلاث أو أربع مرات فى العام. وعندما كان يولد أى طفل فى عسقلان كان يدرج اسمه فى جدول رواتب الجند حتى يضمن الاستقرار لسكان المدينة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مصر كانت ترسل الامدادات والمؤن كل يوم إلى عسقلان ، وذلك عندما كانت الغارات الصليبية تتسبب فى اتلاف الزراعة. وأخفقت معظم الهجمات الصليبية ضد عسقلان بالرغم من هجر المسلمين مدينتى غزة ورفح.

وضاق أهل عسقلان ذرعًا بسبب الوجود الإسلامى بها. فقد تعرضت حبرون وبيت لحم فى الجنوب لخطر الهجوم الإسلامى المستمر، وأصبح سهل الرملة الواقع على الطريق من القدس إلى يافا ميدانا سنويًا للحرب بين حامية عسقلان وبين الفرنج واستطاع المصريون خوض هذه المعارك بسهولة. وكانت هزيمة أحد الطرفين تعنى سقوط عدد كبيرً من القتلى بين صفوف الجيش. وفى كل معركة كان الصليبيون يشركون فيها معظم قواتهم البشرية المتاحة، ويتركون مدينة بيت

المقدس خالية من القوات المدافعة عنها يدير شئونها أحد رجال الدين الكاثوليك . وكانت أية هزيمة تلحق بالجيش الصليبى تهدد بقاء المملكة الصليبية.

وخلال فترة الصراع بين الصليبيين والمسلمين من أجل الاستيلاء على عسقلان طور الصليبيون استراتيجية جديدة. فقد تسببت الهجمات الصليبية المستمرة على عسقلان فى تدمير المناطق الزراعية الريفية المحيطة بها، بيد أن هذه الهجمات الصليبية المستمرة على عسقلان لم تستطع حث المدينة على الاستسلام، ولم تجعل الجيش المصرى يسرع الخطى لايقاف هذه الهجمات . وهكذا طور الصليبيون استراتيجية جديدة للهجوم على عسقلان ، وكانت هذه الاستراتيجية ذات فعالية. فقد كان هدفهم الأول من وراء هذه الاستراتيجية هو وقف غارات المسلمين الخطيرة على الأقاليم الصليبية. ولكى يحقق الصليبيون هذا الهدف قاموا بسد كل الطرق الرئيسية الممتدة من عسقلان إلى الشمال وإلى الشرق. وشيدوا مجموعة من القلاع تحيط بالمدينة. وفى عام ١١٣٠ . أقام الصليبيون قلعة صغيرة على موقع مدينة الثيروبوليس القديمة وهى مدينة بيت جبريل التلمودية (بيت جورفين)، والتى كانت تقع على الطريق الواصل من عسقلان إلى حبرون وبيت لحم. وعندئذ اتبع الصليبيون تحصينيات يابنه * Yabneh التلمودى الشهير، وعرف ابلين فى الفرنسية العامة عام ١١٤١ باسم يابنه التلمودى الذى حاز شهرة واسعة فى إقامة التحصينات. وكانت هذه القلاع والتحصينات الصليبية تقع على الطريق الذى يربط عسقلان بسهل الرملة ويافا. وفى العام التالى، واصل الصليبيون تشييد القلاع والحصون. ففى عام ١١٤٢م، شيدوا قلعة عند تل الصافى ، وعرفت هذه القلعة مرة أخرى باسم الحارس الأبيض. وكانت هذه القلعة تعترض الطريق الآخر المؤدى من عسقلان إلى معظم المناطق الشمالية . وساهمت المدن المحصنة مثل يافا ، واللد ، والرملة. وكذلك القلاع الصغيرة مثل قلعة ماين Maen (بيت داجان) ، وقلعة السهول (يازورYazour) الواقعة بين الرملة ويافا، فى حماية المملكة الصليبية من الجهة الجنوبية الغربية، وكانت هذه القلاع والمدن المحصنة بمثابة طوق حجرى محكم حول عسقلان.

---

* يابنه التلمودى Yabneh: منطقة فى فلسطين اشتهرت فى العصر القديم بتحصيناتها ويرى ياقوت الحموى أنها بليدة قرب الرملة، وبها قبر أبى هريرة (ياقوت ، معجم البلدان، جـ٤ ، ١٠٠٧) .

وعلى أية حال ، فإن تشييد القلاع المعزولة المتفرقة فى قطر مهجور قفر قد أحدث صعوبات ومشكلات تتعلق بنقل الجنود وتموينهم وإيوائهم . وتغلب الصليبيون على هذه المشاكل ببراعة وبمهارة، وذلك عن طريق استقرار الفلاحين الصليبيين فى قرى أقيمت بجوار هذه التحصينات والقلاع الجديدة. وزرع الفلاحون الصليبيون هذه الأراضى ، الأمر الذى كفل توفير المؤن الغذائية لأفراد حامية القلعة؛ وفى نفس الوقت كان الفلاحون الصليبيون يؤدون التزامات عسكرية ووعدتهم السلطات الصليبية باقتسام الغنائم التى سيتم الاستيلاء عليها من المسلمين . وهكذا أصبحت القرى المحصنة بمثابة وحدات مستقلة تتمتع بالاكتفاء الذاتى ، وتحمى حدود المملكة من الأخطار، كما كانت أيضًا تزود المملكة بقوات عسكرية جاهزة لغزو الأقطار الإسلامية.

ويبدو أن سقوط مدينة عسقلان أصبح مسألة وقت فقط، وقد حانت الفرصة فى أعقاب الصراع الداخلى فى مصر، الذى وقف حجر عثرة فى وجه كل محاولات انقاذ المدينة. وفرض الصليبيون الحصار على عسقلان مدة ثمانية أشهر وأخيراً سقطت المدينة فى عام ١١٥٣م مع مراعاة منح حاميتها وسكانها حرية مغادرة المدينة. وبسقوط عسقلان فقدت مصر مركزها المتقدم لمواجهة الصليبيين، وأصبحت الصحراء تفصل المملكة اللاتينية عن مصر. ومما يذكر أن الصليبيين فى فترة باكرة قاموا بتقوية وتعزيز التحصينات على الحدود التى تفصل المملكة اللاتينية عن مصر، وذلك بتشييد قلعة عام ١١٤٩م فى الموقع القديم لمدينة غزة المهجورة، حيث استقر بعض السكان الصليبيين داخل أسوار هذه المدينة الخالية . وبعد ذلك، وفى عام ١١٦٨م شيد الصليبيون قلعة على حافة الصحراء عند الداروم (دير البلح) . والتى أصبحت نقطة الحدود الجنوبية للمملكة اللاتينية . واستطاعت الحامية الصليبية والموظفون الصليبيون حراسة هذه المناطق الحدودية. وقامت السلطات الصليبية بتحصيل الرسوم الجمركية من القوافل التجارية التى تأتى من مصر إلى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام. وتعددت مغامرات الصليبيين داخل الصحراء ودمروا مدينة العريش الواقعة على الطريق إلى مصر. وشيدت هذه المدينة مرة ثانية ولكنها لم تحصن ، وظلت هذه المدينة مهجورة بلاسكان تفصل بين المسيحية وبين الإسلام. وكانت صحراء البيرة الواسعة أو منطقة الصحراء كما كان يسميها الصليبيون تفصل بين غزة وبين الكعبة فى بلاد الحجاز ، وظلت هذه المنطقة بمثابة الحارس القوى للحدود الجنوبية للملكة اللاتينية، مثلما كانت الصحراء الواقعة شرق طريق الحجاج فى منطقة ما وراء نهر الأردن.

ومن المحقق أن الغزو الصليبي لعسقلان والتوسع الصليبى لحدود المملكة اللاتينية الجنوبية الغربية وامتداد هذه الحدود حتى حافة الصحراء لم يميز فقط النهاية المحددة لفترة الغزو الصليبى، وإنما كان يمثل ذروة التوسع الاقليمى للمملكة اللاتينية على حساب المسلمين.

وانقضى خمسون عامًا ما بين سقوط مدينة القدس وسقوط عسقلان (١٠٩٩-١١٥٣) وكان سقوط عسقلان تحت السيادة الصليبية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى مهمًا فى حد ذاته، ولكنه حدث متأخراً . وترسخت أقدام الكيان الصليبى بقوة على تراب الشرق العربى فى بلاد الشام وفلسطين، وتحدد البناء الاجتماعى لهذا الكيان بشكل تام، وبلغت مملكتهم اللاتينية مرحلة النضج السياسى. وكان بلدوين الثالث، الملك الرابع للمملكة اللاتينية فى بيت المقدس (١١٤٣-١١٦٢) ينظر بعين الرضا إلى حدود مملكته التى تضم المنطقة الصالحة للزراعة فى الأراضى المقدسة. وكانت الصحراء الواقعة فيما وراء هذه الحدود تمثل صمام الأمان لكل هذه الحدود .

وعلى الجانب الآخر من الحاجز الصحراوى الذى يفصل بين الصليبيين وبين المسلمين وإبان الفترة التى وصلت المملكة الصليبية فيها إلى أوج توسعها وقوتها، تعالت أصوات جديدة فى المعسكر الإسلامى . وعلى الرغم من الاستقرار المؤقت الذى شهدته المملكة اللاتينية ، فإن العاصفة الإسلامية العاتية التى هبت فى الفترة الأخيرة من الوجود الصليبى كانت نذيراً بقرب سقوط المملكة اللاتينية .

لم يكن الهدف الرئيسى من هذه الدراسة هو سرد قصة الحروب الصليبية. وسوف توضح الصفحات التالية بايجاز الأحداث الرئيسة فى تاريخ المملكة الصليبية، وتكون هذه الأحداث بمثابة الاطار التاريخى للهدف الرئيسى لهذه الدراسة، وهو وصف وتحليل المجتمع الصليبى، ومؤسساته الاقتصادية والثقافية .

وبلغت المملكة الصليبية أوج توسعها الإقليمى خلال فترة حكم الملك الصليبى بلدوين الثالث . وفى نفس الوقت ، بدأت الوحدة الإسلامية تجمع قوتها العسكرية الواقعة فى الشمال وبدأت هذه القوة الإسلامية المتحدة تهدد حدود المملكة الصليبية وأخيرا استطاعت هذه القوة الإسلامية تهديد الوجود الصليبى فى منطقة الشرق.

وبعد مدة جيلين من الشجار والخصام ، اكتملت الوحدة الإسلامية تحت راية الجهاد، وأعلنت حركة الجهاد الحرب المقدسة ضد المسيحيين الهراطقة. فقد كانت هناك ثمة محاولات كثيرة فى

الفترة الباكرة لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية ، وشجع خلفاء بغداد بعض محاولات الوحدة الإسلامية ، بيد أن معظم هذه المحاولات لتوحيد الجبهة الإسلامية قام بها الأمراء السلاجقة فى إمارة الموصل. ولم تنجح هذه الجهود بشكل كامل فى توحيد الامارات الإسلامية السلجوقية فى العراق وفى بلاد الشام، وكانت هذه المحاولات ضعيفة وفاترة فى إحداث جبهة إسلامية متحدة عامة فى الشمال وانتهت كل محاولات الفاطميين فى مصر فى هذا الصدد بالاخفاق. وفى اطار التشرذم السياسى الإسلامى كان الكثير من الأمراء المسلمين يعتبرون الحملات العسكرية ضد الصليبيين والتى تشن تحت شعار الحرب المقدسة والجهاد الإسلامى أكثر ضرراً وخطراً على استقلالهم الذاتى بغض النظر عن كونها محاولة لتدمير الوجود الصليبى والقضاء عليه.

لقد تعطل استخدام مبدأ الجهاد الإسلامى بشكل مؤقت لعدة أجيال قبل أحداث الحملة الصليبية الأولى، وكان احياء فكرة الجهاد الإسلامى يتطلب الاحياء الدينى والفكرى والاعداد الروحى لدى المسلمين حتى تكون هذه الفكرة أكثر تأثيرا وفعالية. ووضع عماد الدين زنكى أمير الموصل اللبنات الأولى لحركة الجهاد الإسلامى وتوحيد الجبهة الإسلامية بيد أن ابنه وخليفته نور الدين محمود هو فقط الذى جنى القطوف الدانية لهذا الاحياء.

واغتيل عماد الدين زنكى فى عام ١١٤٦م بعد أن نجح فى بسط سيرته على بعض إمارات أعالى العراق بالقوة تارةً، أو بالخداع أو الاقناع تارة أخرى، وعندئذ انتقل إلى الامارات التى توجد فى النجد السورى التى تواجه الامارات الصليبية فى الشمال. وفتحت مدن حلب وحمص، وحماه أبوابها أمام قوة الزنكيين وبعد سلسلة من الانتصارات أحرزها الزنكيون اندفع الصليبيون إلى الضفة الغربية لنهر الأورنت (العاصى) . ومن الآن فصاعداً، أصبحت الموصل وحلب مركزين مهمين للنضال والمقاومة ضد الوجود الصليبى. ولم تنضوى كل المناطق والأقاليم الإسلامية فى بلاد الشام تحت لواء الزنكيين. فقد قاوم حكام دمشق انتصارات وتقدم عماد الزنكى . وفضل حكام دمشق التحالف مع الصليبيين حرصًا على استقلالهم ولم يفضلوا التحرر على يد زنكى . ولمدة جيل كامل (١١٣٠-١١٥٤م) ، وقفت دمشق حجر عثرة أمام مشروع توحيد الجبهة الإسلامية الذى تبناه عماد الدين زنكى وقاومته دمشق بكل عناد وخبث. وتسبب موقف حكام دمشق المتخاذل فى منع حدوث المواجهة المباشرة مع الصليبيين فى الجنوب، بيد أن هذا لم يعطل الهجوم الذى قاده عماد الدين زنكى ضد الصليبيين فى الرها فى

عام ١١٤٤م واستردادها ، وهى أول إمارة صليبية تأسست على تراب الشرق قبل وصول الحملة الصليبية إلى القدس . وفشلت محاولة الصليبيين فى اعادة احتلال الرها فى عام ١١٤٦م، واستطاع نور الدين محمود الدين ابن عماد الدين زنكى وخليفته تكثيف هجومه على الحدود الشرقية لامارتى أنطاكية وطرابلس الصليبيتين. ولم تحقق الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) التى قادها الملك الفرنسى لويس السابع والامبراطور الألمانى كونراد الثالث هدفها فى استعادة إمارة الرها فقط، بل تسببت هذه الحملة فى احداث التمزق فى الجسد الصليبى واختلال محتوم للتوازن السياسى الذى كان راسخًا خلال الخمسين عام الأولى من الوجود الصليبى. وأدى الهجوم الطائش للحملة الصليبية الثانية ضد دمشق فى عام ١١٤٨م. والحليف الإسلامى الوحيد للصليبيين إلى اندفاع دمشق نحو ذراعى نور الدين محمود، الذى عزز موقفه ، ووحد الجبهة الإسلامية الممتدة من مطقة العراق عبر بلاد الشام إلى المناطق الجنوبية القريبة من لبنان، وهى المناطق التى كانت تشكل الحدود الشمالية للملكة اللاتينية.

وعلى الرغم من التقلص الإقليمى الذى عانت منه المملكة اللاتينية وفقدها الحليف المهم ممثلاً فى إمارة دمشق، فإن الكيانات الصليبية فى منطقة الشرق العربى لم تصل إلى درجة ومرحلة الضعف الخطير. وواقع الأمر، أن وضع الامارات الصليبية الشمالية بات محفوفًا بالأخطار وعدم الاستقرار ، إذ تدخل الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين فى شئون هذه الإمارات وأجبرت هذه الامارات الصليبية على التبعية والخضوع للسيادة البيزنطية لفترة قصيرة، وفى تلك الفترة وقعت أحداث فى الجنوب كانت غير متوقعة، فقد كانت سيطرة الصليبيين على عسقلان تعنى أكثر من تدمير معقل مصرى محصن فى الأرض المقدسة ، فقد أصبحت مصر ضعيفة بسبب الصراعات المحلية مما جعلها فريسة سهلة لجيرانها الصليبيين والمسلمين (الزنكيين) . ففى أثناء فترة حكم الملك الصليبى عمورى الأول أمالريك (١١٦٣-١١٧٤م) طلب الوزير الفاطمى شاور من الصليبيين غزو مصر خمس مرات. ولم يخسر المصريون معركة مهمة بل خسرو الحرب. فقد ارتفعت البيارق والرايات الصليبية فوق الأرض المصرية فى عام ١١٦٤م وقامت السلطات الصليبية بتحصيل الضرائب والتعويضات من المصريين بيد أن هذه المغامرة انتهت بكارثة حلت بالصليبيين. وعندما قام أحد المتنافسين فى مصر (ضرغام) باستدعاء نور الدين محمود للحضور بقواته إلى مصر لطرد الصليبيين وافق نور الدين محمود على الفور على الاشتراك فى هذا الصراع العسكرى على أرض مصر

وأن كان قد تردد قليلاً قبل استجابة هذا المطلب . وتلقى الصليبيون المساعدة والتأييد من أحد الأحزاب المصرية المتصارعة، فى حين حصل الزنكيون على المساعدة والمؤازرة من الحزب السياسى الآخر، وتنافس الفريقان الزنكى والصليبى من أجل تحرير مصر*. وكان نتاج هذا الصراع السياسى والعسكرى واضحًا. فقد استطاع الصليبيون حكم مصر بشكل مؤقت، وتكتلت قوتهم عندما حاولوا غزوها . ولم يكفل النصر الحاسم الذى أحرزه الصليبيون فى مصر بقاء السيادة اللاتينية فى منطقة وادى النيل.

وهكذا أصبحت النتيجة التى تمخضت عنها المحاولات الصليبية المشئومة والفاشلة لغزو مصر بمثابة نقطة تحول فى تاريخ الشرق العربى. وأدت مغامرات الملك الصليبى أماليك لاحتلال مصر إلى الحاق الضعف بالمملكة الصليبية، التى فقدت حيوتها ونشاطها ، وفقدت كذلك روح المبادرة السياسية والعسكرية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد وقعت أحداث سياسية ودينية جديدة فى منطقة الشرق العربى. إذ أصبح الشوام الذين خلصوا مصر من الوجود الصليبى سادة وحكامًا لمصر. واستطاع صلاح الدين الأيوبى الذى كان قائداً كرديًا فى جيش نور الدين محمود خلال الصراع العسكرى مع الصليبيين على أرض مصر، أن يضع نهاية للخلافة الفاطمية الشيعية ويسقطها فى عام (١١٧١م)، وأصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة للخلافة العباسية فى بغداد. لقد كان تحول مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للصراع الإسلامى الصليبى من بلاد الشام إلى مصر ذا أهمية بالغة. فقد تحمل صلاح الدين الأيوبى وعلى مضض خضوعه لسيادة نور الدين محمود ونتج عن هذا توتر فى العلاقات بينهما ووحشة بين الاثنين وتمثل هذا التوتر فى تقاعس وفتور صلاح الدين الأيوبى فى تنفيذ أوامر نور الدين بشأن الاشتراك فى الهجوم المزدوج ضد الصليبيين من مصر والشام بشكل متزامن . وجاءت وفاة نور الدين محمود فى عام ١١٧٤م لتمنع نشوب الخلافات بين السيد الأعلى فى بلاد الشام (نور الدين محمود) وبين تابعه القوى فى مصر (صلاح الدين الأيوبى). وسار صلاح الدين بجيشه من مصر إلى بلاد الشام لكى يؤكد سلطته وذلك عن طريق إبعاد أقارب وأتباع الزنكيين عن الحكم . وبعد عشر سنوات

---

* كان الصراع بن شاور وضرغام على كرسى الوزارة فى حكومة الخليفة الفاطمى المعتضد ارهاصا لسقوط الخلافة الفاطمية فى مصر وقيام الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبى الذى كان افرازا لمرحلة الصراع العسكرى الإسلامى الصليبى . (المترجم) .

استطاع أمراء البيت الأيوبى السيطرة بلاد الشام. فقد استطاع الأيوبيون السيطرة على دمشق وضمها لدولتهم فى بواكير عام ١١٧٤م، وظلت حلب خارج السيادة الأيوبية حتى عام ١١٨٣م.

تولى صلاح الدين الأيوبى حكم مصر فى عام ١١٦٩ م، فى أعقاب محاولات الصليبيين المتقطعة والعابرة للهجوم على مصر، تلك المحاولات التى كانت بغرض الدعاية وليست مشروعًا عسكريًا. فقد فرض الأيوبيون حصاراً قصير الأمد على القلاع الصليبية فى منطقة ما وراء نهر الأردن، كما اشنوا غارات صغيرة ضد المملكة الصليبية. وفشل الهجوم الخطر الذى شنه صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبيين فى عام ١١٧٧م عند منطقة جبل جيزارد Mont-gisard ، وهكذا فإن صلاح الدين كان قائداً متوسط البراعة والمقدرة العسكرية. وتتجلى عظمة وقوة صلاح الدين فى قيادته العليا للقلوب والقدرة على استقطابها واخلاص رجاله له*.

لقد كان الوقت خير عون لصلاح الدين. فقد استطاع تثبيت حكمه فى أقطار كثيرة فى العراق، ومصر ، وبلاد الشام، وفى أقاصى السودان واليمن، الأمر الذى جعل تحت تصرفه جيوش ضخمة ، استخدمها بالتناوب من وقت لآخر فى الحروب ضد الصليبيين. وعلى الجانب الآخر، فإن الهجرة إلى المملكة اللاتينية تباطأ إيقاعها بعد انتهاء أحداث الحملة الصليبية الثانية، وعانت المملكة اللاتينية من النقص السكانى الحاد، وكان التراجع فى عدد السكان شيئًا متوقعًا وأمراً مسلمًا به. فقد كان يصاحب كل حملة عسكرية تحرك عدد من القوات المهمة والمتاحة ، وكانت المعركة الخاسرة للصليبيين تسفر عن سقوط عدد كبير من القتلى وسط الجيش الصليبى ، وتلحق التدمير والخراب بالمملكة اللاتينية.

ومع ذلك، فإنه لايجب أن نبالغ فى حجم الأخطار التى كانت تهدد المملكة اللاتينية . وذلك لأنه على الرغم من المساعدات التى تلقاها صلاح الدين من الجماعات الدينية ومن كافة الأقطار الإسلامية، فإنه لم يستطع السيطرة الكاملة على الموارد المالية والمادية للعالم الإسلامى. ولم تكن الدفاعات والتحصينات التى أعدها صلاح الدين بالأمر العسير لاختراقها. وقد تأكدت هذه الحقيقة من خلال محاولات الصليبيين الناجحة لاجتياز سيناء وغزو الحدود الشرقية لمصر، أو من خلال المغامرات العسكرية الطائشة التى قام بها الأمير الصليبى رينو دى شايتون (أرناط) حاكم الكرك فى البحر الأحمر عام ١١٨٣م بقصد الوصول إلى مكة

---

* حول القدرة العسكرية لصلاح الدين انظر : (ابن شداد : النوادر ، ص١٢٥) . (المترجم) .

والمدينة ونهب هذه الأماكن المقدسة فى بلاد الحجاز . وفى تلك الفترة شهدت المملكة اللاتينية اضطرابات داخلية أصبح من الضرورى التدخل لتسويتها . فمنذ عام ١١٨٣م تزايدت حدة الصراعات المحلية بين الجماعات الصليبية وتناحرت هذه الأحزاب الصليبية، الأمر الذى أدى إلى إضعاف الحكومة المركزية، وعند ذلك كثف صلاح الدين هجماته وضغطه على الصليبيين حتى وقعت معركة حطين الحاسمة فى شهر يولية ١١٨٧م.

فقد اكتملت كل الاستعدادات اللازمة لهذه المعركة الشهيرة. واحتشدت القوات الإسلامية كثيرة العدد بقيادة صلاح الدين، وقاد الملك الصليبى جاى لوزجنان الجيش الصليبى. وتجلت الخطة الاستراتيجية المثالية التى وضعها صلاح الدين فى عبور الأردن ومهاجمة طبرية وإحراق المدينة والمناطق الريفية المحيطة بها. وعندئذ تحرك الجيش الصليبى فى مناورة تجعله فى وضع يسمح لقواته الضاربة من الفرسان الثقيلة بالهجوم المباشر ضد قوات صلاح الدين. أو ينشروا حشود قواتهم لابادة الجيش الإسلامى أو إجباره على التقهقر، وذلك لصعوبة ظروف الحرب . حيث وعورة الطريق وقلة الماء وحرارة الجو القائظة فى شهر يولية، حيث لايستطيع أى محارب الاستمرار فى ميدان المعركة فترة طويلة. وفى بداية معركة حطين قرر الجيش الصليبى تنفيذ الخطة العسكرية السابقة ، بيد أن القادة الصليبيين عملوا بنصيحة مضللة فزحف الجيش الصليبى صوب طبرية لتخليصها من يد المسلمين. وفى أثناء هذا الزحف وقع الجيش الصليبى فى مصيدة وشرك معركة انتهت بابادة وتدمير هذا الجيش. وتم قتل وأسر ما يقرب من ١٢٠٠ فارس ، ١٥٠٠٠ جندى مشاه من الصليبيين ولم يكتب للجيش الصليبى البقاء وباتت المملكة الصليبية مهددة بالانهيار والسقوط .

كانت تعبئة الجنود الصليبيين كاملة عشية معركة حطين، ومن الناحية الواقعية لم تترك قوة عسكرية صليبية تحمى المدن والقلاع الصليبية. وعندما قرر صلاح الدين الاتجاه صوب المناطق الخاضعة للصليبيين لاستردادها ، فتحت معظم هذه المدن والقلاع أبوابها أمام الجيش الإسلامى المنتصر دون مقاومة ، وبعض هذه المدن استلسمت بعد مقاومة بسيطة . واستولى صلاح الدين على مدينة بيت المقدس فى ٢ أكتوبر عام ١١٨٧م بعد ثمانية وثمانين عامًا من احتلال الصليبيين لها فى عام ١٠٩٩م. واستمرت بعض الجيوب العسكرية الصليبية الصغيرة تقاوم صلاح الدين فى الجليل، ولكن ما لبث أن اختفت هذه المقاومة تدريجيًا وفقدت المملكة الصليبية معظم أقاليمها بنهاية عام ١١٨٩م ماعدا مدينة صور. وانحصر الوجود الصليبى فى الأماكن الداخلية فى شمال أنطاكية ، وطرابلس ، والمرقب داخل المحيط الإسلامى .

وجاءت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م) لكى تعيد تأسيس المملكة الصليبية. فقد أدى سقوط بيت المقدس فى يد المسلمين إلى ردود فعل عنيفة فى فى أوربا، وبدأت الدعوة لحملة صليبية جديدة لتحرير القبر المقدس. وتحركت ثلاثة جيوش من فرنسا والجلترا وألمانيا بقيادة فيليب الثانى ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، وفردريك الأول الاول الامبراطور الألمانى ، بالإضافة إلى بعض القوات الصغيرة التى أتت من أقاليم أخرى من أوربا ، وأبحرت هذه الجيوش من أوربا ووصلت إلى مدينة صور ثم بعد ذلك إلى ميناء عكا. وضعفت قوة هذه الجيوش عندما زحف الجيش الألمانى عن طريق البحر إلى آسيا الصغرى، وتعرض الامبراطور الألمانى المسن للغرق فى أحد أنهار آسيا الصغرى وتشتت قواته وتحالفت القوات العسكرية الصغيرة التى جاءت من أوربا مع الملك الصليبى جى لوزجيان Guy de Lusignan الذى أطلق صلاح الدين سراحه من الأسر، وفرض الصليبيون الحصار على عكا مدة ثلاث سنوات (١١٨٩-١١٩٢م) وأصبحت مدينة عكا مركزاً مهمًا للنشاط الصليبى فى منطقة الشرق العربى وكذلك مركزا مهمًا للنشاط الأوربى. واستلمت مدينة عكا من جراء قسوة الحصار الصليبى الذى أنهك حاميتها الإسلامية ، واستولى عليها الصليبيون وواصل ريتشارد قلب الأسد زحفه صوب الجنوب بمثابرة وشجاعة واستطاع إعادة بعض المدن الساحلية للصليبيين. ورغب الطرفان المتحاربان الإسلامى والصليبى فى إقرار السلام بينهما ولذا عقدت معاهدة الرملة بينهما فى ٢ سبتمبر ١١٩٢م . وأصبحت المملكة اللاتينية الجديدة المتقلقلة تنحصر فى شريط ساحلى ضيق يمتد من صور شمالا جتى يافا جنوبًا .

كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلاً ومخيبًا للآمال إذا ما قورن بالمجهود الأوربى الضخم فلم تستطع هذه الحملة تحقيق الهدف الذى جاءت من أجله. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لم يحدث التدفق الكبير المتوقع للمهاجرين الأوربيين على المملكة الصليبية للاستقرار فيها وأخفقت الحملة الثالثة فى تحقيق ذلك، ولم تكن المشكلة الرئيسة لوجود وبقاء المملكة الصليبية تنحصر فقط فى حجم القوة العسكرية التى تدافع عنها ضد أعدائها والحاق الهزيمة بأعدائها فى أى موقعة عسكرية (وفشل الصليبيون فى تحقيق ذلك إلى أقصى حد) ، ولكن أيضا فى حجم القوى البشرية المتاحة والقدرة على الاستقرار وتثبيت جذورهم فى المناطق التى احتلها الصليبيون مرة ثانية وفى الأقاليم التى سيتم احتلالها فى المستقبل . والواقع أن هذا أصبح أمراً غير عملى فى مواجهة التغير الرئيسى فى الاستراتيجية الإسلامية. وخلال الحملة الصليبية الثالثة اتبع صلاح الدين سياسة الأرض المحترقة تلك السياسة التى مارسها خلفاؤه فى دمشق وفى مصر بشكل مستمر. فقد تم تدمير كل القلاع والمدن التى استولى عليها من

يد الصليبيين بانتظام. وأصبح الصليبيون فى حاجة إلى المال والوقت لاعادة تشييد القلاع والدفاعات التى كانت تتهددها الهجمات الإسلامية المستمرة. ومن ناحية أخرى، فإن تجديد عملية الهجرة بأعداد كبيرة إلى المملكة الصليبية كانت هى الوسيلة الوحيدة لملء المدن والقلاع بالسكان وتعويض الخسارة البشرية التى تكبدها الصليبيون فى معركة حطين وفى أحداث الحملة الصليبية الثالثة. بيد أن الهجرة الأوربية إلى المملكة الصليبية لم تكن تعتمد على أوضاع الصليبيين فى الشرق العربى، إذ كانت هذه الهجرة والنزوح إلى المناطق الصليبية فى الشرق يعتمد على الظروف الديموجرافية (السكانية) والاقتصادية التى تمر بها أوربا بصورة أكبر من اعتمادها على الروابط والعلاقات الروحية والعاطفية التى تربط المسيحية بتراثها وبموطنها الأول فى الأراضى المقدسة.

وكانت كل حملة صليبية تالية بعد الحملة الصليبية الثالثة تسعى إلى استعادة بعض الأراضى التى فقدها الصليبيون. وعلى الرغم من تواضع هذه الجهود الصليبية وضآلة هذه فى الغزوات ، فإن المملكة الصليبية استطاعت استعادة بعض الأجزاء التى فقدتها فى أثناء حروبها مع المسلمين. وهكذا فإن الحملة الصليبية فى عام ١١٩٧ استطاعت احتلال بيروت، وبذلك اتصل الساحل الجنوبى بكونتية طرابلس الصليبية؛ واستطاعت الحملة الصليبية الرابعة فى عام ١٢٠٤م ضم صيدا فى الشمال، وكذلك ثبتت ملكية الصليبية الكاملة لمدينتى الرملة واللد، وهما المدينتان اللتان كانتا حتى ذلك الوقت ضمن أراضى المقاسمات بين المسلمين وبين الفرنجة.

واقترنت النتائج المخيبة للآمال للحملات الصليبية بصعوبات فى احراز موطىء قدم ثابت للصليبيين فى المناطق الداخلية فى بلاد الشام وفلسطين ، وهذا يفسر انحراف وتحول الحملة الصليبية الرابعة من الأراضى المقدسة وهجومها المباشر على مصر، التى كانت تمثل القوة الرئيسة فى منطقة الشرق العربى. وثمة محاولتان قام بها الصليبيون من أجل السيطرة على مصر، كانت المحاولة الأولى عام ١٢١٨-١٢٢١م، والثانية كانت بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع فى عام ١٢٤٨-١٢٥٠م (وهو الملك الذى مكث فى الأراضى المقدسة أربع سنوات حتى عام ١٢٥٤م)، وجاءت هاتان الحملتان لاستعادة الصليبين للأراضى المقدسة مرة ثانية واستعادة مملكتهم السابقة من خلال ميادين الحرب على أرض مصر. وابتسم الحظ مرتين للصليبيين وظهرت بوادر النصر للصليبيين على أرض مصر خلال حملة عام ١٢١٨-١٢٢١م ضد دمياط. وابان تلك الظروف الحرجة التى مر بها الجيش المصرى، قدم الحكام المصريون

(الكامل الأيوبى) عرضًا سخيًا على الصليبيين ، عبارة عن التنازل عن كل المناطق السابقة التى فقدتها المملكة الصليبية (باستثناء ما وراء نهر الأردن) ، مقابل رفع الحصار عن دمياط والجلاء عن مصر.

ولعبت الظروف السياسية المناسبة دوراً كبيراً فى تحقيق الصليبيين لبعض المكاسب، تلك المكاسب التى لم يستطع الصليبيون تحقيقها فى ميدان القتال: فقد انهارت الدولة الأيوبية وتفسخت بعد وفاة موسسها صلاح الدين فى عام ١١٩٣م. وأعقبت وفاته استئناف الصراعات المحلية بين أمراء البيت الأيوبى فى الأقاليم الإسلامية التى كانت خاضعة اسميًا لسلطة سلطان مصر الأيوبى. وبخطة ماكرة من التهديدات والتحالفات استطاعت المملكة الصليبية مرتين استعادة بعض أملاكها السابقة، وإن كانت لم تسترد حدودها السابقة.

وعلى الرغم من أن البعض أنكر الحملة الشهيرة التى جاءت بقيادة فردريك الثانى الهوهنشتاوفن، ولم تحظ هذه الحملة بالاسم المبجل للحملات وهو «الصليبية» فإنها انتهت بعقد معاهدة بين الطرفين الإسلامى والصليبى فى تل العجول ويافا عام ١٢٢٩م. واتسعت أملاك المملكة اللاتينية بشكل واضح وذلك بضم الناصرة وجزء من بيت المقدس وأيضا بضم منطقتين ضيقتين من الأرض ، والتى تصل شاطىء البحر بالأملاك التى اكتسبها الصليبيون فى الجليل ويهودا (القدس) . وأصبحت مدينة بيت المقدس مسيحية مرة ثانية، على الرغم من أن هذه المدينة لم تستمر كذلك أكثر من خمسة عشر عامًا حتى استردتها قوات الخوارزمية فى عام ١٢٤٤م، وعادت هذه المدينة إلى السيادة الأيوبية فى مصر.

وخرج الفرنجة من مدينة بيت المقدس وبشكل محدد فى عام ١٢٤٤م ولم تخضع هذه المدينة المقدسة للسلطة المسيحية حتى دخول اللنبى لها بعد هزيمة الأتراك فى عام ١٩١٧م . وبعد ثلاثين عامًا وفى عام ١٩٤٧م أصبح شطر هذه المدينة المقدسة عاصمة لاسرائيل الوليدة ووسيطر الملك عبدالله ملك الأردن على الشطر الثانى من القدس. وبعد عشرين عامًا من هذا التاريخ، وفى أعقاب حرب الأيام الستة فى يونية ١٩٦٧م، قامت اسرائيل بتوحيد شطرى المدينة وضمها تحت سيادتها.

لقد اتسعت حدود المملكة الصليبية على يد الامبراطور فردريك الثانى فى عام ١٢٢٩م، واتسعت مرة ثانية فى عام ١٢٤٠-١٢٤١م، فى أعقاب الحروب الصليبية التى شنها ثيبوت Thibaut كونت شامبانيا، وريتشارد إيريل كورنول وأخو ملك انجلترا هنرى الثالث. وبشكل

متخاذل عقد الأخير معاهدة مع دمشق التى كانت فى حاجة إلى تحالف مع الصليبيين ضد مصر. وبمقتضى معاهدة الدفاع والتحالف التى أبرمت بيت الدماشقة وبين الصليبيين احتفظ الصليبيون بمدينتى صيدا وبيوفورت ، بالإضافة إلى نوع من السيادة المشتركة الإسلامية الصليبية فى الجليل مع عاصمتها طبرية. واتسعت حدود هذه الأملاك الصليبية المكتسبة بعد عام وذلك فى أثناء حملة ريتشارد كورنول (١٢٤٠-١٢٤١م)، حيث أقرت معاهدة السلام التى أبرمت بين الصليبيين وبين حكام مصر من الأيوبيين الأملاك الصليبية المكتسبة السابقة وأضافت إليها أملاكا جديدة. فقد تم التنازل للصليبيين عن كل منطقة الجليل، وأيضا مدينة بيت المقدس ، وبيت لحم وقطعة أرض ضيقة تمر عبر الرملة واللد إلى يافا. بالإضافة إلى مقاطعة متصلة ممتدة لتشمل بيت جبرين فى الداخل وعسقلان على الساحل . وكانت الحدود الجديدة للملكة اللاتينية هى أقصى ما وصلت إليه هذه المملكة فى القرن الثالث عشر الميلادى. وإذا ما قارنا بين المملكة الصليبية الثانية والمملكة الصليبية الأولى نلاحظ أن المملكة الثانية قد فقدت منطقة ما وراء نهر الأردن، والجولان، وجنوب يهودا (القدس) ، والسامرة، التى ظلت تحت الحكم الإسلامى.

كانت الحدود الجديدة للملكة اللاتينية تضمن الأساس الإقليمى الذى يقوم عليه الوجود الصليبى والملكة اللاتينية، بيد أن هذه الحدود المميزة لم تعد كافية للحفاظ على كيان ووجود المملكة الصليبية، إذ كان وجود هذه المملكة يعتمد فى المقام الأول على القوة البشرية التى ترغب فى الاستقرار وغرس جذورها فى هذه المناطق التى اكتسبها الصليبيون من جديد. وبذلت بعض الجهود من أجل الحفاظ على الوجود الصليبى، وعلى سبيل المثال، بذلت الهيئات الدينية العسكرية (الداوية - الاسبتارية - التيوتون) بعض الجهود لكى يستردوا ممتلكاتهم السابقة . ولكن المرء يستطيع أن يقرأ وصفًا مفصلاً لتحصينات صفد فى عام ١٢٤٠م لكى يعرف مدى حجم المبالغ المالية اللازمة لعملية استعادة الأملاك الصليبية وإعادة تعميرها وتحصينها . فقد كانت الأراضى التى استردها الصليبيون مهجورة وخربة، مدمرة القلاع ، وكانت موجات الهجرة المطردة من أوربا هى السبيل الوحيد لتحقيق احياء المملكة الصليبية. بيد أنه لم يكن هناك أمل فى تدفق مثل هذه الموجات من الهجرة الأوربية إلى الشرق . وفى أحسن الأحوال ، انطلقت الحملات الصليبية بقيادة القديس لويس (لويس التاسع ملك فرنسا) أو الأمير ادوارد (الملك ادوارد الأول فيما بعد) من انجلترا، بيد أن هذه الحملات العسكرية لم تجلب معها ، سوى عدد ضئيل من القوة البشرية الاضافية.

وعندما وصلت القوات الخوارزمية استجابة لدعوة السلطان الأيوبى فى مصر، استطاعت هذه القوات الخوارزمية استرداد مدينة بيت المقدس من الصليبيين فى عام ١٢٤٤م. وكانت هذه الحادثة بمثابة النكبة الأولى فى قائمة النكبات والمصائب الطويلة التى عصفت بالمملكة الصليبية. فقد تعثرت حملة لويس التاسع الكبيرة فى أوحال الدلتا، وتمخض عنها نتيجة منطقية: ظل الملك الفرنسى لويس التاسع فى عكا أربع سنوات، يعمل جاهداً فى تحصين الساحل الصليبى أو يقدم المؤن للمدن المحصنة ، وأصبحت هذه التحصينات فقط هى مراكز الانطلاق لعملية الاسترداد الحقيقية والتى سوف يقوم بها الغرب الأوربى استجابة للمطالب اللازمة للصليبيين فى الشرق.

واستطاع الصليبيون إعادة تحصين المدن الساحلية والقلاع بسهولة بسبب أحداث الضعف والتراخى المتكررة التى مرت بها مصر نتيجة الخلافات الداخلية بين أمراء البيت الأيوبى ، وهى فترة المخاض والتكوين التى مرت بها الدولة المملوكية والتى تولت السلطة من الدولة الأيوبية الضعيفة فى عام ١٢٥٠م. بالإضافة إلى ذلك، فإن الغزوات المغولية كانت احدى الكوارث والنكبات الرئيسة فى آسيا الصغرى وفى التاريخ الأوربى ، ووصلت هذه الغزوات المدمرة إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى بعد جيل واحد من قيادة جنكيز خان، وشكلت هذه الغزوات إطار جديداً للعلاقات السياسية، فقد استطاع المغول غزو بلاد فارس وتلى هذا الغزو تهديد مغولى لبلاد العراق وبلاد الشام ولم يتحدى التهديد المغولى سيطرة مصر فى الشرق العربى فقط، بل كان أيضا تهديداً للإسلام.

تطلع لويس التاسع والصليبيون إلى إمكانية التحالف مع هذه القوة المغولية الجديدة وراودهم الأمل فى تحقيق هذا التحالف الصليبى المغولى وتوجيهه ضد المسلمين . فقد كانت هناك قبائل مسيحية ضمن الجيش المغولى، نتيجة أعمال وجهود المبشرين النساطرة *، فـى منطقة وسط آسيا. وبدأ الهجوم المغولى على الخلافة العباسية فى بغداد وأزفت ساعة الصدام المباشر بين المغول وبين القوة الإسلامية الرئيسة.

وفى القرن الثالث عشر الميلادى، لم تعد كلمة الجهاد تعنى الحرب ضد شراذم المسيحيين الصليبيين، ولكنها كانت تعنى الحرب المقدسة ضد قوة المغول المدمرة. وأخفقت محاولات

---

* النساطرة : احدى الطوائف المسيحية: تنسب هذه الطائفة إلى رجل دين مسيحى يدعى نسطور وهم من رجال ومن كنيسة القسطنطينية ، وقد كان له رأى فى تفسير طبيعة المسيح (المترجم) .

الصليبيين للتحالف مع المغول*، وخلال فترة الصدام الحاسم بين المغول وبين المسلمين، وقف الصليبيون موقف المتفرج فقط على الأحداث التى قررت مصير ومستقبل منطقة الشرق العربى. ويعتبر السلطان المملوكى الظاهر بيبرس هو قائد حركة الجهاد الإسلامى ضد المغول، وهو الذى قرر مصير الإسلام. وأظهر قدرات عسكرية بارزة فى التصدى لهذا الغزو، وكان من الشخصيات الحاكمة البارزة فى منطقة الشرق العربى خلال القرن الثالث عشر الميلادى. فقد حقق نصراً عسكريًا حاسما على المغول فى موقعة عين جالوت عام ١٢٦٠م، وخاض معارك تالية ضد المغول فى بلاد الشام، وتوفى بيبرس فى عام ١٢٧٧م، واستطاع الظاهر بيبرس أيضا تدمير الكيانات الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين. وفى غضون ثلاث سنوات (١٢٦٣-١٢٦٦م) وفى فترة الحملات العسكرية المتعددة والرئيسة، استطاع بيبرس القضاء على السيادة الصليبية فى الجليل، وبعد ذلك وجه هجومه ضد المدن والقلاع الصليبية المحصنة الممتدة على الساحل. وتم تدمير هذه المدن والقلاع الصليبية التى استولى عليها الظاهر بيبرس، حتى يمنع عملية احياء السيادة الصليبية، أو حرمان الصليبيين الأوربيين من الحصول على موطىء قدم لهم فى المستقبل، وهى المدن والقلاع التى كانت ما تزال مصدر ذعر رهيب للحكام المسلمين. وأصبح سقوط باقى التحصينات الصليبية مسألة وقت فقط. ففى عام ١٢٩١م قام السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاوون بمحاصرة عكا من (٥ أبريل - ٨ مايو) وسقطت المدينة بعد دفاع شرس استمر أربع وأربعين يومًا. وهجر السكان مدينتى صور وصيدا ، وكذلك بيروت ، وحيفا . وفى ١٤ أغسطس ١٢٩١م قام فرسان الداوية باخلاء قلعة بليرين "Pêlerin" آخر المعاقل الصليبية فى الأراضى المقدسة ويمموا وجوههم شطر قبرص للاستقرار فيها.

---

* لم تنجح محاولات التحالف الصليبى المغولى ضد المسلمين لأسباب عديدة للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع انظر: عادل اسماعيل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا (عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى، ١٩٩٧)، ص٩٥-١٢٠ .

الفصل الرابع

مملكة بيت المقدس

وربما تنتاب الطالب المعاصر الدهشة إذا علم أنه عندما تحركت جيوش الحملة الصليبية الأولى صوب منطقة الشرق العربى لتقديم العون للمسيحيين الشرقيين وتخليص الضريح المقدس من السيطرة الإسلامية لم يشر أى أحد من الصليبيين -سواء كان البابا أو أى أمير صليبى علمانى- إلى مصير المناطق والأقاليم التى سيتم احتلالها فى المستقبل ، أى أن الصليبيين لم يكن لديهم أى تصور لنظام الحكم والادارة فى هذه المناطق الجديدة. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو ماذا حدث فى الأراضى والمناطق التى احتلها الصليبيون بعد تحريرهم القبر المقدس من نير الحكم الإسلامى المجحف *؟ والحقيقة أن البابا اربان الثانى Urban II بشر كل الصليبيين الذين سيشتركون فى الحملة المقدسة إلى الشرق بالثراء والغنى ولوح لهم بهذا الأمل (وإن كنا لانملك دليلاً مباشراً لهذا) ، ويبدو أن هذه البشارة البابوية كانت تعنى حصول المشاركين الصليبيين على الغنائم والأسلاب فى المناطق التى تخضع لسيطرتهم بصورة أكبر عن شكل السيادة الصليبية فى هذه المناطق. وكان ريموند السانجيلى قائد الجيش البروفنسالى هو الوحيد من بين كبار القادة الصليبيين الذين عقدوا العزم على البقاء فى الشرق. وأعد بعض القادة الصليبيين الآخرين الترتيبات لحكم مناطق نفوذهم فى الشرق فى غيابهم توقعًا لعودتهم إلى أوطانهم آجلاً أو عاجلاً .

وخلال فترة الزحف الصليبى صوب الشرق التى استمرت ثلاث سنوات بدأت تنضج بعض الأفكار الخاصة بمستقبل المناطق والأقاليم التى سيتم غزوها ، وساهمت بعض الحوادث المفاجئة غير المتوقعة في فرض الأمر الواقع، ذلك الأمر الذى لم تستطع خطة أو أيديولوچية التنبؤ به، وكان نورمان صقلية عديمى الضمير والأكثر افلاسًا وتقلبًا أول من أدرك أبعاد الظروف الجديدة والأحداث المحتملة فى المنطقة. فقد كان بوهمند Bohemond يطمح فى أن يكون ممثلا للإمبراطور البيزنطى فى الاشتراك مع الجيوش الصليبية المتجهة صوب الشرق، وحاول ابن

---

* هذا القول تردده المصادر اللاتينية ، وهذا أمر عادى فى ضوء العداء بين المسلمين وبين الصليبيين، وإن كان هذا القول يجافى الحقيقة التاريخية، فلم يكن الحكم الإسلامى فى بلاد الشام وفلسطين مجحفا (المترجم).

أخته تانكرد Tancred فرض سيادته على بعض المدن فى سهل قليقية، حتى قبل أن يصل الجيش الصليبى إلى شمال بلاد الشام. وأعاد بوهمند الكرّة واستطاع الحصول على منطقة نفوذ له ، فانتزع أنطاكية من ريموند السانجيلى بعد احتلال الصليبيين لها وطرد الأتراك السلاجقة . وجاء بعده بلدوين أخو جودفرى البويونى ، ذلك القائد الذى تلقى دعوةً من الحاكم الأرمنى فى الرها لتقديم العون للأرمن وحمايتهم من خطر جيرانهم المسلمين، وبعد وقت قصير نجح القائد الصليبى (بلدوين البويونى) فى اثارة فتنة وحركة تمرد ضد الحاكم الأرمنى المحلى للإطاحة بهذا الحاكم ونجحت الفتنة فى ابعاد الحاكم الأرمنى وخلفه بلدوين فى حكم إمارة الرها.

وبعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية أرسلوا إلى البابا خطابات يناشدونه ويطلبون منه الالتحاق بهم لكى يقود الجيوش الصليبية. وربما لو استجاب البابا لهذا المطلب الصليبى لتغير تاريخ الشرق الأوسط تمامًا. بيد أن البابا لم تطأ قدمه أراضى الأقاليم الصليبية الجديدة فى الشرق (وواقع الأمر أن البابا لم يظهر للعيان فى الأراضى المقدسة فى فلسطين حتى عصرنا الحاضر) على الرغم من أن عدداً من البابوات قد تم انتخابهم من بين أساقفة الشرق اللاتينى.

ولم يكن هناك اخلاصى من جانب البابا وآية ذلك أنه لم يستجب لمناشدة الصليبيين له فى أنطاكية . ولذا لم يطلب الصليبيون منه مرة ثانية قيادة جيوشهم . وبالإضافة إلى ذلك ، وكما ذكرنا آنفا، حاول الصليبيون وقادتهم عند أنطاكية اكتساب امارات ومناطق نفوذ لهم.

وهكذا لم يتحدد شكل المستقبل بعد، بيد أن الدرس الذى تلقاه الصليبيون عند أنطاكية والرها لم ينس بعد. ومن الواضح أن احدى هاتين المدينتين (الرها) قد سقطت بسرعة فى يد الصليبيين، وتم تعيين حاكم صليبى لها، واقامة نوع من النظام الادارى. ووقع الصدام والنزاع الأيديولوجى الأول بين الصليبيين والمتعلق بمستقبل المناطق التى احتلها الصليبيون فى أثناء حصار مدينة بيت المقدس . وهذا النزاع المبكر الذى وقع بين الصليبيين فى أثناء حصار مدينة القدس يبرز المفاهيم والأفكار السياسية للصليبيين التى تبلورت خلال السنوات الثلاث التى استغرقتها ملحمة الحملة الصليبية الأولى.

كان من الطبيعى أن تقترح القيادة العلمانية التى تضم الدوقات والكونتات والنبلاء والذين قادوا الجيوش من أوربا وأتوا إلى مدينة القدس، انتخاب واختيار حاكم صليبى بشكل عاجل. وعندئذ قرر عدد كبير من الصليبيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الأولى العودة إلى أوطانهم فى أوربا عقب الاستيلاء على مدينة بيت المقدس وتحرير قبر المسيح ولاسيما بعد الوفاء بنذرهم الذى قطعوه على أنفسهم فى بداية الحملة الصليبية. وكان لدى كبار القادة

الصليبيين الخبرة الادارية الواسعة التى اكتسبوها من خلال حكمهم لأقطارهم . وقد رأى هؤلاء القادة أن اختيار حاكم علمانى سوف يحفظ للصليبيين مكاسب وثمار الحملة الصليبية تلك الحملة التى كلفتهم المزيد من الأرواح والأموال . وتمثلت الصعوبة فى اختيار حاكم مناسب، وليس فى شكل الحكومة.

وعارضت جماعة من الصليبيين هذا الرأى بشكل مباشر، وهى الجماعة التى كانت تمثل الحركة الشعبية العاطفية المتحمسة والتى أدت تقريبًا إلى إحداث الشغب ضد كبار القادة الصليبيين فى أنطاكية . بيد أننا لانعرف الأشخاص الذين تحدثوا بلسان هذه الحركة الشعبية العاطفية. ومن المحتمل أن عدداً من صغار رجال الدين قد قدموا اقتراحاتهم بهذا الخصوص . لقد كانت الحروب الصليبية فى بدايتها ما تزال تصطبغ بالقوة المسيحية والحماسة الدينية، ولذا رفض رجال الدين تعيين أى حاكم علمانى مهما كان شخص هذا الحاكم. وفسر رجال الدين النبوة فى كتاب دانيال تفسيراً غريبًا، فادعوا أن المسيح كان أمينًا وقريبًا من الرب، وعندما جاء المسيح انقطعت وتلاشت كل أعمال التكريس*. وكان هؤلاء الذين غادروا أوربا تحت قيادة رجال الدين، أو الذين كانوا ينضوون تحت قيادة بطة تلهمها الروح القدس والذين امتلأت بهم الطرق فى فرنسا وألمانيا فى مسيرتهم صوب الشرق يسألون عند كل قرية تصافح أعينهم خلال المسيرة هل هذه هى أورشليم (القدس) ، ويبدو أن فكرة إنشاء دولة طبيعية يحكمها حاكم علمانى، وتنظمها قوانين ومؤسسات كالتى كانت موجودة فى أقطارهم الأوربية، أصبحت من قبيل خيانة القضية الصليبية والانحراف عن أهدافها . ألم يقل أريجو Jericho فى نصوصه التورائية المقدسة «إن أسوار مدينة بيت المقدس لم تسقط إلا إذا سار إليها جيش تائب حافى الأقدام وسط نفير الحرب الذى يطلقه أريجو Jericho ، وأحست هذه الجموع الصليبية بالرغبة فى النقاء والتطهر من الأدران والذنوب ، وأنهم على استعداد للعمل من أجل مملكة السماء» وفى تلك الظروف ، باتت فكرة تشييد دولة أرضية دنيوية وحاكم علمانى عملا منافيًا للعقل والطبيعة.

---

* كان المتحدث بلسان هذا الفريق من رجال الدين هو المؤرخ البروفنسالى ريموند الأجويللرى Raymond of Aquilers ، فهو يشير إلى كتاب دانيال ٩-٢٤ حيث يقول «لقد قضينا بسبعين أسبوعًا من الدهر لمصلحة شعبك ومدينتك المقدسة لتنتهى الخطيئة ، وتضع نهاية للأثم، ولتكفر عن الخطيئة ، ولكى تجلب الاستقامة الأبدية السرمدية ، ولكى تدرك الرؤية المقدسة والنبى ولكى تمسح بالزيت كل القديسين (قديس القديسين) . (المؤلف)

ولم تناقش المجموعة الصليبية التى انضوت تحت قيادة بعض الأساقفة مسألة ضرورة تعيين حاكم علمانى قوى يدافع ويذود عن حياض المدينة المقدسة.. وادعوا بأن اختيار البطريرك يجب أن يسبق انتخاب الحاكم العلمانى . وما فتىء الصليبيون يتجادلون حول أسبقية النظر فى الأمور الروحية السرمدية عن الأمور الدنيوية الفانية ، ولذا يجب اختيار وتعيين الرئيس الروحى (البطريرك) قبل اختيار الحاكم الدنيوى (الملك). لم يكن البروتوكول أو المسودة الأصلية لتعيين الحاكم هى المشكلة الرئيسة التى تواجه الصليبيين . فقد حضر الصليبيون إلى منطقة الشرق العربى استجابة لدعوة البابا، ولم يشترك ملك أوربى فى هذه الحملة الصليبية الأولى. ولذا أليس من الطبيعى أن تعترف المناطق التى احتلها الصليبيون منذ قليل بالسيادة البابوية؟ ومن المحقق أنه حتى هذه المرحلة لم تكن هناك خطة تنادى باقامة دولة بابوية ، وسلطة القديس بطرس فى الأرض التى شهدت ميلاده . وبعد شهور قليلة قام البطريرك البيزى العدوانى دايمبرت Diambert باحضار القادة الصليبيين الثلاثة الموجودين فى الشرق اللاتينى وهم جيوفرى البويونى Godfrey de Bouillon ، وبلدوين أمير الرها Baldwin of Edes-sa، وبوهمند سيد أنطاكية Bohemend of Antioch لكى يقدموا إليه قسم الولاء الاقطاعى، ووعد جودفرى البويونى بأن يتنازل عن المدينة المقدسة للبطريرك دايمبرت.

وعندما بدأ الهجوم الصليبى على مدينة القدس بتسديد القذائف الحجرية ضد استحكامات المدينة توقفت الآراء الصليبية المتعارضة حول اختيار الحاكم والبطريرك اللاتينى، فقد طال أمد النقاش حول هذا الخصوص واستمر بعد احتلال الصليبيين لمدينة القدس. وأعقب سقوط مدينة القدس قيام الصليبيين بأعمال السلب والنهب وإعمال السيف فى رقاب سكان المدينة المقدسة وقتل عدد كبير منهم، وتم الصفح عن عدد قليل من أسرى المسلمين مقابل تأدية الفدية المناسبة، وبعد ذلك عقد القادة الصليبيون اجتماعًا فى كنيسة الضريح المقدس. وفى هذا الاجتماع انتصرت ارادة ورغبة القادة الصليبيين برفض ترشيح القائد الصليبى المغوار ريموند السانجيلى، واستقر رأيهم على اختيار جودفرى البويونى كأول حاكم صليبى لمدينة بيت المقدس.

ووفقًا لأسطورة دينية مسيحية رفض جودفرى البويونى لقب ملك ورفض أن يتوج ملكًا فى المكان الذى ارتدى فيه المسيح تاجًا من الشوك. ورضى بلقب متكافىء وهو لقب «حامى القبر المقدس»، على الرغم من أن هذا اللقب مضلل بشكل مغرض . فقد كان لقب «حامى أو المدافع

عـــن» advocate عادة يعنى أحد النبلاء الذى يمثل المؤسسة الكنسية (كنيسة أو دير) فى تأدية واجباتها العامة باعتبار الكنيسة سيداً اقطاعيًا. وفى نفس الوقت، كان .. الحامى أو المحامى advocate يؤدى قسم الولاء الاقطاعى لأسقف الكنيسة ، ويتسلم به أرضا إقطاعية، ومن الناحية النظرية كان هذا النبيل يلتزم بالدفاع عن هذه المؤسسة سواء كانت كنيسة أو دير. ومن المحتمل أن اللقب الغريب الذى اتخذه جودفرى البويونى كان يعنى اعترافه إلى حد ما بنوع من السيادة الكنسية، وإن كان المعنى العملى لهذا الاعتراف ظل غامضا وغير محدد على أرض الواقع. وبعد عام من سقوط مدينة بيت المقدس أى عام ١١٠٠م ظل جودفرى وعلى مضض وفيًا بولائه الاقطاعى ووعوده للبطريرك دايمبرت ، وكان هذا الولاء يشير إلى نفس الاتجاه السابق*، أى الاعتراف بالسيادة الكنسية . بيد أن جودفرى البويونى كان أول وآخر حاكم صليبى يعترف بتبعيته للبابا أو البطريرك اللاتينى. فقد أعلن بلدوين الأول الذى خلف أخاه فى وراثة عرش المملكة اللاتينية فى بيت المقدس بوضوح أنه حصل على هذا العرش «بنعمة من الرب» دون الاعتماد على أية واسطة . وكان اختياره لبيت لحم مكانا لتتويجه بدلا من بيت المقدس يفصح بطريقة ما عن رغبته فى تحدى وتجاهل المزاعم والدعاوى الكنسية وعدم الاعتراف بها، على الرغم من أنه أكد بشدة دعواه باعتباره وريثا للملك داود وذلك بتكريسه ومسحه بالزيت المقدس فى كنيسة بيت لحم. وكان نقش صورة الضريح المقدس على العملات والمسكوكات الصليبية وعلى الأختام الملكية مجرد اشارة فقط لتلك العلاقة الروحية التى تربط بين ملوك بيت المقدس الصليبيين وبين الضريح المقدس. كما أن العملات والأختام الصليبية نقش عليها أيضا صورة مسجد عمر (قبة الصخرة) ، والذى تحول إلى كنيسة للصليبيين ، وكذلك صورة برج داود وقلعة المدينة المقدسة ، كل هذا يدل على أن المملكة الصليبية فى بيت المقدس لم تكن لها سمة وميزة دينية . فقد كان الضريح المقدس بمثابة نقطة تحول أخرى تمامًا ، إذ كان الضريح المقدس أكثر الأماكن المقدسة شهرة وتبجيلاً فى مدينة بيت المقدس وفى أرجاء المملكة اللاتينية قاطبة، بيد أنه لم يكن يمثل ادعاءً كنسيًا بالسيادة.

---

* ذكر فوشيه الشارترى يمين الولاء الاقطاعى الذى قدمه الحاكم الصليبيون الثلاثة (جودفرى البويونى ، وريموند السانجيلى ، وبوهيمند) إلى البطريرك فى نهاية عام ١٠٩٦م. وفى الرسالة التى بعث بها البطريرك دايمبرت إلى بوهمند تم تدوين نص قسم الولاء الإقطاعى الذى قدمه جودفرى البويونى فى أثناء عيد الفصح فى عام ١١٠٠م، وكذلك الوعد الذى قطعه جودفرى على نفسه وهو على سرير الموت. وهناك بعض الشكوك حول مصداقية هذا الخطاب.(William of Tyre, vol., I, p. 515) (المؤلف).

وهكذا أصبحت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس دولة علمانية ، يحكمها ملوك علمانيون ونبلاء. ولكن قوة وتأثير التقليد والتعاليم الدينية لم تتلاشى تمامًا ، إذ تركت آثاراً عميقة فى البنية السياسية لهذه المملكة الوليدة .

وعندما نلقى نظرة سريعة على خريطة الكيانات الصليبية التى تأسست فى منطقة الشرق العربى، نجد أن هذه الكيانات كانت تمتد فى شكل شريط طويل وضيق من الأرض من قليقية إلى العقبة على البحر الأحمر بطول ٥٠٠ ميل . وعلى هذه الخريطة يتضح شكل المملكة الصليبية فى بيت المقدس وحدودها ، والتى كانت تمتد من بيروت حتى البحر الأحمر بطول (٣٠٠ميل) ، وتوضح لنا الخريطة أيضا الوضع الشاذ لموقع مدينة بيت المقدس عاصمة المملكة الصليبية. ولاشك أن المركز الجغرافى لهذه الأملاك الصليبية يجب أن يكون حول مدينة طرابلس اللبنانية؛ وفى المملكة الصليبية كان من المناسب أن تكون رام الله أوعكا هى العاصمة، ومع ذلك أصبحت مدينة القدس عاصمة لهذه المملكة. فمدينة بيت المقدس التى تقع فى أقصى الجنوب من حدود الأملاك الصليبية قد أعطت اسمها لهذه المملكة الوليدة . بيد أن الموقع الجغرافى الشاذ لعاصمة المملكة التى تم اختيارها لم يكن هو الشىء الغريب فقط. فقد كان هناك عدد من المدن الصليبية أفضل وأكبر من مدينة القدس حجمًا وأكثر سكانًا وثروة. ولاشك أن مدينتى عكا وصور كانتا مركزين أكثر أهمية من مدينة بيت المقدس، وكانت أنطاكية أيضا أكثر المدن الصليبية سكانا وأوفرهم ثروة. ونظراً لأن مدينة القدس مدينة داخلية فإنها لم تحظ بالأهمية التجارية، كما أنها لم ترتبط بطرق المرور التجارية العالمية الرئيسة . ومن الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجة ، كانت مدينة القدس تمثل عائقًا أمام مزايا هاتين الناحيتين فلم تكن مصدراً من مصادر القوة والثروة، وبالرغم من ذلك كله، تم اختيارها عاصمة للملكة اللاتينية، وقبلت الجيوش الصليبية هذا الاختيار كأمر واقع، وأطلق على حكامهم اسم « ملوك بيت المقدس». وتحول اسم المملكة الصليبية ما بين « مملكة بيت المقدس» و« مملكة داود » . وكانت هذه التسميات تشير بشكل أكثر إلى ارتباط هذه المدينة الوثيق بالتاريخ المقدس التوراتى. ووفقًا للكتاب المقدس والحقيقة التاريخية كانت العقيدة المسيحية التقليدية وريثًا لعقيدة بنى اسرائيل المبارك (اليهودية) ، والذين فقدوا امتيازاتهم باعتبارهم شعب الله المختار بسبب عدم إيمانهم واعترافهم بيسوع المسيح .

كان القانون غير المدون (الأعراف والتقاليد) هو الذى يحكم أقدار وشئون المملكة اللاتينية

فى بيت المقدس. فمنذ أن أعلن داود ملك بنى اسرائيل أن بيت المقدس هو «معبد الملك» وعاصمة مملكة (عاموس ٧-١٣) الأصل العبرى للعهد القديم) وافقت كل الأمم والأجناس على أن الانجيل كتاب مقدس ، أو جزء من تراثهم الروحى الدينى، واختاروا مدينة القدس عاصمة لهم. وهكذا أصبحت هذه المدينة عاصمة فى عصر مملكة يهوذا أو اسرائيل ، وكذلك فى عصر ملوك الأردن الهاشميين ، وأيضا فى الفترة الثانية من فترات الكومتولث فى أثناء فترة الانتداب البريطانى على فلسطين، وأصبحت القدس فى الوقت الحاضر عاصمة لاسرائيل*. ولم تخضع مدينة بيت المقدس طوال تاريخها الذى يمتد إلى فترة أربعة آلاف سنة إلى سيطرة المصريين، أو الفرس، أو الروم، أو البيزنطيين، أو العرب، أو الترك ، وهى الأقوام التى حكمت الأراضى المقدسة فى فترات مختلفة فى الأربعة آلاف عام من تاريخ المدينة، الأمر الذى جعلها مكان الاجلال والشرف والرفعة. وكانت مدينة قيسارية، ورام الله، وغزة وصفد من المدن الرئيسة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت مدينة القدس عاصمة فقط عندما كانت الأراضى المقدسة تتمتع بالحكم الذاتى. وعندما كانت إقليما أو ولاية فى الشرق حُرمت هذه المدينة من المكانة السامية التى كانت تتمتع بها أية عاصمة.

وهكذا، وعلى الرغم من كل هذه العوائق والعيوب الجغرافية والاقتصادية ، أعلنت مدينة القدس عاصمة للملكة الصليبية ، وكان الاسم التاريخى لهذه المدينة يرفع مكانتها إلى عليين، تلك المكانة التى تفوق وتبز أية عيوب اقتصادية أو استراتيجية لهذه المدينة.

ومنذ أن أصبحت مدينة القدس عاصمة للملكة اللاتينية ، قام الحكام الصليبيون الأوائل باعادة تعمير المدينة بالسكان، وذلك بسبب سقوط عدد كبير من سكانها المحليين قتلى خلال الهجوم الصليبى ضد المدينة. وفى البداية ، كانت المناطق السكنية فى المدينة لاتزيد عن حى واحد ، وهو الحى الذى كان على مقربة من الضريح المقدس وبرج داود، بالرغم من أن بعض المساجد كمسجد عمر المقام على مكان المعبد أصبح كنيسة ، وأصبح المسجد الأقصى قصراً ملكيًا للحاكم الصليبى. وأظهر هذا العدد القليل من السكان فى بيت المقدس النية والاصرار

---

* يؤكد المؤرخ على موضوع القدس باعتبارها عاصمة أبدية لاسرائيل ، وهذا الموقف ينبىء عن تحيز واضح من جانب المؤلف وطمس لحقيقة التاريخ، فهو يؤكد الحق الزائف لاسرائيل فى هذه المدينة، ولازالت المفاوضات حول هذا الموضوع بين العرب واسرائيل عسيرة وشاقة (المترجم) .

على ترك المدينة والذهاب إلى المدن الساحلية، حيث سهولة اكتساب الرزق، ووفرة فرص العمل والكسب. وفى تلك الأثناء ، صدر مرسوم ملكى صليبى يهدد كل سادة الأرض الغائبين (كبار السادة الاقطاعيين) بفقد أملاكهم، وإذا لم يحضروا إلى المناطق الصليبية فى نهاية العام، سوف يفقدون كل أملاكهم الاقطاعية ومساكنهم. وصدر مرسوم آخر بفرض تشجيع الاقامة والسكنى فى مدينة القدس، وكان هذا المرسوم يقضى بالغاء الرسوم والضرائب على كل أنواع المواد الغذائية التى تدخل المدينة عبر بواباتها. وأخيراً لجأ الحكام الصليبيون فى بيت المقدس إلى نظام لإعادة تزويد مدينة بيت المقدس بالسكان. ففى العقد الثانى من عمر المملكة الصليبية فى عام (١١١٥م) نظم الحكام الصليبيون عملية هجرة المسيحيين الشرقيين إلى القدس من منطقة ما وراء نهر الأردن، ومنح الحكام الصليبيون لهؤلاء المهاجرين المنطقة الشمالية الشرقية من المدينة والتى كانت من قبل حيا لليهود ، وما زال هذا الحى يعرف باسم الحي اليهودى . وبمرور الوقت نفضت المدينة عن كاهلها آثار الخراب والتدمير الذى أحدثته جحافل الحملة الصليبية الأولى. واستقر بها القادمون الجدد من الأوربيين وكذلك المسيحيون الشرقيون وحُرم على المسلمين واليهود سكنى هذه المدينة. وكان تدفق تيار الحج المستمر على مدينة بيت المقدس بمثابة التعويض الجزئى لقلة امكانياتها التجارية. وعلاوة على ذلك ، كانت مدينة القدس مركزاً رئيسًا للإدارة والحكومة الملكية حيث مقر الملك ومقر البطريرك اللاتينى، كما كانت مركزا للهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاسبتارية- التيوتون) ، ومقراً لعدد كبير من الكنائس والأديرة ، الأمر الذى ساعد على ازدهارها الاقتصادى ، على الرغم من أن صادارات هذه المدنية كانت لاتزيد عن الذخائر المقدسة الوفيرة التى كانت تباع للحجاج الأوربيين فى أثناء موسم الحج والذين كانوا ينقلونها بدورهم إلى الكنائس والمزارات المقدسة فى الغرب الأوربى.

ويرجع فضل أهمية مدينة بيت المقدس إلى وجود الحاكم الصليبى بها والذى كان يحمل لقبًا ملكيًا. فقد كانت أنطاكية إمارة صليبية ، وكان سادة الرها وطرابلس يحملون لقب كونت. وخلال فترة قصيرة من القرن الثانى عشر الميلادى، استطاعت الدولة الأرمينية فى آسيا الصغرى تجديد قوتها فتوجت حاكمها لقبًا ملكيًا. واستطاع الحكام الفرنجة فى قبرص من آل لوزجنان احتلال مملكة أرمينية فى آسيا الصغرى وذلك خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة، وحصل آل لوزجنان على اللقب الملكى. ويعتبر الاحتلال الصليبى لمملكة أرمينية فى تلك الفترة المتأخرة من الحروب الصليبية بمنأى عن الدوافع الأولى لهذه الحروب .

كان اللقب الملكى وأيضًا اسم مملكة بيت المقدس ذا معنى مزدوج . وكانت هذه الألقاب تعنى السلطة العامة التى يمارسها ملك بيت المقدس على كل الامارات الصليبية، وفى بعض الأحيان كانت تتأكد سيادة الملك الصليبى على هذه الامارات من خلال تقديم الأمراء الصليبيين الولاء الاقطاعى له. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه فى أوقات الاضطراب السياسى الذى كانت تشهده هذه الامارات الصليبية الشمالية والذى كان يتمثل فى الوظائف السياسية الشاغرة بسبب موت الحاكم ووجود وريث قاصر أو بسبب أسر الأمير، كان الملوك الصليبيون فى بيت المقدس يمارسون السيادة العليا الاسمية فى تلك الامارات. ولم يكن الوضع السياسى الخاص الذى تمتع به الملوك الصليبيون فى بيت المقدس يستند إلى تشريع أو قانون رسمى، وإنما كان بمثابة اتفاق عام، وذلك بسبب حقيقة أن الملك الصليبى كان يحكم مدينة القدس ، تلك المدينة التى تعتبر مركزا رئيسا ومسرحًا لأحداث التاريخ المقدس.

ومن ناحية أخرى ، كان لقب «ملك بيت المقدس»، واسم «مملكة بيت المقدس» يستخدمان بمعنى أكثر تحديداً وهو حاكم المملكة الصليبية ومعظم الامارات الصليبية الواقعة جنوبا والتى كانت ضمن الكيانات اللاتينية فى الشرق، وإبان فترة التوسع العظيم للملكة الصليبية امتدت حدودها حتى وصلت إلى مقربة من حدود كونتية طرابلس فى الشمال. وكان الحد الأدنى والعادى للملكة الصليبية يمتد شمال بيروت بمسافة عدة أميال على امتداد نهر المعملتان El-Mu'amltain . وأنشى هذا لاحد تقريبًا مصادفة . وفى عام ١١١٠م سقطت مدينة بيروت فى يد ملك بيت المقدس الصليبى، كما أن جبيل (بيبلوس القديمة) التى تتقاطع مع النهر كانت قد سقطت فى عام ١١٠٣م فى يد ريموند السانجيلى، مؤسس الأسرة الفرنجية الحاكمة فى كونتية طرابلس. وعندما سقطت مدينة طرابلس فى عام ١١٠٩م فى يد الصليبيين خضعت كل المنطقة الواقعة شمال النهر الصغير لحكم كونتات طرابلس البروفنساليين. وكان هذا فقط حداً مشتركًا بين المملكة اللاتينية وبين أى كيان صليبى آخر، ومتناسبًا وإن كان طوله بضعة أميال. وفى أقصى الشرق، امتدت حدود المملكة الصليبية إلى جبال لبنان، وإن كان من الصعب تعيين هذه الحدود. وفى المناطق الواقعة إلى الشرق مباشرة من بيروت، فى جبال الغرب، تمتع السكان المسلمون بدرجة كبيرة من الحكم الذاتى، على الرغم من اعترافهم بسيادة حكام بيروت الصليبيين . وتحفظ لنا بعض الوثائق الصليبية المهمة حادثة وقعت فى تلك الفترة، وهى قيام الحكام الصليبيين بمنح الشيوخ المحليين فى المناطق التى ذكرناها آنفا القرى والأراضى الزراعية فى شكل اقطاعات. وبالإضافة إى ذلك ، فإن المارون وهم المسيحيون المحليون فى لبنان قد

سكنوا هذا المنطقة أيضًا. وارتبط سكان القرى الجبلية الأشداء بعلاقات ودية مع الفرنجة واعترفوا بشكل نهائي بسيادة كنيسة روما. وكان حد المملكة الصليبية ينحدر من سلاسل جبال لبنان ناحية الجنوب. ويبدو أن التخوم الصليبية كانت تمتد فى خط موازٍ لنهر الليطانى فى طريقها الممتد من الشمال إلى الجنوب بمستوى المنحنى الغربى الحاد القريب من قلعة الشقيف ، وهى القلعة التى عرفها الصليبيون باسم بيوفورت Beafort . وفى المنخفض الواسع والخصيب الواقع شرق نهر الليطانى والذى يعرف باسم مرج عيون (سهل الينابيع) كان الصليبيون يستخدمونه فى التعميد ولاسيما وادى جيرمين وفى أقصى الشرق كان يوجد وادى الطعيم Wadi al- Taim الذى كان يستخدم كمراع للبدو والتركمان، وكان هذا الوادى خارج نطاق السيادة الصليبية. والواقع أن الصليبيين غالبا ما كانوا يقومون بغزو هذه الأراضى والاغارة عليها، بهدف الحصول على قطعان الماشية والأسلاب والغنائم. وأجبر البدو على دفع اتاوات وجزية للحكام الصليبيين . وباستثناء قلعة بيوفورت أو الشقيف ، لم يحاول الصليبيون احتلال ولاتحصين أراضى المراعى هذه (باستثناء قلعة حصبية fort of Hasbiyoh الواقعة إلى الشرق من وادى الطعيم، وهى القلعة التى يمكن مطابقتها مع قلعة الصبيبة التى ذكرتها المصادر الصليبية.

وعند نقطة التحول الحادة والشهيرة لنهر الليطانى كان حد المملكة الصليبية يتجه إلى الشرق. ويترك خلفه قمة جل لبنان ، ويعبر روافد نهر الأردن لكى يصل إلى قمة جبل حرمون Herlon الجنوبية المكسوة بالجليد. وتقع قلعة الصبيبة (التى تعرف اليوم باسم قلعة النمرود) على إحدى السلاسل الجبلية لجبل حرمون Hermon وهى القلعة التى كانت تطل على بانياس وتحدد معظم الأملاك الصليبية الواقعة جهة الشمال الشرقى*. وعند هذه النقطة، لم يكن هناك حد حقيقى أو رسمى يفصل المملكة اللاتينية عن القطر الإسلامى الجنوبى المجاور لها وهو مدينة دمشق.

وكانت روافد نهر الأردن والأنهار الصغيرة التى تقع فى أقصى الجنوب والتى أصبحت تمثل منطقة الأردن توجد داخل حددو المملكة اللاتينية ، بيد أن منطقة الجولان والكثير من أراضى السواد التى تقع عند بحيرة طبرية كانت أراضى مقاسمات تخضع للسيادة المشتركة الإسلامية

---

* والرأى المقبول هو أن قلعة الصبيبة لم تكن هى قلعة بانياس ، ولذا فإن تاريخ المكان إبان فترة الوجود الصليبى يحتاج إلى اعادة كتابة صحيحة (المؤلف) .

والصليبية، أى ما بين حكام دمشق وبين الحكام الصليبيين . وكانت كل المنطقة الواقعة جنوب نهر اليرموك تدفع ضريبة ثقيلة الوطأة لأمراء الجليل الصليبيين، على الرغم من أن هذه المنطقة كانت تعتمد على دمشق من الناحية السياسية. ويبدو أن التحصينات التى كانت توجد فى هذه المنطقة اقتصرت على قلعتين صغيرتين على الجانب الشرقى من بحيرة طبرية ، وهما قلعتا العال وقصر بلدوين (قلعة بلدوين). ولم يُعرف تاريخ بناء هاتين القلعتين ولا الشخص الذى قام بالبناء.

وبمجرد عبور نهر اليرموك إلى شاطئه الجنوبى تصافح أعيننا حصنًا قويًا، وكان هذا الحصن المجوف القريب يعرف باللغة العربية باسم حصن حابس Habis أو حابس جلداق Habis Jal-dak ، وعرفه الصليبيون باسم كهف السواد أو (قلعة السواد). واستطاع الصليبيون احتلال هذا الحصن الطبيعى فى أثناء فترة القوة الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، على الرغم من أن هذه القلعة كانت أحيانا تنتقل من السيطرة الصليبية إلى سيطرة حكام دمشق.

وانتشرت المراعى الواسعة الغنية على طول الطريق الممتد من قلعة حابس جلداق إلى روافد نهر اليرموك ، وكانت هذه المراعى محصورة بين منطقة موزرب Mazerib وبين درعا ، وعرفت هذه المنطقة باسم سهل الميدان *. وتغلغل الصليبيون فى هذه المنطقة، وأصبحوا سادة درعا Dar'a ومنحت هذه المنطقة فى شكل اقطاعه لأحد النبلاء الفرنجة الذى حضر من مدينة بالقرب من باريس تعرف مدينة برنارد الايتامبيه City of Bernard de Etampes ويبدو أن فترة السيادة الصليبية فى المنطقة كانت قصيرة الأمد. وحقيقة الأمر، أن الصليبيين قد تخلوا عن فكرة احتلال هذه المناطق لعدم وجود قوات عسكرية كافية لديهم لبسط سيطرتهم.

وكانت مدن مثل بصرى وصلخد تقع فى أقصى شرق حدود المملكة الصليبية. وكان حكام دمشق يقومون بتعيين قادة هذه الأماكن. بيد أن انعزال هذه المدن وكونها نائية عن دمشق وقربها من الفرنج الذين أتوا إلى هذه المناطق فى أثناء القرن الثانى عشر الميلادى وبترحيب من المسلمين، على الرغم من كراهية المسلمين لهم فقد أجبر المسلمون على التحالف مع الصليبين-

---

* من المحتمل أن كلمة الميدان تعنى المكان الرحب الواسع، أو أنها مشتقة من ماء الميدان احدى فروع نهر اليرموك (Würzbuyg, Desciptian of theHoly Land, p. 6, No.3;

هايد : تاريخ التجارة، ص١٨٣ .

قد تسبب فى حدوث مناورات سياسية غريبة أحيانا. وفى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، ظهرت الامارات الإسلامية المستقلة فى بصرى وفى صلخد ، وذلك بايعاز من الفرنجة . وكانت هذه النزعات الانفصالية فى الامارات الاسلامية فى صالح الفرنجة تمامًا وذلك لأنهم كانوا فى وضع لايسمح لهم بالاقتراب من هذه المراكز الإسلامية النائية أو احتلالها ، ولكن الفرنجة استفادوا من اعتماد هذه الامارات الإسلامية التى تطمح فى الاستقلال السياسى على الرضا الصليبى والتأييد الفرنجى. بيد أن الفرنجة قد بالغت فى تأكيد قوة هذه الامارات ، إذ تلاشت الامارات المستقلة واختفت بعد فترة الوجود القصيرة والمضطربة.

وإلى الجنوب من نهر اليرموك كان يوجد السهل الواسع المرتفع الذى يعرف باسم سهل جليعاد القديم ancient Gile'ad (جبل عوف) ، وفى الجزء الجنوبى من جبل عوف توجد مدينة عجلون مع منخفض الأردن العميق، والغور ، ولم تخضع المناطق الواقعة غرب جبل عوف للسيطرة الصليبية ، على الرغم من وصول احدى الحملات العسكرية الصليبية- إليها ووصولها أيضا إلى منطقة جرش التى دمرها الصليبيون. وفى القرن الثانى عشر الميلادى، شيد المسلمون قلعة بالقرب من عجلون ، عرفت باسم قلعة الرباض Qal at al-Rabad ، وتلك شهادة وحيدة على بسط المسلمين سيادتهم فى هذه المنطقة المعزولة.

وأصبحت السيادة الصليبية أمراً واقعًا فى الأراضى القديمة فى عمّان وفى مُعان الواقعتين جنوب نهر الزرقاء. وكانت هذه المنطقة الواسعة تمتد جنوبًا حتى البحر الأحمر، وأصبحت تمثل منطقة النفوذ الصليبى فيما وراء نهر الأردن.

وهكذا كانت التخوم الصليبية تحيط منطقة آهلة بالسكان وأراضى زراعية خصبة. وكانت الصحراء الأردنية تقع شرق حدود المملكة الصليبية ، تلك الحدود التى كانت تتغير بشكل ضئيل فى الجنوب حول معان Ma'an ، الواقعة على الطريق إلى بلاد الحجاز وإلى شبه جزيرة سيناء إلى الصحراء العربية. ويبدو أن الحدود الصليبية قد أنشئت على أساس الاعتماد على الطريق الكبير الذى يصل إلى شاطىء البحر الأحمر عند العقبة. ففى وقت مبكر من فترة الوجود الصليبى (عام ١١١٥م) تقدم الصليبيون من مكان فى الشمال إلى الجنوب واستولوا على قرية صيد الأسماك دون مقاومة . وهناك شيد الصليبيون قلعة صغيرة ، وفرت الحماية للمنفذ الذى يصل إلى البحر الأحمر، والطريق المار بالعقبة إلى شبه جزيرة سيناء ومصر فى الغرب والصحراء العربية فى الجنوب.

وعند هذه النقطة الحدودية تلاشت حدود المملكة الصليبية مرة ثانية فى رمال الصحراء. ومنذ فترة السيادة البيزنطية أصبحت منطقة النقب خالية من السكان وطمرت الرمال مدنها. وكانت هذه المنطقة تعرف باسم الصحراء الكبرى، وهى نفس التسمية التى أطلقها الصليبيون على صحراء جنوب وغرب فلسطين . فلم تكن هناك حدود معينة فى الصحراء ، والتى امتدت جهة الغرب إلى سيناء. ولكن بالنسبة للواحات القليلة التى تقع على الطريق الرئيسى الذى يخترق سيناء ، فإنها كانت خالية من السكان وفى فترة باكرة من الوجود الصليبى وفى أثناء احتلال العقبة وصل بلدوين الأول إلى دير سانت كاترين الواقع على سفح جبل سيناء . وطلب منه رهبان الدير من البيزنطيين أن يترك لهم مكان هذا الدير مقابل عدم احتفاظهم بعلاقات ودية مع المسلمين الذين كانوا إما من القبائل البدوية أو من الموظفين المصريين.

وكان حصن الداروم أو دير البلح الواقع على حافة الصحراء يمثل نقطة حدود الأملاك الصليبية على الطريق الساحلى الشمالى للبحر المتوسط والذى يربط مصر بفلسطين.

وظل هذا الطريق أكثر أمنا للصليبيين على امتداد ساحل البحر المتوسط.

الفصل الخامس

الأراضى المحتلة وشعبها

وخلال خمسين عامًا (١٠٩٩-١١٥٣م) استطاعت مملكة بيت المقدس اللاتينية وبدون انقطاع توسيع حدودها تجاه حواف الصحراء ، وتأسست نواة الامارات الصليبية إبان الحملة الصليبية الأولى، وبلغت هذه الامارات أيضًا أوج توسعها. وأخيراً امتدت الكيانات الصليبية فى بلاد الشام على الساحل من خليج الاسكندرونة فى الشمال حتى العقبة على البحر الأحمر.

كانت المعالم الطبيعية تقسم الإقليم الصليبى، وبلغ طول هذا القطر الصليبى حوالى ٦٠٠ ميل، وامتد هذا الطول من الجزء الغربى على ساحل البحر المتوسط حتى الجزء الشرقى الواقع على حدود الصحراء. وكان خط التقسيم عبارة عن وادٍ شديد الانحدار ، وهو ذلك المنخفض الجيولوجى الذى يقطع السهل الجبلى الواسع المرتفع. فقد كانت سلاسل جبال طوروس بمثابة بداية وعلامة الطرق الجنوبية لأناضوليا Anatolia ، وكانت هذه الطرق تندمج قرب بلاد الشام إلى سلسلة جبال عَمَّان. وعند أنطاكية ظفر الصليبيون بالمنطقة الواقعة بين جبال النصيرية فى الغرب وبين سهل حلب المرتفع فى الشرق، وكذلك بالمنطقة التى تليها والممتدة من لبنان وسلاسل جبال الجليل فى الغرب إلى سهل الجولان المرتفع وباشان* فى الشرق.

وكان الجزء الرئيسى من سلسلة هذه الجبال من السهل اختراقها . وكانت الأودية المستعرضة لمنطقة السواد وهى أودية نهرى أفرن Afrin والعاصى Orontes تقطع الممر الواصل بين جبل عَمَّان وجبل النصيرية. ويرتبط وادى البقاع بمدينتى حمص وطرابلس، وكان وادى حزريل Jez-rel يسمح بحرية المرور بين الجليل والسامرة (Samaria) والقدس (يهودا Judea) .

---

* باشان Bashan : تقع منطقة «باشان» شرقى الأردن فيما بين جبل «جرمون» و«جلعاد» . ويوجد هناك جبل يعرف بجبل باشان، ولانعرف أيهما هو الذى خلع على الناحية اسمه الجبل أم البلد وقد جاء فى مزامير داود ٦٨ / ١٥ «جبل الله» جبل باشان ». وقد أشار اليعقوبى إلى أذرعة «التى هى» أذرعان «وقال أنها قصبة ولاية «البثينة» (أنظر : حسن حبشى : الحروب الصليبية الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥)، جـ٤ ، ص٣٦٧-٣٦٨ .

وقد أثرت هذه المعالم الطبيعية الرئيسة لهذه المناطق فى مصير الأقاليم التى احتلها الصليبيون . واحتل الصليبيون المناطق الساحلية والموانىء فى محاولة لتوسيع أقاليمهم بمد حدودها جهة الشرق، بيد أن النجاحات التى أحرزوها فى هذا المجال كانت متواضعة. وفقط كانت كونتية الرها الصليبية تخترق أودية الفرات ودجلة، ولم تخضع الأقاليم الواقعة إلى الشرق من المنخفض الشمالى الجنوبى العظيم لحكم الأمراء الصليبيين فى الامارات الصليبية بشكل فعلى باستثناء فترات قصيرة جداً. ومن وقت لآخر، كانت الجيوش الصليبية تنفذ إلى عمق هذا القطر الإسلامى وفى بعض الأوقات وصلت منطقة النفوذ الصليبى إلى أعتاب مدينة حلب، بيد أن هذه الجيوش الصليبية انسحبت ، وتركت القلاع، وتوترت العلاقات بين المسلمين وبين الصليبيين على هذه الحدود، التى كانت قد أنشئت على امتداد الوادى العظيم. وثمة استثناء غريب وشاذ وهو أن الكيانات الصليبية الواقعة جهة الجنوب والتى كانت تابعة للملكة اللاتينية ظلت تبسط سيادتها على الأراضى الواقعة بين شرق الأردن حتى ميناء العقبة.

وهكذا كانت الأقاليم الصليبية فى بلاد الشام تمثل شريطًا طويلاً ضيقًا من الأرض ينحصر بين البحر المتوسط وبين الوادى الكبير والفسيح جهة الشرق. وانحصرت هذه الأقاليم وسط محيط واسع من الأقطار والأراضى التاريخية الشهيرة والتى كانت تضم خليطا من الأجناس والديانات وأنواعًا مختلفة من السكان .

لقد كان الإسلام الدين الرسمى للأقطار التى احتلها الصليبيون فى بلاد الشام، وفى تلك الآونة كان العالم الإسلامى تتقاسمه خلافتان متناحرتان، الخلافة العباسية ذات المذهب السنى فى بغداد ، والخلافة الفاطمية ذات المذهب الشيعى فى القاهرة. ولم يكن هذا التقسيم تعبيراً عن التنافس بين الخلافتين من أجل الهيمنة الدينية واثبات الشرعية الإسلامية لهذا المذهب أو ذاك فقط، بل كان بمثابة صراع محتدم بين اثنين من القوى السياسية الرئيسة من أجل السيطرة على جموع المسلمين . وكانت الانتصارات العسكرية التى تحرزها احدى الخلافتين المتناحرتين تعنى أيضا انتصارات فى المجال السياسى وأيضًا فى المجال الدينى. واعتاد السكان المحليون المسلمون تغيير ولاءهم لهذه الخلافة أو تلك، وغالبا ما كانوا يعتنقون المذهب الذى يحقق الانتصار على المذهب الآخر . وعشية تأسيس المملكة اللاتينية ، كانت فلسطين ولبنان- ذات المصير التاريخى التعيس- منطقة صراع بين الخلافتين المتناحرتين، الخلافة العباسية فى الشمال، والخلافة الفاطمية فى الجنوب . ووجدت الخلافة العباسية السنية الضعيفة فى بغداد

قوة فتية تدافع عنها هى قوة الأتراك السلاجقة ، فقد استطاع السلاجقة اجتياح بلاد الشام ولبنان وفلسطين، فى حين اندثرت كل البقايا الأخيرة للحكم البيزنطى حول أنطاكية. واستطاع السلاجقة طرد المصريين الفاطميين من القلاع والتحصينات ، وابعدوا عن البلاد إلى ما وراء صحراء سيناء. واحتل السكان الأتراك والحاميات العسكرية السلجوقية المدن، وفرضوا سيطرتهم على تلك الأقاليم المحتلة بطريقة جديدة. وعلى أى حال، فإن الأمراء المحليين كانوا أحيانا يهتبلون الفرصة التى تسنح لهم من جراء الاضطرابات السياسى لكى يقيموا إمارات تتمتع بالحكم الذاتى على الساحل الشامى والفينيقى. وكانت مصر التى فقدت أقاليمها فى فلسطين نتيجة الغزو السلجوقى فى الربع الأخير من القرى الحادى عشر الميلادى ما تزال تسيطر على بعض المدن الساحلية. وقبل ظهور الفرنج بأشهر قليلة، نجح المصريون فى طرد السلاجقة واستعادة مدينة القدس فى عام (١٠٩٨م) .

والواقع أن الغزوات والغزوات المضادة التى شنها المصريون والأتراك السلاجقة على فلسطين وبلاد الشام لم تؤثر البتة على التركيب العرقى (الأثنى) لسكان هذه المناطق . وكانت السلالة الرئيسة للسكان تتكون من الشعوب السامية القديمة ، ثم بعد ذلك الشعوب الهللينية، والرومانية ، والمسيحية ، ثم فى النهاية الشعوب التى اعتنقت الإسلام، على الرغم من احتفاظ أقلية من السكان بعقيدة أسلافهم وأجدادهم. لقد كان تأثير الغزو على هذه المناطق فى إحداث تدفق سكان جدد عليها بسيطًا دائما. وكان بعض أفراد الحاميات العسكرية البطلمية والسلوقية، والرومانية أو الكلت الرومان، أو الجرمان، والذين حكموا هذه المناطق من وقت لآخر فى الزمن الماضى ، يتزاوجون مع السكان المحليين. وربما كانت القبائل العربية البدوية فى ترحالها تترك بعض الآثار، بيد أن هذه الاضافات التى كانت تتركها هذه القبائل الرحل لم تكن ذات أهمية. وحدث نفس التزاوج بين أفراد الحاميات العسكرية السلجوقية الجديدة وبين السكان المحليين فى المدن والقلاع، وقد سهل الدين الإسلامى الذى اعتنقه السلاجقة والسكان المحليون إحداث مثل هذا الاندماج الاجتماعى بينهما.

وفى أثناء الغزو الصليبى، كان غالبية السكان المحليين فى منطقة الشرق العربى من المسلمين السُّنة . واعتاد المسلمون من السنة والشيعة ذكر اسم خليفتهم فى خطبة الجمعة فى المساجد. إذ كان هذا يمثل انحيازاً سياسيًا أكثر من كونه انحيازاً دينيًا ، وذلك لأن ذكر اسم الخليفة فى خطبة الجمعة والدعاء له كان يعبر عن ولاء الحاكم المحلى لذلك الشخص الذى

يحكم باسمه وهو الخليفة. ولم يستطع السكان المحليون البت فى هذا الموضوع. وأعلن قادة الحاميات العسكرية المصرية فى أية مدينة ساحلية اسم الخليفة الفاطمى، فى حين كان القائد السلجوقى فى القلعة الداخلية المجاورة يفعل نفس الشيء وينادى باسم خليفة بغداد .

ويذكر أحد الجغرافيين العرب الذين ولدوا فى بيت المقدس (المقدسى) أنه فى نهاية القرن العاشر الميلادى كانت الأغلبية الساحقة للمسلمين فى بلاد الشام وفلسطين من السنة، فى حين كان سكان المناطق الشرقية والجنوبية لهذا القطر، فى طبرية، وكادش Kadesh (الجليل)، ونابلس ، وعمّان فى منطقة ما وراء نهر الأردن من المسلمين الشيعة. وعشية الحروب الصليبية، وحينما كان المصريون يسيطرون على ساحل البحر المتوسط، يمكن أن نفترض أن الشيعة قد انتشروا فى هذه الأجزاء القريبة من هذا لقطر.

ولما كان معظم المسلمين يعيشون فى مدن وقرى ، فإن البعض كانوا ما يزالون قبائل بدوية رحل . وأطلقت عليهم المصادر العربية اسم البدو، وهم الذين كانوا فى ترحال باستمرار ، بحثًا عن المرعى والكلأ، يتحركون يقطعانهم بين مناطق الفرات والنيل. وكان اقامة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ستعارض ولفترة قصيرة مع تجوال البدو المعتاد ، بيد أن الصليبين أدركوا بسرعة مدى الخدمات التى يمكن أن يقدمها لهم هؤلاء البدو، الأمر الذى جعلهم يرتبطون بعلاقات ودية مع سكان الصحراء من البدو.

فقد كانت قبيلة ثعلبة البدوية الكبيرة بفريعها الرئيسيين- بنو ضرغام وبنو زريق والتى كانت تقيم على حدود مصر- تتعاون مع الفرنج، الأمر الذى جلب عليهم السخط والغضب من جانب اخوانهم المسلمين . وكان أقاربهم من بنى طيء والتى كانت تعرف باسم قبيلة جارم قضاعة Jarm Qudaah يمتلكون مراع كثيرة على حواف الصحراء، بين غزة وبين بلدة حبرون كثيرة التلال . وإلى الجنوب من غزة ، حول الداروم (دير البلح) ، كانت هناك فروع أخرى من نفس القبيلة وهم بنو غور وبنو بُعيد . وتحركت قبائل بدوية أخرى من واحة إلى واحة بين مصر وبلاد الشام وهى قبائل بنو صدر ، وبنوحا عيد Ha'aid وبنو أبى *. ووجدت فى هذه المنطقة أيضًا قبائل بدوية نزحت من مصر ومن جنوب ما وراء نهر الأردن. ومنها قبيلة بنو كنانة

---

* عرفت هذه القبيلة بأكل المواشى الميتة، وعاش أفرادها فى الحضر وفى منطقة الحسما، وأينما فى صحراء سيناء وجنوب منطقة ما وراء النهر (انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٥) .

المولعة بالحرب وبنو حوبر Haubar، وبنو خالد. وفى المنطقة التى تقع جنوب ما وراء نهر الأردن حول قلعتى الكرك والشوبك (التى عرفها الصليبيون باسم مونتريال) كانت هناك قبائل بدوية مثل قبيلة عقبة وبنى زهير. وفى أقصى الشمال حول عجلون كانت هناك قبيلة بنى عوف، والذى عرف جبل عوف باسمها . وكانت منطقة نفوذ قبيلة بنى ربيعة الكبيرة، والتى كانت احدى فروع قبيلة بنى طىء تقع جهة الشمال، شمال دمشق وحبرون. وعشية الحملة الصليبية الأولى، كان أفراد قبيلة بنى ربيعة هم سادة– رام الله التى كانت عاصمة للقطر، واعترف الحكام الفاطميون فى مصر بسيادة هذه القبيلة. وفى ما بعد وجدت هذه القبائل البدوية على الحدود الشمالية الشرقية للملكة اللاتينية. ووجد أيضا فى أقصى الغرب فى وادى الطعيم ، وهو وادى يتصل بجنوب لبنان وفلسطين سكان من البدو، للاستفادة من المراعى الغنية المنتشرة فى هذه المناطق.

ويبدو أن عدداً قليلاً جداً من القبائل البدوية قد عاش داخل حدود المملكة اللاتينية. وعرفنا بعض هذه القبائل البدوية التى كانت تسكن على مقربة من مدينة نابلس، حيث كانت هذه القبائل تدفع الضرائب لملك بيت المقدس الصليبى، بيد أن هذا الوضع المتعلق بدفع الضرائب لم ينطبق على القبائل البدوية المتحالفة مع الصليبيين. فقبيلة بنو عميلا Amila العربية التى استقرت فى الجليل بعد الفتح الإسلامى لهذه المنطقة فى القرن السابع الميلادى، هى تركت اسمها ليطلق على جيل عميلا فى شمال فلسطين. ولم تترك هذه القبيلة أية أثار وراءها فى هذه المنطقة، ومن المحتمل أن هذه القبيلة قد هاجرت فى وقت غير محدد إلى سورية، بين حمص ودمشق.

وعاشت القبائل البدوية التركية التى تنحدر من أصل مختلف نفس نمط الحياة الذى عاشته القبائل البدوية العربية. وخلال القرن الثانى عشر الميلادى، عرفت أغلبية هذه القبائل العربية البدوية حياة الاستقرار وعدم الترحال، واستمر البعض فى ترحالها بحثًا عن المرعى والكلأ . وعرفت المصادر العربية وأيضا اللاتينية هذه القبائل التركية المترحلة باسم التركمان ، تمييزاً لهم عن القبائل السلجوقية المستقرة والتى حكمت هذه المنطقة.

وبسط الملوك الصليبيون سيطرتهم على كل القبائل البدوية التى عبرت الحدود إلى المملكة اللاتينية. والتزمت هذه القبائل بدفع رسوم مالية مقابل حرية استخدامهم المراعى، ومقابل ترحالهم داخل حدود المملكة وحق العبور. ولسوء الحظ، فإن الفرسان الصليبيين كانت تحركهم

شهوة الطمع عندما كانت تقع أبصارهم على قطعان الخيول الكثيرة التى كان يسوقها أفراد القبائل البدوية، وعندئذ كانوا يهاجمون مخيمات هذه القبائل لنهب وسلب هذه الخيول على الرغم من الاتفاقيات المبرمة بين هذه القبائل وبين الحكام الصليبيين. ومن الجدير بالذكر، أن الملك بلدوين الرابع منح امتيازا لفرسان القديس يوحنا فى بلفوا Belvoir (الجليل)، بضم مائة خيمة (عائلة) من قبائل البدو إلى منطقة نفوذهم الجديدة، شريطة ألا تكون هذه العائلات من اللاتى تنتمى من قبل لملك بيت المقدس الصليبى.

وبين السنة فى الشمال والشيعة فى الجنوب ، كان هناك الدروز الذين عاشوا فى أماكن منعزلة وعرة فى لبنان. وتأسست طائفة الدروز فى العقد الثالث من القرن الحادى عشر الميلادى، وذلك فى أعقاب وفاة الخليفة الفاطمى نصف المخبول الحاكم بأمر الله فى عام ١٠٢١ وتخلص عقيدة أفراد هذه الطائفة فى أن الحاكم بأمر الله هو التجسد الأخير للألوهية «انتشر هذا التجسد فيما وراء حدود مملكته فى مصر إلى الجبال والأودية فى لبنان» . ومنذ وقت مبكر، كانت هذه المناطق المنعزلة فى لبنان ملاذاً لطوائف اسلامية هرطقية أخرى. وكان بعض الطوائف الهرطقية يعتنقون فى التجسد الإلهى، وهكذا بدأ الدرزى والتى عرفت الطائفة باسمه ينشر دعوته فى أرض خصبة. ومن الغريب تمامًا أن المؤسس الحقيقى لطائفة الدروز هو حمزة بن على الداعى الأخير للتعاليم الدرزية الهرطقية، بيد أن المعلم الأول وهو الدرزى ظل يطلق على هذه الطائفة وحملت اسمه، وفى كل الاحتمالات، وكما كان يحدث فى هذه المنطقة، فإن جماعة عرقية تبنت تعاليم التجسد وأصبحت عقيدتها الرسمية ، فى المنطقة القريبة من قلعة الشقيف وبانياس وأراضى المراعى المجاورة لوادى الطعيم. ويصف المؤرخ المسلم (ابن الأثير) هذه المنطقة بأنها كانت نقطة تركز طائفة النصيرية، والدروز ، والزرادشتين ، وطوائف أخرى.

ويعتبر المؤرخ اليهودى الأسبانى بنيامين التطيلى أول من سجل بقلمه وصفا لطائفة الدروز، فيذكر أن أرض الدروز كانت تمتد من جبل حرمون إلى شاطىء صيدا. وقد اتضح من وصف بنيامين التطيلى لطائفة الدروز أنه يفتقر إلى معرفة نمط حياة ونظام هذه الطائفة. فيقول «وعلى مقربة من صيدا وعلى بعد عشرة أميال منها توجد أمة فى حالة حرب مع هؤلاء الذين يملكون صيدا (الفرنج) . وهذه الأمة تعرف بالدروز وهم هراطقة ليست لهم عقيدة . ويسكن الدروز الجبال العالية والأماكن الصخرية ، ولم تخضع هذه الطائفة لسيطرة ملك أوقاض. وامتدت منطقة الدروز إلى جبل حرمون Hermon ، على مسيرة ثلاثة أيام». وإذا كان وصف

بنيامين التطيلى لطائفة الدروز دقيقًا، وهو عادة مؤرخ ثقة ، فإنه يمكن القول أن شيوخ وادى الطعيم فى شرق صيدا ، والذين ذكرتهم المصادر الصليبية، كانوا من الدروز . وفى القرن الثالث عشر الميلادى، احتفظ سادة صيدا الصليبيون ، بعلاقات ودية مع سكان منطقة الجبل إلى الشرق من صيدا وبيروت، وفى المنطقة التى تعرف باسم الغرب والشوف. ومن الممكن فعلاً أن يكون هؤلاء السكان من الدروز .

لم يكن بنيامين التطليى الوحيد الذى لم يستطع تصنيف الدروز فبعد جبلين، يقول جاك الفيترى أسقف عكا والمبشر القداح وذو النزعة العدائية ضد كل الطوائف الهراطقة الذين يشيرون الرعب : «ويوجد هناك مسلمون آخرون يعتنقون عقيدة سرية. لم يفصحوا عن عقيدتهم. ولم يطلعوا عليها أحداً ، ولكنهم يعلمونها لأولادهم عندما يشبون عن الطوق».

وعشية الحروب الصليبية، كانت الأغلبية السائدة من السكان المحليين فى بلاد الشام وفلسطين من المسلمين. وحتى ذلك الوقت لم يكن الشرق الأوسط كله يعتنق الدين الإسلامى. وكان المسيحيون من الأصل السامى يرفضون الإذعان لسلطة الحكم الإسلامى فى هذه المناطق. واستقر السكان الأرمن الأصليون فى مناطق واسعة فى آسيا الصغرى فى جبال طوروس وعلى امتداد المنحدرات الجنوبية لهذه الجبال، وكان ولاؤهم لكنيستهم الرئيسة. وخلال القرن الثانى عشر الميلادى، استطاعت الأسر الحاكمة الأرمينية تأسيس مملكة مسيحية عرفت باسم مملكة أرمينية الصغرى، وتحمل هذه المملكة ذكرى «أرمينية العظمى» حول بحيرة فان، والتى ضاعت فى أثناء موجات الفتح الإسلامى.

ولما كانت الأجزاء الشرقية فى آسيا الصغرى والمناطق الجنوبية لجبال طوروس خالية من السكان المسلمين، فإن الوضع قد اختلف فى الغرب على امتداد الساحل حتى أنطاكية. ويبدو أن سكان هذه المنطقة قد ظلوا مسيحيين، وكانوا فى الأصل أرثوذكس. ومن المحقق أن أنطاكية خضعت للحكم الإسلامى ما يقرب من أكثر من ثلاثمائة عام (٦٣٦-٩٦٩م). بيد أن البيزنطيين استطاعوا بسط سيطرتهم عليها بعد طرد المسلمين منها لمدة مائة عام أخرى (٩٦٩-١٠٨٤م). وظلت أنطاكية تحت السيطرة البيزنطية قبل الحملة الصليبية الأولى بجيل واحد. وكان الفتح الإسلامى لأنطاكية فى عام ١٠٨٤ ، أى قبل خمسة عشر عامًا من ظهور الحملة الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٨م، ولم يستطع الوجود الإسلامى فى هذه المدينة أن يحدث تغييراً أساسيًا فى التركيب الدينى العرقى لسكانها. ولم يستطع الغزو الصليبى أيضا

إحداث شيء أكثر من اضافة طبقة حاكمة للعاصمة القديمة لبلاد الشام (أنطاكية) . وظل سكان أنطاكية بيزنطيين بشكل رئيسى، واعتبر الامبراطور البيزنطى نفسه مسئولاً عن حمايتهم، وهى تلك المهمة التى كان يمارسها الامبراطور البيزنطى بموافقة السلطات الإسلامية فى كل مكان فى منطقة الشرق العربى قبل ظهور الافرنج.

وعلاوة على ذلك ، فإن الطوائف المسيحية فى هذا الإقليم لم تقتصر فقط على البيزنطيين الأرثوذكس . فقد كان هناك السوريان، وهو الاسم العرقى الذى كانت تطلقه المصادر اللاتينية على كل الطوائف المسيحية غير الرومانية، وهى الطوائف التى عرفت فى هذه المصادر باسم المسيحيين الشرقيين أو السريان، تمييزاً لهم عن المسيحيين الفرنجة . وكان اسم «السريان» يطلق من قبل على المسيحيين الشرقيين الذين اتبعوا المذهب الأرثوذكس ، واستخدموا اللغة اليونانية فى طقوسهم الدينية واللغة العربية فى حياتهم اليومية. وما زال هذا المصطلح «السوريان» يطلق على المسيحيين اليعاقبة. وترجع أصول كنيسة اليعاقبة إلى الجدل اللاهوتى المتعلق بطبيعة المسيح والذى تسبب فى حدوث انقسام فى الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس الميلادى. فقد أقر مجمع خلقدونية الذى عقد فى عام ٤٥١م العقيدة الأرثوذكسية ونادى بوجود طبيعتين للمسيح، طبيعة الهية وأخرى بشرية. وأدان المجمع أتباع الطبيعة الواحدة، وهى الطبيعة الإلهية فقط. وهكذا عُرف أتباع الطبيعة الواحدة باسم «المونوفيزيتيين» واعتبرهم المجمع هراطقة. وخلال القرن السادس الميلادى، تأسست ثلاث كنائس للمونوفيزيتيين: الكنيسة القبطية فى مصر والحبشة، والكنيسة القومية الأرمينية، والكنيسة اليعقوبية فى بلاد الشام وفلسطين. واشتق اسم «اليعاقبة» من اسم يعقوب البرادعى مؤسس الكنيسة اليعقوبية فى بلاد الشام فى القرن السادس الميلادى. وكان لليعاقبة فى أنطاكية بطريركهم الخاص، وهو البطريرك الذى لم يسمح له بالإقامة فى هذه المدينة إبان فترة السيطرة البيزنطية، ومع الفتح الإسلامى لمنطقة الشرق العربى، تنفس اليعاقبة الصعداء، وأحس اليعاقبة أنهم فى وضع أفضل عن ذلك، ولاسيما بعد أن انتهت فترة اضطهادهم على يد البيزنطيين وفى الغالب كانت السلطات البيزنطية وكذلك الإسلامية تتوجس خيفة من سلوك اليعاقبة، ومن المحتمل أن السلطات الإسلامية كانت ترتاب تمامًا فى كل الذين كانوا يدينون بالولاء للبيزنطيين من قبل. وفضل اليعاقبة حكم المسلمين السلاجقة عن حكم البيزنطيين المسيحيين، وشُيدت كنائس جديدة لليعاقبة فى مدينة أنطاكية بعد سقوطها فى يد الأتراك

السلاجقة . وكانت الآرامية هى اللغة المحلية لليعاقبة، وقبل اليعاقبة سيادة الغزاة الجدد وتمثل هذا القبول فى اقرارهم للغة العربية والتحدث بها واعتبارها لغة محلية لهم ، بيد أنهم ظلوا يستخدمون «اللغة السريانية» - ذات اللهجة الآرامية الغربية- فى طقوسهم وشعائرهم الدينية. واستمرت الكراهية المقيتة القديمة بين البيزنطيين وبين اليعاقبة ماثلة للعيان طوال فترة التغييرات والثورات السياسية. وخلال فترة الحكم الصليبى فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى، لم يتوان ميخائيل السوريانى Michael the Syrian ، بطريرك اليعاقبة فى أنطاكية عن انتهاز الفرصة لتلطيخ سمعة البيزنطيين.

ولم يكن للكنائس المونوفيزيتية الأخرى فى مصر وفى أرمينيا أية أهمية كبرى داخل تلك الأقطار. وبالإضافة إلى ذلك، فإن جاذبية المدينة المقدسة (بيت المقدس) كانت طاغية وعظيمة، وتطلع اليعاقبة إلى امتلاك كنيسة أو دير فى هذه المدينة المقدسة وفى أى مكان فى الأرض المقدسة. فقد شيدت كنيسة مارى المجدلية القبطية فى مدينة بيت المقدس بعد غزو الأتراك السلاجقة للمدينة مباشرة.

ومما يذكر أن وضع الكنائس الموتوفيزيتية لم يتغير عن وضع أية كنيسة وطنية أخرى، فقد كان لمسيحيى جورجيا (الذين عرفوا باسم ايبيريا) فى القوقاز ملاذ مقدس خارج حدود مملكتهم المحلية، وتمثل هذا الملاذ المقدس فى امتلاكهم دير الصليب المقدس فى مدينة بيت المقدس، والذى شيد فى المكان التقليدى الذى شهد شجرة الصليب المقدس والتى اجتثت من فوق هذه الأرض بعد ذلك. وارتبط هذا الدير بعلاقات قوية وودية مع مملكة جورجيا التى تبعد كثيراً عن الأراضى المقدسة. وتمثلت هذه العلاقات الودية فى تلقى الدير الهبات والنعم السخية من أمراء وملوك هذه المملكة، وكانت الملكة تامارا Tamara من أشهر الملوك الذين أغدقوا الهبات بسخاء على هذا الدير.

وكان للنساطرة كنيسة خاصة بهم، وهى الطائفة التى ظهرت فى أعقاب الجول اللاهوتى حول طبيعة المسيح . ففى مجمع أفيسوس الذى عقد فى عام ٤٣١م أقرت التعاليم الأرثوذكسية مبدأ اتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية فى شخص المسيح، فى حين رأى النساطرة أن للمسيح طبيعتين منفصلتين ، الأولى إلهية، والأخرى بشرية. وهكذا عارضت الطوائف المسيحية المنشقة لقب «أم المسيح» الذى أطلق على القديسة مريم، وهو اللقب الذى كان يعنى أن المسيح قد ولد من أم بشرية هى السيدة مريم. وكان المركز الرئيسى للنساطرة الشرقيين

يوجد فى بلاد فارس ، وفى كونتية الرها وفى العراق. وأصبحت بغداد مقراً للبطريرك النسطورى. وانطلقت من هذه المناطق البعثات التبشيرية ووصلت إلى وسط وشرق آسيا ، واستطاعت تعميد السكان هناك، وكان عدد أفراد طائفة النساطرة ضئيلاً فى الأقطار التى احتلها الصليبيون. وعلاوة على ذلك ، فقد وجدت جماعات نسطورية صغيرة فى مدينة بيت المقدس إبان فترة الوجود الصليبى.

ويعتبر «المارون» فى لبنان آخر طائفة مسيحية يمكن ذكرها ضمن الطوائف المسيحية ، وهى الطائفة التى لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ المملكة اللاتينية، وأثرت على مصائر هذه المملكة. وعلى الرغم من الجهود المتواصلة التى بذلها المارون لإثبات مؤازرتهم للأرثوذكسية باستمرار، فإن ثمة دليل واضح يؤكد أنهم اتبعوا عقيدة الارادة الواحدة فى طبيعة المسيح. والواقع أن اللاهوتيين المحترفين هم فقط الذين أدركوا وفهموا الجدل اللاهوتى حول المذهب التوحيدى. وأصبح هذا المذهب التوحيدى عقيدة مميزة للمسيحيين اللبنانيين بعد الفتح الإسلامى وقطع خط الاتصال مع الكنيسة البيزنطية. وينسب اسم «المارونيين» إلى أحد أعضاء الطائفة وهو جون مـــارو John Maro ، الذى أدعى أنه تولى منصب البطريرك فى أنطاكية فى نهاية القرن السابع الميلادى. وعلى أى حال، فإنه فى هذا الوقت لم يكن اسم «المارونيين» معروفًا وسط بطاركة أنطاكية. فقد عاش مارو Maro فى القرن الخامس الميلادى، وأن دير القديس مارو St. Maro المقام على نهر العاصى فى بلاد الشام كان يصلح للحياة المسيحية التأملية، بيد أن نشأة هذا الدير ترجع إلى تواريخ مختلفة فى القرن السابع الميلادى. وكان «المارون» مثل جيرانهم» الدروز ، يعيشون فى مناطق لبنان الجبلية وتمتعوا بقسط معقول من الحكم الذاتى تحت الحكم الإسلامى. وكان المارون مقاتلين أشاوس ورماة سهام مهرة، الأمر الذى جعل الصليبيين ينشدون ودهم . وفى عام ١١٨٢م، نجح أماليرك Amelric البطريرك اللاتينى فى أنطاكية فى اقناع المارون للدخول فى علاقات ودية وحميمة مع بابوية روما. ووفقًا لرواية المؤرخ اللاتينى وليام الصورى William of Tyre فإن أربعين ألفًا من الشعب المارونى ارتدوا عن عقيدة التوحيد واعتنقوا المذهب الكاثوليكى. وعلى الرغم من الأحداث المختلفة التى أعقبت الجهد الكبير الذى بذلته البابوية فى القرن السادس عشر الميلادى، فإن طائفة المارون مازالت توجد حتى يومنا هذا .

وإلى الشرق من أنطاكية ، وعبر دجلة والفرات ، كان ما يزال يوجد هناك سكان مسيحيون، وخاصة الأرمن وجماعات صغيرة من السوريان، وكان هناك كنائس لليعاقبة

والنساطرة . وكانت هذه المناطق التى تحيط بتل باشر والرها، والتى كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، قد استعادت حكمها الذاتى وهويتها المسيحية تحت السيادة الصليبية الجديدة فى امارة الرها.

وفى مكان ما بين أنطاكية وطرابلس أصبح عدد السكان المسيحيين قليلاً. وفى القرن السابع الميلادى، اقتطعت جنوب بلاد الشام ، ولبنان ، وفلسطين من أملاك الإمبراطورية البيزنطية . وعلى الرغم من نجاح حركة الاسترداد البيزنطية لهذه المناطق فى القرن العاشر الميلادى فإن السكان المسيحيين اندفعوا جنوبًا إلى وادى جزريل وقيسارية على الساحل الفلسطينى، وكانت المكاسب التى جنوها عابرة وزائلة.

وخلال الأربعمائة عام من الانفصال عن السيادة البيزنطية، اعتنقت هذه الأقاليم بشكل كامل الدين الإسلامى. ومن سوء الحظ أن قلة المصادر التاريخية تجعل من المستحيل فعلاً وصف عملية انتشار الإسلام فى هذه الأقاليم. ومن الجائز أن نزعم بأن تحول هذه الأقاليم إلى الدين الإسلامى كان بطيئًا إلى حد ما، والسبب أن هذه الأقاليم وخاصة فلسطين ومعظم الأقاليم الجنوبية لم يستقر بها الفاتحون العرب المسلمون، وأن عدداً قليلاً نسبيًا من القبائل العربية قد تأصلت جذورهم واستقروا فى شريط ضيق من الأرض على امتداد الساحل . وعلى أى حال، ففى بداية القرن الحادى عشر الميلادى، كان الدين الإسلامى عقيدة الحكام وأغلبية سكان هذه الأقاليم فى جنوب لبنان. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن بعض المناطق فى جنوب لبنان ظلت ذات أغلبية مسيحية ويقينا إن الاماكن المقدسة المسيحية مثل الناصرة، وبيت لحم كانت ذات أغلبية مسيحية، بيد أن مدينة بيت المقدس كانت أيضًا ذات أغلبية مسيحية (على حد قول أحد الجغرافيين المسلمين الذين ولدوا فى هذه المدينة وهو المقدسى). وتغير هذا الوضع بعد هذه الفترة ، على الرغم من أن بعض السكان من المسيحيين كانوا ما يزالون يقطنون أحد أحياء المدينة، وهو الحى الشمالى الغربى حول الضريح المقدس فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى. فقد أبرمت اتفاقية بين الامبراطور البيزنطى وبين الحكام الفاطميين فى مصر حصل الإمبراطور بمقتضاها على حق اعادة تشييد كنيسة الضريح المقدس التى كانت قد دمرت ، وأن يتجمع كل المسيحيين فى مساكن لهم حول هذه الكنيسة فى بيت المقدس.

وانتشرت جماعات مسيحية فى مقاطعات وأقاليم ريفية خارج المدن. وانتشرت القرى المسيحية أيضًا فى كل المنطقة الريفية المحصورة بين بيت لحم ومدينة بيت المقدس، وكذلك فى

المنطقة المحصورة بين مدينة بيت المقدس وبين رام الله على الطريق الرئيسى المؤدى إلى نابلس ، وحول غزة فى جهة الجنوب، وعلى مقربة من جبل طابور فى الجليل فى الشمال.

ومن المدهش إلى حد ما هو بقاء الجماعات المسيحية الريفية فى فلسطين بعد أربعمائة عام من الحكم الإسلامى واستمرارية عملية التحول إلى الإسلام فى هذه المناطق. وكما ذكرنا آنفا فإننا فى الحقيقة لانعرف سوى القليل عن عملية التحول إلى الاسلام، وأن مانقدمه من تفسير لهذه الظاهرة هو من قبيل الافتراض تماماً.

ومن ناحية أخرى، فإن عملية التحول إلى الاسلام فى هذه المناطق لم يصاحبها ضغط عدائى واكراه من جانب المسلمين ضد غير المسلمين باستثناء فترات قصيرة جداً، الأمر الذى سهل عملية بقاء الجماعات المسيحية فى الوجود فى هذه المناطق . وعلى الجانب الآخر، يجب أن نتذكر أن الكنيسة البيزنطية كانت من كبار ملاك الأرض وظلت كذلك حتى الغزو الصليبى على الرغم من حالات المصادرة التى قام بها الحكام المسلمون لبعض هذه الأراضى. وكانت الكنيسة البيزنطية أيضًا تتدخل لتسوية أى شقاق يقع بين الموظفين المسلمين وبين فلاحى القرى المسيحية. وهكذا فإن الضياع الكنسية لم تشهد نزاعًا بين ممثلى السلطات الإسلامية أو كبار ملاك الأراضى وبين المزارعين الذين خففت عنهم وطأة الضغوط بسبب مثل هذه الاتصالات التى قامت بها الكنيسة مع الموظفين المسلمين. وكان يجب أن تكون عمليات التحول إلى الإسلام أكثر سرعة وأكثر تغلغلاً فى المدن، حيث كان الحضور اليومى للسلطات الإسلامية فى هذه المدن، والمزايا التى كان يتمتع بها الموظفون المسلمون تحث الآخرين للتحول إلى الدين الإسلامى. وعرفت المدن أيضا اصدار تشريعات ضد المسيحيين واليهود، وفرضت على هاتين الجماعتين بعض القيود كارتداء نوع ولون محدد من الملابس للحط من قدر غير المسلم. وكان هذا سببًا جوهريًا فى حث غير المسلمين لاعتناق الدين الإسلامى*.

وخلال القرن السابع الميلادى- وبشكل بطىء- حلت اللغة العربية محل اللغة اليونانية كلغة رسمية، بيد أن هذه اللغة أصبحت اللغة العامية المحلية بعد قرنين من الزمان فقط، أى حوالى عام ٨٠٠م تقريبا. ولم تستطع اللغة العربية أن تحل محل اليونانية أو الآرامية تمامًا فى الشمال أو أن تحل محل العبرية فى الجنوب .

---

* الحقيقة أن هذه القيود على أهل الذمة من قبل بعض الحكام المسلمين كانت قصيرة الأمد، وسرعان ما كانت تعود روح التسامح مع أهل الذمة ، ولم تكن هذه القيود تمثل ظاهرة، حيث كان أهل الذمة من اليهود والنصارى يتمتعون بحرية ممارسة العقيدة. (المترجم) .

وهكذا فإن عمليات احلال اللغة العربية محل اليونانية أو الأرامية أو العبرية لم تكن كاملة. فقد كانت ترجمات الكتاب المقدس، ونصوص سير القديسين ، والانتاج الأدبى هى أولى النصوص المسيحية والعربية التى ظهرت فى بلاد الشام وفلسطين ، واستمرت هذه النصوص تدون باللغة اليونانية والأبجدية الآرامية، واستمر اليهود لفترات طويلة يكتبون مؤلفاتهم بلغة عربية بحروف عبرية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن اللغات الوطنية استمرت فى الوجود وازدهرت كأداة عادية لنقل الأفكار ووسيلة من وسائل الاتصال بين العلماء. ولذا فإن عمليات التعريب باتت حقيقة مهمة فى تاريخ منطقة الشرق العربى فى القرن التاسع الميلادى، وتباطأ ايقاع عملية التحول إلى الإسلام ولم يستطع القضاء المبرم على الأديان الباكرة لهذه المنطقة.

وتشبت اليهود بموطنهم القديم، ووجدت الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة فى فلسطين وفى الأقطار المجاورة*. فقد رأى اليهود فى الفتح الإسلامى لهذه المناطق فى القرن السابع الميلادى بارقة الأمل لتحريرهم من الاضطهاد والانحلال الخلقى البيزنطى. فقد ألغى الحكام المسلمون ذلك الحظر البيزنطى الذى كان قد فرض على اليهود بعدم الاقامة فى مدينة بيت المقدس على الرغم من اصرار بطريرك مدينة القدس- الذى استسلم للفاتحين المسلمين- لكى يبقى المسلمون على شكل التشريع الراهن الخاص بالحظر على اليهود التواجد فى مدينة القدس. وبعد الفتح الإسلامى، استقرت جماعة يهودية رئيسة فى مدينة القدس بالقرب من منطقة الهيكل القديم، وبعد فترة ، استقر اليهود فى الجزء الشرقى من المدينة إلى الشرق من الحى المسيحى حول الضريح المقدس. وفى مكان ما تواجدت أكبر الجماعات اليهودية . وكانت مدينة رام الله من أهم المدن التى شيدها المسلمون حديثًا كعاصمة لهم فى جنوب فلسطين ، وهى المدينة التى حلت محل طبرية كمركز للحياة اليهودية فى الأراضى المقدسة. وحيث أن الجماعات اليهودية فى مناطق يهودا (بيت المقدس) وفى السهل الساحلى كانت توجد فى مدن، فإن وجودهم فى الجليل يقدم لنا صورة مختلفة. فقد عاش اليهود هناك فى قرى على الرغم من أن هذه القرى لم تقتصر على السكان اليهود فقط بل كانت أيضا تضم خليطا من السكان . ومن المحتمل أن

* يؤكد المؤلف على قرية حق اليهود فى فلسطين منذ القدم. ويستخدم المؤلف التاريخ فى خدمة الأغراض السياسية الصهيونية. (المترجم) .

بعض الجماعات اليهودية التى عاشت فى الجليل كانوا من اليهود المحليين الذين عادوا إلى المعبد الثانى واستقلال اسرائيل. ومن المعروف أن مدينة بيت المقدس عانت الكثير من الخراب بعد انتصار الرومان النهائى ، ومن ثم أصبح الوضع فى الجليل أكثر ملاءمة للإقامة والسكنى. وتؤيد المصادر اليهودية الأدبية والأثارية بشكل كامل فكرة بقاء السكان اليهود بكثافة كبيرة فى الشمال، بعد مئات السنين من تدمير الهيكل على يد الرومان.

وبعد الفتح الإسلامى مباشرة أصبحت طبرية مركزاً رئيسًا لتجمع اليهود. فقد ظلت أكاديمية ياشيفا Yeshiva والمقر الرئيسى للأحبار الربانيين اليهود فى طبرية لعدة أجيال حتى سنحت الظروف بنقلها إلى مدينة بيت المقدس. ولكن عشرات القرى اليهودية كانت تنتشر فى إقليم الجليل الجبلى.

ومن وقت لآخر، كانت الجماعة اليهودية فى فلسطين قوية وذات نفوذ، بسبب هجرة اليهود من الخارج. فقد حضر الحجاج والمستوطنون اليهود من منطقة العراق المجاورة (الميزوبوتاميا) ، ومن مصر ومن بيزنطة التى تبعد كثيراً عن فلسطين، ومن روسيا ومن أوربا الغربية المسيحية. فقد كان الحكم المصرى الفاطمى فى فلسطين وبلاد الشام يؤيد وجود الجماعات اليهودية فى هذه المناطق، وذلك لأن رجال الدين اليهود ذوى التأثير واقترابهم من الخلفاء والحكام الفاطميين يمكن أن يخدم مصالح هؤلاء الحكام، وأن يكبح جماح الاستبداد المتزايد للموظفين الذين يمثلون السلطة الفاطمية فى هذه المناطق.

والواقع أن ثمة دوافع قوية وراء حركة الهجرة اليهودية من منطقة غير متوقعة إلى حد ما إلى الأرض المقدسة فى القرن العاشر الميلادى. فقد كان القراءون أحد طوائف اليهود، وهى الطائفة التى تنفصل عن طائفة الربانيين اليهودية ، وهو الاسم الذى كان يطلق عليها فى القرن الثامن الميلادى. فقد ناشد بعض زعماء طائفة الربانيين فى الأرض المقدسة أبناء طائفتهم أن يتركوا أوطانهم فى الشتات (الدياسبورا) ويسرعون الخطى إلى تلك الأراضى للاستقرار فيها، وخاصة فى مدينة بيت المقدس. ولم تكن أعداد طائفة القرائين اليهود كبيرة، بيد أن كل فرد من هذه الطائفة كان حريصًا على اظهار نجاحه وازدهاره إلى حد ما وفى الغالب كانت تشهد مدينة رام الله، العاصمة الإسلامية لهذا القطر، العديد من النزاعات والصدامات بين طائفة القرائين وبين طوائف اليهود الأخرى.

وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وصلت الجماعات اليهودية إلى ذروة ازدهارها وقوتها ، وقد عرفنا هذا من خلال المراسلات المتبادلة الوفيرة فى تلك الفترة ، بيد أنه بعد جيل من الزمان، استطاع الغزو السلجوقى فى سبعينيات القرن الحادى عشر الميلادى أن يلحق الضعف والخور بوضع اليهود.

لقد أعقبت الحروب التى شنها الغزاة السلاجقة نشوب العديد من النزاعات بين القادة المحليين، وجلبت هذه النزاعات المحلية الدمار وعدم الأمن والذى انعكس أثرها السلبى على الجماعات اليهودية. وانتقلت قيادة الجماعة اليهودية ، والتى كانت تتمثل فى الجاونات Gao-nate، والأكاديمية The academy والمحكمة The Court من مدينة رام الله إلى صيدا ثم أخيراً استقرت هذه القيادة اليهودية فى دمشق ، وخضعت هذه القيادة للسيادة التركية التى كانت تبسط سيطرتها على الأراضى المقدسة باستثناء المدن البحرية . وفى نفس الوقت استقر جزء آخر من الجماعة اليهودية فى الفسطاط (القاهرة القديمة) فى مصر.

وكانت طائفة السامرة من الطوائف اليهودية، وظلت هذه الطائفة فى منطقة نابلس الجبلية، وهى منطقة سيخيم القديمة The Ancient Sichem وكانت الجماعات اليهودية تلقى من الحكام البيزنطى الاضطهادات والمضايقات تارة، والتسامح واللين تارة أخرى، وقمتعت هذه الجماعات بقدر كبير من الأمان والاستقرار تحت الحكم الإسلامى. فقد كان التقليد الخاص بطقس التضحية السرمدى على جبل جرزيم Gerizim فى يوم عيد الفصح لليهود Passover خير شاهد على تلك العقيدة القديمة التى ترجع إلى عدة قرون قبل انهيار الدولة العثمانية Hosmonean، ومما يذكر أن الكاهن الأكبر والطبقة الكهنوتية اليهودية التى قادت الجماعة اليهودية، وحولياتها القديمة التى كان يدون فيها قائمة كبار الكهنة الذين تولوا هذا المنصب من جيل إلى جيل لم تقدم لنا سوى النزر اليسير من المعلومات الخاصة بالاضطهادات والمصائب والنكبات التى تعرضت لها الجماعات اليهودية.

ويذكرنا وضع الجماعات العرقية والدينية المتعددة والمختلفة بجانب بعضها البعض بقائمة الأمم التوراتية، فقد استطاعت كل جماعة عرقية وكل عقيدة أن تساهم فى تحضر العالم، واستقرت كل هذه الجماعات منذ القدم فى هذه الأراضى التوراتية المقدسة، وخصوصاً فى مدينة بيت المقدس.

الفصل السادس

الغزاة الصليبيون

أ- طبقة النبلاء

لقد كان استيطان اللاتين فى منطقة الشرق العربى بمثابة أولى المحاولات الأوربية التى تهدف إلى تأسيس مملكة استيطانية فى هذه المنطقة. فقد نشأت معظم مجتمعات العصور الوسطى عن طريق الغزو كما نشأت هذه المجتمعات على أساس العزلة التامة والصارمة بين الغزاة وبين الشعوب المقهورة ، بيد أن مثل هذا التقسيم لم يستمر إلا بصعوبة خلال فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية والتى استمرت ما يقرب من مائتين عام. فلم يحاول الصليبيون طرد السكان المحليين، وأيضا لم يحاولوا الاندماج الاجتماعى مع هؤلاء السكان عن طريق تحويلهم إلى الديانة الكاثوليكية . ويمكن تفسير ذلك فى ضوء حقيقة أنه كان من المناسب للصليبيين الابقاء على هؤلاء السكان المحليين باعتبارهم مصدراً رئيسًا من مصادر توفير العيش والطعام لهؤلاء الصليبيين، وكان نفس السبب أيضًا يقف حجر عثرة فى وجه سياسة تحول السكان المحليين إلى الديانة المسيحية الكاثوليكية وبالتالى لم يجبر أحد منهم على مثل هذا التحول الدينى.

كان المجتمع الفرنجى بمثابة أقلية أجنبية حاكمة يخضع لها الأغلبية من سكان منطقة الشرق العربى. واحتفظ هذا المجتمع بوجوده وبنمط حياته وذلك عن طريق تدفق أعداد كبيرة من الحجاج والمستوطنين الأوربيين خلال القرن الثانى عشر الميلادى، وأيضًا بسبب خلق حواجز بين هذا المجتمع الصليبى وبين السكان المحليين الذين ظلوا فى علاقات مع الصليبيين. وبسرعة تم احتلال الصليبيين لفلسطين ، وأصبحت وطنًا لهؤلاء الغزاة وخلفائهم ، ووفقًا للخطط التى وضعها الصليبيون قدر لهم تأسيس مملكة مسيحية استيطانية على حدود الأقطار الإسلامية.

ولما كانت الحرب والغزو ليست بالظاهرة الجديدة، فإن إدارة هذه المناطق الصليبية الاستيطانية لم تكن سابقة جديدة أيضًا فى التجربة الأوربية فى العصور الوسطى. وكانت التجارب الجديدة تتمثل فى شكل المجتمع الفرنجى، وأنماط التقسيم الطبقى ، والروابط التى

تربط هؤلاء الغزاة الصليبيين بأوطانهم فى أوربا وعلاقاتهم مع السكان المحليين. وكان يمكن ادراك بعض التأثيرات الناتجة عن هذا الاستيطان ، على الرغم من أن معظم هذه التجارب والخبرات قد تطورت بفعل ظروف وأحوال منطقة الشرق العربى. وقد استخدمت بعض هذه الخبرات فى فترة متأخرة عندما تعامل الأوربيون مع ظاهرة استعمارية مشابهة فى منطقة البحر المتوسط فى العصر الحديث. ويقترح أحد المؤرخين المحدثين بأنه يمكن ادراك تأثير هذه الخبرات الأوربية الاستيطانية خلال فترة التوسع الأوربى العظيم فى جزر كانارى وفى أمريكا الشمالية.

ويبدو أن أى أوربى فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى كان ينظر إلى نبلاء المملكة اللاتينية فى بيت المقدس باحترام لأنهم كانوا يجسدون المثل العليا للفروسية . فقد كانت جسارتهم وشجاعتهم وارتباطهم بالأرض المقدسة وتعلقهم بها وبالتالى حمايتهم للضريح المقدس والذود عنه وعن المسيحية، كل هذا كان ينسب إلى أسلافهم وأجدادهم الذين قادوا الحملة الصليبية الأولى والذين رسخوا فكرتهم هذه تمثلاً بما فعله القديس المحارب جورج الذى يعتبر من أكثر القديسين شعبية وتبجيلاً . فهو القديس الذى كان يرتدى لباس الحرب ويمتطى صهوة جواده، ويعمل القتل بسيفه البتار فى ذلك التنين الرهيب وقد سجلت هذه الحادثة على عدد كبير من أعمال التصوير الجصى على الجدران أو السقوف (أعمال الفريسك) وعلى الرسوم التى كانت تزين النوافذ الزجاجية الملونة وأعمال النحت التى تزين نوافذ وأبواب وأعمدة المئات من الكنائس.

ولم تكن هذه الفكرة المثالية دائمًا بعيدة عن الواقع، إذ كان الصليبيون حقيقة مشهورين بالشجاعة ، وقوة التحمل والجسارة فى ساحة الوغى . بيد أن أى مجتمع محارب لايستطيع أن يعيش بالسيف فقط. ومع ذلك فإنه من الناحية التاريخية لم تكن الحرب بين الصليبيين وبين المسلمين مستمرة بلا انقطاع ، وأن هؤلاء المحاربين الأشاوس الذين كانوا يلحقون الرعب والهلع بمنطقة الشرق الإسلامى، قد تمتعوا بفترة طويلة من السلام- يرتبون خلالها حياة أسرهم ويديرون أملاكهم وإدارة الحياة العادية للطبقة الحاكمة الاستيطانية. وقد خصصنا فصلاً فى هذا الكتاب يعالج الحروب، وخصص الفصل الذى يليه لمناقشة المجتمع الصليبى، من حيث تأسيسه وبنيته وتطوره خلال فترة الوجود الصليبى الذى استمر ما يقرب من قرنين من الزمان.

وقد تطورت جموع الحملة الصليبية الأولى التى كانت تشكل أسس وقواعد كل الطبقات الاجتماعية فى المملكة اللاتينية . فقد خضعت الأعداد الكبيرة من الفرسان وفى العامة

لسيطرة طبقة النبلاء الفرنجية ، ولسيطرة بعض الجموع من الألمان ، والنورمان الذين جاءوا من جنوب إيطاليا ، وكانت هذه الطبقة الحاكمة تشكل نواة ومستقبل المجتمع الصليبى. وإلى حد ما أصبحت الحرب الصليبية عاملاً من عوامل تطور هذا المجتمع الصليبى. وظل العشرات أو حتى المئات الذين انضموا فى الزحف الصليبى إلى منطقة الشرق العربى مغمورين ومجهولين.

ولم يربك المؤرخ فى العصور الوسطى نفسه فى أن يسجل أصول هؤلاء الذين انضموا إلى صفوف الحملة الصليبية الأولى أو بنيتهم الاجتماعية. ونستطيع أن نحدد فقط كبار القادة. وفى بعض الأحيان حصلنا على معرفة طفيفة لبعض أفراد حاشية كبار القادة ، والذين كانوا من الفرسان أصحاب الأعمال البطولية الجديرة بالاحترام والذكر، بيد أن هؤلاء الفرسان كانوا يحظون باشارات عابرة فقط فى المصادر التاريخية. فقد أهمل ذكر الرجال الذين أتوا من الغرب الأوربى يمتطون صهوة خيولهم وكذلك الآلاف من عائلات الفلاحين الذين زحفوا برفقة هؤلاء الفرسان فى مسيرتهم البطيئة صوب الشرق العربى، واختفوا فى ضبابية الماضى وعتمته.

وتضمنت الوثائق الباكرة فى المملكة اللاتينية قائمة بأسماء حائزى الاقطاعات الأول من النبلاء فى هذه المملكة ، ومن الصعب التأكيد على أن هذه الاقطاعات كانت ضمن أملاك البيونات النبيلة الأوربية، أو حتى تتعلق بصغار النبلاء، وذلك إذا تجاوزنا عن ذكر البيوتات والعائلات الكبيرة فى الغرب الأوربى. وهذا يقودنا إلى استنتاج هام مؤداه أنه باستثناء عدد قليل من بيوتات الأمراء (مثل أسرة جودفرى البويونى ، وبوهمند من أونزانتو Otranto، وابن أخته تانكرد وريموند السانجيلى) لم تكن هناك بيوتات نبيلة تنسب إلى نبالة المملكة اللاتينية فى مرحلة تكوينها. فقد كان معظم حائزى الاقطاعات فى المملكة اللاتينية فى الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى من الرجال الجدد Homines Novt الذين بدأوا فى إدارة هذه الأملاك وتحقيق النجاح فى الأراضى المقدسة. وكان بعض هؤلاء الرجال الصليبيين الجدد الذين نزحوا إلى المناطق الصليبية ينتمون إلى الأعداد الكبيرة من الفرسان الأتباع الذين كانوا يعملون فى أوطانهم فى خدمة الحاشية الملكية أو فى خدمة أحد البيوت النبيلة المحلية. ومن المحتمل أن البعض الآخر كانوا من الفرسان الذين كانوا يعيشون فى ضياع متواضعة فى أوطانهم ، ويعيشون حياة تماثل تلك الحياة التى كان تحياها طبقة الفلاحين الأغنياء فى قراهم. ولم يكن هؤلاء الفرسان من الرجال ذوى المراكز المرموقة اجتماعيًا أو اقتصاديًا. وكان من

الطبعى بالنسبة لكثير من هؤلاء الفرسان أن يلتحقوا بأقرب أسرة اقطاعية كبيرة. وقد أدرج عدد كبير من هؤلاء الفرسان ضمن حاشية هذه الأسرة، فى حين بدأ البعض الآخر من هؤلاء الفرسان فى العمل بشكل مستقل بعيداً عن الحاشية . بيد أنه فى خلال الزحف الصليبى الطويل صوب الشرق تضاءلت المؤون وشحت الأقوات التى كانت بحوزة هؤلاء الفرسان المستقلين ، الأمر الذى جعلهم يصبحون أفصالاً لأحد القادة يؤدون له قسم الولاء والتبعية الاقطاعية. ومن الآن فصاعداً ، استطاع هذا القائد أو السيد الاقطاعى أن يكفل لهم القوت والطعام، ومن ثم يضمن ولاء أفصاله الذين سيقاتلون إلى جانبه من أجل رفع شأنه وتحقيق منفعة له .

لقد كانت هذه الجماعات والفرق الصليبية الإقليمية تمثل عدداً كبيراً من من الأصول العرقية (الاثنى) واللغوية - فقد تحدث معظم أتباع الكونت روبرت الفلاندرز اللغة الفلمنكية، على الرغم من أن قادتهم كانوا يتحدثون اللغة الفرنسية، والتحق النورمان الذين كانوا تحت قيادة روبرت النورماندى ببعض الفرسان من نورمان انجلترا ؛ ومن المحتمل أن الجموع الصليبية التى كانت تحت قيادة الدوق جودفرى من اللورين Godfrey of Lorraine كانت تتحدث لغة مزيجًا من الألمانية والفرنسية (واليوم تدعى كل من فرنسا وانجلترا أن هذه الجموع كانت تنتمى إلى هذه الأمة أو تلك ، على الرغم من أن الكونت البلجيكى كان نفسه من بين أبطال هذه الجموع) ، وكانت الجموع الصليبية من لانجدوك تضم البروفنسال وربما كان الفرسان الذين تحت قيادة ريموند السانجيلى يتحدثون اللغة القطالونية، وكان الغزاة الصليبيون الذين أتوا من جنوب إيطاليا وصقلية والذين عملوا تحت قيادة بوهمند وتانكرد يتحدثون اللغة الفرانكو نورمانية.

والواقع أن التقسيم القومى الظاهرى للجماعات الصليبية كان له تأثيره الحاسم على شخصية ومستقبل الأراضى التى احتلها الصليبيون فى الشرق العربى. فقد قام قادة الحملة الصليبية والذين أصبحوا حكامًا للامارات الصليبية الجديدة بمنح الاقطاعات والايرادات لأتباعهم وهكذا أصبحت إمارة أنطاكية الصليبية التى حكمها بوهمند ذات سمة نورمانية فى عاداتها وسماتها ، وأصبحت كونتية طرابلس التى أسسها ريموند السانجيلى بروفنسالية الطابع، فى حين كانت السمة المميزة لمملكة بيت المقدس اللاتينية تقترب من الشمال الفرنسى، وكانت كونتية الرها تختلف فى سماتها عن بداية نشأتها ، فلم يحل الغزاة الصليبيون محل

سكانها المحليين من الأرمن (وأيضا من اليعاقبة) . والواقع أن الاستيطان الصليبى فى إمارة الرها كان قصير الأمد إلي حد ما . وعلى الرغم من أن هذه الكونتية قد حكمها أفراد من أسرة بويون الفرنسية Bouillons ، ثم أفراد أسرة كورتينارى بعد ذلك ، فإن طبقة الحكام المحليين من الأرمن ظلت تمارس وظيفتها فى الادارة فى ظل السيادة الصليبية . وسواء كانت الامارة الصليبية قد اصطبغت بالصبغة النورمانية أو الفرنجية أو البروفنسالية، فإن هذه الإمارات قد استطاعت خلق طبقة نبلاء فيها من لاشيء. وكانت عملية ظهور العائلات الجديدة فى قطر فى حالة حرب مستمرة تستغرق زمنًا طويلاً، حيث كان يتعرض عدد كبير من أفراد هذه العائلات للهلاك والقتل فى هذه الحروب على يد الأعداء، أو أن قسوة المناخ وانتشار بعض الأوبئة المهلكة كانت تساعد أيضا فى هلاك بعض أفراد هذه العائلات . وكانت طبقة النبلاء تتكون ذاتيا من رجال وفرسان اعتمدت مهنتهم ونشاطهم على الشجاعة الفردية لهؤلاء.

ووفقًا لما يذكره المؤرخون أن كثيرا من الصليبيين المفلسين أصبحوا أثرياءً خلال فترة الحرب ، بسبب حصولهم على أملاك مكتسبة فى المدن التى تم احتلالها ، وكانت هذه الأملاك هى أول الممتلكات الحقيقية التى تم اكتسابها فى الأراضى المقدسة بشكل قانونى وشرعى وذلك بموجب «قانون الغزو» الغريب والذى سنه الحكام الصليبيون خلال الحملة الصليبية الأولى. واستطاع الفارس والعامى غرس جذورهم الاقتصادية فى هذه المناطق الجديدة التى استوطنوها فى منطقة الشرق العربى.

ويبدو أن «قانون الغزو» هذا قد طبق على الممتلكات والأملاك الريفية، وتذكر المصادر التاريخية أن كثيراً من القرى المجاورة لمدينة بيت المقدس لم تعد تذكر باسمها القديم العبرى، أو اليونانى، أو العربى، بل أصبحت هذه القرى تعرف باسم المحارب الصليبى الذى امتلكها . وفى الفترة الباكرة من تاريخ المملكة اللاتينية ادعى الفرسان الصليبيون ملكية عدد كبير من القرى بقوة القانون الذى كان يعرف باسم «قانون الغزو Law of Conquest».

وفى بعض الحالات ، كان لانتزاع مثل هذه الأراضى نتائج سياسية مهمة. وعندما احتل تانكرد مدن نابلس، وبيسان ، وطبرية وجبل طابور، لم يكن الهدف من وراء هذا الاحتلال اكتساب أملاك بسيطة ، بل كان يهدف إلى تأسيس إمارة مستقلة. وكانت مناشدة أهل أنطاكية لتانكرد واستدعاؤه ليحكم مدينتهم فى أثناء غياب بوهمند هى فقط التى حالت دون تأسيس دولة لاتينية إضافية فى منطقة الشرق. بيد أن هذا كان بمثابة حالة استثنائية تأكدت

من خلال وضع ومكانة الحاكم النورمانى فى أنطاكية . ولم يفكر صغار الفرسان الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى فى مثل هذه العلاقات المتبادلة بينهم وبين السكان الوطنيين. فقد كانوا يتطلعون إلى امتلاك الضياع الريفية أو امتلاك مدينة لكى يعززوا وضعهم ومكانتهم فى المجتمع الجديد. ويمكننا الاعتقاد بأن صغار الفرسان الصليبيين كانوا يقحمون أنفسهم فى مغامرات خطيرة تمثلت فى الاعتداء على الريف المحيط بمدينة بيت المقدس، حيث كان الأتراك السلاجقة الذين اعتادوا الاغارة وأعمال السلب والنهب، وقبائل البدو، والفلاحون ، ينصبون لهم الكمائن للايقاع بهم والقضاء المبرم عليهم. ولم تكن القرى محصنة ولم يستطع القرويون الهجوم على أى فرنجى خوفًا من انتقام الجيش الصليبى. وربما كان بعض الفرسان ورفاقهم يحتلون قرية ويدعون ملكيتهم لها. وقد حدث مثل هذا قبل وقت قليل من بسط الادارة الملكية البدائية سيطرتها على الريف الذى خضع لهؤلاء الفرسان الصليبيين. وكانت هذه القرى المحتلة تمنح لهؤلاء الغزاة الصليبيين فى صورة اقطاعات أو أراضى مستأجرة، وكان يتم التصديق على هذا الوضع وإقراره من خلال قيام هؤلاء الملاك بتأدية يمين الولاء والتبعية الاقطاعية للملك الصليبى.

كان الملك الصليبى هو السيد الاقطاعى الأعلى للغزاة. إذ كان يقوم بتنظيم وقيادة كل حملة عسكرية مهمة، ويوقع المعاهدات مع الإيطاليين من أجل مشاركة الأساطيل الإيطالية فى مساعدة الصليبيين فى فرض الحصار على المدن الساحلية. ولم تُقَطع المدن فور سقوطها مباشرة لأحد من القادة الصليبيين سواء فى عهد جودفرى أو فى عهد الملك بلدوين الأول وانتهج الملوك الصليبيون سياسة حكيمة وحذرة ، وكانوا يهدفون من وراء هذه السياسة تأسيس منطقة نفوذ ملكية (دومين ملكى) مهمة قبل منح الاقطاعات لأفصالهم وأتباعهم. وفى العادة كانت المدينة المحتلة تستقبل حاكما ملكيا وحامية عسكرية ملكية أيضًا. وكان يخصص نسبة من ايرادات هذه المدينة من الضرائب ورسوم الجمارك للانفاق منها على اعاشة هذا الحاكم وأفراد الحامية العسكرية، ولم يمنح الملك الصليبى الاقطاعات السيادية الحقيقية لأفصاله من الفرسان إلا فى نهاية العقد الأول من القرن الثانى عشر الميلادى. فقد كانت الاقطاعات من القرى المحتلة، والأملاك المصادرة فى المدينة المحتلة أيضًا والموارد المحلية كالضرائب المخصصة للصليبيين تمثل العماد الاقتصادى الباكر لطبقة الفرسان. وكان عدد كبير من الفرسان يتقاضون مرتبات نقدية من الملك بشكل مباشر. والواقع أن هؤلاء الفرسان كانوا مجرد طبقة من

المحاربين المأجورين يتقاضون رواتب نقدية فقط، على الرغم من أنهم كانوا يؤدون يمين الولاء والتبعية الاقطاعية للملك الصليبى .

وظهر النموذج الباكر للنظام الادارى الصليبى فى نهاية العقد الثانى من فترة الوجود الصليبى وهى الفترة التى كانت تتزامن تقريبا مع احتلال الصليبيين لكل المنطقة فى عام (١١٢٠م) . وعلى الرغم من أن الدومين الملكى كان ما يزال شيئًا جوهريًا وأساسيًا تمامًا ، فإن شطراً كبيراً من الأرض قد قسم إلى اقطاعات ومقاطعات يمتلكها سادة اقطاعيون . ومن المرجح أن عملية منح الاقطاعات للسادة الاقطاعيين قد تضمنت أن السيد الاقطاعى الجديد يمكن أن يقطع جزءاً من أملاكه الاقطاعية لأحد أفصاله مقابل تأدية الفصل الخدمة العسكرية لهذا السيد . بيد أن حائزى الاقطاعات المهمة والتى حصلوا عليها من التاج الملكى انتهجوا السياسة الملكية فى عدم الميل إلى تقسيم الأراضى التى اكتسبوها حديثًا . ومن أبرز السمات المميزة للتنظيم الاقطاعى الصليبى فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس هو أن الاقطاعات التى يمكن منحها للغير لاتتجاوز اقطاع فارس أى الاقطاعات التى تكفى لتجهيز فارس واحد فقط. كما كانت تعرف فى المصادر اللاتينية ، وأيضا فى أوربا فى العصور الوسطى. وكان يحدث فى بعض الحالات الاستثنائية فقط أن يمنح اقطاع كبير لأحد الحائزين ، بحيث يستطيع هذا الحائز أن يقطع بعض اقطاعاته لأفصاله الفرسان. وثمة سمة أخرى كانت تميز النظام الاقطاعى الصليبى وهى وجود الاقطاع النقدى كبديل لاقطاع الأرض، وكان هذا الاقطاع النقدى عبارة عن حق تحصيل ايجارات مرافق فى مدينة مثلاً أو أية أملاك فيها. ولم يعرف الاقطاع النقدى أو اقطاع البيزنت Fieg de Sesant فى أوربا فى حين كان الاقطاع الأوربى يعرف طريقة استثنائية لتعويض الخدمة العسكرية وكبديل عنها وهى الخدمة التى كان على الفصل تأديتها وتقديمها لسيده الاقطاعى. وكانت هذه السمات الاقطاعية مألوفة وشائعة تمامًا فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، ولم يقتصر تطبيق هذه النظم والقوانين الاقطاعية على صغار الفرسان فحسب، بل طبق على كبار السادة الاقطاعيين. ويمكن أن نعزو هذا التطور المهم للنظام الاقطاعى فى المناطق الصليبية إلى سببين رئيسيين: ويرجع السبب الأول إلى أن الاقطاعات الصليبية كانت صغيرة نسبيًا ، ولذا أدرك حائز هذه الاقطاعات أنه لم يجن أية مكاسب إدارية أو مكاسب أخرى من وراء تقسيم اقطاعاته ومنطقة نفوذه. وكان حائز الاقطاع يفضل منح جزء من إقطاعه لأفصاله المباشرين لكى يضمن الحصول على الخدمات العسكرية

التى يقدمها له صغار الفرسان من أفصاله دون وساطات وتدخل من النبلاء، أو من كبار الفرسان . والسبب الثانى يرجع إلى التأثير المباشر للظروف المحلية للمنطقة التى عاش فيها الصليبيون فى الشرق العربى. ومن المحتمل أن الصليبيين قد شادوا مجتمعًا اقطاعيًا فى ظل ظروف منطقة تعرف نظامًا اقتصاديًا نقديًا متطوراً . فلم تكن فلسطين وبلاد الشام، وأيضا أقطار الشرق الإسلامى، تعتمد فى اقتصادها على الاقتصاد الطبيعى على وجه الحصر، الذى يقترن باستخدام محدود جداً للنقود. فقد كانت العملات الإسلامية من الدنانير الذهبية، والهيبربيرون الذهبية البيزنطية والدراهم الفضة الإسلامية، وهى العملات التى كان يضرب معظمها من الذهب الخالص والفضة المخلوطة بمعدان خسيسة، بمثابة الأدوات المستخدمة فى التداول التجارى والتبادل التجارى العالمى، وتبنى الصليبيون هذا النظام من الاقتصاد النقدى، لأنه لم يكن هناك اختيار آخر أسهل من هذا النظام فى منطقة الشرق العربى.

وهكذا أدخل الصليبيون استخدام النقود حتى فى نظامهم الاقطاعى . فقد كانت ضرائب السوق ورسوم البوابات ، والرسوم الجمركية فى الموانىء، والضرائب المدنية التى تفرض على الضياع الحقيقية، وكذلك رسوم تجارة الصادرات ، تدفع نقداً وكان من الطبيعى أن يخصص السيد الاقطاعى بعض هذه الموارد المالية لأفصاله. وساد الاقتصاد النقدى، ووجد صغار الفرسان أنه من المناسب لهم أن يحصلوا على دخلهم الاقطاعى نقداً بدلا من الحصول على اقطاع الأرض. وهكذا أصبح الاقطاع النقدى سمة سائدة فى النظام الاقطاعى فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس.

وكان لتطور النظام الاقطاعى الصليبى تأثير كبير على بنية المجتمع الفرنجى . وبمقارنة هذا النظام الاقطاعى الصليبى بالنظام الاقطاعى الأوربى الذى كان معاصراً له، نجد أن روابط التبعية فى الاقطاع الصليبى اتسمت بالبساطة، بيد أنها فى نفس الوقت تسببت فى إحداث استقطاب سريع داخل طبقة النبلاء، والواقع أن روابط التبعية الاقطاعية قد شطرت طبقة النبلاء إلى مجموعة من كبار النبلاء وكبار ملاك الأراضى، وإلى عدد كبير من الأتباع من صغار الفرسان. ولم يكن صغار الفرسان فى الغالب أكثر من أتباع وراثيين يتقاضون مرتبات مالية. ولم نجد شيئًا يذكرنا بطبقة حاملى الدروع الأوربية كثيرة العدد. وكان عدد قليل من أفراد هذه الطبقة يمتلكون القرى، ونادراً ما كان أفراد هذه الطبقة يعيشون فى ضيعة ريفية كبيرة الحجم . ولم يكن أفراد هذه الطبقة على اتصال مع المناطق الريفية، الأمر الذى جعلهم

يحملون سمة شريف المدينة الرومانية فى المدن. لقد كانت الأرض المقدسة منطقة متحضرة بشكل ممتاز. فقد ورث الحكام المسلمون التقليد الهللينستى والرومانى والبيزنطى الخاص بتنظيم الوحدات الادارية وتمركزها فى المدن ، والاقامة فى المدن مركز الحكم ومقر السلطة ، ولم يجد الحكام المسلمون مبرراً لتغيير هذا النظام الادارى السابق. وتواءم الصليبيون مع هذه الحقائق وجعلوا نظامهم الاقطاعى يتواءم ويتكيف مع ظروف المنطقة التى يعيشون فيها . وبالإضافة إلى ذلك، فإن حكام المدن كانوا أيضًا يبسطون سيطرتهم على المناطق الريفية غير المحصنة. وكان تحصين المناطق الريفية فى منطقة الشرق العربى ابتكاراً صليبيًا إلى حد كبير، بيد أن هذه القلاع التى بناها الصليبيون بطريقة حديثة- حتى زصغر القلاع- كانت تحيط بتكتلات حضرية من السكان أو كانت تحيط بأحياء محصنة ومن ثم أصبحت هذه القلاع بمثابة مدينة جديدة*.

ولم تعرف أوربا مثل هذا النمط من الاستيطان فى ذلك الوقت ، وبرزت شخصية الفارس الفرنجى أكثر ابتذالاً . فقد كان فصلاً (تابعًا) اقطاعيًا، يقسم يمين الولاء والتبعية الاقطاعية ، ويؤدى لسيده الالتزامات الاقطاعية العادية مثل المشورة وضريبة الاعانة aid؛ بيد أن خزانة السيد الاقطاعى أو أى فرع من فروعها كانت تدفع له راتبه نقداً ، وأحيانا كان يحصل على جزء منه عينًا: فى صورة قمح وشعير، وزيت ، وعلف للماشية. وعلى الرغم من أن الدفع العينى كان نتاج ذريعة أو حيلة ، فإنه كان يمارس فى بعض الجيوش الإسلامية. وعلى سبيل المثال، فإن الدفع العينى كان نظامًا مألوفًا ومتداولاً كوسيلة من وسائل الدفع بين المماليك فى مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى، ولذا لم يكن مستحيلاً أن يتأثر الصليبيون بجيرانهم المسلمين.

ويمكن التأكيد بأن الملاك الصليبيين الأوائل للاقطاعات، كانوا من محدثى النعمة. وعلاوة على ذلك، فإن هؤلاء الملاك الأول كانوا باستمرار عنصرا.متغيراً لمدة تزيد عن جيل. فقد كان ملوك بيت المقدس يمنحون اقطاعًا لشخص ثم بعد فترة يمنحوه لشخص آخر وبعد سنوات قليلة يؤول هذا الاقطاع مرة ثانية لملك بيت المقدس الصليبى، لكى يمنحه ويقطعه لأى سيد اقطاعى

---

* لمعرفة المزيد عن شكل المدينة الصليبية والتغيرات المعمارية والتخطيطية التى طرأت عليها والتى أدخلها الصليبيون. انظر (عبد الحافظ عبد الخالق البنا الأسواق فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام ، (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٩).

آخر. وكان حدوث مثل هذا لايعنى أن قانون الوراثة قد أصبح موضوعًا للمناقشة والجدل. ويقدر ما نرى ، فإن «قانون الوراثة» قد وجود منذ البداية كتقليد وعرف شرع فى أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى. وكانت بنية المجتمع الصليبى فى الفترة الباكرة هى السبب المباشر فى حدوث عمليات الاستيراث escheats الدائمة للاقطاعات، أى أيلولة هذه الاقطاعات للسلطة الملكية بعد وفاة صاحبها . فقد كان الكثير من النبلاء الذين انضموا إلى الحملة الصليبية الأولى من المتزوجين ، الذين تركوا عائلاتهم خلفهم فى أوربا. وكانت الغالبية العظمى من الجموع الصليبية من الصبية ومن الفرسان حديثى السن ومن الفرسان الكبار ، كما ضمت هذه الجموع أيضًا عدداً قليلاً من النساء. وقد تأكد ذلك جيداً من خلال حالات التزاوج بين الصليبيين وبين السكان المحليين؛ ونتج عن هذا التزاوج جيل جديد عرف باسم البولان*. وكانت كلمة بولان Pullan* الصليبية تعنى «الفتية» ، وأطلق هذا الاسم على الأبناء الذين يولدون نتيجة التزاوج المختلط بين الرجال الصليبيين وبين النساء الشوام، وهذه الكلمة مشتقة من أبوليا Apulie الواقعة جنوب ايطاليا . وهكذا كان اسم بولان يطلق على الأبناء الذين يولدون من أب صليبى ومن أم من بلاد الشام، فكانت أمهاتهم تلدهم وتربيهم ولم يختلف وضع هؤلاء الأمهات عن وضع نساء لاروشل La Rochelle ولى هاقر Le Havere اللاتى أرسلن إلى كندا فى القرن السابع عشر الميلادى .

لقد كان غياب الروابط والالتزامات الأسرية السبب الرئيسى فى عدم استقرار طبقة كبار النبلاء الحاكمة. وكانت وفاة أى نبيل صليبى تعنى أن اقطاعه ومنطقه نفوذه أصبح شاغراً ، ونادراً ما كان يوجد ولد أو قريب لهذا الفصل المتوفى يطالب بوراثة هذا القطاع. ولذا كان هذا الاقطاع الشاغر تؤول وراثته إلى التاج الملكى، وعندئذ يصبح الملك الصليبى حراً فى أن يعيد منح هذا الاقطاع لأى فارس من أتباع الملك يكون جديراً بهذا الاقطاع. بيد أن هذا الاقطاع الذى كان يتركه صاحبه المتوفى كان فى الغالب يمنح إلى أحد النازحين الصليبيين الجدد الذى يقرر الاستقرار والاقامة فى منطقة الشرق.

---

* البولانى Pullan : تطلق كلمة بولان على هؤلاء الذين ولدوا فى الأراضى المقدسة من الصليبيين ويرى دى فيترى أن سبب التسمية إما لأنهم من المواليد الجدد فى هذه الأراضى المقدسة مثلما يحدث فى حالة الفروخ الصغيرة التى تخرج إلى الحياة Pullets أو أن هذه التسمية ترجع إلى أن معظم أمهات هؤلاء البولان كانوا من مملكة أبوليا حيث تم استقدامهن إلى الأراضى المقدسة وزواجهن بالصليبيين الذين استقروا بعد الحملة الأولى . (De vitry , the History of Jerusalem, p. 58)

وبعد جيل من تأسيس المملكة الصليبية أمكننا أن نتبين أصول ملاك الاقطاعات من الصليبيين بشكل أكثر وضوحًا عن ذى قبل وظهرت خلال هذه الفترة أيضا عملية انتقال وراثة الاقطاعات بشكل منظم . وفى تلك الفترة أيضا تأسست البيوتات والأسر الصليبية الحاكمة والتى عرفت باسم عائلات ما وراء البحار، والتى حظيت بالتمجيد والتقدير فى الكتابات التاريخية والأسطورية والأدبية لما تتمتع به من فضيلة الفروسية والشجاعة والبسالة.

وعلى الرغم من ذلك، كان المجتمع الصليبى ما يزال هشًا غير متماسك وغير مستقر . وكانت المشكلة الرئيسة التى أقضت مضجع هذا المجتمع تتمثل فى افتقاره المزمن للقوة البشرية المناسبة ، التى يحتاج إليها الوجود الصليبى بشكل ملح من أجل الدفاع عن المملكة وتوسع حدودها . وكانت كل القوانين التى صورت وأعلنت فى هذه الفترة الباكرة تعكس مجهوداً صليبيًا كبيراً وواعيًا من أجل جذب الفرسان الأوربيين إلى المناطق الصليبية فى بلاد الشام. فقد كانت القوانين الاقطاعية الباكرة تقضى بمنح اقطاع الشخص بعد وفاته لورثته المباشرين فقط ، ولكن بعد ذلك أصبحت الاقطاعات الجديدة تمنح للشخص وبعد وفاته تصبح حقًا لكل أقاربه المباشرين وغير المباشرين وساهم القانون الاقطاعى السابق فى تقوية وتعزيز أساس الأسرة الحاكمة وفى نفس الوقت جعل الاستيطان الصليبى أكثر جاذبية. وأقر القانون الاقطاعى فى المملكة الصليبية مبدأ حق أبناء الفصل المتوفى من الاناث فى وراثة الاقطاع ، وهو القانون الذى لم تعرفه أوربا كلها فى تلك الفترة . بيد أن التشريع الملكى الصليبى استطاع كبح جماح النبلاء. فقد كان القانون الاقطاعى الصليبى الباكر يمنع تركيز ملكية الاقطاعات للحائز فى منطقة واحدة فقط. فكان على حائز الاقطاع أن يتجنب ويتفادى عملية توريث اقطاعه لقريبه البعيد وولكن كان يجب عليه أن يورث اقطاعه لقريبه المعدم الذى لايمتلك أرضًا . وكان مثل هذا التشريع يهتم بتوظيف الأرض والموارد المالية للملكة الصليبية بأسلوب اقتصادى إلى حد بعيد . فقد شجع هذا التشريع عملية هجرة الأوربيين إلى هذه المناطق الصليبية والاستيطان فيها وذلك بأن كفل لهؤلاء الذين سيهاجرون فى المستقبل حيازة الأملاك الاقطاعية .

وتغيرت نزعة المساواة التى كان يتضمنها التشريع الصليبى الباكر بشكل قوى فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى. فقد أصبحت الأسرة الحاكمة أكثر قوة وذلك لأن اقطاعاتها كانت تنتقل إلى عائلات هذه البيوتات الحاكمة ، وأصبحت هذه الأسر الحاكمة أيضا

أكثر ثراءً بفضل الاستقرار السياسى الذى عاشته المملكة اللاتينية بعض الوقت، ووجد فائض الانتاج الزراعى طريقه إلى منافذ جديدة فى المراكز والمدن التى استقر فيها الصليبيون حديثًا، وساهم عائد التجارة - وخاصة فى المدن البحرية- فى تقوية نفوذ طبقة النبلاء وأحدث طابعًا مختلفًا فى العلاقات بين الملك الصليبى وبين النبلاء .

ولا نجافى الحقيقة إذا قلنا إن الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى هو بمثابة فترة تشكلت فيها وخلالها طبقة كبار النبلاء. فقد ألغيت قوانين المساواة الصليبية الباكرة التى كانت تعارض تراكم الاقطاعات وتجميعها فى يد شخص واحد. ومن الآن فصاعداً ، تغير مستقبل وشكل سلوك طبقة كبار النبلاء، بسبب قانون وراثة وانتقال الاقطاعات والدوطات الاقطاعية. وأصبحت طبقة كبار النبلاء منغلقة على أعضائها فقط لم يدخلها أحد. وكان أى نبيل صليبى يستطيع أن يكفل لأبنائه من الاناث (بناته) مركزا اقتصاديًا واجتماعيًا مستقراً من خلال تزويجهن من رجال ذوى مركز مرموق . وقد أدى هذا إلى خلق دائرة مغلقة من العائلات الغنية من ملاك الأرض، وهى العائلات التى ارتبطت فيما بينها بأواصر المصاهرة وروابط القرابة التى ترجع إلى الأسلاف والأجداد . وبسبب التزاوج المتكرر بين هذه العائلات أصبح عدد أفرادها قليلاً *، فى حين تنامت وكثرت ممتلكاتهم باستمرار .

وبنهاية فترة المملكة الصليبية الأولى لم يكن هناك أكثر من ست أو عشر عائلات تنتمى إلى طبقة كبار النبلاء. ووصلت طموحات وادعاءات أفراد هذه الطبقة إلى أوج ذروتها . فقد كانوا يتوقون إلى وقف التدخل الملكى فى اتمام عقود الزواج وذلك من خلال اصرارهم على تأكيد أهمية موافقتهم على زواج وريثات الاقطاعات ، وكان الهدف من وراء ذلك منع عملية التزاوج غير المتكافىء mesalliances بين تلك الوريثات وبين أولئك الرجال والأزواج الذين يختارهم الملك. وفى تلك الفترة حدث تزاوج بين أفراد طبقة كبار النبلاء وبين الأسرة الملكية فى بيت المقدس وفى النهاية تزوج أفراد طبقة النبلاء من البيت الحاكم فى أرمينية ، ومن الأسر البيزنطية فى القسطنطينية. وكان أى نبيل فى المملكة اللاتينية فى مدينة القدس يستطيع أن يكف عن التقدم والطموح اقتناعًا بثروات عائلته تلك العائلات التى ظهرت إلى الوجود من خلال جماعات الفرسان المغمورين والمفلسين الذين هاجروا إلى الشرق . وبعد جيلين استطاع

* يمكن تفسير مثل هذه الظاهرة فى ضوء النتائج التى تترتب عن زواج الأقارب والأخطار الصحية التى تصاحبه. (المترجم) .

خلفاء طبقة النبلاء كبار النبلاء الادعاء بأنهم يعتبرون من أشهر العائلات المسيحية. ومثل هذا التمجيد الذاتى للفرد لم يكن معروفًا فى تلك الفترة، وبذل بعض أفراد هذه الطبقة قصارى جهدهم لكى يمحو التذكر بأصولهم المتواضعة . ولم يستطع كل فرد من هذه الطبقة الادعاء بأنه ينحدر من أصل عريق مثل جودفرى البويونى ، على الرغم من أن هذا الشخص كان يستطيع أن يتباهى ويتفاخر بوالديه اللذين ينحدران من نسب شارلمان. وحاول بعض أفراد هذه الطبقة على الأقل أن ينسبوا عائلاتهم إلى النبلاء الأوربيين وقت الحملة الصليبية الأولى.

وكانت أسرة ابلين Ibelin من أشهر العائلات الفرنجية النبيلة التى ظهرت فى منطقة الشرق العربى. وعلى الرغم من أن تقاليد أسرة ابلين تعزو نسبهم إلى فيكونت مدينة شارتر، فإن هناك احتمالاً قويًا يؤكد أنهم ينحدرون من سلالة أحد التجار البيازنة ، أو من طبقة صغار الفرسان النورمان فى صقلية، وهذا الرأى هو نتاج جدل ونقاش طويل قام به بعض الباحثين فى العصر الحديث. وفى نهاية المملكة الصليبية الأولى وفى أثناء المملكة الصليبية الثانية فى عكا حدث تزاوج وعلاقات مصاهرة بين أسرة ابلين وبين كل العائلات النبيلة التى تشمل الأسرة الحاكمة فى أنطاكية وطرابلس، والعائلة الملكية فى بيت المقدس وأسرة لوزجنان الحاكمة فى قبرص.

وكان انغلاق دائرة طبقة كبار النبلاء واقتصارها عليهم فقط يؤدى فى الغالب إلى التصادم مع السياسات الملكية الصليبية ولم تكن دائما تخدم الصالح العام. ولما كان الجيل الأول وبعض فترة الجيل الثانى من طبقة النبلاء الفرنجة يستقبل بالترحاب أولئك القادمين الجدد من الأوربيين إلى المناطق الصليبية بشكل تلقائى، فإنه بحلول منتصف القرن الثانى عشر الميلادى طرأ تحول وتغير فى موقفهم هذا . ففى هذه الفترة تغيرت نظرة أفراد طبقة النبلاء الفرنجة تجاه القادمين الجدد من الأوربيين، واعتبروهم منافسين لهم، ومتطفلين. وتجلى هذا الموقف العدائى تجاه القادمين الجدد فى وقوف النبلاء الفرنجة المحليين فى وجه تيرى الفلاندرز Thierry of flander الذى قام بأربع رحلات حج إلى الأراضى المقدسة وجد مثل هذه المعارضة والنفور، حيث فضل هؤلاء النبلاء المحليون التفاوض مع المسلمين المحاصرين فى شيزر وفك هذا الحصار فى عام ١١٥٧م لكى لايروا مدينة شيزر تخضع لسيطرة أحد القادمين الأوربيين الجدد.

ولاشك أن مثل هذه المواقف المتطرفة للنبلاء الصليبيين المحليين أحيانا كانت تتعارض مع خفقان قلب بعض الورثيات الصليبيات ، وتمثلت هذه المواقف المتطرفة فى حالة الفارس المفلس

رينو شاتيون Renaud de Chatillon (القريبة من باريس) الذى جاء إلى الأرض المقدسة فى صحبة حاشية الملك الفرنسى لويس السابع. فقد قرر رينو دى شاتيون (أرناط) أن يمكث فى الأراضى المقدسة بعد العودة المتهورة والسريعة لسيده الملك الفرنسى، الذى أخفق فى حصاره لمدينة دمشق بسبب خيانة وغدر الفرنجة المحليين وبسبب تلك الشكوك التى ساورته حول الانحراف الأخلاقى والخيانة الزوجية من جانب زوجته الشهيرة اليانور من اكويتيين Eleanor of Aquitaine .

والتحق رينو دى شاتيون (أرناط) ذلك الفارس الشاب الأنيق بالمجموعة الأساسية الذى تنافس أفرادها من أجل الزواج بأرملة حاكم أنطاكية. وتفوق ذلك الشاب المغامر على كل منافسيه وظفر بحب وقلب هذه الأميرة بسبب جمال وسحر مُحيَّاه، بيد أن موافقة الملك الصليبى على اتمام مثل هذا الزواج كانت ما تزال ذات أهمية وضرورية وترك رينو دى شاتيون حصار قلب تلك الأرملة وكسب فؤادها لكى يحاصر مدينة عسقلان فى عام (١١٥٣م) ولكى يلاقى ملك بيت المقدس الصليبى على غير توقع. فقد خشى رينو دى شاتيون الشائعات الشائنة والكريهة التى أطلقت على تلك الأميرة الفاتنة ، وكانت الأميرة سعيدة لاتمام مثل هذا الزواج منه. وكان اختيار الأميرة موفقًا وممتازاً . فقد نجح رينو دى شاتيون فى الدفاع عن إمارته ونشر الهلع والخوف فى قلوب جيرانه من المسلمين. ولكن سوء حظه العاثر ساقه إلى غياهب السجن والأسر مدة أربعة عشر عامًا فى أحد السجون فى حلب وذلك بعد أن قبض عليه المسلمون فى كمين نصب له، وخلال فترة الأسر استطاع رينو دى شاتيون تعلم اللغة العربية واللغة التركية وأتقنهما حديثا وكتابة . وعندما تحرر من الأسر وجد نفسه أرملاً قد ماتت زوجته ووجد إمارته تحت حكم ابن زوجته من زوجها الأول. ورغم ذلك كانت هناك ممتلكات جديدة قريبة المنال ويمكن الحصول عليها. فقد توفى الحاكم الصليبى لمنطقة ما وراء نهر الأردن تاركًا وريثة أنثى هى ابنته اشيف دى ميللى Eschive de Milly وعلى الفور تقدم رينو دى شاتيون للزواج من هذه الوريثة ودفع الدوطة المناسبة ، وبعد عدة سنوات حاول رينو دى شاتيون احتلال مكة والمدينة بمساعدة أعوانه وأصدقائه من البدو. فقد بنى السفن فى قلعة مونتريال فى منطقة ما وراء نهر الأردن ، ونقلها تدريجيًا إلى العقبة وانطلق بهذا الأسطول فى البحر الأحمر، يزرع الرعب فى قلوب حكام القاهرة وحكام جدة فى محاولة للابحار إلى مضيق باب المندب لكى يصل إلى الطريق التجارى المؤدى إلى بلاد الهند. بيد أن هذا المغامر الصليبى قد لقى حتفه على يد صلاح الدين الأيوبى الذى أطاح رأسه بالسيف .

لقد كانت قصص المغامرات الصليبية الحقيقية مثل قصة المغامر رينو دى شاتيون تحكى حول القلاع الأوربية على أسماع الناس لكى تثير خيال وتلهب عاطفة صغار الفرسان ، وتجعلهم يحلمون بالذهاب إلى الأراضى المقدسة الموعودة فى فلسطين . ومن سوء الحظ أن الواقع كان مختلفًا عن الحلم ، إذ نقص عدد الوريثات ، وتزوجن من النبلاء المحليين، وأرادت طبقة النبلاء المحليين تزويج أحد أفرادها وهو بلدوين من رام الله من سيبيلا Cibylle وريثة العرش الملكى (بعد وفاة أخيها بلدوين الرابع الذى لم ينجب أطفالاً). وتزوجت سيبيلا من من أحد القادمين الجدد الأوربيين وهو وليام لونجسورد William Longsword وبعد وفاته تزوجت من جاى لوزجنان Guy de Lusignan الشجاع (ومن سوء الحظ كان هذا الزوج يفتقر إلى الحنكة السياسية والعسكرية). وهكذا انتزعت أثمن هدية من يد النبلاء المحليين. وأثار هذا استياء وسخط واحد من أقوى أعضائهم الشجعان هو ريموند من طرابلس Raymond of Tripoli (سيد (الجليل عن طريق الزواج) ، وأسفر هذا الحدث عن الحاق التفكك والانقسام فى وحدة المملكة الصليبية عشية موقعة حطين الشهيرة.

واستطاع كبار الأعيان من النبلاء أن يجمعوا بين امتلاك الاقطاعات وبين تولى الوظائف فى الادارة الملكية الصليبية، واحتكروا السلطة الحقيقية فى المملكة اللاتينية ، فى الوقت الذى ضعفت فيه السلطة الملكية وأصبحت ظلا لمجد غابر. ووفقًا للنظرية الاجتماعية فى العصور الوسطى، كان كل الأعيان وكل الفرسان ينتمون إلى طبقة النبلاء. وكان معدل ثراء الفارس أقل من معدل ثراء التاجر فى أية مدينة من المدن البحرية، بيد أن الفوارق الطبقية كانت أكثر وضوحًا وكان من العسير الانتقال إلى طبقة عليا فقد كان الحراك الطبقى الاجتماعى بطيئًا للغاية. وتميز صغار الفرسان المفلسين الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء بنظام تربية مختلف ونمط حياة وأفكار مختلفة أيضًا . وقد اعتبرهم القانون والتشريع الملكى الصليبى من طبقة النبلاء على الرغم من أنهم كانوا يمثلون احدى شرائح طبقة النبلاء، ولم يكن هناك تجانس بين هذه الشرائح الثلاث لطبقة النبلاء، وهى الطبقة التى انقسمت إلى ثلاث شرائح: الأعيان (الرجال الأغنياء) ، والبارونات ، وصغار الفرسان Lesser kinghts ، ولم يكن هناك تمايز طبقى أو قانونى بين هذه الشرائح الثلاث التى انقسمت إليها طبقة النبلاء.

وعلى الرغم من مواطن الضعف فى المصادر التاريخية ، فإنه يمكن تكوين صورة واضحة لهذه الطبقة. فقد كان فى مقدور المملكة اللاتينية وحدها أن تحشد جيشًا (من غير قوات

الهيئات الدينية العسكرية وقوات المرتزقة) يقدر بستمائة فارس. ففى الاشتباكات والمعارك الصغيرة التى ذكرتها المصادر التاريخية نادراً ما كان يصل عدد المحاربين المشتركين إلى أكثر من هذا العدد الضخم وحتى فى أكثر المغامرات والحروب العسكرية مثل هجوم الملك الصليبى عمورى الأول على مصر لم يصل عدد المحاربين فى هذه المعركة إلى أكثر من ثلاثمائة فارس (وهو العدد الذى ذكرته احدى المصادر التاريخية المعاصرة).

وفى العادة كان صغار الفرسان يعيشون فى المدينة، حيث كانوا يعملون إما أعضاءً وأفراداً فى الحامية العسكرية لهذه المدينة أو كانوا ضمن الحاشية التى تعمل يوميًا لدى حاكم المدينة، وفى كل الاحتمالات كان الفرسان يتناوبون العمل فى مهام الحامية العسكرية فى القلعة أو فى أحد القلاع الصغيرة التى كانت تقع على امتداد كل الطرق الرئيسة للملكة اللاتينية. وكانت الحاميات العسكرية توجد فى القلاع الكبيرة الأمامية مثل قلاع منطقة ما وراء نهر الأردن تؤدى مهام الحراسة المسلحة بلا انقطاع .

وكما كان الوضع فى كل النظم الاقطاعية فإن الفارس اعتمد على سيده الاقطاعى بشكل مباشر. بيد أنه فى المملكة اللاتينية، ولأسباب سوف نفسرها ونذكرها، كان هذا السيد الاقطاعى هو الحاكم الأعلى المطلق للمدينة التى كانت عاصمة لامارته ومنطقة نفوذه (الدومين) دون أى شركاء أو وسطاء . وتسبب هذا فى تقوية الرابطة بين السيد وبين فصله، وأصبحت هذه الرابطة الاقطاعية أكثر قوة وتماسكًا . وتأكدت روابط التبعية الاقطاعية من خلال حقيقة أن مثل هذا الفارس كان تحت الاشراف المباشر لسيده، وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هذا الفارس كان يعتمد فى حياته على الاقطاع النقدى دون أن يمتلك أرضًا زراعية ، ونادراً ما كان مثل هذا الفارس يمثل نموذجًا للنبيل الأوربى الذى حدده المؤرخ الاقتصادى الشهير مارك بللوك بأنه كان يمتلك حق القيادة "The Right to command" . والحقيقة أن المجموعة الصغيرة من الفرسان كانت فى وضع أفضل. فقد كان النبيل الذى يؤدى خدمة عسكرية للملك الصليبى تقدر بسبعة فرسان يعتبر من كبار النبلاء المرموقين . وكان النبيل الذى يعمل فى حاشية الملك الصليبى مثل فيليب دى نوفار Phillip de Novare الشهير (الذى عاش فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى) والذى كان يلازم أسرة ابلين صاحبة النفوذ والسيادة فى المملكة اللاتينية قد أصبح ذا نفوذ فى هذه المملكة اللاتينية. فقد عمل فيليب دى نوفار فى وظائف عديدة، فعمل كاتبًا ، وشاعراً ، ومحاميًا ، ومستشاراً ، ووسيطًا، وكان مولده ذات

الأصل الاقطاعى السبب فى أنه تمتع بمكانة سامية لدى أسرة ابلين ولدى الأسرة الملكية ، التى سددت عنه ديونه ، وكفلت له دخلا وفيراً مناسبًا.

ومما يذكر أن عدداً قليلاً من الفرسان هم الذين وصلوا إلى هذه المكانة وهذا الوضع الراقى. كانت الأغلبية الساحقة من الفرسان وخاصة صغار الفرسان المحاربين تتقاضى مرتبات مالية. وكان الاقطاع العادى، سواء كان اقطاع أرض أو اقطاع نقدى يدر على صاحبه ايراداً ماليًا يتراوح ما بين ٤٥٠-٥٠٠ بيزنت ذهبى، وهو ايراد معقول يعادل ايراد قرية فى العام. فقد كان الفارس فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ينفق بيزنتًا واحداً يوميًا. وكان هذا يعنى أن الأجر السنوى للفارس يكاد يكفى بالكاد توفير حياة ناعمة له، ولكنه إذا كان متزوجًا ويعول أسرة فإن هذا الدخل كان يكفى لاعاشة وحياة عادية للفارس وأسرته. ولاشك أن هذا الدخل البسيط نسبيًا كان يحتم على الفارس الاعتماد على سيده المباشر.

ب- طبقة البرجوازية : Bourgesses

كانت الطبقة الأدنى من طبقة النبلاء والتى كانت تمثلها طبقة العامة من الصليبيين تشكل طبقة اجتماعية سائدة. فإذا كان المحاربون الراكبون (الفرسان) فى الحملة الصليبية الأولى يمثلون نواة لطبقة الفرسان فإن المحاربين المشاة من غير النبلاء كانوا نواة للمستوطنين الصليبيين الذين سوف يستقرون فى منطقة الشرق العربى فى المستقبل. ونظراً لاختلاف عناصرهم العرقية (الاثنية) ، فإنهم اتبعوا أبناء بارونياتهم واستقروا مع قادتهم .

لقد كان استخدام الصليبيين لمصطلح البرجوازية Burgesses واطلاق هذا الاسم على طبقة العامة من الفرنجة أمراً مضللاً للغاية. فقد كان أى فرنجى من غير النبلاء ومن غير أبناء القوميونات الايطالية يعتبر من البرجوازية هذا الاسم الذى انتشر فى المصادر العربية المعاصرة آنذاك. وبالإضافة إلى ذلك فإن أفراد هذه الطبقة (البرجوازية) كانوا قليلاً مايدعون أنهم ينحدرون من أصول حضرية . ففى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى لم يكن فى أوروبا سوى عدد قليل من المدن صغيرة الحجم وقليلة السكان. وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه المدن استمرت فى الوجود وازداد عدد سكانها بسبب الهجرة المستمرة من المناطق الريفية. واستمرت هذه العملية من الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن طوال فترة الوجود الصليبى فى منطقة الشرق العربى والتى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان. ومع بعض الاستثناءات فإن هذه الهجرة

قد زودت المدن بفائض من السكان يمكن استخدامه كاحتياطى ومخزن بشرى لعملية الهجرة إلى منطقة ما وراء البحار.

وهكذا فإن الأغلبية العظمى من طبقة العامة الفرنجية كانت من أصول ريفية من الفلاحين من شمال فرنسا، ومن ألمانيا، ومن إيطاليا. وربما شاركت بعض العناصر السكانية الحضرية من جنوب فرنسا فى أحداث الحملة الصليبية الأولى، وهى المنطقة التى كانت ما تزال تشهد بعض مظاهر الحياة الحضرية فى الفترة الباكرة من العصور الوسطى. وكان هذا الوضع الحضرى يشبه حالة منطقة مدن شمال إيطاليا ، بيد أن الإيطاليين كانوا ينتمون إلى القوميونات وليس إلى البرجوازية . ويبدو أن الهجرة الأوربية المتأخرة فى أثناء القرن الثانى عشر الميلادى لم تغير نمطها وشكلها الرئيسى. فقد ساهمت الزيادة السكانية الكبيرة فى المناطق الريفية فى أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى فى إمداد المراكز الحضرية والمدن بعدد كبير من هؤلاء السكان الذين استقروا فى هذه المراكز الحضرية، كما وفرت هذه الزيادة السكانية القوة البشرية الضرورية للقيام بمهمة إزالة الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وإقامة عدد قليل من القرى خلال القرن الثانى عشر الميلادى . فقد كانت الحروب الصليبية والهجرة الأوربية صوب الشرق متنفسًا ومنفذا إضافيًا لتصريف الزيادة السكانية فى أوربا فى ذلك الوقت.

فلم يكن الفلاح الذى التحق بالحملة الصليبية يترك خلفه أرضه فقط، بل كان يترك وراءه أيضًا قيود وأصفاد العبودية والقنية. ولم يكن فى مقدور سيده الاقطاعى أن يحول بينه وبين المشاركة فى هذه الحرب ومغادرة القرية ولم يفرض على الجموع الصليبية المشاركة تأدية أى نوع من التزامات وواجبات التبعية الاقطاعية لسادتهم. وبموجب اتفاق ضمنى وبموجب العرف الذى أصبح قانونًا ، أعتبر كل المشاركين فى الحروب الصليبية من الرجال الأحرار. وسوف يؤدى هذا إلى أن الحرية التى منحت لهؤلاء المشاركين الصليبيين حالاً لم تفقد وقت الاستيطان فالقن السابق أصبح الآن حراً لم يتقيد بأية روابط اقطاعية بأى سيد اقطاعى. وبالحظ استطاع الحصول على بعض الممتلكات فى المدينة أو فى أية منطقة ريفية مجاورة ومحيطة بها. وأصبح القادمون الجدد من الصليبيين والذين جاءوا متأخراً والقليلى الحظ مستأجرين، بيد أن روابط العبودية ، والتبعية التى تربط الرجل بالأرض أو تفرض عليه تأدية الالتزامات الاقطاعية والتى تتعارض مع وضعه باعتباره حراً لم يعاد تشريعها . وكان ما تزال هناك التزامات عامة فقد كان الرجل الحر مسئولا عن تأدية خدمة عسكرية حيث كان هناك ضريبة تسمى ضريبة

الصـولجـان aleveê en masse . ولم تشمل هذه الضريبة فقط المشاركة فى الدفاع عن هذه المدينة، بل كانت تشمل أيضًا المشاركة فى الحملات العسكرية ولاسيما عندما يحدق الخطر بالمملكة الصليبية. ومن ناحية أخرى، فإن الرجل الحر لم يكن مرتبطًا بالسيد الأعلى للمدينة برابطة أو علاقة اقطاعية . ولم يكن مدينًا بتأدية خدمة عسكرية ما لم يبنى هذا الالتزام على أساس اتفاق خاص بين الاثنين. فعلى سبيل المثال، كان الاتفاق المشروط يتضمن هذه الضريبة (ضريبة الصولجان) فى شكل خدمة عسكرية (Serviens- Serjants) مقابل دفع مبلغ مالى متفق عليه سلفًا ومشروط . وهكذا ساهم وضع طبقة العامة من الفرنجة فى المملكة اللاتينية التى تم تأسيسها حديثًا فى احداث التغير فى الوضع القانونى والاقتصادى لهؤلاء العامة. وعلى الرغم من أنهم ليسوا من النبلاء ، وينتمون إلى الغزاة الصليبيين والحكام ، فإنهم كانوا يتفوقون مكانة على جموع الوطنيين المقهورين.

والواقع أن الدلالة الطبقية لكلمة «البرجوازية» Burgyesses محيرة ومربكة إلى أقصى حد. ومن المحتمل أن هذه التسمية «البرجوازية» التى كانت تحل محل الجندى المشاه "Foot soldier" فى العقد الأول من عمر المملكة الصليبية كانت قد أطلقت على هذه الطبقة فى أوربا. وكانت «البرجوازية» اسمًا جديداً ، وفى الشرق اللاتينى كانت هذه الكلمة تطلق على هؤلاء الأفراد الذين لاينتمون إلى طبقة النبلاء ولم يكونوا أقنانًا Serfs. واستطاعت كلمة برجوازية أن تصف وضع هؤلاء الأفراد، بيد أن هذه الكلمة «برجوازية» فى أوربا كانت مشتقة من كلمة البرج Bourg أو الضاحية Suburb - borough ، وهى الأبراج التى كانت تنتشر بالقرب من الأماكن المحصنة فى المناطق الجديدة التى احتلها الصليبيون فى الشرق العربى، ولايمكن تأصيل كلمة «برجوازى» فى ضوء العلاقة بينها وبين البرج أو الأسوار، بيد أنها ببساطة كانت تتضمن الوضع الاجتماعى الجديد والحر للمستوطنين الصليبيين. وكان النظام النموذجي والمثالى لامتلاك أرض فى المدينة، أو نموذج مستأجر الضاحية المسورة شائعًا فى الغرب الأوربى، ومن المحتمل أن هذا النظام قد ترك تأثيره على استخدام كلمة برجوازى. وحقيقة الأمر أن الأملاك الفعلية لطبقة العامة الفرنجية كانت تعتبر أملاكا برجوازية وكان يحظر على النبلاء ورجال الدين امتلاك مثل هذه الأملاك البرجوازية . وظلت هذه الأملاك امتيازاً وحكراً قاصراً على طبقة البرجوازية الجديدة. ومع التوسع المهم فى استخدام مثل هذا الحق، أصبح البرجوازيون يمتلكون الممتلكات من الأراضى الزراعية، ومعظمْ القرى، ولم تكن هذه الظاهرة معروفة، أو حتى على الأقل كانت حالة استثنائية جداً فى الغرب الأوربى. فقد

كان وضع الرجل ومكانته يتحدد من خلال حالة ووضع أملاكه البرجوازية . ففى العصور الوسطى كانت الأملاك البرجوازية تصل إلى درجة الملكية الكاملة. وبصرف النظر عن الخدمة العسكرية ، كان دفع الايجار الاسمى والضئيل لسيد المدينة هو الالتزام الفعلى فقط الواقع على عاتق البرجوازى. وكان البرجوازى يتمتع بحرية بيع أملاكه للغير، أو تأجيرها، أو تقسيمها ، أو استبدالها بأخرى. ومقابل هذه الحرية كان عليه أن يدفع بعض المبالغ الرمزية البسيطة للسيد الاقطاعى ، وهذا يذكرنا بالاتفاق والشرط الاقطاعى الذى فرض على بعض الأجيال الباكرة فى أوربا لدفع مثل هذا المبلغ للسيد الاقطاعى مقابل تحويل ملكية مثل هذه الممتلكات البرجوازية . وكانت ما تزال توجد بعض القيود والقوانين القديمة الخاصة بالمحافظة على حقوق الأقارب، وهو قانون الحق الذى عرف باسم قانون حق الشفعة أى الأولوية فى شراء هذه الممتلكات البرجوازية. وقد ثبت فى بعض الأحيان أن هذه القوانين المقيدة للملكية وحرية التصرف فيها قد ألحقت الضرر والخسارة بالاقتصاد المتطور لأوربا. وهذا يفسر حقيقة أن مثل هذه القوانين المقيدة التى ترجع إلى عصر تقييد حقوق الملكية، والتى كانت تعرف باسم قانون «حق الشفعة» أو تحديد النسب retrait Lignage * ظلت سارية المفعول ، وقد اختصرت مدة فاعلية هذا القانون على نحو فريد فى المملكة اللاتينية. ففى أوربا العصور الوسطى كان أى شخص من أقرباء البائع له الحق فى استخدام قانون حق الشفعة خلال سنة ويوم بعد تحرير عقد بيع الممتلكات وذلك من أجل استرداد هذا الجزء المباع من الأرض الزراعية، وكان على هذا القريب دفع ثمن الشراء للمشترى، وهكذا أصبح فسخ عقد البيع أو التخلى عن الوضع القانونى للأملاك أمراً غير مستقر وغير مؤكد لفترة طويلة. ففى المملكة اللاتينية كان ادعاء حق الشفعة سارى المفعول لمدة لاتزيد عن أسبوع بعد اعلان عملية البيع. وهكذا فإن الحرية العامة وتأثير الأوضاع الاقتصادية كانت تنزع إلى حرية الممتلكات بشكل كامل وتتطلب مثل هذه المرونة فى هذا الصدد.

ومنذ البداية تقريبًا كان البرجوازية يخضعون لسيادة القانون العرفى، وكان هذا القانون ملائمًا للتطبيق عليهم وعلى ممتلكاتهم. وكان اتقان واحكام صياغة هذا القانون أمراً ممتعًا فى حد ذاته. فقد كان المشاركون فى الحملة الصليبية الأولى، وماتلاها من موجات الهجرة من

---

* للوقوف على تفاصيل قانون حق الشفعة انظر : Lopping, the Assizes of Romania, p. 199 .

أوربا إلى منطقة الشرق العربى من أصول متغايرة ومن أوطان مختلفة أيضًا. وقد بنيت أفكارهم القانونية على أساس القانون السائد فى أوطانهم وعلى أساس أصلهم الاجتماعى. وفى العادة كان هذا يعنى أن قانون الضيعة الذى كان سائداً فى شمال فرنسا كان هو الأساس الذى بنى عليه أفكارهم القانونية . ويرجع سبب عدم تطبيق الصليبيين نظام القانون الشخصى The System of Personal Law إلى أن هذا القانون كان تقريبًا معطلاً مؤقتا فى الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر الميلادى، وباتت مسألة صياغة قانون محلى لكل البرجوازيين حقيقة أساسية وملحة. وقلما كان قانون الضيعة يناسب الواقع الاجتماعى والاقتصادى الجديد للصليبيين. فلم يستطع الايقاع البطىء لحياة الضيعة أن يزود المجتمع الصليبى الجديد بالأدوات القانونية من أجل تحقيق اقتصاد مدنى متطور. فقد كان السكان المحليون ، المسلمون، المسيحيون ، واليهود يستخدمون النظام القانونى الإسلامى (القضاء الإسلامى) والنظام القانونى البيزنطى السابق. ومن الواضح أن الصليبيين قد طبقوا القوانين السائدة فى جنوب فرنسا ، وهى المنطقة التى استمرت تحافظ على حياة المدينة التى ترجع إلى الفترة المتأخرة من الامبراطورية الرومانية. وكان هناك شكل من القانون الرومانى، هذا القانون الذى تم تعديله بموجب العرف المحلى، وكان سارى المفعول حتى الاحياء القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر الميلادى. وتلاءم هذا القانون مع المعطيات الاقتصادية الجديدة للملكة اللاتينية فى بيت المقدس. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا القانون لم يكن مألوفًا لدى أبناد القومونات الايطالية أو لدى السكان المحليين الوطنيين. ومن سوء الحظ، لم نعرف القوانين الأصلية البرجوازية (الآسيز البرجوازية) فقد كان مؤلف ومصنف مجموعة القوانين والاجراءات المتبعة فى المحكمة البرجوازية فى القرن الثالث عشر الميلادى (وهى المجموعة القانونية التى عرفت باسم كتاب القوانين البرجوازية Livre des Assises des Bourgeois يستخدم النموذج القانونى للقوانين البروفنسالية . وكان يضاف إلى القانون الرومانى التشريع الملكى المتعلق بالبرجوازية، وقد حُفظت لنا هذه القوانين فى مجموعة القوانين البرجوازية التى ذكرناها آنفًا.

وكان النمط المألوف للأملاك البرجوازية يتمثل فى الضيعة الحقيقية المجاورة للمدينة، وكانت عبارة عن منزل مزود بحوش ، وبئر، وحديقة، ومزرعة كروم، وبستان أو حديقة خضروات بالقرب من المدينة، أو حتى داخل الأسوار. وحصل بعض البرجوازيين على ثرواتهم وأملاكهم فى وقت مبكر من تاريخ المملكة اللاتينية. فقد أعطى قانون الغزو Law of conquest الذى ذكرناه من قبل لعدد كبير من البرجوازية حرية الحصول على الممتلكات الحقيقية.

فلم تكن المشكلة التى عطلت عجلة تطور المملكة اللاتينية فى طورها الباكر تنحصر فى نقص أراضى المدن، وإنما كانت المشكلة الرئيسة تتمثل فى نقص القوى البشرية. وعلى سبيل المثال ، كان عدد سكان مدينة القدس فى أثناء فترة الغزو الصليبى يبلغ عشرين ألف نسمة، ومع ذلك، نقص هذا العدد بعد عدة سنوات تالية إلى بضعة مئات فقط*. فقد كانت المنازل الخاوية من السكان فى هذه المدينة تنعى من بناها وتبحث عن ساكنيها ، وتركز السكان الصليبيون الجدد فى مدينة القدس فى المنطقة التى تحيط بالضريح المقدس خوفا من خطر الاقامة فى حى منعزل من المدينة . ونال بعض البرجوازيين المغامرين أيضا ممتلكات خارج المدن، تصل إلى قرى كاملة. وقد شوهدت مثل هذه الحالات بالقرب من مدينة القدس. وأيضا بالقرب من مدينة عكا. وكان ظهور مجموعة غنية من البرجوازيين يؤكد حقيقة استيطانهم الباكر فى المملكة اللاتينية. وتسلق البعض الآخر من البرجوازية درجات السلم الاجتماعى عبر مسالك مختلفة. لقد تسببت الحروب الصليبية الطويلة وتدفق موجات عديدة من المهاجرين الأوربيين إلى منطقة الشرق العربى فى احداث عملية الحراك الاجتماعى. فالفرسان الذين فقدوا خيولهم فى الحرب، أو نفقت خيولهم وهلكت بسبب الجوع والعطش أصبح جميعهم أمام العيان فرسانا مشاة . وتلاشت الاختلافات والفروق الظاهرية بين الفارس وبين أحد العامة . فقد ساهمت غنائم الحرب السخية وقانونها المزمن خلال العقد الأول من فترة الوجود الصليبى فى التغلب على حواجز التمايز الطبقى . وهكذا فاننا نستطيع أن نحدد هوية بعض الأفراد الذين ينحدرون من الأصول البرجوازية الباكرة والذين ظهروا فجأة فى الوثائق يحملون لقب الفرسان الجيد.

وببطء ظهرت طبقة شبه ارستقراطية من بين البرجوازية . بيد أن أفراد هذه الطبقة نادراً ما كانوا يتباهون بثروتهم الخرافية الضخمة ، أو أنهم نشأوا من طبقة عليا من البرجوازية . وكان أبناء القوميونات التجارية الأوربية الذين استقروا فى المناطق الصليبية والذين تمتعوا بالامتيازات السخية هم الذين سيطروا على معظم الموارد المالية المربحة للمدينة. ومن ثم وبغض النظر عن اكتساب الأملاك والممتلكات ، فإن البرجوازية نهضوا بأعمال بارزة فى

---

* تناقص عدد سكان مدينة القدس بعد الغزو الصليبى لها فى عام ١٠٩٩م بسبب المذابح الجماعية التى اقترفتها أيدى المقاتلين الصليبيين ضد سكان هذه المدينة من مسلمين ومسيحيين ويهود، وفرار أعداد كبيرة من السكان انقاذا لحياتهم (المترجم) .

الادارة الصليبية ، أو الاقطاعية ، أو فى وظائف الادارة الكنسية. ومن وقت لآخر نجد بعض أفراد طبقة البرجوازية يوقعون ويعتمدون الوثائق الملكية أو الكنسية ، تلك الوثائق التى كانت تتعلق بأمور الحياة اليومية ، أو حتى التى كانت ذات مضمون ومحتوى سياسى. وبشكل تدريجى تقريبا تقلد بعض أفراد الطبقة الارستقراطية مناصب القضاء، وأصبحوا أعضاءً فى المحكمة البرجوازية، وكان هؤلاء القضاة يحتلون أعلى رتبة ومكانة فى هيراركية هذه الطبقة البرجوازية. وأدت المشاركة المستمرة للبرجوازيين فى وظائف الادارة والقضاء إلى خلق مجموعة من المشرعين القانونيين من بين طبقة البرجوازية، هؤلاء المشرعين الذين ذاعت شهرتهم ، والذين كان يتم استشارتهم فى المسائل الخاصة بالقانون الاقطاعى . وكان يتم استدعاؤهم للحضور إلى المحكمة الاقطاعية، وكذلك إلى المحكمة الملكية التى كانت تعتبر أعلى محكمة فى المملكة اللاتينية. وكان يتم استدعاء بعض القضاة من البرجوازيين للقيام بخدمة خاصة ، ولاسيما عندما تقتضى الضرورة ذلك . فقد تحمل باليان الابلينى Balian d'Ibelin مسئولية الدفاع عن مدينة بيت المقدس فى أثناء حصار صلاح الدين لها، وقد اختار مجموعة من الفرسان الصغار من البرجوازية الذين قام باعدادهم فرسانًا ويمكن تفسير هذه الحالة الفريدة فى ضوء خطر المسلمين المستمر على الوجود الصليبى فى المنطقة العربية.

واستطاعت مجموعة مختارة واحدة فقط من البرجوازية واستطاعت ارتقاء مثل هذه المكانة الاجتماعية الراقية. ويقينًا فإن الأغلبية العظمى من طبقة البرجوازية قد تمتعت بمكانة اجتماعية عليا إذا ما قورنت بأصولهم. فقد كانت منازلهم المشيدة من الأحجار أرقى إذا ما قورنت بأكواخ الفلاحين الفقيرة البائسة فى الغرب الأوربى، وكان طعامهم مختلفًا ومتعدد الأصناف، وملابسهم أجمل لباس، وأحيانا كانوا يرتدون ملابس حريرية . وبالرغم من ذلك ، فإن وضعهم فى المجتمع الصليبى بشكل عام غير مبرز.

كانت طبقة البرجوازية تشكل حجمًا كبيراً من سكان المدن فى المملكة اللاتينية، على الرغم من أن السكان البرجوازيين فى مدينتى طرابلس وأنطاكية - باستثناء مدينة الرها- كانوا أقل عدداً من المسيحيين المحليين. وعمل البرجوازيون فى كل المهن والحرف الحضرية ، فقد عملوا جزارين ، وصانعى أحذية ، ونجارين ، وخياطين، وصائغين، وصانعى تروس وأسلحة. كما عملوا فى دباغة الجلود، وعملوا كخبازين، وصانعى خمور brewers ، وطهاة (وهى مهنة جديدة ذات ضرورة ملحة فى المدن التى تشهد تدفق أعداد كبيرة من الرجال غير المتزوجين

والحجاج)، وحلاقين barber ، وبائعى بهارات وعطور . وكان عدد كبير منهم من أصحاب المحلات التجارية يعيشون ويعملون فى حجرات صغيرة وهى الدكاكين التى كانت تقع فى مدخل الشارع مباشرة. وامتلك بعض البرجوازيين دكاكين خاصة بهم ، فى حين كان البعض الآخر منهم يستأجر الدكاكين من صاحب المدينة سواء كان الملك أو الكنيسة أو الدير. ففى سوق مدينة بيت المقدس يشاهد المرء بعض الدكاكين التى نقش على جدرانها الحروف Sc A. ANNE ، وهذا يشير إلى أن هذه الدكاكين كانت من أملاك كنيسة القديسة حنا. وكانت هذه الكنيسة تؤجر الدكاكين للبرجوازيين اللاتين، ومن ناحية أخرى ، كان يوجد من بين طبقة البرجوازية بعض كبار التجار. وكان ذلك أمراً غريبًا فى المملكة اللاتينية ، حيث كانت التجارة الواسعة تتركز فى أيدى أبناء الكوميونات الايطالية والأوربية الجنوبية صاحبة الامتيازات .

وقد تم الاستعانة بالبرجوازيين فى الوظائف الادارية ، مثل وكلاء الدومين، والمحاسبين، وجباة الضرائب، وموظفى الجمارك ، ومشرفى الأسواق وشرطة المدن. وكان المحاربون المشاة ذوى الرواتب والذين كانوا يعرفون بالسرجندارية* أو رجال الحاشية الاقطاعية أو الفرقة العسكرية المصاحبة للسيد الاقطاعى من البرجوازيين أيضًا.

وعلى الرغم من اقامة بعض البرجوازيين الآخرين فى المدن، فإنهم ظلوا يمارسون حرفهم القديمة كمزارعين فى الريف المحيط بالمدينة، وكان مثل هذا الوضع مألوفًا فى أغلب مدن المملكة اللاتينية.

وكما ذكرنا آنفًا ، فإن معظم السكان الفرنجة تركزوا فى ثلاث مدن كبرى وكانت مدينة بيت المقدس العاصمة الادارية للملكة أصغر هذه المدن الثلاث، وكان يتراوح عدد سكانها ما بين ٢٠-٣٠ ألف نسمة. وكانت مدينة عكا أكثر أهمية خلال القرن الثانى عشر الميلادى . ففى القرن الثالث عشر الميلادى كان يصل عدد سكانها إلى ما يزيد على ٦٠ ألف نسمة، وكانت مدينة صور هى المدينة التى تلى مدينة عكا. وثمة مدن أخرى، كان بعضها مدنا بحرية مزودة بميناء والبعض الآخر مدنًا داخلية بعيدة عن الساحل ، وكانت هذه المدن صغيرة الحجم قليلة السكان. إذ كان يصل عدد سكان احدى هذه المدن حوالى ٥٠٠٠ نسمة ، بيد أن هذا العدد رغم ضآلته كان يفوق عدد سكان المدن الأوربية المعاصرة ، ويعتبر هذا العدد من السكان

---

* السرجندارية Serjants: هم المحاربون الصليبيون من المشاة وليس الفرسان (المترجم) .

ضئيلا مقارنة بعدد سكان مدن الشرق العربى الإسلامى. وقد شملت المملكة اللاتينية ما يقرب من عشرين مدينة من هذا الحجم ، وشكل البرجوازيون أغلبية سكان هذه المدن.

وثمة وضع خاص لبعض البرجوازيين، وكان هذا الوضع يتمثل فى ترك هذا البعض من البرجوازيين الاقامة فى المدن واستحسان اللاقامة فى القرى الفرنجية الجديدة بشكل نهائى. فقد شجع ملوك بيت المقدس، وسادة المدن، والهيئات الدينية العسكرية (الاسبتارية- الداوية- التيوتون) ، وبعض المؤسسات الكنسية الأخرى الاستيطان فى المناطق التى حل بها الدمار والخراب فى أثناء الحرب والقتال والمذابح فى أعقاب الغزو الصليبى. فقد هجر عدد كبير من السكان المحليين المسلمين هذه المناطق التى استولى عليها الصليبيون، وفضلوا الارتحال إلى دمشق أو إلى مصر طلبًا للنجاة ، وذلك خوفًا من الوقوع فى براثن غزاة غرباء، وكان البرجوازيون بمثابة إضافة للعنصر البشرى لتزويد المناطق الريفية المهجورة بالسكان الجدد. وقادت المؤسسات الدينية عملية الاستيطان ، ثم تولى الملوك الصليبيون القيادة بعد ذلك ، وشاركهم فى تنظيم عملية الاستيطان أيضا السادة العلمانيون الآخرون. وفى الغالب كان يتم تشييد معظم القرى بالقرب من مناطق الاستيطان القديمة فى نفس مكان إقامة القرى المحلية التى هجرها سكانها والتى كانت تقع بالقرب من الأسوار والقريبة أيضًا من مواد البناء التى تستخدم فى بناء المنازل . وكانت هذه القرى الجديدة أكبر حجمًا من نظيراتها المحلية. إذ كان عدد سكان القرية المحلية الفلسطينية لايزيد عن اثنتى عشرة عائلة، فى حين كانت أعداد سكان القرية الفرنجية الجديدة يصل أحيانا إلى ما يقرب من مائة وخمسين أسرة، أى ما يعادل ٥٠٠ نسمة وكانت هذه الأعداد من السكان تخضع للاعتبارات الأمنية . وتقريبًا كانت كل القرى الصليبية محصنة أو على الأقل مزودة ببرج لاستخدامه كنقطة مراقبة أو ملجأ وملاذ لسكان القرية عندما يداهمها الخطر من العدو.

وبالقاء نظرة فاحصة نهائية على بعض هذه القرى الفرنجية الجديدة سوف يتبين لنا الصورة الإنشائية والبنائية لهذه القرى. ففى عام ١١٣٦م قام الملك الصليبى فولك بتحصين بيت جبرين الواقعة على الطريق بين عسقلان ومدينة بيت المقدس ومنحها لفرسان القديس جرن (الاسبتارية) . وكانت أية منطقة استيطانية صليبية تحيط بها التحصينات والأسوار ، وبعد جيل وفى حوالى عام (١١٥٣م) كان عدد الأسر القاطنة فى هذه المنطقة الاستيطانية فى بيت جبرين يصل إلى اثنين وثلاثين أسرة أى حوالى ١٥٠ نسمة . وبغض النظر عن الفلاحين الذين كانوا يسكنون القرى الفرنجية، كان يوجد أيضا فى القرية الفرنجية خياط، ونجار، وجمال .

وذكر المؤرخ الأسبانى اليهودى بنيامين التطيلى ثلاث عائلات يهودية كانت تعيش فى بيت حبرين ومن المحتمل أن هذه العائلات كانت تمارس أعمال الصياغة، وكان اثنان من المستوطنين اليهود قد أتوا من مدينة القدس، وحضر واحد من المستوطنين اليهود من الرها ، وواحد من حبرون ، ومستوطن يهودى واحد من رام الله. وكان القاطنون اليهود الآخرون يأتون من مناطق معروفة من الغرب الأوربى : من أفيرج Auvergne ، ومن جاسكونى Gascony ، ومن لمباردیا Lombardy ، ومن بواتيیه Poitou، وتسكالونيا ، وبرجاندى والفلاندرز ، وكاركاسونى Carcassonne ، وهذا ما ذكره بنيامين بشكل محدد. وكان كل مستوطن صليبى يستلم قطعة أرض مساحتها اثنان كاروكا Carrucae* وهو ما يعادل سبعين هكتار من الأرض. والتزم هؤلاء الحائزون بدفع ايجار نقدى مقابل استلامهم هذه الأراضى ، وكذلك تقديم عشر انتاج محصولاتهم وعشر انتاج الفواكه ماعدا الزيتون، ودفع نسبة مئوية من الغنائم التى يحصل عليها الفرنجى نتيجة الاغارات على أراضى المسلمين. وتمتع المستوطن الفرنجى بحق التنازل عن أملاكه للغير. كما تمتع بحق الشفعة بموجب القانون الخاص بذلك مقابل دفع مبلغ مالى بسيط.

وثمة مثال آخر فى المحمرة (البيرة) . ففى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى استقر فى هذه القرية الجديدة (البيرة) تسعون أسرة ، وبعد فترة قصيرة استقر بها حوالى خمسون أسرة صليبية حول القلعة الصغيرة ، وكان يقدر عدد السكان الفرنجة فى هذه القرية الجديدة حوالى ٥٠٠ نسمة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن القرى الفرنجية كانت تضم سكانا نزحوا من مناطق أوربية مثل أوفيرج auvergne وبروفانس، وبرجاندى، وجاسكونى، وليموج، وبواتييه ، وتور، وبورج، وقطالونيا ولومباردى، بالإضافة إلى الفلسطينيين من بيت المقدس ، ونابلس، وسنجيل، والنبى صموئيل، ويافا ، وكان بعض سكان القرى أيضا من رجال الدين الرهبان (الأخوة الرهبان) ، بيد أن الأغلبية كانوا من العلمانيين . وعمل بعض سكان القرى فى حرف مثل حرف الحداد ، والنجار، وصانع الأحذية ، والبناء والجناينى ، وهى الحرف التى ذكرناها آنفًا بشكل محدد ، ورغم ذلك ، فقد كانت الحرفة الرئيسة لسكان القرى الفرنجية هى الزراعة

---

* كاروكا Carrucae : أشار أحد المؤرخين الحديثين إلى أن الفدان العربى (الكاريوكا العربية) يساوى أربعة دونمات، وذلك تميزا للكاريوكا العربية عن الكاريوكا الصليبية الرسمية التى كانت تساوى خمسة وثلاثين هكتاراً أى ثلاثمائة وخمسين دونما. (المترجم) .

والفلاحة، وزراعة الكروم. وخضعت هذه القرى لسيادة رجال الدين الكاثوليك، بيد أن المستوطنين الصليبيين كانوا يخضعون لسيادة المحكمة البرجوازية وقضائها الخاص بها . فقد كان رجال الدين يصدقون على العقود المبرمة مع المستوطنين والتى تتعلق بنظام وأسلوب الزراعة ونظام الدفع، وفى العادة كان يستخدم نظام تقسيم نتاج الأرض من المحاصيل (تقسيم الانتاج بين الأطراف المتعاقدة) . وكان سادة القرى من رجال الدين يحتكرون حق اقامة الطاحونة ، والفرن، والتزم الفلاحون فى القرى بطحن غلالهم فى هذه الطاحونة ، وصنع خبزهم فى الفرن الخاص بصاحب القرية.

ومن المستحيل تقييم وتقدير حجم هذه الحركة الاستيطانية . ولاشك أن هذه الحركة الاستيطانية كانت أكثر نشاطا وحيوية فى القرن الثانى عشر الميلادى، وحقيقة الأمر أننا عرفنا ستة قوانين عرفية مختلفة للمستوطنين استخدمتها السلطات الصليبية فى مناطق الاستيطان ، ولاشك أن هذه الأعراف والعادات انتقلت من منطقة لأخرى. وتلك دلالة على حيوية هذه الحركة الاستيطانية، بيد أننا لن نتمكن من تقدير حجمها.

وعلى أى حال ، فإن البرجوازيين هم الذين اضطلعوا بمهمة هذه الحركة الاستيطانية وجعلوها ممكنة. فقد كان البرجوازيون ينحدرون من أصول فقيرة . ويشير أحد المؤرخين اللاتين أن هؤلاء السكان الذين استقروا خارج المدن كانوا من الرجال الذين لم يتمكنوا من العيش داخلها. وببساطة استأنف عدد كبير من النازحين الأوربيين حرفتهم ومهنتهم السابقة ، وهى المهن التى كانوا يمارسونها فى أوطانهم قبل أن تطأ أقدامهم أرض العسل واللبن فى منطقة الشرق العربى.

وعلى أى حال، فإن القادم الفرنجى الجديد إلى بلاد الشام كان يعتبر برجوازيًا حراً. وهذا ما كان يميز وضعه الاجتماعى ومستواه الاقتصادى. وكانت كل واجباته عبارة عن التزامات عامة. فقد كانت الالتزامات المالية تفرض على البرجوازى وفقًا لمهنته وعائدها الاقتصادى وليست وفقًا لتبعيته الشخصية . ولم يخضع البرجوازى لمحكمة القرية ، بل كان يخضع لأحكام المحكمة البرجوازية ولم يخضع المستوطن الصليبى البرجوازي لقوانين استبدادية تحكمية . ولا عجب فقد ذهب أحد المؤرخين المعاصرين فى تفسير أحدى الكلمات الغربية فى العصور الوسطى وهى كلمة «الفرنجة» فقال أن الصليبيين كانوا يعرفون باسم «الفرنجة» لأنهم كانوا أصحاب امتيازات Franches . وكانوا رجالا أحراراً.

جـ- الكوميونات الوطنية الأوربية :

كان وجود طبقة مميزة من أبناء الكوميونات الوطنية من السمات المميزة للتصنيف الطبقى للمجتمع الصليبى فى المملكة اللاتينية. وكانت هذه الكوميونات تشمل الايطاليين ، والبروفنساليين ، والأسبان ويعكس الوضع القانونى والاجتماعى لأبناء هؤلاء الكوميونات الروح الاستعمارية والاستيطانية التى تغلغلت فى بنية المؤسسات فى منطقة الشرق العربى. وجاء اسم الكوميون من إيطاليا ، وهى تلك الكلمة التى كانت تستخدم لكى تصف المراكز الحضرية الكبيرة والتى حصلت على استقلالها الذاتى فى فترة ما بين القرن العاشر والقرن الثانى عشر من الميلاد. ومع انتشار مصطلح «الكوميون» أصبح يرمز إلى مجموع أبناء هذه الكوميونات الذين استقروا فى المملكة اللاتينية . وعلى الرغم من اعتناق أبناء هذه الكوميونات المذهب الكاثوليكى الأوربى، وهو نفس مذهب الحكام الصليبيين فإن أبناء هذه الكوميونات لم يعتبروا نبلاء أو برجوازيين بل كانوا يشكلون طبقة مستقلة تتمتع بوضع وامتيازات مختلفة عن كل من النبلاء والبرجوازية، وإذا كانت مجموعة الفرنجة تمثل الأقلية الحاكمة التى أسست المملكة الاستيطانية فى بيت المقدس، فإن الكوميونات كانت التعبير المبكر لهذا النمط من الروح الاستعمارية، حيث استطاعت هذه الكوميونات تأسيس شركات تجارية فى انجلترا وفرنسا وألمانيا قبل الفترة الصليبية بقرون بسيطة . بيد أن هذه الشركات التجارية كانت تمثل المادة التى تشكلت منها القوى الاستيطانية الاستعمارية، وكانت الكوميونات فى المملكة الصليبية بمثابة تنظيمات وهيئات رابحة عاشت فوق تربة غريبة اكتسبت قوتها ونفوذها ويتبلور ذلك فى ضوء حقيقة أن أعضاء هذه الكوميونات لم يصبحوا مواطنين فى هذه المملكة. فلم يطبق عليهم القانون العام للمملكة ، كما أنهم نجحوا تقريبًا فى خلق نفوذ مستقل لهم واستقلال ذاتى ، وكانوا بمثابة دولة داخل الدولة . وتقريبا تمتع أبناء الكوميونات بالحكم الذاتى السياسى، وناضلوا من أجل تحقيق أهدافهم، إذ كانوا أكثر ارتباطا بأوطانهم وأقطارهم الأصلية من ارتباطهم بأوطانهم الجديدة، وإلى حد ما لم يكن مواطنو الكوميونات يستقرون فى منطقة الشرق العربى بصفة دائمة. إذ كانوا أكثر تقلبًا وأكثر حرصا على المال والربح من أى طبقة فى المجتمع الصليبى لأنها جاءت تحقق الكسب والربح وتعود إلى الغرب الأوربى بالمال الوفير. بيد أن الذين مكثوا من أبناء الكوميونات فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام لم يعتبروا أنفسهم مواطنين . وإذا كانت المملكة اللاتينية قد اعتبرتهم

بمثابة مستوطنة ومستعمرة أوربية قامت على تراب الشرق، فإن أبناء هذه الكوميونات قد استوطنوا هذه المستعمرة.

واحتكرت الكوميونات الايطالية والأوربية التجارة الخارجية الواسعة للملكة الصليبية ، كما احتكرت تقريبا أيضا كل الأنشطة المصرفية وأعمال الشحن والتفريغ البحرى، وبالرغم من ذلك ، فإن المهام الاقتصادية التى قامت بها الكوميونات التجارية، لم تستطع وحدها أن تقرر أو تحدد وضعها المتميز وامتيازاتها *. وثمة قائمة طويلة من المعاهدات والاتفاقيات الدولية عقدت بين ملوك بيت المقدس الصليبية (وبعد ذلك كانت هذه المعاهدات تعقد مع سادة المدن الصليبية البحرية المستقلين) وبين المدن الإيطالية، وبموجب هذه المعاهدات تحدد الوضع الاجتماعى لأبناء هذه الكوميونات الايطالية . وحصل الايطاليون على هذه الامتيازات بسبب مشاركتهم فى الغزو . فكانت جنوا أولى المدن الإيطالية التى قدمت العون العسكرى للصليبيين ، والتى أرسلت سفنها إلى الشرق، وشارك البيازنة والبنادقة فى هذا الغزو الصليبى أيضًا بتقديم المساعدات للصليبيين ، وكانت هذه المساعدات الايطالية ذات أهمية قصوى فى الاستيلاء على المدن الساحلية فى بلاد الشام وفلسطين ولو لم تكن هذه المساعدات الايطالية لما استطاع الصليبيون احتلال المدن الساحلية، ولاستغرقت عملية هذا الاحتلال وقتًا طويلاً، وربما لم ينجح الصليبيون فى تحقيق هذا الهدف بدون المساعدة الايطالية.

ومما يذكر أن هذه المدن الايطالية (جنوا - بيزا - البندقية) قد طلبت من الصليبيين مكافأة نظير هذه الخدمات والمساعدات التى قدمتها لهم. وعلى الرغم من أن هذا المطلب قد تسبب فى حدوث وظهور أصوات متعددة للجشع ، وهى الأصوات التى كانت تتعارض مع مجهود ونشاط الفروسية للمسيحية ، فإن الظروف التي كانت يمر بها الصليبيون كانت حرجة ، وأصبحت الخدمات والمساعدات الايطالية أمراً ضروريًا لايمكن الاستعاضة عنها ، وأعلن البنادقة بغرور أنهم حضروا للحرب من أجل تحرير الأرض المقدسة، بيد أن هذا لم يمنع الدوج

---

* كانت ظروف المواجهة السياسية والعسكرية بين الصليبيين وبين المسلمين هى التى تقرر الامتيازات السخية التى كان يحصل عليها أبناء الكوميونات ، وذلك لحاجة الصليبيين إلى مساعدة هذه الكوميونات العسكرية والمالية، ومقابل تقديم هذه المساعدات كانت الكوميونات تحصل على الامتيازات المتعددة السخية (المترجم) .

البندقى الذى شارك الصليبيين فى حصار مدينة صور (١١٢٤م) من انتزاع ثلث المدينة المحتلة وثلث الأقاليم التابعة لها، بالإضافة إلى الإعفاء من الضرائب والجمارك ، والحصول على الامتيازات الواسعة التى جعلت من البنادقة قوة عظمى تعادل قوة الملك الصليبى فى هذا الميناء الشمالى (ميناء صور) . ولم يُغفل الدور الذى قام به دايمبرت رئيس أساقفة بيزا فقد قاد الأسطول البيزاوى الذى شارك فى حصار مدينة يافا فى عام ١١٠٠م ، وكذلك لم يغفل دور أسرة أمبرياتش الجنوية التى شاركت فى حصار مدينة بيت المقدس، وحصل هؤلاء المشاركون على امتيازات سياسية واقتصادية. والواقع أن الصليبيين كانوا تواقين لاحتلال الموانى البحرية لكى يجعلوا من المناطق التى احتلوها فى بلاد الشام أكثر سكانًا وأكثر ازدهاراً اقتصاديًا ، واعتبروا هذه الحاجات الملحة الباهظة بمثابة مصدر من مصادر الربح والكسب فى المستقبل. وكانت مصلحة الصليبيين تقتضى جذب التاجر الايطالى ، الذى كان يمثل الشكل المألوف فى الاقتصاد الأوربى ولذا حرص الصليبيون على احضار هذا التاجر إلى أسواق المملكة الصليبية الوليدة فى بيت المقدس. وعلى الرغم من أن البنادقة قد مارسوا حقهم الكامل فى التمتع بالامتيازات السخية التى حصلوا عليها من السلطات الصليبية، فإن عدداً قليلاً جداً من المدن ظل تحت سيادة الحكام والمستوطنين الصليبيين الجدد، وكانت منحة الحى تعتبر ملكية كاملة تقريبا ، إذ كان الحى البندقى يتمتع بحق الحكم الذاتى الكامل. وبدرجات مختلفة ظلت منحة الحى مظهراً ثابتًا من مظاهر الامتيازات التى حصلت عليها الكوميونات التجارية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، ومن المستحيل القول أن تضمنات مثل هذا الكلام العام الذى ورد بالوثائق كان يلقى الاهمال من جانب المانحين ، أو أن مثل هذه البنود التى وردت فى الاتفاقيات بين الكوميونات الايطالية وبين الصليبيين الخاصة بالامتيازات كانت ذات اجراءات شكلية فقط. وتظل الحقيقة التى ترى أن هذه الامتيازات ومضامينها ظلت مدونة فى الكتب القانونية للملكة الصليبية فى بيت المقدس.

ومن وجهة نظر الكوميونات الايطالية كانت مطالبهم الضرورية وامتيازاتهم أكثر الحاحًا بقدر جشعهم وجهلهم. وفى هذه المراحل الباكرة بات من الصعب معرفة المناطق التى سوف تزدهر اقتصاديًا والتى تناسب التطور التجارى أو المناطق التى لاتتلاءم مع هذا التطور ، وببساطة شديدة ، أصبح هناك حاجة ملحة لكى تطلب الكوميونات الايطالية الامتيازات فى كل مكان من أرجاء المملكة الصليبية .

وكانت التجربة خير معلم للإيطاليين، فقد ثبت أن مدينة مهمة مثل بيت المقدس تفتقر إلى الأهمية الاقتصادية وليست لها أهمية تجارية حقيقية. وعلى الرغم من أن هذه المدينة كانت مركزاً للإدارة المدنية والكنسية ، ومكاناً لتدفق أعداء الحجاج الأوربيين النازحين إليها ، فإن كل هذا لم يجعل منها سوقاً عالمياً ، ذلك السوق الذى يتطلب النشاط التجارى الواسع للتجار الإيطاليين . فلم تكن مدينة القدس أكثر من مدينة داخلية صغيرة مثل مدينة طبرية أو نابلس، فقد كانت أسواقها المحلية تلبى الحاجات اليومية للسكان المحليين ولم يكن لهذه الأسواق أية ميزة للتجار الكبار . بيد أن التجار الايطاليين وجدوا فرصاً أرحب للنشاط التجارى المربح فى بعض المدن الساحلية. فقد أصبح ميناء عكا الواسع وميناء صور الذى يقع فى الشمال من القواعد البحرية المهمة المميزة للملكة الصليبية. وتحت ضغط ووطأة نفس الظروف السياسية لعبت مدينة بيروت أيضاً دوراً مهماً فى تجارة المملكة الصليبية. وأصبحت عواصم الأقاليم مثل مدينة طرابلس ومن قبلها أنطاكية مراكز تجارية رئيسة. فلم تستطع مدن مثل يافا تلك المنفذ الطبيعى لمدينة القدس، وحيفا ، وقيسارية، وصيدا وهى المدن التى احتلها الصليبيون بمساعدة الايطاليين- أن تجذب التجار الايطاليين إليها. وعلى الرغم من الامتيازات التى منحت للتجار الايطاليين- أن تجذب التجار الايطاليين إليها . وعلى الرغم من الامتيازات التى منحت للتجار الايطاليين، والتى كفلت لهم الأملاك والاعفاءات الجمركية ، فإن هؤلاء التجار لم يفضلوا الاقامة فى تلك الموانى الثانوية .

ومهما كانت توقعات الحكام الأول للملكة اللاتينية والتجار الايطاليين ، فإنه بعد جيل واحد من الغزو الصليبى بات من الواضح أن الأراضى المقدسة لم تستطع أن تحل محل القسطنطينية أو الاسكندرية كمركز تجارى رئيسى من مراكز التجارة فى منطقة شرق البحر المتوسط. فقد كانت الموانى الكبرى فى المملكة الصليبية بمثابة أسواق لبيع السلع والبضائع ، بيد أنها كانت ذات أهمية ثانوية. لقد أدى وجود دولة مسيحية صديقة للايطاليين فى منطقة الشرق العربى ممثلة فى المملكة اللاتينية إلى حصول التجار الايطاليين على الامتيازات والتعويضات . وكانت الممارسات القمعية مثل القتل المنظم والنفى والأبعاد ومصادرة الممتلكات معروفة فى الامبراطورية البيزنطية وفى مصر، بيد أن مثل هذه الممارسات القمعية لم تهدد التجار الايطاليين فى مدينة عكا. فقد كانت الأحياء الايطالية التى تمتعت بالحكم الذاتى فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام فى مأمن تماماً من العدو والصديق ، وتأثر

المستوطنون الايطاليون بالتطور بشكل كبير. ففى الفترة المبكرة من الوجود الصليبى، كانت الأحياء الايطالية المتمتعة بالحكم الذاتى فى المدن الساحلية ، وفى أماكن الأسواق لم تزد عن كونها قواعد مؤقتة للنشاط الاقتصادى، ومراكز تجارية أكثر من كونها مناطق للاستيطان الدائم والمستمر. وتقريبًا أصبحت هذه المناطق نواة لاستقرار السكان الايطاليين بصفة دائمة، وكانت مقرًا للموظفين الذين يعهد إليهم مهمة إدارة أملاك الكوميون والكنائس، وعاش التجار الايطاليون فى أحياء مستقلة خاصة بهم، بيد أن التاجر الايطالى كان فى المتوسط يقضى من ثلاثة إلى ستة أشهر فى موسم الابحار (من أوائل الربيع إلى نهاية الخريف) على متن السفينة التجارية، يرتاد خلالها أسواق مصر، والقسطنطينية ، وأسواق الأقطار المجاورة لهما. وكان يستبدل عملاته الذهبية والفضة بشراء سلع وبضائع لكى يتاجر فيها ويبيعها فى أثناء رحلته أو يبيعها بعد ذلك فى أسواق أوربا. وأحيانا كان التاجر الايطالى يتوقف فى أحد الموانى الصليبية لقضاء فصل الشتاء، ثم بعد ذلك يعود إلى مدينته ووطنه فى أوائل فصل الربيع يحمل معه سلعه وبضائعه.

واستمر هذا النمط من النشاط التجارى طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد. وتسجل قائمة جرد السلع والبضائع البندقية والجنوية فى عكا وصور المستودعات والمخازن والمنازل ذات الحجرات التى ظلت خالية معظم فترات العام، بيد أن هذه المنازل كانت تؤجر للتجار القادمين عند وصول الأساطيل التجارية طوال مدة الموسم التجارى. ولكن الحى الايطالى استطاع بالتدريج أن يغير من صفته المميزة.

ويمكن أن نطلق على الفترة الباكرة للاستيطان الايطالى فى المناطق الصليبية اسم «فترة الاستقرار الشتوية» وبطء أفسح مجال لظهور نمط مختلف من أنماط الاستيطان الإيطالى. وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى تحول الاستقرار المؤقت للإيطاليين فى المناطق الصليبية إلى استقرار واستيطان دائم. وعلى سبيل المثال كانت مدينة صور تشهد مثل هذ الوضع من الاستقرار الدائم للتجار الايطاليين . ووفقًا لمعاهدة عقدت بين البطريرك اللاتينى وارمند Warmund فى عام ١١٢٣م (فى أثناء غياب الملك بلدوين الثانى الذى كان قد وقع فى الأسر) وبين الدوج البندقى تم التنازل لكوميون البندقية عن ثلث مدينة صور وثلث مناطقها الريفية . وقد لوحظ أن هذه المعاهدة كانت تثير الشكوك والوساوس ، وأصبح ثلث كل القرى فى هذه الامارة تابعة للبنادقة ، وأيضا أقام البنادقة حيًا لهم فى الجزء الشمالى من

مدينة صور. بالقرب من مينائها (وترجع الشهرة القديمة للميناء الجنوبى إلى امتلائه بالغرين) ومنحت بعض هذه القرى للبنادقة فى شكل اقطاعيات مقابل خدمات اقطاعية (وتلك كانت حالة استثنائية) يؤديها البنادقة للملكة الصليبية. وهكذا فإن مجموعة ملاك الأراضى من المستوطنين البنادقة مكثوا فى مدينة صور، وتعزز وضع السكان المحليين الايطاليين هناك. ومما يذكر أيضا أن بعض الايطاليين الآخرين استأجروا من سلطات الكوميون ساحات الدور وأراضى الفضاء، ومزارع الكروم، والأكشاك الخشبية اللازمة لعرض السلع والبضائع فى الأسواق، وكذلك المقاعد الخشبية والدكك، وهكذا أصبح الايطاليون سكانا مستقرين حقيقيين. وعمل الايطاليون فى مهنة السمسرة والوساطات المنتظمة بين ملاك السفن القادمة والتجار وبين أرباب المصالح التجارية المحلية. وأطال التجار الايطاليون مدة اقامتهم الشتوية واستقروا بشكل دائم فى منطقة الشرق العربى. وتأسست وكالات تجارية لكبار التجار، وكانت هذه المؤسسات تشبه تمامًا الشركات التجارية.

واعتاد بعض التجار الاقامة فى المدن الساحلية فى المملكة الصليبية، وهم الممثلون التجاريون الذين كانت تعينهم حكومات الكوميونات للعمل كمندوبين لها فى منطقة الشرق اللاتينى. وكانت مدة وظيفتهم قصيرة، لم تزد فى الغالب عن عام أو عامين فقط. وحمل هؤلاء الموظفون ألقاب مثل «قنصل» أو «فيكونت» وتولوا السلطة فى الأحياء الخاصة بكوميونهم. وبعد سقوط المملكة الصليبية الأولى فى عام ١١٨٧، وفى أثناء فترة استعداد الصليبيين لاسترداد مملكتهم تبنت كل الكوميونات الايطالية الرئيسة نظامًا أكثر مركزية وتزامن هذا النظام المركزى مع عام ١١٩٢م. ومن الآن فصاعداً أصبح البيللى bailli حاكما عامًا فى مدينة عكا وممثلاً للبنادقة، ويخضع لسلطته كل الايطاليين البنادقة فى منطقة الشرق اللاتينى. وفى نفس الوقت قامت جنوا بتعيين قنصل عام لها فى بلاد الشام، فى حين كانت مدينة بيزا فى البداية تعين اثنين من القناصل العموم، وأنقصت عددهم إلى قنصل واحد، وهو القنصل البيزاوى العام الذى كان له السلطة العليا على كل الموظفين المحليين من البيازنة.

وفى الفترة الباكرة كان يتم تعيين الموظفين من بين التجار المحليين، مع مشاركة الايطاليين؛ وبعد ذلك، كان الموظفون يحضرون مباشرة من المدينة الأم (بيزا - جنوا - البندقية). وعلى أى حال، فإنه كان يتم تعيين هؤلاء الموظفين ممن لديهم المعرفة والخبرة بظروف منطقة الشرق

العربى. ولذا ليس غريبًا أن يتم اختيارهم من بين التجار الشرقيين أيضا بالإضافة إلى التجار الايطاليين .

وهكذا فإن هذا النوع من المشاركة المحلية الايطالية والتى وجدت الثروة والقوة السياسية قد بدأت تتطور فى المملكة الصليبية ، وذلك لأن الموظفين الايطاليين كان يتم اختيارهم من التجار الأثرياء ذوى النفوذ ، وكانت أعدادهم تزداد بفضل حضور أقاربهم من المدن الايطالية الأم إلى الأراضى والمناطق الصليبية. وظل بعض أعضاء هذه المجموعة الثرية من التجار يقيمون فى منطقة الشرق بصفة دائمة. وفى الغالب كان أبناؤهم يعودون إلى إيطاليا للبحث عن فتيات يتزوجون منهن، وكانت مهور ودوطات هؤلاء الزوجات تدفع فى صورة متاجر أو استثمارات ، وبعد اتمام الزواج، كان الأبناء يعودون إلى عكا أو إلى ميناء من موانى المملكة الصليبية . وهكذا تأسس التوسع البندقى والجنوى البيزاوى فى منطقة الشرق . وفى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى استقر عدد من العائلات الجنوية الشهيرة ذات الأصول النبيلة الراقية فى منطقة الشرق . ووجد أيضا فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام عدد من كبار العائلات البندقية وهى العائلات التى كانت تزود المدينة بالدوجات والقادة العسكريين، والقناصل وأعضاء السناتو. ويمكننا تتبع تاريخ بعض هذه العائلات البندقية أو الجنوية مدة ثلاثة أجيال فى المملكة الصليبية.

وكانت امتيازات الكوميون وراثية. وظل أعضاء هذه الكوميونات لعدة أجيال يطالبون بالامتيازات والاعفاءات التى منحت لأجدادهم منذ أكثر من قرن من الزمان مضى، وقت الحملة الصليبية الأولى. وكان هذا ذا أهمية فى المحافظة على الهوية الذاتية لأبناء القوميون . وكان استقلال الايطاليين والامتيازات التجارية التى حصل عليها التجار الايطاليون تكفل لهم مزايا واسعة تفوق كل المزايا التى يتمتع بها التجار الفرنجة المحليون وكان من الطبيعى لملوك مملكة بيت المقدس الصليبية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى فقط أن يحاولوا كبح وضبط هذه الامتيازات المفرطة. بيد أن هذه المحاولات لم تحقق سوى نجاحًا جزئيًا فقط. وكانت الكنيسة اللاتينية بجلالها وسموها أيضا تطلب لرجالها الامتيازات من الملك الصليبى مثلما كانت تفعل كل من جنوا وبيزا تباعًا. وبشكل يفتقر إلى البراعة واللباقة قام الجنوية باقامة نصب تذكارى مطلى بالذهب فى كنيسة الضريح المقدس فى مدينة القدس ودونوا على هذا النصب قائمة الامتيازات التى حصلوا عليها من الملك الصليبى ! وهكذا بات من الصعب طرد التجار

الايطاليين من معبد الضريح المقدس وأحيانًا كان الملوك الصليبيون يلجأون إلى تقليص الامتيازات الممنوحة للتجار الايطاليين متذرعين فى ذلك بأسباب سياسية أو أمنية . وعلى سبيل المثال ، حدد هنرى الشامبنى عدد العائلات البيزية التى يسمح لها بالاقامة فى مدينة عكا بثلاثين عائلة فقط. ومن ناحية أخرى، وفى أوقات الخطر كان يتم تجديد الامتيازات القديمة للتجار الايطاليين وتتسع هذه الامتيازات . وهكذا فإن كونراد مونتفرات عندما حاصر مدينة صور عام ١١٩٠م قام بتأكيد الامتيازات القديمة للقوميونات الايطالية وزاد من هذه الامتيازات الممنوحة لهم واتبع الملك الصليبى البائس جى لوزجنان نفس الاجراء فى تأكيد نفس الامتيازات القديمة لهذه القوميونات، وعندما وصل الملك الفرنسى لويس التاسع إلى المناطق الصليبية قامت القوميونات التجارية بنسخ امتيازاتها بشكل حرفى وطلبت هذه القوميونات تجديد التصديق الملكى على هذه الامتيازات.

ولم يستطع الملوك الصليبيون الغاء هذه الامتيازات أو قهر واخضاع هذه القوميونات، بيد أن هؤلاء الملوك حاولوا منع القوميونات من سوء استخدام امتيازاتهم الواسعة . وعلى الرغم من أن القانون كان يحظر على أبناء القوميونات حيازة الاقطاعات والأملاك البرجوازية كالمنازل والأملاك المنقولة، فإن أبناء هذه القوميونات قد حازوا الاقطاعات والأملاك البرجوازية بسبب الزواج من بعض الورثيات، أو عن طريق الميراث، أو عن طريق الصفقات التجارية التى كان يحصل أبناء القوميونات من خلالها على الأرض والمنازل التى تنتمى إلى الأملاك المحظور حيازتها التى تقع خارج أحياء هذه القوميونات . وهكذا عاش عدد كبير من البنادقة والجنوية والبيازنة حياة زاهية كريمة. فقد حصلوا على أملاك وامتيازات محلية ، بحيث لاتخضع هذه الأملاك لمتلكات القوميون وفى نفس الوقت تمتع أبناء القوميون بالاعفاءات المالية. والواقع أن الغموض العام والابهام الذى كان يتعلق بمسألة حقوق الامتلاك فى العصور الوسطى، وارتباط هذه الحقوق بالمكانة الشخصية للفرد، والذى كان يرتبط فى هذه الحالة بالوضع السياسى والاقتصادى للقوميونات، قد أحدث وضعًا معقداً إلى درجة كبيرة . وغالبًا كان هذا يؤدى إلى نشوب صراعات ومعارك ، ليس فقط بين أبناء القوميونات وبين السلطات الصليبية، ولكن أيضًا بين هذه القوميونات المتناحرة بعضها مع بعض. وتوضح بعض القضايا ذات الاجراءات الطويلة والتى كانت تنظر أمام المحكمة حقيقة أن المحامين كانوا يستغرقون يومًا كاملاً فى مناقشة أفضل قرارات المحكمة العليا. ومهما كانت القضية ، فإن مثل هذه

التعقيدات القانونية كانت تعنى أن سيد المدينة سواء كان سيد اقطاعى أو ملك سوف يفقد الضرائب المستحقة للمدينة أو يفقد حق تحصيل الالتزمات والحقوق الاقطاعية. واتبع الملك الصليبى النظام البيزنطى الذى يعود إلى ما قبل منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، هذا النظام الذى كان يؤكد على حرمان القوميونات التجارية من امتيازاتها الجديدة، ويلزمهم بدفع الضرائب المعتادة، أو يتخلون عن امتيازاتهم الإقليمية ويصبحون مواطنين . ولم تحل هذه المشكلة بشكل مرضى . وفى فترة متأخرة من القرن الرابع عشر الميلادى، وبعد سقوط المملكة الصليبية، كان الملوك الصليبيون فى قبرص ما يزالون فى صراع من أجل حل هذه المشكلة الشائكة.

وتجمع حول القوميونات الايطالية الثلاث الكبيرة- البندقية، وجنوا وبيزا عدد كبير من الايطاليين الآخرين. وكان التجار الذين جاءوا من كل أنحاء تسكانيا يتطلعون إلى التمتع بالامتيازات البيزاوية، وأعلنوا أنهم بيازنة ، وحصلوا على اعتراف القنصل البيزاوى، وعندئذ تمتع هؤلاء التجار بامتيازات القوميون البيزاوى . ومقابل ذلك اعترف تجار تسكانيا بالحقوق القانونية والقضائية لقوميون بيزا عليهم وعلى ممتلكاتهم طوال فترة إقامتهم فى منطقة الشرق العربى. ومن الطبعى أن مثل هذه الأحداث لم تكن مقصورة فقط على قوميون بيزا.

بيد أنه فى تلك الأثناء ظهر شركاء جدد فى تجارة الشرق. إذ كان تجار مرسيليا أحد هؤلاء الشركاء، وكان هؤلاء التجار من مواطنى مرسيليا ويرتبطون بعلاقات مع تجار مونبلييه وتجار من مدن البروفانس الأخرى. وحصل تجار مرسيليا على امتيازات قليلة إذا ما قورنت بالامتيازات الواسعة التى تمتع بها التجار الايطاليون وبسبب الامتيازات الواسعة للايطاليين أصبحت السلطات الصليبية تعى الدرس جيداً وباتت أكثر حذراً واحتراسًا فى منح الامتيازات التى تعود إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . وكان القطالونيون من برشلونة آخر القوميونات التى حصلت على امتيازات تجارية فقط ولمدة طويلة لم يحاول التجار القطالونيون اقامة أحياء اقليمية لهم فى المناطق الصليبية. ولم تحظ قوميونات مرسيليا وبرشلونة بأهمية كبيرة وتوضح قوانين مرسيليا البحرية الشهيرة التى تم تصنيفها وتجميعها فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى قدْم نشأة المستعمرة الشرقية، وهى احياء لذكرى المستعمرات الايطالية التى تسبق هذه التجربة الاستعمارية فى الفترة الصليبية بمائة عام على الأقل وكان فندق تجار مرسيليا صغيراً ولم يزد عن كونه أكثر محطة توقف ومركز متقدم لتجار يمارسون النشاط التجارى فى الشرق .

ومن الصعب تقدير عدد أبناء القوميونات الايطالية التجارية فى المملكة الصليبية . وإذا اعتمدنا على الفهارس الطبوغرافية وقوائم جرد الممتلكات ، فإنه يمكننا القول إن أعدادهم عادة كانت قليلة، لاتزيد عن بضعة مئات على أكثر تقدير. بيد أن قوتهم ونفوذهم لم تعتمد على أعدادهم، بل كان هذا النفوذ يعتمد فى المقام الأول على وضعهم الاقتصادى. وكانت المستعمرات التى أسستها الكوميونات الايطالية فى الشرق ترجع إلى قوة المدن الأم الكبرى. فكانت المدينة الأم (البندقية - جنوا - بيزا) ترسل أساطيلها وسفن التجار فى أوقات السلم، وترسل السفن الحربية فى أوقات الحرب. وبشكل غير متوقع ، أصبحت القوميونات الايطالية فى الشرق فى حالة قتال وصراع فيما بينها، حيث كانت القوى الايطالية تحارب خارج حدود أوطانها واصطدام الصراع الاستعمارى بينهما- وتعددت جبهات الصراع ، فهناك متنافسون فى منطقة كورسيكا وتنافس بينهم فى القسطنطينية ، ومعارك عسكرية طاحنة فى منطقة بحر ايجة ، وبلغت هذه الصراعات بين هذه الكوميونات بعضها وبعض الذروة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، حيث أصبحت مدينة عكا ساحة للقتال والمعارك الدامية بين أبناء الكوميونات الايطالية المتناحرة . وشارك الايطاليون المحليون فى هذه المعارك، وتزايدت أعدادهم بسبب وصول البحارة والمحاربين من أوربا. وكانت الأحياء الايطالية فى المناطق الصليبية محصنة، تقسم مدينة عكا إلى جمهوريات صغيرة تحيط بها الأسوار والأبراج، وكانت المعارك تنشب بين هذه الأحياء المتجاورة وتؤدى إلى الحاق الخراب والدمار بمدينة عكا. وفى تلك الآونة كان قادة القوميونات حكامًا مستقلين، وقلما اعترفوا بوجود المملكة الصليبية.

الفصل السابع

التاج الملكى الصليبى

لقد حكم المملكة الصليبية الأولى فى بيت المقدس (١٠٩٩-١١٨٧م) خمسة من الملوك الذين حملوا اسم بلدوين*، ويبدو أن الفرنجة فى منطقة الشرق العربى كانوا أكثر ولعًا بهذا الاسم- وكذا فإن علماء النُمِّيات (المسكوكات والنقود القديمة) ومسجلى الأختام فى العصر الحديث يجدون صعوبة فى أن ينسبوا بدقة النقود أو الأختام الملكية إلى أى ملك صليبى يحمل اسم بلدوين. وقد أمكن فقط تحديد هوية العملات والأختام التى ترجع إلى عصر الملك الصليبى عمورى الأول فى القرن الثانى عشر الميلادى وبكل دقة . ولم تختلف أشكال وتصميمات هذه النقود وهذه الأختام عن العملات الصليبية الأخرى. وبشكل عام كانت هذه النقود والأختام الصليبية تحمل على أحد أوجهها صورة أو أكثر للمعانى الرئيسة فى مدينة بيت المقدس. فقد نُقش على بعض هذه العملات والأختام الصليبية الجيدة (والتى كانت ترمز إلى فترة الازدهار الاقتصادى للملكة الصليبية) تصميمات ونقوش تشمل المعالم الرئيسة لمدينة القدس والتى تشمل: برج الميدان، والبوابات المزدوجة المرصعة بالمسامير والتى يعلوها الجدار العلوى للحصون، وقبتين مشيدتين على أبراج صغيرة تمثل القلعة التى كانت تعرف باسم برج داوود. وبجوار هذه النقوش والرسومات نقشت صورة قصر الملك الصليبى فى الحافة الأخيرة من قطعة العملة. وكان الرسم الهندسى الذى يعلو قمة الأعمدة والذى كان عبارة عن قمة مخروطية مزودة بفتحة مستديرة يتوسطها صورة ميدان صغير يمثل كنيسة الضريح المقدس. وأخيرا كانت القبة الجميلة التى يعلوها عدد كبير من الصلبان تمثل «قبر الضريح المقدس» مسجد عمر سابقًا . وكان يرسم على ظهر الأختام الصليبية بانتظام صورة لملك بيت المقدس الصليبى وهو يرتدى عادة التاج الملكى المستدير ، وأحيانًا كان يرتدى لباسًا ينتهى بنطاق فى الأسفل. ومن المحتمل أن القلادات التى كانت تزين جانبى رأس الملك الصليبى قد زينت بالأحجار الكريمة. فكان الملك يرتدى سترة قصيرة فضفاضة مزودة بطيات واسعة ، ومزودة فى أحد أطرافها بكرة سلطانية ، وفى الطرف الآخر بصولجان أو صليب .

---

* حكم الملك بلدوين الأول المملكة الصليبية من عام ١١٠٠-١١١٦م . (المترجم)

وبهذه الصورة لايمكن التمييز بين ملك صليبى فى مملكة بيت المقدس وبين أى ملك مسيحى فى الغرب الأوربى. ونظرا لأن صانعى الأختام الصليبية كانوا من الأوربيين فإنهم اتبعوا فى صناعتهم لهذه الأختام النماذج التقليدية السائدة فى أوربا، أو لأن الملوك الصليبيين فى الشرق العربى أرادوا خداع وتضليل معاصريهم من الأوربيين الغربيين باتباع النماذج التقليدية فى صنع الأختام.

ففى كل مكان من أوربا كان حفل التتويج الملكى بمثابة فاتحة وبداية لعصر جديد تندمج فيه كل العناصر المادية والرحية. وكان هذا يعبر عن وضع الملك باعتباره وريثًا شرعيًا أو حاكما منتخبًا- وأيضًا سيداً مُسح بالزيت المقدس يحكم مملكة مسيحية بنعمة الرب. بيد أن المسح بالزيت المقدس والتتويج الذى كان يتم عادة فى مدينة بيت المقدس (وكانت الحالة الاستثنائية فقط خلال المملكة الصليبية الأولى هى تتويج الملك الصليبى بلدوين الأول الذى توج فى مدينة بيت لحم على غير العادة) كان يرمز إلى ذكريات تاريخية ودينية لانظير لها فى العالم المسيحى. ومن اللافت للنظر أن كل العناصر الدنيوية فى طقس حفل التتويج كانت تتناقض بشدة مع سمة الوقار والقدسية التى تتميز بها العقيدة المسيحية، إذ كانت تتجاوز كل هذه السمات. ولم يكن الغرض الرئيسى من حفل التتويج ترسيخ وتثبيت الشرعية فقط بل كان أيضًا بقصد تجديد العهد والميثاق بين الملك وبين فرسانه الذين اختاروه وانتخبوه مليكا لهم- مثلما ادعى أن مثل هذا قد حدث فى نهاية الحملة الصليبية الأولى.

وكان اعتلاء العرش الملكى الصليبى فى معظم فترات القرن الثانى عشر الميلادى يتذبذب ما بين الانتخاب تارة وبين الوراثة تارة أخرى. وعلى الرغم من أن الملكية الانجليزية حيث أسرة بلا نتجنت والملكية الفرنسية حيث ملوك آل كابيه كانت وراثية لأغراض عملية ، فإن هاتين المملكتين كانتا ماتزالان تحتفظان بأشكال العناصر الانتخابية الصريحة لاختيار الملك أهميتها الحقيقية ، وهى طريقة التصويت الانفعالى عن طريق هتاف أو تصفيق النبلاء بدلا من احصاء الأصوات المؤيدة. وفى أثناء الأزمة فقط، والتى كانت تحدث بسبب غياب الورثة المباشرين، كانت تمارس الطريقة الانتخابية القديمة القاصرة على النبلاء من أجل اختيار ملك من بين أعضاء الأسرة الحاكمة.

وكانت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ما تزال تحتفظ بكثير من أشكال الممارسات الانتخابية القديمة حيث كانت طريقة وراثة العرش نظامًا مقبولاً ومتغلغل الجذور. وثمة عوامل

عديدة ساهمت فى احتفاظ المملكة اللاتينية بهذا الشكل الانتخابى الفريد . وكان انتخاب جودفرى البويونى من أهم العمليات الانتخابية الباكرة، فقد بدأ تاريخ المملكة اللاتينية بانتخاب «حامى الضريح المقدس Advocate of The Holy Sepulchre وكانت الأسطورة التى نسجت حول انتخاب «المتواضع» جودفرى معروفة لدى الجميع. فقد بقيت بالكاد الدعاوى لوراثة العرش الملكى الصليبى لكل من الملكين الصليبيين وهما الملك بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨م) وبلدوين الثانى (١١١٨م- ١١٣١م) وفى المقام الأول كان فضل اعتلاء الملك بلدوين الثانى عرش المملكة الصليبية يرجع إلى النبلاء الصليبيين، الذين عارضوا الدعوى التى أقامتها يوستاس من بولون Eustace of Boulogne أخت بلدوين الأول ووريثته الشرعية من أجل الظفر بعرش المملكة الصليبية. وببساطة فإن ذكريات الانتخابات الحقيقية قد طواها النسيان حاليًا. وهكذا فإن المبدأ الوراثى لاعتلاء العرش الملكى لم يترسخ عمليًا حتى عام ١١٣١م، حيث نجحت الملكة ميلسندا Melissande فى وراثة عرش والدها فى حكم المملكة الصليبية.

بيد أن أهمية المبدأ الانتخابى فى حفل التتويج لم يرجع فقط إلى العرف والتقليد بل كان يرجع إلى صيغة وديباجة القسم الشكلى ، هذا القسم الذى لم يلزم الملك أن يحكم بالعدل فقط، بل كان يلزمه بضرورة احترام الأعراف والقوانين الخاصة بالمملكة. ومن الصعب أن تحدد بالضبط تاريخ ادخال هذا القسم المفصل فى مراسم حفل التتويج والذى كان بمثابة «ميثاق أو عقد اجتماعى Social Contract وأقدم سجل باق يتعلق بمراسم حفل التتويج الخاصة بالملك بلدوين الأول يتضمن صيغة غامضة لهذا القسم وكان مفاد هذا القسم أن يلتزم الملك بأنه سوف يحكم بالعدل ، وأن يحافظ على حقوق الكنيسة اللاتينية فى المملكة الصليبية. وبعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وفى عصر الملك الصليبى عمورى الأول (١١٦٢-١١٧٤م)، وهى الفترة التى شهدت نضال الأعيان والنبلاء الصليبيين من أجل مساواتهم بالملك فى حكم المملكة، تم ادخال صيغة للقسم أكثر صرامة وحدة.

وعندئذ انتشر هذا التشريع الخاص بالقسم الذى يؤديه الملك الصليبى فترة تزيد عن نصف قرن وتراكمت الأحداث، وبدأت هذا القسم يلعب دور الانجيل والكتاب المقدس فى النظرية السياسية والممارسة العملية للمملكة الصليبية . لقد تحدد الوضع المستقبلى لكل من الملك الصليبى والنبلاء بشكل متزايد فى ضوء الامتيازات المقدسة التى تمتع بها النبلاء على حساب

السلطة الملكية. وكانت الحريات والاعفاءات أهم ما يميز امتيازات النبلاء الأوربيين ، وأصبحت هذه الامتيازات بمثابة حجر الزاوية فى الفكر السياسى ، واحتفظ هؤلاء النبلاء بهذه الامتيازات التى قدر لها أن تلعب دوراً رئيساً فى بقاء المملكة الصليبية واستمرارية وجودها. وفى تلك الأثناء ، برزت أسطورة جودفرى البويونى التى تذكر أنه «واهب القانون» . فقد تم انتخاب جودفرى البويونى على يد زملائه من قادة ونبلاء الحملة الصليبية الأولى وساهم فى وضع وتأسيس قوانين هذه المملكة. وساعد هذا المظهر المزدوج لتتويج أول ملك صليبى فى تأكيد فكرة «عقد اجتماعى» بين الملك الصليبى والبارونات ومن الآن فصاعداً سوف يلتزم ملوك بيت المقدس باحترام قوانين وأعراف المملكة والحريات والامتيازات التى تمنح للنبلاء وهى الالتزامات التى أصبحت شرطاً أساسياً لقبولهم لتتويج الملك. ومن المرجح أن مثل هذا قد حدث فى عصر الملك الصليبى عمورى (أماريك) ، حيث كان النبلاء لديهم من القوة الكافية لاجبار الملك على طلاق زوجته قبل اعترافهم بدعواه لاعتلاء عرش المملكة الصليبية وأصبحت مثل هذه الصيغ الصارمة والدقيقة للقسم الذى يؤديه الملك ملزمة وفعالة. ومن الجدير بالذكر أن آخر قسم يؤديه ملوك بيت المقدس اللاتين كان يتضمن بوضوح التزام الملك بالمحافظة واحترام قوانين الملك عمورى وابنه بلدوين ... الخ. وقد أشار بلدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م) إلى أن النبلاء تنامت قوتهم بسبب اتقانهم لعملية التشريع والحكم فى أثناء تلك الفترة. وهكذا ولد التاج الملكى لبيت المقدس، ومنذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى على الأقل، تضمنت مراسم التتويج اثنتان من المسئوليات القانونية ، وهما الوضع الخاص للبطريرك اللاتينى فى بيت المقدس، والالتزامات الملكية تجاه النبلاء الصليبيين. وكان اليوم العظيم للتتويج يبدأ عادة بالاستعدادات فى المبانى الرئيسة للعاصمة (بيت المقدس) : وكان القصر الملكى متاخماً للقلعة (برج داود)، ومجاوراً أيضاً لكنيسة الضريح المقدس، وكذلك «لقبر السيد المسيح» ولأحياء الداوية (هيكل سليمان المسجد الأقصى) . وفى تلك المناسبة كانت شوارع المدينة تأخذ زينتها فى شكل بهيج يسر الناظرين ؛ حيث كانت شرفات المنازل المسقوفة متألقة ولامعة بالبساط الشرقى المزين، ويسود المدينة جو من الاحتفال والابتهاج والفرح . وكان الفرسان والنبلاء من جميع أنحاء المملكة الصليبية يشاركون فى هذه المناسبة وهذا الاحتفال المهيب. وفى مثل هذه المناسبات كان كبار موظفى الدولة يؤدون الالتزامات التى ترجع أصولها إلى فترة العصر الكارولنجى. فقد كان كل موظف من الموظفين الأربعة الكبار فى المملكة وهم القهرمان Seneschal ، والكونستابل Constable والمارشال Marshal والحاجب أو اليارو Chamberlain مسئولاً عن جزء مختلف من مراسم هذه الاحتفالات ، إذ

كان هؤلاء الموظفين الأربعة يمثلون يشكل رمزى كل موظفى الدولة الكبار والصغار فى هذا الاحتفال .

وكان القهرمان أكثر الرجال نشاطًا وحركة فى يوم الاحتفال بالتتويج، إذ كان يؤدى التزامات وواجبات وظيفية باعتباره كبير الخدم فى القصر الملكى، فكان مسئولاً عن مراسم الاحتفال ، كما كان يتعهد بالأشراف على زملائه وعلى عدد كبير من الخدم والأتباع والنساخ .

وكان الملك المزمع تتويجه يرتدى فى حفل التتويج الملابس الخاصة بهذه المناسبة فى القصر. ويساعده الياور أو الحاجب فى ارتداء هذه الملابس ، وهو الموظف الذى كان مسئولاً عن غرفة ملابس الملك. وعندما يبدأ حفل التتويج كان الملك يرتدى ملابسه المعدة لهذه المناسبة الجليلة المهمة ، ويغادر غرفته، يحيط به أفراد عائلته وموظفوه ويظهر أمام القصر الملكى فى حلته . وكان المارشال يمش بجوار الملك فى حين كان الكونستابل ينتظر خارج القصر يحمل معه البيرق الملكى . وكان ينصب هذا البيرق فى أحد جنبات الميدان ، وهذا البيرق كان عبارة عن قماش أبيض منقوش عليه صليب أحمر فى كل ركن من أركانه والصليب الخامس منقوش فى الوسط، احياءً لذكرى مذبح الكنيسة المزود بخمسة من الصلبان التى تمثل جروح المسيح فى أثناء الصلب. وفى هذه المناسبة كان الملك يمتطى صهوة جواده، الذى تكسوه الزينة، ويبدأ الموكب الاحتفالى تحت اشراف الحاجب، الذى يشير إلى طريق سير الموكب بالسيف الملكى الذى يحمله. ويسير خلفه مباشرة القهرمان الذى يحمل الصولجان، ويتبعه بعد ذلك الكونستابل الذى كان يحمل البيرق الملكى حتى يصل الموكب إلى كنيسة الضريح المقدس. وعند هذا المكان كان الملك ينزل من على جواده، ويقبض الكونستابل على اللجام ويرفع بيديه البيرق الملكى لكى يسلمه إلى المارشال. ويبدو أن الملك لم يمتطى جواده إلى ضاحية الضريح المقدس، بل كان مترجلاً حتى آخر الطريق. وعند المداخل العظيمة لكنيسة الضريح المقدس كان بطريرك بيت المقدس والقساوسة وعدد كبير من رجال الدين يقفون لاستقبال الملك.

كان الملك هو الذى يرتدى ملابس التتويج التقليدية- تلك الملابس غالية الثمن المطرزة ، وربما كان هذا الثياب طويلاً فضفاضًا يجر على الأرض مثل الملابس التى يرتديها كبار الموظفين الذين كانوا يمشون خلف البطريرك الذى يؤم جموع المصلين. وكانت هذه المراسم بمثابة مقدمة مميزة لحفل التتويج الملكية.

وبناءً علي مطلب البطريرك اللاتينى، كان الملك الصليبى المتوج يؤدى قسم التتويج. ولم يختلف الجزء الأول من هذا القسم عن القسم المشابه له الذى كان يؤديه الملوك والحكام فى

أوربا فى تلك الفترة. وكان الملك يتعهد بالمحافظة ، على أملاك الكنيسة وحقوقها وحماية امتيازاتها وامتيازات رجال الدين الكاثوليك ، ويُعزِّز قسمه بأن يسبغ رعايته على الأرامل والأيتام فى أنحاء الملكية الصليبية. بالإضافة إلى ذلك ، كان الملك يؤدى قسمًا خاصًا للبطريرك يقول فيه ، «إننى منذ الآن فصاعداً سوف أكون خير عون مخلص لك وسوف أدافع عنك ضد كل من يناصبك العداء فى أنحاء المملكة الصليبية». وكان هذا بمثابة اقرار لأملاك الكنيسة التى حصلت عليها منذ بداية تأسيس المملكة . وعلى الرغم من أن هذا القسم لم يكن قسمًا بالتبعية الاقطاعية، فإنه كان يشبه إلى حد ما قسم الولاء والاخلاص الذى يؤديه الفصل الاقطاعى لسيده. ومع أن هذا القسم كان ينطوى على المفارقة التاريخية بحلول النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى إلا أنه ظل مصونا وباقيًا لاحياء ذكرى قديمة، فقد اعترف البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس من قبل بسيادة جودفرى البويونى أول حاكم صليبى للمملكة اللاتينية .

ومما يذكر أن الشطر الأول من القسم الذى كان يؤديه الملك فى أثناء حفل التتويج لم يكن موجهًا للجميع، بل كان خاصًا للبطريرك والكنيسة. وكان يلى هذ الجزء من القسم الجزء الذى كان يعرف باسم تجديد العهد أو الميثاق . بينما كان قسم التتويج فى كل الممالك الأوربية يتضمن وعداً بالمحافظة على حقوق وممتلكات وامتيازات أبناء الشعب ، فإن مثل هذا لم يتضمنه القسم الذى كان يؤديه ملوك بيت المقدس الصليبين ، إذا كان نص القسم الذى يؤديه الملوك الصليبيون هو : «إننى سوف احترم قوانين المملكة وأصون قوانين هؤلاء الملوك الصليبيين السابقين، الذين هم أجدادى ذوى الذكرى الخالدة والمباركة ، وأن أحترم قوانين الملك أماليك (عمورى) وابنه الملك بلدوين، وأن أحترم الأعراف والتقاليد القديمة وقوانين مملكة بيت المقدس». ولم يقتصر فحوى هذا القسم على تقديم صورة أكثر صرامة من صورة وصيغة القسم المناظر له فى أوربا فقط، بل أيضا كان هذا القسم بمثابة أسلوب للحكم والإدارة فى المملكة الصليبية. وعندما تم الاتفاق على اختيار هيو الثالث لوزجنان Hugh III de Lusignan ملكا لبيت المقدس قام جاك فيدال Jacques Vidal المتحدث باسم أهالى المملكة باحضار النسخة المدون بها فى نص القسم إلى الملك وقال له لقد اعتاد ملوك بيت المقدس والتزموا بأن يؤدوا هذا القسم المدون فى هذه النسخة . وبعد أن أدى الملك هذا القسم قام السادة الاقطاعيون فى المملكة الصليبية الذين حضروا مراسم التتويج على الفور بتقديم قسم التبعية الاقطاعية للملك .

لقد كان قسم التتويج الذى يؤديه الملك الصليبى بمثابة عقد ثنائى بين الملك الصليبى وبين نبلائه .

وبعد أن يؤدى الملك الصليبى القسم، كان البطريرك يصافح الملك ممسكًا بيده اليمنى ويعده قائلاً له: «بأنه سوف يحافظ على سلامة التاج الملكى والدفاع عنه، وأن يصون حقوق كنيسة روما (أو القانون الديرى إذا كان البطريرك راهبا) وعندئذ كان البطريرك اللاتينى يطبع قبلة على جبين الملك، ثم بعد ذلك يلتفت إلى المجتمعين من الفرسان ورجال الدين الكاثوليك والبرجوازية يدعوهم لكى يؤكدوا شفهيًا بأن هذا الشخص (الملك) هو الوريث الشرعى لعرش المملكة الصليبية». وبعد ثلاث عظات كانت الجموع المحتشدة تهتف من حناجرها قائلة نعم هذا هو الملك. كانت الجموع المحتشدة فى الفناء التى تستمع وتنصت إلى ذلك القسم الذى يؤديه الملك الصليبى تنادى به ملكا شرعيًا لهم، وعندئذ كانت جوقة المنشدين تجتمع لكى تبدأ فى ترديد أغنية مدح الرب. وكانت خزانة كنيسة الضريح المقدس والتى يحمل مفاتيحها فرسان الاسبتارية والداوية تفتح أمام الملك وزوجته الملكة ، وكان كبار النبلاء يحملون هذه المفاتيح . وعندئذ كان الملك يجلس على مقعد خشبى بالقرب من مذبح الكنيسة فى حين كانت أغنية «الرب» يتردد صداها فى أرجاء الكنيسة وفى الختام كان البطريرك يؤم مجموعة المصلين، ويتم تتويج الملك فى مواجهة كنيسة الضريح المقدس. وكانت أعمال القداس تتلى، وبعد قراءة وتلاوة الرسالة الانجيلية وترانيم القداس، كان الملك يعود إلى مقعده المواجه لمذبح الكنيسة وعندئذ كان البطريرك يعلن قرار التتويج، ويبدأ عملية مسح الملك بالزيت المقدس إذ كان يوجد وعاء (كالذى يظهر فى كل الصور المعاصرة) يحتوى على الزيت المقدس الذى يستخدم البطريرك فى مسح رأس الملك وكتفيه . وبعد ذلك يضع البطريرك خاتمًا فى اصبع الملك رمزاً للولاء والاخلاص ، ويقلده سيف الفروسية رمز وشعار العدالة والقوة والدفاع عن العقيدة، وفى النهاية كان الملك الصليبى يضع التاج فوق رأسه ويمسك بالصولجان فى يده اليمنى كرمز لفرض العقوبة على مرتكبى الأشرار الدنيوية. وفى يده اليسرى كان يمسك الكرة السلطانية Orb التى يعلوها صليب والتى ترمز إلى السلطة والعدالة الملكية . وبعد الدعاء للملك باللغة اللاتينية ثلاث مرات بطول العمر وازدهار فترة حكمه ، كان الملك يقوم بتقبيل الأساقفة ، ويعود إلى عرشه ، وقد انتهى القداس بتلاوة الأناجيل وعندئذ كان الملك يتناول العشاء الربانى ، وتنتهى مراسم التتويج بعد أن يقوم البطريرك بمباركة البيرق الملكى ، ذلك البيرق الذى يعيده الملك إلى الكونستابل .

وكان الموكب الملكى يغادر كنيسة الضريح المقدس، يشق طريقه عبر شوارع ضيقة إلى «هيكل السيد » حيث يضع الملك تاجه على المذبح، احياءً لذكرى تجلى السيد المسيح (عليه السلام) لسيمون فى الهيكل. ومن هنا كانت الحاشية الملكية تشق طريقها إلى هيكل سليمان (المسجد الأقصى) لاعداد مأدبة الطعام الملكية التى تقام فى القصر الملكى المقام فى هذا المكان، حيث كان الملك الصليبى يتخذ من هذا الهيكل قصراً ملكيًا له .

ومما يذكر أن سبعة فقط من الملوك الصليبيين التسعة الذين حكموا المملكة الصليبية الأولى قد تم تتويجهم بشكل فعلى فى مدينة بيت المقدس ، عاصمة المملكة. فجودفرى البويونى لم يتوج ملكا كما أن بلدوين الأول توج فى مدينة بيت لحم. وتم تتويج ملك صليبى واحد فقط للمملكة الصليبية الثانية فى مدينة بيت المقدس فقد توج الامبراطور الألمانى فردريك الثانى الهوهنشاوفن المحروم كنسيا من قبل البابا والبطريرك فى مذبح كنيسة الضريح المقدس وارتدى التاج الملكى فوق رأسه فى عام ١٢٢٩م. وقد توج باقى الملوك الصليبيين الآخرين فى مدينة صور، ثانى أهم مدينة فى المملكة الصليبية. وفى أثناء غياب البطريرك ، كان رئيس أساقفة صور (الذى كان يعتبر الرجل الثانى بعد البطريرك فى الرتبة الكنسية) يقوم باجراء هذه المراسم الخاصة بالتتويج. بيد أن مراسم التتويج هذه كانت تتم فى صمت فى مدينة صور، وكان الاحتفال الرئيسى لهذه المناسبة يجرى فى مدينة عكا عاصمة المملكة الصليبية الثانية.

لقد كان تقيد الملك الصليبى والنبلاء على السواء بالقانون بمثابة حجر الزاوية فى النظام الدستورى للمملكة الصليبية. فقد كانت قوة الملوك الصليبيين مثل معظم الحكام فى العصور الوسطى ذات سمات اقطاعية وسيادية . وكانت السمة الاقطاعية تشكل قوة ونفوذة الملك الرسمية الحقيقية. ومن الجدير بالذكر أن الملوك الصليبيين كانوا يستخدمون فى وثائقهم الرسمية لقب ملك Rex. Rei (ظهر هذا اللقب فى القوانين الفرنسية المدونة منذ عام ١٢١١م) ، فى حين كانت الكتب والرسائل القانونية عادة تستخدم مصطلح كبير السادة Chief Seigneurs ولم يكن هذا المصطلح يقلل من قدر الملك الصليبى، بل كان ببساطة يوضح حقيقة أن الملك الصليبى كان يمارس نفوذه وامتيازاته على كل الأعمال التجارية اليومية فى المملكة باعتباره يمثل قمة الهرم الاقطاعى. لقد كانت شبكة العلاقات والامارات الاقطاعية تشكل إطار الدولة والمجتمع ، وكان حق الملك الصليبى فى الحكم والسلطة يمثل دعامة قوته الحقيقية.

وهكذا لم تكن السلطة التى يمارسها الملك الصليبى مطلقة أو استبدادية . إذ كانت هذه السلطة تعتمد على امكانية احداث نوع من التوافق بشكل طبيعى بين المصالح المتعارضة لكل من الملك وأفصاله. وكان باستطاعة الأداة القانونية إما أن تحدث هذا التعاون بين الملك وأفصاله أو تعرض للخطر سياسات الملك التى كانت تطرح أمام كل من الملك وأفصاله المباشرين وكبار السادة الاقطاعيين خلال اجتماعهم فى محكمة الملك، والتى كانت تعرف باسم المحكمة العليا . ووفقا للقانون الاقطاعى، كانت روابط التبعية الاقطاعية تنتهى باختفاء أحد الأطراف المتعاقدة (فى حالة وفاة الملك) وكان يتم اعادة هذه الروابط بتقديم قسم الولاء والتبعية الاقطاعية للملك الجديد. وفى بعض الحالات الاستثنائية من حالات النزاع حول اعتلاء العرش الملكى كانت المحكمة العليا تعقد جلساتها وتتشار فى مسألة التتويج، وفى النهاية كانت تعلن قرارها بخصوص قانونية وأحقية أى من المطالبين بوراثة العرش.

وكانت البداية الفعلية لفترة حكم جديدة تتميز بتقديم قسم الولاء الاقطاعى للملك الصليبى الجديد بعد اجراء مراسم التتويج. فقد كان النبلاء من جميع الرتب يجثون أمام الملك، يقسمون له يمين الولاء والتبعية الاقطاعية. ويعلن كل نبيل أنه أصبح تابعًا للملك مقابل تثبيته فى ملكية الاقطاعية. وعندئذ كان يعقب ذلك تأدية القسم الفعلى بالولاء والاخلاص. وفى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى أصبحت الاختلافات بين قسم الولاء الاقطاعى وقسم التبعية الاقطاعية غير واضحة ومبهمة . فقد كان قسم الولاء والاخلاص الاقطاعى Fealty يتم من خلال الحلف على الأناجيل ولم يتضمن هذا القسم أى وعد متبادل يقدمه الملك، كما كان شأن قسم التبعية الاقطاعية Homage . وكان قسم التبعية الاقطاعية ذات سمة عامة ، ويتضمن التزامات من جانب واحد.

ففى أعقاب حفل التتويج، كان موظفو الدولة، والنبلاء، وكبار السادة الاقطاعيين، وفرسان الدومين الملكى، يؤدون جميعًا يمين التبعية الاقطاعية. ويظل الملك الصليبى مشغولاً تمامًا خلال فترة الأربعين يومًا التالية لحفل التتويج. ومنذ الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى أصبح لزامًا على كل حائزى الاقطاعات (باستثناء حائزى الاقطاعات الأقوياء ذوى النفوذ) تأدية قسم الولاء والتبعية الاقطاعية لكى يحصلوا على اقرار بتثبيت أملاكهم خلال فترة الأربعين يومًا هذه، وإذا لم يفعلوا ذلك سوف يفقدون أملاكهم الاقطاعية . وخلال فترة حكم الملك عمورى (أماريك) وبموجب قانونه الاقطاعى الشهير الذى صدر فى عام ١١٧٠م لم

يقتصر تأدية يمين الولاء والتبعية الاقطاعية على كبار السادة الاقطاعيين فقط ، بل أصبح لزامًا على كل حائز اقطاعى فى المملكة والأفصال التابعين ، وكل الحائزين من مختلف الرتب تأدية مثل هذا القسم. وكان هذا يعنى على الأقل أن ستمائة فرد سوف يؤدون يمين التبعية الاقطاعية (وهو جملة عدد الفرسان الذين يلتزمون بتأدية خدمة عسكرية) ، وربما كان هذا العدد يزيد عن ذلك . وكان القهرمان Seneschal يحل محل الملك فى تلقى مثل هذا القسم الذى يؤديه صغار الأفصال الاقطاعيين.

وفى بعض الحالات، وحينما يرتاب الملك فى اخلاص وولاء بعض نبلائه كان يطلب من سكان المدن التى تقع فى مناطق نفوذ هؤلاء النبلاء تأدية قسم إضافى له. ومن الصعب الاعتقاد فى أن أهل هذه المدن كانوا يؤدون مثل هذا القسم الاضافى بشكل فردى، إذ كان قضاة المحكمة البرجوازية يقدمون يمين الولاء والتبعية الاقطاعية للملك أو لنائبه ، من أجل تأكيد اخلاص كل سكان المدينة.

وفى فترة متأخرة ، وفى خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت المحكمة العليا تعقد جلساتها الطويلة والتى كان يحضرها كبار الأساقفة ومقدمو الهيئات الدينية العسكرية، والسادة اللاتين، وبعض الأفراد الجدد وهم جماعات البرجوازية التى نالت الشهرة خلال فترة الفوضى والاضطراب السياسى التى مرت بها المملكة اللاتينية فى أعقاب الحملة الصليبية التى قام بها الامبراطور فردريك الثانى. ففى تلك الأثناء ، تخلى هؤلاء جميعًا عن موقفهم السلبى، وقاموا بشكل مباشر بتأدية قسم الولاء الاقطاعى للحاكم الجديد. وكان لهذا القسم بعض القيمة والأهمية العملية فى وقت ضعفت فيه الروابط الاقطاعية واتجه فيه بنيان الدولة والمجتمع صوب الانهيار والتفسخ والانحلال. بيد أن هذا أيضا كان نذيراً بقرب انهيار النظام الاقطاعى.

ومر التاج الملكى الصليبى الذى استمر ما يقرب من قرنين من الزمان بمعظم أشكال التطور المتميزة. وبمقارنة هذا النظام الملكى الصليبى بالأنظمة الملكية المتطورة المعاصرة فى أوربا، نجد أن وضع التاج الملكى الصليبى كان يسلك طريقًا مضاداً. فقد كانت الملكيات الأوربية عشية الحملة الصليبية الأولى تحرص منذ البداية فقط على وضع أسس قوتها ونفوذها المستقبلية . فكان الملك الفرنسى لويس السادس يعانى من صعوبات الترحال والسفر المستمر داخل الحدود الضيقة لمملكته. فقد كان ملوك بيت المقدس يتمتعون بنفوذ كبير على الصعيدين النظرى

والعملى. وعلى العكس ، فبحلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، والذى شهد الغرب الأوربى خلاله حكامًا من أمثال فردريك الثانى امبراطور ألمانيا والملك الفرنسى لويس التاسع وايرنول الأول، أصبح التاج الملكى الصليبى فى بيت المقدس صورة باهته لمجد غابر.

وعلى الرغم من أن أول حاكم صليبى للملكة اللاتينية فى بيت المقدس قد اتخذ لنفسه لقبًا متواضعًا وهو «حامى الضريح المقدس Advocate of the Holy Sepulchre» فإن هذه الفترة الباكرة من عمر المملكة لم تشهد أى مظهر من مظاهر الضعف والتى تنتقص من السلطة الملكية. فقد كان البناء الاجتماعى لطبقة المحاربين والذى ظل بعد أحداث الحملة الصليبية الأولى يدعم وجود ملكية قوية. ولم يتعرض البيت الملكى فى بيت المقدس لأية منافسة من أحد على مدى أكثر من جيل كامل، ويمكن أن نعزو ذلك إلى أن أى نبيل صليبى لم يستطع فى تلك الفترة أن يختال غروراً بأصله الشهير وعراقة أصله بشكل كاف، كما أن القوى المستقلة لم تستطع الوقوف فى وجه السلطة الملكية أو تحديها. ونظرا لأن مصير طبقة المحاربين كان يعتمد على السخاء والكرم الملكى الصليبى فى صورة منح اقطاعية وامتيازات ، فإن ولاء واخلاص هؤلاء المحاربين للملك الصليبى بات أمراً مؤكداً. ومع ذلك ، فإن غياب وعدم وجود ارستقراطية قوية لم يكن فقط السبب فى تدعيم وضع ملوك بيت المقدس الصليبيين. وعلاوة على ذلك، فإن بقاء الدولة الجديدة كان يستلزم بالضرورة وجود حاكم قوى. وتنطبق هذه الحقيقة على المملكة الانجليزية الاقطاعية المركزية التى استندت قوتها على يد اثنين من الغزاة، الغزو النورماندى بقيادة رولو Rollo (سنة ٩١١م) والغزو النورمانى لانجلترا فى عام (١٠٦٦م) . وإلى حد ما كان هذا الوضع يمثل حقيقة المملكة اللاتينية. فقد ظلت المملكة ولمدة عشر سنوات بعد الغزو الصليبى فى حالة حرب مستمرة ومتقطعة، وكان الملك الصليبى هو القائد العسكرى الأول للجموع الصليبية المحاربة. وكانت كل واجبات واختصاصات الملك الصليبى الأخرى تساعده على تحقيق هذه المهمة الرئيسة وهى الدفاع عن المملكة الجديدة. وببساطة لم تسمح مثل هذه الظروف بتقسيم السلطة. وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه فى أثناء فترة تبلور البنية الاقطاعية للمملكة سلك الملوك الصليبيون سياسة داخلية حذرة للغاية، وكان التعبير الجزئى عن هذه السياسة الحذرة التى اتبعها الملوك الصليبيون هو نفورهم من منح أراض اقطاعية وامارات لقادة الغزو. فقد كان جودفرى البويونى يخصص لفرسانه موارد مالية من ايرادات المدينة بشكل أكثر من تخصيص الاقطاعات لهم، واتبع الملك الصليبى بلدوين الأول نفس هذه السياسة. فلم يستطع أى من كبار النبلاء الادعاء بأحقية نصيب من أسلاب

وغنائم الغزو يعادل نصيب الملك، ولم تلق هذه السياسة التى اتبعها الملوك الصليبيون الأول أية معارضة. بيد أن الافتقار إلى الجهاز الادارى الذى يستطيع تدعيم فعالية الحكومة المحلية قد أدى فى النهاية إلى اتباع سياسة منح الاقطاعات وخلق طبقة من السادة الاقطاعيين.

وفى خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، كانت منطقة نفوذ الملك الصليبى (الدومين الملكى) ذات أهمية كبيرة. فقد كانت معظم مناطق القدس القديمة التى تضم القدس القديمة ونابلس بالإضافة إلى المناطق الساحلية الممتدة من يافا حتى عسقلان تشكل مناطق النفوذ الملكية والاقطاعات المخصصة للأسرة الملكية . وكانت الموانىء الرئيسة فى المملكة مثل مينائى عكا وصور تابعة للسلطة الملكية ، كما انتشرت الممتلكات الملكية والقلاع حول أراضى التاج الملكى. وخلال فترات الحكم الخمس المتعاقبة من جودفرى حتى الملك بلدوين الثالث ، ظلت أملاك التاج الملكى واسعة وأكثر ثراءً من كل اقطاعات جميع السادة الصليبيين. وعلاوة على ذلك فإنه طوال جيل بعد الغزو الصليبى، كان حائزو الاقطاعات النبلاء نادراً ما يحولوا ملكية اقطاعاتهم إلى خلفائهم، إذ كانت اقطاعاتهم تعود إلى ملكية التاج الملكى بعد وفاة أصحابها من النبلاء.

وبدأ هذا الوضع الذى يتسم باعتداء التاج الملكى على حقوق الآخرين يتغير ببطء فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى. فقد استطاع بعض النبلاء الاقطاعيين تأسيس أسر بارونية حاكمة وراثية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ادارة الأملاك النائية ، مثل منطقة وامارة ما وراء نهر الأردن الكبيرة (التى تم غزوها فى عام ١١١٥م) ومنحت كاقطاع فى عام ١١٤٠م)، قد غيرت ميزان القوى بين الحائزين الاقطاعيين وأملاك التاج الملكى. بيد أنه فى أثناء فترة التغير، ظلت السلطة الملكية قوية بشكل مميز . وثمة قانون يرجع إلى عصر الملك بلدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٢م) والذى نادراً ما أحدث تجديدات فى هذا المجال، قد أكد حق الملك فى مصادرة اقطاعات كبار أفصاله الاقطاعيين بدون محاكمة ولأسباب مختلفة. وبعض هذه الأسباب مثل تحريض الفلاحين واثارة حفيظتهم ضد الملك، أو الهجوم على عائلة الملك أو على الملك شخصيًا ، وكانت هذه الجرائم تنظر أمام أية محكمة اقطاعية . غير أن الأعمال والاساءات الأخرى التى يجرمها القانون كانت تؤكد قوة السلطة الملكية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى. وثمة جرائم أخرى كانت تعرض مرتكبيها لنفس العقاب بدون قرار من المحكمة، وأهم هذه الجرائم التخلى عن ميناء بحرى للعدو ؛ واقامة طريق تجارى إلى الأقطار الإسلامية، وسك النقود أو تزييف العملات الصليبية الملكية. إذ كانت كل هذه الأمور جميعًا

تدخل فى نطاق الامتيازات والاحتكارات الملكية، تلك الامتيازات والاحتكارات التى نجح الملك الصليبى فى الاحتفاظ بها على الرغم من وجود الأمراء المستقلين. وعلاوة على ذلك ، فإنه حتى إلى فترة متأخرة من القرن الثانى عشر الميلادى، كان باستطاعة التاج الملكى الصليبى حماية حقوقه فى الاشراف على الامارات الصليبية المختلفة. وعلى الرغم من أن هذه الحقوق الملكية كانت تشمل مجال القضاء، فإن هذه الحقوق الملكية أيضا شملت مجالات أخرى، بحيث لم يكن السادة الاقطاعيون أحراراً بشكل كامل من النفوذ والسلطة الملكية. ويتمثل هذا الوضع فى ضوء حقيقة أن حضور الملك الصليبى إلى أية إمارة صليبية أو إلى أية محكمة توجد فى الامارة يجعلها على الفور «ملكية». ويمكن تفسير تفوق السلطة الملكية فى ضوء حقيقة أن المعاهدات التى كانت تعقد بين الملك الصليبى والكوميونات الايطالية اعتبرت المدن الواقعة داخل الامارات الصليبية تابعة لسيادة التاج الملكى.

وامتدت السلطة الملكية بدرجة كبيرة لتشمل الكنيسة. وأخفقت المحاولات الباكرة فى تحويل المملكة الصليبية إلى دولة دينية، وحتى دعاوى ومطالب البطريرك من أجل فرض سلطته العلمانية فى مدينة القدس ويافا- والتى منحها له جودفرى البويونى- لم تخرج إلى حيز التنفيذ العملى. وتجدد نفس المطلب فى عصر الملك بلدوين الأول، ولم تلق آذانًا صاغية أيضًا. بيد أن مثل هذه الدعاوى والمطالب المتكررة من جانب البطريرك اللاتينى لم تسفر إلا عن تأسيس حى للبطريرك فى مدينة بيت المقدس حول كنيسة الضريح المقدس فقط. وثمة حقيقة متناقضة ظاهريًا إلى حد كبير وهى أن الكنيسة لم تستطع تحقيق أية سلطة سياسية فى «مملكة الصليب» فالصراع حول التقليد العلمانى الذى أقضَّ مضاجع المسيحية فى أوربا لم تعرفه المملكة اللاتينية. وحقيقة الأمر، أن الملك الصليبى كان يمارس نفوذه بقوة فى عملية الانتخابات الكنسية واختيار رجال الدين اللاتين فى كنيسة بيت المقدس، على الرغم من أن هذه الكنيسة كانت تلجأ إلى كنيسة روما من أجل مناقشة عملية الانتخابات الكنسية، أو للنظر فى بعض الخلافات التى تنشب داخل الكنيسة بسبب السيمونية* (بيع الوظائف الدينية)

---

* السيمونية: تعنى المتاجرة بالأشياء المقدسة، وهى نسبة إلى سيمون الساحر ،وهو شخص سامرى الأصل، ماهر فى فن السحر، تنصر وأراد أن يشترى من بطرس الرسول سلطان وضع الأيدى وصنع المعجزات ، فرفض بطرس ووبخه ، (قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية)، القاهرة ، ١٩٩٣، ص٨١ .

وكان العرف الذى دون فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى يجيز للملك الصليبى أن يختار أسقفًا من بين المرشحين الثلاثة التى تختارهم جماعة من رجال الكنيسة. وعلى أية حال، فقد كان الملك الصليبى فى مناسبات عديدة يمارس نفوذه وسلطته بشكل مباشر لاختيار أحد المرشحين ويمارس ضغوطه على الناخبين من أجل اختيار المرشح الذى يفضله.

وفى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى اكتسب النبلاء نفوذاً سياسيًا على حساب السلطة الملكية. وتجلى هذا على الفور فى التشريع الجديد، الذى ساعد على نمو البارونيات وتقوية سلطة الحكم الذاتى بها. وعندما بلغ بلدوين الثالث سن الرشد نشب خلاف حول وراثة العرش، مما أدى إلى نشوب حرب أهلية قصيرة فى عام ١١٥٢ ضد الملكة الأرملة ميلسند Me-lissande المتعطشة للسلطة . واستطاع هذا الخلاف والنضال حول وراثة العرش أن يجد حلاً وسطًا لموقف ووضع التاج الملكى، وذلك لأن طرفى النزاع كانا فى حاجة إلى مساعدة النبلاء. وبعد جيل نشب نزاع آخر حول وراثة العرش فى أعقاب وفاة الملك المجذوم الشجاع بلدوين الرابع فى عام ١١٨٥م، وشهدت المملكة فى تلك الآونة أزمة سياسية جديدة. فقد كان الحزب الملكى بقيادة ملكة أرملة أخرى هى أنجى من كورتنارى Anges of Courtenoy وابنتها سبيلا Sibylle التى تزوجت مرات كثيرة ، فى صراع مع حزب آل لوزجنان الذى لقى معارضة من جانب النبلاء المحليين، وكان يتزعم هذا الحزب المعارض لآل لوزجنان ريموند الثالث من طرابلس وأمير الجليل عن طريق الزواج . وعلى الرغم من أن هذا الصراع قد انتهى وحسم لصالح الحزب الملكى، فإن الملك الجديد جى لوزجنان Gay de housignan (١١٨٦-١١٩٠م) زوج سيبيلا وخليفة الملك الطفل بلدوين الخامس (١١٨٥-١١٨٦م) لم يستطع كبح جماح نبلائه أو يظفر باحترامهم ، ولم يستطع أيضًا أن يسترد هيبة ومكانة التاج الملكى التى فقدت.

لقد شهدت الفترة التى سبقت موقعة حطين مباشرة منعطفًا جديداً فى العلاقات بين الملك الصليبى والنبلاء. فقد نهج اثنان من كبار الأمراء الصليبيين وهما رينو دى شاتيون (أرناط) حاكم ما وراء نهر الأردن الصليبية وريموند الثالث من طرابلس وأمير الجليل سلوكًا فرديًا ينم عن استقلالهم الذاتى عن السلطة الملكية، إذ اتبع كل أمير منهما سياسة غريبة متميزة وواضحة وهكذا قام رينو دى شاتيون (أرناط) بخرق معاهدة السلام مع المسلمين التى كانت تكفل حق وحرية مرور القوافل التجارية من مصر إلى دمشق ، وسمح ريموند الثالث للمحاربين المسلمين بالاغارة على أراضى المملكة الصليبية عبر اقليم الجليل الذى يبسط سيطرته عليه. لقد كانت موقعة حطين الحاسمة تمثل علامة من علامات ضعف السلطة الملكية، وكانت قوة النبلاء الصليبيين هى القادة على ملأ هذا الفراغ الذى حدث نتيجة ضعف السلطة الملكية.

وخير مثال على تردى وضع السلطة الملكية الصليبية في بيت المقدس هو ما قام به قادة الحملة الصليبية الثالثة وهم ريتشارد قلب الأسد وفيليب الثانى أغسطس من اتفاق على تقسيم الأراضى التى سيتم غزوها، وتجاهل وجود السلطة السياسية والشرعية للملك الصليبى فى المملكة اللاتينية. وثمة مثال آخر يدلل على ضعف السلطة الملكية الصليبية، وهو أن الملوك الأوربيين قد أسندوا الأعمال التجارية فى أرجاء المملكة الصليبية إلى كل من كونراد مونتفرات (١١٩٠-١١٩٢م) وهنرى كونت شامبانى (١١٩٢-١١٩٧) على التوالى.

وباعتلاء جان دى برين (١٢١٠-١٢٢٥م) عرش المملكة الصليبية، كانت هذه المملكة قد فقدت خمس حدودها السابقة، وأخيراً دخلت المملكة فترة من الاستقرار . بيد أنه قبل الحملة الصليبية الخامسة التى تحركت صوب دمياط بوقت طويل كان بلاجيوس النائب البابوى يؤكد أن الأراضى التى سيتم احتلالها فى مصر لم تخص المملكة اللاتينية. وفى أعقاب فشل الحملة الصليبية الخامسة حاول الملك جان دى بيرين أن يقنع البابا بمسألة الحفاظ على وجود المملكة ضد أى غزو متوقع عن طريق اعداد الغرب الأوربى لحملة صليبية فى المستقبل.

وكان اعتلاء فردريك الثانى الهوهنشتاوفن عرش المملكة الصليبية (١٢٢٥-١٢٤٣) بمثابة اشارة للأفول والانهيار النهائى للسلطة الملكية. ومن بين العديد من الألقاب والتيجان كان فردريك الثانى يحمل لقب «امبراطور الرومان» ، و«ملك الجرمان» ، «وملك صقلية» - وكان لقب ملك بيت المقدس مجيداً ، ولكنه غير مفيد . فقد كان هذا الامبراطور الهوهنشتاوفنى وفتى البرجماتى على استعداد دائمًا لممارسة واستخدام امتيازاته باعتباره قائداً صليبيًا، بيد أنه لم يف بالتزاماته وتعهداته التالية بشكل جدى أيضًا . وكانت دعامته الأساسية تنحصر فى ميراثه وحقوقه فى ألمانيا وايطاليا ، ولم تعد الأرض المقدسة فى بلاد الشام تشكل أهمية كبيرة فى خططه ومشاريعه . فقد نجحت حملته الصليبية الشهيرة (الحملة الصليبية السادسة) نجاحًا باهراً، ومن الشيء المؤسف والمخزى للمسيحية أن يقوم قائد صليبى مثل فردريك الثانى محروم كنسيًا بتتويج نفسه ملكا فى كنيسة الضريح المقدس، فى الوقت الذى كانت فيه مدينة القدس تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى excomunication. لقد ساهمت كل هذه الأحداث جميعها فى الحاق الضعف والانهيار بالسلطة الملكية، التى كانت تعانى من التفسخ والانهيار. وساهم رحيل الامبراطور فردريك الثانى من الأراضى المقدسة فى بلاد الشام فى عام ١٢٢٩ فى خلق وضع ملكى رائع ، هذا الوضع الذى استطاع أن يضع نهاية لتمرد ابنه العاق والقضاء على مملكة هذا الابن كونراد (١٢٤٣-١٢٥٤م) ، والذى لم يزر الأرض المقدسة . وتلاشت آثار

السلطة المركزية فى المملكة اللاتينية تمامًا وتركزت قيادة هذه المملكة فى أيدى النبلاء وكبار التجار، والهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاسبتارية - التيوتون) ، والكوميونات الايطالية. ولم تسفر مهزلة قبول دعاوى ومطالب الأميرة أليس Alice (حفيدة الملك أماليك) وزوجها راؤول من سواسون Raoul de Soissons فى عام ١٢٤٣ لحكم المملكة الصليبية إلا عن لقب غامض خاوى الوفاض مجرد من أى معنى أو سلطة. وقد تجادل النبلاء حول هذا الموضوع واعتبروا أن ما حدث كان فى اطار الشرعية من أجل الحفاظ وحماية حقوق كونراد ابن الأميرة الفرنجية ايزابيلا (أخت جان دى برين) ، وابن الأمبراطور المتكبر فردريك الثانى، والذى كان آخر سلسلة الملوك الأبطال فى أوربا .

كان ملوك أسرة لوزجنان فى قبرص هم آخر ملوك المملكة الصليبية، وأصبحوا ملوكًا لبيت المقدس من خلال الميراث . فقد كانت جهود كل من الملوك الصليبيين هيو الثالث Hugh III (١٢٦٨-١٢٨٤م) ، وجـــان الأول Jean I (١٢٨٤-١٢٨٥م) وهنرى الثانى Henri II (١٢٨٥-١٢٩١م) والمتوفى (١٣٢٤م) من أجل الحفاظ على الأقاليم الرئيسة للمملكة الصليبية، تلك المناطق والأقاليم التى كانت فى ذلك الوقت لاتضم أكثر من عدد قليل من المدن الساحلية، وهى المدن التى كساها الحزن ولفها الخراب وأصبحت عديمة النفع فقد تورط ملوك أسرة لوزجنان فى أعباء مالية وعسكرية فى جزيرة قبرص، تلك الجزيرة التى لم تكن بمنأى عن أخطار التدخل الأوربى ، والتى كانت يحدوها الأمل لاسترداد أقاليمها التى فقدتها من قبل. ومن اللافت للنظر، أن بيع تاج مملكة بيت المقدس الصليبية فى عام ١٢٧٧م إلى شارل الأنجوى (هذا البيع الذى أقره بابا روما) كان بعيداً عن الصواب والحكمة. فقد كان غياب المطالب بالعرش من أسرة لوزجنان السبب فى حرمان هذه الأسرة من حكم المملكة الصليبية لبعض الوقت، بيد أن شارل الأنجوى لم يحكم هذه المملكة . ومن ناحية أخرى، فإن أسرة لوزجنان فى النهاية استطاعت أن تثبت حقها فى حكم مملكة بيت المقدس الصليبية وممارسة هذا الحق وذلك بفضل مؤازرة وعون الهيئات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية- التيوتون) . والكوميونات التجارية ، التى كانت تقدم المساعدة والنجدة للملك الصليبى فى ضوء المصلحة والفائدة التى يجنونها من وراء هذه المساعدات . وعندما استبسلت مدينة عكا فى حصارها الأخير فى عام ١٢٩١م ، ظهر ملك بيت المقدس وقبرص فى المدينة يدافع عنها بشجاعة نادرة حتى خارت قواه وفقد كل الأمال من أجل انقاذها من يد المسلمين المماليك. وعندئذ هرب الملك الصليبى وسقط آخر معقل صليبى فى الأرض المقدسة، وقفل راجعًا إلى مملكة قبرص.

الفصل الثامن

آلية الحكومة الصليبية

لقد خضع نظام الحكم الملكى الصليبى فى بيت المقدس للعديد من التغييرات الايجابية منذ أن اختار المحاربون الصليبيون المتعبون فى الحملة الصليبية الأولى أول حاكم لهم فى كنيسة الضريح المقدس. وكان الازدهار الاقتصادى المتنامى للمملكة الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى يحتك بالنموذج الشرقى الخرافى من حيث نظم الحكم، والمناخ ، والطعام ، والملبس ، وقد أثر كل هذا على الملكية الفرنجية فى منطقة الشرق العربى. فقد تركت احدى السفارات التى أرسلت من المملكة اللاتينية فى بيت المقدس إلى بلاط ملوك غرب أوربا انطباعًا بأن الأوربيين المنعمين الذين يعيشون فى هذه المملكة الصليبية أصبحوا مخنثين من فرط انغماسهم فى النعيم، وبسبب افراطهم فى ارتداء الملابس الأنيقة، واستخدام العطور الشذية، وتزينهم بالحلى الذهبية الرائعة . وكان أعضاء هذه السفارة من رجال الدين الذين جاؤا إلى الغرب الأوربى يلتمسون المساعدات المالية؛ إذ أن من المسلم به أن البلاط الملكى فى بيت المقدس لم يقل تألقًا وبهاءً عن أعضاء سفارته الكنسيين.

كان أول قصر لملوك بيت المقدس الصليبيين يقع مكان منطقة المسجد الأقصى الفخمة ، وهنا كانت حدود الهيكل * الشرق تواجه الأسوار الجنوبية لمدينة بيت المقدس . وكان القصر الملكى يطل على مدينة داود القديمة حيث وادى كدرون Kedron الواقع فى المنطقة المنخفضة وجبل الزيتون فى المنطقة العليا. وقد تلاشت فخامة وعظمة المسجد الأقصى بشكل كبير فى أعقاب استيلاء تانكرد عليه فى أثناء الغزو الصليبى لمدينة القدس، فقد رفع تانكرد بيرقه على القبة وواصل أعماله التخريبية فأخذ يدمر اللمبات الذهبية التى كانت تزين المسجد وينهب كنوزه وثرواته. بيد أن المحاربين الفرنجة الأشاوس كانوا ينظرون إلى كل هذه الفخامة والأبهة الشرقية بانبهار باعتبارها خرافة الشرق العجيب الذى أتوا إليه من أوربا.

---

* يؤكد المؤلف على قرية طالما رددها المؤرخون اليهود وهى أن منطقة المسجد الأقصى تقع على أطلال هيكل داود . (المترجم) .

وقد سكن هذا القصر الملكى كل من جودفرى البويونى ، وبلدوين الأول، وبلدوين الثانى. ويبدو أن القصر الملكى قد انتقل خلال فترة حكم الملك بلدوين الثانى من المسجد الأقصى (والذى كان من أبرز عيوبه موقعه المنعزل عن المدينة وافتقاره إلى السكان) إلى الجزء الغربى من العاصمة. ولم يتضح ما إذا كان المبنى الجديد للقصر قد شيد فعلاً أو كان مبنى قديمًا ، وربما أصبح مكان إقامة قائد الحامية الفاطمية المصرية قصراً ملكيًا صليبيا. وما نعرفه أن هذا القصر كان على مقربة من القلعة التى كانت تعرف باسم «برج داود» ، وكان ملاصقا لها. وكانت القلعة تقع شمال القصر، وفى جهة الغرب كان القصر يطل على الخندق العميق الذى يفصل مدينة بيت المقدس عن السهل المحيط بها ، والذى يمتد حتى جبانة ما ميلاح Ce-metery of Mamillah . وكانت هذه الجبانة المكان المألوف لدفن موتى المدينة وفى أثناء فترة الوجود الصليبى أصبحت هذه الجبانة مخصصة لدفن موتى رجال الدين التابعين لكنيسة القصر الملكى يطل على دير القديس ساباس St. Sabas البيزنطى ودير القديس جيمس St. James الأرمنى

ولم نعرف شيئًا عن الشكل المعمارى للقصر الملكى الصليبى، إذ لم نجد أوصافًا معاصرة أو حفائر أثرية لهذا القصر تشبه تلك التى عثر عليها فى المنطقة الغربية من برج داود ، تلك الحفائر الأثرية التى تم العثور عليها والكشف عنها والتى أظهرت التألق السابق لهذه العمارة. وفى خريطة لمدينة القدس ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى يتضح من خلالها أن القصر الملكى كان عبارة عن مبنى مكون من ثلاثة أو أربعة طوابق ، يحيط به سور ومزود بحاصرة عبارة عن برجين مشيدين فى كل ركن من أركان السور. وكانت الطوابق السفلى للقصر غير مرئية ، إذ كانت تحجب أسفل أحد الأسوار، بينما كان الطابق العلوى للقصر عبارة عن بهو معمد مفتوح من خلال سلسلة من الأروقة المقنطرة تجاه المدينة. ولم يكن سقف القصر مسطحًا مثل النمط الشرقى، بل كان على الطراز الغربى الأوربى، أى كان ذا سطح جملونى مغطى بالآجر (القرميد) أو مكسو بصفائح معدنية ذات شكل زخرفى.

وخارج مدينة القدس كان يوجد قصور ملكية فى مدينتى عكا وصور، فقد كان القصر الملكى فى مدينة عكا يقع فى القلعة فى وسط السور الشمالى الخارجى، وفى كل الاحتمالات ، كان هذا القصر يقع فى أضعف نقطة من نقاط دفاعات المدينة. وفى فترة متأخرة ، فقد القصر جزئيًا ميزته العسكرية، وذلك لأنه تم تحصين ضاحية جديدة فى أثناء القرن الثالث عشر

الميلادى بواسطة حزام قوى من الأسوار. وهكذا كان القصر والقلعة تقريبًا فى وسط العاصمة. وفى العادة كانت القلعة مكانا لاقامة محافظ القلعة The Castellan ، بيد أنه فى أثناء زيارة الملك ، ثم بعد ذلك فى أثناء إقامته المستمرة (ولاسيما بعد أن أصبحت مدينة عكا عاصمة المملكة الصليبية فى عمرها الثانى) أصبحت القلعة مكان اقامة الملك الصليبى.

لقد كان بلاط الملك الصليبى مركز الحكومة كما كان الوضع فى كل أنحاء الغرب الأوربى المسيحى. ومن المحتمل أن نموذج الحكومة الصليبية فى منطقة الشرق العربى كان على غرار النمط الفرنسى ، ويمكن تفسير هذه الحقيقة بسهولة فى ضوء أصل وجذور الطبقة الصليبية الحاكمة وطبقة المحاربين فى المملكة اللاتينية . والحقيقة أنه فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لم تكن هناك اختلافات جوهرية بين نظم الحكم الملكية فى أوربا. فقد كان بلاط الملك الصليبى فى بيت المقدس يماثل بلاط الملك النورمانى فى انجلترا ، والملك الفرنسى من آل كابيه أو دوقات نورماندى. وثمة سند قوى من الحقيقة يؤكد القول بأن بلاط الملك الصليبى فى بيت المقدس كان يشبه بلاط دوقات نورماندى . إذ كان أهم ما يميز بلاط بيت المقدس هو الطبيعة المحافظة على القديم. وانطلاقًا من ظروف مماثلة، فإن الملكيات الأوربية فى أثناء القرن الثانى عشر الميلادى استطاعت تطوير آلية الحكومة تلك الآلية التى تكيفت بسهولة وتأقلمت مع الاتجاهات المركزية للتاج الملكى، وكذلك مع حقائق التطور الاقتصادى الجديدة فى أوربا. ومن خلال عملية مفاضلة أو تمييز فإن الملكيات الأوربية، أصبحت موطن نشوء التقسيمات الكبرى فى الآلية الحكومية : الادارة والسلطان القضائى، والتشريع . هذا الأمر الذى لم يحدث على الاطلاق فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس. فقد تحجرت الآلية الحكومية المركزية فى المملكة الصليبية حوالى عام ١١٢٥م تقريبًا ، بعد جيل من الغزو الصليبى ، وظلت هذه الآلية الحكومية دون تغيير جوهرى حتى سقوط المملكة اللاتينية النهائى فى عام ١٢٩١م. وفى نهاية المملكة الصليبية الأولى عام ١١٨٧م، كانت هذه الآلية الحكومية تعيش فى زمن غير زمانها وفى أثناء فترة المملكة الصليبية الثانية ثبت باليقين أن هذه الآلية الحكومية قد أصبحت جثة هامدة تمامًا.

وليس بالأمر اليسير تفسير أسباب عدم ملاءمة التطور الحكومى أو عدم الملاءمة بالنسبة للآلية الحكومية الصليبية. ويبدو أن ثمة عوامل ثلاثة رئيسة قد تجمعت وحددت شكل هذا النمط الحكومى الصليبى. ففى المقام الأول اقتضت حالة الحرب المزمنة والطويلة بين المسلمين

والصليبيين فى أثناء الجيل الأول من فترة الوجود الصليبى أن تخضع كل مهام وأعمال الحكومة لمواجهة واجبات الحرب الأكثر خطورة وأهمية ، سواء من أجل التوسع أو من أجل الدفاع عن الكيان الصليبى. وإذا تجاوزنا عن ذكر تطور نظام الآلية الادارية ، فإنه بلاشك تصبح أعمال وجهود أية حكومة مركزية قليلة الأهمية فى هذه المرحلة، إذ كان التركيز ينصب على المتطلبات العسكرية وعلى حكومة فعالة وقوية على المستوى المحلى؛ لكى تزود الملك الصليبى والنبلاء بمقومات وسبل الوجود ، وكان التنسيق بين الملك وبين نبلائه أمراً له أهميته. فقد عاش الملك الصليبى وأفصاله الاقطاعيون عيشة الكفاف.

والعامل الثانى الذى يفسر التطور الخاص بالمملكة اللاتينية يتعلق بالنظام الاقطاعى الصليبى باعتباره نظام حكم . هذا النظام الذى كان يهدف إلى تأسيس ملكية قوية ونبلاء تابعين . ولما كان الغرب الأوربى فى أثناء القرن الثانى عشر الميلادى يشهد نمو السلطة الملكية، وكبح جماح النزعات الاستقلالية الاقطاعية وأخيراً دمج الكيانات السياسية التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى داخل جسد المملكة، فإن المملكة اللاتينية فى بيت المقدس قد تطورت فى اتجاه مضاد لهذا الخط الأوربى . وبعد منتصف القرن الثانى الميلادى، أصبح النبلاء أو على وجه الدقة كبار الأعيان عنصراً مهمًا فى حكومة المملكة اللاتينية . فقد ألغيت الامتيازات الملكية بشكل ضمنى، وكانت الحكومة ذات الفعالية تمارس عملها على المستوى المحلى. وهكذا كانت المهام الرئيسة للحكومة ذات الفعالية تمارس عملها على المستوى المحلى. أى أن المهام الرئيسة للحكومة كانت تمارس داخل التقسيمات الاقطاعية، تلك التقسيمات التى كانت تعارض تدخل السلطة المركزية الصليبية، وكانت لديها من القوة ما يجعلها تمنع من هذا التدخل تمامًا، الأمر الذى أعاق تطور الادارة المركزية وترك لها مجالاً ضيقًا لاحداث مثل هذا التطور.

وأخيراً نستطيع أن نتبين النتيجة الطبيعية للتطور السابق وأعنى فعالية الحكومة الصليبية على المستوى المحلى فقط، وإلى حد ما كان هذا مظهراً مختلفا لنفس الشيء الذى يجب أن نعتبره كعامل ثالث له تأثير على تطور المملكة اللاتينية وكان هذا العامل الثالث هو المحكمة العليا التى كانت المقر التقليدى لاجتماع الملك وكبار أتباعه الاقطاعيين، والتى تأسست تعبيراً عن تطبيق التنظيم الاقطاعى فى المملكة اللاتينية، وكانت على غرار النمط البطريركى من حيث استخدام المشورة العائلية وتقديم المساعدة والمشورة للملك. بيد أنه فى المملكة اللاتينية

أصبح التزام الفصل بتقديم المساعدة والمشورة لسيده الاقطاعى امتيازاً، ذلك الامتياز الذى تحول بسرعة إلى مجوعة من القوانين التى لم تجبر الملك فقط على طلب المشورة من كبار أفصاله الاقطاعيين، بل اكره الملك أيضا بموجب هذه القوانين الاقطاعية على العمل بهذه المشورة وتنفيذها . وأصبحت شرعية القرارات الملكية تعتمد تدريجيًا على موافقة أعضاء المحكمة العليا، وهكذا استطاعت المحكمة العليا بنفوذها أن تغل يد الملك فى تنفيذ خططه وسياساته . وباتت المحكمة العليا بمثابة دولاب الآلية الحكومية المركزية ، وذات مجال ضيق للحكومة الملكية الحقيقية وللمؤسسات المتخصصة المتطورة.

ونتيجة لهذا تطورت الآلية الحكومية الملكية، بيد أن هذا التطور كان ضئيلاً . وظلت الوظائف الرسمية الحكومية الصليبية تقليداً لتلك الوظائف التى ترجع إلى فترة الحكم الكارولنجى فى أوربا بصورة أكبر عن كونها ميراثًا ملكيا . وفى الوقت الذى كانت فيه الملكيات الأوربية تتأجج نشاطًا وقامت بالغاء بعض هذه الوظائف أو حولتها إلى وظائف شرفية، ظلت المملكة اللاتينية تبقى على مثل هذه الوظائف واعتبرتها أدوات تنفيذية مركزية طوال فترة الوجود الصليبى التى استمرت ما يقرب من مائتى عام.

لقد تطورت المحكمة العليا التى كانت تميز المملكة الصليبية بصورة أكبر عن أية مؤسسة أخرى. فكانت المحكمة العليا تعرف فى اللاتينية باسم المحكمة العامة Curia generalis ، وأحيانا عرفت فى الفرنسية المحلية باسم البرلمان Parlement. بيد أن الكتب والرسائل القانونية هى فقط التى تشير إلى هذه المحكمة باسم المحكمة العليا Haute Cour . ومن القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ظلت عضوية هذه المحكمة قاصرة على السادة الاقطاعيين ، أى أن تكوينها خلال هذه الفترة كان اقطاعيًا . وإن كانت عضوية هذه المحكمة امتدت لتشمل بعض الأعضاء غير الاقطاعيين. وفى المحكمة العليا كان الملك يجتمع بكبار السادة الاقطاعيين الذين تسلموا اقطاعاتهم (سواء كانوا من صغار الأفصال أو من كبار الأفصال أو كانوا من أصحاب الاقطاعات النقدية) منه بشكل مباشر، وكان منح الملك هذه الاقطاعات لأفصاله وتقديم هؤلاء الافصال له يمين الولاء والتبعية الاقطاعية بشكل رابطة اقطاعية قانونية بين الملك وبين أفصاله المباشرين . ومن الناحية النظرية، كانت اجتماعات المحكمة العليا يحضرها صنفان من النبلاء: كبار السادة الذين يحكمون البارونيات (البارونات) والأفصال المباشرين للدومين الملكى- هؤلاء الأفصال مقابل تقديم خدمات

عسكرية - مباشرة إلى الملك. ومن بين الأفصال المباشرين للدومين الملكى (أفصال الملك المباشرين) نجد أيضًا عدداً من الفرسان العاديين الذين يعيشون فى القصر الملكى. ومن الناحية العملية كانت اجتماعات المحكمة العليا تشهد حضور كبار السادة الاقطاعيين «وأعيان» المملكة الصليبية. ومما يذكر أن فترة العصور الوسطى كانت فترة غير ديمقراطية إذ كانت الأصوات فى أى اقتراع لاتخضع للعدد والاحصاء، بل كانت تخضع للتقييم. فقد كان حضور ورأى صغار الأفصال فى جلسات المحكمة العليا من قبيل الزينة فقط- ولاسيما إذا كان هؤلاء الأفصال ممن لم يلقوا قبولاً لدى الملك ولم يكونوا من المقربين إليه.

وربما كانت اجتماعات المحكمة العليا يحضرها أربعون من النبلاء (وكان هذا هو عدد كبار السادة الاقطاعيين تقريبًا) . ومن الناحية القانونية ، كان الملك وثلاثة من كبار السادة الاقطاعيين الأعضاء فى المحكمة العليا يشكلون نصابًا قانونيًا لعقد جلسة المحكمة ، بيد أن أية جلسة من جلسات المحكمة الحاسمة كانت تتطلب بالضرورة حضور عدد مناسب من الأعضاء ذوى الخبرة القانونية واشتراكهم فى هذه الجلسة المصيرية.

وفى فترة حكم الملك الصليبى أماليرك (عمورى) حوالى عام ١١٦٢م، خضعت عملية تركيب وتكوين المحكمة العليا لتغير رئيس غير عملى. فالتشريع الشهير الذى عرف باسم «قانون التبعية الاقطاعية The Assises sur la Ligece والذى كان ذا تأثير محسوس فى كل فرع من فروع الحياة العامة، يقرر «أنه منذ الآن فصاعداً يجب على كل حائزى الاقطاعات فى المملكة اللاتينية (كبار الأفصال وصغار الأفصال) أن يقدم كل حائز منهم قسمًا مباشراً بالولاء والتبعية الاقطاعية للملك الصليبى. وهكذا أصبح هؤلاء الأفصال أقرانا لبعضهم البعض وأصبحوا مرتبطين اقطاعيًا بالملك بشكل مباشر. وأصبح لكل منهم الحق فى حضور جلسات المحكمة العليا والمشاركة فيها. وبموجب هذا القانون ازداد عدد المشاركين فى عضوية المحكمة حيث كان يوجد أكثر من ستمائة حائز اقطاعى فى المملكة الصليبية. وعلى أى حال، فإنه من الناحية العملية كان صغار الحائزين الاقطاعيين يحضرون جلسة المحكمة العليا التى تتزامن مع إعداد حملة عسكرية أو مع حادث غير عادى، ولدينا معرفة بمعظم هذه الحالات والظروف ، والواقع أن الفرسان المحليين كانوا يحضرون جلسات المحكمة العليا فى بيت المقدس أو فى مدينة عكا وهى الجلسات التى كانت تناقش الأمور الخاصة باعداد حملة عسكرية أو الأمور غير العادية ، وقلما كان هؤلاء الفرسان فى استطاعتهم تغيير صفة هذه الجلسة أو التأثير على فعالية قراراته. وكان الأعيان دائما يسيطرون على المحكمة العليا بشكل أساسى.

وتغيير تركيب وتكوين المحكمة العليا مرة ثانية حوالى عام ١٢٢٣م ، حيث أدت الحركة الثورية والمعارضة التى قادها كبار النبلاء من أسرة ابلين Ibelin ضد الإمبراطور الألمانى فزدريك الثانى الهوهنشاوفن إلى خلق مؤسسة جديدة حلت محل المحكمة العليا واضطلعت هذه المؤسسة الجديدة بمهام هذه المحكمة مدة اثنى عشر عامًا . وعرفت هذه المؤسسة الجديدة باسم حكومة أو برلمان عكا Commune of Acre وكان بمثابة مكان لاجتماع سادة الامارات والضياع الصليبية الذين يمثلون مجتمع مملكة بيت المقدس . واستخدم هذا البرلمان الصليبى الجديد فى عكا نفس اطار الهيئة الدينية العسكرية التى كرست أعمالها لصالح القديس أندرو St. Andrew ، تلك الهيئة التى تأسست باعتبارها جماعة ثورية شرعية وكانت حكومة عكا تواقه إلى ضمان المؤازرة والتأييد الشعبى القوى لها، ولذا فتحت أبوابها واسعة أمام الفرسان والنبلاء وبرجوازية المدينة لكى يقسموا أغلظ الايمان من أجل الأمان المتبادل ومن أجل انتخاب موظفى الحكومة الصليبية فى عكا.

لقد كانت هذه التجربة قصيرة العمر، ومع انتهاء خطر الهوهنشتاوفن الذى كان يهدد القانون (قانون الامتيازات والاعفاءات التجارية) بشكل مزعوم ، كانت حكومة عكا قد أصابها الاعياء والنصب وتلاشت وبدأت المحكمة العليا تستعيد مكانتها السابقة. بيد أن هذه الحادثة قد تركت آثاراً ملموسة. فعلى سبيل المثال، كانت هناك محاولة لتغيير بعض الاجراءات القضائية للمحكمة العليا ، وذلك بادخال الشهادة المدونة فى أية قضائية واعتبارها ملزمة وشرعية وتدوينها فى السجل الرسمى لمداولات المحكمة وقراراتها وهذا على عكس ما كان معمولاً به فى سجل المحكمة العليا فى الفترة الباكرة من الوجود الصليبى ، وقد عرف هذا السجل باسم «ذاكرة المحكمة» . وحدثت هذه المحاولة فى عام ١٢٥٠م فى أثناء فترة اقامة الملك الفرنسى لويس التاسع فى المحكمة الصليبية فى عكا، فقد قرر الملك الفرنسى عقد اجتماع عام للمحكمة العليا والمحكمة البرجوازية ، وكانت المحكمة البرجوازية تمثل طبقة البرجوازية . وفشل الاصلاح المقترح فى هذا الاجتماع بيد أن اجراء المداولات العامة كان فى حقيقته أمراً غير عادى. وفى فترة متأخرة لم تكن هناك اجتماعات عامة للمحكمتين العليا والبرجوازية وبرغم ذلك فإن طريقة عقد بعض اجتماعات المحكمة العليا قد تغيرت إلى طريقة وأسلوب فريد. ففى وقت مبكر من القرن الثانى عشر الميلادى، كان مقدموا الهيئات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية- التيوتون) يشاركون فى اجتماعات المحكمة العليا ، على الرغم من أنهم لم يكونوا أفصالاً للملك بالمعنى العادى للكلمة . وعلى الرغم من أن حضورهم

كان يبرره الأعداد الكبيرة من الاقطاعات التى كانت بحوزتهم ، فإن السبب الحقيقى وراء مشاركتهم فى أعمال المحكمة العليا يكمن فى حقيقة أن فرسان هذه الهيئات الدينية العسكرية كانوا الدعامة العسكرية الأساسية للملكة الصليبية. وإذا كان حضور كبار رجال الدين اجتماعات المحكمة العليا يمكن تفسيره فى ضوء ملكيتهم لبعض الاقطاعات فالحقيقة أن هذه المشاركة تعكس الوضع التقليدى لكبار رجال الدين فى المجتمع المسيحى. وبنهاية القرن الثانى عشر الميلادى، كان النبلاء والأساقفة ، ومقدموا الهيئات الدينية العسكرية يتحالفون مع عناصر جديدة ، تلك العناصر التى كانت انعكاسًا لوجود مجموعة سياسية جديدة ومتألقة فى المملكة الصليبية، وكانت الكوميونات الايطالية التى تمتعت بالحكم الذاتى أكثر هذه العناصر الجديدة أهمية. وإذا كان أبناء هذه الكوميونات الايطالية يعتبرون من كبار السادة الاقطاعيين الشرعيين، فإنهم ضمنوا لأنفسهم مكانًا فى المملكة الصليبية بفضل قوتهم البحرية، وثروتهم وقواتهم العسكرية أيضًا . وهكذا فإن ممثلى البندقية ، وجنوا وبيزا قد شاركوا فى كل الجلسات المهمة للمحكمة العليا.

وجاء انضمام أبناء الكوميونات الايطالية إلى المحكمة العليا بعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، بعد انضمام كبار البرجوازية ومقدمى الهيئات الدينية العسكرية. وإنه لمن قبيل الحدّس إلى حد بعيد القول بأن مقدمى الهيئات الدينية العسكرية قد شاركوا فى اجتماعات المحكمة العليا وذلك لأنه كان يوجد عرف جديد يقضى بتقديم قسم الولاء الاقطاعى إلى سيدهم الاقطاعى- أو أن هؤلاء قد قدموا هذا القسم استناداً إلى المشاركة فى تلك المحكمة الاقطاعية بشكل أساسى. وتبقى حقيقة مؤداها أن مقدمى الهيئات الدينية العسكرية قد شاركوا فى أعمال المداولة وتبادل الرأى وصنع القرار فى المحكمة العليا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى.

وهكذا فإن المحكمة الملكية الاقطاعية فى المملكة الصليبية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى قد تعرضت لتغير بشكل بطىء واندمج فى عضويتها عناصر أخرى. بيد أنها لم تصبح برلمانًا أو مجلسًا عامًا للامارات ، ولم تطور أى قانون للتمثيل النيابى. وفى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى، أصبحت المحكمة العليا مكانا لاجتماع مختلف عناصر القوى فى المجتمع، وجمعية تشريعية تضم كل أصحاب النفوذ الحقيقى فى المملكة الصليبية. وخلال فترة طويلة ومستقرة من حياة المملكة الصليبية استطاعت أن تنشىء المؤسسة التى

تسير صوب خط التطور المعاصر تجاه نظام التمثيل النيابى، على الرغم من أن هذه العملية كانت تستلزم تغييرات واسعة فى البنية الكلية للمملكة الصليبية.

وكانت هذه التغييرات فى تكوينها يصاحبها تطور فى اختصاصات ومهام المحكمة العليا. وأنكر مشرعوا المملكة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى بشدة هذا التطور فى اختصاصات المحكمة العليا، وأصروا على عدم الاعتراف بأى شىء فى هذا الخصوص بيد أنهم اعترفوا فقط بتلك المؤسسات الثابتة التى يرجع تأسيسها زيفًا إلى الملك الصليبى المبجل جيودفرى البويونى. وكانت العلل والأسباب التى تذرعوا بها تتلاءم تمامًا مع ظروف العصور الوسطى التى كانت تنفر وتشمئز من احداث أى نوع من التجديد والابتكار. ومع ذلك، تقدمت المحكمة العليا خطوة صوب التطور، وتمثل هذا التطور فى انتقالها من الوضع الاستشارى إلى التنفيذى للسلطة الحكومية فى المملكة. وعلى الرغم من أن قائمة اختصاصات المحكمة العليا ربما تمثل صعوبة فى ترتيب هذه الاختصاصات فإن المحكمة العليا قد شاركت بشكل فعال فى كل مظاهر الحكم التى يمارسها الملك الصليبى. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت المحكمة العليا الأداة الحكومية من خلال عملها معًا مع كبار موظفى الدولة. ومارس الملك الصليبى اختصاصه باعتباره يمثل قمة الهرم الاقطاعى فى الرتبة والمكانة. ولم يكن التمييز بين سلطة الملك الصليبى وبين سلطة السيد الاقطاعى الأعلى واضحًا دائمًا لدى عقول المعاصرين، ومع ذلك فإن مثل هذا التميز كان موجوداً بالفعل وكان للمحكمة العليا وضعًا مختلفًا فى هذه الأمور.

وباعتبار الملك الصليبى رأس الدولة وقائد عام الجيوش، فإنه كان يقرر الأمور السياسية، التى تتضمن العلاقات الدولية الخارجية والمعاهدات وقرار إعلان الحرب. وعقد معاهدات السلام. وقلما كانت القرارات الملكية استبدادية فى كل الأمور التى ذكرناها آنفًا. واتباعًا للعرف والعادات والأسلوب النفعى، فإن مثل هذه القرارات الخطيرة كانت تصدر بعد مداولة قانونية ومطابقة للعرف، مع مراعاة الأخذ بنصيحة المحكمة العليا. وأصبح الكثير من حالات الزواج الملكية- والتى كانت تعنى فى العادة مصاهرة سياسية- أيضا موضوعًا من موضوعات النقاش والجدل والوصول إلى قرار بشأنها. وغالبا ما نسمع عن انقسام فى التداول والتشاور بين أعضاء المحكمة (معارضة داخل المحكمة العليا)، وهذا الانقسام والاختلاف فى الرأى يؤكد أن مثل المداولات والمشاورات التى كانت تجرى داخل أروقة المحكمة العليا وتحت قبتها كانت حقيقية. وعلى سبيل المثال، ففى احدى مرات التداول والتشاور فى المحكمة العليا،

والتى كانت تتعلق باتخاذ قرار مصيرى وصعب حول ما إذا كان الحصار الصليبى يجب أن يفرض على مدينة عسقلان أو على مدينة صور وذلك فى عام ١١٢٣م، فقد لجأ المتشاورون إلى تطبيق الحكم الإلهى فى هذه الحالة وذلك بترك صبى يسحب احدى الورقتين المدون عليهما اسمى المدينتين وهذا أشبه بالقرعة لاتخاذ القرار النهائى. بيد أنه من أبرز سمات وخصائص هذه المشاورات والمداولات التى كانت تجرى فى المحكمة العليا هى أن أعضاءها كانوا يسدون النصيحة فقط. وكان القرار النهائى بيد الملك . وعلى الرغم من أنه يمكن التسليم بأن ثمة تعاون منسجم كان بين أعضاء المحكمة والملك بشكل عام، فإن قرار الملك ، كان هو القرار النهائى.

وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، استطاعت المحكمة الملكية أن تتجاوز الوظائف الاستشارية لمثل هذه المحاكم. وكانت مثل هذه الحالة تتجلى كما رأينا فى تسوية المشاكل والمنازعات التى تتعلق بوراثة العرش الملكى الصليبى، ولاسيما عندما يظهر أحد المطالبين بالحق الوراثى فى اعتلاء العرش، بيد أن المحكمة العليا لم تسن تشريعًا بخصوص الحق الشرعى فى العرش الملكى. فقد أدت وفاة جودفرى البويونى إلى استدعاء أخيه بلدوين الأول لكى يخلف أخاه فى حكم المملكة اللاتينية فى عام ١١٠٠م، على الرغم من معارضة كل من تانكرد والبطريرك ، وقامت المحكمة العليا أيضا باستدعاء ابن عم الملك بلدوين الأول المدعو بلدوين الثانى من الرها على الرغم من الدعوى الشرعية التى أقامها الأخ الغائب المدعو ايستاس البولونى Eustace of Boulogne وقامت المحكمة العليا باجبار أماليرك (عمورى) لكى يلطق زوجته فى عام ١١٦٢م قبل الاعتراف به وريثًا شرعيًا لأخيه بلدوين الثالث. وهكذا كانت المحكمة العليا تلعب دوراً حاسمًا فى حسم القضايا المتعلقة بوراثة العرش، وكانت تتصرف باعتبارها سلطة تشريعية رسمية تفوق الصفة والسمة الاستشارية لمثل هذه المحكمة . ومع ذلك ، فإنه فى فترة متأخرة من عام ١١٧٦م تجاهل الملك بلدوين الرابع المعارضة البارونية ووافق على زواج ابنته ووريثته الحقيقية (ايزابيلا) من وليام لونجسورد William Longs-word ، والزواج من جى لوزجنان فى عام ١١٨٠م.

وكان الوضع مختلفا فى الأمور الخاصة بالسلام، والحرب والاتفاقيات الدولية. وعلى الرغم من أن صوت الملك كان حاسمًا فى هذه الأمور، فإنه كان من المناسب أن ينشد الملك تعاون البارونات والفرسان معه ، وكانت آراؤهم ذات قيمة وأهمية فى هذه الأمور وجديرة بالاعتبار.

وفى أوقات الأزمات كانت المحكمة العليا تؤدي مهمتها بقوة. ففى المعاهدة المشهورة التى أبرمها البطريرك وارمند Warmund مع البنادقة فى عام ١١٢٣م فى أثناء أسر الملك الصليبى بلدوين الثانى نجد الدهشة من جراء قيام النبلاء بالموافقة على اجبار الملك لكى يلتزم ببنود الاتفاقية التى عقدت من أجل فك أسره، وإن كانوا سوف لايعترفون به حاكما شرعيا لهم.

ومن الصعب أن نقرر ما إذا كانت اختصاصات الملك الأخرى تتعلق بالسيادة العليا والهيمنة على كل الأجهزة الحكومية . ويمكننا أن نعتبر المداولات والمشاورات البارونية بخصوص زواج ابنة الملك الصليبى كانت من قبيل التزام هؤلاء البارونات بتقديم المشورة للملك باعتبارهم أفصالا له. وكانت مثل هذه الاجراءات مألوفة فى كل محكمة اقطاعية حيث كان الأفصال يناقشون الأمور الخاصة بأسرة سيدهم الاقطاعى . فقد كان أى زواج يتم داخل الأسرة الملكية من شأنه يهم مصالح أكثر من أسرة وأكثر من ضيعة اقطاعية أو قلعة*. وكانت حالة الزواج المهمة تعنى تقريبًا مصاهرة سياسية وغالبا ما كانت تتضمن أيضًا بعض المظاهر الاقتصادية أو العسكرية الجوهرية.وحينما كان يتم التشاور بشأن أهمية هذه الأمور المتعلقة بالمصاهرة السياسية داخل أروقة المحكمة العليا ، فإن هذه المحكمة كانت فى الواقع تناقش أمور السياسة الخارجية للملكة الصليبية.

وكانت سلطة فرض الضرائب غير الاقطاعية من اختصاصات الملك باعتباره السيد الاقطاعى الأعلى، وطالما كانت الموارد المالية للخزانة الملكية تجلب من المصادر الاقطاعية الأخرى، فإنه ليس هناك ثمة حاجة لقرارات أو اتفاقيات خاصة ، وذلك لأن هذا كله كان يخضع للنمط المألوف والعرف السائد. وعلى أى حال، لم يلجأ الملك الصليبى إلى فرض وجباية ضريبة استثنائية غير مألوفة . وهكذا فإنه فى عام ١١٦٦م، وقبل موعد انطلاق احدى الحملات الصليبية ضد مصر، دعا الملك أماريك (عمورى) إلى عقد اجتماع للمحكمة العليا فى نابلس، وقررت المحكمة العليا فى هذه الجلسة (ويبدو أن البرجوازية قد شاركوا فى هذه

---

* لاشك أن الزواج داخل الأسرة الملكية كان يؤثر بدوره على شئون الأسر الأخرى والضياع الاقطاعية الأخرى بسبب مسألة الميراث ونقل الميراث إلى سيد اقطاعى آخر، وكان هذا يؤثر فى كل العمليات الاقطاعية الأخرى . (المترجم) .

الجلسة) بأن العشور الكنسية سوف تفرض على كل الأملاك المنقولة فى كل أنحاء المملكة الصليبية. وثمة ضريبة غير اقطاعية أخرى ترجع إلى عام ١١٨٣م، وهى تلك الضريبة التى قضت بها جلسة المحكمة العليا فى بيت المقدس، وفرضت على كل الأملاك الثابتة والمنقولة الخاصة بكل سكان المملكة الصليبية دون تفرقة بين جنس أو عقيدة . وكانت السمة الاستثنائية لهذه الضريبة تستلزم موافقة كل الذين يهمهم الأمر (أعنى دافعى الضرائب) ، أو الذين كانوا يمثلون مجتمع المملكة الصليبية فى المحكمة العليا.

وكان من أهم اختصاصات المحكمة العليا القيام والاشراف على معظم الأعمال التجارية، وقد استمدت المحكمة العليا هذا الحق لكونها مكانا لاجتماع الملك مع أفصاله. لقد كانت المحكمة Curia فى أحد معانيها المحددة تعنى أداة لإقامة العدالة. ولكى تتحقق هذه المهمة كانت المحكمة العليا ، أو النصاب القانونى لعدد أعضاء المحكمة (كان النصاب القانونى لعدد الأعضاء يضم ثلاثة من العلمانيين بالاضافة إلى الملك) فى حالة انعقاد مستمرة، وكان للمحكمة العليا مجال أوسع للفصل فى القضايا والمنازعات فى العصور الوسطى عن الوقت الحاضر. فكانت تفصل فى الخلافات التى تنشب بين أفصال الملك، والمتعلقة بالاقطاعات التى بحوزتهم وشملت اختصاصات المحكمة العليا أيضا حق الفصل فى القضايا الجنائية والمدنية. إذ كانت جرائم القتل والاغتيال، والسلب والاغتصاب، والخيانة العظمى تعتبر من جرائم خرق القانون الاقطاعى أو جرائم كبرى- وكان الملك والمحكمة العليا يفصلان فى هذه الجرائم . ومن ناحية أخرى، فإن كل القضايا الخاصة بالأراضى الاقطاعية، والميراث ، والوصاية، والالتزامات الاقطاعية (الخدمات الاقطاعية) كانت تنظر أمام المحكمة العليا. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المحكمة العليا كانت تنظر فى القضايا المتعلقة بتحويل ملكية الاقطاعات ، سواء كان بالبيع، أو بالايجار . إذ كان تأجير الاقطاعات يتم من خلال المحكمة العليا فقط. ففى حالة تأجير الاقطاعات لم يكن قرار المحكمة ملزمًا فقط فى هذا الخصوص بل كانت آراء أعضائها التى تعلن فى جلسة المحكمة بمثابة ضمان لحقوق مالك الاقطاعات التى تم تأجيرها. ولم يزد عقد البيع أو تحويل الملكية المدون عن كونه بمثابة مفكرة ولم يكن اثباتا قانونيا ملزمًا. ولم تقتصر اختصاصات المحكمة العليا فقط على اقامة العدالة بين أفصال الملك ، بل كانت لها حق الفصل فى القضايا بين الملك وأفصاله أيضًا. وكان هذا يمثل لب فكرة النظام الاقطاعى الخالص كما أوضحه وذكره المشرعون الصليبيون . والواقع أننا لم نجد مثل هذه المحاكمة وهذه

القضايا بين الملك وأفصاله فى تاريخ المملكة اللاتينية. ومما يذكر أن الملكة ميلسندا Me-lissande استطاعت أن تفصل فى الدعوى التى أقامها دير القديسة مارى المجدلية St. Mary of Josaphat ضد التاج الملكى فى احدى جلسات المحكمة العليا. ولسوء الحظ لم توضح الوثيقة أو البراءة الملكية الموجودة حاليا طريقة تسوية هذه القضية التى رفعها رهبان الدير ضد التاج الملكى، سواء كانت هذه التسوية فى شكل قرار أصدرته المحكمة العليا أو اتفاق توصل إليه طرفا النزاع (الملكة ورهبان الدير) وتدوين هذا الاتفاق (كانت القضية تتعلق بنقل ملكية أرض) فى سجلات المحكمة.

وفى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، وفى الوقت الذى تطورت فيه قوانين وموظفى كل المحاكم الملكية فى الغرب الأوربى للتعامل مع مختلف القضايا التى تنظر أمامها ، ظلت المحاكم فى المملكة الصليبية دون تطور أو تغيير يذكر. فلم يحدث تغيير فى بنية وشكل المحكمة الملكية فى هذه المملكة طوال فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان.

كانت السلطة القضائية تستند إلى تشريع. وفى الغالب كان النفور والاشمئزاز من التجديد الذى كان سمة من سمات العصور الوسطى يؤدى إلى تخيل قانون قديم «أوفكرة اكتشاف القانون» فلم يكن هناك شىء مبتكر، وكان القانون المعمول به يمكن تفسيره ببساطة أو اقراره والتصريح به. وبالرغم من ذلك ، فإن الصليبيين من هذه الناحية كانوا أقل محافظة على القديم من معاصريهم الأوربيين والحقيقة أن المملكة اللاتينية الوليدة فى بيت المقدس كانت فى خصام ونفور مع نظرية التشريع وسن القوانين التقليدية . وبصراحة يمكن وصف القوانين الجديدة التى تم سنها. وعلى الرغم من كثرة عدد القوانين العرفية فإنه كان هناك القانون المستمر من القوانين السابقة Case Law . فقد كانت قرارات المحكمة العليا تحيى قوانين شرعية سابقة؛ إذ كان اصدارها لحكم قضائى بمثابة تشريع وقانون . وهكذا كانت المحكمة العليا بمثابة محكمة لاقامة العدالة كما كانت أيضا فى نفس الوقت أداة لسن القوانين الحكومية.

وعلى الرغم من تعاظم حجم اجراءات القوانين العرفية كما أوضحها لنا المشرعان الصليبيان الشهيران فيليب دى نوفار Philipe de Novara وجان دى ابلين Jean d'Ibelin سيد يافا فى القرن الثالث عشر الميلادى فإن هذه القوانين كانت مستمدة من القوانين السابقة، وسلك التشريع أيضا اتجاها آخراً. وكان هناك جهداً ملموسًا قام به الملك الصليبى والنبلاء من أجل

سن قوانين جديدة، لمواجهة المتطلبات الجديدة التى فرضتها قضايا جديدة وملحة عجز القانون العرفى عن مواجهتها ومعالجتها . وببساطة استطاع الملك الصليبى أن يصدر قوانين ادارية محلية وفرض عقوبة اللعنة على من يخالفها . بيد أن هذا الوضع واجهته بعض المعارضة . فقد شهدت احدى هذه الحالات الغريبة معارضة وذلك حينما أصدر أحد الملوك الصليبيين الذين يحملون اسم بلدوين أمراً بتنظيف شوارع مدينة القدس وفرض عقوبة الغرامة المالية ضد من يخالف تنفيذ هذا الأمر . ومن الواضح أن المحكمة البرجوازية قد استاءت من جراء فرض هذا القانون المفيد للمدينة بالقوة، ومتذرعة بأن هذا القرار قد صدر دون موافقتها ، ومن ناحية أخرى ، فإن المحكمة العليا تغاضت عن هذا القانون المهم . وإذا ألقينا نظرة على الأعراف والتقاليد الصليبية فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، فإننا نستطيع الاعتقاد بأن الملك الصليبى فى السنوات الباكرة من تأسيس المملكة اللاتينية فى بيت المقدس قد شكل لجنة لترتيب وتصنيف القوانين، التى أصبحت تشكل المجموعة القانونية المقترحة للملكة الصليبية، وذلك بعد العديد من التمحيص والاستفسارات عن مسائل قانونية أخرى، وبعد العديد من المشاورات والمداولات القانونية المناسبة. وإلى حد ما فإن مثل هذه السياسة التى ترجع إلى بداية القرن الثانى عشر الميلادى كانت ذات فعالية وصائبة، ويمكننا الظن بأن هذه السياسة كانت تحيى ذكرى الأساطير اليونانية والرومانية المرتبطة بأرباب القوانين والحكمة العظام. ومن ناحية أخرى، فإنه ليس هناك شك فى أن هذه القوانين كان يتم اقتراحها فى محكمة الملك، ثم تناقش وتصنف وتصاغ بشكل متفق عليه فى شكل نسخ مدونة يتم ايداعها فى أعظم حرم مقدس فى المملكة الصليبية باعتبارها «رسائل الضريح المقدس» وكانت هذه القوانين تعرف باسم «الآسيز Assises» وكانت تحمل نفس المعنى الذى تحمله مجموعة القوانين والآسيز فى نورماندى وفى انجلترا . وكانت هذه المجموعة القانونية تضم القوانين الخاصة بالجرائم الجنائية، والقضايا الاقطاعية، وكذلك قوانين مدينة ، وكانت أيضا تضم مراحل عديدة من الاجراءات القضائية وكان مثل هذا النشاط التشريعى شاملاً وواسعًا فى القرن الثانى عشر الميلادى، بيد أن هذا النشاط التشريعى بدأ يتضاءل ويضعف فى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى. لقد كان تشريع القرن الثانى عشر الميلادى والقوانين المتراكمة السابقة التى ترجع إلى قرن مضى قبل القرن الثانى عشر الميلادى كافية لمواجهة المتطلبات القضائية للملكة الصليبية خلال هذا القرن، بيد أننا نستطيع أن نقرر بأن الجرأة على تجديد قوانين قد تضاءلت مع نمو ارتباط طبقة النبلاء بالقانون القديم ، الذى أصبح مقدسًا إلى حد بعيد. كانت المحكمة العليا تعلن القوانين وكانت

أحكامها القضائية هى قانون البلاد. وعلى الرغم من أن المحكمة العليا باستطاعتها استحداث قوانين جديدة، فإنها كانت أيضا بمثابة مخزن ومستودع القوانين والمدافع عن القوانين القديمة والأعراف والامتيازات والاعفاءات .

والأهمية العظمى للمحكمة العليا الصليبية كعامل مهيمن فى الحكومة يفسر لنا الدور المساعد الذى تقوم به هذه المحكمة ومعاونة الآلية التنفيذية الحكومية ممثلة فى الوظائف الكبرى وكبار الموظفين فى المملكة اللاتينية. فقد كانت المحكمة العليا تضطلع بكثير من المهام والاختصاصات الملكية، بينما كانت بعض الاختصاصات الأخرى تضطلع بها محاكم الامارات الصليبية التى تتمتع بالحكم الذاتى. وهذا من شأنه لم يترك للإدارة الملكية مجالاً كبيراً، كما أن هذا يفسر لنا حقيقة مؤداها أننا لم نعرف أية محاولات قامت بها المحكمة العليا للسيطرة على كبار الموظفين ، كما حدث على سبيل المثال فى انجلترا فى ما كان يعرف باسم دستور ١٢٤٤م أو ما جاء فى هذا الخصوص فى اتفاقيات وعقود اكسفورد فى عام ١٢٥٨م. ونظراً لأن هذه القوانين كانت غير مهمة فإن المحكمة العليا التواقة والمتعطشة إلى السلطة لم تنتبه إليها، ولم تلق لها بالاً. ولنفس السبب، لم يستطع النبلاء المحليون المطالبة بالوظائف الكبرى كامتيازات وراثية . وهكذا فاننا نجد العائلات النبيلة الكبرى فى المملكة الصليبية قد استطاعت شغل الوظائف الكبرى فى كل جيل، بيد أن هذا الوضع يمكن اعتباره حالة عادية للنبيل الذى يدخر ويحافظ على مصالحه فى المستقبل فى أى مكان ، فى المحكمة العليا وفى إدارة أملاكه الخاصة . ومن ثم كان للملك حرية اسناد بعض هذه الوظائف إلى من يحب، حتى ولو كان الذى يفضلهم من النبلاء الذين ليسوا من مواطنى المملكة .

وفى إطار هذه الظروف، لم تكن الوظائف الكبرى فى المملكة اللاتينية تماثل أو تطابق مثيلتها المعاصرة فى الغرب الأوربى. وبخصوص هذه الناحية ، فإنه عندما أصبح لوظيفة القهرمان Seneschal سلطة حقيقية فى الغرب الأوربى، قام الملك الفرنسى فيليب الثانى أوغسطس بالتخلى عن هذه الوظيفة وجعلها شاغرة وساهم بالتالى فى تدهورها، ولم يحدث هذا الشيء فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس.

وهنا كانت وظيفة الكونستابل Constable تعتبر أكثر أهمية ، على الرغم من أن القهرمان كان يتمتع بنوع من الأسبقية التشريفية، والسبب الرئيسى لهذا الاختلاف إذا ما قورن بالوضع فى الغرب الأوربى يمكن تفسيره فى ضوء حقيقة أن الكونستابل قائد الجيوش لم

يقتصر دوره على انجاز مهمة رئيسة فى مجال الحرب فقط بل كان يمارس نفوذه فى مجال آخر بحيث لايستطيع أن يتحدى سلطة الملك ومركزه وكان القهرمان Seneschal يترأس المحكمة العليا فى أثناء غياب الملك (باستثناء القضايا الجنائية والقضايا المتعلقة بالاقطاعات، وهى القضايا التى كانت تناقش فى حضور الملك)، ويتمتع بالأسبقية ، بيد أن سلطته لم تكن أعظم من سلطة الملك، الذى لم يزد عن كونه الأول بين أقرانه Primus inter pares حيث كان يترأس المحكمة العليا .

وكان القهرمان Senschal ، باعتباره ممثلاً للملك، يستطيع أن يترأس جلسات المحكمة العليا فى أوقات السلم. وفى العادة كان يقود الجيش الملكى وقت الحرب. وبخصوص المهام الأخرى، كان القهرمان يشرف على ادارة الأمور المالية فى المملكة. ولم تصل الخزانة والادارة المالية فى المملكة اللاتينية إلى مستوى الادارة المالية النورمانية ، بيد أن الأشراف على ادارة قسم السكرتارية (وهو القسم الذى ورد ذكره فى المصادر الصليبية فى مملكتى بيت المقدس وقبرص الصليبتين) كان من أهم الوظائف والمهام التى يقوم بها القهرمان . وقد تضمنت هذه المهمة تعيين النساخ والكتبة، والوكلاء Steward baillis ، وأيضا جباة الضرائب الملكية أو الذى يقوم ببيع المحاصيل الملكية بأعلى الأسعار والاشراف عليهم جميعًا . وفى اطار مهمة القهرمان فى الاشراف على الأمور المالية فى المملكة ، كان أيضًا مسئولاً عن المحافظة على القلاع الملكية، وامداد حامية القلعة بالمؤن، على الرغم من أنه لم يكن قائداً أو محافظًا لهذه القلاع الملكية، كما أنه لم يتدخل فى الأمور العسكرية لهذه القلاع .

وكما ذكرنا آنفا ، كانت ادارة الحرب تدخل فى نطاق سيادة الكونستابل ، بوصفه القائد العسكرى الثانى بعد المارشال . وكانت هناك علاقة خاصة ودقيقة بين الاثنين، إذ كان على المارشال تقديم يمين التبعية الاقطاعية للكونستابل مقابل تسلمه لوظيفته ويبدو أن مثل هذا القسم والتبعية كان ميزة وخصوصية انفردت بها المملكة اللاتينية فى بيت المقدس. ويمكن تفسير حدوث مثل هذه الممارسة فى ضوء حقيقة أن الكونستابل كان يتسلم اقطاعًا من الملك مقابل تسلمه لوظيفته ، ومن ثم كان الكونستابل يقطع جزءاً من اقطاعاته للمارشال باعتباره المساعد الرئيسى له. ومن مهام الكونستابل الرئيسة الاشراف على أفراد الجيش ، وهذه المهمة تشمل الاشراف على القوات والفرق العسكرية والمعدات ، وأيضا المهام القيادية الأخرى . وكان الكونستابل يقوم بمراجعة وفحص نسبة الخدمة العسكرية المستحقة على كبار الأفصال

الاقطاعيين التابعين للملك، وكان مسئولا عن معدات هؤلاء الفرسان وفى أثناء الحملات العسكرية كان الكونستابل يقوم بمهمة قاضى قضاة العسكر بموجب القانون العسكرى، على الرغم من أن السلطة القضائية الفعلية كانت بيد كبار السادة الاقطاعيين. وكان هذا دائمًا يمثل مشكلة شائكة وسط جيش يتكون من كبار النبلاء بيد أن الجيش الاقطاعى كان يمثل جزءاً فقط من أجزاء الجيش الملكى. وفى أوقات الخطر أو الطوارىء ، كان الملك الصليبى والنبلاء على السواء يقومون باستئجار فرسان ومحاربين مشاة Sergeants ، وحاملى الدروع Squires، وكان الكونستابل مسئولاً مسئولية مباشرة عن اعاشة هؤلاء المحاربين ورفاهيتهم ولاسيما تدبير وصرف مرتباتهم ومستحقاتهم المالية، إذ كان عليه توضيح مطالب هؤلاء المحاربين المستأجرين (المرتزقة) ، وفى بعض المناسبات كانت مطالبهم ترفع أمام المحكمة العليا. ويبدو أن الكونستابل فى مثل هذه الحالات كان يترأس المحكمة العليا فى أثناء غياب الملك. وكان للمارشال مهمة خاصة هى الاشراف على الخيول ، وعلى عملية تقسيم الغنائم، ولاسيما الخيول. إذ كان مسئولاً عن تزويد المحاربين بالخيول بدلاً من التى قتلت فى ساحة المعركة أو نفقت . ولم تجلب هذه الوظيفة لصاحبها أية أهمية حقيقية.

وظل الحاجب أو الياور Chamberlain مرتبطًا ارتباطًا شخصيًا بالملك أكثر من أى موظف آخر من كبار الموظفين، واحتفظت هذه الوظيفة بشكل أكبر بسماتها وخصائصها المألوفة السابقة. وعلى الأقل فى القرن الثانى عشر الميلادى، كان صاحب هذه الوظيفة (الحاجب) يحصل على اقطاع يقدر بخمس قرى تدر دخلاً يقدر بمبلغ ٧٥٠٠ بيزنتا سنويًا. وإذا كانت هذه الوظيفة تجلب وتدر على صاحبها دخلاً سنويا يقدر بحوالى ١٠٠٠ بيزنت (كان هذا الدخل يعادل $\frac{١}{١٥}$ من موارد مدينة بيت المقدس) فإن هذا يعنى أن دخل الحاجب السنوى كان يعادل دخل اقطاعات اثنين من الفرسان. وكان الحاجب يشرف على عملية تقديم قسم التبعية الاقطاعية الذى يؤديه كبار الأفصال للملك الصليبى. وكان مسئولا عن الاشراف على المصاريف المنزلية الملكية ، والاشراف على خدام وموظفى القصر الملكى.

ومما يذكر أن الوضع المتحجر للآلية الحكومية المركزية كان بمثابة دليل على عدم تطور المحكمة العليا. وفى الوقت الذى أصبحت فيه كل المحاكم الملكية فى كل أنحاء أوربا المكان الرئيسى للوظائف ، تتكيف مع مهام وواجبات هذه الوظائف بهدف تعزيز غير مسبوق للسلطة الملكية ، فإن المحكمة العليا فى مملكة بيت المقدس الصليبية كانت قد أصابها الركود. وعلى

الرغم من أن وظيفة القاضى كانت دائما بيد أحد الأساقفة وأحيانا كانت بيد أحد الشخصيات المهمة البارزة، فإن هذه الوظيفة لم يكن لها ثمة تأثير أو نفوذ على السياسات الملكية ، ولم تتطور أمانة سر المحكمة العليا. وأكثر من ذلك ، فإن القاضى لم يكتب بنفسه العقود أو يحررها وكان هذا النمط من العقود والحجج المحررة عبارة عن حجج منح اقطاعية فقط (على الرغم من أن العقود والحجج الباقية من هذه الفترة تعطينا فكرة مختلفة عن ذلك). ولم تطور المحكمة العليا الوظائف القضائية ، ولم تنسق أو ترتب الوظائف الأخرى، وظلت هذه المحكمة مسئولة عن المراسلات والمكاتبات الملكية وربما عن السجلات الملكية .

لقد ذكرنا من قبل الأسباب التى وقفت حجر عثرة أمام تطور آلية الحكومة المركزية الصليبية ، وبسبب الاستقلال الذاتى المستفحل للبارونيات الصليبية يجب علينا أن نبحث عن المجموعة الكاملة للمؤسسات البدائية والجنينية للحكومة المركزية على المستوى المحلى. ومن هذا المنطلق ، يمكن القول أن السيادة الملكية الصليبية يمكن اعتبارها نوعًا من السيادة الاقطاعية ، أو على أكثر تقدير يمكن اعتبارها كمجموعة من أنواع السيادة المختلطة التى تتعلق بالتاج الملكى .

الفصل التاسع

مناطق السيادة الصليبية
الحكومة الصليبية على المستوى المحلى

أ- الامارات الصليبية الصغيرة والخريطة الاقطاعية للملكة اللاتينية:

كان الساسة الصليبيون يعانون نوعًا من الفراغ المخيف. ففى الوقت الذى تقلصت فيه الامتيازات الملكية وفقدت السلطة المركزية هيبتها وقوتها ، أفسح المجال أمام النبلاء وبدأوا يتحركون صوب ملأ هذا الفراغ السياسى . وهكذا فإنه فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى باتت السلطة المركزية للملوك الصليبين ضعيفة وغير فعالة ، وبدأت الحكومة تواصل عملها على المستوى المحلى فى الامارات الاقطاعية الصغيرة.

ومما يلاحظ أن التطور التاريخى للامارات الاقطاعية الصليبية فى المنطقة العربية غامض ويشوبه الابهام، ومتابعة هذا التطور ليس بالأمر اليسير. وكما ذكرنا آنفا، فإنه على الأقل خلال فترة حكم الملكين الصليبيين الأولين جيودفرى البويونى وأخيه بلدوين الأول كان ثمة امتعاض ملحوظ من قبل السلطة الملكية من جهة منح البارونيات لرفقاء الملوك فى السلاح. وربما كان اتباع الملوك الصليبين مثل هذه السياسة التى تمنع منح الأملاك للنبلاء يرجع إلى فقر المملكة والخشية من تعاظم نفوذ هؤلاء البارونات على حساب السلطة الملكية ومنافستها ، ولم تعرف أوربا فى تلك الفترة مثل هذه السياسة التى سلكها الملوك الصليبيون. وخصص ملوك بيت المقدس لنبلائهم اقطاعات نقدية بدلا من امتلاك الأراضى الزراعية مقابل الخدمات التى يقدمها هؤلاء النبلاء ولضمان انجاز مثل هذه الخدمات فى المستقبل ومن الطبعى أن مثل هذا كان أكثر ملائمة للملكة الصليبية، واستمر الصليبيون فى تقليد نظام الاقتصاد النقدى وممارسة هذا الاقتصاد الذى عرفته منطقة الشرق العربى حتى بعد احتلال الصليبيين لها . وهكذا كانت الاقطاعات النقدية تمثل النمط الأول للاقطاعات مع أن هذا النمط من الاقطاعات فى فترة متأخرة من الوجود الصليبى لم يعد النمط الشائع، وعرف الاقطاع النقدى وقتئذ باسم

اقطاعات البيزنت، وفى بداية فترة الوجود الصليبى كان اجمال الدخل يمنح فى صورة اقطاع ، ولم تتحدد قيمة الاقطاع النقدى الممنوح. وعلى سبيل المثال، كان الاقطاع النقدى عبارة عن اجمالى دخل مدينة أو احتكار ملكى لمدينة . وإذا ما تتبعنا هذه السياسة الصليبية لتبين لنا أنها خلقت دولة اقطاعية ظاهريًا وأوجدت طبقة من النبلاء يتقاضون الرواتب ، تؤدى وظيفة بيروقراطية ، أو أن هذه السياسة اتبعت نظامًا متطوراً كالذى كان سائداً فى الأقطار الإسلامية المجاورة. فقد عرفت هذه الأقطار الإسلامية النظام الاقطاعى ، وكان هذا النظام على الأقل بمثابة خط مشابه لهذا التطور الذى كان عليه الاقطاع فى هذه الأقطار الإسلامية. وكانت الارستقراطية فى الأقطار الإسلامية تعتمد فى كسب رزقها واعالتها على المخصصات المالية من خزانة الدولة.

وعلى أى حال، فإن سياسة عدم خلق سادة اقطاعيين من النبلاء الصليبيين لم يكتب لها البقاء خلال فترة الملكين الصليبيين الأولين (جيودفرى البويونى- بلدوين الأول) . فقد حدث استثناء خلال فترة حكم جيودفرى البويونى وعلى مضض منه، وذلك عندما ظهرت امارة الجليل وعاصمتها طبرية فى شكل امارة صليبية كبيرة قوية. ومن المحتمل أن تانكرد أمير الجليل لم يكن فى نيته أن يحكم اقطاعًا تابعًا للتاج الملكى فى بيت المقدس بل كان ينوى الحصول على امارة مستقلة فى شمال المملكة الصليبية ، وكان من المفترض أن تضم إمارة الجليل مدينة طبرية ، مع بحيرة الجليل باعتبارها المركز الجغرافى للامارة ، وتشمل أيضا كل الأراضى الواقعة عبر نهر الأردن حتى حدود دمشق فى الشرق والشمال ونهر اليرموك فى الجنوب. وفى حين كان الحد الغربى لامارة الجليل يصل إلى البحر المتوسط، فإن هذه الإمارة كانت تضم وتشمل كل الجليل. وقدر لمدينة حيفا التى ادعى تانكرد ملكيتها عقب وفاة جودفرى البويونى فى عام ١١٠٠م أن تصبح منفذا على البحر. ولقب تانكر بلقب أمير الجليل، والذى لم يكن فصلاً ملكيًا، بل كان (يحمل لقبا يشبه لقب أمير أنطاكية) حاكما مستقلا . وبسبب الظروف السياسية اضطر تانكرد إلى أن يغادر إقليم الجليل إلى أنطاكية. وهكذا تمكن الملك الصليبى بلدوين الأول من ادماج هذه الامارة المنشقة مع بنية المملكة الصليبية . وتم منح هذه المنطقة الواسعة التى كانت ضمن حدود اقليم الجليل سابقا إلى أحد نبلاء المملكة فى شكل اقطاع. واتخذ حاكم الليل (والذى كان واحداً فقط من بين أفصال المملكة الصليبية) لنفسه لقب «أمير» هذا اللقب الذى يحيى ذكرى طموحات تانكرد.

لقد كان تأسيس امارة الجليل الصليبية بمثابة استثناء فى أكثر من ناحية. وعادة كان الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى بمثابة الفترة الرئيسة لتأسيس ونشأة الامارات الاقطاعية الصليبية. وفى السنوات الأخيرة من حكم الملك الصليبى بلدوين الأول وفى أثناء حكم خليفته الملك بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١م) تشكلت الخطوط العريضة للخريطة الاقطاعية على الرغم من أن هذه العملية استمرت بشكل متقطع فى الربع الثالث من القرن الثانى الميلادى.

لقد كان العامل الأساسى فى خلق كيانات وامارات صليبية هو حالة العجز والضعف الذى آلت إليه المملكة الصليبية، تلك الحالة التى تأصلت فى كل التنظيمات الاقطاعية ، وكانت الخدمة العسكرية الاقطاعية ضرورة ملحة ولها القدح المعلى فى مساعدة السلطات الصليبية فى ادارة أملاك شاسعة بحزم وفعالية والاضطلاع بمهام ووظائف عامة. ففى أوربا التى سادها نظام الاقتصاد الطبيعى نتيجة الغزوات الجرمانية، انقسمت ممالك أوربا فى العصور الوسطى الباكرة نسبيًا إلى وحدات صغيرة شبه مستقلة، واعتمد بقاء هذه الممالك على مصادر الثروة المتاحة والتى تمثلت فى ملكية الأراضى التى كانت مصدر الثروة والسلطة فى العصور الوسطى ولم يكن هذا هو الحال فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس. فقد كانت منطقة الشرق العربى الإسلامى تعرف الاقتصاد النقدى قبل الغزو الصليبى لها وبدأت الكيانات الصليبية فى هذه المناطق تستخدم من جديد النقود فى التعامل التجارى. وأدى هذا النمط من الاقتصاد النقدى إلى خلق حكومة يعتمد دولاب العمل فيها على عدد كبير من الموظفين البيروقراطيين يتقاضون مرتبات وكذلك على جيش ومحاربين يتقاضون رواتب أيضا. وهكذا فإن طبيعة الدولة التى ظهرت للوجود أخيراً لم تحكمها الظروف الاقتصادية ، وآية ذلك، تفوق وسيادة نمط من الاقتصاد الريفى الذى يتميز بالمقايضة . ويمكن أن نعزو جزئيًا تطبيق التنظيم الإقطاعى فى الامارات الصليبية إلى السمة العسكرية لهذه الامارات بيد أن السبب الرئيسى يرجع إلى عقلية النبلاء والفرسان الأوربيين التى تشبثت بالأنماط التقليدية للتماسك والوقار الاجتماعى. لقد كانت الممارسة الاقطاعية عبارة عن مجموعة قانونية يعرفها الأوربيون، وهذه الحقيقة هى التى حددت الاطار العام للتنظيم الاقطاعى الذى انتقل إلى المملكة الصليبية الجديدة.

وبينما يمكن تفسير تطبيق التنظيم الاقطاعى فى المملكة الصليبية على أساس الخبرة التى يتمتع بها الأوربيون فى هذا المجال وملاءمة هذا النظام لظروفهم فى الفترة الباكرة من وجودهم فى المنطقة العربية ، فإن قسوة وصرامة هذا النظام الاقطاعى التى لم تتغير تؤكد الروح

الاستعمارية للملكة الصليبية ، وفى هذه الحالة كانت المملكة تتشبث بالماضى بشكل أعمى، هذا الماضى الذى لم يصبح فى نظرهم مجيداً فقط ، بل كان مقدسا. وهكذا عاشت روح فرنسا القرن الحادى عشر الميلادى فى المملكة الصليبية حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى، وظلت هذه الروح طويلاً بعد تغير موقف فرنسا وعدم اعترافها بالكيانات الصليبية.

ومما يذكر أن المحاولة لتقييد عملية انشاء وتأسيس امارات اقطاعية صغيرة قد أدت إلى تراجع وانهيار نماذج الوطن. فقد توقع رفقاء جودفرى البويونى وبلدوين الأول، والفرسان الذين تقاطروا على المملكة الصليبية حديثًا والذين قدموا الخدمة العسكرية خلال فترة حكم الملك بلدوين الثانى الحصول على اقطاعات حربية تضمن لهم مستوى اجتماعى راق وكوسيلة من وسائل العيش وكسب الرزق. ولم تؤدى مطالب هؤلاء جميعًا إلى اثارة وغضب الملك الصليبى أو ضعف السلطة الملكية. ولم يرغب أى حاكم فى العصور الوسطى أن يكون ملكًا للفقراء المعدمين أو للأتباع المأجورين . وعلاوة على ذلك ، فإن سياسة الاستيطان الفعالة وأيضا الحكومة والادارة القوية الفعالة تتطلب بالضرورة منح اقطاعات لطبقة الفرسان المحاربين.

ولم تفصح المصادر التاريخية التى بين أيدينا عن طبيعة عملية تقسيم ومنح الاقطاعات الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى الفترة الباكرة. ولانعرف لماذا أصبحت بعض الاقطاعات امارات وتابعة للدومين الملكى. ومن الجائز أن حجم الاقطاع أو رتبة النبيل ومكانته أو درجة قرابته من الملك الصليبى هى المعايير التى كانت تحدد موقعه ووضعه فى الهيراركية الاقطاعية (الدرجة الاقطاعية) . وربما كان هذا بمثابة اجراء باكر فى المملكة الصليبية ، بيد أن وجود اقطاعات صغيرة مستقلة تتكون من فصلين أو ثلاثة أفصال (وكان الكثير من الاقطاعات الصليبية من هذا النوع) قلما يؤكد ويبرهن على وجهة النظر هذه . ومهما كان التفسير فإنه يجب أن نفترض بأن عملية تقسيم الاقطاعات الباكرة قد حددت مستقبل الوضع القانون الاقطاعى للامارة الاقطاعية ، وكان هذا التقسيم الاقطاعى يتطلب مبدئيًا تقديم يمين الولاء والتبعية الاقطاعية. ففى البداية ، كانت المنح الاقطاعية من الأرض الزراعية بسيطة، ثم تحولت هذه المنح بعد ذلك إلى امارات اقطاعية مستقلة وفى الغالب كانت القلعة أو المدينة هى مركز الاقطاعية. ولانجافى الحقيقة إذا افترضنا أن حالات اغتصاب الحكم كانت النغمة الدالة فى معظم الأقطار الاقطاعية فى الغرب الأوربى والتى تأسست بشكل شرعى.

ومن الملاحظ أن الامارة الاقطاعية الصغيرة لم تحرز درجة من الحكم الذاتى . وفى وقت متأخر حدد القانون الاقطاعى الصليبى الامارة الاقطاعية وحجم حقوقها وأوضح أن الامارة الاقطاعية تتمتع بحقوق قضائية ، وحق سك النقود ، وإقامة العدالة... الخ. ولأميرها الحق فى امتلاك محكمة، وحق البيع، وحق النظر فى القضايا الصغرى والقضايا الجنائية الكبرى. وكانت المحكمة الاقطاعية فى الامارة والتى ذكرناها آنفا يتكون أعضاؤها من أفصال الأمير الاقطاعى، وكان عدد ثلاثة أفصال يشكل النصاب القانونى لانعقاد هذه المحكمة. وإذا كانت الامارة الإقطاعية لاتضم مثل هذا العدد من الأفصال ، فإن السيد الاقطاعى للامارة يصبح ملزمًا بتزويد المحكمة بعدد من أتباعه وحاشيته وكان الامتياز الثانى الذى تمتع به السيد الاقطاعى فى امارته هو حق (والذى كان يصنع عادة من الشمع) حمل الخاتم الذى يصادق به رسميا على الوثائق. وثالث هذه الامتيازات التى كان يتمتع بها السيد الاقطاعى فى امارته حق الفصل فى القضايا والمنازعات التى تنشب بين سكان امارته ، وذلك أمام المحكمة البرجوازية فى المدن، أو أمام المحاكم الاقليمية الصغيرة فى المناطق الريفية.

ومما يذكر أن أية إمارة اقطاعية قد تأسست حالاً لايمكن الغاء وجودها . فإذا تغير سادتها، وانقرضت الأسرة الحاكمة فى هذه الامارة ، فإنه فى هذه الحالة يجب الحاق هذه الامارة بامارة أخرى تابعة لنفس السيد الاقطاعى لهذه الامارة من خلال الزواج، أو الميراث أو الاكتساب، بيد أنه على الرغم من كل هذه التغيرات فإن الامارة الاقطاعية تظل تحتفظ بهويتها الذاتية، وكان البارون الاقطاعى يدير كل المقاطعات العديدة المتجاورة التى يبسط سيطرته عليها كوحدة مستقلة . وكانت المحكمة الاقطاعية تنعقد فقط فى الامارة الاقطاعية . وهكذا فإن قانون حق الشفعة الاقطاعى أو تحديد النسب Lignage، والذى كان يشمل أفراد عائلة وأفصالها قد روعى بشدة فى التطبيق الادارى. والحقيقة أن المحكمة الاقطاعية للامارة قد طبقت مثل هذا القانون فى محكمتها البرجوازية والتى كانت من المحتمل تتبع أنموذج ونمط المؤسسة الاقطاعية، ولم يكن للمحكمة البرجوازية فى أية مدينة من مدن الامارة صلات بأية محكمة أخرى غير تابعة للإمارة .

والحقيقة أن المقاطعات الصليبية لم تنشأ وفقًا لخطة رئيسة، وقلما كان يخطط لها على الاطلاق. فإن فكرة جودفرى البويونى أو بلدوين الأول عن تقسيم المملكة الصليبية فى بيت المقدس إلى امارات ومقاطعات ، يشبه إلى حد ما ما ذكر فى العصور الوسطى من أن موسى عليه السلام قد وعد بتقسيم أرض الميعاد على قبائل بنى اسرائيل ، وسوف يبعدنا ذلك إلى

مملكة الأساطير ، وتلك كانت احدى الاشارات الكثيرة التى ذكرها المشرعون الصليبيون فى القرن الثالث عشر الميلادى.

لقد ساهمت ثروات وغنائم الحرب والغزو التى جناها الصليبيون، وضغط النبلاء والفرسان الصليبيين ، وكذلك المتطلبات الاستراتيجية فى رسم حدود الامارات الاقطاعية . وعلى سبيل المثال، فإن حالة إمارة الجليل تعتبر حالة نموذجية ، إذ أن خطة تانكرد الحمقاء لم تأت بشىء . وثمة سؤال وهو ماذا حدث لتلك الامارة ؟ لقد تم احتلال حيفا فى عام ١١٠٠م وبعد هذا أصبح هذا المرفأ مقاطعة مستقلة صغيرة. وقسم كل الجزء الغربى لامارة الجليل إلى مقاطعات وامارات مستقلة . وخضعت بعض هذ المقاطعات لسلطة الملك مباشرة، فى حين كانت الاقطاعات الأخرى بمثابة اقطاعات تابعة لامارة الجليل الصليبية، بيد أن كل أصحاب هذه المقاطعات أصبحوا بسرعة مستقلين وأفصلاً مباشرين للملك الصليبى . وفى محاولة لتجنب مواجهة السيد الاقطاعى المباشر (أمير الجليل) قام سادة هذه المقاطعات ينشدون ود الملك الصليبى ، الذى كان سعيداً لأن يرى البارونيات الاقطاعية الكبرى تفقد بعض أقاليمها ، فى حين ظفر بأفصال مباشرين على حساب هذه البارونيات . وهكذا ، وعلى سبيل المثال، قام أمير الجليل بتشييد قلعتين، هما تورون (تبنين) وقلعة نيف Neuf (هونين) ، اللتين أصبحتا مستقلتين، وأصبح سيد هاتين القلعتين فصلاً مباشراً للملك. ومن ناحية أخرى، فإن بعض الاقطاعات فى منطقة النفوذ الملكى (الدومين الملكى) أصبحت مستقلة، وفقد الملك الصليبى أقاليم ومقاطعات اقطاعية ، فقد خسر الدومين الملكى مقاطعة اسكندرونة الصغيرة الواقعة إلى الجنوب من مدينة صور الملكية .

ومما يذكر أن إمارة الجليل وما وراء نهر الأردن كانتا من أهم امارات المملكة الصليبية. وأخيرا وفى الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى لم تضم امارة الجليل أكثر من الاقليم الجبلى والتلال فى هذه المنطقة. وفى الشرق كانت الامارة تضم بحيرة طبرية وخضعت مرتفعات الجولان السورية والتى تمتد إلى حدود دمشق لسيادة مشتركة بين الصليبيين وبين الحكام المسلمين فى دمشق . ومنذ أن وقعت معاهدة هذه السيادة المشتركة على الجولان بين الصليبيين (سادة الجليل) وبين حكام دمشق المسلمين لم يقم أى طرف من طرفى الاتفاق بتحصينها، ومن الناحية السياسية ، فإن الادعاء بالسيادة على الجولان كان فى الغالب اسميًا. وعلى الرغم

من ذلك ، فإن أمراء الجليل الصليبيين ظلوا يحصلون على مورد ودخل أساسى من هذه الأقاليم حتى حلت بالصليبيين هزيمة حطين فى عام ١١٨٧م . وفى جهة الغرب فقدت امارة الجليل ساحلها الذى يفصل بين الأراضى التابعة للتاج الملكى وبين الامارات المستقلة.

وامتدت امارة ما وراء نهر الأردن الواسعة من نهر اليرموك (أو ريماند الزرقا، وهو نهر ينبوك التوراتى) فى الشمال إلى ميناء العقبة الصليبى على البحر الأحمر فى الجنوب. وكان هذا الموقع الاستراتيجى لهذه الإمارة بمثابة فاصل بين مصر الإسلامية وبين بلاد الشام، الأمر الذى كان له أعظم الأهمية فى الدفاع عن المملكة الصليبية. وكانت هذه المنطقة واسعة، حيث تم تشييد قلعتين عظيمتين بها هما قلعة مونتريال وقلعة الكرك (الشوبك) فى عامى ١١١٦م و١١٤٢م على التوالى ، وخضعت هاتان القلعتان لسلطة الملك الصليبى. بيد أنه فى حوالى عام ١١٦١م أصبحت هذه الامارة مستقلة. ومن هنا ألقى عبء الدفاع عن حدود هذه الامارة الواسعة على عاتق سادتها. وكان سادة هذه الامارة الواسعة من عائلة ميللى (Milly) ثم بعد ذلك أصبح رينو دى شايتون (أرناط) سيداً لهذه الامارة ؛ ولايمكن مقارنة أى حاكم آخر لهذه الامارة بهذين الحاكمين.

وإذا ألقينا نظرة عامة على الامارات الصليبية الأخرى فسوف يتبين لنا تفسير البنية الاقطاعية لمجتمع المملكة الصليبية. فقد كانت امارة بيروت تقع على الساحل فى الشمال الغربى على نهر المعملتين Mu'am altain الصغير . وكان النهر يشكل حد المملكة وعبر هذا النهر وجهة الشمال كانت توجد كونتيه طرابلس. وبعد غزو بيروت عام ١١١٠م منحت كاقطاع لأسرة دى جينس de Guines ، أقارب الملك بلدوين الأول. وبعد ذلك استولى عليها التاج الملكى الصليبى فى عهد الملك أماليك الأول (عمورى الأول) ، ثم انتهى بها المطاف ليحصل عليها أحد فروع أسرة ابلين Ibelin كاقطاع . وإلى الجنوب من امارة بيروت كانت توجد امارة صيدا. واشتقاقا من اسمها العربى سعيدة أطلق الصليبيون عليها اسم سعيتا Saiette أوساجيتا Sagitta وكان السهم arrow هو شعار المدينة . وقام بحكم امارة صيدا أحد أفراد عائلة جرينيه Grenier وهى احدى العائلات الصليبية القديمة فى المملكة الصليبية (وكان الفرع الثانى لهذه العائلة سادة قيسارية) . وإلى الشرق من صيدا كانت توجد امارة بانياس (باينس paneas القديمة- وأطلق الصليبيون عليها اسم بليناس Belinas، وهى الامارة التى مَنحت لأفراد عائلة بروس Bruce الانجليزية ، ثم بعد ذلك خضعت لسيادة وحكم سادة تورون.

وفى عام ١١٥٧م امتلك فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) نصف هذه الامارة، وفى عام ١١٦٤م فقد الصليبيون هذه المدينة وخضعت للسيادة الإسلامية. وفى هذه المنطقة أيضا كانت توجد امارتان صغيرتان هما موررون وتورون (تبنين). وكانت تبنين مركزا لقلعة شيدها أمراء الجليل فى مواجهة المسلمين فى مدينة صور. وحوالى عام ١١٠٧م أصبحت تبنين امارة مستقلة وعهد حكمها إلى أفراد الأسر الحاكمة الشهيرة فى المملكة، وكانت مقاطعة الاسكندرونه التى تواجه مسلمى مدينة صور تعتمد بشكل مباشر على التاج الملكى الصليبى.

وعلى امتداد الساحل، وإلى الجنوب من مدينة عكا الملكية وامارتى حيفا وقيمونت (تيمون أو يوقنام Yoqa'am)، كانت توجد امارة واقطاع قيسارية الغنية التى خضعت لسيادة أسرة جرينيه. وكان يحدها من الجنوب مقاطعة أرسوف (أبو للوينا القديمة ancient Apollonia) والتى تمتعت بالحكم الذاتى على أعتاب منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وفى بداية القرن الثالث عشر الميلادى انتقل حكم اقطاع أرسوف إلى جان الابلينى الشهير عن طريق الزواج. وفى عام ١٢٦١ بيعت لفرسان القديس چون (الاسبتارية) وبعد أربع سنوات فقط من هذا التاريخ خضعت هذه الاقطاعة للسيادة الإسلامية حيث استردها السلطان المملوكى الظاهر بيبرس. وإلى الجنوب من أرسوف، كانت توجد كونتية يافا وعسقلان الملكية وأخيراً وعلى امتداد ساحل البحر المتوسط جنوب عسقلان، كان يوجد اقطاع غزة التابع للداوية وهى المدينة الحدودية للملكة الصليبية وحصن الداروم.

وفى المنطقة التى تقع بين المقاطعات الصليبية الساحلية وبين الأراضى التالية للدومين الملكى فى القدس وجبال نابلس كانت توجد اقطاعات صغيرة قدر لها أن تلعب دوراً حاسمًا فى حياة المملكة الصليبية. ففى عام ١١٤١م أصدر الملك الصليبى فولك الأنجوى أمراً بتشييد قلعة صغيرة إلى الجنوب الشرقى من يافا لصد الهجمات المستمرة على الممتلكات الصليبية من جانب الحامية المصرية فى عسقلان (وهى المدينة التى احتلها الصليبيون بشكل نهائى فى عام ١١٥٣م). وقد شيدت هذه القلعة على أطلال مدينة قديمة تعرف باسم يبنه العالية Yab-neh (والتى تعرف فى اللغة العربية بمدينة يبنى Yibne). وهى المدينة التى كانت لها سمة بارزة فى تاريخ اليهود قبل الغزو الصليبى بآلاف السنين ولاسيما بعد تدمير مملكة بنى اسرائيل الثانية. وكانت هذه القلعة تابعة لكونت يافا. وبعد قليل خضعت لسلطة باليان الابلينى. وتكونت ثروة عائلة ابلين Ibelin من خلال الأملاك المكتسبة التى حصل عليها

أفرادها نتيجة الزواج السياسى. وبحلول منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، تم ضم اقطاع رام الله إلى ممتلكات واقطاعات أسرة ابلين. وبهذه الطريقة، استطاع مؤسس أسرة ابلين الكبيرة أن يقيم الأساس الاقليمى لمستقبل نفوذ وسلطة عائلته. وساعد ثراء وغنى مؤسس أسرة ابلين فى زواج أبنائه من الوريثات الأثرياء ، وجلب هذا الزواج لأسرة ابلين الكثير من الامارات والاقطاعات. وفى النهاية ، أصبحت هذه الأسرة من الأسر الرئيسة والمهمة فى المملكة الصليبية، وأصبح أفرادها رجال دولة ذوى نفوذ كبير فى تنصيب الملوك الصليبيين عروشهم.

وكان السهل الساحلى المركزى الذى يشمل يافا وعسقلان والذى كان يمتد إلى الجنوب ليشمل غزة (والذى شيد مرة ثانية فى أعوام ١١٤٩-١١٥٠م) يعطى الشهرة لفلسطين. وكان هذا السهل تابعًا أيضًا للملك الصليبى، بيد أن الداوية أسسوا حصونًا فى هذا السهل . وشيد الداوية أيضا قلعة الداروم (دير البلح) على حافة صحراء سيناء. وشيدت الكثير من القلاع فى المناطق الداخلية، مثل قلعة بلانش جارد Blanchegarde (قلعة تل الصافى) التى شيدها الملك الصليبى فى عام ١١٤٢م، وقد ألحقت أخيرا بكونتية يافا ، وذلك حينما قام الملك المرتقب أماليك (عمورى) باستلام يافا كاقطاعه . وبعد اعتلائه عرش المملكة الصليبية ، أصبحت قلعة تل الصافى اقطاعًا مستقلاً ومنحت لجواتييه Gautier، سيد بيروت. وثمة اقطاعان مستقلاً، اقطاع الناصرة واقطاع اللد، ويجدر الاشارة إليهما فقط على أنهما اقطاعات كنسية فى المملكة الصليبية.

كان الدومين الملكى يتوازن مع العدد الكبير للاقطاعات الكبرى والصغرى. وبحلول منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وبعد جيلين من الغزو الصليبى، كانت عملية توسع الأراضى التابعة للملك الصليبى ما تزال جديرة بالاعتبار وذات أهمية . وتركزت نواة الدومين الملكى فى الأقاليم المهمة حول مدينة بيت المقدس. ويمكن القول أن الدومين الملكى كان يمتد ليشمل كل المنطقة الجبلية، من حول حبرون وبيت لحم فى الجنوب خلال القدس، بالإضافة إلى مدينة القدس فى مركزها إلى السامرة، مع نابلس (مدينة سيخيم القديمة) وسبسطية Sebaste (مدينة السامرة القديمة Samariq). وحوالى عام ١١٧٤م قام الملك أماليك (عمورى) بتقديم مدينة نابلس فى صورة مهر لزواجه من ماريا كومنين وبسبب زواج الملك من هذه الأرملة، ظهر باليان الثانى الابلينى على مسرح الأحداث. وكانت حبرون تقع فى الجزء الجنوبى من الدومين الملكى ، وأصبحت مقاطعة تتمتع بالاستقلال الذاتى منذ وقت مبكر من الوجود الصليبى وفى عام ١١٦١م ضمت هذه المقاطعة إلى إمارة ما وراء نهر الأردن.

وفى كل الاحتمالات ، كانت هذه الأقاليم الواسعة الواقعة فى المناطق الداخلية للمملكة الصليبية أقل أهمية اقتصادية من بعض المناطق الساحلية التابعة للملك الصليبى. وهنا كان الدومين الملكى يتألف من السهل الساحلى الجنوبى والرئيسى، بالإضافة إلى ميناء يافا. وكان اقطاع يافا فى البداية يضم- بالإضافة إلى مدينة يافا البحرية - جزءاً اضافيا من السهل جهة الشرق، وأيضا منطقة داخلية خصبة ، والتى كانت تتألف من ميرابل Merabel (مجدل يابا) فى الشمال، ورام الله، واللد فى وسطها ، وأملاك أسرتى بلانش جارد وابلين فى الجنوب. وظلت يافا لفترة قصيرة تابعة للملك الصليبى، ومنذ بداية عام ١١٢٠م، أصبحت خاضعة لسيادة أسرة بيوسيه Puiset . وفى أعقاب التمرد والثورة التى قام بها أحد أفراد أسرة بيوسيه فى عام ١١٣١م ضد الملك الصليبى تمت مصادرة اقطاع يافا وانتقلت ملكيته إلى الملك الصليبى. وبعد جيل وفى عام ١١٥١م، أصبح اقطاع يافا ضمن أملاك الملك أماليك (عمورى) ، أخو الملك بلدوين الثالث، والذى سيطر على مدينة عسقلان بعد سقوطها فى يد الصليبيين. وهكذا دخلت كونتيه يافا وعسقلان فى حوزة الملك أماليك . وامتدت هذه الكونتية على طول الساحل حتى مدينة غزة التى تم بناؤها من جديد فى عام ١١٥٠م . وباعتلاء الملك أماليك (عمورى) عرش المملكة الصليبية عادت هذه الكونتية إلى سيادة الملك الصليبى ، وكانت تشكل المهر والدوطة الاقطاعية للأرملة سيبيلا، أخت الملك، وعندما تولى زوجها الثانى جى لوزجنان العرش الملكى فى عام ١١٨٦م عادت هذه الكونتية إلى السلطة الملكية.

وفى أقصى الشمال كان الملك الصليبى يسيطر على ميناءين من الموانىء الكبيرة فى المملكة الصليبية ، هما مينائى عكا وصور . وظلت مدينة عكا المدينة الملكية فى القرن الثالث عشر الميلادى وعاصمة للمملكة الصليبية. ومن ناحية أخرى، فإن مدينة صور هى المدينة الوحيدة التى لم يستردها المسلمون حتى سقطت المملكة الصليبية ، وأصبحت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى اقطاعا مستقلاً تحت حوزة أسرة مونتفرت، على الرغم من أن هذا الاقطاع لم يخرج عن حوزة الدومين الملكى بشكل نهائى.

والواقع أن وصف الخريطة الاقطاعية للملكة الصليبية لايكتمل دون الأخذ فى الاعتبار وضع الهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاسبتارية- التيوتون) وحول منتصف القرن الثانى عشر الميلادى نشأت ظاهرة جديدة وهى الاقطاعات التى حازتها الهيئات الدينية العسكرية فى

المملكة الصليبية. ونظراً لظروف الحرب المستمرة ضد المسلمين وحاجة الصليبيين الملحة إلى المال من أجل تمويل الحملات العسكرية، فإنه ليس غريبًا أن يتحمل فرسان الهيئات الدينية العسكرية عبء الدفاع عن المملكة الصليبية. وقبيل منتصف القرن الثانى عشر الميلادى سيطر فرسان الهيئات الدينية العسكرية على الحصون والقلاع الواقعة على حدود المملكة الصليبية وبسرعة حصلت الهيئات الدينية العسكرية على قطع كبيرة من الأرض الزراعية فى كل المناطق الاقليمية فى المملكة. ولم يكن الوضع القانونى لهذه الأقاليم التى حصل عليها فرسان الهيئات الدينية واضحًا؛ وجزئيًا يمكن أن نعزو هذا إلى حقيقة مؤداها أن الهيئات الدينية العسكرية نالت هذه الأراضى بشروط مختلفة (أراض مستأجرة- أو اقطاعات) . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن ثمة حقيقة أخرى وهى أن الهيئات الدينية العسكرية كانت مؤسسات دينية تبغى إحداث تشوش بين الوضع القانونى لأراضيهم وبين الوضع الاقليمى المتفوق الذى يتمتع به حائزو هذه الأراضى . وفى الوقت المناسب ، تأسس نوع من الاقطاعات لفرسان هذه الهيئات الدينية العسكرية ، وتلك ممارسة سوف تقرر فيها بعد مصير تأسيس بروسيا كدولة مستقلة خاضعة لفرسان التيوتون . وبلغت هذه الممارسة ذروتها فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى كونتية طرابلس، حيث كانت أملاك وممتلكات فرسان القدس يوحنا (الاسبتارية) فى بواكير عام ١١٤٢م تشكل تقريبًا امارة مستقلة. وكذلك هيمن فرسان الاسبتارية على الخدمات الاقطاعية التى يؤديها أفصال الكونتية ، ونالت هذه الهيئة أيضًا حق اقامة العدالة فى البارونية . ويبدو أن فرسان الهيئات الدينية العسكرية الأخرى قد اكتسبت وضعًا مشابهًا لم تنله فى أى مكان آخر، حيث ضمت أملاكهم مناطق واسعة جديدة. وهكذا ، وعلى سبيل المثال، وجد فرسان التيوتون حول اقطاعات قلعة الملك (المعلية Milyah) ومونتفرت (قلعة قورين Qurein) فى الجليل وكانت هذه الاقطاعات تزيد عن خمس عشرة قرية (وذلك فى الفترة ما بين أعوام ١٢١٨ و١٢٢٠م) . بيد أنه لم يتضح ما إذا كان فرسان التيوتون قد مارسوا حق الفصل فى القضايا الاقطاعية ، وممارسة حقوق السيادة الاقطاعية القانونية. وثمة حالة أخرى وهى أن اقطاع أرسوف كان من أملاك هيئة الاسبتارية (فى عام ١٢٦١م) . وهنا يبدو أن فرسان هيئة الاسبتارية قد تمتعوا بالحقوق التى يتمتع بها صاحب أرسوف، ولفترة قصيرة جداً أصبحوا من كبار السادة الاقطاعيين التابعين مباشرة للملك الصليبى .

ويبدو أن تتبع ثروات مختلف الامارات الاقطاعية فى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى أمر

غير ذى جدوى . فقد حاولت الحملات الصليبية الكبرى التى شنها الصليبيون فى هذا القرن أن تعيد الحياة مرة ثانية فى أوصال المملكة الصليبية وتنعشها بعد كارثة حطين التى حلت بها. وحقيقة الأمر أن هذه الحملات لم يكتب لها النجاح فى تحقيق هذا سوى ترسيخ وتوطيد الوجود الصليبى فى شريط ساحلى ضيق على البحر المتوسط. ويقينًا فإنه فى عام ١٢٤٠م (فى أثناء الحملة الصليبية التى قادها ريتشارد من كورنول) ، نجحت المملكة الصليبية فى إحداث الوقيعة بين القاهرة ودمشق مما أدى إلى حصول المملكة على أجزاء كبيرة من منطقة القدس وكذلك فى الجليل . وكان استيلاء الصليبيين على هذه المناطق قصير الأمد، إذ أن منطقة السيادة الصليبية فى بيت المقدس (فى الفترة من عام ١٢٢٩-١٢٤٤م) قد تقلصت وأصابها الضعف والذبول وانحصرت هذه المناطق الصليبية فى شريط ساحلى ضيق بعد جيل من التاريخ السابق. وفى الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادى كان هذا الجزء من المملكة الصليبية قلما كان يخضع للسيطرة الصليبية الحقيقية.

وكانت النتيجة غير المباشرة لتنامى سلطة النبلاء ، والتى سنناقشها فى سياق آخر، يمكن الشعور بها من خلال الوضع العام اللامارات الاقطاعية الصليبية داخل المملكة. وإذا ما قارنا هذه الأوضاع فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى وفى نهاية هذا القرن لتبين لنا أن ثمة تغييرات مهمة قد ظهرت. وعلى سبيل المثال، فإنه من الجدير بالملاحظة أن الملك الصليبى فى أواخر عام ١١٢٠م (وهو الوقت الذى انعقد فيه مؤتمر نابلس الصليبى) كانت لديه قوة كافيه للحفاظ على حقوقه فى الاشتراك فى اقامة العدالة فى المحاكم الاقطاعية ، وخلال الأجيال الصليبية الثلاثة الأخيرة ، تعرض هذا الاجراء المتمثل فى تدخل الملك الصليبى فى القضاء الاقطاعى للانتقاد بقسوة وأصبح اجراء غير قانونى . وحرم الملك الصليبى من ممارسة حقه فى المشاركة فى القضاء الاقطاعى المحلى ، ولم يعد للأمر الملكى فعالية فى القضاء الاقطاعى المحلى. وكان ذلك بمثابة خطوة مهمة على الطريق تفسح المجال أمام الامارات الاقطاعية للاستقلال الذاتى.

وثمة تطور آخر كان يسير فى نفس الاتجاه، فقد عقد حكام مملكة بيت المقدس الصليبية المعاهدات مع أبناء الكوميونات التجارية الايطالية ، تلك المعاهدات التى منحتهم الامتيازات المالية والقضائية. وكانت هذه الامتيازات نتيجة وجودهم فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، وهذا يعنى أن الامتيازات التى كانت فى العادة تمنح لأبناء الكوميونات التجارية الايطالية قد

عادت عليهم بالأرباح الوفيرة فى المدن التى يحتلها الصليبيون، وهكذا، فإن الأقاليم المحتلة عندما تم منحها فى صورة اقطاعات للنبلاء الصليبيين كانت مثقلة بعبء رهن الامتيازات للكوميونات الايطالية. وعندما حان الوقت المناسب تغير الوضع. فلم يعد الملوك الصليبيون يمنحون الامتيازات للكوميونات التجارية الايطالية ولم يعقدوا المعاهدات معهم، وأصبح كبار السادة الاقطاعيين وسادة المدن يقومون بمنح هذه الامتيازات وعقد المعاهدات مع أبناء الكوميونات أى حل كبار السادة الاقطاعيين محل الملوك الصليبيين فى هذا الخصوص. وهذا التغير حدث تقريبًا فى الفترة التى أعقبت هزيمة حطين ، ومما يذكر أن استرداد الملك الصليبى لسلطته فى القرن الثالث عشر الميلادى لم يستطع وضع حد لهذا النوع من اغتصاب السلطة، والذى أصبح مألوفًا واستمر حتى سقوط المملكة الصليبية نهائيًا فى عام ١٢٩١م . وقد ساهم هذا فى تعزيز النزعة الفردية الاستقلالية للبارونات الصليبين، والذين أصبحوا الآن يمنحون الامتيازات ويعقدون المعاهدات مع القوى الأجنبية كما لو كانوا حكامًا مستقلين* .

وثمة دليل آخر يشير إلى تنامى النزعة الاستقلالية فى الامارات الصليبية ألا وهو ظهور دور ضرب العملات والمسكوكات البارونية. فقد كان القانون الملكى الذى ينسب إلى بلدوين الثانى، أو ربما ينسب إلى بلدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٢م) ما يزال يقرر ويؤكد أن حق سك العملات والنقود وانشاء دور الضرب يعد امتيازاً واحتكاراً ملكيًا. وكانت عقوبة خرق هذا القانون مصادرة اقطاع الفصل. وعلى الرغم من ذلك، أظهرت الحفائر الأثرية وكشفت عن وجود دور ضرب العملات والمسكوكات البارونية . وحتى الرسائل والكتب القانونية التى دونها نبلاء المملكة الصليبية والتى ذكرت وسردت امتيازات هؤلاء النبلاء بعناية وحرص ، لم تشر إلى تغير فى القانون الخاص بالاحتكار الملكى الخاص بانشاء دور ضرب العملات والمسكوكات. وببساطة استطاع البارونات الصليبيون اغتصاب هذا الامتياز الملكى . ولاشك أن مثل هذا الاغتصاب قد حقق مكاسب للبارونات ، بيد أنه لايجب أن نبالغ فى الأهمية المادية لاغتصاب البارونات حق سك العملات وامتلاك دور الضرب . فقد اعتادت التجارة العالمية الواسعة استخدام وتداول العملات الصليبية الذهبية التى كانت تضرب فى دور الضرب

---

* فى عام ١٢٢١م منح جان الابلينى سيد بيروت امتيازات للبنادقة فى مدينته وكان الجنوية يتمتعون بنفس هذه الامتيازات فى بيروت . (المؤلف) .

الملكية، وكان تداول النقود المحلية يشمل مختلف النقود الملكية الصليبية والاسلامية، وانحصر استخدام وتداول النقود البارونية فى مناطق صغيرة، ولم تستطع هذه السياسة البارونية تحقيق مكاسب وأرباح كبيرة. ويبدو أن سك العملات البارونية كان من قبيل اعلان البارون استقلال بارونيته. وعلى المستوى المحلى، فإن تقلص السلطة الملكية فى مجال القضاء وخرق القانون الملكى الخاص باحتكار تملك دور ضرب سك العملات يبرز لنا بوضوح بزوغ نزعة الاستقلال الذاتى للبارونيات الصليبية. وهذا يقدم لنا صورة مثيرة لتغير ميزان القوى بين الملك الصليبى والنبلاء على المستوى الدستورى والتشريعى.

ب- أسلوب عمل الحكومة المحلية

كانت الامارة الاقطاعية فى المملكة الصليبية، وكما كانت فى كل الأقطار الأوربية الاقطاعية فى العصور الوسطى، بمثابة الوحدة الأساسية للنظام السياسى والاجتماعى. وعلى أى حال ، فإن الاقطاعة Fief فى المناطق الأوربية الاقطاعية ، حتى ولو كانت صغيرة ، قد لعبت دوراً متوازنًا فى التماسك الاجتماعى .

وإذا كانت الامارة الاقطاعية الصغيرة تضم أولاً وفى المقام الأول مجموعة الأفصال ، فإن مجتمع القرية الأوربية كان يجد تماسكه الاجتماعى فى الضيعة وفى كلتا الحالتين، أى فى الامارة الاقطاعية الصغيرة وأيضا فى الضيعة، كان يوجد نمط من الجماعية الذى يتعلق بنفس النمط الثقافى ونفس النمط الدينى. وقلما كانت العناصر الغريبة غير المتجانسة تتعارض مع البنية المتماسكة لهذه الكيانات الاجتماعية.

وتمثل المملكة اللاتينية من الناحية السياسية، أكثر من الناحية الاجتماعية بنية مجتمع مختلف عن المجتمعات الأوربية. فلم تكن الامارة الاقطاعية الصغيرة Lordship تشمل فقط مجموعة الأفصال، بل كانت أيضا تشمل مجموعة غزاة ، يختلفون فى اللغة والثقافة والدين عن أبناء المناطق العربية التى خضعت لسيطرتهم . وعلى مستوى الضيعة، لم يوجد هناك تقريبًا اتصال بين صاحب الأرض وفلاحيه، وذلك لأن البناء الاجتماعى فى الضيعة الصليبية لم يكن يتطلب اتصال الفلاحين بصاحب الأرض، ولاحتى اندماجهم سويًا فى مجتمع واحد.

وكان الغرض من وجود الامارة الاقطاعية الصغيرة Lordship هو بسط سيطرتها على رعاياها ، مثلما كانت الضيعة تكفل الحماية الطبيعية للفرنجة . وكان كل من الامارة

الاقطاعية الصغيرة والضيعة بمثابة أدوات أساسية للآلية الحكومية الاستعمارية من أجل حكم الأرض المحتلة وبسط السيطرة الصليبية على السكان الغرباء فى هذه المناطق المحتلة.

ومما يلاحظ أن الصليبيين كانوا يفتقرون إلى الخبرة الادارية فى الفترة الباكرة (وأعنى فترة الخبرة الادارية فى القرن الحادى عشر الميلادى) وهى الخبرة التى كانت تساعدهم فى القيام بهذه المهمة أو ترشدهم إلى تأسيس هيكل المؤسسة الادارية الصليبية الخاصة بهم. لقد شهدت المناطق الأوربية المسيحية بسكانها المتجانسين الكثير من الحروب وحالات الغزو. وربما كان كان نورمان صقلية فقط لديهم بعض هذه المشكلة المتعلقة بالتورط فى الحروب المحلية الأوربية، ومن المحتمل أن الأسبان كانوا يشاركونهم هموم هذه المشكلة، بيد أن النورمان لم يسبقوا غيرهم فى السير صوب مدينة بيت المقدس ابان الحملة الصليبية الأولى (على الرغم من أن النورمان كانوا يسرعون الخطى صوب امارة أنطاكية النورمانية) ولم يشارك عدد كبير من الأسبان فى الحملة الصليبية الأولى. وهكذا استطاع الصليبيون خلق نوع جديد من المؤسسة الادارية والتنظيم الادارى. وكان يوجد عدد قليل جداً من القوانين التشريعية لهذه المؤسسة الادارية، ولم تزد هذه الموسسة عن كونها عملية تجريبية استمرت حتى وصلت إلى نظام متسق ثابت ومتقن . وثمة أشياء ثلاثة رئيسة كان يسترشد بها الصليبيون ، وكانت هذه الأشياء تعكس النزعة الاستعمارية لهؤلاء الغزاة. وكان أول هذه الأشياء هو العزلة المطلقة بين الغزاة الصليبيين وبين السكان المحليين المقهورين، والأمر الثانى هو اعادة خلق التقاليد والأعراف الأوربية المحلية فى تلك المنطقة العربية الغريبة، على الرغم من أن هذه المنطقة التى احتلها الصليبيون قد قدمت الكثير من مختلف الامكانيات الجديدة، وثالث هذه الأشياء هو تكيف الصليبيين مع المؤسسات المحلية مع عدم التدخل من جانب الغزاة .

لقد كان السيد الاقطاعى وأفصاله وبرجوازيته يشكلون مجموعة منغلقة من الغزاة. وكان من العسير على غير الافرنجى الالتحاق بهذه المجموعة مهما كانت مواهبه وجدرانه أو مكانته. وكانت المؤسسات السياسية للامارة الاقطاعية الصغيرة تتجسد فى المحكمة الاقطاعية ، والمحكمة البرجوازية، ولم تكن هاتان المحكمتان جزءاً من الآلية الادارية للمملكة وللإمارة الاقطاعية فقط، بل كانتا فى نفس الوقت رمزاً قانونيًا لوضع الطبقة الاجتماعية الحاكمة . والحقيقة أن الطبقة الحاكمة كانت تتمتع بامتياز حق اقامة العدالة فى المحكمة الاقطاعية وكذلك فى المحكمة البرجوازية. وكان هذا المعتقد قويًا لدرجة أنه تغلب على المفاهيم القديمة،

مثل الوضع المهين والمتدنى لبعض المهن والحرف . وعلى سبيل المثال ، فإن الفرنجى الذى كان فلاحًا لايعتبر فلاحًا ولاينتمى إلى طبقة الفلاحين ، بل كان يعتبر برجوازيًا ، وكان الفرنجة يعتبرون الرجل الحر الذى ليس من أصل أوربى أدنى درجة فى السلم الاجتماعى.

وكان قيام الصليبيين بتطبيق النظم المؤسسات الوطنية الأوربية ونقلها إلى المناطق الصليبية فى بلاد الشام أمراً جديراً بالملاحظة وسمة مميزة لهذا المجتمع الاستيطانى الصليبى. وإذا كان الإطار الاقتصادى للمملكة الصليبية قد ساعد الصليبيين على نقل تلك المؤسسات الوطنية الأوربية إلى المنطقة العربية فلماذا لم تتحول هذه المملكة الصليبية إلى دولة بيروقراطية، أو على الأقل إلى دولة تستخدم موظفين يتقاضون مرتبات وكذلك تستخدم جنوداً يتقاضون أجوراً أيضًا (مثلما حدث فى أوربا فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى). واستمرت المملكة الصليبية فى ممارسة الأعراف والتقاليد التى جاء بها الصليبيون من أوربا ولاسيما الأعراف والقوانين التى كانت سائدة فى فرنسا والتى كانت لها التفوق والرجحان فى مجال التطبيق فى ربوع المملكة الصليبية. وعلى سبيل المثال، كان التنظيم الاقطاعى ، باعتباره نظام حكم وادارة- والذى كان يشمل كبار موظفى التاج الملكى مروراً بكبار السادة الاقطاعيين والأفصال، وكذلك المحكمة البرجوازية كمحكمة للامارة الاقطاعية الصغيرة (وليست محكمة المدينة) ، وحتى نظام الصنيعة- كان كل هذا نسخة وتقليداً للتنظيم الاقطاعى الفرنسى السائد فى القرن الحادى عشر الميلادى. والشيء الذى يوضح ذلك بشكل أفضل هو أن الفارس المأجور كان يطالب براتبه وعرف هذا الراتب باسم اقطاع الأجر Fief de Soudée وكانت هناك ثمة اختلافات عن النظام الاقطاعى المألوف والسائد فى أوربا، وتمثل هذا الاختلاف فى المركز القوى للملك الصليبى ، ونظام الصنيعة بدون وجود مالك مباشر للأرض ، وحدثت هذه التغييرات بسبب الظروف الخاصة بالمنطقة العربية.

وخارج نطاق المهام الدقيقة للمؤسسات الصليبية كان يقع على عاتقها مهمة حكم المناطق المحتلة وضمان حماية الغزاة الصليبيين. لقد أعقب الغزو الصليبى مقاومة إسلامية ضعيفة. ومن ناحية الأعراف والتقاليد يمكن القول أنه لم يستحدث شيء جديد. إذ أن السكان المحليين قد هجروا أقاليمهم بارادتهم فراراً من همجية الزحف الصليبى الكاسح . واستمرت المحاكم المعروفة التى وجدت فى الاقاليم والمناطق الإسلامية التى خضعت للصليبيين تؤدى وظيفتها باعتبارها مؤسسات قانونية رئيسة. وتدخل الصليبيون فقط فى احداث اتصالات بين الغزاة والسكان المحليين. فقد كانت "القضايا المختلطة والتى طرفاها من الفرنجة ومن السكان

الوطنيين تنظر أمام محكمة مختلطة ، حيث كان يحضر الشهود من أنصاره لتبرئة ساحته من التهمة الموجهة إليه. ويمكن تفسير دقة عمل وانضباط هذه المؤسسات القانونية فى ضوء حقيقة أن الجرائم الجنائية التى كانت عقوبتها القتل أو قطع الأعضاء ، وكذلك القضايا المدنية التى يزيد قيمتها عن مبلغ محدد من المال (أكثر من مارك فضى واحد) كانت هذه القضايا تنظر أمام محكمة صليبية. وبالنسبة لباقى القضايا، فان السكان المحليين كانوا بمعزل عن العالم، وكانوا ذا أهمية لأنهم كانوا يمثلون القوة الانتاجية التى تعود على الصليبيين بالأرباح والكسب، بيد أن هؤلاء السكان المحليين كانوا دائما موضع شك لدى السلطات الصليبية لأنهم كانوا مثار تهديد ممكن ومحتمل.

ولم يكن النمو العضوى للمؤسسات السياسية الصليبية المختلفة والمتعددة ينتمى إلى قطر واحد، بل كانت هذه المؤسسات تتألف من أجزاء تختلف فى أصولها ، وترجع إلى الماضى، وقد انصهرت هذه الأجزاء فى شكل هيكل سياسى واحد وذلك وفقا لظروف الغزو والحاجة الملحة التى تطلبتها الظروف الجديدة للصليبيين. وأثبتت التجربة أن هذه الآلية الحكومية الادارية قد مارست عملها بشكل سلس وتواءمت جيداً مع المهام المنوطة بها. بيد أن النازحين الصليبيين الجدد إلى المملكة الصليبية كانوا يفتقرون إلى الكفاءة الادارية، حيث أنهم انكبوا على تحقيق المصلحة الذاتية المباشرة دون اعتبار لمصلحة المملكة الصليبية الواسعة.

لقد كان معدل حجم الامارة الاقطاعية الصليبية متوسطًا أو صغيراً تقريبًا إذ كان معدل مساحة الامارة حوالى ٥٠كم٢ . وكانت امارة الجليل استثناءً حيث أن امارة ما وراء نهر الأردن الكبيرة وكونتية يافا وعسقلان قد قسمت إلى اقطاعات صغيرة (وليس بالضرورة تقسيمها إلى اقطاعات ثانوية) تلك الاقطاعات التى ظهرت فى شكل وحدات ادارية مستقلة. وكان الحجم الصغير للإمارة الاقطاعية الصليبية فى بلاد الشام يساعد الصليبيين فى الادارة والحكم على الرغم من قصر المدة التى قضوها فى المنطقة. وعلى المستوى المحلى كانت الادارة الملكية وادارة النبلاء فى الامارات الصغيرة متشابهة وأكثر تماثلاً وتطابقًا. ويمكن أن نعزو هذا جزئيا إلى أن بعض الاقطاعات كانت ملكية قبل أن تمنح للنبلاء فى شكل اقطاعات، وأيضا إلى تقليد امارات النبلاء للنموذج الادارى الملكى.

ويقينًا أن الأغلبية الساحقة من الامارات الصليبية المهمة كانت لها عاصمتها والضواحى الحضرية المحصنة، إذ كانت القلعة الاقطاعية بمثابة مركز الاقطاع ومقر السيد الاقطاعى فى

الامارات الصغيرة أو فى مناطق الحدود. وفى مثل هذه الحالات كانت القلعة تعتبر أكبر من حصن وفى الغالب كانت مقراً لاقامة السيد الاقطاعى ومركزا لاداراته الحكومية. وكانت هذه السمة فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى تشكل ذلك الاختلاف المهم بين التنظيم الاقطاعى الأوربى والتنظيم الاقطاعى فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس . فقد كانت الظروف المحلية فى الأراضى المقدسة فى بلاد الشام، ووجود المدن وأعرافها المحلية تؤثر فى مؤسسة الدولة ونظامها ، وفرضت عليها بنية الامارات الاقطاعية الصليبية.

وكان عدم التجانس بين الأنماط السكانية الثلاثة ، فى القرية وفى المدينة والقلعة يتطلب مهام مختلفة وصعبة تقوم بها الادارة البارونية ومرة ثانية، فإن ظروف المنطقة العربية قبل وبعد الغزو الصليبى قد خلفت وضعًا وإن لم يكن غير معروف ، ولاشك فى أنه كان وضعًا غير مألوف فى أوربا. فلم تكن هناك علاقة مباشرة بين مكان السكنى (قرية مدينة- قلعة) وبين المستوى الاجتماعى القانونى لسكان هذه الأماكن . وكان يخضع لادارة العواصم الحضرية كل من النبلاء الفرنجة ، والفرسان، والبرجوازية ، وأيضا سكان المدينة من غير الفرنجة . وكانت المناطق الريفية يقطنها الفلاحون المسلمون والفلاحون المسيحيين الشرقيين. وفى نفس الوقت استقر الفرنجة فى بعض القرى وتمتعوا بالوضع والامتياز الذى كان يتمتع به البرجوازية.

كانت محكمة السيد الاقطاعى الأداة الادارية الرئيسة ، وكانت تشبه تمامًا المحكمة العليا الملكية. وكانت محكمة السيد الاقطاعى يتألف أعضاؤها من أفصال هذا السيد. وهذا يعنى أن كل الحائزين الاقطاعيين سواء كانوا يحوزون اقطاعات من الأرض الزراعية أو اقطاعات نقدية أو سواء كانوا يجمعون بين النوعين من الاقطاعات ، كانوا يمتلكون محاكم اقطاعية *. وكانت الامارات الصليبية الصغيرة تلتزم بتقديم خدمة عسكرية للملك الصليبى، فكانت امارة

---

* وعلى سبيل المثال فإن أفصال مقاطعة أرسوف الصليبية فى عام ١٢٦١، كانوا عبارة عن ٦ من الفرسان و٢١ من المحاربين السرجندارية (المشاة أو الراكبة) . وكان هناك فصل واحد فقط يمتلك اقطاعًا من الأرض الزراعية. وباقى الأفصال الآخرين يمتلكون اقطاعات نقدية أو عينية من انتاج الأرض الزراعية. وكانت الأعباء والالتزامات الاقطاعية المستحقة على الامارة عبارة عن ٢٤٤٨ بيزنت ، ١٣٧ مكيال من القمح ، ١٤٥ مكيال من الشعير، ٢٢ مكيال من الخضروات . (المؤلف) .

الجليل، وامارة يافا وعسقلان، وامارة صيدا تقدم خدمة عسكرية تتراوح من سبعين إلى ثمانين فارسًا، وكان باقى الامارات الصليبية الصغيرة التابعة للملك الصليبى تقدم خدمة عسكرية تتراوح من ٥ إلى ٧ فرسان أو أقل من هذا العدد. ويصبح اجتماع المحكمة اجتماعًا قانونيًا إذا حضر ثلاثة من أعضائها . ولم يكن هذا مبدأ قانونيًا دقيقًا وواقع الأمر أن السيد الاقطاعى الأعلى كان ملزمًا تزويد المحكمة عند الانعقاد بعدد من الأعضاء حتى يكتمل النصاب القانونى لعدد الأعضاء لحضور فى هذا الاجتماع. وقد أحصى لنا المشرع الصليبى الشهير جان الابلينى Jean d'Ibelin عدد اثنين وعشرين محكمة اقطاعية للامارات الصليبية الصغيرة أو المقاطعات.

وقامت بعض الامارات الصليبية - بسبب حجمها الكبير- بانشاء وظائف عليا، تماثل تلك الوظائف التى كانت توجد فى المحكمة العليا الملكية. وفى أصغر الامارات الاقطاعية الصليبية لم يكن هناك مبرر لوجود نمط ادارى معقد، يتمثل فى شكل محكمة، مع أن هذا النمط الادارى الذى تمثله المحكمة كان يقوم به القسيس الخاص بالسيد الاقطاعى، وبالتأكيد كانت هذه الوظيفة الادارية التى يقوم بها قسيس السيد الاقطاعى ذات صفة قانونية . وعلى الرغم من معرفتنا بتفاصيل اختصاصات المحكمة العليا الملكية من خلال ما ذكرته لنا الرسائل القانونية التى دونها المشرعون الصليبيون ، فإن بعض المصادر المتعلقة بالمحاكم الاقطاعية لم تقدم لنا شيئا فى هذا الخصوص . والافتراض البديهى للمشرعين الصليبيين هو أن المحكمة الاقطاعية فى أية امارة اقطاعية صليبية تتماثل فى كل السمات المميزة للمحكمة الملكية العليا للملكة الصليبية، ومع ذلك فإن الحدود والاختلافات المحسوسة بين هذا النوع من المحاكم وبين المحكمة الملكية العليا كانت واضحة ولذا ليس من السهل أن نقبل مثل هذا الافتراض القانونى وذلك لأنه لايزيد عن كونه أكثر من بيان لمبدأ قانونى.

والواقع ، أن ثمة اختلافات جوهرية بين المحكمة الملكية العليا وبين المحاكم الاقطاعية الصغرى ، ويكمن سبب هذه الاختلافات فى أن وضع ومكانة الفارس الذى من صغار الأفصال كان إلى حد ما يشبه وضع أحد كبار السادة الاقطاعيين. ومن ناحية أخرى فإن علاقات السيد الاقطاعى بالبطريرك اللاتينى كانت تُعضِّد نزعات الحكم الفردى المطلق لهذا السيد، وبشكل عام كانت هذه النزعات للحكم الفردى المطلق للسيد الاقطاعى تخترق كل مظاهر التنظيم الاقطاعى وادارته وكانت هذه النزعات أكثر فعالية فى المحاكم الاقطاعية الصغرى عنها فى المحكمة العليا.

ولم نعرف ما إذا كانت هناك مواعيد محددة لعقد جلسات المحكمة العليا. وكانت اجتماعات المحكمة العليا تتزامن مع أيام العطلات الكبيرة التى توافق مواعيد الأعياد المسيحية بيد أن هذا يبدو أمراً مثار شك وريبة . ففى بعض المناسبات ، كان السيد الاقطاعى الأعلى وكبار السادة الاقطاعيين يحضرون جلسات واجتماعات المحكمة الملكية العليا فى مدينة بيت المقدس، من أجل الوفاء بالتزاماتهم الاقطاعية المستحقة عليهم للملك الصليبى، وأيضًا للاشتراك فى الاحتفالات الدينية. ونظراً لصغر حجم مملكة بيت المقدس الصليبية، فإنه ليس هناك مبرر لتقاعس السيد الاقطاعى عن حضور اجتماعات المحكمة العليا الملكية، إذ كان هذا المبرر موجوداً فى أوربا، فقد كان السيد الاقطاعى يمكث فى منطقة نفوذه ، ولديه محكمته الخاصة . وهكذا فإن على المرء أن يفترض بأنه كانت هناك جلسات كثيرة متفرقة للمحكمة الاقطاعية العليا، وفقًا للمتطلبات الملحة والمحددة.

وفى المناسبات الجليلة المقدسة، كانت محكمة السيد الاقطاعى تعقد جلساتها لكى يقدم الأفصال الاعتراف الرسمى للسيد الاقطاعى الجديد. وفى تلك المناسبة كان الأفصال يؤدون يمين الولاء والتبعية الاقطاعية لهذا السيد الجديد. وفى مثل هذه المناسبات أيضًا كان على البرجوازية الصليبية المقيمين فى كافة المدن الصليبية الحضور لتقديم يمين الولاء للحاكم الجديد. وهكذا تأسس مجتمع صليبى منظم كما ينبغى ، وظل بقاء هذا المجتمع فى اطار الإمارة الاقطاعية. وفى نفس الوقت ، كانت الجماعة الصليبية الأكثر قربًا هى تلك التى تنشأ من سلسلة النسب الاقطاعى والقرابة الاقطاعية ، والتى تعتمد على الالتحام القوى للسيد الاقطاعى برجاله وأفصاله ، وفقًا لروح العصر الاقطاعى.

كانت محكمة السيد الاقطاعى من الناحية النظرية على الأقل مكانًا لاجتماع أفصاله الذين يطرحون آراءهم فى المسائل المتعلقة بزواج احدى بنات السيد الاقطاعى أو أقاربه . بيد أننا نشك كثيرا فى ممارسة مثل هذا الاجراء فى الظروف التى عاشها الصليبيون فى الأراضى الفلسطينية. ومن الطبعى أن مثل هذا الاجراء وممارسته كان يعتمد بدرجة أكبر على شخصية السيد الاقطاعى، وتجدر الإشارة أيضا إلى أن السيد الاقطاعى الذى ينتمى إلى طبقة صغار الأعيان كان يخضع لسيادة الملك الصليبى، حيث كانت المحكمة الملكية تنظر كل هذه المشكلات المتعلقة بزواج أقارب هذه السيد، وقد تحددت بعض هذه الالتزامات والواجبات من

بنية التنظيم الاقطاعى ، والتى كانت تعرف باسم التزام الحضور إلى محكمة السيد عند الاستدعاء ، وكان على الأفصال تأدية هذا الالتزام والحضور إلى محكمة السيد الاقطاعى وذلك عندما تنعقد المحكمة العليا لكى تقضى بالتعبئة العامة وقت الحرب، أو لكى تقرر فرض ضريبة جديدة، أو عندما يقع السيد الاقطاعى فى الأسر، وهنا كان على أفصاله الالتزام بجمع الفدية اللازمة لفك أسر سيدهم.

وكانت مثل هذه المشكلات الخطيرة التى تنعقد من أجلها المحكمة العليا استثناءً . وفى العادة كانت المحكمة تنظر الأمور المملة، والتى كان يعتبرها المعاصرون من قبيل الاثارة والاستفزاز، وكانت ممارسة الأعمال التجارية الكبرى الرئيسة تخضع للقانون المقدس الذى كان يرى أية مسألة تتعلق بالأملاك الاقطاعية أو بالعلاقات بين السيد الاقطاعى وأفصاله يجب أن تنظر أمام محكمة السيد الاقطاعى فقط. وهكذا فإن أية منحة اقطاعية من أى نوع يقدمها السيد الاقطاعى كانت تمنح لصاحبها وتدون هذه المنحة فى سجلات المحكمة . وكان على متلقى هذه المنحة أن يؤدى أمام المحكمة يمين الولاء والتبعية الاقطاعية للسيد الاقطاعى المانح، وعندئذ كان على السيد أن يصدق على هذه المنحة بتوقيعه ، ويشهد بعض أعضاء المحكمة على هذه المنحة بتوقيعاتهم. وفى بعض المناسبات الأخرى ، كانت المحكمة تدعو إلى عقد اجتماع من أجل النظر فى الدعاوى القضائية التى يرفعها أحد أبناء الفصل الاقطاعى المتوفى أو أحد أقاربه المباشرين بشأن وراثة اقطاع هذا الفصل، وكان السيد يقلد الاقطاع لهذا الابن فى حضور أعضاء المحكمة.

لقد كانت محكمة الامارة الاقطاعية بمثابة مكتب للتسجيل ، وساحة لاقامة العدالة، كما كانت أيضًا تشهد كل عمليات نقل الأملاك الاقطاعية داخل حدود هذه الامارة الاقطاعية ، وكانت كل أنماط التنازل عن الملكية للغير، سواء بالبيع، أو بالرهن ، أو بالتقسيم، أو بالتبادل، تحتاج جميعًا إلى عقد انعقاد المحكمة لكى تصبح كل هذه العمليات جميعًا قانونية ونافذة المفعول ، وذلك لأن موافقة السيد الاقطاعى وتصديقه على صحة هذه العمليات كانت أمراً مهمًا ومطلوبًا . وفى مثل هذا المناسبة كانت موافقة السيد وتسجيل هذه الحالات فى سجل المحكمة أمراً مهما أيضا ، وكان كلا الطرفان المتنازعان حريصًا ومهتما على أن تكون موافقة أعضاء المحكمة علانية. ولم يوجد فى المحاكم الاقطاعية مسجلو محاضر الجلسات ، وحتى المحكمة العليا لم يكن لها مسجل لمحاضر الجلسات حتى منتصف القرن الثالث عشر

الميـــلادى* ، وحتى هذه الفترة يمكننا الشك فى أن محاكم الامارة الاقطاعية كانت تضم بين صفوف موظفيها مسجلى محاضر الجلسات ، فقد كانت شهادة الشهود هى أفضل ضمان لما تحتويه محاضر الجلسات من صفقات تجارية. وكانت سجلات الأملاك الزراعية تحفظ فى كتب فى أرشيف الخزانة الملكية، والتى كانت تعرف باسم السكرتارية Secréte . وقد عرفنا أن كل امارة كانت لديها سكرتارية لحفظ وثائقها الخاصة، وكان يتم مراجعة هذه الوثائق عند الفصل فى المنازعات .

وكانت مثل هذه المحكمة الاقطاعية تفصل فى الكثير من القضايا المدنية والجنائية. ولم يكن معمولا فى هذه المحاكم الاقطاعية فى الامارات الصليبية بالقانون والاجراءات القانونية الخاصة بالمملكة الصليبية، بل كان لهذه المحاكم قانونها الخاص بها. وكانت الأحكام القضائية التى تصدرها المحكمة الاقطاعية فى الامارة الصليبية بخصوص القضايا المدنية والجنائية نهائية، ولايمكن استئنافها أمام أية محكمة أخرى فى المملكة . ففى حالة القضية الخاصة باتهام الفصل لسيده بأنه ارتكب فعلاً غير شرعى أو أنه خرق قانون العلاقة الاقطاعية ، فإن هذه القضية لايمكن أن تنظر أمام محكمة السيد الاقطاعى المتهم. وعندئذ كان يحق للفصل فى الحالة الأولى رفع اتهامه لسيده أمام المحكمة العليا وذلك ووفقًا لقانون التبعية الاقطاعية الذى سنه الملك عمورى ، وكان أقران هذا الفصل يحضرون للفصل فى هذا النزاع القائم بين الفصل وسيده. وفى الحالة الثانية الخاصة يخرق القانون الاقطاعى من جانب السيد الاقطاعى يستطيع الفصل أن يرفع دعواه أمام محكمة السيد الاقطاعى الأعلى لسيده لكى تفصل فى هذا النزاع. بيد أن ثمة حالة واحدة فقط يستطيع الفصل خلالها استئناف الحكم، وهى إذا وجه اتهاما مباشرا ضد قضاة المحكمة يفيد تحيزهم لصالح خصمه عن عمد، وكان مثل هذا الاتهام يفتح طريقًا واسعًا أمام اجراء الدفاع القانونية وبشكل فردى، وكان كل عضو من أعضاء المحكمة يجلس على منصة القضاء .

---

* الواقع أن ظهور وظيفة مسجلى محاضر جلسات المحكمة العليا والمحكمة البرجوازية فى عكا جاء على أثر مبادرة من جان الابلينى سيد أرسوف فى فبراير عام ١٢٥٠م، وذلك فى احدى الجلسات العامة للمحكمتين العليا والبرجوازية . (المؤلف) .

وكان ابرام الصفقات التجارية يتم أيضا داخل جنبات المحكمة. إذ كانت المحكمة تعين موظفين للقيام بهذه المهمة مثل وظيفة الكتبة Scribanagiam والترجمان والمشرف على السلع التجارية drugemanagiun (وفى العادة كان هؤلاء الموظفون يحوزون اقطاعات) ، وثمة حقيقة لايرقى إليها الشك وهى أن الامارة الصليبية أو المقاطعة كانت تضم عدداً من الموظفين الآخرين، سواء كانوا اقطاعيين أو غير اقطاعيين.

وهكذا كانت المحكمة الاقطاعية فى الامارة الصليبية مؤسسة قضائية وإدارية عليا لهذه الوحدة الاقليمية الأساسية. فقد كانت هذه المحكمة تنظر كل الأمور المهمة للامارة ، وكل مشكلات الحياة اليومية للسكان الفرنجة من الفرسان . وكان الوضع الاجتماعى للمحكمة الاقطاعية لايسمح لها بالتعامل مع اتمام وانجاز حجم كبير من الأعمال التجارية. وإلى جانب عدد قليل من العائلات الفرنجية النبيلة، كان يوجد آلاف من البرجوازية الفرنجية تعيش فى المدن وضواحيها التابعة لهذه الامارات الصليبية.

وكانت المحكمة البرجوازية تنظر فى الأمور الادارية والقضايا المتعلقة بطبقة البرجوازية الفرنجية (وهى المحكمة التى ربما يرجع تأسيسها إلى السنوات الأولى من النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى). وعرفت هذه المحكمة باسم المحكمة الصغرى. ومن الواضح أن هذا الاسم كان متداولاً فى مدينة ملكية، وهى مدينة عكا ، وهى تماثل المحكمة العليا للنبلاء (ولم تعرف محكمة الامارة الاقطاعية باسم المحكمة العليا) . وكانت اختصاصات المحكمة البرجوازية تتعلق بالنظر فى أمور البرجوازيتين القاطنين فى المدن وفى ضواحيها. وهكذا وجدت المحكمة البرجوازية فى كل مدينة أو ضاحية يقطنها سكان فرنجة من البرجوازيين. ولم يكن هناك روابط أو صلات بين هذه المحاكم البرجوازيين ، ويمكن القول أن المحكمة البرجوازية ، لم تعرف الهيراركية القانونية . ويشير المشرعون الصليبيون إلى أن طريقة المحاكمة التى ظهرت وسجلت فى احدى المحاكم البرجوازية لايمكن قبولها (أو على الأقل لم تكن شيئًا ضروريًا) لدى محكمة برجوازية أخرى، حتى ولو كانت هذه المحكمة فى نفس الامارة الصليبية. وبينما كانت المحكمة الاقطاعية بؤرة لنشاط السكان الفرنجة من الفرسان القاطنين فى الامارة ، فإن مثل هذه المؤسسة المركزية المتمثلة فى المحكمة الاقطاعية لم توجد لدى البرجوازية. وكان اختصاص محاكم البرجوازية الفردية النظر فى القضايا والمنازعات التى تنشب بين السكان البرجوازية القاطنين فى احدى مدن أو مناطق الامارة. لقد كانت المحكمة البرجوازية تمارس مهام حكومية

على المستوى المحلى وحق الفصل فى القضايا الناشئة بين أفراد طبقة محددة قانونا وممتلكاتها الخاصة بها.

وقد ذكر لنا المشرع الصليبى الشهير جان الابلينى Jean d'Ibelin قائمة باثنين وعشرين امارة اقطاعية فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى وكانت هذه الامارات تضم ثمانية وثلاثين محكمة برجوازية. بيد أن العدد الحقيقى لهذه المحاكم كان أكثر من ذلك. وتشير بعض الوثائق التاريخية المعاصرة إلى وجود عدد من المحاكم البرجوازية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام يصل إلى اثنين وأربعين محكمة وربما كان أكثر من هذا العدد*. وبالاضافة إلى ذلك، لم يشر حنا الابلينى إلى وجود محاكم برجوازية فى القرى التى يقطنها الصليبيون . ومن الصعب التأكد من عدد الأماكن والمستوطنات التى كان يسكنها البرجوازية . بيد أننا نعرف على الأقل أسماء اثنتى عشرة مستوطنة لاقامة هؤلاء البرجوازية. ومن الناحية القانونية يمكن القول، إن محاكم القرية ربما كانت تشبه محاكم الضيعة. إذ كانت تؤدى نفس المهام التى كانت تؤديها محاكم الضيعة فى أوربا ، فقد كان لرئيس القرية الحق فى اقامة العدالة بين أهالى القرية وكان رئيس القرية فصلاً تابعًا للسيد الاقطاعى أو تابعا لمؤسسة دينية ، ولم تكن السلطة القضائية بالضرورة بيد السيد الاقطاعى . وحقيقة الأمر، أنه يمكن أن نبرهن على هذا من خلال أمثلة عديدة . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه يصعب تصنيف مثل هذه المحكمة (محكمة القرية)، على أنها محكمة ضيعة. فقد كان قضاة هذه المحكمة ورعاياها من البرجوازية الفرنجة، وكان القانون العرفى الذى طبقته هذه المحكمة هو نفس قانون مدن المملكة الصليبية ويمكن أن نقول ، إنه فى هذه الحالة كان المستوطن الفرنجى يتمتع بنفس الامتيازات التى يتمتع بها أفراد الطبقة البرجوازية التى تعيش فى المراكز الحضرية على الرغم من أن هذا المستوطن الفرنجى كان يعيش خارج أسوار المدن.

---

* والقائمة التى دونها جان الابلينى بخصوص احصاء عدد المحاكم البرجوازية تضم مناطق عديدة هى: مدينة القدس، ونابلس، وعكا ، والداروم، ويافا، وعسقلان، ورام الله، وابلين، وطبرية ، وصفد ، وصيدا، وبيوفورت، قلعة شقيف ، قيسارية، بيسان ، مونتريال، والكرك، وحبرون ، بيت لحم، بين جبرين، واللد، وغزة وسبسطية ، وميرل ، وأريحا ، وعثليت ، وحيفا وكيمونت Cymont، والناصرة ، وقلعة الملك، والاسكندرونة، وصور ، وتورون، بانياس ، وسوبيت ، وبيروت، وقلعة أرناط (المؤلف).

كانت المحكمة البرجوازية تتألف من اثنى عشر عضوا بالإضافة إلى رئيسها ، وكان السيد الاقطاعى للمدينة يقوم بتعيين كل هؤلاء. وكان رئيس المحكمة البرجوازية يحمل لقب «فيكونت» Viscount . ولم تكن هذه الوظيفة وراثية، وظل الفيكونت موظفًا يتقاضى راتبه من سيد المدينة، وفى العادة كان رئيس هذه المحكمة من بين طبقة الفرسان فى الامارة، وتصل فترة رئاسته إلى عدة سنوات وبتعبير أوضح فإن هذا يعطينا فكرة عن مهمة الفيكونت إذ كان بمثابة حاكم للمدينة. إذ كان الفيكونت يمثل السيد فى كل تعاملاته وعلاقاته مع كل سكان المدينة من غير الفرنجة من غير النبلاء. وكان يرأس الشرطة المحلية ويقود كتيبة وفرقة من الشرطة السرجندارية (المشاة أو الراكية) . ومن المهام المنوط بها أيضًا مهمة ارسال الدوريات الليلية بالتناوب لحفظ الأمن فى الشوارع ، ويساعده فى ذلك موظف يعرف باسم «المحتسب » (أو المشرف على الأسواق) . فقد كان المحتسب مسئولاً عن توفير الأمن لأهل المدينة وحماية ممتلكاتهم. وكان يشرف على الأسواق ، ويراقب الموازين والمكاييل وأسعار السلع والبضائع المتداولة فى السوق. وفى نفس الوقت كان الفيكونت أيضا مسئولاً عن تحصيل العوائد والمتحصلات المستحقة على أهل المدينة للسيد الاقطاعى، سواء كانت ايجارات ، أو ضرائب مبيعات أو عوائد مالية من احتكارات المرافق ، وباعتبار الفيكونت رئيسًا للمحكمة البرجوازية، فإنه كان مسئولاً عن تحصيل الغرامات المالية التى كانت تفرض على المتقاضين وكذلك الالتزامات المالية التى تفرض عليهم أيضا. ولذا كان لدى الفيكونت مجموعة من موظفى المحكمة يقومون بهذه المهمة.

ولما كان الفيكونت حاكما للمدينة، فإنه كان مسئولاً عن حفظ السلام والأمن ونشره فى ربوع المدينة، فكانت مسئوليته الخاصة هى اقرار الأمن بين السكان الفرنجة . بيد أن مهمته الكبرى هى رئاسة جلسات المحكمة البرجوازية ، والاشراف المباشر على أعمال هذه المحكمة، وتنفيذ قرارات المحكمة.

لقد كانت أصول اللقب والمهام المنوط بها الفيكونت الذى كان يمثل أهم شخصية إدارية فى الجهاز الادارى للسيد الاقطاعى مبهمة . فقد عرفت وظيفة الفيكونت فى الغرب الأوربى خلال الفترة الكارولنجية ، حيث كان الفيكونت مسئولا عن جزء من كونتية، وظهرت هذه الوظيفة بشكل غير واضح وعلى استحياء فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى. ومع بداية القرن الثانى عشر الميلادى، انتشرت وظيفة الفيكونت فى كل مكان ، وكانت هذه الوظيفة وراثية،

وقلما كان الفيكونتات يتطلعون إلى ادارة جزء من الكونتية. وعادة كان الفيكونت من كبار السادة وفصلاً مباشراً للأمير الإقليمى أو للملك. وفى اقليم نورماندى فقط (وفى انجلترا خلال فترة الانجلوسكسون كان الشريف يحمل لقبًا جديداً هو لقب الفيكونت) ، وفى الفلاندرز ، نجد آثارا لتلك المؤسسة الادارية الباكرة كانت ما تزال باقية. ومن المنطقى الاعتقاد بأن وظيفة الفيكونت الصليبى كان اقتباسًا لذلك النموذج الأصلى لهذه الوظيفة التى كانت موجودة فى شمال فرنسا ، على الرغم من أن عدد كبيراً من المستوطنين البرجوازيين من الصليبيين وكذلك قوانينهم ونظمهم كانوا ينتمون فى الأصل إلى جنوب فرنسا ، وهذا فى حد ذاته ليس بمستغرب، وخاصة إذا علمنا أن الطبقة الحاكمة من الصليبين والأسرة الحاكمة كانت قد وفدت إلى المنطقة العربية من جنوب فرنسا بصحبة الحملات الصليبية.

كانت المحكمة البرجوازية تتألف من مجموعة من القضاة ، واشتق هؤلاء القضاة اسمهم من القسم الذى كانوا يؤدونه لسيد المدينة فى أثناء تعيينهم. وفى العادة ، كانت هذه المحكمة دائمًا بمثابة محكمة سيد المدينة. ولم تصبح هذه المحكمة أبداً أداة من أدوات الاستقلال الذاتى للمدينة، هذا الاستقلال الذاتى الذى لم تعرفه مدن المملكة الصليبية. ونظرا لأن المحكمة البرجوازية كانت المؤسسة الادارية للمدينة فقط، فإنها فى نفس الوقت كانت تمثل سكان المدينة من الصليبيين أمام السيد. فقد كانت كل الكتب القانونية الصليبية توصى السيد بأن يستشير سكان المدينة عند تعيين الفيكونت . وقد علمنا أيضا أن بعض القوانين المحلية والبلدية كانت تعلن بعد استشارة قضاة المحكمة البرجوازية.

لقد كانت المحكمة البرجوازية التى تتألف من اثنى عشر عضواً تنعقد للقضاء ثلاثة أيام فى الأسبوع – أيام الاثنين ، والأربعاء، والجمعة، باستثناء أيام الأعياد– وكان وقت الاجتماع يمتد من شروق الشمس حتى الغروب، وكانت تنظر كل القضايا المتعلقة بالطبقة البرجوازية وأملاكها فى المدينة . وعمومًا يمكن القول أن أملاك البرجوازية كانت عبارة عن أراض زراعية يحوزها هؤلاء البرجوازيون. وقد أدت بعض الظروف (كحالة الزواج أو التوريث) إلى نقل الأملاك البرجوازية من الأرض الزراعية إلى أيدى النبلاء. وظلت مثل هذه الأراضى الزراعية والأملاك البرجوازية داخل نطاق سلطة المحكمة البرجوازية وليست تحت سلطة المحكمة الاقطاعية للإمارة. وبجانب اختصاصات المحكمة البرجوازية فى نظر كل الدعاوى القضائية المدنية، فإن هذه الاختصاصات امتدت أيضا لتشمل النظر فى القضايا الجنائية الخاصة بكل سكان المدينة من البرجوازية، باستثناء النبلاء من سكان هذه المدينة.

وتمتعت المحكمة البرجوازية فى كل مدينة تتمتع بالاستقلال الذاتى مثل أية محكمة اقطاعية ، وفى بعض النواحى كانت هذه المحكمة أكثر استقلالاً ، وآية ذلك أن قوانين هذه المحكمة البرجوازية تختلف عن قوانين المحكمة العليا المركزية الخاصة بالنبلاء، إذ كانت قرارات وأحكام المحكمة البرجوازية نهائية ولايمكن استئنافها ، باستثناء تهمة التحيز المتعمد فى الحكم لمصلحة أحد المتقاضين من قبل أعضاء المحكمة، وكان هذا الاتهام يلقى ظلالاً من الشك حول نزاهة وعدالة أعضاء المحكمة . وكان هذا الاتهام يكلف المتهم حياته، ما لم يتدخل سيد المدينة ويبدى تسامحه وعفوة ويسوى أمر هذا الاتهام بعد أن يوجه التقريع والتوبيخ القاسى لهيئة المحكمة.

وكان ثمة تقليد دينى مبجل وهو أن جودفرى البويونى ، أول حاكم صليبى للملكة اللاتينية قد أنشأ شعبتين قضائيتين رئيسيتين ، أحداهما خاصة بفرسانه والنبلاء والأخرى لعامة الفرنجة من أتباعه. وكان علينا أن ننتظر مدة جيل كامل ، حتى الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، لكى نتلمس الظهور الشكلى لنمط المحكمة البرجوازية. بيد أن هذا التقليد الذى طبقه الحكام الصليبيون لم يكن يعوق انشاء هذه المحكمة. ويمكن أن نعزو سبب قيام جودفرى البويونى بانشاء محكمة خاصة للبرجوازية فى ضوء حقيقة أن فترة حكم هذا الحاكم الصليبى كانت قصيرة نسبيًا وهى الفترة التى شهدت حروبًا كثيرة بين الصليبيين والمسلمين. ومن المحتمل أن السلطات القضائية الصليبية المختلفة قد شهدت تطورا خلال فترة حكم الملك الصليبى بلدوين الأول، حيث ساهمت الأملاك المكتسبة التى حصل عليها الصليبيون فى المنطقة العربية فى خلق الفوارق الاجتماعية بين النبلاء وغير النبلاء من الغزاة الصليبيين. وكان من طبيعة المجتمع الاقطاعى أن تكون ملكية الأراضى الزراعية فى المناطق والأقطار التى احتلها الصليبيون فى شكل اقطاعات ، وهذا يعنى أن النبلاء هم الذين يحوزون الاقطاعات فى هذه المناطق الصليبية فى بلاد الشام. واتسم وضع هؤلاء النبلاء الصليبين فى المدن المحتلة بالغموض . فقد أصبح الغزاة الصليبيون الذين طردوا السكان المحليين بين عشية وضحاها سادة هذه المناطق وملاكًا لكل المبانى التى تقع داخل أسوار هذه المدن. وكان سيد المدينة صاحب السلطة العليا فى مدينته، ولم يكن من حق أى شخص الادعاء بملكية هذه المدينة ، فلايستطيع أحد أن ينازعه السلطة، ومن المؤكد أن مثل هذا لم يكن محدداً بشكل مباشر . وغالبًا ما كانت المكانة الاجتماعية للشخص تقرر الوضع القانونى لأملاكه ، سواء

كان مالكًا اقطاعيًا أو برجوازيًا. وبمرور الوقت ، أصبح وجود المستأجرين الاقطاعيين فى المدينة واقامتهم بها أمرًا استثنائيًا ، وفى الغالب كانت الاقامة فى المدينة بمثابة امتياز خاص يمنحه السيد الاقطاعى لأحد أفصاله . وأصبح نموذج المستأجر البرجوازى قاعدة فى كل أراضى المدينة. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن التشريع الصليبى الذى حرم البرجوازية من حيازة الاقطاعات قد أدى إلى تكتل معظم أفراد هذه الطبقة من السكان الصليبيين فى أن يمتلكوا أملاكًا برجوازية.

لقد تبلور التصنيف الطبقى وأيضا الامتيازات القانونية لممتلكات الصليبيين من خلال البنية التشريعية للملكة الصليبية وقوانينها. إذ بات على أبناء الطبقة البرجوازية أن يسجلوا أسماءهم فى المحكمة الملكية الصليبية فى الفترة الباكرة من الوجود الصليبى. وقد أصبحت المحكمة الاقطاعية للنبلاء مكانا لاجتماع أتباع وبطانة الحاكم الصليبى الأول جودفرى البويونى والملك بلدوين الأول. وبعد ذلك ، ظهرت المحاكم البرجوازية كمؤسسة قضائية جديدة، وجاءت استجابة للاحتياجات الضرورية المتطورة لجموع الفرنجة من غير النبلاء الذين يقطنون مدينة بيت المقدس.

لم تكن المحكمة الاقطاعية ، التى تختص بالنظر فى قضايا طبقة النبلاء والفرسان بدعة، بيد أنها كانت تفتقر إلى الخبرة عند التعامل مع القضايا الخاصة بالأفراد الذين لاينتمون إلى طبقة النبلاء أو الفلاحين أو الأقنان أى (البرجوازية) . وفى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كان مايزال الاستقلال الذاتى الذى تمتع به السكان المحليون فى المناطق الحضرية ، وقلما كانت محاكمهم تصلح لأن تكون نموذجًا لمحاكم الصليبيين الذين احتلوا هذه المناطق ، فقد جلب الصليبيون معهم من أوربا بعض المبادىء القانونية الأساسية والاجراءات لكى يشيدوا مؤسساتهم وفقا للتطورات والظروف الجديدة. لقد انقسم الصليبيون بشكل أساسى إلى فئتين : الفئة الأولى كانت تتم محاكمتهم بواسطة الأقران، والفئة الثانية كانت تتطلب شهود الاثبات عند ابرام صفقة تجارية أو انجاز صك بيع. وعلى الرغم من أن شهادة أقران الأطراف المتعاقدة لم تكن ضرورية فى ابرام هذه الصفقات التجارية، فإن مثل هذه الشهادة كانت بلاريب مفيدة وأمرًا طبيعيًا فى مثل هذه الحالة . ومن ثم ليس بمستغرب أن نجد أول اشارة وذكر للبرجوازية فى الوثائق الصليبية كانت تتعلق بالشهادة على صحة حجة البيع. وبعد ذلك بوقت قليل، وجدنا شهادة البرجوازية على الصفقات التجارية، وكانت أسماء هؤلاء الشهود تحمل ألقابًا

اضافية مثل «الشهود الشرعيين» و«شهود جلالة الملك» ، وفى فترة متأخرة، عرف هؤلاء الشهود بلقب «المحكمين»، وعرفوا أخيرا باسم محكمة*. وتدل هذه الأسماء المتشابهة لأعضاء المحكمة البرجوازية التى دونت فى كل الوثائق الصليبية على أنها يقصد بها نفس الجماعة والطبقة التى تعرف بطبقة البرجوازية ، ومن المنطقى الظن بأنه على الرغم من أن اسم المحكمة البرجوازية قد ظهر فى فترة متأخرة من الوجود الصليبى ، فإن هؤلاء البرجوازيين الذين كانوا يشهدون على صحة ابرام الصفقات التجارية كانوا بمثابة أعضاء لهذه المحكمة وكانت هذه الصفقات تسجل وتدون فى سجل المحكمة. وبقى هذا الشكل صورة نموذجية للمحكمة البرجوازية. فقد كانت السلطة القضائية لهذه المحكمة فى الفترة الباكرة من الوجود الصليبى بسيطة ، ثم ما لبثت أن أصبحت أكثر أهمية وقوة فى فترة متأخرة ، فقد عرفت المحكمة البرجوازية طريقة التقاضى بواسطة الأقران، وكانت هذه المهمة، تسند إلى مجموعة من القضاة برئاسة الفيكونت ، هذا الفيكونت الذى كان فصلا تابعًا لسيد المدينة.

ومن المفترض أن هذا التطور القضائى الذى شهدته مدينة بيت المقدس قد انتقل فى فترة متأخرة إلى المدن الأخرى التابعة للمملكة الصليبية. ومن المحتمل أن مثل هذا قد تم بشكل جزئى ، ويمكن تفسير السبب فى ضوء حقيقة أن معظم المراكز الحضرية التى كانت تحت يد المسلمين قد انتقلت إلى السيادة الصليبية بعد الغزو. وبات من الطبيعى أن يقوم الصليبيون بانشاء مؤسسة ادارية فى كل مدينة تخضع لسيادتهم على غرار النظام الادارى المعمول به فى مدينة القدس. ويمنح المدينة لأحد النبلاء الصليبيين فى صورة اقطاع ، ظلت المؤسسات الادارية، كما هى، إذ أن عملية انتقال السيادة على المدينة من الملك الصليبى إلى الأمير الصليبى أيضا لم تستلزم بالضرورة حدوث أية تعديلات لهذه المؤسسة .

كانت الادارة البرجوازية فى المستوطنات الصليبية فى القرى تعتمد بشكل أساسى على خبرة مكتسبة لادارة هذه القرى. إذ كان وضع هذه الطبقة البرجوازية يتحدد من خلال مؤسساتهم وأعرافهم وقوانينهم. وإلى حد ما كانت المحكمة البرجوازية تعبيراً عن الوحدة العضوية للسكان الذين ينتمون لأصل برجوازى والقاطنين خارج أسوار المدينة.

---

* لقد ظهر الاسم الكامل للمحكمة البرجوازية لأول مرة فى مدينة بيت المقدس فى عام ١١٤٩م (المؤلف).

وتميز سكان المدن الصليبية بتجانس البناء العرقى، واستطاعت المحاكم الاقطاعية والمحاكم البرجوازية أن تفى بالأغراض القضائية والادارية . بيد أن هذه ليست هى الحقيقة الواقعة . إذ كانت مدينة بيت المقدس منذ اليوم الأول للغزو خالية من سكانها المسلمين واليهود، وكانت معظم المدن الصليبية فى بلاد الشام تضم خليطا متعدداً من السكان . فقد عادت فلول السكان المسلمين واليهود - الذين كانوا قد هربوا من مدنهم نتيجة الغزو الصليبى- مرة ثانية إلى هذه المدن، ووجدت جماعات من المسيحيين الشرقيين فى كل مكان من المناطق الصليبية، وكان أكثرهم من السوريان واليعاقبة*، وقد تمتعت هذه الجماعات المسيحية الشرقية بالحكم الذاتى منذ فترة طويلة، والذى تطور خلال فترة السيادة الإسلامية فى هذه المناطق والتى استمرت ما يقرب من أربعة قرون من الزمان أو ينيف . ولكى تتفادى هذه الجماعات من المسيحيين الشرقيين التدخل الخارجى وبالتحديد تدخل العدو، قامت هذه الجماعات المسيحية بتطوير مؤسساتهم الخاصة، التى كانت تتعلق كثيراً بالعقيدة المسيحية كالمؤسسات الخيرية والقضائية . وقد طورت هذه الجماعات مؤسساتها القضائية ، وكان هذا التطوير نتاجًا طبيعيًا للقانون المحلى، ولاسيما قانون العائلة والخلافة Family and Succession Law الذى كانت تطبقه وتمارسه هذه الجماعات، وكان هذا القانون مقتبسًا من التشريع الرومانى والبيزنطى القديم، وهكذا اختلف هذا القانون عن قوانين الفاتحين المسلمين. ونظرا لأن هذه الجماعات المسيحية كانت محرومة من صفة الدولة (كما كان وضع جماعة اليهود) ، فانهم وجدوا فى مؤسساتهم الدينية بديلاً للدولة. فقد قامت الهيراركية الدينية لهذه الجماعات بتنظيم حياة أفراد هذه الجماعات واقامة العدالة بينهم . ففى القضايا والخلافات التى كانت تنشب بين أعضاء هذه الجماعات ، كان الخصوم يرفعون الدعاوى القضائية أمام محاكمهم وقوانينهم الخاصة. وكانت عقوبة الهرطقة والالحاد (الأناثيما) التى يفرضها رجال الدين سلاحًا قويًا فى الترسانة الروحية ، هذه العقوبة التى كانت تعرض صاحبها للنفى والابعاد عن جماعته

---

* اليعاقبة : هم أتباع مذهب ديسقورس القائل بأن المسيح «جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين ، ومشية من مشيتين » وعرفوا باسم المونوفيزيقيين أى أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وينسب اليعاقبة إلى يعقوب الرادعى أحد زعمائهم ، وكان أتباع هذه الطائفة وما زالوا يمثلون أقباط مصر. (قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى العصور الوسطى، دار المعارف، ط. ١٩٧٧، ص١٠٦) .

ونبذه بالإضافة إلى فقد موارده المالية أيضًا. وتحت ذريعة توفير الأمن والطمأنينة لهذه الجماعات المسيحية الشرقية، كان أعضاؤها لايطلبون على الاطلاق تدخل الدولة فى شئونهم والواقع أن السلطات الإسلامية كانت أكثر سعادة وارتياحًا ازاء ترك الحكومة الذاتية فى أيدى أعضاء هذه الجماعات التى تمتعت بالحكم الذاتى. وما زالت الظروف والأحوال التى شهدت تدخل السلطات الإسلامية فى شئون هذه الجماعات غير معروفة ومن الغريب أن ثمة تنافس كان يحدث بين أعضاء هذه الجماعات من أجل الوصول إلى مناصب عليا فى الهيراركية الدينية. وأحيانا ، كانت السلطات المحلية تتدخل فى ادارة أملاك الكنيسة .

وفى حين كان حق الفصل فى القضايا المدنية لأعضاء هذه الجماعات من أبرز سمات الحكومة خلال فترة السيادة الإسلامية ، فإننا نفتقر إلى معرفة الكثير عن عملية التقاضى فى الجرائم الجنائية. وهل كان النظر فى هذه القضايا الجنائية من حق أعضاء الجماعات المسيحية أم كان من حق الحكومة ؟ وإننا نفتقر إلى معرفة ماهية الاجراءات التى تتبع فى القضايا والخلافات المختلفة التى تنشب بين أعضاء مختلف الجماعات غير الإسلامية . الأمر الذى يجعلنا نفترض أن الخصوم والأطراف المتنازعة كانوا يلجأون فى التقاضى إلى المحاكم الحكومية عندما تفشل محكمة الجماعة فى تسوية هذه الخلافات.

والواقع أن الغزو الصليبى لم يحدث تغييراً كبيراً فى التنظيم الطائفى التقليدى للأقليات المسيحية. وساهم القانون الصليبى فى تحقيق ذلك ، إذ أن السوريان وهم من المسيحيين المحليين طلبوا من حكامهم الصليبيين الجدد أن يعترفوا لهم بمحاكمهم الخاصة والعمل بموجب قوانينهم وأعرافهم الخاصة. وعلمنا أن الحكام الصليبيين استجابوا لهذا المطلب للسوريان. وهذا يعنى أن السوريان احتفظوا بوضعهم القديم. وتشابه وضع اليهود أيضا مع واقع وضع المسيحيين المحليين، فقد حصل اليهود على حق حرية التقاضى أمام محاكمهم فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ، وذلك بموجب صكوك مدونة والتى مازالت موجود حتى الآن .

كانت المحاكم الوطنية تتولى أمور السكان المحليين المقيمين فى مدن الامارة الصليبية، وكذلك المقيمين فى القرى التابعة لهذه الامارة ، وذلك على أساس طائفى. فقد كانت المحكمة الدينية للطائفة هى السلطة المختصة بالنظر فى الأمور المدنية مثل الزواج، أو الوصايا ، أو ما شابه ذلك. وفى حالات أخرى ، علمنا أن الرئيسى العلمانى لهذه الجماعة هو الذى كان يرأس المحكمة الأصلية الوطنية. ولانستطيع أن نصف السلطة الدينية (سلطة رجال الدين) على أنها

جزء من ادارة الامارة الصليبية، غير أنها استطاعت سد فجوة كبيرة فى أعمال هذه الادارة. فقد كانت السلطة الدينية، والمحاكم العلمانية للمسيحين بمثابة جزء من الآلية الحكومية والتى استطاعت أن تثبت دعائم الحكم والقضاء للسكان من غير الفرنجة على المستوى المحلى.

ومن المحتمل تمامًا أن نموذج حكم المسيحين الوطنيين الذى تمثل فى المحاكم الوطنية قد وجد لأول مرة فى عاصمة المملكة الصليبية ومن ثم تم تقليد هذا النموذج فى المدن والمناطق الريفية الأخرى فى ربوع المملكة اللاتينية . والحقيقة أن الملوك الصليبيين فى بيت المقدس فى عام ١١١٥م شجعوا عدداً كبيراً من الجماعات المسيحيين الشرقيين للاستقرار فى مدينة القدس، وهى الجماعات التى وفدت إلى المملكة من منطقة ما وراء نهر الأردن، وكان هذا قراراً أكثر عقلانية ومنطقية. ومن الطبيعى أن نفترض بأن مثل هذه الهجرة الداخلية قد حثت على التطور القانونى، أو على الأقل كانت عاملاً حافزاً لهذا التطور.

وفى ما يتعلق بالمحاكم الوطنية فإن ثمة تغير ملحوظ حدث فى تاريخ غير محدد ابان القرن الثانى عشر الميلادى، بيد أن المصادر التاريخية لسوء الحظ لم تقدم لنا تفسيراً خاصًا لهذا التغير وشكله ، ولذا يجب علينا أن نقتنع بالحدس والتخمين فقد كان هذا التغير عبارة عن اندماج قسمين مختلفين من أقسام السلطة القضائية فى الامارة الصليبية، فقد وجدت محاكم المسيحيين الوطنيين الشرقيين ومحكمة خاصة فى كل مراكز الاستيطان الصليبى الحضرية الكبرى ، وعرفت هذه المحكمة باسم محكمة الفندق أو السوق Cour de la Fonde . إذ كان الفندق أحيانا يشير إلى مكان السوق أو إلى أية منطقة (سواء كانت ميدانا أو شارعًا) يمارس فيها النشاط التجارى، وكان مكان السوق ملكا عامًا للصليبيين. وكان الفيكونت يعين موظفا عرف باسم المحتسب ، يعهد إليه مهمة الاشراف على الأسواق فى هذه المراكز الحضرية المزدحمة والتى كانت تشهد نشاطًا تجاريًا واسعًا. وإلى حد ما تطور نوع خاص من السلطة القضائية للسوق، تمثل فى محكمة السوق، تماثل الآلية القضائية والادارة الشكلية للمحكمة البرجوازية وذلك للنظر فى المنازعات البسيطة والانتهاكات التى تحدث فى السوق بين التجار واصدار قرارات بخصوص هذه المنازعات والقضايا، تلك القرارات التى كانت معوقة أكثر منها مساعدة لحل المشكلات . ولم نعرف التركيب الأصلى «لمحكمة السوق» ، بيد أن محكمة السوق كانت منذ بدايتها تتألف من ستة أعضاء من الفرنجة والوطنيين الشاميين ، ولم تطبق هذه المحكمة المبدأ الرئيسى للمحاكمة وهو المحاكمة بواسطة الأقران، على الأقل فى النزاعات

الشخصية. ولنا أن نتخيل الحجم الكبير فى التعاملات فى السوق بين المنتجين الوطنيين ، الفلاحين والحرفيين وصغار التجار، وزبائنهم من الفرنجة المستهلكين. وكانت محكمة السوق يرأسها أحد الفرنجة ، والذى كان يحمل لقب «البايل bailli» . ولم يكن من اختصاص محكمة السوق النظير فى الجرائم الجنائية التى تتطلب عقوبة الاعدام أو بتر الأعضاء . بل كان من اختصاصها النظرفى القضايا المدنية التى لايزيد قيمتها المادية عن مارك فضى واحد. وكانت القضايا التى تتجاوز هذه القيمة تنظر أمام المحاكم البرجوازية حتى ولو كان أطراف الدعوى لاينتميان إلى طبقة البرجوازية.

وبمرور الوقت، اتسعت اختصاصات «محكمة السوق» حيث ضمت إليها المحاكم الوطنية فى القرى وهى المحاكم التى كانت تعرف باسم محكمة رئيس القرية. ويدهش المرء سواء كانت محكمة السوق تمثل خطوة متعمدة تمت على يد الفرنجة، أو أن هذه الأمور قد تطورت بطريقة أو بأخرى فى هذا الاتجاه . ومن المحتمل أن ظهور محكمة السوق وتطورها لم يحدث تغييراً كبيراً فى الأمور القضائية . فالقضايا المختلطة (التى كان أطرافها تشمل الشوام والفرنجة لايمكن أن تنظر أمام محكمة الرئيس الوطنية . وهكذا فإن اندماج المحاكم الوطنية (محكمة السوق ومحكمة الرئيس) أحدث تغييراً بسيطًا فى الواقع المعاش للمجتمع. وكانت المشكلة تتمثل فى نشوب النزاعات بين الشاميين أنفسهم . وطالما وجدت السلطة القضائية الذاتية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، فإن هذه القضايا والنزاعات التى كانت تنشب بين الشاميين كانت تنظر أمام المحاكم الوطنية التى يرأسها الرئيس؛ ومن ثم فإن المحكمة المختلطة المتمثلة فى «محكمة السوق» كانت السلطة المختصة بالنظر فى هذه القضايا. ومن المحتمل أن مثل هذا التطور كان بمثابة خطوة محددة أقل أهمية من الناحية العملية ، ومن الناحية النظرية لم يقبل السكان المحليون هذا التطور القانونى والقضائى . وبالتشابه الجزئى لوضع الجماعات اليهودية فى المجتمع الإسلامى والمجتمع المسيحى، نجد أن الاختصاصات الجديدة لمحكمة السوق لاينبغى أن تلغى المؤسسات الوطنية الباكرة التى كانت تتمتع بالحكم والاستقلال الذاتى. ومن المحتمل أن هذه المؤسسات كانت تمارس نشاطها القضائى إذا دعت الضرورة ذلك، أو كان عملها يعتمد على رغبات الأطراف المتنازعة . ومن ثم كان الاحتفاظ بالمؤسسات المحلية يعتمد بشكل كبير على مجمل التماسك الكلى لمختلف الجماعات المحلية. وإذا علمنا أن جماعات الأقليات كانت أكثر حرصًا والحاحًا فى المحافظة على حقوقها ومؤسساتها وقوانينها

فإننا على الفور ندرك أن محاكم الرئيس لم تفقد مكانتها ووضعها بشكل كامل، أو على الأقل لم تختفى هذه المحاكم الوطنية. وعلاوة على ذلك ، فسوف نتذكر دائمًا أن سلطة النظر والفصل فى القضايا المتعلقة بالزواج ظلت، كما كانت من قبل، بيد رجال الدين.

وهكذا، فإن كلا من «محكمة القرية أو الرئيس» و«محكمة السوق» كانت تقيم العدالة على المستوى المحلى. وظل مجال هاتين المحكمتين محدداً بالقيمة المالية للقضية التى تنظر أمامها، أى لاتزيد قيمة القضية المنظورة أمامهما عن مارك فضى واحد، وكذلك عدم نظر القضايا الجنائية أمامها. وكان نفس الشىء بالنشبة لأملاك الوطنيين من الأرض الزراعية القريبة من المدينة، إذ كانت المحكمة البرجوازية هى صاحبة السيادة القضائية عليها. وعلاوة على ذلك ، فإن المحكمة البرجوازية لم تكن محكمة استئناف . لقد كانت محكمة القرية أو «الرئيس» وأيضا محكمة السوق محاكم تتمتع بالاستقلال الذاتى فى اطار سلطاتها القضائية.

والآن دعنا نلقى نظرة على المدن الأخرى من مدن المملكة الصليبية، حيث أسفرت الاحتياجات والضرورات المهمة والطبقات الاجتماعية الخاصة عن خلق مؤسسات قضائية خاصة. ففى الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى وجدت فى موانىء المملكة الصليبية محكمة خاصة تتعامل مع تفاصيل القانون البحرى. وعرفت هذه المحكمة باسم محكمة السلسلة، وأخذت هذه المحكمة اسمها من تلك السلسلة التى كانت تمتد بين برجين مشيدين على حواجز المياه، وكانت هذه السلسلة تغلق مدخل الميناء كل ليلة ، وأيضا فى أثناء فترات الحصار، حيث كانت تمنع وتعوق أساطيل العدو من الاقتراب إلى المدينة. وكانت محكمة السلسلة يتألف أعضاؤها من التجار البحريين الذين اعتادوا تطبيق القانون التجارى. وكان الكثير من القضايا المهمة تنظر أمام محكمة السلسلة، وعندئذ تعرض هذه القضايا أمام المحكمة البرجوازية . ومن خلال القضية التى تنظر أمام المحكمة البرجوازية نكتشف بوضوح الوظيفة البيروقراطية التى تقوم بها هذه المحكمة البرجوازية، حيث كانت ترفع تقاريرها أمام المحكمة العليا من أجل اصدار قرار معين .

وكما كان الوضع تقريبا بالنسبة للمحاكم القضائية الأخرى، فإن محكمة السلسلة كانت تنظر الخلافات المالية والقضائية، ولم تقتصر مهمتها على تحصيل وجباية الغرامات المالية فحسب، بل كانت تقوم بمهمة تحصيل الرسوم الجمركية الخاصة بالميناء . وفى القرن الثالث عشر

الميلادى سمعنا عن «فيكونت الميناء» ذلك الموظف الذى كان من المحتمل رئيسًا لمحكمة السلسلة والمسئول عن ادارة الميناء. لقد كانت محكمة السلسلة محكمة تجارية فقط وليست محكمة لطبقة قانونية محددة ، ولكنها كانت محكمة تنظر نمطا محدداً من القضايا التجارية. ولم تشهد فروع الادارة الصليبية الأخرى أى تطور لهذا النوع من المحاكم.

لقد كانت الادارة الملكية أو البارونية فى المدن الرئيسة (كل المدن البحرية الساحلية) معقدة، أو إذا صح القول فإنها كانت متممة، وفقا للأنظمة الادارية الذاتية للكوميونات الأوربية. وكانت اختصاصات الادارة الذاتية للكوميونات الايطالية يماثل اختصاصات المحكمة الاقطاعية أو المحكمة البرجوازية، الأمر الذى جعلها أكثر ملاءمة لأفراد الكوميونات التجارية الايطالية. ومن ناحية أخرى ، فإن كل الكوميونات الأوربية الرئيسة أصبحت تمتلك مناطق نفوذ فى المملكة الصليبية، بالرغم من اختلاف درجة أهمية هذه الكوميونات، فقد امتلك بعض الكوميونات أحياءً فى المدينة، فى حين امتلك بعض الكوميونات أراض زراعية مهمة حول المدينة. وفى كلتا الحالتين تمتع الممثل الادارى للكوميون بحقوق قضائية على السكان القاطنين فى الأحياء والقرى التابعة للكوميون. ومن الطبيعى كان الفرسان مرتبطين بسيد مدينتهم برباط اقطاعى، وباستثناء هؤلاء الفرسان، كان البرجوازية (على الرغم من أنه كان هناك عدد قليل من حالات التقاضى فى هذا الصدد)، وأفراد الكوميونات الأخرى الوطنيين، سواء كانوا مسيحيين ، أو يهودا ، أو مسلمين ، والذين كانوا يقطنون هذه الأحياء أو فى القرى التابعة للكوميونات ، فإنهم كانوا أحيانًا يخضعون للسلطة القضائية والادارية للكوميون .

وخارج أسوار المدينة ، كانت الادارة المحلية تقيم العدالة عن طريق المحكمة البرجوازية فى القرى والتى أسسها الفرنجة ، وكذلك عن طريق المحاكم الوطنية فى القرى التى كان يرأسها أعمدة القرية. ولانعرف الشىء الكثير عن عمل ونشاط هذه المؤسسات الوطنية. وعلى أى حال فإننا نعرف أن بعض الأماكن التى خضعت للسيادة الصليبية كان يوجد بها مساجد القاطنين فى الأحياء الخاصة بهم. وكان رجال الدين المحليين، سواء كانوا من البيزنطيين، أو من اليعاقبة يمارسون نفس السلطة القضائية على السكان المسيحيين فى القرى، واستمرت أيضا السلطة التقليدية المحلية فى القرية فى الوجود فى ظل السيادة الصليبية. وكان يعهد إلى أعيان القرية مهمة القيام بهذه السلطة القضائية، هؤلاء الأعيان الذين واصلوا ممارسة اقامة العدالة بشكل تطوعى، أو ربما بقيت سلطة كبير العائلة فى القرية. لقد ظلت هذه المؤسسات التقليدية باقية

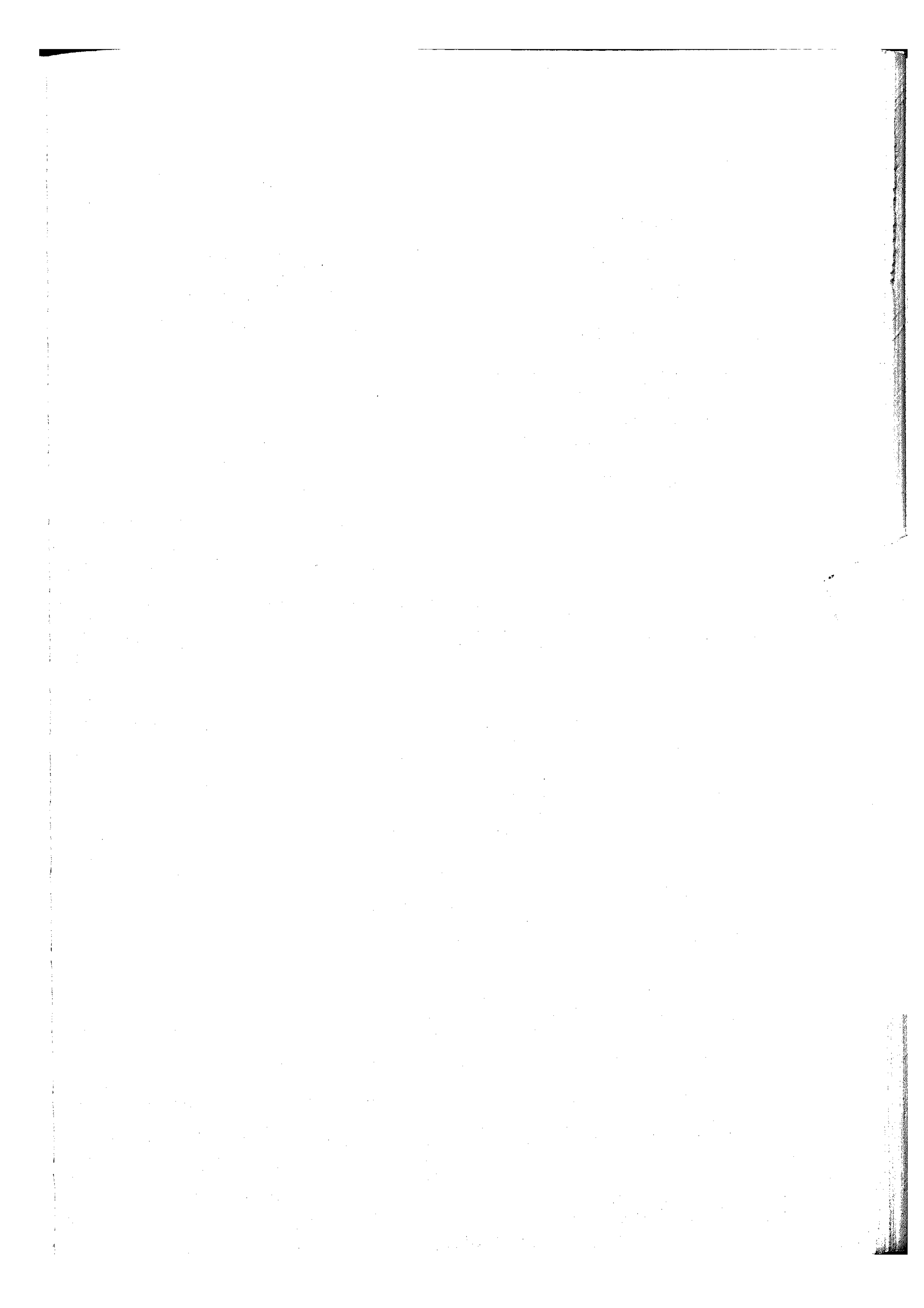
تمارس عملها والذى يؤكد ذلك جيداً هو أنه، عندما كانت تخضع أية قرية لأحد السادة الفرنجة، فإنه كان يطلب من أعيان هذه القرية الوطنيين أو كبار العائلات فيها أن يقدموا إليه نوعًا من الولاء. واستمرت محاكم القرية المحلية (محكمة الرئيس) تمارس مهامها وتؤدى دورها تحت سيطرة الحاكم الصليبى الجديد، وهى المهام التى كانت تؤديها فى نفس القرى منذ مئات السنين، مهما كان نوع الحكم أو الحاكم .

كانت ادارة القرية ذات نمط بسيط. فلم تكن هناك ضياع فعلية، أو بمعنى أكثر وضوحًا لم تكن القرية تضم أملاكا واسعة من الأراضى الزراعية، وانحصرت اهتمامات سيد القرية فى المصالح المالية إلى حد بعيد. إذ كان هناك عدد من الموظفين يساعدونه فى الادارة من أهمهم الترجمان ، والكاتب، وكانت مهمة هذا الموظف الحفاظ على متحصلات وريع أراضى السيد الاقطاعى . وكان هذا الموظف يظهر فى القرية وقت موسم الحصاد والجنى لكى يقتطع ثلث أو ربع المحصول وينقله بدوره إلى مخزن الغلال والشونة التابعة للسيد ، وكان يتبع نفس الاجراء عندما تنضج ثمار أشجار الفاكهة أو الزيتون ويحين جنيها، أو عندما يحين الوقت لجباية الضرائب العينية المألوفة أو بتعبير رقيق ولطيف «الاتاوة» التى كانت تتمثل فى الشمع، وعسل النحل، وما شابه ذلك، والتى كانت تقدم للسيد الاقطاعى الأعلى.

ولاشك أن الأمور فى القرى التابعة للمؤسسات الكنسية كانت مختلفة إلى حد ما . فقد كان يوجد فى كل قرية من هذه القرى دير أو كنيسة وغاليا ما كان هذا الدير أو الكنيسة مزوداً بكوخ لاقامة راهب معين، وهو الراهب الذى كان مفوضًا لتأدية مهمة معينة فى القرية، إذ كان الراهب يقيم فى هذا الكوخ الملحق بالدير أو الكنيسة (ربما فى أثناء موسم الحصاد والجنى فقط) ، ويشرف بدوره على عملية تحصيل الضرائب المستحقة لهذا الدير . وفى القرى التابعة للهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاسبتارية- التيوتون) ، كانت توجد مؤسسة وهيئة مركزية تشرف على تحصيل وجباية المتحصلات من الضياع المختلفة الخاصة بهذه الهيئات الدينية والعسكرية.

وفى ما يتعلق بالمعاملات والتعامل بين الأفراد فى هذه الوحدات الاقليمية الصغيرة سواء كانت حضرية أو ريفية ، فإن الادارة الاقطاعية للملكة الصليبية استطاعت أن تتغلب بكفاءة على مشكلات هذا التعامل بين الأفراد. ومن المؤكد أن تطبيق نظام الآلية الادارية الاقطاعية فى المقاطعات الصليبية كانت أكثر كفاءة واقتدار عن استخدامها فى المملكة الصليبية المرهقة.

والحقيقة أن الامارات الصليبية كانت صغيرة جداً ، وهذا يعنى أن المعرفة الشخصية المباشرة والاتصالات المباشرة بين الأفراد كانت قوية بدرجة كافية لجعل الآلية الادارية البسيطة تعمل بسلاسة ويسر. وربما يكون هذا سببًا من أسباب عدم تطور الادارة الصليبية وتجاوزها مرحلة التنظيم الاقطاعى الأوربى الذى يرجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى. فلم تكن هناك حاجة ملحة وضرورية لإحداث مثل هذا التغير والتطور الادارى فى هذه الامارات الصغيرة . لكن هذه التغييرات والتطورات فى الادارة كانت أكثر الحاحًا ، وضرورة فى الآلية الادارية فى أرجاء المملكة الصليبية بشكل عام . بيد أنه عندما أصبحت هناك حاجة لمثل هذا التطور بعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بوقت قليل، ضعفت قوة وسلطة الملك الصليبى وعانى الملوك الصليبيون من ضغط النبلاء عليهم، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى عرقلة أية محاولة للاصلاح الادارى .



الفصل العاشر

الكنيسة

أ- تنظيم وهيئة :

ثمة قضية جدلية فى تاريخ الحروب الصليبية وهى أن البابا اربان الثانى سواء كان هو الذى أول من دعا إلى شن الحروب الصليبية أم لا فإنه فإنه هو الذى أراد غزو الأراضى الأراضى المقدسة فى بلاد الشام وفلسطين كخطوة تمهيدية من أجل قيام دولة ثيوقراطية ، باعتبار هذه الأراضى المقدسة ميراثا للقديس بطرس فى هذه المناطق. وعلى أى حال ، فإنه كان من الواضح أن الحزب الدينى القوى فى جيوش الحملة الصليبية الأولى قد استحوذ على مكانة عليا ووضع ثابت فى أعقاب الاحتلال الصليبى لمدينة القدس، وذلك عندما نشب الخلاف والشقاق بين القادة الصليبيين حول انتخاب أول حاكم صليبى للملكة . ففى أثناء تلك الخلافات طالب الأساقفة أن يكون البطريرك اللاتينى هو الحاكم السياسى والدينى للمملكة الوليدة وأن يكون انتخابه فى هذا المنصب أسبق من أى شخص علمانى آخر. ولاشك أن هذا المطلب كان يعكس روح الحملة الصليبية الأولى، ويتفق وفكرة العصور الوسطى حول تفوق وسمو الأمور الدينية على مثيلتها الدنيوية.

لقد تم احتلال الصليبيين مدينة بيت المقدس بعد سنوات أربع من بداية الحملة الصليبية الأولى والاعداد لها ، وانتشر المثال الصليبى الذى رفعه الصليبيون على نطاق واسع فى أثناء زحفهم ومسيرتهم الطويلة والمضنية صوب منطقة الشرق العربى الإسلامى.

كانت الطبيعة والسمة الروحية تميز الحركة الصليبية، بيد أنه فى بعض المناسبات النادرة ولاسيما فى أثناء الأزمات التى كان يمر بها الصليبيون كانت ترتفع درجة حرارة الوجد الصوفى والمشاعر الدينية، ولكن هذه الحماسة الدينية المتأججة ، قد فترت فى أثناء زحف الصليبيين فى آسيا الصغرى. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه بوفاة المدنوب البابوى أديمار أسقف لى بوى أمام أنطاكية، ضعفت المطالب الأساسية لرجال الدين والمهم فى هذا الموضوع ، هو أن قادة الجيوش الصليبية الذين قرروا البقاء فى الشرق قد تصوروا أنفسهم ومستقبلهم حكامًا علمانيين لهذه الأقاليم التى احتلوها فى منطقة الشرق العربى الإسلامى.

وعلى الرغم من ذلك ، فإن بعض مظاهر تأجج نار المشاعر الدينية الباكرة كانت ما تزال موجودة . لقد ساهمت الدعاوى والمطالب غير المحدودة للكرسى الرسولى المقدس فى مدينة القدس والمتعلقة بكبار رجال الدين اللاتين فى اختيار اللقب الذى تلقب به جودفرى البويونى وهو «حامى القبر المقدس» . ولفترة قصيرة كانت السمة المميزة لمستقبل المملكة اللاتينية قد تبلورت من خلال مرحلة التوازن بين القوى العلمانية والدينية وقدم جودفرى البويونى – أول حاكم صليبى للمملكة الجديدة– والأمراء الصليبيون فى أنطاكية والرها ، يمين الولاء والتبعية الاقطاعية للبطريرك اللاتينى الجديد الذى تم انتخابه، وهو البطريرك دايمبرت البيزاوى The Pisan Daimbert وأعلنوا أنهم أفصال اقطاعيون تابعون لكنيسة الضريح المقدس، وبالإضافة إلى ذلك وعد جودفرى البويونى (حامى القبر والضريح المقدس) أن يتخلى عن مدينة بيت المقدس ويافا للبطريرك اللاتينى حالما تتسع حدود المملكة اللاتينية. وكان هذا يمثل ذروة مطالب رجال الدين اللاتين. وبعد أقل من عام من تأسيس الوجود الصليبى توفى جودفرى البويونى، وخلفه أخوه بلدوين الأول ملكا صليبيًا ، وبات لقب «حامى القبر المقدس» نسيًا منسيًا » وبعد بضع سنوات ، تولى البطريرك (ستيفن ١١١٨-١١٣٠م) مقاليد الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس، وعندئذ حانت اللحظة المواتية لكى يجدد هذا البطريرك الجديد مطالبه غير الواقعية والمنطقية، بيد أنه فى هذه المرة لم تلق هذه المطالب أية استجابة من الملك الصليبى وتجاهلها تمامًا ، وشهدت فترات الوجود الصليبى بعض المشاحنات والشقاقات بين الملوك الصليبيين والبطاركة اللاتين، بيد أنه بشكل عام ، ظل كبار الأساقفة اللاتين رعايا لينى العريكة وطيعين بشكل ملحوظ.

وهكذا ساهمت الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس بدور كبير فى تشييد الهيراركية والرتب الكنسية والمحافظة عليها ، وهذه الهيراركية الكنسية لم يقدر لها أن تلعب أى دور حاسم فى تاريخ المملكة الصليبية، وفى الوقت الذى كانت فيه الملكيات الأوربية المعاصرة تكابد وتناضل بشكل يائس من أجل الحصول على حق تعيين رجال الدين فى المراكز الأسقفية ، كانت المملكة الصليبية فى بيت المقدس لها الدور الحاسم والفعال والقوى فى تعيين الأساقفة ورجال الدين فى الأسقفيات الشاغرة . ولم يقتصر حق الحكومة العلمانية الصليبية فى تعيين الأساقفة فقط، بل امتد هذا الحق أيضًا ليشمل تعيين البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس. وكان من المعتاد أن يسمح لكنيسة الضريح المقدس (التى أصبحت فى الفترة الأخيرة ملتقى الأساقفة) أن تقدم مرشحيها لشغل منصب البطريرك . وكانت أسماء هؤلاء المرشحين تعرض أمام الملك الصليبى،

فيختار من بين هؤلاء المرشحين من يصلح لوظيفة البطريرك . وفى الغالب، كانت المحكمة الملكية الصليبية تتدخل حتى فى اختيار المرشحين لشغل الوظائف الدينية فى الكنائس الصغيرة والكبيرة. وقد تطور هذا الحق الملكى الصليبى فى تعيين رجال الدين فى الكنيسة فى نفس الفترة التى كانت فيها البابوية فى أوربا تشحذ قوتها فى وجه الامبراطور والملك من أجل أن يكفل لها حرية تعيين رجال الكنيسة فى أوربا دون تدخل من الامبراطور والسلطة العلمانية. وكانت أوربا فى تلك الفترة تسم الممارسة الصليبية بسمة العار والسيمونية. وعلى الرغم من البيان الدينى الذى صرح به جان الابلينى Jean d'Ibelin سيد يافا ومؤلف مجموعة قوانين مملكية بيت المقدس الشهيرة (فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى) والذى مفاده أن المملكة الصليبية كان على رأسها اثنان من السادة، أحدهما دينى روحى والآخر علمانى دنيوى- البطريرك والملك- فإن هذا كان مختلفًا على أرض الواقع بشكل كبير.

وفى ضوء مثل هذه العلاقات بين الدولة والكنيسة فى المملكة الصليبية ، يجب أن نقرر حقيقة أن هذه العلاقات بين السلطتين العلمانية والدينية كانت ذات سمة وخصوصية أخرى. ففى كل أنحاء العالم المسيحى الأوربى ، كانت الكنيسة تمارس السلطة القضائية على كل رجال الدين والعلمانيين فى القضايا المتعلقة بالزواج . والشرعية ، ووراثة العرش والهرطقة الدينية ، والانحرافات الجنسية والمفاسد الأخلاقية . ومن ناحية أخرى، فإن المملكة الصليبية، لم يوجد بها عدد كبير من الاقطاعات أو الامارات الكنسية ، مثلما كان الوضع فى أوربا . واجمالاً فقد ضمت المملكة الصليبية فى بيت المقدس أربع امارات اقطاعية كنسية صغيرة جدا ، وبحلول الربع الثانى من القرن الثانى عشر، تقلص عدد هذه الامارات الكنسية إلى ثلاث فقط. وقد تمخض مطلب البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس عن حصول البطريركية على حى فى المدينة عرف باسم حى الضريح المقدس أو حى البطريرك ، وأصبح هذا الحى بمثابة مقاطعة دينية داخل العاصمة ، والتى كانت مقاطعة ملكية. وقد أقر التقليد والقانون الصليبى ذلك من منطلق أن حى الضريح المقدس كان مخصصًا لاقامة المسيحيين فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى بموجب التنازل الذى قدمه حكام مصر الفاطميون ، وفى معاهدة أبرمت بين الحكام المسلمين الفاطميين وبين الامبراطور البيزنطى، تم الاتفاق على أن تدفع الامبراطورية البيزنطية مبلغا من المال لقاء استرداد الحى المسيحى فى مدينة القدس للأسوار المجاورة له. وسواء كان استقلال هذا الحى فى الواقع يرجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى، أو أن وجوده

يرجع بصورة أكبر إلى التنظيم والترتيب الصليبى الحديث ، فإن التحقق من هذا يعد أمرا ليس يسيراً. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الحى كان يخضع لادارة البطريرك ، إذ كان يمارس البطريرك سلطته الادارية والقضائية على كل سكان هذا الحى. وسواء ادعى الملك الصليبى بالسيادة على ذلك الشطر الدينى من المدينة ، فإن هذا الادعاء لم يكن واضحًا ويكتنفه الغموض والشك. ومن المحتمل أن ترتيبات الأمن فى هذا الحى والتى قامت على عاتق الحراس الملكيين قد أحدثت وأدت إلى تبعية هذا الحى للسلطة الملكية .

كانت اللد مقاطعة دينية أخرى من الاقطاعات الكنسية، وقد حازت اللد شهرتها بسبب ميلاد القديس جورج بها ، ذلك المحارب المسيحى الشهيد. فقد تأسست هذه المقاطعة فى أثناء الزحف الصليبى فى الحملة الصليبية الأولى لفرض الحصار على مدينة القدس. إذ توقف الجيش الصليبى عند مدينة رام الله المجاورة للد بعد أن هجرها سكانها من المسلمين، ونذر الصليبيون هذه المدينة للرب عرفانا بالجميل له على مؤازرته لهم فى انتصاراتهم وكانت أسقفية اللد أول أسقفية يؤسسها الصليبيون فى الأراضى المقدسة وأيضا أول اقطاعة كنسية . كانت هذه الأسقفية الجديدة تضم رام الله والمناطق القريبة من اللد، وبعد فترة قليلة إلى حد ما (فى عام ١١١٩م) وجدنا رام الله تخضع لسيادة أحد السادة العلمانيين فى حين كان المقر الأسقفى ومقر الحكم ينحصر داخل مدينة اللد الصغيرة.

وتعتبر مدينة الناصر ثالث الاقطاعات الكنسية وكانت نشأتها نشأة صليبية خالصة أى كانت وليدة الوجود الصليبى، وذلك لأن الأسقفية الأصلية كانت تقع فى بيسان المهجورة المقفرة. ونقل الصليبيون مقر هذه الأسقفية إلى الناصرة فى إقليم الجليل، وأصبح الأسقف سيداً للمدينة. وحدث نفس الشيء فى مدينة بيت لحم الصغيرة التى ارتقت لتصل إلى درجة أسقفية، وأصبح أسقفها سيداً لهذا المكان.

وكما رأينا ، فإنه كان من الواضح أن القوة الاقليمية للكنيسة من حيث حجم مواردها الاقتصادية كانت ضئيلة إلى حد بعيد ، ولاشك أن هذا الضعف الاقتصادى للكنيسة قد ساهم فى اضعاف نفوذ وأهمية رجال الدين اللاتين فى المجال السياسى.

لقد تجلى ضعف النفوذ السياسى لرجال الدين اللاتين فى المملكة الصليبية من خلال اطار التنظيم الاقطاعى الصليبى، كما تجلى واضحًا أيضا من خلال التشريع القانونى للملكة ، الذى كان يحظر على المؤسسات الكنسية امتلاك وحيازة الاقطاعات. وقد صيغ هذا الحظر

والتحريم بشكل أساسى فى مختلف المجموعات والكتب القانونية للصليبيين وعلى الرغم من ذلك، فإنه عند قراءة بعض الوثائق الصليبية، يتبين لنا أن المؤسسات الكنسية قد حصلت على مئات من المنح الاقطاعية من الأراضى الزراعية . ومن الناحية القانونية ، فإن المنح الملكية لاتعتبر من الناحية العملية والفنية منحًا اقطاعية . وعلى أى حال ، فإن وجهة النظر القانونية هذه، قلما كانت تمتد لتشمل وتصنف كل المنح التى تقدم لرجال الدين من السادة العلمانيين، أفصال الملك، أو أفصال الأفصال. فقد كان أفصال أفصال الملك يحوزون (باستثناء بعض الممتلكات غير الاقطاعية البسيطة) أراض اقطاعية، وكانت منح هذه الأراضى للكنيسة فى شكل هبة يعتبر تنازلاً عن الأملاك الاقطاعية ونقل ملكيتها للكنيسة ، وعندئذ يتم اعفاء الكنيسة من كافة الالتزامات الاقطاعية. وكانت الممتلكات الاقطاعية القريبة من المدينة، والممتلكات البرجوازية، يحظر نقل ملكيتها إلى الكنيسة. وسجل المشرعون الصليبيون بوضوح هذا الحظر والتحريم ، بيد أن سجلات الكنيسة قد أظهرت أن الكنيسة كانت تحصل على كميات كبيرة من أملاك المدينة وتحتفظ بها، وأخيراً، شهدت المملكة اللاتينية فى قبرص محاولة حقيقية من أجل جعل هذه القيود القانونية الخاصة بامتلاك الكنيسة لأملاك برجوازية أكثر قوة وتأثيراً .

ومما يذكر أن الممتلكات الكنسية لم تعفى تمامًا من تأدية الالتزامات الحكومية . وثمة سجل للخدمات العسكرية الاقطاعية فى المملكة الصليبية دُوِّن فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى وقد تضمن هذا السجل قائمة ببعض الظروف والأحوال الطارئة التى كان على الكنيسة تقديم الخدمات خلالها للملك الصليبى، ومن الغريب أن الكنيسة لم تقدم للملك الصليبى خدمة عسكرية فى شكل فرسان ، بيد أنها كانت تضع تحت تصرف الملك الصليبى وامرته عدداً من المحاربين من غير الفرسان وهم السرجندارية، وهم المقاتلين المشاة، أو الراكبة. وأحيانًا كانت هذه الظروف الطارئة مهمة ، وهكذا ساهمت الأملاك الكنسية فى الدفاع عن المملكة . وعلى أى حال، فإن محاولة تقييم العلاقة بين موارد الكنسية وبين مصروفات الدولة أمراً غير ذى جدوى.

كان التنظيم الأساسى للكنيسة اللاتينية فى منطقة الشرق العربى يمثل مشكلة عويصة لم تجد حلاً مقنعًا. وتكمن الصعوبة فى ذلك التنافر بين الأعراف والتقاليد البيزنطية القديمة وبين النمط الجديد للاستيطان الصليبى. وكان الغزو الصليبى يعنى قطع الصلات والعلاقات

بالماضى البيزنطى، على الرغم من أن الصليبيين كانت لديهم المبررات التى تتجاوز السمة الدينية لكى ينظروا إلى مذهبهم الكاثوليكى الذى أقاموه حديثا كوريث شرعى للنظام الدينى البيزنطى الارثوذكسى السابق. وهكذا اضطر الصليبيون إلى احداث تكيف بين التقاليد الموجودة ومتطلبات وضرورات الفترة الجديدة لوجودهم .

لقد كان التغير فى تنظيم الكنيسة اللاتينية فى الأراضى المقدسة ثمرة الاحتياجات والضرورات السياسية بصورة أكثر من كونه ثمرة الاحتياجات الريفية البسيطة ، وكان هذا التغير يمثل حد التغير والاختلاف التقليدى بين بطريركتى أنطاكية وبيت المقدس الشرقيتين، فقد كانت بطريركية وكنيسة أنطاكية تضم منذ القدم أسقفية صور الكبيرة ، والمنطقة الممتدة من عكا فى الجنوب حتى طرطوسه فى الشمال بالإضافة إلى سبع من الأساقفة المساعدين. وهنا وجد التقليد الكنسى نفسه على خلاف مع الاطار السياسى الجديد للكيان الصليبى، وذلك لأن المملكة الصليبية كانت تضم مدينة صور. وتحت ضغط الملوك الصليبيين فى بيت المقدس- الذين أبوا أن يروا جزءاً من مملكتهم مهما، يضم ميناءين كبيرين هما عكا وصور، تخضع لإدارة وسيطرة البطريرك المقيم فى مدينة أنطاكية- تحتم على الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس أن تفرض سيادتها على حدود وتخوم البطريركيات القريبة من حدود المملكة الصليبية. وهكذا كانت بطريركية القدس تضم أسقفية مدينة صور، بيد أن بطريركية القدس فقدت أسقفية صور فى اطار عملية انتقال الأسقف المساعد لهذه الأبروشية خارج حدود المملكة الصليبية. وأصبحت السياسة الرسمية فى كنيسة روما ترى أن أية أقاليم يحتلها الملوك الصليبيون يجب أن تخضع للسلطة القضائية للبطريرك اللاتينى فى بيت المقدس . وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يكن من اليسير استئصال واجتثاث جذور الأعراف والتقاليد العتيقة الضاربة فى أعماق الزمن. وفى الغالب، كانت بطريركية أنطاكية تحدد مطالبها، وكان مطارنة صور يترددون ويتذبذبون فى ولائهم، وقد حسمت هذه القضية بشكل واضح لصالح كنيسة مدينة بيت المقدس، بعد ما يقرب من مائة عام بعد الغزو الصليبى للأراضى المقدسة، أى فى سنة ١٢٠٦م.

والمظهر الآخر لتنظيم الكنيسة يتعلق بالكنائس المطرانية الكبيرة والأسقفيات وفى بداية القرن الثالث عشر الميلادى يقول جاك دى فيترى:

«... ويوجد فى الأرض الموعودة أيضا الكثير من المدن الأخرى، وقبل الوجود اللاتينى فى هذه المنطقة، كان على رأس الكنائس الأرمينية والبيزنطية فى هذه المدن أساقفة ، وبسبب عدد هذه الكنائس الكبير وفقرها ، أخضع الصليبيون الكثير من هذه الكنائس وهذه المدن لسيادة كاتدرائية مدينة واحدة، خشية أن يفقد الأسقف جلاله ووقاره» .

وهكذا أصبحت مدينة الناصرة، ذلك المكان الذى شهد البشارة المقدسة للسيدة مريم العذراء، أسقفية (فى عام ١١٠٩م) لكى تحل محل بيسان (سكيثوبوليس Scythopolis) ودير جبل طابور العتيد، الذى حاول رفع دعواه أمام الكنيسة اللاتينية فى القدس. وفى عام ١١١٠م، قامت كنيسة مدينة بيت لحم برفع دعواها أيضا أمام الكنيسة اللاتينية فى القدس. ومن الغريب، أن البيزنطيين لم يحافظوا على هذه الأماكن باعتبارها أسقفيات ، على الرغم من أن هاتين المدينتين (الناصرة - بيت لحم) كان يقطنها عدد كبير من السكان المسيحيين وبالطبع لم تفتقرا هاتان المدينتان للوقار والجلال. ومن المحتمل أن قرب المدينتين من بعضهما البعض كان له أثر كبير فى تقييم الصليبيين لأهمية الأماكن المقدسة بشكل مختلف، ومهما يكن من أمر، فقد كان من المحتوم أن يتعلق هؤلاء القادمون الجدد من الأوربيين إلى الأراضى المقدسة بهذه الأماكن المقدسة مثل مدينة بيت لحم ومدينة الناصرة. وشعر الأوربيون الغربيون بأنه من غير المناسب تجنب واغفال المزارات المقدسة المسيحية المهمة فى هذه المناطق والمدن الدينية. وبالرغم من هذه التغييرات فى تنظيم الكنيسة ، فإن بعض هؤلاء الأوربيين كانت تحثهم الاحتياجات السياسية إلى سكنى هذه المدن، والبعض الآخر كانت تحثهم الاحتياجات والمطالب الروحية والدينية، ومن الصعب القول أن تنظيم الكنيسة اللاتينية كان فى الواقع انعكاسًا لأولويات المملكة الصليبية. ولم تصبح مدينة مثل يافا أسقفية أو أبروشية ، وأيضا مدينة نابلس. ومن ناحية أخرى ، فإن مدينة حبرون الصغيرة قد ارتقت إلى أسقفية ، فى حين لم ترتقى أكبر مدينة صليبية، وهى مدينة عكا إلى مرتبة الأبروشية أو الأسقفية.

ومن الطبعى أن أوربا لم تعرف مثل هذه الظاهرة، حيث ساهمت دعاوى الأماكن المقدسة القديمة فى منع المراكز الحضرية الكبيرة الجديدة من المشاركة فى المرتبة الكنسية. وعلى الرغم من ذلك ، فإن ثمة اختلاف أساسى بين أوربا والمملكة اللاتينية فى بيت المقدس. فقد استطاعت أوربا فى العصور الوسطى ، والتى تشكلت بعد الغزوات الجرمانية أن تتطور فى شكل نموذج ونمط تقليدى دون أية اعاقات بارزة. ومع أن الصليبيين لم يتحرروا تمامًا من التأثير البيزنطى الباكر، فإنهم أحدثوا بعض التغييرات فى البنية التنظيمية. فقد كانت أهمية

،تعرف والمصالح الدنيوية تقف حجر عثرة فى وجه التكيف الشامل للمؤسسة الدينية مع الحقائق الديموجرافية (السكانية) للملكة الصليبية.

كانت المملكة الصليبية فى بيت المقدس تتألف من أربع تقسيمات كنسية : أسقفية بيت المقدس التى يرأسها البطريرك وأربعة مراكز أسقفية ، هى قيسارية (ماريبتما Maritina) ، والناصرة ، وصور ، وبتراء ما وراء نهر الأردن (منذ عام ١١٦٨م) . وبالإضافة إلى الكنائس الأبروشية، فإن البطريرك كان يعاونه أساقفة مساعدون مباشرون فى أسقفيات القديس جورج (اللد– الرملة) ، وبيت لحم وحبرون .

ويعتبر تاريخ أسقفيتى بيت لحم وحبرون أمراً ذا أهمية. فقد أصبحت مدينة بيت لحم بعد الغزو الصليبى ديراً لرهبان كنيسة الضريح المقدس، وأصبحت عسقلان معدة لأن تكون أسقفية. ولكن عسقلان لم تخضع للسيطرة الصليبية حتى عام ١١٥٣م ، وشعر الصليبيون أن بيت لحم، بملاذها المقدس، سوف تحتل رتبة أعلى من الدير البسيط. وهكذا استقبلت مدينة بيت لحم أسقفها فى عام ١١١٠م كأسقف مساعد للبطريرك . ولم تصل عسقلان التى خضعت للسيطرة الصليبية متأخرا إلى درجة الأسقفية واعتمدت على أسقف بيت لحم. وثمة تطور مشابه حدث فى حبرون . ففى عام ١١١٩م، وعندما تم اكتشاف قبور البطاركة فى حبرون ارتقت مكانتها الكنسية من مجرد دير للرهبان إلى أسقفية. ومن الجدير بالذكر ، أن مدينة يافا لم تتلقى أسقفًا واعتمدت بشكل مباشر على كهنة الضريح المقدسى. وربما يرجع هذا إلى حقيقة أن الحكام الصليبيين قد وعدوا البطريرك اللاتينى أن تكون يافا ومدينة القدس أوقافًا كنسية تابعه له.

ولكى تكتمل صورة أسقفية مدينة بيت المقدس، يجب أن نشير إلى أن أساقفة كل من المعبد، وجبل صهيون، وجبل الزيتون كانوا جميعًا أساقفة مساعدين لبطريرك بيت المقدس اللاتينى، وهكذا فإنه من الناحية الجغرافية امتدت سلطة البطريرك القضائية لتشمل كل فلسطين القديمة ويهودا (بيت المقدس) حتى سلاسل جبال السامرة.

لقد كانت أسقفية قيسارية محصورة فى تبعيتها بين بطريركية مدينة القدس وبين الكنيسة المطرانية فى الناصرة، بيد أن أسقف السامرة (نابلس) كان بمثابة أسقف مساعد لأسقفية قيسارية. ومن الغريب تمامًا، أن حيفا التى كانت تلى مدينة عكا فى الأهمية قد اعتمدت على أسقفية قيسارية، وإلى الشمال كانت تقع أسقفية الناصرة، التى أعلنت أنها كنيسة مطرانية بكل اقليم الجليل. لقد ظهرت أسقفية الناصرة إلى الوجود فى عام ١١٠٨م لكى تحل

محل أسقفية بيسان القديمة، تلك المدينة التى فقدت أهميتها خلال فترة الوجود الصليبى، وانحدرت إلى مستوى مدينة صغيرة . وكما ذكرنا آنفا، فإن أسقفية الناصرة قد ناضلت كثيرا من أجل حمل هذا اللقب ، بالإضافة إلى الدير المقام على جبل طابور. وعندما تحقق النصر لأسقفية الناصرة بشكل نهائى، تنازلت عن نصف مواردها الكنسية لأبروشية دير التجلى على جبل طابور. وكان أسقف طبرية يعتبر أسقفًا مساعداً لأسقف الناصرة. وكانت طبرية عاصمة اقليم الجليل، مع أنها لم تصبح المركز الدينى لهذا الاقليم.

وكان أساقفة بيروت، وصيدا، وبانياس، وعكا بمثابة أساقفة مساعدين لأسقفية صور.

وتعتبر أسقفية البنزاء فى منطقة ما وراء نهر الأردن آخر الأسقفيات ومن الناحية الاسمية، كان أسقفها هو الأسقف البيزنطى لدير سانت كاترين فى سيناء . بيد أن هذا كان بمثابة خيال، وذلك لأن الصليبيين نادراً ما كانوا يسيطرون على شبه جزيرة سيناء.

ومن الجدير بالملاحظة أن الحجم الفعلى للأسقفيات كان صغيراً. ومن الواضح أن العدد الكبير من الأبروشيات كان انعكاسآ للتقليد القديم (وتذكر احدى القوائم المدون بها أسماء الأساقفة أكثر من مائة أبروشية فى المناطق التى احتلها الصليبيون)، بيد أنها كانت أيضًا تعكس صورة المجتمع الجديد. ونادراً ما كانت واجبات راعى الأبروشية تمتد إلى خارج حدود المدن والقلاع، وذلك لأن الأغلبية العظمى من السكان الأوربيين الصليبيين كانوا يعيشون داخل أسوار المدن. وهكذا فإن الحدود الشكلية للأسقفيات كانت قليلة الأهمية. وتركزت الواجبات الرعوية لراعى الأبروشية بشكل أساسى فى المدن ، وكان حجم هذه المدن وعدد سكانها هو الذى يقرر أهمية هذه الأبروشية. وكانت المناطق الريفية النائية التى يقطنها المسلمون والمسيحيون الشرقيون ذات أهمية ثانوية . وهكذا فإن حجم الأسقفية لم يكن دلالة حقيقية للوضع الاجتماعى أو الاقتصادى للأساقفة اللاتين. فقد كانت موارد الدخل الرئيسة للأسقف تأتى إليه من ريع الكنائس الأبروشية الصغيرة ، ومن الهبات والمنح التى يقدمها أفواج الحجاج التى تتدفق باستمرار إلى هذه المناطق المقدسة ، بالإضافة إلى أملاكه فى المدينة، وممتلكاته من الأرض الزراعية، فقد كان النبلاء والأمراء الصليبيون يقدمون للأساقفة منحًا سخية فى شكل قرى زراعية Casales* ومن المحتمل أن مثل هذه الموادر كانت من الناحية الفعلية أكثر أهمية من العشور الكنسية الريفية التى كان يدفعها السادة الصليبيون .

---

* Casales : وهذه الكلمة تعنى القرى الصغيرة (المترجم) .

عاش المطارنة والأساقفة اللاتين فى الكنائس الكبرى فى مدنهم. وكانت موارد كل كنيسة تقسم بين الأسقف وبين باقى رجال الدين فى الكاتدرائية، وفى الغالب كانت هذه هى الطريقة السائدة - كما كان الوضع فى كنيسة الضريح المقدس - وذلك وفقًا لمعاهدة واتفاق أبرم بشأن طريقة التقسيم هذه ففى عام ١١١٤م ثم استطاع البطريرك المثير للجدل أرنولف Arnolf أن يفرض على رجال الدين اللاتين فى كنيسة الضريح المقدس قانون القديس أوغسطين، هذا القانون الذى كان يرى :

«أن رجال الدين فى كنيسة الضريح المقدس سوف يحصلون على نصف موارد الكنيسة، وأن الجزء الباقى من الموارد يوزع على النحو التالى: يخصص جزءان من هذه الموارد للأماكن والمزارات المقدسة فى الكنيسة (مثل مكان صلب المسيح أو الجلجثة- الخ) للاضاءة الزيتية، ويخصص الجزء الثالث للبطريرك ، وسوف يحصل رجال الدين الذين يحرسون الصليب المقدس على كل القربان المقدس، ماعدا يوم الجمعة الطيبة، أو عندما يأخذ البطريرك الصليب المقدس (صليب الصلبوت) معه فى أوقات الضرورة. ويقر القانون حصول رجال الدين على العشور الكنسية المفروضة على مدينة بيت المقدس بالكامل والأماكن القريبة منها ماعدا الأماكن التى تقام عليها الأسواق والتى كانت ملكا للبطريرك ».

كانت المدن الكبرى تضم عدداً كبيراً من الكنائس بجانب الكاتدرائيات ، بيد أن كثيراً من هذه الكنائس لم تكن كنائس أبروشية بالمعنى الصحيح للكلمة. وكان الجزء الأكبر من الواجبات الرعوية الأبروشية تقع على عاتق الأديرة وكنائس الهيئات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية- التيوتون) ، أو الكنائس التابعة للأحياء الايطالية فى المدن الصليبية التى كانت تتمتع بالاستقلال الذاتى .

ويكفى أن نعيد النظر ونتأمل فى كنيسة مدينة مثل عكا لكى نتصور وضع هذه الكنائس اللاتينية فى المناطق الصليبية، فقد كانت كنيسة الصليب المقدس هى الكنيسة الرئيسة فى عكا، والتى كانت مركزاً لأسقف عكا، ثم أصبحت بعد ذلك وخلال فترة وجود المملكة الصليبية الثانية، مقراً ومركزا للبطريرك اللاتينى، ولاسيما بعد أن أصبحت عكا عاصمة للمملكة الصليبية، وكانت هناك كنائس للهيئات الدينية العسكرية مثل فرسان الاسبتارية ، والداوية، والتيوتون ، وفرسان القديس لازاراس Lazaras ، وفرسان القديس مونتجو، والقديس توماس Thomas، وكانت هذه الكنائس التابعة للهيئات الدينية العسكرية تتنافس

مع الكنائس الأبروشية فى المناطق الصليبية. وكانت هناك ثلاث كنائس رئيسة تابعة للكوميونات الايطالية، وهى كنيسة القديس مارك للبنادقة وكنيسة القديس بطرس للبيازنة ، وكنيسة القديس لورنت Loarant للجنوية. وفى القرن الثالث عشر الميلادى، كانت هناك كنيسة القديس مارتين للبريتون ، وكنيسة القديسة مارى للبروفنسال *. وقد تمتعت معظم هذه الكنائس تقريبًا بالاستقلال القضائى بعيداً عن السلطات المحلية، الأمر الذى ألحق الخسارة الفادحة والغم والضيق برجال الدين المحليين. وهذا الوضع يفسر الانتقادات اللاذعة والحادة التى وجهها جاك الفيترى أسقف عكا لرجال الدين النظامين يتهمهم فيها بالفساد قائلاً : «... وبعد أن أفسدتهم الثروة والغنى والتكاثر بدرجة قوية ، ونالوا الممتلكات الواسعة، بدأ رجال الدين يحتقرون زعماءهم ، يحطمون بذلك سلاسل القلوب الموحدة، ويقطعون الوشائج والروابط التى كانت تربطهم بعضهم ببعض».

ولكى تكتمل الصورة بوضوح للبنية الدينية للمملكة اللاتينية فى بيت المقدس، فإنه يجب علينا أن نتناول بالدراسة المنشآت الديرية فى هذه المملكة الصليبية.

ب- الأديرة Monasteries

كان رجال الدين النظاميون بكنائسهم وواجباتهم الرعوية الملقاة على عاتقهم يمثلون أحد مظاهر المؤسسات الدينية. وكما كان الوضع فى كل أنحاء العالم المسيحى آنذاك، كانت المؤسسات والهيئات الديرية جزءاً متممًا لنظام رجال الدين النظاميين. ومن المعروف أن نمط الحياة الديرية، يرجع إلى فترة قديمة، وتستطيع مصر فقط أن تفخر بأنها احتضنت أقدم الجماعات الديرية المسيحية **. وظلت آثار هذا التقليد الديرى، ووجد هذا النمط طريقه إلى

---

* تذكر الوثائق الصليبية أن مدينة عكا فى القرن الثالث عشر الميلادى كان بها حوالى ٤٠ كنيسة، وكانت بعض هذه الكنائس أجزاءً من الأديرة (المؤلف) .

** الديرية فى مصر: تعتبر مصر الوسطى الموطن الأصلى للنظام الديرى الذى عرفه العالم المسيحى منذ القرون الأولى للميلاد . ويرتبط هذا النظام بشخص القديس أنطون الذى كان أول شخص فى مصر الوسطى يلجأ إلى الصحراء من أجل التنسك المسيحى. فقد ولد أنطون حوالى سنة ٢٥٠م وكان سليل أسرة مصرية ثرية تقيم فى احدى قرى مصر الوسطى . واستطاع أنطون أن يضع الأسس الأولى لحياة التنسك الفردى. وفى القرن الرابع الميلادى استطاع أحد المصريين المسيحيين وهو باخوم أن ينسحب من الحياة ويعتزل للتنسك والتأمل، وكان أول مسيحى يؤسس دير، وانتشر نموذج الدير بشكل كبير فى مصر الوسطى والعليا وعرفت باسم الأديرة الباخومية ، ووضع باخوم قانونا ونظاما للحياة الديرانية (المترجم) .

الأديرة والقلايات البيزنطية ، ووجد هذا النمط الديرى فى بلاد الشام بشكل غير مستقر عشية الغزو الصليبى، وظهر هذا السلوك الديرى أيضا من خلال حياة النساك المتوحدين الذين كانوا يقيمون على الدوام فى أماكن منعزلة ويحظون بالقداسة منذ العصر القديم ، وعلى سبيل المثال، كانت هذه الأماكن تشمل كهوف جبل كارمل أو كهوف وادى جوسفات Josephat والواقعة على منحدرات جبل الزيتون. وكان بعض هؤلاء النساك من الأوربيين الذين حضروا إلى الأراضى المقدسة بصحبة قوافل الحج واستقروا فى هذه المناطق خلال فترة السيادة الإسلامية. واستمر نمط الناسك المتوحد فى الوجود خلال فترة السيادة الصليبية، ولم يختفى مثل هذا النمط ، وهكذا كان هذا النظام الديرى إضافة للصورة البشرية الفسيفسائية فى الأراضى المقدسة فى فلسطين. وكانت التقوى أو النزعة الفردية هى التى تجذب النساك صوب الأراضى المقدسة فى الشرق ، مقتفين قدوة ومثال القديس باخوم ، أو نموذج القديس هيلارى* ذات الشهرة القديمة . وقد ثبتت جذور الأديرة الغربية الأوربية فى الأراضى المقدسة غداة وصول الصليبيين إليها. وعلى الرغم من أن بعض الأديرة الجديدة كانت تدعى وجودها الباكر فى المنطقة ، فإنه لم يكن هناك ثمة دليل يؤكد حتى ارتباط هذه الأديرة بالمنشآت الديرية التى أقامها شارلمان، وذلك إذا تجاوزنا عن ذكر الأديرة فى عهد البابا جريجورى الأول أو حتى المنشآت الديرية الغربية الباكرة. ولاتزال ذكريات هذه الأديرة باقية وماثلة للعيان، بيد أن هذه الذكريات، أو النقوش الأساسية استطاعت أن تبرهن على وجود عدد من الأديرة الغربية فى منطقة الشرق العربى والتى ترجع إلى فترة ما قبل الوجود الصليبى فى هذه المنطقة كانت عبارة عن اثنين من الأديرة البندكتية، تم تشييدهما فى الحى المسيحى فى مدينة القدس، والذى كان يواجه الضريح المقدس. وكانت هذه الأديرة الأوربية اللاتينية هى دير القديسة ماريا العظيمة المخصص للنسوة الراهبات ، وقام التجار الأمالفيون بتأسيس هذا الدير بعد منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وكان هذا الدير مرتبطًا بكنيسة نوتردام (كنيسة السيدة مريم العذراء) ، وقام تجار أمالفى أيضا بانشاء نزل لاستقبال واستضافة الحجاج وكرست هذه النزل للقديس جون. ومع حدوث الحروب الصليبية بدأ فصل جديد فى التاريخ الديرى فى الأراضى المقدسة.

---

* القديس هيلارى: يعتبر القديس هيلاريوس من أشهر رجال الدين فى الكنيسة الأوربية الكاثوليكية فى العصور الوسطى . (المترجم).

وقد تشكلت المؤسسات الديرية الصليبية الباكرة من الرهبان ومن رجال الدين الذين رافقوا جيوش الحملة الصليبية الأولى، وخاصة من الذين جاؤا بصحبة جودفرى البويونى. وبعد أن احتل الصليبيون مدينة القدس مباشرة قاموا بالاستيلاء على ثلاثة من الأماكن المقدسة القديمة فى المدينة والتى لحق بها التدمير الجزئى على يد المسلمين وهى الأماكن التى هجرها رجال الدين البيزنطيون. وكان هذا هو بداية إنشاء الدير البندكتى للقديسة مريم فى وادى جوسفات*، والذى أعيد بناؤه فوق القبر التقليدى للعذراء ، وأعيد تشييد دير وكنيسة الصعود على جبل الزيتون ، وكذلك دير جبل صهيون. وخلال حماسة واندفاع الغزاة الصليبيين وتأجج روح الأخوية العامة، اعترف رؤساء هذه الأديرة الجديدة بتبعيتهم المباشرة للبطريرك اللاتينى فى بيت المقدس، وأيضا لمقدم الدير ورجال الدين فى كنيسة الضريح المقدس. وقد ثبت أن هذه التبعية كانت محكمة بشكل غير عادى، وذلك لأن كبار رجال الدين المحليين كانوا يطالبون بحقوق خاصة تتمثل فى الاحتفال بالأعياد فى أديرة الكنائس.

وفى حين تم تشييد الأديرة اللاتينية التى ذكرناها آنفا فى أماكن مقدسة بموجب العرف والتى ورثت المؤسسات البيزنطية ، فإن بعض الأديرة الجديدة تأسست أيضا فى مدينة القدس (العاصمة) . وكان أول هذه الأديرة دير معبد المسيح (Templum Domini)، الذى شيد على الجانب الشمالى من مسجد عمر السابق ، والذى لم يلحقه الاضطراب نتيجة تأسيس الداوية لديرهم على مقربة من المسجد الأقصى. وكان هناك دير آخر خارج أسوار مدينة القدس وهو دير القديس ستيفن St. Stephen الذى كان يواجه بوابة دمشق. وفى فترات مختلفة كان المكان المتحجر الذى شهد صلب المسيح (الشهيد الأول) يرى فى أماكن مختلفة من بيت المقدس، بيد أن هذا الحجر (الجلجثة) استقر أخيراً فى مكان دير القديس استفين .

وفى خطوة مماثلة لاقامة أديرة للرهبان فى مدينة بيت المقدس ، قام رجال الدين فى كنيسة الضريح المقدس باتباع قانون القديس أوغسطين، وأسسوا أديرة للراهبات من النسوة. ويعتبر دير الراهبات الايطالى المعروف باسم دير القديسة مريم العظيمة والذى أسسه تجار أمالفى

---

* وادى جوسفات: يمتد شرقى بيت المقدس بين جبل الزيتون شرقا وجبل موريا غربا، وأطلق عليه المؤرخون فى العصور الوسطى اسم وادى جهنم ويعتبر جزءاً من وادى قدرون (المترجم) .

من الضريح المقدس من أقدم هذه الأديرة التى خصصت للراهبات من النسوة*. وعلى أى حال ، فإن هذه المنشآت الديرية أصبحت أكثر شهرة فى الفترة الأخيرة، وأسبغ الملك الصليبى عليها حمايته وتأييده ، مثل دير القديسة حنا. وشيد فى حى السوريان فى مدينة القدس القريب من بوابة يوسف ، دير الكنيسة الرمانتيكية الجميلة والذى ما زال يمثل أمجاد العمارة الصليبية. وفى المكان الذى يتعلق بشكل تقليدى ببركة السمك والذى ورد ذكره فى العهد الجديد (الانجيل) شيد فوقه كنيسة صغيرة (كنيسة مونستير Mounstier) ومما يذكر أن هذه الكنيسة قد شيدت فوق أطلال منشآت بيزنطية رائعة**. ومن الأماكن الأكثر أهمية فى هذه المناطق بيت القديسة حنا وبيت جوشيم Joachim ومكان ميلاد السيدة العذراء. وكان أفراد الأسرة الملكية الصليبية من السيدات والبنات يدخلن ويلتحقن بهذه الأديرة المخصصة للنساء، وأحيانا كن يرغمن على الالتحاق بهذا الدير المخصص للراهبات. وثمة دير آخر شهير للراهبات nunnery أقيم فى بيت حنون Bethany وهو المكان التقليدى الذى شهد بعث القديس لازاروس lazarus وكانت يقيت Yvette ابنة الملك الصليبى بلدوين الثانى ثانية مقدمة لهذا الدير.

ومما يذكر أن معظم الأديرة اللاتينية فى المناطق الصليبية كانت تخضع لقانون الدير البندكتى، ومن الجدير بالملاحظة ، أن عدداً قليلاً جداً من الهيئات الديرية الكبرى فى أوربا كانت ترسل ممثليها إلى المملكة الصليبية فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى. وعلى سبيل المثال، كان اتجاه الرهبان السسترشيان مثالا لهذا النشاط الديرى الأوربى فى الأراضى المقدسة. وعلى الرغم من ثقل الأعباء الملقاة على عاتق الملك الصليبى بلدوين الثانى، فإنه قدم ومنح

---

* دير القديسة مريم للاتين: هو أحد الأديرة البندكتية القائمة فى بيت المقدس، وقد أسسه أهالى أمالفى حوالى عام ١٠٧٠م / ٤٦٢هـ وقد كان مركزا للحجاج اللاتين الذين يزورون الأراضى المقدسة. كما كان ملجأ للحجاج اللاتين الذين كانوا يفقدون نقودهم فى أثناء السفر ويصلون إلى الأراضى المقدسة منهكين من مصاعب الطريق. وقد ألحق بهذا الدير مستشفى تطورت فى عهد الملك الصليبى بلدوين الأول إلى مقر هيئة فرسان يوحنا .(Hamitlon, the Latin Church, pp. 95-96) . (المترجم) .

** لم تنشر نتائج الحفائر الأثرية- التى أجراها بيريه بلاتك خلال العقد الأخير فى هذه المناطق، وهى الحفائر التى كشفت عن الكنيسة البيزنطية. (المؤلف) .

بسخاء الأموال اللازمة لبناء دير فى منطقة النبى صموئيل، ورفض الرهبان السسترشيان اقامة دير لهم ، بيد أنهم أوصوا ببناء دير لمؤسسة رهبان بريمونسترانشيان Premonstratensian . فقد بنى هؤلاء الرهبان كنيسة كبيرة، وفى فترة متأخرة تحولت هذه الكنيسة إلى مسجد، وما زال هذا المسجد موجوداً فى مدينة القدس حتى اليوم. وأطلق الصليبيون على هذه الكنيسة اسم كنيسة جبل السرور والابتهاج (dontjoye . Mons Gaudii) ، وترجع هذه التسمية إلى أن جموع الحملة الصليبية الأولى وأيضا الحجاج الصليبيين فى فترة متأخرة كانوا يأتون إلى المدينة المقدسة (القدس) لمشاهدتها ، فكانوا أول ما يشاهدونه فى طريقهم إلى القدس هو موضع هذه الكنيسة. ويرتبط مكان هذه الكنيسة فى الديانات التوحيدية الثلاث (اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام) بالنبى صموئيل (وكان هذا المكان بمثابة مكان ميتزبا Mitzpa الانجيلى أو راما Rama). ويفسر لنا القديس برنارد الأسباب التى جعلت طائفة الرهبان السسترشيان يرفضون الاستقرار فى المناطق الصليبية فى منطقة الشرق العربى وهى «أن رهبان السسترشيان رفضوا الاستقرار فى هذه المناطق الصليبية بسبب انتهاكات الوثنيين ومشكلات المناخ» . وقد أثيرت بعض الشكوك حول الدوافع الحقيقة لرفض السسترشيان اقامة أديرة لهم فى الأراضى المقدسة ومن المحتمل أن السسترشيان لم يقبلوا بكل جوارحهم الهيمنة الطبيعية للأراضى المقدسة كقيمة دينية، ومن الملاحظ أن رهبان بريمونستراتنشيان Premonstratensian الذين أقاموا ديراً فى جينيس Zinis أو كينيس Kenise* بالقرب من اللد للقديسين يوسف وأباكو الكانس Abacue de Cansu وتكريس هذا الدير لهذين القديسين لايمكن تفسيره بسهولة- قد استقروا أيضًا فى جبل السرور Montiyoye .

وكانت الأديرة الكلونية التى ارتبطت بشكل أساسى بالحركة الصليبية قلما تظهر فى الأراضى المقدسة. فقد عرفنا أن ديراً بندكيتا صغيراً فقط وجد فى قرية بالمرى Palmarea الصليبية (القريبة من حيفا) وأن هذا الدير انتقل إلى الكلونيين (فى عام ١١٧٠م) ، وذلك عندما ظهرت بوادر فشل واخفاق المنشأة الديرية.

ويجدر أن ننوِّه بشكل خاص إلى الدير البندكتى المقام على جبل طابور Tabor **، وفى

---

* جينيس أو كينيس : المقصود بها كفر نعوم القريبة من اللد (المترجم) .

** جبل طابور: يقع فى اقليم الجليل، جنوب شرق الناصرة، وعلى بعد تسعة كيلو مترات منها، ويسمى=

نفس موضع أحد الأديرة البزنطية الباكرة. وظل هذا الدير لمدة طويلة يطالب بأحقيته بكنيسة الجليل. وقد حصل دير جبل طابور على أوقاف ومنح سخية، وأصبح هذا الدير بمثابة امارة أو مقاطعة دينية صغيرة . وعلى الرغم من أن هذا الدير الصليبى (دير جبل طابور) والذى يرجع تاريخ انشائه إلى فترة الغزو الصليبى تحت قيادة تانكرد ، قد أصابه الدمار على يد المسلمين فى عام ١١١٣م فإنه قد أعيد بناؤه مرة أخرى تحت اشراف الكلونيين ، الذين استطاعوا تجميع الرهبان السابقين لهذا الدير . وكان على هذا الدير أن يقوم بوظيفة الدير ووظيفة الحصن، وخاصة خلال فترة القرن الثالث عشر الميلادى، حيث ظل هذا الدير قائمًا على تخوم المملكة الصليبية المتقلصة. وفى ظل هذه الظروف المالية ، قام الرهبان ببيع كل ممتلكاتهم لفرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) الأكثر قوة ونفوذا والذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن المملكة الصليبية والحفاظ على أمنها واستقرارها .

ومن خلال الوصف السريع والسطحى للأديرة لايمكن بأى حال من الأحوال أن نتجاهل منشأة ديرية وجدت خلال فترة الوجود الصليبى وهى هيئة الكارمليين Carmelites فقد كانت الجماعات الديرية الأولى من الكارملين تعمل تحت قيادة القديس بيرثولد Berthold ويرجع وجود هذه الجماعات الديرية الكارملية إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى. ولم يظهر تنظيمهم وهيئتهم الديرية قبل بداية القرن الثالث عشر الميلادى، حيث التمس عدد من الرهبان الذين يعيشون على منحدرات جبل الكرمل العون فمنحهم البطريرك البرت (١٢٠٤-١٢١٦م) قانونهم الأول، وبعد ذلك قام البابا هونريوس Honorius بتثبيت وتأكيد هذه المنحة. ولم يكن للكارمليين الذين استقروا فى مدينة عكا أية أهمية فى الأراضى المقدسة ، بيد أنهم جلبوا إلى أوربا اسمهم المقدس والرفاق الذين ينتمون إلى الأراضى المقدسة.

الواقع أن سقوط المملكة الصليبية لم يقف حجر عثرة فى وجه تطور الحركة الديرية . وعلى النقيض ، فقد انتعشت هذه الحركة الديرية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ويمكن القول إن هذا الانتعاش ربما كان انطباعًا من خلال ما أشارت إليه المصادر التاريخية المتاحة لنا. ولاشك فى أن سقوط المملكة الصليبية كان يعنى انهيار الأساسى الاقتصادى للحياة النسكية

= الآن باسم جبل الطور، ويشرف على سهل مرج بن عامر ، ويرتفع عن سطح البحر نحو خمسمائة وثمانية وثمانين مترا، وجوانب الجبل مكسوة بشجر السندبات والجوز وغيرها ، وتربته خصبة .(مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، جـ٧، ق٢، ص١٣) .

والقرية ، القن والفلاح، الحجاج والقرابين، كل هؤلاء جميعًا لم تزد عن كونها مجرد ذكريات للماضى . فقد بقيت المنشآت الكنسية فى المدن الساحلية فقط، وإن كانت هذه المنشآت قد أصبحت محدودة وضئيلة الموارد. كانت مدينة عكا ضمن المدن الساحلية التى حازت الأسبقية وحق الصدارة . فقد شهدت الفترة الباكرة من الوجود الصليبى، فى القرن الثانى عشر الميلادى، امتلاك بعض رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الأديرة المنازل فى مدينة عكا. وكان من المناسب أن يمتلك كل رجل من رجال الدين منزلاً فى مدينة عكا ، ذلك الميناء المهم فى المملكة الصليبية، ولم ترجع هذه الرغبة إلى أسباب مالية فقط، بل كانت أيضا بسبب الأهمية التجارية لمدينة عكا على المستوى المحلى والمستوى العالمى. وعندما سقطت المملكة الصليبية فى عام ١١٨٧م فى أعقاب موقعة حطين الشهيرة ، ثم تم استرداد هذه المملكة مرة أخرى بعد أحداث الحملة الصليبية الثالثة، هربت الجماعات الدينية وفرت إلى مدينة عكا. وتحولت الاقامة المؤقتة إلى دائمة ، وعاش السكان الصليبيون يحدوهم الأمل فى استرداد المملكة الصليبية، هذا الأمل الذى لم يتحقق على أرض الواقع. وترك بعض الصليبيين ممثلين ونوابا لهم فى عكا وقفلوا راجعين إلى أوطانهم فى أوربا حيث أملاكهم وذويهم ، وعهدوا إلى ممثليهم ونوابهم فى المناطق الصليبية مهمة حماية المزارات المقدسة فى فلسطين والاشراف عليها.

وتوضح احدى خرائط مدينة عكا والتى ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى عدداً كبيراً من الكنائس والأديرة بشكل لافت للنظر. ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى حقيقة مهمة مؤداها أنه بالإضافة إلى المنشآت الديرية القديمة، فإن فروع الهيئات الديرية الأوربية الجديدة قد استقرت فى أماكن متفرقة غير معروفة فى المملكة الصليبية. ومن الطبعى أن معظم هذه الهيئات الديرية كانوا من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان *، الذين جاءوا إلى الأراضى المقدسة فى عام (١٢٣٠م) وساهموا على الفور بفرقة كبيرة فى تشكيل الرتب الدينية الصغيرة فى فلسطين .

---

* الفرنسيسكان – الدومنيكان : من أشهر الجماعات الديرية فى أوربا فى العصور الوسطى. فقد ساهمت هاتان الجماعتان فى حركة التنصير فى أوربا وخارجها وقدمت العون للبابوية ولاسيما خلال بابوية انوسنت الثالث ، كما ساهمتا بقدر كبير فى التعليم والنهضة التعليمية فى الأقطار الأوربية.

لمعرفة المزيد انظر (نورمان كانتور : أوربا العصور الوسطى) ترجمة د. قاسم عبده قاسم، الجزء الثانى، ص١٩٥ .

وفى الغالب أصبحت بيوت هؤلاء الرهبان الدومنيكان والفرنسسيكان مراكز انطلاق للتنصير. وكانت هذه الطوائف الديرية الجديدة تضم طائفة الروح القدس، وطائفة الثالوث المقدس (وهى طائفة عسكرية مميزة عن طائفة المستشفى التى كانت تحمل نفس الاسم) . وتعتبر طائفة القديسة ماريا المجدلية أهم هذه الطوائف الديرية، وهى الطائفة التى ضمت بين أعضائها النسوة الساقطات والداعرات واللاتى رغبن فى التوبة فى هذه المدينة العالمية المقدسة (القدس) . فقد كانت كل أديرة المؤسسات الدينية العسكرية القديمة، الاسبتارية الداوية، فرسان التيوتون ، مثل أديرة هيئة فرسان القديس لازاريوس المجذومين، وأديرة راهبات القديس لازاريوس Lazarus ، مرتبطة بنفس الهيئ والمؤسسة الديرية ، أو بفرع من فروع الدير المقام فى منطقة بيت حنون Bethany القريبة من القدس. وبالإضافة إلى هذه الأديرة ، كان هناك هيئة القديس توماس من كانتربورى الانجليزية، وهيئة ديرية جديدة هى هيئة القديس لورانس Lawrence (ومن المحتمل أن هذه الهيئة كانت لها علاقة بالجنوية) .

ويمكن أن نستنتج بسهولة أن الهيئات الدينية العسكرية والطوائف الرهبانية القديمة والجديدة قد اعتقدت بأنها ملزمة تقريبًا بأن يكون لها ممثلوها ونوابها فى الأراضى المقدسة. وعلى سبيل المثال ، اتبع الدومينيكان العادة الباكرة للهيئات الدينية العسكرية فقررت (فى ميتز سنة ١٢٥١م) بأن تقوم بيوتاتهم فى أوربا بارسال مجموعة محددة من الأخوة الرهبان إلى الأراضى المقدسة فقد رأت هذه الطوائف الدينية الديرية فى المملكة الصليبية على أنها حقل ومجال للعمل والدعاية ، فى حين انجذب الآخرون إلى هذه المملكة بقصد التأمل الروحى والدينى، وشعر البعض الآخر أنه من الضرورى أن يكون لهم منشأة ديرية فى الأماكن المقدسة فى تلك المملكة التى أصابها التفسخ والانهيار بشكل سريع . وظلت هذه المنشآت الديرية حتى سقوط مدينة عكا سنة ١٢٩١م فى يد المسلمين، وكانت هذه المنشآت الديرية أيضًا علامة بارزة لنهاية المملكة الصليبية. ومما يذكر أن الكنائس والمزارات المسيحية الصليبية التى كانت توجد

---

* بيت حنون Bethany: هى قرية العيزرية ، وتقع على ربوة جنوب شرقى جبل الزيتون ، وقد وصفها الحاج دانيال الروسى بأنها قرية صغيرة فى واد خلف الجبال على نحو كيلو مترين جنوبى بيت المقدس ، وأضاف دانيال أنه يوجد فى بيت حنون الحجرة التى مرض ومات فيها القديس العازر (Daniel , Pilgrimage of the Russian Daniel in the holy Land , pp. 31-33)

عام ١١٨٧م قد عادت مرة أخرى إلى أصحابها السابقين من البيزنطيين والسوريان. وتحولت بعض الأماكن المسيحية إلى مساجد ، وهكذا تم المحافظة على الوظيفة الدينية المستمرة للمساجد، وأصبحت هذه المساجد بمثابة ذكرى حية لعالم صليبي اندثر واختفى من الوجود .

لقد كان وصول الفرنسيسكان إلى الأراضى المقدسة متأخراً نسبيًا ، وفى البداية استطاع الرهبان الفرنسيسكان التكيف مع الوضع الجديد. وكانوا الحراس الرسميين للأراضى المقدسة منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادى ، ودعموا الوجود الصليبى فى فلسطين وقد شهدت الظروف المواتية فى القرنين التاسع عشر والعشرين من الميلاد انتعاش المؤسسات الديرية الأوربية فى الأماكن المقدسة وما حولها .

جـ- أعياد الكنيسة والحياة الدينية فى المملكة الصليبيــة :

وبصرف النظر عن المزارات المقدسة ، كانت الاحتفالات بالأعياد المسيحية أكثر جاذبية لأولئك الحجاج المسيحيين القادمين من أوربا. وحالما ثبتت الجغرافية المقدسة لمدينة بيت المقدس لم يتم الاحتفال بالأعياد الدينية فقط، بل كان يتم أيضا الاحتفال بأحداث القصة الانجليلية التى تتعلق بالوجود التاريخى للمسيحيين ، فقد كان الأساقفة يتصدرون المواكب الاحتفالية التى تخرج إلى مختلف كنائس المدينة والمناطق المحيطة بها، ويظهرون لجموع المؤمنين بالعقيدة المسيحية عظمة وجلال هذه العقيدة ودراما قصة المسيح المخلص.

وبالإضافة إلى أيام الأعياد المسيحية الكبرى والمهمة التى كانت مألوفة فى الأراضى المقدسة وفى معظم أنحاء العالم المسيحى، كانت هناك بعض الأعياد المسيحية الخاصة بمدينة بيت المقدس. ففى الخامس عشر من يولية من كل عام، كانت مدينة القدس تحتفل بحادثتين بارزتين هما: الغزو الصليبى للمدينة فى عام ١٠٩٩، وذكرى مرور خمسين عامًا على رسامة كاهن الضريح المقدس، ويتفق هذا التاريخ مع عام ١١٤٩م.

كان الاحتفال السنوى بذكرى غزو الصليبيين لمدينة بيت المقدس يتم من خلال موكب دينى جليل. فقد كان البطريرك يقود هذا الموكب الاحتفالى فى وقت مبكر من الصباح ، حيث يبدأ الموكب من كنيسة الضريح المقدس ويمر بمعبد وهيكل المسيح Templum Domini ، ومسجد عمر. وهنا كان الموكب يتوقف ويقوم المصلون بتأدية الصلاة عند المدخل الجنوبى، فى ذلك الجزء المستوى من أرض الهيكل والذى كان يواجه المسجد الأقصى . ومن هنا كان الموكب يشق

طريقه عبر أرض الهيكل إلى الجبانة الواقعة خارج أسوار المدينة. وهنا لم يكن الموكب بعيداً عن الجانب الشمالى الشرقى لأسوار المدينة التى سقطت فى أثناء الغزو الصليبى. وعندئذ كان الموكب يقطع شارع يوسف لكى يتقدم إلى الجزء الشمالى من أسوار المدينة ، وهنا كان الموكب على مقربة من الجانب الشمالى الشرقى لأسوار المدينة، وكان هناك نصب على شكل صليب يميز هذه المنطقة ، وهو المكان الذى نفذ منه فرسان القائد الصليبى جودفرى البويونى إلى داخل مدينة بيت المقدس فى أثناء الغزو الصليبى لها. وفى هذا الموضع كان البطريرك يلقى خطبة وموعظة دينية على مسامع رجال الدين والجماهير المحتشدة من العامة، ويؤدى صلاة الشكر بمناسبة احياء ذكرى تأسيس الكيان الصليبى فى الأراضى المقدسة.

وكانت مدينة بيت المقدس تحتفل بالأحداث المهمة للسنة المقدسة التى كانت مألوفة لدى كل العالم المسيحى وربما كانت لهذه الاحتفالات تأثير ووقع كبير على جميع المشاركين ، الصليبيين والحجاج على السواء. وكانت المواكب الاحتفالية تبدأ من منطقة الضريح المقدس وتنتهى عند الأماكن التقليدية التى شهدت ذكريات الأحداث المقدسة التى يتم احياء ذكرها من خلال هذه المواكب، والواقع أن هذه المواكب والمهرجانات الدينية كانت تتخللها بعض أحداث الشغب والمشاحنة ، وذلك لأن الطوائف الدينية المختلفة لم تمتزج فيما بينها ولم تعرف الانسجام .

ومما يذكر أن الكنيسة المجاورة للموكب كانت تدق أجراسها لكى تشوش على أعمال القداس الذى يقوم به الكاهن فى أثناء الاحتفالات . وعلى سبيل المثال ، حدث مثل هذا الذى سبب الاشمئزاز للجماهير، وذلك عندما قرر الاسبتارية ذات يوم أن يزعجوا المصلين فى كنيسة الضريح المقدس . وأحيانا كان رئيس دير أحد أديرة مدينة بيت المقدس يحاول أن يكون كاهنًا رسميًا دون أن يذعن لرئيس دير أو رجال الدين فى كنيسة الضريح المقدس. وكانت مثل هذه المنازعات تنظر أمام محكمة دينية أو أمام هيئة تحكيم من كبار الأساقفة . وكان من الطبيعى أن يتم الاحتفال بعيد ميلاد المسيح فى كنيسة المهد ببيت لحم ، وكان البطريرك يقود هذا الاحتفال .

وفى يوم أربعاء الرماد (أول أيام الصيام الكبير)، كان البطريرك يلتقى برجال الدين والأخوة العلمانيين من جميع الطوائف فى صحن الكنيسة . وفى وقت الظهيرة كانت تقرع أحد الأجراس الضخمة لاستدعاء الناس إلى كنيسة الجلجثة الصغيرة (مكان صلب المسيح

وتعذيبه) . وعلى بعد خطوات قليلة من هذا الجبل الرائع، كان البطريرك يلقى موعظة دينية فى الجمع المحتشد فى فناء كنيسة الضريح المقدس وبعد اجراء طقس الاعتراف ، والغفران ومنح البركة، كان يتم نثر الرماد فوق رؤوس المؤمنين .

وثمة احتفال آخر من الاحتفالات المسيحية الرئيسة ، وهو الاحتفال بعيد «طهارة العذراء المباركة» وعيد «تجلى المسيح فى الهيكل» ، وكان هذا الاحتفال يتم من خلال موكب تحمل فيه الشموع وتطلق فيه البخور، يأخذ الموكب طريقه من كنيسة الضريح المقدس إلى معبد وهيكل المسيح.

ومما يذكر أن الاحتفال بعيد «أحد السعف» كان يشهد مركبًا عظيمًا . وقبل شروق الشمس وحتى بعد انبلاج الصبح، كان رجال الدين فى كنائس مدينة القدس، والبطريرك ورؤساء أديرة جبل صهيون وجبل الزيتون يذهبون جميعًا إلى دير بيت حنون Bethany القريب من مدينة القدس . وكان خازن كنيسة الضريح المقدس يحضر معه الصليب المقدس الذى يعتبر من أشهر الذخائر المقدسة على الاطلاق . وفى تلك الأثناء ، كان سكان مدينة القدس يحتشدون فى ضاحية «هيكل السيد المسيح» templum Domini معًا مع رجال الدين فى كنيسة القيامة، ورهبان أديرة القديس جون John، ورهبان دير سانتا ماريا لاتينا، ورهبان دير جبل صهيون. وعلى الأرض المستوية لمنطقة الهيكل كان يقف أحد الأساقفة اللاتين لكى يبارك سعف النخيل والزيتون، الذى كان يحمله الناس ، وكان هذا الأسقف يقود الموكب الذى يشق طريقه عبر بوابة يوسف إلى وادى جوسفات حتى يصل بالقرب من أسوار المدينة. وهنا كانوا يلتقون بالمركب المتجه من بيت حنون Bethany والذى كان يقوده البطريرك شاهراً ورافعًا الصليب المقدس. وعندئذ كان المشاركون فى هذا الموكب يتسلقون ربوة لمشاهدة الوادى ويزحفون إلى منطقة الهيكل خلال وعبر «البوابة الذهبية» (كانت هذه البوابة البداية تفتح أبوابها فى هذه المناسبة بصفة خاصة) ووفقًا للاعتقاد المتوارث ، فإن هذه البوابة كانت تذكرة لمناسبة الدخول الظافر للسيد المسيح. وبعد أن استقر فرسان الداوية فى منطقة «هيكل سليمان » (المسجد الاقصى)، كان هذا الموكب الاحتفالى ينتهى بتأدية الصلاة فى ضاحية معبد السيد . وهكذا كان يتم الاحتفال بذكرى حادثة من أحداث العهد الجديد (الانجيل فى موضعها الأصلى، وهى الحادثة التى كان يتم احياء ذكراها فى أنحاء العالم المسيحى من خلال الصور الزيتية وأعمال النحت .

وفى عشية يوم الجمعة الطيبة، كان يحتفل بطقس غسل الأقدام فى دير سانت مارى فى جبل صهيون. ويعتمد وصفنا لهذه الطقوس والشعائر على ما ذكره لنا أحد مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى عن مجموعة الطقوس والشعائر فى كنيسة الضريح المقدس، وأوضح لنا هذا المؤلف بيقين أن أقدام المدعوين الفقراء كانت تغتسل بعد انتهاء مراسم الاحتفال ، وذلك درأ ووقاية من أخطار عدوى الأقدام المصابة بالجذام والسرطان فى أثناء الطقس . وقبل اجراء هذا الطقس، كان البطريرك يلقى موعظة كنسية، ثم يقوم بعد ذلك بعملية تكريس ورسامة رجال الدين بمسحهم بالزيت المقدس، وكان يوزع هذا الزيت على مختلف الطوائف والجماعات الدينية . وبعد ذلك، كان يأتى كبير كهنة كنيسة الضريح المقدس ومعه الأحواض والمناشف ، ويقوم بغسل رؤوس وأقدام الفقراء ، ويقبل أيديهم ويوزع عليهم الملابس والأحذية. وفى يوم الجمعة التالى ، كان يحمل الصليب المقدس من خزانة كنيسة الضريح المقدس ويعرضه فى كنيسة الجلجثة الصغيرة . ويؤدى رهبان دير كنيسة الضريح المقدس الصلاة وهم حفاة الأقدام، وكان يتم استدعاؤهم لحضور هذه الطقوس الدينية الاحتفالية على الطريقة الشرقية وذلك بواسطة المقارع الخشبية وليس بواسطة قرع الأجراس .

كان الاحتفال بعيد «النار المقدسة» من الأعياد الشهيرة فى مدينة بيت المقدس. ويرجع هذا الاحتفال بشكل واضح إلى فترة قديمة وطويلة (وإن كان لم يثبت وجود هذا الاحتفال قبل القرن التاسع الميلادى) ، واقتبس الصليبيون هذا الاحتفال وجعلوه فى اليوم السابق لعيد الفصح إذ كان البيزنطيون يحتفلون بهذا العيد فى كنيسة الضريح المقدس قبل الوجود الصليبى، أى أن الصليبين أخذوا الاحتفال بهذا العيد عن البيزنطيين . وفى البداية كانت الاحتفالات بهذا العيد تحمل بعض تأثيرات ومظاهر الاحتفالات ذات الأصل البيزنطى، والتى اختفت بعد فترة. وعلى الرغم من أن الراهب الأرثوذكس دانيال الروسى* الذى زار مدينة القدس فى عام ١١٠٥ لم يكن عدواً للفرنجة فانه قد أشار بسرور وارتياح إلى مشاركة الرهبان البيزنطيين من دير القديس ساباس St. Sabas فى هذه الاحتفالات بالأعياد الدينية. ويقول الراهب دانيال الروسى

---

* الراهب دانيال الروسى: ضمن الرحالة الذين زاروا الأراضى المقدسة فى بلاد الشام فى أوائل فترة الوجود الصليبى وذلك فى (١١٠٦-١١٠٧م) وقام بزيارة فلسطين والأردن ، ومعظم مدن بلاد الشام، واهتم بزيارة الأديرة والكنائس ، وسجل معلومات كثيرة خاصة بهذه الأماكن ، وأسهب فى وصف هذه الأماكن الدينية» (المترجم) .

بارتياح واقتناع أن اللمبات التى يضعها الرهبان البيزنطيون فى كنيسة الضريح المقدس تعطى ضوءاً مختلفا وأقوى من تلك التى يضعها الرهبان الفرنجة . بيد أنه بعد ذلك أصبحت الاحتفالات بهذا العيد ذات سمة صليبية بحتة.

لقد كان رجال الدين والجماهير المحتشدة المشاركة فى الاحتفالات بعيد «النار المقدسة» تملأ ساحة الكنيسة الكبيرة فى مدينة القدس . وحرص الملك الصليبى وحراسة تنظيف واعداد الطريق الذى يمر خلال المدخل الغربى الصغير إلى أماكن اقامتهم المواجهة للقبر المقدس. وكانت هناك الضغوط والجهود المضنية والجبارة (والتى كانت فى الغالب تنتهى باختناق عدد كبير من المشاركين فى هذه الاحتفالات من فرط الزحام) وتوقع الجميع ظهور معجزة النار المقدسة تسبب جوا من التوتر والأرق يشبه جو التوتر الذى سيحدثه المسيح الدجال، ومنذ قديم الزمان وحتى الآن ستظل مدينة القدس بالنسبة للمسيحيين المكان الوحيد فى العالم الذى يشهد تجلى الرب بشكل واقعى ويشهد المعجزة الحقيقية للرب. ودائما كان يوجد عدد من أولئك المتشككين فى احداث هذه المعجزة ، وثمة مؤلف مجهول لمجموعة الطقوس والشعائر الكنسية قد أسدى نصيحته للبطريرك اللاتينى فى بيت المقدس «بأن يختار ثلاثة أو أربعة من الناس، ونفس العدد أيضا من الحجاج إذا وجد هذا العدد من المعروفين بالتقى والورع والجديرين بالمشاركة فى مثل هذا السر المقدس، وذلك لدحض تحفظات وشكوك المتشككين فى صحة ومصداقية العقيدة المسيحية». وسوف يذهب الجميع إلى هذا المكان الذى يوجد به الصليب المقدس. وفى هذا الموكب كان هناك أربعة من الرسل حفاة الأقدام يرفعون الصليب المقدس ويطوفون به حول القبر المقدس (الذى يعلوه تمثال فضى للسيد المسيح)، وتحت القبة المفتوحة لأنسطاس . وفى هذا الاحتفال كان يحتشد أعداد كبيرة من الناس من كل الجنسيات يؤدون الصلوات بأصوات عالية وحزينة ، ويتوسلون إلى الرب باستمرار لكى يتقبل صلوات ودموع خدامه وأن يتطلف من أجل اسعاد شعبه بارسالهم إلى رؤية النار المقدسة المبهجة.

كان حاملوا الصليب المقدس بطوفون به حول القبر المقدس من ستة إلى سبعة أشواط وكان يصاحب هذا الطواف تعاظم تدريجى لأصوات المصلين وابتهالاتهم وأدعيتهم الدينية. وفى نهاية هذا الاحتفال ، كان يرى ضوء اعجازى يتوهج وينبثق من احدى اللمبات التى تعلو القبر المقدس . وعندئذ كان حامل الصليب المقدس يدخل المهجع بتوقير وارتجاف ويضع شمعة على النار المقدسة المعجزة والعجيبة. وكان الصليب المقدس يحمل إلى البطريرك الذى يرسله بدوره

إلى الملك الصليبي ورجال حرسه الذين كانوا يحضرون هذا الاحتفال . وكانت الكنيسة تقرع أجراسها الكبيرة فتحدث دويًا عاليا خارج جنباتها، وعندئذ كانت توقد آلاف الشموع من تلك الشمعة الأصلية التى اتقدت من النار المقدسة العجيبة، وترتفع الأصوات عالية تمدح الرب وتمجده Te Deum laudamus . وكان هذا الاحتفال أكثر تأثيرا من أى احتفال آخر فى المعتقد الشعبى التقليدى للسكان الصليبيين وأيضا للحجاج . بيد أن هذا الاحتيال والخداع الزائف باسم الدين لم يستمر بشكل غير محدد، إذ كانت هذه «المعجزة» تحدث فقط طوال فترة الوجود الصليبى خلال المملكة الصليبية الأولى أى حتى عام ١١٨٧م. وعندما استرد المسلمون مدينة القدس فى عام ١١٨٧م بات من العسير الدعوة لمثل هذا الاحتفال، وفى عام ١٢٣٨م أصدر البابا جريجورى التاسع مرسومًا بابويًا يضع بموجبه نهاية للطقوس والشعائر اللاتينية (كانت مدينة القدس ولفترة قصيرة تحت السيادة الصليبية). واستمرت الكنائس الشرقية تمارس طقوسها وشعائرها ، والوصف الذى تركه لنا السيد كرزون Curzin فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى يقدم لنا صورة واضحة المعالم عن مظاهر الاحتفالات التى كان يقوم بها الصليبيون فى المنطقة العربية فى بلاد الشام وفلسطين ومنذ سبعة قرون انقضت .

ويعتبر عيد الفصح Easter من الأعياد الكنسية المهمة فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس. إذ كان يتم الاحتفال بهذا العيد من خلال مهرجان وموكب عظيم . وكان الشطر الرئيسى من هذا الاحتفال يتمثل فى زيارة كنيسة الضريح المقدس ، وقد انتشر طقس هذا الاحتفال من مدينة بيت المقدس إلى كل أقطار العالم المسيحى منذ العصر القديم، وعاد هذا الطقس إلى مدينة القدس بشكله الأوربى على يد الصليبيين. ومن المعروف جيداً أن هذا الطقس كان السبب فى أن تصبح رواية طقس عيد الفصح المقدس والجليل قابلة للتمثيل على خشبة المسرح. وعندما حان الوقت المناسب، ساهم هذا الطقس فى تطور الدراما (فن المسرح) الدينية فى العصور الوسطى. ومن المتوقع أن مدينة بيت المقدس قد ساهمت بدور فعال فى هذا التطور، وذلك لأن الأماكن التاريخية لهذه الأحداث كانت متاحة وموجودة فى هذه المدينة . كان هذا هو واقع الحال، بيد أنه فى فترة متأخرة وفى تاريخ غير معروف كانت هذه البدايات قد قضى عليها فى المهد. ودعنا نستمع إلى طقوس وشعائر الضريح المقدس القديمة. وذات مرة كان يقوم بتلاوة قداس منتصف الليل:

« ثلاثة من رجال الدين من الشباب يرتدون ثيابًا يشبه ثياب النسوة ويقفون خلف المذبح

وفقًا لعادة القدماء ... ومن ذلك الوضع يتقدم هؤلاء الرجال ومعهم الشموع والبخور، ويحمل كل واحد منهم فى يده إناءً ذهبيًا أو فضيًا به بعض الزيت المقدس، وينشدون قائلين يا الهى ماذا تدبر لنا ؟ (= الرب، الذى سوف يدفعنا بعيداً عن حجر كنيسة الضريح المقدس- القديس مارك ١٦ / ٣) ، وعندما يقتربون من البوابات الذهبية لكنيسة الضريح المقدس، كان هناك اثنان من رجال الدين يقفان أمام مداخل هذه البوابات أو على مقربة منها يحملان فى أيديهم الشموع ويرتدون قلنسواتهم، وينشدون قائلين: من ذا الذى يتطلع إليهم بالله. ويجيب النسوة: «مسيح الناصرة» وعندئذ تكون الاجابتان أنه ليس هنا ، وهو الذى يبعث حيًا . متى . ٦ / ٢٨) . ويظل هؤلاء ينشدون ويرتلون القداس حتى تدخل النسوة إلى القبر المقدس، حيث يؤدين صلاة قصيرة داخل حجرة القبر المقدس، ثم بعد ذلك يخرجن ليقفن وسط جوقة المرتلين الكنسيين. وينشدون ويعلنون بصوت عال قائلين : «المسيح الإله الحى» "Alleluis, Re- surrexit Deminus" .

ومما يذكر أن مؤلف الطقوس والشعائر اللاتينية كان يقطع الكلام عند حديثه عن وصف لباس رجال الدين الذى كان يشبه لباس النساء بقوله : بيد أن مثل هذا لم يعد يحدث بسبب كثرة عدد الحجاج الذين يشاهدون هذا الاحتفال . وتصبح هذه الملاحظة محيرة ومربكه إذا أدركنا معناها بشكل حرفى ، بمعنى أن ضغط وزحام الناس المحتشدين لمشاهدة الاحتفال كان يعوق عملية تغيير الملابس وغيل بشكل أكثر إلى الاعتقاد بأن الحجاج (ولم يؤكد مؤرخنا على الجماهير المحتشدة بشكل عام ، بل كان يؤكد ويشير بشكل خاص إلى الحجاج) وجدوا فى مثل هذا السلوك (على الرغم من أنه كان مألوفا فى أوربا) تافهًا وغير مناسب لمدينة مقدسة مثل مدينة بيت المقدس . وحقيقة الأمر، أن الأوربيين الحجاج الذين أتوا إلى الأراضى المقدسة لزيارتها كانوا أكثر تسامحًا مع مظاهر الطقوس الاحتفالية الكنسية فى أقطارهم وأكثر تشدداً مع نظيرها التى تمارس فى الأراضى المقدسة.

ومن الطبعى أن الاحتفال بعيد «يوم صعود المسيح Ascension كان يتم من خلال موكب بهيج يشق طريقه إلى جبل الزيتون، وبعد تأدية بعض الصلوات فى كنيسة أبينا -Paster Nos ter (المسيح) ، كان الموكب يشق طريقه أيضا إلى كنيسة الصعود Ascension (صعود المسيح Ascenscion Domini) ، حيث كانت بصمات وأثار أقدام المسيح واضحة وماثلة للعيان هناك.

وكان عيد «اكتشاف الحربة المقدسة» من الأعياد الكنسية المهمة التى كان يحتفل فيها فى مدينة بيت المقدس، وكان هذا العيد احياءً لذكرى الاكتشاف المقدس (٣مايو ٣٢٦م) للحربة المقدسة التى قامت به الامبراطورة والقديسة هيلينا أم الإمبراطور الرومانى قسطنطين العظيم، وكان يتم الاحتفال بهذا العيد داخل كنيسة الحربة المقدسة المكتشفة.

وعلى الرغم من أن كتاب الطقوس والشعائر اللاتينية لم يشر إلى التفاصيل فاننا يجب أن نفترض أن عيد العنصرة (أو عيد الخمسين) وهبوط الروح القدس كان يتعلق بالمزار المقدس فى جبل صهيون . وهنا أيضا كان يحتفل بعيد رفع السيدة مريم العذراء ، وكان المشاركون فى هذا الاحتفال يتقدمون إلى كنيسة القديس المخلص St. Saviour (السيد المسيح) ، وبعد ذلك كان الموكب يشق طريقه إلى كنيسة القديسة مريم العذراء فى وادى يوسف.

والواقع أن كتاب طقوس وشعائر كنيسة الضريح المقدس لايمكن مقارنته ، إذ أنه حفظ لنا الطقوس والشعائر الخاصة التى كانت تمارس فى الأماكن الواقعة خارج مدينة القدس . ومن الطبعى أن هذا الكتاب أيضًا لايمكن مقارنته بكتاب آخر، إذ أنه يتفوق على جميع الكتب الخاصة بالطقوس والشعائر، من حيث ذكره عدداً من الأماكن المقدسة البارزة والمهمة بالإضافة إلى مدينة بيت المقدس. ومع ذلك ، فإن أماكن مثل الناصرة، وبيت لحم ، وجبل طابور ، ودير القديس يوحنا فى الجبال (عين كارم) ، وكنيسة زيارة العذراء (٢ يولية) ، وأيضا مخاضة نهر الأردن (مكان تعميد السيد المسيح) ، لم تكن هذه الأماكن فقط هى أماكن الحج التى يتردد إليها الحجاج، بل كانت أيضا مراكز للاحتفالات بالأعياد المسيحية المحددة فى التقويم الدينى الكنسى. فقد كانت قصص الأناجيل مثيرة وذات جاذبية تحث كلا من المسيحى الوطنى والحجاج الأوربيين من الأتقياء ومحبى التعليم على التفكر والتأمل طوال العام، وتداعب خيالهم باستمرار.

«تقدم أيها الهرطيق القديم، وسوف ترانى عندما تصون معظم ذخائرك المقدسة موضع الشك والريبة. وإذا لم ترانى فسوف تتطلع إلى الموت بأمل ولهفة ». ولم تكن هذه العبارة مقتبسة من قصة القتل والرعد، ولم تكن أيضا مجرد حكاية ورواية منقحة للمعجزات والخوارق النسكية والرهبانية وقد وصل إلينا هذا الاقتباس من السيرة الذاتية biography للراهب السسترشانى مارتين البارسى Martin of Paris والتى دونها الراهب جنثير Gunth-er، ووصف غزو ونهب الصليبيين لمدينة القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م . ويخبرنا كاتب هذه

السيرة ويذكر لنا الأعمال الوحشية التى ارتكبها الصليبيون فى أثناء نهب القسطنطينية ، وكيف كان الصليبى مشغولاً بجمع الغنائم والأسلاب والبحث عنها فى أى مكان فى المدينة، ونهب الذخائر المقدسة الثمينة التى كانت تحتويها الكنائس والأديرة البيزنطية ، ونهب الذخائر المقدسة من أماكن الدفن ولاسيما المقبرة الخاصة بأم الامبراطور مانويل كومنين (ومن المحتمل أن هذه المقبرة كانت توجد فى كنيسة الأباطرة Pantocrator إذ كانت كنيسة الأباطرة الصغيرة التى ذكرتها السيرة الذاتية تحتوى على قائمة كاملة من الذخائر المقدسة التى انتقلت إلى أوربا ، وأصبحت ثروة عظيمة لدير بيريس pairis فى اقليم آلساك Alsac. وقد مَجَّد كاتب السيرة دير بيرس بشكل دعائى ، وأوجز مناقب ومآثر هذا الدير فى شكل تعبير بليغ وعبارات فضفاضة قائلاً : «إنه حرم مقدس تعرض للتدنيس».

لقد كان موضع الاعجاب بهذه الذخائر المقدسة وعبادتها وتقديسها يمثل مشكلة شائكة وعويصة فى أثناء القرون الأولى للمسيحية ، وأصبحت هذه الذخائر المقدسة تقريبًا تعبيراً جماهيريًا للتدين الشعبى الجماعى فى العصور الوسطى الباكرة . فالرجل الفقير فى أوربا العصور الوسطى لم ينتظر الآباء ورجال اللاهوت الكنسيين لكى يصل عن طريقهم إلى فكرة القداسة المتعلقة ببقايا شهداء الكنيسة من أعضاء جسدية ومتعلقات دنيوية كالملابس وغيرها، وذلك لأن الروح القدس قد احتمت بأحد المقابر الأرضية ، وهكذا استلهم الرجل البسيط فى أوربا العصور الوسطى فكرة القداسة التى تحملها رفات الشهداء من التجربة السابقة للروح القدس . ففى الغرب الأوربى كان الاعتقاد فى معجزات وخوارق الذخائر المقدسة احدى الممارسات الدينية الشائعة هناك تقريبًا. وأحيانًا كانت هناك بعض المعجزات المتعلقة بهذه الذخائر المقدسة، بيد أن هذه المعجزات والخوارق كانت فى الغالب ذات سمة أسطورية بعيدة عن التهذيب ؛ وإذا كان من المفترض أن تجلب هذه الذخائر المقدسة من الشرق الأسطورى فإن كل هذه الذخائر المقدسة تجلب من الشرق، إذ كانت هناك حالات من سرقات هذه الذخائر وتتمثل هذه الحالات فى الذخائر المقدسة الشهيرة المتعلقة بجسمان القديس مارك الذى حضر إلى الغرب الأوربى من الاسكندرية والذى كان رمزاً لانتصار البندقية ، وكان هناك عدد قليل من الناس يتباهون فخرا بمعجزة نقل رفاة القديس جيمس St. James والذى وصل إلى كومبو ستلا فى أسبانيا . وكانت الكنائس والأديرة تتوق إلى اضفاء الصفة الشرعية على الذخائر المقدسة الموجودة لديها لكى تعضد قداستها ومكانتها بين قريناتها من الذخائر المقدسة الأخرى. وفى

هذه الظروف ، أصبحت الأراضى المقدسة وبعض الأقطار المجاورة لها ، مثل مصر وبلاد الشام، مصدراً غنيًا للذخائر المقدسة التى تعبر عن التقى والورع. وظلت القسطنطينية التى كانت تختزن الكثير من الذخائر المقدسة منذ فترة قديمة من أعظم المصادر التى كانت تزود الغرب الأوربى المسيحى بالاحتياجات الدينية، حتى سقوطها فى يد الصليبيين عام ١٢٠٤م فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة . وتمخض عن حادث الغزو الصليبى للقسطنطينية تدفق أعداد كبيرة من الذخائر المقدسة على الغرب الأوربى من العاصمة البيزنطية المنهوبة، ومع ذلك فإن الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام كانت أيضا معينا لاينضب لهذه الذخائر المقدسة. فقد كانت المزارات المقدسة فى فلسطين ، ولاسيما الموجودة فى مدينة بيت المقدس ، وبيت لحم ، والناصرة ، تقدم للحجاج الكثير من الذخائر المقدسة المكتسبة والممكنة ، أو على الأقل تلك الذخائر التى ترتبط بذكريات مقدسة ، والتى كانت مدخرة بشكل دينى فى كنائس وأديرة هذه المدن التى شهدت الذكريات المقدسة المرتبطة بهذه الذخائر.

ومن الصعب احصاء عدد الأماكن التى كان يجلب منها الأشياء المادية المقدسة إلى الغرب الأوربى. وعلى سبيل المثال كانت هذه الأماكن تشمل الضريح المقدس، وصخرة الصلب ، وأعمدة الصلب، والزيت الذى كان يؤخذ من اللمبات المعلقات فوق القبر المقدس. وبشكل دقيق يمكن القول أن مثل هذه الشظايا الصخرية أو التراب المنقوع فى الزيت لم تكن ذخائر مقدسة، بيد أن مثل هذه الأشياء يمكن أن تصنف على أنها «أشياء مقدسة»، والتى تنعم على من يلمسها أو يلمس الذخائر المقدسة نوعًا من القداسة والطهارة . ومن الطبعى أن الذخائر المقدسة الأصلية كانت قليلة؛ فقد كانت بقايا آثار القديس من شعر ، وأسنان ، وعظام من الذخائر المقدسة الأصلية ، بيد أن مثل هذه الذخائر المقدسة المتمثلة فى بقايا آثار القديسين لايمكن مقارنتها بشذرات الصليب الحقيقى ، الذى يعد من أعظم وأبرز المخلفات المقدسة للسيد المسيح. وكانت بعض هذه العينات ترسل إلى أوربا ، مثل العينة المقدسة للقديس أنسلم* إلى

---

* القديس أنسلم : Anselm: ولد القديس أنسلم فى مدينة أوستا فى شمال ايطاليا فى أواخر سنة ١٠٣٣م ويعتبر من أشهر فلاسفة القرن الحادى عشر الميلادى. وقصد وهو فى العشرين من عمره إلى فرنسا وقضى ثلاث سنوات يستمع إلى مشاهير الأساتذة فى مدنها المختلفة ثم دخل دير بك حيث كان يقوم بالتعليم فى هذا الدير مواطنه لانفران ، فتعلم على يديه، وذاع صيته وجذب إليه الشبان من أنحاء فرنسا وانجلترا، وصار دير بك بفضله معهدا ممتازا ، وفى سنة ١٠٩٣ عين رئيسا لأساقفة كانتربرى ، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته وبنى مذهبه الفلسفى على أساس «تعقل الايمان » على عكس الجدليين (عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى، ص٦٥؛ يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط، ص٨٤). (المترجم).

باريس والتى ظلت تحظى بالقداسة طوال مئات من السنين حتى قيام الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ . وأحيانا كانت مجموعة هذه الذخائر المقدسة وشظية الصليب المقدس تمثل أداة مهمة من أدوات ووسائل الدعاية الصليبية فى أوربا. وفى الغالب كانت هناك بعض الأشياء التى تأتى من أوربا إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين التماسًا للبركة والقداسة، مثل خاتم الملك الفرنسى لويس السابع الذى عاد إلى فرنسا بعد أن لمس هذا الخاتم مختلف الأماكن المقدسة فى فلسطين.

ومن المستحيل القول بأن عبادة وتقديس هذه الذخائر المقدسة كانت جزءاً من العقيدة الشعبية للصليبيين أنفسهم. ومهما يكن فإننا نعرف أن مثل هذه الذخائر المقدسة كانت تخص الحجاج أو كانت تخص المنشآت الكنسية فى أوربا . وربما كان موقف أولئك الذين يعيشون فى اتصال مباشر مع المزارات المقدسة ازاء الدخائر المقدسة يختلف عن موقف أولئك الذين كانوا يأتون من أقطار عديدة وبعيدة بحثا عن مثل هذه الأشياء المقدسة. والواقع أن الصليبيين استطاعوا تبنى رؤية أكثر رزانة واعتدالاً ازاء الذخائر والأشياء المقدسة ، والسبب فى تبنى هذه الرؤية المعتدلة ازاء الذخائر المقدسة لم يرجع إلى غش وتزييف هذه الأشياء المقدسة ، ولكن ببساطة يمكن أن يرجع السبب إلى أن هذه الذخائر المقدسة كانت أمراً مألوفًا لهم لأنهم يعيشون على مقربة منها باستمرار فى حياتهم اليومية، وما نعرفه عن ممارسة الصليبيين فى عالم المعتقدات الدينية يحول دون الوصول إلى استنتاجات بصدد تزييفهم لهذه الذخائر المقدسة.

لقد زحفت المعتقدات الخرافية للصليبيين إلى معاصريهم الأوربيين، وغالبا ما زحفت هذه الخرافات الدينية الصليبية إلى المسيحيين الشرقيين والمسلمين . فقد راج على نطاق واسع الاعتقاد بأن تراب معمر Mamre القريبة من حبرون (والتى خلق منها آدم عليه السلام) دواء ناجح وفعال. كما أن هذا التراب كان علاجًا ضد لدغة الثعبان لأولئك الذين كانوا يمارسون الجنس بشكل مباشر. وكان «لبن العذراء» (وهو عبارة عن قطعة من الصخر الأبيض يستخرج من كهف اللبن» من بيت لحم) والذى حمله معه أسقف بيت لحم أنشتينس Anschetinus فى أثناء معركة عسقلان (سنة ١١٢٣م) قد كفل النصر فى هذه المعركة وفى اطار المعتقدات الخرافية الصليبية ، يأتى السهم الذى اخترق الدّرع الواقى للسيد المسيح وانحرف صوب جسد المسيح والذى يحمل اسم سهم الرب. ومن خلال المصادر التاريخية الصليبية يمكننا التعرف على قائمة طويلة تضم مثل هذه المعتقدات الخرافية . ولم تكن مثل هذه الخرافات قاصرة على

الأرض المقدسة، إذ أوضحت لنا مجموعة من المصادر التاريخية الأوربية بعض المعتقدات الخرافية المماثلة لتلك التى كانت منتشرة فى الأراضى المقدسة. ومن ناحية أخرى، فإن الأشباح التى كانت تظهر فى السماء، والفرسان بدروعهم المتألقة التى كانت تتجلى فى السماء لتقود الجيوش الصليبية، وجيوش الرب التى تحارب الكفار، والنساك الزاهدين الصامتين الذين يسدون نصائحهم للقادة العسكريين للخطط العسكرية، قد تضاءلت كل هذه المعجزات والرؤى المقدسة مع كل حملة صليبية، أي بمرور الوقت ، فقدت كل هذه الرؤى الاعجازية قيمتها. والواقع أن الشخص قلما يجد أية أمثلة حقيقية وأصلية لهذه المعجزات المقدسة فى المدونات التاريخية للمملكة اللاتينية فى بيت المقدس. وهذا فى حد ذاته لايمكن أن يبرهن على أن الصليبيين كانوا أكثر رزانة واعتدالاً وأقل ميلاً للاعتقاد فى القوى الاعجازية الخارقة للنواميس الطبيعية، بل كان الصليبيون أكثر ميلاً إلى حالة النشوة المسيحية التى تتطلب استحضار القوة الإلهية لصالحهم فى معاركهم والتى تثير حماستهم فى الحرب. فقد كان الصليبيون فى المملكة اللاتينية فى كل يوم من حياتهم يتوسلون إلى الرب ابتغاء عونه ومساعدته ، بيد أنهم كانوا يعتمدون على مواردهم الخاصة حتى ولو كان المسلم شيطانًا مبتدئًا.

وثمة ظاهرة كانت تميز الصليبيين وهى تمجيدهم وتوقيرهم للأماكن التى تتمتع بالقداسة لدى كل أصحاب الديانات الثلاث (اليهود - المسيحيون- المسلمون) فقد كان اليهود والمسلمون الصليبيون يبجلون أضرحة ومقابر البطاركة فى حبرون ومبانيها التى ترجع إلى فترة الملك هيرود . واستطاع الصليبيون إعادة اكتشاف هذه المقابر فى عام ١١١٨م. فمنذ القرن الأول الميلادى، انتقل القبر التقليدى للملك داود من مكانة (القريب من بركة السيلو Pool of si-loe إلى جبل صهيون والذى ما زال موجوداً حتى اليوم)، وكان هذا القبر موضع احترام وتبجيل أصحاب الديانات الثلاثة (اليهود - المسلمون- المسيحيون) . ويخبرنا الرحالة اليهود الشهير بنيامين التطيلى قصة أولئك المسيحيين الذين حاولوا أن ينفذوا إلى ضريح الملك داود، وكيف ابتلاهم الله بغضبه وانتقامه الشديد. وكان «كهف الأسد» الذى يقع عبر بوابة يافا إلى جبانة كهنة الضريح المقدس (المامیلاح Mamillah) يشير إلى ذلك المكان الذى أحرق فيه الشهداء المسيحيون على يد الفرس، وكان هذا المكان يحرسه أسد عجيب. واحسرتاه ، فإنه فى القرن الثالث عشر الميلادى يروى لنا أحد تلاميذ ابن نحمان العظيم Nahmanid نفس القصة ، ولكنه استبدل اليهود بدلا من المسيحيين الذين اقتحموا ضريح داود، وكذلك استبدل الفرس

بالمسيحيين ، أى أن الشهداء كانوا من اليهود والذى قام بهذه الجريمة البشعة هم المسيحيون وليس الفرس . وكان المكان الذى يقع خارج مدينة عكا والذى شهد قيام آدم عليه السلام بعملية حرث الأرض القريبة فى «ينبوع الثور Source of the Oxen (عين البقر) يحظى بالاحترام والتقديس من جانب أتباع الديانات الثلاث ، وأصبح المسجد الأخضر فى عسقلان كنيسة للقديسه ماريا الطاهرة وكان «كهف العليجة» Elijah الواقع على جبل الكرمل معروفا لدى المسيحيين ، والمسلمين واليهود . ومن البديهى أن منطقة المعبد بمقدساتها بالإضافة إلى جبل الزيتون ، كانت تحظى باحترام وتبجيل أتباع الديانات الثلاث أيضًا .

وعلى الرغم من أن هذه الأمثلة تمثل فقط عدداً قليلاً من أمثلة كثيرة فإنه لايمكن أن نبرهن على وجود اتجاهات وميول توفيقية بيت الديانات الثلاث، أو وجود تسامح دينى. وببساطة فإن مثل هذه الممارسات والأعراف تعكس التاريخ المتشابك لذلك القطر الذى اتفق على أنه الموطن الأصلى للديانتين اليهودية والمسيحية. وعندما كانت هذه المنطقة خاضعة تحت السيادة الموحدة لليهود والمسيحيين ترسخت نفوذهم (اليهود والمسيحيين) حتى بعد الفتح الإسلامى لهذه المنطقة فى هذا القطر وفى اطار الحكم الإسلامى . فقد تغيرت السيادة على المقدسات ما بين أتباع الديانات الثلاث . فقد قام المسيحيون بطرد اليهود من موطنهم الأصلى* وشيدوا كنائسهم وأديرتهم الخاصة بهم فى نفس الأماكن التى طرد منها اليهود وإبان الحكم الإسلامى لهذه المنطقة فى هذا القطر تحولت هذه الكنائس والأديرة إلى مساجد للمسلمين، وفى أثناء السيادة الصليبية، أعيدت هذه المساجد إلى كنائس مرة أخرى. وقام المسلمون بتدمير التماثيل والأيقونات، والصلبان وأعمال الفسيفساء (الموزايك Mosaic) ، وأيضًا عندما استرد صلاح الدين مدينة بيت المقدس ، قام بتطهير القذارة المسيحية برش ماء الورد. إذ أن الصليبيين كانوا قد قاموا باغلاق المحراب الواقع فى الجهة الجنوبية من المسجد وبنوا مذبحًا عند الحائط الشرقى للمسجد، وصبوا المعادن التى سلبوها وحولوها إلى أجراس للكنائس. وظلت هذه الأماكن تحظى بالتبجيل والاحترام من جانب أحد أتباع الديانات الثلاث (المسيحين الصليبيين)، وكذلك عندما هيمنت ديانة جديدة فى هذه الأماكن المقدسة. لقد اقتبس المؤمنون

---

* ما زال المؤلف يؤكد على أحقية اليهود فى وطن قومى لهم فى فلسطين، من منطلق الحق التاريخى لهم فى الأراضى المقدسة منذ عصور مضت وتلك رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية. (المترجم) .

الجدد من الكتب المقدسة الخاصة بالديانة الباكرة المسيحية، واستمروا يؤدون الصلاة فى نفس الأماكن ، والنظر إليها باعتبارها ميراثًا شرعيا لهم، يقيمون فيها الصلاة لنيل الخلاص النهائى من الخطيئة والتحرر من شرور الدنيا. وحتى مع معرفتنا التفصيلية لتنظيم ومؤسسة الكنيسة فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس، فإنه ليس بالأمر اليسير أن نجمل دور كبار رجال الدين الكنسيين وأهمية الحياة الدينية فى المملكة الصليبية. فقد كان هناك انقسام واضح بين الوضع الرسمى والوضع الفعلى الحقيقى لرجال الدين فى الدولة والمجتمع . وعلى الرغم من أن التشريعات والقوانين الصليبية كانت تعتبر البطريرك اللاتينى من أحد كبار السادة الاثنين فى المملكة الصليبية -والسيد الروحى للملكة- فإن الواقع كان عكس ذلك، إذ لم يستطع أى من رجال الدين اللاتين أن يلعب دوراً مؤثرا فى الأمور السياسية للمملكة طوال فترة وجودها. إذ كان البطريرك ، كما كان الوضع فى كل مكان فى أوربا المسيحية ، يتصدر قائمة الحاضرين فى المجامع الكنسية، وكذلك المواكب والاحتفالات الدينية، وأيضا كان البطريرك من أول الموقعين على المعاهدات الدولية. بيد أن هذه الايماءة والاشارة السابقة الخاصة بتوقيع البطريرك على شروط المعاهدات الخارجية والتى تأصلت ورسخت فى كل قطر أوربى فى العصور الوسطى، كانت تعكس التصورات والمفاهيم العامة للنظام الاجتماعى ، ولم تكن هذه الايماءة السابقة أيضا برهانًا للوضع الحقيقى لرجال الدين فى المملكة اللاتينية.

ومن المحتمل أن الكنيسة اللاتينية فى منطقة الشرق العربى منذ البداية كانت عاجزة عن تحقيق التفوق والسيادة فى المملكة الصليبية إذا ما قورنت بالكنيسة اللاتينية فى الغرب الأوربى التى كانت قادرة بالفعل على أن تحرز لنفسها التفوق والسيادة . ومع ذلك، فإن مملكة مثل مملكة بيت المقدس الصليبية تأسست وظهرت للوجود بمبادرة البابوية ومباركتها ، تلك البابوية التى ظلت الدعامة الأساسية والمساعدة للملكة طوال فترة وجودها التى استمرت ما يقرب من قرنين الزمان ، لم تصبح الكنيسة فى هذه المملكة عاملاً مؤثراً ، ولم تمثل حزبًا ، أوأيديولوجية أو حتى مجموعة ضغط فى حلبة التنافس بين الملك الصليبى وبين النبلاء الصليبيين . وهكذا ، فإنه يمكن القول أن المجتمع الصليبى كان أكثر نزوعًا إلى العلمانية ، أى كان أقل تدينًا من المجتمعات الأوربية المعاصرة . وهذه السمة التى تميز بها المجتمع الصليبى تدعمها انطباعات مجموعة الحجاج الأوربيين والرحالة الذين زاروا المناطق الصليبية فى بلاد الشام، ويؤكدها أيضًا التوبيخ والقدح القاسى الذى وجهه جاك الفيترى Jacque de vitry

أسقف عكا للمستوطنين الصليبيين بسبب فساد أخلاقهم . وعلى أى حال، فإن التحليل الواقعى والمتزن لكتابات جاك الفيترى أسقف عكا الخاصة بانتقاد سلوك المستوطنين الصليبيين قلما تثبت أو تدحض هذا الموضوع الخاص بالانحلال الأخلاقى للمجتمع الصليبى فى بلاد الشام . فلم يكن عدم التقوى والورع أو نقص التدين هو الذى حدد مصير ومستقبل مكانة الكنيسة اللاتينية فى المجتمع الصليبى بشكل نهائى، بيد أن الأكثر احتمالاً هو أن الأساقفة اللاتين الذين كانوا يمثلون الكنيسة ويديرون شئونها هم الذين قرروا مصير ومكانة الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس.

وباستثناء وليم الصورى ، رئيس أساقفة مدينة صور، لم يكن هناك شخصية بارزة من بين رجال الدين فى فلسطين . وإذا عقدنا مقارنة بين الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس وبين مثيلتها التى كانت موجودة فى الأقطار الأوربية مثل انجلترا ، أو فرنسا ،أو ألمانيا أو إيطاليا فى نفس الفترة ، نجد أن الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس لم تفرز لنا من بين رجالاتها كبار رجال دولة أو مفكرين ، أو علماء أو قادة وزعماء روحيين على غرار ما أفرزته الكنيسة اللاتينية فى أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . ويمكن تفسير ذلك إلى حد ما فى ضوء الظروف غير المستقرة وغير الملائمة التى مرت بها المملكة الصليبية ، إذ كانت هذه المملكة باستمرا فى حالة حرب مع أعدائها من الأقطار الإسلامية المجاورة، ومع ذلك ، فإن هذا التفسير يبدو غير كاف.

وثمة طريقة أخرى لفهم هذا الموضوع، ربما تصل بنا إلى الوقوف على تفسير منطقى ومقبول. فلم يكن أحد من كبار الأساقفة اللاتين (باستثناء وليم الصورى رئيس أساقفة كنيسة صور كما ذكرنا من قبل) من أبناء ومواطنى الأرض المقدسة من أقطارهم فى فلسطين ، إذ كان كبار رجال الدين اللاتين الذين يحتلون أعلى الرتب الكنسية الصليبية من الأوربيين الذين أتوا إلى الأراضى المقدسة . منذ أصبح نواب البابا ورسله بطاركة ، وفى الغالب كان يتم انتخاب رجال الدين الأوربيين الذين يزورون الأراضى المقدسة كرؤساء أساقفة ومقدمى أديرة abbats . ولذا لم تفرز الأرض المقدسة فى فلسطين زعماءها الروحيين .

لقد كان هذا الاعتماد الدينى على أوربا من أبرز السمات المميزة للمملكة اللاتينية فى بيت المقدس . ومن المرجح ، أن الصليبيين قد اقتضتهم الظروف إلى أن يتطلعوا إلى أوربا التماساً للعون والمساعدة المادية والعسكرية وأيضا المشورة ، وقبلوا بمحض ارادتهم وطواعية أن يجلبوا

دائما رجال دين من الخارج . وربما كان شعور الصليبيين هو الذى فرض عليهم الاعتماد على أوربا فى المجال الدينى الكنسى. ولم يكن هناك نقص وندرة فى الفرص، ولا نقص فى المصلحة الذاتية والمنفعة . وكان الكثير من الكنائس والأديرة، والمزارات المقدسة، والأماكن الجذابة فى الأراضى المقدسة بشكل عام تقترن بثروة المؤسسات والمنشآت الكنسية والتى كانت العوامل الواعدة والمبشرة بالنجاح ، وبطريقة ما ، لم تستخدم مثل هذه العوامل الايجابية كما ينبغى. ونسمع هنا وهناك أن معلمًا كان يلقى الدروس لرجال الدين فى كنيسة الضريح المقدس وأحيانا ، كنا نسمع عن أستاذ اللاهوت كان يمارس عمله فى مدينة عكا . وكانت مثل هذه الاشارات قليلة جداً وفى فترات متباعدة ، ويمكننا أن نعتبر أن مثل هذه الاشارات والتلميحات عن أعمال التدريس فى الكنائس والأديرة الصليبية من قبيل الاستثناءات اللافتة للنظر. ومن المحقق أن هذه المدارس قد وجدت فى الكنائس والأديرة ، لتقديم المعرفة لصغار رجال الدين، ولم تصبح مدارس حقيقية بمعنى الكلمة كالتى كانت تعرفها العصور الوسطى، فإذا كان الشخص ذا موهبة وأراد أن يتلقى قسطا من التعليم، فإنه كان عليه أن يتبع نفس الطريق الذى سلكه وليم الصورى الذى ذهب فى رحلته التعليمية إلى مدارس فرنسا وايطاليا لينهل من العلم هناك ، ومكث وليم الصورى فى رحلته هذه ما يقرب من عشرين عامًا. فلم تتوفر فى المملكة الصليبية مراكز فكرية ، وتعليمية ولم توفر مدرسة ذات شهرة . وفى محيط التطور الأوربى. ظلت الدولة الصليبية ، مشروعًا استيطانًا استعماريًا ، تعتمد فى بقائها ووجودها على القارة الأوربية الوطن الأم، وتعتمد على أوربا أيضا فى أعمق مظاهر الحياة الروحية.

ويمكن تفسير عدم الأهمية النسبية للكنيسة اللاتينية ورجال الدين اللاتين فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس فى ضوء حقيقة ضآلة جودة الثقافة المحلية وضحالتها ، وكذلك أن المملكة الصليبية لم تؤسس مدرسة ولم تفرز رجال دين. ولاشك أن مثل هذا يتناقض بشكل كبير مع ما كانت تتمتع به الكنيسة من ثروة فقد كانت قائمة جرد ممتلكات الكنيسة اللاتينية تشمل المئات من القرى ، والمنازل والبساتين، ودكك الأسواق، والأفران، والحمامات . وامتلأت خزائن الكنيسة من عوائد العشور الكنسية التى كان يدفعها السادة الاقطاعيون نقدا وعينًا ، وكذلك من الهبات والهدايا السخية التى كان يغدقها عليها الحجاج المسيحيون .

وعندما ننتقل فى حديثنا من الكلام عن رجال الدين إلى الحديث عن مؤسسات وتنظيم الكنيسة اللاتينية ، فإننا نواجه مرة أخرى انقساما ما بينهما فمن ناحية، كان رجال الدين

أغنياءً ، وعاش بعض ممثليهم ومندوبيهم حياة بعيدة عن شظف وقسوة أفراد الحملة الصليبية الأولى ، إذا تجاوزنا عن ذكر أية محاولة لتقليد الحياة الرسولية الزاهدة التى ازدهرت فى الأراضى المقدسة فى فلسطين قبل ألف عام من بداية الوجود الصليبى، أى فى أيام المسيح عليه السلام. وتجدر الاشارة إلى أن أحد البطاركة اللاتين قد تزوج من امرأة كانت تعمل معلمة. وقد أطلق عليها المجتمع الصليبى فى مدينة بيت المقدس لقب مدام البطريرك . وحتى لو قللنا من أهمية المبالغات التى ساقها لنا أحد المراقبين الأذكياء وهو الانجليزى رالف نيجر Ralph Niger فانه يسهل علينا أن نسوق ونذكر وصفه للبطريرك اللاتينى هرقل Heraclius الذى حضر إلى الغرب الأوربى عشية انهيار المملكة الصليبية الأولى بعد موقعة حطين يلتمس المساعدة المادية والعسكرية من الغرب الأوربى فيقول رالف نيجر:

«لقد رأيت بطريرك بيت المقدس عندما حضر إلى الغرب الأوربى لكى يلتمس العون والمساعدة المادية. إذ جاء فى حلته الأنيقة ولباسه الفخم ويصاحبه موكب يزدان بالذهب والفضة ينم عن الثراء، وعندما سمعت مطلبه بشأن التماس المساعدة انتابتنى حالة من الاشمئزاز وذلك بسبب ثرثرته المستمرة وصوته المنفر ويضاف إلى ذلك العديد من مختلف الروائح العطرية والبهارات التى تفوح من ملابس البعثة المرافقة للبطريرك والمشبعة بهذه الروائح والعطور النفاذة التى تجعلك تدير رأسك من فرط قوة رائحتها . لقد رأيت جوقة الترتيل الخاصة بالبطريرك التى لم أشاهد مثلها فى حياتى . وبالتأكيد لم تكن هذه الجوقة مرتفعة التكلفة . ولكى نقرر حكما على هذا الوضع ، فاننا نقول أن أى بطريرك فى الغرب الأوربى لم يرتدى مثل هذا الملابس الأنيقة ولم يصاحب موكب فى مثل هذه الأبهة والأناقة التى كان عليها موكب بطريرك بيت المقدس وإذا حكمنا على مظاهر الترف الأخرى فى أرض فلسطين وفقا لما رأيته ، فإننا نستطيع أن نسلم بكل ثقة بأن أرض فلسطين يوجد بها مقدار كبير من الترف يبغضه الرب. وهؤلاء الذين حضروا من هذه البلاد وهذا القطر (فلسطين) يقصون علينا حكايات مهمة».

ومن الطبيعى أن هذه الأوصاف التى ساقها لنا رالف نيجر كانت من قبيل المبالغة، بيد أن الصورة الوصفية الكاملة لم تكن موضع ثقة.

وحتى عندما نشكك فى جزء كبير من كلام جاك الفيترى أسقف عكا (وهو رجل أكثر تقوى من أى انسان آخر) فإن المرء ينزع إلى قبول الوصف الذى ذكره جاك الفيترى بخصوص

ثراء رجال الدين والكنيسة اللاتينية فى مدينة بيت المقدس، وذلك لأننا لدينا الدليل الوثائقى الكافى. فقد كتب جاك الفيترى قائلاً:

« ... وعندما وجد السبب، أصبحت من دافعى الجزية والضرائب لأساقفة الكنيسة والرهبان من خلال الصدقات ، والهبات ، والهدايا المختلفة ، لقد كان الراعى يبحث عن صوف ولبن لرعيته (اسحق ٣٤-٣٨) ، يطعمهم ولكنه يتخلى عن القيام برعاية أرواحهم . لقد نقل الرعاة نماذج الخيانة هذه إلى رعاياهم .

لقد أصبحوا بمثابة أبقار تسمن على جبال السامرة ؛ وأصبحوا أغنياءً من فقر المسيح ، ومن تواضع المسيح أصبحوا متغطرسين ، وأصبحوا مستبدين ومتغطرسين من ميراث المسيح . وهذ يتناقض مع مقولة الرب لبطرس إذ قال الرب لبطرس «أطعم شعبى ورعيتى» (يوحنا ١٧-٢١) ولم يقل له «جز صوف شعبى ورعيتى» .

فقد كان بعض هؤلاء الأساقفة من المقربين للملك الصليبى، وقد وصل هؤلاء الأساقفة إلى أعلى المراتب الدينية باختيار ورغبة الملك الصليبى، وربما كان الأساقفة الآخرون من المتدينين ، وتعلم البعض، أو البعض الآخر لم يتلق تعليمًا - ولم تكن قائمة هؤلاء الأساقفة مشجعة . وفى أفضل الحالات ، كان هؤلاء الأساقفة من الرجال متوسطى القدرات والمواهب ومن رجال الدين متواضعى القدرات. وكانوا نمطًا من رجال الدين المستوطنين، فالرجال الذين جاءوا إلى الأراضى المقدسة ارتقوا إلى مراكز عالية ومكانة مرموقة بفضل ظروفهم الاجتماعية الخاصة وشهرة مزاراتهم المقدسة ، هذا الوضع وتلك المكانة التى لم يكن باستطاعتهم الوصول إليها من خلال كفاءتهم أو جدارتهم .

وفى التنظيم الكنسى نواجه مرة أخرى انقسامًا : فمن ناحية نجد أن الكنيسة اللاتينية الجديدة قد ازدهرت وتوسعت على نطاق واسع غير مسبوق . ونرتبك من جراء زيادة عدد الكنائس والأديرة التى شيدها الصليبيون فى منطقة صغيرة فى الأراضى المقدسة خلال فترة جيلين أو ثلاثة بعد الغزو الصليبى : لدرجة أن الناقد اللاذع جاك الفيترى ، الذى يتمتع بالروح الحماسية المتأججة عندما أظهر استياءه بسبب مظاهر الثراء التى يتمتع رجال الدين فى المملكة اللاتينية (وهو الاستياء الذى لم يظهره أحد غيره) لم يستطع أن يخفى تأثره واعجابه بسبب المنجزات الكثيرة للكنيسة اللاتينية فى الشرق فيقول:

« لقد تم اصلاح وترميم الكنائس القديمة، وتم تشييد كنائس جديدة من عائد الأموال والهبات السخية التى قدمها الأمراء والصدقات التى قدمها المؤمنون ، وتم بناء الأديرة

للرهبان فى الأماكن المناسبة وتم تعيين قساوسة الأبروشيات فى كل مكان واعداد كل الأشياء الخاصة بتقديم العبادة إلى الرب بشكل لائق.

بيد أن نفس الدافع والحافز المهم للأفراد والمؤسسات من أجل الحصول على موطىء قدم فى الأراضى المقدسة قد تسبب فى احداث عملية عدم اندماج اجتماعى قوية بين مختلف طبقات المجتمع الصليبى فى المملكة اللاتينية فى مدينة القدس. فقد كان بوسع أى صليبى أن يشارك فى الطقوس الدينية على الرغم من قلة معرفته أو عدم معرفته باللغة اللاتينية، ولكن هذا الشخص فى الوقت نفسه لايمكن مطالبته بأن يتبع المواعظ الدينية التى تلقى بلغة غير معروفة. وهكذا كانت هناك تقاليد راسخة ومتأصلة بشكل عميق تجتذب وتستميل كل القادمين من أوربا إلى المملكة الصليبية.

ولم تكن العلاقات بين أبناء الجاليات الايطالية من بنادقة وبيازنة وجنوية طيبة، وإن كانوا فى الواقع ليسوا فى حالة حرب، فالتنافس التجارى كانت سمة تميز العلاقات فيما بينهم. فقد أحضر هؤلاء الايطاليون (البنادقة - الجنوية- البيزية) رجال الدين إلى كنائسهم الخاصة بهم فى المناطق الصليبية ، وشيدوا كنائسهم الأبرشية التى تعتمد على كنائسهم الكبرى فى أوطانهم الأم. وأخيراً اغتصبت الأديرة والمؤسسات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية - التيوتون) حق جمع الضرائب الكنسية وحصلوا على الامتيازات السخية من السلطات الصليبية. وبشكل رسمى أو غير رسمى حصل الايطاليون على امتياز دينى وهو الاعفاء من سلطة رجال الدين المحليين، ولم يتجنبوا المناقشة الدينية مع رجال الدين المحليين، إذ كانوا يفتحون كنائسهم للتعميد أمام سكان المدينة الذين فرض عليهم عقوبة التحريم الكنسية ولم يرفضوا- على الرغم من المكافأة والمقابل المادى الأكيد- دفن الموتى المسيحيين فى أثناء الحرمان الكنسيى، وكذلك الموتى المسيحيين الذين فرض عليهم عقوبة الحرمان الكنسى من جانب رجال الدين المحليين . وكان يتم الاحتفال بالزواج السرى، واتمام حالات الزواج غير الشرعية فى رحاب الكنائس الايطالية فى المملكة الصليبية. وفى الغالب، كانت هذه الاحتفالات يحرمها رجال الدين والقانون الكنسى. كانت طبقة كبار رجال الدين من الأساقفة تفتقر إلى الشخصيات القوية، ولم يستطع أحد هؤلاء الأساقفة الكبار معارضة هذه القوى الايطالية المتمتعة بالحكم الذاتى والتى كانت خارج سيادة السلطة المركزية الصليبية ، والتى كانت تنحدر من عناصر شتى من المهاجرين الأوربيين.

وهكذا فان مثل هذه العلاقات داخل اطار المؤسسة الكنسية تمثل نفس اتجاهات وأهداف القوى الايطالية المتمتعة بالحكم الذاتى على المستوى السياسى، والتى كانت يمثلها جملة الاعفاءات والامتيازات التى حصل عليها أبناء هذه الكوميونات الايطالية والتى حصلت عليها كذلك الهيئات الدينية العسكرية (الاسبتارية- الداوية- التيوتون) من السلطات الصليبية. وبشكل عام ، فإن هؤلاء الايطاليين كانوا يعكسون الحقائق العرضية لدولة استيطانية صليبية لم تستطع هذه الدولة التغلب على مشكلة المؤسسات المتشابكة والمتنافسة، ووقعت هذه الدولة عاجزة أمام حل هذه المشكلة. لقد أخفقت الدولة والكيان الصليبى فى احداث نوع من الاندماج الاجتماعى بين عناصر سكانها الذين كانوا من أصول وجنسيات شتى، والذين كانوا أكثر ميلاً ورغبة فى الاحتفاظ بعاداتهم وأعرافهم وتشعبهم شيعًا حتى داخل وطن مشترك وفى اطار عقيدة رسمية مشتركة أيضا. لقد كان المجتمع الصليبى بتركيبه الطبقى يحمل فى طياته بذور الفناء والتحلل .

الفصل الحادى عشر

الحجاج وأعمال الحج والمزارات المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام

من الحقائق المعروفة جيداً والمربكة أيضا هى أن المصادر التاريخية اللاتينية الخاصة بفترة العصور الوسطى لم تتضمن مصطلحًا يماثل مصطلح «الصليبية» Crusade . فمصطلح «صليبى» تعنى أن رجلاً علق شارة الصليب على ملابسه أو حمل الصليب شعاراً لمسيرته ، بيد أن عملية الذهاب الفعلية نفسها إلى الأراضى المقدسة كانت توصف بمصطلحات تختلف عن مجموعة التجارب الدينية، وعادة كان مصطلح «الصليبية Crusade» تعنى الطريق الطريق إلى بيت المقدس ، أو رحلة حج Peregrinatio وهذه الظاهرة الغريبة لعلم دلالات الألفاظ وتطورها جعلت جمهرة من العلماء يعتقدون أن الحروب الصليبية كانت بمثابة توسع لرحلة الحج المسلح وتطور لها. وعلى أى حال ، فإن رحلة الحج المسلح كانت عبارة عن قافلة لم تصبح حملة صليبية، وأن عملية استبدال الرمح بدلاً من صولجان الأسقف لم تستطع أن تحول الحاج إلى صليبى محارب. وبالرغم من ذلك فإن الحروب الصليبية ورحلات الحج قد اشتركتا فى كثير من السمات البارزة والمقومات، ولاسيما فى المجال الدينى والهدف، ولم تكن الحروب الصليبية نتاجًا أساسيًا لتطور رحلات الحج المسيحى، على الرغم من أن هذه الرحلات قد ساهمت فى تكوين وتشكيل هذه الحروب الصليبية*. وحينما اتجهت الحروب الصليبية لأن تصبح رحلات حج مسلحة أو مجرد رحلات حج (وهى الرحلات التى كان يدعو إليها سان برنار مقدم دير كليرڤوى فى فرنسا فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى) فإنها بذلك قوضت أساس ومبرر وجود الحج. وعلى الرغم من أننا لايمكن أن نتفق مع وجهة النظر القائلة أن الحروب الصليبية كانت بمثابة نمط ونموذج من أنماط الحج، فإنه ليس هناك شك فى أن عدداً كبيراً من الآلاف الأوروبيين الذين تركوا ديارهم وأوطانهم للالتحاق بالجيوش الصليبية الضخمة قد اعتبروا الحملة الصليبية بمثابة رحلة حج مسلحة وأن مشاركتهم هذه كانت بمثابة العمل الذى

---

* لم يكن الحج المسيحى الرافد الأوحد لفكرة الحروب الصليبية ، وإنما كان ضمن روافد ثلاث أهمها على الإطلاق رافد الأفكار الألفية والأخروية ، ورافد الحرب المقدسة والحرب العادلة وارتباطها بالغفران الصليبى.

لمعرفة المزيد انظر : (قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية، دار عين للدراسات الإنسانية (القاهرة، ١٩٩٣م) .

يضمن لهم الوعد بالخلاص الفردى والجماعى. وعندئذ سوف تكون الحروب الصليبية بمثابة رحلات حج طالما أن الرجال المشاركين فيها كانوا يعتقدون تماما أن ثمة اتصال وعلاقة بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية ، وأن كل الأماكن ستكون متساوية ومتماثلة وفقًا للرؤية الدينية السرمدية ، فقد تمتعت بعض هذه الأماكن بقدسية خاصة لأنها شهدت وقوع بعض الأحداث والذكريات المقدسة، وكذلك لأن هذه الأماكن كانت تستدعى هذه الذكريات الدينية المقدسة التى تؤدى إلى تسامى الفكر الانسانى وتثبيت أركان العقيدة المسيحية وتجدد وتحيى المشاعر الروحية الدينية فى نفوس أبنائهم .

وعلى الرغم من وجود علاقة بين «الصليبية» و«الحج» فإن هذا الموضوع سيظل دومًا مجالا للجدال والخلاف بين العلماء والمؤرخين بعضهم البعض، ويتفق الجميع على أنه خلال المائتى عام التى استغرقتها الحروب الصليبية أصبحت رحلات الحج تقريبًا واحدة من حيث التعبيرات والمظاهر الجلية للممارسة الدينية المسيحية والتى تختلف بشكل أساسى وفعال عن الحملات العسكرية الكبيرة. فقد كانت مراكز الحج العظيمة والشهيرة توجد قبل الحروب الصليبية، وأصبح الحج المسيحى كممارسة دينية عشية الحروب الصليبية تقليداً مسيحيًا يرجع إلى ألف عام قبيل بداية هذه الحروب . ومع ذلك فإن الحروب الصليبية كانت حافزاً جديداً لرحلات الحج إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام، كما أنها جعلت من الأرض المقدسة مكانا محببًا وهدفا تهفو لتحقيقه نفوس كل الحجاج خلال رحلاتهم، وإن كانت مثل هذه الرحلات إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين لم تتكرر كثيرا إلى حد بعيد *.

فقد كانت هناك كل من روما التى تضم بين جنباتها مقابر الرسل المسيحيين، وسانتياجو من كومبو ستلا Santiago of Compostolla (وذخائرها المقدسة التى ظهرت بشكل كبير فى القرن الثانى عشر الميلادى وكذلك القسطنطينية التى كانت تحافظ على ذخائرها المقدسة الثمينة بحرص شديد وتزهو فخراً بتقاليدها المقدسة ، وقديسيها ، وتؤكد جيداً على المعجزات والخوارق التى ظهرت على يد قديسها . وكان كل قطر واقليم وتقريبًا كل كنيسة ودير يطمح ويتطلع إلى أن يصبح مركزا من مراكز الحج، وغالبا ما كان يتم تزييف الذخائر المقدسة من أجل

* يرجع السبب فى ذلك إلى وجود بعض المزارات المقدسة فى أوربا التى كان يقصدها الحجاج الأوربيون مثل المزارات سانتياجو فى كومبو ستلا فى أسبانيا، والمزارات المقدسة وقبور القديسين فى روما، وكذلك المزارات المقدسة فى القسطنطينية (المترجم) .

هذا الغرض ، وذلك عن طريق النقوش المصطنعة أو حتى عن طريق سرقة بعض أجزاء صغيرة من رفات القديسين والشهداء المسيحيين . وتعتبر عملية نقل رفات القديس مارك Mark من الاسكندرية إلى مدينة البندقية واحدة من الأعمال البطولية الشهيرة والمجيدة التى قامت بها جمهورية البندقية ملكة منطقة الادرياتيك انئذ، والتى ساهمت أعمال الفسيفساء الجميلة التى زينت واجهة كنيستها فى تخليدها .

وكانت الأرض المقدسة وخاصة مدينة بيت المقدس بشكل محدد تعد من أقدم المزارات المقدسة التقليدية التى يفد إليها الحجاج، وهى الأماكن التى يرجع تاريخها إلى فترة انبثاق الديانة المسيحية عن اليهودية ، والتى تتصل بالتقاليد الباكرة لبنى اسرائيل فى العصر القديم. واستمر الحج إلى مدينة بيت المقدس من الفرائض الدينية فى العصر القديم. واستمر الحج إلى مدينة بيت المقدس من الفرائض الدينية التى يؤديها اليهود طالما كان الهيكل منتصبًا. وفى المسيحية لم يكن الحج فريضة مهمة ولم يصل إلى أهمية الحج إلى المقدسات الاسلامية فى مكة والمدينة وهى المدن الإسلامية التى يفد إليها الحجاج المسلمون، بيد أن الحج المسيحى بعد فترة من الوقت أصبح جزءاً مكملاً للممارسة المسيحية.

وخلال القرون الأولى للديانة المسيحية ظل التقليد اليهودى باقيًا ، وكان يوجد قدر كبير من حب الاستطلاع العالمى والتوق إلى الماضى كل هذا أدى إلى حث واغراء بعض آباء الكنيسة المسيحية فى الفترة الباكرة لزيارة الأرض المقدسة . بيد أن الحج المسيحى أصبح بمثابة ممارسة يقوم بها أفراد الطبقات الارستقراطية فى المجتمع فى القرن الرابع الميلادى، حيث أصبحت المسيحية ديانة رسمية معترف بها فى أنحاء أقطار الامبراطورية الرومانية ، وكذلك اتباعًا للنموذج الذى وضعته القديسة هيلانة أم الامبراطور الرومانى قسطنطين العظيم التى قامت بزيارة حج للأرض المقدسة فى فلسطين*.

ومما يذكر أن سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب فى القرن الخامس الميلادى والفتوحات الإسلامية الواسعة لبعض الأقطار فى بلاد الشام وفلسطين لم تعطل حركة الحج المسيحى الأوربى إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام. ولم يستمر تدفق لرحلات

---

* قامت القديسة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين بزيارة حج إلى مدينة بيت المقدس فى القرن الثالث الميلادى، وقامت بتجديد بناء كنيسة الضريح المقدس. (المترجم) .

للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع انظر : اسحق عبيد : «القديسة هيلانة واكتشاف الحربة المقدسة» ، (المجلة المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٧ ، ١٩٧٠، ص١٥ ، ١٦) . (المترجم) .

الحج فقط، بل تشكلت فكرة جديدة للحج بفعل عوامل بعيدة تماما عن التجربة والحياة الدينية. إذ كان الدافع الجديد يتمثل فى ممارسة نفى المذنبين والآثمين إلى خارج الوطن، وهى العقوبة الكنسية التى ظهرت بشكل واضح فى أيرلندا فى نهاية القرن التاسع الميلادى. وفى العادة كان المذنب المطرود من وطنه يُخير بين اختيار أحد أمرين إما أن يعيد الأشياء التى اغتصبها أو يدفع تعويضًا عن الخسائر الذى أحدثها بجريمته. وفى الوقت المناسب ، اصطبغت عقوبة الأبعاد عن الوطن بأفكار جديدة. فقد كان الشخص المطرود والتائه يميل إلى التنسك وذلك لأن النفى خارج الوطن كان يفرض على ذلك الشخص المطرود نوعًا من حياة التقشف والحياة القاسية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاعتقادات الشائعة التى كانت تعتبر وتقدر شفاعة القديسين أو الشهداء وجموع المصلين الاتقياء فى أماكن تمتعت بقداسة خاصة، بدأت تقنع وتحول هذا المنفى والمبعد عن الوطن والتائه والمذنب إلى القيام برحلة حج إلى منطقة محددة جغرافيا من العالم وتكون هذه الرحلة ذات هدف روحى ودينى. ويرجع جزء من هذا التحول إلى ارتكاب مجموعة من المشردين والأشقياء الكثير من الجرائم، الأمر الذى جعل السلطات العلمانية والكنسية تصدر ضدهم عقوبات عما اقترفته أيديهم من ذنوب وتجاوز وآثام. بيد أن فكرة الحج كوسيلة للتوبة وتكفير الذنوب كانت أكثر أهمية. فقد كان المذنب والمخطىء يتعهد بالذهاب إلى رحلة حج إلى أحد المزارات المقدسة لكى يُكفر عن ذنوبه. وهكذا كانت رحلة الحج المسيحى بمثابة عقاب جسدى وإصلاح روحى، وذلك لأن الصلاة والتراتيل التى يؤديها هذا المخطىء سوف توقظ شفاعة القديسين. بيد أنه فى فترات باكرة بشكل خاص، كانت رحلة الحج المفروضة على المذنب بمثابة جزء من التعويض الذى يقدمه عن الجريمة التى ارتكبها . فقد كان الحج والصلاة، مثل منح الصدقات ، ودفع الزكاة للفقراء، تؤدى من أجل انقاذ روح مرتكب الجريمة .

وعلى الرغم من ادخال الحج المسيحى إلى شرائع ونصوص مجموعة القانون الجنائى فى أثناء العصور الباكرة قد ساهم بقدر كبير فى انتشار مثل هذه الممارسة، فإن ثمة عوامل أخرى ساهمت فى الترويج لممارسة الحج المسيحى. فقد كان الاعتقاد الشائع يعتبر الحج عملا دينيًا جديراً بالتقدير والاحترام. وكما ذكرنا آنفًا، فإن مثل هذا قد بنى على أساس الاعتقاد بأن الصلاة فى أماكن مقدسة وغنية بالذخائر المقدسة ذات فعالية تُعْد أفضل فرصة للوصول إلى مملكة الرب فى السماء. ولم تلق مثل هذه الفكرة قبولاً كاملاً لدى آباء الكنيسة. وقد انتقد

بعض آباء الكنيسة ممارسة الحج. ومن ثم ، تطور اتجاه متناقض ، وتبلور هذا الاتجاه فى موقف القديس جيروم، الذى استقر وعاش فى الأرض المقدسة فى فلسطين . وتسعى أكثر التفاسير الدينية وتفاسير التعاليم المسيحية للقديس بولس إلى التأكد بشدة على الاحتياجات الجسدية لعامة الناس ولصغار المؤمنين من أجل لمس آثار القداسة الأرضية، بيد أنه فى النهاية عرف الاعتقاد الشعبى طريقه إلى بلورة أهمية الأماكن المقدسة.

وكانت مدينة بيت المقدس من بين كل أماكن الحج، مكانًا مبجلاً ، والمكان الذى شهد زيارة الحج التى قامت بها القديسة والامبراطورة هيلانة ، وهى الزيارة التى كانت لها أهميّة بالغة فى تنشيط رحلات الحج إلى بيت القدس، والتى أصبحت بعدها أرضًا مقدسة. فقد كانت الأماكن التى ترتبط بالعهد القديم (التوراه) معروفة جيداً فى أثناء فترة الامبراطورة هيلينا ، وهذا ما فهمناه من ملاحظات المؤرخ الكنسى يوساب القيسارى عن الأماكن المقدسة. وكانت تعاليم العهد الجديد (الانجيل) فى مرحلة التكوين وأخيراً لم تتضمن الخريطة المقدسة المدن والقرى فحسب، بل اشتملت أيضا على الشوارع والمنازل التى ترتبط بحياة المسيح فى مدن بيت المقدس ، وبيت لحم والناصرة والمناطق والأماكن المحيطة بها. ومن الممكن تتبع التسلسل الطبوغرافى من مكان البشارة إلى مكان الصلب والقيامة. وكانت هذه المقدسات مشيدة احياءً لذكرى هذه الأحداث المسيحية ومن أجل تقديم السلوى للمسيحى التقى والورع.

لقد كانت ممارسة الحج تجسيداً للرغبة فى تصور وتخيل الأحداث المقدسة التى شهدتها هذه المزارات ، وكانت هذه الرغبة تؤدى إلى تحديد هوية ومواقع هذه الأماكن التى شهدت هذه الأحداث ، حتى أماكن الأحداث التى موضع شك والتى تعرف بالأبوكريفا Apocrypha. وهكذا فأنه بحلول فترة الحروب الصليبية أدرجت كل الأراضى المقدسة على الخريطة المقدسة. وعندما تأسست المملكة الصليبية فى بيت المقدس وفتحت قنوات منتظمة من الاتصال مع الغرب الأوربى، أصبحت الأرض المقدسة فى فلسطين الوجهة الأساسية للحج.

كانت السفن تقلع من موانىء أوربا مرتين فى العام ، وكانت الرحلة الأولى تبدأ فى عيد الفصح، والأخرى فى فى منتصف الصيف ، إذ كانت تجتمع أعداد كبيرة من الأساطيل سويًا فى موانى جنوب أوربا قبل الابحار إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى. وكان الكثير من هذه السفن يتجه صوب ميناء الاسكندرية أعظم ميناء على ساحل البحر المتوسط، وعندئذ كانت هذه السفن تتحرك صوب ميناء عكا وأنطاكية وتذهب إلى أبعد من ذلك إلى القسطنطينية

قبيل رحلة العودة إلى أوربا. وكانت باقى السفن الأخرى تشق طريقها مباشرة صوب الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام، على الرغم من أن هذه السفن كانت ترتاد وتجوب الموانىء المصرية، وموانىء قبرص ، وموانىء الامبراطورية البيزنطية قبل أن تعود إلى أوطانها. ومما يذكر أن هذه السفن كانت تجارية بشكل أساسى، وكان معظمها يحمل نوعًا معينًا وثمينًا من المتاجر وهو الحجاج الصليبيين.

وتحرك مثل هذا العدد من الحجاج الأوروبيين إلى الأراضى المقدسة دون اعتبارات لاحراز وجنى الكسب المالى، وكان نقل الحجاج إلى الأراضى المقدسة من أبرز سمات النقل والتجارة فى أوربا. ومن وجهة النظر الاقتصادية البحتة كان حضور الحجاج الأوربيين إلى الأراضى المقدسة فى الشرق على متن السفن له أهمية قصوى فى القرن الثانى عشر الميلادى، ويرجع ذلك لأن هذه السفن التى تحضر إلى الشرق والتى كانت تحمل على متنها هؤلاء الحجاج الأوربيين كانت تحمل حمولات بسيطة، بينما فى رحلة العودة من الشرق إلى أوربا كانت هذه السفن تحمل على متنها الكثير من الواردات من السلع والبضائع الأمر الذى كان يتطلب مساحة واسعة على متن هذه السفن. وهكذا لعب الحجاج دوراً فى احداث التوازن لعملية السفر إلى الشرق وجعل السفر البحرى بواسطة السفن أمراً مربحًا وعمليًا من الناحية التجارية. وأصبح هناك المئات بل الآلاف من المسافرين على متن السفن البحرية إلى الأراضى المقدسة بدلاً من العدد القليل من التجار الذين كانوا يحملون المعادن الثمينة من أوربا إلى الشرق. فقد كان استخدام مجموعة القوانين البحرية القطالونية الشهيرة لكلمة الحاج "Pelegri" الأسبانية لكى تكون مرادفًا لكلمة المسافر Passanger بمثابة انعكاس لتلك الثورة التجارية التى شهدتها أوربا فى تلك الفترة.

وكان ثمة تمييز حاد بين الحاج وبين التاجر ، إذ أن الحاج لم يكن يحضر معه من الخارج سوى متعلقاته الشخصية فقط. ومن الطبيعى أن كان يتحول التاجر إلى حاج يزور الأماكن المقدسة، ثم بعد ذلك يمارس نشاطه التجارى، بيد أن مثل هذه التجارة مع الشرق أصبحت أكثر تخصصية ، بالنسبة للتجار الذين كانوا يقومون بالرحلات التجارية البحرية مراراً وتكراراً ، وكان عدداً قليلاً من هؤلاء التجار يقومون بأعمال الحج مرة ثانية.

وعلى الرغم من أن «موسم التجارة والحج» الرئيسى كان يبدأ بحلول عيد الفصح Easter فإن قادة السفن وملاحيها والذين كانوا فى نفس الوقت أصحابها كانوا يبدأون فى تأجير

سفنهم فى شهر ديسمبر. وكان التعاقد مع البحارة عادة يمثل مشكلة . إذ كانت السفن الكبيرة تتطلب فى تسييرها عدداً من الملاحين يصل عددهم إلى المائة أو أكثر وتكررت باستمرار عملية حضور أرباب المهن من الأوربيين وعدد من المراكب الصغيرة إلى منطقة الشرق العربى. وفى العادة كان العقد البحرى يغطى حوالى رحلة واحدة فقط، وكانت كل رحلة بحرية تتطلب مجهوداً جديداً من أجل التموين والتجديد والاعداد. ولم تكن التجارة بالأمر اليسير أو الهين. فقد كانت أجور ملاحى السفن مرتفعة، بيد أن حياة بحار السفينة كانت محفوفة بالأخطار والمصاعب. فمنذ اللحظة الأولى من التوقيع على عقد ايجار السفينة للرحلة البحرية التى كانت فى العادة تستغرق ما يقرب من ستة أشهر - يصبح الملاح عبداً وقفًا Serf تابعًا لصاحب السفينة التى يعمل ضمن طاقمها. وكانت قاعدة ونظام ايرون Ircon discipline هو القانون الذى تخضع له الرحلة البحرية، وقد حددت هذه القوانين العقوبات التى كانت تشمل قطع الأذن والقتل والتوبيخ بقسوة والجلد بالسياط. وكان الطعام المقدم للبحارة نادراً وقليلا وفى العادة كان ردئيًا. وكان البحارة يستحضرون دائما أخطار البحر التى كانت تتمثل فى تعرضهم للقتل على يد القراصنة المسلمين أو المسيحيين، أو وقوعهم فى الأسر وبيعهم فى أسواق النخاسة.

كان حب المغامرة من بين أسباب التحاق ملاحى السفينة بالرحلات البحرية التجارية، بالإضافة إلى أن القانون كان يسمح لهؤلاء البحارة بمزاولة النشاط التجارى فى أثناء هذه الرحلات. وفى العادة كان البحارة يحضرون معهم كمية فى المتاجر معفاة من أجر النقل، وهكذا سنحت لهم فرصة جيدة لممارسة التجارة واحضار رأسمال كاف معهم لكى يصبحوا تجاراً. وكانت غالبية هؤلاء البحارة الذين يعملون ضمن طاقم السفن البحرية المتجهة صوب منطقة الشرق العربى من الشباب الذين يتحملون بجلد مشاق السفر والذين لديهم قوة التحمل. وكانوا من المتزوجين الذين يتركون زوجاتهم وأطفالهم فى الوطن الأم على أمل أن يصبحوا من الأغنياء أو على الأقل كان يحدوهم الأمل فى ارتقاء مناصب جديدة وعليا فى سلسلة الوظائف البحرية . وفى تلك الأثناء كانت مهنة الملاح وبحار السفينة من المهن الجديرة بالتقدير والاحترام؛ وفى القرون المتأخرة أهدرت قيمة هذه المهنة، وذلك عندما كان يتم تقييد العبيد فى سلاسل فى مجاديف السفينة للعمل قسراً .

ومما يذكر أن الموانىء الأوربية الرئيسة التى كانت تقلع منها السفن إلى منطقة الشرق العربى كانت تشمل موانى مرسيليا ، وجنوا، وبيزا والبندقية. وثمة موانى أخرى مثل برشلونة

وبعض مدن فى اقليم بروفانس وفى جنوب ايطاليا ، وكانت السفن تقلع من هذه الموانى إلى الشرق، على الرغم من أن القوى البحرية الكبرى قد بذلت الجهد الكبير فى سبيل احتكار عملية نقل المتاجر المربحة. وفى أثناء القرن الثانى عشر الميلادى ، قامت جنوا بشكل فعلى بمنع عملية نقل الحجاج الأوروبيين من مدن اقليم لانجدوك . وخلال فترة قصيرة من الزمن نجحت بيزا فى أن تباغت جنوا وتهددها وتضطلع بدور قيادى فى عملية نقل الحجاج ، بيد أنه فى القرن الثالث عشر الميلادى كانت مونبيلييه، ومرسيليا وسان جيل (ومن منتصف القرن الثانى عشر الميلادى تم تشييد ميناء جديد هو ميناء أوجه مورتييه الملكى Rayal Port of Aigues Mortes) تتنافس مع القوى التجارية الايطالية فى مجال النشاط التجارى البحرى. وكان كوميون مرسيليا يطلب بشكل رسمى من السفن الأجنبية التى تقلع من مينائه أن تتعهد بموجب تأدية قسم مقدس ألاتنقل أى حاج أوربى من أى ميناء يقع على امتداد ساحل البحر المتوسط وأيضا موناكو ! واتبعت مدن أخرى مثل هذه السياسة، بسبب النداءات العديدة التى تحث على اتباع هذه السياسة بغض النظر عن النتائج التى قد تتمخض عنها. وكان من الأفضل للأعمال التجارية للمسافر أن يتجنب حمى وصراع المنافسة التجارية. وذهبت المدن الأوربية إلى أبعد من ذلك ، فقد كانت تحدد عدد سفن الحجاج المزودة بعدد من المقاتلين الصليبيين. وعلى سبيل المثال، كان فرسان الداوية والاسبتارية يخصصون رحلة بحرية واحدة فقط سنويًا لنقل الحجاج الأوربيين من مرسيليا إلى الأراضى المقدسة.

فقد كانت الطرق التى تقع جنوب كل من انجلترا وفرنسا ، وألمانيا ، والتى كانت تغطيها الثلوج الرائعة فى أواخر الربيع وتغطيها الأمطار فى بداية هذا الفصل أيضا تمتلأ بالحجاج الذين كانوا يقصدون الأراضى المقدسة. واعتاد الحجاج الأوربيون من مناطق اسكندنافيا الذهاب إلى مدينة بيت المقدس، وكان بعض الحجاج الاسكندنافيون وخاصة حجاج -Yor salafari يشقون الطريق البرى إلى روما ، ثم بعد ذلك يقلون سفن الحجاج الراسية فى احد الموانىء الايطالية، وكان الآخرون يسلكون الطريق البرى عبر سهول روسيا الواسعة إلى مدينة كييف Kiev ، ثم يسافرون إلى الأراضى المقدسة عبر البحر الأسود والقسطنطينية.

ومما يذكر أن أفراد طاقم ملاحى السفينة كانوا من عناصر اجتماعية مختلفة متمايزة . وعند المقارنة يكون حجاج شوسر Chauceris Pigrims مجموعة مختارة إذ كان الحاج من النبلاء الذى يقصد الأرض المقدسة فى بيت المقدس ترافقه حاشية مكونة من اثنين من الشباب

المرافقين وقطيع من الخيول، كما كانت الحاشية أيضا تضم عدداً من الرهبان والقساوسة أو عدداً من البرجوازية الأثرياء، وكان كل هولاء يذهبون إلى الأراضى المقدسة من أجل التطهر. وكان بعض الحجاج يحملون معهم النقود، فيحافظوا عليها بحرص شديد ، وكان الأغنياء منهم يستخدم نظام الايداع والائتمان وتحويل المبالغ النقدية إلى أحد البنوك فى ايطاليا، أو ايداع هذه النقود لدى أحد الصيارفة المحليين من الداوية والاسبتارية، ثم تعاد إليهم أموالهم مرة أخرى عند وصولهم إلى الأماكن التى يقصدونها، بيد أن بعض الحجاج كانوا يرفضون عمداً التزود بالمال والنقود خلال رحلة الحج، وكانوا يلجأون إلى التسول من أهالى المناطق والبلاد التى يمرون عليها وذلك عملا واقتفاءً بوصايا السيد المسيح الحواريه، فقد كانت الحقيبة الصغيرة Script والعكاز Staff وهى الأشياء التى كان يحملها الحاج معه فى أثناء سيره إلى الأراضى المقدسة، من أبرز السمات التى تميز الحاج المسيحى الذى يقصد مدينة بيت المقدس، إذ كانت عادة الحاج قبل الرحيل إلى الأراضى المقدسة أن يحصل من الأسقف المحلى للضيعة أو فى القرية أو من مقر الأبروشية على تلك الحقيبة الصغيرة والعكاز. وكان من أبرز السمات البارزة التى تميز الحجاج الأوروبيين الذين كانوا يقصدون الأماكن المقدسة فى سانتياجو من كومبو ستلا أو فى روما ارتدائهم عباءات أو قبعات مطرز عليها أشكال وصور ورسومات صغيرة مصنوعة من الرصاص . وكان كل الحجاج يخيطون صلباناً حمراء على قبعاتهم وعلى ردائهم الكهنوتى وملابسهم من الأمام والخلف. وكان بعض الحجاج يمارسون حياة التقشف والتنسك . فيرتدون قمصانا وبرية ويضعون سلاسل حديدية حول أجسامهم (وكانت هذه السلاسل تصنع عادة من بقايا السيوف التى تنكسر وقت حوادث القتل والمعركة) ، كما أن اطلاق الحاج للحيته وعدم قص شعر رأسه وامعانه فى قذارة بدنه كل هذا كان اعلانا لتوبة هذا الحاج عن أوزاره وذنوبه.

وفى ميناء الاقلاع كان الحاج يجد نفسه وسط مجموعة من الناس من بنى جلدته ، وإذا كان سعيد الحظ فإن اقامته ستكون مع بنى جلدته وذلك فى نزل محلى للمسافرين ، وهى النزل وأماكن الضيافة التى كان يقيمها الأمراء المسيحيون الأسخياء والأتقياء (ولم تكن هذه النزل كثيرة العدد) ، أو كان الحجاج فى العادة يقيمون بشكل كبير وأساسى فى حانة محلية. واشتهرت الحانات التى كانت توجد فى الميناء بسوء السمعة وقلما يمكن تمييزها عن بيوت الدعارة والفسق. وكانت أماكن النوم مشتركة، فقد كانت العادة المألوفة للنوم هى أن ينام اثنان

أو ثلاثة على سرير واحد ، الأمر الذى أدى إلى انحدار الأخلاقيات ونشر الرذيلة. وكان يحظر على النساء القيام برحلة الحج دون مرافق محرم، بيد أن مثل هذا الحظر تم التغلب عليه وتجنبه حتى المرافق من الرجال لهذه السيدات اللاتى يردن الحج لم يستطع ضمان الحماية المناسبة للنساء اللاتى يقمن برحلة الحج المسيحى. وفى ذلك يقول المثل الألمانى : «يذهب حاجًا ويعود فاجراً "deparing as Pilgrim, Ruturning as whore" .

وكان صوت الغناء عند سفر الحجاج إلى الشرق يتعالى أصداؤه وسط ميدان عام وتنتشر موجات الصخب والضجيج. ففى مدينة البندقية كان يتم توجيه التحية للحجاج عن طريق رفع أعلام السفن التى ستقل الحجاج إلى الأراضى المقدسة وسط ميدان سان مارك المطل على مدخل القناة العظيمة. وتحت سارية كل علم من الأعلام والرايات المرفوعة وسط الميدان كان يجلس كاتب السفينة وقائدها وذلك لاغواء وحث المسافرين المتوقع رحيلهم إلى الشرق . إذ كان كل من الكاتب وربان السفينة يعلنون عن المزايا الشخصية الفذة والبارزة لسفينتهم. وكانت بعض هذه المزايا ذات أهمية كبرى ومنها أسماء هذه السفن مثل «الروح القدس» أو «جنات عدن» وما شابه ذلك. وفى اطار ذكر المزايا ، كان يعلن عن مدى مهارة قائد السفينة وطاقم البحارة، ومدى جودة الطعام الذى تقدمه السفينة للركاب، وأخيراً كانت مثل هذه الاعلانات الدعائية تساهم بقدر كبير فى اقناع الحجاج لاختيار السفينة التى تنقلهم إلى الأرض المقدسة. وبعد الغناء كانت شروط عقد السفر تقتضى قيام قائد السفينة بدعوة الركاب الجدد لتناول طعام العشاء على متن السفينة، فيقدم لهم وجبة هائلة من الطعام لم يسبق أن تناولوا مثلها من قبل ولم يتذوقوا مثلها حتى يرجعوا إلى أوطانهم . وفى النهاية كان الحاج يقتنع بمستوى الخدمة التى تقدم له على متن هذه السفينة- مثل أى سائح فى العصر الحالى- إذ أن هذا الحاج قد تمتع بأفضل صفقة مربحة وتناول وجبة طعام شهية ذات نكهة لذيذة بالإضافة إلى شراب حلو لذيذ يلائم ذوق وتذوق أبناء الشمال الفرنسى، الأمر الذى يؤدى إلى شعور هذا الحاج بالخفة والنشاط والانتعاش وتوقع المباهج الروحية والدنيوية التى تنتظره فى منطقة الشرق الساحر.

ومما يذكر أن الغش والاحتيال قد عرف طريقه إلى الأعمال التجارية؛ وكانت سلطات المدينة تتدخل لعلاج هذه المشكلة، ليس من أجل الحفاظ على الحاج فقط ، بل أيضا من أجل المحافظة على سمعة المدينة، وضمان تردد القوافل التجارية إليها مرتين سنويًا . وكانت نسخة اتفاقية السفر المبرمة بين صاحب السفينة وبين الحاج يتم ايداعها لدى سلطات المدينة، إذ كان يمكن

استخدام نسخة اتفاقية هذه فى أثناء التقاضى أمام المحكمة. وكان يدون فى عقود وشروط النقل والسفر البحرى تكاليف نقل الحجاج، والالتزامات الملقاة على عاتق قائد السفينة، وحجم ومساحة المكان المخصص للحاج على متن وظهر السفينة ، ونوع الطعام الذى يتم إعداده فى مطبخ السفينة والطعام المسموح للحاج حمله معه فى أثناء رحلة السفر، والمدة التى يستغرقها الحاج فى الأراضى المقدسة، وأحيانا (ولاسيما فى الفترة المتأخرة) كان قائد السفينة يلتزم بأن يعتنى ويهتم بأماكن الاقامة التى ينزل بها الحجاج وتنظيم الجولة والزيارات التى يقوم بها الحاج فى الأراضى المقدسة. وأخيراً وليس آخراً كان الحاج يتعاقد على تفاصيل خدمة جنازته فى حالة وفاته فى أثناء رحلة السفر إلى الأراضى المقدسة.

وكان من المألوف أن يرافق السفن التجارية عدد من سفن الحراسة، بيد أنه أحيانا كانت المراكب الحربية السريعة التى تتحرك بالمجاديف هى التى تقوم بحراسة سفن التجار، وكانت بعض مراكب النقل تحمل على متنها الخيول والعلف، وكانت تشبه مراكب انزال الجند والعتاد فى الوقت الحالى. إذ كان جسم السفينة فى القاع أى أسفل مؤخرة السفينة يتحول إلى اسطبل للخيول، وفى مؤخرة السفينة كان يوجد نوع من الجسر المتحرك لتسهيل عملية صعود ونزول هذه المواشى. ومما يذكر أن مختلف الشرائع والقوانين البحرية فى تلك الفترة قد ألزمت مشرفى الكوميون الموجودين على متن السفينة وكذلك القنصل ذلك الموظف الرسمى القيام بمسئولية حماية الركاب ، وبسط سيطرتهم على الركاب ، والتجار وطاقم ملاحى السفينة، وكان يطلب من الحجاج الأجانب تأدية قسم بالإخلاص والطاعة لسلطات المدينة التى تقلع منها السفينة طوال فترة استمرار الرحلة. لقد كان النشاط البحرى فى البحر المتوسط وريثًا للتقاليد الرومانى، بيد أن البحرية فى البحر المتوسط قد تأثرت خلال فترة السيادة البيزنطية والإسلامية ، والجدير بالملاحظة أن السفن صمم شكلها من أجل تحقيق أغراض البيزنطيين والمسلمين، وكان هناك نوع بسيط من مظاهر الترف على متن السفينة التى تقل الحجاج، وكان الحاج يمارس هذه الرفاهية لأنه كان عاقد العزم على التوبة وطلب الصفح. وكان أكبر السفن يبلغ طولها حوالى ١١٠ قدم ، بيد أن معظم سفن هذه الفترة كان حجمها يصل إلى نصف هذا الحجم . وكان عرض أكبر السفن يبلغ ٤١ قدم عند النقطة التى تمثل أقصى اتساع، وعمقها ٣٩ قدم وكان هذا النوع من السفن يستطيع حمل أكثر من ألف من الرجال الركاب بالإضافة إلى طاقم البحارة الذى كان يصل عدده ما بين ١٠٠-١٥٠ بحاراً ، وكانت حمولة السفينة تقدر بحوالى ٥٠٠-٦٠٠ طن .

ومما يذكر أن معظم سفن نقل الحجاج وسفن النقل الكبيرة كانت تتحرك بواسطة الأشرعة التى تدفعها الرياح. كما كانت السفن الحربية أو سفن التجار الصغيرة تستخدم أيضا المجاديف ، إذ كان يتم تركيب صف من المقاعد على كل جانب من جانبى السفينة يجلس عليه الرجال الذين يقومون بعملية التجديف وكان يوجد مقعد مثبت يكفى لاثنين أو ثلاثة من المجدفين ليسمح بحرية الحركة، وكان كل مجدف يدفع ويجر مجدافا مختلفًا فى الطول. وأحيانًا كان يستخدم عدد اثنين إلى خمسة مجدفين لتسيير ودفع مجداف ثقيل يصل طوله إلى ٤٠ قدم .

لقد كانت الرياح هى القوة الواقعة الرئيسة لتسيير السفن. إذ كان يثبت صارى كبير وسط السفينة يتقاطع مع دعامة خشبية أفقية بالقرب من قمة الصارى، وهو ذلك الهوائى الذى يحمل شراع السفينة . وكان شراع السفينة عادة على شكل مثلث ومصنوع من القماش القطنى أو من قماش القنب المتين . وفى القرن الثانى عشر الميلادى، كانت السفن تستخدم نظام الصارى المنفرد الوحيد، بيد أنه فى فترة متأخرة تطور هذا النظام واستخدم اثنين أو ثلاثة من ضباط القيادة فى السفينة، وكانت حركة السفينة يديرها دفتا التوجيه ، واثنان من المجاديف الكبيرة على جانبى السفينة والتى كان يدفعها ويديرها عدد كبير من الرجال ، وفى فترة متأخرة انتقلت دفتا السفينة إلى المؤخرة، وهى الدفتان اللتان ساهمتا بشكل كبير فى تحسين السيطرة والتحكم فى اتجاه السفينة.

وعندما تمتلأ السفينة بالركاب كانت تبدأ الرحلة بعد تأدية الصلوات والتراتيل المقدسة ، وفى بعض الأحيان كانت تبدأ بعد موكب مقدس. وكانت أغنية الحجاج مثل أغنية الألمان فى قصص وروايات الأديب الألمانى الشهير جوته إذ كانت كلماتها تقول «نحن مسافرون معًا إلى In Gottes Namen Fahren wir» وكانت هذه الأغنيات ترفع معنويات الحجاج المسافرين إلى الأراضى المقدسة، هؤلاء الحجاج الذين لم يسبق لهم من قبل أن رأوا امتداد مثل هذا البحر الهائل، وكان عدد كبير من الحجاج ينذرون نذراً صامتًا ويؤدون صلوات خاصة للقديس بطرس أو للقديس نيكولاس حماة ملاحى البحر، وهم القديسين الذين كانت رفاتهم تحفظ فى مدينة بارى.

ولايستطيع القارىء فى العصر الحديث تصور مدى الصعوبات والأخطار التى كانت تواجه الرحلات البحرية فى عرض البحر المتوسط فى العصور الوسطى. ومما يذكر أن مساحة الجزء

المخصص للحاج فى أسفل ظهر السفينة كان عبارة عن ٦ أقدام طولا وأكثر من قدمين عرضا دون وجود مكان للتهوية ، كما كان يخصص للحاج مكان على سطح السفينة للتجول والسير. وكان يتم المحافظة على هذا المكان المخصص للحجاج ضد اعتداء المجرمين (وفى العادة كان هذا المكان يميز ويحدد بخطوط طباشيرية) إذ كان الحاج يودع فيه صندوقه ومتعلقاته الشخصية الأخرى. ومن الناحية النظرية، كان الحاج يقضى طوال اليوم فوق ظهر السفينة وعندما يحين الليل كان جميع ركاب السفينة يخلدون إلى النوم لايتحرك أحد منهم مهما كان الأمر. وكان يمتد صف طويل من فرش وحشيات النوم على جانبى السفينة من المقدمة إلى المؤخرة ، فقد كان هذا الصف من حشيات النوم يمتد من المعقل المشيد فوق سطح السفينة عند المقدمة حتى المعقل الموجود فى مؤخرة السفينة ، وهو المكان الذى كان يفضله التجار فى نومهم . وفى الغالب ، كانت الفرش والحشيات المخصصة لنوم الحجاج توضع كتوابيت عند وفاة الحاج) ، وكانت تنظم وتصطف فى خطوط متوازية ، وكانت أقدام الحاج النائم تلامس رأس الحاج النائم التالى له. ومن المفترض وجود ممر ضيق بين هذه الصفوف لكى توفر حرية الحركة بين صفوف هذه الفرش وأسرة النوم. بيد أن أمتعة الحاج كانت تسد هذه الممرات الصغيرة وتعوق الحركة بينها .

وكانت الفئران توجد أينما وجدت السفن، ولذا كان قنصل البحر القطالونى يلزم قائد أية سفينة أن يحتفظ بعدد من القطط فوق ظهر السفينة حتى يتجنب دفع التعويضات عن الخسائر والتلف الذى يلحق بالبضائع بسبب الفئران بيد أن الفئران لم تكن مصدراً للازعاج والضيق . وكان بعض الرحالة من الحجاج المتقشفين الناسكين ينذروا للرب ألايقصوا أو يقصروا شعورهم أو يغسلوا رؤوسهم طوال رحلة الحج. ومن المحتمل أن حالتهم من حيث النظافة كان شيئًا مقززاً ومروعًا ، حيث كان هؤلاء الحجاج يصلون إلى الأراضى المقدسة بعد رحلة مضنية تستغرق شهراً أو شهرين، ولاشك أن رحلة البحر كانت تزيد من تفاقم هذه الظروف الخاصة بنظافة أجسام وأبدان الحجاج. ولم تقتصر قذارة الأبدان على النساك. فقد كانت مجموعة التشريعات والقوانين البحرية القطالونية تفرض على بحارى وملاحى السفن ارتداء ثيابًا نظيفًا طوال الرحلة البحرية ، ماعدا المدة والفترة التى تتوقف فيها السفينة فى الميناء. وإذا تجرأ أحد من ملاحى السفينة وارتدى ملابس غير نظيفة ، فإنه يجبر على الغطس فى البحر عدة مرات أو كان يفقد راتبه .

وإذا انبلج الصبح ووجد عدد من الحجاج شاحبى الوجوه يعانون من دوار البحر، فإنه فى هذه الحالة يتم استبقاؤهم على الأقل ويوفر لهم طعام السفينة الردىء . ولالقاء نظرة سريعة على مكونات وجبة طعام بحار السفينة فى أسطول منظم تنظيمًا جيداً (وهى القائمة التى أشار إليها مارينو سانودو فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى من أجل استرداد الأراضى المقدسة) نجد مدى خشونة وقسوة الحياة على متن السفن فى العصور الوسطى*، كان الطبق الرئيسى فى وجبة طعام بحار السفينة يشمل الخبز، والبسكويت ، الذى كان يتسلمه البحار يوميا بواقع واحد ونصف رطل . وكان البحار ينقع البسكويت فى عصير حلو (كانت القهوة تعد يوميًا. ولم يعرف الشاى فى العصور الوسطى إذ أن اكتشافه يرجع إلى العصر الحديث)، وكذلك المشروب الأول فى الصباح وعند تناول الغذاء وكانت الوجبة تضم أيضا أونس واحد (٥ , ٣١جرام) من الجبن يوميًا وحصة صغيرة من الفاكهة ، وفى الغالب كانت حصة الفاكهة تتكون من الموز أو من نباتات بقولية أخرى ، وكانت هذه النباتات أيضا توزع فى صورة حصص يوميًا. وكانت الوجبة أيضا تشمل اللحوم - لحم الخنزير المملح- بواقع ثلاثة وربع رطل شهريًا وكان يتم طهى هذه الأطعمة مع الخضروات فى اليوم الثانى من أيام الأسبوع إذ كان يوم الأحد هو اليوم الذى يعد فيه أطباق اللحوم . وفى الأيام التالية كانت شوربة الخضار هى الطبق الرئيسى. وأحيانا كانت الأطعمة تتنوع ما بين خضروات طازجة ، وفاكهة ، وعديد من أنواع الخمور التى تتطلبها الرحلة البحرية التى تستغرق مدة تتراوح ما بين ستة إلى ثمانية أسابيع. والحقيقة أن مثل هذه الظروف كانت تسمح للحاج أن يهتم بنفسه ، إذ كان يسمح له أن يحضر معه إلى السفينة الخضروات، والفاكهة ، والخمر ، ومعظم الأشياء المهمة، والدجاج الحى. وكانت بعض السلال الخاصة تحتوى على مواد تموينية إذ كان عقد النقل يشترط على صاحب هذه المواد التموينية استخدام مطبخ السفينة، وفى موانى الاقلاع ظهرت حرفة جديدة، وهى حرفة الشحن، يقوم بها صنف من الناس، يزودون السفينة والركاب الحجاج بالمؤن وفقًا لبنود خاصة . وكان يحظر على أقرب قادة هذه السفن وربابنتها ممارسة عمليات الشحن وتزويد

---

* ذكر مارينو سانودو وصف تفصيليا لقائمة طعام ملاحى السفينة فى أثناء الرحلة البحرية والتى كانت تنم عن قسوة وخشونة حياة الملاح على ظهر السفينة لمعرفة التفاصيل انظر :

Sanudo, M., Description, p. 112 .

السفن والحجاج بالمؤن منعًا للغش والاحتكار . وعلى الرغم من كل هذه التسهيلات الجديدة ، فإنه من الواضح أن الرحلة البحرية للحجاج إلى الأراضى المقدسة لم تكن سعيدة وممتعة وهكذا فإن أكثر من حاج كان يتوق إلى المجاز واتمام عملية التوبة الحقيقية، وربما كان بعض الحجاج يتعرضون للاستغلال والابتزاز، أو كانوا ينتظرون مثل هذا الاستغلال والابتزاز.

وكانت المجموعة الكبيرة غير المتجانسة من الحجاج تضم بين صفوفها عدداً ضئيلاً من المحتالين والداعرين والفاسدين أخلاقيًا. وفى رحلة طويلة تستغرق ما يقرب من ستة أسابيع كان يمكن القضاء على الأرواح الشريرة العنيدة لهؤلاء الفاسدين من الحجاج واصلاح أخلاقهم. فلم تكن بلدية مرسيليا الوحيدة التى كانت تنشد القضاء على كل مظاهر الدعارة والفساد الخلقى فى هذه المدينة، بل على الأقل كانت هذه البلدية تحيل مهمة القضاء على الفساد الخلقى إلى المسئولين عن أحياء المدينة. وكان من السهل على النساء الداعرات أن يظهرن فى شكل رائع وجميل مؤثر إذا ارتدين ملابس فخمة غالية الثمن، الأمر الذى يجعل أى رجل طيب يظن أن هؤلاء النسوة من السيدات الفضليات. وأصدرت بلدية مرسيليا تعليمات لقناصلها الموجودين على متن سفن نقل الحجاج المتجهة إلى الأراضى المقدسة من أجل منع نقل الحجاج الفاسدين أخلاقيًا ومنعهم بشكل خاص من الاقامة فى المنازل التابعة للكوميون أو فى أحياء الكوميون المارسيلى الموجودة فى الأراضى المقدسة فى بلاد الشام وفلسطين . ولانعرف إلى أى مدى كانت هذه التعليمات الصادرة من بلدية مرسيليا لقناصلها تنفذ وتطاع . ففى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أرسل البابا خطابا شديد اللهجة إلى رجال الدين الكاثوليك فى عكا بشأن انتقاد تأجير أملاك الكنيسة لهؤلاء الفاسدين أخلاقيًا . بيد أن الاغراءات المادية التى قدمها هؤلاء من أجل تأجير هذه الأملاك الكنسية كانت قوية، إذ كان هؤلاء الأشخاص الفاسدين أخلاقيا على استعداد لتقديم ودفع الايجارات مقابل استخدام هذه الأملاك والمنازل والأراضى التابعة للكنيسة الكاثوليكية فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس . وفى القرن الثانى عشر الميلادى كانت السفن عادة تبحر على مقربة من الشاطىء فى رحلة قصيرة من جزيرة إلى جزيرة ، بيد أنه فى القرن الثالث عشر الميلادى كانت السفن تغامر فى رحلتها البحرية فتصل إلى أعالى البحر. وثمة بقية بسيطة للمعرفة الحقيقية للنشاط البحرى فى العصر القديم- نستقى بعضًا منها من الكتابات اليونانية والرومانية- إذ كانت السفن تطفو فوق سطح مياه احدى برك الفولكلور الشعبى تلك التى كانت بمثابة مادة ينسج البحارة منها

قصصًا وروايات كثيرة ملفقة كان الغرض منها الحاق الرعب ونشره وسط سكان المناطق الداخلية البعيدة عن ساحل البحر. ومما يذكر أن حكايات حيوانات البحر الأسطورية المتنوعة والمخيفة هى التى خلقت أغنية رفقاء اللعب الأطهار من الكائنات الأسطورية اليونانية Sierns التى كانت تسحر أعين الملاحين وتوردهم مورد الهلاك. ووفقًا للأسطورة تحولت الحيتان الجميلة غير المؤذية إلى كائنات خرافية عملاقة giants وشريره تستطيع أن تجمد أى إنسان يجرؤ أن ينظر إلى أعينهم . وكيف لاتحكى لنا القصص والحكايات البحرية الأسطورية عن ذلك الحوت الذى ضل طريقه بعض الوقت ثم بعد ذلك عرف طريقه إلى البحر المتوسط .

والواقع أن رؤية الحاج والركاب لسفينة أخرى تمخر عباب البحر كان أمراً يبعث على الخوف ولايجلب البهجة والسرور، فلم يستطع أى شخص توقع ماذا يحدث أيضًا حتى يلوح فى الأفق علم هذه السفينة ويدركه الحجاج، وذلك لانتشار أعمال القرصنة البحرية فى تلك الفترة والتى كانت تمارس كمهنة وحرفة ولم يتم القضاء عليها. وعندما استعر أوار الحرب بين الكوميونات الايطالية فى مدينة عكا فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وخربت هذه المدينة وتطورت العداءات بسرعة بين أبناء هذه الكوميونات الايطالية (البنادقة والجنوية والبيازنة) وكان يصاحبها رفع أعلام السفن الصديقة وتنكيس أعلام سفن الأعداء، لم تكن هناك حجاجًا. وانتشرت أعمال القرصنة فى أعالى البحار، وفى الموانى المسيحية وفى ميناء عكا التى كانت عاصمة للمملكة الصليبية فى مرحلتها الثانية . لقد أصبح خطر القراصنة الذى يهدد السفن عظيما يماثل الأخطار والأهوال الطبيعية كالعواصف وغيرها التى كانت تهدد أيضا الرحلات البحرية.

وكانت السواحل الرملية للأرض المقدسة تبرز للعيان بعد انقضاء ستة أو سبعة أسابيع وهى المدة التى تستغرقها السفينة فى رحلتها، وعندئذ كانت الفرحة الكبيرة تغمر الحجاج. وكان ربان السفينة يحرك سفينته على امتداد القمة الصخرية التى كانت فى خط مواز للساحل غرب عكا. وعندما تدخل السفينة الخليج كان قائدها يحركها ببطيء إلى الغرب ويتحرك فى اتجاهاته صوب الشمال تاركًا وراءه جبل الكرمل، ويتقدم إلى الميناء مروراً بكنيسة القديس أندرو. وعندئذ كان الحجاج يؤدون صلاة الشكر للرب لسلامة الوصول وكانت أصوات تراتيل المصلين تختلط بأصوات أجراس كنائس المدينة التى كانت تقرع لكى تعلن عن وصول سفينة الحجاج إلى ميناء عكا.

وفى أثناء موسم النقل البحرى الكبير، كانت السفن تلقى مراسيها وترسو خارج ميناء عكا الذى كان صغيراً نسبيًا. بيد أن اجراءات التفريغ والرسوم الجمركية كانت تتم فى الميناء. وكانت السفينة تمر بين اثنين من الأبراج المشيدة على حافة الحواجز المائية التى تحمى الميناء، إذ كان كل برج محاطًا بسور يحاذى التحصينيات البرية. وكانت هناك سلسلة حديدية تمتد بين هذه الأبراج ترفع فى أثناء النهار لدخول السفن، وتمتد فى الليل لغلق الميناء، وكانت الحواجز المائية التى تحمى الميناء ترتبط بالبناء المعقود المشيد على الأرض لكى تتصل بالمدنية وبأسوار هذه الحواجز .

وكانت عملية التفريغ وانزال البضائع تتم على أكتاف الحمالين الموجودين فى الميناء، أو عن طريق دفع الصناديق والبالات bales على ألواح خشبية من السفينة إلى محطة الرسو. وبعد الخروج من بوابات الجمارك ، كان الحاج الذى غمرته السعادة وأرهقته رحلة السفر يعد العدة ويرتب أموره من أجل الاقامة والسكن فكان يشق طريقه إلى الكنيسة الكبرى فى عكا أو إلى كنيسة الضريح المقدس أو إلى كنيسة الكوميون التابع له والتى كانت توجد فى الحى المخصص لأبناء الكوميون فى مدينة عكا حيث كان يجد مكان النوم المناسب له .

ومن عكا كان الحاج باستطاعته أن يختار من الطرق المألوفة أحد طريقين للوصول إلى الأراضى المقدسة فى مدينة المقدس . وكان الطريق الأول يؤدى إلى بحيرة طبرية ويستمر هذا الطريق عبر السامرة (نابلس) ويهود (القدس) إلى بيت المقدس، وكان الطريق الثانى يبدأ من عكا جنوبا على امتداد الساحل ثم إلى طريق برى حتى يصل إلى مدينة القدس. وكان استخدام الطريق الثانى مألوفًا بشكل أكثر ولاسيما عندما استرد المسلمون جزءاً كبيراً من المناطق الصليبية، وذلك لأن هذا الطريق الثانى كان يمر خلال مناطق السيادة الصليبية . وفى منتصف القرن الثالث الميلادى كانت الجغرافية المقدسة والاسطورية للأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام قد ترسخت وتحددت بدقة حتى جاءت البحوث العملية فى العصر الحديث التى استطاعت أن تلعب دوراً فى تدمير دقة هذه الصورة الساحرة والفاتنة لهذه الأراضى المقدسة . وتقدم لنا عملية ارشاد الحجاج المسيحيين فى القرن الثالث عشر الميلادى التبصر إلى عالم يشهد احتكاكا ومزجًا بين حقائق التاريخ والجغرافيا وبين التفسير التوراتى للكتاب المقدس فى العصور الوسطى، والفولكلور Folklore (الأدب الشعبى) ومعظم الأماكن المحددة وغير المحتملة.

كان الحجاج المسيحى يشق طريقه من مدينة عكا على امتداد الخليج الذى يحمل اسم هذه المدينة، وهو ذلك الهلال الأصفر الذى كان يتقاطع هنا وهناك مع بستان نخيل حيث نهر النعمان أو نهر بيلوس Belus يصب مياهه البطيئة فى البحر المتوسط. وعبر الخليج مباشرة كانت تظهر المنحدرات الخضراء الرفيعة لجبل الكارمل ، والتى كانت تحيط بالحافة الجنوبية لخليج عكا . وكان جبل الكرمل هذا هو جبل النبى ايليا (Eliyah) وكهفه المشهور والذى كان محل تقدير وتبجيل من جانب أتباع الديانات الثلاث (اليهود - المسيحيين - المسلمين) على السواء حتى يومنا هذا، وكان هذا المكان يلقى التقدير والتبجيل من جانب الصليبيين. لقد كان هذا الكهف مكان ميلاد ونشأة مؤسسة الكرمل الديرية، والتى تأسست على يد القديس برثولد St. Berthold فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وهو القديس الذى حضر بصحبة النساك الأتقياء الذين عاشوا فى كهوف عديدة من كهوف هذا الجبل. وفى هذا المكان شيد هؤلاء النساك والرهبان كنيستهم وكرسوها للسيدة مريم العذراء، وهو ذلك المكان الذى شهد مولد السيدة مريم العذراء على جبل الكرمل.

وبالقرب من كنيسة العذراء فى جبل الكرمل كان يوجد دير القديسة مارجريت البيزنطى، وكان يوجد فضاء بين الدير اللاتينى والدير البيزنطى (ولايمكن تحديد مكان هذا الفضاء) وعرف هذا الفضاء باسم مكان القديسة «أنا Anne» الذى يدعى أن الشرق الحزين لهذا المكان يرجع إلى أن مسامير الصلب قد صنعت وتم تشكيلها فى هذا المكان.

ومن القريب تمامًا أن القديس دينيس St. Denis حامى سان جيل Saunt of Gaul عرف طريقه إلى جبل الكرمل. وفى قرية صليبية صغيرة كانت تعرف باسم قرية الفرنجة Fran-chevilla والتى ربما كانت تقع مكان بالميرا Palmarea (والتى أصبحت مقرا للسكنى فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بمبادرة سيد يافا الصليبى، وكان الحاج المسيحى يعتقد بيقين أنه فى المكان الذى شهد مولد القديس ، وكان يرى حفرة البئر التى صنعتها يد القديس. ومن المحتمل أن الموقع المحير لمكان ميلاد القديس سان دينيس يتوقف على التحديد المخطىء لهذا الموقع وهذا المكان الذى أشار إليه ديونييوس ايروباجيتا Dionysius Heropagita الذى يدعى أنه من أصل سورى. وفى نفس الوقت ، فإن الاسم الحقيقى لهذه القرية والمستوطنة الصليبية هو «قرية الفرنجة Village of the Frank (وهو فى الواقع «قرية الحريات والامتيازات» .

وعند الهبوط من على جبل الكرمل كان الحاج يسير على امتداد الشاطىء مارا بجانبه الأيمن القديم الذى يعرف باسم شقمونا Shiqmong ولسبب غريب كانت هذه المنطقة معروفة لدى المسيحيين واليهود على السواء مثل «كفر نعوم Capharnaum وهو المكان الذى استطاع الباحثون فى العصر الحديث تحديده بشكل دقيق لايرقى إليه الشك.

وإلى الجنوب بمسافة صغيرة كان الحاج يتوقف عند قرية تيرا Tira الصغيرة والتى كانت كنيستها مخصصة للقديس يوحنا St. John وكانت هذه الكنيسة خاصة برجال الدين البيزنطيين، ومن ثم فإن القرية كلها كانت تحمل اسم القديس جون تاير (أو صور) . وكان الحاج يواصل سيره جنوبا ماراً بسهل شارون الخصيب، والذى كان يحيط به الكثبان الرملية التى تظهر للعيان من سلسلة التلال الصغيرة التى يدعى منذ أزمنة طويلة أنها المحجر، وكان الحاج يجد هناك كنيسة صغيرة تعرف باسم كنيسة بيرون Peroun، وهى المكان الذى يدعى أن السيد المسيح كان قد اتخذها محطة للراحة والاستجمام. وهنا كان يوجد ممر ضيق فى هذه السلسلة من التلال يفتح على النتوء الجبلى الداخل فى البحر والمشيد عليه قلعة الحجاج Chastel Pêlerin . وعرف مكان هذه القلعة فى العصر القديم باسم «عثليت Athlit أو قلعة ابن الرب». وكانت هذه القلعة تخضع لسيادة فرسان الداوية. ونظرا لأن مثل هذا الحصن قد شيد فى عام ١٢١٨م فإنه من المتوقع ومن المحتمل أن هذا الحصن كان مرتبطا بظروف الأماكن المقدسة. وعلى الرغم من ذلك فإنه بعد أقل من عقد من الزمان، أصبح هذا الحصن يشير إلى مكان استقرار وراحة القديس يوفيميا Euphemia . وما زالت حادثة استشهاد عذراء خلقدونية على يد الامبراطور الرومانى الشهير دقلديانوس Diocletian فى هذا المكان مسألة تحير وتربك المعتقد الشعبى.

وكان الطريق الرئيسى للحجاج يمتد على خط مستقيم جهة الجنوب . وهنا كان يوجد حصن صغير يطل على خليج هادىء وهو قلعة دور Dor ذات الشهرة الكلاسيكية القديمة والتى تم تشييدها فى هذا المكان فى الفترة الماضية . وأطلق الصليبيون على هذا الحصن اسم قلعة ميرل Merle وتعنى كلمة ميرل الطائر الأسود ذلك المخلوق الذى كان يوجد بكثرة على جبل الكرمل وبصورة أكثر من السهل . ويعتقد أن مكان هذه القلعة هو مكان مولد القديس أندرو An-drew وكان الكهف المجاور له يشير إلى ذلك المكان الذى اختبأت فيه السيدة مريم العذراء وابنها الطفل السيد المسيح.

وكانت التلال الرملية والهضاب الصغيرة الممتدة على الشاطىء تتحول إلى طريق للسير يمتد جهة الجنوب لمسافة أربعة أميال . ومما يذكر أن السيدة مريم العذراء التى وجدت لنفسها وطفلها ملجأ مؤقتا فى ميرل Merle قد استقرت أيضا فى هذا المكان، ووجود كنيسة هناك وهى نوتردام أو سيدتنا العذراء Notre Dame of the Marches، تحيى ذكرى هذه الحادثة الأسطورية .

وبعد ذلك يستطيع الحجاج مشاهدة قلاع وتحصينات قيسارية الفخمة التى شيدت حديثا على يد الملك الفرنسى لويس التاسع فى عام ١٢٥١م. وكان حجم القلاع والتحصينات المحيطة بمدينة قيسارية تعادل عشر حجم أعمدة عاصمة هيرود الشهيرة ، حيث كانت تيجان الأعمدة والألواح الرخامية تكسو السهل. وخارج مدينة قيسارية كانت توجد كنيسة صغيرة تضم رفاة القائد الرومان الشهير كورنيلوس Cornelius ، وهو القائد والنبيل الرومانى الذى تم تعميده على يد القديس بطرس فى مدينة قيسارية.

وكان ميدان السباق (الهيبدروم hippodrome) فى عاصمة هيرود القديمة (قيسارية) وكذلك المسلة الكبيرة الضخمة والتى كانت تشير إلى سباق الكثير من الأجناس البشرية فى هذا الموضع مكان جذب للحجاج المسيحيين فى العصور الوسطى كما هو الحال بالنسبة للسياح فى العصر الحديث. وتكمن الدلالة المقدسة لهذا الأثر الباقى (الهيودروم وأعمدته والمسلة الكبيرة) فى أن مكان هذا الأثر أصبح بعد فترة وجيزة بمثابة «ميدان المسيح» وأصبح العمودان الصغيران ذات الشكل المخروطى بمثابة «شموع المسيح» . وكان الحجاج يشاهدون أيضا قبر بنات الحوارى فيليب ، الذى قام بتعميد الخصى. والحقيقة أن بنات الحوارى فيليب أردن أن يحتفلن بالقوى الاعجازية النبؤية لأبيهن فذهبن إلى بلاد الشام، بيد أن هؤلاء البنات فى أثناء رجوعهن وصلن إلى قيسارية وفى قيسارية عاجلتهن المنية وتم دفنهن هناك.

وإلى الجنوب كان الحاج المسيحى يصادف طريقًا بالقرب من نهر التمساح Corcodile ، وكانت هناك كنيسة صغيرة ذات شهرة بسيطة خصصت للقديسة مارى وكانت هذه الكنيسة تعتبر مزاراً للحجاج فى مناطق قيسارية . وثمة قرية أخرى كانت تحمل اسمًا محيراً وهو اسم «حزن وألم المفقود Peine Perdué وكانت تعرف أيضا باسم «برج القديس لازاريوس Tower of Saint lazarus ».

عندئذ كان هذا الطريق يؤدى إلى مدينة ريشبون Rishpon السامية القديمة- وتعرف

باليونانية باسم مدينة أبوليا Apollia وفى العربية تعرف باسم مدينة أرسوف Arsuf ، وغالبا كان الصليبيون يطلقون عليها اسم أسور Assur . ومما يذكر أن المناطق القريبة من أرسوف كانت تمثل خطورة على الحاج الذى يسير بمفرده *. وكان الطريق الذى يشق فى الصخر يعرف باسم طريق الصخر المنحوت Roché Taillé (وكان هذا الطريق فى العصر القديم بمثابة نفق لصرف مياه نهر الفالق الراكدة) وكان هذا الطريق ردىء السمعة من الناحية الأمنية إذ كان مكانا لتمركز كمائن اللصوص وقطاع الطرق المحليين.

ومن هذا الطريق (طريق الصخر المنحوت) كان الحاج يصل إلى مدينة يافا وميناءها غير الآمن. ومما يذكر أن مدينة يافا كانت ترتبط بالنبى جوناح Jonah . وكان يوجد بها أيضا كنيسة للقديس بطرس بالقرب من القلعة، التى كانت تبسط سيادتها على الميناء، وقد استمدت هذه المدينة شهرتها ومجدها من امتلاكها للسلم الخارجى للقديس جاك Perron Saint Jacques والذى انتقل بواسطته جسمان هذا القديس بشكل اعجازى إلى أسبانيا وهو الجسمان الذى كان وراء نجاح وازدهار المزار الدينى فى سانتياجو من كوميوستلا فى أسبانيا .

وفى أقصى الجنوب من يافا كان الحاج يدخل أرضًا خالية من الذكريات المقدسة. فمدينة عسقلان بمسجدها الأخضر ، الذى تحول إلى كنيسة للصليبيين، لم تقدم للحجاج الذخائر المقدسة ولا الغفران الكنسى والتسهيلات. وتتباهى مدينة غزة بذكريات سامسون Samson ، بيد أنها لم تحظ بجاذبية خاصة لدى الحجاج المسيحيين.

وفى العادة كان الحاج يتحرك من يافا أو قيسارية صوب رام الله على مفترق الطرق إلى مدينة بيت المقدس. وفى مدينة اللد القريبة من رام الله كانت هناك كنيسة بيزنطية فخمة ، وفى رام الله (حيث الكاتدرائية الكبيرة التى بناها الصليبيون على الطراز الرومانسك) كان الحجاج يشاهدون مكان دفن القديس جورج St. George وهو القديس الحامى للفروسية الأوربية . وغالبا ما كان هذا القديس يتجلى لمساعدة الصليبيين فى حروبهم ضد أعدائهم من المسلمين أو هكذا كانوا يعتقدون . ولاعجب فإن مدينة اللد، وأحيانا مدينة رام الله (التى بنيت فى القرن الثامن الميلادى) كانت تعرف باسم مدينة القديس جورج.

---

* كانت هذه المناطق تضم العديد من اللصوص وقطاع الطرق الذين ينهبون أمتعة المارة وقد أشار الرحالة الذين زاروا الأراضى المقدسة فى القرنين الثانى عشر والثانى عشر الميلادى إلى ذلك (المترجم) .

ومن رام الله كان الحاج يصل إلى بيت النبى * Biet Nuba ، ومع أنها كانت تقع إلى الجنوب وكانت أكثر من رائعة ، فإن الطريق إليها كان محفوفا بالمخاطر ، وهو طريق قلعة تورون أوفرسان تورون Toron Chevalier (اللاترن Latran) الذى يماثل كهف الخادم The Spelanca latronum وكان الحاج يسلك طريقا عبر تلال يهودا (بيت المقدس) لكى يصل بشكل نهائى إلى قمة جبل تطل على مدينة بيت المقدس من جهة الشمال، حيث منطقة قبر النبى صموئيل . وكان أتباع الديانات الثلاث يبجلون قبر النبى صموئيل ويعرفونه باسم «جبل السعادة» وذلك لأن مكان هذا القبر كان أول شىء يشاهده الحاج وهو على مشارف المدينة المقدسة.

لقد كانت مدينة المقدس الهدف الرئيسى للحروب الصليبية وكانت هدفًا أساسيا لكل الحجاج المسيحيين الذين كانوا يقصدونها ، إذ كانت تثير لديهم أعمق المشاعر والعواطف . وكان الحاج يجثوا على ركبتيه عند جبل السعادة شاكرا للرب أنعمه الذى أسبغها عليه فإن لبى طلبه ووفقه فى الحضور إلى هذه الأماكن المقدسة. كان الحاج اليهودى يشاهد مدينة المقدس من منطقة النبى صموئيل (وهذا يتطابق مع الراماثيم التوراتية biblical Ramatham أو من على جبل الزيتون – وذلك إذا جاء من جهة الغرب أو الجنوب– وكان هذا الحاج اليهودى يمزق ملابسه ويؤدى صلاة ويتلوا التراتيل المقدسة من أجل خلاص وتحرير صهيون الأسير من يد الحكام المسيحيين والمسلمين ومن أجل إعادة اقامة «مدينة داود» المتألقة والرائعة . وفى ظل السيادة الصليبية لم يسمح لليهود أو للمسلمين الاقامة فى مدينة بيت القدس. وبعد استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس استقر بها بعض اليهود، وبعد وقت قصير أصبح لليهود حى فى هذه المدينة ، واستمر الحى اليهودى فى مدينة القدس قائما حتى تدميره فى حرب ١٩٤٨ على يد الجيوش العربية**.

ولاشك أن الضريح المقدس فى مدينة بيت المقدس كان يعتبر من أهم المزارات المقدسة فى

---

* بيت النبى: هى نوب الواردة فى التوراة، ولايمكن تعيينها على وجه التأكيد ، أما بيت النبى فيقول عنها ياقوت إنها بيت نوبة، موقع بجوار الرملة فى غربها (المترجم) .

** ما زال الحى اليهودى فى مدينة القدس موجوداً حتى الآن، وذلك لأنه منذ عام ١٩٦٧ قد أعيد بناؤه وأعيد استيطانه مرة ثانية بأوامر السلطات الحاكمة الاسرائيلية (المؤلف) .

هذه المدينة. فقد أعيد بناء كنيسة الضريح المقدس فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى (وقد كرست هذه الكنيسة فى عام ١١٤٩م) وكانت تحيط ببقايا معظم المزارات البيزنطية التى استردها الصليبيون بشكل جزئى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. وكان المهجع الرخامى الصغير للضريح المقدس الذى يقع أسفل قبة الكنيسة الكبيرة يعتبر قدس الأقداس، إذ كانت كل طائفة مسيحية تحاول أن تحصل على مكان بالقرب من هذا المهجع لفترة محددة من الوقت لكى تؤدى وتقدم الخدمة الدينية المقدسة.

ويأتى مكان صلب السيد المسيح Calvary وكنيسة القديسة هيلانة الصغيرة وعدد من الكنائس الصغيرة والتى كان بعضها كنائس بيزنطية وأخرى أرمينية ، أو تابعة للكنيسة اليعقوبية ، أو كنائس قبطية ، من المزارات المسيحية المهمة التى كان يرتادها الحجاج المسيحيون ويذهبون إليها لزيارتها ، احياءً لذكرى الساعات الأخيرة فى حياة المسيح، التى شهدت صلبه وقيامته، وهنا أيضا كان يوجد حجاج فضوليون يتوقون لرؤية مركز العالم ، إذ كان الاعتقاد الدينى السائد فى العصور الوسطى يعتمد على التفسير الغريب لبعض أحداث الكتاب المقدس. ووفقًا لذلك فقد كان رساموا الخرائط فى العصور الوسطى يخططون خرائطهم التى تصور مدينة بيت المقدس كنقطة التقاء مركزية لأوربا، واسيا، وأفريقيا ، أى كانت تظهر فى« الخريطة على أنها مركز الأرض والعالم.

وعندما كان الحاج المسيحى يغادر كنيسة الضريح المقدس، كان يمر على أقدم دير لاتينى ودار ضيافة فى مدينة بيت المقدس- والذى يرجع تأسيسه إلى فترة ما قبل الحروب الصليبية- وهو دير سان مارى للاتين، المجاور للمكان الجديد لفرسان وهيئة الاسبتارية ، والذى استمر بمثابة مستشفى خلال فترة السيادة الاسلامية على المدينة المقدسة بعد عام ١١٨٧م. ومما يذكر أن مسجد عمر الموجود فى الشارع الممتد عبر الأسواق المزدحمة والمؤدى إلى حى الداوية الكبير والفخم قد تحول إلى كنيسة لاتينية على يد الصليبيين . وعبر الأرض المنبسطة كان الحاج باستطاعته زيارة مراكز قيادة الداوية- المسجد الأقصى أو معبد سليمان - كما يسميه المسيحيون (ويسميه اليهود أكاديمية سليمان) .

ومن الأماكن المسيحية المقدسة أيضا التى كان يزورها الحجاج «القبر المزعوم للملك داود «وكنيسة» «هبوط الروح» وكنيسة «العشاء الربانى» على جبل صهيون . وكانت أعمال التقوى والتدين للحجاج تذهب إلى أبعد من ذلك لتحديد وتعيين مكان صياح الديك الذى كان

شاهداً على تردد القديس بطرس، إذ كانت كنيسة القديس بطرس فى جاليقى Galicie تشرف على منحدرات التل وتزينه .

وبعد الانتهاء من زيارة هذا التل كان الحاج يقوم بزيارة «حقل الدم» Acheldem كما كان معروفا. وحقل الدم هذا هو المكان الذى شهد اظهار المسيح، وقد استخدم هذا المكان الآن كمقبرة لدفن موتى الحجاج الفقراء. وكان الحاج ينهى جولته الدينية التقوية حول مدينة القدس بزيارة القلعة، التى ما تزال تعرف باسم «برج داود» . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الحاج كان يزور المقبرة اللاتينية التى تحيط ببركة معميلاح Mamillah pool ، وهى المقبرة التى كان المسيحيون واليهود على السواء يدعون بأنها مكان دفن شهدائهم، ومن الأمر العجيب، أن هذا المكان كان يحرسه أسد ضارٍ كاسر درأ لوقوعه فى يد الأشرار غير الأتقياء. وأخيراً أصبحت مقبرة معميلاح مقبرة اسلامية (كما هى اليوم) وكأن المحاربون (المسلمون - الصليبيون) من أجل امتلاك هذه المدينة المقدسة قد أرادوا أن تتحد وتختلط أجسادهم بعد الوفاة.

وعند الاتجاه صوب الغرب كان الحاج يصل إلى الوادى الرائع المعروف باسم «وادى الصليب» بكنيسته وديره الجورجانية القديمة، وكان هذا المكان مكانا تقليديا شهد قطع شجرة الصلب .

والحقيقة أن كل حادثة وردت فى الأناجيل المقدسة ، وكل منطقة وطأتها قدم المسيح قد تحددت وشيد فوقها مزاراً مسيحيًا مقدسًا، فقد كان طريق دولوروسا Via Dolorasa ، وكنيسة القديسة أنا، وبيت بلاطة Pilate House وقبو هيكل (المسيح الاضافة المتأخرة زمنيًا) ، وأماكن الصلب، كان كل هذا يمثل نماذج تشكل خريطة التاريخ المقدس*. بيد أن التجوال الكامل للحجاج المسيحين كان يتم خارج المدينة ، حول الجثمانية Gethsemane (وهى الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج مدينة القدس) ، وجبل الزيتون وقرية بثيانى للقديس لازاريوس .

وبعد زيارة الأماكن المقدسة داخل وخارج مدينة بيت المقدس كان الحاج يستعد للمسير صوب الشرق. وكانت هذه المنطقة مضطربة وغير آمنة ، إذ كان الحجاج عادة يصطحبون معهم

* الواقع أن عملية أن الإسهاب فى ذكر مثل هذه المزارات والمواضع المقدسة عملية مطولة لاتنتهى . فقد أضيفت بعض المزارات المقدسة فى فلسطين فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى (المؤلف) .

حامية عسكرية لحمايتهم عندمرورهم بهذه المنطقة وهم فى طريقهم صوب الأردن، وكانت أول محطة يمر بها الحجاج هى واحة زراعات النخيل عند أريحا Jericha ومن هذا المكان كان من اليسير على الحاج الوصول إلى أحد الأماكن الأكثر شهرة ألا وهو المكان التقليدى الذى عُمِّد فيه المسيح فى نهر الأردن. وهنا ووسط احتفالات خاصة كان الحاج يستحم فى مياه نهر الأردن، وكان هذا الاستحمام من أهم مظاهر أعمال الحج. ومن هذا المكان كان الحاج يحصل على سعف النخيل الذى يحمله معه إلى وطنه فى أوربا بعد انتهاء فترة الحج. وفى أوربا كانت مثل هذه الأشياء التى يحملها معه الحاج من الأراضى المقدسة إلى وطنه تكسبه لقب «الحاج المسعف» Palmer، وكان الحاج يحمل معه أيضا قارورة مملوءة بالماء من مياه نهر الأردن . وأخيراً فإن هذا الماء الموجود فى القوارير التى يحملها الحجاج كان يجلب الشغب والاضطراب مع بحارة السفينة، والسبب فى ذلك هو أنه كان هناك اعتقاد سائد بأن مياه نهر الأردن كان لها تأثير كبير فى ظروف الطقس وتغيره . وعندما كانت تهب عاصفة قوية جامحة كان الحاج يجبر على التنازل عن جزء من ثروته وكنوزه التى يحملها معه ويلقى به فى عرض البحر.

والواقع أن عدداً قليلاً من الحجاج كانت لديهم الجرأة لزيارة جبل صهيون ، وقبر القديسة كاترين، شهيدة الاسكندرية العذراء. إذ قام الامبراطور البيزنطى جستنيان فى القرن السادس الميلادى ببناء دير سانت كاترين فى قلب الصحراء . وظل هذا الدير بيد الرهبان البيزنطيين الذين نجحوا فى التفاهم مع السلطات الإسلامية المصرية والقبائل البدوية المحلية قبل الوجود الصليبى بعدة قرون . وحوالى عام ١١١٥م وصل الصليبيون إلى هذا المكان ، بيد أنهم غادروه، ولم يتعرض رهبان دير سانت كاترين لأى خطر. كان دير سانت كاترين مشهوراً، ويقينا أن الحاج المسيحى الأوربى كان يعرف شيئًا عن هذا الدير ، وفى فترة متأخرة تضمنت حكاية هذا الدير القبر الرخامى الشفاف الاعجازى والزيت الأعجوبى الذى يشفى العليل ويغذى حيوانات الصحراء الضارية.

وفى العادة كان الحجاج يغادرون الأردن، ليعودوا إلى مدينة القدس حيث كانوا يزورون كنيسة الميلاد البيزنطية المتألقة فى بيت لحم ، وهى الكنيسة التى استمر الأباطرة البيزنطيون فى تزيينها حتى عندما خضعت هذه المنطقة للسيادة الصليبية . وكان الطريق المار بقبر راشيل Rachel موضع اعتبار وتقدير لدى أتباع الديانات الثلاث (اليهود - المسيحيون - المسلمون)، مع أن هذا المكان كان من الطبعى أن يلقى أعظم الحماسة والاهتمام والتقدير من

جانب اليهود . وكانت بيت لحم والمناطق المجاورة لها تستدعى معظم قصص وحكايات العهد الجديد (الانجيل) وأهمها الحفرة التى سقط فيها الكوكب المرشد والهادى للملوك الثلاثة ، والمكان الذى شهد ذبح الأطهار المسيحيين بأوامر الملك هيرود Herod، والمكان الذى بشر فيه الملاك الرعية بميلاد السيد المسيح والموضع الأخير لعملية الولادة نفسها.

ومن بيت لحم كان الحاج أحيانا يغامر بالذهاب إلى حبرون، مدينة البطاركة ، وكهفها المشهور باسم «الكهف المزدوج» وهو الكهف الذى أعيد اكتشافه بشكل اعجازى على يد السلطات الصليبية فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى. وكان هذا المكان موضع اعتبار وتقدير من جانب أصحاب وأتباع الديانات السماوية الثلاث ، وفى فترة متأخرة قامت السلطات الإسلامية بتخصيص وقف مالى لهذا المكان (كان هذا الوقف يعتبر وقفًا باكرًا حدث بعد الفتح الإسلامى لهذا القطر بوقت قصير خلال القرن السابع الميلادى) . وكان هذا الوقف بمثابة مؤسسة ومنشأة دينية خيرية تمد الحجاج المرهقين بالطعام والشراب المنعش . وكان الحاج المسيحى أكثر اعجابًا بتلك الشجرة القديمة التى كانت تقع بالقرب من هذا المكان ، وهى الشجرة التى استظل عندها سيدنا ابراهيم عليه السلام والملائكة الثلاث والذين كانوا بمثابة التنبؤ بالثالوث المقدس وفقًا للتفسير المسيحى لهذه الحادثة.

وكان بعض الحجاج يواصلون رحلتهم صوب الشمال، فكان الحاج يعود إلى مدينة القدس، وعندئذ كانت تأخذه الدهشة عند السير خارج هذه المدينة المقدسة عبر جبال هذه المنطقة صوب الشرق إلى السامرة (نابلس) . وفى نابلس كان الحجاج يشاهدون ذلك المكان الذى شهد كلام السيد المسيح للمرأة السامرية الخاطئة وفى الكنيسة الجميلة عند سبسطية* Sebaste كان الحجاج يشاهدون المكان الذى شهد استشهاد القديس يوحنا John حيث ضرب عنقه . ثم بعد ذلك كان الحجاج يواصلون رحلتهم إلى طريق جبل طابور للوصول إلى الجليل.

وفى القرن الثالث عشر الميلادى اعتاد الحجاج عدم زيارة السامرة (نابلس) واستخدم الحجاج من مدينة عكا أساسًا لتجوالهم ورحلتهم. وكان الطريق الذى يسلكوه يمر بقلعة صليبية صغيرة عند شغرام Shafram والتى أطلق عليها الصليبيون اسم قلعة صافران Safran . وثمة

---

* سبسطية : هى اليوم قرية بسيطة تبعد نحو ثلاثين ميلا عن القدس إلى الشمال ، ونحو ستة أميال عن الشمال الغربى نابلس. وهى قديمة العهد، وكانت تعرف بالسامرة. (بنيامين التطيلى : الرحلة، ص٩٥ ، هامش ٤) (المترجم) .

تقليد حديث جداً يربط هذا المكان بالقديس جيمس James والقديس يوحنا ، بيد أن كنيسة أخرى للقديس سافرون كانت توجد فى هذه البقعة. ويقينا أن هذا المكان كان يحمل اسم القديس سافرون، وربما كان القديس سفرونيوس. St. Saphronius هذا هو بطريرك بيت المقدس الذى شهد سقوط مدينته فى يد المسلمين الفاتحين فى عام (٦٣٨م) . ومن هنا وبعد زيارة القبر المزعوم للقديس نيكولاس St. Nicholas ، كان الحاج يصل إلى صفورية حيث قلعتها الصغيرة الواقعة على التل وكنيستها الجميلة ذات الطراز الرومانسك الواقعة فى الوادى، كما أن صفورية يقال إنها مكان ميلاد القديسة أنا St. Anne ، ومما يذكر أيضا أن الصليبين بدأوا زحفهم الفعال إلى موقعة حطين الشهيرة فى منطقة قريبة من ينبوع وعين صفورية .

وكانت مدينة الناصرة مركزاً مهمًا من المزارات المسيحية التى يفد إليها الحجاج المسيحيون نظرا لما تحمله من ذكريات مقدسة تتعلق بفترة طفولة وشباب السيد المسيح. وكانت كنيسة البشارة فى الناصرة من الأماكن الرئيسة فى المدينة ، بيد أنه كان يوجد فى المدينة أيضا ورشة يوسف النجار، وبئر العذراء السيدة مريم وهو البئر الذى يقع فى ضواحى المدينة. وكان هناك مكان مثير للعواطف واسترجاع الذكريات يعرف باسم مكان سيد الملح "Saltus Domini" وهو عبارة عن صخرة شديدة التحدر تطل على الطريق الرئيسى الممتد من السهول إلى مدينة الناصرة كثيرة التلال. وبعد زيارة الناصرة، كان الحاج يتوجه إلى قانا Cana فى الجليل، حيث كان يشاهد آثار وبقايا اثنتين من الجرار كانتا تستخدمان فى أثناء حفل الزواج الشهير.

وبعد ذلك كان الحاج يسلك الطريق الذى يمر عبر نعيم Naim ذلك المكان الذى شهد معجزة المسيح فى احياء ابن الأرملة، ثم يصل الحاج إلى بحيرة طبرية التى ترتبط بمعجزات الحواريين والسيد المسيح، وكان الحجاج يشاهدون مكان ميلاد القديس بطرس والقديس أندرو ، وأيضا كفر نعوم Capharnaum ، ومائدة المسيح The Mensachristi ، حيث المكان الذى شهد معجزة اطعام عدد كبير من الناس وأشباعهم بخمس سمكات فقط ورغيفين من الخبز . وكان الحاج يرى أيضا المكان الذى شهد القبض على السيد المسيح وسجنه حتى جاء القديس بطرس وأمسك بسمكة وفتحها فوجد داخلها ديناراً لكى يدفع ضريبة الرأس المقررة. لقد كانت بحيرة طبرية وكل ما تحتويه من أسماك مكانا يلقى التبجيل والدوقير.

وعند الرجوع من طبرية خلال جبال الجليل كان الحاج يشاهد القمة المرتفعة لقلعة صفد الضخمة، وهى القلعة التى يرجع تشييدها إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وذلك على

أثر مبادرة من بندكت الاليجتان Benedict d'Alignan ، الأسقف المارسيلى . وكان هذا المكان غير معروف فى العصر القديم، بيد أنه نال قداسة وأصلاً مقدسًا خلال فترة السيادة الصليبية ، وذلك لأن هذا المكان كان يضم كهف دفن طوبياس Tobias.

وفى رحلة العودة كان الحاج يستطيع زيارة جبل طابور الفخم ، الذى يطل على وادى جزريل، وقد وصف هذ الجبل فى الأوقات الحالية على أنه مذبح أقيم من أجل الرب تمجيداً وتشريفًا . وكان طريق طرطوسة يؤدى إلى قمة هذا الجبل بيد أن الحاج كان يحظى بمكافأة عظيمة وهى الصلاة فى مكان تجلى المسيح على الجبل وتلاوة القداس على جبل طابور (ويقال أيضًا أن هذا الجبل كان عبارة عن تل قريب من طبرية).

وفى نهاية المطاف كان الحاج يصل إلى عكا مرة ثانية. وعلى الرغم من أن مدينة عكا كانت تفتقر كثيرا إلى الأحداث والذكريات المرتبطة بالكتاب المقدس (الانجيل) ، فإن كل ما ذكر عن مثل هذه الذكريات المسيحية المرتبطة بمدينة عكا كانت زائفة وكاذبة. فاسم عكو Acco أو عـكـا Acca كان يتطابق بشكل خاطىء مع اسمها التوراتى وهو اكرون Ecron وهكذا تم الاعتراف بقدسية مدينة عكا من خلال هذه المطابقة الخاطئة، وظل اسمها)عكا) ينطق بشكل خطأ (واستخدم اسم عكا بهذا الشكل فى جميع أنحاء العالم). ومن هنا كانت عكا بمثابة خطوة فقط نحو تماثل وتطابق البرج الرئيسى المشيد عند مدخل الميناء مع «برج الذباب» لمدينة اكرون Akron التوراتية . وهنا كان الوثنيون يؤمنون بأن يقدموا أضحياتهم وكانت دماء أضحياتهم من المواشى المذبوحة الطازج يجتذب ويستميل الذباب، هذا الذباب الذى أعطى اسمه للبرج وأصبح برج الذباب، ومع ذلك فإن مدينة عكا لم تنل كثيرا فى مجال الذكريات والأحداث المقدسة. وكان العوض عن افتقارها لمثل هذه الذكريات والأحداث المقدسة هو تقديمها التسهيلات والترحاب لأولئك الحجاج الذين يأتون إليها لزيارتها . وتقريبًا قامت كل كنيسة وكل دير بتقديم التسهيلات للحجاج لكى يؤودا الصلاة . وكان ميناء عكا أيضا يقدم للحجاج كافة سبل الراحة ويكفل لهم هذه التسهيلات مدة تصل إلى أربعة وأربعين يومًا. وثمة قائمة ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى قد أحصت أكثر من ثلاثمائة عام من التساهلات التى قدمت للحجاج المسيحيين فى مدينة عكا وميناثها .

الفصل الثانى عشر

الكنائس الشرقية

لقد كان الموضوع الرئيسى للخطبة الشهيرة التى ألقاها البابا اربان الثانى Urban II فى ختام المجمع الكنسى الذى عقد فى مدينة كليرمون فى جنوب فرنسا عام ١٠٩٥ هو مناشدة الغرب الأوربى من أجل إنقاذ المسيحيين الشرقيين فى منطقة الشرق العربى من اضطهاد ومضايقة المسلمين لهم. ولذا فإننا ندهش ونعجب عندما نقرأ الرسالة التى بعث بها قادة الحملة الصليبية الأولى للبابا اربان الثانى فى الثانى من سبتمبر ١٠٩٨م، بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية والتى جاء فيها:

«لقد قهرنا وغزونا الأتراك والوثنيين ، بيد أننا لم نستطع الحاق الهزيمة بالهراطقة البيزنطيين والأرمن ، والسوريان واليعاقبة .. وعندما نناشدك أيها الأب الأحب ونلح فى الرجاء أن تأتى إلينا ، لأنك أنت نائب القديس بطرس، وسوف تجلس فى كنيسته (فى أنطاكية) ، وسوف نكون لك أبناءً مخلصين نقدم إليك الطاعة فى كل الأمور العادلة ، وسوف نكون طوع أمرك ورهن اشارتك للقضاء على الهراطقة الوثنيين».

والواقع أن مثل هذا الاعلان الغريب صدر عن قادة جيش صليبى تجشم عناء ووعثاء السفر من أجل انقاذ المسيحيين الشرقيين ! وبينما كانت الطوائف المونوفيزيتية Monophysite تمثل الهرطقة الرسمية ، فإن مثل هذه الهرطقة قلما كانت تنسحب على كنيسة البيزنطيين الأرثوذكسية. وعلى الرغم من حدوث القطيعة الكبرى بين كنيستى روما والقسطنطينية منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وقطع العلاقات بينهما، فإن الصليبيين الكاثوليك لم يعتبروا الكنيسة البيزنطية كنيسة هرطقية.

وعندما تأسست المملكة الصليبية فى بيت المقدس باتت هناك مشكلة نقص مضاجع الغزاة الصليبيين وكانت هذه المشكلة تتمثل فى نوع السياسة التى يطبقها هؤلاء الغزاة على المسيحيين المحليين. فقد كانت الكنيسة المسيحية (مثل المعبد اليهودى) من كل الأقطار التى خضعت للسيادة الإسلامية مركز الحياة الدينية وحياة الجماعات المسيحية. فقد كان رجال الدين

يبسطون سيادتهم على أفراد طائفتهم وكانوا بمثابة الممثلين الرسميين لهذه الطائفة . وهكذا فإن السياسة الكنسية كانت تعنى فى الواقع سياسة عامة تجاه المسيحية الشرقية.

وعشية الحملة الصليبية الأولى والغزو الصليبى لمنطقة الشرق العربى الإسلامى كانت هناك هوة سحيقة تفصل بين المجموعة الرئيسة للحكام وبين المحكومين (الرعية) فى الأراضى المقدسة ولايمكن اجتياز هذه الهوة، ، وهى الهوة السحيقة التى فصلت بين الإسلام والمسيحية ، إذ كانت الدعاية الصليبية تستخدم مفردات الاسلام والقانون الإسلامى* فى اثارة وتحريض الغرب الأوربى ضد المسلمين ، كما أن الدعاية الصليبية كانت تؤكد باستمرار على فكرة تحرير الضريح المقدس من يد المسلمين الهراطقة .

ولاشك أن الصدام مع الشرق المسيحى خارج حدود القسطنطينية ربما قد أحدث ارتباكًا شديداً للصليبيين ، لقد أثبتت المسيحية الشرقية أنها اختصار لظاهرة معقدة بشكل كبير، وأنها كانت تغطى ستة مجتمعات تشترك فى اعتناق عقيدة شائعة.

لقد ساهمت الاشاعات السريعة والمروجة التى سبقت اقتراب وصول جيوش الحملة الصليبية الأولى فى تهيئة مناخ من التوتر المتوقع فى منطقة الشرق، ويظهر خطاب عبرى معاصر فى منطقة البلقان أنه كانت هناك حركة مسيحية فى شبه جزيرة البلقان. ففى الأدب المسيحى الشرقى كان الأتراك فى الغالب يمثلون يأجوج ومأجوج Gog and Magog ، كما أن الأدب المسيحى الشرقى يصور الصليبيين بأنهم جموع الهية جاءت على عجل لكى تشارك فى قتل الشيطان فى معركة فاصلة بين قوى الشر وقوى الخير. وكان المؤرخ الأرمينى متى الرهاوى يرى فى الحركة الصليبية بأنها بمثابة تحقيق للنبوءة التى تكهن بها البطريرك الأرمنى المبجل نارسيس Narses :

«لقد كان الهدف من استخدام جيش الفرنجة هو أن الرب أراد أن يقاتل الفرس (الترك) ... كما أن الصليبيين جاءوا لتحطيم الأغلال والأصفاد التى تقيد المسيحيين وتكبلهم ، ولتحرير مدينة بيت المقدس المقدسة من نير احتلال الهراطقة المسلمين ولتخليص القبر المقدس من يد

---

* اقتبس دعاة الحركة الصليبية مبدأ الجهاد الإسلامى فى الترويج لها، كما اقتبسوا سمو الاستشهاد فى الإسلام، وأن الشهيد الذى يقتل فى سبيل نصرة الدين يسبق غيره فى دخول الجنة (المترجم) .

هؤلاء الهراطقة ذلك القبر الذى استقبل الرب. «فالفرنجة الذين عبروا البحر واجتمعوا ووعدوا الرب، أنه إذا قيض لهم الدخول إلى مدينة القدس ، فإنهم سوف يعيشون فى سلام مع كل معتنقى الديانة المسيحية، وأنهم سوف يمنحون الكنائس والأديرة لكل الأمم التى تعترف بالمسيح وتؤمن به ».

ومما يذكر أن كلمة «تحرير أو تخليص Leberation† قد وردت فى مؤلفات الكتاب المسيحيين الشرقيين ، بيد أنه مهما أشار هؤلاء الكتاب فى مؤلفاتهم إلى هذه الكلمة (تحرير أو تخليص) ، فإنه يقينًا أن هذه الكلمة لم تشر إلى فكرة خاصة بتحرير الشخص المسيحى. وكان بيزنطيو مدينة أنطاكية ما يزالون يحلمون باسترداد الامبراطورية البيزنطية لأملاكها التى فقدتها واسترداد مدينة أنطاكية التى سوف تسترد مكانتها السابقة كمركز للحكام فى عاصمة بلاد الشام - وكان الأرمن فى منطقة طوروس قليقية Cilicia يتطلعون إلى الحصول على حق الحكم الذاتى دون التعرض لاعتداءات وانتهاكات البيزنطيين أو الأتراك ، ومن الواضح أن مثل هذه التصورات والرغبات المكبوتة والدفينة لم تكن ترد على بال المسيحيين الشرقيين من اليعاقبة، والنساطرة ، والسوريان والأقباط . إذ لم تستطع الطوائف المسيحية الثلاث (اليعاقبة - النساطرة- السوريان) أن يلتفتوا بأفكارهم إلى أية تقاليد قديمة خاصة بحالة الاستقلال الذاتى. فلم يشهد أى وقت تماثلت فيه عقائدهم مع عقائد أهل الاقليم الذى يقطنوه أو مع عقائد أية مجموعة عرقية. لقد كانت عقائد هذه الطوائف الثلاث تختلف إلى حد ما عن عقائد أقباط مصر، بيد أنه مهما كانت مشاعرهم وشعورهم تجاه المسلمين فإن جيرانهم المسلمين كانوا ينظرون إليهم على أنهم أهل ذمة ورعايا يتمتعون بحماية الدولة الإسلامية. وكانت طائفة المارون اللبنانية هى الطائفة المسيحية الوحيدة فقط التى تطورت ونشأت من جماعة اقليمية وعرقية وتميزت بقوة عقيدتها وتماسكها ، وبرغم ذلك فإنهم كانوا موضع احتقار وازدراء من جانب البيزنطيين الأرثوذكس وأيضا من جانب المونوفيزيتيين على السواء .

لقد كانت الحرية بالنسبة للطوائف المسيحية الشرقية تعنى- فى أفضل أحوالها - حرية العبادة هذه الحرية التى لم تتزامل مع السيادة المسيحية فى هذه المناطق ، فقد كان الحكام المسلمون أكثر سخاءً وتسامحًا بخصوص منح حرية العبادة لغير المسلمين من أهل الذمة . ويشير إلى ذلك ميخائيل السوريانى فيقول : «أن الحكام المسلمين لم يسألوا عن مهنة الشخص أو عقيدته ، ولم يظلموا أحد بسبب مهنته أو عقيدته مثلما كان يفعل الهراطقة

البيزنطيون تلك الأمة الشريرة. ويقول ميخائيل السورياني أيضا «إن أبناء يأجوج ويقصد بهم الأتراك قد حكموا باذن الرب»، هذا الحكم الذى خيم بظلاله الكئيبة من القلق والتوتر النفسى على الهراطقة الظالمين من البيزنطيين. وهكذا لم يقم الأتراك باجبار الأرثوذكسى (من اليعاقبة) على الارتداد عن عقيدتهم مثلما فعل البيزنطيون معهم من فرض قانون صارم من أجل تحول وارتداد اليعاقبة عن عقيدتهم وتحولهم إلى الهرطقة البيزنطية .

لقد ظلت نتائج مجمع خلقدونية البغيضة* والخطرة على الكنيسة البيزنطية تمثل فكرة مهيمنة ومتكررة فى الرواية التاريخية الكبيرة التى سردها لنا ميخائيل السورياني (فى القرن الثانى عشر الميلادى) . وظهرت نفس هذه الأفكار العاطفية فى المصادر التاريخية الباكرة التى استقى منها ميخائيل السورياني معلومات . واعتمدت هذه المعلومات التاريخية التى ذكرها ميخائيل السورياني على خطابات المؤرخ الشهير فى القرن الثالث عشر الميلادى وهو أبو الفرج بن العبرى (باللغة العبرية) ، وهو المؤرخ المسيحى اليعقوبى والمرتد عن العقيدة اليهودية ولم ينس أرمن آسيا الصغرى وكذلك أقباط مصر الخوف والمضايقة الذى كان يسببه لهم البيزنطيون .

ومما يذكر أن التجربة والخبرة التاريخية للأرمن واليعاقبة ، وأقباط مصر يمكن أن يفسر لنا جزئيًا تردد المصادر التاريخية المسيحية الشرقية فى ترحابها بقدوم ووصول جيوش الحملة الصليبية الأولى، فالمؤرخ القبطى السكندرى ساويروس بن المقفع Sawirus Ibn al Mukaffa ذكر فى تاريخه ومؤلفاته فقرة قصيرة يصف فيها هذه الأحداث فيقول : «فى أيام الأب ميخائيل (بطريرك الاسكندرية القبطى) وصلت جيوش الرومان (الروم) والفرنجة من روما ومن أراضى الفرنجة إلى بلاد الشام فى جموع عظيمة واستطاعت هذه الجيوش الاستيلاء على أنطاكية والأراضى المحيطة بها وعلى معظم أقطار بلاد الشام العليا... وعندئذ استطاعت هذه الجيوش الصليبية احتلال مدينة بيت المقدس المجيدة (القدس الشريف) ... ونحن مجتمع المسيحيين اليعاقبة والأقباط لم تستطع القيام برحلة الحج إلى مدينة بيت المقدس».

---

* مجمع خلقدونية : أحد المجامع الكنسية الذى عقد فى مدينة خلقدونية فى عام ٥٥٣ للنظر فى مشروعية استخدام الصور فى الكنائس وانتهى المجمع بتحريم هذه الأيقونات والصور وهدد بتوقيع الحرمان كل من يستخدم الصور والأيقونات . (المترجم).

ولأن حرية العقيدة والعبادة كانت الحلم العظيم الذى ترنو إليه كل الطوائف المسيحية فى الشرق فإن هذا المعيار هو الذى حدد موقف الشرق المسيحى تجاه القادمين الجدد من الصليبيين.

ومن هذا المشهد يتبين لنا أن تحرير وتخليص مدينة بيت المقدس من يد المسلمين لم يكن يعنى ذلك بالنسبة لعدد كبير من المسيحيين الشرقيين. إذ أن المسيحيين الشرقيين قلما كانوا يتوقعون سيادتهم على الأماكن المقدسة فى ظل الحكم والسيطرة الصليبية، وفى أفضل الأحوال، كان المسيحيون الشرقيون يجنون بعض المكاسب على حساب الكنيسة البيزنطية. فقد كانت هناك أيضًا فرصة للمسيحيين الشرقيين من أجل التخلص من أعباء الابتزاز المالى والضرائب التى كانت تفرضها عليهم السلطات الإسلامية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه ربما كان من الصعب على طوائف المسيحيين الشرقيين زيارة ومشاهدة المزارات المسيحية فى الأراضى المقدسة. فقد كان الاحتفال بيوم «النار المقدسة» عيداً عاما لكل المسيحيين الشرقيين، بيد أن مدينة بيت المقدس كانت غائبة بشكل واضح فى الكتابات الغزيرة لليعاقبة والأقباط . والأرمن ، وأصبحت مدينة القدس هدفًا للطموحات الأوربية وشعر الصليبيون بأنهم كانوا ينالون ميراثهم الشرعى وحقهم المسلوب ، وأطلقوا على مملكتهم اسم «مملكة داود» ولم يوجد مثل هذا الشعور بين طوائف المسيحيين الشرقيين. وآية ذلك أن ميخائيل السوريانى كان يكتب عن صورة زائفة عن القديس العظيم لليعاقبة - بار ساما Bar Sauma ولم يكتب عن الضريح المقدس. وكذلك لم ترتفع وترتقى كنيسة مدينة بيت المقدس إلى درجة البطريركية من وجهة نظر المسيحيين الشرقيين من أقباط ويعاقبة وأرمن . ونادرا ما كان هؤلاء المسيحيون الشرقيون يرفعونها إلى درجة أسقفية . وثمة عوامل مادية قد ساهمت فى هذا الموقف والاتجاه من جانب هؤلاء، ومن هذه العوامل عدم وجود مجتمع كبير لطوائف المسيحيين الشرقيين، بيد أن العلاقات فيما بينهم كانت تفتقر إلى الود والتفاهم إلى حدك كبير. فقد كان الاختلاف فى وجهة النظر بينهم وكذلك الاختلافات فى المذهب أكثر حدة.

كان الأقباط والمسلمون يطلقون على مدينة بيت المقدس اسم القدس الشريف، وكان يتم تعيين وتكريس الأساقفة اليعاقبة والأقباط فى مدينة بيت المقدس وذلك لإرسالهم إلى أماكن أخرى ، أو أن البطريرك الجديد كان يتم مسحه بالزيت المقدس لأول مرة فى كنيسة مدينة القدس أيضًا، استشهاداً واستناداً إلى ما ذكره انجيل لوقا (السفر السوريانى ٢٤-٢٧) : «كل الناس يبدأون فى بيت المقدس»، بيد أن مصالحهم فى مكان آخر ، ويستطيع المرء أن

يقارن بين موقف هؤلاء الناس بما فعله اليهود فى موقف سياسى مشابه ، لكى نتصور هذا الاختلاف فى مذاهب المسيحيين الشرقيين واختلاف رؤيتهم للمزارات المسيحية فى الأراضى المقدسة .

ومهما كانت توقعات طوائف المسيحيين الشرقيين ، فإن الواقع الفعلى أثبت أن هذه التوقعات المأمولة والمرتقبة كانت ضارة وخطيرة . فقد كان الحكم الصليبى قاسيا منذ بداية فترة الوجود الصليبى. وكانت سنوات الغزو بمثابة فترة ألم وعذاب كثير. والحقيقة أن المسيحيين الشرقيين كانوا يتكلمون اللغة العربية ، ويطلقون اللحى، ويلبسون الملابس ذات الطراز الإسلامى وهو الأمر الذى كان يجعلهم ضحايا للحرب التى كانت تنشب بين المسلمين وبين الصليبيين وكانوا يتعرضون لأعمال السلب والنهب. بيد أنه فى الفترة المتأخرة من الوجود الصليبى، وحينما استطاع الصليبيون التمييز بين المسيحيين الشرقيين وبين المسلمين ظل السوريان دائما موضع شك وعدم ثقة من جانب الصليبيين .

ويمكن القول إن الاختبار والمحك الرئيس كان فى مجال العبادة والعقيدة . ففى مجال المقدسات خسر الصليبيون صدامهم الأول مع المسيحية الشرقية، وعلى الرغم من أن بعض الأخطاء قد تم تصويبها فى فترة متأخرة، فإن الأحداث الباكرة فى تاريخ المسيحية لم تنس ولم تمحى من الذاكرة ، ويعتبر سجل المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى أكثر توضيحًا وهو المؤرخ الذى كان مؤيداً للصليبيين مثل بنى جلدته من الأرمن. فهو يؤكد أنه فى عام ١١٠٢م تدخل الرب مباشرة من أجل منع التهديد ضد الفرنجة . ولم تهبط النار المقدسة على قبر المسيح يوم السبت، والمسيحيين من المؤمنين الحقيقين (المونوفيزيتيين) هم الذين جعلوا النار المقدسة لم تظهر أبداً على الرغم من مرور يوم، ولم تظهر النار المقدسة على الاطلاق ويرجع السبب فى ذلك إلى قيام الصليبيين بطرد الرهبان الأرمن والبيزنطيين، والسوريان والجورجيان من أديرتهم. وبرغم ذلك فإنه بعد معجزة النار المقدسة ، كان الصليبيون يتأسفون ويزرفون دمع الندم على فعلتهم ضد الرهبان المسيحيين الشرقيين وبدأوا يردون الأديرة إلى أصحابها من الرهبان الشرقيين. ويقول المؤرخ الجدلى القبطى ساويروس ابن المقفع بوضوح إنه بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، توقفت وتعطلت رحلات الحج التى كان يقوم بها الأقباط إلى الأرض المقدسة، وذلك بسبب ما عرف عن كراهية الصليبيين للأقباط ، وأيضا بسبب المعتقدات الزائفة للصليبيين وتعنتهم ضد الأتقياء المؤمنين من الأقباط .

لقد افتقد الصليبيون الفرصة الملائمة وضاعت منهم ولم يستطع الصليبيون كسب ود المسيحيين الشرقيين وجعلهم حليفا لهم ضد المسلمين . وأحيانًا كانت بعض الطوائف المسيحية تؤيد الصليبيين، بيد أنه بشكل عام كانت هذه الطوائف المسيحية المحلية يتفادى الوقوع فى منزلق هذه الورطة ، ومما يذكر أن الصليبيين لم يعتبروا المسيحيين الشرقيين فى وضع متكافىء ومتساو مع السكان اللاتين المهاجرين ، وربما كان هؤلاء المسيحيون الشرقيون يلقون معاملة من الحكام الصليبيين أفضل من المسلمين ، بيد أن ذلك لم يكن ظاهراً بشكل واضح. وقد تبين لنا من الاستنتاجات التى استخلصناها من الكتب القانونية للمملكة الصليبية أنه ليس هناك اختلاف كبير فى موقف الصليبيين تجاه مختلف الطوائف المسيحية الشرقية: ومن الغريب تمامًا أن موقف الصليبيين تجاه غير المسيحيين لم يختلف عن موقفهم تجاه المسيحيين الشرقيين: إذ كان كل من المسيحيين الشرقيين وغير المسيحيين سواء أمام القانون، يتمتعون بالحكم الذاتى الداخلى، وتكفل لهم سلامة حياتهم، وممتلكاتهم. وعلى الرغم من أنه كانت هناك اختلافات فى الوضع القانونى، فإن هذه الاختلافات لم تكن تتعلق بالجماعات العرقية أو الدينية. فقد كان يوجد مسلمون وأيضا مسيحيون (من السوريان والبيزنطيين) ، وفلاحون، وكان بعضهم يؤدى ضريبة الأرض الزراعية والبعض الآخر لايؤدى مثل هذه الضريبة الزراعية . وفى نفس الوقت، كان أفراد كل هذه الطوائف المسيحية الشرقية (بالاضافة إلى المسلمين واليهود) يقطنون المدن، ويؤدون ضريبة الرأس Capitatio للسلطات الصليبية ، بيد أنهم كانوا يتمتعون بحرية الحركة ، على الرغم من أنهم لم ينتموا إلى طبقة البرجوازية . وعلى الرغم من ذلك، فإنه بلاشك أن طوائف المسيحيين الشرقيين فى المناطق الصليبية لم يكونوا أسوأ حالاً من رفاقهم فى العقيدة الذين كانوا يخضعون للسيادة الإسلامية أى الذين كانوا يقطنون الأقاليم التى تخضع للحكام المسلمين، وكانت الألفة والانسجام بين أفراد هذه الطوائف المسيحية المحلية لم تزد عن كونها ألفة ظاهرية فقط. فقد كانت حادثة مثل استرداد المسلمين لمدينة مثل بيت المقدس أو طرابلس تجعل الأساقفة الشرقيين يقومون بكتابة ترنيمة جنائزية حزينة ، بيد أن الموضوع الرئيسى لكتابة رجال الدين الشرقيين كان يذكر حول انتهاك المقدسات المسيحية وهى المقدسات التى لم تفقد جاذبيتها المقدسة على يد الصليبيين .

وعلى المستوى السياسى كانت ثمة سياسة اتبعها الصليبيون تنزع إلى المساواة تجاه جميع طوائف المسيحيين الشرقيين وحتى تجاه اليهود والمسلمين، ولم تمتد هذه السياسة إلى المجال الدينى. ومما يذكر أن العلمانيين من القادة الصليبيين هم الذين قرروا سياسة المساواة السابقة،

وهم الرجال الذين كانوا فى جدال مع حقائق أوضاع الصليبيين وظروفهم، وساهمت الكنيسة اللاتينية فى تعضيد نفوذ وسطوة الرجال العلمانيين ، حيث كانت المصالح الدينية والمادية من الأمور الحاسمة والمهمة فى سياسة كنيسة الضريح المقدس فى مدينة القدس.

كانت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أكثر الكنائس تأثراً بالغزو الصليبى للمناطق العربية. ففى الأقاليم الشمالية من بلاد الشام كان يوجد عدد كبير من أتباع المذهب الأرثوذكس وكان هؤلاء من أصل بيزنطى ، بيد أن السوريان كانوا من أنصار الكنيسة البيزنطية الرئيسيين فى المناطق الصليبية الواقعة جنوب المملكة اللاتينية. وكان يوجد مواطنون فى الأرض المقدسة أو فى الأقاليم المجاورة لها يتحدثون اللغة العربية ، بيد أنهم كانوا يتبعون الشعائر والطقوس الدينية البيزنطية. ومما يذكر أن وجود البيزنطيين فى بلاد الشام يرجع إلى ألف عام من التاريخ المرتبط بفترات المجد، حيث فترة الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، وبعض الفترات الفاصلة المظلمة والعابسة فى أثناء السيادة الاسلامية . بيد أن وضع الكنيسة البيزنطية كانت قويًا ، إذ كانت تحوز أملاكا واسعة فى ظل الحكم الإسلامى، وكان هناك دائمًا امكانية التدخل البيزنطى فى المنازعات والمناقشات الخطيرة الخاصة بسياسة الحكام المسلمين. وبين عشية وضحاها تغير هذا الوضع وهذا النفوذ الذى كان تتمتع به الكنيسة البيزنطية فى المناطق العربية وذلك بحلول الغزو الصليبى لهذه المناطق . ويمكن أن نعزو ذلك جزئيًا إلى العلاقات السيئة بين الصليبيين وبين الامبراطور البيزنطى ، والذى تمخض عنها بالتالى الوساوس والشكوك التى انتابت أتباع الكنيسة البيزنطية ازاء الغزو الصليبى والنفور منه وعدم الثقة فى جدواه، كما أن الاختلافات المذهبية الدينية بين الصليبيين وبين البيزنطيين قد ساهمت هى الأخرى فى احداث الموقف الرافض من جانب أتباع المذهب الأرثوذكس فى الأراضى المقدسة ازاء الغزو الصليبى.

وعلى خلاف ذلك ، لم يكن اليعاقبة والنساطرة يعتبرون أتباع الكنيسة البيزنطية من الهراطقة، وعلى الرغم من أن الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية أحيانا كانت فى حالة قطيعة مع كنيسة روما ، فإن ثمة حقيقية وهى أن طقوس وشعائر هاتين الكنيستين كانت تختلف فى بعض الأمور إلى حد ما نتيجة الاختلاف المذهبى*. وهكذا حدث جدل وصراع بين الصليبيين وبين

---

* كانت ثمة اختلافات فى الشعائر والطقوس الدينية بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما ولاسيما فى طقس العشاء الربانى أو التناول ، ونوع الخبز المقدم فى هذا الطقس ، وكذلك اختلافات فى ملابس وشكل رجال الدين فى الكنيستين . (المترجم) .

البيزنطيين ، ولم يكن هناك سبيل أمام رجال الدين اللاتين سوى القضاء على رجال الدين البيزنطيين ليحل محلهم رجال الدين اللاتين ، فلم يكن هناك مكان لاثنين من البطاركة ، وهكذا حل رجال الدين اللاتين محل رجال الدين البيزنطيين ، وفقدت الكنيسة البيزنطية مكانتها ونفوذها ، وفقد رجال الدين البيزنطيين مكانتهم وهبطوا إلى مستوى أدنى وخضعوا لسيطرة رجال الدين اللاتين بشكل واضح.

وقد بدأت احداث الشطر الأول من مأساة رجال الدين البيزنطيين فى مدينة بيت المقدس. حيث قام المسلمون بطرد البطريرك البيزنطى ، سيمون Simon أو هرب وقت اقتراب وصول الجيوش الصليبية، ولم يتردد الغزاة الصليبيون فى انتخاب واختيار بطريرك لاتينى ليحل محل البطريرك البيزنطى بعد غزو مدينة بيت المقدس. وقضى البطريرك البيزنطى المنفى سيمون سنوات حياته الباقية (توفى سنة ١١١٦م) هائمًا على وجهه متنقلاً ما بين قبرص والقسطنطينية ثم انتقل من القسطنطينية إلى مدينة بيت المقدس. وقد أخفقت مجهوداته فى سبيل العودة إلى منصبه القديم كبطريرك لكنيسة الضريح المقدس فى القدس، ووجد ذلك الرجل المسن متنفسًا لمشاعره من خلال كتابة مقالات ورسائل دينية ضد الخبز الخالى من الخميرة فى الشعائر الدينية اللاتينية (فى طقس العشاء الربانى أو التناول) .

وحدث نفس الشيء للبطريرك البيزنطى فى بطريركية أنطاكية، فقد ترك البطريرك البيزنطى جوهانز Johannes كنيسة أنطاكية مدة عامين بعد الغزو الصليبى لمدينة أنطاكية واعتزل المنصب الدينى واتخذ من القسطنطينية متسقرا ومقامًا له. وعندئذ قام الصليبيون بتعيين بطريرك لاتينى. وباتت المقاومة المحلية ضد التدخل الصليبى أمراً مستحيلاً ، وانتقمت الكنيسة البيزنطية وثأرت لنفسها بواسطة استمرار تعيينها البطاركة الرسميين لبيت المقدس وأنطاكية ، هؤلاء البطاركة الذين أقاموا فى المنفى فى القسطنطينية.

والحقيقة أنه لايمكن اغفال الاختلاف بين كنيستى مدينة القدس وأنطاكية. ففى حين كان أغلب سكان مدينة القدس إبان فترة الحكم الصليبى يتألفون من المهاجرين الأوربيين، كان الوضع فى أنطاكية مختلفا بشكل كامل . ففى أنطاكية بقى أغلبية السكان المحليين- كما كانوا من قبل- من البيزنطيين واليعاقبة. وهذا يفسر لنا جهود الأباطرة البيزنطيين المستمرة والقوية من أجل إعادة تنصيب بطريرك بيزنطى فى أنطاكية . وفى الغالب، وعندما كانت الظروف السياسية مواتية ، كانت جهود الأباطرة البيزنطيين تكلل بالنجاح. وفى فترة ما وافق

أمير أنطاكية الصليبى على تعيين بطريرك بيزنطى. ولاشك أن حدوث مثل ذلك يجعلنا القول إن مدينة أنطاكية فى تلك الآونة كانت تقع تحت طائلة عقوبة اللعنة الكنسية من جانب رجال الدين اللاتين، وكانت كنيسة روما تعضد وتقر هذا الحرمان الكنسى المفروض على كنيسة أنطاكية بشكل مطلق .

وكانت عملية احلال رجال الدين اللاتين محل رجال الدين البيزنطيين فى الكنائس فى المناطق الصليبية تصاحبها عملية سلب ونهب لممتلكاتها الكنائس الشرقية فى هذه المناطق . وكانت هذه الكنائس تحتفظ بحقها الشرعى من هذه الممتلكات وذلك لأن عملية السلب والنهب هذه لم تكن تعلن بشكل رسمى . وببساطة كان رجال الدين اللاتين يتولون أمر أملاك الكنيسة البيزنطية وزملاك كنيسة منذ فترة باكرة من الوجود الصليبى. وهكذا عندما قام جودفرى البويونى وبلدوين الأول بمنح رجال الدين اللاتين وكهنة الضريح المقدس ثلاثين قرية كاقطاعات وأملاك كنسية بالقرب من مدينة بيت المقدس ، أو عندما منح تانكرد أملاكا واسعة لرهبان جبل طابور على جابنى نهر الأردن ، كانت مثل هذه المنح بمثابة تأكيد أحقية المؤسسات اللاتينية الدينية الجديدة لممتلكات أسلافهم من البيزنطيين. وعندما يشير الرحالة فى العصور الوسطى، والمؤرخون المحدثون إلى ممتلكات الكنيسة البيزنطية فى المناطق التى خضعت للسيادة الصليبية ، فإنهم فى حقيقة الأمر يسردون بقايا ممتلكات الكنائس البيزنطية الغنية منذ الفترة الباكرة .

ففى أثناء عملية الغزو الصليبى قام القادة الصليبيون العلمانيون بمصادرة ممتلكات الجماعات المسيحية الوطنية. ولم يكن النبلاء حريصين على الشكليات وعلى دقة تنفيذ الأوامر قدر حرصهم على حقوقهم إذ أنهم عاملوا المسيحيين الوطنيين باعتبارهم سكانا مقهورين، وقد تطلب ذلك من المسيحيين الوطنيين صبراً جميلاً ، وفى الغالب كان هؤلاء المقهورون يلجأون إلى تقديم الرشوة للملوك الصليبيين فى بيت المقدس لاستجلاب ودهم ورضاهم ، ومن أجل إعادة بعض الأملاك لأصحابها الشرعيين. وعلى سبيل المثال، فقد حدث مثل هذا من استرداد الأملاك لأصحابها الشرعيين بالنسبة لطائفة اليعاقبة التى كانت تقطن منطقة قريبة من مدينة بيت المقدس. إذ قام أحد الفرسان الصليبيين بالاستيلاء على أراضى اليعاقبة واغتصابها، وظل يبسط سيادته عليها مدة جيل كامل من التقاضى أمام المحكمة إلى أن تم إعادة هذه الأراضى إلى أصحابها من اليعاقبة، ومما يذكر أن استرداد اليعاقبة لأملاكهم

وأرضهم المسلوبة لم تتم بموجب حكم قضائى، بل جاء من خلال تدخل ووساطة الملكة الصليبية مليسندا Melissand ، ابنة الأميرة الأرمينية مورفيا Morfia التى كانت أكثر تعاطفًا مع المونوفيزيتيين .

وعلى الرغم من أن التشريع والقانون الصليبى لم يقرر تمايزاً بين البيزنطيين الأرثوذكس وبين الجماعات المسيحية المحلية من اليعاقبة فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس، فإن هذه المنطقة شهدت تعصبًا بشكل أكثر ضد اليعاقبة . ويمكن القول بشكل عام إن اليعاقبة والأرمن لم يحظوا بمعاملة حسنة من جانب الصليبيين إذا ما قورنت بمعاملة الصليبيين للبيزنطيين التى كانت أفضل حالا . فقد تسبب الغزو الصليبى فى احداث تقدم وصعود بارز لوضع رجال الدين فى هاتين الكنيستين . وكان هذا الصعود البارز لموقف رجال الدين أكثر وضوحًا فى الأقاليم الصليبية الشمالية، وهى الأقاليم التى كانت تخضع قبل وقت قصير من الوجود الصليبى لحكم امبراطورية بيزنطية(الأقاليم الجنوبية هى الرها ، وأنطاكية وطرابلس) ، بشكل أكثر عن الأقاليم الواقعة فى الجنوب . ففى هذه الأقاليم السابقة، كان البيزنطيون ينتهجون سياسة قاسية لمضايقة الأقليات المسيحية من غير البيزنطيين وأحست هذه الأقليات المسيحية أن الغزو الصليبى الذى أضعف قوة الكنيسة البيزنطية كان بمثابة نوع من التحرر والخلاص من الهيمنة البيزنطية . ولم يكن التغير والتحول فى المملكة اللاتينية تحولاً راديكاليًا ، بيد أن أوضاع وظروف الامارات الصليبية الشمالية قد أثرت فى مستقبل المملكة الصليبية تمامًا.

كانت نقطة الضعف هى أيضًا نقطة القوة. إذ كان البيزنطيون دائمًا يتوقعون المساعدات السياسية والمالية من بيزنطة . وخلال الفترات التى شهدت علاقات ودية بين الامبراطورية البيزنطية وبين مملكة بيت المقدس الصليبية، كان الامبراطور البيزنطى يضطلع بمهمة اصلاح وترميم الكنائس والأديرة البيزنطية فى المملكة الصليبية. وهكذا فإن الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين قام باصلاح وترميم وزخرفة كنيسة المهد فى بيت لحم فى عهد الملك الصليبى عمورى (أمالريك Amalric) ، وأصلح كذلك الدير البيزنطى ... الخ. وأصلح أيضا أديرة الجماعات الرهبانية التى كانت تعيش فى قفار وصحراء مدينة القدس وعلى جانبى نهر الأردن وذلك فى عام (١١٦٩م) ، ومازال آثار هذه الاصلاحات والأعمال التى قام بها الامبراطور البيزنطى ماثلة للعيان حتى الآن فى بيت لحم. وعلى الرغم من تلاش واختفاء بعض هذه الاصلاحات فإن أعمال الفسيفساء فى الجزء الأعلى من الصحن الرئيسى لكنيسة المهد فى

بيت لحم تصور وتميز الكنيسة الاقليمية كنيسة المجامع، وتزين هذا الجزء بالنقوش اللاتينية والبيزنطية. وعلى أى حال، فإن مثل هذا التعاون بين الكنيستين الشرقية والغربية كان نادراً ، وكان هذا التعاون يتعارض مع حالة التوتر الدائمة بين هاتين الكنيستين اللتين تقتسمان العالم المسيحى.

وعلى الرغم من خضوع الكثير من الكنائس للسيادة اللاتينية ، فإن المؤسسات الدينية للمسيحيين المحليين لم تندثر بشكل نهائى. وعادة كانت المقدسات العظيمة وكنائس المدينة تستبدل رجالها برجال دين آخرين. وكانت الكنائس والأديرة فى القرى التى يقطنها المسيحيون الشرقيون مزودة برجال دين محليين ، على الرغم من خضوع هذه الكنائس وهذه الأديرة للاشراف اللاتينى.

كان رجال الدين المحليين يواصلون عملهم فى الكنائس الكبرى، وهى الكنائس التى كان العامة والجماهير يمارسون فيها طقوسهم الدينية البيزنطية التقليدية أو السريانية أيضا. وهكذا فإن رجال الدين من غير اللاتين قد احتفظوا بتأدية خدماتهم فى كنيسة الضريح المقدس وأيضا فى بعض الكنائس الصغيرة التابعة لها ومذابح الكنائس، وطبق نفس الوضع فى كنيسة المهد فى بيت لحم. واستطاع رجال الدين البيزنطيون فى كل مكان الاحتفاظ بمناصبهم الدينية على الرغم من سلب ونهب الصليبيين للأملاك الكنسية البيزنطية . وهكذا وعلى النقيض استطاع الدير البندكتى الجديد على جبل طابور أن يحتفظ بدير القديس الياس St. Elias .

ومن وجهة النظر الدينية الكاملة لايمكن أن نتوقع وجود أساقفة بيزنطيين فى الأراضى المقدسة. بيد أننا نسمع عن ميليثوس Melethos، الذى كان يحمل لقب «رئيس أساقفة البيزنطيين والسوريان فى غزة وبيت جبرين (١١٦٤م) . وكان هؤلاء الأساقفة السوريان ينتمون إلى المسيحيين المحليين الذين يتحدثون اللغة العربية ويستخدمون اليونانية فى شعائرهم وطقوسهم الدينية، وكانوا يخضعون لرجال الدين البيزنطيين. وفى نفس الوقت سمعنا عن كنيسة بيزنطية فرعية تابعة لكنيسة الضريح المقدس (كنيسة أنسطاس)، وكان أعضاء هذه الكنيسة يحملون «ألقاب» رئيس دير»، أو مقدم دير ، ورئيس شمامسة ، وشماس de-avon . ومرة أخرى عرفنا أن دير القديس سابا البيزنطى فى مدينة بيت المقدس كان بمثابة نزل ودار ضيافة للمسافرين والفقراء Hospice وارتقت مكانة هذا الدير بفضل النعم والهبات التى أغدقتها عليه الملكة الصليبية ميلسندا melissande. وكانت مدينة القدس تضم أيضا نزلا

بيزنطيًا آخر للمسافرين والفقراء ، وهو نزل القديس موسى (١٢١٧م) ، والذى كان يخضع لإشراف رئيس دير جبل سيناء*.

وكانت مدينة عكا الصليبية أيضا تضم كنائس وأديرة بيزنطية . فقد ذكر دير القديسة كاترين بهذا الاسم فى عام (١٢١٧م) ، ومن المحقق أيضا أن عكا أيضا كانت تضم أديرة أخرى للسوريان الذين كانوا يقطنون بأعداد كبيرة مدينة عكا.

وخارج مدينة بيت المقدس وفى قرية بيت جبرين التى أصبحت فى النهاية حصنا لفرسان الاسبتارية كان يوجد دير بيزنطى هو دير القدس جورج St. George وهو القديس الذى ولد فى مدينة اللد واغتصب الصليبيون هذا الدير البيزنطى، وتروى لنا الأسطورة البيزنطية ذلك المصير المروع الذى آل إليه هؤلاء الفرنجة الذين حاولوا اقتحام ودخول قبر هذا القديس. ولم يفلح البيزنطيون فى الاحتفاظ بمكانتهم فى مدينة الناصرة والتى أصبحت كنيستها كنيسة لاتينية. بيد أنه فى سبسطية Sabastc حيث ملاذ القديس يوحنا والذى أصبح مقرا لإقامة الأسقف اللاتينى، استطاع البيزنطيون تعزيز وضعهم وشيدوا ديراً عالى البنيان وادعوا أن هذا الدير يضم رأس القديس يوحنا تلك الرأس التى جلبت للملك هيرود .

ويمكننا الاعتقاد بأن القرى المسيحية أو القرى التى تضم مزيجًا من السكان المسيحيين والمسلمين والتى كانت تقع خارج المدن الصليبية الكبرى كانت لها كنائسها الخاصة بها . ومن سوء الحظ أنه لايمكن التحقق من نوع المذهب الدينى الذى كان يعتنقه سكان هذه القرى .

---

* ثمة برهان يؤكد استمرار وجود كنائس غير لاتينية فى المملكة الصليبية ، وتمثل هذا البرهان فى وجود انتاج أدبى حفظ فى مكتبة البطريركية البيزنطية فى بيت المقدس (على الرغم من أننا لانستطيع التيقن من أن هذه الكتب قد دونت فى الأرض المقدسة) . فهناك ١٤ مجلد ترجع إلى القرن الثانى عشر، وأحد هذه المجلدات يحمل تاريخ عام ١١٨٢ وتتضمن مجموعة هاجيوس ستافروس Hagios Stavros احدى عشر مجلداً ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى، ثلاثة منها تحمل تواريخ أعوام ١١٢٢م، ١١٦٧م، ١٢٠٢ م على التوالى . ويمكن أن نضيف إلى ذلك رسالة انجيلية ترجع إلى عام ١١٥٢ فى عهد الامبراطور البيزنطى انساطسيوس ، وأربعة مجلدات فى عهد قوطيوس . وأهم هذه المجلدات هى المجلدات الأربعة المدونة باللغة العربية (اثنتان منهن خاصة بعلم اللغة) مؤرخة عام ١٢٠١م، ١٢٠٧، ١٢٢٧ ، وهى الفترة التى شهدت السيادة الاسلامية فى مدينة القدس بعد استردادها . وتوجد ثلاثة مجلدات مدونة بالسريانية فى عام ١٢٥١، ١٢٦١ ، ١٢٨٩ ، ١٢٨٩ (المؤلف) .

وغالبا ما تخلط المصادر التاريخية الصليبية خطأ بين السوريان الذين يستخدمون اللغة اليونانية فى طقوسهم الدينية وبين أعدائهم اليعاقبة . وهكذا عاش السكان المسيحيون فى قرى عديدة حول مدينة بيت المقدس مثل بيت لحم، والقريبة من رام الله، واللد، والبيرة (رام الله) وبيت جبرين ، وغزة والناصرة، وطبرية وكذلك القرى الواقعة فى منطقة ما وراء نهر الأردن، بيد أننا لانعرف ما إذا كان هؤلاء المسيحيون من السريان أو من اليعاقبة*.

وتعتبر معرفتنا ومعلوماتنا عن الأديرة أفضل . فقد وجدت أديرة بيزنطية حول بيت المقدس، وأريحا وعلى ضفتى نهر الأردن خلال فترة السيادة الإسلامية وكذلك خلال فترة السيادة الصليبية. وكانت بعض هذه الأديرة البيزنطية تدعى أنها ترجع إلى عصور موغلة فى القدم، وكانت أغلب هذه الأديرة ترجع إلى الفترة الباكرة للحياة التنسكية والديرية التى عرفتها منطقة الشرق العربى فى القرن الثالث الميلادى، ومن الغريب إلى حد ما أن المصادر الصليبية نادراً ما كانت تذكر هذه الأديرة البيزنطية ، إذ كانت هذه الأديرة خارج الاهتمامات المباشرة لهذه المصادر التاريخية اللاتينية .

كان دير القديس الياس البيزنطى يقع على الطريق الذى يربط بين مدينة القدس وبيت لحم، وقد دمر هذا الدير بفعل تأثير زلزال ، بيد أن الامبراطور البيزنطى الجواد مانويل كومنين قد أعاد تشييده. وفيما وراء بيت لحم وصوب أريحا كانت توجد أديرة القديس ثيودوسيوس Theadosius، ودير القديس ايثيميوس Euthymius ، والدير الشهير المعروف باسم دير القديس سابا (مار سابا) . وهنا أيضا كان يوجد دير سانت كاترين، وعلى مقربة منه كانت توجد قرية يقطنها مسلمون ومسيحيون (ربما كانت هذه القرية هى أناثوت Anathot) وكان شيخ هذه القرية يتعهد بحماية الحجاج فى أثناء طريقهم إلى الأردن وكان جسمان القديسة كاترين محفوظًا فى مدينة القدس ، وتميز دير قلامون calamon بأنه المكان الأسطورى الذى استراحت عنده القديسة ماريا (العذراء) أم المسيح. وقد كان هناك أديرة مثل دير الروح

---

* السوريان : الواقع أننا لم نتيقن تماما ماذا كان السوريان كانوا ينتمون إلى المذهب البيزنطى أن كانوا ينتمون إلى المذهب اليعقوبى ، وقد ذكرت هذه الطائفة المسيحية فى الأماكن الآتية (بالإضافة إلى المدن والأديرة الريفية) فى المملكة الصليبية مثل: قرية البوم Album القريبة من عكا فى عام ١١٤٩ م، وبيت لحم فى عام (١١٥٠)، وفى قلندريا Calandria القريب من بست المقدس فى عام ١١٥١م. (المؤلف) .

القُدُس فى خوزيبا Khoziba والواقع فى ممر ضيق عميق فى وادى القلت Qett ، ودير القديس جيراسيموس Gerasimus (قصر حجلة Qasr Hajla) سالف الذكر وأيضا دير القديس يوحنا المعمدان الواقع على ضفتى نهر الأردن (قصر اليهود) ، وهو المكان الذى يفد إليه كثير من الحجاج المسيحيين للاستحمام فى هذا النهر ، وكان المسيحيون الشرقيون يُعمِّدون أطفالهم فى مياه نهر الأردن. ومما يذكر أن دير يوحنا المعمدان قد تعرض للدمار والتخريب، وقام الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين باعادة تشييده. ويذكر لنا الرحالة والحاج البيزنطى فوقاس Phocas الذى زار الأراضى المقدسة فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى (١١٨٥م) أن هذه الأديرة كانت محصنة ، وكانت مواقعها المنعزلة خطيرة للغاية . وضمت بعض هذه الأديرة جماعات بشرية تعمل بالانتاج وقد خلفت لنا هذه الأديرة نسخ من المخطوطات تنتمى إلى الفترة الصليبية ، وهذه المخطوطات مبعثرة اليوم ومشتتة فى مكتبات كثيرة. وفى العادة كانت الجماعات الرهبانية البيزنطية تعيش وفق النظام الديرى الذى أسسه القديس باسل منذ فترة قديمة. وإننا نتوق إلى معرفة الكثير عن تاريخ جماعات الرهبان البيزنطيين ، بيد أن المصادر التاريخية المتاحة ضنينة لاتتيح لنا استخلاص نتائج كثيرة فى هذا الصدد.

لقد كانت العلاقات بين الكنائس المونوفيزيتية الثلاث، الأرمينية والقبطية ، واليعقوبية ودية بشكل عام . وكانت عملية انتخاب أحد البطاركة المونوفيزيتيين الثلاث يشارك فيها أتباع الكنيسة المونوفيزيتية التابعة لهذا البطريرك . لقد تعاون البطاركة المونوفيزيتيون فى الهجوم على مبادىء الكنيسة البيزنطية وأحيانا كان البطريرك المونوفيزتى يتدخل فى عملية حكم وادارة شئون أبناء كنيسته ورعاياها. ومما يذكر أن هذه الكنائس المونوفيزيتية الثلاثة كانت تلقى التأييد والعطف من جانب الغزاة الصليبيين بشكل أكبر من الكنائس البيزنطية أو السوريانية ، وهكذا كان موقفهم تجاه الصليبيين ذات أهمية بشكل عام.

كان اليعاقبة فى الأراضى المقدسة فى بلاد الشام يمثلون الجماعة والفرقة المونوفيزيتية ، على الرغم من أنهم كانوا يتمركزون بشكل أساسى فى المنطقة الواقعة ما بين أنطاكية والرها . ويمكن أن نقيس إلى أى مدى كان يعنى الغزو الصليبى للمناطق العربية بالنسبة للمسيحيين الشرقيين وذلك من خلال حقيقة أن بطريرك اليعاقبة فى أنطاكية لم يقطن فى مدينة أنطاكية عاصمة الامارة منذ أن حصل على لقب البطريرك (باستثناء حالة واحدة فقط وهى حالة البطريرك اليعقوبى اجنس الثانى Ignace II ١٢٢٢-١٢٥٢م). إذ كان بطريرك اليعاقبة

يتخذ من الأديرة فى المدن المختلفة (وفى الغالب كانت عميدا Amida) مقرا لاقامته، وحقيقة الأمر أنه فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وخلال فترة السيادة البيزنطية ، قام البيزنطيون بطرد البطريرك اليعقوبى من مدينة أنطاكية الخاضعة لهم ، بيد أن الأمور تغيرت فى أثناء فترة السيادة الصليبية، إذ استطاع هذا البطريرك اليعقوبى أن يستقر ويسكن بسهولة فى مدينة بيت المقدس، فقد كان البطريرك اليعقوبى يفضل الاقامة فى الاقليم الإسلامى. والحقيقة أن اقامة الأغلبية الساحقة من اليعاقبة فى الأقطار والأراضى الإسلامية قد أثرت بالتأكيد على قرار البطريرك اليعقوبى ، بيد أن سهولة انتقال البطاركة اليعاقبة وتحركهم من الأراضى الصليبية إلى الأراضى الإسلامية يدل على معارضتهم للاقامة بين المسلمين على وجه الحصر. وظلت طائفة السوريان كما كانوا قبل الوجود الصليبى جماعة منتشرة فى المناطق الواقعة ما بين جبال طوروس إلى مدينة بيت المقدس، ومن البحر المتوسط حتى منطقة الميزوبوتاميا Mesopotamia (العراق) ، وكانت طائفة السوريان هذه تخضع لسلطة البطريرك ، وفى الجزء الشرقى لمناطق وجودهم كانوا يخضعون لسيادة نائب حاكمهم الذى كان يعرف بالقائمقام أو المافريان Mephrian . ولم يهاجر اليعاقبة من مناطقهم للاستقرار وسط الصليبيين ، على الرغم من حسن العلاقات بينهم وبين الصليبين . ولم يحدث أن قام الصليبيون من جانبهم يعمل شىء من شأنه جعل المسيحى الشرقى مواطنًا يتمتع بكامل حق المواطنة أو أن يجعل منه شريكا فى مملكتهم الصليبية .

كانت مدينة بيت المقدس مركزا رئيسا لتجمع اليعاقبة فى المملكة اللاتينية، بالإضافة إلى عدة قرى كان يقطنها اليعاقبة. وهنا فى حى السوريان فى مدينة القدس والذى كان يقع بين بوابة دمشق وبوابة يوسف كانت توجد كنيستهم وديرهم ودار الضيافة الخاصة بهم، وقد كرست كل هذه المنشآت الدينية للقديسة ماريا المجدلية. ويبدو أن كنيسة السوريان قد تم تأسيسها على يد أحد الأقباط، ويدعى مكاريوس من نبروه Macarious of Nabruwah ، خلال عهد بطريرك الاسكندرية أبا يعقوب Abba ya, aqub (٨١٠-٨٣٠م) . وعندئذ أصبح الدير تابعا لليعاقبة أعيد بناؤه فى أثناء الحكم السلجوقى المتسامح، وأسندت مهمة خدمة هذا الدير وادارة شئونه إلى أحد المسيحيين اليعاقبة ويدعى منصور البلبيعى Balbayi (قراءة الاسم غير واضحة) . وفى عام ١٠٩٢ تم تعيين وترسيم كاهن للدير وذلك فى حضور رسل ومبعوثى البطريرك القبطى كيرلس الثانى Cyril II . وكانت التعاليم اليعقوبية تعتبر هذا الدير بمثابة

بيت لسيمون المجذوم ويكفى هذا المكان قداسة أنه قد شهد عرض خصلة من شعر القديسة ماريا المجدلية . وعاش الرهبان اليعاقبة فى مدينة بيت المقدس مكان اقامة أسقفهم. (ولدينا قائمة كبيرة بأسماء الأساقفة اليعاقبة منذ عام ١٠٩٠م) وكان هذا المكان يستخدم أحيانا وفى بعض المناسبات لاقامة أحد البطاركة اليعاقبة الذين يأتون لزيارة المدينة المقدسة. وبالإضافة إلى الأساقفة اليعاقبة فى بيت المقدس فأننا نسمع أحيانا عن وجود أساقفة يعاقبة فى مدينتى عكا وطرابلس فى القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى الرغم من العلاقات الطيبة التى كانت تسود بين اليعاقبة وبين كل من الأرمن والقبط المونوفيزيتيين ، فإن بعض الفترات قد شهدت نوعا من التوتر والعداء بينهما. وكان النزاع والشجار الذى نشب بين اليعاقبة وبين الأقباط فى مدينة بيت المقدس أحد الأحداث البارزة التى شهدتها علاقات التوتر بين الطرفين. وكما ذكرنا آنفًا، فإن كنيسة مدينة بيت المقدس لم ترق إلى مرتبة بطريركية فى نظر أية كنيسة من الكنائس المونوفيزيتية ، فقد كانت واحة العريش فى سيناد تمثل حداً لبطريركية أنطاكية (وهى البطريركية التى كان يتبعها الأسقف اليعقوبى فى مدينة بيت المقدس) وبطريركية الاسكندرية، أى كانت بمثابة حد بين بطريركتى أنطاكية والاسكندرية. وبعد استرداد صلاح الدين مدينة بيت المقدس استدعى المسيحيون المصريون- الذين زاروا فلسطين وبلاد الشام- أحد أساقفتهم القبط ليكون أسقفا للقبط فى مدينة القدس . وفى عام ١٢٣٧م تم تعيين كيرلس الثالث من الاسكندرية أسقفًا مونوفيزيتيًا وقام بتكريس نفسه، ولم يتم هذا التكريس على يد البطريرك القبطى فى أنطاكية كما هى العادة . وكان الأسقف القبطى الأول محرومًا كنسيًا على يد بطريرك أنطاكية اجنس الثانى Ig-nace II، بيد أن الصليبيين الذين بسطوا سيادتهم على مدينة القدس مدة خمسة عشر عاما بعد الحملة الصليبية التى قادها فردريك الثانى، وافقوا على تعيين هذا الأسقف القبطى الجديد على الرغم من احتجاجات اليعاقبة . وانتقم البطريرك اليعقوبى لنفسه بأن قام بتكريس أحد الزنوج فى منصب أسقف العباسية ، وكان مثل هذا التعيين دائما من حق بطريرك كنيسة الاسكندرية.

وفى العادة كانت العلاقات ودية بين اليعاقبة وبين الصليبيين ، وظل هناك نوع من التلطف والتعاطف المعقول بين الاثنين طالما أن الصليبيين لم يحتقروا اليعاقبة. ومن الناحية الرسمية، كان أساقفة اليعاقبة والأرمن فى بيت المقدس بمثابة أساقفة مساعدين للبطريرك اللاتينى.

وتدخل البطريرك اللاتينى فى شئون اليعاقبة بشكل سافر، وكان البذل والبرطلة والارتشاء يلعب دوراً خسيسًا فى العلاقات بين الأساقفة المونوفزيتيين والبطريرك اللاتينى* . وبالإضافة إلى ذلك، فإن تدخل البطريرك اللاتينى لم يقتصر فقط فى الأمور الكنسية المهمة. واقتبس الصليبيون التقليد الإسلامى فى تثبيت البطاركة والأساقفة الشرقيين الذين تم انتخابهم لهذه المناصب الكنسية. ففى القرن الثانى عشر الميلادى لم يعد الخليفة المسلم هو الذى يصدر قرارات التعيين لأصحاب المناصب، بل كان الأمراء هم الذين يقومون بهذه المهمة ، وهى القرارات الخاصة بتعيين حكام المدن والامارات. وظل الصليبيون يتبعون هذا التقليد الإسلامى، فقد قام الملك الصليبى أماريك الأول (عمورى الأول) بالتصديق على تعيين بطريرك يعقوبى على غرار ما فعله من قبله الملك الصليبى بلدوين الرابع. وعلى أى حال ، فإن احتمالات مثل هذا التدخل من جانب الملوك الصليبيين كان أمراً عاديًا، ويرجع ذلك إلى أن التاج الملكى الصليبى والملوك الصليبيين قد احتفظوا لأنفسهم بهذه الحقوق حتى فى تعيين المناصب الدينية فى الكنيسة اللاتينية .

لقد كان المسيحيون الشرقيون من الأرمن والجورجيان والنساطرة أقل عدداً من السوريان واليعاقبة. فقد كان النساطرة أكثر انتشاراً وأهمية من منطقة العراق (الميزوبوتاميا) وفى الأقاليم الشرقية للخلافة العباسية . وظلت الجماعات الصغيرة من النساطرة تعيش فى الامارات الصليبية، وكان من المعتاد بالنسبة لكاثوليكوس النسطورى Nestorian Ka- thelicas الذى كان يقيم فى بغداد أن يكون له ممثل ومندوب فى مدينة بيت المقدس . وكان الأرمن والجورجيان يمثلون كيانات دينية وعرقية وسياسية . وترجع علاقاتهم بمدينة بيت المقدس إلى عصر الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، وفى القرن السابع الميلادى كانت الكنائس والأديرة الأرمينية كثيرة العدد فى الأراضى المقدسة فى فلسطين . وخلال فترة الحكم الصليبى وجدت الجماعات الأرمينية فى مدينتى بيت المقدس وعكا فقط، على الرغم من أن بعض الأرمن كانوا ضمن الأفصال الاقطاعيين التابعين للمملكة الصليبية ، وكان المزار المقدس الرئيسى لهم هو مكان القديس جيمس James الواقع فى شارع الأرمن بين برج داود وبوابة صهيون ، فقد اعتبر

---

* قام أحد الرهبان اليعاقبة ويدعى بار واهبن Bar Wahbun بتقديم الرشوة للبطريرك اللاتينى فى بيت المقدس من أجل تسلم دير ماريا المجدلية. (المؤلف) .

البطريرك الأرمنى نفسه بمثابة خليفة ووريث للحوارى جيمس James الذى شيدت له فى عام ١١٦٥م كاتدرائية فخمة اجلالا وتقديراً له.

وفى الغالب، كان الجورجيان يعرفون باسم «الايبيريين Iberians (ويرجع السبب فى هذه التسمية إلى أن بعض المؤرخين المحدثين قد خلطوا بينهم وبين الأسبان)، وكان لهم مزارهم المقدس العظيم فى دير الصليب المقدس خارج أسوار مدينة القدس. ونظرا لأنهم كانوا يمثلون مملكة مسيحية هى مملكة جورجيا التى تقع فى منطقة القوقاز البعيدة، فإنهم تمتعوا بعطف وتأييد اللاتين ومعونة الملوك الصليبيين الأتقياء. وخلال عهد الملكة تامارا Tamara (١١٨٤-١٢١١م) قدم إلى الأراضى المقدسة شاعر جورجيانى كبير يدعى شوثى راستافيلى Shothe Rustavili، وكتب هذا الشاعر قصيدة شعرية ملحمية جورجيانية وطنية عرفت باسم (الرجل فى جلد النمر Vapkiss Takossani. وفى عام ١٩٦٤ اكتشفت بعثة جورجانية حديثة لوحات جصية للفنان الجورجيانى الموهوب ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادى وكذلك أعماله الفنية التى تزين الكنيسة الفخمة الوحيدة.

وإذا ما قارنا بين الأهداف والنتائج، فإنه يتبين لنا أن سياسة الصليبيين تجاه المسيحيين الشرقيين كانت فى اجمالها فاشلة. وثمة جماعة عرقية من جبل لبنان وهى طائفة المارون التى ظلت لعدة قرون بعيدة عن التطور الدينى الواسع والمتداول، واتحدت طائفة المارون مع كنيسة روما الكاثوليكية فى عام (١١٨٢). وقد تحققت الوحدة مع روما، واعترف المارون بسيادة بابا روما والبطريرك اللاتينى. ولايجب أن نقلل من أهمية هذه الوحدة بين المارون وبين كنيسة روما، وهى الوحدة التى كان لها تأثير دائم ومستمر على منطقة الشرق العربى فى المجال السياسى والثقافى. ومع ذلك فإن هذه الوحدة بين الكنيسة المارونية وكنيسة روما قد ادخرت للمستقبل. وبعد ذلك لم يصبح المارون بمثابة قنطرة للعبور إلى الشرق المسيحى، ولم يندمجوا مع الحكام الصليبيين.

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة للمسيحيين الشرقيين الذين اعترفوا بسيادة كنيسة روما، فمن المحقق أن مثل هذه الوحدة كانت دعامة جيدة للبيزنطيين والسوريان واليعاقبة. وعلى الرغم من أن هذه الطوائف كانت تصف أنفسها بأنها أمم، فإن هؤلاء المسيحيين لم يطمحوا إلى نيل أى نوع من الحرية، باستثناء حرية العبادة التى كان يطمحون إلى نيلها. إذ لم يكن لديهم أى احساس بالغربة أو الابعاد، وذلك لأنهم كانوا سكان الأرض الأصليين. ومن ثم،

فإنهم لم يتوقوا للعودة. ويمكن أن نرجع سبب شعور المسيحيين الشرقيين بالوحدة الطائفية إلى شدة الجدل المتعصب والمستمر فيما بينهما والمنافسة فيما بينهم، وأيضا إلى كونهم يعيشون وسط محيط كبير من المسلمين. وكانت الدعامة التى تستند إليها الطائفة تتمثل فى أساقفتهم الكنسيين، وانتشارهم فى الأقاليم الواقعة بين البحر المتوسط وجبال فارس . ومما يذكر أن الوجود الصليبى لم يستطع أن يغير من هذا الوضع شيئًا على الرغم من أن هذا الوجود الصليبى استطاع فى بعض الأحيان أن يضيف عنصراً جديداً لفنون الجدل اللاهوتى والمناظرة الدينية بين المسيحيين الشرقيين، ومما يذكر أيضا أن المونوفيزيتيين والخلقدونيين الذين تسابقوا فيما بينهم فى الفترة السابقة فى تدبيج الكتب والرسائل اللاهوتية من أجل تبيان كل واحد منهم أخطاء الآخر من الناحية المذهبية ، أصبحوا الآن يتخذون من المسيحية اللاتينية هدفا لجدالهم ومناظراتهم الدينية. وهكذا فإن المسيحيين الشرقيين لم يجدوا فى تحرير أرض فلسطين من الحكم الإسلامى على يد الصليبيين أية جدوى فى خلاصهم وتحررهم .

ولم يقم الصليبيون من جانبهم بعمل أى شىء من أجل تغيير الاطار المستمر والدائم للمسيحية الشرقية، على الرغم من وجود بعض المحاولات المتفرقة والمعتدلة من أجل التحول إلى الدين المسيحى (التنصير) . ولاشك أن مثل هذه المحاولات قامت بها الكنيسة، أو الذى قام بها بشكل أكبرهم بعض الأساقفة الغيورين والمتحمسين للمسيحية، ولم يتردد أحد فى أن يصف مثل هذه المحاولات الخاصة بالنشاط التنصيرى على أنها بمثابة برنامج دينى وإن كانت تحمل القليل من السمة السياسية. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المملكة الصليبية لم تكن منهمكة بشكل واضح فى مثل هذه المحاولات والمساعى الخاصة بالتنصير . وإذا ما تذكرنا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فإننا نجد أن الكنيسة الأسبانية قد حثت الدولة على أن تجبر غير المسيحيين لحضور وسماع المواعظ الدينية الخاصة بالتحول إلى الدين الجديد (التنصير) ، وأصبح عدم اهتمام القوى العلمانية الصليبية بهذا الموضوع (التنصير) أمراً ذا معنى إذا ما قورن بجهود رجال الدين فى هذا الموضوع .

وتجدر الاشارة إلى أن ما سبق ذكره يكفى لكى يوضح أن الكنيسة والدولة فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس اختلفتا فى طريقة فهم مشكلة وقضية المسيحى الوطنى الشرقى. ومع ذلك، فإن عدم اهتمام الدولة الصليبية والسلطات الصليبية بعملية التنصير لايمكن أن نعتبر مثل هذا السلوك نوعًا من التحررية السياسية أو نوعا من التسامح الدينى المقصود . إذ

كان يوجد هناك تسامح من الناحية العملية، وذلك من منطلق أن الدولة أدركت جدوى هذه السياسة وتسامحت مع الجماعات والطوائف الهراطقة غير الكاثوليكية . والواقع أنه كان يوجد تحررية، إذ كان لكل طائفة مسيحية حرية ممارسة شعائرها الدينية وعاداتها وتقاليدها الخاصة بها ، بيد أن بواعث هذه السياسة لم ترتفع عن حدود التسامح الدينى، وببساطة فإن هذه السياسة كانت أسهل وسيلة لمعالجة وضع معقد وذلك بتخليد واقرار النظام والقانون الذى كان موجوداً فى هذه المنطقة قبل مجيىء الصليبيين. فقد تواءم كل المسيحيين من غير الصليبيين مع نفس الوضع والنظام القانونى، ولم يحصلوا أو ينالوا حق المواطنة . فأهل الذمة (اليهود والنصارى) الذين كانوا رعايا الدولة الإسلامية فى الفترة السابقة أصبحوا أهل ذمة خلال فترة الحكم الصليبى.

وكانت جذور وأصول السياسة اللاتينية الرسمية التى تقر عدم الاعتراف برجال الدين البيزنطيين واخضاع الفئات الدينية الأخرى للأساقفة ورجال الدين اللاتين تكمن فى الوضع الدينى لكنيسة روما. ويمكن تفسير موقف واتجاه السلطات الصليبية فى ضوء الاستشراق العملى للأمور والمشاكل الاستعمارية (البرجماتية الاستعمارية)، هذه الذرائع الاستعمارية التى هيمنت على كل الطرق الممكنة، والتى اعترفت بوجود طبقة اجتماعية محلية دنيا. لقد كان المسيحى المحلى وطنيا أى مواطنا ، وكان ينظر إلى الصليبى الغريب على أنه مواطن أيضا . وكانت عقيدة المسيحى الشرقى لاتلطف الوضع ، وقد تمتع بحرية دينية مثل اليهودى، أو السامرى أو المسلم. بقدر بسيط وليس بدرجة كبيرة .

وبمصطلحات معاصرة يبدو أن هذا الحل كان أكثر ديمقراطية وتحررية وليبرالية . ويستطيع المرء القول إن هذا الحل وهذا التسامح كان أهم اختبار للتسامح وكانت نفس الحالة والتحررية الدينية تتفق مع كل المسيحيين من غير اللاتين. ومما يذكر أن هذه الفكرة مضللة بشكل طبيعى، وذلك لأنه تم تجاهل واغفال حقيقة أن كل السكان فى المملكة الصليبية قد انقسموا إلى طبقة حاكمة من المواطنين وطبقة دنيا من غير المواطنين ، بصرف النظر عما إذا كانوا يعتبرون أنفسهم مواطنين أحرارا أم غير أحرار ومقهورين .

وببساطة فإن مشكلة وقضية التحررية والتسامح لم تظهر للوجود وقد أسىء استخدامها إذا تصورنا مثل هذه الأفكار الخاصة بالمجتمع الأوربى فى القرن الثانى عشر الميلادى. لقد كان الاختبار الحقيقى هو مدى استعداد الأقليات المسيحية لقبول الاندماج فى كيان سياسى واحد،

هذه الوحدة التى لم تحدث على الاطلاق ولايمكن تصور حدوثها . لقد جاء الصليبيون إلى المنطقة العربية كغزاة وظلوا كذلك فى الأرض المقدسة، وكان كل خصومهم الهراطقة ينتظمون فى قالب واحد وازدادت عزلتهم بسبب اختلافهم المذهبى .

لقد بدأت المغامرة الاستعمارية خارج أوربا بأفكار مختلفة، بيد أنها انتهت هذه المغامرة بصياغة النظام الكلاسيكى للاستعمار: ولم يحدث اختلاط وامتزاج على الإطلاق بين الصليبيين وبين الوطنيين .

الفصل الثالث عشر

اليهــــود

كان السكان من اليهود فى المملكة اللاتينية يعيشون خارج نطاق المجتمع الصليبى ونطاق الطوائف المسيحية المحلية والمسلمين . فقد عاشت الجماعات اليهودية فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس حياة غير مستقرة متشبثين بوطنهم القومى التاريخى*. ولايمكن للأوضاع الاقتصادية أو المزايا الاجتماعية أن تفسر لنا سبب بقاء الجماعات اليهودية وتصميمها وعزمها على الاقامة فى قطر يكيل لهم صنوف الاضطهادات والمضايقات حيث التعصب المسيحى أو الإسلامى ضدهم، وتأججت نار هذا التعصب ضد اليهود فى المناطق القريبة من الأماكن المقدسة، الأمر الذى جعل حياتهم محفوفة بالمخاطر والأهوال وجعل حياة اليهود بمثابة تجربة خطيرة . وعلى الرغم من الاغراءات الكثيرة التى قدمتها لهم أقطار كثيرة مزدهرة، مثل مصر أو العراق ، فإن الجماعة اليهودية لم تهجر الأرض المقدسة فى فلسطين .

ومن المرجح أن بعض الجماعات اليهودية فى العصور الوسطى الباكرة كانوا من أهل البلد الأصليين ، ويرجع وجودهم فى الأراضى المقدسة إلى فترة زمنية تسبق فترة السيادة الرومانية أو البيزنطية أو الإسلامية. فقد عاش بعض السكان اليهود الفقراء خلال فترة اثنين من الأباطرة الرومان وهما تيتوس وهادريان ، وخلال الفترة البيزنطية، وعانى اليهود خلال هذه الفترات الزمنية الكثير من المضايقات والاضطهادات. ومن المحتمل أن هؤلاء السكان اليهود قد عاشوا فى اقليم الجليل. وكانت بعض هذه الجماعات اليهودية ذات أصل حديث جداً . فعلى سبيل المثال، كان اليهود فى مدينة القدس من الذين عادوا إليها فى أعقاب الفتح الإسلامى لفلسطين فى عام (٦٣٨م) ، حيث وضع المسلمون الفاتحون نهاية للاضطهاد البيزنطى، ووضعوا أيضا نهاية للتعصب المسيحى البيزنطى ضد اليهود.

---

* ما زال المؤلف يؤكد ويكرر فرية طالما رددها المؤرخون اليهود وهى أن فلسطين هى الوطن القومى التاريخى لليهود، وتوظيف ما جاء فى الكتب المقدسة فى خدمة الأغراض السياسية الصهيونية. وثمة دراسة عن يهود بنى اسرائيل تفند وتنفى هذه المزاعم. انظر : آرثركيستلر : القبيلة الثالثة عشرة، (ترجمة : أحمد نجيب هاشم ، الهيئة المصرية العامة، ١٩٩١) .

وكان تدفق الحجاج والهجرة من أبرز سمات الجماعة اليهودية فى الأراضى المقدسة ، وهى العملية التى كانت تضمن استمرار حضور الجماعات اليهودية إلى الأراضى المقدسة جيلاً بعد جيل . وربما كانت هذه الجماعات اليهودية تختفى من هذه المناطق المقدسة بسبب الاضطهادات التى كانت تتعرض لها من جانب السلطات الحاكمة أو بسبب الافقار والسلب والنهب الذى كان تتعرض له هذه الجماعات أيضًا ، بيد أنه بعد عدة أجيال وجدت جماعة يهودية جديدة نشأت من خلال استيطان عدد قليل من العائلات ، التى جذبتها رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة والذين قرروا البقاء فى هذه الأماكن المقدسة بشكل نهائى.

ومما يذكر أن أماكن كثيرة فى الأراضى المقدسة كانت قد خربت ولم تعد تعمر بالسكان مرة ثانية ، بيد أن التاريخ الفلسطينى فى كل فتراته لم يكن يخلو من وجود الجماعات اليهودية فى هذه المناطق الفلسطينية . ويبدو أن اليهود استمروا فى المطالبة بحقهم الشخصى فى هذا القطر (فلسطين) وذلك عن طريق تدعيم الوجود والحضور الطبيعى المستمر للجماعات اليهودية . لقد كانت صلواتهم اليومية ودراسة التوراة تحفظ لهم عملية التذكر بالوعد الإلهى الذى منحه الرب لآبائهم السابقين.

وبحلول منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وقبل الغزو الصليبيبى بجيلين تقريبًا كانت مدينة رام الله تُعد من أهم المراكز اليهودية فى الأراضى المقدسة، وهى المدينة التى كانت عاصمة لهذا القطر الذى كان يخضع للسيادة الإسلامية والدولة الفاطمية فى مصر ، والتى تقع فى منتصف الطريق بين يافا ومدينة بيت المقدس. وشهدت مدينة رام الله نزاعا دائما بين طائفة القرائين اليهودية وبين طائفة الربانيين اليهودية أيضا، إذ كانت رام الله مركزا مهما لهاتين الطائفتين من اليهود. ودافعت كل الجماعات اليهودية عن مصالحها بحيوية ونشاط بما يتوافق مع مركزها الدينى ومكانتها الروحية فى مدينة بيت المقدس، واحتفظوا بعلاقات حميمة مع عدد كبير من اخوانهم اليهود ذوى النفوذ فى القاهرة، ودمشق ، وحلب ، وبغداد ووجدت هذه الجماعات اليهودية فى ثلاثين منطقة أخرى. وقد تمخض عن الغزو السلجوقى الذى حدث قبل الوجود الصليبى بجيل كامل نشوب الحروب وانتشار أعمال السلب والنهب ، ومن المحتمل أن مثل هذه الأحداث من العنف كان لها تأثيرها السلبى على السكان من غير المسلمين، ومن المحتمل أيضا أن حالة عدم الأمان والاستقرار التى شهدتها منطقة الشرق العربى نتيجة الغزو الصليبى انعكس أثرها على سكان المنطقة كلها ولاسيما غير المسلمين. وعلى أى حال ، فإن

الغزو السلجوقى قد تم بصورة سريعة جداً. وبذل الحكام السلاجقة جهداً كبيراً من أجل أن يحل ويعم الاستقرار والأمان أرجاء هذا القطر الذى دمرته الحرب وألحقت به الخراب . بيد أن فترة اعادة الاستقرار والأمان لم تستمر أكثر من مدة جيل.

لقد كانت الاشاعات والأراجيف التى تروج للحروب الصليبية تسبق زمنيًا زحف الحملة الصليبية الأولى صوب منطقة الشرق العربى، وقد أعقب هذا الزحف الصليبى توارد أخبار وتقارير حول المذابح الرهيبة التى ارتكبها المحاربون الصليبيون فى عام ١٠٩٦م، وهى المذابح التى ارتكبها الصليبيون من الفلاحين ضد اليهود فى كل من فرنسا وألمانيا ، وارتعدت فرائص الجماعات اليهودية فى منطقة الشرق العربى خوفا ورعبًا من جراء انتشار أخبار المذابح الصليبية ضد اليهود فى أوربا. لقد كانت الحركات المسيحية ظاهرة متأصلة ولازمة فى التاريخ اليهودى، واستطاعت هذه الحركات والاتجاهات المسيحية أن تثير حركة الشتات اليهودى (الدياسبورا) . ففى منطقة البلقان كان المسيحيون واليهود على السواء يرون فى هذه الحركة الصليبية على أنها احدى علامات اقتراب يوم الدينونة ، وجمع الناس للحساب . وبينما كان المسيحيين يتوقعون مجيىء المسيح الدجال ، كان اليهود يدركون أهوال وقرقرات يأجوج ومأجوج ، وهى الأهوال التى حتى الآن حبيسة ومحتجزة فيما وراء «جبال الظلمات» . وفى أعقاب هذا الزلزال سوف يأتى المسيح «ابن يوسف » ، المسيح السابق ، «ابن داود » . وبعد وقت قصير ظهرت الجيوش الصليبية قبالة مدينة القسطنطينية ، وبعد ذلك عبروا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى ، ووصلوا بلاد الشام ، ودخلوا الأرض المقدسة.

وفى أعقاب ظهور الصليبيين على الساحل اللبنانى عام ١٠٩٩م تجددت أهوال الحرب. ووصل خطاب من مدينة رفح الصغيرة القريبة من غزة بصحبة أحد سكانها من اليهود يطلب فيه من إخوته اليهود فى مدينة القدس أن يهربوا إلى مدينة عسقلان المجاورة والمحصنة درأ للخطر الصليبى. وحتى قبل الغزو الصليبى الفعلى، هجر السكان المسلمون واليهود الكثير من الأماكن وشاركهم فى ذلك السكان المسحيون. وقد حدث فى يافا ورام الله، وليس هناك شك فى أن السكان اليهود قد شاركوا فى عملية الهرب والنزوح العام للسكان .

والواقع أن الزحف الصليبى صوب الأرض المقدسة فى فلسطين لم تعترضه أية مقاومة حتى وصل الصليبيون إلى مدينة القدس هدفهم المنشود. فقد قام المصريون الفاطميون بطرد السلاجقة من مدينة القدس قبل الغزو الصليبى وكان المدافعون عن قلعة مدينة القدس عبارة

عن حامية مصرية وسودانية وكانت أسوار المدينة مزودة بالجند من بين سكان المدينة المحتشدين. وتعهد سكان كل حى بالدفاع عن السور الواقع فى قطاع حيهم، وكان اليهود والمسلمون (كان المسيحيون الشرقيون يعتبرون أشخاصًا خائنى أوطانهم) يدافعون عن الأسوار، فقد تعهد اليهود بالدفاع عن الحى الذى يقطنونه فى المدينة (وكانت منطقة حى اليهود فى بيت المقدس تقع بين بوابة دمشق فى الشمال وبين ما كان يسمى برج طيور الاستوركس Tower of the Storls فى الركن الشمالى الشرقى من المدينة) ، وهو الحى الذى عرف فى الفترة الصليبية باسم الحى اليهودى The. Juivrie . كانت منطقة الحى اليهودى فى مدينة القدس تمثل أضعف نقطة فى دفاعات المدينة، بسبب عدم وجود واد طبيعى يقطع المدينة هنا عن الأرض المحيطة بها ، وكذلك لأن دفاعات المدينة اعتمدت كلية على مدى قوة ومتانة الأسوار .

وكان باستطاعة الحامية المرابطة فى منطقة حى اليهود ملاحظة جيش القائد الصليبى جودفرى البويونى الذى يعبر الأسوار والخنادق وذلك إذا نظروا من خلال الفتحات المزود بها سطح الحصن. وأخيراً اختار الجيش الصليبى المهاجم هذا القطاع والجزء من المدينة (الحى اليهودى) ليبدأ منه هجومهم الرئيسى والحاسم على المدينة. وفى الخامس عشر من شهر يوليو عام (١٠٩٩م) شن جيش جودفرى البويونى هجومًا حاسمًا على الأسوار القريبة من الحى اليهودى واندفعت القوات الصليبية بقوة داخل المدينة، وتلتها قوات تانكرد فى الجهة الشمالية الغربية وقوات ريموند السانجيلى من جهة جبل صهيون فى الجنوب.

وتقهقر أفراد الحامية المصرية الفاطمية المدافعة عن المدينة صوب منطقة المعبد، واتسم أسلوب الغزو الصليبى لمدينة القدس بتأجج نار العداء والكراهية والتعصب ضد سكان هذه المدينة، فقام أفراد الجيش الصليبى بنهب وسلب المنازل وأضرموا فيها النار. ويأس اليهود من المقاومة ، وبحثوا عن ملاذ لهم هربًا من الوحشية والبطش الصليبى فذهبوا إلى معابدهم فى المدينة للاحتماء فيها، ولكنهم تعرضوا لقسوة القتل دون رحمة كما تعرضوا لأعمال الحرق وهم أحياء على يد الصليبيين. وابتسم الحظ للقليل منهم فهربوا من هذه المذبحة الجماعية، بيد أن هذه القلة من الهاربين اليهود ساقهم بعد ذلك حظهم العاثر فوقعوا أسرى لدى القائد الصليبى تانكرد حيث بيعوا عبيداً فى أسواق النخاسة فى ايطاليا. ويقول المؤرخ اللاتينى بلدريك الدوللى Baldricus Dolensis والفرحة تغمر جوانحه أن الأسير اليهودى قد بيع بثلاثين قطعة

فضية، وأن هذا الأسر لليهود يعد بمثابة عمل تكفيرى لخطيئة وخيانة يهوذا الاسخربوطى*. وسيق البعض الآخر من لليهود إلى مدينة عسقلان زمراً على يد ريموند السانجيلى وتبعهم أيضا قائد الحامية الفاطمية التى كانت تدافع عن مدينة القدس وقامت الجماعة اليهودية المحلية فى عسقلان بتقديم العون ومساعدة اخوانهم اليهود المصريين الذين نزحوا إلى عسقلان بافتدائهم. ولم يبق أى يهودى على قيد الحياة فى مدينة بيت المقدس .

لقد كان اختفاء وعدم ظهور الجماعات اليهودية فى يافا ورام الله والمذابح التى تعرض لها اليهود فى مدينة بيت المقدس يتبعه عملية ابادة وقتل للجماعات اليهودية الأخرى. ومرة ثانية نسمع أن اليهود والمسلمين قد تكاتفوا سويًا ضد الغزو الصليبى فى أثناء حصار يافا فى عام ١١٠٠م**، وهى الجماعة اليهودية التى كانت قد حصلت على امتيازات خاصة فى مدينة يافا من الحكام الفاطميين فى مصر. فقد كان البنادقة يحاصرون يافا من جهة البحر، والصليبيون يحاصروها من البر. وكان تانكرد على وشك رفع هذا الحصار، بيد أن بطريرك بيت المقدس اللاتينى استحثه على المثابرة ومواصلة الحصار، وأشار إلى ذلك العار الذى سيلحق باسمه إذا أخفق فى سحق مقاومة اليهود المدافعين عن المدينة.

وفى أثناء السنوات العشر التالية من الغزو الصليبى (١١٠٠-١١١٠م) ، تم ابادة وفناء أعداد كبيرة من المسلمين واليهود فى كل مدينة احتلها الصليبيون . لقد كانت الهيمنة الصليبية على هذه المناطق بمثابة عودة إلى هيمنة الامبراطور الرومانى تيتوس .

وتغير الوضع فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى. وسلك الصليبيون الذين تخضبت أيديهم بدماء اليهود خلال رحلة الزحف المقدس من أوربا من قبل سياسة مختلفة حيث سمح لليهود بالاقامة والعيش فى المملكة اللاتينية. ولم تشهد الأراضى المقدسة المذابح

---

* يهوذا الاسخريوطى : أحد تلاميذ السيد المسيح الاثنى عشر الذى أعطاهم سلطة على الأرواح النجسة ليطردوها ، وزودهم بالمعجزات والخوارق كشفاء العلل والأمراض ، بيد أن يهوذا الاسخربوطى هذا قد خان السيد المسيح. انظر : انجيل متى - الاصحاح ١٠ . (المترجم) .

** يؤكد المؤلف على ابراز دور لليهود فى الدفاع عن المدن الإسلامية ضد الصليبيين وهذا يجافى الحقيقة التاريخية (المترجم) .

الجماعية ضد اليهود خلال فترة السيادة الصليبية، بيد أن هذه المذابح والاضهادات الصليبية ضد اليهود فى أوربا كانت تتكرر مع كل دعوة إلى حملة صليبية جديدة*.

وعلى أى حال ، فإن الحكام الصليبيين لم يسلكوا سياسة محددة وثابتة ازاء اليهود . فقد تبنوا سياسة عامة تجاه السكان الوطنيين، إذ سمحوا لكل السكان المحليين باختلاف طوائفهم بتطبيق قوانينهم ونظمهم المحلية التى كانت سائدة قبل الوجود الصليبى. ومن المحتمل أن مسألة الاجراءات القانونية والقضائية الذى يحفظه لنا «كتاب القوانين البرجوازية Livre de Assises de Bourgeais» سوف توضح هذه الممارسة فقد جاء فيه:

إنه إذا أقام بيزنطى دعوى قضائية ضد أحد السكان من اليهود ، وأنكر الأخير هذه التهمة الموجهة ضده، فإن القانون يلزم الشخص البيزنطى المدعى باحضار شهود من اليهود ، وسوف يؤدى هؤلاء الشهود قسما طبقا لعقيدتهم الدينية وقانونهم ، وتكون الدعوى صحيحة ومكتملة الأركان عندما يؤكد هؤلاء الشهود أنهم رأوا مرتكب الجريمة أو أنهم سمعوا ما تفوه به المدعى عليه (المتهم) من اساءة ضد المدعى . وإذا لم يوجد هناك شهود يصبح المدعى عليه حراً طليقًا. فقد كان الشخص اليهودى يقسم على التوراة، وكانت طائفة السامرة تقسم على أسفار موسى الخمسة Pentateuch وكان الشخص البيزنطى يقسم على الانجيل. وكان هذا القسم والقوانين المشابهة تظهر السياسة العامة للحكام الصليبيين تجاه السكان من غير الفرنجة. وكان التمايز واضحًا فى قائمة العقوبات الجنائية فيما بين المسيحيين الكاثوليك وبين المسيحيين من غير الكاثوليك (الأرثوذكس والمذاهب الأخرى) . فقد كانت دية القتيل من غير الفرنج تعادل نصف دية القتيل من الفرنج . ويمكن تلخيص هذا الوضع من خلال العبارة الآتية والمقتبسة من أحد الكتب القانونية الصليبية: «ولأن سكان المملكة اللاتينية من السوريان، والبيزنطيين، واليهود ، وأبناء طائفة السامرة، والنساطرة أو المسلمين، هؤلاء جميعًا مثل الافرنج عليهم أن يدفعوا ويؤدوا ما تفرضه عليهم المحكمة البرجوازية. وكانت هذه هى السياسة الرسمية بيد أنه فى حالة المسيحيين الشرقيين، كانت هناك عوامل قوية فى المملكة

---

* الواقع أن أسباب الاضطهادات الصليبية ضد اليهود فى أوربا فى العصور الوسطى ترجع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية فى المقام الأول ولم يكن العامل الدينى هو السبب . انظر : قاسم عبده قاسم «الاضطهادات الصليبية ضد اليهود فى أوربا» ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط، المجلد الأول، دار المعارف ١٩٨٢م . (المترجم) .

اللاتينية فقط أدت إلى عدم اقرار مثل هذه السياسة. ونجد أن المؤرخ الصليبى الشهير وليم الصورى رئيس أساقفة مدينة صور (١١٨٠م) يشجب بعنف سلوك أولئك الأمراء المسيحيين الذين يفضلون الأطباء اليهود والعلاج عندهم . وثمة قصيدة شعرية كتبت فى مدينة القدس فى نهاية الحملة الصليبية الثالثة تدعو المسيحيين إلى طرد اليهود من مناطقهم التى يقطنوها . وهذا يتفق مع ما ذهب إليه أيضًا جاك الفيترى Jacques de Vitry أسقف مدينة عكا (١٢٢٠م) الذى صب جام غضبه وانفعاله على كل شىء وكل شخص صليبى ، فكتب مقالة قصيرة عن اليهود. ويبدأ هذه المقالة بترديد وتكرار التعاليم الرسمية الكنسية التى تحرم عملية اجبار اليهود على التحول إلى المسيحية والارتداد عن اليهودية كما تحرم قتل اليهود ، وذلك لأنهم كانوا شهود التوراه، بيد أنه أدان اليهود للمصير الذى آل إليه يوحنا المعمدان على يديهم ، وهو ذلك الرجل «الهائم الخالد» فقد قام هيرودس ملك اليهود بقطع رأسه *. وعندئذ أضاف جاك الفيترى أسقف عكا فى روايته قائلاً : «لقد عاش اليهود بين ظهرانى المسلمين محتقرين ومكروهين . والآن سمح الأمراء المسيحيون الذين أعماهم الجشع لليهود بأن يستعبدوا المسيحيين وينهبوا أموال المسيحيين بالربا المقيت والفاحش ، وفى ظل السيادة الإسلامية كان اليهود يعملون فى حرف يدوية صعبة ومهن حقيرة . فقد عاش اليهود عبيداً مستذلين وسط المجتمع الإسلامى. وتسامح المسلمون الهراطقة معهم بأن وفروا لهم أدنى مستوى من المعيشة ، وكان هذا هو مظهر التسامح فقط».

وما ذكرناه انفا قلما يتطبق على اليهود الفلسطينيين ، وذلك لأن عملية الاقراض بالربا كان يمارسها التجار الايطاليون وفرسان الهيئات الدينية العسكرية (الداوية – الاسبتارية– التيوتون) ، دون خوف من منافسة اليهود لهم فى هذا المجال. وعلى الرغم من مثل هذه الاستهلالات والدراسات الأدبية ، فإن الوضع العام لليهود كان جيداً بدرجة كافية لتسهيل

---

* مقتل يوحنا المعمدان : يذكر انجيل متى ١٤ أنه «فى ذلك الوقت سمع هيرودوس حاكم الربع بأخبار يسوع . فقال لخدامه » هذا هو يوحنا المعمدان وقد قام من بين الأموات والذى تجرى على يده المعجزات : «ولما كان هيرودس يريد أن يقتل يوحنا خاف من الشعب، لأنهم كانوا يعتبرون يوحنا نبيًا وأرسل إلى السجن فقطع رأس يوحنا . وجىء بالرأس». ومما يذكر أن يوحنا المعمدان يعرف عند المسلمين باسم سيدنا يحيى بن زكريا (المترجم) .

رحلات الحج اليهودى إلى الأرض المقدسة ، وكان هذا الوضع يواكبه انتعاش وازدهار قصير الأمد للجماعة اليهودية.

وخلال فترة الحكم الصليبى ازدادت رحلات الحج اليهودية إلى الأراضى المقدسة بشكل أكثر عن ذى قبل. ولم تقتصر رحلات الحج اليهودى إلى مدينة القدس على يهود الشرق الأدنى فقط. ولكن يهوداً من بيزنطة النائية ومن أسبانيا ، ومن فرنسا جاؤا لزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين. ويمكن أن نعزو ذلك جزئيًا إلى سهولة وكثرة وسائل الاتصالات الجديدة فى ذلك الوقت والتى ربطت المسيحية بالأرض المقدسة. ويمكن توضيح تنامى أحجام حركة الحج ليهودى بشكل جيد من خلال حقيقة مؤداها أن المصادر اليهودية الربانية لتلك الفترة والتى كانت تعرف باسم «السوفسطائيات Tossafists» *، وهى الكتب التى كانت ترى احداث تغير فى بعض النظم المتعلقة بقانون الزواج . فقد كان القانون التلمودى يلزم المرأة اليهودية تحت وطأة عقوبة الطلاق وفقد الصداق ، أن تطيع زوجها إذا ما قرر الهجرة والاستقرار فى الأراضى المقدسة فى فلسطين. وقام المفسرون وعلماء المدرسة التفسيرية للمشنا والتوراه بتعطيل مثل هذا القانون بشكل مؤقت ، اعتقاداً منهم بأن بداية نشأة المملكة اللاتينية كانت تمثل خطرا على أولئك الذين يقطنونها ، وذلك لأن الأخطار كان تحدق بهذه المملكة اللاتينية الوليدة من كل جانب . وبنهاية القرن الثانى عشر الميلادى، تغير هذا القانون ورجع إلى وضعه التلمودى.

ولاشك أن حركة الحج اليهودى الجديدة قد بعثت الروح والحيوية فى المراكز اليهودية القديمة، كما جددت شباب الجماعات اليهودية التى نشأت منذ زمن قريب تحت الحكم الصليبى. ومن الطبعى تماما أن اليهود كانوا يستقرون فى هذه المناطق الصليبية معا، وتشير المصادر الصليبية إلى «منازل أو منزل اليهود domus Judaeorum» وأيضا إلى «شارع اليهود vua Judaearum» فى معظم مدن المملكة الصليبية . ونعرف أيضًا أن اليهود كانوا يختارون أماكن اقامتهم بحرية تامة، باستثناء الاقامة فى مدينة بيت القدس التى كان يحظر عليهم الاقامة بها. ونعرف أيضًا أن الصليبيين اعتقدوا بأن اقامة اليهود والمسلمين فى مدينة القدس

---

* كتب السوفسطائية Tossafists : هى عبارة عن كتب وضعها المفسرون اليهود الذين أضافوا زيادات على معانى التلمود والمشنا. وهذا يعنى المدرسة التفسيرية للمشنا والتلمود والتى ظهرت فى فرنسا وألمانيا فى الفترة من القرن ١١ - القرن ١٣ م (المؤلف) .

سوف يتنس مقدساتها . وتقريبًا أعلن قانون الحظر هذا بعد الغزو الصليبى مباشرة، بيد أن الملك الصليبى بلدوين الثانى (١١٢٠م) أراد أن يخفف من حدة هذا القانون ، فسمح للمسلمين بأن يحضروا البضائع والمواد الغذائية للاتجار فيها فى مدينة بيت المقدس. وفى فترة متأخرة وفى عام ١١٧٤م يذكر الرحالة الأسبانى الشهير بنيامين التطيلى أنه شاهد فى مدينة القدس بعض العائلات والأسر اليهودية التى تحترف أعمال الصباغة ، وكانت هذه الأسر اليهودية تقيم قبالة برج داود الملكى. وعلى الرغم من ذلك ، فإنه لم تتأسس جماعة يهودية كبيرة فى مدينة القدس فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى، كالتى كانت موجودة فى هذه المدينة قبل الحكم الإسلامى.

كانت أكبر الجماعات اليهودية فى المملكة اللاتينية تقيم فى مدن عسقلان وصور، وعكا. ومن الجلى أن الجماعات اليهودية فى مدينتى عسقلان وصور لم تتعرض لأعمال الابادة والقتل على يد الصليبيين فى بداية الغزو، وذلك لأن كلا المدينتين استسلمتا طوعًا للصليبيين ولم يتم احتلالهما عنوة . وظلت الجماعة اليهودية موجودة فى عسقلان تحت الحكم الصليبى حتى عام ١١٩١م، حتى تم تدمير المدن الصليبية على يد صلاح الدين الأيوبى فى أثناء الحملة الصليبية الثالثة. وقد هجر اليهود مدينة عسقلان مثلما فعل باقى سكانها الآخرين، بيد أن اليهود تحركوا وسكنوا مدينة بيت المقدس فى شكل مجموعة صغيرة *.

كانت الجماعة اليهودية فى مدينة صور ذات أهمية كبيرة تفوق أهمية باقى الجماعات اليهودية الأخرى، وقد انضمت جماعة يهودية جديدة من أصل أوربى إلى مجموعة اليهود الشرقيين القدامى الذى كان يرأسهم الحبر اليهودى افريم المصرى The Egyptian Ephraim عام ١١٧٤م) وفى مدينة صور التقى بنيامين التطيلى مع الحبر اليهودى مير من كاركاسون Meir of Caracassinne والحبر حياح Huyyah زعيم جماعة روش حاقال Roch Ha-Qahal وتؤكد الوثائق المعاصرة وجود علاقات واتصالات مباشرة بين هذه الجماعة اليهودية وبين الفيلسوف اليهودى بن ميمون** Maimenides الذى كان يعيش فى القاهرة وخاطب بن ميمون أحد الزعماء الدينيين لهذه الجماعة قائلا له من خلال رسالة بعث بها إليه:

---

* كان الشاعر الأسبانى اليهودى والفيلسوف الحريزى ، الذى قام برحلة حج إلى مدينة القدس فى عام ١٢١٦م ، يطلق على يهود عسقلان الذين سكنوا مدينة القدس اسم العسقلانيين. (المؤلف).

** ابن ميمون أو «مايمونانيدس Maimonides» كما يطلق عليه الأوربيون، هو الفيلسوف اليهودى=

«إنك حكيم من بين حكماء بنى اسرائيل، وانني دائمًا أقول لسكان أرض اسرائيل وسكان الأقطار المجاورة ، أنه بسبب اقامتك فى هذا المكان فإن الرب يضمن لنا مخلصًا حتى اليوم».

وفى القرن الثانى عشر الميلادى كانت توجد جماعة يهودية كبيرة فى مدينة عكا. فقد عرفنا من رسالة ابن ميمون أن هذه الجماعة اليهودية فى عكا قد اتبعت نمطا من التنظيم التقليدى، إذ كان يوجد زعيم للجماعة ومحكمة ربانية.

ويمكن أن نفترض ونزعم بأن استرداد صلاح الدين الأيوبى مدينة عكا من يد الصليبيين فى عام ١١٨٧م لم يؤثر البتة على مصير الجماعة اليهودية . وعلى أى حال ، فإن هذه الجماعة اليهودية ظهرت مرة أخرى تقريبا بعد الغزو الصليبى لمدينة عكا مباشرة على يد قوات الحملة الصليبية الثالثة فى عام (١١٩١م)، وباختصار أصبحت عكا مركزا مهما لاقامة اليهود فى هذا القطر. ومنذ فترة باكرة بعد الغزو الصليبى لمدينة عكا كان القانون المحلى الصليبى يقضى بعدم السماح لغير الافرنج بالاقامة فى المدينة (وهذا ما حدث فى القرن الثانى عشر الميلادى) القديمة ، حيث عاد السكان الصليبيون السابقون إلى عكا وتسلموا منازلهم فى هذه المدينة. وهكذا تم ابعاد الجماعة اليهودية إلى حى مونتموزارد Quarter of Montmusard .

ومما يذكر أن مهمة المحكمة الربانية اليهودية فى عكا لم تقتصر على النظر فى القضايا التى تعرض أمامها فقط بل كان لها حق تشريع القوانين للجماعة اليهودية. وأصبحت مثل هذه القوانين المحلية (تاقانوث Taqqanoth) سارية المفعول تخضع لها الجماعة اليهودية المحلية فقط. وكانت مثل هذه القوانين تلقى القبول والموافقة من جانب كل الجماعات اليهودية المقيمة فى الأرض المقدسة. ولدينا نموذج جيد لمثل هذه التشريعات والقوانين اليهودية يرجع إلى عام ١٢٣٣-١٢٣٤م فقد كانت بعض العائلات اليهودية تدعى أنها تنحدر من عائلة نسيم Nesiim اليهودية التى يرجع تاريخ وجودها فى هذه المناطق إلى القرن الرابع الميلادى،

= موسى بن ميمون الذى عاش ما بين عامى ١١٣٥ و ١٢٠٤م والذى عنى بالتوفيق بين الفلسفة الأرسطية ومقتضيات العقيدة الدينية اليهودية وذلك من خلال تفسيرات خاصة للتوراة. وقد عنى بن ميمون بدراسة آراء المتكلمين حيث خلص إلى رفض منهجهم مؤكدا أن الفلسفة – لا علم الكلام– هى التى يمكن أن تقودنا إلى المعرفة بالذات الإلهية وبحقيقة العالم . ومن أهم مؤلفات موسى بن ميمون كتاب موريه نيفوخيم (دلالة الحائرين) الذى ظل الفلاسفة المدرسيون فى العصور الوسطى من أمثال توما الأكوينى يدرسونه (المترجم) .

وهى العائلة التى كان أفرادها يمثلون أعيان يهود فلسطين فى ظل سيادة الامبراطورية الرومانية المتأخرة . ومن ثم طالبت هذه العائلات بوضع متميز وامتيازات خاصة، تشمل حقوقا قضائية ، وحقوق توقيع عقوبة اللعنة ، أى حقوقا مدنية وأخرى دينية . بيد أن هذا الادعاء لقى معارضة قوية من قبل السلطات الصليبية . وفى القرن الثالث عشر الميلادى لم تخضع الجماعات اليهودية لسيادة العائلات التقليدية ، ولكنها خضعت لسيادة زعماء منتخبين من بينهم ، حيث كان المستوى التعليمى والمركز الاجتماعى لهؤلاء الزعماء من العوامل الحاسمة والمهمة فى اختيارهم فى هذه المواقع القيادية . وكانت الجماعة اليهودية المصرية أول من قضت وقررت بأن عائلة نسيم اليهودية المعاصرة لم تكن تتمتع بأية امتيازات خاصة، وأن أعيان وقادة الجماعة اليهودية فى كل مدينة كان يتم اعفاؤهم من الضرائب ومن عقوبة الحرم أو اللعنة (الأناثيما Anathema). وظلت الجماعة اليهودية فى عكا تطالب بالحصول على الامتيازات الخاصة وذلك عن طريق تطبيق نفس القانون المحلى.

لقد كانت البنية المتغايرة فى الخواص والعناصر (الاختلاف العرقى) من أبرز السمات المميزة للجماعة اليهودية فى مدينة عكا الصليبية. فلم يقتصر التمايز بين اليهود الشرقيين وبين اليهود الغربيين فحسب، بل كان هناك تمايز بين طوائف اليهود الغربيين فيما بينهم ، وخاصة بين اليهود الأسبان والبروفنسال ، والفرنسيين والألمان. كان هذا التقسيم يمثل اتجاهين رئيسيين ليهودية القرن الثالث عشر الميلادى. ومن ناحية فإن اليهود الأسبان والبروفنساليين كانوا عرضة للانفتاح على ثقافة الأقطار الإسلامية والمسيحية المجاورة لها، وكانوا أكثر ميلا إلى الفلسفة، والعقيدة، والشعر الذى تعوزه الجودة ، وذلك فى الوقت الذى كانت تنتشر نزعة التصوف الجديدة، وهى القبالة Kabbala وهى تلك النزعة التى ظهرت فى جنوب غرب أوربا. فى حين انصب اهتمام معظم اليهود الألمان والفرنسيين التقليديين على دراسة القانون (الحالاخا Halakha) وتفسيرات التلمود .

والحقيقة أن التصادم بين هذين الاتجاهين لليهودية فى مدينة عكا لايتفق ومقتضيات الظروف والأحوال . واستطاع اليهود ذوو الأصول المختلفة تخليد هويتهم الذاتية وذلك بتشييد معابد يهودية منعزلة لهم، حيث استطاعوا ممارسة طقوسهم الدينية المحلية وعاداتهم المحلية أيضًا ، وتقريبا كان لكل الجماعات اليهودية فى المملكة اللاتينية كلياتها ومدارسها التلمودية، أو الأكاديميات الخاصة بهم (بيت ميدراش Biet Midrash) وهى الأماكن التى يتلقى فيها

الصبية والشباب التعليم، وكان يتردد على كل هذه المراكز التعليمية كل أفراد الجماعة اليهودية مهما كان مستواهم وحرفهم التى يزاولونها . واتبعت مثل هذه الكليات أساليب ونظم التعليم والتفسير الخاص بها . وهكذا فان المدارس والنظم التعليمية الخالدة هى التى اجتذبت الطلاب من أماكن كثيرة إليها. وقد تأسست احدى هذه الأكاديميات التعليمية فى عكا على يد الحبر اليهودى يهيل الباريسى Yehiel of Paris ، وهو كبير الزعماء الدينيين اليهود الفرنسيين ، والذى أقام فى الأرض المقدسة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى. لقد كانت شهرة أكاديمية الحكماء الجديدة فى عكا ذائعة الصيت، وكتب الحبر اليهودى الأسبانى شلومو بن أدرات Shlomo Ben -Adrath يقول:

«ثمة عادة كانت سائدة وسط الحكماء فى الأراضى المقدسة، وفى مصر ، وهى إذا سألهم شخص مسألة ، فإنهم لم يجيبوا ، إذ كانوا يقولون دعنا نسترشد فى اجابة هذه المسألة بحكماء عكا».

ومن الطبعى أن يؤدى اختلاف الاتجاهات والنزعات فى اليهودية إلى حدوث خلاف بين أنصار هذه الاتجاهات المختلفة . فقد حدث توتر وخلاف بين الحبر اليهودى الفرنسى سالمون القصير Salomon he Petit وبين أحد زعماء الجماعة اليهودية بسبب تجدد الجدل القديم حول كتابات ابن ميمون الفلسفية ، وكان هذا الحبر يحذر من التأثير السلبى لهذه الكتابات على الشباب . ومن ثم فإنه حرم تدريس ودراسة كتابات ابن ميمون الفلسفية ، وهى الكتابات التى محظور دراستها وتدريسها فى المراكز التعليمية الأوربية قبل هذه الفترة بخمسين عامًا. وكانت المصادر والمراجع الربانية تساعد فى مؤازرة هذا التحريم، وأعلن سالومو القصير هذا التحريم على الملأ. وقد أعقب هذا التحريم رد فعل مباشر. إذ أن زعماء وقادة اليهود فى دمشق والموصل وبغداد أعلنوا رسميًا لعنتهم للحبر اليهودى- سالومو القصير ومؤيديه، ونظموا رحلة حج يهودية تكفيرية إلى قبر بن ميمون فى طبرية.

كان حكماء عكا اليهود منقسمين فى آرائهم . فالجماعة اليهودية المتغايرة الخواص والعناصر (الاختلاف العرقى) لم تقف صفًا واحداً من أجل الدفاع عن أفكار ابن ميمون الفلسفية ، وقامت جماعة واحدة فقط من الأحبار اليهود بالمشاركة فى اعلان الحرم واللعنة (الأناثيما anathemy) وقد أدى هذا الجدل والخلاف الحزين إلى انقسام الجماعة اليهودية حتى تم احتلال مدينة عكا آخر المعاقل الصليبية على يد المماليك فى عام ١٢٩١م.

ووجدت جماعات يهودية صغيرة خارج مدينتي صور وعكا، في بيروت، وصيدا، وقيصرية، واللد، وبيت لحم، وبيت نوبا، وزارعين Zar'in وبيت جبرين، وكان للجماعات اليهودية في الجليل أهمية خاصة. فقد كانت هناك جماعة يهودية في طبرية، ادعى أحد أعضائها وهو الحبر ناهوريا Nahoria بأنه ينحدر من سلالة الحبر يهودا هاناس - Yehuda ha Nassie (في القرن الثاني الميلادي) وهو جامع تفسيرات المشنا*. وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي كان يوجد في صفد أيضا جماعة يهودية وكان أحد أعضائها الذي ادعى لقب روش ياشيفات جاون يعقوب Rosh Yeshivath Gaon Ya'aqov رئيساً للأكاديمية اليهودية التي كانت توجد في الأراضي المقدسة في القرن الحادي عشر الميلادي، بيد أن رئيس الأكاديمية هذا اختفى من على المسرح مع انتقال الأكاديمية اليهودية أولاً إلى صور ثم بعد ذلك إلى دمشق. وحول هذين المركزين الحضريين (طبرية وصفد) وجدنا يهوداً مقيمين في مناطق ريفية. وقد ذكر هؤلاء اليهود في هذه المناطق الريفية في جيسكالا Giscala جش حالاف -Gush Ha lav)، وفي ألماح Almah، وربما أيضا في براعم Bar'am وأموقا Amuqa وكفر حنانيا وكفر تانهوم، وميرون Meron، ودالاثا Dalatha، والبيرة والعوية Al - Awyah وبانياس.

وكان الكثير من هذه القرى معروفة على خريطة هذه المناطق منذ بواكير الفترة العربية الإسلامية، الأمر الذي يجعل من المنطقي أن نفترض أن هذه القرى التي قطنها اليهود لم تعاني أو تقاسي كثيرا في أثناء الغزو الصليبي فقد تركزت المعارك العسكرية التي خاصها الصليبيون من أجل الغزو وحول المدن، ولذا لم تتأثر المناطق الريفية بهذه المعارك بشكل مباشر. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الصليبيين رأوا أن من مصلحتهم أن يعيدوا الأوضاع العادية المألوفة في هذه القرى بسرعة قدر الامكان. وذلك لأن الوجود الصليبي المادي كان يعتمد على استقرار سكان هذه القرى تلك القوة المنتجة للمحاصيل الغذائية.

---

* المشنا: كلمة عبرية تنطق (مشنة أو مشناه) وهو كتاب عبري فقهي بمنزلة التفسير للتوراه، ولكن للربانيين اعتقاد خاص فيه وهو أنه سنة عن موسى عليه السلام أوحى بها الله إليه أثناء الأيام الأربعين التي قضاها في طور سيناء وأمره ألا يكتبها وأن يلقيها شفويا، ولذا فهي تعرف بالتوراة الشفوية وقد سميت المشناه بمعنى الثانية بالنسبة للتوراه المكتوبة. وقد ظل المشنا يتناقل شفها حتى عهد «يهودا الناس» الذي جمع المشنا وكتبه خوفا من النسيان أو التحريف ويقع المشناه في أسفار ستة: الزراعة- الأعياد- النساء- ضمان الضرر - الوقف - الطهارات (انظر قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص١٠٩).

وقلما كانت توجد فترة فى تاريخ اليهود تخلو من أسماء أولئك الذين قاموا بالسفر والترحال إلى الأرض المقدسة، ومن ثم كان هؤلاء يعرفون باسم الأورشليميين أى الذين زاروا مدينة القدس. وبحلول القرن الثانى عشر الميلادى (ومن المحتمل خلال الفترة التى كانت تخضع فيها المدينة للسيادة الصليبية) ، تطورت الأساليب والأعمال الأدبية الجديدة، وتطورت يوميات المتجولين وكتاباتها (الماساعوث Masa'oth) ، ولفائف القبور المقدسة (قبور الأسلاف). وكان المبشرون المسيحيون يستخدمون أساليب الإثارة والهياج فى دبج الرسائل والخطابات بهدف اثارة الرأى العام المسيحى للمشاركة فى الحروب الصليبية . ومن بين الرسل والمبعوثين اليهود الفلسطينيين كان شليهيم Shlihim الذى قام بزيارة إلى الجماعات اليهودية الأوربية والشرقية، يحمل معه قائمة بالمزارات المقدسة اليهودية، ويجمع الأموال لمساعدة الجماعات اليهودية فى الأراضى المقدسة فى فلسطين .

لقد كان الحج اليهودى إلى مدينة بيت المقدس الذى يتم خلال مناسبات كبيرة هى (عيد الفصح عند اليهود Passover، وعيد الحصاد Pentecost ، وعيد المعابد والهيآكل) ، يعد مبدأ دينيا، هذا المبدأ الذى توارى وتعطل مع تخريب الهيكل . بيد أن ممارسة عادة الحج استمرت دون انقطاع لقرون عدة. ولم يصمد القانون الرومانى والبيزنطى الذى كان يحرم اقامة اليهود فى تلك المدينة المقدسة أمام قوة ايمان اليهود المتأجج ، إذ كان اليهود فى وجود الحاجز الذى يمنعهم من دخول مدينة القدس يقفون على جبل صهيون يتأملون منطقة الهيكل بأبصارهم ويحجون إليها بعواطفهم ومشاعرهم . ولما كانت مدينة القدس لدى اليهودى عسيرة المنال ولايمكن الوصول إليها بسبب قرارات التحريم، فإن هذا الشخص اليهودى الذى كان يعيش فى الشتات (الدياسيورا) قد راوده الأمل فى أن يدفن ويوارى جسمانه فى تراب هذه الأرض المقدسة. وكان اليهودى يحتاج فقط إلى زيارة المقابر المحفورة تحت الأرض فى بيت شعريم She'arim التى ترجع إلى فترة الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، وذلك لكى يتصوروا موكب اليهود المتصل الذين أتوا إلى الأرض المقدسة من مناطق العراق (الميزوبوتاميا) ، ومصر ، وايطاليا، وأسبانيا . وحمل بعض اليهود معهم إلى الأراضى المقدسة رفات أقاربهم، الذين كانوا قبل وفاتهم يتوقون إلى دفن ومواراة جسمانهم بعد وفاتهم فى أرض اسرائيل، مثل يوسف النجار. وفى نهاية المملكة الصليبية الأولى وبداية المملكة الصليبية الثانية التى تأسست على يد قادة الحملة الصليبية الثالثة حدث تغير ملحوظ فى حياة الجماعات اليهودية

وكذلك فى اتجاه يهود الشتات صوب الأراضى المقدسة. وباستثناء القرن السادس عشر الميلادى (الذى تبعه طرد اليهود فى أسبانيا) ، وفى أوقاتنا الحالية، لم تصل الهجرة اليهودية إلى الأرض المقدسة إلى مثل هذا الحجم الكبير فى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى. وتنقل لنا الوثائق المعاصرة انطباع تلك الأمة اليهودية التى عانت كثيراً وشوقها وحنينها الشديدين إلى الأرض المقدسة وتذكر هذه الوثائق أيضا أن الاضطهاد ضد اليهود ظل مستمرا ، وتأججت العقيدة وقوى الايمان- واستمرت الصلاة اليومية، وفجأة وجد اليهود منفذا ومخرجا فى حركة العودة. ولم يكن الحج ولا الهجرة اليهودية بالأمر الجديد، بيد أنه فى القرن الثالث عشر الميلادى اكتسب اليهود سمة فريدة ، تلك السمة التى تختلف كثيرا عن السمة السابقة التى كانت تميزهم من حيث الهدف والبيئة وأيضا من حيث أهدافهم وبواعثهم .

وفى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى، ظهرت عوامل جديدة غيرت صفة وميزة الحج والهجرة اليهودية، وغيرت بشكل أساسي شخصية وسمة الاستيطان اليهودى فى الأرض المقدسة. ومن المحتمل أن هذا التغير كان وليد فترة استيلاء صلاح الدين على المناطق الصليبية واستردادها . وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان أقل تسامحًا من خلفائه وورثته فى الحكم من بعده، فإنه كان متسامحًا مع اليهود. فقد أراد صلاح الدين أن يستقطب قلوب اليهود ويحببهم إليه ليذكر اليهود أنه الحاكم المسلم الذى لجأوا إليه لكى يسمح لهم بالاقامة فى المدينة المقدسة بعد تحريرها من يد الصليبيين. ويروى لنا الشاعر اليهودى الأسبانى الشهير الحريزى والذى سافر إلى مدنية القدس فى عام ١٢١٦ ما يأتى :

«وأمر صلاح الدين بأن يعلن فى كل مدينة، وأن ينتشر هذا الاعلان ليعرفه الشيخ والشاب ونص هذا الاعلان هو : إننى أتحدث إلى قلب مدينة القدس (أورشليم) بأن تدع وتترك أى شخص يهودى ينحدر من صلب ابراهيم Ephraim أن يأتى إليها .

وطبقا لرواية الشاعر الشهير الحريزى ، فإن تاريخ هذا الاعلان الجليل هو سنة ١١٨٩-١١٩٠م ، وذلك بعد سنتين أو ثلاثة من استرداد المسلمين لبيت المقدس فى عام ١١٨٧م. فقد ظهر صلاح الدين فى بيت المقدس لظهور القديس قيرس Cyrus ، وأصدر قرار عودة المنفيين من اليهود. والواقع أن قرونا عديدة انقضت بعد صدور مثل هذا الاعلان الخاص بعودة اليهود من المنفى، وهو الاعلان الذى أصدره نابليون فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام. وعلى أية حال ، فإنه ليس هناك شك فى أن استيلاء المسلمين واستردادهم مدينة

بيت المقدس قد عطل قرار التحريم الصليبى الذى فرض على اليهود بشأن الاقامة فى هذه المدينة المقدسة . واستقرت هناك جماعات يهودية كاملة . فقد جاء يهود عسقلان إلى مدينة بيت المقدس بعد تدمير مدينتهم على يد صلاح الدين، وفى عام ١١٩٨م جاء اليهود من المغرب فرارا من اضطهاد المنصور أو من اضطهاد ابنه الناصر . وتدفقت موجة أخرى من المهاجرين اليهود من فرنسا إلى الأراضى المقدسة فى عام ١٢١٠-١٢١١م.

لقد اقترن اعادة تأسيس الجماعة اليهودية فى مدينة بيت المقدس بانتعاش الوشائح الدينية لليهود التى تربطهم بوطنهم القديم . وأدى انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى حطين إلى انتشار هذه الحركة ، بيد أن عاملاً مهمًا كان يحدد وجهة نظر اليهود فى المملكة الصليبية. فقد كان من النتائج الطبيعية للحملة الصليبية الأولى، والثانية والثالثة وحملة الملك الفرنسى لويس التاسع أن أحس اليهود بمدى الاضطهادات والمعاناة التى تعرضوا لها خلال هذه المرحلة التاريخية من الصراع الإسلامى الصليبى: وأحس اليهود أن هذه الحروب الصليبية التى تمثل لب الحركات المسيحية نذيراً بقرب يوم الدنيوية . وكان هذا نمطا من السلوك الفريد فى تاريخ الجنس البشرى، فالأمة اليهودية التى لم تفقد هويتها ولم تفقد ذاكرتها الجامعة وما كان لهذه الأمة من مجد سابق قد قاومت هذا الاضطهاد التى تعرضت له فى بيئة معادية لهم وقاومت القرارات المبهمة للأحكام والتدابير المهمة. وفى أثناء تعرض اليهود للمآسى والمذابح على يد الصليبيين فى أوربا ، انتابتهم حالة من الحنين والشوق الجارف إلى الوطن الأم، والتيقن بقرب يوم خلاصهم من عسف وظلم هؤلاء الظالمين الذين تخضبت أيديهم بدماء الضحايا اليهود وبات اليهود يعتقدون تمامًا فى الخلاص والتحرر والذى كان ثمنه سقوط عدد كبير من الشهداء اليهود الذين رفضوا الارتداد عن دينهم ودخول المسيحية. واستمرت المحن والبلايا التى تعرض لها اليهود ، بيد أن الأرض المقدسة قد شهدت وقوع أحداث جلل. فقد نشبت الحرب بين المسلمين وبين الصليبيين من أجل السيطرة على الأراضى المقدسة. ورفع يهود الدياسيورا (الشتات) دعواهم الخاصة بأنهم يفتقرون إلى الدولة والجماعات المنظمة، تلك الدعوى التى اعتمدت على نبوءة العناية الإلهية. وتدفق عشرة آلاف من اليهود الأوربيين إلى قدرهم المشئوم فى منطقة الشرق العربى، حيث تبددت أموال كثيرة ولحق الخراب والدمار بالمناطق الصليبية على يد المسلمين، فقد تبنى صلاح الدين الأيوبى فى صراعه العسكرى ضد الصليبيين سياسة الأرض المحروقة، وذلك بتدمير المدن التى يستردها من يد الصليبيين وتخريبها حتى لايفكر

الصليبيون فى احتلالها فى المستقبل . فقد فشل الصليبيون فشلاً فاضحًا ، وتم تدمير المنشآت الصليبية . ففى وقت مبكر من الحملة الصليبية الأولى حاول اليهود بأنفسهم تفسير الطرق والسبل الغريبة للعناية الإلهية . ومن خلال رسالة مكتوبة بعث بها يهود منطقة البلقان وقت اقتراب الجيوش الصليبية، نجد تفسيراً غريبًا مؤداه أن العناية الإلهية هى التى قررت طرد ورحيل اليهود من أوربا ، لكى يجتمع سويًا كل أولئك المضطهدين من اليهود فى الأرض المقدسة، وعندئذ يطلب منهم ترديد كلمات النبى وهى:

«يا ابنة صهيون انهضى واجلدى»، بيد أن الحملة الصليبية الأولى حالفها النجاح والظفر وحكم المسيحيون الصليبيون الأرض المقدسة مدة مائة عام. وكانت النتائج المخيبة للآمال التى أفرزتها الحملة الصليبية الثانية والاخفاقات الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى تثير فكرة جديدة لهذه الأحداث التاريخية الكبرى. وكان الأساس الأول لهذه الفكرة هو التألق العظيم لليهودية فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، فنجد أن الحبر اليهودى الأسبانى موسى بن نحمان Moses ben Nahman بعد أن شارك فى الجدال الدينى الذى دار حول ارتداد بابلو المسيحى Pablo أمام محكمة برشلونة فى عام ١٢٦٣م، قرر هذا الحبر اليهودى مغادرة موطنه قطالونيا والهجرة إلى الأراضى المقدسة. واستقر بن نحمان فى مدينة بيت المقدس عام ١٢٦٧م) ، حيث وفد إليه كثير من الطلاب لتلقى العلم على يديه، وهنا استطاع هذا الحبر اليهودى أن ينجز تأليف تعليقاته على الأسفار الخمسة من العهد القديم. وقد شرح فى هذا العمل آراءه ووجهة نظره فى الأحداث المعاصرة، واستخلص نتائج واستنتاجات تتعلق بمصائر الأرض المقدسة. وتعكس كتاباته وتعليقاته طريقة جديدة لفهم الأرض المقدسة وسكانها الأصليين الذين يرتبطون بها منذ القدم وكيف اندمج هؤلاء السكان الأصليين مع التقاليد والأعراف القديمة. وفى حين كانت التفسيرات التقليدية تحصر نفسها فى دائرة تفسير وتوضيح الخلق والوجود ، وكان هذا هو المحتوى المنطقى للكتب المقدسة، فإن تفسيرات بن نحمان Nah-manides توحى بالمشاهد والذكريات وأريج الأرض المقدسة. وتفسيره لسفر الخروج Exodus ٣-٨ الذى يقول : «أرض طيبة وروحية ، إلى أرض تفيض باللبن والعسل » يفكر مليا فى هذه العبارة التى وردت فى التوراه فيقول مفسراً:

إنها أرض طيبة الهواء وكل ما عليها يفيد صحة الانسان، وتحوى هذه الأرض المقدسة كل شىء طيب... لأنها تضم الأرض الرحبة، وتضم الأرض الواطئة ، والوادى، والسهل، وكل هذه

الأشياء واسعة ومعتدلة ... والأرض المخصصة للماشية بها مزودة بمراع غنية خضراء. ويوجد فى هذه الأرض المقدسة ماء عذب ، واللبن الغزير الذى تدره الأبقار - وفاكهتها كبيرة الحجم وحلوة المذاق ، وأن عسل النحل ينبثق من هذه الأرض المقدسة.

وعن سفر التثنية ٨-٩ والذى نصه : «أرض أحجارها تشبه الحديد ويوجد خارجها تل يحتوى فى باطنه على النحاس» . يقول ابن نحمان فى تفسيره وهناك فى الأرض المقدسة يمكن أن نجد محتجرات لأحجار كبيرة وضخمة، وأحجار ثمينة ، وأحجار أخرى تستخدم فى بناء المنازل والأسوار والأبراج فى المدن، وهناك أيضا نجد مناجم النحاس والحديد، الذى يلبى حاجة سكان هذه الأراضى ، وأنت فى هذه الأراضى المقدسة لاينقصك شيء . ولم نشاهد مرة أخرى «أورشليم السماوية» ولاقصر ملكى يهبط من السماء يوم الدنيونة ، ولكننا نشاهد رمز الحقيقة ، والشكل والبناء، والحرف والصناعة ، فى أرض تنتظر قاطنيها . وتعكس لنا هذه الواقعية الجديدة صورة التغير الذى حدث فى اتجاه الشعب اليهودى نحو الوطن الأم لهم عن مثيله الذى كان سائدا فى أثناء الأجيال السالفة.

وبينما كانت المسيحية تتأمل خطورة الهزيمة ، فكان علماء اللاهوت يجهدون أنفسهم فى شرح وتفسير الأحداث التى يتعذر تفسيرها ، ووصلوا بعد يأس ونصب إلى استنتاج مؤداه أن الرموز والمعجزات ربما يساء فهمها- أو الاعتماد على التفسير اليهودى التقليدى الذى يرى أن السبب الحقيقى للمصائب والبلايا التى حلت باليهود هو أخطاء وذنوب الجنس البشرى- وقدر اليهود حجم الهزيمة التى لحقت بالمسيحيين الصليبيين ، ويلخص ابن نحمات التجربة التاريخية العظيمة فى تعليقه على سفر ليفيتيكوس Leviticus فيقول :

«وأنا سوف أحضر إلى أرض مقفرة مهجورة وسوف يندهش أعداؤكم الذين يسكنون هذه الأرض». فهذه رسالة النبأ السعيد إلى كل أنحاء الأقطار التى طرد منها اليهود، وأرضنا سوف تلفظ أعداءنا . وأنه لبرهان حاسم لنا ووعد من الرب لكل سكان المعمورة بأنه لايوجد أرض رحبة ومعتدلة المناخ، سكنت منذ وقت طويل خالدة مثل تلك الأرض المهجورة الآن. ولهذا السبب فإننا رحلنا إليها، ولم تقبل هذه الأرض المقدسة أمة واحدة. وقد حاولت كل الأمم الاقامة فى الأرض المقدسة، بيد أن مثل هذا كان يفوق قدراتهم وطاقاتهم. وهكذا انتشر التفسير اليهودى الجديد للحملات الصليبية : لقد كانت هذه الحروب بمثابة محاولة قام بها الصليبيون لاغتصاب وطن اليهود من اليهود (وليس من المسلمين) وكانت البهجة والأفراح

التى غمرت اليهود لانتصارات صلاح الدين الأيوبى أو الظاهر بيبرس على الصليبيين أمرا طارئًا فقط والشىء الأعظم أهمية فى هذا التفسير اليهودى هو أن الرب أكد لهم أنه لاتوجد أمة تستطيع أن تسيطر على هذه الأرض المقدسة فترة طويلة، وذلك لأن الرب قدر أن تكون هذه الأرض من نصيب شعب بنى اسرائيل وحتى أن هجر وخراب هذه الأرض المقدسة كان أمراً مقدراً سلفا لكى تمنع الآخرين من الاستيلاء على حق شعب بنى اسرائيل . وهذه الأرض تنتظر قدوم اليهود اليها وذلك لأن «هجر هذه الأرض الرحبة أمر عظيم ، لأن الذين هجروها غير جديرين بها ، ومن غير المناسب أن يهجرها اليهود لأنهم جديرون بها.

ويرى بن نحمان Nahmanids أن عودة الشعب اليهودى إلى الأرض المقدسة ضرورة تاريخية. وهاك تفسيره لسفر تثنية الاشتراع (من أسفار التوراة) Deuterenomy ٥-١٢ : «ولكن المكان الذى سوف يختاره الرب سيكون بمنأى عن قبائلكم لكى يضع اسمه هناك، حتى مسكن الرب سوف تبحثون عنه، وسوف تأتون إليه الآن». ويفسر بن نحمان قائلا: «أنكم سوف تحضرون إلى مكان الرب من أرض بعيدة وتبحثون عن ذلك الطريق المؤدى إلى بيت الرب، وسوف تتكلمون ويقول كل واحد للآخر : هلموا ودعونا نصعد إلى جبل الرب إلى بيت يعقوب»، وكما كتب فى سفر جيرميا ٥-٥٠ Jeremiah:

«سوف يسألون عن الطريق المؤدى إلى صهيون بوجوههم المتجهة إلى هناك» . وفى السفر أيضا : «سوف تبحثون» بواسطة نبى وربما هذا يشير إلى أنكم سوف تتمهلون وتتلكأون حتى يصدر النبى لكم الأوامر بالذهاب. بيد أن الكتاب المقدس يقول : «حتى مسكن الرب سوف تبحثون عنه وسوف تأتون إلى هناك » أى تبحثون عن مسكن الرب وسوف تجدونه وعندئذ يصدر لكم النبى الأمر بذلك . وفى نقده لابن ميمون صاحب «كتاب الوصايا» يقول : «لقد منعنا من أن نرث الأرض التى منحها لنا الرب- الذى بُجله آباؤنا فى الماضى ، إبراهيم، واسحق ، ويعقوب ، وسوف لانترك هذه الأرض لأية أمة من الأمم، ولم تتركها مهجورة ، وذلك لأن الكتاب المقدس يقول : «وإنكم سوف تطردون سكان هذه الأرض ، وسوف تقطنوها أنتم ». (أرقام ٣٣ ، ٥٣) وهذا يعنى أنه فى كل الأجيال كان يحظر علينا غزو هذه الأرض المقدسة ؛ وإننى أقول ، إن المبدأ الذى يضفى عليه الحكماء مثل هذه الأهمية العظمى، هو أن الاقامة فى أرض اسرائيل - والذى يعتبره الجميع مبدأ ايجابيًا، وإننا نطالب بأن نرث الأرض ونقطنها . ولهذا فإن هذا المبدأ الايجابى أصبح الزاميا على كل جيل ومسئوليته، يتقيد به كل فرد منا حتى وقت الطرد . وعندئذ يواصل حديثه قائلاً :

«لكى نرث الأرض» يجب علينا ألاندعها فى يد الآخرين، أونهجرها لكى تصبح مقفرة ومهجورة ... ولايجب أن يقودنا هذا الاعتقاد بشكل خاطىء بأن هذا المبدأ الايجابى (الاقامة فى أرض اسرائيل) يخصص لغرض الحرب المقدسة ضد الأمم السبعة (التى كانت تسكن أرض كنعان وقت الغزو العبرانى) ... وكذلك فإن هذا المبدأ لم يكن كذلك، لأنه كان يحظر علينا تدمير هذه الأمم إذا ما شنت الحرب ضدنا. بيد أنه إذا رغبت هذه الأمم فى أن تجنح للسلم، فإننا سوف نجنح للسلم معها وندعهم يمكثون فى هذه الأرض أوقاتا محددة . بيد أننا سوف لأترك هذه الأرض فى أيديهم وتحت سيطرتهم أو تحت سيطرة أمة أخرى فى أى وقت على الاطلاق . والاستنتاج الذى توصلنا إليه هو أن استيطان اليهود للأرض المقدسة كان مبدأ إيجابيًا ، طبق علميًا خلال جيل الحبر والفيلسوف اليهودى بن نحمان ، وينتقل ابن نحمان إلى فكرة عبر عنها وصاغها فى شرح وتفسير أحد أسفار كتاب المدراشى Midrashic book وهو الكتاب التفسيرى التقليدى للتوراه ، وكانت هذه الفكرة تفهم من خلال شعار : «الاقامة فى أرض اسرائيل يتفق مع كل مبادىء ووصايا التوراه».

ومما يذكر أن رأى بن نحمان Nahmanids يمثل التغير والتحول الرئيسى فى موقف اليهود من الأراضى المقدسة (أرض اسرائيل) فى القرن الثالث عشر الميلادى. فلم يعد هذا الموقف مجرد مسألة رحلة حج مقدسة يقوم بها الشخصى اليهودى أو مجرد مسألة عمل يحظى بالتقدير يقوم به الفرد ، ولامجرد مسألة يهودى يؤدى صلاة من أجل «استرجاع اليهود للأيام الخوالى القديمة»، ولكن الموقف كان عبارة عن تصميم اليهود لغرس جذورهم فى هذه الأرض المقدسة.

وقد وردت مثل هذه الآراء من خلال تفسير بن نحمان لسمات وحجم الهجرة اليهودية إلى الأرض المقدسة فى القرن الثالث عشر الميلادى . ففى وقت مبكر من عام ١٢٠٩م وأيضا فى عام ١٢١١م هاجرت مجموعتان كبيرتان من الجماعات اليهودية الأوربية إلى الأراضى المقدسة. وجاء هؤلاء المهاجرون من أقاليم بروفانس ولانجدوك تحت قيادة الحبر اليهودى جوناثان ها كوهين Rabbi Jonothan ha - Cohen أحد المعجبين بفلسفة وآراء ابن ميمون ، وكان هذا الحبر القائد من لونيه Lunel . وجاءت جماعة من المهاجرين اليهود من اقليم نورماندى ، وربما جاءت جماعة يهودية أيضا من انجلترا تحت قيادة الأخويين باروخ Baruh ومير من كليسون Meirof Clisson . وكانت الشخصية البارزة فى هذه الهجرة هو الحبر

سامســون من سين Samson of Sens ، وهو واحد من الفلاسفة السوفسطائيين البارزين فى عصره. وبعد جيلين ، قرر الحبر اليهودى يهيل الباريسى Yehiel of Paris ، زعيم اليهود الفرنسيين وبطل الجدال والمناظرة الدينية التى عقدت فى باريس عام (١٢٤٠م) ضد دونين المرتد The Convert Donin مغادرة فرنسا والاقامة فى الأرض المقدسة. ووفقا للتقليد المحلى الذى حفظه لنا أول دارس معاصر للتاريخ الفلسطينى، وهو العالم آشتور حا بارحى Eshtori ha - Parhi (بداية من القرن الرابع عشر الميلادى) ، كان الحبر اليهودى الفرنسى يهيل الباريس يقترح تجديد طقس القربان والأضحيات فى مدينة بيت المقدس، وتلك اشارة واضحة للاعتقاد بأن استرداد الهيكل بات أمراً قريب الحدوث. ووصل يهيل الباريسى Ye-hiel of Paris إلى الأرض المقدسة فى عام ١٢٥٨م، ولكنه استقر فى عكا. وفى عكا قام هذا الحبر اليهودى الفرنسى بانشاء أكاديمية باريس "Yeshivq de Paris" وهى الأكاديمية التى كانت مبعوثيها ورسلها مسجلة بمجلد هزيل عرف باسم «قبور الأسلاف »، وتجولت الجماعات اليهودية فى أوربا ، وطافت كل الأقطار الأوربية بقصد جمع المساعدات المالية لتشجيع أكاديميتهم فى الأراضى المقدسة . بيد أن اليهود الأوربيين لم يكونوا هم فقط الذين أدركوا حركة الهجرة والتحقوا بها.

وفى السادس من ديسمبر سنة ١٢٨٦م، صدر مرسوم ذا تأثير قاس وصارم على اليهود المقيمين فى منطقة النفوذ الملكية فى الامبراطورية الألمانية . وعندما اعتلى رادولف الهانسبرج Radolf von Hansburg العرش الإمبراطورى الألمانى أمر بمصادرة ممتلكات اليهود الذين غادروا ألمانيا . ويشير المرسوم الملكى السابق بشكل خاص إلى مصير اليهود الذين نزحوا إلى الشرق العربى (منطقة ما وراء البحار) ، وكان مصطلح ما وراء البحار يستخدم للإشارة إلى المملكة الصليبية . لقد كان هذا المرسوم لكى يتعلق أولا بممتلكات اليهود الموجودة فى منطقة النفوذ الامبراطورى ، وكان هذا القرار والمرسوم أيضا يتعلق بممتلكات اليهود فى معظم المراكز اليهودية فى الامبراطورية الألمانية: فى سبير Speyer ، وورمز Worms ، ومينز Mainz ، وابنهايم Oppenheim، وويترو Wetterau والجماعات اليهودية الكبيرة فى حوض الرون .

وقبل ستة شهورة من صدور هذا المرسوم الامبراطورى ، وفى صيف عام ١٢٨٦م، بدأت هجرة اليهود من ألمانيا إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين ، تحت قيادة حبر ألمانى مشهور وهومير من روثنبرج Meir of Rothenburg . وكان هذا الحبر اليهودى مثل سلفه بن نحام،

حيث بدأ كتاباته ونشاطه العلمى بتناول موضوع فشل الحملات الصليبية المثير. واستجابة لهذا الحدث كتب يقول:

«وكما جاء فى الكتب المقدسة : «وأن أعداؤكم يسكنون هنا وسوف تندهشون من هذا ». وهذا يعنى أن الأمم الوثنية غير اليهودية التى تقطن هذه الأرض لم تزدهر ولن تنجح وذلك لأنهم أشرار آثمون . ولهذا فإن أرض اسرائيل الآن مهجورة ولم يكن لديها مدن مسورة ، وكذلك لم يقطنها أحد مثل باقى الأقطار الأخرى.

وقد حث هذا الحبر اليهودى على استيطان اليهود للأرض المقدسة وحذر من هجرة أناس غير قادرين على تحمل المسئولية ، ينظرون إلى الوصايا الدينية باستخفاف وعدم اكتراث، وطبق الحبر اليهودى مير Meir ما توصل إليه على المستوى العملى. ويعتبر «كتاب عادات وأعراف الجماعة اليهودية فى وورمز «المصدر التاريخى الذى يذكر لنا وصفا بليغًا لتجوال رحلات الحبر اليهودى مير الروثنبرجى Meir of Rothenburg والمعاناة التى واجهها خلال رحلاته وتجواله وقد جاء فى هذا المصدر التاريخى:

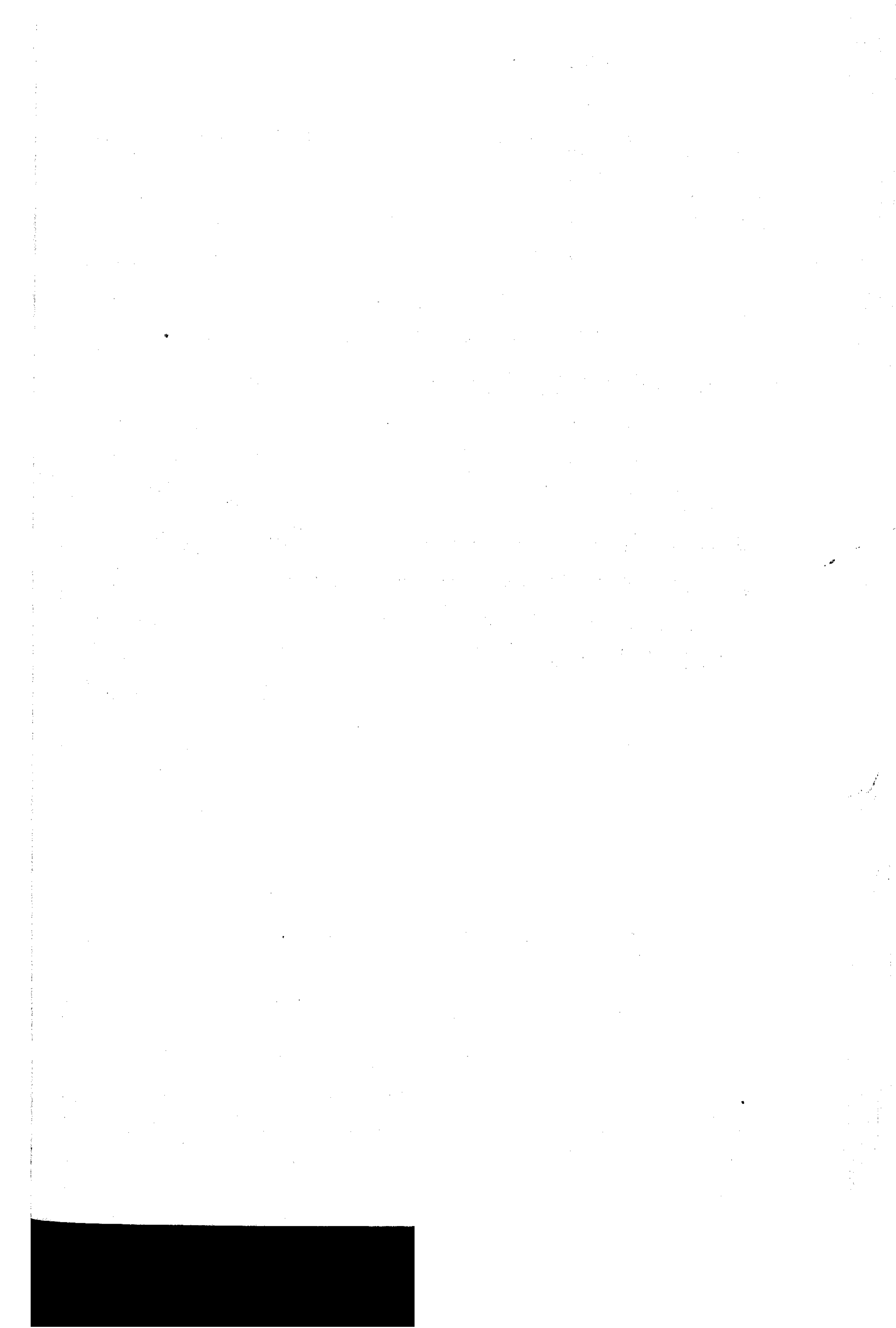
«لقد وصف معلمنا الحبر اليهودى مير من روثنبرج Meir of Rothenburg صاحب الذكريات المقدسة رحلة قام بها عبر البحر بصحبة أهل بيته، ابنته ، وابن زوجته وكل ما يملك . وقدم هذا الحبر إلى مدينة تقع وسط جبال شاهقة ، تعرف باسم «جبال لوميارد» فى ألمانيا ، حيث انتظر عند هذه المدينة حتى يلحق به كل أولئك الذين يرغبون الاشتراك فى الرحلة والسفر معه ، وفجأة أبحر الأسقف الشرير باسل Basel من روما حيث وصل إلى نفس المدينة التى كان ينتظر عندها الحبر اليهودى مير الروثنبرجى، وكان يرافقه كنبس المرتد apostate knipse الذى من المحتمل محيت ذكراه ونسى اسمه- وقد تعرف هذا المرتد على معلمنا وقدم له تقريراً عن الأسقف الشرير باسل Basel ، وتسبب هذا المرتد فى قيام الكونت مينهارت Meinhardt سيد المدينة فى القبض على الأسقف باسل فى الرابع من يولية تموز من عام ٥٠٤٦ من خلق العالم، وتسليمه للملك الألمانى رادولف .

وهنا يمكننا أن نوجز من ناحية سبب اعتراف كنبس المرتدapostate Knipse بالحبر اليهودى مير الروثنبرجى، وكذلك سبب الهروب السرى لليهود من ألمانيا تحت قيادة هذا الحبر اليهودى. فقد قام رفقاء الحبر مير باغفال السلطات اليقظة فى المدينة ونجحوا فى شق طريقهم إلى لومباردى وهناك تقابلوا مع مجموعات يهودية أخرى تتجه فى رحلتها إلى الأرض المقدسة فى

فلسطين وهو نفس المقصد الذى يريده الجميع من اليهود المهاجرين . وقبض الملك الألمانى رادولف على الحبر اليهودى مير Meir وأودعه سجن فى احدى القلاع حتى قضى نحبه فى السجن بعد سبع سنوات عجاف . وتم افتداء جسمان هذا الحبر اليهودى بدفع مبلغ من المال لكى يدفن ويوارى جسمانه فى تراب مدينة وورمز Warms الألمانية.

وفى هذا السياق ، يمكن بسهولة فهم الرواية التى ذكرها لنا أحد أتباع الحبر اليهودى بن نحمان المجهولين التى تعكس وتصور لنا فكر سيده . فقد كتب هذا المريد والذى كان يعيش فى عكا قبل سقوطها فى عام ١٢٩١م يقول : «لاتدع انسانا يعتقد أن الملك المسيح سوف يظهر فى أرض غير طاهرة ولاتدعه ينخدع فى الاعتقاد بأن الملك المسيح سوف يظهر فى أرض بنى اسرائيل وسط الوثنيين غير اليهود ». ومن الواضح أنه استخلص نتيجة طبيعية مؤداها أن استيطان اليهود فى الأرض المقدسة شرط أساسى لقرب مجيىء المسبح مرة ثانية ، أو يقرر أن:

«والآن ينهض كثير من الناس والأمم عن طيب خاطر للذهاب إلى أرض اسرائيل، واعتقد الكثير من الناس بأن قدوم المخلص على وشك الحدوث، حيث يلاحظ هؤلاء الناس إلى أى مدى تعرض شعب بنى اسرائيل للظلم الثقيل الوطأة على أيدى الوثنيين فى معظم الأماكن والأقطار، ويتجلى للناس أيضا ظهور علامات معروفة جيداً توحى بأن البقاء للأفضل ولشعب الله المختار من بنى اسرائيل .



الفصل الرابع عشر

الهيئات الدينية العسكرية

لقد وجدت فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس مؤسسات كثيرة جديدة وكان ثمة عدد قليل من هذه المؤسسات يمتد جذوره فى هذه المناطق قبل الوجود الصليبى. واستلهمت المملكة اللاتينية مؤسساتها من التجربة والخبرة الأوربية وفى حالات قليلة كانت هذه المملكة تبتكر بعض المؤسسات عندما كانت الظروف المحلية تقتضى ذلك. إذ كانت النزعة العقلانية من أجل تخليد وبقاء أعراف وتقاليد أهل البلاد الأصليين تساهم فى عرقلة أية محاولة من أجل ابتكار مؤسسات جديدة. فلم يكن الصليبيون الأوربيون يفتقرون إلى الموهبة أو الكفاءة، بل كان المناخ الاجتماعى والفكرى للمجتمع الصليبى هو الذى يعوق النمو الطبيعى لمثل هذا التجديد والابتكار المؤسساتى.

وثمة مجالان بارزان كانا استثناءً لهذه القاعدة العامة التى تقول أن الصليبيين كانوا أقل ميلا للتجديد المؤسساتى، وهذان المجالان هما ابتكار مؤسسة الهيئات الدينية العسكرية، والابتكار فى مجال الحرب والتحصينات. والحقيقة أن الصليبيين قد وجدوا فى الفروسية الدينية حيث الهيئات الدينية العسكرية والحرب حيث التحصينات والاستحكامات مجالا مهما وواضحًا للابتكار والتجديد . وكانت هذه الفروسية الدينية تعبر عن روح جديدة تأثرت بشكل ملحوظ بأيديولوجية الحركة الصليبية ؛ وقد أثبتت الحرب أن الاستعداد العقلى والفكرى لحل المشكلات الحيوية والتكيف مع هذه المشكلات هى الضمان الأكيد للوجود الصليبى فى الأراضى العربية. وكانت الفروسية الدينية تعبيراً لأيديولوجية مؤسساتيه، فى حين كانت تقنيات الحرب والتحصينات بمثابة درس عملى تعلمه الحكام الصليبيون الذين حكموا مملكة فى حالة حرب مستمرة، أو على الأقل مملكة كانت تخضع لحصار كامل قوى من الداخل ومن الخارج.

كانت هيئة فرسان القديس جون (الاسبتارية) أولى الهيئات الدينية العسكرية التى تأسست فى الأراضى المقدسة فى فلسطين . ولم يعرف على وجه الدقة تاريخ تأسيس وإنشاء هذه الهيئة

الأمر الذى يؤكد دعوى أسبقية هذه الهيئة من حيث الأيديولوجية والتنظيم فى الأراضى المقدسة. وكان النشاط الباكر لهيئة فرسان القديس جون هو قيام أعضائها بتقديم أنواع المساعدة والرعاية للمرضى والمحتاجين من الحجاج المسحيين . وكانت هذه الرعاية والخدمة تمثل دوراً مهما وذات أهمية ف حياة المملكة الصليبية فى بواكير وجودها ، بيد أن مثل هذا قلما كان بشكل أداة وابتكاراً جديداً ، وذلك لأن مثل هذه المؤسسات قد وجدت على طول طرق الحج فى أوربا قبل الوجود الصليبى بمائة عام . ولكنه حتى هذه المرحلة كانت طائفة فرسان القديس جون فى بيت المقدس تختلف عن الطوائف الدينية فى أوربا ، ولم تتماثل مع أية موسسة أوربية معاصرة مشابهة . وكان الجديد هو ارتباط أعضاء هيئة فرسان الاسبتارية بأعمال الخير- رعاية المرضى- وقيامهم بهذه الأعمال ، وهم الأعضاء الذين كانوا ينحدرون من طبقة الحكام والمحاربين الوراثية المتكبرة . ومع ذلك فإن أعمال الخير كان يشغل حيزاً كبيراً فى مجموعة القوانين الأخلاقية المسيحية، وساهمت الظروف الاجتماعية فى أن تجعل منه شيئا إلزاميًا على عاتق الغنى والقوى، ولم تتجسد هذه الأفكار العاطفية المتعلقة بالكتاب المقدس فى مؤسسة ارستقراطية . وكانت أعمال الخير تعنى إلى حد بعيد توزيع الصدقات بنوع من الكياسة والتلطف .

وثمة فكرة مختلفة تمامًا التزمت بها مجموعة الفرسان الصغيرة التى اجتمعت حول القديس جيرارد والتى وجدت فى الأراضى المقدسة بعد احتلال الصليبيين لمدينة بيت المقدس مباشرة تقريبًا . إذ أعلن أعضاء هذه الجماعة القيام بأعمال الخير والإحسان واعتبروا هذا العمل أولى مهامهم والتزاماتهم . وهكذا انحصرت الفروسية فى تلك الحقبة داخل النطاق الدينى والديرى، ومن الأهمية بمكان أن نتأمل إلى أى مدى أثر هذا الابتكار الجديد (الممثل فى الهيئات الدينية العسكرية أو الفروسية الدينية والديرية) فى المواقف والاتجاهات الاجتماعية لمجتمع العصور الوسطى، وتأثيرها على الأراضى المقدسة وعلى طبقة النبلاء الأوربية. لقد توقف تطور الأيدويولوجية الأصلية لهيئة فرسان الاسبتارية بعد جيل من تأسيسها ، وذلك حينما قامت رابطة جديدة من الفرسان الرهبان بتنظيم وترتيب قواعد انشاء هيئة فرسان الداوية (فرسان المعبد) ، وأتت الداوية بأيديولوجية جديدة .وقد لجأت هذه الهيئة إلى القوة التنافسية ، التى كانت شديدة، بالدرجة التى جعل أقدم مؤسسه وهيئة دينية تتبنى هذه الأيدويولوجية الجديدة، واستمرت الهيئات الدينية العسكرية تطبق مثلها وأفكارها ، وهكذا استطاعت هيئة فرسان

القديس جون (الاسبتارية) فى النهاية أن تجسد من خلال قوانينها تلك المثل والأفكار التى كانت مشتقة من شيئين مختلفين، وهما أيديولوجية فروسية المستشفى وأيديولوجية فروسية الديرية الجديدة. وقد أثبتت الأيام تعارض أيديولوجية فروسية المستشفى وأيديولوجية فروسية الديرية الأمر الذى أدى إلى حدوث الاختلاف العملى والوظيفى بينهما، هذا الاختلاف الذى تمثل بشكل نهائى فى التمييز الاجتماعى داخل الهيئة الدينية. وظلت رعاية المرضى من الحجاج المسيحيين من المهام الرئيسة التى التزم بها هيئة فرسان الاسبتارية . بيد أن الحياة اليومية- التى مارسها هؤلاء- أثبتت أن الأهداف والغايات العسكرية والفرسان المحاربين الذين يحققون هذه الأهداف والغايات أصبحت بمثابة عامل مهم وذى تأثير فى هذا التطور الذى شهدته الهيئات الدينية العسكرية.

ومما يذكر أن الأيديولوجية الجديدة لهيئة فرسان الداوية (التى تمت صياغتها بشكل نهائى فى عام ١٢٢٨م) استطاعت أن تمزج اثنين من المثل التى كانت متداولة فى مجتمع العصور الوسطى، وهما الفروسية، والديرية ، فى شكل دستور لجماعة الرهبان المحاربين ، وكانت هذه الظاهرة الطبيعية جديدة فى أوربا، وإن كانت هذه الظاهر معروفة لدى حضارات أخرى.

لقد ظل التقليد المسيحى طوال ألف عام يعارض الحرب ويحرم سفك الدماء، ومع ذلك فإن هذا التقليد كان أحيانا يتراجع عن هذا التحريم أمام الطبيعة والحقيقة البشرية. ولم تستطع التعاليم الأخلاقية التى أعلنتها الكنيسة أن تضع حداً للعنف السائد فى المجتمع أو تمنعه . ومع ذلك فإننا لايمكن أن نقلل من تأثير هذه التعاليم الأخلاقية فى هذا المجتمع . فقد كان الفارس المحارب يعيش حياته وهو يشعر بالاثم، وعلى الرغم من أن طبقة المحاربين التى كان ينتمى إليها هذا الفارس المحارب كانت تعترف بأهمية مهنة الفارس من أجل استقرار وحياة المجتمع، فإن مهنة الحرب هذه التى كان يقوم بها الفارس وأبناء طبقته كانت تتطلب اضفاء الشرعية المسيحية حتى يتم اقرارها وقبولها لدى المجتمع ، وهنا كانت توبة النبلاء أمراً متكرراً ، وكان اهتداؤهم إلى الدين القويم وهم على فراش الموت ويتم من خلال تناولهم قربان الموتى تقليداً لعادة وسلوك الرهبان. وكانت الحروب الصليبية علامة مميزة للتقدم الأول صوب القبول الأخلاقى لطبقة المحاربين . الأمر الذى جعل فكرة الهيئة الدينية العسكرية شرعية وأمكن تحقيقها على أرض الواقع.

كانت الكنيسة تقوم بالتصديق على قرار الحروب الصليبية والقسم الصليبى وكان هذا

التصديق الكنسى دلالة على ذلك التوافق مع التعاليم الأخلاقية التقليدية. وقامت الكنيسة باضفاء الشرعية الدينية على مهنة الحرب وذلك بأن حددت أهداف هذه الحرب*. وعندئذ أصبحت طبقة المحاربين تتمتع ببراءة من الاثم أمام الرب وأمام المجتمع . ومن الآن فصاعداً، حظيت مهنة طبقة المحاربين بشرعية اجتماعية وبمباركة الرب والمجتمع، وأصبحت طبقة المحاربين بمثابة هيئة وجماعة متحدة.

وفى العصور الوسطى كانت استخدام كلمة Order يعنى أكثر من معنى هيئة أو جماعة متحدة، وذلك لأنها كانت تتضمن فكرة الوظيفة الاجتماعية والعامة، فهؤلاء الرجال الذين كانوا ينتمون إلى طبقة المحاربين Order لم يخضعوا لقدرهم الشخصى فقط وهو مهنة الحرب، بل كانوا يحتلون مكانًا فى الحكومة والنظام الكنسى . والآن أصبحت طبقة المحاربين بمثابة طبقة اجتماعية تمثل جماعة متحدة Order ذات وظيفة اجتماعية وحكومية رسمية. وقد تم التأكيد على هذه الفكرة فى الديباجة القصيرة للقانون الباكر لهيئة فرسان الداوية. فقد ذكر القانون الباكر للداوية أن الفروسية قد انحرفت عن أهدافها . «إذ أنها احتقرت العدل، الذى يتعلق بوظيفتها ، ولم تفعل ما يجب أن يعمل، وهو الدفاع عن الفقراء ، والأرامل ، والأيتام، والكنيسة ، ولكنها بدلاً من أن تؤدى مثل هذه الأعمال الخيرة، راحت تتنافس فى أعمال الاغتصاب للفتيات، والسلب والنهب والقتل». ولهذا فإن الهدف الأول لهذه الهيئة الجديدة (الداوية) كان يتمثل فى العودة بطبقة الفرسان إلى نقائها وطهارتها. وكانت هذه الدعوى التى أعلنتها هيئة فرسان الداوية تعنى، «أن عقيدة هذه الرابطة العسكرية الجديدة ترى أن الفروسية قد ازدهرت وانتعشت ، ومن أجل ازدهار وانتعاش الفروسية يلجأ أفراد وأعضاء هذه الرابطة العسكرية الجديدة (الداوية) إلى أولئك الذين تزعموا طبقة الفرسان العلمانيين أن يعملوا من أجل الرب، وأن ينبذوا الخلاف فيما بينهم ويتقبلوا تعاليم المسيح من أجل خير البشرية، وذلك لكى يتبعوا سبيل أولئك الذين شملهم الرب برحمته واصطفاهم من بين الجماهير الذين تهاوت أرواحهم فى الهلاك (العصاة) وأمرهم بأن يذودوا عن حياض الكنيسة المقدسة.

---

* شروط الحرب العادلة أو المقدسة: الواقع أن القديس أوغسطين أشهر آباء الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس الميلادى هو الذى وضع مبررات دينية للحرب التى يشنها المسيحى ، ووضع شروطا ثلاث للحرب العادلة التى تحظى بقبول الرب، وهى أن تشن الحرب للدفاع عن الأملاك والعرض، وأن يتوفر حسن القصد من هذه الحرب، وأن تشن الحرب بناء على قرار يتخذه قائد عسكرى أى سلطة علمانية. (المترجم) .

ومما يذكر أن نموذج الفروسية النقية الطاهرة قد وجدت كفكرة لبعض الوقت، بيد أنه بمرور الزمن أصابها الفساد ، وكان الداوية يرغبون فى استعادة الفروسية لطهارتها الأصلية.

وثمة علاقة حميمة بين قانون هيئة فرسان الداوية وبين سان برنارد أسقف كليرفوى* ، إذ أن بعض الأفكار التى يتضمنها قانون الداوية سوف تتكرر فى رسالة سان برنارد الكيرفوى الشهيرة التى تعرف باسم «فى تقريظ ومدح الفروسية الجديدة «وسان برنارد الكيرفوى هذا هو الذى قاد الدعاية للحروب الصليبية طوال عشرين عاما حيث بشر بالحملة الصليبية الثانية، وعلى أية حال، فإن مثل هذه الأفكار كانت متداولة تمامًا بعد سنوات قليلة من الغزو الصليبى لمدنية بيت المقدس. وقد رأى اثنان من المؤرخين اللاتين اللذين لم يشاركا فى الحملة الصليبية الأولى هذه الحادثة (الغزو الصليبى لمدينة بيت المقدس) فرصة هيأتها إرادة الرب لكى نستعيد الفروسية سابق مجدها ومثلها العليا. فنجد المؤرخ الصليبى روبرت النوجنتى Ruibert de Nogent يعزو الرواية التالية وينسبها إلى البابا اربان الثانى الذى ألقى خطابه الشهير فى مجمع كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥م:

«وحتى الآن تخوضون غمار حروب غير ضرورية فيما بينكم ، وإنكم تطلقون السهام المسمومة فى وجه بعضكم البعض فى مذبحة متبادلة ولم يحفزكم إلى هذا العنف المتبادل سوى الجشع وحب المال، والغطسة والكبرياء، ولذا فانكم تستحقون الموت والهلاك واللعنة . والآن نقترح عليكم خوض حروب تجلب عليكم مكافأة الاستشهاد المجيد، تلك الحروب التى تؤكد للمحارب الحق الشرعى للمجد الدينوى والأخروى معًا».

ويعتبر المؤرخ اللاتينى بلدريك الدوللى أسقف دول (١١١٠م) أكثر صراحة ، إذ جاءت صياغته لخطاب البابا اربان الثانى أكثر دقة واحكامًا ، وهى الصياغة التى بنى عليها سان برنار الكيرفوى أسقف كليرفوى دعايته النزقة وتبشيره بالحملة الصليبية الثانية. ووفقًا لرواية بلدريك الدوللى الخاصة بخطاب البابا اربان فى مجمع كليرمون فإن البابا قال:

«إن الفروسية التى تبيد رعايا وشعب المسيح ليست فروسية السيد المسيح. لقد احتفظت الكنيسة المقدسة بفروسيتها وفرسانها الذين يدافعون عنها ... فاذا أردتم أيها السامعون أن

---

* سان برنار أسقف كليرفونا : هو أسقف كنيسة كليرفوى فى فرنسا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، وقد قام بدور كبير فى الدعوة للحروب الصليبية من خلال خطبه ومواعظه الدينية لاقناع الرأى العام الأوربى بفكرة الحروب الصليبية. (المترجم) .

تخدموا وتصونوا أرواحكم من اللعنة، فأمامكم طريقان إما أن تنبذوا زنار هذه الفروسية، أو أن تواصلوا عملكم بجسارة كفرسان للمسيح وتشقوا طريقكم على وجه السرعة للدفاع عن الكنيسة الشرقية فى فلسطين وبلاد الشام».

لقد كان السعى وراء اعتناق مثال الفروسية، التى تجعل من الفارس محاربًا عالميا باعتباره جنديا من جنود المسيح يمثل احدى مظاهر أيديولوجية هيئة فرسان الداوية. واعتناق هذا المثال والتحول إلى أسلوب جديد فى الحياة سوف يخدم الانسان وتجعله يبتعد عن أولئك الذين استحقوا عذاب جهنم وبئس المصير.

وفى الوقت الذى كان فيه قانون الداوية يفسر لنا معنى فروسية المسيح (الفروسية الدينية) فإنه لم يفسر لنا معنى الجماعة الديرية الرهبانية . فالجماعة الديرية النسكية كانت معروفة لدى الجميع فى تلك الفترة ، وكان قانون الداوية أكثر اهتمامًا بتنظيم حياة أولئك الأعضاء الرهبان الذين ينتمون إلى تلك الرابطة الدينية الجديدة بصورة أكثر من اهتمامه بتقديم واقتراح قواعد السلوك. وببساطة يمكن القول بأنه : «إذا أراد أى فارس علمانى أو أى شخص آخر أن ينأى بنفسه عن هاوية الهلاك الروحى فإن عليه أن يهجر العالم، ويختار لنفسه حياة اجتماعية بسيطة». ومرة ثانية يقول: «إنكم إذا استطعتم أن تنكروا رغباتكم البشرية وأن تخدموا مملكة الرب لفترة محددة فانكم تصبحون فرسانا مسلحين من أجل انقاذ أرواحكم». وكان هذا المعنى واضحا يدركه كل المعاصرين. ولم ترتبط النذور الديرية الرهبانية بقواعد الفروسية ، وغالبا ما يحدث جدل حول تغير جوهر الفروسية. فالفارس لم يصبح فارسًا مسيحيًا وإن كان راهبًا، ولكن الميعار فى ذلك هو أن يقوم باحياء المثل الأصلية لهذه الفروسية. وكان القسم والنذر الديرى ينظم الفروسية المسيحية، واستطاع القسم الديرى الثلاثى الخاص بالبساطة، والطهارة، والطاعة أن يفرض هذا النمط من الحياة على الفرسان. وقد استطاعت نزعة التنظيم الأوربية أن تمد عنصر التوحد النسكى، وقبل ستة قرون بالضبط، أى فى القرن السادس الميلادى استطاع القديس بندكت النورس Bendict of Nursia أن يحول حياة التنسك الفردى إلى حياة النظام الديرى الجماعى. وكانت مآثر وأعمال أى محارب تكسبه وتضفى عليه الشرف والسمعة الحسنة، بيد أن الأعمال التى يقوم بها أى جندى من جنود المسيح تكسبه مجد الرب وكان انكار الذات من الأعمال التى تمجدها وتحبذها هيئة فرسان الداوية.

وفى وقت ما توقف سريان التحريم الكنسى لسفك الدماء ليخلق عقبة، فقد أصبحت الفروسية والديرية يكمل بعضهما الآخر، وقد عبر قانون الداوية عن هذا التكامل وبشكل فظ

وورد فيـه : «لقد نشأ هذا النمط الجديد من الترهب والدين، وأصبح الدين المسيحى يقر الفروسية ويعترف بها ، وهكذا فإن المسيحية المسلحة الممثلة فى الفروسية سوف ترتقى وتتقدم وتقتل العدو دون شعور بالاثم أو الذنب».

لقد ظهرت هيئة فرسان الداوية فى شكل مجموعة صغيرة من الفرسان الرهبان بقيادة هوف البـينزى Haugh de Payens وذلك فى عام ١١١٨م لتصبح بعد ذلك هيئة عسكرية كبيرة بشكل مذهل. وكانت المهمة الرئيسة لفرسان الداوية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام تتمثل فى قيامها بحماية الحجاج المسيحيين الذين يمرون فى طريقهم من البحر المتوسط إلى القدس، وتوفير الحماية للحجاج المسيحيين الذين يتحركون من بيت المقدس إلى الأماكن والمزارات المقدسة على ضفاف نهر الأردن ، وفى فترة لاحقة أسندت إليهم مهمات عسكرية رئيسة . وقد تضاءل أهمية الغرض الأصلى من إنشاء هيئة فرسان الداوية وذلك مع استقرار الأمن الداخلى وقوة الشرطة وقلما كان هذا الهدف الأصلى من انشاء هذه الهيئة الممثل فى حماية الحجاج المسيحيين الوافدين إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين يتناسب مع هيئة دينية عسكرية كبيرة العدد والعدة . ومع تأسيس الهيئات الدينية العسكرية- باتت مهمة الدفاع عن المملكة الصليبية فى بيت المقدس من المزايا المهمة وأصبحت هذه المهمة من مزايا ومناقب هيئة فرسان الداوية. لقد تحولت وظيفة الداوية من حماية الحجاج المسيحيين من أخطار الطريق إلى الدفاع عن حدود المملكة الصليبية وحمايتها . حيث كان الصليبيون يعتبرون أنفسهم حجاجًا.

وعلى الرغم من ذلك ، فإن نشأة الهيئات الدينية العسكرية لم تقم بها الدولة أو الكنيسة، ولم تساهم أية مؤسسة أخرى بصورة كبيرة فى تعضد وضع وقوة هذه الهيئات الدينية العسكرية. وبمرور الوقت أصبحت هذه الهيئات الدينية العسكرية قوية على الرغم من أن الدولة والكنيسة قد استنزفتا هذه الهيئات الدينية والعسكرية فى عملية تشييد وبناء مؤسسة الدولة والكنيسة ، وفى الوقت الذى نمت فيه قوة هذه الهيئات أصبحت تمثل قوة تهديد لسلطة الدولة والكنيسة فى المملكة اللاتينية فى بعض الأحيان. فقد قدمت هذه الهيئات العسكرية العون والمساعدة للكنيسة ، بيد أن هذه الهيئات العسكرية كانت فى حالة خصام وشقاق مع رجال الدين المحليين، وقد ساهمت هذه الهيئات الدينية العسكرية بشكل كبير فى تعضيد قوة الدولة ولكنها لم تكن دائما ضمن مؤسسات الدولة.

وكانت قائمة الأوامر البابوية الطويلة تضم باستمرار تلك الامتيازات الواسعة التى تمتع بها

أفراد الهيئات الدينية العسكرية. وكانت تشمل امتيازات قضائية واعفائهم من التقاضى أمام المحاكم الكنسية المحلية إذ كانوا يعتمدون بشكل مباشر على كنيسة روما ، الأمر الذى جعلهم لايخضعون لطائلة العقوبات الكنسية والأناثيما من جانب الأساقفة المحليين . وأخيرا كان يسمح لهم بفتح كنائسهم فى أيام محددة عندما يفرض على المدينة عقوبة الحرمان واللعنة الكنسية. وهكذا فقد حرم رجال الدين المحليين من فرض أية وسائل تأديبية ضد أفراد الهيئات الدينية العسكرية.

لقد اصطدمت مصالح الهيئات الدينية العسكرية مع مصالح الهيئة الدينية المحلية. وعلى الرغم من المعارضة القوية من جانب رجال الدين المحليين ، فإن بعض كنائس الهيئات الدينية العسكرية ادعت لنفسها امتيازات أبروشية ، كان من شأنها أن تؤدى إلى تجريد الكنائس المحلية من موارد دخلها الكنسية . وكانت مقابر هيئة الاسبتارية تتنافس مع مقابر الكنائس المحلية وجلبت هذه المقابر بعض الموارد الأساسية لخزانة الاسبتارية . وفى نفس الوقت ، كانت عملية نمو تملك الهيئات الدينية العسكرية للأراضى الزراعية تؤدى إلى انخفاض موارد الدخل المنتظمة للكنيسة اللاتينية *. ومن المحتمل أن السكان المسيحيين فى المملكة الصليبية كانوا ملتزمين بدفع العشور الكنسية منذ تأسيس هذه المملكة اللاتينية ، وعلى وجه الدقة منذ عقد مجمع نابلس فى عام ١١٢٠م. فقد أقر مجمع نابلس الذى عقده الصليبيون فرض ضريبة العشور الكنسية على الممتلكات العقارية من الأراضى الزراعية ، وفرضت ضريبة العشور على أسلاب ومغانم الحرب. وكان الفلاح المسيحى المحلى يدفع ضريبة العشور الكنسية كما دفعها ملاك الأراضى من الفرنجة ، إذ كانت هذه الضريبة تقتطع من ايجارات ومتحصلات أراضيهم الزراعية. وهكذا كانت الأراضى الزراعية التابعة للهيئات الدينية العسكرية تمثل مشكلة زراعية. وبالنسبة لمسألة ضريبة العشور، فإن رجال الدين المحليين كانت لهم اليد العليا ولم تحصل الهيئات الدينية العسكرية على اعفاء من دفع هذه الضريبة ما لم تتحرر على وجه الدقة من السلطات المحلية**. وبطريقة أو بأخرى أبرمت اتفاقيات رسمية، وأحيانا كانت ضريبة العشور تقسم بين الأطراف المتنافسة من الهيئات الدينية العسكرية. ومن الملاحظ أن الامتياز

---

* كان أول امتياز منح لفرسان هيئة الاسبتارية هو ذلك الامتياز الذى منحه لهم بطريرك مدينة بيت المقدس ورئيس أساقفة قيسارية فى عام ١١١٢م. (المؤلف).

* ويرجع السبب فى ذلك إلى أن أراضى الهيئات الدينية العسكرية كانت معفاة من تأدية الضرائب الكنسية للكنيسة اللاتينية . (المؤلف)

البابوى الذى منح للهيئات الدينية (العسكرية والخاص باعفائهم من دفع ضريبة العشور على أراضيهم الزراعية (والذى كان له أهميته المالية بالنسبة لأملاك هذه الهيئات الدينية فى أوربا) قد فقد فعاليته وأهميته فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس. وكما أوضحنا فى موضع آخر، فإن النظام الريفى السائد للصليبيين كان يفتقر إلى نظام الضيعة، وإلى غياب الأملاك الخاصة من الأراضى الزراعية. ومن ثم، فإن الهيئات الدينية العسكرية استفادت جزئيًا فقط من الامتياز البابوى الذى منح لهم. وبموجب هذا الامتياز البابوى كان يتم اعفاء مزارع الكروم وحدائق الزيتون ومزارع قصب السكر التى كانت تستغلها الهيئات الدينية العسكرية بشكل مباشر من ضريبة العشور. وبالإضافة إلى ذلك، فقد حاولت هذه الهيئات الافلات والتهرب من دفع هذه الضريبة وذلك عن طريق تحويل أراضيها المنزرعة بمحاصيل الغلال إلى مزارع من ذلك النوع السابق الذى يعفى من ضريبة العشور الكنسية (وهى مزارع الكروم وحدائق الزيتون ومزارع قصب السكر)، وكانت محاولة التهرب هذه تعكر صفو العلاقات بينهم وبين رجال الدين المحليين وتثير فيما بينهم النزاعات، تلك النزاعات التى كان يبحث أسبابها والتوصل إلى اتفاقيات عسيرة ومعقدة من أجل تسوية هذه الخلافات بين الهيئات الدينية العسكرية وبين رجال الدين المحليين.

وعندما نعيد النظر فى الامتيازات المختلفة العديدة التى تمتع بها أفراد هذه الهيئات الدينية العسكرية فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس، فإنه يتضح لنا تلك النزعة العدوانية لهذه الهيئات ومحاولاتها الدائبة من أجل سوء استغلال هذه الامتيازات الممنوحة لهم. ويبدو أن هذا السلوك كان سمة تميز الكثير من الجماعات المتحدة، وهذا السلوك الجماعى يصعب التحقق منه وفحصه إذا ما قورن بالسلوك الفردى الذى يسهل فحصه والتحقق منه. وحاولت الهيئات الدينية العسكرية (الاسبتارية- الداوية- التيوتون) أن توسع امتيازاتها وذلك بضمها لمؤسسات علمانية فرعية تكون بمثابة مؤسسات دينية خيرية. ونظرا لأن مثل هذه المؤسسات الفرعية كانت تضم عددا كبيراً من النبلاء المحليين، الذين كانوا يمثلون الشريحة الرئيسة من المحسنين على الكنيسة، فإن التجربة أثبتت أن هذه المحاولة كانت هدامة. وعند هذه المرحلة تعالت بسرعة شكايات رجال الدين المحليين مرة ثانية تطالب بوضع حد لطمع وشراهة هذه الهيئات الدينية العسكرية.

وتبرهن الشكايات والنزاعات المستمرة المدونة فى عشرات الوثائق على أن هذه الهيئات الدينية العسكرية لم تحظ بالود والمحبة من جانب رجال الدين المحليين على الرغم من الخدمات

المهمة التى كانت تقدمها هذه الهيئات للمملكة الصليبية. وحتى البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس الذى كان قد بارك الخطى لتأسيس هيئة فرسان الداوية واعتبرها بمثابة دعامة أساسية يعضد بها مركزه ونفوذه فى المملكة اللاتينية قد أصيب هو الآخر بخيبة أمل وذلك عندما رفضت هيئة الداوية وساطته ، وإن كان أفراد هذه الهيئة يقدمون له الطاعة فى الشئون الدينية، وعلى المستوى المحلى كانت كل هذه الاختلافات والنزاعات تقف حجر عثرة فى وجه تحسن العلاقات مع بابوية روما.

لقد أدركت البابوية أن تطور الهيئات الدينية العسكرية يرتبط بالقيام بأعمال الخير وتقديم الصدقات ويرتبط أيضا بما يقدمه أفراد هذه الهيئات من عناية وخدمات كبيرة فى أوجه الخير والاحسان. ففى القرن الثانى عشر الميلادى قامت الهيئات الدينية العسكرية فى كل من شبه الجزيرة الايبيرية (أسبانيا) والمناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين بدور كبير فى حماية المسيحية وامتداد نفوذها وسيادتها . ولم تتوان البابوية عن تقييم امكانيات حركة عالمية منظمة جيداً مثل هذه الحركة الديرية العسكرية الممثلة فى الهيئات الدينية العسكرية ، يدين أفرادها بالطاعة المطلقة لرئيسها هذه الطاعة التى جعلت كل هيئة دينية عسكرية بمثابة أداة فعالة فى يد مقدم هذه الهيئة والرئيس الأعلى لها وأصبح هذا المقدم خادمًا مباشراً لبابوية روما. لقد استطاعت الشبكة المتفرعة للهيئات الدينية العسكرية أن تكون فى خدمة البابوية فى فترة ما قبل تأسيس الهيئات الدينية المتسولة وجماعة اليسوعيين التى تأسست فى فى عام ١٥٣٤ بزمن طويل*. ولم تكن بابوية روما شديدة البخل فى منح الامتيازات لهذه الهيئات الدينية العسكرية، ولم تتقاعس عن الدفاع عنها . وكانت هذه الامتيازات السخية التى منحت للهيئات الدينية موضع انتقاد فى مجمع اللاتيران الثالث الذى عقد برئاسة البابا أنوسنت الثالث عام ١٢١٥م، حيث كانت هناك بعض الأصوات تنادى بتقليص هذه الامتيازات والحد منها . وقد أعقب هذا المجمع بعض المحاولات الضعيفة من أجل وضع حد لهذه الامتيازات ، بيد أن هذه المحاولات لم تستطع أن تلغى الامتيازات الواسعة الممنوحة لهذه الهيئات الدينية العسكرية.

---

* كانت تنظيمات الرهبان المتسولين خاضعة للبابا أنوسنت الثالث فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى، وانتشر هذا النمط من الرهبان المتسولين فى كل أقاليم أوربا من أجل الاصلاح الروحى والأخلاقى للمجتمع (المؤلف).

ومن سخرية الأقدار التاريخية فى النهاية ، أن الشخصية العالمية للهيئات الدينية العسكرية وامتيازاتهم ، واعفاءاتهم، واعتمادهم المباشر على بابوية روما قد سمحت للبابا ممارسة السلطة (وهى السلطة التى كان من الصعب على الملك الفرنسى ممارستها) فى أن يلغى هيئة فرسان الداوية القوية وأن يحضر مقدم الداوية ورفاقه ليفرض عليهم عقوبة الاعدام حرقًا على خازوق.

ومع أن رجال الدين المحليين كانت لديهم من الأسباب فى أن يروا فى الهيئات الدينية العسكرية عنصراً عدائيا ومنتهكًا للأعراف، إلا أنهم لم يكن بمقدورهم انتقاد سلوكيات أفراد هذه الهيئات الدينية، وذلك لأنهم كانوا يدركون تماما أهمية اسهامات هذه المؤسسات الدينية العسكرية فى الدفاع عن الوجود الصليبى، وتمتعت كل هذه الهيئات الدينية العسكرية تقريبًا بالاعفاءات والامتيازات الكنسية، بيد أنه كان يوجد اختلاف وتفاوت واضح بينهم فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى الامارات الصليبية المتعددة.

لقد حاز فرسان الاسبتارية فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ممتلكات من الأراضى الزراعية أكثر من ممتلكات فرسان الداوية . والحقيقة أن الاسبتارية تسبق الداوية زمنيًا من حيث النشأة فى الأراضى المقدسة بجيل كامل من الزمان. ولاشك أن هذا التفاوت بين الاسبتارية والداوية فى ملكية الأراضى الزراعية كان له تأثير إلى حد ما. بيد أن ثمة عامل اضافى يجب أن نلتمسه ونبحث عنه فى ضوء حقيقة أن المنح والهبات التى كانت تقدم للهيئات الدينية العسكرية ، كانت تأتى إليهم فى المقام الأول من أعمال الخير والاحسان ، ومن المحتمل أن النشاط العسكرى للاسبتارية وارتباطها بالحرب كان يحتم عليهم طلب المعونة من المانحين . وكان من الأمور الخيرية فى تلك الفترة أن تمنح ضيعة لهيئة دينية عسكرية تأخذ على عاتقها مهمة رعاية المرضى والمحتاجين ومثل هذه الغايات النبيلة تتفق جيداً مع نمط محدد من الهبة ، والتى كانت تعرف باسم «منحة الصدقات» ولم تكن هذه المنحة تشترط أن يقدم المتلقى مقابلها أية واجبات ، بصرف النظر عن الصلوات التى كانت تؤدى من أجل روح المحسن والمتصدق.

وتنامت ممتلكات الهيئات الدينية العسكرية من الأراضى الزراعية بشكل ملحوظ فى أثناء القرن الثانى عشر الميلادى. وبتأسيس هيئة فرسان التيوتون كهيئة دينية عسكرية مستقلة فى أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، أصبحت هذه الهيئات الديرية العسكرية تمثل قوة اقتصادية فى

المملكة اللاتينية ، ومع ذلك، فإن أهميتها الحقيقية لم تكن مالية، وذلك لأن وضعهم كان قد تحدد بشكل نهائى، وتبلور هذا الوضع فى قيامهم بدور مهم كدعامة عسكرية للمملكة الصليبية.

لقد تشابكت عوامل عديدة لتخلق هذا الوضع وهذا الموقف. وباستثناء أسبانيا فإن عدداً قليلاً جداً من الدول المعاصرة قد انشغلت بمثل هذه الحرب المستمرة التى كانت سائدة فى المملكة الصليبية. وحتى خلال السنوات القليلة التى لم تشهد حملات عسكرية رئيسة استمرت معارك الحدود بسبب عدم استقرار الأمن على طول الطرق فى الريف الإسلامى، وكان هذا يتضمن ويستلزم عبئًا كبيراً من الاستعدادات العسكرية . وكما كان الوضع فى الأقطار الأوربية، كانت الجباية والضرائب الاقطاعية تمثل القوة الرئيسة للمملكة الصليبية. ومن المحتمل أن الجيش الصليبى كان أكثر كفاءة وأسهل فى الحركة من نظيره فى الغرب الأوربى. بيد أن قلة عدده كانت تمثل نقطة ضعف مزمنة للمملكة الصليبية. وكانت فاعليات وتأثير الجيش الصليبى تعتمد على الخدمة العسكرية الاقطاعية والتى لم يزد مجموعها فى أنحاء المملكة الصليبية عن ٦٧٠ فارسًا وعدة آلاف من المحاربين المشاه. وكان شطر من هذه القوة العسكرية ثابتًا لايتحرك يعمل فى حراسة القلاع، وأقل القليل من هذه القوة العسكرية الصليبية هو الذى كان يشارك فى المعارك العسكرية . وهذا يفسر لنا أهمية الدور العسكرى للهيئات الدينية العسكرية فى الدفاع عن المملكة الصليبية .

لقد استطاعت الهيئات الدينية العسكرية أن تحشد جيشًا أكثر عدداً من جيش المملكة الصليبية. وعلى الرغم من عدم معرفة أعداد أفراد الجيش بالضبط، فإنه من المنطقى أن كل هيئة دينية عسكرية كانت تحتفظ لنفسها بجيش قوامه ٣٠٠ مقاتل فى المملكة الصليبية . وهكذا فإن مجموع أعداد جيوش الاسبتارية والداوية كان يساوى ويعادل عدد القوات العسكرية الاقطاعية للمملكة الصليبية .

لم يكن أعداد الجيوش هو المعيار الوحيد . فقد كانت القوات العسكرية لهذه الهيئات الدينية فى حالة تحرك باستمرار حيث كانت قوات المملكة الصليبية تتحرك أيضا لدرأ الخطر. وكانت القوات العسكرية التابعة للهيئات الدينية فى حالة استعداد دائم، وذلك لأن وجود هذه القوات وهذه الهيئات الدينية كان يعتمد فى المقام الأول على أساس منطقية الحرب. وكانت مهمة الحرب أو الحراسة يمثل أحد الأنماط العادية للحياة، والمشاركة فى الحرب كان يعد التزاما

مهما من التزامات هذه القوات التابعة للهيئات الدينية العسكرية ، وليس هناك شيء أكبر فظاظة من الاقتباس الآتى من قانون الداوية:

«أيها الأخوة المبجلون ، إن الربَّ يؤازر خطاكم، لأنكم احتقرتم هذا ذلك العالم والدنيا الغادرة وزهدتم نعيمها من أجل أن تنالوا حب الرب الأبدى وأن تحتقروا ملذات وحنين الجسد المادية ، وأن تتزودوا بزاد التقوى وتتطهروا من أدران الخطيئة عن طريق الامتزاج فى جسد المسيح بتناول طقس العشاء الربانى، وأن تتزودوا بالحكمة والقوة عن طريق التمسك بوصايا الرب، وبعد أن تنتهوا من تقديم الخدمة السماوية للرب، اذهبوا إلى المعركة غير هيابين ولاوجين، وأن تكونوا على استعداد تام لتقديم أرواحكم فداءً للرب وعندئذ تنالون شرف الشهادة وترتدون تاجها العظيم».

وهكذا فإن قوانين الداوية لم تسهل فقط عملية تحرك القوات العسكرية الفورى والعاجل وقت الخطر بل كانت أيضا تؤكد على فاعليات وتأثيرات هذا التحرك العسكرى. لقد كانت الهيئات الدينية العسكرية منذ بداية وجودها بمثابة هيئات مسيحية عامة. وكان لها مراكز قيادة فى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام، بيد أنهم كانوا يحصلون على المؤن العسكرية من أوربا ، هذه المساعدات والامدادات التى وضعت تحت تصرفهم كانت عونًا لهم فى إنجاز مهامهم العسكرية فى الأراضى المقدسة. وظل انتشار الهيئات الدينية العسكرية فى أوربا أمراً فريدا ومهما حتى ظهور جماعة الرهبان المتسولين التى ظهرت بعد مائة عام تقريبًا، لقد وجهت هذه الهيئات الدينية فى الأراضى المقدسة استجابة للتحدى الداخلى الذى فرضه رجال الدين المحليين ، ويمكن أن نعزو نجاحاتهم جزئيًا فقط فى أوربا إلى هذا التحدى المحدد. والحقيقة أن الحفاظ على تحرير الضريح المقدس والدفاع عن المسيحيين فى منطقة الشرق العربى ضد الهراطقة (المسلمين) كان عاملا قويا فى تجنيد هؤلاء النبلاء الأوربيين واشتراكهم فى الحروب الصليبية ، بيد أن العامل الأقوى فى تجنيد هؤلاء النبلاء الأوربيين يكمن فى الرسالة الروحية والاجتماعية لطبقة المحاربين وهى الطبقة التى كانت تبحث عن هويتها ومثلها لكى تؤكدها باعتبارها طبقة مميزة فى المجتمع الأوربى الاقطاعى.

وبحلول عام ١١١٣م كانت الاسبتارية تمتلك أملاكا وبيوتًا فى منطقة سان جيل (فى فرنسا) ، وفى استى Asti ، وبيزا وبارى ، وأنزانتو وميسينا فى ايطاليا . وفى عام ١١٣٤م، أوصى الملك ألفونسو الأول Alphonso I حاكم أراجون ونافار بأن تقسم مملكته بالتساوى ومناصفة بين الاسبتارية والداوية والضريح المقدس، ومما يذكر أن وصف الثروة الضخمة للهيئات

الدينية العسكرية فى أوربا يتجاوز الهدف من هذه الدراسة . ويرى بعض مؤرخى القرن الثالث عشر من اللاتين أن هيئة الاسبتارية وحدها قد امتلكت فى أوربا ما يقرب من تسع عشرة ألف ضيعة ، وليس من اليسير التأكد من صحة هذه الحقائق والمعلومات الخاصة بعدد هذه الضياع ، بيد أن مثل هذه الحقائق تعكس انطباع المؤرخين المعاصرين تجاه ثروة وأملاك فرسان الاسبتارية فى أوربا. والذى يهمنا فى هذا الموضوع الخاص بهذه الثروة هو أن ثلث موارد وثروات فرسان هيئة الاسبتارية قد تحولت عاما بعد عام إلى مراكز وجودهم فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين. وهذه الموارد قد استغلتها كل البيوتات المهمة لهيئة الاسبتارية التى وجدت فى المناطق الصليبية . وفى بعض الأحيان كانت الاحتياجات الخاصة للأرض المقدسة تجعل المقاطعة أو الاقليم الذى منح للاسبتارية فى أوربا مسئولا عن تزويد وتدعيم الوطن الأم للاسبتارية فى منطقة الشرق العربى بالأنباء اليقينية الصحيحة. وعلى سبيل المثال ، ففى عام ١١٨٢م أصدرت الكنيسة العامة للاسبتارية مرسومًا يقضى بأن يقوم رئيس دير فرنسا بإرسال مائة قطعة قضية وأن يقوم رئيس دير سان جيل هو الآخر، وقد أرسلت أنطاكية ألفين ذراعًا من الأقمشة القطنية، وأرسل رؤساء أديرة ايطاليا التى تشمل أديرة بيزا والبندقية ألفين ذراعًا من القماش القطنى بألوانه المتعددة ، وأرسلت القسطنطينية مائتى قطعة من قماش اللباد، وكانت المؤن والامدادات من السكر ترد من ضياع الاسبتارية فى طرابلس وطبرية. وكانت الموارد المحلية تغطى هذه النفقات العامة أو كان يتم تغطية مثل هذه النفقات من خلال الصدقات المحلية التى كان يتم تحصيلها . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هيئة الاسبتارية كانت تمتلك سفنًا لنقل المؤن والامدادات التى كانت تجمع من أوربا لإرسالها إلى الأراضى المقدسة وقد شهدت هذه الفترة أحيانا تنافسًا بين الاسبتارية وبين المدن البحرية الايطالية من أجل نقل الحجاج والمتاجر من أوربا إلى منطقة الشرق العربى، وهكذا تولدت مصادر دخل اضافية لهيئة فرسان الاسبتارية من عائد نقل الحجاج والمتاجر إلى الشرق.

ومما يذكر أيضا أن فرسان الداوية كانوا يحوزون أملاكا فى أوربا. وبالإضافة إلى الأملاك الواسعة التى حازتها هيئة فرسان الداوية فى أوربا كما أنهم أصبحوا من أشهر رجال البنوك والمال فى أوربا فى تلك الفترة، ومع انتشار البيوتات المالية التابعة للداوية فى كل أنحاء أوربا ازدادت قوتهم وقوى نفوذهم بسبب وضعهم الدينى واستعدادهم المستمر كمدافعين عن المملكة الصليبية، وكانت الداوية أسرع الهيئات الدينية العسكرية فى دخول مجال النشاط المالى والمصرفى . فقد قام الداوية بأعمال الايداعات، والتحويلات وتحويل العملات ، وصك الحوالات، وغيرها من الأعمال المالية، وأخيرا قاموا بعملية اقراض المال. بيد أن عملية

الاقراض هذه كانت تفوح منها رائحة الربا الذى كان موضع الشجب والانتقاد القاسى. وبحلول القرن الثالث عشر الميلادى، كان فرسان الداوية من الشخصيات البارزة فى الوظائف المالية فى الملكيات الأوربية، كما أنهم ظلوا طويلاً يعملون فى الوظائف المالية ويشاركون فى المجالس المالية البابوية. وقد امتد نشاطهم الاقتصادى إلى أنحاء الغرب الأوربى ، إذ كانوا يشاركون فى أعمال التجارة الخارجية بين الشرق العربى والغرب الأوربى. بيد أننا أيضا نجد أن الداوية والاسبتارية كانوا يقرضون الأموال للحكام الصليبيين. ولاشك أن أفراد الهيئات الدينية العسكرية قد أصبحوا من كبار ملاك الأراضى الزراعية وسادة اقطاعيين فى المناطق الصليبية وذلك عندما قام النبلاء المحليون برهن أراضيهم بسبب عجزهم عن الوفاء بدفع ديونهم . وعلى الرغم من ذلك ، فإن أفراد الهيئات الدينية العسكرية فى الأراضى المقدسة فى فلسطين كانوا من الدائنين الأكثر تسامحًا .

وكانت توجد هوة سحيقة واضحة بين المثال والواقع أى بين الذين اعترفوا بأنهم سيعملون حراسًا وأمناءً وأقنانا فقراءً للسيد المسيح أى أنهم سيكونوا بمثابة جنود للمسيح ومعبد سليمان وبين وضعهم الفعلى من حيث كونهم أصبحوا يمتلكون الأراضى والقلاع وأصبحوا حكاما للأقاليم ورجال بنوك ومال. وهذا لايقتضى ضمنًا أن أفراد الهيئات الدينية العسكرية قد تدثروا بعباءة الطهارة والعفاف والقداسة لكى يخفوا تحتها مطامعهم ومكاسبهم الدنيوية . فقد كان فرسان الاسبتارية يمثلون طليعة الذين حضروا من أوربا إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين للقيام بمهمة رعاية المرضى والمجذومين الفقراء ، وعندئذ تحولوا فقط إلى هيئة مالية. وكان قيام الاسبتارية برعاية المرضى مجرد احياء ذكرى لمثل وقيم ارتبطت فى ذلك الوقت برموز تتعلق بالمملكة الصليبية التى تأسست فى منطقة الشرق العربى، أو كانت هذه المهمة مجرد إيماءة كاذبة لكى تخفى وراءها المواهب الأساسية لهذه الهيئات الدينية العسكرية، ولم تستطع الهيئات الدينية العسكرية التخلص من نموذج سلوك الجماعات الذى يبحث عن تحقيق المصلحة الشخصية ، وليس السلوك الذى يميز الفقر الجماعى الحوارى الذى كان يحث عليه المسيح عليه الاسلام. وحتى الهيئات الرهبانية المتسولة الأكثر تدينًا لم تستطع أن تفلت من هذا التحول فى السلوك، ولم تستطع التمسك كثيرا بأخلاقيات الفقر الحوارى المثالى التى نذرت حياتها له. وليست مهمتنا أن نحكم على جشع أو ثراء الهيئات الدينية العسكرية، ولكن مهمتنا تدخل فى نطاق تقييم الأساليب والطرق التى استخدموها فى تكوين ثرواتهم ومواردهم المالية داخل اطار المثل التى أعلنها أفراد هذه الهيئات .

والحقيقة أنه لايمكن اغفال اسهامات الهيئات الدينية العسكرية فى رفاهة المملكة الصليبية فى منطقة الشرق العربى، والعناية بالمرضى والدفاع عن هذه المملكة ضد أعدائها ، وهذه أمور لايمكن أن يرقى إليها أدنى شك. وقد قيل إن هيئة فرسان المستشفى (الاسبتارية) فى بيت المقدس قدمت الخدمة العلاجية لحوالى ألفين من المرضى فى يوم واحد من أحد أيام السنة، وقدمت لهم كميات كبيرة من الطعام، والملابس ، وأنفقت عن سعة صدقات كبيرة فى مدينة القدس وعكا الأمر الذى أثار دهشة وإعجاب الحجاج المسيحيين واليهود، ومن ناحية أخرى كانت هذه التصرفات من الأنشطة الخيرية عرضة للنقد القاسى. ولم تعرف أوربا مثل هذا المستوى من النشاط الخيرى والاحسانى للاسبتارية ، ومع ذلك فإن نموذج هذا النشاط الخيرى والاحسانى الذى قام به فرسان الاسبتارية قد عرفته من قبل الامبراطورية البيزنطية وكذلك مؤسسات الأوقاف الإسلامية فى منطقة الشرق العربى، ومن المحتمل أن فرسان الاسبتارية كانوا يقلدون النماذج الإسلامية لأعمال الخير والاحسان.

وفى الفترة من عام ١١٣٠م حتى سقوط المملكة الصليبية فى عام ١١٨٧م، قلما كانت تحدث حملة عسكرية كبيرة دون مشاركة حقيقية من جانب فرسان الهيئات الدينية العسكرية. فقد كانت شجاعتهم وجسارتهم مضرب الأمثال ، إذ كانت هذه الشجاعة سمة تميز طبقة المحاربين . وكانت الطاعة والنظام أيضا سمة تميز فرسان الهيئات الدينية العسكرية عن غيرهم من المحاربين الذين ينحدرون من طبقة النبلاء العادية. فقد كانت كل التشريعات والقوانين والأعراف الاقطاعية المدونة وغير المدونة تجرم عملية تخلى التابع الاقطاعى عن الدفاع عن سيده فى أثناء المعركة، وتعتبر هذا السلوك جرمًا لايمكن الصفح عنه، بيد أن الاستراتيجية والخطط العسكرية كانت تعتمد بشكل تام على الطاعة والنظام الذى يتمسك به محاربو الهيئات الدينية العسكرية، وهذه السجايا والصفات لم تظهر بشكل كبير وسط الجيوش الاقطاعية، هذه الجيوش التى كانت تتألف من أفراد لايمكن كبح جماحهم. وكانت كل معركة تقريبًا تفضى إلى حدوث مبارزة بين اثنين من الفرسان المحاربين . وكانت الطاعة المطلقة ، والنظام المتقن الذى التزم به فرسان الهيئات الدينية العسكرية بمثابة العدو المروع للجيوش الإسلامية*. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان التدريب العسكرى يشكل جزءًا رئيسا من برنامجهم

---

* لقد اكتسب فرسان الداوية الشهرة ونالوا اعجاب الجميع من المعاصرين وذلك بسبب ما قاموا به من أعمال بطولية فى أثناء دفاعهم عن مؤخرة جيوش الحملة الصليبية الثانية فى أثناء معركة كادموس (المؤلف).

اليومى وتحولت استمرارية وجودهم إلى مستودع للخبرة والأعراف العسكرية. ولم يستطع المحاربون فى أية حملة صليبية الاستغناء عن نصيحة الهيئات الدينية العسكرية. فقد كانت هذه الهيئات الدينية العسكرية أكثر دراية وخبرة بأحوال الشرق وأحوال الخصم الإسلامى ولاسيما مواطن قوته وضعفه.

ومن الملاحظ أن النصف الثانى من القرن الثانى عشر وكذلك القرن الثالث عشر قد شهد ازدياد وتنامى قوة فرسان الهيئات الدينية العسكرية من الداوية والاسبتارية وهيئة التيوتون، وهى الهيئة الدينية العسكرية التى تأسست أخيراً وأصبحت هذه الهيئات الدينية العسكرية الثلاث تمثل حصنًا قويًا لتدعيم السيادة الصليبية فى منطقة الشرق العربى وشيدوا القلاع والتحصينات القوية على الحدود وكذلك الحصون والقلاع الداخلية. وعندما بدأ الضغط الإسلامى على المناطق الصليبية، تقلصت حدود المملكة الصليبية وانكمشت هذه الحدود صوب الغرب وأصبحت القلاع الداخلية بمثابة الحدود الأخيرة للملكة الصليبية وعندئذ شارك فرسان هذه الهيئات الدينية العسكرية فى الدفاع عن هذه الحدود والقلاع الداخلية.

ومن المستغرب حقا ، أن الاسبتارية هى أول هيئة دينية عسكرية تقوم بمهمة الدفاع عن هذه القلاع وليست هيئة الداوية . ففى وقت مبكر من عام ١١٣٧م، حصلت هيئة فرسان الاسبتارية على قلعة جبرين (جبيل) من الملك الصليبى فولك الأنجوى ومنذ ذلك الوقت بدأت الاسبتارية فى ممارسة نشاطها ومهامها العسكرية. وفى عام ١١٥٢م تسلمت هيئة الداوية مدينة غزة وقاموا بمهمة الدفاع عن قلعتهم الرئيسة عند عسقلان التى شيدوها على الحدود المصرية. وبعد سنوات خمس ، وفى عام ١١٥٧م، شارك الاسبتارية مرة ثانية فى الدفاع عن القلعة الواقعة على حدود مدينة بانياس والتى فقدها الصليبيون وأيضا الدفاع عن قلاع بانياس وقلعة نوف Neuf على حدود دمشق . وثمة تقديرات حديثة توضح أن هيئة الاسبتارية استطاعت السيطرة على ٧ أو ٨ قلاع حتى عام ١١٦٠، بالإضافة إلى احدى عشر أو اثنتى عشرة قلعة اضافية . وخلال عام ١١٦٠م، استطاع فرسان الاسبتارية الاستيلاء على ست قلاع أخرى. وبحلول عام ١١٨٠م أصبح للاسبتارية ٢٥ قلعة وفى عام ١٢٤٤ كان الاسبتارية يمتلكون ٥٦ حصنًا وقلعة فلى فلسطين وبلاد الشام*. ولم يمتلك الداوية قلاعًا كثيرة أو أماكن محصنة فى منطقة الشرق

---

* ويبدو أن العدد الأخير وهو ٥٦ قلعة يعتبر عدداً أكبر من العدد الحقيقى لهذه القلاع التى كان يمتلكها الاسبتارية فى عام ١٢٤٤ . وذلك لأن عام ١٢٤٤ قد شهد تقلصًا كبيراً لحدود المملكة الصليبية وأقاليمها إذ كانت المملكة الصليبية قد فقدت فى تلك السنة حوالى ربع أملاكها السابقة. (المؤلف) .

العربى الإسلامى، وكان فرسان التيوتون - القادمون الجدد نسبيًا إلى هذه المنطقة- يمتلكون عدداً أقل من القلاع . وكان اجمالى عدد القلاع التى بحوزة الهيئات الدينية العسكرية تفوق عدد القلاع التى كانت تخضع لسيادة أى حاكم صليبى آخر، وتفوق أيضا عدد القلاع التابعة للملك الصليبى نفسه. وتتضح هذه الحقيقة جلية من خلال الملاحظة التى أبداها الملك الأرمنى «ثوروس» الذى زار المملكة الصليبية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى للملك الصليبى حيث قال له : «عندما حضرت إلى مملكتك وسألت عن القلاع التى رأيتها قال لى البعض إن هذه القلاع من أملاك هيئة فرسان الداوية؛ وقال لى آخرون إن هذه القلاع من أملاك الاسبتارية وبعض القلاع تابعة لدير جبل صهيون . وهكذا فإننى لم أجد أية قلاع، أو مدن كبرى أو صغرى ملكًا للملك الصليبى باستثناء ثلاثة فقط، بيد أن جميع القلاع من ضمن أملاك الهيئات الدينية العسكرية».

وفى القرن الثانى عشر الميلادى ، كانت القلاع التى بحوزة الهيئات الدينية العسكرية تعتبر قلاعًا ملكية، بيد أن بعض النبلاء (مثل سيد بانياس) الذى كان عاجزا عن حماية قلاعه قد أراد أن يستعين بقوة هذه الهيئات الدينية العسكرية من أجل الدفاع عن قلاعه وأن تقتسم هذه المسئولية مع هذه الهيئات الدينية العسكرية فى شكل تحالف . وفى القرن الثالث عشر الميلادى أصبح وضع الصليبيين حرجًا ، حيث أسفر عن فقد الصليبيين للمناطق الداخلية الشرقية فى أعقاب موقعه حطين الشهيرة عام ١١٨٧م تقليص موارد النبلاء الصليبيين فى المملكة الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين . ومن هؤلاء النبلاء أحد أفراد أسرة ابلين Ibelin وهو سيد بيروت الشهيرة، وأسرة ابلين هذه هى أحد الأسر الصليبية الشهيرة الحاكمة التى انفقت مواردها التى كانت تجنيها من قبرص لكى تدعم أملاكها ومناطق نفوذها فى المملكة الصليبية . وكان نتيجة هذا التقلص فى الموارد أن قام الأمراء المحليون الصليبيون بتسليم القلاع والمدن إلى الهيئات الدينية العسكرية. وحوالى عام ١٢٦٠م، استولى الاسبتارية على أرسوف وفى عام ١٢٧٨ استولى فرسان الداوية على المدن الشمالية مثل بيروت وصيدا. ومن الطبعى أن بضع الامارات والبارونيات الصليبية فى بلاد الشام قد خضعت هى الأخرى لسيطرة الهيئات الدينية العسكرية وكان مصيرها مثل مصير القلاع والمدن التى خضعت لسيطرة هذه الهيئات الدينية العسكرية. ويمكن تفسير أسباب قيام هذه الهيئات الدينية العسكرية بتشييد كل التحصينات العسكرية الجديدة فى المملكة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى، وليس

الملك الصليبى أو النبلاء، فى ضوء حقيقة أن هذه المملكتالصليبية كانت تعانى من الفاقه والفقر فى تلك الفترة . وهكذا فإن قلعة عثليت (التى شيدت حوالى عام (١٢١٨) التى كانت تعتبر من أكبر القلاع فى منطقة الشرق العربى الإسلامى وكذلك قلعة صفد (التى شيدت عام ١٢٤٠) قد خضعتا لسيطرة فرسان الداوية، وسلمت قلعة مونتفورت (التى عرفت فى فترة متأخرة باسم قلعة قورين Qurein) لفرسان التيوتون . وبحلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أصبحت قلعة طابور تمثل حداً يفصل بين المناطق الصليبية وبين الأقطار الإسلامية وخضعت هذه القلعة لفرسان الاسبتارية .

وعلى الرغم من الدور الحاسم والحيوى الذى لعبه فرسان الهيئات الدينية العسكرية فى المملكة الصليبية، فإنهم لم يحرزوا مكانة مهمة فى الامارات الجنوبية مثل المكانة المرموقة التى أحرزوها لأنفسهم فى الامارات الصليبية فى الشمال مثل امارة طرابلس وامارة أنطاكية الصليبية . وفى فترة باكرة من عام ١١٤٤ تسلم الاسبتارية من ريموند الثانى حاكم طرابلس مقاطعة كبيرة تقع على حدود كونتية طرابلس ، وبعد تلك الفترة ظهرت فى تلك المنطقة قلعة الكرك الضخمة (حصن الكرك - قلعة قردس Kurds) . وفى عام ١١٦٨ قام بوهمند الثالث أمير أنطاكية الصليبى بتسليم المنطقة الشرقية من امارته المتاخمة لمنطقة أباميا Apamea (فاميا Famiyah التى كانت تحت السيطرة الإسلامية منذ عام ١١٤٠) لفرسان الاسبتارية. ومع ذلك فإن هاتين المنحتين اللتين قدمتا للاسبتارية قد اختلفتا فى نواح عديدة، وبشكل عام فإن الاسبتارية كانوا يمتلكون شيئًا واحداً . ولم يعترف الاسبتارية فقط بأنهم بمثابة سيد اقطاعى للكونتية والامارة بل إنهم أيضًا كان يرون فى أنفسهم كيانا مستقلا فى تحالف رخو ومفكك مع الامارات الصليبية. وفى كلتا الحالتين كانت هيئة الاسبتارية تعتبر نفسها بمثابة سيد اقطاعى أعلى للمقاطعات التى خضعت لسيطرتها ولم يسمح لها فقط بممارسة سياسة خارجية مستقلة مع جيرانها من الأقطار الإسلامية، بل إن كلاً من كونت طرابلس وأمير أنطاكية الصليبى قد سمحا للاسبتارية أن ينتهجوا لأنفسهم سياسة خاصة بهم. ففى أنطاكية ، وافق الأمير الصليبى على اعطاء الاسبتارية الحق فى ألايلتزموا بأية اتفاقيات عقدها هذا الأمير دون موافقتهم.

والواقع أنه ليست هناك هيئة دينية عسكرية فى المملكة الصليبية تمتعت بنفس الوضع المميز الذى تمتعت به هيئة فرسان الاسبتارية . ويمكن تفسير ذلك فى ضوء حقيقية أنه فى

أثناء القرن الثانى عشر الميلادى كانت المملكة الصليبية أكثر أمانًا من الامارات الصليبية الشمالية التابعة لها . فقد كانت القلاع الصليبية فيما وراء نهر الأردن والتحصينات الصليبية التى شيدت على شريط ضيق حول غزة تمثل ركيزة الدفاع الأساسية عن حدود المملكة الصليبية ضد الهجمات الإسلامية . فقد كانت هاتان المنطقتان (منطقة ما وراء نهر الأردن- منطقة غزة) تتميزان باتساع الصحراء بهما الأمر الذى قلل خطر الغزوات المفاجئة ، وهو الأمر الذى سمح للحاميات الصليبية سواء التى كانت تتبع الملك الصليبى أو تتبع الأمراء الصليبيين، بأن تضطلع بمهمة الدفاع المألوف عن هذه القلاع . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الملوك الصليبيين فى بيت المقدس كانوا يتمتعون بمكانة أرقى من أى حاكم صليبى آخر فى الامارات الشمالية وأن عملية خلق دولة شبه مستقلة فى الأرض المقدسة فى هذه الظروف كانت غير عملية وغير ملائمة من الناحية النفسية.

ومهما كان السبب، فإن الهيئات الدينية العسكرية لم تستطع أن تحرز وضعًا وكيانًا مستقلاً ، ولم تستطع أيضا أن تتمتع بنفس الامتيازات التى تمتع بها البنادقة فى مدينة صور. وليس هناك ما يؤكد أن أفراد هذه الهيئات الدينية العسكرية كانوا سادة مستقلين فى أحيائهم الخاصة. ففى مدينة بيت المقدس العاصمة ، كان حى الاسبتارية الواسع نسبيا يتقاطع مع المدخل الجنوبى لكنيسة الضريح المقدس ويتقاطع تقريبًا مع منطقة المورستان فى الوقت الحاضر (المستشفى) وهى المنطقة التى أصبحت فى بداية القرن العشرين مكانا لإقامة سوق*. بيد أنه ليس هناك ثمة دليل يؤكد على أن الاسبتارية تمتعوا بمزايا وامتيازات قضائية فى الحى الخاص بهم . وقد انطبق هذا الوضع أيضًا على الداوية الذين سكنوا منطقة مسجد عمر والمسجد الأقصى . وعلى العكس ، فقد كان البطريرك اللاتينى يتمتع بحق اقامة العدالة بين السكان المقيمين فى حى البطريرك فى مدينة بيت المقدس، وفى عكا (فى المدينة القديمة) كان يوجد ثلاثة أحياء كبيرة للهيئات الدينية العسكرية الكبيرة، بالإضافة إلى أحياء فى ضاحية موزارد الجديدة . وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، أصبحت هذه الأحياء الأخيرة الواقعة فى ضاحية موزارد منغلقة بواسطة أسوار وكانت هذه الأحياء تشكل مدنًا مكتفية ذاتيًا . وهكذا يمكن

---

* هذه المنطقة كانت ضمن أملاك البطريريك البيزنطى الأرثوذكسى ، وقد نقشت حروف مثل T. ph (وهى كلمة Taphou التى تعنى على بوابة كنيسة الضريح المقدس (المؤلف) .

القول بأن سكان هذه الأحياء كانوا من أفراد الهيئات الدينية العسكرية ومن الذين ينتمون إلى هذه الهيئات الدينية إلى حد بعيد ، ولم يسمح لغيرهم أن يقطن هذه الأحياء الخاصة بهم. ولم تظهر مشكلة تتعلق بحق اقامة العدالة بين سكان هذه الأحياء، وذلك لأن هذه الهيئات الدينية العسكرية كانت تتمتع بحق اقامة العدالة المطلقة بين أعضائها (أى كان لها محاكمها الخاصة برعاياها وسكان أحيائها).

ومن ناحية أخرى ، فليس هناك مجال للشك فى أن الهيئات الدينية العسكرية كانت تتمتع بسيادة القضاء فى ممتلكاتها الريفية، ، أي كانت لها حقوق قضائية على البرجوازية التى تقطن القرى والمدن التى خضعت لسيادة هذه الهيئات الدينية العسكرية. ويمكن التثبت من هذه الحقيقة من خلال بعض الحالات القضائية فى مناطق مثل بيت جبرين أو فى أرسوف (وفى أرسوف كانت هناك سلطة قضائية بارونية) وذلك فى وقت تحول هذه المناطق لسيادة الهيئات الدينية العسكرية.

ولاشك أن اكتساب الهيئات الدينية العسكرية للضياع والأقاليم قد أفرز مشاكل عسكرية وقانونية ، فمن المعروف أنه إذا اكتسبت أية هيئة دينية عسكرية اقليما أو مقاطعة بات عليها أن تلتزم بتقديم الخدمات العسكرية المستحقة للملك الصليبى وهى الخدمات التى كان يلتزم بتقديمها أى سيد جديد بموجب النظام الاقطاعى وهذا يعنى أن هذه الهيئة الدينية العسكرية سوف تزود هذه المقاطعة أو هذا الاقليم بالفرسان الذين يمثلون هذه الهيئة الدينية العسكرية. وفى بعض الحالات كان يتم انجاز هذه الخدمة العسكرية من خلال الأفصال الوراثيين السابقين، وفى حالات أخرى ربما كانت الهيئة الدينية العسكرية تزود المقاطعة التى أصبحت بحوزتها بعدد من المحاربين الذين يمثلون هذه الهيئة . وعلى أى حال، فإن جملة أعداد الفرسان المحاربين الذين قدمتهم الهيئات الدينية العسكرية للملك الصليبى كخدمة عسكرية اقطاعية لم تتناقص، على الرغم من أن فعالية الخدمة العسكرية الاقطاعية قد فقدت أهميتها مثل أى شىء آخر.

لقد كانت الصفة القانونية لأملاك هذه الهيئات الدينية العسكرية أكثر أهمية وذات مغزى. إذ كانت السيادة التى تكتسبها أية هيئة دينية تعنى من الناحية النظرية أن هذه الهيئة قد حلت محل سلطة وسيادة السيد الاقطاعى العلمانى الأعلى لهذه المقاطعة وهو السيد الاقطاعى الذى حصل على سيادته من وكيل الملك الصليبى وأيضًا حلت هذه الهيئة الدينية العسكرية

محل هذا السيد الاقطاعى السابق فى كونها أصبحت أحد أعضاء المحكمة العليا للمملكة الصليبية. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو هل هذا الاحلال كان يدل ضمنًا على أن هذه الهيئة الدينية العسكرية قد أخذت وضعها وأصبحت سيداً اقطاعيا رسميا تابعًا للملك الصليبى؟ وإننا نعرف أن هذا الموضوع لم يكن هو القضية . فمن الناحية القانونية لم تكن الهيئات الدينية العسكرية تدخل فى علاقة تبعية اقطاعية مع الملك الصليبى. وحتى فى حالة أرسوف أعفى الاسبتارية من تقديم الخدمات والالتزامات التى كان يقدمها السيد الاقطاعى لأرسوف للملك الصليبى وهى الخدمة الشخصية Service de Corps (وهى الخدمة الشخصية التى كان على السيد الاقطاعى تقديمها للملك الصليبى) . ولايمكن التثبت من أن مقدمى هذه الهيئات الدينية العسكرية كانوا يؤودن قسم التبعية الاقطاعية عند تسلمهم لأملاكهم الاقطاعية ، بيد أنه من المحقق كانت تحدث عملية التقلد الاقطاعى وخلال هذه العملية كان متقلد الاقطاع الجديد يقدم يمين وقسم الولاء والاخلاص الاقطاعى Fealty . ولم يكن أفراد الهيئات الدينية العسكرية أفصالاً اقطاعيين تابعين للملك الصليبى بالمعنى الاصطلاحى المعروف للنظام الاقطاعى ولم يكن مقدمو هذه الهيئات الدينية العسكرية أفصالاً اقطاعيين للملك الصليبى.

وأصبح قسم ويمين الطاعة والولاء القديم الذى كان يقدمه الداوية للبطريرك اللاتينى فى بيت المقدس غير ذى فعالية بشكل مؤقت، ولم يكن هناك قسم خاص تقدمه الهيئات الدينية العسكرية للملك الصليبى. ولم توجد روابط رسمية أو شرعية تربط بين المملكة الصليبى وبين الهيئة الدينية العسكرية. ولايمكن تفسير هذا على أنه دلالة على وجود توتر فى العلاقات بين هذه الهيئات وبين الملك الصليبى. لقد ساهمت الهيئات الدينية العسكرية بشكل كبير فى الحفاظ على وجود وتطور المملكة الصليبية ؛ وكان وضعهم الفريد فقط يؤكد ويبلور احدى السمات المميزة للملكة الصليبية ، ولم يستطع الاطار الحر لهذه الهيئة وهذا التنظيم والمنشآت المتعددة أن تتكامل معًا فى هيئة واحدة.

لقد تمتع الاسبتارية والداوية بوضع مميز إذا ما قورنت بوضع هيئة فرسان التيوتون التى أنشئت فى الأراضى المقدسة (وهى هيئة فرسان القديسة مريم التيوتونية.

وترجع أولى المحاولات الباكرة لنشأة الرابطة التيوتونية داخل المجتمع الصليبى إلى فترة سابقة عن قيام المملكة الصليبية الأولى واتجاه المملكة الصليبية المؤقت جزئيا صوب الأقلية

اللغوية والثقافية والتى ربما كانت غير راغبة فى اعتناق الثقافة الفرنسية المهيمنة للغزاة الصليبيين.

والواقع أن هيئة فرسان التيوتون لم تتأسس ولم يتم الاعتراف بها كهيئة دينية عسكرية قبل الحملة الصليبية الثالثة . واستمرت هذه الهيئة الدينية العسكرية تمارس حيلة دينية ، فقد ادعت بأن لها أصلا قديمًا من خلال اتصال فرسان التيوتون بمستشفى قام الألمان بتشييده فى مدينة بيت المقدس فى أثناء النصف الأول من القرن الثانى عشر. ففى وقت مبكر من الوجود الصليبى وفى عصر الملك الصليبى بلدوين الأول (١١١٨) قام الألمان بانشاء مستشفى ودار ضيافة وكنيسة للحجاج الأوربيين من الألمان. ولم تكن مثل هذه المنشآت العرقية أمراً استثنائيا بين الصليبيين الفرنجة ، فعلى سبيل المثال، وجدت فى نفس الفترة دار ضيافة هنغارية (مجرية) فى بيت المقدس، هذا فضلاً عن وجود دور ضيافة للمسيحيين الشرقيين، حيث كانت اللغة والشعائر الدينية هى التى تحدد المؤسسة الخيرية وعملاءها.

كانت الخدمات التى تقدمها المؤسسة الجديدة وهى هيئة فرسان التيوتون تتمثل فى الترحيب العظيم بالحجاج القادمين من وسط وشرق أوربا من غير الفرنسيين ، ولم تكن العلاقات ودية بين التيوتون وبين الاسبتارية .

ومن المحتمل أن هيئة الاسبتارية قد قدمت فى البداية يد العون والمساعدة لهيئة التيوتون الجديدة، أو أن هذه الهيئة الدينية العسكرية الجديدة كانت تبحث عن مثل هذه المساعدة . ويبدو أن مثل هذا النوع من المؤسسات الفرعية قد أنشىء بناءً على الخطاب والرسالة الحقيقية التى بعث بها البابا سيلستين الثانى Celestine II إلى المملكة الصليبية فى عام ١١٤٣م . ويشير هذا الخطاب إلى محاولة الألمان لإقامة مؤسستهم لكى يؤكدوا استقلالهم الذاتى فى الأراضى المقدسة. فقد منحهم البابا حكما ذاتيًا محدداً ، وتمثل هذا الحكم الذاتى فى وجود رئيس دير للرهبان خاص بهم، داخل هيكل وبنية هذه الهيئة الدينية .

وكانت المنشأة الألمانية (هيئة التيوتون) تقع فى أحد شوارع مدينة بيت المقدس والذى يمتد من البوابة الجنوبية الغربية للمدينة من جبل صهيون إلى شارع المعبد، والذى يقع تمامًا بجوار الحى الأرمينى. وفى أثناء الفترة المملوكية أصبح هذا الحى حيًا يهوديًا يقطنه يهود المدينة . وتلقى الحفائر الأثرية التى أجريت فى عام (١٩٦٨) وسط أطلال هذا الحى الضوء على بقايا كنيسة صغيرة شيدت على النمط المعمارى المعروف باسم الرومانسك، وهى الكنيسة التى

تستطيع القول بأنها كانت كنيسة القديسة مارى الخاصة بالتيوتون. وكانت المنشأة المخصصة للحجاج الألمان فقيرة وغير ملائمة ، وذلك لأنها كانت تعتمد على الاعانات والمساعدات التى يقدمها الحجاج الألمان فقط، ولم تصبح ألمانيا مركزا للنشاط الصليبى أو الهجرة الصليبية .

ومن المستحيل القول بأن هذه المنشأة الألمانية الباكرة قد تطورت، وذلك لأن صلاح الدين الأيوبى استطاع بعد موقعة حطين أن يسترد مدينة بيت المقدس ويضع حداً لنهاية هذه المؤسسة الألمانية. وعلى أى حال ، فإن النزل المخصص للحجاج الألمان قد تأثر بالكرب والضيق الذى ألم بالمجتمع الصليبى ، هذا المجتمع الذى حاق به الخطر فى أثناء الحملة الصليبية الثالثة. وعلى الرغم من غرق الامبراطور الألمانى فردريك الأول باربا روسا أحد قادة جيوش الحملة الصليبية الثالثة فإن بعض قادة الجيش الألمانى زحفوا بقواتهم عن طريق البر بقصد الوصول إلى مدينة بيت المقدس. لقد أصبحت حاجة الحجاج الألمان إلى مستشفى أمراً ضروريًا بشكل واضح. واقتبس الصليبيون الألمان التقليد الأوربى الخاص بتشييد مستشفى الميدان ولاسيما من بريمن ولوبك Lübeck ، إذ كانوا يستخدمون الألواح الخشبية وأشرعة المراكب فى تشييد مستشفى الميدان. وبسبب شعبية الأمراء الألمان ولاسيما فردريك السوابى وأخيه الملك هنرى السادس ، فإن البابا كلمنت الثالث (١١٩١م) اعترف بهيئة الحجاج الألمان ، كما حصل الألمان التيوتون على امتيازات اضافية من البابا سيلستين الثالث Celestine (١١٩٦م). وبعد عام وفى سنة ١١٩٧، وعندما استقر عدد كبير فى الألمان فى الأرض المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام ومكثوا بها طويلاً ، لم تتحقق توقعات الملك الألمانى هنرى السادس فى تحول هذه الرابطة الألمانية الجديدة إلى هيئة دينية عسكرية . وثمة وصف رائع لهذا الحدث ورد فى الحولية التاريخية الباكرة لهيئة التيوتون وهى الحولية التى دونت بعد تأسيس هذه الهيئة ببضع سنوات، والتى عرفت باسم «قصة تأسيس هيئة فرسان التيوتون وأصولها». وكان نص ما ذكرته الحولية:

«إنه من المفيد والأجدى لكثير من الأمراء الألمان أن يستخدموا قانون مستشفى هيئة فرسان الداوية المذكور آنفًا. ولهذا الغرض اجتمع الأساقفة والأمراء والنبلاء الألمان فى مقر الداوية (فى عكا) وقد دعوا لحضور هذا المجمع المفيد بعض أساقفة وبارونات الأرض المقدسة، وقرر كل الحاضرين بالاجماع أن المستشفى سوف يتبع قانوْن الفقير والمريض الخاص بمستشفى القديس جون فى بيت المقدس (الاسبتارية) والمعمول به حتى الآن، وفيما يتعلق برجال الدين، والأخوة الآخرين فإنه من الآن فصاعداً يجب عليهم اتباع قانون هيئة الداوية ...» وبعد أن تم

التوصل إلى هذا القرار قام الأساقفة ومقدمو الداوية باشهار واظهار هذه المؤسسة وهذه الهيئة الجديدة وهذا البيت الجديد وفقًا لقانون الداوية، وعندئذ قاموا بانتخاب أحد أعضاء هذه الهيئة وهو هنرى الذى كان يعرف باسم هنرى فولبوتو Walpoto كمقدم لهيئة فرسان التيوتون... وقام مقدم الداوية بتسليم مقدم التيوتون قانون هيئة فرسان الداوية التى ستطبقه هيئة فرسان التيوتون من الآن فصاعداً.

وبحلول فبراير ١١٩٩م قام البابا انوسنت الثالث بالتصديق على تأسيس هذه الهيئة الدينية العسكرية وهى هيئة التيوتون .

ومما يذكر أن الصلة بين هيئة فرسان التيوتون وبين المنشأة الألمانية السابقة فى مدينة بيت المقدس ما تزال محل جدل ونقاش طويل . وبعد المناقشات الخلافية الطويلة والكاملة حول نشأة هيئة فرسان التيوتون فإن الباحث يستطيع أنْ يضيف حقيقة مهمة مؤداها أن هذه الهيئة الدينية العسكرية الجديدة (التيوتون) ظلت لفترة تزيد عن العشرين عامًا غير مرتبطة وليس لها صلة بالوثائق الصليبية الخاصة بمدينة بيت المقدس. وفى سنة ١٢٢٠، وبعد جيل كامل من الاعتراف بهذه الهيئة كهيئة دينية عسكرية، وجدنا اسم «مستشفى القديسة ماري التابع لهيئة التيوتون فى مدينة بيت المقدس»*. وبعد ذلك تغير الاسم إلى «مستشفى الألمان فى عكا»؛ وكذلك إلى «بيت مستشفى التيوتون» ؛ وكنيسة الألمان التى فى مدينة عكا، «بيت الألمان فى عكا»*. ومن الآن فصاعداً ، سوف لايختفى اسم مدينة بيت المقدس من وثائق هيئة التيوتون . وبحلول عام ١٢٢٩ استطاع مقدم هيئة التيوتون الجديدة وهو هيرمان فون سالزا Herman von Salza وهو أحد شخصياتهم المهمة أن يتسلم من الامبراطور الألمانى فردريك الثانى الأملاك الخاصة بالمنشأة الألمانية الباكرة فى مدينة بيت المقدس. ولقد نعمت هذه الهيئة الدينية

---

* ومن الأهمية بمكان أن اتصال هيئة التيوتون بمدينة بيت المقدس قد تأكد خارج المملكة الصليبية، وقد ظهرت هذه الاتصالات فى وثائق المملكة الصليبية بعد نشأة هذه الهيئة بجيل كامل . فقد ذكرت مدينة بيت المقدس فى الامتيازات التى منحها لهيئة التيوتون كل من البابا انوسنت الثالث فى عام ١١٩١ والبابا سيلستين الثالث فى عام ١١٩٦م. وكانت بابوية روما تشور دون أن تعرف الظروف المحلية . ولقد ظهر اسم مدينة القدس للمرة الأولى خلال حجة بيع أوتو، كونت هينبرج (١١٢٠م) . (المؤلف)

** وعلى هذا الأساس فإن ثمة افتراضات ثلاث واضحة ، وهى قوانين ثلاثة من الملوك الصليبيين وهم عمورى الأول (١١٧٣ و ١١٧٧) ، وجاى لوزجنان (١١٨٠) والقوانين التى تنسب إلى فترة ماقبل عام ١١٢٠م .

العسكرية الجديدة (التيوتون) بشرف مدينة بيت المقدس ذات الهيبة والاعتبار من خلالها اتصالها بالمنشأة الألمانية التى وجدت فى مدينة بيت المقدس منذ فترة باكرة، ومن الواضح أن تلك خطوة تجعل المرء يعجب كثيراً من سبب تأخر قيام هذه الهيئة الدينية، وبحلول عام ١٢٢٠، كانت بقايا الجيل الذى عاش بعد نكبة حطين قد اختفت ومع اختفائهم اختفت عملية التذكر بوقائع الأحداث .

وتطورت هيئة فرسان التيوتون بشكل سريع نسبيًا ، وذلك لأن هذه الهيئة الدينية العسكرية قد حصلت فى بداية القرن الثالث عشر على امتيازات دينية بشكل منتظم . وعلى أي حال ، فإن هيئة التيوتون لم تتطور بنفس المستوى الذى وصلت إليه الهيئات الدينية العسكرية التى تأسست قبلها زمنيا (الاسبتارية الداوية) . وعلى الرغم من أن الممتلكات التى اكتسبتها هيئة فرسان التيوتون خارج الأراضى المقدسة كانت متفرقة فى كل أنحاء أوربا ، فإن الاتصال الخاص بين هذه الهيئة وبين الوطن الأم (ألمانيا) قد بدأ من الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام. وقد ساعد هذا بشكل نهائى فى تشكيل هذه الهيئة الدينية باعتبارها أداة رئيسة من أدوات التوسع الألمانى وتغلغلها فى أراضى السلاف المجاورة للامبراطورية الألمانية . ويمكن اعتبار تطور هيئة فرسان التيتون إلى حد ما احدى الطموحات المستترة التى كانت ترنو إليها كل الهيئات الدينية العسكرية. فقد بدأت كل من الداوية الاسبتارية نموها وتطورها فى مؤسسات الامارات الصليبية الشمالية، وذلك عن طريق خلق كيانات شبه مستقلة فى إمارتى أنطاكية وطرابلس الصليبتيين . وإذا كانت هيئة الداوية قد عجزت فى أن تحصل على الاستقلال الذاتى فى أسبانيا ويصبحوا سادة أسبانيا المستقلين، فإن الداوية استطاعوا لفترة قصيرة أن يصبحوا كبار سادة قبرص *. وبعد أقل من جيل من الزمان وفى عام ١٢١١٠) حاول الفرسان التيوتون بعد جهد جهيد أن يحصلوا لأنفسهم على دولة مستقلة فى منطقة برزلاند فى هنغاريا Bruzerland وقد جلب عليهم هذا النجاح الأول طردهم فى عام (١٢٢٥) على يد الملك الهنغارى والارستقراطية المحلية. وبعد

---

* استطاع ريتشارد قلب الأسد الملك الانجليزى انتزاع جزيرة قبرص من يد البيزنطيين فى أثناء الحملة الصليبية الثالثة. ومنحها لهيئة فرسان الداوية الذين تخلوا عنها فى فترة متأخرة إلى حكام من أسرة آل لوزجنان (المؤلف) .

سنوات ست وفى عام (١٢٣١) استطاع كونراد من ماصوفيا Connard of masovia أن يفتح المناطق الشمالية من بولندا أمام هيئة فرسان التيوتون لكى تتأسس دولة الفرسان التيوتون على شاطىء البلطيق، هذه الدولة التى عرفت فى المستقبل باسم دولة بروسيا (النمسا) .

ولم تكن الطموحات الخاصة بالاستقلال الذاتى بالأمر الغريب على الهيئات الدينية العسكرية- ولم تكن غريبة أيضا حتى بالنسبة للمؤسسات الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى- ويمكن التثبيت من ذلك من خلال السوابق التى حدثت فى كونتية طرابلس، وامارة أنطاكية الصليبية وقبرص. وإذا كانت النتائج لهذه المحاولات قد باءت بالفشل ومخيبة للآمال فإن هذا الفشل لايمكن أن نعزوه إلى افتقار التيوتون إلى التصميم والعزم، ولكن يمكن أن نعزوه إلى الظروف السياسية . وعندما سنحت الظروف السياسية زمانا ومكانًا وأصبحت مواتية نشطت فعالية هذه الهيئات الدينية. وقد عبرت هذه الفعالية عن نفسها فى شكل تكوين دولة مستقلة. ولم تصل الداوية إلى مرحلة تكوين دولة مستقلة وذلك لأن وجودهم كان متقطعًا وفقا لاستراتيجية الملك فيليب الجميل.

وعلى الرغم من أن هيئة فرسان التيوتون كانت مستقرة وتعمل وفقًا لقوانين هيئتى الداوية والاسبتارية ، فإن تقدمها ونموها كان بطيئًا نسبيًا . وكانت ممتلكات هذه الهيئة الدينية أساسية وجوهرية . بيد أن هذه الممتلكات لم تعادل ممتلكات الهيئات الدينية العسكرية الأخرى التى تأسست منذ فترة بعيدة . وحتى القلعة التى كان يسيطر عليها التيوتون وهى قلعة مونتفورت (قلعة القورين) ذات الشكل الهندسى الفقير لايمكن مقارنتها بتلك القلاع الضخمة التى كانت تمتلكها الداوية مثل قلعة الحاج أو قلعة صفد . ومن المحتمل أن أحد الأسباب الذى أعاق عملية تطور هيئة فرسان التيوتون وتوسعها هو ضآلة وصغر حجم المملكة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى. وحتى المناطق التى احتلها الصليبيون - مثل الجليل- لم تستمر تحت سيادتهم لفترة أكثر من جيل . ولم تكن هناك فى هذه المناطق أرض دون صاحب. وكان ملاك الأراضى الذين حازوا أملاكهم منذ فترة باكرة والذين ينتمون إلى الهيئات الدينية العسكرية التى تأسست منذ فترة باكرة فى الأراضى المقدسة- قد حصلوا على مطالبهم الثابتة بشكل جيد. وما سبق هو بمثابة تفسير جزئى فقط وثمة سبب إضافى آخر يمكن أن نستخلصه من خلال القوائم المتصلة لجرد ممتلكات هذه الهيئة الدينية العسكرية. وعندما نقارن بين هيئة

التيوتون وبين هيئتى الداوية والاسبتارية ، يتضح لنا أن هيئة التيوتون كانت تتمتع بشعبية أقل من هاتين الهيئتين فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس. فقد اشترت هيئة التيوتون معظم أملاكها القروية وحصلت على القليل من هذه الممتلكات عن طريق الهبات والانعامات . وانتشرت الهبات الملكية هنا وهناك بيد أن هذه الهبات كانت تتركز بشكل أساسى فى ممتلكان المدينة. وعندما كانت هيئة التيوتون تصل إلى القرى كانت تقوم بشراء الأملاك القروية من الأراضى الزراعية. وكانت القرى الستون التى امتلكها فرسان هيئة التيوتون قد اشتروها من الملك الصليبى فى بيت المقدس. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الموارد المالية المتاحة لهيئة التيوتون لم تأتى من المملكة الصليبية نفسها ، بل كانت هذه الموارد المالية تأتى من الحجاج الألمان أو من التبرعات المالية التى كانت تجمع لصالح هذه الهيئة الدينية العسكرية من المناطق والمقاطعات الألمانية المسيحية. وكانت هذه المبالغ المالية المحصلة لصالح التيوتون كبيرة بدرجة تجعل المرء يشعر بأن هذه الهيئة الدينية العسكرية كانت تحصل على اعانات مالية كافية ، على الرغم من أن هذه المبالغ المالية كانت تحصل من منطقة محددة فى أوربا. وهى المناطق الألمانية. وتدخلت البابوية بقوة من أجل تأييد التيوتون ، وكانت البابوية أحيانا تبالغ كثيرا فى أعمال ومغامرات التيوتون ، كما فى حالة مونتفرات، وكان الأمبراطور الألمانى هنرى السادس وكذلك الامبراطور الألمانى فردريك الثانى الهوهنشتاوفن من أبرز الأباطرة الألمان الذين أسبغوا نعمهم على هيئة فرسان التيوتون ، بيد أن هذين الامبراطوريين قلما كانا يمثلان فكرة امبراطورية مسيحية. وكان تدخل الملوك الألمان ينشأ فى المقام الأول من كونهم وووضعهم كملوك وحكام ألمان يأخذون على عاتقهم مهمة الحفاظ على المصالح الألمانية، وأقر البابا عملية انتقال وراثة حكم المملكة الصليبية فى بيت المقدس إلى الامبراطور الألمانى فردريك الثانى بسبب زواجه السياسى من وريثة المملكة الصليبية*. وكان الامبراطور الألمانى فردريك الثانى الوريث الشرعى لحكم المملكة الصليبية فى بيت المقدس أكثر سخاءً على الفرسان التيوتون فى هذه المملكة، بيد أن هؤلاء الفرسان بدأوا تحت رعايته فى ممارسة مهامهم باعتبارهم المحافظين على المصالح الألمانية والمسيحية على طول شاطىء البلطيق .

---

* آل حكم مملكة بيت المقدس الصليبية إلى الامبراطور الألمانى فردريك الثانى الهوهنشاوفن بسبب زواجه من بولاند ابنة جان دى برين وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية والتى تزوجها الامبراطور سنة ١٢٢٥م (المترجم) .

وعلى الرغم من وجود منشأة التيوتون فى بروسيا منذ وقت مبكر، فإن فرسان التيوتون لم يهجروا أبداً الأراضى المقدسة فى فلسطين حتى السقوط النهائى للمملكة الصليبية ، وقد وجدنا أن هيئة فرسان التيوتون كانت تشارك فى كل الأحداث السياسية والعسكرية المهمة فى القرن الثالث عشر الميلادى. لقد كانت هيئة التيوتون أصغر وأفقر الهيئات الدينية العسكرية فى المملكة الصليبية، ولذا لم نجدها تلعب دوراً مهمًا فى تاريخ هذه المملكة الصليبية ولم تنهمك هيئة التيوتون فى السياسات المحلية، ولا فى الشئون الاستراتيجية فى الشرق العربى ، ولا فى المكائد الارستقراطية مثلما كانت تفعل الاسبتارية والداوية.

ويمكن مقارنة هذا الجيل الأخير من الهيئات الدينية العسكرية بالقوميونات الايطالية ، إلى حد أنهم حاولوا المحافظة على هويتهم الثقافية واللغوية . وهنا ينتهى كل هذا التشابه ، وذلك لأن التجار الايطاليين لم يخلقوا لأنفسهم مثلا أعلى، ولم يربطوا أنفسهم بهيئة أو منظمة تتجاوز الأهداف المعتادة للرابطة القوميونية . لقد كان فرسان التيوتون يمثلون أقلية تحاول من أجل البقاء مثل كل الهيئات الدينية الأخرى على الرغم من أنهم كانوا سيندمجون فى آلية العمل داخل نطاق الدولة والمجتمع. وكان فشلهم واخفاقهم يؤكد أن فكرة مجتمع مكون من أجناس عديدة كانت بمنأى عن أفكار وحقائق العصور الوسطى حتى ولو كان هذا المجتمع دولة استيطانية - هذه الفكرة التى كانت تمثل بالتحديد الجهد المشترك لمسيحية العصور الوسطى- ولم يستطع فرسان التيوتون أن يحددوا لأنفسهم مكانا ملائمًا فى هذا المجتمع- ولم تكن الصفة المشتركة لهذه العقيدة قوية بالقدر الذى يكفى لاحداث اندماج لهذه الجماعة (التيوتون)، وعلى الرغم من قبول المجتمع لهيئة التيوتون فى شكل مؤسسة فى المجتمع فإنها كانت تمثل عنصراً غريبًا فى المجتمع.

وعلى غرار الهيئات الدينية العسكرية الكبرى، ظهرت اتحادات أقل أهمية فى الأراضى المقدسة فى فلسطين فى أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وكانت الأهمية السياسية والعسكرية لهذه الاتحادات والجمعيات تافهًا، بيد أن أهميتهم كانت بمثابة تعبير عن نفس الدوافع الاجتماعية والروحية التى أوجدت الهيئات الدينية العسكرية الكبرى.

ومن اللافت للنظر أن من بين الهيئات الدينية العسكرية الصغرى كانت هيئة الفرسان المجذومين أو «هيئة فرسان القديس لازاريوس» ويعتقد أن هذه الهيئة الدينية العسكرية قد تأسست فى مدينة بيت المقدس فى أثناء العقد الثانى من القرن الثانى عشر ، على الرغم من

أن أول امتياز تحصل عليه هيئة القديس لازاريوس يرجع تاريخه إلى فترة ما بعد تأسيس هذه الهيئة بجيل كامل (١١٣٠-١١٤٥) *. وبدأت هذه الرابطة كمؤسسة علاجية تعالج الكثير من المتشردين الأشرار، والمجذومين . وكان مقر هذه الرابطة هو «بيت المجذومين» الواقع عند السور الشمالى لمدينة بيت المقدس، على مقربة من ممر جانبى صغير والذى عرف باسم «باب المجذومين» . ولم تعرف فترة العصور الوسطى علاجًا ناجعًا لمرضى الجذام وكانت مهمة هذه المؤسسة أن تضمن عزلة هؤلاء المرضى بعيداً عن باقى أفراد المجتمع تفاديًا للعدوى. وكانت العلامة المميزة لهذه المؤسسة عبارة عن صورة مريض بالجذام ، ملامحه مشوهه بسبب المرض، يرتدى سترة ضيقة مفتوحة ويلبس فوق رأسه قلنسوة . وكانت احدى يديه مختفية داخل السترة، واليد الأخرى تحمل مطرقة . وكلما ترك فرسان هيئة القديس لازاريوس المستشفى الخاص بالمرضى المجذومين وجب عليهم أن يحذروا الناس من الاقتراب من هؤلاء المرضى وذلك بتحريك المطارق وقرع الأجراس التى تحدث صوتا تحذيريًا .

وخلال فترة قصيرة أصبح لدى هيئة المجذومين (هيئة فرسان القديس لازاريوس) كنيسة ودير خاص بهم . وفى عام ١١٤٢ وفى منتصف القرن الأول عشر وفى عام ١١٤٧ سمعنا عن «أخوة بيت المقدس المجذومين» . وبعد فترة قصيرة وفى عام (١١٥٧) تم انتخاب مقدم لهذه الهيئة. وعندئذ أصبح لهذه الهيئة بيوت فى مدن مثل طبرية وعسقلان وأخيراً فى مدينة عكا وربما فى قيسارية (حيث امتلكت هيئة القديس لازاريوس أيضا كنيسة لورانس بالقرب من قيسارية) وفى بيروت . وبحلول منتصف القرن الثانى عشر أصبحت مؤسسة وهيئة الاستشفاء الباكرة للمجذورمين هيئة دينية عسكرية تقع على عاتقها مهمات متناسبة . وقد قيل إن مقدم هذه الهيئة كان مجذومًا مثل باقى رفاقه فى السلاح ، ومن المعروف أن الأخوة المجذومين قد اشتركوا مع فرسان الهيئات الدينية العسكرية الكبرى فى معركة حربية مشئومة فى عام ١٢٤٤ ، حيث قتل منهم عدد كبير وتكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح. وفى عكا العاصمة الجديدة للمملكة الصليبية، امتلك فرسان القديس لازاريوس برجًا عرف باسم «برج القديس لازاريوس» فى ضاحية مونتموزارو الشمالية، وقد اسندت إليهم مهمة الدفاع عن هذا البرج. وكان مقر هيئة المجذومين (فرسان القديس لازاريوس) يقع بالقرب من البحر عند القمة

* حصل فرسان القديس لازاريوس على منحة صهريج من البطريرك اللاتينى وليام (المؤلف) .

الشمالية لمدينة عكا، وعلى خريطة لمدينة عكا معاصرة لهذه الفترة يظهر دير للراهبات المجذومات يقع بالقرب من الكاتدرائية . وفى عام ١٢٥٣ قامت هيئة القديس لازاريوس بغزوة فاشلة ضد المسلمين عند رام الله وقد نجت هذه الهيئة من الدمار والابادة نتيجة وساطة قام بها الملك الفرنسى القديس لويس التاسع .

وثمة هيئات دينية عسكرية أقل أهمية وجدت فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس. وكان من بين هذه الهيئات «قليلة الأهمية» «هيئة الثالوث المقدس» و«هيئة السيف» ، «وهيئة الروح المقدس» ، «وفرسان القديس لورانس» ، التى ظهرت فى أثناء الحصار الأخير لعكا فى عام ١٢٩١ ، وقد ظهرت هذه الهيئات الدينية الصغرى على خريطة لمدينة عكا معاصرة . وربما تطورت «هيئة الروح القدس» من جمعية أخوية دينية كانت تحمل نفس الاسم إلى أن أصبحت تشكل هيئة دينية عسكرية. وكانت «هيئة القديس لورانس Lawrence» عبارة عن هيئة خاصة من الفرسان من جنوا وكانت مدينة جنوا تعتبر القديس لورانس حاميًا لها. وفى هذه الحالة يجب أن نفترض أن الدوافع اللغوية وشبه القومية لقيام مثل هذه الهيئات يشبه دوافع قيام هيئة فرسان التيوتون ، والهيئة الانجليزية المعروفة باسم هيئة القديس توماس من كانتربورى، أو هيئة القديس جيمس الأسبانية، وكانت بعض هذه الهيئات الدينية العسكرية الصغرى السابقة تمتلك مستشفيات خاصة وأيضا مقابر خاصة بها ، بيد أن هذه الهيئات الدينية العسكرية لم تحظ بالشهرة فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس . ونظرا لأن هذه الهيئات الدينية العسكرية كانت عبارة عن اتحادات وجمعيات وطنية فإن اهتمامها كان ينحصر فى المقام الأول فى المحافظة على الوجود الصليبى فى منطقة الشرق العربى ، ويقينا كانت هذه الهيئات الدينية العسكرية أكثر اهتماما بالأرض المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام وهى الأرض التى من أجلها جادوا بأنفسهم وحياتهم وثروتهم وتركوا من أجلها أوطانهم والنفس والنفيس - من الكوميونات الايطالية . وبعد أن انقضت الفورة الأولى من الحماس الصليبى المتأجج الذى شهده الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى كانت الكوميونات الايطالية (جنوا - بيزا- البندقية) تعتبر الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام بمثابة محطة تجارية حيث كانت الظروف أكثر ملاءمة للنشاط التجارى ، وكانت مراكز هذه الكوميونات وحكوماتها موجودة فى أوربا ، وكان رجال الدين الايطاليين يأتون من أوطانهم وقد اعتمدت كنائسهم فى منطقة الشرق العربى الإسلامى على الكاتدرائية الموجودة

فى المدينة الأم فى أوربا. وعلى العكس ، فقد كانت بيوتات وأبروشيات الهيئات الدينية العسكرية فى أوربا تهتم كثيرا من أجل تعزيز مراكزهم الرئيسة فى الأرض المقدسة. وليس هناك أكثر أهمية من الكلمة التى كانت تتداولها الهيئات الدينية العسكرية وهى كلمة «ما وراء البحار Outremer » والتى كانت تستخدمها هذه الهيئات الدينية العسكرية فى أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر، وكانت هذه الكلمة تشير إلى الأرض المقدسة فى منطقة الشرق العربى، وقد وردت كلمة «فيما وراء البحار» فى القوانين والنظم السائدة فى أوربا. وكانت هذه الكلمة تعنى فى نظر الأوربيين الكاثوليك مدينة بيت المقدس التى هى مركز الأيديولوجية الصليبية.

لقد كانت الهيئات الدينية العسكرية بمثابة أدوات ووسائل لنقل الموارد والعتاد العسكرى الأوربى إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى، وكانت هذه الوسائل تكملة للدور البابوى بشأن الدعوة للحروب الصليبية وهى الاعلانات البابوية المعتادة وغير المعتادة أو الاستثنائية . وكانت الحالة والوضع الدولى يتمثل فى صورة جماعة أخوية رفاق فى السلاح، وكانت هذه الهيئات أيضا تمثل الطبيعة العالمية للمسيحية . وإذا كانت المملكة اللاتينية قد نشأت بجهد أوربى مشترك وإذا كانت الحروب الصليبية المتكررة تشكل استمراراً لهذا الجهد الأوربى ، فإن هذه الهيئات الدينية العسكرية كانت تمثل مؤسسة لها أيديولوجيتها التى لاتحيد عنها أبداً.

وعلى الرغم من تمسك هذه المؤسسة (الهيئات العسكرية الدينية) بالأيديولوجية الصليبية فإنها لم تستطع أن تقاوم ضغوط كل من الزمن والمجتمع . وقام أعضاء هذه الهيئات بانجاز أعمال الخير والاحسان والمشاركة فى حروب الدفاع عن الكيان الصليبى وحمايته ، وهكذا كانت هذه الهيئات الدينية العسكرية تؤدى المهمة المزدوجة لطبقة النبلاء كما فسرت منذ وقت مبكر (وهى الحرب وأعمال الاحسان) ، بيد أن هذه المهمة لم ينجزها كل أعضاء هذه الهيئة الدينية العسكرية. وهكذا فإن الهيئات الدينية العسكرية قد تكيفت مع البنية الاجتماعية للمجتمع ومع تقسيماتها السائدة فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام. لقد ظلت مهمة العناية بالمرضى مهمة يومية يقوم بها أعضاء الجماعة الدينية العسكرية من غير النبلاء وأصبحت مهمة الحرب تقع على عاتق الفرسان من أعضاء هذه الجماعة. وكانت الحرب الوقائية والدفاعية تحظى باهتمام كل المتدينين. والواقع أن الهيئات الدينية العسكرية قد ساهمت بقدر كبير فى المجهود الحربى فى المملكة الصليبية فكانت تزود قلاعها بالمحاربين الأشاوس من أجل

حماية هذه المملكة الصليبية وحماية المسيحية، وجاء حين من الدهر لم تعد الحرب التى تشن من أجل حماية المملكة حربًا دفاعية وذلك عندما توترت حدود المملكة الصليبية وأصبحت هذه المملكة فى حالة حصار دائم من جانب المسلمين.

ومن الجدير بالذكر أن قادة الهيئات الدينية العسكرية فى الأرض المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام- مع بعض الاستثناء - لم ينتموا إلى طبقة كبار النبلاء الأوربية ، على الرغم من أنهم كانوا ينتمون إلى أصول هذه الطبقة . وقد عرفت هذه المجموعة من النبلاء من خلال معرفتنا بطبقة النبلاء الصليبية فى مرحلتها التكوينية . وكانت الهيئات الدينية العسكرية ، مثل المجتمع الصليبى فى الفترة الباكرة ، يفتح أبواب الوظائف أمام أفراد من طبقة النبلاء الأوربية، وهكذا أصبحت هذه الطبقة أداة للحراك الاجتماعى . ومن الطبعى أن هذا الحراك الاجتماعى كان مقيداً بقوانين التبتل والعزوبة وذلك لأن هذا الحراك الاجتماعى لم يخلق بيوتات نبيلة ، كما أنه لم يمهد الطريق أمام الأقارب. وكما كان الوضع عند الهيئات الدينية الديرية ، كان أى فرد يستطيع أن يرتقى اجتماعيًا فينتقل من طبقة وسطى أو من أصول اجتماعية دنيا غامضة إلى رتب قيادية لهذه الجماعة وهذه الهيئة الدينية الديرية.

ولعل من المدهش غياب طبقة النبلاء الصليبيين تمامًا من وسط الرتبه العليا للهيئات الدينية العسكرية. وهنا فى المملكة الصليبية كانت الهيئات الدينية العسكرية مؤسسات غنية ومهمة تطبق مثال الفروسية هذا المثال الذى سوف يجذب إليه طبقة النبلاء المحليين. وعلاوة على ذلك فإن طبقة النبلاء المحليين لم تصل إلى الرتب العليا* للهيئات الدينية العسكرية . ولذا يجب أن نقرر بأن الارستقراطية الوطنية كانت تعتبر الهيئات الدينية العسكرية بمثابة عنصر أجنبى غريب. وقد كانت شهرة وقوة وقوانين الفروسية لهذه الهيئات الدينية العسكرية كافية بالقدر الذى يحفز عدداً كبيراً من النبلاء المحليين للانخراط فى صفوفها والالتحاق بعضويتها ، بيد أن هذه العوامل السابقة التى بهرت النبلاء المحليين لم تكن قوية بالقدر الذى تجعلهم يلتحقون بعضوية هذه الهيئات الدينية العسكرية بصدق وإخلاص، وذلك لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أهل مهنة واحدة ظهرت لتعمل كمجموعة حاكمة.

وكانت احدى نتائج هذه الظاهرة هو أن هذه الهيئات الدينية العسكرية لم تلعب دوراً مؤثرا فى السياسات المحلية – مع استثناء واحد- وهو مقدم الداوية جيرارد دى ريدفورت الذى كان

* وكان الاستثناء الوحيد هو مقدم الداوية فيليب ميللى Philiph de Milly (١١٦٩) ومقدم الاسبتارية جاريير من نابلسى (١١٩٠) وتجدر الاشارة إلى أسرة ميللى أيضا كما تأتى من نابلس (المؤلف) .

يحمل مشاعر الكراهية والحقد ضد ريموند أمير طرابلس والذى لعب دوراً بارزا عشية موقعة حطين الشهيرة. وقد تركزت اهتمامات هذه الهيئات الدينية العسكرية فى السياسات الدولية، حيث كانوا يمثلون السياسات الشرقية المختلفة والمعارضة ، وكانت الهيئات الدينية العسكرية تقوم بدور الوسطاء فى السياسات المحلية دون المشاركة الفعلية فى هذه السياسات. والواقع أن عزلتهم وانعزالهم قد جلب عليهم سخط ومعارضة مستترة من جانب الارستقراطية المحلية. وظل أفراد هذه الطبقة الحاكمة من النبلاء المحليين والتى تفتقر إلى أواصر العلاقات الأسرية - حيث كانت هذه العلاقات وأهميتها الاقطاعية تمثل احدى عوامل القوة والسلطة الرئيسة فى الدولة والمجتمع - خارج نطاق الرباط الاجتماعى المحكم الذى كان يميز طبقة النبلاء الصليبيين فى المملكة اللاتينية .

الفصل الخامس عشر

الحرب والتحصينات الصليبية

الواقع أنه خلال فترة الثلاثة آلاف عام من تاريخ فلسطين وحتى قيام دولة اسرائيل فى العصر الحديث لم تشهد هذه الفترة التاريخية الطويلة من تاريخ فلسطين فترة زمنية تطورت فيها عملية بناء المنشآت والتحصينات العسكرية مثل فترة الوجود الصليبى فى هذه المنطقة التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان . فقد اعتمدت المؤسسة العسكرية الصليبية على دعامتين أساسيتين هما: التحصينات والقلاع ثم قوات الجيش . إذ كانت التحصينات والقلاع تمثل العنصر الاستراتيجى للدفاع والحكم، فى حين كان الجيش يمثل عنصر التحرك التكتيكى والتخطيط العسكرى من أجل القيام بعملية الغزو والتوسع الصليبى فى المنطقة العربية. ومن المحتمل أن العمارة والمنشآت العسكرية الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى قد تأثرت فى شكلها وتصميمها بالأصل الأوربى أى كانت ذات سمة أوربية . لقد كان قيام الصليبيين بتشييد تحصينات عسكرية وقلاع فى مملكة يحاصرها الأعداء المحليين من كل جانب أمراً مهما . ولاشك أن الصليبيين كانوا على استعداد للتعلم من البيزنطيين والمسلمين على حد سواء فى مجال فنون العمارة العسكرية .

وتجدر الاشارة إلى أننا لانستطيع أن ننظر إلى التحصينات الصليبية كفرع فقط من فروع العمارة ، ولايمكن اعتبارها ذات سمة عسكرية فحسب . وكانت طبيعة السيادة الصليبية تعتمد فى المقام الأول على الوظائف التى تؤديها تحصيناتهم العسكرية بشكل أكثر من دور قوتهم العسكرية. ومنذ بداية الوجود الصليبى، لم يقتصر دور القلاع التى شيدها الصليبيون فى منطقة الشرق العربى على حماية حدود المملكة اللاتينية فحسب ، بل كانت هذه القلاع أيضا بمثابة مراكز للسيادة الصليبية حيث حكم وادارة قطر تم غزوه وقهره على أيديهم. وكان مثل هذا يتفق تماما مع التقليد الأوربى عشية الحروب الصليبية حيث كانت القلاع فى أوربا مراكز للحكم والادارة . فقد أصبحت القلاع فى أوربا مراكز إدارية ولاسيما خلال فترة الفوضى والاضطراب التى عمت المجتمع الأوربى فى أعقاب سقوط الإمبراطورية الكارولنجية .

وعلى أية حال ، فإن وضع القلاع الصليبية وأماكن تشييدها فى إطار أغراض الدفاع والحكم والادارة لم يتقرر أو يتحدد من خلال انهيار حكومة مركزية كالذى حدث فى أوربا بعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية وإنما توقف وضع هذه القلاع على عاملين اثنين : أولهما الحرب الفعلية التى قدر للمملكة الصليبية أن تخوضها باستمرار والتى فرضتها ظروف وجودها ، وثانيهما الحاجة من أجل بسط السيادة الصليبية على سكان فى حالة عداء دائم ضد الصليبيين، وعندما أخفقت مؤسسة الحكم الصليبية فى اكتساب شعبية سكان هذه المناطق التى خضعت لسيادتها أصبح الحكام الصليبيين بمثابة أقلية حاكمة أصلية فى نظر هؤلاء السكان المحليين ، وأصبحت القلعة رمزا واقعيا للوجود والحكم الصليبى. وعندما نبحث فى مسألة تحصينات المملكة الصليبية التى كانت تعانى الندرة السكانية ونقص القوة الديموغرافية، فإنه من الضرورى القول إن هذه الدفاعات لم تقتصر على الحصون أو القلاع الحقيقية ، بل كانت هذه الدفاعات أيضا تمتد لتشمل المدن، والقرى، وحتى الكنائس والأديرة . ففى الوقت الذى كانت فيه الكنائس والأديرة الأوربية ذات الطراز الرومانسك منتشرة ومتناثرة وحصونها التى كانت تتميز بالأناقة والاشراف ، فإن المبانى الدينية الصليبية هى الأخرى- حتى التى كانت داخل المدن- قد اتبعت الطراز الرومانسك الأوربى بشكل كبير وهو الطراز المعمارى الذى يرجع إلى الفترة الباكرة من تاريخ أوربا. وقام الصليبيون بتشييد حصن خارج المنطقة المأهولة بالسكان .

لقد كان الأمن العسكرى هو الباعث الموجه لحياة الصليبيين فيما وراء البحار (فلسطين وبلاد الشام) والضمان الوحيد لاستمرارية وجودهم. فمنذ البداية ظل الصليبيون يمثلون أقلية حاكمة وظلوا كذلك طوال فترة وجودهم فى المنطقة والتى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان. وهكذا بات على المملكة الصليبية فى بيت المقدس أن تركز جهودها الكبرى من أجل الحفاظ على أمن الصليبيين. وكان نمط الاستيطان الصليبى يمثل احدى ضرورات الأمن. وكما تفعل الأقليات دائما ، فإن الصليبيين كانوا أكثر ميلا إلى التركيز والاقامة فى أماكن قليلة . وقد ساهم هذا فى تقصير خطوطهم الدفاعية ونشر قواتهم العسكرية بأعداد كبيرة . وهكذا عاش السكان الصليبيون الذين كانوا يمثلون أقلية فى مدن وقلاع قوية محصنة وحتى القرى. التى سكنوها فى المناطق الريفية كانت محصنة أيضا .

وفى أثناء الغزو الصليبى، كان يوجد فى فلسطين بعض المدن المسورة، وكانت معظم هذه المدن المسورة تطل على شاطىء البحر ، وقد وجد عدد قليل جداً من القلاع فى المناطق الداخلية. لقد استخدم الصليبيون كل التسهيلات المتاحة والموجودة . بيد أنه استجابة لمتطلباتهم واحتياجاتهم الخاصة قاموا بمهمة شاقة وخطيرة من أجل جعل مملكتهم حصينة ومنيعة، ففى مملكة كانت تعانى من ندرة ونقص فى القوة البشرية الضرورية لضمان وجودها كانت الأسوار الحجرية تلعب دورا مهما فى عملية الدفاع الشاقة وأصبحت هذه الأسوار المنيعة تحل محل المحاربين فى عملية الدفاع هذه فقد كان الصليبيون فى. فلسطين يحصون مائة منطقة سكنية من كل مائة وعشرين منطقة.

أ- التحصينات والدفاعات الصليبية

الواقع أن التحصينات الصليبية لم تشيد وفقًا لتخطيط معمارى رئيسى سابق، ولكن تصميم هذه التحصينات قد تطور تدريجيًا لكى يؤدى وظيفة التوسع قبل أن يبدأ الصليبيون فى تأمين حدود مملكتهم . وقد شيدت القلاع الصليبية وتم تحصين القرى والمدن التى استولى عليها الصليبيون استجابة للتحديات التى كانت تواجههم بشكل مباشر . وهكذا قام الصليبيون بتشييد القلاع وتحصين المستوطنات فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى حول قاعدة عسقلان المصرية المتقدمة بطوق من القلاع والحصون بهدف ضمان حياد هذه القاعدة. واستطاعت هذه التحصينات الصليبية عند قاعدة عسقلان أن تمنع المصريين من القيام بغزو المناطق الصليبية الممتدة من حبرون خلال مدينة بيت لحم، وبيت المقدس، وقلعة تورون ، إلى رام الله ويافا. فقد كانت هناك ثلاث قلاع بارزة للعيان على امتداد الطريق من الشرق إلى الشمال وهذه القلاع هى قلعة ابلين Ibelin (قلعة ينبه القديمة Ancient Yabneh) وقلعة تل الصافى (التل الصافى Blanchegrad) وبيت جبرين (جبيل Gibelin) ، وقد استطاع الصليبيون احتلال مدينة غزة القديمة وأعادوا تحصينها من جديد وذلك فى عام (١١٤٩-١١٥٠م) واستطاعوا أن يفصلوا مدينة عسقلان عن الطرق البرية التى تصلها بمصر. وثمة وضع مشابه فى الجزء الشمالى من المملكة الصليبية حيث وجدت مجموعة من الحصون حول مدينة صور التى كانت بيد المسلمين قبل سقوطها فى يد الصليبيين عام ١١٢٤ . وثمة مجموعة من القلاع الصغيرة شيدها الصليبيون مثل قلعة هونين (١١٠٦-١١٠٧) ، وقلعة

تبنين (تورون)*، وقلعة أخزيف Akhziv (١١٢٣وهى قلعة اعبرت Casal Imbert)، وكانت هذه القلاع تحيط بمدينة صور من ناحيتى الشرق والجنوب .

وثمة قلاع أخرى كانت تميز ايقاع التوسع والحكم الصليبى فى المناطق العربية التى احتلها الصليبيون حديثًا. وهكذا فإن تشييد الصليبيين لقلعتين كبيرتين مثل قلعة مونتريال (١١١٥ وهى قلعة الشوبك) . وقلعة الكرك (١١٤٢ - وهى قبر معان التوراتية)، على قطاع دائرة من طريق الحج (درب الحج المؤدى إلى مكة والمدينة) يوضح بجلاء ويميز مدى التغلغل الصليبى فى معان الواقعة على الطريق المؤدى إلى خليج العقبة على البحر الأحمر (وتم احتلال الصليبيين للعقبة فى عام ١١١٦) وهى المنطقة الشمالية القريبة من بلاد الحجاز. واستطاعت هذه القلاع القوية الثلاث التى شيدت فى أماكن مفتوحة واسعة تقريبًا أن تسيطر على طريق مرور القوافل التجارية التى كانت تحتاج دائما إلى أماكن وطرق يتوافر فيها الماء لكل من التجار والدواب، والحماية من اعتداءات البدو على هذه القوافل ، وإن كانت هذه الاغارات أقل فاعلية. وعلى أية حال فإن الصليبيين قلما كانوا يستطيعون منع غزو أى جيش اسلامى منظم سواء كان الجيش المصرى أو جيش دمشق. ولكى يعزز الصليبيون حكمهم وسيطرتهم على المناطق العربية فإنهم واصلوا عملية بناء عدد من القلاع الصغيرة على امتداد الطريق الرئيسى العام . وأخيراً امتدت سبع قلاع من الشمال إلى الجنوب، وهى قلعة الكرك التى كانت تقع على ربوة تعلو سهل مرتفع ، هذا السهل الذى كانت اشاراته الضوئية ترى فى مدينة بيت المقدس، وقلعة الطفيلة Tafilé التى تبعد عن الكرك جهة الجنوب بخمسة وعشرين ميلا، ويتلوها جنوبيا قلعة الشوبك التى تبعد عن الطفيلة باثنين وعشرين ميلا، وإلى الجنوب من قلعة الشوبك كانت توجد قلعة هرمز Hurmuz التى تبعد عن الشوبك بخمسة عشر ميلا، ثم قلعة سيلا Sela، وقلعة النبى موسى (أو قلعة القويرة) التى تبعد عن العقبة بستين ميلا. وعلى الرغم من أن هذه المنطقة التى شيدت بها القلاع الصليبية كانت واسعة ويمكن الدفاع عنها وادارتها بشكل فعال ، فإن قلة عدد سكان هذه المنطقة ونقص موارد الماء بها قد أدى إلى تحرك قوات العدو بها. وهكذا كانت التحصينات الحدودية الصليبية تمثل عائقًا أمام تقدم قوات أعداء المملكة اللاتينية وخطر يتهدده.

---

* يرى المؤرخ ابن الفرات أن تاريخ بناء وتشييد قلعتى هونين وتبنين هو أعوام (١١٠٦-١١٠٧)، وهذه الحسابات التاريخية تتفق جيداً مع التحصينات التى تنسب إلى هوف سانت أومير ، أمير اقليم الجليل الصليبى (المؤلف) .

وبالنظر إلى الجهد الملموس والمقصود من أجل تحقيق تحصين الجزء الجنوبى الشرقى للمملكة الصليبية ، فإن المرء يفترض أن ثمة تطور قد حدث فى بناء هذه التحصينات الصليبية فى الجزء الشمالى من المملكة. فقد شيد الصليبيون قلاعا فى الشمال وذلك لأن المستقر الرئيسى للقوى الإسلامية كان يوجد فى دمشق القريبة من الحدود الشمالية للمملكة اللاتينية، فى حين كان الجزء الجنوبى الشرقى للمملكة الصليبية بمنأى عن الخطر الإسلامى. إذ كانت مصر العدو الرئيسى للصليبيين تبعد عن الحدود الصليبية مقدار مسيرة أسبوعين عبر صحراء شبه جزيرة سيناء ومعان. ومن المدهش أن المنطقة الجنوبية لروافد نهر الأردن حتى القمة الجنوبية للبحر الميت كانت خاضعة تماما للإدارة المدنية. وهذا مثال للعلاقة الواضحة والمباشرة بين السياسات الصليبية وشئون الدفاع عن المملكة الصليبية . وقد شهدت الفترة الباكرة من المملكة الصليبية غارات صليبية متتالية ومستمرة على حدو د دمشق- وقد توصل الطرفان الإسلامى والصليبى منذ عام (١١٠٨) إلى عقد معاهدة شهيرة بينهما، أسفرت عن وجود نوع من السيادة المشتركة بينهما لهذه المنطقة وعرفت هذه المنطقة باسم أرض المقاسمات*. وعلى الرغم من تعرض هذه المعاهدة للانتهاك من جانب الطرفين الإسلامى والصليبى على حد سواء، فإن هذا الاتفاق الإسلامى الصليبى بشأن السيادة المشتركة- والذى لايمكن تصديق ما ورد بها من شروط- ظلت سارية المفعول ومعمولا بها مدة أجيال ثلاثة ، حتى عشية موقعة حطين الشهيرة فى عام ١١٨٧ . ووفقا لذلك، لم يحاول أى طرف من طرفى المعاهدة الإسلامى والصليبى أن يشيد تحصينات فى أراضى ومناطق المقاسمات التى تخضع لسيطرتهما المشتركة. وقد حاول الصليبيون بالحيلة والخديعة التنصل من المعاهدة التى عقدوها مع حكام دمشق المسلمين وذلك بتشجيعهم لفكرة انشاء امارات إسلامية فى بصرى وصلخد الواقعة شرق روافد نهر اليرموك ، وذلك لكى تكون بمثابة دويلات وامارات حاجزة على الجانب الجنوبى الشرقى من

---

* أراضى المقاسمات :

كانت هذه الأراضى تقع على الحدود بين مناطق السيادة الإسلامية ومناطق السيادة الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين وكانت هذه الأراضى تخضع للسيادة المشتركة الإسلامية والصليبية، وقد نظمت المعاهدات التى عقدت بين الطرفين الإسلامى والصليبى كيفية استثمار هذه الأرض وتوزيع عائدها ، بحيث كانت السلطات الإسلامية تحصل على ثلث ايراد هذه الأراضى وتحصل السلطات الصليبية على الثلث الثانى، فى حين يحصل الفلاحون الذين يفلحون هذه الأرض على الثلث الأخير من الانتاج (المترجم) .

دمشق . بيد أن هذا المشروع الصليبى الذى خطط له الصليبيون فى عام ١١٤٧ قد باء بالفشل. وثمة محاولات فاترة قام بها الصليبيون من أجل بسط سيادتهم على هذه المنطقة عن طريق انشاء مواقع متقدمة فى أماكن استراتيجية وأخفقت كل هذه المحاولات تمامًا . وهكذا كانت درعا الواقعة على نهر اليرموك خاضعة للسيطرة الصليبية بعض الوقت، وعلى أية حال، فقد استمرت السيادة الصليبية فى هذه المنطقة فترة قصيرة (١١١٨-١١٢٩)، ولم يترك الصليبيون فى هذه المدينة (درعا) سوى الاسم الصليبى لها وهو مدينة برنارد الأتامبى Cite Bernard d'Etampes ، تخليدا لذكرى الحكم الصليبى القصير لحاكم من مواطنى منطقة اتامب Etampes القريبة من باريس . وفى بعض الأحيان بسط الصليبيون سيادتهم على مدينة جرش Jerash (والاسم القديم لها هو جيراسا Gerasa) فى جيليد Gilead (وهى منطقة جبل عوف باللغة العربية) والتى احتلها الصليبيون فى عام ١١١٩ . وتشير احدى الحوليات التاريخية الصليبية إلى أن هذا المكان (جرش) قد ناله التخريب والدمار بعد الغزو الصليبى وذلك لأن الصليبيين كانوا يفتقرون إلى القوة البشرية اللازمة للاستيلاء على هذه المنطقة النائية عن عاصمة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس، وكان تحرك الصليبيين من مراكزهم البعيدة عن هذه المنطقة أمراً غير ذى جدوى . لقد كان الضعف الصليبى المزمن يتمثل فى الافتقار إلى القوة البشرية إذ كانت تعانى من قلة عدد السكان، ويتبلور هذا النقص الذى كانت تعانى منه المملكة اللاتينية فى ضوء حقيقة أن عدداً من الحصون التى احتلوها أو شيدوها فى هذه المنطقة لم تظل تحت سيطرتهم مدة كبيرة.

كانت مدينة بانياس المحصنة تمثل حصنًا صليبيًا رئيسيا على الحدود مع دمشق ، ونظرا لوفرة الماء بمدينة بانياس الذى يأتى إليها من روافد نهر الأردن، فإنها سيطرت على الطريق الممتد من دمشق على الجانب الشرقى والجنوبى والذى يصل إلى جبل حرمون *. وعلى امتداد طويل جهة الجنوب كانت توجد قلعة صليبية، وهى قلعة بلدوين، القريبة من قرية العال، وقد استمرت هذه القلعة اسمها الغربى من اسم مؤسسها الصليبى. وكانت هذه القلعة تقع على طريق الغزو المعتاد الممتد من دمشق . وفى العادة كانت القوات الصليبية تتركز جنوب دمشق

---

* وعلى سبيل المثال أيضا ، فإنه فى يونية عام ١١٨٧، وقبل موقعة حطين كانت الجيوش الصليبية تتمركز فى هذا المكان . وبشكل مشابه، فإن الحملة الصليبية الخامسة فى عام ١٢١٧ قد عبرت نهر الأردن، وواصلت سيرها عبر فيق Fiq وخيصفين Khisfin (المؤلف) .

على روافد رأس الماء ثم تواصل زحفها صوب خيصفين Khisfin وفيق Fiq على سهل الجولان المرتفع (أرض السواد) ووادى البطيحة على الشاطىء الشرقى لبحيرة طبرية *. وثمة مكان آخر تجدر الاشارة إليه هنا وهو حصن حابس جلداق القوى والمنيع القريب من نهر اليرموك وسهل الميدان ذات الأهمية التجارية (وهو القريب من موتزارب) . ولم يختلف مصير هذه التحصينات والقلاع الصليبية عن مصير التحصينات الأخرى فى هذه المنطقة [1].

وتنقل لنا احدى خرائط المملكة الصليبية انطباعًا بأن القلاع العشر** الممتدة من جبل حرمون حتى العقبة قد قامت بمهمة الدفاع الخارجى لحدود المملكة الصليبية . وكما أسلفنا القول، فإن تخطيط التحصينات الصليبية عمومًا لم يتوقف على ظروف سياسية محددة . وعلاوة على ذلك فإنه لايجب أن نبالغ فى الأهمية الحربية لهذه التحصينات الصليبية فى عصر الفروسية المتحركة.

وكانت القلاع والحصون الصليبية الواقعة على الطريق الرئيسى لمنطقة ما وراء نهر الأردن تقع على خط يوازى ذلك الخط الذى يفصل الصحراء عن الأراضى المنزرعة الواقعة على نهر الأردن والبحر الميت والصحراء الجنوبية ، المعروفة باسم صحراء التبراء الكبرى. وكان هذا الخط

١- قام الصليبيون باحتلال هذه المنطقة مكان هذه القلاع خلال العشر سنوات الأولى من الوجود الصليبى فى المنطقة العربية . وفى عام ١١١١ قام حكام دمشق باسترداد هذه المنطقة ، بيد أن الصليبيين احتلوا هذا المكان فى عام١١١٨ . وظلت تحت السيطرة الصليبية حتى عام ١١٨٢ ، حيث استطاع فاروخ شاه بعد ذلك احتلال هذه المنطقة . ولكن فى نهاية عام ١١٨٢ أعاد الصليبيون احتلالها ، ومن المحتمل أن الصليبيين ظلوا يحتلون هذا المكان حتى هزيمتهم فى عام ١١٨٧م (المؤلف) .

* تسلم الصليبيون مدينة بانياس من زعيم طائفة الاسماعيلية فى عام ١٢٢٩ ، مقابل تعهد الصليبيين بحماية طائفة الاسماعيلية (الحشاشين) من حكام دمشق المسلمين. وفى عام ١١٣٢ سقطت قلعة بانياس فى يد حكام دمشق ، بيد أنه فى عام ١١٤٠ تسلم الصليبيون هذه القلعة مرة أخرى بعد تحالفهم الجديد مع حاكم دمشق معين الدين أنر، وذلك مقابل تقديمهم المساعدة له فى مواجهة عماد الدين زنكى . وأخيراً سقطت المدينة والقلعة فى عام ١١٦٤ فى يد نور الدين محمود. وكانت قلعة الصبيبة (قلعة النمرود) تعتبر فى العادة بمثابة قلعة بانياس ، ولدينا تحفظات خطيرة حول علاقات هذه القلعة مع الصليبيين (المؤلف) .

** وكانت القلاع العشر هى (قلعة الشوبك ، والطفيلة Tafilé والكرك ، والسلط، الشقيف Blevoir، وحابس جلداق ، وقصر بلدوين ، وقلعة الصبيبة ، وقلعة صفد، وقلعة تورون) (المترجم) .

بمثابة خط دفاع ثان، وكان باستطاعة من يعبر نهر الأردن، أن يصل إلى أماكن عديدة ، بيد أن مخاضات النهر Fords التى تتصل بطرق المرور من الشرق إلى الغرب كانت ذات أهمية استراتيجية . إذ كانت توجد ثلاث مخاضات رئيسة على نهر الأردن فى جهة الشمال. وكانت جيوش الغزو تستطيع العبور بالقرب من روافد وينابيع نهر الأردن حول بانياس ، عند مدخل وادى الطعيم وعلى طول الممر الأكثر صعوبة فوق نهر الليطانى. ومرة أخرى جهة الجنوب كانت توجد مخاضة تاريخية لعبور نهر الأردن وكانت هذه المخاضة توجد جنوب بحيرة الجولة عن طريق جسر نبات يعقوب . وعندئذ كانت الجيوش تصل فى زحفها إلى المخاضة عند المنفذ الجنوبى لبحيرة طبرية عند سن النبرة والتى يتفرع منها الطرق المؤدية إلى طبرية والناصرة. ومن المخاضات الأقل أهمية الآن هى المخاضات التى تميزها جسور المعجمى Ma'agami وجسر الملك حسين، وداميا Damiya ، ومخاضة القديس يوحنا الضحلة وكانت مخاضة القديس يوحنا فى نهر الأردن مكان تعميد السيح المسيح عليه السلام، تحميها قلعة صغيرة لفرسان الداوية ، وكانت مخاضة جسر نبات يعقوب تحميها منذ وقت متأخر من عام ١١٧٨ قلعة العطرة Al. Atra المحصنة ، والتابعة للداوية أيضا. وكانت المخاضات الأخرى غير محصنة وعلى أية حال ، فإن مجموعة القلاع الصليبية القوية التى شيدت فى مناطق استراتيجية ممتازة قد امتدت على الشاطىء الغربى لنهر الأردن على طول حافة جبل الجليل .

ومما يذكر أن قلعة بانياس كانت تحمى الطرق الشمالية للمملكة الصليبية وكان استيلاء المسلمين عليها فى عام ١١٦٤ يمثل لطمة قاسية لأمن المملكة الصليبية . وكانت هونين تعترض أودية وادى الطعيم ومرج عيون فى الجنوب . وكانت هذه المنطقة تحميها قلعة الشقيف الرائعة الواقعة عند الانحناء الغربى لنهر الليطانى. وكانت مخاضة سن النبرة المهمة للعبور، حيث عانى عندها الصليبيون هزيمة منكرة فى عام ١١١٣ على يد القوات الإسلامية، تخضع لحماية قلعة كوكب الهوا Blevoir التابعة لهيئة فرسان الاسبتارية. وكانت قلعة كوكب الهوا Blevoir تكشف كل وادى نهر الأردن الممتد من القمة الجنوبية لبحيرة طبرية حتى مدخل وادى بيسان، ولم تحظ أية قلعة أخرى بموقع ممتاز أفضل منها.

لقد كانت الدفاعات والتحقيقات الصليبية فى منطقة وسط وجنوب نهر الأردن ضعيفة . وكان الخطر المحدق بالصليبيين فى هذه المناطق بسيطًا نسبيًا ، وذلك لأن النهر كان يواجه سهل الجليل، وهى المنطقة التى كان يقطنها عدد قليل جداً من السكان . وكما ذكرنا آنفًا ، فقد

خربت مدينة جرش على يد الصليبيين فى عام (١١١٩) . وحتى تشييد عجلون على يد أحد أمراء صلاح الدين فى عام ١١٨٤، لم يكن هناك موطىء قدم للأعداء المحليين أو لقوات اسلامية من دمشق البعيدة عن هذه المدينة (جرش) . وعلاوة على ذلك، فإن المنطقة المحيطة ببيسان كانت منطقة مستنقعات ، وقلما كانت قوات الغزو تستخدمها . إذ كانت القوات العسكرية تسلك الطريق إلى وادى جزريل ذات الأهمية العسكرية فقط للمملكة الصليبية ، وهو الطريق الذى يلتقى مع الطرق الممتدة من طبرية والجليل، بالقرب من روافد وينابيع عين جالوت . وعلى أية حال، فإنه قد شيدت قلعة صغيرة عند يسان ، وكانت هذه القلعة مكانا للايواء أفضل من كونها قلعة ملائمة للأغراض العسكرية.

وكانت المخاضات الأخرى لنهر الأردن، وهى مخاضة جسر الدامية ومخاضة القديس يوحنا أقل أهمية من الناحية الاستراتيجية من بيسان . ولم تمثل المنطقة عبر الأردن وهى منطقة جيلعان Gilead وبلقا Balga أى تهديد عسكرى ضد المملكة الصليبية . إذ كانت هذه المنطقة تقع على بعد ١٨٠ ميلا من دمشق ولذا لم تكن من الناحية العملية منطقة لحشد القوات العسكرية من أجل الغزو . وكانت توجد الكثير من الأديرة فى أريحا وحولها - وبشكل أساسى الأديرة البيزنطية الأرثوذكسية . ومن الصعب بمكان معرفة مؤسس هذه الأديرة . وعلى الرغم من أن منطقة أريحا كانت محصنة من أجل مقاومة اعتداءات اللصوص والبدو فإن هذه المدينة المحصنة لم تستطع أن تعوق هجوم الجيش الإسلامى . وفى الجنوب ، كانت صحراء سيناء وامتدادها الشمالى الشرقى - خالية لمدة أربعة قرون منذ الفتح الإسلامى لها- بمثابة حصن ممتاز فى مواجهة غزو الجيش المصرى.

لقد كانت مجموعة القلاع الصليبية المنتشرة شرق وغرب نهر الأردن على شكل رقعة الشطرنج للدفاع عن الحدود يظهر على هذه الرقعة مناطق داخلية محصنة بشكل قوى. وتتجلى العبقرية الصليبية بشكل كبير فى حسن اختيارهم للمواقع الاستراتيجية لبناء قلاعهم وحصونهم . ومما يذكر أن هذه المناطق لم تكن محصنة فى أثناء الغزو الصليبى، وقد تركت لنا فترة الثلاثة آلاف عمر التى انقضت منذ تأسيس مملكة اسرائيل فى هذه المناطق آثاراً ملموسة. فقد كانت التحصينات العربية فى هذه المناطق تتركز بشكل رئيسى فى المدن الساحلية ، حيث استطاع الصليبيون الاستيلاء على هذه التحصينات سواء التى شيدها العرب أو التى استردوها من البيزنطيين بعد فتحهم لهذه المناطق. وكان الوضع مختلفًا بشكل عام فى المناطق

الداخلية إذ كانت هذه المناطق غير محصنة وكذلك المناطق الواقعة على الحدود الشرقية للمملكة الصليبية لم تكن محصنة أيضا. وقد شيد الصليبيون تحصيناتهم وقلاعهم على نمط التحصينات البيزنطية وتحصينات بنى اسرائيل القديمة، وكان الغرض الأساسى من انشاء التحصينات القلاع الصليبية فى المناطق الداخلية هو تدعيم الحكم والأمن فى هذه المناطق، وعندما تنامى الخطر الإسلامى ضد الصليبيين أصبحت هذه التحصينات والقلاع بمثابة محطات ومواقع عسكرية متقدمة للصليبيين على الحدود. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عدداً كبيرا من نقاط المراقبة العسكرية المحصنة قد تجمع حول المدن الساحلية المهمة والمحصنة جيداً. واستخدم الصليبيون هذه النقاط كملاجىء للسكان المحليين يلجأون إليها وقت الهجوم المفاجىء للعدو، كما استخدمت هذه النقاط أيضا كمحطات انذار عند اقتراب قوات العدو .

والحقيقة أن المدن الصليبية الشمالية لم تتمتع بمثل هذه التحصينات والدفاعات السابقة. إذ كانت مدنا مثل بيروت وصيدا تصعب عملية الهجوم عليها من جهة دمشق، وكانت كونتية طرابلس الصليبية تستطيع الدفاع عن الحدود الشمالية لمدينتى بيروت وصيدا. وكانت هناك قلاع وتحصينات صليبية على مقربة من هذه المدن الصليبية الشمالية ذكرت نادراً وأهمها: دير القلعة فى جبال الغرب شرق بيروت (وهى المنطقة التى كان يسكنها المسلمون الدروز الذين اعترفوا بالسيادة الصليبية على هذه المناطق ومقابل هذا الاعتراف منحتهم السلطات الصليبية حق الحكم الذاتى فى مناطقهم)، وقلعة صغيرة ، تعرف باسم قلعة أحمد فى الجنوب الشرقى من دير القلعة على نهر الدامور ، ومرة ثانية كانت توجد قلعة أبو الحازم الصغيرة إلى الجنوب من مدينة صيدا وكان الصليبيون يقدمون بطقس التعميد عندها. ومن المحتمل أن هذه الأماكن كانت محصنة خلال السيادة الإسلامية، إذ كان المسلمون يستخدمون هذه القلاع لنفس الأغراض التى كان الصليبيون يستخدمونها من أجلها .

ومن أهم القلاع وأكثرها لفتًا للنظر، تأتى قلعة الكهف الحجرى التى تأسست عند تورون النحا Tirun el Niha وهى القلعة التى أطلق عليها الصليبيون اسم كهف تورون ، والتى تقع فى منتصف الطريق بين صيدا ونهر الليطانى. فقد كان يصعب دخولها من احدى ثنيات الجبل، وكان جنود الدورية فى هذه القلعة باستطاعتهم مراقبة أو وضع كمائن فى أماكن مناسبة ، من أجل القضاء وصد أى هجوم اسلامى ضد صيدا . لقد كانت قلعة تورون صغيرة ومزودة بحامية عسكرية محددة ، يصعب دخولها أو الخروج منها.

وهكذا كانت هناك تحصينات صليبية كثيرة فى المناطق الجنوبية المحتلة والآهلة بالسكان، حيث كانت هناك شبكة طرق جيدة ساهمت بقدر كبير فى تسهيل عملية الاتصالات.

وكان الطريق الأكثر أهمية هو الطريق المستعرض ، وهو الطريق القديم الممتد من دمشق إلى صور. وكان هذا الطريق يمتد إلى الجنوب من جبل حرمون المكسو بالجليد ولبنان، حتى يصل إلى الطريق الممتد من وادى نهر الأردن وفروعه فى وادى الطعيم وبيروت، وكانت قلاع بانياس وهونين سالفة الذكر على مقربة من روافد نهر الأردن تكتمل من خلال اضافة قلعة تبنين (تورون) ، التى كانت تقع فى منتصف الطريق بين بانياس وصور.

وإلى أقصى الجنوب ، كان يوجد طريقان يتجهان من دمشق صوب عكا إلى الشمال والجنوب من بحيرة طبرية. وكان الطريق الشمالى يؤدى من عكا إلى الأردن مروراً بقلعة صغيرة Chastellet على الضفة الشرقية لنهر الأردن وهى القلعة التى عمرت فترة قليلة ، وبعد أن يسلك الطريق الجانبى لقلعة صفد (وربما شيدت هذه القلعة فى عام ١١٠٢، ومن المؤكد أنها شيدت فى عام ١١٤٢). وقد تمتعت قلعة صفد بأهمية كبرى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر (وقد أعيد بناؤها بعد عام ١٢٤٠) وكانت قلعة صفد من أعظم وأقوى القلاع التى شيدها الصليبيون فى منطقة الشرق العربى.

وكان الطريق الجنوبى المتفرع من الطريق الجانبى لقلعة صفد يعبر الأردن عند جسر الصنابرة Senabra، حيث كانت أرض المستنقعات لهذا الوادى تعوق تشييد وبناء التحصينات والدفاعات القوية . وكانت الطرق المستعرضة لاقليم الجليل الأدنى تحميها عدد كبير من الأبراج والحصون الصغيرة. وكان جبل طابور هو الاستثناء الوحيد. وفى القرن الثالث عشر الميلادى أصبح الدير المحصن الواقع على جبل طابور حصنًا قويا ذات أهمية ، فى حين كانت قمة هذا الجبل يحيط بها اثنان من الأسوار الجديدة، وخندق صناعى، بالإضافة إلى دفاعات طبيعية تتمثل فى المنحدر العالى للجبل ومما يذكر أن قرية دابوريا الصليبية Daburia (البوريا Buriq)، وكنيسة البشارة المحصنة فى الناصرة ، والبرج الصغير الذى يحمى موارد المياه المهمة عند صفورية ، وأشياء كثير فى جهة الغرب وفيها برج فرسان الداوية فى الصفران Le.Saffran ، كانت كل هذه الأماكن السابقة تحتل أهمية ثانوية لدى الصليبين. ونفس الأهمية الثانوية بالنسبة لبرج الغولة al Fula الذى يقع وسط وادى جزريل ، والذى لم يحظ بأهمية كبيرة كطريق مستعرض رئيسى عام للأرض المقدسة. وكانت الممرات والطرق الشرقية

تحميها حصون بلاعيم Bel'ame الصغيرة وأماكن توراتية وأماكن ما بعد التوراة شهيرة مثل جنينين Jenin (جيرين Gerin) ، وذرعين Zar'in (جيرين الكبرى La Grand Gerin، وفى جهة الغرب كانت توجد قلعة عرعرة Ar ara .

وكان الطريق الذى يبدأ عبر نهر الأردن عند جسر الداميا والذى يؤدى إلى قيسارية على الساحل عبر نابلس خاليا من أية دفاعات وحصون، باستثناء مدن مثل نابلس وسيباسط Se-baste . وكانت خربت النيرب (Khirbet el Neiraba) *قاعدة عسكرية متقدمة عديمة الأهمية . بيد أن قلعة قاقون Kakun الواقعة عند مفترق الطرق بالقرب من مدينة قيسارية قد لعبت دوراً ما فى التاريخ العسكرى للمملكة الصليبية فى عام ١٢٧١ .

وبشكل عام يمكن القول بأن المناطق الجنوبية للمملكة الصليبية كانت أكثر تحصينا من المناطق الشمالية وقد وجد بها عدد كبير من القلاع والتحصينات. وقد نقع فى منزلق الخطأ إذا استنتجنا من ذلك أن الجنوب كان أكثر عرضة للخطر من جانب المسلمين من الجزء الشمالى للملكة. ففى جهة الجنوب كان التهديد الحقيقى للمملكة الصليبية يأتى من مصر، التى تبعد عن الحدود الجنوبية للمملكة مسيرة من عشرة إلى أربعة عشر يوما. وكان أية غزوة صليبية تبدأ وتنطلق من هذه الجهة الجنوبية تستلزم إعداداً عسكريا باهظ التكاليف ويتطلب أيضا صعوبة ومشقة فى عملية نقل الجنود وتموينهم . وقد أصبحت شبكة التحصينات والقلاع الصليبية أكثر وضوحًا وذلك إذا ما نظرنا إليها على أنها قلاع صغيرة لضمان الأمن للطرق العامة والمراكز الادارية والضياع وليست كقلاع وحصون كبيرة، أو كقواعد ومراكز عسكرية كبيرة . والحقيقة أن هذه التحصينات والقلاع الصليبية كانت توجد على امتداد الطرق، وقد امتدت بعض هذه الطرق إلى ما وراء نهر الأردن ، وهذا لم يقلل من أهمية التفسير الذى أوضحناه آنفا والخاص بوظيفة هذه التحصينات الصليبية . لقد كانت الطرق الحربية التى تستخدمها الجيوش الصليبية والاسلامية هى نفس الطرق التجارية والتى يقع على امتدادها أيضا المراكز الادارية، وكانت هذه الحصون والقلاع تطل على طرق التجارة المحلية .

---

* خربت النيرابا Khirbet el Neiraba: تعرف باسم خرب الفندق وهى قرية تقع شرق نابلس ويحدها من الجنوب قرية عسكر (عبدالله البيشاوى ، الأملاك الكنسية، ص١٥٨ هامش ١)

ومما يذكر أن بعض هذه الحصون الصليبية كانت قليلة الأهمية الاستراتيجية وكانت أسماءها الصليبية غير معروفة لدرجة أنه كان يصعب التعرف على أصل هذه الحصون والقلاع إلا من خلال شكلها المعماري، ومن هذه القلاع والحصون الصليبية قليلة الأهمية الاستراتيجية ، ذلك الحصن القريب من قرية سانجيل الواقع عند المدخل الضيق للوادى الشمالى فى نجد السامرة (نابلس) ، وكذلك برج بردويل (حصن بلدوين) الواقع فى نفس المكان . وعلى مقربة من هذه الحصون الصليبية، كان توجد بعض الحصون الصغيرة مثل حصن الطيبة Teyibe (عفرون Ef-fraon) وحصن بيتين Bietin (Belhel) . وقد عرف الصليبيون هذا الوادى باسم وادى الغارات Vallis de Cursu وهو الاسم الذى يطابق التسمية العربية وهو وادى الحرامية أو اللصوص ؛ وبالقرب من مدينة بيت المقدس ، وعلى نفس الطريق ، كان يوجد حصنان صغيران عند البيرة (المحمرة الكبرى) وعند رام الله وهذان الحصنان كان يحميان أملاك كهنة كنيسة الضريح المقدس والقرى الصليبية التى تأسست فى هذا المكان حديثًا .

وقد وجد خط من الكنائس والأديرة المحصنة يحيط بمدينة بيت المقدس، وإن كانت هذه الكنائس والأديرة الصليبية أقل تحصينا من الأديرة البيزنطية القريبة من أريحا Jericha والبحر الميت . وكانت هذه الأديرة الصليبيةالمحصنة تشمل أديرة القديس جيورج من خوذيبا Khoziba ، وكارتنين القريبة من مدينة بيت المقدس ودير القديس سابا St. Sabbas فى وادى كدرون القريب من البحر الميت ، وهذه الأديرة تذكرنا بتلك الأديرة الصليبية الغربية التى كانت تقع على جبل آنوس التائى .

وكان الشخص الذى يمر على الطريق الواصل من أريحا إلى مدينة القدس يرى حصونا وقلاعًا صليبية تقع فى مكان ممتاز عند المرتقى الملتوى لجبل المعلى صعد فيم (طلعة الدم) ، على الطريق المؤدى إلى حصن بيت حنون الصغير والقريب من دير النسوة ، وذلك قبل الوصول إلى مدينة بيت المقدس المحصنة جيداً. وإلى الشمال من مدينة بيت المقدس ، وعلى الطريق المألوف الممتد من المدينة إلى الساحل ، كانت تقع قلعة دير النبى صموئيل (برج السعادة) . وعلى مقربة من مدينة بيت المقدس كان يوجد الدير الجورجيانى المحصن الخاص بكنيسة الصليب المقدس.

ومما يذكر أن الطريق الممتد من مدينة القدس إلى بارونية حبرون (الخليل) التى تقع فى جنوب المملكة الصليبية (باستثناء منطقة العقبة) كان يضم منطقة محصنة. وكان هذا الطريق

يصل إلى حصن كنيسة الميلاد فى بيت لحم، وكانت هذه المنطقة المحصنة بمثابة نقاط ومحطات بوليسية عند برج السور وكانت تشبه تلك التحصينات الواقعة عند الكرمل ، حيث البركة والمستودع المائى القديم الذى يرجع إلى الأزمنة التوراتية والذى ما زال موجوداً ، وعند دير القديس صموئيل، كان يوجد طريق يؤدى إلى واحات سيجور (بالميرا) عند القمة الجنوبية للبحر الميت ومن هنا كان يمكن الوصول إلى ما وراء نهر الأردن.

لقد كان الغرض من تشييد مثل هذه القلاع والتحصينات الصليبية الكثيرة والتى انتشرت على امتداد الطريقين الرئيسيين والمتوازيين والممتدين من مدينة القدس إلى رام الله – اللد وإلى طريق الزوجين Via maris القريب من يافا هو ضمان الأمن للمملكة الصليبية واستخدامها كمراكز للحكم والادارة الصليبية وكان يقع على امتداد الطريق العلوى الشمالى، وهو طريق جبل السعادة، برج محصن عند منطقة الكويبدا (المحمرية الصغرى) ، وقد استقر به عدد من الصليبيين ، وعلى مسافة بعيدة من هذا البرج كانت توجد قلعة صغيرة عند قلعة هيرنوت ، وقد ذكر أن هذه القلعة كانت توفر الأمن والحماية للحجاج المسيحيين الذين يأتون إلى القدس عن طريق الساحل، وأخيراً وفى النهاية كان يمكن الوصول إلى بيت نوب التوراتى (بيت النبى) ، والبرج ، وكاتدرائية القديس جورج المحصنة ، وكانت توجد قلعتان صغيرتان على الطريق الجنوبى، وكانتا بمثابة نقاط استطلاعية ممتازة عند قلعة يلفوا وعند قلعة سابا (بلمونت) على القمم الأولى عند الطرق الغربية المؤدية إلى مدينة بيت المقدس. وهناك كانت توجد مستوطنتان صليبيتان عند اقبالا Aqua Bella Iqbala ودير للنسوة شبه محصن ، وعند منطقة (أبوجوش) ، والتى لم تكن محصنة . وأخيرا كان للداوية قلعة اللاترن Latrun (فرسان نورون) ، وكانت قلعة الداوية السابقة تقع فى مفترق الطرق التى تمتد من الجنوب إلى الشمال ومن يهودا (القدس) إلى ساحل البحر. وكان لهذه القلعة أهمية استراتيجية وذلك نظرا لأنها كانت تحمى المدخل الممتد من السهل إلى جبال مدينة القدس .

وكانت التلال تعين حدود شيفيلا Shefela نفسها من جهة الشرق، وهى التلال التى تبرز من سلاسل جبال يهودا (القدس) والسامرة (نابلس) ، وكانت الكثبان الرملية الساحلية تحيط بها من جهة الغرب ويمكن اجتياز هذه الكثبان الرملية عن طريق استخدام وسلك الطريق الرئيسى القديم الممتد من مصر إلى الشمال ، وهنا كان السير على هذا الطريق أيسر من الاجتياز والسير فى الكثبان الرملية المتحركة والسير فى أراضى المستنقعات على امتداد الساحل. وعلى بعد سبعة أميال من هذا الطريق الرئيسى، كان يمتد الطريق الساحلى المناسب.

وكانت هذه الطرق المتوازية تواصل امتدادها حتى تتلاقى فى وادى جزريل وتتقاطع مع خليج عكا. وفى أقصى الشمال كان يوجد طريق ساحلى واحد فقط.

لقد كانت كل المدن الساحلية محصنة جيداً، وكانت معظم تحصينات ودفاعات هذه المدن ذات أصل عربى أكثر من الأصل البيزنطى أو اليونانى ويمكن أن نتتبع آثار الكثير من هذه التحصينات فى أى مكان، وهى التحصينات والقلاع التى كانت تطوق منطقة أكثر اتساعا عن تلك المنطقة التى كانت تغطيها وتطوقها القلاع خلال فترة الوجود الصليبى. ويمكن أن نعزو هذا إلى الانهيار الاقتصادى والديمغرافى (السكانى) الذى أعقب اسقاط العرب المسلمين للحكم البيزنطى فى هذه المدن. وقام الصليبيين تقريبًا ببناء بعض التحصينات الساحلية من جديد، وشيدت هذه التحصينات فى نفس مواقعها القديمة.

ومما يذكر أن الصليبيين قاموا باحتلال المدن الساحلية القديمة والتى كانت تحمل أسماءً شهيرة خلال فترة التاريخ الفينيقى، والعبرى، والفلسطينى. وبعد الاحتلال مباشرة، بدأ الصليبيون فى ترميم وتجديد دفاعات وتحصينات هذه المدن وتقوية هذه الدفاعات. وكانت المدن الصليبية الرئيسة فى الشمال تشمل مدن بيروت، وصيدا وصور. وفى منتصف القرن الثالث عشر استطاعت صيدا أن تستفيد من حضور الملك الفرنسى لويس التاسع على رأس الحملة الصليبية، حيث قام بتشييد «قلعة البحر» والجسر الذى ربط القلعة بالتحصينات المقامه فى المناطق الداخلية. وكانت مدينة صور بأسوارها الثلاثة ناحية البر، وأسوارها الثنائية على طول البحر وبرزخها الضيق (ومنذ أيام الاسكندر الأكبر كان هذا البرزخ يربط الجزيرة بالبر)، لديها حصن بعيد على الطريق من تبنين Tibnin وسط بساتين المدينة الشهيرة، وهو برج فرسان وهيئة اللاسبتارية (برج الشمالى La Tor de L'Opital).

وعلى الطريق الساحلى الضيق بين رأس الأبيض ورأس النقيره كانت تقع قلعة اسكنداليو (Scandalion)، والتى شيدت فى عام ١١١٦ لكى تحمى مدينة صور ضد الاعتداء الخارجى، واستطاعت هذه القلعة السيطرة على الطريق الساحلى المهم، وأن تلعب دوراً مهما فى التاريخ العسكرى للمملكة الصليبية فى عام (١٢٣٢) وذلك فى أثناء حرب الأخوة اللومبارديين (المدن الايطالية).

والواقع أن مجموعة القلاع الواقعة على امتداد الطرق الشمالية والشمالية الشرقية لم تقترب من عكا، بل على العكس، فقد شيدت بعض التحصينات للدفاع عن هذه المدينة

الصليبية الكبيرة .، فكانت قلعة أخزيف Akhziv (قلعة امبرت Casal Imbert) الواقعة على الساحل ، وقلعة ماناوات Manawat البرية .وقلعة الراهب، وقلعة جدين Judynوقلعة الملك Chastiou dou Roi هذه القلاع التى ذكرت قد وفرت الحماية لمدينة عكا ذات الأهمية . ولم تزد هذه الأماكن المحصنة (القلاع) عن كونها أماكن لاقامة الأمراء الصليبيين ، ومراكز لتحصيل الضرائب ومراكز ادارية. وكان قرب هذه القلاع من مدينة عكا (كانت هذه القلاع فى شكل نصف دائرة نصف قطرها ٩ أميال) يأتى وفقًا لرغبة بعض النبلاء الصليبيين ، الذين اعتادوا الاقامة فى عكا، لقضاء شطر من وقتهم فى ضياعهم الواقعة فى هذا القطر.

وعلى مقربة من هذه القلاع (وفى خط مستقيم طوله ١٢ ميلا شمال شرق عكا) ، كانت توجد قلعة قورين التى شيدت فى القرن الثالث عشر الميلادى. ومن الخطأ الشائع أن ينسب إلى هذه القلعة أية أهمية استراتيجية . وعلى الرغم من أن البابا جريجورى التاسع Gregory IX قد وصفها بأنها حصن المسيحية، فان المرء يرى أن اهتمام البابا بهذه القلعة كان يهدف إلى تسهيل مهمة مناشدة الغرب الأوربى من أجل جمع أموال كثيرة لبناء هذه القلعة . وبالإضافة إلى الأهمية العسكرية والاستراتيجية المتواضعة لهذه القلعة، فإن موقعها كان بعيداً عن أى طريق رئيسى ، وكانت هذه القلعة تناسب القيام بوظيفة الملاذ والملجأ الذى يحتمى فيه الجنود وقت التقهقر والانسحاب من المعركة أكثر من كونها مكانا استراتيجيًا . وظلت هذه القلعة مختفية عن الأنظار حتى قام أحد الذين حاصروا سلسلة الجبال وعبرها ، وكان يمكن أن ينظر إلى جزء صغير من هذه القلعة ، بصرف النظر عن المنظر الفاتن والرائع للأودية العميقة والمنحدرات الحادة التى تحيط بهذه القلعة والتى تكسوها النباتات الكثيفة. وكانت قلعة مونتفرات مكان التجاء واعتزال يجتمع فيه مقدم فرسان التيوتون مع رجاله وأعضاء هيئته ، أو ربما كان التيوتون يستخدموا هذه القلعة كمكان لحفظ الدفاتر والخزانة خارج مدينة عكا التى كانت تعج بالاضطرابات والقلاقل والمؤامرات ، بيد أن هذه القلعة لم تكن منشأة عسكرية أساسية .

لقد كانت قوة ومناعة مدينة عكا تتمثل فى دفاعاتها وتحصيناتها الضخمة والمروعة . فقد كان الميناء محصنًا ، بيد أن المدينة كانت خالية من الأسوار جهة البحر*، حيث كانت سلاسل

* من الخطأ الشائع أن تنسب أسوار مدينة عكا من جهة البحر إلى الصليبيين . فقد كتب مارينو سانورو وصفا تفصيليا لهذه الأسوار، كما زودنا أيضا بخرائط لمدينة عكا، لم تحمل أية شكوك فى هذا الصدد . (المؤلف) .

الصخور الناشئة والبارزة تميز الساحل، وتجعل من الصعب بل ومن المستحيل لأى شخص أن يقترب من الساحل حتى ولو كان البحر هادئًا . وفى القرن الثالث عشر الميلادى أضيف صف ثان من الأسوار حول عكا ، هذا الصف الذى كان يطوق ضاحية مونتمزارد الشمالية. ومنذ إنشاء هذه الأسوار تعددت عمليات الترميم والتجديد لها وذلك على يد الملك الفرنسى لويس التاسع وبعض الأمراء الأوربيين الصليبيين ، وهكذا كانت عكا أفضل مدن الشرق اللاتينى قوة وتحصينًا.

وكان الخط الساحلى الممتد من جنوب عكا حتى السلاسل الجبلية المباشرة جهة الشرق يشمل ويضم أماكن كثيرة محصنة . وكانت هذه الأماكن والنقاط المحصنة تضم مدنا مثل حيفا ، وقيسارية ، وأرسوف ، ويافا ، وعسقلان ، وغزة . وكانت هناك مستوطنات. صليبية اقطاعية محصنة تضم سكان مسيحيين ويهوداً مثل كفر نعوم ، وكفر لام والبرج ، وخربتا الشمالية ، وأم خالد الواقعة بين يافا وحيفا على الساحل وكانت هناك بعض المقاطعات الصليبية تقع فى خط مواز جهة الشرق وتشمل قيمون Kaimun ، وقاقون ، وخربت البرج (البرج الاحمر) وقلسوه Kalasua ، ومجدل يابا Magdal Yaba وقوله Qula.

وأيضا كان يوجد بين هذه الحصون الصغيرة حصنًا وقلعة قوية ، وهى قلعة الحاج القوية (عثليت ، قلعة الحج) . وكان تشييدها وبناؤها يمثل نمطا محدداً من العمارة العسكرية فى تاريخ المملكة الصليبية. وكانت نقطة المراقبة الصغيرة التى تطل على الطريق الرئيسى معروفة فى القرن الثانى عشر وهى قلعة المقاطعة أو قلعة الضاحية Districtum، وقد شيدت هذه القلعة على احدى سلاسل الجبال وكان يمر بها طريق ضيق يصل إلى ساحل البحر. وفى الغالب كان يقال إن المكان الخاص بالداوية والذى كان يتحكم جيداً فى أحد أودية مداخل جبل الكرمل كان بمثابة ملجأ وملاذ يختبىء به اللصوص وقطاع الطرق. وطالما كانت حدود المملكة الصليبية تمتد عبر نهر الأردن فانه لم تكن هناك حاجة لتحصينات ودفاعات اضافية . وتغيرت الأمور والظروف بعد أحداث الحملة الصليبية الثالثة، حيث انحصرت بقية المملكة الصليبية على امتداد شريط ساحلى ضيق . وفى تلك الظروف تم تشييد قلعة الحج. وظهر حصن قوى إلى أبعد حد (بدأ تشييده فى عام ١٢١٨) فى الجانب الآخر من قلعة المقاطعة على قمة الجبل الناشئة والداخلة فى البحر والذى كانت تقع عليه قلعة صغيرة محصنة أو مدينة متطورة. وكانت قلعة الداوية القوية قادرة على التصدى والصمود فى وجه هجمات الأعداء ولم تسقط

قلعة الداوية هذه بالقوة أبداً. وبعد سقوط عكا فى عام (١٢٩١) ترك الداوية هذه القلعة وتخلوا عنها وولوا الأدبار صوب قبرص.

وكان يوجد جنوب يافا مدينتان محصنتان جيداً، هما عسقلان وغزة. وكانت الأماكن الصغيرة المحصنة مثل منعة القلعة Minat al Qala (قلعة بيروردى Caslellum Beroardi) التى خربت وتحولت إلى اطلال من التراب تشبه شبح قلعة – وقلعة دير البلح (الداروم) الواقعة على الطريق إلى مصر، وهى القلعة التى ظلت على التوالى مقراً لاقامة السيد الاقطاعى ومركزاً رئيسا لتحصيل الجمارك فى الطريق الخالى من السكان وواحات صحراء العريش.

٢- القلاع الصليبية :

من الملاحظ أن الموقع الجغرافى لمكان تشييد التحصينات والقلاع الصليبية فى منطقة الشرق العربى فى بلاد الشام وفلسطين يشير إلى حقيقة مهمة مؤداها أن المستوى الفذ والفريد كان من أبرز السمات التى ميزت هذه التحصينات والقلاع التى شيدها الصليبيون فى مملكتهم. فلم يشيد الصليبيون قلاعهم وفقا لتخطيط معمارى عام، بل كانت كل قلعة تبنى من أجل تأدية وظيفة ومهمة محددة وفقًا للأخطار التى كانت تواجههم فى المنطقة العربية، وكانت القلعة تتأثر بظروف الزمان والمكان. وعلى الرغم من أن الصليبيين كانوا ينتمون إلى أصل أوربى غربى مشترك، فإنهم قاموا بتعديل التقليد الغربى فى العمارة الحربية وذلك عن طريق اقتباس التقنيات المعمارية البيزنطية والاسلامية على السواء.

ويتمثل بعض الجدال والنقاش الذى يدور بين العلماء بشأن القلاع الصليبية فى درجة التأثير الشرقى على بناء وتصميم هذه القلاع، ومن المحتمل أن هذه الاشكالية لم تجد حلا مقنعًا لدى أى طرف من أطراف النقاش والجدال، ويمكن أن نعزو ذلك إلى أن المصادر التاريخية المدونة (المؤرخات) لم توضح مدى هذا التأثير الشرقى على العمارة الحربية الصليبية بشكل كاف. ويرفض المؤرخون المحدثون ما ذهب إليه مؤرخو القرن التاسع عشر الميلادى، الذين كانوا يرون أن الشرق العربى كان بمثابة مدرسة للأوربيين الصليبيين نهلوا منها فنون العمارة الحربية، ونحن نعرف أن أوربا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر- وقبل جيل أو جيلين من الغزو الصليبى للمنطقة العربية- كانت تشهد تطوراً سريعًا فى فن التحصين والعمارة الحربية. وهكذا فإن الصليبيين كانوا فى بداية القرن الثانى عشر، يفهمون أكثر عن القلعة

المسورة والمحصنة والتى كانت تشيد من الطوب اللبن أو من الأخشاب . ومن ناحية أخرى، فإن الصليبيين قد ورثوا الاحتكاك المباشر مع فن التحصينات ، والذى كان فى الغالب ذا أصل بيزنطى ، وهو الفن المعمارى الحربى الذى حافظ عليه المسلمون، وتكيف الصليبيون مع هذا الفن ودعموه فى وقت مبكر من الحملة الصليبية الأولى والفترة الباكرة من الوجود الصليبى. ومن الضرورى أن يؤثر هذا فى التخطيط الصليبى للعمارة الحربية ويطور هذا التخطيط . ومن الصعوبة بمكان أن نقدر الأهمية النسبية لهذين العاملين فى تطور العمارة الحربية الصليبية. وفى الغالب كان يتضح التخطيط الشرقى فى العمارة الصليبية الحربية وكان يتبلور هذا فى شكل وضع الموقع الطبيعى لانشاء هذه القلاع والتحصينات الصليبية ، حيث غابت بعض ملامح العمارة الحربية الأوربية . ويمكن أن نعزو ذلك إلى الظروف المحلية للمنطقة العربية التى احتلها الصليبيون ، وعلى سبيل المثال، فإن صهاريج المياه فى القلاع الكبيرة كانت تصمم وفق الظروف المناخية فى الأرض المقدسة فى بلاد الشام وفلسطين ، ولذلك كان تشييدها وتصميمها يتم وفقا للنماذج والطرز المحلية. ومن ناحية أخرى ، فإن الخندق الذى كان يحيط بالقلعة والحصن الصليبى والذى كان يخلو من الماء هو نتيجة مباشرة لحقيقة أن الأرض المقدسة على الرغم من أن الرب قد باركها وذكرها بأنها أرض تفيض باللبن والعسل ، فإنه لم يتوفر بها الماء الكافى لكى يتدفق فى هذه الخنادق . وكان نفس الشىء أيضا بالنسبة لشكل الأسوار والأبراج التى شيدها الصليبيون ، فقد شيدوها أيضا وفقا للظروف المحلية للمنطقة العربية المحتلة . وقد حاول بعض العلماء أن يكتشفوا نمطا متطورا للعمارة الحربية الصليبية يشير إلى درجة تأثير النمط الأوربى الغربى وذلك فى الأبراج الدائرية والمربعة التى كانت تزود بها القلاع الصليبية. وهذا من شأنه أن يؤكد الفكرة المضللة التى ترى أن الحصن المطوق باثنين من الأسوار كان مستعاراً ولفترة طويلة من الأنماط الشرقية للحصون . وفى كلتا الحالتين كان موقع الأرض الذى يبنى فوقه الحصن أو القلعة هو الذى يحدد التصميم الدائرى أو الرباعى للقلعة كما كان هذا الموقع يحدد أيضا شكل الحصن سواء كان أحادى السور أو مزدوج الأسوار.

ويمكن أن نفترض بشكل آمن أن الصليبيين الأوائل قد جلبوا معهم قدراً كبيراً من المعرفة بفنون التحصين والدفاع . وخلال فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ازدهرت العمارة الحربية فى كل من أوربا وفى منطقة الشرق العربى

الإسلامى. وهكذا كان المعماريون الصليبيون فى ظروف ملائمة وجيدة لكى يقتبسوا من كلا النمطين الغربى والشرقى وفقًا لاحتياجاتهم المحددة ، فى حين ساهموا بخبرتهم الخاصة فى العمليات الدفاعية.

ومن الناحية الكمية، كان البرج يمثل نمطا من البناء الأبسط شكلا والأكثر شيوعًا وانتشاراً. وفى العادة كان البرج عبارة عن بناء صغير مربع الشكل ، تقيم فيه حامية عسكرية صغيرة من أجل حراسة الطريق، بالإضافة إلى قوة من الشرطة كجهاز ادارى للملك أو للسيد الاقطاعى. وعلى الرغم من أن البرج قد استخدم كملاذ يلجأ إليه السكان المحليون الفارون من أمام زحف العدو، فإنه كان صغيرا بحيث لايتسع لاحتواء ممتلكات ودواب ومواشى الفلاحين ولم يستطع الصمود أمام أى حصار . وكانت وظائف البرج دفاعية بحتة ، كما كان بمثابة ملتجأ وملاذ مؤقت ، حتى تتراجع اغارات السلب والنهب بعيداً عنه . ومثل هذه الأبراج الصغيرة لم يدقق أو يمعن فى اختيارها كما لم يدقق كثيرا فى مواقعها ، وكان من الطبعى أن يقام البرج على ربوة عالية يسهل الوصول إليها، بيد أنه فى الغالب كان البرج يقام على أرض مستوية ومسطحة. ففى رسم تخطيطى لمبنى مكون من طابقين يتبين لنا أنه مزود بنقطة ملاحظة ممتازة ، يستطيع المرء من خلالها أن ينظر إلى فضاء فسيح بحيث يستطيع أن يراقب بالملاحظة دائرة نصف قطرها عدة أميال. وكان البرج يقوم من خلال حاميته بعملية الدفاع من خلال اطلاق النار من فتحاته أو من جداره المزود بفتحات ، وكان هذا يكفى لمقاومة وصد أية غارة تقوم بها القوات الراكبة من رماة السهام، بيد أن البرج كان يصبح غير ملائم للدفاع فى حالة ما إذا قرر المهاجمون قصف المكان أو فرض حصار طويل من أجل تجويع الحامية المكلفة بالدفاع عن البرج أو الحصن وذلك بمنع تزويد البرج بالمؤن والغذاء . ومن غير المجدى أن نفكر أو نتأمل فى الاشكالية الخاصة بالمنطقة التى نقل الصليبيون منها نمط تحصيناتهم الدفاعية. ومن المحتمل أن الصليبيين قد احتفظوا بالنموذج الأصلى الأوربى للبرج أو احتفظوا ونقلوا كثيرا عن البرج الإسلامى الصغير وربما نقلوا أيضا واقتبسوا فن التحصينات عن البرج البيزنطى الذى كان يميز حدود الريف البيزنطى فى الفترة السابقة للوجود الصليبى.

وكانت القلاع الصغيرة التى شيدها الصليبيون فى منتصف القرن الثانى عشر والتى كانت تميز حدود المملكة الصليبية وتدافع عن الريف الصليبى المعرض للخطر من جانب الجيران المسلمين ذات شكل مختلف . وعلى الرغم من أن هذه القلاع كانت مجهزة وتلائم بشكل

أساسى غرض الدفاع والحماية للمناطق الصليبية، فإن الصليبيين كانت لديهم حاميات دائمة استخدمت كنقاط لانطلاق الغزو الصليبى وشن الغارات ضد الأقطار الإسلامية وأتى حين من الوقت أصبحت فيه هذه القلاع الصليبية المنعزلة بمثابة مراكز للاستيطان وجزء من المحيط الصليبى. وأصبحت الأبراج قلاعًا للقرى أو للمدن وقد شيدت هذه الأبراج بصورة تلازم هذه المدن وهذه القرى.

لقد شاع وانتشر هذا النمط من القلاع الصغيرة فى جنوب المملكة الصليبية ، وعلى الرغم من صعوبة وصف مفصل لها بسبب ندرة وافتقار الآثار الباقية لهذه القلاع ، فإن المصادر التاريخية المعاصرة تزودنا بصورة واضحة لهذه القلاع من حيث شكلها وبنائها. فقد وصف قلعة بيت جبرين (التى يرجع تأسيسها منذ فترة باكرة من عام ١١٣٦) بأنها كانت حصنًا قويًا ومنيعًا يحيط به سور منيع مزود بأبراج، وأسوار خارجة وخندق . وثمة وصف تفصيلى لقلعة ابلين، التى شيدت مكان قلعة يبنه Yabneh التلمودية الباكرة وكانت هذه القلعة مزودة بمبان حجرية وآبار قديمة مزودة بالماء. ويقول مؤرخ معاصر أن الصليبيين شيدوا حصن ابلين «إذ كان حصنًا قويًا مزوداً بأربعة أبراج مشيدة فوق تل عال ملحق بهذه القلعة وهذاالحصن، وكان الحصن أيضًا مزوداً بمبان ومنشآت خفية وعميقة تحت سطح الأرض . وفى النهاية كانت قلعة تل الصافى عبارة عن حصن مشيد من الأحجار المنحوتة يستند على منشآت متينة قوية ومزود بأربعة أبراج تقع على ربوة مناسبة.

وقد تم دراسة هذه التطورات المعمارية للقلاع والتحصينات الصليبية بشكل جيد من خلال الحصون والقلاع الصليبية التى وجدت فى مكان مدينة غزة القديمة. فقد كانت القلعة التى شيدت فى عام ١١٤٩ صغيرة جداً ويقول أحد المؤرخين الصليبيين المعاصرين أن هذه القلعة كانت تقع «على تل بارز بشكل غير متقن وكانت عبارة عن فضاء مغلق تحيط به الأسوار . وقد رأى شعبنا أن طاقاتهم غير كافية بشكل مؤقت لاعادة تشييد القلاع فى المنطقة كلها، فاحتلوا جزءاً من التل فقط ، وبعد أن رتبوا الأساسات فى موضع عميق مناسب قاموا بتشييد وبناء القلعة والسور والأبراج . وبعد بضع سنين نشأت مدينة صغيرة هنا . وكما قلنا من قبل ، فإن هذه القلعة (تل الصافى) لم تستطع أن تشغل كل التل الذى نشأت فوقه هذه المدينة، بيد أن الشعب الصليبى استطاع أن يتجمع هناك للاقامة والسكنى فى هذا المكان ، واستطاعوا أيضا الاقامة والعيش فى أمن وطمأنينة ، وذلك لأنهم قاموا بتحصين باقى منطقة الهضبة عن طريق بوابات وسور، على الرغم من أن هذه التحصينات كانت متواضعة وبسيطة وضعيفة».

وقد نقلت إلينا صورة مشابهة عن طريق قلعة الداروم (دير البلح) التى شيدت فى عام ١١٧٠ . ويقول أحد المؤرخين المعاصرين ، أن من ينظر إلى هذا الحصن يجده مربع الشكل تماما، كما أن امتداده على مدى مرمى حجر . وكانت قلعة الداروم لديها برج فى كل ركن من أركانها الأربعة، بيد أنها لم تكن مزودة بخندق أو أسوار خارجية . وكان أحد هذه الأبراج الأربعة أكثر ضخامة وقوة وأفضل تحصينًا من باقى الأبراج الأخرى. وحول هذه القلعة نشأت مستوطنة صليبية وكنيسة . وبعدجيل، وفى أثناء الحملة الصليبية الثالثة، كانت هذه المستوطنة الصليبية محصنة ، فإذا صدقنا ما ذكره أمبراوز Ambroise شاعر التروبادور الأنجلو نورمانى عن هذه القلعة فإنها كانت مزودة بسبعة عشر برجًا كبيراً وصغيراً ، وكانت قلعة جميلة وقوية، وكانت لديها برج أكثر قوة ومتانة يعلو باقى الأبراج الأخرى، وكان يحيط القلعة من الخارج خندق عميق مكسواً بالأحجار فى أحد جانبيه ، والجانب الآخر كان مكسواً بالصخور الطبيعية.

ولسوء الحظ فإن ما بقى من هذه الأماكن والقلاع الصليبية كان شيئًا قليلاً الأمر الذى يجعلنا نتحفظ فى حدسنا وظننا بخصوص الشكل المعمارى لهذه التحصينات الصليبية . ومن الواضح أنه كان يوجد نمطان معماريان للقلاع والتحصينات الصليبية: كان النمط الأول عبارة عن القلاع مربعة الشكل، والنمط الثانى عبارة عن القلاع الصغيرة المزودة بأبراج فى أركانها الأربعة (مثل قلعة ابلين Ibelin، وقلعة تل الصافى، وقلعة غزة التى شيدت فى موقع مدينة غزة القديمة) مع اختلاف فى حالة قلعة (الداروم) التى كانت مزودة ببرج أقوى من الأبراج الأخرى؛ إذ كان البرج مثل القلعة فكان مزوداً بصف اضافى من الأسوار وخندق مبطن ومكسو بالأحجار والصخور (مثل قلعة بيت حبرين وقلعة ا(لداروم) . وكانت القلعة من النوع السابق تقوم بعمل البرج المحصن بشكل مناسب ، وكان هذا النمط المعمارى عنصراً مميزاً فى القلاع الأوربية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر من الميلاد.

وقد ظهر نمط معمارى مختلف للتحصينات الصليبية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، وهو النمط الذى يمكن أن يوصف بأنه كان مقراً للسيد الاقطاعى. وما تزال بعض بقايا

* أمبراوز Ambroise: من أشهر شعراء التروبادر فى أوربا فى العصور الوسطى، وقد صاغ أحداث الحملة الصليبية الثالثة التى جاءت بقيادة ريتشارد قلب الأسد الملك الانجليزى إلى المنطقة العربية شعراً (المترجم) .

حطام هذا النمط من القلاع موجوداً وقائمًا فى المناطق الريفية فى بلاد الشام وفلسطين : وذلك فى قرية مانعوات Manawat القريبة من عكا، وفى جودين وسميرية Summeyrich القريبتين من عكا أيضا، وقلعة كفر لام الرائعة القريبة من قيسارية وقلعة بيروردى Castrum Beroadi (منعة القلعة Minat al Qala) فى منطقة الكثبان الرملية الواقعة بين أشدود وعسقلان *. وكانت كل هذه القلاع صغيرة الحجم ذات شكل مستطيل. ويشهد بناء وأحجار بعض هذه القلاع مدى المجهود الذى بذل من أجل اقامة هذه القلاع . وكانت الأبراج تحيط بالقلعة من الخارج فى كل من أركانها، مثلما كان الحال فى قلعة كفر لام إذ كان يوجد فناء صغير مسوَّر يضم مخازن ومستودعات ذات قباب، وذات سراديب وبوابة أنيقة فى السور الخارجى المنخفض . وفى بعض القلاع الأخرى مثل قلعة بيروردى Beroardi ، كان يوجد مبنى مستطيل فقط وأبراج مشيدة فى أركان القلعة ، وكان موقع هذه القلاع فى منطقة كثبان رملية قاحلة على الساحل يدل على أن هذه القلاع كانت بمثابة قاعدة عسكرية بشكل أكثر عن كونها مقرا لضيعة اقطاعية. ففى قلعة كفر لام وقلعة بيروردى Castrum Beroardi كانت تظهر أبراج دائرية ساحرة فى كل ركن من أركان هذه القلاع، وكانت هذه الأبراج مدهشة ولافتة للنظر. فقد كانت القلاع السابقة تضم منحدرات خفيفة دائرية تشبه نقاط انطلاق . ولايمكن أن تنسب هذه القلاع إلى سنوات متأخرة فى القرن الثالث عشر الميلادى، وذلك لأن كفر لام على الرغم من أنها ظلت خاضعة تحت السيادة الصليبية فى أثناء المملكة الصليبية الثانية، فإن قلعة بيروردى فقدها الصليبيون بشكل محدد فى زمن صلاح الدين الأيوبى.

وشاهد القرن الثانى عشر تشييد قلاع كبيرة، وهى القلاع التى ساهمت الحفائر الأثرية الحديثة لها فى تغيير رؤيتنا تجاه تطور المفاهيم والتقنيات الصليبية بشأن العمارة الحربية . فقد شيدت معظم القلاع المهمة والبارزة فى القرن الثانى عشر وأهم هذه القلاع : قلعة كرك معاب فى منطقة ما وراء نهر الأردن، وقلعة صغيرة (وهى قلعة قصر الأترا Qasr- dAtra)، وقلعة بلفوا Belvoir (كوكب الهواء) فى الجليل ، ومن القلاع التى شيدت فى القرن الثالث عشر تأتى قلعة مونتفورت Montfort، وقلعة صفد Saphet فى الجليل، وقلعة الحاج على .

---

* أضاف المؤرخ بنفنستى Benvenisti إن هذه القائمة كثيرا من المبانى ذات الأصل الصليبى ولم تذكرها المصادر التاريخية الأدبية. وهذا الفتح لنا مجالاً جديداً للدراسات المعمارية (المؤلف) .

ومن الملاحظ أن التتابع الزمنى لايمثل بالضرورة فترتين متميزتين ويبدو أن هاتين الفترتين (فترة القرن الثانى عشر وفترة القرن الثالث عشر من الميلاد) لم يكن لهما أهمية كبيرة فى تطور العمارة الحربية الصليبية . وتوضح معظم الحفائر الأثرية الحديثة التى تمت فى الفترة من (١٩٦٤-١٩٦٨) والتى أجريت فى مكان قلعة بلفوا- وهى القلعة التى يرجع تاريخ تشييدها الدقيق إلى أعوام (١١٦٨-١١٨٧) لنا عن عمل وتخطيط متقن تماما لهذه القلعة ويتسم هذا التخطيط والتصميم بالكمال ، ويضم هذا التخطيط أيضا عناصر معمارية ، تلك العناصر التى يرجعها بعض العلماء إلى ابتكارات القرن الثالث عشر الميلادى.

ومما يذكر أن اطار هذه الدراسة لم يستطع أن يشمل كل الأثار الحربية الصليبية الباقية فى الأرض المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام. وهكذا فسوف تركز على النماذج والأطر المعمارية الباقية بشكل جيد، وهى النماذج والأطر التى تمثل أنماطا مختلفة للعمارة الحربية الصليبية.

قلعة بلفوا (كوكب الهواء)

كانت قلعة بلفوا Belvoir (والتى كانت تعرف بالآرامية والعبرية باسم قحافة ، وعرفت فى العبرية باسم قلعة كوكب الهواء، وأطلق عليها الصليبيون اسم قلعة إعداد الطعام Co-quetum) والتى شيدت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، احدى أعظم المنشآت الصليبية . إذ كانت أصغر حجما من قلعة كرك الفرسان الضخمة فى بلاد الشام (والتى كانت مساحتها ٦,٥ أكر، والأكر = ٤٠٠٠ متر مربع)، وأصغر أيضا من مساحة قلعة صفد الضخمة والتى كانت تبلغ مساحتها (١٠ أكر أى ٤٠,٠٠٠ متر مربع وكانت مساحة قلعة بلفوا يبلغ (٣ أكرات = ١٢٠٠٠م٢) ، فكان طولها ١١٢م وعرضها ١٠٠م . ولم تكن عمارتها بصورة تفوق أية قلعة أخرى. فقد تقرر فيما مضى قبل الوجود الصليبى بناء قلعة على حافة النجد الجليلى (ذلك السهل الواسع المرتفع) فيما وراء نهر الأردن لكى يستخدم هذا الوادى الطبيعى كحد شمالى لها، وقد سمح لمصممى بناء هذه القلعة أن يحددوا كل أبعادها. ومن خلال الحرية التى منحت للمهندس المعمارى المجهول الاسم والذى أشرف على تصميم وتنفيذ بناء هذه القلعة استطاع اختيار موقع القلعة واستطاع أن يحقق أفكاره من خلال ابتكار شكل وحجم مناسب لهذه القلعة، فى ضوء قوة العمل والمال المتاح لعملية البناء (ويبدو أن هذه القلعة لم تكن أقل ارتفاعًا من القلاع الأخرى) . وعلى الرغم من أن بعض العلماء يساورهم الشك حول استخدام الصليبيين للتحصينات والدفاعات المتراكزة والكثيرة فى وقت مبكر من

القرن الثانى عشر ، فإنه من الواضح تمامًا أن قلعة بلفوا (كوكب الهواء) كانت تتميز بأسلوب ونظام دفاعى إذا كانت مطوقة باثنين من الأسوار منذ بداية نشأتها .

لقد اعتمد تخطيط هذه القلعة أساسًا على ثلاث وحدات معمارية متميزة وواضحة ، لكل وحدة معمارية وظائفها الخاصة . وكانت الوحدات المعمارية الأساسية تشمل : القلعة الداخلية؛ والسور الخارجى - الذى يشمل الستار والخندق ، وكانت الوحدة الثالثة تشمل البرج الشرقى القوى. وكان معظم الجزء الداخلى للقلعة مبنيًا من الجص، وكان مربع الشكل طول ضلعه ٥٠ متر، فى حين كان السور الغربى للقلعة محصنًا ببرج إضافى وذلك فى منتصف السور للدفاع عن البوابة الرئيسية، تلك البوابة التى كانت تؤدى إلى الفناء الخارجى المطوق بالسور . وكانت توجد بوابة واحدة فقط مفتوحة بدرجة أكثر فى هذا الجزء الداخلى المربع الشكل والمحكم، وكان يوجد باب خلفى ضيق ومنخفض فى السور الشرقى، يغلق من أعلى بواسطة بلاطة ضخمة من الحجر. وكانت الأبراج الأربعة المشيدة فى أركان القلعة قوية ومتماسكة ومبنية بشكل يثير الاعجاب ، بيد أنها لم تكن عالية (كان ارتفاعها حوالى ٢ متر) وذات انحدار خفيف ، ومكسوة بنمط معمارى جميل وهو (السرة) والتى كانت عبارة عن مجموعة من الأحجار فى شكل حلية معمارية ناتئة ، وكانت هذه الأحجار مشطوفة وناتئة ومستوية الأركان ، وكانت هذه الأبراج ذات الشكل الرباعى تشيد فوق هذا المنحدر الخفيف، وكان ارتفاع البرج يصل إلى طابقين . وقد وجد فى كل برج من الداخل سلم يؤدى إلى الطوابق العلوية. وكان الغرض من هذه الأبراج البارزة تقوية الأسوار (وتلك كانت ميزة اضافية لهذه الأبراج)، بصورة أكثر عن كونها وحدات دفاعية مستقلة، وبواسطة هذه الأبراج الناشئة والتى كانت على مسافة قصيرة من بعضها البعض (كانت المسافة بين كل برج وآخر حوالى ٣٥ مترا) استطاع الصليبيون أن يجدوا جانبا لاطلاق قذائفهم وسهامهم على الأعداء الذين يهاجمون القلعة الداخلية. وعلى الرغم من ذلك، فإن ثمة شك حول ما إذا كانت الأسطح المربعة للأبراج (كانت مساحة سطح البرج ٤ م × ٤متر) قادرة على أن تفسح مجالاً كافيًا لاطلاق القذائف الصليبية الثقيلة.

كانت الأسوار السميكة للقلعة الداخلية المركزية (كان سمك السور ٣ متر) يطوق الفناء الداخلى للقلعة (وكان طول ضلع الفناء المربع الشكل حوالى ٢٢ متر) . ولم تستطع صروف الزمن أن تقضى على جمال هذه القلعة وهدوئها الساحر. وثمة حقيقة ذكرناها آنفا وهى أن سكان هذه القلعة لم يرتدوا لباس الحرب أربعا وعشرين ساعة فى اليوم. وكان الفناء الداخلى

للقلعة يفتح من ناحيتى الشمال والجنوب، وذلك من خلال البوابات الثلاث الموجودة فى كل جانب ، وكان الفناء يفتح على الحجرات الداخلية للقلعة. ومما يذكر أن هذا المكان كان مطوقا بأسوار طويلة وضيقة مستطيلة الشكل (٤متر × ٣,٥ متر × ١٠ متر) ، وقد اشتمل مبنى القلعة على مخازن واسطبلات وحجرات خدمة . وكان المطبخ يقع فى الجزء الجنوبى من القلعة ، بالقرب من الباب الخلفى الصغير. وكانت هناك ثلاثة أفران مفتوحة كبيرة تتصل بحجرة الطعام القريبة ، وكان الطهاة يحصلون على المياه اللازمة للطهى من صهريج يوجد فى السور الداخلى للقلعة.

ومن المحتمل أن حجرات اقامة فرسان القديس جون (الاسبتارية) كانت فوق الدور الأرضى. ففى الجزء الغربى من السور الداخلى للقلعة تحول مبنى كبير إلى نموذج فناء متناسق ، وفى الركن الجنوبى الغربى أضيفت حجرة كبيرة، مزودة بأحجار مصقولة بشكل جميل الأمر الذى يجعلنا نعتقد بأن هذه الحجرة ربما كانت حجرة طعام، أو كانت مبنى ملحق بكاتدرائية أو مقر الكنيسة الصغيرة للقلعة أو دير، بالإضافة إلى مبنى مستودعين مدعما بثلاثة أقبية وقناطر على امتداد عرض الفناء . وكانت القنطرة المركزية الكبيرة تؤدى إلى البرج الغربى حتى البوابة الرئيسية وكانت هناك مجموعة متواصلة من درجات سلم داخلى تؤدى من الفناء إلى الطابق العلوى للقلعة. ومن المحتمل كانت توجد هنا المكاتب الرئيسة للقلعة وربما أماكن إقامة محافظ القلعة. وكانت توجد هنا أيضا بقايا كنيسة صغيرة Chapel . وكان يوجد أيضا نقش ضئيل البروز للقديس المحب متى وأجزاء يظنها المشاهد أنها لمدخل رئيسى فخم.

ومما يذكر أن القلعة الداخلية ، ببواباتها الفريدة الوحيدة، لم تشمل منافذ وفتحات أخرى، بيد أن فتحات رمى السهام كانت توجد فى جدار الطوابق الأرضية والعلوية للقلعة . وكانت شبابيك حجرات الاقامة والنوم والمخازن تفتح على الفناء ذات الطراز الشرقى. وما أن تقف خارج القلعة الداخلية تستطيع أن تصل سيرا على الأقدام إلى السور الخارجى للقلعة، حيث الفضاء المستطيل الشكل (وكانت أبعاد هذا الفضاء ١٤ متر × ١٦ متر) والذى كان يقع بين القلعة الداخلية وحجرات المخزن المقبية وبين المبانى الأخرى المعدة للاستعمال ، والتى كانت جزءاً من التحصينات الخارجية . وفى حين كان السور الداخلى للقلعة مبلطا ومرصوفًا بالأحجار ، فإن السور الخارجى لم يكن كذلك. وفى كل جهة من الجهات الأربع ماعدا جهة الشرق كانت توجد ثلاث بوابات مقبية أي على شكل قبو أو قنطرة تفتح على حجرات المخازن ذات الشكل المعقود أو المقنطر والتى تنتهى إلى خط الدفاعات الخارجية .

لقد كان مبنى القلعة ذا شكل خماسى، وذلك لأن سورها الشرقى كان يضم جزأين متقاطعين متساويين. وكانت الزاوية البارزة للمبنى تمتد للأمام عن طريق البرج الشرق الكبير. وكان الجدار بين البرجين يشمل أبراجًا رباعية الأضلاع فى كل ركن وبرج اضافى فى مركز ووسط كل جانب . وكانت دعامة السور تظهر مكسوة بالأحجار من جميع جهاتها وتتجلى جودة الصنعة فى هذه التكسية. وكانت عملية التكسية بالأحجار هذه أساسية فى منحدرات كل الأبراج ، كانت تستخدم الأحجار فى بناء القلاع. وكانت ثلاثة من الأبراج السبعة (والتى كانت تقع فى الجنوب والغرب) لديها أبواب وممرات خلفية سرية تفضى وتؤدى من الخندق خلال سلم على شكل حرف L إلى مستوى حجرات المخازن والمستودعات . وكان تشييد هذه الأبواب ممتازاً : إذ كان منحدر البرج يخفى الفتحات الضيقة وكان ظل هذه الفتحات الضيقة يحجب المدخل بشكل كامل. وكانت هذه الأبواب المخصصة للهجوم تواجه جزءاً من السهل الواسع المرتفع وعند هذا الجزء كانت تستخدم أدوات الحصار ضد القلعة، وهكذا كان باستطاعة المدافعين عن القلعة أن يستولوا فى الوقت المناسب على أدوات الحصار وأن يدمروا القوات المحاصرة .

وكان منحدر الأبراج يصل إلى مستوى سطح أرض التحصينات الخارجية . ومن هنا كان بظهر ويبرز جزء من جدار بين برجين والبرج فى شكل عمودى . وكان عمق الخندق يتراوح ما بين ١٠-١٢ متر وينبغى أن نضيف الاثنى عشر مترا هذا إلى ارتفاع الأسوار. الخ إذا كان ارتفاع السور الحجرى يزيد عن عشرين مترا ويبرز من قاع الخندق إلى جدار البرج المزود بفتحات لاطلاق السهام، مع اضافة ٢-٤ متر للقمة ومتراس جانب الأبراج .

وكانت الأسوار الخارجية وأبراجها تطل على الخليج الخالى من الماء للقلعة، وكان عمق هذا الخندق يتراوح ما بين ١٠-١٢ متراً واتساعه حوالى ٢٠ متراً وكان السهل الواسع المرتفع منحوتًا من الصخر البازلت ، وهو عمل هندسى مهم فى حد ذاته، وكانت هذه الأحجار الصخرية البازلتية تستخدم عادة فى بناء القلعة. وقد أظهر اتقان صنعة جدار الخندق الخارجى مهارة البنائين . وكان الخندق يتقاطع فى موضعين فقط، ويمكن الدفاع عنهما بشكل جيد. وفى جهة الغرب كان يمتد جسر فوق الخندق ، وذلك على مقربة من مركز البرج القائم فى الركن الجنوبى الغربى والبرج القائم فى منتصف الجانب الغربى . ومن المرجح أن الجسر لم يكن بناءً دائما ، بل كان عبارة عن بناء على شكل دعامات أفقية خشبية يمكن حرقها أو تحريكها وقت

الخطر. وهنا كان اتساع الخندق حوالى ٢٠ مترا، ومن الواضح أنه كانت توجد هناك دعامة أو مبنى مشابه فى وسط الخندق لكى تحمل الجسر أو القنطرة ، وكان يمكن الدفاع عن هذه القنطرة بسهولة وذلك من كل الأبراج الجانبية والفتحات المخصصة لرمى القذائف وهى الفتحات الموجودة على جانبى القنطرة ، وعلى أحد جانبى القلعة كانت القنطرة تفضى مباشرة خلال بوابة ضيقة إلى الحجرات المقبية الواقعة فى الستر الخارجى ومن هنا كانت تفضى إلى السور الخارجى للقلعة .

وكان البرج العظيم يمثل الوحدة المعمارية الثالثة من وحدات بناء القلعة ، حيث كان يقع فى الجزء الشرقى من القلعة ، وكان يعتبر من الناحية الطبيعية أقوى نقطة فى القلعة حيث يطل على المنحدر شديد الانحدار ووادى نهر الأردن الذى ينخفض عن سطح البحر بحوالى ٤٥٠ مترا، وقد اختار الصليبيون الحافة الشرقية للسهل الواسع المرتفع (Plateau) وكانت هذه الحافة الشرقية للسهل أقوى جزء فى تحصيناتهم ودفاعاتهم . ويبدو أن هذا غريبا حتى نعرف أن هذا البرج قلما كان يؤدى وظيفته بسبب الطبيعة وكانت الأشياء المحيطة به محكمة الاغلاق عن طريق المنحدر الشديد الصناعى ، الأمر الذى جعل منه بمثابة مكان أخير وملاذ. وكان البرج العظيم يستطيع أن يقاوم الحصار طويل الأمد، حتى ولو سقطت الأجزاء الأخرى من القلعة . ومن الناحية الوظيفية كان هذا البرج العظيم يعتبر برجًا حصينًا يتحرك من المكان التقليدى عند مركز القلعة أو عند جانبها الأضعف الواقع خلف خط الأسوار الخارجية ؛ ويستطيع المرء أن يقارن بين هذا البرج وبين برج حصين يرجع إلى عصر سابق عن الوجود الصليبى، وكان هذا البرج متصلاً بالتحصينات الخارجية برباط غير محكم ولسوء الحظ فإن هذا الجزء من التحصينات قد أصابه الدمار بشكل كامل، ويستطيع المرء أن يحدس فقط بالمكان الأصلى لهذه التحصينات ولكى نقيم الوظائف الحربية لهذه التحصينات بشكل صحيح فإنه يجب علينا تتبع ارتباط البرج العظيم بالتحصينات الشرقية للقلعة ، وعلى الرغم من وجود مثل هذه الرابطة وهذا الارتباط بشكل واضح، فإن هذا البرج العظيم كان تقريبا وحدة دفاعية مستقلة بذاتها. وبينما كانت عملية الاختراق من خلال الأسوار الخارجية للقلعة تؤدى بالعدو إلى الظهور المفاجىء أمام القلعة الداخلية مباشرة، ويستطيع هذا العدو المهاجم أن يسقط القلعة الخارجية والداخلية فإن البرج العظيم خلال تلك الظروف يظل سليمًا لايصاب بسوء من جراء هذا الهجوم المفاجىء ضد القلعة. وعلى الجانب الآخر، فإنه من المستحيل أن نرى أى دور

دفاعى للبرج العظيم. إذ كان سطح البرج العظيم أقل ارتفاعًا من أسوار القلعة ، ومثل هذا يعتبر موضع شك، وهكذا فإن هذا البرج لايمكن اعتباره بمثابة مبنى قدر له أن يقوى ويؤازر الجانب الأضعف من القلعة، ولكن هذا البرج كان بمثابة الملاذ والملتجأ الأخير لحامية القلعة فى حالة سقوطها بيد العدو المهاجم .

لقد شيد الجزء الشرقى من القلعة على شكل أخدود طبيعى منحدر ، بيد أن سطحها المستوى عند القمة كان يشيد لكى يشكل فضاء عند مركزها إلى مسافة معينة من البرج . وكان البرج الضخم عبارة عن صندوق كبير مستطيل الشكل (طوله ٣٠ متراً × عرض ١٨ متراً) ويظهر خاليا من التعبير المعمارى فى الجهة الرئيسية إلى الشرق ، ولكن يلاحظ على كل طابق من طوابقه وجود فتحات على جدران هذه الطوابق لاطلاق القذائف والسهام على العدو. وكان هناك باب خلفى صغير فى شطره الجنوبى يؤدى إلى فضاء مفتوح حول البرج. وكان البرج يتصل بالقلعة الرئيسة من جهة الركن الشمالى الشرقى، حيث كان يوجد سلم على شكل حرف L يقود خلال ممر معقود (مقنطر Vaulted) بين الأسوار إلى الركن الشمالى الشرقى وأبراجه المزدوجة . وكان يمكن اغلاق هذا الممر فى أوقات الخطر، وهكذا كان يمكن عزل وفصل البرج بشكل كامل.

كان اتساع الطابق الأرضى لبرج العظيم، يزداد عن ٥٠٠ مترا مربعًا ، إذ كان الطابق الأرضى للبرج عبارة عن صالة ضخمة كبيرة تنقسم إلى صحنين بواسطة صف من الأعمدة القائمة . ومن الممكن أن نتخيل أن مبنى البرج المكون من طابقين كان ارتفاع الطابق الأسفل منه يعادل ضعف ارتفاع الطابق الأعلى، ويقينًا كانت فتحات الرمى الموجودة على جانبى طوابق المبنى أقل أهمية من تلك الفتحات الموجودة على سطح البرج، هذه الفتحات التى كانت تفسح مجالا واسعًا للعمل أمام رماة السهام والمنجنيق والمدافعين عن القلعة . فإذا أقام أى عدو معسكره أسفل هذا المنحدر للبرج العظيم فإنه يصبح هدفًا سهلا أمام القذائف الصليبية ، حيث كان من السهل اتخاذ مواقع دفاعية فى المنطقة المحيطة بالبرج وفى المداخل الشرقية للقلعة (وهى التى تبعد عن البرج بحوالى ٤٠ متراً) .

ففى الجهة الشرقية من البرج كان يوجد نظام متقن ومحكم من المداخل المؤدية إلى القلعة. وفى الجهة الجنوبية الشرقية كان يمكن الدفاع عن فرقة من الجيش الخماسى وذلك عن طريق خط ثلاثى من الدفاعات والتحصينات المشيدة ، وكانت الجهة الخارجية عبارة عن سور مصمت ،

ويليه وعلى مسافات متساوية (٥ أمتار) صفان متوازيان من الأسوار المزودة بفتحات لاطلاق القذائف ، وكان هذان الخطان من الأسوار يتصلان ويتلاقيان فى الجنوب عن طريق مدخل والبرج القوى المشيد فى أحد زوايا القلعة . ومن هنا كان يوجد ممر يؤدى إلى بئر صغير، يقع إلى الجنوب من القلعة بحوالى ٥٠٠ متر . وعلى الأرجح فإن هذا الممر كان يؤدى أيضا إلى وادى نهر الأردن وإلى جبل عوف عبر الأردن . وهنا كان يقام جسر فوق الخندق أسفل البرج القوى المشيد فى الجهة الجنوبية الغربية . وكان هناك سلم صغير على شكل حرف L يصل بالشخص من خلال منعطف إلى بوابة قنطرية الشكل . هذه البوابة التى كانت تغلق بواسطة اثنين من الأبواب (وكانت هذه البوابة تحتفظ جيداً بفتحات للمحاربين وثقوب مفتوحة لرمى القذائف) ، بيد أن كل هذه الفتحات والثقوب كانت تغلق أيضًا بواسطة شعرية حديدية (كانت تحكم مدخل الحصن من الداخل) وهى الشعرية التى كانت تنحدر إلى ثلمات (أخدود) من برج الهجوم المربع الذى يعلو البوابة.وكانت البوابة تؤدى إلى الحجرات المقبية داخل أسوار القلعة أو إلى فضاء يتصل بالسور الخارجى للقصر . ويبدو أن المدخل المؤدى إلى بوابة الأسوار الواقعة فى الركن الشرقى من القلعة كان متقنًا ومحكمًا . وكان هناك باب خلفى أو بوابة صغيرة وسلم على شكل حرف Z يؤدى إلى القلعة الداخلية بين الأبراج المزدوجة . وعند هذه النقطة الأساسية، فإننا نتردد فى أن نعزو وظيفة أو مهمة محددة لهذا المدخل إلا إذا سلمنا بوجود قنطرة أخرى عبر خندق أو وجود طريق يؤدى من وادى الأردن إلى القلعة . فإذا كان المدخل الرئيسى يستخدم لغرض معين فإنه يمكن أن نفترض هنا أن المدخل الرئيسى المؤدى للقلعة كان أكثر أهمية من ذلك المدخل الموجود فى الجهة الأخرى من القلعة وذلك إذا كان هذا المدخل الرئيسى قد خصص لغرض معين. وكانت الطرق والبوابات المؤدية إلى هذه المداخل توجد فى موقع بحيث تكون القلعة على يمين أى شخص يدخلها (وتعتبر قلعة مونتفورت خير مثال لذلك) وهذا الموقع خلق عقبة وعائقًا أمام العدو المهاجم الذى يهاجم القلعة من الجهة اليمنى.

قلعة مونتفورت Montfort

تمثل قلعة مونتفورت نموذجًا جيداً من أنماط التحصينات والدفاعات الصليبية حيث ساهمت

---

* مونتفورت : جاء أول وصف علمى دقيق لهذه القلعة على يد أمين متحف الفن بنودورك ، وذلك بعد أعمال الحفائر الأثرية التى أجريت فى مكان القلعة فى عام ١٩٢٦ .

الطبيعة كثيرا فى تقويتها . وإذا كان المعمارى الذى صمم ونفذ قلعة بلفوا Belvoir قد مارس عمله هذا بحرية مطلقة من حيث تصميم المبنى، وتحديد شكل وحجم مبنى القلعة، فإنه من المؤكد أن الحال قد اختلف بالنسبة لتصميم قلعة فرسان التيوتون فى مونتفورت. وبداية يمكن القول أن موقع قلعة مونتفورت قد اختير بشكل لايتفق أو يتناسب مع الأهمية الاستراتيجية لهذه القلعة، إذ أن هذا الموقع لم يجعل منها حامية عسكرية كبيرة، ولم يجعل منها أيضًا قلعة تتحمل حصاراً طويل الأمد. فقد حصل فرسان التيوتون على هذه القلعة التى كانت تقع فى مكان منعزل عن مدينة عكا. إذ كانت هذه القلعة تقع وسط عدد من الاقطاعات والضياع فى تلك المنطقة القريبة من المقر أو البيت المحصن عند معلية Mlilay (قلعة الملك Chateau de Roi) وهى القلعة التى اختير موقعها بشكل فعال. وأخيرا فإن موقع قلعة مونتفورت هو الذى حدد مصيرها .

ومن الوادى العميق عند سفح هذ القلعة يستطيع المرء أن يصبح فى مواجهة مقدم سفينة عملاقة تمخر عباب النهر خلال تلال الجليل الخضراء. وكان هناك منحدر شديد يبرز من قاع نهر قورين Qurein فوق مستوى سطح البحر بنحو ١٨٠ متر ، وكان هذان الواديان يتقاطعان عند النهاية الغربية الضيقة لهذا الوادى الواقع عند سفح قلعة مونتفورت ويغلقان أنف الجبل فى الشمال والجنوب . وقد بدأ فرسان التيوتون تشييد قلعتهم هذه (مونتفورت Montfort على هذه السلسلة من التلال والجبال وذلك فى الفترة من ١٢٢٦ إلى ١٢٢٩ م.

لقد جاء التصميم المعمارى لهذه القلعة لكى يتغلب على تلك المشكلة العويصة المتعلقة بتزويد مبانيها بفناء على قمة الجبل . ويبدو أن الأموال اللازمة للبناء لم تكن وفيرة . لقد كان هناك العديد من المبانى الصليبية التى شيدت من الأحجار الفقيرة واستخدم الجير فى طلاء الأجزاء الداخلية الخشنة منها وكانت قلعة مونتفورت نموذجًا لهذه المبانى الحجرية الصليبية الفقيرة. وأن ما حدث بشأن تعديل التصميم المعمارى الباكر لهذه القلعة والذى كان الغرض منه مواجهة المتطلبات الجديدة كان أكثر تهوراً ولايتفق جيداً مع التقليد الألمانى. ومن اللافت للنظر أن امكانيات قلعة مونتفرت كانت متواضعة تمامًا إذا ما قورنت «بقلعة الحاج» الضخمة وهى القلعة المعاصرة لها. ومع ذلك ، فإن بعض أجزاء قلعة مونتفرت قد شيدت من الأحجار الجيدة ، الخ . وكانت القلعة تقع فى أقصى الشرق وكانت الأجزاء المكسوة بالأسمنت تقع على المنحدر الجنوبى، وربما عانى القائمون على تشييد هذه القلعة من نقص فى الأموال اللازمة

للبناء، أو أن الأجزاء المعرضة للهجوم من هذه القلعة لم تجد الاهتمام اللازم مثل باقى أجزاء المبنى.

كان موقع قلعة مونتفرت منفصلا عن أنف الجبل، وإلى الشرق من هذا الموقع كان يوجد خندق عميق واسع يتقاطع مع الجبل . وهكذا كانت قمة الجبل معزولة ومنفصلة وممتدة ذات انحناء بسيط، وكان طول هذه القمة حوالى ١١٠ متر وعرضها ٢٠ مترا × ٣٠ مترا . ولم يستطع فرسان التيوتون أن يشيدوا قلعتهم فى قمة سلسلة الجبال الأمر الذى جعل قلعتهم تعوزها القدرة على الدفاع مثل أى حصن قوى.

وهكذا فإن الميزات الطبيعية هى التى اضطلعت بشكل فعال بمهمة الدفاع عن هذا المكان . إذا كان الخندق الضخم الموجود أسفل الحصن يقوم بحماية الجزء الشرقى من القلعة . وإضافة إلى ذلك ، فإن حجم العمل الضخم قد شارك فى تقوية المنحدرات الجنوبية والشمالية للهضبة . وقد استخدم نمط معمارى جيد فى عملية تكسيتها بالحجارة ؛ إذ كانت الأحجار المستخدمة فى التكسية ذات «أحجام كبيرة ومحدبة الشكل لكى تعوق عملية التسلق والصعود إلى القلعة. وكان الآجر (القرميد) الذى يغطى سقف القلعة متداخلاً لكى يصعب عملية تسلق القلعة. وكان يوجد بقايا سور وسط هذا المنحدر ، بيد أن ثمة شك حول ما إذا كان هذا السور قد طوّق كل الهضبة وأن الوظائف والمهام الدفاعية لهذا السور غير واضحة. واننا نميل إلى الاعتقاد بأن دفاعات هذه القلعة كانت تعتمد على الساتر والغطاء الذى توفره أسوارها.

لقد كان مبنى الحصن يعلو الطابق الأرضى للقلعة بعدة أمتار وكان يمكن الوصول من المدخل إلى داخل القلعة بواسطة سلم قصير. وعلى الرغم من المنظر الرائع للقلعة ، حيث أحجارها الرائعة وشبابيكها المسننة المحددة، فإن الوظيفة الحربية فقط للقلعة كانت تنحصر فى حماية وحراسة جسر متحرك فوق الخندق الصناعى . ولم يكن لهذه القلعة وهذا الحصن أهمية دفاعية. وذات مرة سقطت القلعة فى يد العدو، وتجمع أفراد الحامية وتكدسوا داخل الفناء الضيق للبرج (١٣ متر × ١٠ أمتار) وأصبح من السهل أن يموت أفراد الحامية من الجوع .

وبجانب الحصن ، فإن مبنى القلعة كان يشمل ثلاثة أو أربعة أجزاء رئيسة، وذلك إذا ما أضفنا الطابق العلوى الذى ثبت وجوده عن طريق بقايا السلم. وعلى الأرجح فإن الطابق الثانى لمبنى القلعة كان يستخدم أماكن للسكنى والمبيت وأيضا مكاتب ادارية لحامية القلعة. وكان التحرك من الغرب إلى الشرق يعنى التحرك من شفا الكارثة (جرف) إلى الحصن، وكان أول

ما يصادفنا خلال التحرك هى «الصالة الكبرى» وكانت هذه الصالة الكبرى أهم الأجزاء المعمارية فى القلعة . وكان انحدار قمة التل أو الهضبة عند نقطة تشكل أساسًا قويا وهو الشىء الذى تحتاج إليه القلعة من الناحية الاستراتيجية : إذ كان هناك اثنتان من الحجرات المقبية ذات المنظر البشع المروع، وكان سقف هاتين الحجرتين يبدأ من الطابق الأرضى للصالة . لقد كانت «الصالة الكبرى» أجمل جزء فى القلعة، إذ كانت عالية البنيان واتساعتها يبلغ (١٧متر × ١٧مترا) ويتوسطها عمود مثمن الأضلاع يبلغ ارتفاعه ٣ أمتار . ومن هنا كانت الدعامات المسننة والبوائك والقناطر الواقعة بين أقواسها تخرج ، وتتقاطع عند قمة العمود (١٨ متر) ، وينحدر نحو أعمدة ثلاثة مشيدة فى الأركان وفى وسط كل حائط . وكانت الصالة الشامخة ، والعمود المثمن الأضلاع الضخم القائم فى وسطها والقناطر الواقعة بين أقواسها مثيرا للاعجاب، وكانت نسخة مطابقة لوادى القورين الشهير من الناحية المعمارية. وكان هناك باب فى الحائط الشرقى للصالة الكبرى يؤدى إلى الحجرة التالية لها، ومن المحتمل أن هذه الحجرة كانت تستخدم كمصلى أو كنيسة خصوصية صغيرة . وكانت هذه الكنيسة الخصوصية واسعة إذ كان اتساعها (طولها ٢١ مترا وعرضها ١٥ متراً) وكان لديها صحنان ، ينقسمان وينفصلان عن بعضهما بواسطة خط واحد من الأعمدة الصليبية الشكل . وهنا يمكن القول بأن نوعية الصنعة والعمل فى هذه العمارة كان أقل جودة ، إذ أن نصف أعمدة خط التقسيم الذى يفصل بين صحنى الكنيسة لم تكن تدخل فى الحائط ولكنها كانت تقف حرة بعيدة عن الحائط بطريقة غريبة ، كما أنه لم تستخدم هذه الأعمدة فى تقوية حائط الطوابق السفلى من المبنى ولا فى تقوية الأسوار الشرقية والغربية المتوازية . ومن ثم فإن الكنيسة كانت على شكل شبه منحرف.

لقد صمم الجزء الثالث من القلعة لكى يكون بمثابة كنيسة صغيرة The Chapel ومن ثم فإن هذا الجزء كان مقسمًا إلى حجرات صغيرة مبنية بشكل غير متقن ، وكان التصميم الأصلى لهذا الجزء يجعل السور الجنوبى للقلعة بمثابة السور الداخلى للحجرات وأيضا بمثابة سور موازٍ لذلك السور المشيد ناحية الشمال . وكانت مساحة سقف هذه الساحة الرباعية للكنيسة (٢٣ مترا × ٧ أمتار) ، وقد ارتكزت هذه الساحة الرباعية للكنيسة على أقواس معمارية مسننة وركائز تقام على أربعة أعمدة عليها حروف مسمارية فى وسط سقف هذه الساحة الرباعية الزوايا، بالإضافة إلى أربعة أعمدة نصف متداخلة على امتداد الأسوار .

وهكذا كانت القلعة مكونة من ثلاث وحدات معمارية رئيسية، وكانت هذه الوحدات والأجزاء منقسمة، ولاشك أن هذا الانقسام كان بفعل الظروف الاقتصادية. وكانت هذه الأجزاء الرئيسية لمبنى القلعة مطوقة بالأسوار، وكانت الحواجز الحجرية تقسم اثنين من الوحدات الرئيسية لمبنى القلعة إلى خمس حجرات صغيرة وهى الحجرات التى كانت تستخدم فى الاقامة والمبيت . ومن المحتمل أن الحجرة الشرقية التى احتفظت بحجمها الأصلى قد استخدمت كمطبخ للقلعة . وكان الجزء الشمالى لمنطقة القلعة يؤدى مهمة الاتصال بين شرق القلعة وغربها بالإضافة إلى القيام ببعض المهام اليومية والحياتية لسكان القلعة . ويمكن التثبت من هذا من خلال البئر الذى كان يحتفظ بحوضين لعصر الزيتون، وقد كشفت الحفائر الأثارية التى أجريت فى الجهة التى كان يوجد بها مطبخ القلعة عن وجود ورشة للحدادة.

وكان يوجد وراء منطقة القلعة هذه نوع من المدخل المسقوف والمبلط ويتصل بسلم يؤدى إلى الحصن . وقد اكتشف أن الطرف الجنوبى لهذا المدخل المسقوف كان يحتوى على بوابة تؤدى إلى المنحدر الجنوبى للقلعة وربما إلى الممر الذى ينحدر من القلعة إلى أسفل الوادى.

قلعة الحــاج

لقد قام فرسان الداوية- وبمساعدة مواطنيهم القادمين - ببناء قلعة عند منطقة عثليت، وذلك قبل أن يبدأ فرسان التيوتون فى بناء قلعتهم عند مونتفرت بعشر سنوات، وكانت قلعة الداوية عبارة عن نتوء جبلى بارز داخل البحر يقع بين حيفا ويافا، وهنا استطاع فرسان الداوية أن يشيدوا قلعة من أعظم وأهم القلاع التى شيدها الصليبيون فى منطقة الشرق العربى الإسلامى، وقد عرفت هذه القلعة باسم قلعة الحاج، وهو الاسم الذى يدل على تفوق وكمال بناء هذه القلعة. وكان بناء هذه القلعة يتفق تمامًا مع الفترة التى شاهدت تنامى الضغط الإسلامى على امتداد الحدود المنكمشة والمتقلصة للمملكة الصليبية الثانية والتى اعتمد وجودها وبقاؤها بشكل أساسى على المدن الساحلية المحصنة . وبحلول عام ١٢٥٢م حاول الملك الفرنسى لويس التاسع تحصين المدن والقلاع الصليبية على ساحل البحر من صيدا فى الشمال إلى يافا فى الجنوب، وذلك بواسطة حزام ونطاق من الأسوار الحجرية.

ومما يذكر أن طريقة حل المفصلات المعمارية والعسكرية فى تشييد قلعة الحاج يكشف عن براعة وموهبة الصليبيين المعمارية فى أعلى ذراها، ويشهد على ذلك الأطلال والبقايا المعمارية

لهذه القلعة- والتى أصبحت علامة حدود لسهل شارون- والتى تؤكد براعة الصليبيين فى مجال العمارة العسكرية، وهى المهارة والبراعة التى تتفوق على مالدى الآخرين . ويمكن مقارنة القلعة الكبيرة للداوية عند صفد والتى شيدها فرسان الداوية قبل جبل من بناء قلعة الحاج بقلعة الحاج . بيد أنه من المؤسف أن قلعة صفد قد اختفت تحت بنايات وانشاءات قلعة الحاج وقد كشفت الحفائر الأثارية التى أجريت فى موضع هذه القلعة عن مقارنة فقط بن البقايا المادية للقلعة السابقة (قلعة صفد) والأوصاف التى ذكرتها المصادر التاريخية الأدبية للقلعة اللاحقة (قلعة الحاج) .

وقد تحدد شكل معظم بناء قلعة الحاج من خلال وجود نتوء جبلى داخل البحر مربع الشكل يحيط البحر من ثلاثة جوانب ماعدا جهة الشرق، وتتحكم فيها هضبة صغيرة دائرية تقع فى وسطها، وكان طول هذا النتوء الجبلى حوالى ٢٨٠ مترا وعرضه حوالى ١٦٨ مترا (وهى الأبعاد القصوى) وكان ارتفاع الهضبة حوالى ستة عشر متراً . وقد تم بناء كل هذا المنطقة (والتى يبلغ مساحتها حوالى ١٢ أكر أى ٤٨ ألف متر مربع) فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، على الرغم من أنه فى البداية كان من المتصور أنه لايمكن تشييد أكثر من ربع أو ثلث مساحة هذه المنطقة التى شيدت بها قلعة . وثمة شك حول ما إذا كان التصميم الأصلى لهذه القلعة مزوداً بحصن مطوق لسور مزدوج . وقد شيد الخط الثانى من خطوط الدفاعات (ماعدا الجهة الشرقية) بعد بناء القلعة ، ولم يكن الغرض من بناء هذا الخط عسكريا ، ولكن بسبب الحاجة الملحة لمكان اضافى للاعاشة والسكنى وقد أصبح هذا مطلبًا ملحًا ولاسيما عندما تقلصت حدود المملكة الصليبية الثانية حوالى عام ١٢٥٠م . وعندئذٍ أصبحت الحياة والأمن شيئين مترادفين وقد وضعت حلول لهاتين المفصلتين بشكل متزامن.

ويمكن مناقشة النظام الدفاعى لهذه القلعة من خلال ثلاثة أوجه : الأول وهو الدفاع عن الجزء الشرقى المعرض للخطر، والثانى هو الدفاع عن الجناح الداخلى، وأخيراً الدفاع عن الانشاءات والبنايات الداخلية الاضافية والمقامة حول خط الأسوار الخارجية للقلعة.

وكما ذكرنا آنفا، فإن كل مهارة وبراعة المعماريين من الداوية قد تركزت في الجزء الشرقى من القلعة. وهنا لم تبرز الأرض المسطحة ولم تظهر فوق مستوى سفح البحر القريب والمجاور. وهكذا فإن المشكلة والمعضلة العسكرية الرئيسة كانت تتمثل فى كيفية وامكانية احكام إغلاق قمة الجبل الداخلة فى البحر عن المنطقة المحيطة بها. ومن الواضح أن خندقًا صغيراً لم يكن

كافيًا ، وذلك لأن السهل المفتوح الواقع وراء القلعة وخلفها كان يمثل خطرا على القلعة إذ كان مكانا استراتيجيًا ممتازا للعدو- على الرغم من أن خندقًا جيداً كان كافيا لإعاقة هجوم العدو المباشر على الأسوار بواسطة الكباش التى تدك الأسوار . وهكذا فإن الدفاعات والاستحكامات كانت تعمل بنجاح متمثلة فى أدوات مثل الخندق ، والأسوار القوية، وخط البرج الذى كان يمكن المدافعين من استخدام كل الواجهة والجهة الممتدة والطويلة (والتى طولها حوالى ٢٠٠ متراً) كقاعدة متعددة الصفوف لاطلاق السهام والمنجنيق . وهكذا فإن خط الأسوار الثانى فى الجهة الشرقية كان يقوم بمهمة مزدوجة : الأولى كانت تقوية خط النار الأول، والمهمة الثانية هى أن يصبح حصنًا رئيسيًا للدفاع فى حالة سقوط خط الدفاع الأول فى يد الأعداء.

وفى المنطقة المغلقة والواقعة بين جدار الخندق الخارجى المكسو بالأحجار والسور الأول، كان يوجد خندق يمتد من الشمال إلى الشاطىء الجنوبى بمسافة تصل تقريبًا إلى ٢٠٠ متراً . وكان جدار الخندق الخارجى يتصل بالبحر عند كل من الحافتين الشمالية والجنوبية ، وهكذا ساهم هذا الخندق فى منع واعاقة قوات العدو من اجتياح القلعة خلال المياه الضحلة وخط الدفاعات الرئيسى والقريب والذى لايمكن اختراقه .

وكانت هناك بوابتان معقودتان (على شكل قوس ∩) فى الجدار الخارجى للخندق تؤديان إلى مدينة صغيرة نشأت عند سفح القلعة وذلك خلال ممر ضيق .

وكان اتساع الخندق ١٨ متراً، ومن المؤكد أنه كان جافا خاليًا من الماء (مع أنه فى موقف مشابه فى مدينتى صور وقيسارية، كان ماء البحر يستخدم فى تزويد الخندق بالماء) وكان هذا الخندق يمتد إلى حائط السور إذ كانت الأبراج تبرز مباشرة من قاعدتها . وكان الشكل غير المألوف والأكثر غرابة فى التحصينات والدفاعات الصليبية هو أن السور والبرج كانا لايحتويان على منحدر . ونظرا لأن «قلعة الحاج» قد شيدت فوق أرض مسطحة قريبة من البحر، فإن العدو كان يستطع أن يهاجمها من ناحية البحر مباشرة وهكذا فإنه لم يكن هناك حاجة لوجود منحدر ، وكان الحجم والضخم للأسوار الخارجية والأبراج يجعل من عملية إحداث حفر تحت أساسات هذه الأسوار لتقويضها غير ذات جدوى.

ولم توجد قنطرة فوق الخندق وكان حراس القلعة وحاميتها يرصدون بأعينهم حركة أى شخص يتحرك صوب الخندق أو من يتحرك خارجة ، أو أى شخص يتحرك صوب إحدى البوابات الثلاث للأبراج المقامة فى السور الخارجى وكان هذا السور مشيداً من أحجار معدة

بشكل جميل . وبعض هذه الأحجار ذات أحجام ضخمة مثل بناء معبد هيرودس فى مدينة بيت المقدس . وكان هذا السور يمتد على طول امتداد شِقة الأرض الضيقة . وكان ارتفاع كل برج من الأبراج الثلاثة ١٦ متراً ، وهى الأبراج التى كانت تقع على امتداد الحصن بشكل متناسق ، ومثل هذه الأسوار الخارجية كانت تعمل كمراكز أمامية لمقاومة العدو وصده . وكانت المداخل المزدوجة تقع داخل الأسوار رباعية الزوايا والأبراج الناتئة . وكانت الفتحات الأمامية المنتشرة على الأسوار بمثابة فتحات وثقوب متقنة لاطلاق السهام والقذائف على العدو، إذ كان يوجد عشرون فتحة على كل شرفة خارجية للجدار من الشرفتين التى تعلو بعضهما الأخرى والمركبتين فوق بعضهما . وكانت هذه الفتحة (الكوة) الموجودة فى جدار الحصن تتسع لاثنين من المحاربين يعملان فى وقت واحد ، بحيث يستطيع أحد المحاربين أن يطلق سهمه فى حين كان المحارب الآخر يعد القذيفة الأخرى ويصبح جاهزاً لاطلاق سهمه هو الآخر وهكذا كان فى الامكان اطلاق أربعين قذيفة فى وقت واحد من الخط المزدوج للأسوار والأبراج. وكانت المسافة بين وسط القلعة وبين خط الأبراج تبلغ تقريباً ٤٦ متراً، الأمر الذى كان يضمن فعالية القذائف التى تنطلق من الفتحات المزودة بها الأبراج ومن الفتحات الموجودة على سطح الحصن. لقد كان من الصعب الدفاع عن البوابات المسننة للأبراج . إذ كان يمكن رفع وخفض الأبواب المزدوجة وكذلك الشعرية الحديدية التى تحمى مدخل الحصن وذلك بواسطة روافع توجد فى الطابق الثانى للقلعة، وعندئذ يصبح المدخل مكشوفًا وتصبح أرض المعركة المواجهة للبوابات مكشوفة أمام فتحات القذف الموجودة فى الطابق الأول ، وأحيانًا كانت هذه الفتحات فى شكل كسوات حجرية ناتئة من جدار الحصن . وهكذا فإنه من السهل أن نتيقن تماما من حقيقة أن معمارى هذه الفترة كانت لديهم المعرفة الكاملة بجيل وخدع المعركة والحرب، وذلك من خلال التصميم المعمارى الذى لبى حاجة ترتيبات واستعدادات المعركة.

ويستطيع المحارب بعد أن يجتاز منعطفًا حاداً على شكل حرف "L" من جهة بوابة البرج أن يظهر للعيان إلى خارج الفناء الخارجى المسور للقلعة وذلك بعد أن يجتاز زقاقا طويلا وواسعا (طوله ١٨ متر وعرضه ١٠ أمتار فى مواجهة الأبراج الكبيرة) عبر شقة الأرض الضيقة. وكان الخط الثانى من الأسوار أقل ارتفاعًا بنسبة بسيطة من أسوار الخط الثانى، وذلك بسبب قنة الجبل الضيقة. وعلى النقيض ، فإن الجزء المركزى للسور بين الأبراج الكبرى كان أكثر سمكا من السور الخارجى، وكان هناك ممر فى داخل الأسوار يسمح بحرية الحركة للفارس من خلال نفق طويل معقود ومكشوف .

لقد كان الخط المزدوج من الأبراج الضخمة يعتبر جزءاً متمماً لدفاعات القلعة، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هذه الأبراج تستخدم كأماكن اقامة للسادة الاقطاعيين. وكانت المنطقة الواقعة خارج الطابق الأرضى خالية وكان الطابق الأول مزوداً بثقوب وفتحات لاطلاق القذائف على العدو وكانت هذه الثقوب تغطى السور الخارجى للقلعة . وكان الطابق الثانى للقلعة يبدأ عند مستوى ارتفاع السور الخارجى لها ، وقد تميز بأنه بناء معمارى ضخم . ومن هنا كانت الأسوار تبرز بارتفاع ١٦ متراً ، وكانت قمتها المسطحة تستند على دعامات معقودة تبدأ من عمود قوى يوجد فى وسط المكان. وكانت دعامات العقود والأضلاع المساعدة تستند على أعمدة تستخدم كحوامل فى الأسوار. وقد بنيت هذه الأعمدة (الحوامل) فى البرج الشمالى الكبير وكانت هذه الحوامل تنحنى مع مقدمات وقمم أحادية توجد على الجوانب وكانت توجد ثلاثة أعمدة حاملة فى الوسط. ويقيناً أن هذه الحجرات الفخمة كانت تستخدم فى عقد الاجتماعات الخاصة بالحفلات والمواعظ الدينية وفى حالات الاستقبال . وكان يعلو هذه الحجرات شرفة مزودة بفتحات لاطلاق القذائف على العدو وذلك لحماية رماة السهام والمنجنيق. ولما كان ارتفاع قمة الأبراج والسور المتصل بها يبلغ حوالى (٣٤ متراً) وكان هذا الارتفاع يعلو السور الأول الخارجى بستة عشر مترا ، فإن أفراد حامية السور الثانى كان فى استطاعتهم أن يطلقوا سهامهم بحرية تامة فى وضع أعلى من رؤوس أفراد حامية السور الأول دون أن يصاب أحد من زملائهم . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأبراج الكبيرة كانت منتظمة فى سلسلة بين ثلاث بوابات خارجية لهذه الأبراج ، هذه البوابات التى كانت تكفل غطاء المنطقة الواقعة أمام القلعة بوابل من القذائف على العدو المهاجم .

وكان يوجد خلف هذه الدفاعات المحكمة تل أو هضبة ذات ارتفاع منخفض يبلغ ارتفاعها حوالى ١٦ متراً ، وكانت هذه الهضبة بمثابة منطقة حماية داخلية للقلعة . وعلى الرغم من ارتفاع الطابق الأول للأبراج الكبرى ، فإن هذا الطابق كان عبارة عن ساحة فسيحة رباعية الزوايا أبعادها (١٢٨ متراً × ٦٢ متراً) . وفى الأصل كان للطابق الأول للأبراج الكبيرة أيضا خط من الأسوار يطوق الجهات الثلاث الباقية ، ومن المحتمل أن خط الأسوار هذا كان يطوق الأبراج الواقعة فى أركان القلعة . بيد أن السور والأبراج أصبحتا أشياءً غير ضرورية ولاسيما عندما تم انشاء مبان اضافية وراء منطقة الحماية الداخلية للقلعة . وبرغم ذلك، فإن السور القديم لم يدمر بشكل كامل، وفى بعض الأماكن كان هذا السور يعتبر مكملاً للسور الخارجى

للأنفاق الطويلة والضخمة التى كانت تحت الأرض والتى كانت تستخدم بمثابة مستودعات ومخازن للمؤن والعتاد . وكان الدخول إلى هذه المخازن والمستوعات عن طريق درجات متواصلة من درجات سلم تنحدر من الطابق الأرضى للأبراج الكبرى. ومما يذكر أن هذه المخازن والمستودعات كانت عبارة عن حجرات تحت الأرض يبلغ ارتفاعها ١٦ متراً ، وطولها ٦٧ متراً ، وعرضها ١٠ أمتار . وكان يمكن تخزين مؤون لاتنفد ولاتنضب فى هذه المستودعات والمخازن. وكانت عملية نقل المؤن والعتاد المخزونة من القبوات الموجودة تحت سطح الأرض تتم عن طريق الفتحات الموجودة فى السقوف المعقودة للمخازن وذات الشكل الاسطوانى.

وكان يوجد سرداب صغير عند الحافة الغربية لمنطقة الحماية الداخلية للقلعة. وقد تم تشييد هذا المبنى الطويل قليلاً والمتقوس بشكل يدل على الاهمال والتهاون ، وكذلك فإن الأسرار الشمالية والغربية لم تكن على خط مستقيم . بيد أنها كانت على شكل مثلث على نحو رووء . ويمكن أن نعزو هذا فى ضوء حقيقة أن استخدام أى سور لم يكن يتلاءن مع المتطلبات الجديدة . وكانت الدعامات التى تستند عليها ملتقى العقود المتقاطعة تتلاقى مع زهرة أحجار العقود المنحوتة وتنحدر إلى قدر يشبه الدعائم المثلثة الشكل وهو ذلك النوع من الدعائم الذى كان موجوداً فى عكا فى ذلك الوقت . وكان هذا يشكل حجرة صغيرة للاجتماعات .

وكانت الكنيسة المتعددة الأضلاع تعتبر من الأبنية الرائعة الموجودة فى نقطة الحماية الداخلية للقلعة، وقد جاء النمط المعمارى لهذه الكنيسة تقليداً لكنائس فرسان الداوية، والتى كانت كنائسهم فى داخل الأراضى المقدسة وخارجها تقليداً للنمط المعمارى لكنيسهم التى شيدوها فى نفس مكان مسجد عمر بن الخطاب فى مدينة بيت المقدس فى بداية الوجود الصليبى.

وكما ذكرنا آنفا منذ قليل، فإنه أحيانًا فى أثناء منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أصبحت وسائل الدفاعات الصليبية الأصلية زائدة وغير ضرورية وذلك بسبب المبانى الاضافية الجديدة. ففى منطقة شبه دائرة ممتدة من الجنوب عبر الغرب إلى الشمال ، قد شيد بها ثمانى بنايات ضخمة ، وهى البنايات التى أعطت انطباعًا بوجود خط إضافى للدفاع متحد المركز . وهكذا كانت الدفاعات والتحصينات الصليبية تزحف صوب حافة اليابسة على شاطىء البحر. وبسبب الطبيعة الصخرية للساحل ، فإن الاعتبارات العسكرية قلما كانت حاسمة ، ومن المحتمل أن زيادة سكان القلعة قد شجع على هذا التطور. وبهذا الخصوص فاننا سوف نذكر

بأن مدينة صغيرة قد نشأت عند سفح القلعة يسكنها العاملون فى هذه القلعة وأيضا الدواجن والمواشى.

وقد نشأ عن المبانى الاضافية عدداً من الأفنية والساحات الخارجية المسورة والتى كانت تنقسم بواسطة الممرات الضيقة والميادين، ويحيط بها منطقة الحماية الداخلية للقلعة والمبانى الجديدة. وعلى سبيل المثال، فإنه ربما كان المجاز الضيق الطويل (الزقاق) القريب من القبو الشمالى يستخدم كسقيفة واسطبل للخيول. وثمة منطقة مشابهة (بالرغم من أنها كانت موجودة منذ فترة باكرة) كانت قريبة من سرداب يقع عند الحافة الجنوبية لقنة الجبل . وهنا كان يوجد فناء مطوق بسور يتصل مباشرة بحاجز الماء الذى يحمى ميناد القلعة الصغير. وكانت منطقة الميناء منغلقة من الداخل بواسطة سور أحد المبانى الكبيرة الجديدة- وهو الرواق أو القصر الجنوبى- والذى كان عبارة عن مبنى ضخم مستطيل الشكل (أبعاده ٥٨ متراً × ٣٢ متراً) ، وكان ينقسم إلى صحون ثلاثة متساوية بواسطة صفين من الأعمدة . ومن المحتمل أن هذه الصالة الواسعة (القصر الجنوبى) كانت تستخدم مكانا لعقد الاجتماعات الدينية لرجال الدين من الرهبان والكهنة كما كانت المبانى القريبة والتى تقع فى الغرب والجنوب تستخدم أيضا كحجرات للطعام مخصصة للرهبان والكهنة . وكان هناك اثنان من الأفران الضخمة بالقرب من هذه الحجرات تستخدم كمطابخ لاعداد الطعام.

لقد ساهمت الجسور الممتدة فوق الطابق الأول والممتدة فوق منطقة الحماية الداخلية وفوق بعض هذه المبانى الجديدة عند الجهة الغربية الضيقة فى تسهيل الاتصالات بين هذه المبانى الجديدة وبين منطقة الحماية الداخلية وكانت هذه الجسور ترتفع عن سطح الأرض بعدة أمتار.

ومما يذكر أن قلعة الحج لم تسقط على أثر هجوم عاصف، ولكنها سقطت فى يد المسلمين بعد أن سقطت عكا فى عام ١٢٩١ ، وفرار حاميتها الصليبيين إلى قبرص .

٣- تحصينات واستحكامات المدينة

كان المفكرون الرومانسيون فى القرن التاسع عشر يتصورون أن الفرسان المحاربين الصليبيين كانوا يحاربون المسلمين من خلف قلاع جبلية مرتفعة، شاهقة مثل أوكار النسور. هذه الفكرة المثيرة الأخاذة لم تكن بأى حال مطابقة للواقع والحقيقة التاريخية . إذ أن الأراضى المقدسة فى فلسطين تضم عدداً قليلاً من الجبال الوعرة التى يصعب الوصول إليها، وفى الغالب كانت

القلاع اصليبية تشيد فى مناطق السهول والأودية، حيث كانت هضبة متوسطة الارتفاع تعطى أهمية استراتيجية لهذه القلاع الصليبية.

لقد كان هذا هو الواقع الفعلى للمدن الصليبية . فلم تكن المدن الصليبية مدنًا برجوازية بشكل مطلق، بل كانت مدنًا يقطنها طبقة النبلاء الصليبيين العاديين ، وكذلك البرجوازية والتجار الايطاليون والبروفنسال . ويقينًا كانت هذه المدن الصليبية بمثابة مراكز تجارية مهمة، بيد أنها كانت فى نفس الوقت مستودعًا رئيسيًا للقوة البشرية، وفى نفس الوقت كانت هذه المدن الصليبية ذات أهمية عسكرية واستراتيجية لاتقل عن أهمية القلاع. وأصبحت القيمة العسكرية الملازمة للمدينة الصليبية- والتى كانت ذات أهمية فى القرن الثانى عشر- أعظم أهمية فى القرن الثالث عشر ولاسيما عندما سقطت القلاع والتحصينات الصليبية فى يد المسلمين وتقلص الوجود الصليبى وانحسرت السيادة الصليبية فى المنطقة العربية فى شريط ساحلى ضيق ومحدد على ساحل البحر المتوسط.

ولهذا فإنه كان من الطبيعى أن يسعى الصليبيون من أجل تحصين مدنهم . وكانت هذه المهمة سهلة، لأن هذه المدن الساحلية كانت محصنة منذ عصر الامبراطورية الرومانية المتأخرة (الامبراطورية البيزنطية)*.إذ كان يوجد فى بعض المناطق الداخلية - باستثناء مدينة بيت المقدس- بعض المدن المحصنة مثل مدينة نابلس فى اقليم السامرة وطبرية . ويبدو أن دفاعات واستحكامات هذه المدن لم تكن قوية . وعلى العكس، فإن كل المدن الساحلية كانت محصنة تحصينًا قويًا. واليوم، ومع استثناء مدينتى يافا وغزة ، فإن بقايا واطلال التحصينات التى اكتشفت من خلال الحفائر الأثارية التى أجريت فى القرن الماضى قد أثبتت أن كل المنطقة الساحلية الممتدة من عسقلان فى الجنوب إلى بيروت فى الشمال كانت توجد بها تحصينات واستحكامات دفاعية صليبية . واعتقد أن الوصف المفصل لتحصينات المدينة الصليبية فى المنطقة العربية لايقع فى نطاق هذه الدراسة.

لقد كانت الأرض المستوية والقرب من البحر من العوامل الحاسمة فى تشكيل تحصينات واستحكامات المدينة الصليبية. إذ كان يوجد فى عدد قليل من المدن والأماكن هضبة صغيرة

---

* يعتبر المؤرخون الفترة من القرن الرابع إلى القرن السابع بمثابة عصر رومانى متأخر أو عصر بيزنطى باكر وذلك فى ضوء ظروف هذه الفترة الانتقالية ومظاهر التحول خلال هذه الفترة الانتقالية (المترجم) .

أو سلسلة تلال تطل على البحر. وعلى سبيل المثال ، فإن مدينة أرسوف، التى كانت تعرف باسم أبولونيا فى فى العصر الكلاسيكى القديم، قد شيدت على تل يرتفع عن سطح البحر بستة وخمسين قدما . فى حين كانت مدن مثل عسقلان ، ويافا ، وقيسارية ، وعكا ، وصور، وصيدا ، وبيروت ، وهى المراكز الرئيسة التى ذكرناها آنفًا ، كانت كل هذه المدن تقع على السهل الساحلى للبحر.

وكان الموقع البحرى لهذه المدن يفرض هذا النمط من التحصينات . إذ كانت الدفاعات والاستحكامات الرئيسة تتجه جهة اليابسة ، مع اتجاه قليل صوب البحر. وكانت الحواجز المائية للميناء بأسوارها وأبراجها تحمل سلاسل حديدية ضخمة (المآصر) متدلية وهى المآصر التى كانت تغلق مداخل الميناء ليلاً. وكانت مثل هذه الدفاعات والاستحكامات الصليبية توجد فى مدينة عكا ، وفى ميناء أرسوف الصغير، حيث مازالت بقايا السور ماثلة للعيان عند الحواجز المائية لحماية الميناء التى تغمرها المياه الآن. وكانت مدينة أرسوف تتمتع بوضع استثنائى، إذ كانت محصنة من ناحية البحروالبر. وكان كل انحدار السلسة الجبلية شديدة التحدر التى تقع عليها المدينة تستخدم كمنحدر طبيعى حقيقى مكسواً بمبنى حجرى ممتاز. وكانت أسوار المدينة تبرز من هذا المنحدر الطبيعى- الاصطناعى. حيث كان المعمارى الصليبى يزيل الصخور من على امتداد المنحدر لأنه من الناحية الطبيعية لم تكن هناك حاجة ملحة لتكسيات حجرية اضافية.

لقد وجد فى كل مدينة صليبية وحدتان من الوحدات الدفاعية : الأول هو خط الأسوار الذى يطوق المدينة ، والوحدة الثانية هى القلعة الداخلية وكانت معظم المدن الصليبية لديها خطا واحداً من الأسوار ، وهو الخط الذى شكله على تضاريس الأرض. فقد كانت مدينة عسقلان تستخدم أجزاءً من قمة جبل شديد التحدر ويطوقها خط من الأسوار على شكل قوس، بحيث يشكل مع الساحل خطا منحنيًا، ولما كانت التضاريس تفرض شكل التحصينات ، فإن تحصينات مدينة قيسارية كانت على شكل شبه منحرف وكانت تحصينات مدينة عكا فى القرن الثانى عشر على شكل مربع. ففى مدينة صور كانت الجزيرة القديمة تتصل باليابسة بشكل ثابت ، وذلك منذ أن قام الاسكندر الأكبر المقدونى ببناء طريق بعيداً قبل الوجود الصليبى بأربعة عشر قرنا من الزمان. وقد شكلت الرمال المتراكمة برزخًا وكان شكل الجزيرة يقضى بوجود أسوار لمدينة صور، وذكرت المصادر التاريخية المعاصرة أن مدينة صور كانت تتيه فخرا

بما كان لديها من الخط المزدوج من الأسوار جهة البحر وكذلك الخط الثلاثى من الأسوار جهة اليابسة *. ففى نهاية القرن الثانى عشر، تغير شكل خط أسوار مدينة صور وأصبح السور الجنوبى الذى أضيف ذا شكلاً رباعيا وكان هذا هو الشكل والنموذج الأصلى، وكان هذا السور يربط بين حافة التحصينيات الباكرة لساحل البحر، وقد نشأ عن هذا ضاحية مونتمزارد الجديدة المتميزة والتى كانت على شكل ثلث .

لقد كانت تقنية دفاعات المدينة الصليبية تختلف فى الهدف والغرض فقط عن تقنيات دفاعات القلاع الصليبية، وكانت المقومات الأساسية لتحصينات المدينة تتمثل فى وجود خندق للحماية يقع خارج أسوار المدينة، بالإضافة إلى منحدر خفيف ونتوء بارز من خط دفاعى، وتقريبًا كانت كل هذه الأشياء تتوفر فى الأبراج رباعية الزوايا**. ومما يذكر أن جدار الخندق كان قويًا، وقد زود هذا الخندق بتحدر مكسو بالأحجار ومبلط وزود أيضا بسور عمورى (مثلما كان الحال فى قيسارية) ، أو كان جدار الخندق طبيعيًا حيث كانت تضاريس الأرض صخرية . وقلما كان يحدث تسرب أو ارتشاح للماء فى هذا الخندق ، وذلك لأن تحدر الأسوار كان يمنع مثل هذا الارتشاح . كان اتساع الخندق يصل ما بين ١٥-٢٠ مترا مع بعض الاختلاف من خندق إلى آخر، بيد أن عمق الخندق كان يلائم تمامًا مهمة الدفاع والحماية، وكان الخندق دائما جافا (مثلما كان الوضع فى القلاع) . ولم يكن قاع الخندق مبلطا ، وذلك لأن ماء المطر يمكن أن يجف فى الأرض الرملية. ومما يذكر أن خندق قلعة الحاج كانت تغمره مياه البحر ، مع أن هذه المياه لم تتدفق إلى خندق المدينة. وثمة استثناء وحيد فقط بالنسبة لمدينة صور ، حيث كان خندق المدينة يمتد عبر البرزخ أو المضيق وكان يمكن أن يملأ بماء البحر*** .

---

* يذكر أحد الرحالة اللاتين الذين زاروا الأراضى المقدسة خلال الحقبة الصليبية وهو بوركارد من جبل صهيون أن أسوار مدينة صور التى تقع جهة اليابسة كانت سمكها ٢٥ قدما وكانت مزودة باثنى عشر برجًا. لمعرفة المزيد أنظر : . Burchard, Description of the Holy land , p. 16

** لقد عرفت الأبراج المستديرة فى أسوار مدينة عكا التى شيدت فى الفترة الأخيرة من الوجود الصليبى (فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر) (المؤلف) .

*** يذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ وصفا لهذا الخندق . لمعرفة المزيد انظر ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ١٠ ، ص١٧١ .

لقد كانت أسوار المدينة تظهر للعيان من المنحدر الخفيف، وكان خط هذه الأسوار يتقاطع مع الأبراج البارزة والانحدار الخفيف البارز. لقد كانت الأبراج عبارة عن مكان واسع منغلق تمامًا، وكان يمكن لوابل السهام المنطلقة من هذه الأبراج القريبة أن تملأ منطقة الخندق المواجهة لهذه الأبراج. ويبدو أن الأبراج كانت أعلى قليلا فى الارتفاع من الأسوار . وهكذا فان الفتحات الموجودة على جدار الأبراج والأسوار لاطلاق السهام كانت تشكل خطا مستمراً واحداً.

وإذا كانت المدينة لديها أكثر من خط من الأسور فإن النمط العام للتحصينات كان مختلفًا فى حالة مدينتى عكا وصور فى منتصف القرن الثالث عشر. ونظرا لقلة الموجودات الأثارية فإننا يمكن أن نحدس من خلال اعتمادنا على المصادر التاريخية الأدبية لهذه الفترة أن تحصينات المدينة قد اتبعت نفس نمط تحصينات القلاع. وكان السور المزدوج يعنى أن السور الداخلى يجب أن يكون أعلى من السور الخارجى، مع وجود مسافة محددة بين خطى الأسوار . وقد استطاع البيزنطيون أن يجدوا حلاً لهذه المعضلات ، وذلك بأن جعلوا المسافة بين السورين حوالى ربع ارتفاع السور الداخلى الأعلى . وهكذا فإن السورين الذى كان أعلى ارتفاع لأحدهما هو ٩٨ قدمًا يجب أن تكون المسافة بينهما هو ٢٦ قدمًا . وبالإضافة إلى ذلك ؛ فإن ارتفاع الأسوار الداخلية كان يعادل ضعف ارتفاع الأسوار الخارجية (إذا ما استخدمنا التناسب بين ارتفاع أسوار قلعة الحاج). إذ كانت ارتفاع الأسوار الداخلية ٣٤ مترا فى مقابل ١٦ مترا هو ارتفاع الأسوار الخارجية . وأخيراً، كانت الأبراج منظمة فى شكل سلسلة متداخلة، إذ كانت قطاعات السور الخارجى الخالية من الأبراج تغطيها أبراج خط الأسوار الثانى.

ومن الصعب التثبت من أن الصليبيين قد اتبعو كل تفاصيل هذا النمط المعمارى فى بناء التحصينات والدفاعات العسكرية. وقد عرفنا نمطا مختلفًا بشكل بسيط وذلك من خلال الخرائط الموضحة لمدينة عكا والتى ترجع إلى القرن الثالث عشر. والأسباب واضحة . فقد أضيف حول المدينة القديمة صف بارز من الأسوار يكون بمثابة خط دفاعى خارجى وقد شيده المهندسون المعماريون لكى يتفق والظروف التى كان يمر بها الصليبيون. ويمكن القول أن ضاحيه مونتزارد الجديدة هى المنطقة التى شهدت بناء مجموعة من التحصينات الجديدة دون اعتبار لمبانى التحصينات التى شيدت فى فترة باكرة .

ففى مدينة عكا كانت المسافة بين السورين تشبه فناءً ضيقًا داخليًا . تحيط به أسوار المدينة من كل جهة وكانت الطرق الممتدة من ابراج الأسوار الداخلية والتى تؤدى إلى أبراج الأسوار

الخارجية ، تتقاطع مع سور القصر. وعلى الأرجح كان يوجد أيضا طريق دائرى بين صفى الأسوار على امتداد كل المنطقة المطوقة.

وعندما ساد الأمن ، قام الصليبيون بانقاص عدد بوابات مدنهم فى منطقة الشرق العربى، وإن كان هذا النقص فى عدد البوابات لم يتجاوز الحد المعمول به . إذ كان لمدينة عسقلان ، وهى مدينة كبيرة إلى حد ما، ثلاث بوابات وكان لمدينة بيت المقدس أربع أو خمس بوابات بالإضافة إلى عدد من الأبواب الخلفية ، ويبدو أن قيسارية لم يكن لديها أكثر من ثلاث بوابات ، فى حين كان لمدينة صور بوابة واحدة فقط. ومما يذكر أن هذه البوابات جميعًا كانت مزودة بوسائل دفاعية متقنة بشكل جيد.

فإذا أراد العدو المهاجم الوصول إلى بوابات المدينة فإن عليه أولا أن يعبر الخندق ، المزود بعدد من الدفاعات الخارجية بصرف النظر عن جدار الخندق ، وكانت هذه الدفاعات تتمثل فى الحصون الأمامية (وهى الحصون التى ذكرت فى أثناء حصار عكا فى عام ١٢٩١ كحصون أمامية للدفاع عن المدينة) وبعد اجتياز هذه الدفاعات الخارجية كان على العدو أن يعبر خندقا تعلوه قنطرة . وكانت مثل هذه القناطر والجسور معروفة جيداً فى مدينة عكا وقد عثر على بقايا أثارية لبئر فى مدينة قيسارية ، وكان هذا البئر مصنوعًا كليا أو جزئيًا من الخشب، وكان هذا البئر ينشأ عن جزء خشبى بارز مثل البروزات التى كانت توجد فى المنحدر الخفيف gla-cis. وفى منتصف الطريق عبر الخندق كانت هذه البروزات مدعمة بواسطة قبوات ومشيدة على عمود حجرى يقع وسط الخندق . ومن هنا كانت توجد قنطرة مصنوعة من ألواح خشبية يمكن تدميرها بسهولة فى حالة هجوم العدو- وتصل إلى البوابة الخاصة بشكل كامل .

لقد كانت معظم بوابات المدن الصليبية على شكل حرف L وهو نفس شكل بوابات التحصينات العربية ، ولهذا فإنه لم يكن عبورها واجتيازها يتم بشكل مباشر. ففى مدينة صور كان يوجد ثلاثة أسوار ، وكان لكل سور بواباته الخاصة ، وكانت هذه البوابات تشكل شبكة من الممرات المعقدة المحيرة (المتاهات) . ولكى يجتاز المرء بوابة أحد الأسوار التى كانت على شكل حرف L، فإن عليه أن يعبر فناءً مطوقا بسور لكى يلج إلى بوابة أخرى ويكرر هذه العملية حتى يصل إلى السور الثالث*.

---

* للوقوف على تفاصيل شكل بوابات مدينة صور ، أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص٢١٢ ، وأيضا Bur-chard A M.t. sion , p.

كانت المدينة الصليبية مزودة بوابات مزدوجة ضخمة ، تدور حول محاور ومرتكزات عند كل حافة وكانت تعلق بواسطة عارضة خشبية ضخمة تدخل فى تجويف عن كل جانب من جانبى السور. وكان وجود الثلمات Grooves على كل جانب من جوانب اطار مكان الباب يشير إلى استخدام الشعرية الحديدية التى كانت تعمل بواسطة مرفاع يوجد فى الطابق الثانى. وكانت البوابة الرئيسية المدينة قيسارية توجد فى الطابق الثانى مع وجود بهو معمد يواجه البوابة من الداخل ويمكن الدفاع عن هذه البوابة حتى ولو استطاع العدو المحاصر أن يدمر البوابة الخارجية.

وتجدر الاشارة إلى أن البوابة كانت تحميها أبراج مشيدة فى كل جانب من جانبيها وكانت هذه الأبراج التى تحمى البوابة أكثر ارتفاعًا من الأسوار الباقية. وكانت الأختام الصليبية تحمل رسما للبرجين المرتفعين اللذين يوجدان على جانبى القلعة.

ويبدو أن مدينة عكا كان لديها الكثير من البوابات ، وقد لاحظ المؤرخون المسلمون أنه فى أثناء الحصار الإسلامى الأخير لمدنية عكا استمر الصليبيون فى الدفاع عن بوابات المدينة المفتوحة *. وذلك لأنهم لم يستطيعوا تحمل الهجوم المباغت من جانب المسلمين على بواباتهم المفتوحة وكان لهم عذرهم ومنطقهم ، لأنهم أجبروا تحت وطأة هجوم عدوهم أن يقوموا بالدفاع عن كل حدود المدينة ، ولم يتوقعوا المكان أو البوابة التى سيأتى منها هجوم العدو المحاصر للاستيلاء على المدينة. فقد نفذت القوات الإسلامية المحاصرة هجومين ضد عكا ؛ وفشل الهجوم الإسلامى الأول عندما دخلت الخيول الصليبية فى تشابك مع القوات الإسلامية ، وفشل الهجوم الثانى أيضا والذى تم تحت جنح الظلام عندما أضاء المسلمون المواقد فى معسكراتهم .

والمتأمل فى بعض تحصينات مدينة عكا ، والتى تشبه تحصينات مدينة عسقلان أو فى الحفائر الأثرية الحديثة لتحصينات مدينة قيسارية لابد أن يفتن كثير بجمال وروعة أعمال البناء لهذه التحصينات ، كما أنه سيتولد لديه شعور بأن هذه التحصينات كانت غير كافية لتوفير الأمن والحماية للوجود الصليبى . إذ كان خط الأسوار طويلا تمامًا أيضا ويمكن الدفاع

---

* يذكر أبو الفدا فى كتابه المختصر فى أخبار البشر أحداث حصار المسلمين لمدينة عكا فى عام ١٢٩١ وسقوطها فى يد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاون (أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٣١٢) .

عنه بشكل فعال لوقت طويل . وإننا نفتقد معرفة مشاعر أولئك الذين تجمعوا من القوات وتلاقوا فى صدام مسلح مع بعضهم البعض فى قلاع صليبية . ولذا فمن الطبيعى الاعتقاد بأن هذه المدن الصليبية كانت تمثل وحدة دفاع ثانية : بعد القلعة . إذ كانت القلعة وحدة دفاع ذاتية قائمة بنفسها ، وكان يمكن رؤيتها من على امتداد هذه الأسوار . واختلف وضع القلعة من مدينة إلى أخرى .. الخ فقد كانت قلعة مدينة عكا فيما مضى توجد فى وسط الجزء الشمالى المكشوف من السور- وعندما اضيفت تحصينات مونتزارد الجديدة وجدت القلعة نفسها فى مركز الخط الداخلى من الأسوار . وفى مدينة بيت المقدس ، اتخذت القلعة لنفسها اسمًا وهو اسم لأحد أبراج هيرودس القديمة والمعروف منذ العصور الوسطى وحتى الآن باسم «برج داود» *.

لقد كانت القلعة فى الأصل والأساسى مركزا للحكم ومقراً للحاكم ، ولم يقتصر وجود حامية عسكرية محلية بها فحسب، بل كانت بمثابة مدينة عسكرية مستقلة. وهكذا يمكن مقارنة موقعها بموقع الحصن فى أية قلعة. ومع ذلك، فإن معظم القلاع والحصون لم تشيد على يد الصليبيين، ولكنها كانت مشيدة من تراث فترات اليهود، والرومان، والبيزنطيين، والعرب.

ففى مدينة بيت المقدس ، كانت قلعتها القريبة من القصر الملكى مقرا لاقامة الحاكم الذى يهيمن على المدينة لمدة ألف عام قبل الوجود الصليبى، وقد اضطلعت هذه القلعة بنفس المهام التى كانت منوطة القيام بها فى الفترات السابقة . إذ كانت قلعة مدينة بيت المقدس على شكل مضلع غير منتظم مساحته (٧٥٠٠م٢) يوجد على جانبيها ستة أبراج ، يصل ارتفاع البرج إلى ثلاثة أو أربعة طوابق (حوالى ٣٥ متر) ، وقد تسبب موقع القلعة هذه فى أن جعلها تستقل عن المدينة تمامًا. وبالإضافة إلى ذلك فإنه فى حالة الخطر كان يمكن اجلاء حامية القلعة عن طريق البحر. ومما يذكر أن البقايا القليلة من أطلال هذه القرية لايمكن اعادة تشييدها بشكل كامل ، بيد أن الأوصاف المعاصرة لهذه القلعة توضح لنا شكل دفاعاتها. وكان ميناء مدينة قيسارية خلال فترة السيادة الصليبية ذات أهمية ثانوية ، ومن الصعب مقارنة أهميته خلال الحقبة الصليبية بعظمته وأهميته القصوى خلال العصر الهيرودى- حيث وصفه المؤرخ

---

* والقول الصحيح هو أن اسم «برج داود» سوف ينطبق على ذلك البرج الواقع فى أقصى الشمال والذى يطل مباشرة على بوابة يافا (المؤلف) .

اليهودى الشهير يوسيفوس فلافيوس Jasephas Flavius بأنه أضخم من ميناء بيروس Pi-raeus، ميناء أثينا القديم. وكان الحاجز الواقى للميناء من جهة الشمال يعتبر أقوى وأضخم من المبانى والتى ليس لها نظير فى أى مكان ، وكان عبارة عن ستين عموداً ضخمًا من الجرانيت ذات الأصل الحصيرودى وقد امتدت هذه الأعمدة الستين فى مياه ضحلة . وكان الحاجز الواقى للميناء جهة الجنوب يستخدم مثل هذه الأعمدة الرخامية السابقة، ولكن مع تبليط الأجزاء العليا من هذه الأعمدة . وعلى هذا المكان شيدت القلعة . وكان يوجد خندق يفصل القلعة عن المدينة، وكان يملأ بماء البحر (أو على الأقل كان يمكن التحكم فى مياه البحر من خلال بوابات ملحقة به) محولاً القلعة إلى جزيرة صغيرة . وكان هناك سور قوى يوجد على جانبيه اثنان من الأبراج الضخمة مثبتة بالمدخل الموجود خلف الخندق المغمور بالماء. ويعتبر مبنى قلعة مدينة قيسارية من أقوى المبانى الصليبية التى شيدت فى أى مكان آخر (باستثناء قلعة مدينة بيت المقدس) وكانت صفوف المبانى التى ترجع إلى العصر الهيرودى والمبانى الصليبية الجيدة تشكل هيكل واطار مبنى خارجى غير كامل ولم يتم للمنشآت ذات الانحدار الخفيف والأسوار، وقد امتلأت هذه المبانى بعدد كبير من قطع الأحجار غير المصقولة والمستوية والملاط. وبالإضافة إلى ذلك فإن الأعمدة الرخامية القصيرة التى ترجع إلى عصر هيرودس وكذلك الجرانيت كانت متداخلة على نحو مستعرض فى حالة بناء المنشآت والأسوار، وقد ساهمت هذه الأعمدة فى تقوية الأسوار وجعلها منيعة وحصينة .

ومما يذكر أن قلعة أرسوف كانت تحظى بأهمية خاصة. فقد كانت المدينة تقع على حافة عالية تتحكم فى الشاطىء . وهكذا فإنه لم يوجد مكان على ساحل البحر صالحًا لإقامة وتشييد القلعة، ومن الناحية العملية لم يكن من الملائم تشييد هذه القلعة فوق اليابسة الموجودة فى الجزء الشرقى من المدينة حيث تفقد الدفاعات الطبيعية فعاليتها ولايمكن الاستفادة من هذه الدفاعات الطبيعية. ولهذا شيد الصليبيون هذه القلعة (قلعة أرسوف) فى الجهة الشمالية من المدينة على نفس الحافة، بيد أنهم استخدموا واديًا طبيعيًا صغيرا ضيقًا شديد الانحدار وهو الوادى الذى كان يتقاطع مع الحافة وكان يشكل خندقًا بين المدنية والقلعة. وكان الوادى الضيق ينحدر من الحافة إلى مستوى سطح البحر، وينخفض عن سطح البحر بنحو ثلاثين متراً وكان متسعًا لكى يوفر الأمن والحماية للقلعة. ومن هذا المنحدر الممتد من الشرق والشمال، قام الصليبيون بحفر خندق رباعى الزوايا ، وكانت أسوار القلعة تقع خلف هذا الخندق

تمامًا. وقد وجد سلم طويل ، يقطع هذا الملتجأ (الوادى الضيق) ويؤدى إلى الميناء الصغير المطل على الساحل وذلك خلف أسوار القلعة.

وكما ذكرنا آنفا ، فإن قلعة عكا كانت تقع فى الجزء الداخلى من المدينة ، وذلك فى أثناء القرن الثالث عشر . ولم يكن وجه الاستغراب فى قلعة عكا يتمثل فى موقعها غير الجوهرى- والذى جعلها تفقد خندقها تمامًا ، ولكن حقيقة الأمر هى أن الظروف الداخلية للمملكة الصليبية قد تطلبت أن يكون لمدينة عكا أكثر من قلعة. ولن نشير إلى الأماكن والأبراج المحصنة الكثيرة التى كانت تضمها أحياء المدن الإيطالية (أحياء البنادقة والجنوية والبيازنة) صاحبة الامتيازات فى مدينة عكا ، ولكننا بصدد الإشارة إلى التحصينات الحيوية، وأهمها قلاع وتحصينات فرسان القديس يوحنا (الداوية) ، والتى كانت تضم حجرة طعام ذات نمط معمارى رائع وعجيب . ويمكن تخيل صورة هذه العمارة الرائعة من خلال وصف القصر المحصن للداوية الذى ذكره أحد أعضاء هيئة فرسان الداوية والذى قال: «لقد كان المكان المخصص لهيئة فرسان الداوية فى مدينة عكا من أقوى الأماكن المحصنة فى المدينة، وامتدت مبانى الداوية على طول الساحل ، وكانت بمثابة قلعة وحصن منيع . وكان مدخل حى الداوية فى عكا عبارة عن قلعة مرتفعة الأسوار قوية التحصين وذات أسوار سميكة ، يصل سمك الكتلة الحجرية للسور حوالى ٢٨ قدمًا . وكان يوجد برج صغير عند كل جانب من جوانب الحصن وعند كل جانب أيضا كان يوجد تمثال ضخم لشكل أسد وآخر لشكل ثور، وكانت هذه التماثيل مغطاه بالذهب. وكان ثمن تكلفة هذه التماثيل الأربعة من الناحية المادية، يبلغ حوالى ١٥٠٠ من البيزنتات الإسلامية (الدينار الإسلامى) . وقد كان منظر هذه التماثيل رائعًا ومدهشًا . وكان يوجد برج آخر قبالة حى البيازنة على مقربة من شارع القديسة حنا ، وكان هذا البرج هو مقر مقدم هيئة فرسان الداوية. وعلى مقربة من دير القديسة حنا ، كان يوجد برج ضخم بالاضافة إلى كنيسة عالية رائعة مزودة بأجراس . وبالإضافة إلى ذلك كان يوجد برج على شاطىء البحر. وكان هذا برجًا قديمًا ، بنى منذ مائة عام مضت إذ شيده القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى. وكان هذا البرج يضم خزانة هيئة الداوية . وكان على مقربة من الساحل وتغسله أمواج البحر. وقد ضم حى الداوية عدداً آخر من الأماكن السكنية الجميلة وهى الأماكن التى سوف نكف عن ذكرها ».

ب- الجيوش الصليبية

من المعروف أن الجيوش طوال الحقب والعصور التاريخية التى انقضت وحتى الآن يقع على عاتقها مهمة توفير الأمن للمجتمع، ويعتبر هذا انعكاسًا لاتجاه عناصر المجتمع السكانية ، والطبقية، والأخلاقية صوب الحرب. ولايمكن استثناء الجيوش الأوربية فى العصور الوسطى أو الجيوش الإسلامية من هذه المهمة . لقد أظهرت هذه الجيوش الأوربية والإسلامية تقاليدها السياسية، والاجتماعية ، والعرقية الخاصة بها ، واحتفظت جيوش الطرفين المتصارعين الإسلامى والصليبى باحترام تقاليد غير عادية وهى التقاليد التى انبثقت من تصوراتهم للحرب خلال الصراع العسكرى المستمر الذى دار بينهما خلال قرنين من الزمان. وإلى حد ما كان هذا نتيجة التوقف التكنولوجى (التوقف التام للتقنية العسكرية) العسكرى كما أن هذا يمكن تفسيره أيضًا فى ضوء حقيقة أنه حتى نهاية القرن الثانى عشر كان يوجد عدد قليل من الجيوش المحترفة والدائمة . وحدثت بعض التغييرات والتحولات، بيد أن هذه التغييرات كانت قليلة وبطيئة نسبيًا - وفى العادة كانت هذه التغييرات استجابة لتغير ظاهرى مثل النمط المختلف للأسلحة والتسليح أو أسلوب حرب غير المتوقعة.

لقد كان التقليد العسكرى للمملكة الصليبية فى بيت المقدس ذا طابع أوربى وظل كذلك طوال فترة الوجود الصليبى، على الرغم من أن الظروف المحلية كان لها تأثيرها على أشكال ومظاهر الحرب. ولم يكن نمط التسليح الأوربى الغربى بالضرورة نتاجًا لشدة احترام التقاليد المتأصلة بشدة، ولكنه أيضا نتيجة لعوامل إضافية أخرى منها تكيف نمط الحرب الأوربية مع التغييرات فى الظروف المحلية والعلاقة المستمرة والارتباط مع نظام النبالة العسكرية الأوربية، والتى شاركت بدور كبير فى الحروب الصليبية الكبرى.

ومن الملاحظ أن المجتمع الصليبى ونمط السيادة الصليبية فى اطار الجغرافية السياسية لمنطقة الشرق العربى الإسلامى كانت من العوامل الحاسمة التى شكلت بنية الجيوش الصليبية . وكان البناء الاجتماعى يفترض وجود طبقة وراثية من المحاربين - الفرسان النبلاء - وكان نمط السيادة الصليبية يفرض القيام بمهمة مزدوجة وهى التوسع والدفاع ، وقد قامت بهذه المهمة كل من التحصينات والقلاع ثم الجيش الصليبى المتحرك والزاحف . وأخيراً استطاعت التقاليد الاثنية (العرقية) للحرب أن تحدث تغييرات عملية فى الاستراتيجية والخطط العسكرية وقد وجدت هذه التغييرات العملية استجابة قوية لدى الصليبيين.

كان المحاربون الاقطاعيون يمثلون العمود الفقرى للجيش الصليبى ، وكان هؤلاء المحاربون عبارة عن الفرسان الذين يؤدون خدمة عسكرية اقطاعية مقابل حصولهم على منح من أراضى الملك الصليبى. ومن حسن الحظ ، أن المشرع الصليبى الشهير جان الابلينى Jean d'Ibelin كونت يافا قد حفظ لنا فى كتابة القانونى الذى وضعه قائمة تفصيلية توضح الخدمة العسكرية الاقطاعية فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس كما أنها تلقى نظرة عامة على وضع هذه المملكة الصليبية حوالى عام ١١٧٠م. وقد أوضحت قوائم الخدمة العسكرية التى شملها كتاب يوحنا الابلينى أن القوة العسكرية لهذه المملكة كانت تتراوح ما بين ٦٤٧ إلى ٦٧٥ فارسًا . ويعتبر هذا العدد قليلا نوعا ما بالمقاييس الحديثة. وبالرغم من ذلك فإن المعارك الشهيرة التى وقعت فى أوربا فى تلك الآونة كانت تضم عدداً أقل من هذا من المحاربين. كما أن الحملات الصليبية الكبرى، كالتى وقعت فى مصر من أجل غزوها لم تضم عدداً من المحاربين أكبر من عدد المشاركين فى أية حرب تشن فى أوربا.

والواقع أن ثمة تباين بين أفكار العصور الوسطى وأفكار العصور الحديثة فى طريقة فهم موضوع حجم الجيوش ولم يقم هذا التباين على أساس زيادة السكان المطردة فحسب بل كان يبنى على أساس تقييم دور الفرد المحارب . لقد استخدمنا نظريات تتعلق بالوحدات المنتظمة للجيش وعمل الجيش وانجازه المهام القتالية كوحدة واحدة، وكان هذا يفرض على المحارب بذل بعض الجهد لكى يحصل لنفسه على مكانة ووضع جيد وسط الوحدة العسكرية التى يعمل تحت لوائها. كان التسليح الثقيل فى العصور الوسطى يتمثل فى الفارس الذى كان يقاتل كعضو محارب ضمن أعضاء وحدة عسكرية وذلك فى المراحل الأولى فقط من مراحل المعركة ، وبعد الصدام الأول كان الفارس يحارب ويقاتل دفاعًا عن نفسه ، وكان ميدان المعركة يخصص وقتًا للمبارزات بين هؤلاء الفرسان. ويمكن مقارنة قوة الفارس فى العصور الوسطى بقوة الدبابة فى العصر الحديث، الأمر الذى يمكن أن يطرح لنا فهمًا جيداً لحقائق العصور الوسطى.

ومن المحتمل أن عدد الفرسان الاقطاعيين العاملين فى جيش مملكة بيت المقدس الصليبية كان أكثر من ذلك العدد المدون فى قائمة الخدمة العسكرية التى ذكرناها آنفا والذى تضمنها كتاب جان الابلينى . وكان هذا الوضع مشابها لما كان موجوداً فى أوربا فى تلك الحقبة، حيث كانت القائمة المفصلة للخدمة العسكرية الملكية تتضمن فقط الخدمة العسكرية المستحقة للتاج الملكى الصليبى فقط. إذ كان كل سيد اقطاعى كبير فى المملكة الصليبية يمتلك عدداً من

الفرسان المحاربين، وحملة الدروع والمرافقين للفارس والذين يعملون تحت إمرته وينفذون أوامره. وبشكل طبيعى ، فإن فرسان البارونية لم يخدموا التاج الملكى ، بيد أنه فى أوقات الحاجة والحرجة كان هؤلاء الفرسان يشتركون فى الحرب مع سيدهم الاقطاعى المباشر .

وبالإضافة إلى المحاربين الاقطاعيين ، فإن وجود القوات المستأجرة التى كانت تتلقى رواتب نقدية كانت من أبرز السمات السائدة للجيوش الصليبية. ومن الأفضل أن نطلق على هذه القوات المستأجرة اسم القوات المرتزقة ، وذلك لأنه لايوجد ما يؤكد أو يبرهن على وجود محاربين محترفين عاطلين وقت السلم. وفى العادة كان هؤلاء المحاربون المستأجرة (المرتزقة) يأتون من بين جموع الحجاج الذين أدوا الشعائر الخاصة بالحج، والذين كانوا يبقون فى المناطق الصليبية. ففى القرن الثالث عشر- حيث أصبحت عملية كسب الرزق أمراً عسيراً بسبب تقلص حدود المملكة الصليبية - وجدنا مدنًا بحرية مثل عكا وصور تضم من بين سكانها أناسًا يرغبون فى الالتحاق بالخدمة العسكرية . وكانت عملية التوسع فى استخدام القوات المرتزقة فى الجيوش الصليبية يعتمد على امكانيات ووفرة الموارد المالية للتاج الملكى والبرون الصليبى. ولم تكن هذه الموادر المالية وفيرة وفى العادة كنا نسمع عن عملية تزويد الجيوش بقوات مرتزقة ينفق عليها من الهبات الخاصة التى كانت ترد إلى المملكة الصليبية من حكام أوربا ، أو من باباوات روما. وخير مثال لذلك ما فعله ملوك أوربا من تقديم العون المالى للوجود الصليبى ، مثل الملك الانجليزى هنرى الثانى، وفيليب الثانى ملك فرنسا ، ولويس التاسع ملك فرنسا. ففى مجمع ليون الثانى (١٢٧٤) كان من المستحيل أن يقوم سادة أوربا بتحديد رواتب الفرسان المحاربين فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين وتدوين هذه الحصص فى جداول الرواتب الخاصة بهؤلاء السادة الأوربيين. وكان من الطبيعى أن تعتمد عملية تزويد الجيش الصليبى بالمقاتلين على المنح المالية المؤقتة التى كانت تأتى من الخارج والتى لم تكن عملية مرضية على الاطلاق. بيد أن بعض الأموال التى كانت ترد إلى المملكة الصليبية من البابوية -- والتى كانت تجبى باستمرار من الحكام الأوربيين المسيحيين- كانت هى الأخرى تعتمد بقدر أو بآخر على الدخل الثابت للبابوية من الموارد الخارجية.

وكان الجيش الاقطاعى يتكون بشكل أساسى من المحاربين الراكبة، والذى كان من بينهم عدد كبير من المحاربين المرتزقة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن جيش المملكة الصليبية كان يضم أيضًا عدداً من المحاربين المشاة وعدداً من المحاربين الراكبة الذين لم ينتموا إلى طبقة النبلاء.

لقد كانت قوات المشاة المتاحة تمثل عماداً مهمًا ورئيسيًا فى الجيوش الصليبية. وكانت المصادر التاريخية الصليبية فى العادة تطلق على الفارس خفيف السلاح والمقاتل المشاه تعبير جندى أو سرجندار Sergant . ويمكن أن نقرر من خلال تعبير الجندى الفارسى Serjant a' Cheval أنه كان يوجد أيضا محاربين فرسان من أصول غير نبيلة، بيد أن اسم سرجندار Serjant وحده لايشير بوضوح إلى طريقة محددة للحرب والقتال.

وكان يتم تعبئة السرجندارية ، المشاه أو الراكبة على أساس اقطاعى، على الرغم من أن الغموض يكتنف آلية تزويد الجيوش الصليبية بهذه القوات . وتذكر لنا قوائم الخدمة العسكرية التى تضمنها كتاب المشرع الصليبى يوحنا الأبلينى Jean d'Ibelin عدداً ضخمًا من السرجندارية بقدر بـ ٥٠٢٥ جندى يؤدون خدمة عسكرية للملك الصليبى ، وهذا العدد من المحاربين من المنشآت الكنسية ومن مدن المملكة الصليبية. ومن المستغرب حقًا أن الوثائق الصليبية لم تشر على الاطلاق إلى نمط هذا الالتزام العسكرى مما يجعل المرء يفترض أن هذا الالتزام من الخدمة العسكرية كان شيئًا مألوفًا ومعتاداً ، وقد بنى هذا الالتزام العسكرى على أساس تقييم الموارد المالية للمدن وللمنشآت الدينية الكنسية. وكان هذا يلقى القبول من جانب المؤسسات الكنسية، والبطريرك ورؤساء الأساقفة ، والأساقفة، إذ كان رجال الدين بشكل عام يحوزون أملاكهم من عائد الصدقات ... الخ . وكانت هذه الممتلكات تعتبر اقطاعات غير عسكرية أى لايؤدى عنها خدمة عسكرية. ولم نجد أى تفسير قانونى مرضى يتعلق بسادة المدينة الاقطاعيين .

وأخيراً ، فإن المملكة الصليبية فى بيت المقدس كانت حريصة على إعداد مصدر اضافى للقوة البشرية يستخدم فى مجال التعبئة العامة، وهى القوات التى يتم استدعاؤها بشكل عام بناءً على طلب الملك الصليبى ولاسيما فى أوقات الخطر المرتقب. ففى مثل هذه الظروف الحرجة التى تمر بها المملكة الصليبية كان على كل الأفصال ، حتى الذين لم يستحق عليهم تقديم خدمات عسكرية للملك الصليبى ، وأيضا الأفصال الذين لم يخضعوا لالتزام تقديم الخدمة العسكرية لكبار السادة الاقطاعيين، أن يشتركوا فى الجيش الصليبى للدفاع عن المملكة . وكان نفس هذا الالتزام العسكرى ينطبق على كل فرنجى قادر على حمل السلاح فى أرجاء المملكة الصليبية. ومن الطبيعى ، أن القوة الضاربة لقوات التعبئة العامة (قوات الاحتياط) لم تكن ذات كفاءة عالية. بيد أنه فى أوقات الخطر كانت هذه القوات (الاحتياط) تستطيع أن

تلعب دوراً مهمًا فى ساحة الوغى ، ولاسيما أن هذه القوات كانت بمثابة ميلشيا للمدينة وذلك عندما كانت حامية المدينة تغادر مكانها للاشتراك فى الحرب خارج المدينة.

وفى هذا السياق يجب علينا أن نعود مرة ثانية إلى الهيئات الدينية العسكرية التى ناقشنا دورها من قبل. فمنذ ثلاثينيات القرن الثانى عشر استطاع كل من الداوية والاسبتارية أن تلعب دوراً عسكريًا مهمًا فى المملكة الصليبية . وقد تنامى اعتماد المملكة الصليبية على الهيئات الدينية العسكرية باعتبارهم قوة مدافعة عن حدود المملكة وخاصة باعتبارهم سادة القلاع الواقعة على الحدود - وكانوا مسئولين عن تزويد هذه القلاع بالقوات والمؤن- الأمر الذى جعلهم يمثلون عاملاً مهمًا فى حماية المملكة. وفى النهاية ، فإن قدرة وامكانية الهيئات الدينية العسكرية فى تزويد المملكة الصليبية بقوات عسكرية فى وقت قصير والقدرة على تقليل الخسائر فى الأرواح فى أثناء الحرب عن طريق الاعتماد على الموارد المالية والبشرية مما جعلهم عنصرا أساسيا من عناصر الوجود الصليبى.

ومن الصعوبة بمكان أن نقيم ونقدر القوة العسكرية الضاربة للهيئات الدينية العسكرية. ففى احدى الأحداث الرئيسية، مثل حملة الملك الصليبى عمورى على مصر، سمعنا أن الاسبتارية قد زودت جيش الملك الصليبى بخمسمائة من الفرسان المحاربين وخمسمائة من المشاة (التركبولية) . وكان من الصعب على المملكة الصليبية أن تعبىء مثل هذا العدد من المحاربين من كل مصادرها الاقطاعية . وتلك كانت حالة استثنائية ، إذ كانت القوة العسكرية العادية لأية هيئة دينية عسكرية تصل إلى ثلاثمائة فارس، ولم نجافى الحقيقة إذا قلنا أن الداوية والاسبتارية قد امتلكتا قوة عسكرية من الأفراد المحاربين تعادل قوة المملكة الصليبية.

ومما يذكر أن محاربى الهيئات الدينية العسكرية لايمكن تصنيفهم ببساطة مثلما الحال بالنسبة لمحاربى المملكة الصليبية، وذلك لأن مقدمى هذه الهيئات ورجال الدين هم الذين يقررون الأمور السياسية الخاصة بهم بشكل أساسى ومطلق . ولانبالغ إذا افترضنا أن هذه الهيئات الدينية العسكرية قد رفضت تقديم الخدمة للملك الصليبى. إذ أن قوتهم كانت أحيانًا تسمح لهم أن يقرروا السايسة الخاصة بهم ويملونها على الملك الصليبى واجباره على قبول نصيحتهم ، وفى أثناء مجالس الحرب كان صوتهم السياسى المحنك مسموعًا ويلقى الاحترام من جانب القادة والملك الصليبى .

لقد كان إجمالى القوة العسكرية للمملكة الصليبية يبلغ حوالى ١٢٠٠ فارس وأكثر من

١٠,٠٠٠ محارب مشاه من السرجندارية Sergeants ، وكانت هذه القوة غير قادرة وغير كافية للدفاع عن هذه المملكة أو توسع حدودها على حساب جيرانها من الأقطار الإسلامية . والحقيقة أن نقص عدد القادمين من أوربا إلى المملكة الصليبية (النقص الديموغرافى) كان السبب الرئيسى فى عرقلة عملية التوسع وتحديد نمط الدفاع ولم يكن الضعف العسكرى لهذه المملكة هو المسئول عن عرقلة عملية التوسع . وكانت عمليات الغزو التى قام بها الصليبيون معقولة - وهذا ما تأكد خلال بعض الوقت وتكرر ثانية - ليس فقط فى الأقاليم القريبة من منطقة ما وراء نهر الأردن أو دمشق ، بل أيضا فى مصر، عبر شبه جزيرة سيناء الواسعة.

وكانت هذه المناطق التى احتلها الصليبيون فى هذه الأقاليم سريعة الزوال ، إذ أن الصليبيين كانوا يفتقرون إلى قوة عسكرية تستطيع أن تحتفظ بالهيمنة العسكرية على هذه المناطق المحتلة لوقت طويل ، بغض النظر عن محاولة الاستيطان الصليبى لاقليم محتل .

وثمة ما يدل على أن هذه المشكلة الخاصة بنقص عدد الأفراد المقاتلين فى الجيوش الصليبية تختلف عن هدف وغرض الدفاع عن المملكة. إذ أن كلمة «دفاع» فى أضيق وأدق معنى لها قلما كانت تعالج الظروف التى كان يمر بها الصليبيون . فلم تكن كلمة «دفاع» تعنى فقط حماية حدود المملكة الصليبية- وهى المهمة التى كانت شاقة فى مناطق ما وراء نهر الأردن المفتوحة - ولكن أيضا كانت تعنى حكم وادارة المناطق والأقاليم الداخلية فى المملكة الصليبية.

لقد استطاعت القوات الصليبية منع الغزو والتوسع الإسلامى ، وعندما كان المسلمون يعجزون عن خوض الحرب ضد الصليبيين فإنهم كانوا يقومون باتلاف المحاصيل الزراعية والممتلكات الصليبية وتقويض الدعائم المادية للوجود الصليبى ، وعلى العكس فإنه أية غزوة كان يمكن أن تؤدى إلى حرب واسعة بين الطرفين الإسلامى والصليبى.

وفى كلتا الحالتين، كانت القلاع والمدن المحصنة تلعب دوراً رئيسًا فى الفكر العسكرى الصليبى. فإن أية هجمة إسلامية- حتى لو استطاعت تدمير مناطق صليبية واسعة- لم تكن فى استطاعتها تهديد السيادة الصليبية وطالما أن الغزاة لم يستطيعوا استعادة السيطرة على هذا القطر عن طريق احتلال القلاع والمدن ، فإن هؤلاء الغزاة كانوا يلجأون إلى الانسحاب والتقهقر آجلا أو عاجلاً . وعلى الرغم من تعرض المناطق الصليبية للتخريب والخسائر المادية

الفادحة ، فإن السيادة الصليبية لم تتأثر ، وذلك لأن مراكز الحكم والسيادة الصليبية فى المناطق العربية وهى القلاع والمدن المحصنة لم تصب بسوء .

واستطاعت هذه العوامل تشكيل العقيدة العسكرية للصليبيين . وعندما كانت المناطق الصليبية تتعرض للهجوم من جانب المسلمين كانت القوات الصليبية تنسحب من مواقعها فى القلاع والمدن لملاقاة ومواجهة العدو المهاجم . وفى الغالب كان الصليبيون يتركون حامية رمزية للدفاع عن المدينة أو القلعة . وفى حالة الدفاع لم يغادر أحد من المحاربين الصليبيين للدفاع عن الاستحكامات والحصون . وكانت موقعة حطين الشهيرة النموذج الكلاسيكى للمعارك العسكرية التى خاضها الصليبيون ، فقد حلت الكارثة بالصليبيين على يد قوات القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى، حيث استسلمت المدن الصليبية التى عجزت عن الدفاع عن نفسها وفتحت أبوابها أمام الجيوش الاسلامية الظافرة.

وهكذا ، فإن الصليبيين عندما كانوا يتعرضون لغزوة من جانب المسلمين فإنهم فى الغالب كانوا يترددون ما بين الاشتراك فى حملة عسكرية خطرة أو التبطل الأكثر جذراً . ولم يرجع هذا التردد إلى نقص وخلل فى التخطيط العسكرى الصليبى أو إلى سياسة متقلبة ، أو إلى رغبة الصليبيين فى تحولهم من موقف صعب إلى آخر سهل، ولكن على العكس ، كان تردد الصليبيين وتريثهم يرجع أساسًا إلى تقييم وتقدير المخاطر المحتملة من وراء خوض الحرب وكذلك تقييم وتحديد الفرص الممكنة لمواجهة أخطار الحرب. وكان هذا التردد والتريث الصليبى أيضا يأخذ فى حسبانه الظروف المحلية، وأيضا نمط القوات والجيوش الإسلامية المعادية وخططهم العسكرية.

وعلى الرغم من الكثرة العددية الضخمة للقوات الإسلامية ، فإن الصليبيين كانوا يتمتعون بمزايا كبيرة ومهمة . وعندما كان يظهر الجيْش الصليبى كانت القوات العسكرية المحلية الإسلامية تبادر على الفور فى التحرك إما فى مصر أو دمشق . وكانت القوات الإسلامية التى تحتشد فى دمشق تضم بين صفوفها عناصر من أهل دمشق بالإضافة إلى قوات من خارج دمشق وخاصة من المدن السورية الشمالية مثل (مدينتى حلب وحمص) وكذلك من منطقة ما بين النهرين (الميزوبوتاميا) . وكان تماسك هذه القوات الإسلامية (حتى منتصف القرن ١٣ م حيث عصر السلطان المملوكى الظاهر بيبرس) دائما يتعرض للضعف مع بعض الاستثناءات القليلة وذلك لأن هذه القوات الإسلامية كانت تمكث فى ميدان المعركة مدة طويلة تصل إلى

عدة شهور. وكان الوقت المألوف للحملات العسكرية هو بداية فصل الصيف ونهايته... الخ . أى ما بين موعد البذر والحصاد. والواقع ، أن الحملة الإسلامية ضد الصليبيين لم تكن تستغرق أكثر من بضعة أسابيع، وكانت تتجاوز هذه المدة إذا كان هناك أسلاب وغنائم وفيرة تستطيع هذه القوات اكتسابها ولاسيما إذا كسبت هذه القوات الحرب. وقد تكيفت الحروب الصليبية مع هذا النمط . وعندما كانت كفة التفوق العددى فى صالح المسلمين كانت القوات الصليبية تتجنب خوض المعركة ضد الجيوش الإسلامية وتنتظر حتى يتفسخ هذا الجيش الإسلامى. ويتمثل النموذج الكلاسيكى القديم لهذه الحرب فى تلك الحملة التى قام بها الصليبيون وأخفقوا فيها وهى معركة سن النبرة Sinn al nabra والتى وقعت فى يونية عام ١١١٣م. ففى هذه المعركة استطاع الجيش الصليبى الهروب بصعوبة بالغة إلى حافة الجبل الذى يطل على طبرية، وكانت هذه المنطقة تحيط بها قوات إسلامية كثيرة العدد والعتاد ، مؤلفة من قوات من الدماشقة وقوات من أهل الموصب وماردين . ومن الملاحظ أن معركة سن النبرة كانت بمثابة نكبة حلت بالقوات الصليبية ، وذلك لأن المناطق الريفية فى فلسطين قد أعلنت ثورتها وتمردها ضد السلطات الصليبية . وظل وضع الصليبيين محفوفًا بالمخاطر طوال ستة وعشرين يومًا؛ فلم يجرؤ المسلمون على الهجوم المباشر، بل قاموا باتلاف المزارع والحقول وتخريبها وتشتت قواتهم بعد أسابيع ثلاثة . وكانت مثل الخطط والتكتيكات العسكرية قادرة على منع كارثة حطين . فقد كان ريموند أمير طرابلس الصليبى يؤيد مثل هذا التكتيك العسكرى عشية موقعة حطين ، وكان الملك الصليبى جى لوزجنان يشاطره الرأى- بيد أن هذا التكتيك والخطة العسكرية قد تغيرت بسبب ضغط الحزب المنافس*.

وثمة ما يشير إلى أن الأجيال الأربعة من المحاربين المسلمين تقريبا كانت ترى أن تحطيم المدن الصليبية المحصنة بالأسوار هو الذى سوف يضع نهاية للوجود والسيادة الصليبية فى المنطقة العربية. وكان صلاح الدين الأيوبى أول قائد عسكرى مسلم يطبق مبدأ عسكريا متقنًا، بيد أن أحد خلفائه وهو الملك العزيز حاكم دمشق قد اتبع هذه الاستراتيجية بشكل منتظم.

---

* الواقع أن القادة الصليبيين قد اختلفوا فيما بينهم بشأن الخطة العسكرية الصليبية فى أثناء موقعة حطين، وكان هناك حزبان متنافسين فى هذا الصدد ولمعرفة المزيد انظر : ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٥٨-٦٠) (المترجم) .

ففى أثناء المحادثات التمهيدية بشأن عقد السلام بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد فى مدينة رام الله، كان صلاح الدين يرى أن النقاط والمواقع الصليبية القوية التى دمرتها الحرب يمكن أن تصبح فى المستقبل مصدر تهديد وخطر على المسلمين. وظلت هذه الرؤية السياسية السابقة لمدة جيل اخر بعد وفاة صلاح الدين، مما جعل الصليبيين فى حالة تحفز دائما. وكانت الغزوات والمعارك الصليبية الظافرة غير ذات جدوى، وذلك لأن الصليبيين لم يجدوا المال الكافى واللازم لاعادة بناء القلاع التى تهدمت فى أثناء الحرب أو إعادة تزويد هذه القلاع بالجنود والحامية العسكرية . ولم يكن لدى الصليبيين القوة الكافية القادرة على تحصين أنفسهم فى المدن الساحلية . فقد قضى الملك الفرنسى لويس التاسع أربع سنوات (١٢٥٠-١٢٥٤م) فى تحصين المدن الصليبية الساحلية، بيد أن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس استطاع أن يعزل هذه المدن الصليبية الساحلية، ويستردها الواحدة تلو الأخرى. لقد استطاع الظاهر بيبرس أن يقوم بأكبر عملية عسكرية لتدمير وتخريب المدن الصليبية الساحلية، وتحطيم تحصيناتها ، على الرغم من الخسائر المادية التى تكبدها الجيش الإسلامى بقيادة بيبرس من جراء تدميره وتخريب مدن السهل الساحلى. ولاشك أن الهدف الرئيسى من تدمير هذه المدن البحرية الصليبية هو منع الصليبيين من العودة إليها وإعادة استخدامها كرؤوس جسر لغزوة صليبية جديدة.

ومما يذكر أن التغير والتحول الرئيسى فى الاستراتيجية العسكرية الاسلامية قد أدى إلى انقلاب فى السياسة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى . فلم يكن السبب فى تحول اتجاه الصليبيين من الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام صوب مصر هو الارتفاع المفاجىء للشوفينية (الغلو فى الوطنية) لدى الصليبيين، أو بسبب نزعتهم الاستعمارية ، ولكن هذا التحول كان ضرورة ملحة للصليبيين ، وكان يمثل المحاولة والمجهود الأخير من أجل إنقاذ الوجود الصليبى ولذا بات على الصليبيين اعتناق مبدأ عسكريا جديدا واستراتيجية جديدة. لقد كان الهدف من هذا التحول الاستراتيجى الصليبى هو القضاء على قوة مصر واستعادة الأراضى التى فقدوها فى فلسطين وبلاد الشام، وذلك من خلال الحملة الصليبية الخامسة فى دمياط والقاهرة . إذ كان الانتصار الصليبى على مصر يعنى انهيار القوى الإسلامية فى بلاد الشام وفلسطين . لقد كان الصليبيون يهدفون من وراء السيطرة على مصر إلى تعضيد وترسيخ وجودهم من جديد فى فلسطين وبلاد الشام وضمان أمنهم فى هذه المناطق . ومما يذكر

أن الصليبيين قد أخفقوا فى حملتين عسكريتين ضد مصر وهى الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧-١٢٢١م) ، والحملة الصليبية السابعة التى قادها الملك الفرنسى لويس التاسع (١٢٤٨-١٢٥٠م) ويمكن أن نعزو هذا الاخفاف الصليبى إلى سوء القيادة العامة وعقم الدبلوماسية الصليبية.

وقد فقدت المملكة الصليبية فى بيت المقدس زمام المبادرة العسكرية والسياسية فى أعقاب إخفاق وفشل الحملة الصليبية السابعة ضد مصر . وكان أفضل شيء هو أن تقوم المملكة بالدفاع عن نفسها فقط. وكانت البقايا الهزيلة للملكة الصليبية والتى كانت تقع على امتداد شريط ساحلى ضيق تعمق خناقها وتقوى أسوارها . وحصن الصليبيون هذه المناطق الساحلية لمواجهة العدو الإسلامى المتحرك دائما من أجل الانقضاض عليها. وانتظروا هجوما اسلاميا ضاربا واسعًا ومن ثم أغلقوا أمامه أبواب مدنهم المعزولة . ولم يكن المسلمون فى حاجة إلى حطين جديدة ، لأنهم استطاعوا استعادة واسترداد مدينة تلو الأخرى. واستطاع المسلمون اسقاط واسترداد احدى المدن بعد مدة قصيرة من الحصار . وكانت عكا آخر مدينة صليبية يستردها المسلمون فى عام ١٢٩١م ، ويمكن القول إن هذه المدينة كانت آخر قلاع المجد الغابر للملكة الصليبية.

ء- الأسلحة والتسليح عند الصليبيين

لقد كانت الأسلحة والتسليح الصليبى فى الأساس ذا طابع أوربى. وكثيرا ما قرأنا أن الأمير الصليبى تانكرد Tancred قد ظهر على أحد وجهى العملة التى ضربها فى إمارته وهو يرتدى نوعا من الكوفية العربية ... الخ وكانت الكوفية عبارة عن قطعة من القماش فوق خوذته . وهذا لايثبت الاستشراق بين الصليبيين، بيد أنه ببساطة يجب أن تشير إلى أن تانكرد قد تبنى النموذج النورمانى فى اتخاذ واختيار غطاء الرأس الذى كان يستخدمه المسلمون من أجل حماية الرأس من حرارة شمس الشرق (وربما كان النورمان يتخذون غطاء الرأس هذا فى جنوب ايطاليا أو فى صقلية) .

ولدينا القليل من أوصاف الأسلحة والتسليح الصليبى، بيد أننا يمكن زن نبلور فكرة جيدة عن السلاح الذى كان يستخدمه الفرسان الصليبيون فى أثناء الحملة الصليبية الأولى ، ويرجع هذا إلى أن هؤلاء الفرسان فقط كانوا معاصرين لفرسان وليام الفاتح، والتى حفظت أسلحتهم

فى شكل صور ورسومات ازدانت بها نسيج ولوحة بايبه Bayeux ، كانت التغيرات اللاحقة فى الأسلحة الصليبية تتم من خلال الأصول الأوربية للأسلحة . وقد اعتمدت الدراسة الجيدة والمفصلة للأسلحة الأوربية فى العصور الوسطى على النقوش التى وجدت على الأختام الأوربية المعاصرة وكان عدد كبير من هذه الأختام يخص النبلاء الأوربيين الذين شاركوا فى الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث من الميلاد. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن صور أسلحة النبلاء الصليبيين كانت تظهر فى شكل نقوش على الأختام الصليبية الفعلية . وإلى حد ما يمكن التعرف أيضًا على وصف الأسلحة والتسليح الصليبى من خلال المخطوطات الصليبية التى تزينها زخارف حتى المخطوطات التى ترتبط بالموضوعات الدينية الخاصة بالكتاب المقدس (الانجيل) ، إذ تصور لنا هذه المخطوطات نوع التسليح الشخصى للمقاتل الصليبى والأسلحة الصليبية المعاصرة.

وإذا اتخذنا من لوحة النسيج المصور عليها الرسوم والأشكال والتى تعرف باسم لوحة بايبه Bayeux Tapestry النموذج الأساسى ، فإنه يمكننا فهم وادراك أن التسليح الصليبى كان فعالاً وعمليا تمامًا . إذ كانت الدروع التى يرتديها المقاتل الصليبى غير مريحة وغير أنيقة وكانت وظيفتها حماية هذا المقاتل من خطر كل أنواع الأسلحة المستخدمة فى الحرب مثل: السهم والرمح (وأحيانا المقذوف) ، والفأس axe ، والقضيب الخاص بتكسير الدروع mace، والسيف والخنجر dagger . وفى نفس الوقت كان هذا التسليح يفرض على المقاتل الصليبى الذى يرتدى دروع الحماية أن يستعمل أسلحته الشخصية.

وكانت الأجزاء الرئيسة للتسليح الشخصى تشمل الخوذة وكساء يغطى كل جسم الفارس دون أن يعوق حركته، وبالإضافة إلى القميص الخفيف الطويل كان الفارس يرتدى بدلة (التتك) سميكة ومحشوة ومصنوعة من القماش أو الجلد متعددة الطبقات وكانت هذه البدلة عبارة عن سترة مثبت عليها باحكام صفائح معدنية رقيقة للوقاية . وكانت هذه السترة الواقية الطويلة والخارجية والمثبت عليها صفائح رقيقة تصل إلى أسفل ركبة الفارس وقد عرفت هذه السترة باسم broigne أو byrnie . وكانت هذه السترة مشقوقة من الأمام والخلف لكى يسهل على الفارس امتطاء فرسه .وكان الفارس أيضا يرتدى فى رجليه جوربًا مصنوعًا من مادة معدنية. وقد اعتمدت فعالية وقوة هذه السترة المدرعة الواقية للفارس على كثافة ونوعية هذه الصفائح المعدنية الرقيقة أو الحلقات الحديدية .

لقد كان الأعيان والوجهاء أول من استخدموا نوعًا مختلفا من هذه السترة الواقية ، بيد أنه فى فترة متأخرة عرف الفرسان استخدام هذا النوع من السترات (وكانت هذه السترة فى الأصل تحمى عنق الفارس) ، حيث كانت الصفائح المعدنية يحل محلها ذرديات مصنوعة يدويًا وكانت هذه الزرديات عبارة عن حلقات معدنية متشابكة ومثبتة باحكام وكانت هذه الحلقات والزرديات المعدنية فى النهاية تصبح جزءاً معزولاً عن البدلة العسكرية (التتك) المصنوعة من الجلد أو القماش وهى البدلة التى كانت تحت السترة المدرعة. وكانت الملابس الداخلية التى يرتديها الفارس تعرف باسم gambeson . وفى القرن الثالث عشر الميلادى زودت السترة الواقية hauberk بأغطية للذراع أو أكمام تنتهى بقفازات طويلة لحماية الذراعين واليدين . ومع أن الزردية أو الدرع كان أكثر مرونة وليونة ، إلا أن السترة الواقيةbroigne أو hauberk أصبحت أكثر سخونة على الجسم من جراء حرارة الشمس القائظة . وكذلك كانت البدلة الطويلة والخفيفة ذات القماش الأبيض ، وكذلك المعطف الذى يرتديه الفارس فوق دروعه تسبب سخونة للجسم وذلك عندما يلبسها الفارس فوق السترة المدرعة . وفى أثناء القرن الثالث عشر كانت بدلة الفارس تحمل شعارات النبالة والرتبة العسكرية به على ذراعه . وكان شعار النبالة يتكرر وجوده على الزخارف الموجودة على أغطية سرج الفرس.

وكانت الخوذة habmet تعتبر من أدوات التسليح الرئيسة الأخرى ، وقد عدل تصميمها بشكل أساسى فى الفترة ما بين الحملة الصليبية الأول وبين سقوط عكا فى يد المسلمين عام ١٢٩١ . فقد كان فرسان الحملة الصليبية الأولى يرتدون خوذات حديدية ، ذات شكل مخروطى يرتكز على قاعدة دائرية، ويتدلى من قمة الخوذة شرائط معدنية . وكانت السيور الجلدية تغطى العنق. وبالإضافة إلى هذا النمط السائد من الخوذات كانت توجد قطعة تغطى الأنف والوجه ، وهذه القطعة كانت تغطى وجه الفارس فقط . ولم يكن مألوفا لدى الصليبيين عادة تزيين الخوذة بعمامة من القماش الأبيض كما كانت عادة المحاربين والفرسان فى منطقة الشرق العربى.

وفى الربع الأخير من القرن الثانى عشر فقدت الخوذة شكلها المخروطى وأصبحت ذات شكل أسطوانى مع قمة دائرية أو مسطحة . وظل هذا الشكل من الخوذات منتشرا حتى القرن الثالث عشر الميلادى، بيد أنه فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى تغير شكل قمة الخوذة ، حيث اتسعت القمة الاسطوانية للخوذة ، وأصبحت ذات شكل بصلى منتفخ. ومن الواضح أن

واقى الوجه لم يكن كافيا لحماية الوجه ، ولذا حل محله قناع للوجه مزود بخطين أو صفين من الفتحات للتنفس . وكانت الخوذة فى شكلها النهائى تعرف بالخوذة الكبرى ، وقبعة القديس لويس أو خوذة الصليبيين. وكان ثقل وزن مثل هذه الخوذة يجعل من غير العملى ارتدائها إلى آخر لحظة فى المعركة. وهكذا فإن الفارس كان فى الغالب يرتدى خوذة أصغر ، تعرف باسم قبعة الحرب أو السيف Chapeasn de per وكانت عبارة عن قبعة دائرية ، ذات حافة كبيرة منحنية.

لقد كان التسليح الشخصى الخاص بالفارس يكتمل بالترس Shield . إذ كان فرسان الحملة الصليبية الأولى يحملون تروسًا على شكل طائرة ورقية كبيرة، دائرية عند القمة ومسننة ومحددة عند الأطراف أى مستدق الرأس ، وكان هذا النوع من التروس مألوفًا ومنتشراً من خلال مازودتنا به لوحة بابيه Bayeux Tapestry وكان وزنها ثقيلاً لأنها كانت تصنع من الخشب ، ومحشوة من الداخل ويغطيها الجلد من الخارج . وتصميم هذه التروس كان يشبه ويماثل شكل شمس بأشعتها وكانت الأربطة المعدنية تقوى الترس وكانت هذه الأربطة تتركز عند مركز الترس فى عقدة الدرع .

وكان هذا الترس الثقيل يتدلى من الكتف بواسطة رباط جلدى وذلك عندما كان الفارس يمتطى حصانه ويقود لجام الحصان بشماله. وعندما يكون الفارس واقفًا فإن الترس كان يغطى الفارس من عنقه حتى رجليه وتوفر له الحماية فى وقت يكون التسليح الشخصى وأدواته غير كافية وغير ملائمة لتوفير الحماية الكاملة للفارس .

وفى أثناء وأحداث الحملة الصليبية الأولى التقى الفرنجة مصادفة بالترس الدائرى الذى كان سائداً فى منطقة الشرق العربى الإسلامى، وهو الترس الذى كان جيد الاستخدام من الناحية العملية فى مجال الفروسية ، بيد أنه كان غير ملائم فى الحرب التى تعتمد على المحاربين المشاة. ومن المحتمل أن الصليبيين قد تأثروا بهذا الترس الشرقى منذ وقت مبكر. وعلى أية حال ، فإن التطورات الأوربية فى مجال التسليح قد سارت فى نفس الاتجاه ، على الرغم من أن الترس الدائرى لم يصبح مقعراً.

وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، ومع تطور الشبكة المترابطة المدرعة، أصبح الترس القديم مهجوراً وتخلى الفرسان عن استخدامه . إذ كان الترس الجديد قصيراً ، بحيث يغطى صدر وبطن الفارس ويعطى حرية حركة لهذا الفارس الذى يستخدمه فى أثناء

الحرب . وكان شكل الترس الجديد دائريًا أو مثلث الشكل قصيراً وغليظًا ، وظل هذا الشكل من التروس طوال القرن الثالث عشر. ومع تطور شعار النبالة للفروسية فى العصور الوسطى، أصبح الترس مزخرفًا بهذا الشعار . وهكذا تكررت أنماط من التروس ، وأنماط من المعطف الذى يرتديه الفرسان والزخارف التى تزين سرج الحصان .

وكانت الأسلحة الرئيسة للفارس المحارب تشمل ، الرمح ، والسيف ، وقضيب تكسير الدروع mace وفأس المعركة The battle axe (الطبر) . وأصبحت فأس المعركة (الطبر) بالاضافة إلى الراية المثلثة التى تعلق فى رأس الرمح علامة بارزة ومميزة للفارس فى العصور الوسطى. وكان الفارس عندما يمتطى صهوة جواده يعلق الرمح فى ذراعه الأيمن ويستخدمه فى أعمال الطعن، وكان يمكن للفارس أيضا أن يقذف هذا الرمح فى وجه الأعداء. ومما يذكر أن قصبة الرمح كانت تصنع من خشب الدردار ash وينتهى طرفه برأس حديدية ، وقد اختلف شكل هذه الرأس من رمح إلى آخر. وإذا اضطرت الظروف الفارس أن يحارب على الأقدام فانه كان يستطيع أن يستخدم رأس الرمح فى طعن الأعداء، على الرغم من أن حدة وقوة رأس الرمح لم تكن ملائمة لهذا الغرض *. وأخير كان يوجد السيف ضمن الأسلحة التى يستخدمها الفارس فى الحرب . وفى القرن الثانى عشر كان النمط السائد للسيوف هو السيف القصير ، وكان يشبه السيف الرومانى. وكان السيف ذا حدين ينتهى بطرف على شكل مثلث ، وكان النمط الثانى للسيوف أكثر أناقة وروعة ، وكان أضيق إلى الحافة . وفى العادة كان مقبض السيف دائريًا ومسطحًا ، مع أن الأشكال الأخرى للسيوف كانت شائعة بشكل واضح. وكان غمد السيف مصنوعًا من الجلد ومدعمًا بالقراب المعدنية ذى الحلقة التى تعلقه بالحزام achape وتركيبات معدنية أخرى، وكان يعلق فى العنق أو الكتف ، وأخيراً كان يعلق فى خصر الفارس. وفى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى، أصبح السيف أكبر حجما ، وأثقل وزنا ، وأكثر حدة ومضاءً . وأصبح ذا فعالية عالية فى مواجهة التسليح الشخصى الأكثر تطورا . وبالإضافة إلى ذلك ، فإننا أحيانا نسمع عن القضبان التى كانت تستخدم فى تكسير الدروع maces والفئوس axes كعناصر أساسية من عدة الفارس وأسلحته . لقد كانت عملية إعداد

---

* لقد ظهرت صور الرماح على معظم أختام الحكام الصليبيين، وكان النمط المألوف والشائع لهذه الرماح المصورة عبارة عن فارس يعدو بفرسه بسرعة حاملا رمحه ، ونادرا ما كانت السيوف تصور على الأختام الصليبية (المؤلف) .

الفارس وتسليحه أمراً باهظ التكاليف. ففى القرن الثالث عشر كان الاسبتارية يقدرون تكلفة تسليح الفارس بمبلغ يتراوح من ١٥٠٠-٢٠٠٠ دينار فضى من الدنانير التورونية، وكان البند الأساسى للانفاق يتمثل فى شراء الحصان.

وعلى الجانب الآخر، فإن تجهيز واعداد المحارب المشاه كان أقل تكلفة من الفارس . ولاشك أن المرء يستطيع تصور وتخيل مستوى التسليح من خلال الوصف الذى ذكره «قانون الجيوش» Assize of Arms الذى دون فى عهد الملك الانجليزى فى عام (١١٨٤م)* . وفى العادة كان المؤرخون اللاتين يصفون المحارب المشاة بأنه أقل تسليحًا من الفارس الراكب . وجاء وصف المحارب المشاه جيد التسليح على لسان شاعر التروبادور الشهير امبرواز Ambroise وذلك فى أثناء الحملة الصليبية الثالثة حيث قال : لقد كان الجنود المشاه فى الحملة الصليبية الثالثة يلبسون الخوذات فوق رؤسهم ، ويلبسون الدروع ، والرماح، ويحملون القضبان الحديدية الخاصة بتكسير الدروع .Armes do Coife , de haubere, de Parpoint a meintbel mere

والترجمة التوضيحية لهذه الفقرة اللاتينية هى: أن المحارب المشاه كان جيد التسليح تماما طبقا لعادة المحارب المشاة، إذ كان يرتدى فوق رأسه غطاءً حديديًا (خوذة) لحماية رأسه ، ومزوداً بدرع hauberk، وبدلة كتانية سميكة (التنك Tunic) يصعب اختراقها بواسطة السهام، وكانت خياطتها ذات شكل ساذج . ومن ثم كانت تعرف فى اللغة العامية باسم سترة رجالية apourpoint . وكانت ملابس ومعدات الحماية أقل اتقانًا ، وكانت هذه المعدات تشمل، القبعة الحديدية وواقى الصدر المصنوع من الجلد أو الكتان السميك والمبطن ، والرمح ، والقوس ، وأحيانا النشابية Crossbour، والخنجر adgger .

---

* يحدد قانون الجيوش The Assize of Arms الصادر فى عام ١١٨١ أسلحة الفارس وكانت تشمل القميص المزرد المدرع ، والخوذة ، والترس Shield، والرمح Rance . وكانت أسلحة المحارب المشاه من العلمانيين الفقراء تشمل السترة الواقية، والقبعة الحديدية Iron cap، والرمح . وكانت أسلحة المحارب الذى ينتمى إلى طبقة البرجوازية الأحرار تشمل : السترة الواقية ، وقبعة حديدية، وبعد مائة عام أمكن احصاء أسلحة المحاربين الأثرياء وذلك من خلال تمثال الملك ادوارد الأول فى مانسشتر فى عام (١٢٨٥) وكانت هذه الأسلحة تشمل : سترة وافية ، قبعة حديدية، سيف ، سكين، حصان . وكانت أسلحة المحاربين الأقل ثراءً تشمل : نفس الأسلحة السابقة ماعدا الحصان . وكانت أسلحة المحاربين من عامة الناس تشمل : سترة رجالية Pourpoint ، وقبعة حديدية ، وسيف ، وسكين ، وقوس ، وسهام (المؤلف) .

هـ - الحرب

وفى مجال الحرب كان على الصليبيين أن يتعاملوا مع جيوش لم يعرفها الغرب الأوربى وهى الجيوش الاسلامية ، وكان البيزنطيون على دراية بهذه الجيوش الإسلامية من خلال التلاقى بينهما فى مجال الحرب. وفى القرن الثانى عشر الميلادى، كان يوجد اختلاف واضح بين الجيوش المصرية والجيوش الإسلامية الأخرى فى بلاد الشام والعراق . فقد كان الفارس المصرى يحارب بالسيف والرمح، مثل المحاربين الصليبيين ، بالرغم من أن هذا التسليح كان خفيفًا . ولم يغفل الصليبيون قيمة ومكانة مصر العسكرية . وكان الخطر الحقيقى المحدق بالصليبيين يأتى من الجيوش الإسلامية المرابطة فى الشمال . وهنا استطاع الغزو السلجوقى أن يدخل مبدأ ابتزاز المال والسلب والنهب إلى الفروسية الإسلامية، وقد استمر هذا المبدأ تقليدا فى العسكرية العربية الإسلامية ، وتمثل النمط الجديد للمحارب والخطط العسكرية الجديدة فى المحارب التركى السلجوقى الراكب الذى يرمى السهام.

كان القوس والنشابية من الأسلحة المعروفة لدى كل من الجيوش فى منطقة الشرق العربى الإسلامي والغرب الأوربى على السواء. وحتى فى أوربا لم يستخدم القوس مدة طويلة قبل القرن الثانى عشر الميلادى وكانت فروسية العصور الوسطى الأوربية تزدرى استخدام القوس فى الحرب. ومن الناحية الفعلية كان استخدام القوس يجلب على المحارب مزيداً من الخزى والحط من قدرة أولئك الذين يستخدمونه من المحاربين من غير طبقة النبلاء . فقد كان النبلاء يستخدمون القوس فى الصيد ، بيد أن اطلاق السهام أو السهام القصيرة فى المعركة كان يعتبر بالتحديد شكلا مألوفًا من أشكال القتال والحرب فى العصور الوسطى. ويبدو أن تطورا متوازنا لاستخدام القوس واطلاق السهام قد حدث لدى الجيوش الإسلامية ، فعلى سبيل المثال كان رماة السهام فى الجيش المصرى من المشاة وكان يتم تجنيدهم من الجنود السودان .

وقد تم هذا التغيير والتحول فى استخدام القوس على يد الأتراك السلاجقة. فقد كان السلاجقة الأتراك قبل مجيئهم إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى يعيشون حياة قبلية فى منطقة آسيا الصغرى وعندما حضروا إلى المنطقة العربية جلبوا معهم تقنيات جديدة للحرب تمثلت فى رماة السهام الراكبين الفرسان الذين يتحركون فى خفة وسرعة . وهكذا أصبح القوس سلاحًا حاسمًا فى المراحل الأولى من أية معركة (وأحيانا كان القوس أداة من أدوات النصر والظفر فى المعركة)، ثم يتبعه القتال باستخدام الرمح، والسيف ، وقضيب تكسير الدروع ،

والفأس (الطبر) ، والخنجر. وكانت مزايا هذا الخطط العسكرية (التكتيكات) واضحة عند استخدامها ضد عدو لم يألف مثل هذا النمط من القتال .

وكان تحرك الجيوش هو العامل الحاسم فى المعركة. فقد كان ثقل وزن العتاد العسكرى والتسليح الصليبى يفرض عليهم استخدام خيول ضخمة وقوية ، ومن الطبيعى أن تكون حركة هذه الخيول الضخمة بطيئة ، ولذا كان الجيش الصليبى فى أثناء الزحف يتكبد الخسائر. وتوضح لنا الكثير من أوصاف المعارك هذه الحقيقة ، إذ كانت سرايا الخيالة المسلمين من رماة السهام تصل إلى طابور المحاربين الصليبيين بسرعة مذهلة تصل إلى ٥٠-٨٠ ميل فى الساعة، حيث كانت تمطر الجيوش الصليبية بوابل من السهام، ثم تختفى هذه القوات الخفيفة والسريعة الحركة بنفس السرعة التى أتت بها ، وبعد مدة قصيرة تكررالهجوم على الجيش الصليبى مرة أخرى*. ومما يذكر أن هذه الهجمات المتكررة كانت توجه ضد مؤخرة الجيش الصليبى وأطرافه دون القلب . وثمة عدد من المؤرخين المعاصرين تركوا لنا وصفًا حيًا لمجرى الأحداث لهذه المعارك التى دارت رحاها بين الجيوش الإسلامية والجيوش الصليبية ، فقد وصف هؤلاء المؤرخون الجيوش الإسلامية بالنحل الذى يحوم حول الجيوش الصليبية بسبب سرعة وخفة الحركة.

وجلب هذا الأسلوب من القتال على المحاربين الصليبيين الكثير من الخسائر والأضرار المروعة . فلم يكن السيف ، أو الرمح ، ولا الرماح الطويلة ذات تأثير حاسم فى مواجهة رماة السهام الراكبة المسلمين الذين كانوا يهاجمون مؤخرة الجيوش الصليبية من وراء خطوطها . بيد أن العتاد العسكرى الصليبى الثقيل كان بمقدوره أن يوفر الحماية لهذه القوات الصليبية والصمود فى مواجهة السهام المنهمرة، وفى بعض الأحيان كان المؤرخون المعاصرين يصفون التروس الواقية Shields الصليبية والسترات الواقية Coats بعد هجوم رماة السهام المسلمين بأنها مثل القوارض Porcupine . فاذا فشل الدرع الواقى للفارس الصليبى mail فى حمايته فإنه يصبح عرضة للاصابة والجرح . وعلاوة على ذلك ، فإن الجيوش الإسلامية قد استفادت

---

* يمكن القول فى هذا الصدد أن هذه القوات الإسلامية الخفيفة كانت تتبع طريقة الكر والفر ، وهى الطريقة التى عرفتها الجيوش الإسلامية منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم تكن هذه الطريقة من ابداع العقلية العسكرية السلجوقية، ولكنها خطة مقتبسة عرفتها الجيوش الإسلامية قبل الصراع الإسلامى الصليبى بوقت طويل (المترجم) .

من حقيقة أنه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد لم يعد من الممكن حماية الخيول من السهام والحراب المصوبة ضدها فى ميدان المعركة. ومن ثم، فإنه أصبح من السهل انزال الفارس عن سرجه بعد أن يقتل حصانه ، وبعد أن يترجل الفارس يصبح محدود الحركة وقلما كان يستطيع الصمود أمام هجوم أى محارب راكب (فارس) من الأعداء .

لقد كان نمط وأسلوب الحرب السلجوقية التركية يمثل تحديًا للعسكرية الأوربية الغربية فى العصور الوسطى. فقد جلب الأتراك السلاجقة معهم اثنين من الحلول العسكرية : الأول هو نمط جديد من المحاربين ، وهم التركبولى Turcoples *، والثانى هو تطور خططهم العسكرية لمواجهة الخطر ، فقد كان التركبولى بمثابة سرايا خياله من الأتراك تحارب من فوق ظهور الخيل ، بيد أننا عندما نتفحص النصوص بدقة نجد أنها تشير إلى مسألة القوات التركبولى بشكل أكثر تعقيداً . فاسم التركبولى فى حد ذاته يعنى «أبناء الترك»، وتصفهم المصادر التاريخية اللاتينية بأنهم قوات من المولدين أى من نسل مختلط وهم الذين ينحدرون من أب تركى أو عربى وأم بيزنطية . وكان هؤلاء التركبولى يتم تجنيدهم داخل المملكة الصليبية نفسها ، على الرغم من أن بعضهم ربما كانوا من المهاجرين الجدد الذين نزحوا من شمال المملكة الصليبية. وفى وقت ما تغير التركيب الاثنى (العرقى) لهذه القوات التى كانت تعرف باسم التركبولى ، وأصبح التركبولى Turcople ينطبق على هذا النمط المهم من المحاربين بغض النظر عن الأصل العرقى أو العنصرى .

وتخبرنا احدى روايات التروبادور الشهير امبرواز Ambroise الذى شارك فى أحداث الحملة الصليبية الثالثة أن قوات التركبولى كانت لهم ملابس خاصة وقد أمروا أن يلتزموا الصمت ولم يظهر أنهم كانوا يتحدثون اللغة العربية. وفى فترة متأخرة ، كان يتم تجنيدهم من بين السكان المحليين الصليبيين. وهكذا وصف التركبولى بأنهم فرسان (أو خيالة) مزودين بأسلحة خفيفة ، على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يؤكد أنهم كانوا يحاربون كرماة للسهام

---

* التركبولى turcoples:

كلمة محرفة من Turcopole وهم الجند المهجنون الذين كانوا فى خدمة الافرنج ، فكان آباؤهم من الأتراك أو العرب وأمهاتهم بيزنطيات وكانوا رماة الافرنج . وقد ورد ذكرهم كثيرا فى تواريخ العصر انظر: العماد الاصفهانى : الفتح القس ، ص٤٢٥ (المترجم) .

الراكبة على وجه الحصر . ومن الواضح أن بعض التركبولى قد استخدموا القوس Bow، بيد أنهم بشكل عام لم يصبحوا نسخة صليبية لنموذج المحاربين السلاجقة من رماة السهام الراكبة*. ومن المحتمل أن قوات التركبولى قد استمرت كقوات خفيفة حتى فى أثناء القرن الثالث عشر عندما أصبح السلاح أثقل بشكل تصاعدى. وهكذا استخدمت التركبولية خيولاً أسرع من خيول الفرسان وتم استخدامهم فى مهمات الاستطلاع وكطليعة للجيش ، وكذلك فى عمليات الغزو والسلب والنهب . وأصبح التركبولى جزءاً وقسما مكملاً للجيوش الصليبية ، ويخضعون لقيادة مارشال المملكة الصليبية، حيث كان المارشال يصدر أوامره العسكرية لهذه القوات من التركبولى وكان عليها تنفيذ هذه الأوامر بكل دقة.

لقد كانت قوات التركبولى Turcoples الصليبية أفضل مظهر للتحدى العسكرى الذى فرضه الأتراك السلاجقة فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. فلم تستطع الفروسية الصليبية أن تتكيف مع أسلوب وطريقة الحرب التركية السلجوقية، وذلك لأن مثل هذا التكيف كان يتطلب جرعة كبيرة من التدريب المتكرر على الخطط العسكرية الجديدة. وكانت الاستجابة العسكرية تتمثل فى استخدام رماة السهام archers وحملة الأقواس رماة السهام المشاه. فلم يستطع المشاه الأوربيون الذين من الفلاحين أن يهجروا أبدا استخدام القوس (النشاب) والذى كان يشمل الرمح Pike والترس Shield ، وظل القوس السلاح الرئيسى للمحاربين الفلاحين فى أوربا العصور الوسطى. ففى أوربا لم يكن برماة السهام المساعدين أية أهمية حتى مجىء القوس الطويل إلى أوربا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد. وقد تطورت خطط عسكرية فى الشرق بشكل مختلف ووجد الصليبيون فى استحداث المحاربين من رماة السهام استجابة عسكرية للتحدى التركى السلجوقى الذى فرض نفسه فى ذلك الوقت. فقد كانت وحدات حاملى الأقواس ورماة السهام تقف أمام سرايا الفرسان الراكبة . وكانت سهامهم وحرابهم تجعل رماة السهام الراكبة للعدو يبقون عند مسافة مناسبة من الجيش الرئيسى وتحمى الفرسان الصليبيين . وكان تبادل اطلاق القذائف والسهام بين رماة وحاملى السهام الصليبيين وبين رماة السهام السلاجقة الراكبة يستمر لوقت طويل ينتظر خلالها الفرسان. وعندئذ وفى

---

* كان العرب يعرفون اسم «التركبولى»، وقد حدد أسامة بن منقذ «التركبولى» بأنهم رماة السهام من الفرنجة . وهذا النص يتعلق بامارة طرابلس الصليبية (المؤلف) .

اللحظة المناسبة تبدأ قوات المشاة المشاركة فى المعركة وينقض الفرسان الصليبيون على أعدائهم بكثافة عالية وقوة كبيرة.

ولاشك أن مزايا استخدام الجيش لرماة السهام المشاة كانت واضحة ، بيد أنه كان يوجد أيضًا بعض عمليات التقهقر والتردد . وكانت مثل هذه الخطط والتكتيكات العسكرية أكثر ملاءمة للمعارك الضارية التى تشهد التحام الجيوش وجها لوجه من تلك المعارك التى كانت تتم فى صورة مناوشات متنقلة من مكان إلى آخر. وكان التحرك البطىء لقوات المشاه يساهم فى سرعة تقدم القوات الأخرى . وهكذا كان يمكن كبح جماع الخيالة السريعة. وهذا يفسر لنا قيام الأتراك السلاجقة بنصب دائرة حول الجيش الصليبى. ومرة ثانية عندما كانت الحملة العسكرية تجمع ما بين التقدم والتوقف ، فإن أمان الجيش الصليبى كان يعتمد على التحام وتماسك كل قواته ، هذا الالتحام والتماسك الذى لم يكن من السهل المحافظة عليه. بالإضافة إلى ذلك ، فإنه كان من السهل على القوات الإسلامية من الأتراك السلاجقة اطلاق القذائف والسهام المنهمرة على الجيوش الصليبية التى كانت مؤلفة من وحدات مدمجة ومتراصة مكشوفة وواضحة ، وذلك عند نجاحهم فى الاقتراب من الوصول إلى الجيش الصليبى إلى داخل منطقة مرمى اطلاق القذائف . وهكذا فإن قوات صلاح الدين الأيوبى، تحركت من فوق تل جبلى مرتفع فى الجهة اليسرى من الجيس الصليبى عندما زحف الملك ريتشارد قلب الأسد من عكا إلى يافا ، واستطاع صلاح الدين شن غارات متكررة لعدة أيام ضد الجيش الصليبى ولم يتكبد جيش صلاح الدين أية خسائر.

لقد كان نجاح الجيش الصليبى فى معاركة ضد المسلمين يعتمد بشكل كبير على نظامه الداخلى، وخاصة التزام الفرسان من عدم أخذ المبادرة والاختراق خلال قواتهم من المشاة ، تلك القوات التى كانت توفر للفرسان الحماية. ولاشك أن عملية قتل عدد من الشباب المحاربين فى أى جيش من الجيوش الصليبية أو الجيوش الإسلامية كانت مشكلة لدى كلا من الجيشين على السواء، بيد أنه فى العصور الوسطى عندما كان النزال والصراع الفردى يمثل أعلى وأرقى امتحان يخوضه أى فارس ولاسيما إذا كان هذا الفارس جاء بصحبة قوات (فى الحملة الصليبية الثالثة) من كل أنحاء أوربا لمحاربة المسلمين الهراطقة ، فإن مثل هذه الخطط العسكرية الدقيقة تبدو وكأنها من قبيل التسويف وليس لها علاقة بالفروسية . وعلى ضوء هذا يمكن تفسير نجاح استراتيجية المحاربين الراكبة السلجوقية أو المغولية ضد الصليبيين

والتى كانت تتمثل فى شن حرب كاذبة صورية ثم يتبعها التفاف وحصار مفاجىء ضد جيش الأعداء الصليبيين. وكان يعقب ذلك انهيار معنويات الأعداء ويفتقد كل محارب صليبى ويشعر بأن قوات جيشهم قد أصابها الانهيار والتفسخ ؛ والأكثر أهمية هو أن الفارس الراكب قد أصبح منفصلاً عن رماة السهام المشاه ولذا أصبح هذا الفارس الراكب أكثر عرضة لقذائف رامى السهام الراكب المسلم و الذى لم يستطع أن يلتحم مع الفارس الصليبى بالسيف أو الرمح. وما كان يحدث لسرايا خيالة مستقلة وقائمة بذاتها فى تعقب ومطاردة قوات عدو يتظاهر بالانسحاب والهروب كان يمكن أن يحدث لكل الجيش وذلك فى حالة نجاح العدو فى فصل وعزل الفرسان عن قوات المشاة. وقد حدث مثل هذا على أرض الواقع فى أثناء موقعة حطين الشهيرة ، حيث استطاع الجيش الإسلامى بقيادة صلاح الدين فصل الفرسان الصليبيين عن قوات الصليبيين المشاة .

ومما يذكر أن جاك الفيترى Jacque de Vitry أسقف عكا الصليبى قد وصف بوضوح أحداث احدى العمليات العسكرية فى أثناء حصار دمياط فى اطار الحملة الصليبية الخامسة فقال:

«لقد استطاع المحاربون المصريون آسر عدد من فرساننا وقواتنا المشاه (التركبولية) بعد أن جرحت خيولهم ، ويرجع سبب هذا الأسر إلى ذهاب الفرسان الصليبيين إلى جمع الخشب أو من أجل جمع الحبوب، أو أنها ضلت الطريق بعيداً عن الجيش ، ولم يستطع فرساننا تأجيل عملية الاشتباك العسكرى حتى يجتمع شمل جيشنا وتتكتل قواته. وأحيانا سقطت بعض قواتنا فى الأسر، وهى القوات التى كانت تتعقب قوات المسلمين المصريين التى كانت تتظاهر بالانسحاب والهروب».

وفى احدى خطابات جاك الفيترى أسقف عكا يقول: «وبسبب حذر ويقظة المسلمين ، لم يجرؤا على دخول معركة ضدنا إلا إذا كانوا أكبر عدداً وأكثرة عدة وتفوق عسكرى ، ولذ فإنهم استطاعوا أن يأسروا من قواتنا عدداً يزيد عن الثلاثة آلاف، فى حين إننا لم نستطع أسر عدد من المسلمين أكثر من ألف محارب. كان الاختلاف بين الجيوش الإسلامية والجيوش الصليبية فى الخطط العسكرية ذا تأثير واضح وكبير فى كيفية اختيار كلاهما لأرض المعركة. فقد كان المسلمون أكثر اهتماماً باختيار أرض وعرة مكشوفة ، وهى الأرض التى كانت تمنح فرسانهم المحاربين سرعة المناورة وخفة الحركة . بالإضافة إلى أن الأرض الوعرة كانت تعوق

الخطط العسكرية الصليبية المرعبة والتى كانت تتمثل فى هجوم الخيالة الصليبية الثقيلة المباشر والمباغت والذى يحتاج إلى أرض مستوية دون عوائق.

كان هجوم الجيش الصليبى المتحرك والقذائف التى يطلقها من مسافة بعيدة ، يعد من المزايا التى تستفيد منها الجيوش الإسلامية ، وظلت قوة الاصطدام بمثابة القوة الرئيسية للجيوش الصليبية. حيث كان الهجوم المفاجىء للفرسان الصليبيين الراكبة عن طريق تحرك عدد كبير من الفرسان المزودين بزرديات يمتطون صهوة جيادهم الثقيلة ، ويحملون الرماح التى تستخدم فى الطعن، ومزودين بترس من العنق إلى الفخذ ، يمنهحهم قوة دافعة إلى أن تبدأ اللحظة الحاسمة للمعركة . وكان الهدف من هذه التظاهره العسكرية هو تمزيق قوات العدو وتحطيمها ، واختراقها وتحطيم خيالتها الخفيفة والسيطرة على زمام المعركة وحسمها . وإذا لم يكن الصدام الأول حاسمًا فى المعركة ، فإن العدو يستطيع أن يتخدم أجنحة جيشه للهجوم من أحد الجانبين – وذلك إذا القلب هو هدف الهجوم – أو إذا كان لديه الوقت الكافى لاحضار قواته الاحتياطية للاشتراك فى المعركة . وهكذا فإن القوة العسكرية والوقت الصحيح المناسب لبدء الهجوم الأول المفاجىء كانا يلعبان دوراً مهمًا ورئيسيًا فى حسم الصراع العسكرى لصالح أى من القوتين المتصارعتين الإسلامية والصليبية . ولكن عادة لم يكن الهجوم الصليبى ضد القوات الإسلامية ناجحًا وذلك لأن الصليبيين لم تكن لديهم القوة الكافية لهذا الهجوم العسكرى والكافية أيضا للصمود والمقاومة ، ولذا كان الصليبيون يناورون من أجل استقدام أكبر عدد من قوات المسلمين إلى داخل نطاق هجومهم المباغت . وهذا يعنى أن المناورة كانت من أجل استقدام قوات العدو ومواجهتها مباشرة والالتحام معها مباشرة فوق أرض مكشوفة مستوية خلفها التلال والعوائق الطبيعية الأخرى التى تعوق تشتت قوات العدو فى أثناء لحظة الهجوم الصليبى المباغت . وفى حالة الهجوم الصليبى المباغت كان من الممكن أن يحرزوا النصر ضد قوات المسلمين، ومع ذلك فإن قوات المسلمين كانت فى العادة تستطيع أن تدرك هذه المناورة وتعترف بالهزيمة ولكن بعد فوات الأوان بوقت قليل .

لقد كانت الاستجابة الإسلامية العسكرية لهذا الهجوم الصليبى المباغت والتى أثبتت جدواها خلال الصراع الإسلامى الصليبى وبعده . تتمثل فى فتح الجبهات والثغرات فى لحظة الهجوم العنيف . فقد كانت القوات الإسلامية قبل المعركة مباشرة تكشف عن قواتها وتنقض على القوات الصليبية مثل الاعصار المدمر. ومما يذكر أن معظم خطط وعمليات الهجوم

الصليبى المفاجىء كانت من تخطيط القائد الصليبى ريموند أمير طرابلس فى موقعة حطين. فقد انتشرت القوات الإسلامية بقيادة صلاح الدين وبدأ الفرسان المسلمون فى التحرك فى السهل خلال ممر ضيق إلى قرية حطين وعندئذ تحركوا خلال وادى إلى بحيرة طبرية، وكان انفصال وانحسار القوات الصليبية خدمة لهذه القوات الصليبية، بيد أنها لم تستطع أن تلحق الضرر بالوقات الإسلامية . وظل الملك الصليبى جى لوزجنان بصحبة جيش ضعيف ، وبعد أن فقد الأمل فى النصر ذهب إلى ملجأ مؤقت يعصمه من الموت ، فى مرتفع بين قمتين ، وهو تل قرون حطين .

أدوات وتقنيات الحصار

وعلى الرغم من أن فن الحصار العسكرى فى الغرب الأوربى كان يفتقر إلى الحذق والبراعة، فإن الصليبيين قد واجهتهم مشكلات جديدة من جراء العمارة الحربية التى وجدوها فى منطقة الشرق العربى الإسلامى . والواقع أن المدن والقلاع فى منطقة الشرق العربى الإسلامى قد شيدت من الأحجار ، فى الوقت الذى كان استخدام الأحجار فى بناء المدن والقلاع الأوربية نادراً بشكل عام ، الأمر الذى برهن على عدم الوصول واختراق هذه المدن والقلاع فى المنطقة العربية من خلال عمليات الحصار العادى . لقد كان العائق والصعوبة التى تقف فى وجه الخبرة الصليبية يكمن فى أبعاد وحجم هذه التحصينات والقلاع العربية وقوتها، وترجع قوة وصلابة هذه التحصينات والقلاع فى المنطقة العربية إلى عاملين ، هما قوة مواد البناء المستخدمة فى تشييد هذه القلاع والحصون وحجمها الكبير، ولذا صمدت طويلا أمام قوة الغزاة الصليبيين المحاصرين، ومن قبل فرضت هذه التحصينات على البيزنطيين ثم المسلمين بعد ذلك تطوير أدوات الحصار من خلال تقنيات استحدثها الخبراء العسكريون فى الجيوش البيزنطية والإسلامية. ومما يذكر أن جيوش الحملة الصليبية لم تضم بين أفرادها أى خبير فى أعمال الحصار العسكرى . فقد سقطت المدن والقلاع التى حاصرها الصليبيون عن طريق وسيلتين كانتا معروفتين فى أوربا آنذاك : وهما الحصار المحكم ، الذى يؤدى إلى قطع الامداد والمؤن عن القلعة أو الحصن والقضاء المبرم على أفراد الحامية العسكرية بفعل الجوع أى الموت جوعًا بسبب الحصار، والوسيلة الثانية هى الهجوم المباشر على الأسوار بواسطة السلالم أو بواسطة الأبراج المتحركة المزودة برؤوس جسر متحركة للصعود والتسلق إلى أسطح الحصون. وثمة حادثة فى قصة حصار الصليبيين لمدينة بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ تصور لنا هذه الطريقة من

الحصار . وكان حصار المدينة الكبيرة من جانب الصليبيين يستغرق وقتًا طويلا، وذلك لأن محاولات الهجوم المفاجىء ضد هذه المدينة كانت عادة تنتهى بالاخفاق والفشل . فقد ساهم الأسطول الجنوى مساهمة كبيرة فى نجاح الحصار الصليبى على يافا ثم سقوطها فى يد الصليبيين. حيث قام بحارة السفن الجنوية بتفكيك سفنهم وتحركوا عبر فلسطين والقدس يحملون معهم صوارى المراكب وأخشابها وعوارضها التى استخدموها فى بناء الأبراج المتحركة التى سهلت لهم حصار المدينة واحتلالها . وكان من الواضح أن الجيوش الصليبية كانت تفتقر إلى مهندسين وخبراء متخصصين فى أعمال الحصار.

ولاشك أن الصليبيين قد تعلموا فن الحصار من المسلمين والبيزنطيين . فبعد أحداث الحملة الصليبية ببضع سنين استطاع الصليبيون ممارسة واستخدام تقنيات جديدة فى فن الحصار . ويمكننا أن نزعم بيقين أن الصليبيين قد اكتسبوا هذه التقنيات من خلال اتصالاتهم وعلاقاتهم الطيبة مع الجانب البيزنطى أو الأرمنى أو من خلال حروبهم ضد أعدائهم المسلمين. ولم تستطع هذه التقنيات الجديدة فى فن الحصار أن تحل محل التقاليد القديمة تمامًا . ولم يصبح فن الحصار الصليبى ممارسة جديدة ، بل كان مزيجًا من التقاليد القديمة والجديدة استخدم وقت الحاجة.

ومن الملاحظ ، أن فن الحصار يعنى استخدام كل الوسائل من أجل اسقاط القلعة أو الحصن، سواء بواسطة الهجوم المباشر أو المباغت أو بواسطة زرع الألغام أو احداث نفق تحت أساسات القلعة أو الحصن ، أو عن طريق احداث مجاعة مهلكة لأفراد الحامية العسكرية. ومنع المؤن والمداد عن هؤلاء الأفراد ، ولاسيما أن أفراد الحامية فى القلاع فى منطقة الشرق العربى كانت تخزن المؤن والامدادات التموينية فى القلعة والتى كانت تكفى أفراد الحامية من الطعام والشراب لمدة أربعة أيام. وباستثناء بعض الظروف الخاصة لم يستطع الجيش الصليبى أن يفرض حصاراً طويل الأمد. وهكذا قلما كان قطع المؤن والامدادات التموينية عن أفراد الحامية العسكرية للحصون من الوسائل والسبل الملائمة لاحتلال مدينة. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجيوش الصليبية صغيرة العدد كانت غير قادرة على فرض الحصار المحكم على بعض المدن الكبيرة . ففى الحملة الصليبية الثالثة استطاع الصليبيون احكام حصارهم لمدينة عكا ذات المساحة الصغيرة نسبيًا.

وهكذا كان أمام الصليبيين اختيار واحد فقط وهو احتلال المدينة بواسطة الهجوم المباغت والمفاجىء . ويرجع السبب فى ذلك إلى قلة عدد الجيوش الصليبية والتى لم تكن آلية مقبولة.

لاستخدامها فى الحصار . ومما يذكر أن الطريقة الفنية للحصار ترجع إلى العصر القديم، وقد اشتقت طريقة الحصار الصليبى من خلال الخبرات اليونانية ، والرومانية ، والبيزنطية ، وتأثرت هذه الخبرات السابقة بفن الحصار الآشورى ، والمصرى، والبابلى ، والفارسى . واستفادت الأقطار الإسلامية بالتالى من هذه الخبرات السابقة فى مجال فن الحصار العسكرى، كما استفادت أيضا من التأثيرات المتراكمة من الخبرة الصليبية فى هذا المجال.

وكانت هناك ثلاثة طرق ووسائل لحصار أسوار الحصون أو القلعة: وهى تسلق هذه الأسوار بواسطة سلالم ، واستخدام الأبراج المتحركة التى لم يقتصر دورها فقط على منع اطلاق القذائف من داخل الحصن بل كانت أيضا تتحرك هذه الأبراج الحربية تجاه أسوار الحصن ويمتد منها قناطر وجسور متحركة على سطح الحصن أو القلعة. وكانت وسيلة الحصار الثالثة تتمثل فى احداث ثغرات فى الأسوار أو الأبراج بواسطة اطلاق قذائف المنجنيق بقوة وعنف أو تفويض أساسات مبنى الحصن أو القلعة بواسطة آلة حربية تعرف باسم «الكباش» وهى الآلات الحربية التى كانت تسخدم لهدم الأسوار فى أثناء الحصار.

وكان كل أسلوب من أساليب الحصار الثلاثة (تسلق الأسوار بواسطة سلالم- الأبراج المتحركة- احداث ثغرات وهدم الأسوار بواسطة المنجنيق وآلة الكباش) يهدف أولاً إلى عبور الخندق المائى المحيط بالقلعة والذى كان اتساعه يتراوح ما بين ١٥-٢٢ ياردة . وقد ذكرت مثل الخنادق المملوءة بالماء والمحيطة بالقلعة خلال فترة الحروب الصليبية. وكان يتم تفضيل قوات المشاه فى انجاز مثل هذه المهمة، بيد أنه فى حالة الطوارىء كان الفرسان أيضًا يشاركون فى هذه المهمة البسيطة . ويستطيع المرء أن يقف على حقيقة مشاعر أولئك الفرسان الذين أعلنوا فى «قانون بلبيس Assise of Belbeis أن الفارس غير ملزم بالنزول من على فرسه فى أوقات الحصار.

ولم تكن هذه الخنادق المائية تشكل عقبة وعائقًا أمام المحاصرين فقط، بل كانت أيضًا خطيرة . وكان كل المحاربين المدافعين عن القلعة يهدفون إلى بسط سيطرتهم على المنطقة الواقعة أمام الخندق وهى المنطقة التى كان العدو حريصا على أن يحلق حولها ويتركز بها وحول الخندق نفسه. وكان المدافعون يطلقون وابلاً من القذائف والسهام صوب قادة الجيش المعتدى والمحاصر، ولم تكن التروس كافية لحماية المحاربين المحاصرين، وذلك لأن هذه القذائف المنهمرة كانت تعوق عمل قوات الحصار، وكانت هذه القذائف تنهمر بقوة وباستمرار على رؤوس قوات

الحصار. وفى العادة كانت قوات الحصار تحاول أن تزيح من أمامها رماة السهام الذين كانوا يأخذون مواقعهم فى شرفات على الأسوار، وكانت تستخدم الجدر الخارجية المتحركة من أجل حماية المحاربين الذين يطوقون الخنادق . وبسرعة كان يتم عمل ممر فوق الخندق وعندئذ كانت قوات الحصار تعد نفسها من أجل بدء وتنفيذ الهجوم المباشر على الأسوار. ويحاول المحاربون المثابرون تسلق السور بواسطة الحبال المزودة بكلابات ، وقد سمعنا أنه فى احدى حالات الحصار كانت قوات الحصار تستخدم عدة وأدوات الحرب الخاصة بالحصان فى تسلق الأسوار*. وبسرعة كانت قوات الحصار تصل إلى أسطح الحصن، وكان يتم القاء سلالم من حبال من أجل تسلق أجزاء من هذا السور أو رفع سلالم للتسلق من خارج هذه الأسوار وعندئذ كانت القوات المهاجمة تتحرك مباشرة للوصول إلى بوابات الحصن وفتحها أمام باقى القوات المهاجمة . وكانت القوات الموجودة داخل الحصن والمدافعة عن نصب الماء المغلى والنفط، والقار، والشمع المنصهر على رؤوس قوات العدو التى تتسلق الأسوار. وقد تطلبت عملية اسقاط القلعة أو الحصن المزيد من التوفيق ، وشجاعة وجرأة القوات التى تقوم بالحصار، وإن كانت الخيانة من جانب بعض أفراد الحامية قد ساهمت بقدر كبير فى اسقاط بعض القلاع والمدن فى يد الصليبيين .

لقد شهدت معظم عمليات الحصار استخدام القوات المحاصرة المهاجمة لأنواع شتى من أدوات الحصار. إذ كان البرج المتحرك من أهم الحيل والوسائل الحربية وقد عرف باسم برج الجرس (فى الكنيسة) becfry، وكان هذا البرج متعدد الطوابق ومزوداً بمواقع لرماة السهام. ووجد فى كل طابق عدد من رماة النشاب . وكانت بعض هذه الشرفات أو المنصات كبيرة تكفى لاطلاق وابل من قذائف المنجنيق على الأسوار من جانب مواقع القوات المهاجمة . ومما يذكر أن المنصة العليا للبرج المتحرك كانت أعلى من الأسوار، وأيضا كان يمكن انزال جسر أو قنطرة متحركة على الجدار الموجود على سطح الحصن وعندئذ كان العدو المهاجم يستطيع أن يقتحم جزءاً من أسوار المدينة . وكان هذا البرج يتحرك على بكرات أو يتحرك حول جزع شجرة وأحيانا على عجلات.

وحاول المحاصرون الموجودن داخل القلعة أو الحصن تدمير هذا البرج المتحرك becfry بواسطة القاء الأحجار الضخمة عليه، أو بواسطة اشعال النار فيه. وكانت الحامية المدافعة

* استخدمت مثل هذه الأدوات فى أثناء حصار الظاهر بيبرس لمدينة قيسارية (المؤلف).

عن القلعة تحاول تدمير طوابق البرج المتحرك واسقاط وتدمير جزء منه. كما كانت القذائف الملتهبة تطلق من داخل المدينة المحاصرة. حيث السهام الملتهبة ، والسهام القصيرة الملتهبة ، واشعال النار التى كانت تعرف باسم النار الاغريقية . وكانت هذه النار الاغريقية خليطا من مادة كيماوية ، وكبريت ، ونفط ، وقار ، وزيت ، وأحيانًا كانت هذه النار تحتوى على خشب الصنوبر والبخور، إذ كانت هذه المواد توضع فى فخار قابل للكسر، ولايمكن اطفاء هذه النار بالماء. وقد وصف لنا المؤرخ اللاتينى جوانفيل مؤرخ سيرة الملك الفرنسى لويس التاسع النار الاغريقية فى أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر فقال «... وكانت النار الاغريقية فى الظاهر تشبه برميل عصير الحصرم الضخم ، وذات ذيل مشتعل طويل يعادل طول سيف طويل. وكانت تحدث دويًا هائلاً وصوتا يشبه الرعد، إذ كانت تبدو للناظرين كأنها تنين عنيف يشق طريقه فى الفضاء . ولها ضوء عظيم، يحول الليل إلى نهار». وكانت مثل هذه القذائف النارية تطلق من المنجنيق، ومن أدوات آلية ، ذات رؤوس محرقة تطلق من خلال النشابات ولمقاومة ومواجهة مثل هذه القذائف المحرقة كان يتم تغطية البرج المتحرك بجلود الحيوانات المذبوحة حديثًا أو بواسطة اللباد المنقوع فى الخل أو فى ماء البول.

ومما يذكر أن هذه الأبراج المتحركة لم تكن ذات تأثير عملى من الناحية الحربية وذلك لأن قوات الحصار كانت تستغرق وقتًا طويلاً فى اختراق أسوار المدينة المحاصرة. ومرة ثانية يمكنه أن نزعم بيقين بأن الصليبيين قد تعلموا فن الحصار العسكرى من حلفائهم وأعدائهم فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. لقد تطورت الخطط العسكرية المعاصرة على يد المسلمين وهى الخطط والتكتيكات التى يرجع أصولها إلى الممارسات العسكرية فى العصر الرومانى المتأخر أو العصر البيزنطى. وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية الإسلامية تطلق على بعض هذه الخطط والخدع العسكرية اسم التكتيك التركى Turkish أو الفارس ، فإن الحقيقة أن أصل هذه الخطط والحيل العسكرية ترجع إلى العصر القديم.

ويمكن تقسيم أدوات الحرب خلال الفترة الصليبية إلى نوعين طبقا لفاعليتها العسكرية الضاربة وهى آلات حربية متحركة وآلات حربية قوية مفتولة. وكانت آلات الحصار من النوع المتحرك الذى يستخدم البندول الثقيل الوزن. وكانت آلات النوع الثانى تستخدم عنصر الجهد الرئيسى. وكانت آلة اطلاق المنجنيق أهم الآلات الحربية التى تستخدم البندول للتحرك عليها. وكانت هذه الآلة من الآلات الحربية القديمة (والتى وجدت فى العصور التاريخية التالية).

ويذكر لنا أسقف بيسانكون The bishop of Besancon وصفا ممتازاً لآلة قذف المنجنيق خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة فيقول:

«كانت هذه الآلة الحربية تعرف عادة باسم آلة المنجنيق أو الكباش، وهى احدى الآلات التى كانت تستخدم فى هدم الأسوار فى أثناء الحصار، وكانت هذه الآلة تساهم فى الهجوم المتكرر على الحصون والأسوار». فقد أمر هذا الأسقف الصليبيين أن يستخدموا هذه الآلة الحربية والتى كانت مغطاه من جميع جهاتها بقطع حديدية قوية تستخدم فى تدمير الأسوار. وقد جلب هذا الأسقف معه هذه الآلة الحربية المعروفة باسم الكبش أو المدك والتى كانت معروفة فى أوربا آنذاك. وكانت هذه الآلة الحربية تشبه منزلاً معقوداً ، لاختراق وهدم الأسوار وكانت مزودة بسارية ضخمة لها رأس مزودة بقطعة حديدية حادة . وكانت آلة دك الأسوار (الكبش) تدفع بواسطة عدد كبير من الرجال صوب السور، إذ كانت تدفع من الخلف لكى تصطدم بقوة عظيمة بالسور المراد هدمه وتدميره . ومع تكرار عملية الهجوم هذه ضد الأسوار كان يتم احداث تجويف داخل جدار السور أو هدمه واختراقه . ومما يذكر أن الرجال الذين كانوا يعملون داخل هذه الآلة الحربية (الكبش) لدفعها صور السور باستمرار كانوا فى مأمن من الأخطار التى كان يمكن أن تصل إليهم من أعلاها. لقد عرفت هذه الآلة الحربية الصليبية التى استخدمت فى دك الأسوار فى المصادر العربية باسم «الكبش» Kabsh، والتى تعنى المدك Ram. وثمة مصدر تاريخى عربى يصف هذه الآلة الحربية (الكبش) بأنها كانت ذات قرنين من الحديد ، مثل حربتين طويلتين أو عمودين سميكين قويين*. وكانت العارضة الخشبية المتحركة لهذه الآلة تتدلى من اطار خشبى بواسطة حبال أو سلاسل حديدية. ولمواجهة الهجوم المضاد ضد مثل هذه الآلات الحربية كان الصليبيون يستخدمون كلابات حديدة أو يجعلونها تقضى إلى أربطة أو أماكن قوية ولوازم وتركيبات مبانيهم .

وكانت آلة «الكبش» مغطاه بطبقة سميكة من البناء لحماية المحاربين العاملين داخلها ضد القذائف التى تطلقها القوات المدافعة عن الحصن، وقد أطلق المؤرخون المسلمون على هذه الآلة اسم المنزل. وكانت هذه الطبقة السميكة عبارة عن سقف متحرك، له سطح على شكل مثلث

---

* عماد الدين الأصفهانى نقلا عن أبى شامة: ذكر العماد الأصفهانى وصفا دقيقا لآلة الحصار هذه . أنظر (العماد الأصفهانى ، الفتح القسى، ص٢٩٥). (المترجم) .

(جملون) لكى تنحرف عنه القذائف بسهولة . ومن المحتمل أن الاسم العربى لهذه الآلة وهو «الدبابة» كان يعنى الآلة التى تسبب الخوف والذعر عند الحصار . وأحيانا كانت هذه المنازل المتحركة أو الدبابات (الكباش) تعرف باسم «القطط»، وتعرفها أحد المصادر التاريخية العربية باسم «السينورا» (القط أو النمر الأسود) ، وتصف هذه الكباش بأنها كانت مزودة برأس حادة تشبه شفرة محراث . وكانت بعض هذه الكباش متقنة الصنع ، مثل تلك التى بناها الملك الفرنسى لويس التاسع فى المنصورة خلال أحداث الحملة الصليبية السابعة. وقد وجدت أبراج عند نهايات هذه الكباش الحربية عرفت باسم القطط الفرنسية.

وثمة شكل مختلف لآلة دك الأسوار (الكبش)، وكانت عبارة عن آلة مزودة برأس حديدية مائلة، والتى كانت تستخدم فى الهجوم على سور التحصينات لتدميره واحداث تجويفات داخله . وقد سميت هذه الآلة باسم «الخنزير ذى المنقار» وقد وجدت هذه الآلة فى منطقة الشرق العربى الإسلامى.

كان النمط الثانى للآلات الحربية خلال الفترة الصليبية يتمثل فى قاذفات كل أنواع القذائف . وكان اسمها آلة قذف الأحجار ، وهى آلة المنجنيق التى كانت تستخدم فى قذف الأحجار على الأسوار والتحصينات. ومما يذكر أن مفردات اللغة المستخدمة فى تسمية هاتين الآلتين (آلة دك الأسوار أو الكباش وآلة قذف الأحجار) تتسم بعدم الدقة إذ يوجد اختلاف واضح بين هذين النمطين من آلات الحصار الحربية. فقد كانت آلة المنجنيق التى تقذف السهام والقذائف الأخرى تستخدم حبلا مشدوداً يرجع إلى الوراء آليا وكان هذا الحبل على شكل قوس ينطلق منه السهام، وعند ارتداد هذا الحبل إلى الوراء كان يقذف الأحجار بقوة على امتداد البكرة التى تدور عليها مدفع الاطلاق (آلة المنجنيق) . كانت آلة المنجنيق تتكون من عارضة خشبية بها تجويف فى أحد جهاتها يحمل حجراً أو أية قذيفة أخرى (وأحيانا كانت تحمل رؤوس القتلى من الأسرى) . وعندما كان يرتد حبل الاطلاق إلى الخلف بطريقة آلية كانت القذائف تنطلق من هذه الدعامة القوية إلى أعلى فى مدار بيضى الشكل ضد أسوار القلعة المحاصرة.

لقد كان هدف هذه القذائف التى تنطلق من المنجنيق هو هدم وتقويض الأسوار . وعندما جاء الصليبيون إلى المنطقة العربية، أصبح فن تقويض وهدم أسوار القلاع والتحصينات جزءاً أساسيا من فن الحصار المحلى. فقد كان عدد من المتخصصين فى فن الحصار من السكان

المحليين، ولاسيما بعض أهالى مدينة حلب الذين حازوا شهرة واسعة فى هذا الفن، ولذا نجد الصليبيين يمنحون مكافآت سخية لبعض الأسرى من أهالى مدينة حلب للعمل فى المعسكر الصليبى فى أعمال الحصار الصليبى ضد المعاقل العربية الإسلامية.

ومما يذكر أن الأسوار كانت تتهدم بسبب شق نفق تحتها. وعندما كانت الدعامات الخشبية لهذه الأسوار تنهار بفعل النيران أو جرها بواسطة الحبال ، فإن جزء من السور أو البرج كان يصل إلى حد الضعف والانهيار. وقد وجدت بعض القلاع فى أماكن مرتفعة بعيدة عن مرمى هذه القذائف . ونفس الشىء كان بالنسبة للحصون والقلاع القريبة من سطح البحر. فقد كان عمل نفق فى الكثبان الرملية يؤدى بشكل مباشر إلى صنع مجرى مائى تتدفق فيه المياه فيملأه ، ولذا لم يكن فعالا من الناحية العسكرية. أما فى المناطق الداخلية الحاجة ، فقد كان عمل نفق تحت الأسوار فعالا من الناحية العسكرية ، وكذلك فى المناطق المرتفعة أو فى السلاسل الجبلية حتى القريبة من سطح البحر.

كانت التقنية العادية فى فن الحصار تتمثل فى فتح برج على مقربة من الحصن والواقع خلف الخندق ، وعندئذ يتم حفر حفرة نفق تجاه الأسوار . وهذا بدوره يمهد السبيل لكى يبدأ العمل فى شق نفق خلف مرمى قذائف العدو المؤثرة ... الخ وكان هذا النفق يبعد عن الأسوار بحوالى ١٠٠-٢٠٠ متر. بيد أن هذا الحفر كان يتضمن نفقًا ممتداً طويلاً. ومن ناحية أخرى، بعد النفق عن الأسوار والأبراج كان بهدق حماية آلات الحصار من قذائف الحامية المدافعة، وكان يتم حماية الأسوار والأبراج بواسطة ستائر خشبية أو ستائر مصنوعة من أماليد المستخدم فى صناعة السلال، وكانت هذه الستائر توقف وتعطل وصول القذائف الصغيرة. وغالبًا ما كانت تستخدم تقنية مختلفة فى هذا المجال. فقد كان تراب الحفرة يكون رابية عالية تحجب وراءها الخبراء العسكرين الذين يعملون فى شق النفق بعيداً عن أعين العدو. وكانت هذه التقنية العسكرية تستخدم فى حالة ما إذا قرر الخبراء والمهندسون العسكريون عمل وشق هذا النفق قريبًا من الخندق واستخدام هذا الخندق كممر رأسى لهذا النفق. وفى هذه الحالة يكون طول النفق حوالى ٢٠-٣٠ مترا وعمقه حوالى ٢٠ مترا . وعندئذ كانت بينها دعامات السور كما أسلفنا القول، ومن الناحية النظرية ، سوف يتمكن المحاصرون من الهجوم المباشر على المدينة من خلال الأجزاء التى هدمها فى جدار السور.

وكانت ثمة تقنيات خاصة فى العمارة الحربية والدفاع لمواجهة عملية حفر الأنفاق والخنادق.

لقد كان حفر الخنادق خطيرا وصعبًا بسبب كثرة استخدام المنحدرات والأساسات المنحدرة المائلة الموجودة على أسطح التحصينات الصليبية. وكان هذا الانحدار يشبه الهرم، الذى يتجه بشكل مائل نحو خط الأسوار العمودى والذى كانت قاعدته العريضة ترتكز على قاعدة الخندق المائى الذى يحيط بالحصن ، والذى يجعل من الصعب الوصول إلى سطح الحصن إلا بعد مشقة وطول عناء. ولتقوية هذه المنحدرات وجعلها أكثر فعلية وتأثيرا وقوة كانت توضع أحجار ثقيلة بين السور وبين جداره الخارجى وهكذا فإن أى نفق تحت قاعدة الحصن كان يمكن أن يتغلب على مثل هذه الصعاب وذلك عن طريق الضغط الثابت من أعلى هذا الهرم حتى قبل الوصول إلى الأسوار. ولم يكن تسلق الأسوار أمراً سهلا، وذلك لأن سمك التحصينات الصليبية كان يتراوح ما بين ١٠-١٧ قدم . ولم تشيد هذه التحصينات الصليبية دائما من الأحجار الضخمة، بل كانت تشيد فى الغالب وفق تقنية المنحدرات التى كانت شائعة الاستخدام آنذاك . وهذا يعنى أن خطى الأسوار الخارجى ذات البناء الجيد كان يمتلأ بالحجارة المكسورة غير المصقولة والفخار المكسور (وهو الطين النضيج) أو التيراكوتا فى قيسارية). والطين والملاط. ومن الناحة الاصطناعية لم تضف هذه الأشياء وهذه المواد شيئا إلى سمك هذه الأسوار، ولكنها كانت تزيد من حجمها ومن الواضح ، أن الأسوار العالية الملحقة بالمنشآت المعقدة والضغوط والأثقال الكبيرة لهذه المبانى كانت تجعل من الصعب شق أنفاق تحت الحصون الصليبية .

وعلى الجانب الآخر، فقد كان يستخدم الأنفاق المضادة . إذ كانت المدينة المحاصرة تفتح برجًا داخل حصنها وتشق نفقًا فى اتجاه الخندق العميق الضيق الذى كان يصنعه المحاصرون للمدينة. وبسرعة كانت تفتح الأنفاق الأرضية، وتبدأ الحامية العسكرية للحصن فى قتال الخبراء العسكريين وتدمر ما يقومون به من أعمال . وكان انهيار جزء من النفق يجعل من الصعب استخدامه فى المستقبل.

ففى بعض حالات الحصار كانت القوات المدافعة عن المدينة المحاصرة تعجيل فى تلغيم أسوارها وذلك عن طريق بناء سورثان يكون بديلاً بشكل مؤقت خلف الجزء الذى كان يهدده العدو فى زمن قياس وسريع .

الفصل السادس عشر

الحياة الاقتصادية والتجارة

- مدخل- الزراعة - العملات والنقود - التجارة العالمية-
الميناء التجارى - الأسواق المحلية والعالمية

مدخـــل :

الواقع أن الغزو الصليبى للمنطقة العربية وتأسيس الامارات الصليبية شرق البحر المتوسط فى بلاد الشام وفلسطين لم يفصل الأقطار الإسلامية عن منافذها البحرية المؤدية إلى الغرب الأوربى فحسب، بل أيضا ساهم هذا الغزو الصليبى فى عرقلة حركة التدفق التجارى على الطريق البرى الممتد من الشمال إلى الجنوب والذى كان يربط منطقة بلاد ما بين النهرين (الميزوبوتاميا) وبلاد الشام بالمراكز الحضرية المهمة المنتشرة على امتداد نهر النيل ودلتاه، وفى نفس الوقت ، ظهر نشاط اقتصادى جديد فى الامارات الصليبية هذا النشاط الذى امتد على الساحل الشرقى للبحر المتوسط من اسيا الصغرى إلى خليج العقبة.

وعلى الرغم من عداء وكراهية الأقطار الإسلامية للوجود الصليبى المجاور فإن المستعمرات الصليبية لم تتخلى عن نظام الحكم المطلق. وقد ظلت الأقطار الرسلامية المجاورة لهذه الامارات الصليبية تفتح أبوابها جزئيًا أمام التجارة، وظلت المدن الساحلية أيضا تقوم بدورها الباكر باعتبارها منافذ بحرية للأقطار الإسلامية الداخلية، وبالإضافة إلى ذلك، فقد ازداد النشاط الاقتصادى والتجارى قوة وانتشاراً فى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام بدرجة لم تشهدها من قبل منذ العصر البيزنطى وذلك بسبب وجود شبكة جديدة من العلاقات التجارية مع أوربا . فقد أعقب قيام العلاقات التجارية مع موانى جنوب أوربا فتح أسواق تجارية فى الأقطار الإسلامية الداخلية أمام التغلغل التجارى الأوربى، وبشكل عكسى، تدفقت السلع والبضائع الشرقية إلى الأسواق والمتاجر الأوربية عبر مدينة حلب . وحصل سماسرة ووسطاء العصور الوسطى من المسلمين والمسيحيين واليهود على أموال طائلة من عائد التجارة الدولية التى قام بها التجار الأوربيون الذين اندفعوا صوب مراكز الانتاج فى منطقة

الشرق العربى. وازداد تدفق المعادن الثمينة من الغرب الأوربى إلى منطقة الشرق العربى بما يعادل حجم الواردات الأوربية من السلع الشرقية والتى وصلت إلى حجم لم يسبق له مثيل فى وقت حصلت فيه الصادرات الأوربية على موطىء قدم فى الشرق . ولم تكن المهمة الرئيسة للحروب الصليبية تقوية العلاقات التجارية بين أوربا وبين منطقة الشرق العربى الإسلامى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، بيد أن هذه الحروب الصليبية قد صاحبها نهضة أوربية عامة تمثلت فى زيادة سكانية ، وزيادة الثروة والغنى، وظهور طبقة اجتماعية من المستهلكين لمنتجات مدنهم الجديدة وأيضا للبضائع والمنتجات المستوردة من الشرق . ويعتقد بعض المؤرخين أن مثل هذا التطور التجارى كان أمراً حتمياً وكان لابد أن يحدث حتى ولو لم يحدث أو تنشب الحروب الصليبية ؛ وأن التطور الداخلى الذى شهدته أوربا آنذاك كان بمثابة عملية دفع قوية أدت إلى قيام علاقات تجارية بين الغرب الأوربى وبين أقطار شرق البحر المتوسط . ومن المحتمل أن يكون هذا الرأى الذى طرحه هؤلاء المؤرخون صحيحًا ، حيث أن الحروب الصليبية حتى ولو كانت مسئولة جزئياً فقط عن احداث النهضة الاقتصادية فى أوربا ، فإن ثمة قليلاً من الشك حول دور هذه الحرب فى خلق روح المبادرة ، واتساع وتقوية اليقظة الأوربية للأهمية الاقتصادية للأقاليم الشرقية فى كل من منطقة الشرق العربى ومنطقة الشرق البيزنطى. ويجب ألا نغفل العامل النفسى عند الحديث عن الظاهرة الاقتصادية ، فالحقيقة أن الحجم الصغير للامارات الصليبية فى منطقة الشرق العربى إذا ما قورن بحجم الأقطار فى الشرق الإسلامى أو فى الشرق البيزنطى لايمكن أن يقلل من دورها فى تنشيط التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. والواقع أن ثمة عوامل اقتصادية أثرت فى مجرى العلاقات التجارية العالمية، بيد أن بداية هذه العلاقات التجارية العالمية والولوج إلى ميدان ونطاق مصالح الأقطار الأوربية تدين بالكثير إلى الحروب الصليبية . وعلاوة على ذلك ، فإن ظاهرة مثل نمو وتطور الأساطيل التجارية الأوربية ، وظهور أنماط جديدة من السفن وتحسن حركة الملاحة البحرية العالمية لايمكن أن تكون بمعزل عن الحروب الصليبية . إذ كان الكثير من السفن الأوربية تمخر عباب البحر إلى الشرق ولاتحمل على متنها حمولات سوى كتل الذهب والفضة المصبوبة والحجاج الذين يدفعون أجور نقلهم إلى منطقة الشرق ، وكانت ربحية الرحلة البحرية للسفينة تتمثل فى أجرة نقل الحجاج وأجرة نقل الحمولات السابقة، وربما تطورت كل هذه الأرباح والحمولات فى جميع المجالات ولكن فى موعد غير محدد. وقد حدث مثل هذا التطور بدقة فى القرن الثانى عشر الميلادى بسبب التأثير الروحى والمادى للحروب الصليبية.

لقد كانت العلاقة الخاصة بين الوظيفة الاقتصادية والوضع الاجتماعى من أبرز سمات الحياة الاقتصادية للمملكة الصليبية فى بيت المقدس. وقد تبلورت بعض هذه المظاهر والسمات تقريبًا فى شكل نظام اجتماعى طبقى. إذ كان المجتمع الصليبى ينقسم إلى أربع طبقات رئيسة تطابق التقسيمات الاقتصادية الأربع الكبرى مع عدم السماح بالحراك الطبقى داخل هذا المجتمع . وكان الأفراد يمارسون سلطة أبناء طبقتهم ويحتلون نفس المراكز والمناصب الحكومية التى يتقلدها أبناء طبقتهم أيضًا. وكان القانون الصليبى يمنع الحراك الاجتماعى فى بعض الحالات على الرغم من أن هذا القانون والتقليد الصليبى كان يتسبب فى خلق عقبات صعبة ، كما أن المعاهدات السياسية قد خلفت حالة من الاحتكارات للوظائف والمراكز والنشاط الاقتصادى . لقد استطاع البناء الطبقى الجامد للمجتمع الصليبى فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس أن يحول الوظائف الاقتصادية إلى شكل من الوضع الاجتماعى لايمكن نقل ملكيته لأحد، أى ارتبطت الوظيفة الاقتصادية بالوضع الاجتماعى للشخص الذى يتقلد هذه الوظيفة.

ويمكن أن نتصور بأن كل سكان مملكة بيت المقدس الصليبية كانوا يشتركون فى نمط اقتصادى معاصر ، فقد كانت كل طبقة من طبقات المجتمع يعهد إليها تأدية مهام اقتصادية ، وهى المهام التى كانت تتكامل مع بعضها البعض وتشكل نوعًا من التوافق، على الرغم من أن كل هذه المهام كانت غير قابلة للتطبيق . ويتضح البناء الاجتماعى الأساسى فى الوضع المميز لبعض الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الصليبى وهى الطبقات التى تمتعت بالامتيازات وكذلك فى القيود التى فرضت على الطبقات الاجتماعية الأخرى .

ومما يذكر أن الزراعة ظلت مجالا كبيرا لعمل السكان المحليين من المسلمين والمسيحيين . ولم يستطع النشاط الزراعى القوى فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى (والذى أصبح عديم الأهمية فى القرن الثالث عشر الميلادى) أن يحدث تغييراً فى النمط الاقتصادى العام لهذه المناطق المحتلة. وعندما نذكر الزراعة فإننا نعنى الانتاج الذى يقوم به السكان المحليون، والذى كان يعيش عليه أفراد طبقة النبلاء الصليبيين صاحبة الامتيازات .

وعند الانتقال من الزراعة إلى التجارة الواسعة و التبادل التجارى العالمى والذى يشمل : شحن السفن ، والوردات والصادرات ، وتجارة العبور (الترانسيت)، والأنشطة المصرفية

والبنكية المالية ، فإننا نصل إلى وسط اجتماعى مختلف تمامًا . فقد كان التجار الايطاليون يحتكرون التجارة المحلية والعالمية ، وظهر فى هذا المجال أيضًا تجار من فلورنسا ومن قطالونيا . ولم يحظر القانون الصليبى على السكان الاصليبين المحليين ممارسة هذه الأنشطة التجارية المربحة. وكانت الامتيازات التجارية والاقليمية الواسعة التى تمتع بها تجار القومونات التجارية الايطالية (البندقية - بيزا - جنوا) والتى تمثلت فى اعفاءات جمركية أو تخفيضها وغيرها تجعل من منافسة التجار الآخرين لهم أمراً غير ذى جدوى وتجعل المنافسة غير متكافئة . والأمر الذى عزز وضع التجار الايطاليين أصحاب الامتيازات هو وجودهم فى الموانى البحرية المعدة لاستقبال البضائع التى ترد إليهم من مدنهم الأم من أوربا ، وكانت المدن الايطالية التجارية تحظر على تجارها المشاركة فى استيراد البضائع من الشرق.

ويقع بين قطبى الزراعة والتجارة منطقة تضم طوائف الحرف المحلية والتجارة ، وهى المنطقة التى يلتقى عندها كل من السكان المحليين والمستوطنين الصليبيين. فقد تنافس التجار المسلمون واليهود والمسيحيون الشرقيون فيما بينهم فى الأسواق وتنافسوا أيضا فى فن بيع وعرض المنتجات والبضائع فى المحلات التجارية فى المدن الصليبية وقلما كانت المنافسة على أساس متساو، وإلى حد ما كانت هذه المنافسة فى صالح البرجوازية الصليبية.

وبالإضافة إلى الأقسام الرئيسة الثلاث للاقتصاد ، وهى الزراعة والتجارة العالمية والصناعة والتجارة المحلية ، تأتى طبقة النبلاء الصليبيين العلمانيين ومؤسساتهم الدينية، وهى الطبقة التى كانت تمتلك الضياع الزراعية، والتى اكتسب أفرادها مواردهم المالية من عائد هذه الضياع ، ومن امتياز حق تحصيل ضرائب السوق فى المدينة وتحصيل الرسوم الجمركية المفروضة على التجارة العالمية*.

أ- الزراعـــــة

لقد تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية فى أقدم منطقة فى العالم المعمور. وتطور سكان هذه المنطقة من حياة البداوة إلى حياة الزراعة والاستقرار وذلك قبل فترة طويلة من دخول القبائل العبرية إلى أرض كنعان فى الألف الثانى قبل ميلاد المسيح. وشهدت هذه

---

* كان امتياز حق تحصيل ضرائب السوق ورسوم البوابات، ورسوم مقابل استخدام المراعى والأفران، يمنح لبعض النبلاء الصليبيين، وكان هذا ضربا من ضروب الاقطاع النقدى . (المترجم) .

المنطقة (فلسطين) منذ قديم الأزمنة حكامًا وغزاة جاؤا إليها وذهبوا عنها. ووجدت فى هذه المنطقة أيضا نباتات جديدة وتقنيات زراعية جديدة استطاعت أن تغير نمط الحياة الزراعية، وتدخلت السلطات الحاكمة فى توزيع السكان فى هذه المناطق ، كما تدخلت فى نظم الضرائب وتحديد نوع المحاصيل الزراعية، بيد أن نوعية التربة الزراعية ، والظروف المناخية ظلت ثابتة. وتلت هذه الحقبة الزمنية (حقبة ما قبل الميلاد) حقبة زمنية أخرى شهدت فيها هذه المنطقة أعمال السلب والنهب والتدمير والتخريب (وذلك فى القرن الأول الميلادى) ، وبعد ذلك أصيبت منطقة فلسطين بنكبة اقتصادية وسكانية بسبب الفتح الإسلامى لهذا القطر وتخليصها من يد البيزنطيين*. وإذا ما تفحصنا سريعًا خريطة الأرض المقدسة خلال حقب تاريخية مثل العهد التلمودي ، والعصر البيزنطى (٣٣٠-٦٣٨م)، وعصر السيادة الإسلامية العربية (٦٣٨-١٠٩٩م)، وعصر السيادة الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م) يتبين لنا بشكل مؤكد أن ثمة تغير رئيسى لنمط الاستيطان واستغلال الأرض فى هذه المنطقة ، والظاهرة اللافتة للنظر بشكل كبير هى أن المناطق الجنوبية لهذ القطر (فلسطين) مجدبة ومقفرة تمامًا . ففى الجنوب كان يوجد شق من الأرض يمتد من غزة فى الغرب، عبر حبرون فى الوسط إلى القمة الشمالية للبحر الميت فى الشرق وقد أصبحت كل هذه المنطقة صحراء قاحلة . وفى وقت ما شهدت هذه المنطقة استقراراً سكانيا كثيفًا على امتداد الطرق العامة الحربية والتجارية ، وانتشرت الآبار والعيون حيث مصادر المياه فى القرى الواقعة فى غرب هذه المنطقة الجنوبية ، كما استطاعت مهارة الانسان والصناعة أن تعوض ما بخلت به الطبيعة على هذه المناطق وذلك عن طريق اقامة وتشييد أدوات وتركيبات رائعة (صهاريج) لحفظ المياه الأمر الذى جعل الحياة والاستقرار فى هذه المناطق أمراً ممكنًا بالرغم من هذه الظروف الصحراوية التى ذكرناها آنفًا. وقد غطت الكثبان الرملية الآن المستوطنات القديمة فى هذه المناطق الجنوبية لاقليم فلسطين وزحفت الرمال لتملأ وتغمر الآبار وقنوات الرى، واستطاعت أعمال الحفائر الأثرية فى العصر

---

* هذا قول يجافى الواقع التاريخى، فلم يكن الفتح الإسلامى لبلاد الشام وفلسطين نكبة اقتصادية وسكانية كام يشير المؤلف ، ولكن الفتح الإسلامى لهذه المناطق أعقبه نوع من الاستقرار الاجتماعى وسكانية كما يشير المؤلف، ولكن الفتح الإسلامى لهذه المناطق أعقبة نوع من الاستقرار الاجتماعى والاقتصادى (المترجم) .

الحديث أن تكشف لنا عن موجودات وآثار يدهش لها العالم الأثرى والزائر *. وتشهد هذه الأيام موجة جديدة تتمثل فى دعوة من الناس المتحمسين تنادى من أجل اعادة تعمير وتجديد هذه المناطق الصحراوية القاحلة فى جنوب فلسطين .

لقد أدى نزوح الناس إلى شمال هذا القطر (فلسطين) للسكنى والاستقرار به إلى خلق حد جنوبى صحراوى ، يكون بمثابة قلعة محصنة على الحدود مزودة بقليل من موارد المياه توجد على امتداد طرق القوافل والأماكن الخالية من السكان . والواقع أن هجر سكنى المنطقة الجنوبية من فلسطين لم يكن هو فقط التغير الرئيسى لحركة الاستيطان والاستقرار السكانى فى هذا القطر بين حقبتين زمنيتين حقبة الحكم البيزنطى وحقبة السيادة الصليبية ، ففى العصر القديم كان الشطر الجنوبى من فلسطين والواقع على ساحل البحر وكذلك مدينة القدس التى تقع فى الداخل أقل كثافة سكانية من حقبة العصر البيزنطى . وعلى الرغم من أن اقليم الجليل والسهول الساحلية لشارون وفينيقيا Phoenicia ظلت أماكن سكنى جيدة فإنها كانت تعيد بشكل ضعيف مجد العصور القديمة. ويبدو أن المناطق الداخلية فى هذا القطر (فلسطين)، والتى تشمل المناطق الجبلية الواقعة شمال مدينتى القدس ونابلس وكذلك الأجزاء الشرقية من الجليل كانت غير آهلة بالسكان إذا ما قورنت بالمناطق الساحلية ، التى كانت تضم السهل الضيق والمناطق الكثيرة التلال الممتدة حتى جهة الشرق . ومن الصعوبة بمكان أن نحدد تاريخًا دقيقًا لهذا التغير ، بيد أن هذا الاقفار السكانى كان من النتائج المتراكمة لأحداث التخريب والدمار لهذه المناطق خلال العصر الرومانى ، وخلال الفتح العربى الإسلامى لهذا القطر (فلسطين) .

ومما يذكر أن الصورة العامة والوصف الكامل لهذا القطر (فلسطين) كانت إلى حد ما انعكاسًا لما أوضحته لنا المصادر التاريخية التى بين أيدينا . ومما يذكر أن القوميونات التجارية الايطالية لم يكن لها أية مصلحة حقيقية فى تلك الضياع الزراعية المنتشرة خارج منطقة أحيائهم فى المدن. ومن ناحية أخرى ، فإن أملاك الكنيسة كانت فى العادة تنتشر حول المراكز الكنسية ، وهى المراكز التى كانت تحتل نفس الأماكن المقدسة التقليدية، مثل القدس ، وجبل طابور، وبيت لحم ، ومن ثم فإن المستوطنات الزراعية الصليبية فى الأرض المقدسة كانت

---

* ومن أهم المستوطنات المزدهرة القديمة التى وجدت فى منطقة الصحراء جنوب فلسطين والتى كشفت عنها الحفائر الأثارية حديثًا هى مدينة عبدات Hbdat وسبيطة Sheita وصحراء النقب (المؤلف) .

بالقرب من المدن الساحلية والمراكز الكنسية. وكما أسلفنا القول، فإن هذا يجب أن يؤثر فى تلك الصورة التى رسمناها لهذه المستوطنات الصليبية، بيد أنه يجب ألا نبالغ فى مقدار الخطأ.

وقد عرفنا من خلال الحقائق التاريخية الباقية أن عدد القرى التى تأسست فى المملكة الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد قد وصل إلى ألف ومائتين قرية (١٢٠٠ قرية) . ومن خلال الدراسات الطبوغرافية استطاع دارسو هذه الفترة الصليبية أن يحددوا ٦٠٠ اسمًا لأماكن ، وهذه الأسماء تؤكد أن الصورة الكلية لهذه المناطق المحتلة باعتبارها مناطق أعيد تشييدها والتى رسمتها لنا هيئات علمية معاصرة كانت صحيحة ومضبوطة ، وأن عدد القرى التى تأسست فى فلسطين وبلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد تكفى تمامًا لكى تذكرنا بعدد المستوطنات التى احتلها الرومان فى هذا القطر فى أثناء حكم الامبراطور الرومانى هادريان فى أثناء ثورة البرقشبا* Bar -Kochba فى بداية القرن الثانى الميلادى، ويذكر المؤرخ ديوكاسيوس Dio Cassius ، أن الرومان دمروا خمسين مستوطنة كبرى فى فلسطين كما دمروا ٩٨ قرية، وهذا العدد من القرى يكاد يقترب من عدد القرى التى أنشئت خلال فترة الوجود الصليبى. ويجب ألايقودنا هذا إلى الاستنتاج بأن هذا القطر كان يشهد نهضة زراعية خلال حقبة السيادة الرومانية ولايجب أن نستنتج أيضا من خلال تطابق أسماء القرى الصليبية فى فلسطين لأسماء بعض الأماكن الحالية المعاصرة فى هذا القطر أن هذا التطابق يدل على التطور الزراعى المستمر لهذا الإقليم. وسوف نشير إلى أن دراسة المواقع الجغرافية الصليبية فى فلسطين هو اتهام واضح يكشف حالة التدمير التى أصابت المناطق الريفية فى فلسطين خلال هذه الحقبة التاريخية. فقد ظهر حوالى ألف اسم من أسماء القرى والأماكن السكنية على خريطة الأراضى المقدسة خلال فترة السيادة الصليبية . والمطلع على هذه الأسماء يدرك للوهلة الأولى أنها أسماء فرنسية . إذ كان اسماء بعض هذه الأماكن فرنسية ، بيد أن الأغلبية العظمى لهذه الأماكن كانت ذات أسماء ترجع إلى الأصل السامى: وهى الأسماء الكنعانية القديمة ، والأسماء العبرية أو الآرامية . وكان أسماء بعض هذه الأماكن أسماءً حديثة، وهذه الأسماء الحديثة تشير فى العادة إلى منطقة ذات سمة

* ثورة البرقسبا : من أهم الثورات التى قامت فى وجه السيادة الرومانية فى فلسطين وبلاد الشام خلال حكم الامبراطور الرومانى تراجان ومن بعده الامبراطور هادريان ، وتم قمعها على يد الجيوش الرومانية (المترجم).

طبيعية محددة، وهذه الأسماء ذات أصل عربي، وعلى أى حال ، فإن كل هذه الأسماء كانت تحمل الشكل العربي فى هجاء الحروف (الكتابة) وطريقة التلفظ بها (القراءة والنطق) خلال فترة السيادة الصليبية. كانت المستوطنات والقرى الريفية الفلسطينية تحمل أسماءً عربية، كما أن اللغة العربية كانت لغة الحديث والتفاهم لدى كل السكان الوطنيين المحليين، المسلمين ، والمسيحيين، واليهود أو السامرة . ومن الواضح أن التسمية الفرنسية لهذه الأماكن والمواقع الجغرافية فى فلسطين كانت نتيجة الادارة الصليبية لهذه الأماكن ، وقد دونت هذه الأسماء المحلية فى شكل حروف لاتينية. وبهذه العملية تعرض عددكبير من هذه الأسماء لعملية التحريف والنسخ المشوش ، واكتسبت بعض الأماكن الأخرى تسميات فرنسية الأصل ، فقد كان الحصن الرائع الذى يطل على وادى نهر الأردن يسمى حصن بلفوا Belvoir أى جميل المشهد ، وكان موقعه الرائع جديراً بهذه التسمية . كما أطلق على هذا الحصن أيضا اسم المتأنق Coquet أو ذو المنظر الظريف Coquetum ، بيد أن هذه التسمية السابقة لم تتفوق على الاسم الفرنسى لهذ الحسن وهو اسم بلفوا Belvoir ،.وقد حرف هذا الاسم إلى اللغة العربية وعرف باسم حصن «كوكب الهواء» (كوكب الرياح) وحرف إلى اسم عبرانى أو آرامى قديم «قحافة». وفى هذه الحالة استعملت التسمية الأجنبية الفرنسية واللاتينية لهذه المواقع الجغرافية ذات الأصل السامى القديم بيد أنه فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ومع نهاية الوجود الصليبى فى المنطقة العربية، اختفت هذه التسميات الفرنسية للقرى والمستوطنات الفلسطينية . لقد كانت ظاهرة التسمية الأجنبية لهذا الأماكن والقرى الفلسطينية متواترة ومتكررة خلال التاريخ الطويل لإقليم فلسطين. وثمة عدد قليل من المواقع والقلاع المحصنة كانت تحمل أسماءً فرنسية حقيقة . ووجود هذه التسمية الفرنسية للمناطق الريفية يؤكد حقيقة أن هذه المناطق الريفية فى فلسطين لم تكن خاضعة للسيادة الصليبية بشكل حقيقى.

وحتى الآن، تساهم الأرض المقدسة فى فلسطين فى انتاج محاصيل زراعية رئيسة مع كل أنحاء عالم البحر المتوسط وأهمها : القمح ، والزيتون ، والكروم . وظلت الخيرات التوراتية لهذه المناطق الفلسطينية تحت يد واستخدام الصليبيين وهى منطقة كنعان والتى هى: «**أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان ، أرض زيتون زيت وعسل (سفر التثنية - الاصحاح ٩،٨)***.

---

* يذكر سفر التثنية فى فضل أرض فلسطين وخيراتها فيذكر أنها » أرض جيدة أرض أنهار من عيون وغمار تنبع فى البقاع والجبال ، أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان . أرض زيتون وعسل ، أرض ليس بالمسكنة تأكل فيها خبزاً ولايعوزك فيها شىء . أرض حجارتها حديد ومن جبالها تحفر نحاسًا» . (سفر التثنية - الاصحاح٨) .

إذ كان الحاج المسيحى الذى يأتى إلى مدينة بيت المقدس خلال الحقبة الصليبية يستخدم نبات الجـاودار rye والخبز الأسود ، والنبيذ ، ومنتجات الألبان ، وأرغفة العيش المصنوعة من قمح منطقة الشرق العربى، وكذلك الكروم الطازجة ، والزيتون وزيت الزيتون الذى تشتهر به الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام وهى الخيرات التى تؤكد صدق وعد الرب لرعيته فى هذه المناطق المقدسة . فقد ورد مراراً فى يوميات الرحالة بأن هذه الأرض تفيض باللبن والعسل، وقد حفظها الرب بشكل رائع لكى تزود القادمين إليها بالتسلية والمرح والتهذيب . ولم يحجم أى زائر لهذه الأراضى سواء كان ناقداً لاذعًا أو حاجًا عاقلاً عن أن يملأ تقريره بالألفاظ التوراتية التى وردت فى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) والخاصة بفضل هذه المناطق . فقد ذكر لنا أحد الرحالة الألمان الذين زاروا هذه المناطق الصليبية فى أواخر القرن الثالث عشر (١٢٨٠م) وهو بوركارد Burchard رئيس دير جبل صهيون وصفًا مفصلاً عن أنواع النباتات والحيوانات التى شاهدها فى هذه المناطق فقال:

« ... وكأمر واقع ، فإنك ترى كل الأراضى المقدسة كانت وما تزال حتى الآن من أفضل بلاد وأراضى العالم قاطبة، وإن كان بعض الذين لايراعون الدقة فى القول يرون عكس ذلك، إنها أرض تنتج الحبوب والحنطة ، وهذه الأرض تعطى محصولا وفيراً بأقل مجهود يبذل». ونعجب قليلاً إذا عرفنا أن علماء أواخر القرن الثامن عشر قد ناقشوا بجدية قضية عنقود العنب الثقيل الذى كان يحمله بصعوبة اثنان من الرجال على كتفيهما وعندئذ يجب علينا أن نفحص ما ذكره الراهب الروسى دانيال Danial الذى زار الأراضى المقدسة فى بداية الوجود الصليبى (١١٠٦-١١٠٧) والذى كتب يقول : «أنه إذ بذرت بذوراً مقدارها بوشل واحد (البوشل = ٨ جالون أو ٣١ لترا) من القمح فى أرض هذه المناطق المقدسة ، فإنه بعد نضج المحصول يمكن أن تحصل على ثمانين أو مائة قدر من هذه الكمية أى أن المحصول الناتج يتضاعف كثيرا من فرط البركة والنماء الذى أغدقها الرب على أهل هذه المناطق . ألم يغدق الرب خيراته وأنعمه على الأرض المقدسة؟

ولاشك أن الخبز الأبيض الذى كان يستخدم فى الأكل والطعام فى الأراضى المقدسة كان من أهم الأشياء البارزة واللافتة للنظر لأى قادم أوروبى جديد إلى هذه المناطق، سواء كان هذا الخبز من صنع المستوطنين الصليبيين أو من صنع السكان المحليين الذين كانوا يصنعونه فى الأفران الوطنية وكان يصنع على هيئة فطائر مسطحة . وكان هذا النوع من الفطائر يصنع من نخالة

القمح ، هذا القمح الذى يعد من أهم الحبوب فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. وعلى الرغم من أن القمح الجيد يزرع الآن فى التربة الثقيلة للمناطق الساحلية، وفى المناطق المنخفضة لوادى جزريك ووادى نهر الأردن، فإن منطقة زراعة الحبوب فى الحقبة الصليبية كانت توجد فى مكان آخر.

كانت الأراضى الزراعية الواقعة شرق نهر الأردن وكذلك الواقعة شمال شرق بحيرة طبرية من أعظم مناطق انتاج الحبوب والغلال فى المملكة الصليبية وفى منطقة دمشق الإسلامية؛ ففى الشمال حيث أرض السواد أو «الأرض السوداء» ، والتى كان يعرفها الصليبيون باسم «أرض العرق Terre de Sueth » التى كانت تمتد عبر بحيرة طبرية؛ وفى منطقة الجولان القديمة والأراضى الممتدة بشكل أكثر صوب الشرق فى حوران. وكانت هذه المناطق أيضا تضم المراعى القديمة لهذا القطر. وكانت مراكز الانتاج الزراعى الوفير فى هذه المنطقة تتركز حول نعوا Nawa إلى الشرق والقريبة من أودية بانياس الخصبة وذات الأهمية الاستراتيجية فى جهة الغرب ، والممتدة إلى أودية الجليل الغربية حول تبنين (هورون) .

وانتشرت مزارع القمح الكثيفة والواسعة فى الجزء الغربى من فلسطين. وكان أجود أنواع القمح ينمو فى منطقة شيفيلا التاريخية ، والأرض المنخفضة كثيرة التلال الواقعة بين السهل الساحلى والسلاسل الرئيسية لجبال مدينة القدس، ومنطقة بانياس (السامرة) والجليل، وقد اشتهر الجزء الجنوبى من فلسطين بانتاج أجود أنواع القمح. وكانت منطقة الانتاج تبدأ من المدخل الغربى وتمتد إلى وادى جزريل ، عند مرتفعات قيسارية على الساحل والمستمرة فى الامتداد صوب الجنوب إلى رام الله عند تقاطع الطريق المؤدى إلى مدينة القدس، وتمتد منطقة انتاج القمح بشكل أكثر إلى الجنوب خلال عقير Akur إلى بيت جبرين . واشتهرت كل من قيسارية ، وبيت لحم، وعقير Akir بخبزها الأبيض. فكان القمح يزرع حول قيسارية فى السهل الساحلى الملائم لزراعة هذا المحصول ، وثمة منطقة زراعية كانت تمتد حتى الجنوب حول غزة، وتمتد مناطق الانتاج حتى تصل إلى رمال الداروم (دير البلح) . وكان قمح وغلال المنطقة الجنوبية يصدر إلى مدينة القدس قبل الوجود الصليبى، بيد أنه بعد الغزو الصليبى تعرضت هذه المنطقة الجنوبية للدمار والخراب. فقد أصبحت بيت جبرين وتل الصافى من المستوطنات الصليبية حوالى عام ١١٤٠م، وبعدها بخمسة عشر عاماً سقطت عسقلان فى يد الصليبيين وأصبحت مدينة مسيحية صليبية . وتشير المصادر التاريخية الصليبية إلى خصوبة سهل

عسقلان ، والذى لم يزرع خلال مدة الحرب والتى استمرت ما يقرب من خمسة عشر عامًا ولكنه بعد سقوط عسقلان أصبح هذا السهل الساحلى يجلب الخير الوفير للمستوطنين الصليبيين الجدد. وعلي الرغم من تفوق محصول القمح على سائر المحاصيل الأخرى ، فإن بعض المناطق كانت تزرع بمحصول الشعير وكانت مساحات هذه الزراعات أقل من المطلوب . وتركزت مناطق انتاج الشعير حول حبرون ، ومن حبرون كانت تمتد منطقة زراعة لشعير إلى القرى البعيدة لمنطقة الكرمل ومنطقة صمويل على حافة الصحراء الجنوبية الكبرى وإلى الشمال صوب مدينة بيت لحم.

وخلال فترة السيادة الصليبية أصبحت منطقة جبال مدينة القدس والممتدة من بيت لحم إلى القدس ورام الله أماكن لسكنى المستوطنين الصليبيين. وعلى الرغم من ندرة الآبار والعيون اللازمة للرى فى هذه المنطقة فإن محاصيل هذه المنطقة كانت غنية الانتاج كما ذكر الرحالة الروس الراهب دانيال والذى كان قوى الوجد الصوفى لنعمة الرب التى أسبغها على أهالى هذه المنطقة . وقد سمعنا أنه فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى كانت أراضى هذه المنطقة صعبة التملك نظرا لارتفاع ثمنها. ويقينًا أن ارتفاع ثمن بيع هذه الأراضى يرجع إلى المد الاستيطانى الصليبى. ففى المنطقة الممتدة من بيت لحم جهة الشمال إلى البيرة (المحمرية) ورام الله- على الطريق الرئيسى المؤدى إلى بانياس (السامرة) كانت توجد أراضى الدومين الملكى (منطقة النفوذ الملكية) ، وممتلكات الهيئات الدينية العسكرية (الداوية - الاسبتارية- التيوتون) ، وأراضى الكنائس والأديرة وقد تنوعت الزراعات فى كل هذه الأراضى، على الرغم من أن أهميتها الرئيسة لم تنحصر فى انتاج القمح والحبوب فقط، بل أيضًا فى انتاج الكروم.

لقد كان الكثير من الفلاحين فى جبال القدس يفلحون الأودية الضيقة ويحرثون هضبة الجبل واعدادها للزراعة . ولم تكن الزراعة فى هذه المنطقة أمراً ميسوراً ، حيث كانت الأراضى شبه المستوية القديمة الموجودة على المنحدرات تتطلب مجهوداً بشريًا ضخمًا لفلاحتها وزراعتها. ويذكر الجغرافى العربى ياقوت الحموى، فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى ، أن الشكل الجبلى لطبيعة المنطقة يعوق استخدام الدواب والمواشى فى أعمال الحرث، ولذا أصبح لزامًا على فلاحى هذه المنطقة استخدام المجرافات والفؤس فى حرث الأرض الزراعية وإعدادها للزراعة.

وبالإضافة إلى القمح والشعير ، واللذين كانا يعتبران من الحبوب والغلال الرئيسة، كانت توجد أنواع أخرى من الحبوب تنتجها الأراضى المقدسة فى فلسطين لاستخدام الإنسان والحيوان وهما حبة الدخن millet، والشوفان Oats، والحنطة Spelt . وتذكر احدى الوثائق الصليبية المهمة والتى ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، أن الذرة أو الحبة الهندية كان من بين الحبوب التى تزرع فى اقليم الجليل. وإذا كانت ترجمتنا لكلمة الحبة الهندية صائبة وصحيحة، فإن ذلك يعتبر دليلاً اضافيًا وبرهانا يؤكد أن الذرة ذات أصل آسيوى وليس أمريكى الأصل.

وبالإضافة إلى الحبوب مثل القمح والشعير والشوفان والحنطة فإن الأراضى المقدسة فى فلسطين كانت تنتج النباتات البقولية والخضروات. وقد ذكر أن الفول كان من النباتات البقلية، ذات الأهمية الغذائية للإنسان، وأيضا كعلف للماشية ولم تذكر قيمته كعنصر من عناصر تزويد الأرض بسماد النترات ، الذى يخصب الأرض ويزيد الانتاج المحصولى، وقد أطلق اسم الفول على قلعة فى وادى جزريل وعرفت باسم «قلعة الفول Castrum Fabae ». كما كانت توجد أنواع أخرى من البقليات مثل البسلة، والعدس والفاصوليا .

وقد ذكر أيضا ضمن منتجات الأراضى الزراعية فى فلسطين الخيار والبطيخ الأحمر والشمام الأصفر . ولم نعرف ما إذا كان البصل الفلسطينى الذى ينتج فى عسقلان كان ما يزال يزرع هناك أم لا . بيد أن الموائد الصليبية كانت تشمل ضمن محتوياتها كلا من البصل والثوم ونبات الخردل . وكانت هناك نباتات برية تنمو بمفردها وقد استخدمت كتوابل وبهارات . ومن بين النباتات التى ذكرت بشكل خاص نبات الشمار، ونبات القصعين، ونبات السذاب والتى كانت تستخدم فى الأغراض الطبية، ومن المحتمل أيضا أن نبات الخباز mallow كان يزرع أيضا. وكانت قرية العناب القريبة من مدينة القدس تشتهر بانتاج نبات السذاب الطبى Rue.

وتشتهر فلسطين منذ العصر القديم بأشجار الفاكهة ، وتعتبر أشجار الزيتون من أهم هذه الأشجار . وكانت أشجار الزيتون تنمو فى الجبال، وفى السهول، وفى الأودية، بيد أن أهم مناطق زراعته فى فلسطين تتركز فى الجزء الجنوبى. ففى وقت مبكر من القرن الثانى عشر الميلادى كان الحجاج يجدون أشجار الزيتون فى نابلس فى شكل غابة كثيفة تشبه البساتين، وقبل ذلك بمائة عام أشار أحد الجغرافيين المسلمين إلى وجود أشجار الزيتون فى هذه المنطقة ، وكانت جبال القدس وأيضا منطقة حبرون تتباهى بانتاج الزيتون زكى الرائحة. وقبل الحروب

الصليبية كان زيت الزيتون المنتج فى هذه المنطقة يصدر إلى الأقطار المجاورة. فقد كانت المناطق القريبة من حبرون أو بيت المقدس ونابلس تعتبر مراكز كبيرة لانتاج الزيتون. ومن الغريب حقا أن أشجار الزيتون فلما كانت تذكر فى اقليم الجليل. ومن المحتمل أن يكون هذا الاغفال من قبيل المصادفة ، وهذا الاغفال يمكن أن يعكس لنا حقيقة تاريخ العصور الوسطى. ومن ناحية أخرى فإن أشجار الزيتون كانت تغطى كل المدن الساحلية ، من عسقلان فى الجنوب ، مروراً بيافا ، وأرسوف ، وقيسارية وعكا حتى الوصول إلى مدينة عكا. ولم يغفل المؤرخون الذين وصفوا تفصيلات الحصار الصليبى للمدن العربية فى فلسطين وبلاد الشام ذكر حدائق الزيتون وبساتين الفاكهة لذيذة الطعم حول المدينة المحاصرة . فقد كانت بساتين الزيتون القريبة من مدينة صور تستغل استغلالاً تجاريًا ووجد فى كل قرية معصرة لعصر زيت الزيتون، كما كانت العادة فى العصور الوسطى، وعلى الرغم من أن كثيرا من هذه المعاصر كانت تدار بواسطة إنسان أو حيوان- فمن المحتمل أن هذه المعاصر الخاصة بزيت الزيتون فى تلك الحقبة الزمنية كانت أعمق من مثيلتها فى العصر القديم.

وكان السمسم مصدراً للزيت وهو محصول يزرع فى فصل الصيف، وكان من المحاصيل المتوازنة ربحيًا ومن المحاصيل المساعدة للدورة الزراعية للمحاصيل . وكان يستخرج منه زيت السمسم ذى النكهة الخاصة والذى كان يلقى رواجًا واسعًا فى الاستهلاك لدى سكان منطقة الشرق العربى الإسلامى.

وكان العنب أو الكروم من أنواع الفاكهة البارزة التى كانت تنمو فى مناطق فلسطين بشكل طبيعى، وذلك فى شكل عناقيد العنب والذى كان يصنع منه النبيذ. وقد تحدث الرحالة الروس دانيال والذى زار هذه المناطق المقدسة فى بداية القرن الثانى عشر عن العنب والكروم الذى يزرع فى هذه المناطق فقال «إن هذا العنب الذى ينمو فى الأراضى المقدسة هو أجود أنواع الكروم الذى يزرع فى العالم- وأفضل فاكهة تخرجها الأرض- ويمكن مقارنته بالكروم التى تنمو فى المملكة السماوية مذاقًا وطعمًا وحلاوة» ومن المنطقى الاعتقاد بأن التوسع فى زراعات الكروم وصناعة النبيذ جاء تلبية لحاجة السكان الصليبيين وكان نتاجا للغزو والاستيطان الصليبى فى بلاد الشام وفلسطين. فالمعروف أن الدين الإسلامى قد حرَّم شرب الخمور ولذا تحددت مساحة الأراضى التى كانت تزرع الكروم على الرغم من أن المسيحيين الوطنيين كانوا يصنعون النبيذ خلال فترة السيادة الإسلامية وقد ازدهرت سوق تجارة النبيذ

وازدهرت زراعات الكروم لتلبية احتياجات كبار الملاك الصليبيين وسكان المدن من النبيذ الذى كان المشروب المفضل لديهم. وكانت مزارع الكروم تحيط بكل المدن الساحلية، بيد أن هذه الزراعات من الكروم قد وجدت بوفرة فى الأراضى والمناطق الداخلية كثيرة التلال والجبال فى فلسطين . فانتشرت زراعات الكروم شمال مدينة صيدا على ساحل البحر، وفى اقليم الجليل حول طبرية والناصرة، وعلى امتداد الطريق من نابلس إلى مدينة القدس، حول نابلس ، ورام الله، وبيت المقدس، وبيت لحم، وأيضًا حبرون فى الجنوب . ففى نهاية القرن العاشر الميلادى، كان هناك نوعان من الكروم تنتشر زراعتهما حول مدينة القدس: وهذا النوعان هما العنب الجاف (الزبيب) أو البناتى والعنب العنانى، وكان هذان النوعان ذا شهرة واسعة فى مجال التصدير إلى الأقطار المجاورة. وكما هو المتوقع، فقد اهتمت المؤسسات الكنسية الصليبية التى حازت أملاكا من الأراضى الزراعية اهتماما كبيراً بزراعة الكروم. فظهرت زراعات الكروم فى القرى التى استوطنها رهبان كنيسة الضريح المقدس وهى القرى الواقعة على الطريق الممتد من بيت المقدس إلى رام الله. ومن خلال المصادر التاريخية عرفنا أنه فى بعض المناطق الأخرى الخاضعة لادارة الهيئات الدينية العسكرية تحولت زراعات الذرة إلى مزارع الكروم . وقد حدث مثل هذا من أجل تلبية احتياجات أفراد الهيئات الدينية العسكرية (الاسبتارية- الداوية - التيوتون) من النبيذ ، ولاشك فى أن زراعة الكروم كانت أكثر ربحية من زراعة الذرة .

وبالإضافة إلى المنتجات الرئيسية الثلاث والتى تشمل: القمح، والزيتون ، والعنب، فإن منطقة فلسطين قد اشتهرت أيضا بأنواع ممتازة من الفاكهة . وعلى الرغم من أن المناطق الشمالية من فلسطين كانت تفتقر فى انتاجها الطبيعى من التفاح والكمثرى ، والبندق ، وثمار الكرز Cherries، فإن الزائر لهذه المناطق كان يجد وفرة من الفاكهة الجديدة و الغريبة فى اللون والطعم ، فكانت أشجار التفاح تنتشر بكثرة حول مدينة القدس ، عند زعار Zo;ar الواقعة جنوب البحر الميت وفى بيسان، وكانت هناك أعداد بسيطة من أشجار البندق فى اقليم نابلس (السامرة). ووجدت أشجار النخيل المثمرة بالبلح ذى الطعم العجيب فى المناطق الشمالية من فلسطين، فقد زرعت أشجار النخيل فى هذه المناطق شبه الاستوائية حول بيسان، وعلى امتداد نهر الأردن، وأيضا فى شمال مستنقعات الحولة، وفى واحات أريحا المشهورة ، وعند الحافة الجنوبية للبحر الميت فى زعار Zo'ar ، والتى كان يعرفها الصليبيون وكذلك

القدماء باسم «مدينة النخيل». وقد عرف انتاج هذه المنطقة من البلح باسم بلح «انقيلا in-kila» وكان هذا النوع من البلح يصدر إلى الخارج خلال فترة السيادة العربية الإسلامية. ووجدت أشجار النخيل أيضًا حول المدن الساحلية. وهى الأشجار التى كانت تضيف إلى بنية هذه المدن جمالاً ورونقًا وفخامة. وقد اقتبس الصليبيون اسم القرية التى أسسوها حديثًا وهى قرية «بالميرا Palmarea» من بستان النخيل الشهير والذى كان يقع بين حيفا وعكا . وكان البلح يؤكل طازجا أو جافا كما كان تحشى به الفطائر . وبالإضافة إلى ذلك ، كان يستخرج من البلح عصير حلو المذاق وهو العسل الشهير الذى ورد ذكره فى التوراة والأناجيل المقدسة (أرض يفيض باللبن والعسل) ومن المحتمل أن كلمة العسل المذكورة فى الكتب المقدسة تشير إلى ذلك العسل المستخرج من هذا البلح) .

ومن المعروف أن بيسان تقع فى مكان المرور من وادى جزريك إلى منخفض الأردن . وبالرغم من انحدار هذه المنطقة الشديد ، وارتفاع نسبة الرطوبة بها ، وانتشار المستنقعات بها أيضا ، إلا أنها كانت تحتوى على كميات من المياه المجهولة لم تشهد مثلها مناطق أخرى من فلسطين ، وكانت مستنبتًا لزراعة الفواكه والنباتات الاستوائية ، والتى كانت تشبه مثيلتها فى منطقة أريحا فقط. وقد وجدت بعض هذه الفواكه الاستوائية أيضا فى وادى نهر الأردن بالقرب من بحيرة طبرية وفى أراضى المستنقعات (السبخ) فى منطقة الحولة وبصورة أكبر حول بيسان فى فترة ما قبل الوجود الصليبى. ونادراً ما كانت المصادر الصليبية تذكر ذلك. ومن المحتمل أن انتاج هذه المناطق من الأرز قد انخفض ، ويمكن أن نعزو ذلك إلى أن السكان الصليبيين لم يعتادوا أكل الأرز. وخلال العصر المملوكى ذكرت زراعة الأرز مرة ثانية فى مناطق بالقرب من بانياس .

وبالإضافة إلى أشجار النخيل ، ظهر نبات غريب ذى أهمية كبيرة، ويبدو من أوصافة البهيجة أنه يتعلق بالأصل السماوي المقدس، وكان هذا النبات هو قصب السكر. وكانت سيقانه الطويلة يستخرج منها عصير حلو المذاق يتناوله الأطفال والكبار على السواء ، فيقومون بمص ومضغ هذا القصب . وقد ذكرت زراعات قصب السكر قبل الوجود الصليبى حول مدينة صيدا ، وفى قرية قابول Kabul، وفى وادى نهر الأردن عند منطقة قراوة Ka-rawa، وكان قصب السكر يزرع بشكل رئيسى حول مدينة صور. وأدرك الصليبيون أهمية هذا النبات بالنسبة لأوربا ، وكان الصليبيون يستخدمون عسل القصب وعصير الفواكه فى صناعة

الحلويات الرئيسة. ولهذا احتفظ الصليبيون بمراكز الانتاج القديمة وتوسعوا فى هذه الصناعة فى كل مكان. وتركز مركز الانتاج الرئيسى لقصب السكر وصناعة العسل بالقرب من مدينة صور، حيث كانت مياه رأس العين الوفيرة تروى زراعات قصب السكر الممتدة بطول ميل من الأمتار. وعلى امتداد الساحل فى الشمال، كان يزرع قصب السكر فى صيدا وفى عكا، حيث أنشىء معمل لتكرير سكر القصب . ومما يذكر أن الماء الوفير كان من أهم عوامل قيام زراعة قصب السكر، إذ كان هذا النبات ينمو فى المناطق الغنية بالماء... الخ. وقام فرسان هيئة الاسبتارية بزراعة ما يلزمهم من قصب السكر بالقرب من طبرية، وفى وادى أريحا حيث توجد ينابيع المياه الوفيرة ، وكذلك بالقرب من نابلس وبالقرب من المقر الاقطاعى للأمير الصليبى مانيوث أمير الجليل، حيث كان يوجد نظام محكم ودقيق لحفظ المياه والرى ، الأمر الذى سهل زراعة هذا المحصول الترفى.

وكان الليمون احدى أنواع الفواكه التى تزرع فى فلسطين . إذ كان الليمون محطُ إعجاب القادم الأوربى الجديد إلى الأراضى المقدسة. كما حظى هذا الليمون والبرتقال (والذى عرفه العرب باسم النارنج) بطعمه الحامض الحلو ورائحته العطرية القوية باعجاب الأوربيين القادمين إلى هذه المناطق المقدسة. فكان يصنع من الليمون عصير وشراب مسكر، بيد أن الليمون (النارنج) كان بمثابة نوع مهم من البهارات الغريبة، وكانت الأطعمة الشهية تحتوى على الليمون والبهارات والتوابل ، حيث كانت تضاف إلى الدجاج والسمك ، وذكرت المصادر الصليبية هذا الليمون واعتبرته مثل هذه التوابل والبهارات كما اعتبرت هذا الليمون احدي عجائب الدنيا الجديدة. وانتشرت زراعة أشجار الليمون (الأترج والليمون والبرتقال) على امتداد الساحل بالقرب من قيسارية، وفى المناطق الداخلية حول قلعة مونتفرت وفى الشمال بالقرب من بانياس . ولم يكن الموز أقل أهمية من البرتقال، إذ وصفه الحجاج الصليبيون بالضبط واطلقوا عليه اسم «تفاح الجنة» وعرف فى اللغة العربية والعبرية باسم الموز . وانتشرت أشجار الموز على طول نهر الأردن فى الأودية المستوية والرطبة الواقعة فى الضفة الغربية لنهر الأردن. وثمة نوع آخر من الفاكهة كان يحظى بالاعجاب والتقدير العظيم وهو التين بجميع أصنافه ، وكان هذا التين المنتج، فى فلسطين ينافس كل أنواع التين الذى تنتجه منطقة دمشق، إذ كان يؤكل طازجًا أو جافا ويستخدم فى حشو الفطائر. ويبدو أن أشجار التين كانت أكثر انتشارا فى منطقة الجبال الداخلية، وذكر الحجاج الصليبيون أن أشجار التين كانت

منتشرة فى المنطقة الممتدة من حبرون إلى نابلس ، وأيضا فى رام الله، وفى يبنه وقيسارية، ولسبب ما لم تشر المصادر الصليبية إلى وجود أشجار التين فى الجليل .

وكان الرمان Pomegranates يمثل مفخرة الذكريات القديمة لإقليم فلسطين ، هذه الذكريات التى قلما كانت تذكر الأختام والعملات. وقد عرفنا أن الرمان كان ينتشر فى منطقة أريحا Jericha ، وبالقرب من نابلس ، وفى منطقة ما وراء نهر الأردن، بيد أن المصادر الصليبية قد أغفلت هذا.

وتعتبر أشجار الجميز من الأشجار المثمرة فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام، وإن كان ثمارها أقل درجة فى المذاق من ثمار التين. واستخدمت أشجار الجميز فى أغراض البناء حيث أخشاب الجميز. وكانت ثمرة الجميز الصغيرة تنمو بسرعة عجيبة فى ساق الشجرة، وكانت هذه الأشجار تنمو حول عسقلان وحبرون . وكانت شجرة الجميز تمثل أهمية فى اقتصاد هذا القطر ولم تلعب مثل هذا الدور الاقتصادى المهم خلال فترة السيادة الصليبية.

ففى الأوقات العصيبة كانت شجرة الخروب تلعب دورا مهما . فقد ذكرت هذه الشجرة بأنها هدية المنطقة الجبلية فى القدس ونابلس (يهودا والسامرة) إذ أن هذه الشجرة كانت تمثل مصدرا من مصادر الطعام لجيوش الحملة الصليبية الثالثة، ولاسيما فى أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا. وتعتبر القائمة الكاملة لأشجار الفاكهة والنباتات المثمرة التى كانت تزرع فى الأرض المقدسة قائمة طويلة . ويذكر الجغرافى المسلم المقدسى الذى ولد فى مدينة القدس (فى القرن العاشر الميلادى) أنواعا كثيرة من الفواكه ، يصل عددها إلى ثمانية وأربعين نوعا . وهذه الأنواع تشمل السفرجل وحبوب الصنوبر، والعنب أو الزبيب الأسمر، وأنواعا معينة ومحددة من جوز الهند ، والليمون والهليون، والخرشوف ، والخس.

والجدير بالملاحظة أن منطقة صغيرة نسبيًا قد شهدت زراعة محاصيل مختلفة وكانت هذه المنطقة عبارة عن شريط ضيق من الأرض يقع بين البحر المتوسط والصحراء ، ويبدو أن الزراعة قد ازدهرت الأمر الذى لفت انتباه الحجاج الأوربيين فى العصور الوسطى، كما يلفت نظر القارىء فى الوقت الحالى. وعلى الرغم من المبالغة التى تتسم بها أوصاف المعاصرين فإن هذا لايجعلنا أن نقلل من مصداقية هذا الوصف ولكنه يحمل شيئا من الحقيقة إلى حد ما . بيد أن المنتجات الزراعية المختلفة فى حد ذاتها تعتبر بمثابة مؤشر ودلالة ضعيفة جداً للاقتصاد الريفى الزراعى. فلم تكن الواحات الخصبة فقيرة الانتاج مثل الصحراء. ويمكن أن ننظر إلى

الزراعة الصليبية من منظور صحيح من خلال التعرف على الخلفية الزراعية لاقليم فلسطين بوجه عام. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو ماذا كان شكل ونمط الزراعة الفلسطينية منذ سبعة قرون مضت؟ وما هو نمط الاستيطان الزراعى الصليبى؟ والحقيقة أننا عرفنا شيئًا عن مثل هذه الأمور من خلال وجهة نظر المصادر الصليبية الأوربية ، ومن خلال حياة الصليبيين فى هذه المناطق ، ومن المصطلحات الفرنسية . وقلما كانت المصادر العربية تزودنا بالحقائق عن هذه الأمور . فقد تبلورت مفردات حقائق هذه الأمور الخاصة بنمط الزراعة والاستيطان الزراعى الصليبى فى ظل ظروف مختلفة للوجود الصليبى فى هذه المناطق العربية المحتلة وتبنى المؤرخون هذه الحقائق فى العصر الحالى. وفى الغالب لم تكن مثل هذه المسلمات والحقائق تبرز بنجاح حقائق الظروف الفلسطينية خلال العصر الصليبى.

لقد كانت القرية منذ قديم الزمان هى الوحدة الأساسية لحياة الفلسطينيين ومعيشتهم. وأطلق الصليبيون فى القرن الثانى عشر الميلادى على القرية اسم ضيعة ، مثل الضيعة الرومانية فى العصر القديم والتى لم تصل إلى مستوى وحجم المدينة. وفى العادة كانت القرية فى فلسطين فى العصر الصليبى تعرف باسم Casale (والتى جمعها Casali أو Casiaux). وقد ظهر هذا الاسم فى أوربا فى العصور الوسطى الباكرة وفى الأصل كانت كلمة (Casal) تعنى ضيعة ريفية. فالمقطع الأول من الكلمة Casal وهو Casa تعنى منزلاً سكنيًا أو مزرعة سكنية . وهكذا فإن كلمة Casale تعنى كتلة متراصة من المنازل السكنية ذات سمة ريفية بارزة وتحمل خصائص الريف .

وفى الغالب كانت منازل القرية تشيد من الأحجار ، وذلك لسهولة الحصول على أحجار البناء فى الأراضى المقدسة فقد كانت الأحجار أقل تكلفة من الأخشاب . وعلى أى حال فإن كثيراً من المنازل والبيوت كانت تبنى بأقل تكلفة من الأخشاب . وهكذا فإن كثيراً من المنازل والبيوت كانت تبنى بأقل تكلفة وذلك من خليط من الطين والقش، وكانت منازل القرية مكونة من طابق واحد مزودة بأسقف مسطحة مفتوحة، يضع الفلاحون فوقها أدواتهم الزراعية كالفأس والمحراث كما كانت أسقف المنازل تستخدم كمستودع لتخزين الحبوب فى صوامع فوق أسطح المنازل، كما كان سطح المنزل يستخدم للنوم فوقه فى أثناء ليالى وأيام الصيف الحارة. وكان المنزل فى القرية مزوداً بشبابيك صغيرة توفر درجة معتدلة من البرودة وتوفر الحماية للسكان من حرارة الشمس، ومن خلال الخبرة الطويلة تعلم البناؤن تصميم المنازل فى القرى بشكل يوفر

نسيم الليل البارد للمنزل . ونادراً ما كانت أسطح المنازل فى القرى مبلطة إذ كانت الأسقف تصنع من الطين ، الذى يحتفظ بالبرودة والرطوبة فى الصيف بيد أن هذه الأسقف الطينية للمنازل كانت تجعل المنازل أكثر برودة خلال الفصل المطير من العام.

كانت القرية فى العادة عبارة عن تكتل مركب من المنازل الصغيرة ، وحقول منعزلة أو مساكن كانت مجهولة تقريبًا. وتمثل الاستثناء الوحيد لهذا الوضع فى وجود أرض يسكنها أفراد بشكل مؤقت تقع خارج الحدود الطبيعية للقرية وكانت المنازل المزودة بالشبابيك الصغيرة تطل على الفناء، وكانت واجهات مبنى المنزل يقطعه باب واحد ، وقد وجدت ممرات ترابية ملتوية بين المنازل . وقد زودت بعض المنازل فى القرية بقبوات تحت الأرض استخدمت لتخزين الحبوب . وزود المنزل فى القرية أيضا بفرن لاعداد وصناعة الخبز وكان الوقود اللازم لهذا الفرن يصنع من روث الحيوانات الجافة والحطب من أغصان الأشجار الجافة والنباتات الشوكية الجافة، وهو الحطب الذى كانت تجمعه النساء. وفى العادة أيضا كان البئر الخاص بالقرية يوجد بالقرب منها ، وظلت القرية كما كانت فى العصور التوراتية مركزا للتسلية والسمر الليلى، وكانت الجرار الطويلة الفخارية المسامية تستخدمها نساء القرية فى نقل الماء من بئر القرية إلى المنازل.

ومما يذكر أن منازل القرية كانت تشيد من أحجار ، إذ كانت توجد أماكن كثيرة فى فلسطين لاسخراج الأحجار، بيد أنه كان من السهل الحصول على مواد البناء من بقايا اطلال المدن القديمة العديدة ومن بقايا أطلال القرى التى تقع فى المناطق الريفية. وانتقلت بقايا الأبهة والفخامة المعمارية القديمة من أعمدة رخامية وتيجان أعمدة إلى القرى واعيد استخدامها فى بناء البيوت الصغيرة للفلاحين ، وتحولت بعض المراكز الحضرية القديمة إلى منطقة جاهزة لاستخراج الأحجار اللازمة للبناء . وهكذا استغلت مناطق عسقلان وقيسارية القديمة ولاتزال هذه المناطق تستغل فى استخراج الحجارة حتى الوقت الحالى. وقد استخدمت بقايا هذه المناطق من الأحجار فى بناء مدينة قيسارية الصليبية الصغيرة أو فى تشييد بناء مدينة عكا الجديدة فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .

وكان يوجد فى القرية الصليبية فى فلسطين منزل أو منزلان أكثر اتساعا عن باقى منازل الفلاحين، وكان منزل رئيس القرية أحد هذين المنزلين ، وفى العادة لم يزد رئيس القرية عن كونه رئيس أكبر عشيرة فى القرية، وربما تدل كلمة عشيرة على أن سكان القرية كانوا من

عشيرة واحدة، مع أنه أحيانا كانت القرية الواحدة تسكنها عائلتان أو أكثر. والجدير بالذكر أن السيد الاقطاعى الصليبى هو الذى كان يعين رئيس القرية، وكان منزل رئيس القرية مزوداً بكل وسائل الراحة التى تناسب استقبال أى زائر محلى أو أجنبى يجد كل الترحاب ، وأحيانا كانت الحجرة الواسعة المخصصة للمسافرين والتى تعرف باسم المضيفة تخصص لهذا الغرض.

ولم يكن رئيس القرية كما كانت تعرفه الوثائق الصليبية قائداً تقليديًا للقرية فحسب ، بل كان أيضا الممثل الحكومى والرسمى لقريته أمام السلطات الصليبية وتقع على عاتقه مسئوليات مهمة مثل حفظ الأمن فى القرية ، وتحصيل الضرائب الحكومية من أهل القرية. فقد كانت الضرائب الزراعية المفروضة على فلاحى القرية تدفع عينا من نوع محصول الموسم الزراعى وترسل هذه الضرائب إلى مقر السيد الاقطاعى الصليبى. وفى أحوال كثيرة كانت المراكز الادارية الاقطاعية توجد فى المدن الساحلية، أو فى قلعة أو فى برج محصن فى المناطق الداخلية وعادة كان للقرية رئيس واحد، بيد أنه فى بعض الأماكن كان يرأس القرية اثنان من الرؤساء أو أكثر يعينهم السيد الاقطاعى الصليبى لهذا المنصب . ومن المحتمل أن تعدد رؤساء القرية كان يعتمد فى المقام الأول على عدد العائلات التى تقطن القرية .

كان رئيس القرية يشارك فى شن التشريعات والقوانين يعضده فى ذلك التقاليد ومؤازرة سيده الصليبى، وأهم القوانين التى كان يشارك رئيس القرية فى سنها قانون نقل الملكية من شخص إلى آخر من أهالى القرية. وبموجب القانون الاقطاعى كان رئيس القرية يعتبر من صغار الأفصال الاقطاعيين، أو كان بمثابة فصل يمثل سلطة الحكومة فى تحصيل الضرائب الزراعية المفروضة على فلاحى القرية للسيد الاقطاعى . ففى إحدى المناسبات سمعنا أن هيئة فرسان الاسبتارية منحت رئيس القرية المدعو عبيد ملكية عدد من القرى لفلاحتها وحماية الأمن بها طالما أن مثل هذا الاجراء سيلقى السرور والرضا من جانب مقدم هيئة الاسبتارية وأعضائها ولم تكن هذه الحالة استثناءً بل كانت متكررة.

لقد فرض على رئيس القرية ومجلس الأعيان بها أن يقروا خضوعهم للسيد الاقطاعى الصليبى، وأن يتعهدوا بتقديم الطعام له ولحاشيته فى حالة زيارته للقرية ، وبشكل رمزى ووفقًا لما تمليه علاقة الاعزاز بين قلوب رجالات العصور الوسطى فإن على مجلس أعيان القرية ورئيسها أن يفتحوا بالحب ذراعيهم لاستقبال السيد الاقطاعى الصليبى بترحاب فى أثناء

زيارته للقرية وأن يزودوه بكلمات من النقود الفضية ، ويزودوه ببعض مكاييل القمح أو الزيتون . وعندما تنتقل ملكية القرية إلى سيد اقطاعى آخر فإن الرئيس ومجلس أعيان هذه القرية يجب عليهم أن يقدموا الولاء والاخلاص الاقطاعى لهذا السيد الجديد . ومن اللافت للنظر أن هذا القسم الاقطاعى بين السيد والفصل كان يتم صياغته فى مصطلحات اقطاعية حيث كان رئيس القرية ومجلس أعيانها يقسمون على سيف مسلول وفقا لعادتهم وكان الترجمان يترجم هذا القسم الذى يتضمن تقديم الولاء والتبعية الاقطاعية للسيد الاقطاعى الصليبى، الذى يتسلم منهم هذا القسم له ولأخوته من أفراد وأعضاء هيئة الاسبتارية.

وفى حين كان رئيس القرية يظهر باستمرار ويذكر فى الوثائق الصليبية وفى الكتب القانونية ، فإنه فى بعض الحالات نجد موظفين آخرين يؤدون نفس المهام التى كاد يؤديها رئيس القرية . وقام فرسان هيئة التيوتون بتعيين بايل Abaillus من أجل حماية حقوقهم فى قرية عربة الواقعة فى اقليم الجليل. وثمة وثيقة رسمية تؤكد أن وظيفة «البايل» قد وجدت ضمن الوظائف فى الجهاز الادارى لأسقفية الناصرة (وعلى الرغم من أنه فى هذه الحالة قد ذكرت فقرة بايل صفورية nostne bai de Saphorie وربما تكون هذه القراءة خاطئة لعبارة رئيس صفورية). وكان بعض هؤلاء الموظفين يحملون أسماءً شرقية مثل يوحنا سمس (شمس) وابنه بطرس (بيتر Peter) الذين التحقوا بالجهاز الادارى للأسقفية فى الناصرة. ومن المحتمل أن هؤلاء الموظفين كانوا من مواطنى الناصرة المحليين، بيد أن بعض القرى التابعة للبنادقة بالقرب من مدينة صور كان يرأسها هذا النوع من الموظفين المشرفين فى حين كانت بعض القرى الأخرى يرأسها رئيس القرية.

وثمة اثنان من الموظفين الآخرين كانا يقومان بالاشراف على الضياع القروية، أحدهما الترجمان والثانى كاتب القرية. ومن الواضح أن مهام وظيفة الترجمان ومهام كاتب القرية كانت بسيطة جداً مثل ألقابهم الأصلية . ومن المحتمل أن الترجمان بدأ وظيفته كمترجم بين السكان العرب الوطنيين الذين يتحدثون اللغة العربية وبين السيد الاقطاعى الأعلى الصليبى. وأصبحت وظيفة الترجمان ذات أهمية حكومية تدر على صاحبها دخلاً مرتفعًا . وقد عرفنا أن مستحقات الترجمان فى ثلاث من القرى التابعة للاسبتارية فى اقليم الجليل كانت على النحو التالى:

يلتزم كل فلاح من فلاحى هذه القرى أن يدفع للترجمان مكيالاً واحداً (مقداره مود= ١٩٠ لترا) من القمح ومكيالا من الشعير عن كل كاريوكا * من الأرض الزراعية التى يمتلكها كل فلاح، بالإضافة إلى أن الترجمان كان يتلقى نسبة من المحصول العادى من كل من السيد الاقطاعى والفلاحين على السواء وذلك بواقع حفنين من القمح من الشعير (manipuli) بالإضافة إلى أنه كان يفرض على الفلاحين فى القرية توفير الطعام اللازم للترجمان وكذلك العلف اللازم لراحلته، بالإضافة إلى أن الترجمان كان يحصل على نسبة ٦٪ من الانتاج المحصولى الموسمى المخصص لكل من السيد الاقطاعى والفلاحين . وتجدر الاشارة إلى أن وظيفة الترجمان كانت تباع مثل أية اقطاعية وذلك فى المحكمة العليا لقاء مبلغ يقدر بـ ٢٥٠ بيزنت . ونحن لسنا بصدد تقييم الاختلاف بين وظيفتى الكاتب والترجمان، فقد تطورت هاتان الوظيفتان بسبب المتطلبات العملية التى كانت تحتاج إليها الادارة الصليبية وأيضا بسبب عملية متأصلة فى النظام الاقطاعى وهى العملية التى وصلت ببطء إلى وضع الأوقاف الكنسية أو الاقطاعات وملاكها من الأفصال الذين لم ينتموا إلى طبقة النبلاء . وثمة شك حول وجهة النظر التى ترى أن الترجمان الصليبى والتى أصبحت وظيفته وراثية ظل يؤدى مهمته كمترجم بين السكان الوطنيين المحليين وبين السيد الاقطاعى الصليبى، وكان المسيحى الشامى الذى يعرف اللغة الفرنسية والذى اكتسبها فى مدينة من المدن يناسب القيام بمهمة الترجمة، وكان هذا المسيحى يعمل ترجمانا للقرية .

وعندما يأتى وقت الحصاد وجنى المحصول كانت أجران القرية تعج بالحركة والنشاط كما كانت أجران القرية تشهد مساومة مستمرة بين الفلاحين وبين محصلى الضرائب الزراعية الحكوميين الصليبيين ، إذ كان وكيل الأمير الاقطاعى الصليبى يراقب عملية درس المحصول من الغلال والحنطة لكى يحصل على الحصة المقررة للسيد الاقطاعى من هذا الانتاج المحصولى. وفى الغالب كانت عملية تقدير الضرائب الزراعية العينية عملية معقدة من الناحية الواقعية ، فلم تكن القرى بأكملها ملكا لسيد اقطاعى واحد، بل كانت هذه القرى مقسمة بين اثنين أو أكثر من الاقطاعات . ولايمكن تخيل أى نوع من الحدود بين هذه الاقطاعات . ويبدو أن تقسيم الممتلكات الاقطاعية كان يقترن باثنين من الاجراءات. ونشأ أحد هذين الاجراءين

---

* الكاريوكا : عبارة عن قطعة صغيرة من الأرض ، يمكن لزوج من الثيران حراثتها فى يوم واحد، واستخدمت هذه الوحدة للمساحة الزراعية خلال الفترة الصليبية (المترجم) .

من الوضع القانونى للفلاح . إذ كان على الفلاح وأسرته أن يتعهدوا بمنح السيد الاقطاعى حقوقه من الضرائب الزراعية العينية، بمعنى أن السيد الاقطاعى كان يحصل من هذه الأسرة على الخدمات والمبالغ المستحقة عليهم. وفى حالات أخرى لم توجد مثل هذه الواجبات المالية المحددة. فإذا حدث وقسمت القرية بين ثلاث اقطاعات فإنه فى وقت الحصاد والجنى يطلب كل صاحب اقطاعه نصيبه وحصته المقررة من المحصول ، وعندئذ يتم تقدير الضرائب الزراعية المستحقة على كل اقطاعه وذلك فى جرن القرية، ثم بعد ذلك يتسلم ممثلو السادة الاقطاعيين الصليبيين الحصص المقررة لسادتهم ، ومثل هذا يحثنا على الافتراض بأن تقدير الضرائب الزراعية على كل المحصول هو خير برهان على عدم وجود أملاك خاصة فى القرية، كما يؤكد أيضًا وجود الملكية المشتركة وهو النمط الذى وجد فى فلسطين منذ فترة متأخرة وهو النمط الذى كان يعرف بأرض المشاع، وثمة أشكال مشابهة لهذا النمط من الأملاك المشتركة وجدت فى مكان آخر (والتى كانت تعرف باسم زادراجا Zadruga ذات الأصل السلافى). وهكذا فإنه يجب فهم هذه الحقيقة . وكانت توجد قرى مشتركة ، بيد أن المنطقة الزراعية كانت ملكية خالصة للعائلات التى تعمل فى الزراعة. وكانت عملية تحصيل الضرائب يتبعها على الفور عملية الدفع والوفاء من جانب الفلاحين للمبالغ المالية المقررة عليهم. وكان رئيس القرية يقوم بمهمة تحصيل هذه المستحقات المالية المفروضة على الفلاحين، فهو الذى يحدد نسبة الضرائب وفقا لمساحة الأرض الزراعية وحجم المحصول الذى ينتجه الفلاح ، وعندئذ كان ممثلو السادة الاقطاعيين يعملون بجد من أجل تحصيل نسبة الحصص المستحقة لسادتهم .

ومما يذكر أن الأراضى الزراعية فى القرية كانت تقاس بوحدة قياس زراعية تعرف باسم الكاريوكا باللغة اللاتينية وكانت تعرف بـ Charrues فى اللغة الفرنسية . فقد كانت وحدة مساحة الأرض الزراعية فى أوربا العصور الوسطى تقاس بمساحة الأرض التى تفلح بواسطة محراث ذى عجلات فى فصل زراعى واحد. ويقينا أن المصطلحات الأوربية الخاصة بمساحة الأرض الزراعية لايمكن تطبيقها فى الأراضى الفلسطينية نظرا لاختلاف الظروف والأوضاع بين المنطقتين . فقد كان المحراث الفلسطينى فى العصور الوسطى يشبه المحراث يتركب من اطار خشبى، ومقبضين ، ونصل حديدية ، وكان هذا المحراث يقلب الأرض بمشقة وصعوبة . إذ كان الغرض الرئيسى من عمل المحراث هو شق القشرة الأرضية العلوية وإعداد التربة لبذر البذور . لقد كان هذا المحراث يناسب التربة الخفيفة ويتواءم للمحافظة على رطوبة هذه التربة بصعوبة .

وقد ذكر متى الباريسى فى مؤلفه التاريخى الذى دونه فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أن هذا المحراث كان يجره ثور واحد وقد صوره هذا المؤرخ على خريطة وضعها لمدينة عكا. ومع ذلك فقد حافظت الروح الاستعمارية الصليبية على الكاريوكا كوحدة لقياس مساحة الأراضى الزراعية فى فلسطين وبلاد الشام وهى الروح التى فرضت أفكارها على مختلف الحقائق تماما.

وبالإضافة إلى الكاريوكا كوحدة قياس مساحة الأراضى الزراعية كانت توجد وحدات أخرى لقياس الأراضى الزراعية، فكان يوجد المحراث aratrum وكانت هذه الوحدة تعادل مساحة الأرض الزراعية التى يحرثها محراث واحد أو مساحة الأرض التى يكفى لفلاحتها محراثان. ولم تختلف هذه الفكرة بشكل أساسى عن الكاروكا Carruca، وذلك لأن المحراث فى منطقة الشرق العربى الإسلامى كان يوصف بدقة بأنه الأرض المحروثة aratrum وكان هذا نوعًا من المحاريث استخدمت فى العصور القديمة. وكان ثمة نظام لقياس الأراضى الزراعة يتعلق بالدواب التى تستخدم فى انجاز الأعمال الزراعية ، مثل «الأرض التى يعمل فى فلاحتها اثنان من الشيران فى يوم واحد ». وفى امارة طرابلس الصليبية كانت توجد وحدات أوربية لقياس مساحة الأرض الزراعية ، مثل البار بلليانا Parilliata ذات الأصل البرفنسالى أو القطالونى* . وكانت توجد فى امارة طرابلس أيضا وحدة لقياس مساحة الأرض الزراعية تعرف باسم كابالاريا Caballaria ، وهو اسم مغلوط آخر (حيث لم يرد ذكره فى النظام الاقطاعى النورمانى فى جزيرة صقلية) وفد من وحدة قياس للأراضى الزراعية تسمى الكاريوكا البيزنطية Greek Carruca. وأخيرا كانت الأرض الزراعية تقاس وفقا لكمية الحبوب اللازمة لزراعتها وبذرها . وكان مثل هذه الاجراء عمليا وذلك لأنه كان يأخذ فى الاعتبار مدى ظروف التربة المحلية للأرض الزراعية ومدى خصوبتها .

ومما يذكر أن المعنى المعتاد والسائد لأرض المحراث كان عبارة عن وحدة الأرض المحروثة والتى كانت تعادل حجم الأرض التى تمتلكها أسرة واحدة من أسر الفلاحين . وهذا يعنى مساحة الأرض التى تكفى لاعالة أسرة واحدة وتزرعها أسرة واحدة أيضا. وهكذا فإن فكرة وحدة الكاريوكا كانت تعادل وحدة القياس الأوربية التى ظلت تعرف باسم مانسو Mansus. والحقيقة أن الوثيقة الصليبية قد ذكرت أن الكاريوكا قد عرفها الصليبيون باسم ماسوس massus .

---

* الباريلياتا : وهو مقياس يشبه الفدان ، استخدم لقياس الأرض الصالحة للزراعة وكثر هذا المقياس فى المنطقة المجاورة لطرابلس . (المترجم) .

كان المحراث Charruê عبارة عن وحدة قياس للأراضى الزراعية وكانت هذه الوحدة تتفق والاحتياجات الحقيقية لحياة الفلاح. وكان حجم الأرض الزراعية الذى يكفى لاعاشة الفلاح وأسرته يختلف من منطقة إلى أخرى وفقا لدرجة خصوبة تربتها وحجم انتاجها ، وهكذا فإن مساحة الفدان العربى من الأرض الزراعية المستوية كانت تزيد عن ضعف مساحة الفدان من الأرض الزراعية فى المناطق الجبلية فى منطقة بيت المقدس. بيد أن الضرورات الادارية قدفرضت ابتكار نوع من وحدة قياس زراعية رسمية حكومية للملكة الصليبية ألا وهى الكاريوكا ، وقد حفظت هذه الوحدة فى سجلات المساحة وتحددت بشكل قاطع من أجل الأغراض الضرائبية وذلك فى التشريعات والقوانين الادارية الصليبية. كانت الكاريوكا عبارة عن مساحة من الأرض طولها ٢٤ كرد وعرضها ١٦ كرد، والكرد يعادل ١٧ مرة قدر طول الرجل أى ١٠٢ قدمًا . وهكذا فإنه إذ قدرنا أن ٦ أقدام رومانية تعادل طول الرجل، فإننا نستطيع أن تحسب مساحة الكاريوكا ومقدارها ، ووفقا لهذه الحسابات فإن الكاريوكا كانت تعادل ٣٥ هيكتاراً. لقد كانت الكاريوكا وحدة قياس زراعية حكومية ، وقدرت الضرائب فى كل قرية على أساسها.

ومما يذكر أن السنة الزراعية فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام كانت تبدأ قبل فصل سقوط المطر، ولسوء الحظ كان الموسم الزراعى يبدأ فى الأراضى المقدسة فى منتصف شهر نوفمبر . وكانت المحاصيل الشتوية هى المحاصيل الرئيسة . وعادة كان يتم حرث كل الأرض الزراعية ، لكى يتم إعداد جزء منها لزراعة المحاصيل الشتوية ، وجزء آخر من هذه الأرض لزراعة المحاصيل الصيفية وكانت الأرض التى أعدت لزراعة المحاصيل الشتوية يبذر بها القمح والشعير. ويحتفظ بالجزء الباقى من الأرض لزراعة المحاصيل البقلية ، مثل البسلة، والعدس، والنباتات البقلية، وكان الجزء الثالث من الأرض الزراعية يعرف فى المصادر الصليبية باسم أرض الراحة، وكان هذا الجزء يظل محروثا حتى يزرع بالمحاصيل الشتوية فى العام التالى . وكانت الأرض المزروعة بالمحاصيل الشتوية تنتج محاصيل غير تقليدية فى أثناء الموسم الزراعى الجارى، ويبدإ حصاد هذه المحاصيل فى فصل الربيع قبل حصاد المحاصيل الصيفية .

فقد كانت الأرض تحرث وتترك محروثه فى فصل الخريف ثم تحرث مرة ثانية فى فصل الربيع وعندئذ كان يتم زراعتها بالمحاصيل الصيفية. وقد جاء وصف هذه الأنشطة الزراعية فى فصل الربيع كاملا فى المصادر الصليبية ذات الأصل الايطالى وعرف هذا النشاط الزراعى فى

المصادر الصليبية الايطالية باسم maggiatica أى النشاط الزراعى الذى يتم فى شهر مايو، وإذا عرفنا أن موسم النشاط الزراعى الفعلى فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام كان يتم قبل شهر مايو أى فى شهر مارس فانه يتضح لنا أن هذه التسمية التى وردت فى هذه المصادر الايطالية كانت خاطئة ، ولم تكن المحاصيل الصيفية ذات أهمية اقتصادية ، بيد أن هذه المحاصيل كانت تحتاج إلى صيانة التربة والاهتمام بها، وتنظيفها من الحشائش البرية الكثيفة . وكان نبات السمسم من المحاصيل المهمة، وكذلك البسلة الصغيرة ، ونوعين من حبة الدخن (وهما البيضاء والصفراء)، والذرة السكرية. وكانت وفرة الأراضى الزراعية تجعل من الممكن زراعة مساحة واسعة من هذه الأرض بأقل جهد، وذلك عن طريق ترك قطع من الأرض المحروثة وهكذا كانت تزداد انتاجية الأرض . وحقيقة الأمر أن الوثائق الصليبية تذكر لنا مقدار كيل البذور الذى تحتاجه أرض مساحتها محراث يعمل بأربع عجلات وهو (مقدار ١٢ مكيال Modii) وأربع مكاييل (٤مكيال مودى Modii) من البذور لزراعة أرض مساحتها محراث بعجلة واحدة (أو لزراعة ٤ كاروكات من الأرض والتى تحرث بواسطة محراث بعجلة واحدة) . ومن الصعب تحديد مساحة الأرض الزراعية الفعلية بالنسبة للأرض المحروثة ، سواء التى تحرث بواسطة محراث واحد، أو بواسطة أكثر من محراث بعجلة واحدة أو بأربع عجلات .

وهاك دورة المحاصيل الزراعية

السنة الزراعية	الفصل	الحقل ١	الحقل ٢
	الشتاء	محاصيل شتوية	مزروعات بقلية
النصف الأول من السنة الزراعية			
	الربيع - الصيف	أرض محروثة	أرض محروثة - محاصيل صيفية
	الشتاء	مزروعات بقلية	محاصيل شتوية
النصف الثانى من السنة الزراعية			
	الربيع - الصيف	أرض محروثة محاصيل صيفية	أرض محروثة

ومما يذكر أن انتاجية الأرض لم تكن وفيرة . فالهكتار من الأرض الزراعية الذى يستخدم فى زراعته كمية من بذور القمح قيمتها ٣٣ كجم أو كمية من الشعير قيمتها ٢٦ كجم من التقاوى كان يعطى محصولا وقت الحصاد خمسة أو سبعة أمثال وزن هذه التقاوى التى استخدمت فى الزراعة من القمح وعشرة أمثال أو ثلاثة عشر قدر وزن التقاوى من الشعير. أى أن انتاجية الهكتار من القمح كانت تقدر بحوالى ١٥٠ كجم من القمح و ٢٠٠ كجم من الشعير.

والحقيقة التى تقول أن الأسرة فى القرية كانت تمتلك أرضا زراعية مساحتها واحد ونصف كاريوكا أو كاروكتين ، تشير إلى مشكلة رئيسة من مشاكل الاقتصاد الفلسطينى : فلم يكن هناك نقص فى الأرض الزراعية ، ولكن النقص الحقيقى كان يكمن فى الأيدى العاملة الزراعية. وتشير لنا الكثافة السكانية المنخفضة إلى سمة أخرى من سمات الاستيطان الصليبى الزراعى: فالعدد الكبير من المناطق الزراعية التى ذكرت فى المصادر التاريخية كانت عبارة عن كفور ونجوع صغيرة وليست قرى. وتشير مئات الوثائق التاريخية التى تحت أيدينا إلى نمط محدد من أنماط المناطق الزراعية فى فلسطين وبلاد الشام خلال حقبة السيادة الصليبية. فقد كانت قرية محاطة تقريبا بعدد من النجوع والكفور- فقد كانت هذه النجوع تحمل اسماءً صحيحة معروفة وكانت تنتج نوعًا معينا من المحاصيل الزراعية، وكانت هذه النجوع والكفور غير المأهولة بالسكان تذكر دائما فى الوثائق على أنها ضمن توابع القرية مثل أراضى المراعى التابعة للقرية، أو الآبار أو البساتين التابعة للقرية . وكانت مثل هذه المنطقة غير المأهولة بالسكان (النجع) gastina والتى عرفت عند الصليبيين بهذا الاسم gastina معروفة فى الغرب الأوربى، وكانت تعرف هناك باسم المنطقة غير المأهولة بالسكان . وقد عرفت مثل هذه المناطق فى اللغة العربية باسم الخرابة (أو الأرض مهجورة) . ويدل العدد الكبير لهذه المناطق الخالية من السكان على ظاهرة الريف المعزول فى هذا القطر الفلسطينى ، وذلك بالمقارنة بالفترات التاريخية السابقة التى ازدهرت فيها هذه المناطق الريفية . وكانت هذه المناطق الريفية تستخدم كأراض للمراعى بيد أنها كانت تستخدم فى الزراعة المؤقتة وعندئذ كانت تترك محروثة . وكان الوضع القانونى لهذه المناطق الريفية تشبه أرض المشاع التى كانت معروفة فى أوربا من حيث الاستخدام الجماعى لأراضى هذه المناطق من جانب مجتمع القرية.

ومن المرجح أن الوضع الاقتصادى للمناطق الريفية الفلسطينية خلال حقبة السيادة الصليبية كان أفضل حالاً من الوضع الاقتصادى للمناطق الريفية الأوربية المعاصرة ، وأفضل حالاً أيضًا

من مثيلاتها فى الأقطار الإسلامية المجاورة لها فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. وتعليقا على ما سبق ، يذكر لنا الرحالة المسلم ابن جبير الذى أتى إلى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين من بلاد الأندلس فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى أن الفلاحين المسلمين الذين خضعوا للسيادة الصليبية كانوا يدفعون ضرائب أقل من نظرائهم الفلاحين الذين عاشوا فى المناطق التى خضعت للسيادة الإسلامية فى بلاد الشام. ويذكر أن السلطات الصليبية لم تتدخل فى شئون القرية بعد أن يدفع أهلها كل ما عليهم من التزامات وضرائب.

والواقع أن عدم وجود السخرة The Corvee فى المناطق الريفية الصليبية فى بلاد الشام جعل وضع الفلاحين الشوام أسعد حالاً من نظرائهم فى الممالك الغربية الأوربية المعاصرة ، ولم يستطع الصليبيون تطبيق نظام اقتصاد الضيعة فى فلسطين وبلاد الشام لاخفاقهم فى خلق نظام سياسى ومعيشى أفضل من ذلك النظام الذى كان موجوداً فى هذه المناطق الخصبة . فلم تعرف المملكة الصليبية فى بيت المقدس نظام تقسيم الأرض الاقطاعية بين السيد الاقطاعى وبين مستأجريه من الفلاحين ، حيث كان السيد الاقطاعى هو الذى يستغل أملاكه فى منطقة نفوذه حيث كان يعمل فى فلاحتها مجموعة من الأقنان الموجودين فى الضيعة الاقطاعية بشكل الزامى، ولم يحتفظ السيد الاقطاعى الصليبى بأرض يستغلها لنفسه بشكل مباشر إذ كان فلاحو القرية يقومون بحراثة كل أراضى القرية . ومن ثم لم تكن هناك حاجة وضرورة لاجبار الفلاحين فى العمل فى زراعة الأراضى الخاصة بممتلكات السيد الاقطاعى ، وهكذا كانت السخرة شكلا مقيتًا من أشكال نظام اقتصاد الضيعة ، وهى السخرة التى قلما كان يطبقها السادة الاقطاعيون الصليبيون . فلم يفرض على الفلاح فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام حق تأدية التزام السخرة الأسبوعية وهو القيام بالعمل فى أرض السيد الاقطاعى ثلاثة أيام فى الأسبوع ، أو تأدية هذه الأعمال الزراعية فى أراضى السيد الاقطاعى فى أثناء ذروة المواسم الزراعية (البذر- الحرث- الحصاد) .

وقد ذكرت السخرة The Corvee هنا وهناك ، بيد أن استخدامها وتطبيقها من جانب الحكام الصليبيين كان نادراً جداً وكانت هذه السخرة تتمثل فى القيام بأعمال فعلية فى الحقول. فإذا حدث وطبقها السيد الاقطاعى فإنه كان يستخدمها بطريقة مفيدة إلى حد ما، ولاسيما فى حالة زراعة قصب السكر ، وفى بساتين الزيتون، وفى بعض الحالات كانت هذه الخدمات الزراعية تؤدى نقداً بيد أن البديل النقدى الضئيل لهذه الخدمة التى تشمل السخرة كان يدل على عدم أهميتها .

كانت المبالغ الرئيسة المستحقة على الأملاك الزراعية تعرف باسم ضريبة الأرض الزراعية Terraticum ، وكانت هذه الضريبة فى الأصل تدفع عينًا وقت الحصاد والجنى أى فى نهاية السنة الزراعية والموسم الزراعى. وتشير المصادر الصليبية إلى هذه الضريبة الزراعية Terrat-icum التى كان تفرض على فلاحى القرى. وكانت هذه الضريبة تشبه ضريبة الخراج التى فرضها المسلمون منذ فترة باكرة من ظهور الإسلام على أهل الذمة من اليهود والنصارى ثم فرضت هذه الضريبة بعد ذلك على ملاك الأراضى الزراعية سواء كانوا من أهل الذمة أو من المسلمين على السواء. ونقرأ فى احدى الوثائق التاريخية الصليبية أن العشور الكنسية كانت تدفع من ضريبة الخراج التى يدفعها الفلاحون.

ومما يذكر أن الضريبة الزراعية التى كان يدفعها الفلاحون فى القرى للسلطات الصليبية كانت تقدر بثلث قيمة المحصول المنتج . ولم تكن هذه الضريبة ثقيلة الوطأة إذا ما قورنت بالضرائب الزراعية التى فرضت على الفلاحين فى الغرب الأوربى فى نفس الحقبة الزمنية أو حتى بالمقارنة مع الضرائب الزراعية فى الوقت الحالى . بيد أن هذه الضرائب كانت تزداد وترتفع أحيانا فى صورة دفع مبالغ مالية اضافية فى شكل منح ، فمثلاً كان الملك الصليبى أماريك (عمورى) ، وفرسان التيوتون يتسلمون سنويًا كيلا من القمح وكيلاً من الشعير عن كل كاريوكا من الأرض الزراعية فى منطقة النفوذ الملكى فى القدس ونابلس . وبالإضافة إلى الضريبة الزراعية السابقة ، كانت هناك ضرائب تفرض على فلاحى القرى مثل ضريبة الأتاوة أو الجبـايـة exenia أو Xenia وكان هذا الاسم مصطلحا بيزنطيا كريها وبغيضًا . وهذا المصطلح يعنى فى الأصل الهدايا والهبات. بيد أن هذا النوع من الالتزامات المالية كان يدفع بمناسبة الأعياد الدينية أو فى مناسبات تتعلق بالتقويم الزراعى . وبالرغم من أن هذه الالتزامات المالية كانت تدفع فى مناسبات محددة أى بشكل مؤقت ، فإنها كانت تمثل مورداً ماليا ثابتا ولذا فإن رجال الدين ادعوا أحقيتهم فى هذه الالتزامات فقد أقر الملك الصليبى بلدوين الرابع لوليام الصورى رئيس أساقفة كنيسة مدينة صور منحة عشر ضريبة الهبات والجباية هذه التى كانت تحصل من سيد تورون (بتنين) الاقطاعى وذلك فى خلال أعياد الميلاد، وفى أيام المرافع Shrovetide (الأيام الثلاثة السابقة لأربعاء الرماد) وقبل يوم الصوم الكبير) وفى عيد الفصح Ester، وكانت هذه الهبات عبارة عن دجاج Fowe وبيض، وجبن ، وخشب . ومرة ثانية وجدنا عدداً من الهبات والاتاوات فرضها فرسان التيوتون وكانت عبارة

عن دجاج ، وبيض ، وجبن . وذكرت احدى الوثائق التاريخية البندقية هذه الهبات الجباية بأنها «التزامات وضرائب شخصية بيد أنها كانت تدفع عن كل كاريوكا من الأرض الزراعية ، فقد فرضت على كل كاريوكا دجاجة ، وعشر بيضات ، ونصف رطل من الجبن و١٢ بيزنت لشراء حمولة من الخشب.

وبالإضافة إلى الضرائب التى كانت تفرض على الأراضى الزراعية كانت توجد ضرائب خاصة تفرض على أشجار الفاكهة ، وضرائب أخرى تفرض على أشجار الزيتون، وقدرت هذه الضريبة بثلث حجم عصير الزيتون المستخرج . وعلى أى حال ، فإن السادة الصليبيين قد فرضو ضريبة السخرة على الفلاحين فى بساتين الزيتون القريبة من مدينة صور، والتى كانت تحتوى على أكثر من ألفى شجرة ، وكذلك فى مزارع قصب السكر. ونظراً لعدم وجود منطقة نفوذ تخضع لنظام الضيعة الاقطاعية ، فإن فلاحى هذه المناطق كانوا يخضعون للعمل الاجبارى، وتركز هذا العمل الاجبارى فى هذه المزارع .

ومن الالتزامات المالية الأخرى المفروضة على الفلاحين تأتى ضريبة النقل Portaqium، وهو التزام مالى مقابل نقل الحبوب إلى الشون أو مقابل استخدام أجران درس المحصول ، وضريبة على خلايا عسل النحل وضرائب على الدواب والمواشى (الأغنام - الثيران- الجاموس). وكان السادة الصليبيون يمتلكون فى مناطق أخرى الغابات أو الأراضى ذات الأشجار الخفيفة ، وعندئذ كان الفلاحون يدفعون ضريبة حق استغلال المراعى، وحق جمع الأخشاب المستخدم فى التدفئة والبناء ، ومزارع الأشجار المستخدم فى صناعة أعمدة مزارع الكروم.

ومن السمات البارزة للأراضى الزراعية وجود «الكاريوكا الحرة» أو (الكاريوكا الفرنسية)، ولم يوجد تعريف مقنع للكاريوكا الحرة. ومن الواضح أن الكاريوكا الحرة كانت منطقة زراعية معفاة من تأدية الضرائب الزراعية ولايمكن القول إن الأراضى الحرة كانت من مبتكرات التشريع الصليبى.

وعلى الرغم من توزيع قطع كبيرة من الأراضى الزراعية على الفلاحين فإن القرى الصليبية كانت صغيرة المساحة. ففى المناطق القريبة من مدينة صور، حيث وفرة الوثائق التاريخية ، كان معدل عدد الأسر يصل إلى عشرين أسرة . ومن خلال معرفة حجم الأراضى فى القرى يتبين لنا أنه ليس ثمة اختلاف كبير بين القرى فى المناطق الصليبية المختلفة . وعلى أثر وشاية ، فإن

أحد الموظفين الحكوميين البنادقة كتب إلى وطنه فى البندقية يقول : «من المعلوم أن منطقة عسقلان كانت تضم ٧٢ قرية وأن أصغر هذه القرى كانت تضم حوالى ٢٠٠ نسمة بالإضافة إلى أن القرية الأصغر كانت تضم عشرين أسرة. والعدد الثانى وهو العشرين أسرة هو الذى كان يمثل معدل عدد العائلات فى القرية. وعلاوة على ذلك ، فإننا أيضًا يمكننا التحقق من أن العائلة المحلية لم تكن كثيرة العدد. إذ كان عدد أفراد الأسرة فى القرية يتراوح ما بين ثلاثة أفراد أو أربعة أفراد، وشمل هذا العدد الأطفال الذين يعيشون مع آبائهم، وتؤكد لنا الحقائق السكانية المتاحة وجهة نظرنا بخصوص نمط الاستيطان الصليبى الريفى فى الفترة الباكرة من الوجود الصليبى، هذا النمط الذى كان يتمثل فى قلة عدد سكان القرية .

ويفسر لنا قلة عدد سكان القرى فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام ميزة مهمة من مزايا الزراعة الصليبية. وإلى جانب المحاولات العديدة الصليبية من أجل استيطان المناطق الريفية عن طريق استقرار الفلاحين الصليبيين بها حاول السادة الصليبيون من علمانيين ورجل دين كنسيين توسيع أملاكهم من الأراض الزراعية وذلك عن طريق استخدام العمالة الزراعية الفرنجية أو المحلية. وهذا يلقى الضوء على الموضوع المتعلق بدفع أو عدم دفع ضريبة العشور الكنسية . وبشكل عام فإن جميع السكان الصليبيين كانوا يدفعون ضريبة العشور الكنسية، ولم يدفعها السكان المحليون من غير المسيحيين. وكان السيد الاقطاعى يدفع ضريبة العشور الكنسية من موارده ودخله، وفى وقت مبكر من عام ١١٢٠م، عقد مجمع كنسى فى مدينة نابلس حضره الملك الصليبى بلدوين الثانى، وأصدر هذا المجمع قراراً يلزم كل سكان المملكة الصليبية بدفع ضريبة العشور الكنسية. وقد أعفى من ضريبة العشور الهيئات الدينية العسكرية التى كانت تمتلك أراض زراعية منذ فترة قريبة، كما أعفى من هذه الضريبة أيضًا أراضى المنشآت الكنسية، وبسبب هذه الاعفاءات الخاصة نشبت نزاعات بين رجال الدين الكنسيين وبين الهيئات والمؤسسات التى تمتعت بهذه الامتيازات ، ولذا كان من السوء الشديد أن تمتلك الهيئات الدينية العسكرية (الاسبتارية - الداوية- التيوتون) أرضا اقطاعية مستحق عليها ضريبة العشور الكنسية فى المناطق الصليبية ، وكان الأمر يزداد سوءاً عندما تستغل هذه الهيئات الدينية العسكرية هذه الأراضى الزراعية التى بحوزتها لصالحها . فإذا حدث وأن قامت هذه الهيئات الدينية العسكرية بتأجير أراضيها للفلاحين مقابل الحصول على حصة من المحصول ، فإنه فى هذه الحالة تفرض على هذه الهيئات الدينية العسكرية ضريبة العشور

الكنسية، وفى حالة استغلال الهيئة الدينية العسكرية لأراضيها الزراعية استغلالاً مباشرا فإن الأمر يختلف فى هذه الحالة ويصبح من حقها رفض دفع ضريبة العشور الكنسية. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو إلى أى مدى تستطيع الهيئات الدينية العسكرية، والمنشآت الكنسية أن تحصل على خدمة العمل الاجبارى فى أراضيها التى تستغلها استغلالاً مباشرا ؟ لقد كان الشيء الممكن فى هذا المجال هو الحصول على هذه الخدمة من الأفراد من غير أعضاء هذه الهيئات الدينية العسكرية ومن غير أعضاء المؤسسات الدينية الكنسية . فقد أقرت بعض النظم والقوانين امكانية استخدام الأخوة العلمانيين فى استصلاح الأراضى الزراعية ، بيد أن الاجراء العادى كان يتمثل فى استخدام وتطبيق التنظيم الاقطاعى الأوربى. وهذا يعنى أن الأداة الاستعمارية الصليبية سوف تعد وتهيىء رأس المال (الأرض- التقاوى- النباتات- أدوات الزراعة) ويقوم الفلاحون بالأعمال الزراعية فى هذه الأراض، وكانت المحاصيل تقسم وفقا للنسب الآتية (الثلث والثلثين) الثلث للفلاحين والثلثين للسيد الاقطاعى صاحب الأرض. . وقد شعرت الكنيسة بأن هذه القسمة غير عادلة وأعلنت أن من حقها ضريبة العشور الكنسية مهما كانت أشخاص متملكى وحائزي الأراضى الزراعية وأشخاص المستوطنين واعتبرت الكنيسة أيضا أن عدم دفع ضريبة العشور الكنسية المستحقة لها من قبيل انتهاك امتيازاتها . ولكى نقدم صورة واضحة يجب علينا أن نتتبع النزاع الذى نشب بين أسقف عكا وبين هيئة فرسان التيوتون ، فقد ادعى أسقف عكا أن مقدم هيئة فرسان التيوتون وأعضاء هذه الهيئة الدينية يجب عليهم أن يفرضوا ضريبة العشور الكنسية على فلاحيهم الذين تسلموا الأراضى الزراعية فى أسقفية عكا ويلزموهم بدفعها كاملة غير منقوصة للكنيسة . وأن يدفع هؤلاء الفلاحون حصة من الفواكه التى ينتجونها وأن يحتفظوا لأنفسهم بجزء من هذا الانتاج لقاء عملهم أو لأى سبب آخر.

ومن ناحية أخرى فإن هيئة فرسان الداوية لم ترفض هذا المطلب فقط بل طالبت أن يعاد اليها مبلغ ضخم من المال يقدر بـ ٢٤,٠٠٠ بيزنت . «فقد قال أعضاء هيئة فرسان التيوتون أنه بالنسبة لضريبة العشور الكنسية فإننا دفعنا لكنيسة عكا المزيد من الأموال ، وإننا لم نستثنى من دفع هذه ضريبة تلك الأراضى التى نستغلها بمجهودنا الشخصى وعلى نفقتنا الخاصة، وكذلك الأراضى الجديدة (التى طالبنا بملكيتها من جديد) ، وقدمنا العلف للماشية ودفعنا ضريبة نقدية عن بساتين الفاكهة وأشياء أخرى».

وتوصل الطرفان بعد طول خصام وشجار إلى حل مؤداه أن تلتزم هيئة فرسان التيوتون بدفع $\frac{١}{١٥}$ من قيمة العشور الكنسية عن كل الأراضى الزراعية التى بحوزتها سواء كانت هذه الأراضى يستغلها أعضاء هيئة فرسان التيوتون بشكل مباشر وعلى نفقتهم الخاصة أو كانت تستغل بواسطة فلاحين آخرين.

وهذه الحالة فى حد ذاتها (وكان يوجد حالات كثيرة من هذا النمط) تثبت أن قيام الفلاحين بتأدية الأعمال الزراعية أو بزراعة الأرض لحساب صاحبها مقابل حصته من غلال هذه الأرض كان يعزز موقف الفلاحين من حيث المطالبة بملكية الأرض خاصة فى زراعة بساتين الكروم المربحة.

ومما يذكر أن الحقيقة التى توصلنا إليها لم تمكننا من تقييم وتقدير دخل أسرة الفلاح. بيد أنه يمكننا التوصل إلى فكرة تتعلق بتقدير موارد الزراعة. فقد يتبين من خلال حالات كثيرة أن معدل دخل القرية من الانتاج الزراعى تتراوح ما بين ٣٠٠٠-٥٠٠٠ بيزنت . ومن الطبعى أن موارد ودخل هذه القرى كانت أعلى من ذلك إما بسبب حجمها أو بسبب قربها من المراكز الحضرية . وثمة قرية كانت تتباهى باسمها الرومانتيكى وهى قرية الدامور التى بيعت مقابل مبلغ ١٢,٠٠٠ بيزنت كما بيعت قرية كفر قانا الشهيرة (قانا الجليل لقاء مبلغ) ٢٤,٠٠٠ بيزنت) ، وكان معدل دخل القرية السنوى يقدر بـ ٥٠٠ بيزنت . والواضح أن دخل اقطاع الفارس كان يقدر بـ ٥٠٠ بيزنت ، وهى الاقطاعية التى تستحق عليها تقديم خدمة عسكرية قدرها فارس واحد. ومن ناحية أخرى ، فإن هذا يوضح لنا القيمة النسبية للاستثمار فى مجال الزراعة . وكان عائد هذا الاستثمار يتراوح ما بين ١٠-١٢ ٪ ، وكان عائد هذه الاستثمار أقل من عائد الاستثمار فى مجال التجارة.

ومن خلال هذه المعلومات التى عرفناها عن الزراعة والتنظيم الريفى الصليبى فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس يمكننا التوصل إلى استنتاجات كثيرة بخصوص الظروف والأوضاع الاقتصادية التى كانت تميز عصر السيادة الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام. ولاشك أن فلسطين وبلاد الشام كانت أقل ازدهاراً اقتصاديًا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد إذا ما قورن بعصر السيادة البيزنطية لهذه المناطق. وخلال فترة السيادة العربية التى كانت فاصلة بين عصر السيادة البيزنطية وعصر السيادة الصليبية والتى استمرت ما يقرب من أربعة قرون شهدت هذه المناطق انهياراً حاداً فى عدد القرى الصغيرة الأمر الذى أدى إلى تركز

النشاط العمرانى فى مناطق أكثر خصوبة فى هذا القطر. وعلى أى حال ، فإن هذا التدهور فى عدد القرى الصغيرة لم يكن حاداً بالصورة والشكل الذى أشارت إليه المصادر التاريخية لفترة السيادة العربية. فنجد أن مئات القرى التى كانت غير مسجلة فى الدفاتر خلال فترة السيادة العربية قد سجلت ودونت فى سجلات خلال فترة السيادة الصليبية. ومن الصعب بمكان التسليم بأن جميع هذه القرى كانت ذات نشأة جديدة، وكذلك يمكن الافتراض بأن هذه القرى العربية كانت موجودة باستمرار منذ العصر الرومانى والعصر البيزنطى: وعندما نقارن بين أسماء هذه القرى الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين بمثيلتها التى كانت موجودة فى هذه المقاطعة خلال فترة السيادة المملوكية يتبين لنا أنه ليس ثمة أية اختلافات واضحة ، وكان التغير الذى يميز المدن عن القرى يتمثل فى الحجم والمكانة إذ كانت المدينة أكبر حجما من القرية وأكثر أهمية اقتصادية . فقد كانت مدن بلاد الشام وفلسطين محصنة ، وقد قام المسلمون مراراً بتدمير حصون هذه المدن وتجريدها من وسائل الدفاع فى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى ، وذلك لحرمان الصليبيين من غزوها ثانية . ولم يؤثر تدمير حصون المدن فى النمط القروى والريفى لهذه المناطق . ويمكننا الظن فقط بأن الانكماش فى الانتاج الزراعى فى القرية يرجع إلى قلة عدد الأسواق الحضرية ، وأصبح الريف فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين يخضع لحكم الفرد. وعلى الرغم من أن الوضع السكانى الريفى قد تأثر بشكل ملحوظ فى الفترة المملوكية ، فإن هذا الوضع الديموجرافى قد تردى بشكل ملحوظ أيضا خلال عصر السيادة العثمانية الذى استمر ما يقرب من أربعة قرون .

وعندما تحدد النمط العام للمناطق الريفية ، اكتشفنا تغييرات واضحة فى النمط السكانى لهذه المناطق . ومن الواضح أن كل المناطق الريفية غير المأهولة بالسكان قد وجدت تقريبًا فى كل قرية هجرها سكانها . ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال الحجم الكبير من الأرض الزراعية التى كانت تمتلكها وتحوزها الأسرة الواحدة فى القرية. وربما لعب الغزو الصليبى دوراً مهمًا فى حرمان الريف من سكانه ، فقد عرفنا أن عدداً من اللاجئين المسلمين قد غادروا فلسطين ليستقروا فى مصر وبلاد الشام . ومن الصعب التيقن من أن هؤلاء اللاجئين كانوا نازحين من القرى أو من المدن المحتلة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار التأثير الصليبى، فإن المرء لايستطيع أن يعزو مثل هذه التغييرات الكبيرة كلية للغزو الصليبى وذلك لأن فترة الغزو الصليبى كانت قصيرة نسبيًا ، إذ كان فى اجمالها عشر سنوات تقريبًا. وبالإضافة إلى ذلك ،

فإن الغزاة الصليبيين كان من مصلحتهم الاحتفاظ بالقرى وسكانها من الفلاحين ، حيث أن الوجود الصليبى كان يعتمد على وجود هذه القوة العاملة فى مجال الانتاج الزراعى من الفلاحين فى هذه القرى، وهكذا يمكن أن تعتبر أن مثل هذه التغييرات فى النمط السكانى (الديموجرافى) قد أخذت تتشكل خطوطها بشكل بطىء خلال مدة طويلة تسبق زمنيًا السيادة الصليبية فى المناطق العربية.

ومما يذكر أن الصليبيين لم يستقروا فى المناطق الريفية إذ كانت محاولات الاستعمار والاستيطان الصليبى تتضمن أساليبًا جديدة ومتطورة ، بيد أن نطاق مجال هذا الاستيطان وهذا التطور كان ضيقا وصغيرا ويجب أن تعتبر أن مثل هذا التطور كان هو الاستثناء وليس القاعدة . ومن المؤكد أن الجهد الاستعمارى الصليبى لم يستطع أن يغير البنية العرقية (الاثنية) لسكان الريف من الفلاحين إذ كان الفلاح الصليبى والسيد الاقطاعى الصليبى بعيدين عن الصورة الريفية والقروية بسبب اقامتهم فى المدن أو فى قلاع معزولة. فقد كانت المدن هى المكان المفضل لاقامتهما ، وأيضا القلعة المحلية التى كانت مكانا استثنائيا لاقامتهما. وقد نوقشت أسباب ذلك آنفا *. وهذه الحقيقة فى حد ذاتها الخاصة والممثلة فى اقامة الصليبيين فى المدن أو فى القلاع المحلية كانت لها نتائجها غير المباشرة على المجتمع الصليبى على الصعيدين الاقتصادى والاجتماعى.

فقد أقام الصليبيون فى منازل بالمدن، أو فى خارج الامارة الاقطاعية . ففى المناطق الريفية التابعة لعكا على سبيل المثال كان السيد الاقطاعى الصليبى مثالا للسيد الاقطاعى الذى يغيب عن أملاكه الريفية . إذ لم تكن هناك وشائج قوية مباشرة تربط بين السيد الاقطاعى الصليبى وبين أرضه . وكانت علاقة هذا السيد بأملاكه الريفية تتمثل فى حصوله على مورد للدخل المنتظم من عائد هذه الأرض والاستغلال المنتظم لها. ومن أجل هذا الاستغلال المنتظم للأرض الزراعية اتبع السادة الاقطاعيون القسوة فى استثمار هذه الأراضى الزراعية وهى القسوة التى جاءت متوافقة تماما مع المصطلح الألمانى Raubwirtschafte والذى يعنى القسوة وعدم الرحمة ، ويمكن أن نعزو هذه القسوة إلى شدة حرص السيد الاقطاعى الصليبى على حماية أرضه وحماية أتباعه الاقطاعيين من أجل مصلحته المستقبلية . ومن ناحية أخرى ، فإن

---

* كانت هذه الأساسية تتعلق بمسألة الأمن والطموح الاقتصادى والاجتماعى للصليبيين (المترجم) .

العلاقة التى كانت تربط بين السيد وتابعه الاقطاعى كانت ضعيفة وهشة، ومن الأمور التى ساهمت فى تخفيف حدة استغلال الأتباع الاقطاعيين من جانب سيدهم الاقطاعى هو اشتراك هؤلاء الأتباع فى المصلحة العامة والعلاقات الودية التى كانت تربط بين هؤلاء الأتباع . لقد كان السيد الاقطاعى الغائب عن أملاكه فى المناطق الريفية هو المستثمر الأول والرئيسى للأرض الزراعية ، وكان غيابه أمراً ماثلا للعيان حيث كان يقيم السيد الاقطاعى الصليبى خارج اقطاعيته لأنه كان ينتمى إلى طبقة الغزاة ، ونظر الكثير من أفراد المجتمع القروى إلى السيد الاقطاعى باعتباره ظالما ومستغلاً وهرطيقا فى وقت واحد . وعلى الرغم من أن الرحالة المسلم ابن جبير ذكر أن الفلاحين المسلمين الذين خضعوا للسيادة الصليبية كانوا أسعد حالا من حيث الأحوال الاقتصادية والمعيشة من نظرائهم الذين خضعوا للسيادة الإسلامية فإن ذلك لم يكن كافيا لاقامة علاقة ودية بين الفلاحين المسلمين وبين السيد الإقطاعى.

ويفسر لنا وضع المستأجر الاقطاعى أيضا سمة مهمة من سمات النظام الريفى الصليبى، هذه السمة التى كانت تتمثل فى غياب السيد الاقطاعى عن أملاكه الاقطاعية وأيضًا اختفاء نظام السخرة Corvee ، وكان من المفيد للسيد الاقطاعى الاشراف المباشر والمستمر لادارة أملاكه الاقطاعية . ويقول المثل السلافى أن «عين صاحب الفرس تسمنه» . وأثر غياب السيد الاقطاعى عن أملاكه سلبًا على ادارة الاقطاعية وكذلك على بنيتها التحتية ، وتجعل من الصعب عليه الاستغلال المباشر لأملاكه الاقطاعية فى منطقة نفوذه (الدومين). لقد توصل الصليبيون إلى نتيجة منطقية واستسلموا لفقد الأرباح والفوائد التى كان يمكن أن يجلبها لهم تطبيق نظام الضيعة * الاقطاعية الذى كان مطبقًا فى أوربا. فكانت حصة السيد الاقطاعى من انتاج الأرض والقرى كان يقدر بثلث المحصول وكذلك نسبته من الفاكهة والخضروات ، ومنتجات الألبان، تزيد عن حاجة أسرة هذا السيد الاقطاعى. فكانت ممتلكاته فى المدينة ومواردها المالية التجارية تمثل مورداً اضافيا لموارده التقليدية، . وكان فائض الانتاج الزراعى لكبار السادة الاقطاعيين يخزن فى مستودعات توجد فى قلعة السيد الاقطاعى، وكانت هذه الموارد الزائدة فى الغالب تستخدم كاقطاع لبعض كستأجريه

---

* نظام الضيعة : لم يكن نظام الضيعة مطبقًا فى فلسطين وبلاد الشام قبل العصر الصليبى، عى الرغم من أنه كانت هناك اتجاهات واضحة نحو هذا النظام .

وقد تسبب تطبيق التنظيم الاقطاعى فى احداث هوة عميقة فى العلاقات الزراعية، وثمة تجربة مشابهة حدثت فى انجلترا الانجلوسكسونية التى خضعت للحكم النورمانى قبل الهصر الصليبى بجيلين تقريبًا (المؤلف).

الاقطاعيين من المحاربين الفرسان وغير الفرسان. وهكذا كان استغلال الأرض على أساس غير نظام الضيعة يؤدى إلى ايجاد علاقة اقتصادية مرضية تماما بين السيد الاقطاعى وبين الفلاح المسلم. إذ كان الفلاح المسلم يضمن لنفسه مورداً للدخل يختلف من عام إلى عام وفقا لظروف الفصل والموسم الزراعى؛ وكان الفلاح المسلم أكثر حرية وأقل خضوعًا للاستغلال من نظيره الذى كان يخضع للسيادة الإسلامية. ومن المؤكد أن الفلاح المسلم كان أقل حرية من نظيره الفلاح المسيحى فى الغرب الأوربى.

لقد كانت الزراعة هى الدعامة الأساسية الاقتصادية للوجود الصليبى، وكان النظام الريفى الذى أدخله الصليبيون هو الذى حدد شخصية وشكل المجتمع الاستعمارى الصليبى. وكان الشكل النموذجى لهذا المجتمع يتمثل فى طبقة المستأجرين الاقطاعيين وغياب السادة الاقطاعيين عن أملاكهم الريفية كما كانت هناك هوة سحيقة بين طبقة الغزاة الصليبيين وبين السكان الوطنيين المقهورين.

ب- النقـــود

الواقع أنه عندما كانت تذكر كلمة الشرق (الليفانت) فى العصور الوسطى وحتى وقت قريب فى عصرنا الحالى فإن هذه الكلمة كانت تستحضر على الفور فى الذهن صورة الأسواق الشرقية الكبيرة والمزدهرة ، والموانىء التجارية المزدحمة بكل أنواع التجارة والتجار القادمين إليها من كل أنحاء المعمورة . ولذا فإن هذا الأمر يقتضى منا اعادة تصور شكل المنشآت الصليبية التجارية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. فقد كانت المملكة الصليبية فى بيت المقدس تقع عند مفترق الطرق التى تربط بين القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقيا، وقدر لحدود هذه المملكة الصليبية أن تلعب دوراً رئيسا فى حركة مرور التجارة العالمية . ولاشك أن صورة الأسواق العامرة الرائجة فى منطقة الشرق العربى كانت حقيقة واقعة ويكفى دليلاً على ذلك كثرة عدد المترددين من الرحالة والتجار على المدن والأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام. وعلى الرغم من ذلك فإن وضع ودور المنشآت الصليبية فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب يحتاج مزيداً من التحديد الدقيق .

لقد كانت العملة البيزنطية الذهبية التى تعرف بالنوميسما أو الهيبربيرون هى عملة التداول الوحيدة فى التجارة العالمية وذلك خلال عصر الاضمحلال للامبراطورية الرومانية

وكذلك خلال العصور الوسطى الباكرة أيضا. إذ كانت النوميسما (الهيبربيرون) عبارة عن قطعة نقود ذهبية تتميز بثبات قيمتها وجودة نوعيتها. ولذا كانت أداة رئيسة للتبادل التجارى فى مناطق عالم البحر المتوسط وكان بمثابة أداة سلعية مهمة وجدت فى خزائن الممالك الجرمانية فى الغرب الأوربى وأيضا فى شمال أوربا حيث المناطق الاسكندنافية ، ومن المؤكد أن هذه العملة الذهبية البيزنطية كانت بمثابة «دولار العصور الوسطى». وفى نهاية القرن السابع الميلادى انكسر احتكار النوميسما الذهبية البيزنطية فى التجارة العالمية حيث ظهر الدينار الذهبى الإسلامى، وعندئذ تم تداول هاتين العملتين البيزنطية والإسلامية فى تجارة عالم البحر المتوسط وفى العالمين البيزنطى والإسلامى وامتد تداول هاتين العملتين البيزنطية والإسلامية عبر أوربا إلى مناطق البحر الأسود وطريق المحيط الهندى وطرق أوراسيا المؤدية إلى منطقة الشرق الأقصى.

وتمخض عن تأسيس مستوطنات صليبية على حدود الدولة البيزنطية وحدود الأقطار الإسلامية ظهور عملة ثالثة، وهى العملة التى ضربها الصليبيون تقليداً للعملات الإسلامية والتى عرفت باسم البيزنت الصليبى. وكان الصليبيون يهدفون من وراء ضرب وسك هذه البيزنتات إلى استخدامها فى التداول التجارى العالمى مثل العملات الإسلامية والبيزنطية. واعتمدت المسكوكات الصليبية على امدادات الذهب التى كانت تأتى من الغرب الأوربى وبالفعل راجت هذه العملات الصليبية فى التداول التجارى وفى الأسواق الإسلامية القريبة من حدود المملكة الصليبية. بيد أن هذا البيزنت الصليبى لم يستطع وهو فى أوج ازدهاره أن يحقق كل هذه الطموحات الاقتصادية الصليبية التى كان يرنو إليها الصليبيون فى منطقة الشرق العربى. وحاول البيزنت الصليبى أن يكون رمزاً لتكتل سياسى صليبى ودولة صليبية فى الشرق وذلك من خلال التغلغل وسط النوميسما البيزنطى والدينار الإسلامى. ومما يذكر أن اسم البيزنت نفسه يؤكد الحقيقة التى ترى أن أول العملات الذهبية التى سكها الصليبيون فى فلسطين وبلاد الشام هى العملات البيزنطية، وكان هذا البيزنت الصليبى مزوداً بنقوش عربية تشبه نقوش الدينار الإسلامى الفاطمى المضروب فى مصر ونظرا للحساسية الدينية تم اضافة رمز الصليب + واحلال الثالوث المقدس محل الكتابات التى تمجد الله ونبيه الكريم (محمد صلى الله عليه وسلم) ، وظلت هذه النقوش والكتابات تدون باللغة العربية. وعندما شرع الصليبيون فى سك عملاتهم لم يكن لديهم اتجاه إلى تقليد العملات الإسلامية، أو استخدام

قوالب سك العملات العربية فى دور الضرب الملكية الصليبية، بيد أن الاعتبارات التجارية هى التى فرضت عليهم تقليد العملات الإسلامية وذلك حتى تحظى العملات الصليبية بالقبول والانتشار فى التداول التجارى فى أسواق منطقة الشرق العربى الإسلامى، وعلى الرغم من استخدام هذه العملات الصليبية فى التداول التجارى فإنها أخفقت فى الوصول إلى قوة العملات العالمية وإن كان البيزنت الصليبى قد حظى بسمعة حسنة باعتباره أول عملة ذهبية صلبية يتم تداولها على نطاق واسع، وتم سكه فى دور الضرب الصليبية قبل العملات الايطالية الشهيرة مثل الدوكات والفلورين بحوالى مائة عام.

وتجدر الاشارة إلى أن عدد العملات الأجنبية المتداولة فى أسواق المملكة الصليبية فى بيت المقدس كانت أكثر من تلك التى كانت متداولة فى مناطق الغرب الأوربى الكاثوليكى. وعلى الرغم من تعدد دور ضرب العملات فى كل أنحاء الغرب الأوربى المسيحى ، فإن ثمة قيودا قد فرضت على دور الضرب هذه ويرجع ذلك إلى ندرة معدن الذهب كما أن المبالغ الكبيرة كان يصعب دفعها من العملات الذهبية، أو من العلما النحاسية ، أو فى صورة سلعية. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن حجم الأعمال التجارية لم يكن كبيراً إذ كان هذا الحجم التجارى يتعامل مع مراكز تجارية أخرى صغيرة نسبيا ، وهكذا فإن تداول العملات الذهبية فى تلك المراكز التجارية الأوربية كان أمراً شائعًا . وقد اختلف الوضع فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام، ويرجع ذلك إلى تدفق العملات الأجنبية وتداولها فى هذه المناطق الصليبية الذي كان يصاحب ارتياد التجار هذه المناطق وكذلك بسبب تدفق أعداد كبيرة من الحجاج الأوربيين من المراكز المسيحية الأوربية الأربعة . فقد استخدم أفراد وجنود الحملة الصليبية الأولى عملات أوربية من بواتييه، ومن شارتر ، ومن مينز ، ولوكا، وفالنس ومن ميلجيه melgueit. إذ كشفت الحفائر الأثرية فى مدينة طرابلس عن وجود ٣٥٠٠ قطعة نقود فضية وقطع من النقود المختلطة بمعدن خسيس ويرجع تاريخ هذه القطع النقدية إلى ما بعد عام ١٢٢١م، وهذه القطع النقدية كانت عبارة عن ١,٧٠٠ قطعة نقود صليبية و ١٨٠٠ قطعة نقد فرنسية ، وباقى القطع تنتمى إلى أربع وعشرين مكانا مختلفًا. وكشفت الحفائر الأثرية التى أجريت حديثًا عن خزانة نقود فى مدينة بيت المقدس كانت منحة للداوية وكانت هذه الخزانة تضم نقوداً من شارتر .

وكان هذا العدد الوفير من العملات الأوربية الأجنبية يزداد تداولها فى منطقة الشرق العربى الإسلامى، وهى العملات التى كانت تأتى بصحبة التجار الشرقيين ، وأيضا التجار المسلمين

والتجار المسيحيين واليهود. وهذا يفسر لنا أهمية دور الصيارفة ، الذين أصبح لهم شوارع مخصصة فى مدن مثل صور وعكا وبيت المقدس. فكان يوجد فى مدينة بيت المقدس شارعان للصيارفة عند مدخل أسواق المدينة الرئيسة . وخصص هذان الشارعان للصيارفة الشوام والصليبيين على التوالى . وكان هذان الشارعان يمتدان من الجنوب إلى الشمال ، وإذا كان هذا التقسيم للشوارع قد ارتبط بفرض ضريبة مختلفة، فإن وجود شوارع مخصصة للصيارفة يرجع أساسا إلي طبيعة التخصصية لهذه الشوارع.

كانت العملات المحلية المتداولة تضم نقوداً ذهبية، وفضية ونحاسية*. ومما يذكر أن حق ضرب النقود الصليبية وسكها كان احتكارا ملكيًا ، وذلك فى منذ أواخر عصر الملك بلدوين الثانى، ومن المحتمل أن النبلاء الصليبيين قد حرموا من امتياز حق سك العملات فى أثناء فترة حكم الملك بلدوين الثالث وكانت عقوبة سك النبلاء للعملات هى مصادرة اقطاعاتهم. ومن الناحية الرسمية فإنه لايمكن الغاء.هذا الامتياز الملكى الخاص بحق سك النقود والعملات، وبالطبع لم يكن هذا الامتياز الملكى يحظى بقبول أى تابع اقطاعى فى المملكة. ومن خلال المكتشفات الأثارية الموجودة يتبين لنا أن سك العملات فى الامارات الصليبية قد ظهر متأخرا جداً، ولاسيما بعد موقعة حطين الشهيرة . وكان استخدام عملات الامارات الصليبية محدوداً ، وعلى الرغم من أن سك هذه العملات كانت عملية مربحة للسيد الاقطاعى فى امارته، فإنه بلاشك أن عملية ضرب النقود الصليبية هذه فى الامارات الصليبية يمكن أن نعزوها إلى أسباب اقتصادية تمامًا. لقد كانت هذه العملات عبارة عن فئات مالية صغيرة ومن معدن خسيس وكان الغرض الأساسى من سك هذه العملات هو اعلان الاستقرار السياسى للامارة.

لقد كان تداول العملات الذهبية الأجنبية فى المملكة الصليبية أكثر أهمية، إذ كانت الهيبربيرون البيزنطية أو الميخائيلية Michelois (وهى العملة البيزنطية التى ضربت فى عهد الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع فى بافلاجونيا) من أسبق العملات التى تم تداولها فى

* اكتشف فى مدينة عكا حديثا قالب لاعداد أنابيب الرصاص، ومع أن النقود كانت تضرب من هذه الأنابيب الرصاصية فإنه من المنطقى أن نقبل ذلك الاقتراح الذى يرى أن هذه النقود ذات الأوزان الخفيفة التى وجدت فى عكا ليس برهانا على أن الصليبيين قد ضربوا نقودا من الرصاص (المؤلف) .

المملكة الصليبية فى بيت المقدس. وتم تداول هذه العملات البيزنطية بشكل عام فى امارة انطاكية الصليبية، وفى الجنوب فى امارة طرابلس وفى مدينة بيت المقدس، كان الدينار الفاطمى أسبق فى التداول من أية عملة أخرى . وبمرور الوقت ، ظهرت العملات الصليبية فى التداول ، ويبدو أن الدينار الفاطمى كان قد ضرب فى فترة مبكرة فى دور سك العملات فى مناطق الشمال. وكان الاجراء العادى أن يقوم الصليبيون بدفع ونقش الأسماء والرموز الصليبية على وجهى قطع العملات البيزنطية الموجودة لديهم. لقد سك الصليبيون عملاتهم الخاصة فى فترة متأخرة، فى وقت غير محدد من القرن الثانى عشر الميلادى. وكما ذكرنا آنفًا فقد كانت العملات البيزنطية أسبق العملات المتداولة فى بداية الوجود الصليبى ، بيد أنه لايوجد سبيل لمعرفة ما إذا كان هذا البيزنت هو الأصل أم كان تقليداً للدنانير الفاطمية الإسلامية . فقد ظهر البيزنت فى ستينات القرن الثانى عشر الميلادى ويبدو أنه كان شيئا جديداً. والحقيقة أن ظهور العملات الذهبية الصليبية لم تستطع أن تعوق الدنانير الإسلامية من التداول. فقد استخدمت العملات الذهبية الصليبية والإسلامية فى التداول التجارى وتقرر اسهام هذه العملات فى هذا التداول فى ضوء أنماط النشاط الاقتصادى.

ومما يذكر أن وزن الدينار الفاطمى القديم كان يبلغ ٤,٢٥ جرام من الذهب الخالص، إذ كان الدينار الفاطمى فى الفترة الأخيرة والذى قلده الصليبيون أخف وزنا وأقل قيمة من حيث عيار المعدن النفيس، ومع ذلك فقد كان هذا الدينار الفاطمى الذى ضرب فى فترة متأخرة يزيد فى الوزن وفى العيار من تلك العملة التى قلدها الصليبيون والتى كانت تعرف باسم البيزنت الإسلامى. وتراوح قطر البيزنت الإسلامى ما بين ٢٢ ، ٢٣ مم ووزنه يتراوح ما بين ٣,٥ - ٣,٧ جرام (وكان الحد الأقصى للاختلاف يتراوح ما بين ٣,١٥ - ٤,٢جرام) . وكانت نسبة معدن الذهب فيه تتراوح ما بين ٦٥,٥٪ - ٧٥٪ . لقد كان هذا البيزنت الصليبى المقلد للدينار الإسلامى أكثر غرابة وغير ملائم . فقد كانت العملات الصليبية فى الفترة الباكرة تحمل الشكل والنقوش الظاهرية للنقود العربية، بيد أن هذا التقليد كان واضحا لأى شخص لم تكن لديه معرفة واسعة باللغة العربية إذ كان يدرك أن النقش الذى يزين وجهى البيزنت الصليبى غير ذى معنى، ومع قليل من الاستثناءات ، فإن الحروف التى دونت على وجهى البيزنت لم تكن حروفًا عربية، إذ كانت ببساطة عبارة عن مجموعة من الشرط العمودية ، والدوائر وما شابه ذلك. ومن الصعب التعرف على دلالة وغرض هذه النقوش . ويمكننا أن

نعالج مسألة العمال الأوربيين الذين قاموا بعملية سك العملات الصليبية والذين كانوا يجهلون اللغة العربية المحلية . وهذه الظاهرة فى مجملها مثيرة وأكثر أهمية، وذلك لأن دار ضرب المسكوكات والعملات فى مدينة صور كانت ماتزال تعمل بنشاط قبل سقوط المدينة فى يد الصليبيين فى عام ١١٢٤ بعام واحد ويبدو أن الغزاة الصليبيين قد استمروا فى ضرب الدنانير الفاطمية واستخدموا فى ذلك قوالب ضرب العملة الموجودة فى المدن الإسلامية التى خضعت لسيطرتهم. وربما تم طرد الصناع المسلمين أو المسيحيين المحليين من هذه المدن وربما أنشأ الصليبيون دار ضرب مختلفة فى مدينة القدس وهى الدار التى سكت هذه العملات الصليبية المقلدة والفقيرة فى الوزن والقيمة. وفى الوقت المناسب ، وصلت العملات الصليبية المقلدة للدينار الإسلامى إلى نقطة بحيث أصبح من السهل قراءة الحروف والكلمات على وجهى العملة مثل تواريخ ومكان ضرب العملة وكانت بعض هذه النقود الصليبية تحمل على أوجهها صليباً صغيرا + وحرفين لاتينيين هما B و T ، وهى الحروف التى كانت تشير إلى اسم الأمير الصليبى بوهمند (أو برتراند أمير طرابلس) أو إلى اسم تانكرد، أو كانت هذه الحروف تدل على دار الضرب فى مدينة طرابلس، أو فى صور أو فى أنطاكية أو عكا*. وقد ظهر تقليد جديد للدينار الفاطمى فى فترة متأخرة ، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يحل محل الدينار القديم الذى ضرب فى فترة مبكرة . لقد كانت العملة الصليبية الجديدة (البيزنت الصليبى) تقليداً للدينار الأيوبى . ونظرا لاكتشاف عملة ذهبية واحدة متداولة كنموذج لهذا الدينار الأيوبى، فإنه يصعب قياس وتقدير أهميته فى التداول . إذ كان قطره يبلغ ٢٢ مم ووزنه خفيف يصل إلى حوالى ٣,٣١ جرام، وهو أخف من الدينار الفاطمى المقلد السابق. ولوحظ أن جزءاً من النقش طبع بشكل جيد على وجهى هذه العملة، على الرغم من أن الحروف العربية ذات الشكل الكوفى لم تنسخ جيداً ؛ ولوحظ أيضا أن جزءاً آخر من هذه النقوش التى تزين وجهى هذه العملة كانت واضحة ويسهل فهمها ويبدو أن الصانع فى دار الضرب الصليبية لم يكن يعرف اللغة العربية.

---

* تجدر الاشارة إلى أن أحد المتخصصين البارزين يرى أن بعض النقود الصليبية المقلدة للدنانير الفاطمية لم تضرب على يد الصليبيين بل تم سكها فى دور ضرب فى جنوب أوربا ولايوجد ما يؤكد صدق هذا الرأى من خلال الاكتشافات الأثرية للمسكوكات الصليبية (المؤلف) .

وثمة تغير رئيسى حدث فى دار السك الصليبية فى عام ١٢٥٠م فقد أعلن النائب البابوى يودى من شاتيورو Eudes de Chatearoux أنه من المخزى والمؤسف «أن تحمل البيزنتات والدراخمات الصليبية التى سكها الصليبيون فى دور الضرب فى عكا وطرابلس اسم نبى الاسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) . وتاريخ مولده بشكل واضح». وحرم البابا انوسنت الرابع تداول النقود الصليبية التى تحمل نقوشا اسلامية . وأذعنت السلطات الصليبية لهذا الأمر البابوى تمامًا . لقد ظلت النقوش العربية تزين وجهى العملات الصليبية الجديدة ، بيد أن محتوى هذه النقوش أصبح مسيحيًا . وتم سك النقود الصليبية الذهبية من هذا النوع لمدة ثمان سنوات (١٢٥١-١٢٥٧م) . حيث أصبحت النقود الفضية أكثر انتشاراً فى تلك الآونة ، وهى النقود الصليبية الفضية التى كانت تقليداً للدراهم الأيوبية (وكان قطر الدرهم الفضى ٢٣ مم، ووزنه ٢,٨٨ جرام) وكانت هذه العملات الفضية الصليبية بطيئة التداول قصيرة العمر، وهكذا استطاع الصليبيون التغلب على الأوامر البابوية بالخديعة أى بواسطة الابقاء على النقوش العربية ولكن بمحتوى مسيحى لارضاء البابوية من جانب وضمان قبولها فى التداول من جانب آخر. وأصبح البيزنت الذهبى الصليبى الجديد تقليداً للدينار الفاطمى من حيث الشكل الخارجى، ولكنه مزين بنقوش دائرية متحدة المركز (على عكس نمط النقوش الرباعية التى كانت تزين النقود الأيوبية)، وإن كانت الحروف النسخ قد استخدمت فى دور ضرب النقود فى أواخر العصر الأيوبى. إذ كان الصليب البارز منقوشًا فى وسط البيزنت وكانت هذه النقوش التى تزين البيزنت الذهبى الصليبى تؤكد الأصل المسيحى لهذه العملة. وكان يكتب على أحد وجهى البيزنت الصليبى باللغة العربية عبارة : ضرب بعكا فى سنة ألف ومائتين وواحد وخمسين ١٢٥١ من ميلاد المسيح وقائمة التثليث المسيحية وهى الآب والابن والروح القدس. وفى مركز البيزنت كانت تدين عبارة «الله واحد». وعلى الوجه الآخر كتبت عبارات مسيحية مثل «نفتخر بصلب ربنا يسوع المسيح الذى به سلامتنا وحياتنا وقيامتنا وبه خلاصنا وسلامنا والغفران لنا».

وكان قطر البيزنت الذهبى الصليبى يبلغ ٢٣مم ، يتراوح وزنه من ٢,٨٠جرام-٣,٦٣جرام، وكانت توجد فئة نقدية من النصف دينار بلغ قطره ١٩مم ووصل وزنه إلى ٣,١٢ جرام. وثمة عملة ذهبية صليبية مجهولة دون على أحد وجهها فى المركز كلمة المسيح المخلص Agnus Dei ونقوش دائرية أيضا تحمل كتابات مثل المسيح المخلص الذى تحمل أوزار البشر

Agnus Dei qui Tollit Peccata mundi وعلى الوجه الآخر نقشت كلمات مثل المسيح سيدنا ، المسيح مليكنا ، المسيح قائدنا Christus Vincit Christus regnat Christus imperat ومن المحتمل أن هذا النوع من العملات والنقود الصليبية كان ينتمى إلى نفس الحقبة الزمنية أى إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . وتراوح قطر هذه العينة من العملان الصليبية ما بين ٢٠,٥ -٢١مم كما أن الوزن الأساسى كان يتراوح ما بين ٣,٣١جرام، ٣,٦٢ جرام*.

لقد استخدم البيزنت الذهبى الصليبى فى التداول التجارى العالمى وكان أداة لدفع المبالغ الكبيرة. فى حين كانت المعاملات التجارية اليومية تستخدم النقود الفضية والنحاسية . وعلى الرغم من أن الصليبيين لم ينقشوا صورة وجه أحد من ملوكهم على العملات والنقود الذهبية فإن النقوش اللاتينية أو الفرنسية التى كانت بمثابة رموز لتحديد الهوية أصبحت الأساس والقاعدة فى ضرب المسكوكات الفضية الصليبية . ولكن منذ أن تم تداول العملات الذهبية الفضية فى التجارة العالمية قام الصليبيون أيضا بسك العملات الفضية المقلدة للنقود الإسلامية . وكان مثل هذا الاجراء يجلب الربح والفائدة إلى الوطنيين وسكان البلاد الأصليين من المسلمين والمسيحيين واليهود. فقد تم سك أولى العملات الفضية المقلدة بعد الغزو الصليبى للمناطق العربية مباشرة ، حيث قام السكان المحليون بتدمير المستوطنات وهجروا أوطانهم ورفضوا القيام بأعمال الزراعة فى المنطاق والمستوطنات التى أسسها الصليبيون فى بلادهم ، كما أنهم منعوا الطعام عن الصليبيين . وظل السكان المحليون يتوقعون قيام المصريين والدماشقة باحتياج المملكة الصليبية والقضاء عليها وقذف الصليبيين وعملائهم ومؤيديهم فى البحر**. وساهم هذا الاتجاه العدائى من جانب السكان الوطنيين فى خلق معارضة قوية ضد قبول هذا النمط من العملات الصليبية المجهولة وذات المصير القلق غير المستقر .

---

* كان عدد قليل من البيزنتات الصليبية تحمل نقش المسيح سيدنا Christus Vincit (المؤلف) .

** يسوق المؤلف عبادات مثل قذف الصليبيين فى البحر على يد المصريين وأهل دمشق لكى يربط بين ماضى الوجود الصليبى وحاضر الوجود الصهيونى فى المنطق العربية، واعتقد أنه لجأ إلى هذا الأسلوب للتهكم والسخرية من القرى العربية التى كانت تهدد اسرائيل بقذفها فى البحر ولم يتم ذلك (المترجم) .

ومما يذكر أن العملات الفضية الصليبية المقلدة لم تكن مؤرخة ولذا فإننا نعرف شذرات قليلة عن أصل هذه الأنواع من العملات . واستمر ضرب الصليبيين للعملات الجديدة المقلدة طوال القرن الثالث عشر الميلادى والذى شهد تداول العملات الفضية فى التجارة وأصبح ضرب الصليبيين لهذه الأنواع من العملات أمراً تقليديًا. وكانت بعض العملات والنقود الصليبية الفضية المقلدة للعملات الإسلامية تأتى من الخارج وهذا أمر يستحق الاهتمام الخاص لدراسته. وكانت العملات التى اكتشفت فى منطقة الفيوم فى مصر والتى ترجع إلى العصر الأيوبى تضم فى معظمها النقود الصليبية الفضية المقلدة للدراهم الفضية الأيوبية، وهى الرداهم التى كانت مزينة بنقوش مسيحية بكتابات عربية. بيد أنه كان يوجد هناك أيضًا دار لسك وضرب العملات المولدة (التى تجمع أكثر من صنف من العملات) . فقد كانت النقوش العربية تشير إلى أن هذه العملات قد ضربت فى دمشق فى أثناء حكم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وخلال فترة حكم السلطان الصالح اسماعيل فى عام ١٢٥٣م (أو خلال خمسينات القرن الثالث عشر الميلادى أى خلال أواخر السنوات التسع من خمسينات القرن الثالث عشر الميلادى) . ويؤكد مثل هذا التاريخ الأصل الصليبى لهذه العملات ويمكن أن نلاحظ أيضا الدعاء المقتضب وهو : « بسم الله الرحيم الجواد » و(اعلاء قدر النبى محمد) وكان هذا من الأمور المحببة لدى المسلمين والمسيحيين على السواء. وكانت أفضل العملات الصليبية الفضية المقلدة للدراهم الأيوبية والتى تحمل كتابات الأدعية تفضح نفسها وذلك بسبب خطأ التواريخ التى تحدد حكم كل من الخليفة وسلطان دمشق اللذين قد توفيا من قبل.

وكانت العملة الفضية الصليبية تعرف باسم الدينار وكان هذا الدينار نسخة مطابقة للدرهم الإسلامى . وقد ورد فى المصادر الصليبية كذلك وفى القائمة الحكومية لضرائب السوق أسماء هاتين العملتين أى الدينار الصليبى الفضى والدرهم الإسلامى دون تمييز . وعلى الرغم من عثورنا على مكتشفات أثرية من الدنانير فإنه لايمكن تحديد التاريخ الدقيق لسك مختلف العملات الصليبية المقلده . ويمكن أن نعزو ذلك إلى حقيقة أن خمسة من الملوك الصليبيين كانوا يحملون اسم بلدوين ولذا فإن العملات التى تحمل اسم الملك بلدوين (الاسم الواحد لخمسة من الملوك) تجعل عملية التمييز وتحديد تاريخ الضرب أمراً عسيراً تمامًا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن العملات التى كانت تسك حديثا لم تستطع أن تحل محل العملات والنقود التى سكت قبلها أى الأقدم منها وتلك اشكالية لم تجد حلاً ونصبًا يقع على عاتق المؤرخين الآن. وتلك

قضية نمية أكثر منها قضية اقتصادية، وذلك لوجود اختلاف طفيف فى الحجم والوزن ومحتوى معدن الفضة بين العملات الفضية. فقد ضربت الدنانير الفضية الصليبية التى تحمل اسم الملك بلدوين فى مدينتى صور وعكا (ومن المحتمل أيضًا فى مدينة بيت المقدس) وكان هذا الدينار الصليبى الفضى يتراوح وزنه ما بين ٩جرام - ٩,٥ جرام. ونسبة معدن الفضة فيه تصل إلى نسبة ٣٤,٧٪ (أى يحتوى على ٢,٨٥ جرام من الفضة الخالص) .

وثمة اتجاه عام يحدد العملات الملكية الصليبية الباكرة بفترة حكم الملك الصليبى بلدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) ، وهو الملك الذى طبق التشريع والقانون المتعلق بالامتيازات الملكية الخاصة بحق سك العملات والنقود . وإذا تأكد صحة الرأى القائل بأن أول عملة صليبية سكت فى عهد الملك الصليبى بلدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) فإن النقود والعملات الصليبية لم تضرب فى عهد الملك الصليبى جودفرى البويونى ولا فى عهد خلفائه بلدوين الأول أو بلدوين الثانى أو فولك الأنجوى (فلم نعثر على نقود ضربت باسم هؤلاء الملوك السابقين) . وعلى الرغم من صحة فرضية عدم وجود عملات صليبية تحمل أسماء الملوك الصليبيين السابقين. فإن الأمر اللافت للنظر هو أن الأربعين عاما التى أعقبت الغزو الصليبى للمناطق العربية لم تشهد تداول عملات صليبية ملكية . وإذا كانت الموجودات والمكتشفات الأثرية النمية (العملات القديمة التى تكتشف خلال أعمال الحفائر الأثرية) تدحض صحة الافتراض السابق، فإنه يمكننا الاعتقاد بأن العملات والنقود الفاطمية هى التى كانت متداولة خلال هذه الحقبة الزمنية (وذلك لأن الخزائن الصليبية كانت قد امتلأت بكميات كثيرة من هذه العملات فى أثناء الغزو الصليبى وأيضا من عائد الضرائب التى فرضت على السكان المحليين) وهى النقود التى كانت تلبى الاحتياجات الاقتصادية العادية . واضافة إلى ذلك فإن العملات الأوربية التى أحضرها الحجاج والمهاجرين معهم ظلت فى التداول فى المملكة الصليبية خلال الأربعين عامًا الأولى من فترة وجودها . وظهرت العملات الصليبية فى التداول خلال فترة استقرار المملكة الصليبية السياسى والاقتصادى فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى.

ومن خلال الاكتشافات النمية أيضا، يمكن التحقق من أن دور الضرب الملكية الصليبية التى كانت تسك العملات والنقود فى القرن الثالث عشر الميلادى قد أصيبت بالانهيار والاضمحلال إذا ما قورنت بدور الضرب الملكية فى القرن الثانى عشر الميلادى. ويبدو أن الأزمة النقدية الكبرى قد حدثت فى عهد الملك الصليبى عمورى الثانى (١١٩٤-١١٩٧م)

وحاكم قبرص فى الفترة من سنة ١١٩٧-١٢٠٥م) . إذ هبط معدل وزن الدينار الفضى الصليبى فى هذه الفترة إلى النصف ، بمعنى أن وزنه وصل إلى ٥٥, جرام (وهذا اختلاف شديد ما بين ٢٩٠, جرام ، ٧٢١, جرام) وانخفض محتوى معدن الفضة فيه إلى الثلث ووصلت نسبة نقاوة المعدن فيه إلى ٣, ٢٠ ٪ ... الخ . فقد كان كل دينار فضى صليبى يحتوى على نصف وزنه فضة (إذ كان وزن لفضة فى دينار الملك عمورى الأول يصل إلى ٢٩٣, جرام ، وفى دينار الملك عمورى الثانى بلغ وزن معدن الفضة فيه ١٦٢, جرام) . وقد نوقش هذا الموضوع ، ومع أنه لم نصل إلى نتيجة حاسمة فإن دنانير الملك عمورى الثانى الفضية قد ضربت لاستخدامها فى جزيرة قبرص.

وكانت المسكوكات الصليبية التى حملت اسم الملك الصليبى جى لوزجنان هى أفضل المسكوكات (ومن المحتمل أن هذه النقود قد ضربت من أجل تداولها فى قبرص) وكذلك النقود الصليبية التى ارتبطت باسم الملك الصليبى يوحنا دى بيرين وذلك بعد الغزو الصليبى لدمياط فى أثناء الحملة الصليبية الخامسة. وكان وزن الدينار الفضى الصليبى يتراوح ما بين ٣, ٧جرام إلى ٨, جرام وكان وزن معدن الفضة منخفضًا يصل ما بين ١٥٧, و١٦٣, جرام . إذ كانت نسبة وزن الفضة الخالص فى كل دينار يتراوح ما بين ٣, ٢٠ ٪ إلى ٢٢٪ .

وبالإضافة إلى الدنانير الفضية الصليبية ، عرف الصليبيون فئة مالية أصغر وهى نصف الدينار وعرفت هذه الفئة باسم أبول Obole (وكان قطر نصف الدينار الفضى يتراوح ما بين ١٣مم إلى ١٥مم ، ووزنه يتراوح ما بين ٤٠, - ٥١, جرام) ، وكانت هذه الفئات المالية الصغيرة من أنصاف الدنانير والعملات النحاسية تشبه نقود مدينة واقليم بجوا Pugeois النادرة التى سكها هنرى كونت شمبانى فى مدينة عكا *. وفى أوقات الأزمة الاقتصادية والسياسية وانهيار سلطة الحكومة المركزية الصليبية تم تداول قطع من النقود المجهولة. وعلى الرغم من أنه لايوجد دليل يؤكد هذا، فإنه من المحتمل أن هذه النقود مجهولة الهوية التى تم تداولها ابان الأزمة السياسية فى المملكة الصليبية يرجع وجودها إلى زمن الحملة الصليبية الثالثة، حيث كانت هذه العملات والنقود تحمل على أحد وجهها نقوشا مثل «صورة الملك» ، و«برج داود» ، «وضريح السيد المسيح» و«القديسة ايريا» و«طريق الصليب».

---

* لقد اكتشف حديثا قطعة نقدية فريدة من مسكوكات هنرى الشامبانى يميزها تصميم شرقى غريب ولافت المنظر وتحتاج هذه القطعة النقدية لمزيد من الدراسة (المؤلف) .

الواقع أن العملات الصليبية لم تكن مسكوكات جيدة الصنع، ولم تضرب فى دور سك متطورة ، بيد أن ظهور هذه العملات كان انعكاسًا للوضع الاقتصادى للملكة الصليبية فى بيت المقدس . وتنافست دور سك العملات فى الامارات الاقطاعية الصليبية مع دور الضرب الملكية من حيث المظهر البراق والرونق فقط دون الاهتمام بالقيمة أى وزن معدن الذهب أو الفضة فى قطعة النقود أى من حيث الجودة وقيمة العيار. ويتسم تاريخ ظهور أول عملة ذهبية أو فضية صليبية بالغموض. والابهام. ولم يستطع الأمراء الصليبيون الاقطاعيون فى اماراتهم أن يضربوا نقوداً خاصة بهم فى ظل فترة حكم الملوك الصليبيين الأقوياء ولاسيما ملوك المملكة الصليبية الأولى وذلك لأن سك النقود كان امتيازاً واحتكاراً ملكيا، ولم يجرؤ أحد من الأمراء الصليبيين أن يخرق هذا الاحتكار، إذ كانت العقوبة القانونية لهذا الخرق هى مصادرة الاقطاعات دون الرجوع إلى المحكمة العليا. وبعد مرحلة الاضطراب التى حدثت فى أثناء فترة حكم الصليبى بلدوين الخامس وخلفائه بدأ النبلاء والأمراء الصليبيون فى ضرب عملاتهم ونقودهم الخاصة فى اماراتهم، وكان هذا يمثل اغتصابا واضحا لامتياز وحق الملك الصليبى، وذلك لأن مثل هذا التصرف من جانب الأمراء كان لايتفق مع قوانين المملكة الصليبية أو مع الامتيازات الملكية . وتؤكد المكتشفات الأثرية من النقود والعملات الصليبية وجود مثل هذه النقود التى ضربها الأمراء الصليبيون فى اماراتهم. وقد ثبت أيضا أن مثل هذه العملات والنقود التى ضربت فى الامارات الصليبية كانت تصنع من خليط من معادن مثل الذهب والفضة والنحاس ، ففى مدينة يافا (قام الأمير الصليبى جوتير دى بيرين بسك عملة فى يافا وذلك بعد عام ١٢٠٥م)، وفى مدينة صور سكت عملات صليبية خلال فترة حكم ريجنالد (من المحتمل بعد عام ١١٨٧م) وهى النقود التى كانت مزودة بنقوش عبارة عن شعار غريب ولافت للنظر على شكل سهم (وعلى الوجه الآخر للعملة كانت تكتب كلمة ساجيتا Sagitta التى تشير إلى الاسم العربى لمدينة صيدا أو الاسم الصليبى لها وهو سايبتا Saiette ، وسكت عملة بيروت تحت حكم يوحنا نائب سيد بيروت ١٢٠٥-١٢٣٦م) وتم ضرب عملات تورون تحت سيادة همفرى الثالث ، وعملات مدينة صور وتورون تحت حكم فيليب دى مونتفرات ويوحنا دى مونتفرات ، سادة مدينتى صور وتورون (وذلك فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى) .

جـ - التجارة العالمية

وعلى غرار السمات العديدة الأخرى للحروب الصليبية ، فإن الأهمية التجارية لفترة الحروب الصليبية كانت موضع اختلاف بين المؤرخين فبعض المؤرخين يمدحون هذه الفترة ويرون أن الحروب الصليبية قد لعبت دوراً مهمًا فى النشاط التجارى العالمى، فى حين يرى بعض المؤرخين عكس ذلك ويوجهون إليها القدح والذم. مع ذلك فإن بعض العلماء اعتقدوا أن الحروب الصليبية قد أعطت دفعة قوية للنشاط الاقتصادى والتجارى العالمى ذلك النشاط الذى ميز أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، بينما يرى البعض الآخر عكس ذلك، وكان مؤدى هذا الرأى أن الحروب الصليبية لم تكن ذا تأثير على النشاط الاقتصادى العالمى وأن تطور هذا النشاط كان سيحدث حتى ولو لم تحدث الحروب الصليبية أى أنه كان تطورا تلقائيا طبيعيًا بفعل عوامل كثيرة غير الحروب الصليبية. ولذا يمكن القول إن البلوغ إلى استنتاجات فى هذا الصدد لايتم دون جدل ونقاش طويل . وعلى الرغم من ذلك فقد تحددت بعض الخطوط العامة للتطور الاقتصادى العالمى وكذلك أصبح بمقدورنا التعرف على ملامح دور المملكة الصليبية فى التجارة العالمية.

ومع أن الصليبيين أسسوا مستوطناتهم ومناطق نفوذهم فى أقاليم مزدهرة اقتصاديا فإنهم لم يستطيعوا السيطرة على المراكز الاقتصادية الرئيسة فى المنطقة العربية . فلم تصل مناطق نفوذهم إلى أبعد من المنخفض العميق الذى يفصل المناطق الساحلية عن المدن العربية الداخلية الكبرى مثل: دمشق، وحلب ، وبغداد. ففى الجنوب كانت شبه جزيرة سيناء بمثابة الحد الفاصل بين المملكة الصليبية وبين مصر. ولم يستطع الصليبيون الاستيلاء على القاهرة أو الاسكندرية. وكانت القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية من المراكز الصناعية والتجارية الكبيرة ، والتى سقطت تحت السيادة الصليبية فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة، بيد أن حادث السقوط هذا لم يؤثر البتة على الوضع التجارى للمملكة الصليبية فى بيت المقدس. فقد بسط الصليبيون سيادتهم على ثلاثة من أهم المراكز التجارية فى المنطقة العربية وهى أنطاكية ، وطرابلس ، وصور . وظلت هذه المراكز التجارية السابقة تمتع بمركز اقتصادى جيد حتى قبل الغزو الصليبى لها وتوافق اقتصاد هذه المدن الثلاث مع التبادل التجارى النشط مع المدن الداخلية الإسلامية مثل دمشق وبغداد ومع موانى مصر عبر الطرق التجارية أو عبر الطريق البحرى القديم، أو طريق القوافل عبر الأردن وشبه جزيرة سيناء.

لقد أفرز الغزو الصليبى لمنطقة الشرق العربى الإسلامى بشكل مباشر نمطًا جديداً من العلاقات التجارية ، تلك العلاقات التى بدأت بين هذه المنطقة وأوربا فى القرن الحادى عشر الميلاد ، والتى لعب تجار مدينة أمالفى الايطالية دوراً رئيسًا فيها . وهذا لايعنى أن المنشآت والمؤسسات الاقتصادية قد غيرت وجه اقتصاد منطقة الشرق العربى تغييراً جذريًا (أى راديكاليا) . فقد ظلت علاقات مصر التجارية مع بلاد الشام والعراق عبر طريق البحر الأحمر والخليج العربى الفارسى . ولم تختف التجارة البرية بل استمر نشاطها عبر طريق القوافل . وخلال أوقات السلم بين الطرفين الإسلامى والصليبى تعهد الحكام الصليبيون بحماية القوافل التجارية الإسلامية التى تصل إلى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين، وذلك مقابل دفع التجار المسلمين رسوم المرور. وعلى الرغم من أهمية التجارة للسلطات الإسلامية والصليبية ، فإن حالة الحرب بين الطرفين كانت تعوق حركة التجارة بين الطرفين إذ كانت الرحلات التجارية البرية محفوفة بالمخاطر وتعطلت التجارة خلال فترات منقطعة.

ومن النتائج المباشرة للغزو الصليبى للمنطقة العربية هو تكيف الأنشطة التجارية على امتداد منطقة شرق البحر المتوسط مع احتياجات وامكانات أوربا. ومن هنا لعبت أوربا دوراً ثنائيا من حيث تصدير منتجاتها إلى الأسواق الشرقية- والأهم من ذلك- هو ايجاد منفذ لمنتجات المناطق الداخلية الإسلامية (والتى تشمل منتجات الأقطار الأفريقية ، والأقطار الإسلامية العربية، والأقطار الواقعة فى الشرق الأقصى). وأصبحت آسيا فى تلك الحقبة الصليبية بوابة تجارية إلى منطقة الغرب الأوربى ، وهى البوابة التى كانت تتمثل فى موانى شرق البحر المتوسط .

وطوال فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية والتى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان تعرضت الاحتياجات والامكانات الأوربية لتغييرات كبيرة . فقد أدى ازدياد الثراء والغنى إلى توسع الأسواق فى استيراد السلع والبضائع الأوربية كما أدت حالة الثراء هذه إلى تيسير سبل الحياة واكساب حياة الناس طعما ومذاقا جديداً فأصبحت الحياة أكثر سهولة وترفًا. وتحددت احتياجات الأفراد ومتطلباتهم الحياتية فى ضوء القوة الشرائية لهم ومدى قبول المنتجات والسلع فى أسواق الشرق .

وهكذا كان تكيف الاقتصاد الفلسطينى والشامى وتوافقه مع اقتصاد الغرب الأوربى من أهم الأحداث الجديدة فى الحقبة الصليبية . فقد كانت أوربا الغربية أكثر اهتمامًا بالصناعة من

المناطق الداخلية الإسلامية . ففى القرن العاشر الميلادى وصف الرحالة والجغرافى المسلم المقدس قائمة الطعام فى المنطقة العربية فى مصطلحات فضفاضة . وذكر المقدس أن الطعام فقد أهميته من حيث تصديره بسبب خطورة نقله من فلسطين إلى بلاد الشام، ومصر.

وخلاصة القول هو أن الصادرات الصليبية اعتمدت على ما تنتجه المراكز الانتاجية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين. وبالتأكيد ازدهرت طوائف الحرف اليدوية، وكشفت الحفائر الأثرية عن وجود أوانى فخارة صليبية واشتهرت أدواتهم الحديدية ، وقلما كانت هذه الأدوات الصليبية الحديدية تمثل موادا مهمة من مواد التصدير . وكانت الصادرات المحلية للشرق الصليبى تشمل المنسوجات ، والزجاج ، والأصباغ ، والسكر ومشتقاته . وتعتبر المنسوجات من أهم مواد التصدير. فقد ورثت مدينتا أنطاكية وطرابلس التقليد البيزنطى الكلاسيكى فى انتاج وصناعة المسنوجات ، واحتفظتا بشهرتهما فى هذا المجال خلال فترة السيادة الإسلامية وأيضا خلال فترة الوجود الصليبى. وتذكر أحد المصادر التاريخية أنه كان يوجد فى مدينة طرابلس حوالى ٤٠٠٠ أربعة آلاف نول لنسج الأقمشة الحريرية والصوفية. وشملت المنتجات الحريرية الأقمشة الفخمة والمطرزة بالذهب غالية الثمن. وكانت أقمشة أنطاكية الحريرية والمطرزة ذات وضع خاص فى الرسوم الجمركية فى ميناء عكا. ولم يكن حرير مدينة صور الأبيض أقل شهرة من حرير أنطاكية ، وكان الصناع الشوام المهرة فى مجال هذه الصناعة يمثلون مصدراً من مصادر الدخل للحى البندقى فى مدينة صور. وتعتبر بيروت من المراكز الصناعية الأقل شهرة، إذ كانت تصدر المنسوجات القطنية والحريرية . وفى النهاية ، كانت أشجار التوت تزرع بالقرب من بيروت لكى تلبى حاجة تربية دود القز المنتج للحرير الطبيعى. وكانت المنسوجات القطنية أرخص الأقمشة، وكان القطن يصدر من المملكة الصليبية، حيث كان يزرع القطن فى سهول عكا وطبرية. وكانت بعض المنسوجات الصوفية تجلب من شيفيلا Shefela بالقرب من رام الله.

ولدينا معرفة قليلة عن الصادرات الأخرى ذات الأهمية العظمى ، وهى الأصباغ . حيث تذكر قائمة الرسوم الجمركية لميناء عكا الكثير من أنواع الصباغة التى كانت تصدر إلى الخارج، بيد أنه كان يوجد عدد قليل من المراكز الصناعية والمدن التى تخصصت فى انتاج هذه الأصباغ المحلية فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس . فكان نبات النيلة يزرع فى وادى نهر الأردن، كما كان نبات الفوة المستخدم فى صناعة الأصباغ يزرع على ساحل نهر العاصى، فى

حين كانت هناك أنواع من القار (البيتوين) يجمع بالقرب من البحر الميت وظل البلسم يزرع حول منطقة أريحا فى فلسطين . ولذا فإنه من المنطقى الاعتقاد بأن الصناعات المحلية لم تستهلك كل هذا الانتاج، وأصبح فائض هذا الانتاج المحلى يشكل مواداً أساسية من مواد التصدير إلى الخارج.

وتعتبر الصناعات الزجاجية من أهم صادرات المملكة الصليبية ، وهى الصناعات التى كانت تنتجها المصانع فى مدينة صور، وحاز زجاج مدينة صور شهرة واسعة فى أوربا. وأنشأ البنادقة مصنعا لصناعة الزجاج فى مدينة صور. وحفظ لنا الزمن نموذجين من الأكواب الزجاجية الملونة المصنعة فى مدينة صور خلال الحقبة الصليبية، وكشفت هذه الأكواب الزجاجية عن مدى مهارة واتقان الصانع . ومن المحتمل أن هذا الصانع كان من اليهود الذين كانوا يقطنون مدينة صور، وفى الفترة الأخيرة من الوجود الصليبى كان الصانع الأوربى ينقش صورة السيدة مريم العذراء على سطح الكوب الزجاجى ، بالإضافة إلى نقش لاتينى أيضا يزين جدار هذا الكوب الزجاجى. وكان هناك نمط شائع من القيشانى تزينه رسوم غير واضحة . وثمة شك فى أن القيشانى المصنع فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين كان ضمن صادرات المملكة الصليبية . وثمة دليل يؤكد أن القيشانى كان من واردات هذه المملكة وليس من صادراتها ، ومن المحتمل أن القيشانى المستورد كان عبارة عن نوع جيد من الخزف ، وذلك لأنه كان يوجد هناك أيضا زهريات ملونة مصنعة ضمن واردات المملكة الصليبية. وذكر لنا المؤرخ بيجولوتى Pegolotti نوعًا من التحف ذات اللون الأزرق المخضر والمصنعة فى مدينة صور، كما ذكر لنا أيضا الصباغة الارجوانية التى اشتهرت بها صور وذات الشهرة القديمة.

وكانت هناك بعض المأكولات والأطعمة المحلية تصدر إلى الخارج، ومن أشهرها أهمها زيت الزيتون ، وزيت السمسم الجيد. فقد استغل البنادقة مزارع وحدائق الزيتون الواقعة حول مدينة صور ومن المؤكد أن البنادقة كانوا يصدرون الزيتون وزيت الزيتون إلى الخارج. ولم يكن غريباً أن توجد حدائق ومزارع الزيتون بكثرة فى قطر كان أهله وسكانه يدفعون الضرائب للحكام المسلمين فى صورة زيت الزيتون وربما كان النبيذ ضمن صادرات المملكة الصليبية، إذ كانت صناعته تحظى باهتمام كبير من جانب الصليبيين منذ أن وطأت أقدامهم الأراضى العربية. ومن المؤكد أن السفن الأوربية التى كانت تأتى إلى الموانىء الصليبية كانت تتزود بكميات من النبيذ ، ولذا كان النبيذ ضمن صادرات المملكة الصليبية إلى مناطق الغرب الأوربى. ووفقًا لما

ذكره المؤرخ بيجللوتى Pegolotti فإن الأرز الشامى كان أيضا من السلع التجارية خلال الحقبة الصليبية، وإن كان لم يذكر لنا مناطق زراعة فى بلاد الشام.

وبينما كانت صادرات المملكة الصليبية من الزيوت والنبيذ تعتمد على الكم، وذلك لأن مثل هذه المنتجات كانت توجد بوفرة فى جنوب أوربا، فإن زراعة قصب السكر وصناعة السكر كان احتكاراً شرقيًا احتكرته منطقة الشرق العربى الإسلامى. فقد تركزت مزارع قصب السكر ومعاصره حول مناطق صور، وطبرية (وذكر بيجولوتى السكر الذى كان يأتى من الكرك) وحول وادى نهر الأردن، وكانت هذه المناطق بمثابة سوق واسع لهذه المنتجات . وكان قصب السكر يصدر إلى أوربا فى شكل شراب، أو فى شكل بللورت سكر، أو فى شكل مسحوق ، أو فى شكل فطائر محشوة بالسكر. ووجد خام الحديد بالقرب من بيروت، وذكرت المصادر التاريخية أن الحديد المستخرج كان من الصعب تصديره إلى الخارج، بسبب حاجة المنشآت إليه ولاستخدامه فى صناعة الأسلحة واستخدامه فى مواد البناء.

وخلاصة القول أنه كان من الصعب تقييم كميات الحديد المستخرجة من المناطق الصليبية فى بلاد الشام وذلك من وجهة النظر الاقتصادية . وقد ناقش أحد العلماء البارزين وهو ويلهلم هايد Heyd هذه الاشكالية . ووصل إلى نتيجة مؤداها : «أنه من خلال كل ما سبق يمكن أن يتبين لنا كيف كانت بلاد الشام غنية فى صادراتها، بيد أننا بصراحة أمام مجال التفكر والتأمل والتخمين.

وعلى الرغم من القائمة المهمة لمنتجات المملكة الصليبية ، فإن مكانة ووضع هذه المملكة فى التجارة العالمية قد اعتمد بشكل جزئى على كونها منتجًا . وقامت المملكة بدور مهم فى تجارة العبور (الترانسيت) ، إذ كانت بمثابة مركز امداد للسلع والبضائع الصناعية الأخرى التى كانت تصنع خارج حدودها ، وأيضا كمنفذ لاستهلاك السلع والبضائع الأوربية أو اعادة تصدير مثل هذه السلع الأوربية إلى مناطق الشرق العربى الإسلامى.

كانت المملكة الصليبية فى بيت المقدس بمثابة سوق واسع للمنتجات الأوربية ، وقد لعبت بالفعل دوراً مهمًا فى هذا المجال. فقد وصل عدد سكانها والامارات التابعة لها خلال فترة الازدهار الاقتصادى التى مرت بها حوالى ٢٥٠,٠٠٠ نسمة (عدد سكان المملكة ١٢٠,٠٠٠نسمة ، وعدد سكان امارات طرابلس وأنطاكية والرها ١٢٠,٠٠٠نسمة) . ولاشك أن هؤلاء السكان كانوا من الزبائن المستهلكين للمنتجات الأوربية . وكانت الأقمشة

والملابس المستوردة والسلع المصنعة تبلى احتياجات السكان التقليدية. والحقيقة أن مثل هذه الأصناف من المنتجات والمصنوعات الأوربية كالقلنسوات ، والمشروبات الروحية قلما كانت تجد رواجًا فى الأسواق الاسلامية *. وكان الطابع الأوربى لهذه المنتجات أبرز ما يميز المجتمع الاستيطانى الصليبى ، وظل هذا المجتمع الصليبى سوقا دائمة للمنتجات الأوربية.

والواقع أن السلع والبضائع الأوربية التى وصلت إلى منطقة الشرق العربى لم تخصص فقط للسكان الأوربيين فى المملكة الصليبية، بل استمر جزء كبير من هذه السلع الأوربية يأخذ طريقه صوب أسواق المدن الداخلية الإسلامية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى.

وعلى العكس من ذلك، فقد كانت حركة التجارة وتردد التجار المسلمين إلى الأسواق المحلية الأوربية ضعيفة. وثمة شك بسيط حول ما إذا كان التجار فى المدن الساحلية قد نقلوا هذه المتاجر والسلع على متن السفن التجارية إلى جنوب أوربا أو عبر جبال الألب. وعلى أية حال، ففى وقت مبكر من القرن الثانى عشر الميلادى أصبح التجار الايطاليون والبروفنسال وسطاء تجاريين بين الأقطار الإسلامية المترامية الأطراف ، إذ قاموا بعملية التبادل التجارى بين مصر، وشمال أفريقيا وبين منطقة أسبانيا . وبالإضافة إلى أهمية المملكة الصليبية فى تجارة العبور (الترانسيت) فان المستعمرات الصليبية فى المنطقة العربية كانت بمثابة مركز امداد مالى لمجموعة التجار الأوربيين الذين يعملون داخل المراكز التجارية الداخلية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى ولاسيما فى أسواق القسطنطينية ، وأنطاكية ، وعكا والاسكندرية.

وعلى أية حال ، فقد لعبت المملكة الصليبية فى بيت المقدس دوراً مهمًا فى التجارة العالمية، ولايمكن لأحد أن ينكر أن الحروب الصليبية قد أحدثت تغيرا جذريًا (راديكاليًا) فى الوضع التجارى لمنطقة الحوض الشرقى للبحر المتوسط مقارنة لما كانت عليه هذه المنطقة خلال حقبة السيادة الإسلامية. وخلال فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية والتى استمرت مايقرب من قرنين من الزمان ظلت هذه المنطقة الممتدة شرق البحر المتوسط تتبوأ مكانا عليًا

---

* ويمكن تفسير أسباب عدم رواج مثل هذه السلع الأوربية فى الأقطار الإسلامية فى ضوء حقيقة أن الدين الإسلامى يحرم شرب الخمر ويعتبره من الكبائر ، كما أن المسلمين لم يلبسوا القلنسوات الأوربية، وإنما كانت العمامة اللباس المفضل لدى المسلمين (المترجم) .

فى الاقتصاد العالمى وظل هذا الوضع كذلك حتى انهار وتدهور فى أعقاب السيادة المملوكية لهذه المنطقة (خضعت هذه المناطق للسيادة المملوكية حتى سقوط الدولة المملوكية على يد العثمانيين عام ١٥١٧م). حيث خيم عليها التدهور الاقتصادى حتى وقتنا الحالى. وكان وضع المملكة الصليبية فى بيت المقدس باعتبارها مركزا لتجارة العبور (الترانسيت) ومركزا امداد مالى للتجار الأوربيين يساعد فى عملية تدفق المعادن النفيسة والعملات المتداولة إليها بشكل منتظم ، ويمكن أن نعزو ذلك بشكل كبير إلى وجود التجار الايطاليين (البنادقة - الجنوية- البيازنة- الأمالفين) فى هذه المناطق . فقد تحولت موانى هذه المملكة الصليبية إلى موان حرة بسبب الاعفاءات التجارية (رسوم الميناء وضرائب الأسواق) التى حصل عليها التجار الايطاليون فى هذه الموانى. لقد تسببت الامتيازات التجارية والاقليمية التى تمتع بها تجار الكومونات الايطالية فى اقتطاع جزء كبير من موارد الدخل العام للمملكة الصليبية. بيد أن هذه الامتيازات كانت بمثابة تعويض لهذه المدن الايطالية التى قدمت العون العسكرى والمادى للصليبيين : فقد كان التجار الايطاليون والبروفنسال تجذبهم مثل هذه الامتيازات إلى المناطق الصليبية كما جذبيتهم أيضا حالة استقرار الحكم الصليبى فى هذه المناطق العربية التى احتلها الصليبيون . ومما يذكر أن بعض منتجات المملكة الصليبية لم تلق رواجًا فى الموانى والأسواق المصرية ، وبدرجة أقل أيضا فى أسواق أرمينيا وبيزنطة . وتميزت سلع وبضائع دمشق وبغداد بارتفاع أسعارها فى أسواق المملكة الصليبية وذلك بسبب تكاليف النقل الاضافية والمتزايد . وكانت السلع التجارية التى تحقق أرباحًا وفيرة تشمل البهارات التى كانت تأتى من منطقة جنوب وشرق آسيا ، عن طريق الخليج العربى الفارسى إلى أسواق بغداد ودمشق، أو التى كانت إلى أسواق القاهرة أو الاسكندرية عبر طريق البحر الأحمر . وكانت الامتيازات التجارية التى منحها الصليبيون للتجار الأوربيين تمنع تركيز تجارتهم فى مصر، وهكذا استطاعت الكومونات التجارية الايطالية أن تكفل للمملكة الصليبية مستوى اقتصاديًا عاليا تعجز مواردها وموقعها أن تحققه لها.

وخلال فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية والتى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان مرت التجارة العالمية ببعض التغيرات المهمة من حيث حجمها وطبيعتها . وعلى الرغم من النشاط التجارى للمدن التجارية الأوربية ، وهى البندقية ، وجنوا ، وبيزا، ومرسيليا وبرشلونا - والتى لعبت ودرا مهما فى التجارة العالمية- فإن صادرات وواردات هذه المراكز التجارية الأوربية اتسمت بعدم التجانس . وربما كانت توجد هناك بين هذه المراكز الأوربية فوارق محلية، بيد أن هذه المدن والمراكز التجارية الأوربية لم تزود بعضها البعض بالسلع ولم

تزود أيضًا المراكز المجاورة لها. فقد قام تجار هذه المدن الأوربية بتزويد أسواق أوربا بمنتجات مماثلة. وكانت الظروف السياسية تساهم بقدر كبير فى حركة الموانى التجارية واحداث تغييرات فى طبيعة الحركة التجارية فى هذه الموانى (على سبيل المثال تغير النفوذ التجارى البندقى فى القسطنطينية بعد سقوطها فى يد الصليبيين فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة، وأدت الظروف السياسية أيضا إلى أبعاد كل من التجار الجنوية والتجار البنادقة على التوالى من مدينة عكا واعادة تأسيس منشآتهم التجارية فى مدينة صور أو فى بيروت) ولكن لم تترك هذه الأحداث السياسية تأثيرا كبير فى حركة التجارة بشكل عام، وذلك لأن جموع المستهلكين والزبائن فى المملكة الصليبية وفى المناطق الإسلامية الداخلية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى هى التى كانت تقرر حجم وطبيعة التجارة وفقا لاحتياجاتها.

والحقيقة أن معلوماتنا عن امتيازات الكومونات التجارية الايطالية (البندقية - جنوا ، بيزا) والتى ترجع إلى الحقبة الزمنية للمملكة الصليبية الأولى (١٠٩٩-١١٨٧م) قد استقناها وحصلنا عليها من خلال السجلات البحرية الجنوية التى دونها لنا جيوفانى Giovanni ، وأيضا من خلال عدد قليل من السجلات البحرية الأخرى. وتشير هذه السجلات السابقة إلى أن معظم الصفقات التجارية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى قد تطلبت استنزاف وتدفق المعادن النفيسة (كالذهب والفضة) من أوربا إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى. ولم يستطع الغرب الأوربى فى تلك الآونة أن يصل إلى مرحلة التوازن بين صادراته ووارداته . إذ بات على الغرب الأوربى أن يدفع أكثر بالعملة الصعبة لشراء السلع. وما قيل عن الحقيقة المتعلقة باجمالى حجم التبادل التجارى بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ليس بالضرورى تطبيقه عمليًا على مراكز التجارى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. والسبب ، هو أن الغرب الأوربى لم يعتمد عائده التجارى على التجارة مع مناطق الشرق العربى فحسب ، بل اعتمد هذا العائد التجارى أيضا على الأجور والمقابل المادى لنقل المهاجرين والحجاج المسيحيين من أوربا إلى هذه المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين. وبالإضافة إلى ذلك ، وكما أوضحناه آنفا، فقد استطاعت الأساطيل الايطالية أن تنشىء خطوط اتصال بين مختلف المراكز التجارية الإسلامية بعضها مع بعض . وهكذا كانت واردات هذه المراكز التجارية الإسلامية تمثل مصدر دخل اضافى للتجار الأوربيين والايطاليين.

ويجب ألا نبالغ كثيرا فى حجم تداول المعادن النفيسة فى المعاملات التجارية. فقد كانت المنتجات الأوربية تباع فى أسواق الشرق العربى الإسلامى منذ فترة باكرة جداً. وكانت

المنسوجات والأقمشة رخيصة الثمن فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وكانت هذه المنسوجات تشمل (المنسوجات القطنية أو الفستيان ، والمنسوجات الصوفية) بيد أن المنسوجات ذات اللون القرمزى والأخضر والتى كانت ترد من جنوب أوربا كانت غالية الثمن- وكانت السفن تنقل فراء الأرنب الوحشى ، والأخشاب والجلود من أوربا إلى موانىء منطقة الشرق العربى الإسلامى . ولم تكن هذه المنتجات أشياءً جديدة طوال عام ١١٥٠م وليس هناك سبب يجعلنا نقبل الافتراض بأن مثل هذه المنتجات الأوربية لم تصدر إلى الأسواق الشرقية قبل ذلك التاريخ بحوالى جيل أو أكثر، حيث أن هذا الافتراض يفتقر إلى ما يؤكده من خلال السجل البحرى.

لقد أدت ندرة الوثائق التاريخية إلى افتراض بعض العلماء بأن التجارة بين أوربا وبلاد الشام كانت ذات نمط محدد ، يتمثل فى بيع الصادرات، أو استبدال المعادن النفيسة بالمنتجات والعملات المتداولة المحلية، وتدفق رووس الأموال إلى مصر. وبنى هذا الافتراض على أساس حقيقة أن السجلات البحرية تذكر أن الصادرات الأوربية كانت تتجه صوب أسواق بلاد الشام وليس إلى مصر، فى حين تؤكد هذه الوثائق التاريخية (السجلات البحرية) تدفق صادرات ومنتجات مهمة من مصر إلى بلاد الشام، ويبدو أن هذا يمثل جانبا واحد من جاونب الصورة المتعلقة بالموضوع . فلم يوضح هذا الجانب الأحادى من تفسير الظاهرة سبب رواج وقبول هذه المنتجات المصرية فى أسواق بلاد الشام (كانت المنتجات المصرية من القطن والكتان أرخص من مثيلتها ، وأيضا كانت الأنواع الجيدة من الشب توجد فى مصر فقط). وربما نجد تفسيراً لما تذكره لنا السجلات البحرية المربكة من خلال حقيقة أن الصادرات الأوربية إلى مصر كانت محرمة، وفقا الأوامر البابوية ، وكان خرق هذا الخطر البابوى بمثابة اهانة للبابا والبابوية فى روما، وشملت قائمة السلع المحظور تصديرها إلى مصر، الأخشاب، والحديد ، والجلود والقار، وكانت كل هذه السلع من الأدوات التى تستخدم فى صناعة الأسلحة والتى لم توجد فى مصر، كما كانت هذه المواد ضرورية لبناء السفن. ومن المؤكد أن مثل هذه الصفقات التجارية لم تدون فى سجل موثق *، على الرغم من أن معاهدة رسمية تجارية بخصوص هذه المواد المحظورة كانت

* كان عدم تدوين مثل هذه السلع فى السجل التجارى البحرى للسفينة بمثابة عملية هروب من دائرة الحظر البابوى، وكان بمثابة تضليل للواقع ، إذ أن المصلحة التجارية حيث الكسب قد تطلبت التعامل التجارى فى هذه المواد المحظورة لأنها كانت تمثل مورداً ماليا كبيراً (المترجم) .

قد أبرمت بين بيزا ومصر. وهكذا فإن الصادرات الأوربية إلى مصر قد وفرت المال اللازم لعملية شراء المنتجات المصرية على وجه الحصر أو اللازمة لاستيراد التجار الأوربيين للبهارات من أسواق الشرق الأقصى. وكان الوضع مختلفا بالنسبة للمناطق الصليبية فى بلاد الشام. وعلى الرغم من تأكد عملية استيراد المناطق الصليبية فى بلاد الشام مواد البناء من أوربا، فإن عملية الاستيراد هذه كانت قليلة الأهمية إذا ما قورنت بالواردات من الملابس والمواد التجارية الأوربية الأخرى.

ويمكن التثبيت أيضا من ذلك من خلال الحقائق التى ذكرها آنفا لنا الموثق العام الجنوى جيوفانو Giovanni ، فقد ذكر جيوفانى مايربو عن ٣٣٥ معاهدة تجارية (من اجمالى ١٣٠٠معاهدة) ، منها ١١٦ معاهدة تتعلق بايطاليا وصقلية ، ١٠٧ معاهدة واتفاق تجارى يتعلق بشمال أفريقيا، وجنوب فرنسا وأسبانيا، ومنها ١١٢ معاهدة تتعلق بمنطقة الشرق العربى الإسلامى. وكانت هذه المعاهدات التجارية الخاصة بمنطقة الشرق العربى الإسلامى عبارة عن ٥٨ معاهدة تتعلق بالاسكندرية ، و٣٤بندا تجاريا يتعلق ببلاد الشام، و٢٠ عقداً تجاريا مع بيزنطة . وعندئذ كانت هناك رحلتان تجاريتان سنويا من أوربا إلى كل من الاسكندرية وبلاد الشام، بيد أن حجم الاستثمار الأوربى فى مجال التجارة يوضح صورة مختلفة تماما: فقد بلغت الاستثمارات الجنوية فى الاسكندرية ٩,٠٣١ تسعة آلاف وواحد وثلاثون جنيه استرلينى؛ وكانت الاستثمارات الجنوية فى بلاد الشام تصل إلى ١٠٠٧٥ جنيه استرلينى ، وفى أسواق بيزنطة بلغت الاستثمارات الجنوية ٢٠٠٧ جنيه استرلينى. وكان معدل الاستثمار فى كل رحلة تجارية بحرية يبلغ ٣٠٠جنيه استرلينى ، فكان معدل استثمار الرحلة المتجهة إلى الاسكندرية يصل إلى ١٥٦ جنيه استرلينى، ومائة جنيه استرلينى للرحلة المتجهة إلى أسواق بيزنطة . وهكذا فإن رجحان وتفوق التجارة الجنوية مع الأسواق المصرية أمراً ينافى الواقع التاريخى، وأن حجم الاستثمارات الجنوية فى مجال التجارة مع بلاد الشام كان ضعف استثمارات الجنوية فى مصر ، ولذا يمكن القول إن حجم الاستثمارات التجارية الجنوية فى بلاد الشام كان يزيد عن حجم الاستثمارات الجنوية فى كل من مصر وبيزنطة معًا. وهكذا يمكن التثبت من أن المناطق الصليبية فى بلاد الشام كانت تحتل مكانة بارزة فى التجارة بين الغرب الأوربى والشرق العربى الإسلامى. ويمكن تفسير الرحلات التجارية الأوربية المتعددة إلى مصر فى ضوء حقيقة أن الصادرات الأوربية إلى بلاد الشام كانت تتميز بارتفاع سلعها وصغر حجم

هذه الصادرات، فى حين كانت الصادرات الأوربية إلى مصر كبيرة الحجم، وتتطلب فضاء واسعا ومستودعات ، وكذلك سفنا كبيرة لنقلها . ومن ثم تطلبت هذه الصادرات إلى مصر قيام رحلات تجارية عديدة دون رفع اجمالى رؤوس الأموال المستثمرة.

وعندما نتابع السجلات الموثقة (والتى كان أغلبها سجلات جنوية) يمكن أن نقرر حقيقة مؤداها أن النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى لم يشهد أى تغير ملحوظ فى طبيعة تجارة الشرق. وكما ذكرنا من قبل ، فإن الامارات الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين كانت تستورد أقمشة ومنسوجات فخمة غالية الثمن . وأحيانا نسمع عن أقمشة فيرونا التى كانت تصدر من أوربا إلى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين وكذلك إلى المناطق الإسلامية فى بلاد الشام ، وكذلك تصدير السيوف الأوربية إلى بلاد الشام (على الرغم من شهرة سيوف دمشق والتى كانت أسعارها مرتفعة) ، بالإضافة إلى الفضة والعملات المتداولة. وثمة دليل يوضح أن منطقة جنوب فرنسا كانت تصدر إلى بلاد الشام المنسوجات ، واللؤلؤ والذهب.

ويذكر السجل الرسمى الموثق العام أوبرتو من ميركاتو Oberto de mercato أن عام ١١٨٤م شهد ١١٨ اتفاقية تجارية مع بلاد الشام بلغ مجموع استثماراتها ١١٠٩ جنيه استرلينى. وفى عام ١١٨٦م، يذكر نفس الموثق العام ١٤ اتفاقا تجاريًا مع بلاد الشام يبلغ مجموع استثماراتها ٣٠٥٦ جنيه استرلينى؛ وفى عام ١١٩٠م يذكر الموثق العام السابق أوبرتو أن هذا العام شهد ٢٠ عقدا تجاريا وصل مجموع الاستثمارات فيها ٢٠٩١ جنيه استرلينى . وقبل ذلك بعام واحد أى فى عام ١١٨٩، وفى أحداث الحملة الصليبية الثالثة، يذكر لنا الموثق العام جيجليلمو كاسينى Guglielmo Cassines اثنين وأربعين عقدا تجاريا بقيمة اجمالية من الاستثمارات تبلغ ٦٣٨٧جنيه استرلينى . ومما يذكر أن المبالغ الصغيرة فى استثمارات العقود التجارية لعام ١١٩٠م لم تكن ذات أهمية (فقد تراوحت هذه الاستثمارات ما بين ٢-٣ آلاف جنيه استرلينى) ، وعلى الرغم من الاستثمارات التجارية وصلت فى أحد الأعوام إلى مبالغ كبيرة (وصلت جملة الاستثمارات فى هذا العام ما بين ٥٠٠٠-٧٠٠٠ جنيه استرلينى) فإن هذه المبالغ المستثمرة فى المجال التجارى مع بلاد الشام كانت ضئيلة.

وثمة سجل تجارى موثق يرجع إلى الربع الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى يتضمن واردات تأتى إلى أوربا من بلاد الشام. ففى عام ١٢٣٣ أصدرت البندقية قانونا يتعلق بنظام الشحن البحرى (القانون البحرى). إذ كان يتم تنظيم حجم ووزن البضائع والمتاجر وفقا لحمولة

السفينة . وكانت السفينة التجارية تقطع مسافة تتراوح ما بين ٢٠٠-١٠٠٠ ميل وحمولتها تتراوح ما بين ١٢٠-١٠٥٠ قنطاراً . وكانت المنتجات والسلع المستوردة تقسم وتصنف وفق الوزن والحجم . إذ كان الصنف الأول من السلع المستوردة يشمل : القطن ، وغزل القطن، والصوف الذى تصنع منه القلنسوات والعرقسوس Liquorice، وقصب السكر، ونبات خيرى البر Lavender . وضم الصنف الثانى من السلع المستوردة الفلفل ، والفلفل الطويل، والزنجبيل ginger ، وجوزة الطيب nutmeg ، والقرنفل Claves ، وحب العروس Cubebs ، والأرز ، والسكر والسكر الناعم Castor Sugar ، والصمغ gum ، وصمغ اللك Lac . gum، والمر Myrrh والألوة aloe (الصبر) ، والبخور Frankincense ، وحب الهال Cardamon، والجداور المستخدمة فى صناعة العطور Zedoary، والكافور Caphor، وخشب الصندل San-dalwood ، الاهليلج myrobalan ، والشمع ، والرهج الأصفر Orpiment ، والنشا والشمع wax ، والنيلة المستخدمة فى صناعة الصباغة indigo، والشب alum ، والزجاج والزاج Vitriol ، والصنفرة emery، والحرير الخام، والأقمشة الحريرية، وقماش البقرم المستخدم فى تجليد الكتب buckram. وكان الصنف الثالث من السلع المستوردة يضم : خشب البرازيل Brazilwood، والكتان flax ، والقرفة Cinammon، والكمون Cummin، واليانسون an-ise، والكاملت أو الخملة Camlot وهو نسيج من وبر الجمل ، والتابل المستخرج من قشرة جوزة الطيب الخارجي nuace.

وبعد خمسة عشر عاما من الربع الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى أى فى عام ١٢٤٠م أعلن الموثق العام المارسيلى المدعو أماريك قائمة الصادرات الأوربية إلى بلاد الشام من السلع والبضائع الأوربية مقابل الواردات الأوربية التى كانت تشمل قائمة المنتجات الشرقية التى ذكرناها آنفا. فقد كانت السفن التجارية تغادر ميناء مرسيليا فى ربيع عام ١٢٤٨م وكان القديس اسبريت The Saint Esprit صاحب احدى هذه السفن التجارية - وهو الذى كان يعمل لدى ريموند صفرن Raymond Suffren والذى استفاد من الخدمات التى كان يقدمها الموثق العام المارسيلى أماريك الذى ذكرناه آنفا. وكانت سجلات هذا الموثق العام المراسيلى بمثابة قائمة لجرد محتويات السفينة من البضائع ، مع أن بعض العقود التجارية الأخرى المتعلقة بنفس الرحلة ربما قد أبرمت على يد موثق عام آخر. وخلال الأسبوعين السابقين لمغادرة السفينة (١٤-٣١ مارس سنة ١٢٤٨م) قام الموثق العام المارسيلى أماريك بتسجيل ١٥٠

عقد تجارى وهى العقود التى شملت ١٨٠ تاجراً ، ووجد على متن السفينة ثلث عدد التجار السابقين أى ستون شخصًا ، بينما كان الثلثان (وهم المستثمرون) يبقون فى مرسيليا . وكانت جملة المبالغ المستثمرة (أموال أو متاجر) تتراوح قيمتها ما بين ١٠ -٥٠ جنيه مارسيللى (وكان هناك خمس حالات يبلغ الاستثمار فيها أقل من ١٠ جنيه استرلينى؛ ٥٩ حالة يتراوح معدل الاستثمار فيها ما بين ٥٠-١٠٠ جنيه استرلينى ، و٢٤حالة وصل الاستثمار فيها ما بين ٥٠-١٠٠ جنيه استرلينى ، ٣٠ حالة وصل معدل الاستثمار فيها إلى أكثر من ١٠٠جنيه استرلينى). وكان من بين التجار المسافرين تاجر يدعى بيير بيلاجيو Pierre Bellaigue والذى تسلم مبلغا من المال يقدر بـ ١٣٢٣ جنيه استرلينى بموجب ثلاثة عشر عقدا تجاريًا (وكان معدل الاستثمار فى كل اتفاقية تجارية يتراوح ما بين ٧٨-٢٣٠جنيه استرلينى). وكان يوجد أيضا على متن السفينة بضائع لتجار محليين كأمانة، وخليط من العملات الشرقية والغربية، وهذه الأموال كانت تستخدم كقروض بحرية ، أو كانت تستخدم لشراء السلع والبضائع الشرقية . وكانت الحصة الكبرى من المتاجر التى تحملها هذه السفينة تتكون من سلع وبضائع شتى ومتعددة بيد أن معظم هذه البضائع والسلع كانت عبارة عن الأقمشة. وقد حملت الأقمشة اسم المنطقة التى ترد منها فمثلاً أقمشة ومنسوجات شالون (ذات الألوان الأخضر والأزرق والأبيض)، ومنسوجات ريمس Reims وأنواع أخرى من الأقمشة تعرف باسم أقمشة تاراسكون Tarascon، وأقمشة ناربون، والأقمشة الصوفية من منطقة سان بون Saint Pons وآراس Arras ، وملابس وأقمشة من اقليم شمياتى، وملابس اللوفر، والملابس المجلوبة من كامبرى فى اقليم سانت كونتين St. Quentin ، والملابس والأقمشة السوداء من ستانفورد Stanford فى انجلترا ، والقماش الخشن الصوفى أو الكتان من شارتر ، والأقمشة القرمزية اللون، وأقمسة يبرس Ypres الحمراء اللون، والأقمشة الحريرية ، وأقمشة أفينيون المطرزة بالخيوط الذهبية المجلوبة من جنوا ولوكا، وخيوط الغزل من برجاندى ، وأقمشة دوى Douai ذات الشكل واللون البنى، والقماش القطنى المصنوع فى باريس ، وأقمشة من ألمانيا . وكانت المواد التجارية الأخرى تشمل الزعفران ، والقصدير Tin، والمرجان Coral، والفضة النقية والفراء.

ولاشك أن قائمة السلع والبضائع المصدرة التى ذكرناها آنفًا تعتبر ذات أهمية كبيرة وتبرز أهميتها بشكل أكبر إذا حاولنا تحديد القيمة المادية لهذه المواد التجارية المصدرة . فقد كانت القيمة المادية للسلع والبضائع التى احتوتها حمولة سفينة القديس اسبريت Saint esprit تقدر

بحوالى ١١١٠٠ جنيه من عملات مرسيليا المتداولة، وكانت قيمة متاجر مدينة ملجيه -Mel gueil تبلغ ١١١٠ جنيه مارسيلى، وكان نصيب مدينة تور من التجارة يقدر بـ ١٢٢٨جنيه مارسيلى أيضا *. وفى تلك الآونة أيضا وخلال فترة قصيرة أعقبت الأول من شهر أبريل سنة ١٢٤٨ غادرت أكثر من ثمانى سفن تجارية ميناء مرسيليا فى طريقهم صوب أسواق الشرق.

والواقع أن التجار الجنوية فقط هم الذين دونوا سجلات تجارية لمتاجرهم ولو بشكل جزئى وذلك منذ القرن الثانى عشر الميلادى، بيد أن بعض الدراسات التاريخية تشير إلى حقيقة مؤداها، أن حجم الاستثمارات التجارية الجنوية فى أسواق الشرق العربى فى بلاد الشام وفلسطين خلال فترة الثلاثين عاما (مابين عامى ١٢٣٣-١٣٦٢ باستثناء فترة الحرب التى نشبت بين الكومونات التجارية فى عكا ما بين عامى ١٢٥٦، ١٢٥٨م) كانت كبيرة جداً. فقد وصلت الاستثمارات التجارية الجنوية فى عام ١٢٥٣م إلى أكثر من ٥٠,٠٠٠ جنيه استرلينى . وظفرت جنوا وحدها بنصيب كبير فى التجارة مع الشرق تراوح ما بين ٤٠-٧٠ ٪ من حجم التجارة مع الشرق.

وثمة وثيقة صليبية فى مدينة عكا ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى تلقى المزيد من الضوء على حجم صادرات المملكة الصليبية فى بيت المقدس إلى الغرب الأوربى. فقد قُدر لبعض أصناف السلع التجارية التى كانت تفرض عليها ضرائب ورسوم أن تستخدم فى تموين ركاب السفن والبحارة ولم يكن هناك ضرورة لإرسال مثل هذه السلع إلى أوربا . فمثلاً كانت سلع التصدير إلى أوربا تشمل السمك المملح المجلوب من مصر أو من الانتاج المحلى للمناطق الصليبية ، وأيضا الدواجن ، والديك الرومى، والأوز، والزيتون ، والهليون asparagus ، والتفاح ، والكمثرى ، والسفرجل quince وكانت كل هذه الأصناف تصدر إلى أوربا . ولاشك أن قائمة جرد السلع والبضائع المفروض عليها الرسوم الجمركية هى التى قد ذكرت مثل هذه الأصناف التى صدرت إلى الأسواق الأوربية. ومن بين السلع المصنعة والتى كانت ضمن الصادرات ، الحرير، والقطن، وخيوط الغزل من دمشق ، والصمغ ، والأقمشة الكتانية ، وقماش البقرم السميك، والعاج، والأوانى الخزفية المحلية، والدعامات والعوارض الخشبية والمعدنية اللازمة لبناء السفن (وربما كانت هذه العوارض تصدر إلى مصر)، بالإضافة

---

* مما يذكر أن كل ١٠٠ قطعة من نقود مرسيليا كانت تساوى ٢٥٠ بيزنت صليبى. ولاشك أن هذا لايعبر عن القيمة الحقيقية للعملة، بيد أن هذا يوضح أن القروض التى كانت تقدَم للتجار كانت بفائدة عالية (المؤلف) .

إلى سروج الخيول والزنار . ومن الصادرات أيضا البصل (الذى كان يسمى كرات عسقلان الشهير)، والتين الشوكى Prickly Pears والبلح، والسمسم، واللوز وما شابه ذلك من السلع التى كانت تصدر أو التى كان يتم تزويد السفن بها وهى السفن التى كانت تمر من ميناء عكا فى طريقها إلى أسواق أوربا. وكانت البهارات والعطور والأصباغ تمثل الجزء الأكبر من سلع الصادرات التجارية. والحقيقة أن البهارات المصدرة قد شملت العرقسوس liquorice، والشب ، والبخور ، وحب الهال Cardamon ، والنشادر ammoniae ، والرهج الأصفر Orp-iment، ولب الكافور والقرفة Cinnamon، والصنفرة، والألوة aloe (المر) ، والقرنفل Clove، وجوزة الطيب nutmeg ، والمسك musk، والبندق ، ومعظم أنواع السكر، ونبات الخزامى المستخدم فى صناعة العطور lavender، والاهليلج myrobalam والزنجبيل ginger، ونبات الخزامى aspic ، والقرنفل clove.

وتشير كل المصادر التاريخية التى ترجع إلى الفترة من منتصف القرن الثانى عشر إلى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى إلى أهمية المملكة الصليبية فى التجارة العالمية ودورها الذى لايمكن اغفاله وتجاهله.

د- الميناء التجارى

الواقع أن النشاط التجارى فى أية مدينة بحرية يتركز بشكل أساسى فى منطقتين مهمتين هما الميناء والأسواق- أى منطقة الميناء والأسواق. وكان شارع الميناء يضم أجهزة وأدوات الميناء التجارى، وأماكن لعرض السلع وبيعها، ومخازن ومستودعات للبضائع ، ومكاتب للجمارك ، ومبنى لمحكمة الميناء (محكمة السلسلة) التجارية. وكانت المدن التى تقع عند أطراف الطرق التجارية العالمية تضم الخانات وأماكن لاستراحة تجار القوافل البرية وكانت هذه الخانات تؤدى نفس مهمة الميناء التجارى. وفى الميناء كان التجار يدفعون الرسوم الجمركية المستحقة على متاجرهم، ثم تودع متاجرهم فى المستودعات ، وبعد ذلك يذهب التجار إلى نزل خاصة بهم ليبيتوا ليلهم. وكان موظفوا الجمرك فى الميناء من رجال الدين المسيحيين الوطنيين الذين يعرفون اللغة العربية وكان رئيس الجمرك هو الذى يعين هؤلاء الموظفين فى حين كان سيد المدينة هو الذين يعين رئيس الجمرك*.

---

* يشير ابن جبير إلى ديوان الجمرك فى ميناء عكا فيقول: «وحضرنا إلى الديوان، وهو بمثابة خان مجهز=

كانت عملية انزال البضائع وتفريغها على الشاطىء من العمليات التجارية المعقدة فى العصور الوسطى، وذلك على خلاف الأسلوب الحديث فى ضبط أعمال الجمارك فى الوقت الحالى، فقد كان موظفو الجمارك فى الموانى الصليبية يهتمون بالمتاجر ، وبفحص الوضع القانونى للسفن التجارية وكذلك الوضع القانونى للتاجر صاحب الرحلة التجارية. فعلى سبيل المثال كانت الأقمشة الكتانية التى تصل إلى ميناء عكا كواردات يدفع عنها الرسوم الجمركية المستحقة وفقا لكميتها وللامتيازات التى يتمتع بها التاجر المستورد. فقد اختلفت قيمة الرسوم الجمركية التى كان يدفعها التجار البنادقة والبيازنة والجنوية من ميناء إلى آخر، أى كانت تختلف القيمة مثلا من ميناء يافا إلى ميناء عكا، ومن ميناء بيروت إلى ميناء صور. وعلى أية حال، فإن هذه الرسوم الجمركية التى كان يدفعها هؤلاء التجار الايطاليون كانت أقل كثيرا من الرسوم التى كانت تفرض على التجار الآخرين الذين لم يتمتعوا بامتيازات تجارية أو إقليمية. ومن ثم فإن أسعار السلع التجارية المستوردة كانت تختلف وفق الرسوم الجمركية التى فرضت عليها . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد اختلفت رسوم الميناء التى كانت تدفعها السفن، ولاشك أن هذه الرسوم كانت تؤثر فى الأسعار النهائية للسلع والمنتجات المستوردة.

كانت السفن التجارية تدفع نوعين من الرسوم الجمركية، النوع الأول هى ضريبة الوارد Tercirium والنوع الثانى هى ضريبة الرسو أو الوصول anchoragium وكانت الضريبة الأولى تقدر بثلث قيمة المتاجر ، ولم يتضح ما إذا كانت هذه الضريبة الأولى تقدر بثلث قيمة النقل . وعلى الرغم من أن تكاليف النقل كانت مرتفعة ، فإن سلطات مرسيليا كانت تحصل من ربابنة السفن وأصحابها ثلث الرسوم التى كان يدفعها الحجاج الأوربيون الذين يريدون الذهاب إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام. ولاشك أن ضريبة الوصول هذه Ter-ciarium كانت ضمن الاعفاءات التى تمتع بها تجار الكومونات الايطالية .

= ومعد لأن يكون محطة ومكانا لاستراحة القوافل ، وقبل الدخول إلى بوابة الديوان وجدنا رصيف الديوان مفروشا بالسجاد حيث مقعد ومكان جلوس سكرتارية الديوان وهم من المسيحيين ، ثم وجدنا المكاتب المحلاة والمزينة بالأبنوس وبقطع ذهبية مشغولة، وهؤلاء الموظفين يستخدمون اللغة العربية فى الكتابة واللغة أى فى الحديث ، وكان رئيس الديوان يسمى شهاب الدين (وهو رئيس الجمارك) ولم يمر أى تاجر دون أن يراه هذا الشهاب (ابن جبير : الرحلة ، ص٣٣١) (المترجم).

لقد أدت ضريبة الوصول Terciarium إلى حدوث مشاحنات بين سلطات المدينة وبين تجار الكومونات الايطالية الذين تمتعوا بامتيازات واعفاءات تجارية فى المدن الصليبية. ففى عام ١١٢٣م، عقدت معاهدة جديدة بين الحكام الصليبيين والبنادقة فرض على الجنوية بموجبها دفع ضريبة على نقل الحجاج الأوربيين المسيحيين الذين يأتون إلى الأراضى المقدسة على متن سفن بندقية ، وكذلك على نقل الحجاج العائدين إلى أوطانهم على متن هذه السفن أيضا. ولقاء ذلك حصل البنادقة على مكافأة وتعويض سنوى يقدر بـ ٣٠٠ بيزنت من أسواق صور ثم بعد ذلك من أسواق عكا. وبعد ذلك بمدة وجيزة ، وفى عام اعترض البنادقة على هذه الضريبة واعلنوا أنهم سوف يدفعون ضريبة على عوده الحجاج الأوربيين فقط إلى أوطانهم على متن سفنهم. ووجدت هذه الضريبة أيضا فى أنطاكية وكانت بمثابة ضريبة ثالثة . وفى عام ١٢٠٠ منح الأمير الصليبى بوهمند امتيازا للبيازنة خفضت هذه الضريبة بموجبه إلى ثلث قيمتها العادية. وفى طرابلس أعفى الجنوية من هذه الضريبة (ضريبة الحجيج أو ضريبة عودة الحجيج) والتى كان تشمل ضريبة نقل الحجاج .

كانت ضريبة الرسو وثيقة الصلة بضرية نقل الحجاج والتى كانت فى مثل هذه الحالات بمثابة ضريبة الميناء. وثمة ضريبة أخرى استمدت اسمها من ذلك الغرض الذى دفعت من أجله وهى ضريبة القيراط Carates وقد ثبت أن هذه الضريبة كانت قيمتها $\frac{١}{٢٤}$ من قيمة حمولة السفينة من السلع والبضائع.

وكانت المساومة على الرسوم الجمركية تبدأ عند دفع هاتين الضريبتين (ضريبة الحجاج وضريبة القيراط) بين التجار وبين سلطات وموظفى الجمرك فى الميناء. وعندما يمعن القارىء فى الوقت الحالى فى حجم الامتيازات التى تمتعت بها مختلف الأجناس من التجار الأجانب فى مدينة عكا فإنه يتعجب كثيرا إذا شاهد أن أى تاجر من هؤلاء التجار يدفع الضرائب العادية فى الميناء أو فى أى مكان آخر. وهذا الوضع يذكرنا ببيع تذاكر القطار فى محطة سكة حديد فى ايطاليا، أو فى بلاد اليونان أو فى فرنسا فى العصر الحالى. وهى العملية التى عادة يصحبها الصخب والضجيج، وذلك لأن الركاب المحليين كانوا فى العادة يحضرون إلى منفذ بيع التذاكر وبصحبتهم الوثائق التى تدل على اعفاءاتهم الكاملة أو الجزئية من أجرة الركوب أو التى تدل على تخفيض أجرة الركوب وهؤلاء الركاب إما جنوداً ، أو من رجال الشرطة، أو من قدامى المحاربين المعاقين أو من كبار موظفى المصلحة الذين اعتادوا الذهاب والاياب

بالقطار بدون أجر أى مجانًا. ويمكن مقارنة مثل هذا التفاوت فى أجر تذاكر قطار السكة الحديد بعملية فرض الضرائب وتقديرها فى العصور الوسطى حيث التفاوت أيضا بسبب امتيازات التجار الايطاليين، فقد كان هناك تجار يتمتعون باعفاء كامل من الضرائب ، وبعض التجار كانوا يدفعون ضرائب مخفضة. كان كل تاجر يدعى حقه فى هذه الامتيازات ، والتجار الذين لايستطيعوا اثبات امتيازاتهم واعفائاتهم كانوا يحاولون بشتى الطرق اثبات ذلك تارة عن طريق القسم أو ثبوت النسب والجنسية وتارة أخرى عن طريق الخديعة الاحتيال وقد تمتع تجار المدن القريبة من مدينة جنوا بالامتيازات التى تمتع بها تجار جنوا، فكان هناك تجار من توسكانيا يدعون أنهم من بيزا ، وتجار من اقليم البروفانس ادعوا أنهم من مرسيليا ، وتجار من كتلان ادعوا أنهم من برشلونة *. ونظرا لعدم وجود الأوراق والمستندات التى تثبت هوية هؤلاء التجار فإن عملية تصنيف التجار ومعرفة مواطنهم الأصلية كانت صعبة التحقق ولذا فإن عملية جمع وتحصيل الضرائب التجارية فى المناطق التجارية الواقعة شرق البحر المتوسط كانت هى الأخرى عملاً بطوليًا وفذًا من جانب موظفى الجمارك . ولاعجب ، فقد كانت الكوميونات التجارية الايطالية (البندقية - جنوا - بيزا) ترسل المسئولين عن هذه الكوميونات إلى الميناء لتقديم المساعدة لبنى جلدتهم من التجار، ومساعدتهم فى اثبات هويتهم لدى موظفى الجمرك، وضمان حصول تجار هذه الكوميونات على امتياز الاعفاء. ولسوء الحظ فإن بعض هؤلاء التجار كانوا يدفعون رسومًا جمركية كاملة، فى ميناء عكا، وكانت هذه الضريبة تعرف باسم ضريبة دخول الميناء، وهذا الاسم فى حد ذاته كان اسمًا مؤقتا وعرضيا لهذه الضريبة . فقد كانت نسبة الرسوم الجمركية العادية فى ميناء عكا تصل إلى $\frac{1}{2}$ ١١٪ من قيمة اجمالى المتاجر المنقولة.

وعلى الرغم من أن الاعفاءات الجمركية التى كان يتمتع بها تجار الكوميونات الايطالية قد تحددت منذ وقت مبكر من الوجود الصليبى، فإن اجمالى هذه الاعفاءات قد وصل إلى نصف الرسوم المفروضة ، أى انخفضت الرسوم الجمركية. ففى أنطاكية دفع البنادقة رسومًا جمركية قدرها ٥٪ على الكتان والملابس الحريرية ، و٧٪ على باقى البضائع الأخرى، بيد أن هذه

---

* كان الغرض من ادعاءات هؤلاء التجار هو الاستفادة من اعفاءات الكوميون الذى يدعون الانتماء إليه. وعلى الرغم من صرامة الاجراءت، فإنها صعبة التنفيذ (المترجم) .

الرسوم قد انخفضت فى عام ١١٥٣م إلى ٤٪ و٥٪ على التوالى . وفى نفس الوقت وفى عام ١١٥٤م دفع التجار البيازنة فى أنطاكية نصف الرسوم الجمركية المقررة على دخول الميناء، والخروج منه ، والبيع والشراء، ولكنهم تمتعوا باعفاء كامل من الرسوم الجمركية فى طرابلس فى عام ١١٨٧م. وخلال العصر الزاهر للمملكة الصليبية قام الملك الصليبى عمورى باعتباره كونت يافا وعسقلان بتخفيض الرسوم الجمركية المستحقة على التجار البيازنة إلى النصف فى كل من مينائى يافا وأنطاكية. وفى اطار سلسلة امتيازات الجنوية فى طرابلس وجبيل، وصور، وأنطاكية، ادعى الجنوية أنهم يتمتعون باعفاء كامل من كافة الرسوم الجمركية. ومهما يكن من أمر فإنه لدينا صورة مختلفة لتفاصيل هذه الامتيازات . ويجب أن نضع فى ذهننا حقيقة أن هذه الاعفاءات الجمركية فى الميناء كانت بمثابة مرحلة أولى فقط من مراحل الدخول إلى أسواق المملكة الصليبية (كانت هذه الاعفاءات خاصة بالواردات وخاصة برسوم العبور أو الترانزيت)، أو كانت كمرحلة أخيرة بالنسبة للصادرات . ولكى نقيم كل الرسوم الجمركية المفروضة على المتاجر والسلع تقييما كاملا فإنه يجب علينا أن نضيف تلك الرسوم والضرائب التى كانت تفرض على التجار عند بوابات المدينة وضريبة الأسواق . وفى بعض الحالات كان يتم اعفاء الكوميونات التجارية الايطالية من هذه الرسوم الجمركية، وفى حالات أخرى كانت تخفض هذه الرسوم إلى النصف، وثمة مثال جيد لاجمالى الاعفاء الجمركى الذى تمتع به التجار البنادقة بموجب الامتياز الذى منحه لهم الأمير الصليبى كونراد مونتفرات فى عام ١١٩٢، أو الاعفاء الذى منحه لهم يوحنا الابلينى سيد بيروت فى عام ١٢٢٩ . وهكذا وبالإضافة إلى الاعفاءات الجمركية فى الميناء فإنه قد تقرر بوضوح أن المتاجر التى تباع فى أسواق بيروت سوف تعفى من الضرائب . وشملت قائمة السلع المعفاة من الضرائب: القطن ، والحرير، والملابس الحريرية، والفلفل، والبخور ، والسكر، وكل أنواع البهارات، والنيلة المستخدمة فى صناعة الأصباغ، والصوف ، والملابس الصوفية، والملابس الكتانية ، واللؤلؤ ، والأحجار الكريمة ، والأوانى الزجاجية، والصابون . وفى تلك الآونة أيضا وفى عام ١٢٢٣ حصل الجنوية على امتيازات تجارية فى مدينة بيروت وبمقتضى هذه الامتيازات أعفى هؤلاء التجار الجنوية من كافة الرسوم المستحقة على القيشانى ، والنبيذ ، والزيوت . ومن ناحية أخرى، فإن البيازنة (ووفقا للامتيازات التجارية التى حصلوا عليها فى أعوام ١٢١٠، ١٢١٦م) دفعوا نصف الرسوم المستحقة على متاجرهم الشخصية فى ميناء أنطاكية. وبموجب الامتيازات التى منحها هنرى الشمبانى للجنوية فى صور بات على تجار جنوا دفع الرسوم الجمركية المستحقة

كاملة على الواردات التى يجلبها هؤلاء التجار من بلاد المغرب (البربر) ، ومصر ، ومن مناطق الشرق الإسلامى ، ومن أسواق القسطنطينية ، بيد أن تجارة المرور (الترانزيت) للجنوية كانت معفاة اعفاءً كاملا من الرسوم الجمركية. وفى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى تمتع التجار البنادقة بنفس الوضع السابق فى مدينة صور ، فقد كانت قيمة الرسوم المفروضة على السلع والبضائع المستوردة من دمشق أو من أى مركز اسلامى آخر تبلغ $\frac{١}{٣}$ ٩٪ وكانت نفس النسبة تفرض على الواردات البندقية . وكانت المتاجر التى تنقل من ميناء عكا إلى البندقية تفرض عليها رسوم جمركية قيمتها $\frac{١}{٦}$ ٤ ٪ وتزداد هذه النسبة قليلاً لتصل إلى ٥٪ فى حالة نقل المتاجر من البندقية إلى دمشق أو إلى منطقة اسلامية أخرى.

وعلى الرغم من تسليمنا بأن الميناء كان يتعامل فقط مع الصادرات والواردات، فإننا قد سمعنا أن الأمير الصليبى يوحنا دى بيرين Jean de brienne قد أعفى التجار الشوام الذين كانوا يقطنون الحى الملكى فى مدينة صور من الرسوم الجمركية التى كانت تدفع فى الميناء- مما ألحق الضرر المادى بالبنادقة - وقد أدى هذا إلى انتقال التجار الشوام من الحى الخاص بهم فى مدينة صور إلى الحى الملكى فى مدينة بيت المقدس.

هـ- الفندق والأسواق المحلية

لقد قسم مؤرخ القرن الرابع عشر الميلادى الشهير فرانسسكو بيجولوتى Francsco Balducci Pegolotti موضوع كتابه إلى أسفار تعليمية عدة وهى:

الأسواق العربية فى جنوا	Bazarro erabo in genovesco
الفندق فى بيولونجو	Fondocin piu Lingue
الفندق فى قبرص	Fonda in Cipri
فى فيامنجو	Alla in fiammingo
الرضاعة عند المسلمين	Sugo in Saracinesco
	Fiera in Toscanae in piu linquaggi.
	Panichiero in grechesco

والواقع أنه ثمة شعور عام بأن مؤسسة السوق مهما تعددت أسماؤها فى اللغات العالمية المختلفة فإن السوق يعنى رابطة ومكان لتجمع التجار وملتقى لهم لكى يمارسوا فيه أعمال

البيع والشراء. فالسوق مهما تعددت مسمياته فإنه سيظل المكان الذى تباع فيه المتاجر والبضائع فى المدن الصغيرة والمدن الكبيرة والقلاع . وأيضا هو المكان الذى تباع فيه كل أنواع المأكولات والحاجيات التى يحتاج إليها الإنسان فى حياته اليومية ، وكذلك بيع وشراء الحبوب والدواب. إذ كانت بعض الأسواق تعقد بصفة دائمة (الأسواق الدائمة) ، وبعض هذه الأسواق كانت تعقد فى أوقات محددة من أيام الأسبوع أو الشهور أو السنة (الأسواق المؤقتة) . ومع ذلك ، فإن مؤسسة السوق بشكل عام اختلف دورها ونشاطها من مكان إلى آخر. وكان هناك خط فاصل بين الأسواق الدائمة والأسواق الموسمية. وقد أشار بيجولوتى Pegolotti إلى إحدى الخصائص الرئيسة التى تميز الأسواق الصليبية، بمعنى أن أبرز سمات الأسواق الصليبية هو ديمومتها أى أنها كانت أسواقا دائمة .

فقد كانت كل مدينة صليبية تضم مركزا تجاريًا من أجل تلبية احتياجات السكان المحليين الحياتية. وكان هذا المركز يعرف باسم الفندق وأحيانا كانت منطقة الفندق عبارة عن رحبة واسعة Plathea أو شارع Ruga، وهذه تطابق كلمتى Rue و Piazza فى اللغات الحديثة. لقد كان الفندق عبارة عن ميدان غير منتظم الشكل تحيط به المبانى، ذات الممرات الضيقة بين المنازل التى تعلوها طوابق عليا فى حين كانت الطوابق السفلى من هذه المنازل تستخدم كحوانيت مزودة بمصاطب تعرض فوقها البضائع والسلع ، فى حين كانت الأدوار العليا من المنازل تخصص لاقامة وسكنى التجار أو كمخازن ومستودعات لمتاجر هؤلاء التجار الوافدين، وكانت بعض شوارع الأسواق مسقوفة لحماية روادها من حرارة الشمس أو من المطر. وسقفت بعض هذه الشوارع بقماش متين يمكن فكه وتركيبه وفقا لحالة الطقس.

ووفقا للنظام الشائع فى الأسواق الأوربية فإن هذه الأسواق الصليبية كانت تتخصص فى بيع وشراء نوع معين من البضائع والمنتجات أى أنها كانت أسواقًا نوعية وتلك سمة كانت تميز الأسواق الصليبية، وثمة سمة أخرى لهذه الأسواق وهى أنها أقيمت وفقًا للأصل العرقى أو الدينى للتجار. وعلاوة على ذلك فإن التركيب السياسى للمدينة كان مسئولاً عن تعدد المراكز التجارية بها ، ووجدت هذه المراكز التجارية وفقا لتعدد القوى السياسية والاجتماعية بها.

كانت التجارة المحلية تتعامل مع المأكولات والأطعمة ومنتجات أرباب الحرف المحليين ، هذه المأكولات والأطعمة كانت تشمل : الحبوب، والزيوت ، والنبيذ، والخضروات (نظرا لحجمها الكبير وانتاجها الوفير) إذ كانت هذه الأطعمة والمأكولات تنقل من الشوارع الضيقة للأسواق

إلى أماكن أكثر اتساعًا . وهكذا فإن السوق فى مدينة بيت المقدس كان عبارة عن ميدان فسيح يقع إلى الشمال مباشرة من البوابة الرئيسة للمدينة والقريبة من القلعة ، وكان هذا السوق مخصصًا لبيع الحبوب. وكان موقع هذا السوق يسهل عملية النقل وعملية تحصيل وجباية ضرائب السوق عند القلعة.

ومما يذكر أن السوق كان يمثل المركز التجارى الثانى الضخم فى مدينة بيت المقدس. وكانت البهارات والفواكه من السلع الأصغر حجما والأعلى سعراً، وكان لها سوق خاص ضمن التقسيمات النوعية لهذا السوق، إذ كان سوق البهارات والأعشاب الطبية فى مدينة بيت المقدس عبارة عن شارع مسقوف يعرف بشارع الأعشاب ، والذى كان يباع فيه كل أنواع البهارات والفواكه . وكان شارع الأعشاب (سوق البهارات) يتقابل مع سوق السوق الذى ينحرف صوب ساحة واسعة تعرف بسوق الدجاج الذى يعرض فيه كل أنواع الطيور والدجاج ، والبيض، والجبن. وكانت التقسيمات الأخرى للسوق تشمل شارعًا يضم المطاعم التى تبيع المأكولات والأطعمة المطهية وكذلك بيع الأقمشة. وهذه المنطقة الثانية من السوق والتى ضمت المطاعم ومحلات بيع الأقمشة والتى ذكرناها آنفا كانت تقع بالقرب من كنيسة الضريح المقدس عند ملتقى شارعى المدينة المقدسة الرئيسيين (وهما الشارعان الممتدان من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب واللذان يقسمان المدينة) . وكانت منطقة السوق الثالثة تقع بالقرب من منطقة المعبد، حيث تجاور حائط المبكى. وهنا كان يوجد سوق الماشية (كان سوق الماشية فى المنطقة العربية يضم عدداً من الأغنام أكبر من عدد الثيران) والذى كان يوجد على مقربة من سلخانة ومدبغة المدينة .

ولاشك أن هذه المراكز التجارية (الأسواق) فى المناطق العربية التى احتلها الصليبيون فى بلاد الشام وفلسطين لم تكن وليدة الحقبة الصليبية، ولكن هذه الأسواق كانت موجودة فى هذه المناطق قبيل الحروب الصليبية، وثمة سبب يجعلنا نفترض مثل هذا. ومن المحتمل أن المسيحيين الشرقيين قد احتفظوا بالتقاليد الطبوغرافية للمدينة العربية ونقلوا هذه الطبوغرافية إلى المستعمرين والمستوطنين الصليبيين الجدد. وكانت مثل هذه المواقع وتخطيطات المدينة ملائما ومناسبا ومن ثم طبق الصليبيون هذا التخطيط فى المدن التى احتلوها. وما زالت بعض هذه المدن تحتفظ بتخطيطها حتى عصرنا الحالى.

وهكذا أنشىء فى مدينة بيت المقدس مراكز تجارية وأسواق وفق الاحتياجات الاقتصادية

فقط. ومع ذلك ، فقد كان الصيارفة الشوام واللاتين يجلسون على طاولاتهم الخشبية الممتدة على جانبى السوق عند نهايته ، ويبدو أن التقسيم العرقى للسكان لم يؤثر البتة فى عملية التسويق بشكل عام، وهكذا كان من اليسير تحصيل مختلف أنواع الضرائب فى الأسواق .

ولم يكن تحصيل ضرائب السوق هو الشكل الأوحد فقط لتنظيم مؤسسة السوق . فقد كانت مدينة بيت المقدس مدينة داخلية ومن ثم فإن رسوم البوابات وضرائب السوق كانت كافية للسيطرة على حجم كافة المتاجر والسلع التى تصل إلى أسواق المدينة عبر البوابات . وثمة حقيقة مهمة مؤداها ، أنه بالرغم من وجود حى البطريرك المتمتع بالحكم الذاتى فى مدينة القدس، فإنه لم تكن هناك منطقة فى المدينة تتمتع باعفاء تجارى. فقد كانت الأسواق الصليبية فى مدينة القدس أسواقا ملكية . وكانت المؤسسات الكنسية تمتلك الكثير من الأملاك ، مثل الحوانيت ، أو الطاولات الخشبية فى الأسواق ، أو أفران المدينة . وكانت هذه الأملاك تكفل مورداً ماليا لأصحابها من عائد الايجارات بيد أن ذلك لم يعفى التاجر من دفع ضرائب السوق المستحقة على متاجره لسيد المدينة.

وقد وجد مثل هذا الوضع أيضا فى مدينة بيروت . فلم يمنح أمراء أسرة ابلين الصليبية امتيازات اقليمية لأى تاجر أجنبى، على الرغم من أنهم كانوا أكثر سخاءً فى منحهم الامتيازات التجارية. وهنا نلقى الضوء مرة ثانية على سوق يمتلكه أمير صليبى تباع فيه بضائع وسلع مختلفة فى الامارة الصليبية كانت تخصص له مناطق محددة. ولايمكن أن نعزو وجود مثل هذه الأسواق فى الامارات الصليبية إلى حاجة المجتمع العادية وهو المجتمع الذى كان يضم أناسًا جاءوا من أماكن شتى وعملوا فى حرفة واحدة (وفى حالات كثيرة كان التجار أيضا منتجين) ولكن وجود مثل هذه الأسواق كان وثيق الصلة بالاشراف الادارى الحكومى فى الامارة. فقد كان مراقب السوق ومعاونوه . يمارسون سلطة الاشراف على الأسواق، عرف هذا المراقب باسم المحتسب . وكان من التزامات المحتسب الرقابة على الموازين والمكاييل والمقاييس وفحصها والتأكد من دقتها من أجل تحقيق العدالة العامة، وأيضا من أجل تحقيق فائدة للخزانة الحكومية للأمير الصليبى. كانت موارد الدخل للخزانة الملكية أو الأميرية الصليبية تشمل نوعين مختلفين من الرسوم المستحقة على الأسواق الأول: هو ضرائب السوق المفروضة على المتاجر والتجار، والنوع الثانى هو المقابل المادى نظير استخدام المقاييس والموازين الحكومية فى السوق. ومن الطبعى أن الموازين والمكاييل كانت تستخدم فى تقدير نمط محدد

من المتاجر . ولهذا كان بائعوا مثل هذه المتاجر والسلع بمثابة مجموعة واحدة. لقد كانت الموازين والمكاييل المستخدمة فى الأسواق احدى الأشكال الدائمة لامتيازات السوق التى تمنح لبعض التجار الأجانب ، وكانت هذه الموازين والمكاييل تدون فى قائمة تشمل الاحتكارات الملكية أو الأميرية والتى كانت بمثابة الحقوق المحرمة على الآخرين. فقد حددت احدى المعاهدات التى عقدت بين البنادقة والحكام الصليبيين امتيازات التجار البنادقة والتى شملت حرية استخدام الفرن، والطاحونة والحمام، والموازين وخاصة المكاييل ، ومكاييل السوائل (قفيز الخمر) المصنوع من الجلد) المستخدمة فى تقدير النبيذ ، والزيوت ، وعسل النحل، وذلك فى الحى البندقى. وكان يفرض على التجار استخدام المكاييل والموازين الملكية ، الأمر الذى يسر الاشراف الحكومى على التجار والأسواق ، كما كان التجار لهذه المعايير التجارية يدر دخلا للسلطات الصليبية من الرسوم التى كان يدفعها هؤلاء التجار.

وفى الغالب كانت هذه المقاييس والموازين والمكاييل الصليبية تختلف فى الشكل والقيمة عن الموازين والمكاييل العالمية، وكان هذا الأمر مألوفا وعاديًا بالنسبة للاحتكارات الحكومية الأخرى سواء الحكومة الملكية الصليبية أو السلطة الأميرية الصليبية . وهكذا فإن قائمة جرد السلع والبضائع التى تتعلق بمدينة صور توضح رسوم استخدام هذه الموازين والمكاييل الحكومية الصليبية والتى بلغت مايقرب من ١٩٠٠ بيزنت سنويًا . فقد بلغت رسوم استخدام المكاييل (المكاييل الخاصة بالحبوب ، والنبيذ ، وزيت الزيتون) ٣١٠ بيزنت سنويًا . وسمعنا أن السلطات الصليبية كانت تحتكر بيع الأدوات الموسيقية مثل: الطبول ، والسلامية Flageolet، وآلة الطمبور الموسيقية ووصل حق هذا الاحتكار إلى مبلغ ٥٠٠ بيزنتا سنويًا ، وبلغت الالتزامات المفروضة على الجزارين وبائعى لحم الخنزير مقابل استخدامهم للموازين الحكومية ٤٠٠ بيزنت سنويًا ، وفرض على باعة الزجاج مبلغ ٣٥٠ بيزنتا ، وعلى باعة زيت السمسم ١٦٠ بيزنتا ، وعلى باعة السمك ٧٠ بيزنتا سنويا، وعلى باعة الليمون ١٦٠ بيزنتا سنويا، وعلى باعة النبيذ ٢٢ بيزنتا ، وباعة اللبن ٢٠ بيزنتًا سنويًا.

لقد اقترنت عملية استخدام المكاييل والمقاييس الحكومية الصليبية بدفع مبالغ محددة نظير استخدام هذه المعايير التجارية وهكذا أصبحت هذه المعايير التجارية موضع امتياز تمنحه الحكومة لمن تشاء من التجار . فقد حصل البنادقة فى مدينة صور على حق استخدام مكاييلهم وموازينهم الخاصة فى حالة تعاملهم التجارى مع أبناء جلدتهم أو عندما يبيعون متاجرهم

وسلعهم لتجار آخرين، فى حين فرض عليهم استخدام المكاييل الملكية الصليبية عندما يشترون سلعا وبضائع من التجار الآخرين . وفى مدينة صور منح كونراد مونتفرات فى عام ١١٨٧م امتيازا للتجار البيازنة . وفى بيروت منح يوحنا الابلينى امتيازا للتجار الجنوية وكان هذا الامتياز عبارة عن تخفيض رسوم استخدام مكيال الجرة المستخدم فى أسواق بيروت وهو عبارة عن دفع بيزنت واحد عن استخدام مكيال الجرة أو دفع مكيالين من الحبوب، بيد أن هذه الرسوم المستحقة نظير استخدام هذه المكاييل الصليبية كانت تزداد إلى الضعف فى حالة الاستغناء عنها وكان مشرف الأسواق (المحتسب) الحكومى يفرض هذه الرسوم المرتفعة.

الواقع أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية لم تكن هى العوامل الوحيدة التى ساهمت فى تشكيل سمت المدينة الصليبية. بيد أن المظاهر الاقتصادية للامتيازات السياسية كان لها أهميتها الكبرى فى تشكيل المدينة الصليبية. وهكذا فإن الامتيازات التجارية التى تمتع بها الكومونات التجارية الايطالية وبعض التجار الأوربيين الآخرين فى مدينتين رئيسيتين من مدن المملكة الصليبية (صور - عكا) بصرف النظر عن العاصمة (القدس) قد خلفت نمطا مختلفا ومعقدا من التنظيم التجارى. ووجد فى مدينة صور حى للتجار البنادقة يتمتع بالحكم الذاتى، وكان هذا الحى يضم منطقة للسوق ، ووجد للبنادقة أيضا فندق بجوار الفندق الملكى فى مدينة صور . وكان لكل سوق من أسواق الكومونات فى المدينة موازينه ومكاييله الخاصة به، وأيضا مشرفيه والضرائب الخاصة به. وكان كل كوميون تجارى يفرض على سكان الحى الخاص به بعض المحظورات . وهذا يفسر لنا النتيجة التى تمخضت عن مبادرة يوحنا دى برين الخاصة باعفاء السكان المحليين الشوام القاطنين الحى البندقى من الضرائب والتى تسببت فى هجرة هؤلاء السكان من الحى البندقى إلى الحى الملكى.

ومما يذكر أن الوضع فى مدينة عكا كان أكثر تعقيداً . وعلى الرغم من أن الميناء فى عكا ظل خاضعا للسلطة الملكية فإن السوق الملكى فى عكا قد اختفى نشاطه تقريبًا. ومن بين مئات الوثائق التاريخية التى تبحث فى الشئون التجارية فى مدينة عكا نجد وثيقة واحدة فقط تشير إلى السوق الملكى (الفندق الملكى) ومع ذلك فإن هذه الوثيقة لم تحدد مكان هذا السوق بشكل دقيق. وهذا الغموض فى تحديد مكان السوق الملكى فى عكا لم يكن يعنى أن المركز التجارى فى المدينة غير مهم. ولكن يجب على المرء أن يفترض عكس ذلك تمامًا أى يفترض أهمية السوق كمركز تجارى فى مدينة مثل عكا كان يصل عدد سكانها فى تلك الآونة إلى

حوالى ٣٠,٠٠٠ نسمة فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة وصل عدد سكانها إلى ضعف هذا العدد . وتشير عدم أهمية السوق الملكى الصليبى وتجاهله فى مدينة عكا إلى الأهمية الملحوظة للأسواق الستة المستقلة التى مارست نشاطها التجارى فى هذه المدينة. فقد كانت الأحياء الايطالية (الحى البندقى- الحى الجنوى- الحى البيزى) فى مدينة عكا تضم أسواقا وتبعهم فى هذا المجال أيضا التجار البروفنسال تحت ادارة تجار مرسيليا . ويبدو أن الهيئات الدينية العسكرية (الداوية - الاسبتارية - التيتون) كانت بها أسواقها الخاصة فى تلك المدينة الملكية (عكا)، ومما يؤكد ذلك أن المؤرخ الشهير بيجولوتى قد ذكر أن أعضاء هذه الهيئات الدينية العسكرية كان يستخدمون موازينهم ومكاييلهم الخاصة. ومن الطبعى أن كل هذه الأسواق لم تكن تعرض كل أنواع السلع والبضائع، ولذا فإنه من الناحية الوظيفية أيضا لم تندثر الأسواق المختلفة. بيد أن العامل الادارى الحكومى كان قويًا بحيث ساهم فى تركيز الحياة الاقتصادية للمجتمع الصليبى فى هذه المدينة . وفى هذا الاطار يجب علينا تصور وتخيل الرسوم الجمركية اللافتة للنظر التى كانت تفرض فى ميناء عكا. وبصرف النظر عما إذا كان قد فرض على السكان من غير اللاتين الاقامة فى حى خاص بهم أو فرض عليهم ممارسة النشاط التجارى فى سوق خاص بهم، فإنه من الواضح أن القانون الملكى الصليبى الخاص باعفاء التجار الشوام القاطنين الحى البندقى فى عكا كان يهدف إلى تحصيل عائد مالى من الالتزامات والرسوم التى يدفعها هؤلاء السكان والتجار من غير اللاتين، وكان هذا الاجراء يشبه ذلك الاجراء الذى اتخذه يوحنا دى بيرين فى ميناء صور.

والحقيقة أن أوجه الشبه بين الميناء التجارى والسوق كانت دائمًا غير واضحة . ومن المسلم به أن الميناء التجارى كان بمثابة السوق ولم يكن فقط مكانا لتحصيل الرسوم الجمركية . إذ كان الميناء تتجمع به الصادرات والواردات فقط ، بينما كان السوق يخصص للتجارة المحلية. والواقع أن هذا لم يتأكد بشكل يقينى تمامًا. وإذا كان النساجون الشوام قد حصلوا على اعفاء من دفع الرسوم الجمركية فى ميناء عكا بموجب القانون الملكى الصليبى فإنهم مع ذلك كانوا يدفعون الرسوم وضرائب السوق فى الحى البندقى فى عكا، وهكذا ساءت العلاقات بين سلطات الحى البندقى والنساجين الشوام وتعقدت الأمور بينهما بشكل كبير.

كان أبرز ما يميز الأسواق المحلية هو حجمها الصغير وديمومتها (أسواق دائمة) . وإذا كان هذا يعكس التقليد الشرقى القديم واقتصاده النقدى، فإن هذا أيضًا كان نتيجة للعوامل

السكانية (الديموغرافية) التى كانت تميز المجتمع الصليبى، بمعنى أن بنية هذا المجتمع كانت ذات شكل متحضر، فلم يستطع أفراد طبقة النبلاء الصليبيين الحصول على كل سبل رزقها ومعاشها من عائدات أراضيهم الزراعية. وتلك حقيقة جزئية فقط إذ أن الذين لم يحصلوا على رزقهم كاملاً من عائدات أراضيهم وأملاكهم الزراعية هم عدد قليل من صغار الفرسان فقط. فى حين كان الآخرون من صغار الفرسان يحصلون على اقطاعات نقدية، على الرغم من أن هذه الاقطاعات النقدية كانت تشمل أحيانًا الأوقاف الكنسية العينية - مثل القمح، والزيت، والنبيذ. ولذا كان معظم أفراد طبقة النبلاء الصليبيين يشترون احتياجاتهم من الطعام والكساء من أسواق المدينة. وقد شاركهم فى ذلك أفراد طبقة البرجوازية وتجار الكومونات الايطالية ، الذين حرموا من امتلاك الضياع الاقطاعية بموجب القانون الاقطاعى الصليبى على الرغم من امتلاكهم الحدائق والبساتين . وهكذا يمكن القول إن السكان الصليبيين بشكل عام كانوا مستهلكين حيث اعتمدوا على الامدادات الخارجية من الطعام دون الحاجة المباشرة إلى موارد دخلهم.

لقد كانت الزراعة فى المناطق الصليبية تلبى احتياجات السكان الصليبيين من الطعام. والحقيقة أن عدم تطبيق نظام الضيعة فى المناطق الزراعية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين ووجود الاقطاعات النقدية والذى ساهم بقدر كبير فى عدم تقسيم الاقطاعات والأراضى الزراعية قد أدى إلى وفرة الانتاج الزراعى لدى كل من طرفى المجتمع الصليبى وهما السادة الاقطاعيين والأتباع الاقطاعيين (النبلاء - الفلاحون) . إذ كان كبار النبلاء والفلاحون يختزنون كميات من الحبوب الزائدة عن احتياجاتهم (وذلك لمواجهة سنوات القحط أو سنوات الفيضان التى يقل فيها المحصول) . وبعد أن ينتهى النبلاء من ملأ مخازنهم بالحبوب التى تكفى احتياجات عائلاتهم لمدة عام وبعد أن يحل موسم الزراعة الجديد، كانت عائلات الملك الصليبى والنبلاء يعرضون فائض منتجاتهم الزراعية للبيع فى أسواق المدن الصليبية. وكان هذا الوضع أيضا ينطبق على المؤسسات الكنسية ، وذلك لأن المؤسسات الدينية الكنسية كانت تحوز أملاكا اقطاعية وممتلكات كنسية عن طريق المنح والهبات . فقد كانت الموارد الكنسية وضريبة العشور تكفى لتلبية احتياجات جميع رجال الدين الكاثوليك فى المملكة الصليبية ، وكانت مخازن الكنيسة الكاثوليكية فى المملكة الصليبية تمتلأ بالحبوب والغلال ، فى حين كان فائض هذا الانتاج يعرف طريقه إلى الأسواق. ويتردد المرء كثيراً فى

التسليم بأن الهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاسبتارية- التيوتون) كان تخزن فائض انتاج أراضيها فى القلاع لكى يكون بمثابة مؤونة احتياطية تكفى لمدة عام أو أكثر . وسبب هذا التردد هو أن أعضاء هذه الهيئات الدينية العسكرية كانوا يستوردون الحبوب المعفاة من الرسوم الجمركية من أوربا لكى تلبى احتياجاتهم من الطعام. إذ كان مقدمو هذه الهيئات الدينية العسكرية يحصلون على ايجارات نقدية تبلغ قيمتها ٢/٣ أو ٣/٤ قيمة المحصول الذى ينتجه الفلاح الذى يزرع الأرض التابعة لها. وعلى الرغم من أن السنوات العادية لم تكن تشهد وفرة فى الانتاج الزراعى فإن هذا كان يفرض عليهم أن يدخروا الكمية الزائدة عن احتياجاتهم هم وأبنائهم. وإذا كانت المعاهدة التى عقدت بين الملك الصليبى وأمراء دمشق المسلمين بشأن أرض السواد التى تقع فى الشمال الشرقى من دمشق قد اشترطت على أن يتقاسم الصليبيون والمسلمون انتاج هذه الأرض فيحصل الصليبيون ثلث المحصول، ويحصل أمراء دمشق على الثلث الثانى، فى حين يحصل المزارعون على النصف الثالث، وهو الثلث الذى كان يجب أن يكفى اعاشة الفلاحين المحليين الذين كانوا يزرعون هذه الأراضى. وما ذكرناه آنفا لم يزد عن كونه دليلا ماديًا، بيد أن هذا الدليل المادى يشير إلى حقيقة أن أسرة الفلاح التى فقدت ثلثى المحصول تستطيع أن تبيع ١/٦ كمية المحصول التى تحصل عليها. وكان من الطبعى أن يتم تخزين الحبوب اللازمة لتقاوى الموسم الزراعى القادم أو اللازمة لمواجهة الحاجة والعوز فى أعوام القحط والجفاف وهلاك المحصول ، وكان هذا الاجراء الاحتياطى يصيب الفلاح بالافلاس . لقد كان على الفلاحين الحصول على حاجاتهم من التقاوى والحبوب اللازمة لموسم البذر والزراعة من سادتهم الاقطاعيين. وهكذا اعتمدت احتياجات المجتمع الحضرى من الغذاء والطعام على ما تغله وتنتجه ضياع النبلاء والقرى التى لم تخضع لنظام وكان هذا يشكل اطار الصعوبات الاقتصادية التى واجهت المملكة الصليبية فى عمرها الثانى . وباستثناء فترات قصيرة فإن المملكة الصليبية قد انحصرت وانكمشت فى شريط ساحلى على شاطىء البحر المتوسط. وانكمشت مساحة المملكة إلى ثلث مساحتها السابقة (دون أن نضع فى اعتبارنا مساحة النقب وهى المنطقة التى تقع خلف حبرون وذات المساحة الزراعية الصغيرة) وكذلك منطقة ما وراء نهر الأردن . والحقيقة أن الاحصائيات لم تكن كافية لكى تؤكد حجم مشكلة الطعام . والواقع أن تقلص مساحة المملكة الصليبية وفقدها الكثير من المناطق فى أعقاب موقعة حطين الشهيرة قد أثر سلبيًا على مناطق الزراعة فى المملكة حيث تقلصت مساحة الأراضى الزراعية الخاضعة للسيادة الصليبية ، فالمعروف أن المملكة

الصليبية فقدت مدنا كثيرة مثل بيت المقدس ، وثلاث مدن صغيرة مثل نابلس ، وطبرية ، والنصارة. وعلى الرغم من استرداد صلاح الدين هذه المدن فإن شطرا من سكانها الصليبيين الذين بقوا على قيد الحياة هاجروا إلى مدينة صور حيث سمح لهم صلاح الدين بمغادرة هذه المدن والذهاب إلى صور، وبعد الحملة الصليبية الثالثة توجه بعض السكان الصليبيين إلى مدن أخرى . وهكذا فإن المدن الساحلية لم تفقد سكانها الصليبيين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هجرة السكان الصليبيين قد تركزت فى هذه المراكز الحضرية فقط. واعتمد المجتمع الصليبى الأكثر تحضرا والذى ساءت أوضاعه فى غذائه على ما ينتجه شريط ساحلى ضيق من الأرض الزراعية. وظلت حاجة هذا المجتمع إلى الطعام مستمرة فى حين تناقصت الامدادات من الطعام بشكل كان ينبىء بالكارثة . فلم يستطع كل من النبلاء الصليبيين والمؤسسات الكنسية أن تبيع منتجات أملاكهم الزراعية المتقلصة ، وثمة حقيقة واضحة تؤكد ذلك وتتمثل هذه الحقيقة فى تلك الشكوى التى جأر بها الأمير الصليبى يوحنا دى بيرين سيد بيروت والذى لم يجد مورداً ماليا غير أملاكه فى قبرص لكى يحصن مدينة بيروت. وقلما كان السكان الصليبيون فى المدن الساحلية يعتمدون فى تلبية احتياجاتهم من الطعام على ما تنتجه أقاليمها السابقة التى خضعت للسيادة الإسلامية ، ولكنهم اعتمدوا بشكل أكبر على ما ينتجه الفلاحون المحليون فى الشطر الشرقى من المملكة الذى كان خاضعا للسيادة الاسلامية. والحقيقة أننا لم نستطع أن نحدد طبيعة العلاقات بين شطرى المملكة الصليبية فى عمرها الثانى، بيد أننا نستطيع أن نسلم بشكل يقينى بأن هذه العلاقات كانت أكثر فتوراً عن سابقتها بين الشطرين فى أثناء المملكة الصليبية فى عمرها الأول. ويكفى دليلاً على ذلك، أن المدن الصليبية فى تلك الآونة قد اعتمدت فى طعامها على الواردات التى كانت تأتى من كل من جزيرة قبرص ، أو من أرمينيا وأوربا.

الفصل السابع عشر

الفنــــــــون

أ- العمارة الدينية

ب- أعمال النحت

جـ- المنمنات وزخارف المخطوطات الذهبية والفضية

د- أعمال الموزايك والفسيفساء والرسومات والفنون الصغرى.

أ- العمارة الدينية

ومنذ سبعة قرون مضت كان على كل حاج أوربى يغادر وطنه إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين أن يشق طريقه من عكا صوب مدينة القدس أو صوب مدينة الناصرة وعندئذ كان هذا الحاج المسيحى الأوربى يشعر بالطبيعة الغريبة ولاسيما عندما كان يجتاز القرى العربية الإسلامية فى هذه المناطق ، بيد أن هذا الحاج عندما يصل إلى المدن كان يرى أشياءً وأشكالاً مألوفة تذكره بوطنه حيث كانت القباب والمآذن العالية تغطى سماء الشرق. والحقيقة أن الأمور الغريبة التى كان يجدها الحاج الأوربى كانت تتمثل فى دعاء المؤذن المتقطع من أجل تأدية الصلاة فى الكنائس وصوت هذا المؤذن العجيب الذى كان يختلط بصوت أجراس الكنائس . وعلى الرغم من أن المدن العربية كانت مسورة ومزودة بالحصون والقلاع القوية فإنها كانت تقسم إلى أشكال غريبة ، إذ كانت تضم الكنائس والأديرة والكنائس الصغيرة وهى الأشياء التى كانت تذكر الحاج الأوربى بوطنه وكل هذه المبانى والمنشآت الدينية كانت من الأمور المألوفة لدى رجال الدين اللاتين حيث كانوا يؤدون طقوسهم الدينية اليومية بها.

وحتى الآن لم توجد فترة فى التاريخ الطويل للأراضى المقدسة فى فلسطين مثل هذا النشاط الواسع فى البناء والتشييد مثلما شهدته حقبة الوجود الصليبى فى فلسطين وبلاد الشام، فلم يقم الامبراطور الرومانى هيرودوس بتشييد مبان كنسية أكثر مما شيد خلال العصر الصليبى ويبدو أن الأسباب التى كانت وراء الحاجة الملحة لوجود مثل هذه البنايات والعمائر الدينية كانت معقدة وإن كانت حركة التدفق السكانى الواسعة من الغرب الأوربى إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى فلسطين وبلاد الشام هى التى حددت بشكل أساسى مجال ونطاق حركة

التشييد والبناء الديني في هذه المناطق ، فلم تكن هناك حاجة كبيرة لتشييد المساكن الخاصة وذلك لقيام الصليبيين بطرد سكان مدن هذه المناطق ، هؤلاء السكان الذين هجروا مساكنهم وبيوتهم ، واستطاع الغزاة الصليبيون بصعوبة ملىء هذه المدن العربية الشاغرة التي هجرها سكانها في أثناء الغزو. وكانت المساكن العامة تمثل مشكلة مختلفة . فقد تحول عدد كبير من المساجد والقصور إلى كنائس وأماكن لاقامة طبقة النبلاء الصليبيين ، بيد أنه أصبح هناك حاجة متزايدة للبناء وذلك لأن المحاربين الصليبيين والحجاج والمستوطنين الجدد أرادوا أن يعيدوا تأسيس وطن جديد يشبه إلى حد ما وطنهم الأم في تلك المناطق المقدسة التي تحمل الذكريات الدينية المسيحية ، وفي حين كانت الكنائس ، والأديرة ، والقلاع والحصون بمثابة هيكل خارجي لمبان غير متميزة فإن الشيء الملاحظ والمألوف هو ما احتوته هذه المباني من أعمال فن النحت والرسم والفسيفساء هذه الأعمال الفنية التي أضفت على هذه المباني عناصر الابهار والجمال وأصبح لها وظيفة جمالية بالإضافة إلى وظيفتها الدينية.

وكما ذكرنا في موضع آخر ، فقد ظلت التحصينات للمدن (المدن المحصنة) من الانجازات البارزة في منطقة الشرق العربي الإسلامي (عالم ما وراء البحار) ، ولكننا سوف نركز على العمارة غير العسكرية أي العمارة الدينية . فقد كانت الكنائس والأديرة التي شيدت، أو التي سلبها الصليبيون من المسلمين كالمساجد التي حولها الصليبيون إلى كنائس تعكس الاحتياجات الروحية لهذا المجتمع الصليبي الجديد، وكانت الخدمات الكنسية على رأس المطالب التي احتاجها السكان الصليبيون من الناحية الدينية، إذ كانت كل مستوطنة صليبية تطالب بوجود كنيسة بها . وبالإضافة إلى ذلك فإن رجال الدين (الكهنوت) في المملكة الصليبية والتي كانت أعدادهم كبيرة نسبيًا بالنسبة لقطر فقير في الموارد- الذين ارتبطوا بوطأة التقاليد والتاريخ فإنهم قد قسموا الاسقفيات والكنائس الكبرى (الكاتدرائيات) وفقًا للتقسيمات البيزنطية القديمة. وعلاوة ذلك ، فإن الهيئات الدينية العسكرية: الاسبتارية ، والداوية ، وفرسان التيوتون، وفرسان القديس لازاريوس كانت لهم كنائس خاصة بهم. وكانت الأحياء الايطالية (الحي البندقي- الحي الجنوي- الحي البيزاوي) في المدن الصليبية تضم كنائس خاصة يديرها ويشرف عليها رجال دين تعينهم المدن الايطالية الأم (البندقية - جنوا- بيزا) ولدينا قائمة طويلة بأسماء كنائس شيدت وفقا لنموذج الاستيطان الصليبي، وشيد عدد كبير من الكنائس على أساس النظام المؤسساتي المحدد للمملكة الصليبية . وبالإضافة إلى ذلك، فقد ظهر عدد كبير من المنشآت والمباني الكنسية ويمكن أن نعزو ذلك إلى ما نسميه

«جغرافية الأرض المقدسة» . ووفقا لما يقرره العهد القديم (التوراه) أو الأبوكريفا*، فإن كثيرا من الأماكن فى فلسطين قد اكتسبت قداستها من جديد أى أعادت اكتساب قداستها وتباهت هذه الأماكن لكونها موقعا وموضعا لكنيسة صغيرة، وليست كنيسة كبيرة ، حيث بات على الحجاج الاتقياء الاجتماع بها للصلاة فى هذه المواضع المقدسة لنيل الغفران الكنسى. وقامت الجماعات الدينية الكنسية من رجال الكنيسة ومقدمى الأديرة بتشييد مبان لهم فى المملكة الصليبية ، وكانت الجماعات الديرية تضم: هيئة القديس بندكت الديرية، وهيئة الفرنسيسكان، والدومينيكان ، وكان من بين هذه الجماعات والهيئات الديرية والتى كانت أحدث زمنيا فى الوجود طوائف ديرية جديدة مثل هيئة رهبان الكرمل الديرية، وهيئة رهبان الروح القدس، ودير راهبات (التائبات) القديسة مارى المجدلية... الخ.

ومن الواضح أن عدد الكنائس التى شيدت خلال فترة الوجود الصليبى فى بلاد الشام وفلسطين كانت أكثر من الاحتياجات والمطالب الدينية للسكان الصليبيين . وعلى الرغم من أننا لم نستطع احصاء اجمالى عدد المبانى الكنسية ، فإن بعض الحقائق والبيانات قد زودتنا بصورة واضحة عن وفرة هذه المبانى الكنسية . وقد وصل عدد المستوطنات الصليبية خلال العصر الزاهر للمملكة الصليبية حوالى مائة مستوطنة. وشملت هذه المستوطنات الصليبية مدنا، وقرى، وقلاعا وحصونا صغيرة ، وأيضا أديرة معزولة . وبالمقارنة ، فإننا نعرف يقينا أن مدينة عكا وحدها كانت تضم أربعين كنيسة ، وكانت مدينة بيت المقدس تضم ثلاثين كنيسة ، واشتملت مدينة صور ست عشرة كنيسة . ولاشك ، أننا عرفنا أعداد هذه الكنائس (والتى لايشمل الكنائس الصغيرة) من خلال حجج وصكوك هذه الفترة. ومن المؤكد أن هذا العدد يمثل جزءاً صغيرا فقط من إجمالى عدد الكنائس.

والواقع أن حجم وفخامة الكنائس الصليبية لم يتلاءم مع أعدادها . وكان مستوى هذه الكنائس الصليبية المعمارى (باستثناء كنيسة أو كنيستين) متواضعًا إذا ما قورن بالمستوى المعمارى والجمالى للكنائس الأوربية المعاصرة لها. ويمكن القول إن كنيسة الضريح المقدس ، وكنيسة الميلاد، وضريح السيد المسيح وهيكل سليمان قد تميزن جميعا بالفخامة والأبهة

---

* الأبوكريفا : هى الأربعة عشر سفرا تلحق أحيانا (بالعهد القديم أى التوراة) من الكتاب المقدس) (المترجم).

المعمارية ؛ بيد أن هذه الكنائس التى ذكرناها آنفا تميزت بالطابع المعمارى الصليبى، فى حين تميزت كنيسة الميلاد فى بيت لحم بالطابع المعمارى البيزنطى. ومما يذكر أن ضريح السيد المسيح وهيكل سليمان قد شيدا مكان مسجد عمر والمسجد الأقصى. وكانت الكنائس التى شيدها الصليبيون فى طرابلس وطرطوسة كبيرة ، بيد أن هذه الكنائس كانت تقع فيما وراء حدود المملكة الصليبية. ومن المحتمل أن كثرة بناء الكنائس قد قرر مصير ممتلكاتها . وكانت الكنائس الكبرى فى مدينة القدس، وفى نابلس وفى عكا (احتفظت كنيسة الصليب المقدس فى عكا بشكل نهائى) ضخمة ومتألقة ، بيد أن نفس هذه المدن أيضا كانت تضم كنائس صغيرة تقدم خدمات دينية، وكانت تضم أديرة أو جماعات دينية ايطالية . وكانت الرغبة فى اظهار مكانة ومنزلة الكنائس المشيدة تساهم فى خلق منافسة (وهى المنافسة التى استعرت بين الهيئات الدينية العسكرية) بين الاحتياجات الحقيقية لكل طائفة من الطوائف والهيئات الدينية تلك الاحتياجات التى قررت مصير وحددت حجم وفخامة كنائسها.

ومما يذكر أن معظم المنشآت المعمارية الدينية الصليبية تنتمى زمنيًا إلى القرن الثانى عشر الميلادى الذى شهد العصر الأول من عمر المملكة الصليبية. وشهد القرن الثالث عشر الميلادى اصلاح وترميم واسترداد عدد كبير من الكنائس فى أعقاب إعادة تأسيس المملكة الصليبية فى عمرها الثانى. وعلى الرغم من احكام الصليبيين قبضتهم وسيطرتهم على كل المدن البحرية العربية فى القرن الثالث عشر الميلادى فإنهم لم يشيدوا كنائس جديدة خلال هذه الفترة وربما شيدت كنائس جديدة فى مدينة عكا التى كانت عاصمة للمملكة الصليبية فى عمرها الثانى ومثال ذلك تلك الكنيسة التى شيدت فى ضاحية مونت موزارد الجديدة الواقعة وراء أسوار عكا القديمة.

والواقع أن فترة التشييد الحقيقى والواسع للكنائس والمبانى ظلت ما يقرب من خمسين عاما خلال القرن الثانى الميلادى. وباستثناء القلاع والتحصينات تم تشييد عدد قليل من المبانى قبل عام ١١٢٥م وذلك خلال فترة خاضت فيها المملكة الصليبية الوليدة صراعًا وحروبا مستمرة ضد المسلمين من أجل البقاء. وخلال الربع الثانى فقط من القرن الثانى عشر الميلادى توفر المال والوقت لبناء المنشآت الكنسية وظل هذا النشاط لمدة ثلاثة أجيال حتى حلت النكبة الكبرى بالصليبيين فى حطين عام ١١٨٧م.

وهكذا فإن العمارة الدينية والمدنية تنتمى بشكل كامل إلى فترة العمارة الرومانسيكية.

فقد ابتكرت العمارة القوطية الباكرة أشكالها العجيبة فى أوربا ، بيد أن تأثيرها على العمارة الصليبية كان ضئيلاً . ومن المؤكد أن الفن المعمارى القوطى قد برز تأثيره على الفن المعمارى فى القرن الثالث عشر الميلادى، وعندئذ كانت الحقبة الرئيسة للتوسع المعمارى الصليبى قد انقضت باستثناء بناء الحصون والقلاع . فقد وجد الفن المعمارى الصليبى القوطى فى قبرص بصورة أكبر عن وجوده فى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام.

ومن المعروف أن طراز العمارة الرومانسيكية يدين كثيرا إلى عبقرية الشرق، حيث اشتق هذا الطراز المعمارى (الرومانسيك) معظم مقوماته ومعالمه البارزة من الفن المعمارى البيزنطى، ثم من بعده من الفن المعمارى الإسلامى. وسواء كان هذا الطراز المعمارى الرومانسيك قد عبر البحر المتوسط إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى ، أو تسرب إلى مناطق أخرى عبر جبال البرانس، فإن هذا الطراز المعمارى قد تركز فى فرنسا فى القرن الحادى عشر الميلادى، حيث وجد فى فرنسا مدرسة معمارية ذات خصائص مميزة واستطاعت هذه السمات والخصائص المميزة تجاوز حدود الفوارق والاختلافات الاقليمية . ويتمثل وجه الغرابة فى أن المبانى الصليبية الضخمة التى شيدت بأسلوب وطراز معمارى قريب الشبه من الطراز بين المعماريين البيزنطى والإسلامى قلما كانت تحمل ملامح أسلوب وسمات هذين الطرازين . لقد جلب الطراز المعمارى الصليبى الرومانسيكى برسومه وألوانه الشرقية بشكل مباشر من أوربا ، وبشكل خاص من أقاليم بروفانس وبرجاندى . وقلد الصليبيون فقط الشكل المعمارى المضلع لمسجد عمر، مع أن هذه المبانى المقلدة كانت أقل قيمة فنية وتتضح هذه الحقيقة من خلال أن هذا المسجد أصبح مقرا لاقامة أعضاء هيئة فرسان الداوية.

وفى العادة ، كانت أبعاد مبنى الكنيسة الصليبية عبارة عن ٣٥ مترا طولاً (من المدخل إلى الجزء الناتىء من المبنى والذى كان على شكل نصف دائرة) و٢٠ مترا عرضا وكانت النسبة بين الطول إلى العرض لكنسية ٢ :١ فهى أقرب إلى شكل المربع، وإن كانت لم تصل إلى شكل كامل للمربع . وكان شكل هذه الكنائس الصليبية ينتمى إلى نمط الباسيليقا* الثلاثى، إذ كانت الكنيسة عبارة عن صحن وجناحين ، وقلما كانت الكنيسة الصليبية تضم

---

* النمط المعمارى الباسيليقى: Basilica مبنى رومانى مستطيل الشكل فى أحد طرفيه جزء ناتىء على شكل نصف دائرة ومفصول عن مبنى الكنيسة بواسطة صف من الأعمدة (المترجم) .

صحنا واحدا فقط. ومما يذكر أيضا أن كل الكنائس الصليبية كانت تفتح أبوابها جهة الشرق، وكان صحن الكنيسة ينتهى عند الجزء الناتىء من مبنى الكنيسة من جهة الشرق ، كما كانت هذه الأجزاء الناتئة من مبنى الكنيسة تطوق صحن الكنيسة من الشمال إلى الجنوب . وفى بعض الكنائس كانت الأجزاء الجانبية الزائدة من الكنيسة كبيرة وضخمة مثل الأجزاء الجانبية الرئيسة وكانت هذه الأجزاء الزائدة والأجزاء الجانبية الرئيسة تتلاقى عند نقطة واحدة، وفى بعض الكنائس الأخرى كان خط الأجزاء الناتئة من الكنيسة صغيرا ومتقلصًا . وكان الجزء الناتىء المركزى المستطيل الشكل يواجه مذبح الكنيسة الرئيسى ؛ فى حين كانت مذابح الكنيسة الأخرى توجد فى الأجزاء الناتئة الجانبية.

ولم تشتمل أية كنيسة صليبية ممش مسقوفًا باستثناء كنيسة الضريح المقدس. والحقيقة أن السور المستقيم الممتد صوب الشرق يعد من احدى السمات البارزة للكنائس الصليبية، وكان هناك مفتاح غير مرئى يغلق الأجزاء الناتئة من مبنى الكنيسة من الخارج . ومما يذكر أيضا أن صحن الكنيسة كان ينفصل عن أجزائها الجانبية بواسطة صف من الأعمدة الضخمة والتى كانت على شكل نصف دائرة وكانت هذه الأعمدة تمتد من الشرق إلى الغرب على جانبى صحن الكنيسة ، بحيث تحمل هذه الأعمدة أقواس الصحن وأقواس الأجزاء الجانبية من المبنى على تيجان هذه الأعمدة.

وعادة كان صحن الكنيسة على شكل جزء اسطوانى معقود ينقسم إلى أروقة بواسطة أقواس أو أقبية ثابتة ذات شكل دائرى. وكان هناك عدد قليل فقط من صحون الكنائس مزودة بحلية معمارية مسقوفة عبارة عن ملتقى عقدين . وكان هذا هو نظام الحليات التى تزين جناح الكنيسة. وزودت أسوار الأجزاء الجانبية الناتئة من الكنيسة بالعقود والحليات المعمارية المسقوفة (وقلما كانت هذه الحليات مستندة على دعامة) والتى كانت تستند على الافريزات المثبتة عند قمة تيجان أعمدة صحن الكنيسة. وكان أحد جناحى مبنى الكنيسة يقطع كلا من صحن الكنيسة المسقوفة الاسطوانى الشكل والأجزاء الناتئة من المبنى. والحقيقة أن الكنيسة الصليبية لم يكن لها أجنحة بارزة أو ناتئة . وقلما كان الشكل الصليبى من سمات تخطيط الكنائس المسيحية التى شيدت فى أرض فلسطين حيث الأرض التى شهدت المسيح والصليب، ووجد عدد قليل من الكنائس تشمل نتوءات بارزة فى المبنى ، وكان مكان حوفه المرتلين فى الكنيسة Choir يوجد عند تقاطع جناحى مبنى الكنيسة وكان صحن الكنيسة فى الغالب على

شكل مربع . وكانت قبة الكنيسة توجد عند نقطة تقاطع جناحى الكنيسة. وفى العادة كانت هذه القبة تستند على دعامات مغلقة تتناسب مع شكلها الدائرى وتتصل هذه الدعامات المغلقة بالفتحة المستطيلة التى توجد أسفل هذه القبة. وأحيانا كان يعلق بهذه القبة مشكاة ذات شكل مضلع أو دائرى. وإلى جهة الشرق كانت قبة الكنيسة تلاصق وتجاور القبة النصفية للجزء الجانبى الناتىء الرئيسى.

وكانت الأجزاء الداخلية للكنيسة مضاءة بواسطة نوافذ ضيقة توجد فى منور الكنيسة فى أعلى الرواق الموجود فى جناحى مبنى الكنيسة . وكانت القبة أيضا مزودة بفتحات حيث كانت توجد نافذة فى القبة النصفية للأجزاء الجانبية الناتئة بالإضافة إلى نافذة أكبر توجد فوق الجزء الناتىء الرئيسى.

وكانت الكنائس الصليبية تطل على ميدان واسع ، وهذه الفكرة تعضدها حقيقة أن الجزء الشرقى من الكنيسة كان يحجب الأجزاء الناتئة نصف الدائرية القائمة وحدها والمنفصلة عن مبنى الكنيسة بواسطة صف من الأعمدة على شكل نصف دائرة. وكانت الأجزاء الناتئة من مبنى الكنيسة مطوقة باحكام بساحة منفرجة الزاوية، وهكذا كان يظهر سور مستقيم ملاصق للأسوار الشمالية والجنوبية عند الزوايا والأركان اليمنى لمبنى الكنيسة. وأحيانا كان هذا الانخفاض والمربض بارزا بواسطة قبة حجرة المرتلين الكنسيين فى جهة الأسوار الأسطوانية المضلعة والقوية مع دعامات الحائط العمودية. ويبدو أن الكنائس الصليبية قد شيدت من أجل العبادة والدفاع أى لأغراض دينية وعسكرية معًا.

وتركزت قوة وصلابة مبانى الكنيسة فى المواجهة الغربية من المبنى ، حيث يوجد المدخل الرئيسى. وباستثناء كنيسة الضريح المقدس فى مدينة القدس، لم تكن هناك واجهة كنيسة صليبية يمكن أن توصف بالفخامة . بيد أنه كان هناك استخدام منظم ومفيد للحليات أو الزخارف المعمارية الخارجية، تناسب تماما المبنى، وكانت هذه الزخارف تضفى على مبنى الكنيسة الجمال والروعة. إذ كانت الأحجار تستخدم فى البناء والمبانى الكنسية بشكل ضئيل، على الرغم من أن أدنى صنف من هذه المبانى كان عبارة عن مبنى ضخم مستطيل الشكل. وفى العادة كانت المواد الخام المستخدمة فى البناء عبارة عن الحجر الجيرى المائل إلى اللون الضارب إلى الصفرة أو إلى اللون البنى الفاتح، أو الحجر الرملى الضارب إلى الحمرة ، والذى يعطى دفئًا للأماكن الواقعة خلف الأسوار الممتدة والمنتظمة . وكان تخطيط المبنى والزخارف

الرفيعة أبدع ما يمكن . فقد كانت الخطوط المائلة والمتوازية والتى أبدعتها يد الصانع الصليبى من أبرز السمات المميزة للابداع الصليبى فى فن البناء فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد. وكان النمط الآخر المميز للأحجار التى استخدمها الصناع الصليبيون فى أعمال الزخارف المعمارية يتمثل فى الشكل المربع أو الشكل المستطيل لهذه الأحجار والمزودة بحافة صغيرة ، وكانت هذه الأحجار تستخدم بوضوح فى الحليات المعمارية الناتئة أو البارزة ولم تستخدم هذه الحليات تقريبًا فى المبانى الكنسية، ولكنها كانت تستخدم فى المبانى القوية فى العمارة العسكرية.

وثمة نموذج مثالى فى القرن الثانى عشر الميلادى لكنيسة صليبية ودير للراهبات تم بناؤهما على الطراز الرومانسيك ، وهما دير بندكت للراهبات فى مدينة القدس، وكنيسة القديسة حنا، فقد كانت الواجهة الغربية من مبنى الكنيسة يتصدرها سور مستطيل الشكل مكون من ثلاثة طوابق، ومزود بسقف مسطح مطوق من الشمال والجنوب بواسطة اثنين من الطوابق الجانبية. وكان الجزء المركزى من واجهة مبنى الكنيسة يؤدى إلى صحن الكنيسة والذى كان ينفصل عن الأسوار التى تغلق الأجزاء الجانبية الناتئة بواسطة دعامات مثبتة عمودية بارزة بشكل بسيط والتى تصل إلى قمة الطابق الثانى. ويتوسط الباب الرئيسى للكنيسة واجهة المبنى الفخمة . وكانت توجد ثلاثة أعمدة خلفية على شكل نصف مربع تشكل فتحة فى جدار الباب ، وهذه الفتحة مسقوفة بواسطة لبنات عقود قوية. ومما يذكر أن القبوات والأقواس الخلفية غير مزخرفة وكان المنحنى الخارجى للعقب فقط هو الذى يحتوى على زخارف بسيطة على شكل معين. وكانت قلب القوصرة الغائر Tympanum (وهى الآن تحمل نقش صلاح الدين الخاص باحياء ذكرى تحويل الكنيسة إلى مدرسة) تقع أسفل لبنات العقود التى تستند باحكام على معظم الأعمدة الادخلية.

ويعلو الباب الرئيسى للكنيسة صف واحد من المبانى أو أقل قليلاً ، وهو عبارة عن افريز أو كورنيش مستقيم مكون من أربعة خطوط مزينة ومزخرفة بالحلى المعمارية ويعلوها حلية معمارية مزينة برسوم على شكل بيضة وسهم وهذه الزخارف كانت من أبرز ما يميز الطابق الثانى. وكانت النافذة الرمحية واحدة من سلسلة النوافذ الممتدة عبر واجهة مبنى الكنيسة والأسوار الجانبية . وكانت الأسطح الحجرية المائلة للفتحة التى كانت توجد فى جدار باب الكنيسة تغلق بواسطة اثنين من الأعمدة القصيرة ، وتنفصل هذه الأسطح الحجرية قليلا عن

الأسوار الخارجية وتنتهى عند تيجان الأعمدة المزودة بزخارف نباتية على شكل أزهار. وعند المواضع المستقيمة الموجودة على العمود الذى يستقر عليه القوس والذى يعلو تيجان الأعمدة كان يوجد قوس مزخرف بزينات عبارة عن ينابيع. وكان يعلو هذا القوس مجموعة من النقوش المزودة بالزخارف الورقية التى تؤكد فخامة وبساطة زخارف النوافذ الرمحية.

وكانت النقوش والزخارف التى تزين الجزء الداخلى من الكنيسة والمصممة على الطراز الرومانسيك تتميز بالانسجام والتوافق. وعندما كان المرء يتحرك من المدخل الرئيسى للكنيسة إلى العمود الذى يطوق صحن الكنيسة فإنه كان يرى بعينيه مباشرة المذبح الموجود فى الجناح الرئيسى من المبنى . إذ كان صحن الكنيسة مزود بثلاثة من الطرقان المحصورة بين أعمدة ثلاث، وكانت أجنحة الكنيسة أيضا تقسم إلى أقواس دائرية تقريبًا هذه الأقواس التى كانت تستند على أعمدة بارزة. وهى الأعمدة التى كانت جزءاً من مجموعة الأعمدة الرباعية وذات الشكل الصليبى + المثبتة فى سطح الأقواس ، وكانت الحنيات المعمارية الرباعية تزين كل عمود . وعند هذه الجهة كانت الأقواس تقسم صحن الكنيسة والأجنحة الجانبية المفصولة عن الصحن ، كما كانت الحنيات المعمارية تزين الأعمدة القصيرة لهذه الأجنحة الجانبية المفصولة. وكان جناح الكنيسة مميزا تماما بيد أنه لم يكن بارزا ، وتتدلى مشكاة من سقف قاعة المرتلين الكنسيين Choir تغطيها قبة زجاجية صغيرة، وكانت قاعة المرتلين توجد جهة الشرق فى طريق نصف القبوات الخاصة بالأجزاء الجانبية الناتئة من الكنيسة ، ووجد هناك القليل من الزخارف والزينات. وكانت بعض السنادات الحجرية البارزة والناتئة من الأعمدة، والتى كانت تتمثل فى تيجان الأعمدة البسيطة ذات التصميم الهندسى أو المزينة بزخارف نباتية على شكل أوراق تكسب الأجزاء الداخلية من الكنيسة الروعة والجمال. ولاشك أن هذه الزخارف البسيطة المتقنة لم تستطع أن تقلل من الغرض الرئيسى لانشاء الكنيسة؛ وهو غرض تأدية الصلاة بها والتأمل الروحى. فقد كانت الاضاءة داخل الكنيسة ممتازة ، على الرغم من أن هذه الاضاءة كانت تظلم قليلا عندما كانت النوافذ الزجاجية تلطخ بالتراب والغبار الذى يحجب الضوء. وكانت نوافذ الطابق الأول تسمح بدخول الضوء إلى أجنحة الكنيسة الناتئة حيث كان شعاع الضوء يمتد خلال الأقواس والأروقة ليصل إلى صحن الكنيسة. واستمدت حجرة جوقة المرتلين الكنسيين Choir ضوءها من الضوء المسلط والمنتشر من فتحات المشكاوات المضيئة المتدلية من القبة. وأخيرا كانت هناك ثلاث نوافذ تزود مكان المذبح الرئيسى فى الكنيسة بالضوء فى حين كانت هناك نوافذ خاصة تضىء الأجزاء الجانبية الناتئة من الكنيسة. فقد كان الضوء مسلطًا على داخل

الكنيسة من اتجاهات مختلفة، ولم يكن ساطعا ، بل كان دائما خافتًا وضعيفًا ، الأمر الذى أدى إلى وجود نوع من الظل على الأعمدة ذات الشكل الصليبى، وأيضا على عقود الأعمدة وعلى الأقواس، ومثل هذا يؤكد حقيقة مؤداها أن التصميم المعمارى للكنائس الصليبية كان تصميمًا صليبيًا خالصًا. وبشكل لا إرادى ، يذكر أحد المؤرخين وهو بيجوى Pêguy نقاء الأضواء التى كانت توجد داخل الكنيسة فيقول إن الكنيسة الصليبية لم تكن تدعو المسيحى إلى التأمل الروحى ولكنها كانت تدعوه وتحثه إلى الصلاة.

لقد كان الدخول إلى مدينة بيت المقدس يتم عن طريق البوابة الغربية الرئيسة ، وهى «بوابة داود» (والتى تعرف اليوم باسم بوابة يافا) ، فكان الحاج المسيحى الأوربى فى العصور الوسطى يمر على القلعة التى كانت تقع على يمينه وهى القلعة التى كان يجاورها القصر الملكى الصليبى. وعندما يتجه الحاج شمالا فإنه كان يصل إلى حى البطريرك بتصميمه المعمارى الباسيليقى الفخم، وأيضا كان الحاج يصل إلى كنيسة الضريح المقدس، التى تحظى بالقداسة العظمى والتبجيل فى كل أنحاء العالم المسيحى. واليوم تتخذ كنيسة الضريح المقدس فى مدينة القدس شكلا جميلا يبهر العين ويلهم الخيال بدرجة تمكننا من تخيل وتصور مدى الفخامة والأبهة الشرقية فى تشييد الكنائس الكبرى (الكاتدرائيات) وهى احدى الكنائس التى شيدت فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . وقبل تحسينات القرن الثامن عشر الميلادى والاصلاحات التى شهدتها هذه الكنيسة خلال هذه الحقبة الزمنية كانت هذه الكنيسة عبارة عن فناء متهدم يقع أمام البوابات الرئيسة، ومبانى مجاورة لها قبيحة المنظر، وبعض الاصلاحات الشاذة التى استخدمت فيها مواد خام غير ملائمة وصناعة البناء المتوسطة الجودة، والزخرفة الفنية الغريبة غير المفهومة ، ولكن فى القرن الثامن عشر الميلادى شهدت كنيسة الضريح المقدس تحسينات واصلاحات معمارية أضفت عليها الروعة والجمال وأعادتها إلى سابق عهدها من حيث الفن المعمارى الرومانسك الجميل الأمر الذى جعلها أثر مقدسا دينيا يتمتع بالروعة والفخامة والعظمة*. وهكذا فإن مثل هذه الفخامة والروعة التى اتسمت بها كنيسة الضريح المقدس هو ما كان يصبو إليه الصليبيون عند قيامهم باعادة تشييد وبناء هذه الكنيسة.

---

* ومنذ عام ١٩٥٣ تغيرت أشياء كثيرة إلى الأفضل. فقد أعيد تجديد كنيسة الضريح المقدس فى مدينة القدس بنفس التخطيط المعمارى الذى كانت عليه من قبل أى خلال الفترة الصليبية وهو التصميم المعمارى=

وفى أثناء أحداث الغزو الصليبى لهذه المناطق بقيت هناك كنيستان بيزنطيتان حول منطقة الضريح المقدس، وتم اصلاح هاتين الكنيستين عدة مرات خلال عصر السيادة الإسلامية (وتعرضت هاتان الكنيستان للتهدم فى عهد الحاكم بأمر الله الفطمى فى عام ١٠١٠م) وكانت هاتان الكنيستان البيزنطيتان من بقايا واطلال كنيسة صلب المسيح وكنيسة القيامة الدائرية (انسطاس) ، وكانا على مقربة من كنيسة الجلجثة ، وكنيسة القديسة هيلانه، والغار الذى اكتشف فيه الحرب المقدسة أو الصليب المقدس. وتجلت براعة المهندس المعمارى الصليبى فى تصميم كل هذه المبانى الكنسية التى وجدت فى حرم مقدس واسع وتحت سقف واحد يخدم الحجاج ، ووجودها فى أماكن مقدسة شهدت ذكريات مسيحية مهمة مثل مكان صلب المسيح، ومكان دفنه ورفعه وارتقائه إلى السماء، ومكان قيامته من بين الأموات. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هناك مشكلة فى اجتياز مكان لاقامة بطريرك الكنيسة اللاتينية فى القدس ورجال الدين المسيحيين اللاتين الكاثوليك الذين أصبحوا بمثابة هيئة وجماعة ديرية أوغسطينية ولاسيما بعد الاصلاحات الكنسية فى عام ١١١٤م. بيد أننا لانعرف أسماء هؤلاء المعماريين الصليبيين الذين وضعوا تصميمات هذه المبانى الكنسية ولانعرف على وجه اليقين متى وضعوا الركن الأساسى لهذه المبانى. ومن المفترض أن تصميمات هذه المبانى كان جاهزا بحلول عام ١١٣٠م، وأن مجمع هذه المبانى أو المنشآت قد اكتمل بناؤه بحلول يوم الخامس عشر من شهر يوليه سنة ١١٤٩م حيث تم تدشين النظام المعمارى الباسيليقى الجديد وحيث ذكرى العيد الخمسينى للغزو الصليبى للمناطق العربية.

ومن وجهة النظر الفنية، كان تصميم كنيسة الضريح المقدس على الطراز الباسيليقى الجديد يعد من أروع وأفخم الانشاءات المعمارية الكنسية، على الرغم من أن قصر البطريرك اللاتينى القابع فى الجهة الغربية وكذلك الأديرة Cloisters ، وحجرات الطعام فى الأديرة، وصالة المبنى الملحق بالكنيسة، وحجرات نوم الرهبان فى الأديرة الأوغسطينية، كانت كل هذه المبانى لاتقل فى الروعة الفنية عن جمال وروعة كنيسة الضريح المقدس ، ومن المعروف أن الطراز الباسيليقى

= الذى تم على يد اللاتين والذى اعتمد أساسا على الطراز المعمارى الباسيليقى والذى كان أكثر انتشارا فى العصور الوسطى، وقد اتبع فى الترميم نفس هذا الطراز ونجح المهندسون المعماريون والبناؤن فى اظهار الأجزاء الأصلية للعمارة البيزنطية والصليبية فى هذه الكنيسة، وهى الأجزاء التى كانت إلى وقت قريب مكسوة بطبقات سميكة من الجص ، وتم اصلاح هذه الأجزاء وترميمها (المؤلف) .

فى البناء قد عرف قبل منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وهكذا كان الطراز المعمارى الباسيليقى فى المملكة الصليبية معاصراً لنفس الطراز المعمارى فى كل مدن شارتر وفيزاليه Vizelay فى الغرب الأوربى. وعلى الرغم من أن كنيسة الضريح المقدس التى شيدت على الطراز الباسيليقى والتى كانت تفتقر إلى الوحدة الفنية والإلهام الروحى فإنها كانت تحظى بالتقدير والتبجيل من جانب المسيحيين الحجاج . ففى المقام الأول، تم تشييد هذه الكنيسة فى الأماكن التى شهدت ميلاد العقيدة المسيحية ومهدها الباكر، كما أنها كانت تضم مذبحا تاريخيا يوضح التقلبات والتغيرات التى مرت بها الديانة المسيحية خلال مراحلها الزمنية والتاريخية . ويتمثل الدليل التاريخى القوى والدافع للديانة المسيحية فى ذلك القبر اليهودى المفصول، وبقايا أعمال التجديد الباسيليقى التى قام بها الامبراطور الرومانى الشهير قسطنطين فى القرن الرابع الميلادى، وأعمال الفسيفساء البيزنطية التى أدخلها البيزنطيون إلى هذه الكنيسة منذ فترة سابقة للوجود الصليبى، وأيضا فى المداخل التى شيدها الصليبيون خلال عصر السيادة الصليبية، وفى الصحون وفن النحت ، أى أن كل هذه الاضافات المعمارية والفنية تمثل أطوارا ومراحل تاريخية مرت بها هذه الكنيسة. والتحقق المجرد للتصميم الكامل لكنيسة الضريح المقدس من الأمور العسيرة . إذ كان هذا التصميم يشتمل على تصميمات معمارية مندمجة مجلوبة من القسطنطينية والتى ترجع إلى القرنين الرابع والسادس من الميلادى والأخرى جلبها منهم القادمون الأوربيون الجدد الذين وفدوا على الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام، وقام بتنفيذ هذه التصميمات المعمارية المختلطة البناؤن المحليون ونحاتو الأحجار . ومنذ البداية لم يقدر لهذا المزيج المعمارى المختلط أن يتطور وأن يحافظ على نوع من الوحدة الفنية طوال مراحل التخطيط والتنفيذ . ومع ذلك ، فقد جرت بعض المحاولات من أجل تحقيق ذلك، بيد أن نتائج هذه المحاولات كانت مخيبة للآمال وكانت بعيدة عن الابهار والتأنق.

وكان على الحاج الأوربى الذى يغامر بالذهاب إلى شارع السعف فى مدينة القدس أن يجد أمراً غريبًا، وهو أن المدخل الرئيسى لكنيسة الضريح المقدس لم يقع جهة الغرب قبالة المذبح الرئيسى كما كان سائدا فى كنائس الغرب الأوربى آنئذ، حيث كان المدخل الرئيسى للكنيسة يقع جهة الغرب والذى كان يواجه المذبح الرئيسى للكنيسة . إذ كان الداخل إلى كنيسة الضريح المقدس يبدأ من جهة الجنوب، خلال ممر مقنطر ومسقوف يتكىء على خمسة أعمدة بيزنطية، وعبر ساحة واسعة كان الزائر يواجه مدخلين مزدوجين للحرم المقدس. وإلى جهة الجنوب كان

هناك جانب المدخل المنفصل الذى يقود الداخل إلى رواق الجلجثة. وكانت الصورة الظلية لمبنى الكنيسة عجيبة وتشبه التصميم التكعيبى. وفى مقدمة الجهة الشمالية لمبنى الكنيسة كان يظهر جرس الكنيسة المرتفع وذو الشكل المربع والذى تعلوه قبة عالية ناتئة. وكان يوجد خلف الجهة الشرقية من مبنى الكنيسة سقف غريب فوق القبر المقدس، مخروطى الشكل. وكان هذا السطح يعلو المبنى البيزنطى المستدير لهذه الكنيسة والذى شيده الامبراطور انسطاس . وعلى مسافة بعيدة من الشرق كانت توجد قبة فوق حجرة المرتلين الكنسيين الصليبيين ، وعلى نفس المسافة ، كانت توجد مشكاة وقبة صغيرة لكنيسة القديسة هيلانة والتى كان يمكن رؤيتها.

وكانت المواقع العليا الممتدة على السطح العالى للمبنى تميزها أجزاء رئيسة من العمارة ذات الطراز الباسيليقى. وكان الجانب الغربى من المبنى عبارة عن المبنى المستدير البيزنطى الذى يعلوه قبة . وقد ضم الطابق الأرضى ثمانية عشر عمودا منتظمة فى شكل دائرة ، وهى الأعمدة التى كانت بمثابة دعامة يرتكز عليها رواق ممتد عبر مسافة طويلة . ووجد وسط هذه الأعمدة مبنى مربع صغير يعلو القبر المقدس ومزود بمدخل منخفض يؤدى إلى القبر الحقيقى للمسيح، ومزوداً أيضًا بقطعة حجرية مكسوة بالرخام ، وكانت قبتها الصغيرة تفتح على السطح المخروطى للمبنى المستدير البيزنطى . وخلف الرواق المقتطر الدائرى كان الزائر يتجه صوب ممش مسقوف دائرى يتفرع إلى ثلاث ممرات تتشعب جهة الغرب والشمال والجنوب.

ولكى يلحق الصليبيون كنيسة القيامة القديمة بمثيلتها الجديدة قاموا بتدمير جزء من العقد الدائرى الرائع . وقام البناءون الصليبيون بطمس وازالة الجانب الشرقى لمبنى كنيسة القيامة وحلو محله مبنى غير متقن الصنع ومزود بقوس نصر (قوس النصر) هذا القوس الذى يؤدى إلى المبنى الجديد. وكان الشرفة الداخلية فى مبنى الكنيسة المستدير يؤدى إلى صحن الكنيسة الذى يقع فى الجهة الشرقية من المبنى، حيث تحول الممش المسقوف الخارجى للكنيسة إلى جهة الشمال وجهة الجنوب وامتد إلى المبانى الجانبية الناتئة من المبنى الأصلى وذات الشكل الرباعى التى تطوق الصحن الرئيسى للكنيسة.

وهكذا أصبح الحرم المقدس من الجهة الشرقية كنيسة رومانسيكية . إذ كان جناح الكنيسة غير البارز يقطع وجناحى الكنيسة البارزين ، وعند نقطة التقاطع ، كانت تمتد قبة فوق حجرة المرتلين الكنسيين . وهنا كان يظهر مكان امفلوس omphalos الشهير الذى يميزه صليب فوق سطح مرصوف- وهذا المكان كان يمثل سرة العالم ومركزه وذلك وفقا لما ذكرته الجغرافية الدينية فى العصور الوسطى. فقد كان الذراع الشمالى من جناح الكنيسة ينتهى بسور تدعمه أعمدة

ضخمة مع أعمدة شبه متداخلة ، حيث كان الذراع الطولى من المبنى والواقع جهة الجنوب يفتح على المداخل الكبرى للحرم المقدس والفناء الواسع. وكان صحن الكنيسة يتجه جهة الشرق، وينتهى فى شكل نصف دائرة تحجب مذبح الكنيسة الرئيسى، حيث كانت أجنحة الكنيسة تتحول إلى بناء جديد ، هذا البناء الذى كان عبارة عن الممش المسقوف الشرقى المزود بثلاث كنائس صغرى متفرقة.

ويبدو أن جرس الكنيسة لم يكن موجوداً فى التصميم الأصلى لبناء كنيسة الضريح المقدس، فقد شيد برج جرس الكنيسة فى فترة متأخرة ، وكان برج الكنيسة المربع والضخم والمكون من خمس طوابق عالية تدعمه دعامات حائطية ، تسمح بنقل هواء قلعة العصور الوسطى، وكان كل طابق من طوابق البرج يحتوى على صفين أو ثلاثة صفوف من النوافذ ، ويشتمل على أقواس معقودة وتستند هذه الأقواس على مجموعات من الأعمدة الصلبة. وكان لهذا البرج سطح مميز، ومزود برواق مربع الشكل بارز به شرفات وفتحات لاطلاق السهام، وكانت هذه الفتحات والشرفات تحيط بكل السقف العلوى . ومن هذا الرواق كانت تظهر فيه قبة بارزة بين عمودين ومزودة بحافات بارزة تستند على عمود مثلث الشكل وكانت قمة هذا البرج تنتهى بفتحة لاطلاق السهام.

وتجدر الاشارة إلى أن هذا البرج يذكرنا بأبنية مشابهة له فى اقليم بروفانس بفرنسا وفى أسبانيا ، إذ كان بناء هذا البرج مميزا عن باقى الأبنية الأخرى من حيث كونه أوربى الطابع المعمارى وأبعد ما يكون عن الأصل المعمارى الشرقى- وثمة فكرة جديدة تخطر فى البال، ألا وهى أن هذا البرج لم يكن متسقًا مع الوحدة المعمارية للحرم المقدس وكان أيضا جزءاً محجوبًا عن المبنى الجنوبى للكنيسة ، ويحيط بالمدخل الرئيسى للكنيسة من ناحية اليسار.

وبشكل عام، فإن تصميم الطابق الأرضى للكنيسة على الطراز الباسيليقى كان على شكل مستطيل ، ومغلق عند كل نهاياته بواسطة نصف دوائر من الأعمدة، وكان الطول جهة الغرب يعادل ضعف العرض جهة الشرق، وكان طول هذا البناء يضم ثلاثة أجنحة من المبانى ممتدة على الجانبين ، وكانت الأجنحة الممتدة فى الاتجاه الغربى أكثر طولا من تلك المبانى التى أنشأها الصليبيون فى أثناء تجديدهم للكنيسة، وكانت أجنحة الكنيسة الشرقية تتبع الطراز المعمارى الرومانسيقى: هذا الطراز الذى كان عبارة عن نصف دائرة مزودة بكنيسة صغيرة ومذبح ويتصدره مبنى رباعى الزوايا ومدخل يؤدى إلى ممش مسقوف خلال قوس يستند على أربعة أعمدة.

لقد كانت كنيسة الضريح المقدس هى الاستثناء من حيث طرازها العادى المألوف ، فقد كان حجمها وشكلها ووحدة مبانيها القديمة وتركيبها المعمارى الجديد بمثابة ابتكارات لم نجد مثيلا لها فى أى مكان آخر. فلم يكن بناء كنيسة الميلاد فى بيت لحم، وهيكل سليمان (المسجد الأقصى) فى بيت المقدس من عمل الصليبيين، على الرغم من أنهم أعادوا بناء هذه الكنائس بشكل جزئى وجاء هذا التجديد والبناء وفقا لاحتياجات المجتمع الصليبى، لقد كان بناء كنيسة الضريح المقدس على الطراز الباسيليقى انجازاً معماريًا فريداً ومميزاً. والواقع أن العنصر المعمارى البيزنطى قد فرض نفسه على الرغم من أن البناء الجديد لهذه الكنيسة كان طراز غريبًا تمامًا ، وقد لخص أحد علماء العمارة الرومانتيكية التأثيرات المعمارية التى توالت عند بناء هذه الكنيسة على مر الزمان فقال: إن المهندسين المعماريين فى تولوز هم الذين صمموا تخطيط الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس التى تضم قبر المسيح، بيد أن المهندسين المعماريين من اقليم نورماندى ومن اقليم لانجدوك فى فرنسا هم الذين قاموا بالتنفيذ المعمارى. فقد قام مهندسو تولوز بتصميم الدور الأرضى وأروقة الكنيسة فى حين ساهم المعماريون من شمال فرنسا فى وضع التصميم المعمارى للأعمدة والسقف المعقود وشكل الجزء العلوى من قاعة المرتلين الكنسيين . وعندئذ يُعزى إلى البطريرك فولك استبدال التأثير المعمارى لمهندسى اكويتين بالتأثير المعمارى لمهندسى ومعمارى شمال فرنسا ونحن ندين لمهندسى شمال فرنسا بالتصميم المعمارى لواجهة الكنيسة والقبة. وفى النهاية، استعاد مهندسو شمال فرنسا تأثيرهم المعمارى بأن أضافوا إلى التصميم المعمارى الواجهة التى ابتكرها معماريو اكويتين كما أضافوا عمارة الجرس فى الكنيسة على الطراز المعمارى الذى كان موجوداً فى كنائس شمال فرنسا. ومن المحتمل أن بنائى ومعمارى الشمال الفرنسى لم يشاركوا فى بناء كنيسة الضريح المقدس، بينما نجد أن مدرسة العمارة فى تولوز هى التى ابتكرت تيجان الأعمدة فى العمارة والافريزات المعمارية (الكرانيش) ، وأن واجهة المبنى كانت من ابتداع أيدى البنائين البروفنسال .

ويقينا أن ما أورده هذا العالم المعمارى من تحليل ووصف الجوانب المعمارية والتأثيرات المعمارية فى بناء كنيسة الضريح المقدس فى مدينة القدس خلال الحقبة الصليبية من قبيل المبالغة ، وعلى الرغم من هذه المبالغة فإن ثمة حقيقة تقول إن فكرة امتزاج التأثيرات المعمارية الأوربية ربما تكون صحيحة بشكل أساسى. فقد كان الغزاة الصليبيون يحتاجون إلى أشياء فى

تلك المناطق المحتلة الجديدة تذكرهم بأوطانهم وتؤنس غربتهم ووجدوا ضالتهم فى تلك المنشآت المعمارية التى شيدوها على نسق ما كان موجودا فى أوطانهم وذلك فى مناطق غريبة غير ملائمة لاقامتهم ولذا كان عليهم اعادة صياغة هذه المناطق وفقا لأذواقهم ولاسيما فى مجال العمارة والانشاءات . وثمة وجهة نظر أخرى تقريبًا عبر طرحها أحد العلماء فقال : إنه فى مجال الفن المثالى المتقن ، والعمارة الدينية - أصبح الفن الاستعمارى الصليبى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى موضوعا لتفاخر الأوروبيين ، لكى يصادر أى رأى وأى قول يرى أن هذا الفن كان نتاجا لتأثيرات فنية متعددة وأن هذا الفن ظل مخلصًا قدر الامكان للفن المعمارى الذى كان شائعا فى الأقاليم الأوربية آنذاك.

ب- أعمال النحت

ومما يذكر أنه على الرغم من تعدد غارات المسلمين الشديدة ضد الأسوار والمبانى الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين ، فإن حجم الدمار والتخريب الذى أحدثته هذه الغارات كان ضئيلا إذا ما قورن باجمالى أعمال النحت التى تعرضت لهذا الدمار . فقد طمرت التماثيل تحت أنقاض الأسقف المنهارة والمبانى المهدمة ولم يتم تدمير أعمال النحت الصليبية نهائيا . وأما التماثيل وأعمال النحت الصليبى التى نجت من مصائب الزمن تلقفتها يد الردى حيث قام المسلمون بتدمير هذه التماثيل أو ما شابه ذلك بسبب الموقف العقيدى تجاه عبادة الأصنام والأوثان وبغضهم لها وتحريمها . وقليلا ما نجد صورة تمثال لانسان أو صورة مرسومة لآدمى بشكل كامل. ويمكن الحكم على هذه الانجازات المعمارية لمنطقة الشرق العربى الإسلامى خلال العصر الصليبى فى مجال أعمال النحت والتصوير من خلال النماذج الفنية الباقية من أعمال النحت، ولذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مؤداها أن الأعمال الفنية فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام لم تستطع أن تخلق مدرسة أصلية لفن النحت؛ ومع ذلك ، كان يوجد مركز نشط للفن الرومانسيك تطور على يد أفراد وليس على يد مؤسسات . ودعنا نضيف حقيقة مؤداها أيضا أن الفنانين الذين أنجزوا أعمال النحت قلما كانوا من أبناء هذه المناطق الصليبية. ويقينًا أن هؤلاء الفنانين كانوا من الأوربيين، الذين جاؤا إلى هذه المناطق بتشجيع من السلطات الصليبية المحلية، أو أن هؤلاء الفنانين قد جاؤا إلى هذه المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين بصحبة الحجاج خلال مواسم الحج السنوية إلى فلسطين . ومما يذكر أن الأعمال الفنية العادية مثل قطع الأحجار أو عمل نمط النقوش النباتية التى على شكل أزهار يتجلى

فيها جودة عالية لفن النحت خلال الحقبة الصليبية . فقد كانت الكرانيش المنحوتة ، وأحجار العقود المعمارية وحوامل الأفريزات أو الكرانيش ، وتيجان الأعمدة المنحوتة بشكل دقيق من صنع الحرفيين المهرة الذين برعوا فى الزخرفة، بيد أنه يجب على المرء أن يلاحظ ويشاهد العتبات التى تعلو مداخل كنيسة الضريح المقدس ، وأيضا تيجان الأعمدة فى كنيسة البشارة فى مدينة الناصرة، وكل الكرانيش المعمارية الرئيسة التى تعلو كنيسة الضريح المقدس لكى يتحقق ويدرك أن كل هذه الأعمال الفنية لم تكن فقط من صنع وعمل يد أرباب الحرف ورؤساء الحرفيين بل كانت أيضا من صنع عمال عشقوا علمهم وأحبوه .

لقد ارتبط مصير أعمال النحت الصليبية المهمة بالعناية الإلهية ، فبينما تم تدمير جرس كنيسة الضريح المقدس والذى كان وجوده يمثل نقطة تطور واضحة فى سياسة التسامح الدينى الإسلامى فى مدينة القدس خلال عصر السيادة الإسلامية فى هذه المناطق فإن الكنيسة نفسها ومداخلها وعتبات مداخلها بقيت سليمة لم يمسسها سوء . ومن حسن الحظ أن كنيسة البشارة فى الناصرة قد احتفظت بتيجان أعمدتها سليمة دون أذى.

ويمكن أن نرجع الفضل لأسقف الناصرة فى القرن الثانى عشر الميلادى، الذى أمر باخفاء تيجان أعمدة الكنيسة التى كانت على وشك التشطيب واكتمال البناء عشية هجوم صلاح الدين الأيوبى ضد المدينة. وقد اكتشفت تيجان أعمدة كنيسة الناصرة سليمة بعد سبعة قرون كاملة وذلك فى بداية القرن العشرين، لقد كانت هذه التيجان المعمارية من أجمل وأروع نتاج الحقبة الصليبية فنيًا . وتوجد الآن أشياء صغيرة وأجزاء من هذه التيجان فى متاحف دمشق، والقسطنطينية (استانبول فى تركيا) ، وفى متاحف مدينة القدس ، وفى متحف اللوفر بفرنسا، وتوجد بعض الرسومات أيضا والتى ظلت باقية لمدة ثمانين عاما مضت ولكنها الآن فقدت ، الأمر الذى يجعلنا نأسف ونحزن كثيرا لفقد وضياع مثل هذه الرسومات للأبد.

وفى وصف تال سوف نركز على ثلاث ابتكارات صليبية رئيسة فى مجال النحت وهما : العتبتين اللتين كانتا تعلو مداخل كنيسة الضريح المقدس ذات الطراز الباسيليقى، وسلسلة تيجان الأعمدة المنحوتة فى كنيسة البشارة فى الناصرة، ففى حالة كنيسة الضريح المقدس لدينا اطارا كاملا، بمعنى أن واجهة مبنى الكنيسة كان يقع فى نهاية الذراع الجنوبى من جناح الكنيسة ، وفى الناصرة لدينا تيجان أعمدة الكنيسة فقط والتى ينبغى أن نعيد تشييدها فى مواضعها الأصلية. وعلى الرغم من أن وصف واجهة الكنيسة أمر يتعلق بالفن المعمارى، فإننا نتعامل مع هذه الواجهة فى سياق فن النحت وثمة ما يبرر ذلك.

وكما ذكرنا آنفا ، فإن المدخل الرئيسى للكنيسة كان يقع عبر فناء كبير واسع عند النهاية الجنوبية لجناح الكنيسة الذى ينتهى بواجهة من طابقين ومزود بمدخلين أو بوابتين فى مستوى سطح الأرض ، وكان الطابق الثانى مزود بصفين من النوافذ وحول هذه الفتحات والنوافذ أظهر المهندسون المعماريون الصليبيون، والنحاتون وقاطعوا الأحجار مهارتهم وعبقريتهم الفنية. فقد كانت أبواب الكنيسة تطابق النوافذ من حيث الحجم تقريبًا وذلك عندما نقيسها عند النقوش المطيفة التى تزين المنحنى الخارجى للعقد المعمارى . وبينما كانت البوابات الرئيسة للكنيسة توجد وسط المبنى فان النوافذ والفتحات العليا كانت تقريبًا عبارة عن نوافذ رمحية (نوافذ عالية ضيقة تنتهى بعقد مستدق الطرف)، تنحدر من تحت قوس داخلى إلى منتصف ارتفاع الأعمدة. وكان نفس الاطار الخارجى للنقوش المطيفة أبرز ما يميز الجزء الخارجى للنوافذ، وكان هذا الاطار يتجه قليلا صوب الأقواس والأروقة، وكانت البوابات والنوافذ المنحدرة تحدث تناسقا وشكلا مهيبًا لأنها كانت تنقسم إلى قسمين بواسطة كورنيش فخم وكانت الأعمدة التى تحمل النوافذ مزخرفة بنقوش معقدة الشكل .

وكانت البوابات المزدوجة للكنيسة منفصلة بواسطة من خمسة أعمدة كل عمود يستند على قاعدة ذات صليبى، ويعلو كل عمود تاج منقوش بشكل رائع وكان العمود الخارجى يقابل الأقواس المزخرفة بنقوش ، وارتبطت البوابتان بسلسلة من الوسادات المربعة فى حين كان العمودان الداخلان يقابلان الأقواس التى تمثل اطار قلب القوصرة الغائر لكلا البوابتين ، وكان يوجد قلب قوصرة غائرا بين هاتين البوابتين . ويذكر الرحالة الألمانى ثيودريتش الذى زار المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام عام ١١٧٢م هذا فيقول : وخارج بوابة كنيسة الضريح المقدس (المغطاه ببرونز وصلب) وفى الفضاء الموجود بين اثنين من الأبواب كان ينتصب تمثال للسيد المسيح فى ثيابه الطاهر كما لو كان قد نهض لتوه بعد الموت، بينما تقف ماريا المجدلية التى انزلقت فى مستنقع الرذيلة لتجثو تحت قدمى المسيح لتقبل قدميه ولكنها لم تستطع أن تلمس هذه الأقدام المقدسة. ويقدم السيد المسيح إليها قائمة تتضمن هذه العبارات باللغة اللاتينية «أيتها الإنسانة لماذا تذرفين الدمع وتبكين. ولماذا تسجدين من أجل الموت، ولاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى ربى وعليك أن تنظرى إلى حبا من أجل أن تصبحى تائبة ومبجلة *.

---

* يذكر انجيل يوحنا (٢٠) قصة مريم المجدلية مع السيد المسيح فيقول : «أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجًا تبكى ... ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفا قال لها يسوع «يا امرأة لماذا تبكين ؟ من تطلبين؟ ... قال لها يسوع «لا تلمسيننى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ... فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب ، وأنه قال لها هذا . (انجيل يوحنا ٢٠)

ومن الصعب التحقق من ما إذا كانت قطعة التمثال هذه التى كانت متصلة أو منفصلة عن أعمدة مداخل الكنيسة.

وكان المشاهد عند بداية تيجان الأعمدة يرى روعة الزخارف التى تزين هذه التيجان إذ كانت عبارة عن نقوش على شكل أوراق نباتية وحليات معمارية صغيرة تزين قمة هذه الأعمدة. وكانت النقوش المنحوتة بدقة والتى كانت على شكل أوراق تزين طرف العمود المربع الذى يستقر عليه طرف القوس كما وجد فوق طرف هذا العمود أيضا خط من الحلى المعمارية ذات النمط المحدب . كما كانت عين المشاهد ترى عتبتين من الرخام تعلو الأبواب وتعلو هاتين العتبتين زخرفة معمارية على شكل طبلة Tympana، مجوفة الآن، بيد أنها حاليا متألقة بالزخارف الفسيفسائية . وهاتان العتبتان Lintels مختلفتان فى الشكل والوظيفة بشكل واضح . ولايمكن تفسير مثل هذا التنافر وعدم التجانس المعمارى ، إذ كان اضطراب الانسجام والتوافق فى الزخرفة المعمارية المنحوتة أمراً شائعًا فى البوابات . ومن الواضح أن الفنانين الذين أبدعوا أعمال النحت الزخرفية قد عالجوا موضوعات مختلفة تماما إذ كانت هذه النقوش الزخرفية تنتمى إلى مدرستين فنيتين مختلفتين. وكما يوجد فى المداخل اليوم، وفى المداخل خلال الحقبة الصليبية ، فإن الاختلاف فى الزخرفة المعمارية المنقوشة والمنحوتة كانت واضحة بشكل شاذ وغريب . وهناك ما يحث المرء على التساؤل ، والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل كان التصور الأصلى لمداخل وبوابات الكنيسة أن يكون الشكل ثلاثيا ولم تكن ذات شكل مزدوج ؟ والحقيقة أنه فى مثل هذه الحالة كانت العتبات التى تعلو واجهة البوابات مزينة بزخارف على شكل زهور وأوراق (الزخرفة العربية المعروفة بالأرابيسك) وهى الزخارف التى تشبه تماما الزخارف المنحوتة التى تزين تيجان الأعمدة ، وتشبه أيضا تلك الزخارف التى تزين المواضع التى يستقر عليها طرف القوس ، والنقوش التى تزين القنطرة أو جوانبها ، وكانت هذه الزخارف العربية (الأرابسك) تشكل اطار متناسق الأجزاء لعتبة البوابة الرئيسة المركزية المزينة بالرسوم . وثمة سؤال يطرح فى هذا السياق وهو هل كان البرج الضخم لجرس الكنيسة المربع الشكل، والذى كان يوجد فى الجهة الشمالية من واجهة الكنيسة يعوق تنفيذ مثل هذا التصميم ؟

والحقيقة أنه لايمكن معرفة التاريخ الدقيق لبناء وتشييد هاتين العتبتين . فلم تتعلق هاتان العتبتان بشكل مباشر بالبناء والتشييد ، فقد نفذ تصميم هاتين العتبتين ما بين أعوام

١١٣٠م، وعام ١١٨٧م وهو العام الذى أحرز فيه المسلمون بقيادة صلاح الدين النصر المؤزر على الصليبيين فى حطين . وكالعادة ، فإن أحد الرحالة من غير الصليبيين (الذى دون مشاهداته فى كتاب أسماه وصف الأماكن المقدسة» كان مشغولا بالأماكن المقدسة والزخارف التى تزين المبانى فى هذه الأماكن ، وقد أشار هذا الرحالة إلى وجود العتبات التى تعلو واجهة البوابة.

كانت العتبة اليمنى ضئيلة الحجم، وكانت عبارة عن بلاطة من الرخام رباعية الشكل، وتمثل شكلا منحوتا دائريًا يتسم بالتناسق والاتساق . وكان النمط الأساسى للزخارف والنقوش التى تزين أسفل منتصف الجهة الشمالية من العتبة عبارة عن فرع شجرة ضخمة يبرز منه مجموعة من أوراق النخيل . وكان هذا الغصن مزينًا بخط موازٍ ثلاثى الأطراف وأوراق ممتدة ، تتطور إلى شكل نصف دائرة تعلو كل امتداد وطول العتبة . وهكذا فإن العتبة كانت تمثل خمسة مستويات واضحة ، ثلاثة فوقها واثنان تحتها . وكانت كل الأجزاء الثلاثة المستقلة التى تعلو الفرع الرئيسى مليئة بفروع ثلاثية وحلزونية ضيقة ، وكانت هذه الفروع عبارة عن فرع مرصع ومزين بمربعات محاطة بخط مزدوج من الفتحات والثقوب الصغيرة . وكانت أطراف الساق الحلزونية مزودة بنقش على صورة زهرة نبات الخرشوف ينتأ عنه مجموعة من وريقات نباتية قصيرة وتظل موجودة وعالقة فى تعاقبها ، وكانت هذه زخرفة فى شكل نقوش على صورة أوراق . وكانت الفروع النباتية الأصغر والأغصان الورقية تنقش بالتقان فى كل اتجاه.

وكان هناك اثنان من التماثيل العمودية على شكل صبيان ، وتمثال آخر فى وضع أفقى، وقد تشابكت أجساد هذه التماثيل مع الزخرفة الورقية الحلزونية الرئيسة، والتى كانت تملأ الأجزاء الثلاثة المستقلة . وكانت الأجساد العارية للتماثيل الآدمية (على شكل صبية) تواصل تقدمها فى شكل حلزونى كما لو كانت هذه التماثيل قد انتصبت فى حركة دورانية. والحقيقة، أن هذه التماثيل الثلاثة كانت تعطى انطباعا بحركة عجلات زهرية بطيئة.

وبينما كانت اللوحات الأولى والأخيرة متناسقة ومختلفة بشكل أساسى فى الاتجاه ، مع اتجاه العجلة (كانت اللوحة الشمالية فى اتجاه ضد عقارب الساعة، فى حين كانت اللوحة اليمنى فى اتجاه يتفق مع اتجاه عقارب الساعة) ، فإن اللوحة الوسطى كانت تمثل معظم الصور والأشكال الخاصة. وكان اطار اللوحة الوسطى التى كانت تقع فى اتجاه عقارب الساعة مزينًا بنبتة متسلقة حلزونية الشكل، وكان التمثال العمودى الموجود جهة شمال اللوحة الوسطى يماثل التماثيل الأخرى المقابلة له فى اللوحات الأخرى ، بيد أن التمثال العمودى المنتصب جهة

اليمين كان مختلفًا . إذ كان هذا التمثال مزينًا بسهم على شكل نبات حشيشة القنطريون Cendaur Sagillarius وكان وجه هذا التمثال يرى من ثلاث جهات جانبية . وكان الجزء الآدمى من جسد التمثال قلما كان يناسب ردف حيوان (ووجدت نفس هذه الغرابة والخصوصية فى نفس الكتب الصليبية الخاصة بالرسوم التوضيحية)؛ فقد كان التمثال نصف الآدمى يقبض على سهم، وكانت توجد سهام أسفل التمثال الذى نصفه انسان والنصف الآخر طائر. فقد كان هذا التمثال له رأس امرأة وجسد طائر ، وهذا يذكر المرء بالنقوش والرسوم التى كانت على شكل كائنات اسطورية والتى كانت تزين بعض المخطوطات فى العصور الوسطى.

وكانت اللوحات شبه الدائرية الباقية تتبع نفس النمط وهو النمط الحلزونى الثلاثى. وبدلاً من اتجاه الزخرفة الورقية إلى أسفل ، كانت هذه الزخرفة تنحرف إلى أعلى . ومما يذكر أن التماثيل الآدمية الثلاثة التى كانت توجد فى كل اللوحات السابقة قد استبدلت بطيور . وكان يوجد اثنان من الطيور على الأجزاء العليا من العجلة وواحد من الطيور عند أجزائها السفلى وكانت هذه الطيور تنقر بمنقارها ورق الزخارف المنقوشة . وكان فرع الشجرة الحلزونى يملأ الفراغ المحصور بين الحليات المعمارية الخمس الناقرة، وترتفع هذه الفروع النباتية إلى أعلى وتهبط إلى أسفل فتتقسم هذا الفرع إلى نصفين .

وهذا يشير إلى أن فن النحت التولوزى المعاصر (الذى ينسب إلى مدينة تولوز بفرنسا) وفن النحت القبطى قد استخدم نفس النمط وهذا النوع من الزخرفة النباتية، والتى ترجع إلى العصور القديمة : حيث كان يجتمع العشاق والطيور سويا وسط مزارع الكروم . ومهما كانت أسبقية وأقدمية هذه العتبات ، فإن العتبة كفن معمارى تأصلت كواحدة من الأشكال المعمارية التى تأثرت بالطرز الوثنى الكلاسيكى. وكان أسلوب قص شعر الصبية ذا أصل رومانى، ولكن الغريب فى الأمر هو أن الشعر كله كان يوضع فى خصلة واحدة على العنق أو على الأكتاف . وعلى الرغم من أن الأجساد لم تكن دائما صحيحة من وجهة نظر علم التشريح (وكان الفن البابلى يتمثل فى ايماءة اليد اليسرى للتمثال الأول جهة اليمين؛ وكان الاصبع الأيمن من اليد الثابتة تبرز وتشير) ، ومن حيث الحركة كان وضع التمثال يتسم بالرشاقة مثلما كان الوضع فى فن النحت الكلاسيكى القديم. ومن الملاحظ أيضا ، أن الأشكال والصور البشرية فى النحت لم تكن عارية ، ولم تخطط طبيعتها الانسانية بشكل دقيق فقط ، بل كانت تخطط من أجل غرض معين. وهذا ما أشارت إليه التماثيل الآدمية العمودية التى احتوتها اللوحات الأولى والأخيرة.

وكما ذكرنا منذ قليل ، فإن العتبة الشمالية التى تعلو الأبواب كانت تختلف من حيث الطراز والذوق والموضوع . ولنذهب إلى براعة فن تصميم العتبة اليمنى . فقد تميزت بنقوشها الورقية الملفوفة والتى تتسم بالتناسق والانسجام المعمارى الفنى والفخامة والنظام، والوضع الحر للأجسام العارية ، والذى استبدل بلوحة تفتقر إلى الحركة وكانت أقل اثارة وأقل إلهاما من العتبة اليمنى.

وكانت العتبة هذه تضم ست لوحات فنية تمثل القصص والحكايات الأسطورية المستوحات من حياة السيد المسيح (عليه السلام)، والتى تتصل بشكل مباشر بمدينة بيت المقدس والأقاليم المجاورة لها . فقد حدثت قصة الأناجيل الباقية (العهدين القديم والجديد أى التوراة والانجيل) داخل حدود الضريح المقدس . وكانت الصور واللوحات تمثل تتابع وتسلسل تاريخى للأحداث المقدسة وإن كانت القصتان الأولى من الكتاب المقدس لم تجد تفسيرا- فقد كانت الحادثة الأولى من الكتاب المقدس تصف قيامة القديس من الموت على يد السيد المسيح، والحادثة الثانية كانت تصف توسل ماريا المجدلية إلى السيد المسيح لكى يقوم بالمعجزة وكانت هذه اللوحات التى كانت تصور هاتين الحادثتين أفضل اللوحات من الناحية الفنية، ويعتبر الفنان الذى أبدع هاتين اللوحتين والذى قام بنحت كل أجزاء العتبة والتى استمت بطراز موحد من الرواد والعباقرة. وتميزت بعض الصور فى اللوحات الأولى والأخيرة بالتشابه إلى حد كبير.

وكما ذكرنا آنفا، كانت اللوحة الأولى تصور قصة حادثة احياء القديس لازرايوس من الموت، وحدثت هذه المعجزة داخل منزل ، ووجد فى شمال هذه اللوحة اطار العمود المزخرف ، وهو الذى يميز بداية اللوحة . وكان الرواق الثلاثى المقنطر الممتد من تاج العمود الذى يستند بشكل مهتز على العمود يمثل شكل مدينة. . وكانت تعلو قمم الأروقة قباب تشبه نبات اليقطين Punkin . وقد تناسب خصر العقود Springers المعمارية مع المبانى المهمة، والتى كانت عبارة عن برج مربع من طابقين فى الجهة الشمالية، وبوابة ، وبرج دائرى مستدير، وقبة، وعقدة عند القمة (والتى كانت تشبه الأبراج الصغيرة الواقعة عند برج داود الذى كان منقوشا على أختام ملوك مدينة بيت المقدس من اللاتين) .

لقد كانت الصور تنتظم فى ثلاث مجموعات عمودية تتطابق مع شكل الرواق ثلاثى الانحناء ، وعندما نتابع شكل الرواق الأيمن الشاهق الارتفاع ، نجد صورة للسيد المسيح ذى لحية. إذ كان السيد المسيح فى هذه الصورة يرتدى ثيابا طويلاً وينتعل صندلاً فى قدميه ، واحدى يديه تمسك كتابًا مفتوحًا ، فى حين كانت اليد الأخرى تمنح البركة والغفران الصليبى.

وكان السيد المسيح أيضا يلبس فوق رأسه هالة القداسة ويلوح بيديه من وراء كتفيه. وفى الاتجاه المقابل، كانت هناك أربع صور تملأ وتزين الرواق الأول . فقد نهض القديس لازاريوس من الموت ، ووقف على قدميه ، يرتدى بدلة ضيقة ذات غطاء للرأس وعصابة رأس من النوع الذى يسهل فكه. وكان يوجد خلف صورة القديس صورة لشخصين آخرين ، أحدهما يمسك منديلا ويضعه على أنفه وفمه ، وأمامه رجل يهدم بلاطه كانت تغطى القبر المقدس. وأخيرا كان يوجد وسط الرواق المقنطر ثلاثة أشخاص ، وكان الشخص الأكثر طولا يضع يده على أنفه وفمه بينما كانت يده اليمنى تقبض على عصا مزودة بحلية مدورة ، وكان الشخص التالى يؤخر يده كما لو كان يعبر عن دهشته للمعجزة التى قام بها السيد المسيح أمام عينيه ؛ وأخيرا نأتى إلى صورة مرسومة ومنقوشة بشكل رائع، وكانت عبارة عن رجل قصير القامة ممتلىء الجسم يضع يده على عينيه. وفى مقابل هذه الصورة كانت هناك صورة مريم المجدلية التى تجثو عند قدمى السيد المسيح باكية ومتوسلة من أجل التوبة وتقديم آيات الشكر له ، فى حين كان يوجد شخص آخر يساعد فى تحريك بلاطة القبر وفك أربطة الرجل الميت ونزع أكفانه.

لقد كان تكوين كل هذه الصور والنقوش عملاً فنيًا بارعًا، فقد شملت هذه اللوحة على عشر صور نظمت جيداً فى ثلاثة مواضع منبسطة ، وعلى الرغم من أن الزخارف الورقية المنقوشة كانت أحيانا أمراً مرغوبا فنيا، فإن كل ما احتوته هذه اللوحة كان مثيرا للاعجاب ولاسيما الصور الآدمية التى تحيط بالسيد المسيح والذين كانوا يرتدون ملابس طويلة ذات طيات مثلثة الشكل أو ذات شكل أفقى؛ وكانت لحاهم (لحية) أما مستقيمة أو متموجة ، وكانت هذه اللحى جديرة بالاحترام والمهابة . وكانت الصورة الأكثر أهمية عبارة عن صورتى الشخصيتين المرافقين للسيد المسيح والذين يحركون البلاطة الخاصة بالقبر المقدس. ومن الواضح أن هذين الشخصين كانا من خدام المسيح، إذ أن البدل والملابس التى ارتدوها لم تكن تتدلى حتى أقدامهم ، فكانت هذه البدل قصيرة تشبه بدلة العامل ، وهذه البدل القصيرة كانت تنتشر بوضوح فى أعمال النحت والرسوم فى العصور الوسطى الباكرة . وكان خدام المسيح يرتدون أيضا أحذية فى حين كان باقى مرافقيه ينتعلون صنادل فى أقدامهم . وقد أبرزت هذه اللوحة أيضا إيماءات توسل مريم المجدلية وتوسلات الرجال الذين تضرعوا للسيد المسيح من أجل قبول التوبة، والذين كانوا يخفون وجوههم وأنوفهم من جراء رائحة منفرة نتنة . والتفسير العادى لسبب إيماءات هؤلاء الرجال ووضع أيديهم على أنوفهم ووجوههم هو نفورهم من الرائحة

النتنة التى كانت تنبعث من جسد القديس لازاريوس عندما كان بين الأموات وقبل أن يحييه السيد المسيح بإذن الله. ولم يكن هذا التفسير مقنعًا بشكل كامل، فقد كانت هناك أحد الأشخاص يضع أصابعه فوق عينيه ، ويمكننا القول إن هذه الإيماءات للصور الآدمية فى اللوحة كان تعبر فى الواقع عن الأسى والحزن الذى كان يخيم على الجميع الذين حضروا معجزة المسيح فى احياء الموتى بإذن الله . وقد وجدت مثل هذه الايماءات التى تلمس الأنف فى بعض زخرفة المخطوطات والرسومات والتى تنسب إلى المملكة الصليبية فى بيت المقدس، ويقينًا أن هذه الايماءات المتعلقة بالأنف كانت تعبر عن الحزن والأسى.

وكانت اللوحة التالية على النقيض من الناحية الزمنية من اللوحة السابقة، إذ كانت تصور مريم المجدلية وهى تسجد وتجثو أمام أقدام المسيح وجثو مارتا أمام أقدام المسيح وتوسلها من أجل احياء لازاريوس من الموت. وكانت الصورة العالية للسيد المسيح والواقعة فى منتصف اللوحة تقسم اللوحة إلى نصفين، ولم تكن صورة المسيح هذه (والتى تحطمت رأسها وتهشمت) أقل روعة وفخامة ، ولكنها لم تكن مناسبة تماما لهذه اللوحة؛ فقد كان المسيح يجلس فوق كرة صغيرة يعلوها صليب ويمسك فى يديه كتابا مفتوحا من زاوية صعبة . وكان شكل هذه الصورة أقرب إلى منظر صعود السيد المسيح إلى السماء بشكل أكثر من منظر أى شىء آخر. وإلى الشمال، خلف أبراج المدينة ، كان يوجد أربعة من الأشخاص من مدينة بيت حنون Bethany . وكان هؤلاء الأشخاص الأربعة يمسكون عصى لكى يؤكدوا رحلتهم من بيت حنون لاستقبال السيد المسيح والترحيب به. وكان سمعان (سيمون) بطريرك مدينة بيت المقدس اللاتينى يمثل فى شكل صورة رجل ذى عمامة على الطراز الشرقى، ولاشك أن اثنين من الحواريين كانا يقفان أمام السيد المسيح ويمسكان فى أيديهما كتبا.

ومما يذكر أن التلف والضرر قد أصاب اللوحات الثلاث التالية، ولكن لحسن الحظ، تم اكتشاف الجزء المعقود من عتبة بوابة الكنيسة، وقد حفظ هذا الأثر التاريخى فى متحف اللوفر فى فرنسا، وكانت اللوحة التالية جهة الشمال من عتبة البوابة مقسمة إلى جزءين أفقيين، كان الجزء العلوى يشمل صورة لمندوبى وتلاميذ المسيح وهما القديس بطرس والقديس يوحنا وهما يبحثان عن مكان للاحتفال فيه بعيد الفصح؛ واشتمل الجزء الأسفل من الصورة ، علىّ نقش على شكل سبع ورقات لحواريين الذين يعدون القنديل الذى يضىء مكان القربان. وعندئذ ، كانت اللوحة التالية تشتمل على صورة للسيد المسيح يمتطى حماراً وهو فى طريقه إلى المجيىء

إلى مدينة بيت المقدس. وكانت اللوحة قبل الأخيرة تمثل صورة للسيد المسيح وهو يدخل مدينة القدس: حيث كانت الجموع تستقبله بالهتاف *، وكان بعض مستقبليه يتسلقون شجرة نخيل ، وشوهد البعض الآخر يتسلقون فروع الأشجار، أو كان الشخص يقف فوق كتف زميله من أجل النظر إلى موكب السيد المسيح فى أثناء دخوله مدينة بيت المقدس وكان الجزء العلوى من البوابة المؤدية إلى مدينة القدس مزخرفة بالنقوس. فقد كانت مدينة القدس تمثل فى صورة حرم مقدس مقبب (تعلوه قبة) ويوجد على جدار هذه القبة فتحات صغيرة بالإضافة إلى قبتين صغيرتين حول الأبراج الصغيرة ، هذه الأبراج التى تنتهى عند كؤوس القربان المقدس الصغيرة التى تحيط بها الشرفات المفرحة.

وكانت الصورة الأخيرة تمثل منظر العشاء الأخير**، وكانت الأروقة الثلاثية الموضحة فى اللوحة الأولى فى جهتها اليسرى والتى كانت تمثل المدينة المقدسة تنتهى عند عمود ضخم. وكانت قاعدة العمود التى بها أخدود يستند على قاعدة عمود مربعة الشكل وعلى عمود مجدول أو مضفر (وجد هذا النوع من الأعمدة فى قبور الملوك الصليبيين وفى بعض مبانيهم). وكانت اللوحة مقسمة أفقيا بواسطة منظر على شكل دائرى وهو عبارة عن مائدة مغطاة بالقماش وتستند بطريقة غريبة على أرجل وركب حوارى المسيح. وكان هؤلاء الحواريون العشرة، يجلسون حول هذه المائدة يلتفون حولها كما لو كانت هذه المائدة منتصبة فى قاعة . وشوهد القديس يوحنا حليق الذقن مستلقيًا على ظهره أمام السيد المسيح؛ ويقف الحواريون على يمين السيد المسيح، ولاشك أن هذه المناظر التى وجدت فى الرسم فى الصورة تحى ذكرى قيامة القديس لازاريوس من الموت على يد السيد المسيح باذن الله . ويظهر يهودا Zudas

---

* يذكر لانجيل متى فى ذكرى دخول السيد المسيح مدينة بيت المقدس فيقول «ولما قربوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاجى عند جبل الزيتون ... والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق ، وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق. والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين: «أوصنا لابن داود تبارك الآتى باسم الرب أوصنا فى الأعالى!». ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا ؟ قالت الجموع «هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل». (متى ٢٠ ، ٢١) .

** يعرف هذا العشاء فى المسيحية باسم العشاء الربانى وهو طقس مهم فى المسيحية ويرمز لذكرى مسيحية مهمه ترتبط بالسيد المسيح عليه السلام. ويذكر الانجيل متى -٢١ . هذه الحادثة المرتبطة والمتعلقة بالعشاء الربانى فيقول : «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: «خذوا كلوا هذا هو جسدى». وأخذ الكأس وشكر واعطاهم قائلا : «اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يظل من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا ...». (انجيل متى -٢١-) .

على الجهة الأخرى من المائدة، وكان موقعه هذا ومكانه هو المكان المألوف له فى فن العصور الوسطى. ومن الناحية الفنية، لم تكن هذه اللوحة انجازا فنيًا عظيمًا. وثمة نموذج آخر فقط من أعمال النحت الصليبى الذى حفظ بشكل جيد الآن، وهو تيجان الأعمدة الرومانسيكية والخاصة بكنيسة البشارة فى الناصرة. وإذا كانت هذه التيجان تمثل أعمال النحت التى ابتكرها الصليبيون فى الربيع الأخير من القرن الثانى عشر الميلاد،ى فإن المرء بمقدوره أن يصل نتيجة واستنتاج مؤداه أن المملكة الصليبية فى بيت المقدس لم تكن تفتقر إلى المبدعين والفنانين ولا إلى التحف الفنية.

ويستطيع أى زائر لهذه المناطق أن يرى هذه التيجان الخمس الجميلة من وراء زجاج خزانة الملابس المرتفعة الموجودةفى حجرة حقيرة مظلمة وذلك فى المتحف الذى تحفظ فيه آثار كنيسة البشارة فى مدينة الناصرة. ومن غير المؤكد أن الطابع المميز لفن البناء الجديد لكنيسة البشارة فى الناصرة فى عصر النهضة الايطالية قد قدر له أن يكون استمرارا لفن النحت والعماره فى العصر الصليبى. فقد كان البناء الجديد لكنيسة البشارة يشمل فى ساحته الواسعة بقايا الكنيسة الصليبية، بيد أن كنيسة الضريح المقدس كانت أكبر كنيسة شيدت فى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام. فقد شيدت كنيسة البشارة فى الناصرة على الطراز المعمارى الباسيليقى بشكل ينافس الكنائس الأوربية المعاصرة لها، فكان طولها ٢٤٨ قدما وعرضها ٩٩ قدمًا، وكانت تضم ثلاثة أجزاء من المبانى الناتئة على شكل نصف دائرة، ويحصر فيما بينهما صحن الكنيسة والجناحين وهى أجزاء جانبية من الكنيسة مفصوله عن صحنها بواسطة أعمدة. وزودت هذه الكنيسة بستين عموداً وهى الأعمدة التى أضفت عليها الروعة والجمال وتفوقت فنيًا على بعض الكنائس الصليبية الأخرى. كانت تيجان أعمده كنيسة البشارة فى القاهرة تقع عند المدخل الغربى والذى يؤدى إلى مذبح الكنيسة عند النهاية الشرقية لمبنى الكنيسة. وكان ارتفاع التاج الأكبر يفوق ارتفاع التيجان الأخرى بحوالى الثلث، ويبدو أن هذا التاج كان خاصا بالعمود الأوسط المزود بالزخارف والنقوش، وكانت النتوءات المسطحة الثلاث. فقط مزينة بنقوش وزخارف، وكانت تيجان الأعمدة الأخرى المثمنة الشكل تصنع اثنين من النتوءات المسطحة التى تتلاءم مع الأعمدة التى تندمج فى الأسوار، وأيضا مع ستة من النتوءات المسطحة المنحوتة. واليوم حيث لاتوجد التيجان فوق أعمدتها، فإنه يعترى الشخص شعورا غريبًا عند رؤيته لنموذج صغير لهذه التيجان من خلال مسرح العرائس، إذ تظهر فوق خشبة هذا المسرح تماثيل آدمية من كل أنحاء العالم، ويقف حوالى ثمان وأربعون تمثالا منهم لكى يرووا حكايتهم للناس.

لقد كانت السمة المميزة العامة لتيجان هذه الأعمدة تتمثل فى ذلك الطوق العلوى المزود بالزخارف . وكان هذا الطوق العلوى عبارة عن خط من الأروقة مزخرف ومزين بحليات معمارية محدبة ومدعم بممر مقنطر ، وهذا القبو كان يمثل مدينة ، وكان هذا الرواق والممر المقنطر الضيق والضئيل فى المساحة، بأعمدته وقبابه الدائرية يذكرنا بقناة جر وسحب المياه الرومانية، وكانت النقطة البارزة فى هذه الأروقة والممرات المقنطرة (السطح) ترى من أعلى، إذ شخص المرء بصره إلى المبنى الموجود فى الركن، وكان يمكن رؤية بعض الأروقة والممرات المقببة المركبة عند مبنى جانبى آخر أو من خلال برج يعلوه . وكان البهو المقدس المركزى يحل محله بهو مزدوج عند أكبر تاج عمود ، هذا البهو المزدوج المزود عند نهايته على الجانبين بمواضع يستقر عليه طرف القوس الأفقى الشكل، ويستند على جانبيه اثنان من الأبنية مزودة بحافة وسقف مائل منحدر.

وكان هناك خط متواصل من الممرات المقببه المشابهة تمتد عند منطقة عالية فوق الأعمدة، وكانت هذه الممرات متشابهة التصميم . ويمكن القول، إن مثل هذا كان يمثل اختلافا حادا للزخرفة المعمارية التى كانت تميز الأجزاء الناتئة نصف الدائرية لمبانى الكنائس الصليبية والتى كانت تعرف باسم الكورنيش. Cornice، بيد أن الانطباع القوى والمؤثر كان يتمثل فى ذلك الطابع المميز لزخرفة قمة تاج كل عمود. وكان أسفل هذه الزخارف المتقنة توجد ثقوب وفتحات فى هذه الأقواس المعمارية، وما تزال هذه الثقوب ترى جيدا بألوانها الحمراء والزرقاء حيث كان الفنان يضع تماثيل صغيرة منحوتة فى هذه الثقوب بارتفاع ٨سم .

ولم يتوفر عنصر الحركة فى هذه التماثيل الآدمية ، وهناك استثناءان أو ثلاثة، حيث كان النحات ينزع إلى الحركة عند نحته التماثيل الآدمية . كان عنصر الحركة فى التمثال يبرز من خلال ترتيب القدمين، وأيضا من خلال انتفاخ الملابس التى تحركها الرياح بشكل أكبر من حركة ميل وتمايل الجسم . ولكن القاعدة فى صنع التماثيل ونحتها هى أن التماثيل كان يتم نحتها فى أوضاع ساكنة متجمدة: وكانت هذه التماثيل لقديسين يحظون بالتبجيل والتعظيم من جانب المسيحيين اللاتين وعميقى التفكير بايماءاتهم واشاراتهم الواضحة . وكانت الفتحات والثقوب المسطحة والرأسية تعلو اكتافهم ويظهر البرج خلف رؤوسهم مثل أطباق الكنيسة الضخمة . والواقع أنه لم يوجد هناك شىء يدل على نقاء وصفاء أعمال النحت هذه وقلما كانت أعمال النحت الصليبى هذه تتسم بالتوسط المقنع . إذ كان يوجد فى كل تاج عمود ماده لاصقة تثبته. وكان طلاء تاج العمود يتم بشكل متقن يمنح كل تاج عمود اثنين من الرسومات

المنظورة المتنافرة التى تختلط سويًا لكى تخلق وضعًا فنيا غير حقيقى. وفى الوقت الذى كانت فيه المدينة المزودة بأقواس وقناطر ، والمزودة بمئات البلاطات ، التى تصنع قوسًا فوق الأعمدة والأسطح والتى كانت ترى من مكان عال حيث تظهر الأسقف المنحدرة المائلة والأقواس المتدلية، فإن التماثيل الآدمية كانت تصنع على يد الفنانين كما لو كانت أشخاصًا ترفع أبصارها إلى أعلى. وعلى الرغم من أن رؤوس وأيدى وأرجل التماثيل لم تبرز من كتلة الحجر المنحتوة ، فإن المشاهد لها كان ويتولد لديه انطباع بأن هذه التماثيل تميل أمام هذا المشاهد، ويتولد لديه انطباع أيضا مؤداه أن هذه الأعضاء تكون أقوى عندما ترتفع تيجان الأعمدة عن سطح الأرض بمقدار يتراوح ما بين ستة ونصف إلى تسعة أقدام . وقد خلقت التقنيات المختلفة هذا الانطباع الممثل فى : تجويف عميق وقطع الجزء الأدنى من الفضاء خلف الرؤوس بينما يكون الجزء الأسفل من الجسم ملتصقا بخلفية التمثال، مستخدما سطح ناتىء مقعر بشكل حاد على الخلفية المتجعدة ليمثل هالة القداسة للقديسين، مبرزة الفتحات الدائرية العميقة عند ذيل الملابس ، والذى يستطيع المشاهد أن يراها من أسفل فقط.

لقد كانت موضوعات أعمال النحت تنحصر فى تمثيل الحكاية والرواية المهمة لذلك الشخص المسيحى الذى يأتى للصلاة فى الكنيسة، وتحكى للحجاج المتدينين الأتقياء القصة المقدسة . وكان تاج العمود الرئيسى الذى قدر له أن يزخرف العمود الواقع بين جناحى المدخل أو الواقع بين البوابات يمثل العقيدة المسيحية (أو الكنيسة) وكان هذا التاج على هيئة ملكة تقود قديسًا أو حواريًا . وكان ثياب هذه الملكه عبارة عن قطع صغيرة منحوتة مصقولة ومزودة بطيات متعددة الأنواع حول منطقة الثدى (واحسرتاه ، فقد كان القديسون الذكور يلبسون غطاءً فضفاضا من الجوخ ذى طيات على الرغم من أن الفنانين نحتوا تمثالا واحدا فقط ذا صدر مصقول) . وكانت صورة الملكة تمسك فى يدها اليمنى عصا يعلوها صليب ، فى حين كانت يدها اليسرى تصافح اليد اليمنى للقديس . وكان يعترض سبيل الملكة اثنان من الأرواح الحارسة المنحوتة بشكل جيد ورائع، وكانت الروح الحارسة الأولى تحمل سهما فى حين كانت الروح الحارسة الثانية تحمل ترسا ورمحًا. وأيضا وجد خلف القديس اثنان من الأرواح الشريرة . ويمكن اضافة أن هذه الأرواح الشريرة كانت ترتدى نصف ملابسها وتظهر فى صورة جهاز عضلى مزين بحلى معمارية، وكانت صورة هذه الأرواح الشريرة تنطق أكثر بالحياة أكثر من صورة تمثال آخر. وعلى الرغم من المصير البائس الذى أصاب هذا القديس الذى نكب بهذه الأرواح الشريرة، فإن هذا القديس كان يشمئز من أتباع هذه الملكة صاحبة السلطة .

وكان الموضوع العام الذى يخدمه تاج العمود الرئيسى أكثر ملاءمة لمدخل هذه الكنيسة، وأيضا أكثر ملاءمة لأية كنيسة أخرى فى العالم المسيحى. بيد أن موضوع تاج الأعمدة الأربعة الأخرى كان ينقل شعورا غريبًا جداً. فقد كان موضوع هذه التيجان الأربعة المعمارية تتعلق على التوالى بالقديس توماس والسيد المسيح، والقديس بطرس ، وقصة السمك الاعجازى*، والقديس بطرس وطابيثا Tabitha ، وسفارة التبشير والسفارة المشكوك نسبتها إلى القديس بارثليميو إلى بلاد الهند؛ والرسالة المشكوك فى نسبتها إلى القديس متى إلى بلاد أثيوبيا ، والقديس جيمس والاشعار الرسمى بشيخوخته ووفاته. وهكذا فإن المقالة والرسالة الرئيسة كانت تتعلق بالحواريين أو بقصة رسالتهم التبشيرية، الأمر الأكثر غرابة هو أن تاج الأعمدة لكنيسة البشارة قد وجدت فى مكانها التقليدى . ومن المؤكد أن الرسائل التبشيرية المسيحية لم تكن تشغل بال الصليبيين بدرجة تكفل تدوين هذه الرسائل على بوابات ومداخل كنيسة البشارة فى النصارة . ويمكن الاعتقاد بأن هذه الصور المنقوشة والمنحوتة التى وجدت على واجهات مبنى كنيسة البشارة كانت منحوتة وملونة، أو صنعت من الفسيفساء على العتبات Lintels أسفل وتحت قلب القوصرة الغائر Tympanum أو كانت تحفظ داخل جدران أروقة الكنيسة الكاتدرائية .

ويبدو أن وصفا مختصراً لتيجان الأعمدة لكنيسة البشارة فى الناصرة يصبح أكثر فائدة وكان التمثالان الرئيسيان فى أول تاج عمود يواجهان المشاهد مباشرة، وكانا عبارة عن تمثال للسيد المسيح وتمثال للقديس توماس، وكان كل تمثال يتصدر أحد الأجزاء الناتئة من مبنى الكنيسة فى وضع يشبه المشكاة، إذ كان السيد المسيح يرتدى غطاءً من الجوخ يغطى كتفه الأيسر والجزء الأسفل من جسمه، وترتفع يده اليمنى لتشير إلى القديس توماس الجريح الذى يقف بجواره . وكانت يده المرتفعة تبرز عبر خط التقسيم الذى يفرق شعره. ويبسط القديس توماس يده اليسرى، والتى تساعدها يده اليمنى فى لمس الجرح. وكانت يده المنبسطة تبرز من خلال غطاء ثقيل من الجوخ ، فى حين كانت اليد الأخرى تمسك ذيل العباءة (ويبدو أن كل القديسين كانوا مشغولين تماما بامساك ملابسهم). وكان رداء القديس توماس منقوشا بأناقة

---

* ترتبط هذه القصة بالمعجزة التى حدثت على يد السيد المسيح عليه السلام، إذ استطاع اشباع أربعة آلاف رجل بأن قدم لهم سبع خبزات وقليل من السمك. وقد ذكر انجيل متى ١٥ هذه الحادثة المقدسة فيقول : «ثم انتقل يسوع من هناك وجاء إلى جانب بحر الجليل ، وصعد إلى الجبل وجلس هناك، فجاء إليه جموع كثيرة ...وأما يسوع فدعا تلاميذه وقال «إنى أشفق على الجمع... وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكروكسر وأعطى تلاميذه والتلاميذ أعطوا الجميع، فأكل الجميع وشبعوا». (انجيل متى ١٥-١٦) .

وجمال ، تلك النقوش التى أخذت شكل دوائر وحلقات حول ملتقى أعضاء الجسم (الركب الأكتاف ، و المرافق elbows).

وكانت نهايات لباس القديس مزخرفة بنقوش ، وتتدلى من عنقه قلادة على شكل المعين الهندسى ، كما كانت تتدلى خصلة من الشعر المجعد خلف رأسه. ويرجع الفضل فى ذلك إلى الأسلوب المميز للنحت الرومانسك فى أنه جعل عظم الساق الأكبر للتمثال قصيرة، والأفخاذ ممتدة مستطيلة ، وجعل أيضا قطعة قماش من الجوخ تضغط على ركبة تمثال القديس- وكان وضع أعضاء الجسم فى حالة حركة ورغم ذلك لم تكن هذه الحركة متقنة، إذ كان التمثال يشبه شخصاً يغوص فى الماء. وكانت تماثيل الحواريين الثمانية منتشرة فى الكوات والفتحات التى توجد على جانبى النتواءات المسطحة لمبنى الكنيسة المزينة بالصور والرسومات. فقد كان تمثال القديس بطرس يمثل قصتين مختلفتين من قصص إرساليته التبشيرية، إذ كان هذا التمثال يرتفع فوق النتواءات المسطحة الثلاثة. فإذا شخص الإنسان ببصره جهة اليمين فإنه يرى صورة تمثل قصة السمك الإعجازى التى وردت فى العهد الجديد (الإنجيل) . وكان النتوء المسطح الواقع جهة اليمين صغيرا وعلى شكل هلال وقد نقش عليه صورة قارب يحركه اثنان من الحواريين، كل واحد منهما يقبض على دفة قارب مستديرة. وتتدفق الأمواج بقوة تحت القارب، وتصل إلى قارب آخر حيث كان القديس بطرس يمشى على الأمواج ويترجل فوق الماء. وكانت الصورة الثانية عبارة عن السيد المسيح يقف أمام حوارييه. إذ كانت النتواءات المسطحة الثلاثة البارزة تعلوها صورة توضح قصة قيام طابثيا من الموت فى مدينة يافا على يد القديس بطرس . حيث كان طابثيا مستلقيا على سرير خشبى (وكان أحد جوانب السرير مزودة بأقواس على شكل قناة لجر المياه ممتدة فوق الصور)، وهو شبه عار، يحاول أن ينهض وينفض عن نفسه غبار الموت بمساعدة أحد الشباب (ومن المحتمل أن يكون هذا الشاب هو القديس يوحنا) . وكانت عضلات يد طابثيا اليمنى منهكة القوى ومجهدة تعبيرا عن مجهود إقامته من الموت بين الأحياء . وكان التمثال المنحوت معتدل الصدر، وكان الحواريون يشغلون النتوء المسطح الأخير من تاج العمود.

وكان الطابقان من مبنى الكنيسة يشتركان فى قمة التاج التالية، وبالرغم من ذلك، فإننا لانعرف على وجه اليقين عما إذا كان كل طابق يشمل ثلاث فتحات أو كوات أو أن أحد هذه الطوابق كان له اثنان من الفتحات والطابق الآخر كان له أربع فتحات . لقد كان الطابق الأول من المبنى يحمل صورة توضح الإرسالية الدينية التى قام بها القديس بارثليميو parthilemeo

إلى بلاد الهند حيث قام هذا القديس بمعجزة هناك وهى إحياء ابن الملك بولونيوس من الموت. والمعجزة الخاصة بابنة الملك التى كانت تنتابها الهواجس التى يسببها شيطان رهيب يفتح فمه ليكشف عن أسنانه الرهيبة . لقد كانت هذه السيدة المنكوبة تبحث عن القديس من أجل علاجها وتخليصها من هذا الكابوس . وكانت النتواءات المسطحة الأخرى تشمل صورا ورسومات توضح القديس جيمس الشهيد. هذا القديس الذى بلغت شهرته عند كبير الكهنة فى قصر الملك هيرودوس. وكان كل فرد من هذه الشخصيات المقدسة البارزة ترتدى عباءة مزخرفة وياقه مرصعة بإزار ومزخرفة أيضا ، بالإضافة إلى ارتداء غطاء للرأس غريب الشكل، وكان هذا الغطاء بوشاح مزدوج يتدلى خلف الرأس .

وثمة قديس آخر فى طريقه إلى الموت يقوم بتعميد يوشيا Josia الناسخ على الرغم من أن يديه كانتا مربوطتين فى عنقه بحبل متين. ويتتابع الموت عندما يشهر الجلاد سيفه المسلول فوق عنق القديس الشهيد. وتظهر بعض الشخصيات مجهولة الهوية فى الكوه الأخيرة فى الحائط يناقشون هذه الأحداث. ومن الغريب تمامًا أن ارجل الجلاد كانت عارية حتى الركبتين ، وربما كان هذا الشكل أفضل أنواع الصور المنحوتة . وصور سيف الجلاد بشكل منحنى لكى يلائم المكان الصغير والقبو الصغير ، وكان وضع هذا التمثال أقرب إلى شكل راقص رشيق أو مبارز بالسيف رشيق أيضًا.

وكانت الصورة التى توجد على تاج العمود الأخير تمثل نقشا للقديس متى بيد أن هذا النقش موضع شك فى نسبته لهذا القديس . وهذا النقش السابق يصف رحلة القديس متى التنصيرية إلى بلاد اثيوبيا حيث استطاع هذا الحوارى أن يشفى ابن ملك اجليبس Eglippus من رعب السحرة المحليين، زاروس Zaroes ، وأرفاكساد Arphaxad . فقد تجمع الملك وابنه والسحرة بشكل أخاذ ولافت للنظر. وعندئذ تغير موضوع الكلام وتحول المنظر إلى صورة الملك وهو يرتدى تاج الملك الخيالى. وكان الملك يرنو إلى زواج ابنة اخته التى كانت تسمى أفيجينيا Iphigenia، وعارض القديس متى هذا الزواج الباطل، وهنا سجدت أفيجينيا أمام قدمى القديس تلتمس منه الرضا وتستجدى بركاته . ويظهر فى الصورة أيضا مجموعة من أربعة أشخاص ، اثنان منهم مجهولو الهوية ، وواحد حليق اللحية ، والقديس يهزم اثنين من الأشرار، وكانت كل هذه الصور تملأ باقى النتوءين المسطحين المحصورين بين حزوز الأعمدة.

لقد قيم بعض المؤرخين من أمثال انلارت Enlart، وديشامبس P. Deschamps أعمال النحت التى احتوتها كنيسة البشارة فى الناصرة ووصفوها بأنها من أجمل أعمال النحت التى

أبدعتها يد الفنان على الطراز الرومانسكى. ويبدو أن أعمال النحت هذه قد تأثرت بنماذج النحت البرجاندى وبعض الزخرفة البرجاندية والتى كانت وثيقة الصلة بزخارف أعمال النحت فى بيرى Berry . ولاشك أن أعمال النحت هذه كانت من إبداع فنان ونحات عظيم ، من نحاتى الغرب الأوربى . وظهرت هذه الصور والتماثيل فى شكل يمثل أنماطا فنية سامية وجدت فى مدارس فن النحت فى اقليم برجاندى . والشىء الأكثر غرابة هو أن أعمال النحت الخاصة بكنيسة البشارة فى الناصرة كانت ترتبط بسمة واحدة فقط من السمات التى تتعلق بالأرض المقدسة، وهى أن بحيرة طبرية كانت تظهر فى حاضرة القديس بطرس. فلم تكن المبانى المسقوفة تشيد فوق أعمدة مسطحة كما أن هذه المبانى لم تزود بالقباب الشرقية ، وكان أحد هذه الأسقف يشبه جزءاً من المأدبة الفسيفسائية التى ترجع إلى القرن السادس الميلادى ، بيد أن مثل هذا يعتبر وهما وخيالا خادعًا . وكانت هناك سقوف على شكل جملون ، وهى سقوف منحدرة جهة الشمال تقام على أعمدة تشبه الأعمدة الرومانية ويبدو أن أعمال النحت السابقة كانت مستوردة من أوربا من حيث الفكرة والتنفيذ. فلم تكن فترة الازدهار الاقتصادى التى عاشتها المملكة الصليبية فى بيت المقدس والتى استمرت ما يقرب من جيلين كافية لتدشين وخلق مركز فنى فى مدينة بيت المقدس. ففى مجال فن النحت ، وكل فروع الفنون الأخرى ظلت المملكة الصليبية بمثابة مستعمرة تتجه بشكل طبيعى إلى استيراد أو تقليد الأنماط الفنية الشائعة فى الأقاليم الأوربية المعاصرة.

جـ- المنمنمات وزخرفة المخطوطات بالنقوش الذهبية والفضية والألوان الساطعة

يقول المثل الرومانى الدارج «إن مصير بقاء الكتب يرتبط بمصير وبقاء صاحبها habent sua Fata Libelli وهذا المثل يعكس بدقة المصير الذى آلت إليه الكتب والمخطوطات التى دونت فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين ، فقد ضاعت وفقدت معظم الكتب التى أنتجها الصليبيون ، ولكن الذى يجلب السرور هو أن هذه الكتب والمخطوطات لم تفقد بشكل كامل . ومما يذكر أن المكتبات الكبرى فى الغرب الأوربى ضمت بين جنباتها بعض الكتب التى تم اكتشافها والمزخرفة بالنقوش التى تنتمى إلى المملكة اللاتينة فى بيت المقدس، ومن ثم، فإنه باستطاعتنا الآن وصف هذا النمط من الفن الخاص بزخرفة الكتب والمخطوطات ، والذى وجد بعد عملية الاكتشافات الأثرية منذ ما يقرب من عشر سنوات*.

---

* لقد تمت الاكتشافات الأثرية لهذه الكتب والمخطوطات الصليبية فى ستينيات هذا القرن ونقلت هذه المخطوطات إلى المكتبات الكبرى فى أوربا لحفظها . (المترجم) .

لقد تم العثور على عشرين كتابا مزخرفا بالنقوش وتنسب هذه الكتب جميعها إلى مملكة بيت المقدس اللاتينية منهم أربعة عشر كتابا من الكتب الدينية المسيحية ، وهذه الكتب تشمل كتب المزامير، وكتب الأسرار المقدسة ، وكتب القداس الكنسى ، وكتب أسقفية ، وترجمات مقتبسة من العهد القديم (التوراة) ؛ ومنهم أيضا ثلاثة كتب عبارة عن حوليات تاريخية عامة وثلاثة كتب عبارة عن حوليات تاريخية صليبية تنتمى إلى القرن الثالث عشر الميلادى. ويمكن القول إن هذه الكتب الصليبية التى حفظت من التلف والضياع تنتمى إلى مركزين لنسخ وزخرفة الكتب والمخطوطات وهما: مركز النسخ فى مدينة القدس ، ومركز النسخ الاخر فى مدينة عكا فى القرن الثالث عشر الميلادى. ومن المدهش حقًا أن أنطاكية التى كانت تعد أغنى المدن الصليبية وأكثرها ثروة لم يوجد بها مركز لنسخ الكتب وتزيينها ، على الرغم من أننا يحدونا الأمل فى أن تظهر كتب صليبية نسخت فى أنطاكية كما هو الوضع بالنسبة للمؤلفات والكتب الصليبية التى نسخت فى قبرص.

وتجدر الاشارة إلى أن معظم الكتب الصليبية التى حفظتها الأيام والسنون لنا قد تم زخرفتها وتزيينها بشكل ينم عن الترف ، الأمر الذى يجعلنا نعتقد بأن مثل هذه الكتب كانت من مقتنيات الأشخاص الأثرياء فى المجتمع. فقد كان البيت الملكى الصليبى الحاكم فى بيت المقدس، وربما أيضا فى قبرص ، يمنح براءة التداول لهذه الكتب الصليبية المتقنة الصنع، ومن المعقول أيضا أن الكتب الأخرى كانت تخصص لبيوت النبلاء فى أوربا. ويبدو أن المراكز الكنسية الأوربية كانت تمتلك مثل هذه الثروات من الكتب المنسوخة ، ولكن حتى الآن لم نستطع تحديد هوية ونوعية هذه الكتب . فقد ساهمت الاكتشافات الأثرية الآن فى امكانية تحديد نوعية هذه الكتب، وكانت معظم الرسومات والزخارف تنتمى إلى أماكن وأقاليم متعددة، وربما كانت هذه الرسومات ذات أصل صليبى . ونحن نشير هنا إلى مجموعة من الأيقونات الجميلة التى وجدناها فى دير سانت كاترين فى سيناء . ومنذ أن ظهرت أول دراسة تمهيدية لمثل هذا الفن فى نسخ الكتب وزخرفتها ، لم نتناول هذه الأيقونات فى مناقشاتنا العلمية.

وجاء انطباعنا الأول من خلال زخارف هذه المخطوطات ولاسيما زخارف المخطوطات التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى، وعلى الأخص المخطوطات البيزنطية . فقد نقل إلينا الناسخ البيزنطى صورا كثيرة لقصة الكتاب المقدس والمتعلقة بصلب المسيح وصعوده إلى السماء. فتوجد مخطوطات مزينة بالذهب والفضة، وتتمثل هذه الزينات فى رسوم وأشكال

كهنوتية ونقوش بيزنطية . وعلى أى حال، فإن التحليل التفصيلى لهذه المنمنمات يكشف عن أصل مختلف لها أى ليست ذات أصل بيزنطى . فقد قام أحد النساخ الأوربيين بنسخ النص اللاتينى للأناجيل المقدسة، وكذلك نسخ كتب الأسرار المقدسة وكتب القداس الكنسى؛ إذ كان التقويم الكنسى أوربيًا غربيًا وتكشف هذه المنمنمات نفسها عن الأصل الأوربى لها، وتم نسخ هذه النمنمات باتقان على الطراز البيزنطية، فقد اعتبر النساخ الذين نسخوا مخطوطاتهم أنها مقدسة تماما، الأمر الذى جعلهم ينأون عن استخدام خيالهم الخاص بهم عند النسخ. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ابداعاتهم الفنية ومهارتهم فى مجال النسخ كانت متواضعة وفقيرة ، فلم تتجاوز هذه البراعة الفنية حدود خيالهم. وكانت كل التغيرات التى أجراها هؤلاء النساخ تؤدى إلى انخفاض مستوى فن النسخ، فقد كانت الصور والأشكال المرسوم فى اللوحة ، تتغير من حيث الوضع والايماءة إذا انتقلت إلى لوحة أخرى، ولاشك أن مثل هذا كان نتيجة الرسم غير المتقن. وقد انتقلت إلى لوحة أخرى، ولاشك أن مثل هذا كان نتيجة الرسم غير المتقن. وقد انجزت أفضل النتائج عندما قلد النساخون النماذج الأصلية من المخطوطات المزخرفة.

وكانت أولى المخطوطات التى نسخت فى حجرة النسخ الخاصة بكنيسة الضريح المقدس هى مخطوطة الملكة الصليبية ميلليسند Melissande لكتاب المزامير «الذى يرجع إلى الفترة من عام ١١٣١-١١٤٣م. وكانت إحدى المنمنمات الجميلة لهذه المخطوطة تصور عيد زيارة السيدة مريم العذراء ، وتمثل السيدة العذراء وهى تعانق اليزابيث . وكانت ملابسهم المتدلية ورداؤهم الكهنوتى ومعاطفهم ذات النقوش المربعة والمصنوعة من الجوخ الراقى مثيرة للإعجاب والرهبة. وكانت حركة الأجسام فى الصورة تنقل إلى المشاهد توتراً مثيراً ، وتمثلت هذه الحركة فى القبلة وفى العناق الحار. وتساهم خلفية القماش الرفيعة فى تزيين الملابس السوداء بطريقة تبرز مزايا هذه الزينة، فى حين كانت الألوان الخفيفة للرسوم والخطوط السوداء تؤكد تلقائية عملية العناق، بيد أن منمنمة أخرى فى نفس المخطوطة (مخطوطة الملكة ميللسند) ، والتى تصور تجلى مريم العذراء فى الهيكل، كانت قد تجمدت وافتقرت إلى الحيوية الفنية والحركة. وكان رسم سقف المعبد هو الرسم الجيد فقط ، إذ كان هذا السقف على شكل بصلة أو قبة مزودة بطبلة صغيرة ترتكز على مبنى دائرى. وجاءت صورة الكاهن الأعظم وهو يصافح السيد المسيح بشكل فنى جيد حيث كان يدير ظهره إلى السيده مريم العذراء، بيد أن السيدة العذراء التى رسمها الفنان ، كانت غير راغبة فى استعادة الطفل الوليد. فالمسيح يبسط يديه لاستقبال أمه التى تعرض عنه. وأيضا يحرك ابهام يده اليمنى إلى أسفل إشارة إلى رفضه واستهجانه، وربما كانت هذه اليد مشلولة لاتتحرك. ويظهر القديس يوسف النجار بوجهه الحزين يدوس على القدم

الأيمن للسيدة العذراء ، وكانت صورة السيدة العذراء جهة اليمين ومزودة بالحلية البيزنطية التى كانت على شكل درج لولبى. وتفتقر هذه الصورة إلى الحيوية. وقد أوضحنا أن الفنان قد انحرف عن النموذج الفنى المثالى عندما صور السيد المسيح وهو يصافح الكاهن الأعلى عن طريق السيدة مريم العذراء. وقد ساهمت هذه المتناقضات فى خلق نمط فنى يفتقر إلى الجودة والابداع، حيث أصبحت وقفة السيدة العذراء فى الصورة مشوهة لأنه استبدل يديها بأشياء أخرى.

وفى الغالب ، كان رسام المنمنمات يستخدم أنماطا فنية مختلفة وهى الأنماط التى حاول أن يجمعها فى لوحة واحدة، ولم تكن النتيجة دائمًا مرضية فنيًا. وهكذا، ففى أثناء قيامة القديس لازاريوس من الموت على يد السيد المسيح ، كان كل شىء تقريبًا غير طبيعى ، إذ كان القبر يشبه منزلا يقف القديس لازاريوس عند مدخله على قدميه ووجهه أكثر نضارة وحيوية. بيد أن الجزء الأكثر غرابة فى اللوحة هو الصور الأخرى التى تشملها اللوحة . فقد رسمت القديسة مريم العذراء والقديسة مارثا فى صورة قزمية ضئيلة عند أقدام المخلص (السيد المسيح) ، وظهرت صورة الخادمين فى نفس الحجم؛ ومن الواضح أن بلاطة القبر كانت متوازية بشكل خطر لايلائم القبر ويبدو أن أحد خدام المسيح وحوارييه قد فر هاربًا من وطأة ثقل بلاطة القبر. وهكذا فإن زخرفة المنمنمات كانت أكثر غرابة وأقل تهذيبًا . ومن الواضح أن الفنان قد رسم صوراً من مختلف الأنماط الفنية، بيد أن هذه الأنماط المختلفة لم تستطع أن تخلق وحدة فنية متآلفة. وفى بعض الأحيان كانت المخطوطات التى تنسخ بشكل عادى تحتوى على لوحة أكثر جمالاً وروعة . فقد تم تصوير حادثة سعف يوم الأحد* حيث دخول المسيح إلى بيت المقدس فى شكل صورة رائعة الجمال . وهى الحادثة التى شهدت خروج أهالى مدينة القدس عبر بواباتها لاستقبال المسيح، وظهر هؤلاء القوم المستقبلون فوق الصورة التخطيطية للقبر المقدس (الهيكل). وظهرت فى الصورة أيضا شجرة النخيل التى تسلقها أحد الرجال

---

* يذكر انجيل متى فى الاصحاح الحادى والعشرين ذكرى حادثة دخول المسيح مدينة القدس واستقبال أهالى المدينة له فيقول :«... ولما قربوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاجى عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين، قائلا لهما إذهبا إلى القرية التى أمامكما فللوقت تجدان أتانا مربوطة وجحشا معها فحلاهما وأتيانى بهما ... وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق، والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون ... ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها ؟ (انجيل متى الاصحاح الحادى والعشرون ، ٢٧،٢٨) . (المترجم) .

وكانت هذه الشجرة مزينة بزخارف شملتها كلها . وفى شمال اللوحة، كانت توجد الراية العالية الضخمة الخيالية التى تمثل جبل الزيتون ، وخلف هذا الجبل وجد معبد رومانى مزود بتمثال لمعبود أو لشيخ أو ربما كان هذا التمثال للسيد المسيح. إذ كان السيد المسيح يمتطى ظهر حمار بشكل جانبى ولذا كان يمكن رؤيته من ناحية الوجه، بيد أن هذا الحمار الذى كان يمتطيه السيد المسيح قد صور وكأنه يطير فى السماء ولم تلمس أقدامه الأرض، وهذه الصورة تذكرنا بقصة الاسراء والمعراج والرحلة الاعجازية الذى قام بها سيدنا محمد عليه السلام* على ظهر البراق وهو الحصان الأسطورى الخرافى .

ومما يذكر أن الفنان الذى رسم منمنمات كتاب المزامير الخاص بالملكة الصليبية ميليسند قد ترك نقشا بتوقيع اسمه وتبين أن اسمه ديسيس Dessis. وقد كتب تحت أقدام المسيح عبارة مليكنا Basilius. وعلى الرغم من أن كلمة بسيللوس التى تعنى ملك كانت يونانية، فإن هذه الكلمة كانت أكثر تداولا بين الصليبيين، والأمر الأكثر طرافة فى بيزنطة هو التدريب الذى خدمه فى احتراف هذه المهنة . أو ربما ترجم الفنان كلمة بسيللوس Basilius أى الملك أيضا. ومن الغريب أيضا أن الفنان الذى عمل فى نسخ المخطوطات فى حجرة النسخ فى بيت المقدس فى ثلاثينات وأربعينات القرن الثانى عشر الميلادى وزميله الذى نحت عتبة واجهة وبوابة مبنى كنيسة الضريح المقدس كانا غير مدركين لنشاط كل منهما الآخر. وكانت بعض صور المنمنمات عبارة عن صورة للقديس لازاريوس فى أثناء قيامته من الموت على يد المسيح ، وصورة دخول المسيح مدينة القدس وكذلك صورة العشاء الربانى، بيد أنه لم يكن هناك أدنى أثر لهذا الاتصال بين صورة العشاء الربانى وبين صورة دخول المسيح لمدينة القدس . وربما كانت هناك حالة من الغيرة المهنية ، بالرغم من أن الفنانين اللذين أنجزا نسخ كتاب المزامير الخاص بالملكة الصليبية ميليسند وتنفيذ عتبة مبنى كنيسة الضريح المقدس لم يكونا معاصرين لبعضهما . وعلى أى حال ، فإنه من الواضح أن الرسام الذى رسم المنمنمة فى مدينة بيت المقدس لم يجرؤ على إدخال اللون الفنى المحلى فى نماذجه الفنية البيزنطية، باستثناء قبة المعبد- وكانت هذه القبة صغيرة على غرار قبة القبر المقدس أو قبة مسجد عمر- ولم توجد علاقة بين خلفية الصورة والمناظر المحيطة بها.

---

* كان لابد للمترجم أن يسوق تعبيراً يتفق مع ديانته الإسلامية ولذا لجأ إلى تعبيرات غير التى ذكرها المؤلف (المترجم) .

ومن الواضح تماما أن عدداً كبيراً من الفنانين قد أبدعوا زخرفة مخطوطة الملكة ميليسند بالذهب والفضة والألوان الساطعة . وقام فنانون أقل خبرة بتنفيذ صور سلسلة القديسين المتعلقة بالابتهالات الكنسية . وهنا نكرر القول إن الرسام قد اتبع النماذج والطرز الفنية البيزنطية. ومن الناحية الفنية، كانت المنمنمات متوسطة الجودة ، وكانت هذه النماذج منتشرة التداول وثمة دليل يؤكد انخفاض مستوى الناسخ فنيًا وثمة فنان آخر قد انهمك فى نسخ مخطوط الملكة ميليسند ، وقد قام برسم الصور التى وجدت فى الصفحات الأولى المدونة بها الطقوس الدينية للنص. وكتب الحروف الأولى باللون الأسود على واجهة المخطوطة المذهبة، فى حين كتبت آية من الكتاب المقدس على باقى الصفحة بحروف ذهبية مزخرفة على قطع طويلة ضيقة من القماش، ويوضح تحليل هذه الزخارف والحروف أنها تدل على براعة فنية وأن هذا الفنان المبدع قد اشتق إبداعه وإلهامه من معظم المصادر التى وجدت طريقها إلى المملكة الصليبية أخيرا خلال مراحل التحول. وهكذا فإن حرف B الجميل هو أحد حروف كلمة Beau-tus ذات الأصل الانجليزى. وكان ينطلق من جذع الحرف كوكبة قوس فى الجزء الأعلى ويظهر تنين يتسلق شجرة يقطف زهرة من الجزء الأسفل من الحرف. وكان المزيج الفنى الفرنجى السكسونى يصل قمة وقاع الساق بأطر الحرف . وكانت كل هذه الرسومات الرومانسكية الجميلة تنتمى إلى شمال أوربا ، حيث كانت إطارات الحرف مزخرفة برسومات زهرية، ويتصل بهذه الاطارات صورة نسر وطائر أسطورى فى الإطار العلوى للحروف وصورة الملك داود وهو يعزف على القيثارة ، وترجع كل هذه الرسومات والصور إلى انجلترا فى القرن الثانى عشر الميلادى ولم تكن النماذج الفنية الإنجليزية هى مصادر الإلهام الوحيدة للفنانين المبدعين . إذ كانت وفرة الفن الرومانسيك يشق طريقه صوب نمط فنى منظم . وما يذكر أن الروح الكلاسيكية فى فن نسخ المخطوطات هى التى جعلت مدينة القدس تتصل بحجرة نسخ المخطوطات فى مونت كاسينو . وثمة نموذج آخر يدلل على هذا التأثير المركب يتمثل فى الحرف الأول من اسم السيد المسيح وهو حرف D . وكانت هناك صورة مشابهة تمامًا للنماذج الفنية الإسلامية . فالحقيقة أن زوجين من المربعات المركبة ⧈ قد وجدت ضمن الزخارف التى كانت تزين المخطوطات الفاطمية فى مصر الفاطمية. بيد أن هذا النموذج الفنى لم يأت مباشرة من الشرق الإسلامى. فالمارد البحرى (حصان خرافى ذو قائمتين أماميتين وجسد منته بذيل دلفين أو سمكة وجناحين) يقف فى القمة على شمال الحرف وكذلك توجد حيوانات خرافية (الحيوان الخرافى له جسم وأرجل أسد وله جناحا ومنقار نسر وأذنان) فى شكل حروف أولية

مشابهة كانت من جنوب ايطاليا ، أو على الأرجح من خلال تأثير حجرة النسخ فى مونت كاسينو . وترجع بعض المخطوطات المزخرفة إلى حجرة النسخ فى بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى. بيد أن مزاياها الفنية تقل عن أهميتها التاريخية وهذا ما يدلل على ندرة فن زخرفة المخطوطات فى مملكة بيت المقدس اللاتينية.

ومما يذكر أن تدوين أول نسخة من الكتاب المقدس (الانجيل) فى منطقة الشرق العربى الإسلامى قد تم قبل العصر الصليبى بمائة عام تقريبًا ، وماتزال هذه النسخة تحتفظ فى مكتبة الارسينال بباريس، وتعرف هذه النسخة باسم انجيل الارسينال . وكان هذا الكتاب الجميل عبارة عن مقتطفات من الترجمة الفرنسية للعهد القديم (التوراه) والأسفار الأربعة عشر، وقد احتوى هذا الكتاب على عشرين صفحة كاملة مزخرفة ومزينة ، وهى الصفحات التى ظلت تستخدم كغلاف لعنوان الكتب المقدسة المختلفة. ويمكن مقارنة فخامة نسخة انجيل الارسينال بالنسخة الشهيرة للكتاب المقدس الذى يعرف باسم انجيل موراليسيه Moralisée فى باريس ومقارنتها أيضا بصورة نسخة كتاب العهد القديم الموجود فى مكتبة مورجان. وثمة دليل داخلى يشير إلى نسخ بعض المخطوطات فى الأراضى المقدسة فى فلسطين فى القرن الثالث عشر الميلادى، وهو ذلك المجلد الفخم الذى أمر بنسخه الملك الفرنسى لويس التاسع فى أثناء مدة إقامته فى المملكة الصليبية فى عكا والتى استغرقت أربعة أعوام (١٢٥٠-١٢٥٤م) . والتنفيذ الفخم لنسخ هذا المجلد يذكرنا بالكتب المقدسة التى نسخت فى أوربا فى نفس الحقبة الزمنية . والحقيقة أنه كان يوجد اتصال مباشر بين تلك النسخ التى أعدت فى أوربا وتلك التى أعدت فى منطقة الشرق العربى. ولاشك أن الفنان الذى نسخ وزخرف الانجيل الفلسطينى والذى أنتج فى حجرة النسخ فى عكا قد استخدم النموذج الأوربى فى فن النسخ والزخرفة. ولم يستخدم هذا الفنان النمط البيزنطى من حيث استخدام الصور الفردية والصور الكاملة، ولكنه اقتبس من النماذج الفنية فى النسخ والزخرفة التى كانت سائدة فى أوربا ولاسيما فرنسا وهى النماذج التى كانت بمثابة نماذج معدلة للفن البيزنطى .

وثمة مثالان ينقلان إلينا فخامة انجيل الارسينال ، إذ كانت الصورة المواجهة لسفر الخروج تتكون من ست صور (وكانت بعض الصور الكاملة من المنمنمات تحتوى أيضا على اثنى عشر منظراً) رسمت فى شكل حليات نافرة دائرية ومستديرة تملأ كل الصفحة . فقد كانت هذه الصور تصف مجمل القصص التى وردت فى كتاب سفر الخروج ، بداية من عثور زوجة فرعون

على موسى الطفل الوليد وهو فى اليم داخل الصندوق . فقد تدفقت مياه نهر النيل أمام قصر فرعون المنيف، حيث وجدت الأميرة (زوجة فرعون مصر) صندوقا يطفو فوق سطح الماء وبداخل هذا الصندوق يوجد طفل جميل ملفوف فى قماش وهو موسى عليه السلام. فقد رسم هذا الطفل الوليد العارى والمنبطح بشكل جيد . وهنا يلى هذه الصورة صورة شجيرة محترقة ويحيط بالرب أكاليل التاج، ويتجلى الرب فى هذه الشجيرة فى جبل حورب Horeb . وكما صور موسى عليه السلام وهو يخلع نعليه عندما اعتلى سطح الجبل المقدس طوى فى سيناء كما صور قطيعه فى شكل أربعة من الخراف ترعى الكلأ والعشب الأخضر. وثمة صورة مدهشة لجيش فرعون وهو يلقى حتفه غرقا فى ميا ه البحر الأحمر ، حيث انشق البحر أمام فرعون وجيشه، الذى كان يرتدى أفراده ورجاله خوذة متوجة بشعار، ويرتدون لباس الحرب. وظهر فى صدر الصورة رسما لمركبة حربية يجرها اثنان من الخيول، أحدهما يمتطيه فارس محارب، ويعدو بسرعة . ومن الملاحظ أن كل هذه المناظر قد رسمت بشكل جيد ومتقن ، ومن المحتمل أن هذه الصورة كانت تقليداً لصورة المركبة الحربية وهى فى حالة سباق. وعلى أى حال، فإن صورة المركبة الحربية التى تعدو بسرعة كان تقليدا لنمط فنى خاص، هذا النمط الفنى الذى لم يتكامل بشكل جيد فى كل هذه الصورة. إذ كان طقم الفرس (عدة وجهاز الفرس) من الطراز القديم ولم يكن يشبه ما كان سائدا من أدوات وعدة الخيول فى القرن الثالث عشر الميلادى، فى حين كانت الخيول تسبح فى الفضاء .

وكانت الصورة التالية تمثل شعب بنى اسرائيل وهو يعبر مياه البحر الأحمر هروبا وفراراً من ملاحقة المصريين لهم. ويرتدى موسى عليه السلام بدلته المكسوة بصفائح معدنية وهى البدلة التى تحركها الرياح من الخلف. ويأتى بعده فى الصورة أخوه هارون، يمسك صندوقا . ويأتى خلفهم القوم الذين آمنوا به، رجالا ، ونساءً يمسكون أطفالهم فى أيديهم أو يحملونهم فوق ظهورهم . وهؤلاء جميعا يمشون على أرض جامدة جافة وسط البحر بعد أن انشق البحر أمامهم ليصنع لهم طريقا لعبوره، ورسمت الأسماك فى خلفية الصورة تلك الصورة التى تمثل قصة العبور الاعجازى لموسى وقومه هربًا من فرعون وبطشه.

وثمة رسم جميل وكان عبارة عن رسم نافر فى أعلى الصورة يصور موسى وهو يتلقى من ربه كلمات ويظهر جبل الطور فى سيناء فى وسط الصورة ، وهو الجبل الذى وقف عليه موسى يكلم ربه. ويظهر الرب فى الصورة سابحًا فى السماء يعطى الألواح إلى أنبياء بنى اسرائيل ووجهائهم. وكان شعب بنى اسرائيل يرتدون أغطية للرأس عجيبة تشبه القلنسوات الفريجية.

ومن السابق لأوانه تقييم الأهمية الفنية لتلك الزخارف والمنمنمات التى أبدعها الفنانون فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين. وذلك لأن الموجودات الأثرية المادية من هذه الزخارف والمنمنمات قليلة جدا، فى حين أن العلاقات والروابط الفنية بين الغرب الأوربى والشرق العربى الإسلامى يحتاج إلى دراسة مستفيضة ومتعمقة . والواقع أن ثمة شك يدور حول نسب بعض المخطوطات إلى حجر النسخ الصليبية . ومع ذلك، فإنه يمكن رسم صورة عامة لهذا الموضوع . ويبدو أن كل الفنانين الذين عملوا فى المملكة الصليبية كانوا من الأوربيين،. إذ استوطن بعض هؤلاء الفنانين فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام ، وربما كان بعض الآخر منهم من الحجاج الذين عملوا فى حجرة النسخ فى كنيسة الضريح المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى أو فى حجرة النسخ فى مدينة عكا . ويوضح النموذج الفنى الذى حرص على إبراز الصليب المقدس ضمن مفرداته الفنية والذى ساد المملكة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى حقيقة أن هذا الطراز الفنى قد نقله الفنان الأوربى من أوربا إلى وطنه الجديد فى منطقة الشرق العربى الإسلامى . ويبدو أن هؤلاء الفنانين الأوربيين قد نقلوا معهم النماذج الفنية التى كانت سائدة فى شمال فرنسا وفى إنجلترا النورمانية ، وفى إيطاليا وكانت هذه الأوطان الأوربية السابقة مصدر الإلهام الفنى لهؤلاء الفنانين. فقد وجد من بين المتعلمين ورجال الدين والأثرياء وأفراد الأسر الحاكمة من يرعى الفن ويشجعه فى كيان سياسى جديد ولد نتيجة الغزو العسكرى ووسط مجتمع من المحاربين الأفظاظ القساة . وهكذا تأثرت الفنون التى عرفتها المملكة اللاتينية فى بيت المقدس بالتقاليد الفنية الأوربية، وتأثرت أيضًا بمطالب المجتمع الجديد المتعلقة بالطقوس الدينية ، وكذلك برغبات السلطات الملكية الصليبية التى كانت ترعى الفن وتشجعه . وبينما ظلت أوربا ذات تأثير كبير على الفن فى المناطق الصليبية، فإن الفنانين الأوربيين الذين أتوا إلى هذه المناطق وجدوا أنفسهم يعتمدون على النماذج الفنية البيزنطية . ومن المحتمل أن المخطوطات المزخرفة التى بحوزتنا قد أبدعها الفنانون بناءً على رغبة الملك الصليبى أو الأمير الصليبى فى الامارات الصليبية التابعة للمملكة الصليبية؛ وعلى الرغم من التأثير الفرنسى الشامل فى كل أنواع الفنون فى مملكة بيت المقدس اللاتينية والامارات التابعة لها ، فإن الفن الملكى الرائع قد أبدع على الطراز البيزنطى. وهنا كان إعجاب الفنانين الأوربيين بالنماذج الفنية البيزنطية وتقليدها أمراً فوق نطاق جودة وميزة عملهم الفنى الذى لايرقى إليها أدنى شك. وأن حيازة الملكة ميليسندا كتاب المزامير المزود بالزخارف والمنمنمات البيزنطية يدل على الجودة والإتقان الذى تمتع به إبداع

الفنانين ، فإذا كانت الحقيقة هى أن كتاب المزامير هذا قد نسخ بأمر من الملكة ميليسندا Me-lissande (وهى الملكة التى كانت نصف أرمينية) فإن الشىء الطبعى أن يكون الطراز الفنى لزخارف هذه المخطوطة بيزنطيًا ، وكان نقش الفنان لاسمه وهو باسيللوس على هذه المخطوطة أمراً يتفق تماما مع الزخارف البيزنطية لهذه المخطوطة، بيد أن هذا الاسم وهذا اللقب الذى تركه الفنان على المخطوطة فى شكل توقيع كان الهدف منه شهرة وذيوع جيد لفنان ورسام معاصر للفترة الصليبية ولم يتلق هذا الفنان تدريبه على المهنة فى فلسطين . وقد استطاعت مكتبة كنيسة الضريح المقدس منذ العصر البيزنطى وحتى الغزو الصليبى أن تقدم بعض النماذج الفنية من المخطوطات ، واصطبغت أنطاكية بالصبغة الفنية البيزنطية حتى بعد الغزو الصليبى لها.

وقد تمخض عن تقليد هذا الطراز الفنى البيزنطى نتائج غير ملائمة، بيد أن هذا الطراز الفنى البيزنطى قد تغير فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، وبشكل أكثر فى أثناء الفترة الثانية من عمر المملكة الصليبية والتى كانت عكا عاصمة لها. ونظرا لفقد وتلف بعض حلقات هذه السلسلة من الأعمال الفنية ، فإنه يمكن أن نفترض أنه بعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى فقط تلاشى سحر الفن البيزنطى وخفت بريقه مع انهيار القوة السياسية للمملكة الصليبية فى أعقاب موقعة حطين الشهيرة فى عام ١١٨٧م . وإن كانت النماذج الفنية البيزنطية ماتزال تستخدم فى مجال النسخ ، بيد أن هذا الاستخدام جاء فى أضيق الحدود ومقيداً وكان يوجد عدد أقل من النسخ التى يقوم بنسخها نساخون أقل مهارة فنية. ويجب أن نتردد قبل الافتراض بأن المدرسة الوطنية للزخرفة والرسم قد ظلت باقية فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس . ومن المعقول أيضا الافتراض بأن الفنانين والرسامين ظلوا يتوافدون إلى المملكة الصليبية من الخارج ، يحملون معهم الأنماط الفنية السائدة فى أوطانهم. وتأثر فن زخارف المخطوطات فى هذه المملكة الصليبية بالفن البيزنطى والإسلامى وذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى ، بيد أن فحص هذه الزخارف وتحليلها فنيًا يؤكد حقيقة أن هذه التأثيرات جاءت عبر أوربا . فقد تشكلت هذه الفنون وتكاملت فى كل من انجلترا ، وفرنسا ، وايطاليا ، ووصلت أخيرا إلى عكا. وثمة تأثير محدد وخاص وضح فى مخطوطة معينة وهذا التأثير يعكس رغبة الملك الصليبى الراعى لهذا الفن والذى أمر بنسخ هذه المخطوطة. وعلى الرغم من جهود كل العلماء، فإنه من الصعب أن نجد علاقة بين المكان الذى تم فيه النسخ وبين الزخرفة التى تزين المخطوطة. وبشكل استثنائى فإننا نجد جرس كنيسة الضريح المقدس واضحًا

فى إحدى المنمنمات التى ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى . وأحيانا كانت ترسم قبة المعبد أو مبنى تعلوه قبة Rotunda وهو مبنى الإمبراطور الرومانى أنسطاس. بيد أن صور الزى الشرقى المزود بالصفائح المعدنية الواقعة والدروع والإيماءات كانت كلها زائفة. ونظرا لأن أوربا كانت لديها فكرة محددة عن منطقة الشرق العربى فإن الفنان استطاع أن يقدم هذا التصور إلى الجمهور الذى يتلقى فنه لكى يقبله. وكان الفنان أفضل رسام فى إبداع الأشكال الغريبة فى اللون والطراز بشكل أكبر من رسم الأزياء ، والمبانى والمناطق الطبيعية المحيطة بها. وفى هذا السياق نتذكر المنمنمات المتميزة فى بعض المخطوطات الفرنسية لأحد المؤرخين الصليبيين الكبار، وهو مخطوط كتاب المؤرخ وليم الصورى. فقد ولد وليم الصورى فى مدينة القدس وتلقى علومه فى فرنسا، وعرف أوربا والقسطنطينية ، كما كان على دراية بالأراضى المقدسة فى فلسطين حيث محل مولده. وكان مؤلفه التاريخى عبارة عن مصدر ثرى للمعلومات الجغرافية وكان وصفه للأحداث التاريخية عبارة عن صورة فعلية لما حدث بالضبط على أرض الواقع. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو كيف يمكننا مقارنة المنمنمات والزخارف الفنية بما احتواه هذا المصدر التاريخى من احداث تاريخية عجيبة ومدهشة وهو المؤلف الذى يعتبر من أفضل المصادر التاريخية المسيحية فى القرن الثانى عشر الميلادى؟ فالمنمنمات أيضا لم تشر إلى مملكة بيت المقدس اللاتينية . فكانت الرسومات التى شملتها هذه المنمنمات فرنسية ، وهى الرسومات التى قيض لها أن تأخذ مكانها وتستقر فى منطقة الشرق العربى الإسلامى (منطقة ما وراء البحار Outremer).

ففى الزخارف التى أبدعها الرسامون والفنانون فى المملكة الصليبية ولاسيما فى العمارة الدينية وفى أعمال النحت نجد أيضا التأثير الفرنسى. فقد أغمض الفنان عينيه عما يحيط به من فنون وأنماط فنية أخرى. فقد تحرر من هيمنة الفن البيزنطى واتبع فى خطواته وأعماله الفنية النماذج والأنماط الفنية التى كانت سائدة فى وطنه الأم. ويمكن القول إن الأرض المقدسة قلما استطاعت أن تطور فنًا ، ولكنها كانت تستطيع بسهولة أن تخلق فنًا محليًا يماثل الفن الأصلى الذى كان يفد إليها من أوربا من مراكز فنية مختلفة.

د- أعمال الفسيفساء (الموزايك) ، والرسومات ، والفنون الثانوية

لقد تآكلت واندثرت العمارة وأعمال النحت الصليبية بفعل الزمن، واستطاعت أحداث التاريخ أن تبدد وتبعثر المخطوطات الصليبية المزخرفة ، كما أن الجهل والتعصب الدينى الطائفى، والطائفية ، قد حكمت بالفناء على التراث الفنى الثرى للأعمال الفنية من الصور الجدارية الزيتية واللوحات الفسيفسائية (الموزايك) . وما تبقى من هذه الأعمال الفنية السابقة يكفى ليلا وبرهانا على أن الفن البيزنطى كان ميراثًا مهما طوال فترة الوجود الصليبى التى استمرت زهاء قرنين من الزمان . ويمكن تصور مثل هذه الثروات الفنية من خلال النماذج الباقية المكملة والتى ترتبط بأحداث تاريخية معاصرة . وليس هناك شىء أوضح من وصف مبعوث الإمبراطور الألمانى (عام ١٢١٢م) إلى منطقة الشرق الصليبى لقصر الأمير الصليبى ابلين فى بيروت والذى جاء فيه : «لقد رأينا أحد أبراج المدينة التى شيدت حديثا ، ورأينا داخل أسوار المدينة قصراً منيفًا مزخرفا بشكل بديع، وهو القصر الذى قصدت أن أصفه لك باختصار . إنه مبنى قوى متماسك شيد فى مكان مناسب تمامًا، يقع البحر بسفنه التجارية عند أحد جانبيه، وعلى الجانب الآخر للقصر توجد المروج الخضراء ، وبساتين الفاكهة ، ومعظم المناطق الطبيعية الجميلة تحيط بالقصر . وقد لاحظت أرضية القصر مبلطة بالرخام الشفاف الذى يشبه الماء الذى يحركه نسيم الهواء العليل. وقد صنع هذا الرخام رقيقا ناعما لدرجة أن أى شخص يدوس عليه يشعر وكأنه يخوض فى الماء أو يمشى بصعوبة من فرض ملمسه الناعم، فلاتعلق به أية شوائب عند المشى فوقه، كما يعجب المشاهد من الرسوم الرملية التى تزين هذا الرخام . وكانت أسوار القصر مكسوة تماما بالبلاطات الرخامية التى يعلوها زهريات متعددة الأشكال ومزخرفة ومصنوعة بشكل بارع ، وكان سقف القصر مدهونا بلون سماوى مناسب رائق، وهنا فى القصر يستمتع الجالس بنسيم عليل يتخلل جنباته، ويوجد بالقصر رسمًا كبيراً يصور دائرة البروج ، التى يظهر فيها الشمس ، والعام، والشهور ، والأيام ، والأسابيع ، والساعات ، والدقائق وكل هؤلاء يتحركون فى دائرة البروج هذه . وعمومًا فإن الشوام من المسيحيين، والمسلمين والبيزنطيين، كانوا يفتخرون دائما ببراعتهم فى إعداد هذا العمل العجيب وابتكاره ، ووجدت بركة مشيدة من الرخام المركب من قطع متعددة الألوان فى وسط القصر، وكانت هذه الألوان تمثل عدداً لايحصى من الأزهار المختلفة . وعندما يحاول المشاهد أن يرى هذه الألوان المتعددة ، فإنها تتلاشى وكأنها وهم. وكان يوجد فى وسط القصر صورة

تنين، ينفث دخانا فى وجه الحيوانات المرسومة ، ويرى المشاهد نافورة مياه شفافة وبللورية تنثر المياه بشدة ووفرة بحيث ترتفع فى الهواء، ثم بعد ذلك تجرى مياه النافورة خلال فتحة منظمة جميلة ، وفى وقت الحر يصبح الهواء رطبًا وبارداً . وكان الماء المتدفق بكثرة على جانبى البركة يصرف ويفرغ خلال فتحات صغيرة ، ويأتى الماء أيضًا بهمسته الهادئة ، التى توفر السكينة والهدوء والمتعة للجالس حول هذه البركة». واحسرتاه، فإنه لم يبق الآن أى أثر لهذا القصر لكى يصور لنا مدى الترف والرفاهية التى كانت تميز هذا القصر الصليبى فى بيروت. وتشير البقايا المعمارية للمبانى المحلية إلى أن هذه المبانى قد شيدت من أجل أن تؤدى وظيفة معينة، فهى عبارة عن منازل صغيرة ، وشوارع وأسواق. وشملت بعض المبانى المهمة الضخمة عدداً كبيرا من الكنائس ، واحتفظت كثير من هذه الكنائس بالزخارف الداخلية ، بيد أنه توجد هناك بقايا معمارية لمبان فقيرة تعكس فنا معماريا مبتكرا رائعا . والوصف الذى ذكره الحاج الألمانى ثيودوريتش Theadrich الذى زار الأراضى المقدسة فى فلسطين (فى عام ١١٧٢) يستحضر فى الذهن فخامة وروعة الفنون الزخرفية فى كنيسة الضريح المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى . فقد ذكر هذا الرحالة أن «هذه الكنيسة احتوت على صورة ولوحة من الفسيفساء، تصور يوسف النجار ونيقوديموس Nicodemus وقد وضعوا جسد المسيح فى القبر، مع والدته التى وقفت فى رفعة ثلاثة من النسوة يحملن اسم مريم، وكانت هؤلاء النسوة يحملن جرار العطور، ووقف ملاك سماوى فوق الضريح المقدس لكى يزيح الحجر بعيداً عن الضريح.

وكان سطح السور المحيط بالكنيسة يتألق بالصور الفسيفسائية فائقة الجمال، وهناك قبالة حجرة المرتلين الكنسيين ترى صورة السيد المسيح وهو صبى ضمن صور هذه اللوحة الفسيفسائية ، وقد لونت صورة المسيح هذه بألوان متوهجة لامعة كما رسم صحن الكنيسة ، وكان وجه المسيح أكثر جمالا ووسامة؛ وعلى يده اليسرى تقف أمه العذراء، فى حين يقف على يده اليمنى سيدنا جبريل كبير الملائكة لكى يلقى عليهما تحيته الطيبة المعروفة وهو «السلام عليك يا مريم سلاما ملؤه النعمة والبركة: فالسيد المسيح مع الرب، الذى باركك وطهرك بين نساء العالمين، وبارك نتاج حملك وجنين رحمك». وقد دونت هذه التحية الملائكية باللغتين اللاتينية واليونانية حول السيد المسيح نفسه. وكان الحواريون الاثنى عشر يقفون على يمينه، وتم تصويرهم فى شكل صف فى نفس هذه الصورة الفسيفسائية ، وكل واحد من هؤلاء الحواريين يمسك فى يديه كلام الرب فى تمجيد المسيح ويشيرون إلى الأسرار المقدسة . ووسط

هؤلاء الحواريين والرسل وفى موضع منعزل مغمور فى السور كان يجلس العاهل الملكى البيزنطى بزيه ولباسه الرسمى، وهو امبراطور القسطنطينية وكان يقف خلف الحواريين كبير الملائكة المبارك ميخائيل يتألق فى نظام مدهش عجيب . ووقف على يسار المسيح صف من اثنى عشر نبيا تتجه وجوههم جميعا صوب هذا الصبى الجميل (السيد المسيح) يخاطبوه بتوقير واحترام، ويحملون فى أيديهم النبوءات التى أوحى الرب بها إلى السيد المسيح. ووسط صورة الأنبياء جلست أم الامبراطور الرومانى قسطنطين وهى الامبراطور هيلينا فى مواجهة ابنها الامبراطور فى نظام وترتيب رائع . وكانت بعض الصور الفسيفسائية ذات أصل بيزنطى، على الرغم من أن هذه الصور قد تم تجديدها خلال فترة السيادة الصليبية، وهذا ما تؤكده النقوش البيزنطية واللاتينية. وكانت هذه الصور الفسيفسائية تتنافس فى الروعة والجمال مع الرسومات المقدسة. هذه الرسومات المقدسة التى كانت أقل انتشاراً وشهرة من الصور والرسومات الفسيفسائية . وبينما كانت الصور والرسومات الفسيفسائية مزينة بقبة بيزنطية ، فإن الصور الزيتية الجدارية كانت تزين الأقواس التى توجد فى الجانب الشرقى من الكنيسة ، خلف حجرة المرتلين الكنسيين . ومرة ثانية نستشهد بقول الرحالة الألمانى ثيودوريتش عندما زار الأراضى المقدسة فى فلسطين حاجًا فى القرن الثانى عشر الميلادى فقد قال هذا الرحالة : «لقد خصص مذبح الكنيسة المرتفع لمخلصنا (السيد المسيح) ، وبجوار هذا المذبح كان يوجد كرسى البطريرك، الذى يتدلى فوقه من قوس الحرم المقدسى صورة رائعة للسيدة مريم العذراء، وصورة يوحنا المعمدان ، وصورة ثالثة للقديسة جبرائيل وعريسها اشبين . وقد رسم فى سقف الحرم المقدس صورة للسيد المسيح يحمل صليبه فى يده اليسرى، ويحمل فى يده اليمنى صورة سيدنا آدم، ويشخص بصره بشموخ وإعزاز إلى السماء ، رافعا قدمه اليسرى يخطو خطوة واسعة عملاقة ، وتستند رجله اليمنى على الأرض كما لو كان يرتقى إلى السماء، فى حين كانت تقف حوله أمه العذراء ويوحنا المعمدان وكل الحواريين والرسل ». ويقول ثيودريتش ذلك الحاج الألمانى أيضا : «ولم تقل كنيسة الجلجنة الصغيرة روعة فى الزخرفة، إذ كانت أرضيتها مبلطة برخام جميل من كل الأنواع، وسقفها مزخرف بصور الأنبياءوالرسل ، وأعنى داود، وسليمان وإسحق ، وبعض الأنبياء الآخرين ، وكان هؤلاء الأنبياء جميعا يحملون فى أيديهم نصوصًا تشير إلى آلام المسيح وتعذيبه، وقد رسمت الأشكال والمناظر فى شكل لوحة فسيفسائية رائعة الجمال ، كان يصعب رؤيتها بوضوح، لأن المكان الذى وضعت فيه كان مظلمًا بسبب المبانى التى كانت تحيط به». وقد حفظ ما تبقى من هذه الصور الفسيفسائية

الوفيرة فى كنيسة الميلاد ببيت لحم (ومع ذلك توجد صورة للسيد المسيح وهو متألق فى قبو كنيسة الميلاد) . لقد تم إنقاذ بقايا الصور الفسيفسائية التى كانت توجد فى صحون الكنيسة وفى حجرة التراتيل الكنسية، وإذا لم تكن الصور الفسيفسائية التى أبدعتها المدرسة الفنية البيزنطية جيدة الصنع والإبداع فإنها كانت على الأقل بمثابة المشعل الذى أضاء الطريق أمام الزخارف التى انتشرت فى أرجاء الكنائس الصليبية الكبرى. ومن حسن الحظ، أن النقوش البيزنطية والصليبية تزودنا بأسماء الفنانين الذين أبدعوا هذه الزخارف كما تزودنا أيضا بأسماء وعهود الحكام الصليبيين والبيزنطيين الذين اهتموا بهذا الفن ، وأيضا فترة النشاط الفنى لكل حاكم من هؤلاء الحكام الذين رعوا هذا الفن. فقد مدح رسام الصور واللوحات الفسيفسائية الشهير ابراهام Ibraham والذى كان مسيحيا من بلاد الشام ولم يكن بيزنطيًا الكرم والهبات التى تلقاها من الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين كما مدح الملك الصليبى عمورى الذى شمله بعنايته ورعايته ، ومدح أيضا الأسقف النورمانى رالف Ralph أسقف كنيسة بيت لحم، وقد تزامن المدح وهذه الإشادة مع الوقت الذى أنجز فيه العمل الفنى الذى أسند إليه من جانب هؤلاء . وذلك فى عام ١١٦٩م، والحقيقة أن الأسماء السابقة الذكر تفسر لنا وتوضح الأسلوب الفنى لهذا العمل، كما توضح المراكز الفنية التى تخصصت فى إبداع مثل هذا الصور الفسيفسائية .

وتمثل لنا اللوحات والصور الفسيفسائية تاريخًا مختصراً للعقيدة المسيحية ، كما أن هذه اللوحات والصور أيضا تحيى ذكرى المجامع الكنسية المسكونية (العالمية) المهمة ومعظم المجامع الكنسية الاقليمية التى عقدتها الكنيسة وقراراتها الملزمة. وقد أدمجت هذه الفكرة الرئيسة الخاصة بالمجامع الكنسية فى خمس مجموعات مركبة من اللوحات ذات طراز فنى واحد، وكانت هذه المجموعات الخمس من اللوحات تواجه بعضها الأخرى على الجانبين الشمالى والجنوبى لصحن الكنيسة ، وتمثل مجموعة اللوحات السفلى سلسلتين من نسب المسيح عليه السلام. وتأتى سلسلة النسب الأولى وفقا لما ذكره انجيل متى وإنجيل لوقا. ويعلو هذه اللوحات السابقة صورة المجامع الكنسية التى يعلوها كتابة على هيئة نقوش ورقية وزهرية. وقد وجدت الصور الفسيفسائية فى مكان عال بالقرب من الشبابيك ، وامتلأ الفراغ بين هذه الصور وهذه اللوحات بصور الملائكة . وأخيراً ، فإن طوقا آخر من الزخارف النباتية كانت تعلو هذه الصور. ولم تعلق الصور الفسيفسائية على جدران صحون الكنيسة . وعرفنا من خلال

الوصف الذى ذكره أحد المعاصرين وأيضا من خلال وصف أحد مؤرخى القرن السابع عشر الميلادى أن الحائط الغربى من صحن الكنيسة كان يشمل «شجرة نسب المسيح» وكانت أغصان هذه الشجرة عبارة عن رؤوس الأنبياء، وشمل صحن الكنيسة أيضا الكتابات التى تنبىء بمجىء المسيح عليه السلام. وفى الجانب المقابل ، لاتزال أعمدة جناح الكنيسة تحتفظ بالرسومات والزخارف الصليبية . وفى الجانب المقابل ، لاتزال أعمدة جناح الكنيسة تحتفظ بالرسومات والزخارف الصليبية، وانتشرت صور فيسفسائية فى الفراغ الذى يعلو هذه الرسومات وأيضا فى الجزء الناتىء النصف الدائرى من مبنى الكنيسة شبه المقبب ، ولاتزال هذه الأماكن تحتفظ بهذه الصور الفسيفسائية ، وكانت اللوحات الفسيفسائية فى هذا الجزء من الكنيسة تضم صورا لأشخاص ينتمون للعهد الجديد (الانجيل) . وربما يساعدنا وصف بعض هذه اللوحات فى تصور وتخيل نمطها الفنى وبراعة الفنان الذى أبدعها ورسمها. لقد كانت اللوحات الفسيفسائية تصور المجامع الكنسية التى عقدتها الكنيسة المسيحية الكاثوليكية فى روما مثل مجمع نيقية الأول الذى عقد فى عام ٣٢٥م، ومجمع القسطنطينية الأول فى عام ٣٨١م، ومجمع أفسوس فى عام ٤٣١م، ومجمع خلقدونية فى عام ٤٥١م ، ومجمع القسطنطينية الثانى فى عام ٥٥٣ ، ومجمع القسطنطينية الثالث عام ٦٨٠م، ومجمع نيقية الثانى فى عام ٧٨٧م ، وكانت كل هذه اللوحات التى تصور المجامع الكنسية السابقة تشغل أحد حوائط الكنيسة ، فى حين كان الحائط المقابل يشمل الصور التى تمثل المجامع الكنسية الاقليمية مثل : مجمع قرطاجة عام ٢٥٥ ، ومجمع اللاذقية فى عام ٣٥٠م، ومجمع جانجرا Gangrae فى عام ٣٤٥ ، ومجمع سرديكا فى عام ٣٤٣م، ومجمع أنطاكية فى عام ٢٧٢م، ومجمع انكيرا Ancyra فى عام ٣١٤ .

لقد اتسمت هذه الصور التعليمية التى شملتها اللوحات الفسيفسائية بجمالها الفنى المتواضع ، بيد أن الفنانين الذين رسموا هذه الصور أظهروا براعة ممتازة فى مجال العمل الفنى. وعلى أى حال، فإن موضوع هذه الصور الفنية لم يكن يتسم بالإلهام، وذلك لأن غرض هذه الصور كان تأكيد واقرار المبادىء الأساسية للدين المسيحى فقد كان هناك نمطان من الصور يمثلان هذه المجامع الكنسية. إذ كانت كل الصور التى تمثل المجامع المسكونية العالمية منتشرة على الحائط القبلى من المبنى وكان الحائط عبارة عن رواق مزدوج يستند على ثلاثة أعمدة . واحتوى كل رواق مذبحا أو مقرأة لتلاوة الكتب المقدسة، وكانت توجد فوق هذه المقرأة أو

المنضدة نص قرارات المجمع الكنسى، فى حين كان يوجد على جانبى المذبح شمعدانات Candelabres أو مباخر مدلاه. وكانت الصور التى تمثل المجامع الكنسية الإقليمية تعلق على الحائط البحرى (الشمالى) وكانت أكثر اتقانًا . والصور الفسيفسائية التى ماتزال حالتها جيدة والتى تمثل مجمع سرديكا ، تعطينا فكرة عامة عن باقى المجامع الكنسية الأخرى. وعلى الرغم من اختلاف الرسومات التخطيطية للكنائس أو المدن، فإن هذه الرسومات كانت تتبع نفس النمط الفنى بشكل جوهرى. وكان الجزء المتقاطع مع الكنيسة ذات الصحون الثلاثة بمثابة إطار خارجى للجزء المستقل من الكنيسة وللأعمدة الأربعة التى تشير بوضوح إلى أجزاء المبنى. وانفصل الصحن وأجنحة الكنيسة عن الأجزاء شبه المقببة من الكنيسة. وكان نص التعاليم الكنسية يوجد أسفل الجزء الناتىء من الكنيسة الذى يقع فى الوسط ، فى حين كان مكان أجنحة الكنيسة مملوءًا بزخارف على شكل شبه المعين الهندسى، ويبدو أن هذه الزخارف كانت بمثابة الحاجز الذى يفصل بين الأجزاء الناتئة من مبنى الكنيسة وبين أجنحة المبنى. وكانت حجرة جوقة المرتلين الكنسيين الخيالية تعلوها إسطوانة فوقها قبة وتحيط بها اثنان من الأبراج الصغيرة ، كل برج متوج بصليب ، ووجدت شمعدانات وقارورة مسطحة فى الجزء العلوى من الأجزاء الجانبية من الكنيسة المزودة بقباب صغيرة ، وهذه القارورات لاتشبه تلك القارورات الخاصة بالحجاج المسيحين. ووجدت أيضا زهريات داخل القباب الضيقة وزودت بزهور غير متقنة الصنع .

وعلى أى حال، فإن الصور التى تمثل المجامع الكنسية الأخرى كانت تتبع نفس النمط الفنى، على الرغم من أن تفاصيل هذا النمط ربما كانت تختلف عن الأنماط الفنية الأخرى، وكان الفراغ المحصور بين الجدارين يمتلأ بزخارف نباتية وزهرية متقنة الصنع . ومما يذكر أن النمط الفنى الأساسى كان عبارة عن شجرة خيالية غرست فى زهرية ضخمة ، وظهر فى أغصان هذه الشجرة أوراق نباتات. وأحيانا كان يحيط بمركز الزخارف النباتية هذه نمطان من الزخارف النباتية الزهرية العمودية وتتكون هذه الزخارف من عدة زهريات مزودة بأوراق نباتات فى شكل هندسى. وتتمثل السمة الأساسية فى أحد هذه الأنماط فى أن الشارات التى كانت على شكل أجنحة ترفرف قد حلت محلها أوراق نباتية فى الصف الأعلى. وتذكرنا مثل هذه الأنماط بأحد الأنماط الفنية الزخرفية الذى كان منتشرا فى منطقة ما بين النهرين (الميزوبوتاميا) . وعلى الرغم من تشابه النمط الفنى لكل من اللوحات الفسيفسائية التى كانت تزين الحوائط الشمالية والجنوبية للكنيسة ، فإن التفوق الفنى للوحات الحائط الشمالى

كان واضحًا .. إذ كان زخارفها أكثر اتقانًا وثراءًا حيث استخدم الفنان المبدع عرق اللولؤ المتقزح الألوان (ألوان قوس قزح) لكى يضفى على الشكل رونقًا وتألقًا.

وكان لبعض النصوص الخاصة بتاريخ العقيدة المسيحية والمدونة فى اللوحات الفسيفسائية سمات مميزة غريبة. وإذا كانت نصوص المجامع الكنسية قد دونت باللغة اليونانية ، فإن نص قرارات مجمع نيقية الذى عقد فى عام ٧٨٧م، قد دون باللغة اللاتينية . وكانت هذه أسباب فرض عقوبة الأناثيما (اللعنة) على الأباطرة البيزنطيين وبطريرك القسطنطينية ومراعاة لإحساس الشعب البيزنطى، فإن نص قرارات المجمع السابق دون بلغة أجنبية . بيد أنه يجب أن نذكر أن قرارات المجمع المسكونى (العالمى) السابع لم يتقبلها الغرب الأوربى بسهولة . وإلى حد ما، فإن تدوين قرارات هذا المجمع باللغة اللاتينية كان احياءً لذكرى مجمع كنسى انحرف عن الروح العالمية المسكونية ، وهى الروح والتغيير الذى كان يميز اللوحات الفسيفسائية لكنيسة مدينة بيت لحم. فقد ظلت النقوش والكتابات المزدوجة البيزنطية واللاتينية سمة دائمة فى سلسلة نسب السيد المسيح عليه السلام ، وأسماء الملائكة والقديسين ، والحواريين.

وثمة نمط فنى آخر لزخارف اللوحات الفسيفسائية الموجودة فى كنيسة بيت لحم، واحتفظ هذا النمط بمفرداته الفنية بدرجة كافية لأن تعطينا فكرة عن باقى الأنماط الفنية التى اندثرت وفقدت ، وأهم الأنماط الفنية المثيرة للشك هو ذلك النمط السائد فى لوحات الذراع الشمالى من الكنيسة. وعلى الرغم من أن التركيب الفنى لهذا النمط كان أكثر غموضا ، فإن الصور الفنية كانت فى الواقع مفعمة بالحيوية وأكثر إثارة للمشاهد وللمتذوق . كان يشغل الجزء المركزى من الكنيسة صورة للسيد المسيح بالهالات النورانية التى تزين رأسه، إذ كانت هذه الصورة تتصدر بوابات مزينة بألواح على شكل أجنحة . وتوجد على كل جانب من جانبى الكنيسة أروقة مقنطرة ثلاثية تستند على أعمدة لها تيجان مزخرفة بأشكال زخرفية على صورة أوراق نباتات وأزهار على النمط الفنى الصليبى، وقد زينت أيضا قواعد الأعمدة المستديرة بزخارف من نفس النوع . ووجد على كل جانب أيضا صورة لمجموعة من خمسة أشخاص يمثلون الحواريين . ومن الجدير بالملاحظة ، أن الوضع الكلاسيكى لصورة أحد الحواريين الذين كانوا يقفون فى أقصى اليمين كان جميلاً، ومن المحتمل أن يكون هذا الحوارى الشاب الأمرد هو القديس يوحنا. وكانت الصورة التى توجد فى الوسط (صورة السيد المسيح) تظهر عليها آثار توتر وقلق، حيث قام المسيح بتعرية جانبه الأيمن ، وأمسك بيد القديس توماس الممتدة، ودفع هذه اليد إلى جرح القديس توماس.

وفى وقت متزامن زينت كنيسة الميلاد فى بيت لحم بنماذج الرسومات والزخارف الحائطية الصليبية . وعرفت عينات أخرى قليلة فقط من الرسومات (فى بيت قاج، وفى أبى جوش وطرابلس) ، وكانت هذه العينات بقايا هزيلة لاحدى الفنون التى ازدهرت فى مملكة بيت المقدس اللاتينية. فقد زينت الرسومات الصليبية الأعمدة المستدير لكنيسة الميلاد فى بيت لحم. واليوم أتلف كثير من هذه الرسومات ، بيد أن أعمال الترميم والتجديد لهذه الرسومات التى أجريت بمهارة منذ سنوات قليلة استطاعت أن تعيد الصورة الأصلية لهذه الرسومات ، وكانت صور القديسين تغطى صفى الأعمدة المؤدية من المدخل إلى جناح الكنيسة هذه الأعمدة التى ازدانت تيجانها بزخارف نباتية وزهرية على النمطين البيزنطى والصليبى. وانتشرت على هذه الاعمدة اثنتان وثلاثون صورة مرسومة ذات طراز فنى غريب. وانتشرت ثلاث وعشرون صورة من الصور المرسومة على الاحدى عشر عموداً الممتدة على جانبى صحن الكنيسة (انتشرت على العمود الأخير الواقع جهة الشمال صورتان)، وانتشرت ثمانى من الصور المرسومة على أعمدة الجزء الجانبى الواقع جهة الجنوب والمفصول عن صحن الكنيسة (وهناك عمودان وجد عليهما رسومات مزدوجة). ومن المتوقع أن أعمدة الجزء الجانبى الشمالى كانت تفتقد إلى الرسومات والصور.

وكانت الرسومات تغطى واجهة أعمدة صحن الكنيسة وكذلك جناح الكنيسة فى أسفل الحافة الذهبية للوحة الفسيفسائية . وكان اللون الأزرق الفاتح هو اللون السائد تحت تيجان الأعمدة التى كانت محددة بحافة ذات لون أبيض وأحمر، وهى الحافة التى كانت بمثابة خلفية للجزء الأعلى من صورة أجسام القديسين. وكان للأطراف السفلى خلفية مختلفة، وربما كانت ذات لوت أحمر قاتم ، وهو اللون الذى اختفى وتلاشى. ولم تكن الألوان التى احتفظت ببقائها تصنع من الزيت (ألوان زيتية) . ويمكن تحديد هوية القديسين بواسطة الكتابات والنقوش اللاتينية واليونانية التى توجد على جانبى صورة القديس ولاسيما بالقرب من هالات القداسة التى تعلو رأس القديس . وأحيانا كانت الأسماء تظهر على أوراق البردى التى يحملها القديسون فى أيديهم، أو على هذه الأوراق التى كانت تعلق فى أرجلهم.

ومما يذكر أن القائمة الكاملة بأسماء القديسين أو وصفهم التفصيلى لم تكن ذات غرض ، ولذا فإننا سوف نركز على الصور ذات الأهمية الفنية والتاريخية .

وكانت القائمة الطويلة من عدد القديسين المنتشرة على صف الأعمدة التى تقع جهة الشمال

يقطعها بشكل مفاجىء رسم، يصور السيدة مريم العذراء وهى ترضع وليدها. ولم توجد كتابة، كما أن مثل هذا الموضوع لايحتاج إلى تعليقات . إذ كانت السيدة مريم العذراء ترتدى ثيابا طويلا عبارة عن بدلة ذات لون أزرق داكن وفوقها شال وردى اللون يغطى رأسها وأكتافها. وتحمل طفلها المطوق بهالة مقدسة والملفوف على ذراعها الأيسر، فى حين كانت يدها اليمنى تضغط على ثديها الأيسر العارى لترضع وليدها. وجاء رسم هذه الصورة متوسط الجودة، إذ كانت صورة السيد المسيح الوليد تتميز بالرأس المنحرفة قليلا والثابتة أو المتجمدة . وكانت طيات الملابس الجوخية تصنع بشكل ردىء . إذ كانت العناصر الزخرفية التى تزين ملابس السيد المسيح شاذة وغريبة ، وكانت وسادة الكرس الذى يجلس عليه القديس مزينة بزخارف شبيهة بأوراق نبات الأهيللو كما أن البساط الذى تمشى عليه العذراء بنعلها الأسود اللون كان هو الآخر مزينًا بزخارف نباتية.

ومن بين هؤلاء القديسين ، كان القديس ستيفن St. Stephen الذى تلقى علاجًا متقنًا ووجدت نقوش وكتابات لاتينية على جانبى رأس القديس المتوجه بالهالة المقدسة. وانتشرت النقوش البيزنطية مثل باقى النقوش الأخرى حول رسومات صور القديسين، ويمكن تمييز بعض هذه الحروف مثل (A.S.E) والحقيقة أن هذه الحروف لم تكن يونانية ولكنها كانت أنموذج يطابق الحروف اللاتينية . ويشير آخر دارس لفن الرسم، وهو ب. جوهاسز P. Juhasz إلى أن رأس القديس قد رسمت بطريقة خاصة. وإذا نظرنا إلى الصور الموضحة للقديسين من أسفل ، نجد أن القديس ينظر بطريقة تدل على الازدراء وعدم المبالاة ، وإذا نظرنا من أعلى ، نجد أن رأس القديس تنظر إلى الأمام تماما نظرة محدقة . وكان القديس يرتدى بدلة طويلة جداً مزودة بقلادة فريدة وجميلة . وزودت نهايات البدلة بأهداب وشراريب تعلو النعل الذى يلبسه القديس. وكان الثوب الكهنوتى الذى يرتديه القديس فى أثناء القداس مثيرا للاعجاب والدهشة إذ كان مطرزا بشكل أنيق رائع. وكانت القلادة وحاشية الثوب الكهنوتى والأكمام مزودة بأزرار من اللؤلؤ وببعض الأحجار الكريمة. ووجدت قطعتان ضيقتان من القماش مزخرفة بنقوش هندسية تؤكدان أن مقدمة الثوب الكهنوتى كان مزخرفا بنقوش وزخارف غالية. وشملت الرسومات البارزة صور الملائكة البيضاء اللون وهى تنشر أجنحتها ، وكانت الزهور الصغيرة تنتشر فى الفراغات المربعة الشكل التى تنحصر بين هذه الرسومات البارزة. إذ كان القديس يقبض بيده اليمنى على صليب مزود بزخارف زهرية ونباتية ، فى حين كانت يده اليسرى المزودة بالذرعة (جزء من ثياب القداس) تحمل مجلداً أنيقا.

ويمكن أن نستثنى من هذه السلسلة من الرسومات رسم صورة القديس اليشع Elizah والغربان السود. فقد دون رسم هذا القديس باللغة اليونانية، ودون بجانبه بيت شعر باللغة اللاتينية العامية والفجة. «فقد كان الغراب وبصحبته أليفته يحضران الطعام كل يوم للقديس اليشع»، وعند مقابلة خلفيات الصورة الخالية من الرسوم كان يرى فى خلفية الصورة القديس اليشع وهو جالس فى حقل به زهور قريبة من نهر وجبل . ويرتدى القديس اليشع يرتدى بدلة زرقاء اللون وعباءة وردية اللون وقد توسطت صورة القديس اللوحة ، وشوهد القديس وهو يتكىء على ركبته بيده التى تستند عليها رأسه، التى تتجه صوب الغرابين اللذين جاءوا من أعلى فى خط أفقى يحملان خبزا على شكل صليب .

وتعتبر صورة السيدة مريم العذراء وهى تحمل وليدها والأشخاص الثلاثة الذين يصلون أمامها من الرسومات المهمة لأسباب عديدة: منها أن الرسم الذى يصور السيدة مريم العذراء وهى ترضع وليدها وهو يعانقها يتسم بالجودة والروعة، إذ كان وضع الطفل الوليد أكثر تلقائية وطبيعية، كما أن طية الجوخ الناعمة للبدلة الزرقاء والعباءة ذات اللون الوردى اتسمت بالتلقائية أيضا والجمال. وكان الأشخاص المصلون يقفون على جانبى صورة السيد مريم العذراء، وكانوا عبارة عن شاب يقف جهة الشمال، وبنتان تقفان جهة اليمين. وكانت معظم النقوش والكتابات باللغة اللاتينية . وتعلو رأس السيدة مريم العذراء كتابة صيغتها «أيها الابن انك كلمة الرب وإرادته ، وإننى أصلى من أجل رحمة الرب وشفقته إلى هؤلاء»، وعندئذ نأتى إلى إشارة مختصرة جداً لهذا التاريخ الذى تم فيه رسم هذه الصورة، فقد تبين لنا أن هذه الصورة رسمت فى الخامس عشر من مايو عام ١١٣٠م، أى فى عهد الملك الصليبى بلدوين الثانى أي قبل أكثر من جيل من ظهور اللوحات الفسيفسائية ، التى أنجزت فى عهد الملك عمورى (أماريك) . وكان يوجد أسفل الصورة بيت شعر لاتينى وهو «أن العذراء تمنح السلوان للحزانى والمكلومين »، ووجدت على جانبى الصورة حروف غامضة المعنى وهى حروف "W.A" ولاشك أن هذه الحروف هى الحروف الأولى من أسماء وتوقيعات الرسامين الذين أنجزوا هذا العمل الفنى.

وينبغى أن نذكر اثنين من الرسومات والصور غير المتوقعة نظرا لأهميتها التاريخية ، وهى صور القديسين الملكية : وهى صورة الملك أولف Olef ملك النرويج والملك كانوت Cantute ملك الدانمارك . وكان الملوك يلبسون تيجانا ملكية مستديرة ، وعباءات متسعة مبطنة بالفراء

ومثبتة بعضها مع بعض بواسطة مشبك على الجزء الأعلى من العباءة ، بالإضافة إلى أن يده اليمنى تتكىء على ترس قصير على شكل مستطيل وفى وسطه صليب مرصع بالجواهر، فى حين كانت اليد اليمنى تمسك حربة.

ومن الواضح أن الرسومات المنتشرة على أعمدة كنيسة المهد فى بيت لحم لايمكن تصورها كسلسلة واحدة. ومن المحتمل أن صور القديسين والسيدة مريم العذراء قد رسمت بتكليف من الذين يقدمون الهبات للكنيسة . وحظيت عملية رسم صور قديسى الشرق والغرب وقديسى المناطق الإسكندنافية ، والنورمان والإيطاليين بالأولوية القومية. ويمكن أن تعزو مثل هذه الرسومات إلى فترة القرن الثانى عشر الميلادى، على الرغم من أن بعض هذه الرسوم يرجع بدقة ووضوح إلى عام ١١٣٠م. وكان الرسامون من الغرب الأوربى، بيد أن تقنيات هذه الرسوم كانت بيزنطية الأصل ، ومن المحتمل أن بعض هذه الرسومات قد تمت على يد رسامين مسيحيين محليين من بلاد الشام وهم الرسامون الذين اتبعوا التقاليد البيزنطية فى رسوماتهم. وهكذا فإن كلا من الفنانين الذين أبدعوا هذه الرسومات وكذلك موضوع هذه الرسومات يعكسان التقاء التيارات الثقافية العالمية. وثمة بعض أمثلة ونماذج من هذه الرسومات توضح جودة الفنون الثانوية التى انتشرت فى المملكة الصليبية. وقد اختفى عدد كبير من هذه الرسومات المتعلقة بالفنون الثانوية. ولاشك أن مثل هذا كان مصير عدد كبير من أعمال المشغولات الذهبية، والتى قام بتصنيعها عدد كبير من الصناع عرفوا باسم الصائغين au-rifaber. وتجدر الإشارة إلى أن ملابس رجال الدين الكنسيين الصليبيين المرصعة بالجواهر قد أحدثت صدمة فى الغرب الأوربى من فرط فخامتها وكانت هذه الملابس تمثل ميل النبلاء الصليبيين إلى تبنى سلوك الترف والإسراف الشرقى. وعرفت بلاد الشام وفلسطين مهنة قطع الأحجار . وتزودنا أحجار القبور التى ما تزال باقية بنموذج فنى ملائم ، فأختام الملوك والنبلاء والمؤسسات والوجهاء تمثل فن النقش والحفر على المعدن، دون الإشارة إلى عدد النقود والمسكوكات . وسواء بحثنا عن كفاءة الصناع أو مهارتهم ، فإننا لم نجد سوى القليل الذى يستحق التعليق. فقد اتبعت النقوش الجنائزية ، والأختام والعملة الأنماط الفنية الغربية، ويقينا أن هذه الأنماط الفنية الغربية كانت أقل جودة من الأنماط المعاصرة لها فى الغرب الأوربى. ففى مجال سك العملة والنقود– ولاسيما البيزنت الإسلامى الشهير، يمكن أن نلمس تطورا تدريجيًا فى سك هذه العملات فى منتصف القرن الثالث عشرالميلادى وذلك إذا ما قورنت بتلك

المسكوكات المقلده التى ضربها الصليبيون فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى، ومن المحتمل أن هذا التطور قد تحقق على يد الصناع المحليين ، من المسلمين والمسيحيين، فقد أهمل الصليبيون حرفة فن سك العملات المربحة.

ويمكن القول إن القاشانى (السيراميك) الصليبى لم يكن جذابا وظهر هذا من خلال النماذج الباقية من هذا القاشانى. ومما يذكر أن الصناع المحليين هم الذين قاموا بصناعة وزخرفة هذا القاشانى وقلما كان القاشانى الصليبى يختلف عن نظيره الذى أنتج وصنع فى هذه المناطق خلال عصر السيادة الإسلامية السابق لعصر الوجود الصليبى والذى أنتج أيضا خلال الفترة اللاحقة ولاسيما فى العصر المملوكى. ووجد نفس النمط من القاشانى فى كل من قبرص وصقلية، وفى المراكز الإسلامية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. وثمة رموز مسيحية مثل شارات الصليب أو صور القديسين ، يشير إلى الأصل الصليبى لصناعة الأوانى المصقولة اللامعة والتى ساد بينهما اللونان الأخضر والبنى . بيد أنه لم تكن هناك تحف فنية- فلم نجد تحف فنية ترجع إلى العصر الصليبى – يمكن مقارنتها بالأوانى والتحف الفنية الجميلة المتقنة المعاصرة التى صنعت فى مصر أو فى بلاد الشام أو فى بلاد فارس .

وينبغى على المثقف أن يعرف أكثر عن صناعة الزجاج والمنسوجات فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين، إذ كانت إمارة أنطاكية الصليبية تصدر المنسوجات ، فى حين كانت مدينة صور من أعظم مراكز صناعة الزجاج خلال الفترة الصليبية. وتوجد اثنتان من العينات قد صنعت فى مدينة صور فى القرن الثالث عشر الميلادى، فقد رسم على أحد الألواح الزجاجية ذات اللون الأبيض صورة للسيدة العذراء. وبجوارها ابتهال دينى كتب باللغة اللاتينية ، وكانت الأكواب الزجاجية تظهر جودة صناعية فائقة، ووجد عدد من هذه الأكواب نقش على سطحها شعار نبالة مجهول الهوية. وظهر النقش العاجى فى أغلفة مجلد مزامير الملكة الصليبية ميليسندا ، ومن الواضح أن هذه الأغلفة كانت تعاصر تدوين نص كتاب المزامير هذا، وهذه النقوش يمكن أن ترجعها إلى ثلاثينيات القرن الثانى عشر الميلادى .

وفى إطار الزخارف النباتية والزهرية والهندسية ، وجدت ست صور على الغلاف العلوى لمجلد المزامير السابق، وقد اقتبست موضوعات هذه الصور من قصة الملك داود. وزين إطار هذا المجلد بزخارف نباتية على شكل أوراق شجرة الكروم. إذ كان ينبثق عنقودان من العنب من الحافة العليا للزهرتين فى الوسط فى شكل هندسى متحابك ومتداخل . ووجد على كل

جانب من جانبى الغلاف صورة سمكة لها ذيل مزخرف بزخارف زهرية وصورة لطائر ينقر فى قاعدة الزهرية . وكانت سيقان الكروم تمتد إلى الأركان فى نمط زخرفى نباتى وتنحدر هذه السيقان فى شكل حليات لولبية زهرية، ويتمركز اثنان من السيقان فى أنماط زخرفية هندسية متشابكة ثم يمتدان إلى قاع الزهرية، فى حين كانت هناك صور للطيور الناقرة تطوق الحليات اللولبية ذات التصميم الزخرفى الزهرى، ووجد حزام على شكل هندسى شبه المعين فى داخل اطار المجلد، ووجد أيضا شريط مزين بالخرز خارج حافة اطار غلاف هذا المجلد.

وقد نقشت ست صور تمثل حياة الملك داود فى ست حليات نافرة مستديرة متصلة فى شكل حلية محدبة وبكره ومزودة بمشابك على شكل زهور. وكانت الحليتان البارزتان العلوية تمثل الملك داود وهو يقود شعبه، ويقتل الأسد ويطارد دبًا. فالملك داود بشعره الطويلة، وبدلته القصيرة المتدلية، يحمل فى ذراعه الأيمن حقيبة صغيرة، ويدوس على مخالب الأسد ويفتح فم الأسد بقوة (وهو يذكرنا أكثر بقصة شمشون القوى الجبار) . وقد شوهد دبٌ وحمل يهربان خوفا، وتم إنقاذ رعية الملك داود من هذه الأخطار المحدقة بهم تمامًا. ونقشت أسماء داود، وليو Leo ، واجنيس ، وأرسس Ursus وذلك فى حروف حمراء اللون على ألواح صغيرة. وتم مسح هؤلاء جميعًا بالزيت المقدس يعد أن مسح القديس صموئيل الملك داود بالزيت المقدس . وظهر القديس صموئيل فى شكل رجل كبير السن ذى لحية، وله شعر طويل ، ويرتدى بدلة وعباءة مقفلة تصل إلى تحت الركبة ويمسك فى يده اليسرى رأس الملك داود بالزيت المقدس وهو يحثو على الأرض . وعلى الجانب الأيمن من الغلاف كانت توجد بوابة دون عليها نقوش مثل Bthle-hem التى تعنى بيت لحم ورسمت فوق البوابة صورة ليد الرب وهى تمسك ذلك القرن المجوف (القارورة) الذى يمتلأ بالزيت المقدس اللازم للتكريس. ووجد فى الصف الأوسط حلية نافرة جهة الشمال تمثل الملك داود وجولياث Goliath وهما يحاربان فى ميدان مفتوح، ومثلت هذه المعركة بواسطة ثلاثة أغصان من أغصان الشجرة. إذ كان جولياث يرتدى سترة مزردة ومدرعة، ويلبس خوذة مخروطية الشكل على رأسه، ويمسك ترسًا طويلاً من تروس القرن الثانى عشر، ويلوح بحربته من فوق رأس الملك داود. ووجدت لمبة متدلية من السقف، ويظهر المذبح وخبز التقدمة * داخل المعبد أو الهيكل. وكان يوجد شخص آخر خلف أبيميلش Abimelech

* هو خبز القربان عند اليهود (المترجم) .

الذى كان يرتدى بدلة a tunic وعباءة ذات غطاء للرأس وكان هذا الشخص يمسك فى يديه رقعة دون عليها اسم Dofg . وفى أسفل اللوحة جهة الشمال يظهر الملك داود ملتحيا، يرتدى التاج والعباءة الملكية، ويسجد أمام مذبح متوهج براق. ومن المحتمل أن الحائط فى الخلفية كان يمثل الأرضية التى جلد عليها عراناح Arannah. وظهر فى الجزء العلوى ملاك سماوى يلوح بسيفه . وكان النبى يحمل أوراقا كتب عليها حروف (Ro) ، GAD (ETA) PH وترجمة هذه الكتابة هى أزميل أو عصا النبى، ويمسك لقافة من الورق عليها نقش وكتابة عبارة عن Construe Altore D (Omi) no وترجمتها المسيح يوضح مكان المذبح. ووجد نفش فوق رأس الملك داود عبارة عن EGO PECCAVI وترجمتها أننا نقر بالاثم ، وكانت آخر حلية ناقرة medallion تمثل داود ناظم المزامير ، إذ كان يعزف على قيثارته ويمسك قضيبين فى يديه. وتقف على كتفه حمامة، تمثل الوحى السماوى. ورسم الجزء الأعلى من جسم الملك داود من الأمام ، فى حين رسم الجزء الأسفل منه من الجهات الجانبية. ووقف الموسيقيون الملكيون على جانبى الصورة وهم ايتان Etan، وأديتون iditun، وعساف Asaph ، وايمان Eman . وكان هناك اثنتان من الأدوات الموسيقية مختلفتين فى الشكل، الأولى عبارة عن آلة الجيتار، والأخرى كانت آلة الكمان. وزين سقف القصر الذى يجلس فيه الموسيقيون الملكيون بزخارف وحليات معمارية على شكل ورقة ثلاثية الوريقات. كما زود هذا القصر بمنصة كبيرة داخله .

وكانت الفراغات المحصورة بين هذه الحليات البارزة مليئة بالصور التى تمثل الصراع بين الخير والشر أو بين الرب والشيطان . ونقش فى الجزء الأعلى اسمان لسيدتين هما بونيتاس Bonitas وبنيجينتياس Benignitas . ووجد بين هاتين الصورتين لهاتين الشخصيتين صورة تعبير عن عبارة الأوثان، وذلك فى شكل امرأة تمسك راية. ووجد فى الجزء الأسفل من الصورة واللوحة صورة بوديكيتيا Pudicitia وهو يحز عنق ليبيدو Libido . وهؤلاء النسوة جميعا قد ارتدين قبعات مخروطية ، وملابس واسعة ذات أكمام متدلية ، ولبسوا أيضا حزاما حول وسطهن . وفى وسط اللوحة ظهرت صورة هيومليتياس Humilitas المتوجه ، ووصيفتها التى تقدم لها المساعدة وترتدى ثوبا ضيقًا، وتساعدها عندما تقوم بقطع عنق سوبربيا Super-bia بواسطة سيف مسلول . وكانت هذه المرأة تمثل فى صورة محارب يرتدى سترة الحرب، ويمتشق سيفا ويمسك ترسًا مستديراً ، وهو المحارب الذى سقط فى حفرة. وإلى اليمين، وقفت

من اللوحة، تظهر صورة صوبريتا Sobrietas وهى تحمل راية، وتهاجم لوكسيريا Luxuria بطريقة وحشية . وظهرت فى وسط الصورة فورتيتدو Fortituda وهى تطعن أفاريتيا -Av aritia، التى تحمل فى يدها كيس نقود. وإلى اليمين كانت توجد كونكورديا Concordia وهى تشق رأس ديسكورديا Discordia . وأخيرا، وفى أسفل جزء من اللوحة تظهر صورة لثلاثة من الطاهرات الرحيمات وهن بياتيتيدو Beatituda ولارجيتاس Largitas ، وليتيكيا Leticia .

وكان الغطاء الخلفى لمجلد المزامير الخاص بالملكة الصليبية ميليسندا يتبع نفس الترتيب العام من الزخارف والصور ، بيد أن الإطار المزخرف يختلف عن المحتويات الزخرفية للحليات البارزة. وعلى الرغم من أن النمط الزخرفى النباتى كان هو الأساس فى زخرفة الإطار كما ظهر فى الغلاف العلوى، فإن النمط الزخرفى الأساسى كان يتمثل فى شكل فرعين أساسين. وكان النمط الأول عبارة عن زخرفة مزدوجة من الزخارف النباتية والزهرية. وكانت الزخرفة الزهرية تزين الإطار العلوى والسفلى لغلاف مجلد المزامير ، ووجدت ثلاثة أغصان زخرفية فى الجانب الأيمن ، وأربعة أغصان زخرفية أخرى فى الجانب الأيسر، فى حين كان الفرع الثالث يملأ مدخل الزخرفة الورقية والزهرية، وامتلأت الفراغات بأوراق النباتات وعناقيد العنب ، إذ كانت توجد أوراق نبات الخشخاش وأوراق شجر الكروم ضمن الزخارف النباتية والزهرية. وكانت العادة أن يتم زخرفة الفراغات المتقاطعة بالأحجار الكريمة. وفى أركان اللوحة. وجدت قيثارة مزينة بزخارف نباتية وزهرية وقد ارتبطت هذه الأركان فيما بينها بواسطة أحزمة وأطواق مستديرة ينتج عنها فروع رئيسة للحليات التى على شكل أوراق الكروم.

وثمة ست من الحليات البارزة ارتبطت مع بعضهما البعض بواسطة أربطة من الحبال. وقد امتلأت هذه الحليات بالأعمال الفنية التى تمثل أعمال الرحمة، وامتلأت هذه الحليات بصور الحيوانات . ودونت أعمال الرحمة هذه باللغة اللاتينية ، وتمثلت هذه الأعمال فى الطعام والجوع والعطش أى تقديم الطعام والماء «للجائع والعطشان»، و«حسن الضيافة»، و«الحاجة إلى الكساء،» و«عيادة المريض»، و«زيارة المساجين». وصور الشخص الذى يوزع أعمال الخير السابقة فى شكل أربع رسومات، وكان هذا الشخص فى كل صورة مرتديا الملابس الامبراطورية التى يرتديها الإمبراطور البيزنطى . ووجدت صورة أيضا لرجل رقيق الحال يرتدى بدلة واسعة غير محكمة تشبه بدلة العامل اليدوى. ووجد على كل جانب من جانبى غلاف

بدلة واسعة غير محكمة تشبه بدلة العامل اليدوى. ووجد على كل جانب من جانبى غلاف المجلد أربعة من الطيور . ولاشك أن هذه الصور كانت تشغل الفراغات الخالية من الصور، ووجد فى الفراغات فى وسط الغلاف اثنان من الحيوانات المتصارعة . ووجد أيضا فى أسفل الغلاف صورة طائر ضخم تحيط به كلمة هيرودس Herodias هذه الكلمة التى نقشت فى الجزء الأعلى من غلاف مجلد المزامير.

وبالإضافة إلى العاج ، فإن الفنان استخدم فى زخارفه للمخطوطات الأحجار الكريمة، فقد صنع الفنان عيون صور الأشخاص من الأحجار الياقوتية اللون الخضراء ، فى حين كانت الزخارف الورقية والزهرية التى تزين حواف المخطوطات تتألق بالألوان الفيروزية، ومرصعة بالأحجار الكريمة وهى أحجار الجمشت الأرجوانية أو البنفسجية الشكل amethsts وبعض العقيق الأحمر.

والحقيقة أن زخارف غلافى كتاب المزامير الخاص بالملكة الصليبية ميليسندا كانت رائعة الجمال بشكل يتناسب مع مكانة وثراء هذه الملكة. كما أن الفكرة الرئيسة لهذا العمل الفنى فى الزخارف والمتعلقة بصورة الملك داود ترجع فى الأساس إلى العصر القديم ، ومن المؤكد أن هذا النمط الفنى قد نال الإعجاب والتقدير فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس - تلك المملكة التى عرفت باسم مملكة داود- والواقع أن أحد الملوك الصليبيين قد توج فى مدينة بيت لحم*، وكان تتويج الملوك الصليبيين فى مدينة بيت لحم أمراً متكرراً بصورة أكبر عن التتويج فى مدينة القدس. وكان لهيرودس اسم آخر هو فولكيا Fulcia وقد صور هذا الملك فى شكل شخص يقلد السيد المسيح ويتبع خطواته . وفى نفس الوقت كانت هذه الصورة تشير إلى الملك الصليبى فولك، زوج الملكة ميليسندا صاحبة هذا المخطوط . وبشكل عام فقد كانت محتويات هذه الصورة تتبع الموضوعات الفنية المعروفة ، مثل الصراع الأزلى بين الخير والشر، واعتمدت هذه الموضوعات الفنية على قصيدة شعرية ترجع إلى القرن الرابع الميلادى وهى قصيدة الحكمة والتبصير.

---

* لقد رفض الملك بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨) أن يتوج ملكا فى بيت المقدس على يد رجال الكنيسة اللاتينية، واختار مدينة بيت لحم مكانا لتتويجه وأعلن أنه قد تلقى الملك بنعمة من الله، ولذا أعلن منذ الوهلة الأولى عدم خضوعه للبطريرك اللاتينى (المترجم) .

أشارت النقوش نفسها إلى أصل هذا الفنان وموطنه ، على الرغم من أن ثمة اتفاق عام يؤكد أن هذا الفنان كان من أصل أوربى، وعلى خلاف ما سبق ، فإن الملابس والأسلحة الخيالية التى ظهرت فى المخطوطات ذات الزخارف الذهبية والتى تضمنتها زخرفة مخطوطة المزامير الخاصة بالملكة ميليسندا توضح أنواع هذه الملابس والأسلحة التى كانت شائعة فى القرن الثانى عشر الميلادى، كما أن هذه الدروع والملابس قد وجدت فى أوربا وفى المملكة الصليبية فى بيت المقدس. وربما يعكس الامبراطو رالبيزنطى هذه الحقيقة إذ إن التعبير عن النزعة التى ذكرناها آنفا قد اتضحت وتبلورت فى ميل بعض الحكام الصليبيين إلى تقليد أعظم عاهل مسيحى. ولم نعرف كثيرا عن نوع الزخرفة التى كانت شائعة فى كل من الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى على الرغم من ظهور التصميم الزخرفى الشرقى. ومن المحتمل أن الفنانين والرسامين الأوربيين قد دلفوا إلى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين من جنوب إيطاليا (وهى المنطقة التى كانت مجالا لانتشار الثقافة البيزنطية) وهم الذين نقشوا الزخارف على أغلفة مخطوط الملكة الصليبية ميليسندا.

وعندما نلقى نظرة على الفنون المختلفة التى مارسها الرسامون والفنانون فى مملكة بيت المقدس الصليبية يتبين لنا صورة متكاملة لهذه الفنون المتعددة والمختلفة، ويتبين لنا أيضا الاختلاف فى درجة إتقان هذه الأعمال وإبداعها. فقد انتشر عدد كبير من الأغراض الفنية طوال فترة تزيد عن قرنين من الزمان، وليس من السهل تقييم هذه الأغراض الفنية والإبداعات وأن هذا التقييم يتوقف على المصادفة، ومع ذلك فإن بعض الآراء العامة المتعلقة بهذا التقييم يمكن أن تكون مقبولة.

ومن الواضح أن المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام لم تصبح فى يوم ما مركزا للإبداع الفنى الأصيل . وثمة شك حول ما إذا كان الفنانون الذين أنجزوا الأعمال الفنية التى حفظتها لنا الأيام ضمن السكان المستوطنين الدائمين فى المملكة الصليبية ومن المحتمل أن هؤلاء الفنانين قد تربوا فى أوربا ، ونهلوا من المعارف الفنية الأوربية، ثم هاجروا إلى منطقة الشرق العربى ومارسوا هناك فنونهم وابداعاتهم. ولم نعرف ما إذا كان هؤلاء الفنانون قد بقوا فى هذه المناطق الصليبية أو تركوها وغادروها بعد فترة طويلة إلى أوطانهم فى أوربا. وفى بعض الأحوال لانجد دليلا أو برهانا مقنعا يؤكد نشأة مدارس الفنون المحلية فى بلاد الشام وفلسطين، وتعتمد عملية نسب المخطوطات المزخرفة بالذهب والفضة بشكل أساسى إلى

مدينتى القدس وعكا على النشأة الزمنية لهذه الإبداعات الفنية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، ولم تعتمد كثيرا على السمات والخصائص المميزة لهوية المكان الأصلى لهذه الإبداعات الفنية والتى ربما تكون حقيقية.

وثمة سؤال يطرح نفسه وهو إلى أى قطر يمكن أن ننسب زخرفة المخطوطات بالذهب والفضة والألوان الساطعة وكذلك فن النحت وعلى الواجهات الزخرفية للمنشآت المعمارية؟! ولايمكن أن نعزو مثل هذه الزخارف إلى مركز محدد فى الغرب الأوربى، فقد تركت أقاليم أوربية مثل لانجدوك وبروفانس وبرجانديا وشامبانى تأثيرها الفنى على الرخام والأحجار فى فلسطين، وفى نفس الوقت ، خلد البناؤن الشرقيون التقاليد البيزنطية فى فن النحت ولاسيما الفرع الفنى غير المجازى.

وهكذا ، فإنه من الصعب بمكان تقييم الإبداع الفنى بشكل عام فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس. ولايمكن تقييم الأغراض الفنية المختلفة فى عبارات ومصطلحات محلية، بيد أنه فقط يمكن مقارنة هذه الإبداعات الفنية التى عرفتها المملكة الصليبية بالنماذج والإبداعات الفنية الأوربية والبيزنطية المعاصرة لها. وبهذه الطريقة يمكن تحديد معيار المقارنة- مع بعض الاستثناءات القليلة (مثل رؤوس تيجان أعمدة كنيسة البشارة فى الناصرة والمجلدات المزخرفة بالذهب والفضة والألوان الساطعة والتى أنجزت فى مدينة عكا) ويمكن القول إن الإبداعات الفنية فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس لم تصل إلى المستويات الراقية التى كانت عليها الفنون الأوربية) أو البيزنطية المعاصرة والاستنتاج الواضح هو أن كبار الفنانين الأوربيين فى الفترة الصليبية لم يهاجروا إلى المملكة الصليبية فى بيت المقدس وإنما الذين هاجروهم صغار الفنانين فقط.

ومما يذكر أن منطقة الشرق العربى الإسلامى فى فلسطين وبلاد الشام تركت تأثيرها على الصليبيين فى مجال النشاط والإبداع الفنى. فقد ظلت أعمال الفسيفساء فنا تنفرد به مناطق الشرق هذه وظل هذا الفن يتبع التقاليد الفنية البيزنطية والإسلامية. وليس لدينا أشياء مادية تساعدنا فى دراسة التبادل الفنى فىّ مجال الفسيفساء بين الفن الشرقى والفن الغربى الأوربى. وما وصفه لنا الحجاج المسيحيون الأوربيون الذين زاروا هذه المناطق الصليبية وما بقى من هذا الفن فى شكل لوحات كان شرقيا من حيث الفكرة والتنفيذ.

ويمكن أن نتبين التأثيرات الشرقية فى مجال الفنون الثانوية Minor Arts مثل أعمال

القاشانى (السيراميك) وبعض جوانب العناصر الزخرفية فى المنشآت المعمارية . وقلما كان يختلف القاشانى (الشيراميك) الصليبى عن نظيره العربى أو المملوكى من حيث الصناعة، فقد عثر فى بعض المواقع التى أجريت فيها حفائر أثرية على أشكال وصور (رجال دين - صلبان ، بعض الرموز المسيحية الأخرى) ترجع إلى الحقبة الصليبية، وتلك إشارة إلى حقيقة أن الصناع المحليين من المسيحيين والمسلمين قد قاموا بصناعة القاشانى ، وهم الصناع الذين مارسوا مهنتهم بالطريقة التقليدية، بيد أنهم عندما تعهدوا بتقديم هذه المنتجات إلى زبائن جدد ، كان عليهم أن يستجيبوا للمطالب الجديدة حيث استهلاك المجتمع الصليبى الجديد، وذلك بإنتاج أشكال ورموز إضافية تتفق وأذواق المجتمع الجديد.

وإذا كان الفن الشرقى فى صناعة القاشانى (السيراميك) قد ترك تأثيره على هذا الطراز من الفنون ، فإننا أيضا نجد أن الفن الشرقى قد ترك تأثيره أيضا على المقومات الزخرفية للمنشآت المعمارية. ولم تكن هذه المقومات الزخرفية الشرقية بالقدر الكافى الذى يضفى على البنايات الصليبية الطابع الشرقى، بيد أن هذا يشير إلى حقيقة أن بعض البنائين وكبار العمال كانوا من السكان المحليين الذين استخدموا مهارتهم وبراعتهم الحرفية فى بناء المنشآت الصليبية التى نفذوها وفقا للتصميمات الهندسية التى وضعها لهم المهندسون الأوربيون. فقد قام البناؤن والفنانون المحليون المسيحيون بتنفيذ ونحت تيجان الأعمدة والافريزات فى كنيسة الضريح المقدس، وهم العمال الذين استمروا فى تنفيذ التقاليد الفنية البيزنطية الاقليمية.

وتبرهن الوثائق الفنية الموجودة على أنه حدث تطور حقيقى فى مجال البراعة الفنية لزخرفة المخطوطات بالذهب والفضة والألوان الساطعة ، بيد أنه لاتوجد أشياء مادية من الأعمال الفنية لتقييم أعمال النحت والفسيفسائية والعمارة، وهى الفنون التى وجدت فى المملكة الصليبية خلال مدة قصيرة لم تزد عن خمسين عاما. والتطور فى حد ذاته من الأمور الشيقة ، وذلك لأن هذا التطور يوضح التحول من أسلوب فنى تعوزه الدقة والجودة - حتى فى مجال النسخ- إلى أسلوب فنى أكثر تحرراً ويتبع النماذج الفنية الأقل تقليدا. وفى نفس الوقت فإن أعمال النحت وزخرفة المخطوطات بالذهب والفضة والألوان الساطعة على حد سواء توضح سمة متأصلة فى المجتمع الصليبى: إذ كانت مثل هذه الفنون غير ملائمة للذوق الأوربى، على الرغم من وجود الأنماط الفنية الشرقية الممتازة التى اصطبغت باللون الشرقى المحلى. فالنحات الذى قام بنحت التيجان الجميلة لكنيسة البشارة فى الناصرة استخدم الأحجار المحلية فى عمله

الفنى هذا، على الرغم من أنه لم يرسم الصور الظلية الشرقية المزودة بالقباب والأسقف المسطحة . وكان هذا النمط المعمارى الفنى يتفق مع صورة المدن الأوربية والطريقة التقليدية فى نسخ صورة هذه المدن. وكانت زخرفة الكتب والمخطوطات بالذهب والفضة ظاهرة غريبة، إذ كانت هذه الزخارف تصور رسومات تتعلق بالإنجيل فى أرض الإنجيل (فلسطين) ، وقلما كان الفنان يحاول رسم المناظر التى تحيط به فى حياته اليومية، كما كان نادرا ما يستخدم الأغراض الفنية ذات الصلة بالعادات والتقاليد المحلية. وإذا كان الفنانون فى القرن التاسع عشر الميلادى قد قبلوا الشياب العربية كملابس تلائم الأشخاص الذين يمثلون الإنجيل المقدس، فإن فنانى ورسامى فلسطين وبلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك ميث صوروا شخصياتهم ترتدى بعض الملابس غير شائعة الاستخدام فى الأراضى المقدسة. فقد رسم الفنانون الشرقيون الصور التى ترتدى القبعات الفرنجية أو أغطية الرأس الغريبة. وهذا يوضح كيف كان الفنانون والرسامون الأوربيون يقلدون الأنماط الفنية الشرقية. ويمكن تصور الأذواق والأفكار الأوربية سلفا من خلال وضع صورة الشخص فى وسط اللوحة.

والحقيقة أن ظروف وأحوال الفنان الأوربى كانت تشبه تماما ظروف وأحوال كل المفكرين والمبدعين الآخرين. فلم يهاجر أغلبية المفكرين الأوربيين من الشعراء، وعلماء اللاهوت ، والعلماء، والمؤرخين إلى الامارات الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين أو الاستيطان والاستقرار فيها. فقد ذهب بعض هؤلاء المفكرين إلى هذه الأراضى المقدسة من أجل تأدية الحج إلى المزارات المقدسة، وقد دونوا مشاهداتهم خلال رحلات الحج هذه فى صورة ابداعات أدبية (أدب الرحلات) ، واهتم الشعراء فى قصائدهم بالحج إلى فلسطين والأراضى المقدسة، واقتبسوا الأغراض الفنية الشعرية الجديدة من منطقة الشرق العربى الإسلامى، وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية والأرض المقدسة أصبحت موضوعًا مهمًا من الموضوعات الشعرية فى الشعر الأوربى المعاصر للفترة الصليبية ، فإن هذا الشعر قد اكتسب نوعًا مهذبًا من الإثارة (العظات والنصائح من أجل الذهاب إلى الأراضى المقدسة) ، ونادراً ما أصبح الشعراء الوعاظ أرباب مهنة.

الفصل الثامن عشر

تراث الفترة الصليبية

أ- الحروب الصليبية كحركة استيطانية استعمارية

لقد بلغت أوربا درجة النضج الحضارى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى. حيث التقت الخطوط التاريخية لفترة الخمسمائة عام الثانية من الألفية الأولى فى نمط حضارى كالذى نراه اليوم فى الملامح والسمات الحضارية التى تميز عصرنا الحالى. وخلال الخمسمائة عام التالية للقرن الحادى عشر تفجرت فى أوربا الطاقة والحيوية التى انتشرت فى كل أنحاء المعمورة، حيث تفرقت شعوب العالم وامتزجت مع بعضها البعض ، وانتشرت المؤسسات والثقافة.

وكانت الحروب الصليبية من الناحية التاريخية تتوسط الفترة التاريخية المحصورة ما بين انهيار الامبراطورية الرومانية وبين العصر العظيم للكشوف الجغرافية ، وتمثلت نتائج الحروب الصليبية الملموسة فى انتشار وتأسيس المستعمرات والمستوطنات الأوربية فيما وراء الحدود الطبيعية لقارة أوربا . ومن وجهة النظر التاريخية ، كانت الحروب الصليبية منهاجًا صريحًا للتوسع الأوربى الخارجى الذى كان ارهاصا لحركات الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث.

والواقع أن الاستيطان والاستعمار لم يكن ظاهرة حديثة . فقد وجدت نماذج كثيرة للمستوطنات فى العالم فى فترة ما قبل التاريخ المدون وأيضا خلال عصور التاريخ القديم . ومن المحتمل أن الاستيطان كان نتيجة من نتائج السلام، أو الحرب أو الهجرة . وعندما أصبح عنصر الهجرة عاملا مهمًافى تكوين حكومة ودولة جديدة فإن هذه الهجرة استطاعت أن تخلق ظاهرة استيطانية . وأحيانا كان مصطلح «الاستيطان» يستخدم بشكل شخصى وذلك بالنسبة للهجرات الجرمانية فى العصور الوسطى الباكرة، وهى الهجرة التى أطلق عليها المؤرخون الألمان اسم «هجرة الشعوب Völkerwanderung »، بيد أن هجرة هذه الشعوب الجرمانية قد عرفت باسم غزوات البرابرة (وعرف هذا الاسم فى كل اللغات الرومانسية).

وإلى أن حدثت الحروب الصليبية، كانت الحركات الاستيطانية التى تركت تأثيرها المهم والمستمر على الحضارة العالمية تتركز حول منطقة شرق البحر المتوسط ، وهى الحركات

الأقطار العالمية الممتدة على شواطىء البحر المتوسط. وهى الثقافة التى كانت تتطابق عمليا مع الشكل الجمهورى للدولة الرومانية . وكانت الحدود المثالية للتقليد الاستيطانى فى العصر القديم تأتى فى نطاق تعبير جغرافى عرفه الرومان وهو كلمة «بحرنا mare nostrum »* وكان هذا التعبير الجغرافى يمثل وجهة النظر الأوربية ، التى رأت فى الحضارات اليهودية، والمسيحية، والهللينية والرومانية أنها تمثل المقومات الأساسية لدعائم الثقافة والحضارة الأوربية. وعلى النقيض لما سبق ، فإن الصليبيين لم يجلبوا معهم التراث المشترك لعالم البحر المتوسط عندما حضروا إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى؛ وعندئذ حمل الصليبيون معهم تراث وتقاليد الثقافة الأوربية . فقد كان الصليبيون ينتمون إلى الفرع الغربى من الكنيسة العالمية وهى كنيسة روما ، حيث تربوا على التقاليد الأوربية، وعاشوا فى عالم بنفس المفاهيم والاتجاهات الغربية الأوربية، واعتمدوا فى تصنيفهم الاجتماعى على نفس المفردات المنطقية العرقية والأيديولوجية. وليس من قبيل المصادفة أن يطلق المسلمون على الصليبيين الأوربيين اسم «الفرنجة» ، أو أن يطلق مؤلفو الحوليات التاريخية المسيحية هذا الاسم على الفرنسيين الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية باعتبارهم الغزاة الأوربيين فى الشرق.

وإذا كانت الحروب الصليبية تتميز عن حركة التوسع الاستيطانى الاستعمارى فى منطقة البحر المتوسط فى العصر القديم من حيث دورها فى نشر كل الثقافة الأوربية، فإن نفس الفكرة العامة تشكل الروابط بين هذه الحروب الصليبية وبين حركة الكشوف الجغرافية العظيمة، وإذا كانت ثمة فجوة زمنية تقدر بألف عام تفصل بين الحركات الاستيطانية الاستعمارية اليونانية والرومانية وبين الحركة الاستيطانية الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، فإنه كان يوجد تواصل واستمرارية بين الحروب الصليبية وبين اكتشاف جزر الكنارى واكتشاف نصف الكرة الغربى (الأمريكتين).

وبوقوع الحروب الصليبية يجب أن نترك جزئيا منطقة البحر المتوسط باعتبارها مركزا استيطانيا - وذلك لأن الصليبيين حضروا من الشمال الأوربى إلى ميدان جديد للصراع-

---

* أطلق الرومان على البحر المتوسط لقب «بحرنا» ولاسيما فى أثناء فترة التوسع الرومانى وامتداد حدود الامبراطورية الرومانية حيث كانت تشمل معظم أنحاء العالم ماعدا بلاد الصين والهند وفارس (المترجم) .

وعلى الرغم من رجحان وتفوق المناطق الواقعة ما وراء جبل الألب ، فإن مناطق البحر المتوسط قد لعبت دوراً مهمًا فى الحركة الاستيطانية الاستعمارية . ولم يرجع السبب فقط إلى تأثر مناطق البحر المتوسط المباشر بهذه الحركة الاستعمارية ، ولكن أيضا لأن أمم وشعوب عالم البحر المتوسط قد امتصت وادخرت التراث الاستيطانى للحروب الصليبية، هذا التراث الذى كان بمثابة حافز وخطوة ناشطة فى مستقبل المشاريع الاستيطانية . وعندما نمحِّص جانبًا من جوانب التاريخ الاستيطانى الصليبى نجد اختلافا جوهريًا بين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الأولى وبين كل المهاجرين الذين حضروا فى أوقات تالية للحملة الصليبية الأولى ، سواء كانوا من الذين تم استدعاؤهم للمشاركة فى الحروب الصليبية أو من غير الذين تم استدعاؤهم لهذا الأمر. ففى المقام الأول يجب أن نشير إلى السمة الجماهيرية للحملة الصليبية الأولى، حيث غادر عشرات الألوف من المحاربين الصليبيين أوطانهم وذويهم وتحركوا صوب أراض جديدة فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى فلسطين وبلاد الشام. ولم تكن مثل هذه الميزة والسمة الجماهيرية من سمات الحروب والحملات الصليبية التى تحركت تباعا بعد الحملة الأولى أو من سمات الهجرات السلمية للأوربيين التى تقاطرت خلال فترات الهدنة التى تخللت الحملات العسكرية. والحقيقة الأكثر لفتا للنظر هى أن الحملة الصليبية الأولى لم يتم لها الإعداد الكافى. ولم تكن هناك محاولات باكرة للغزو سبقت الحملة الصليبية الأولى ولو على نطاق ضيق فلم تكن هناك تجربة ، أو قائد طائرة ، أو رواد مغامرون يساهمون فى تألق هذه المحاولة. وعلى حد تعبير المؤرخين الذين أخذتهم الدهشة، فإن الحملة الصليبية الأولى كانت بمثابة هجرة جماعية من أوربا ، ويبدو أن هذا التعبير أكثر صحة ومنطقية من ذلك التعبير الذى يطلق على الجماهير التى تحركت على أثر انفعال دينى عاطفى . ومثل هذا لايتضمن حقيقة أن كل فرد من أفراد الحملة الصليبية الأولى كان يتحرك وفق إرادته وآماله ورغبته الخاصة، وتطلعا إلى الثراء أو إلى أى شكل آخر من اشباع الرغبات. ومع ذلك ، فإن المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى لم يتحركوا بفعل جملة هذه الآمال والرغبات المتوقعة أو بفعل أيديولوجيتها- والتى حركت مئات الآلاف من المشاركين- التى لم تستطع أن تخفى الرغبة الملحة لهؤلاء المشاركين فى تحقيق مكاسب وأرباح دنيوية . وكذلك فإن كثيراً من هؤلاء المشاركين قلما كانوا يتخلون عن مصادر رزقهم العادية- وإن لم تكن وفيرة - لكى يقتحموا غمار مغامرة مجهولة العواقب. ولم تختلف الحركات الاستيطانية الاستعمارية المستقبلية من حيث الجوهر عن الحملة الصليبية الأولى. وإذا كان بعض المشاركين فى الحروب الصليبية يعرفون قليلا عن أرض

الهجرة (الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام)، فإنهم أيضا كانوا على دراية بحجم المخاطر والأهوال والصعوبات التى سوف تواجه المغامرين الصليبيين . وهكذا فإن السمة الجماهيرية الغوغائية للحملة الصليبية الأولى* والتى تمثلت فى عدم الاستعداد الكافى والباعث كانت تختلف عن أي حركة توسع واستيطان أخرى.

لقد كانت السمة الغوغائية للحملة الصليبية الأولى (الحملة الشعبية) ترتبط أساسًا بمشكلة الإنسان الذى شارك فيها . إذ كانت عدم الأهمية النسبية المادية ذات تأثير على التركيب البشرى لجموع المشاركين فى هذه الحملة . فقد وجدت القوى والعوامل النموذجية فى كل المشروعات والمغامرات الاستيطانية - بمعنى أن العامة والذين كانوا يعيشون على هامش المجتمع هم الذين قاموا بمثل هذا الدور الرئيسى فى التاريخ الاستيطانى - وقلما لعبت هذه القوى النموذجية دورا حاسمًا فى أحداث الحملة الصليبية الأولى (حملة الفرسان). وإننا نفتقر إلى معرفة مدى سوء التوافق والانسجام الذى كان يميز هؤلاء المغامرين والمنبوذين سواء كانوا من القراصنة أو من اللصوص الذين يبتزون ويغتصبون أموال التجار، أو كانوا من المبشرين ، أو من نبلاء المجتمع المنبوذين (البارونات اللصوص) . وباعتراف الجميع ، لم تكن جيوش الحملة الصليبية الأولى (الحملة الشعبية) جموعًا من القديسين . ومن المؤكد أن جموع المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى كانت تضم فى صفوفها اللصوص ، والقتلة، والزناة، والآبقين والمجرمين والهاربين من العدالة، وأناسا من طبقة هامشية مشاكسة فى المجتمع . بيد أن هذا النوع من الجماهير لم يكونوا روادًا مكتشفين . إذ كانوا عبئًا ثقيلاً على عاتق أولئك الذين تحركوا بمحض إرادتهم ، وعلى الرغم من أن هذه المغامرة والإقدام كانت تتفق مع واقع حياتهم الخاصة، فإن إقدامهم على الخطوة الأولى للهجرة كانت رغما عن إرادتهم بسبب واقعهم الحياتى البائس. لقد كانت الجموع الأساسية المشاركة فى الحملة الصليبية الأولى جزءًا من المجتمع المستقر . فلم يكن هؤلاء الذين ذهبوا إلى الشرق من النبلاء، أو الفرسان ، والرجال

---

* المقصود بالحملة الصليبية الأولى الغوغائية هى الحملة الشعبية التى تحركت فى ربيع عام ١٠٩٦م والتى لم تتضمن عددًا كبيرًا من الفرسان المحترفين، بل ضمت بين صفوفها أصنافا كثيرة من البشر، الزناة، واللصوص ، والمجرمين، والفلاحين، والأقنان، وكان بطرس الناسك أبرز قادة هذه الحملة الشعبية. وقد انتهت هذه الحملة بالفشل الذريع ، حيث تبددت دماء مقاتليها على رمال آسيا الصغرى على يد سيوف الأتراك السلاجقة (المترجم) .

الأحرار أو رجال الدين والأقنان من المنبوذين فى المجتمع، بل كانوا بمثابة عينة تمثل جميع طبقات المجتمع الأوربى آنذاك . ولم يكن قادة هذه الجموع الصليبية من الغزاة الذى يحظر عليهم اقتسام الغنائم ، ولكنهم كانوا يمثلون جزءًا تقليديًا من الكيان الأوربى الذى تأسس فى منطقة الشرق العربى.

ومما يذكر أن الجموع الغفيرة من جيوش الحملة الصليبية الأولى قد زحفت وهى ترفع شعارات أيديولوجية ، وتمثل هذا الشعار الأيديولوجى الصليبى فى تحرير الضريح المقدس وتخليصه من يد المسلمين الهراطقة. واستطاعت هذه الأيديولوجية وسط الحماسة الدينية المتأججة أن تخلق نوعًا من الهوس والجنون الذى لم يترك مجالا أو فرصة لتدبير خطة سياسية أو اقتصادية واعية. وتذكر عدد كبير من المصادر التاريخية المعاصرة أن قادة الحملة الصليبية الأولى لم تكن لديهم خطة مسبقة لتحرير الضريح المقدس فى المستقبل . ويعتبر صمت كل المصادر التاريخية عن ذكر أية خطة صليبية لدى الصليبيين فى الحملة الأولى خير دليل على عدم صياغة الأهداف السياسية لهذه الحملة. ولايمكن أن نتصور أى هدف سياسى لها يفوق هدف انقاذ مسيحى الشرق. وحدث تغير كبير فى سلوك ومزاج جيوش الحملة الصليبية الأولى طالما أنهم كانوا يسعون لتحقيق هذا الهدف . فقد استغرقت رحلة الزحف الصليبى صوب الشرق ما يقرب من ثلاث سنوات. ومن ناحية القدرة البشرية، كان من الصعب على جيوش الحملة الصليبية الأولى الاحتفاظ بروح الحماس الدينى المتأجج لمدة ثلاث سنوات متتالية. فقد ارتكب جنود الرب الكثير من الجرائم البشعة والانتهاكات المخزية فى أثناء زحفهم المقدس خلال أراضى منطقة آسيا الصغرى، كما ارتكب القادة الصليبيون أمثال بلدوين وتانكرد مثل هذه الانتهاكات والجرائم فى أثناء زحفهم فى قليقيا حتى وصلوا فى النهاية إلى الرها. وبعد أن أحرز الصليبيون نصراً مؤزراً عند أنطاكية ، ظهرت هناك حقيقة جديدة وواقع جديد تختلف عن المثال الذى رفعه الصليبيون ، حيث تفرقت قوات الحملة الصليبية الأولى (حملة الفرسان)، وذهب كل قائد يبحث لنفسه عن مكاسب اقليمية فى المناطق المحيطة بانطاكية، يحتل القرى والمدن ، ويضمها إلى حوزته . وفى غضون ستة أشهر قضاها الصليبيون فى أنطاكية تجلى الإفلاس الأخلاقى والأيديولوجى الصليبى، وكشف زيف الدعاوى والشعارات التى رفعها رجال الدين الكاثوليك فى أوربا: فقد نسى أو تناسى قادة الحملة الصليبية الأولى مدينة بيت المقدس والضريح المقدس؛ واقتنع القادة الصليبيون بما حصلوا عليه من مكاسب دنيوية فى

أنطاكية وشمال بلاد الشام ولم يصروا على مواصلة الزحف صوب منطقة الشرق العربى فى فلسطين وبلاد الشام لتحرير المقدسات المسيحية هناك. وعلى الرغم من تفجر بركان الأطماع الدنيوية الصليبية فإن القادة الصليبيين- باستثناء الأمير الصليبى بوهمند، الذى كان من أشهر مؤسس الكيان الصليبى- لم يفكروا بلغة سياسية واحدة. وكان جل تفكيرهم ينحصر فى الحصول على الغنائم والأسلاب. وليس هناك أكثر دليل من «قانون الغزو» The Law of Conquest الذى أصبح منذ فترة باكرة جزءاً من تشريع المملكة الصليبية . ووفقا لقانون الغزو هذا، فإن القائد الصليبى الذى يرفع رايته ويبرقه فوق أى موضع يتم غزوه فى منطقة الشرق العربى، مثل منزل، أو فرن يصبح هذا الموضع ملكا خالصًا لاينازعه أحد. ومهما يكن من شىء، فإن الصيغة المضبوطة لهذا القانون والتى تحددت فى إطار الأفكار الخاصة بالسلطة والهيراركية الاقطاعية (تسلسل الرتب والدرجات الاقطاعية) لهذه الفترة كانت ترى أن أية دعوى ترفع من أجل اثبات الملكية بين الفرد وبين المالك الحقيقى للضيعة تمثل باختصار تشجيعًا للغزو ودعامة قوية له. ويبدو أن هذا القانون كان دلالة على التحول من الشكل الدينى للدولة الصليبية إلى الشكل السياسى .

والحقيقة أن مثل هذا التحول واجه معارضة قوية من جانب رجال الدين ومن بعض المتدينين. فقد حاولت العناصر المخلصة للتعهد الأصلى من الجموع الصليبية التى شاركت فى الحملة الصليبية الأولى الوقوف والتصدى لهذه النزعة العلمانية الجديدة. وهدد هؤلاء المتحمسون من المتدينين الصليبيين بحرق المدن التى احتلها الصليبيون فى منطقة أنطاكية إذا لم يواصل قادة هذه الحملة الزحف العسكرى صوب مدينة بيت المقدس. وكان هذا التهديد ذا فعالية وقوة ضاغطة على هؤلاء القادة ، حيث تحركت القوات الصليبية صوب الجنوب إلى فلسطين وبلاد الشام. بيد أن هذا التحرك كان مجرد نصر خاطف أحرزه صغار المحاربين الصليبيين المتحمسين دينيًا. إذ حدث نزاع بين أصحاب الاراء الراديكالية من القادة الصليبيين وكان هذا أمراً حتميا وحدث هذا الخلاف والصراع بين القادة الصليبيين قبيل احتلال مدينة القدس. ولكن ترى ما الذى جعل فريقا من المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى ولاسيما الفقراء منهم الذين انحدروا من أوساط الفلاحين وصغار رجال الدين، ومن صغار الفرسان يعارضون قيام أى نوع من الحكومة فى أنطاكية وذلك تحت تهديد الإرهاب والاغتيال؟! وقد تم إقناع القادة الصليبيين بصعوبة من أجل مواصلة الزحف لتحرير مدينة القدس . كان الفقراء من المشاركين الصليبيين المحاربين يتوقعون الارتقاء إلى مملكة الرب التى قدر لها الهبوط إلى جبل صهيون والأشياء

الاجتماعية المصاحبة لهذه المملكة السماوية ، فقد تحقق الحلم الإنسانى الألفى بخصوص إقامة العدالة المطلقة : فالفقير هو المختار والمصطفى لدى الرب، وهو أول من يدلف إلى مملكة القدس السماوية . وخلال التنافس بين الحزبين المتصارعين الآخرين من القادة الصليبيين ، طالب قادة أحد هذين الحزبين بضرورة أولوية انتخاب ملك صليبى علمانى للملكة الصليبية فى حين نادى قادة الحزب الآخر بضرورة وأولوية انتخاب بطريرك لاتينى لكنيسة بيْت المقدس، ولم يعلق هذان الحزبان المتنافسان أفكاراً ثورية. إذ كان كل منهما يمثل الوضع القائم ، على الرغم من أنهما لم يتفقا على أسبقية وحيوية أى الأمرين (اختيار الملك العلمانى أم اختيار البطريرك اللاتينى).

وبعد هذه المواجهة المضنية بين الحزبين المتصارعين تم انتخاب أحد قادة جيوش الحملة الصليبية الأولى وهو جودفرى البويونى كأول حاكم علمانى للملكة الصليبية الوليدة فى بيت المقدس من أجل حماية الأراضى والأقاليم التى تم غزوها . وكان اختياره حاكما بمثابة مرحلة حاسمة ومنعطف مهم فى تاريخ الحروب الصليبية، وأيضًا كان هذا الاختيار يمثل نقطة مهمة فى الأيديولوجية الصليبية : حيث ساهم قرار اختيار جودفرى البويونى فى إنشاء مملكة أوربية ومجتمع أوربى فى الأراضى المقدسة فى فلسطين. وعلى أى حال ، فإن الغموض الذى اكتنف المجتمع الصليبى لم يتم الكشف عنه تمامًا . واتخذ جودفرى لنفسه لقب «حامى الضريح المقدس» ، وهو لقب غامض ، لم يشر إلى مهمة بذاتها فقط ، بل أيضا كان هذا اللقب يؤكد الدعاوى الصليبية الباكرة ، ولم يخلع جودفرى على نفسه لقب «ملك» ، إذ لم يصل الكيان الصليبى فى عهده إلى مستوى الدولة، فلم يزد هذا الكيان السياسى عن كونه وديعة وأمانة بين يدى جودفرى وظلت كذلك حتى آخر قرار مهم أصدره هذا الحاكم الأول. لقد تأكد الولاء للماضى من خلال الشروط والالتزامات المادية التى تعهد بها جودفرى البويونى، حيث اعترف بتبعيته الاقطاعية للبطريرك اللاتينى وتعهد بأن يتنازل للبطريرك عن ملكية مدينة بيت المقدس ومدينة يافا. فقد كانت الالتزامات والتعهدات التى اضطلع بها جودفرى من الشروط التقليدية الاقطاعية التى دونت فى أحد المصادر التاريخية التى عرفت فى أوربا فى ذلك الوقت . بيد أن هذه الشروط والقيود كانت تعبيرا عن حقائق متداولة تختلف تمامًا عن تلك الشروط المعروفة فى قانون التبعية الاقطاعية المعروف فى أوربا آنذاك، بمعنى أن أسس وتظم الأمور الدنيوية الأخرى قد صيغ بلغة الخضوع للكنيسة ، ومع ذلك فإن الرهن والدين الأيديولوجى الصليبى لم يف به الملوك الصليبيون بشكل كامل.

وأخيراً لم يتم الوفاء الكامل بالدين الأيديولوجى الصليبى من جانب الملوك الصليبيين فى نهاية عام ١١٠٠م، أى بعد عام ونصف من احتلال مدينة بيت المقدس. فقد جاء بلدوين الأول ليخلف أخاه جودفرى البويونى الذى ودَّع دنياه فى عام ١١٠٠م فى حكم المملكة الصليبية ، وتم تتويجه فى كنيسة المهد فى بيت لحم. ورفض بلدوين الأول أن يطلق على نفسه لقب «حامى الضريح المقدس» ذلك اللقب الفضفاض الغامض ، بل اتخذ لنفسه لقب «ملك بيت المقدس» . وبعد صراع بين المثال والواقع انتصر الواقع أخيرا على المثال الصليبى. إذ كان تحرير الضريح المقدس يعنى تأسيس مملكة مسيحية فى فلسطين . وكان الغزاة الصليبيون مصدر القوة لمجتمع ومواطنى هذه الدولة الصليبية الجديدة. وانتهت فكرة تحرير الضريح المقدس- دون تخطيط للأيام المقبلة- إلى إنشاء وقيام مستوطنة لاستقرار هؤلاء الذين حضروا إلى الأراضى المقدسة من الصليبيين والذين سوف يحضرون إلى هذه المملكة الصليبية الوليدة فى منطقة الشرق العربى الإسلامى.

واعتمد القرار المنطقى بانشاء المستوطنة الصليبية على طريقة واقعية لفهم المؤسسات والمجتمع البشرى، على الرغم من أن هذا القرار كان يحتاج إلى تفسير وتبرير. فقد تم إضفاء الشرعية على الغزو الصليبى فى تناغم مع المنطق الدينى والأخلاقى لهذه الفترة . واستطاع البابا اربان الثانى Urban II وصف شرعية هذا الغزو ، ووضع التبرير الدينى لهذه الحركة الصليبية وذلك من خلال حق المسيحية الشرعى فى امتلاك أرض الميعاد* فى فلسطين ، بيد أننا نجد أن هذا المبرر البابوى الدينى للحروب الصليبية قد تطور بعد الاحتلال الصليبى لمدينة القدس. وآية ذلك، الحوار الخيالى الذى دار بين البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس وبين السكان المسلمين فى مدينة قيسارية فى أثناء الحصار الصليبى لها فى عام ١١٠١م . إذ قام البطريرك بتقديم نصائحه الإنجيلية لسكان مدينة قيسارية المسلمين والخاصة بتحريم الإنجيل لسفك الدماء والاستيلاء على أملاك الغير بالقوة . وعندما تحدى السكان المسلمون فى قيسارية حجة وموعظة البطريرك اللاتينى تحدث إليهم قائلاً : «والحقيقة أن ديننا المسيحى يحرم القتل

---

* يلجأ المؤلف أحيانا إلى ذكر مفردات توراتية لخدمة الأغراض السياسية للصهيونية ، ولاثبات الحق المزعوم لاسرائيل فى فلسطين ، وتلك أمور اعتدنا رؤيتها مرارا وتكرارا فى ثنايا هذا الكتاب، وذلك يمثل انحرافًا عن الموضوعية التاريخية لمؤرخ يهودى متخصص فى تاريخ الحروب الصليبية مثل يوشع براور (المترجم).

والسرقة ويأمرنا ديننا ألا نرتكب هذا ولاذاك . بيد أن مدينة قيسارية ليست ملككم أيها المسلمون، ولكنها كانت ملكا للقديس بطرس الرسول، وسوف تظل ملكا له، وأجدادكم قاموا بطرد القديس بطرس من مدينته بالقوة . وإذا أردنا نحن نواب القديس بطرس أن نسترد مدينته ، فإن ما نفعله من استرداد لأملاك القديس بطرس ليس من قبيل السرقة أو الاغتصاب لمدينتكم ».

وهكذا كان الغزو الصليبى لمدينة قيسارية شرعيًا ، وظلت هذه الشرعية تفسر باستمرار من جانب رجال الدين اللاتين فى المملكة الصليبية . وكان الغزو الصليبى وتأسيس المملكة الصليبية فى بيت المقدس يوصف بأنه استرداد ، أو استعادة الأملاك المسيحية من يد المسلمين، وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين.

وترددت نفس هذه الفكرة فى التاريخ من أجل توحيد المملكة الصليبية الجديدة على أساس الصليب القديم. واستطاعت الأسرات الحاكمة المبجلة فى العصر القديم تشييد مملكة فى هذه الأراضى المقدسة ولم تكن هذه المملكة هى مملكة بيت المقدس فحسب، بل كانت أيضا «مملكة داود» ، وببساطة لم تكن هذه المملكة ذكرى توراتية ماضية ، ولكن كان هناك مبرر تاريخى (لها وللممالك الأخرى) لوجودها . وكان وجود كل هذه الممالك قريب المنال، فقد كانت مدينة بيت المقدس تدفع إتاوة مالية للحكام المسلمين فى العصور الوسطى وكانت هذه الإتاوات من التقاليد الراسخة للعصور الوسطى . وهكذا لم تكن الحروب الصليبية من وجهة النظر المسيحية حركة استعمارية أو استيطانية ، وذلك لأنها كانت عملاً بطوليا من أجل تحرير الأماكن المسيحية.

ونظرا للوضع الشرعى الذى آزر الأسرة الحاكمة الصليبية التى انحدر منها جودفرى وأخوه بلدوين الأول، فإن بلدوين الأول أعلن بسرعة برنامجه السياسى حيث أطلق على نفسه لقب «ملك مصر». وعندما نفكر مليا فى هذا اللقب ندرك على الفور أن الصليبيين قد مالوا إلى الواقع أكثر من ميلهم إلى المثال. وبعد سنوات أربع من حكم الملك الصليبى بلدوين الأول قام هذا الملك بمنح الجنوية ثلث مدينة القاهرة وثلث الأملاك والضياع الزراعية القريبة منها. وعندما تأسست المملكة الصليبية فى بيت المقدس، شيدت إمارتان مسيحيتان على أنقاض مناطق السيادة الإسلامية فى كل من أسبانيا وصقلية. وكانت ثمة ظروف وأمور كثيرة مشتركة بين شبه الجزيرة الايبيرية وصقلية وبين المنشآت والمستوطنات الصليبية فى منطقة الشرق العربى

الإسلامى، على الرغم من بعض الاختلافات التى كانت طفيفة وتافهة . فلم تستطع حقائق ووقائع الغزو المسيحى فى أسبانيا وصقلية أن تخلق نفس الأنماط الاستيطانية الصليبية. ولم تظهر الاختلافات الرئيسة بين التجربتين المسيحية فى أسبانيا وصقلية والصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى مجال الدوافع والأيديولوجية . حيث كان مصطلح الاسترداد الأسبانى Reconquista يشير إلى فكرة تحرير أو استرداد الأملاك والأقاليم المسيحية، وهى نفس الفكرة التى ظهرت واضحة فى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام. ويتبلور الاختلاف الرئيسى بين التجربتين الأسبانية والصقلية والصليبية فى الظروف الطبيعية والتاريخية.

ويبدو أن السمة والميزة الأوربية لعملية الغزو الاستيطانى فى أسبانيا وصقلية كانت تختلف بشكل رئيسى عن السمة المميزة لنمط الاستيطان الصليبى الذى كان سائداً فى منطقة الشرق العربى الإسلامى (منطقة ما وراء البحار) . ومن ناحية النمط الاستيطانى ، كانت المشروعات الاستيطانية الاستعمارية فى كل من أسبانيا وصقلية تتشابه فى مفردات كثيرة مع حركة الاستعمار والاستيطان الألمانى فى المناطق السلافية ومناطق البلطيق . وقد تبين لنا من خلال الأنماط والنماذج الاستيطانية الأسبانية والألمانية أن هذه المراكز التى تم احتلالها بعد الحملة العسكرية الاستعمارية ظلت تلعب دوراً رئيسًا فى عملية الاستيطان بعد عملية الغزو التى تم تنفيذها . وكانت السمة الأوربية لحركة الاستيطان فى أسبانيا وصقلية تتبلور فى التوسع الذى تطلب نوعًا من التحصينات والقواعد الأمامية على حدود مع العدو. وهذا التوسع هو الذى حدد شكل وملامح الغزو والسيادة فى المستقبل ، كما كانت هذه السمة الخاصة بالتوسع ذات تأثير حاسم فى صياغة وتشكيل المجتمع الصليبى الجديد فى المناطق المحتلة حديثا . وكان هناك باستمرار توجد منطقة داخلية بعيدة عن الساحل، وهى المنطقة التى كانت تيسر عملية تدفق المهاجرين الأوربيين إلى المناطق الخالية من السكان. وبينما كان النصر الذى يحرزه الصليبيون يؤدى إلى إبادة السكان الوطنيين الأصليين على يد هؤلاء الغزاة الجدد ، كان هؤلاء الغزاة أيضا يعمرون هذه المناطق المهجورة التى هجرها سكانها . وعلى الرغم من أن هؤلاء السكان الغزاة عاشوا تحت الحكم المسيحى، فإن التماسك الاجتماعى لهؤلاء السكان الصليبيين كان هشا ضعيفًا أو منهاراً ، وبات من السهل استيعاب هذه المناطق لهؤلاء السكان الصليبيين ، ... الخ . ومما يذكر أن النشاط التنصيرى والتكامل والدمج العنصرى من

السمات المتمايزة التى تميزت بها المجتمعات الاستيطانية فى كل من الأندلس وصقلية عن غيرها من المستوطنات الصليبية فى المناطق العربية المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام . وأصبحت الحقيقة التى تقول أن الصليبيين لم يتقدموا صوب المناطق المجاورة لمستوطناتهم فى حين كانت حدودهم متقدمة باستمرار- كما كان الوضع فى شبه الجزيرة الأيبيرية- عاملا مهما فى تشكيل بناء الدولة والمجتمع الصليبى. وربما لو كانت هذه الحركة الاستيطانية الصليبية فى عصر تكنولوجى قادر على اختصار المسافات أو زيادة الحمولات، لأمكن إحداث تطور مختلف ، بيد أنه فى نهاية القرن الحادى عشر كانت الظروف والأوضاع الطبيعية غير قادرة على تذليل العقبات التى حددت شكل وايقاع التطور.

والحقيقة زن طبيعة وظروف فترة الغزو الصليبى لم تكن أقل حسما فى تحديد شكل وايقاع التطور الاستيطانى . فمن أجل النجاح والظفر تحرك الصليبيون ببطىء ، وانطلقوا يؤسسون ويشيدون قواعدهم فى منطقة الشرق العربى. وعلى الرغم من ضآلة عدد قواتهم- والتى لم تستطع القوة البشرية التى جاءت من أوربا سد هذا النقص- فإن هذه القوات الصليبية الضئيلة لم تنهار وظلت صامدة . وشيد الصليبيون قواعدهم وتحصيناتهم من المساعدات التى جلبت إليهم من أوربا ، وتغلغلوا فى هذه المناطق واحتلوها . وكان هذا النمط من الغزو يطتلب قوة عسكرية ضخمة عند الهجوم العسكرى الضارى. والحقيقة أن جموع المحاربين فى صفوف الحملة الصليبية الأولى كانوا أكثر عدوانية ووحشية فى ميدان القتال من أى جيش صليبى آخر اشترك فى الحروب الصليبية . وبينما استمر الغزو الأسبانى المسيحى للمناطق الإسلامية فى الأندلس وكذلك الغزو لمناطق البلطيق لمدة أجيال عديدة، فإن الجهد الصليبى فى مجال الغزو لم يكن متناميًا ، إذ كان جهداً ضعيفًا ، ولم يتصاعد هذا الجهد إلا فى حادثة واحدة فقط*. فلم تتسع حدود المملكة الصليبية أو تمتد إلا بشكل قليل بعد ما يزيد عن عشر سنوات من تأسيسها . وهكذا وعلى النقيض مع الوضع الاستيطانى فى أسبانيا ، فإن عملية الغزو

---

* تعتبر الحملة الصليبية الأولى هى الحملة الوحيدة التى حققت نجاحًا مطرداً فى تاريخ الحروب الصليبية، إذ استطاع قادة هذه الحملة بعد نصرهم على المسلمين تأسيس الكيان الصليبى فى المنطقة العربية، وهى مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية التابعة لها. بينما تحرز باقى الحملات الصليبية الأخرى التالية أية نجاحات على الإطلاق ، وكانت اخفاقات متتالية (المترجم) .

الصليبى فى حد ذاتها لم تستطع أن تساهم بشكل كبير فى تشكيل مصائر واقدار ومستقبل المجتمع الصليبى الوليد. وقد تقرر وتحدد شكل الدولة والكيان الصليبى الجديد بعد الغزو مباشرة . وكان الاختيار الصليبى ينحصر ما بين إقامة نقاط دفاعية محصنة - وبشكل أساسى فى الموانىء البحرية- بحيث تشكل مناطق صليبية محاطة بالأعداء ، من أجل الوصول إلى منافذ التجارة ومساهمة هذه المناطق فى تصريف منتجات المناطق الداخلية ، والاختيار الثانى كان يتمثل فى تكوين دولة فى شكل مستوطنات يقطنها مجتمع من المهاجرين الأوروبيين. ولم يكن القرار الذى اتخذه الصليبيون فى هذا الصدد موضع شك . فلم تتأسس الإمارات الصليبية على أساس الحسابات التجارية وكانت فكرة العوامل التجارية عديمة الأهمية داخل إطار المنطقة الأيديولوجية الصليبية . وهكذا فإنه يمكننا أن نصل استنتاج لما سبق مؤداه أن المستوطنات الصليبية الوليدة التى أقيمت فى المستقبل لم تصل إلى نمط المستوطنات الفينيقية أو نمط المستوطنات القرطاجينية ، ولم تكن تشبه المستعمرات البرتغالية، أو الفرنسية ، أو الجهود الاستعمارية الإنجليزية فى الهند والشرق الأدنى . والواقع أن المستوطنات والمستعمرات الصليبية كانت إرهاصًا للمستعمرات الإنجليزية والأسبانية فى النصف الغربى من العالم (الأمريكتين) فى العصر الحديث .

وطوال عصور التاريخ ، ظهرت حركة الاستيطان سواء كانت ذات نمط تجارى أو استعمارى، وذلك بفضل نشاط المراكز الاستعمارية . فقد استطاعت الدولة، أو المدينة الشركة أن تحرك القوة البشرية ورأس المال، فى حين كان الإلمام بالمعرفة العملية لهذا النشاط الاستعمارى من العوامل الجوهرية للنجاح. وربما بدأ أو لم يبدأ أى مشروع استعمارى بالحصول على امتيازات أو سلطات من المركز الاستعمارى. ففى حالة الشركات الاستعمارية كانت أية شركة استعمارية تحصل على وضعها وامتيزاتها من خلال قوتها السياسية ونفوذها السياسى ولذا فإن حقها فى منح الامتيازات كان أمراً ثانويًا . ومهما كان الوضع ، فإن قوة الدولة كانت تمثل عماد نجاح المشروع الاستعمارى الذى سوف يتحرك آجلا أو عاجلا صوب الاقليم الذى يتم احتلاله حديثا، وإنشاء مستعمرة فعلية ومعترف بها عن طريق ادعاء الدولة ببسط سيطرتها والحصول على الموارد الكامنة فى هذا الاقليم المحتل . ولم تغب أو تختفى علاقات التبعية ، التى سوف تصاغ فى شكل مؤسسات. وكانت أشكال التدخل الاستعمارى تختلف ، بيد أن نزعة التدخل كانت شيئًا مألوفًا. وفى حركة الاستيطان الأوربى، كانت إمكانية الاتصال غير المباشر بين

المستعمرات والدولة الأم أمراً محتملاً لكى يكفل هذا الاتصال السيطرة المحكمة على الأقاليم التى تم احتلالها حديثا وذلك بدرجة أكثر من تلك المستوطنات الصليبية التى تأسست فى منطقة الشرق العربى الإسلامى . ففى المستوطنات الصليبية، كانت قوة الدولة تعضد الحرب مثل المشروع الاستعمارى الناجح فى المستعمرات الأوربية الذى كان بمثابة الخطوة الأولى فى تعضيد المستعمرين والغزاة الأوربيين. وفى حالة منح هذه المستعمرات شكلا من أشكال الحكم الذاتى، فإن هذا الحكم الذاتى يكون متقلصًا وقد وجدت أداة للسيطرة على هذه المستعمرات الأوربية ، وكانت هذه الأداة تهدف إلى دمج هذه المستوطنة والمستعمرة داخل البناء السياسى للمركز الاستعمارى . وحدث مثل هذا فى الممالك المختلفة فى شبه الجزيرة الايبيرية (البرتغال، كاستل ، أراجون) ، وفى الشرق الروسى وفى منطقة فرسان التيوتون فى بروسا . وكانت هذه الأوضاع مختلفة فى عملية الاستيطان الصليبى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى (مناطق فيما وراء البحار)، إذ إن عملية الدمج الحقيقى لهذه المستوطنات مع المراكز الاستعمارية (الممالك الأوربية فى غرب أوربا) كانت أمراً عسيراً يصعب تنفيذه . وهنا نجد حالة من التبعية ، وهى الحالة التى أفرزت توترات وتنافس بين المركز الاستعمارى فى أوربا وبين المستوطنة الصليبية التابعة له، حتى تعقدت العلاقات وروابط التبعية على يد المستوطنين . وطالما كانت توجد روابط التبعية التى أشرنا إليها سابقا ، فإن المفترض أن يقوم المركز الاستعمارى بالدفاع عن المستوطنة ، ولكن المدينة الأم كانت أشد حرصا على التزود بما تحتاج إليه من الموارد من هذه المستوطنة . وبعد مدة من الزمن ، وعندما أصبحت المستوطنات والمستعمرات مجرد رهانات وضمانات فى السياسات العالمية، فإن الاستراتيجية الاستعمارية والمكانة الدولية لم تكن أقل أهمية من مصادر الدخل والموارد المالية فى إحداث الصراعات والمساومات بين القوى الاستعمارية.

وإذا نظرنا إلى جوانب وأوجه الحروب الصليبية باعتبارها حركة استيطانية استعمارية يتبين لنا أنها كانت حركة فريدة ذات أهمية خاصة. ويتمثل هذا التفرد الذى يميز الحركة الصليبية كحركة استيطانية فى حقيقة أن المركز الاستعمارى فى أوربا (الوطن الأم) لم يرفع دعوى بشأن حقوقه السياسية أو الاقتصادية فى المستوطنات الصليبية التى سوف تتأسس فى المستقبل ، وهكذا كان هناك انفصال بين هذه المستوطنات وبين الوطن الأم . لقد كان الوعاء الذى صب فيه الصليبيون أيديولوجيتهم ضحلاً . وعلى الرغم من المشاركة الأوربية، فإن المجموعات اوالتجمعات الإقليمية والقومية اعتبرت نفسها مجموعات مسيحية أولا- وليس

لديها مطالب سياسية أو اقتصادية فى المملكة الصليبية. ومن الناحية النظرية ، كانت البابوية تستطيع أن تتقدم بهذه الادعاءات والمطالب، بيد أن مثل هذا كان موضع شك بقدر كبير وغير مؤكد . فإذا كان البطريرك اللاتينى دايمبرت Diambert قد طلب من الملك الصليبى جودفرى البويونى أن يقدم الولاء والتبعية الإقطاعية له، فإن بابا روما هو الذى حث البطريريك اللاتينى على ذلك من أجل سمو الزعامة الكنسية ، والحقيقة أن هذا المطلب لم يتكرر مرة ثانية من البطريرك . وهكذا فإن الأيديولوجية الصليبية المسيحية المفسدة والمضللة قد سادت الحملة الصليبية الأولى- وهى الأيديولوجية التى قررت مصائر ومستقبل المستوطنات الصليبية ككيانات سياسية مستقلة لم ترتبط بأية علاقات من التبعية الحقيقية مع أى مركز من المراكز الاستعمارية فى أوربا. ولايمكن أن نعتبر الحملات الصليبية التى قام بها كل من ملوك فرنسا ، أو ملوك إنجلترا ، أو أباطرة ألمانيا ، أو أمراء ودوقات بافاريا أو هنغاريا حملات قومية ، على الرغم من أى أفكار العصور الوسطى كانت تعتبر أية حملة يقوم بها أى ملك أوربى شأنًا يتعلق بالدولة . فقد كانت المساعدات المالية التى ترسلها أوربا إلى المملكة الصليبية فى بيت المقدس بمثابة جزء من المجهود الحربى الأوربى من أجل الحفاظ على الكيانات الصليبية . وشارك قادة الأقطار الأوربية فى الحملات الصليبية، وحاربوا من أجل المملكة ، وقدموا لها العون المادى والتأييد المعنوى فى إطار قناعتهم الكاملة بأنهم يحاربون من أجل المسيحية.

ولاشك أن التعميم السابق الخاص بقناعة كل القادة الأوربيين الكاملة بأنهم يحاربون من أجل المسيحية من خلال تقديمهم العون للكيان الصليبى فى منطقة الشرق العربى لم يكن كاملا، وذلك لأنه توجد ثلاث حالات استثنائية ، اثنتان منهم ذات هدف خاص، وذلك لأن هذين الاستثنائين يمثلان اتجاها مختلفا وتصورات وأفكار مختلفة. ففى أثناء الحملة الصليبية الثالثة، كان هناك اتفاق بين الملك الفرنسى فيليب أغسطس وملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد من أجل تقسيم الأقاليم التى سيتم احتلالها فى منطقة الشرق العربى فى المستقبل فيما بينهما. وفى نفس الوقت، اتفقا العاهلان الأوربيان على أن يتم احتلال الأملاك والأقاليم الجنوية فى المملكة الصليبية إذا لم يعترف الجنوية بأحقية المملكة الصليبية فى امتلاك هذه الأقاليم وهذه الممتلكات . ومن الناحية العملية، كان يحدد نصيب من هذه الأملاك الجنوية لصالح المملكة الصليبية . ويتم تسليم هذه الأملاك لملك بيت المقدس الصليبى ، بيد أن إرادة هذين العاهلين ومقترحاتهم كانت هى الحاسمة بخصوص رد الحقوق للتاج الملكى الصليبى الذى كان نصف شاغر.

وتغير الوضع فى عام ١٢٢٥م حينما تزوج الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى الهوهنشتاوفن من ايزابل Isabel وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية وابنه الملك الصليبى السابق جان دى بيرين Jean de Brienne . ولذا أضاف الامبراطور الألمانى إلى جملة ألقابه لقب «ملك بيت المقدس» ، واستطاع هذا التوحيد الشخصى للمملكة الصليبية الذى قام به الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى أن يكتسب سمة عالمية زائفة وذلك لأن الظروف السياسية لم تستطع أن تمنع تطور هذه الوحدة الظاهرية للمملكة الصليبية. وكما حدث ، فإن الإمبراطور فردريك الثانى الهوهتشاوفن لم يستطع زيارة مملكته فى الشرق مرة ثانية ، وغاب عن حكم مملكته الجديدة ، الأمر الذى أدى إلى عودة النبلاء المحليين إلى حكم المملكة الصليبية ، حيث آل لوزجنان فى قبرص . بيد أنه خلال فترة الحكم القصيرة لأسرة الهوهنشتاوفن لمملكة بيت المقدس الصليبية يتبين لنا وجود عناصر جديدة فى التجربة الاستعمارية الصليبية الأخيرة. لقد عجلت الحملة الصليبية (١٢٢٨-١٢٢٩م) التى قادها فردريك الثانى حدوث الصدام بين الامبراطور وبين النبلاء الصليبيين المحليين . وحاول الإمبراطور فردريك الثانى فى حربه ضد اللومبارد التصرف وفق القانون الإمبراطورى ، بيد أن البارونات المحليين ألغوا العمل بهذا القانون مباشرة ، وأعلنوا بغطرسة أنهم سوف يتم حكمهم وفق قوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم الخاصة. وهكذا كانت الحادثة العرضية للصدام بين الصليبيين من النبلاء المحليين وبين النفوذ الأجنبى (سلطة الامبراطور فردريك الثانى) كافية لبدء محاولة فرض عادات وقوانين الوطن الأم فى الأقاليم التى اكتسبتها هذه القوة الأجنبية (الإمبراطورية الألمانية) . وكانت هناك محاولة فى فترة متأخرة من الوجود الصليبى لفرض قوانين وعادات «الوطن الأم» (الامبراطورية الألمانية) هذه الدولة التى لم يكن لها مركز استعمارى ولم تكن ظروفها السياسية تسمح لها بتنظيم حياة أبنائها فى المستعمرات.

وكانت ثمة محاولة فقط فى السنوات الأخيرة من عمر المملكة الصليبية وهى المحاولة التى تميزت بانحراف شديد فى تاريخ الاستعمار ، بمعنى أنها أوجدت نمطا خاصًا من العلاقة بين المستوطنات الصليبية وبين الغرب الأوربى. وكان الممثل لهذا النمط من الاستيطان واحداً من أكبر الشخصيات شهرة فى القرن الثالث عشر من الميلاد وهو الجنوى بنيديتو زاكاريا Ben-edetto Zaccaria . ففى عام ١٢٨٧م، عندما نشبت ثورة فى كونتية طرابلس الصليبية ضد حاكمها الصليبى، اقترح بنديتو زاكاريا مبعوث جنوا عقد اتفاق أصبحت الكونتية بموجبه جزءاً من جمهورية جنوه . فقد كان هذا التحول أكثر أهمية منذ أن وجدت الاحياء الايطالية التى

تمتعت بالحكم الذاتى فى المدن البحرية فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان هذا التحول يعنى أن كبار مبعوثى الحكومات الايطالية ولاسيما البودستا Podesta الذين أرسلوا إلى المناطق الصليبية هم الذين حكموا الدولة الصليبية. ولم تخرج هذه الفكرة إلى حيز التفنيذ حيث أدى السقوط الوشيك لطرابلس فى يد المسلمين إلى منع تنفيذ هذه الفكرة بشكل أكبر فى فترة تالية.

وبالنسبة لهذه الاستثناءات القليلة ، فإن المستوطنات والإمارات الصليبية كانت تمثل حالة استثنائية فى التاريخ الاستعمارى ، فقد ظلت هذه الإمارات الصليبية منذ قيامها وحتى سقوطها مستقلة تماما . وكان خضوعها للبابوية خضوعًا روحيًا فقط، وعلى الرغم من أن تبعيتها الاقتصادية لم يتم صياغتها فى شكل اتفاقيات سياسية متبادلة . ومع أن السيادة الاقليمية لم تنتقل إلى سلطة البابا فى روما، فإن مثل هذه الطموحات - التى لو تحققت لما أقلقت أو أزعجت المملكة الصليبية. والحقيقة أن البابوية يمكن أن نعتبرها «مركزا استيطانيا استعماريًا »، فالبابوية هى التى تبنت صياغة وتطوير الأيديولوجية الصليبية ، وأصبح التأثير الروحى لهذه الأيديولوجية يمثل بؤرة النشاط والدعاية الصليبية، وفى الغالب كان هذا التأثير الروحى بمثابة الخزانة التى تمد كلا من الحركة الصليبية والدولة. وإضافة إلى ذلك، فإن البابوية كانت تمثل الفكرة المسيحية الشاملة فى الإمارات الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى.

لقد كان الاستقلال السياسى للامارات الصليبية واقعا ملحوظا وحقيقة بارزة فى التاريخ الاستعمارى. وكانت هذه الحقيقة تحمل دلالة ذات معنى . فالاستقلال ربما يعنى ترك الأمور وفقًا لرغبات وإرادة حاكم الإمارة الصليبية دون التدخل من السلطة المركزية للمملكة . ففى خلال فترة تكوين المستوطنة ، كانت حجم المساعدات التى يقدمها «الوطن الأم» أمراً جوهريًا من أجل تطور هذه المستوطنة ؛ وفى الفترة الأخيرة من الوجود الصليبى، ربما أصبحت هذه المساعدات التى يقدمها «الوطن الأم» للمستوطنة كانت لها أهمية كبرى فى الحفاظ على وجودها إذا ما داهمها خطر من جراء التنافس بين المستعمرات الإيطالية أو إذا هددها تدخل أجنبى. وكان هذا مؤشرا يدل على الضعف التام والاعياء الذى كانت تعانيه المملكة الصليبية. فقد اعتمدت الامارة الصليبية المستقلة فى المقام الأول على قواتها العسكرية الخاصة. وكانت شرعية مطالبتها بالمساعدة الأوربية نابعة من قوة وحيوية الفكرة الشاملة، وهى الفكرة التى أدت إلى قيام وتأسيس المملكة الصليبية والتى كانت احدى الثمرات الملموسة لهذه الفكرة .

وهكذا فإنه فى حالة عدم وجود الروابط السياسية المباشرة بين المستوطنة الصليبية «والوطن الأم»، فإن الدعم الممكن للامارات والمستوطنات الصليبية اعتمد على مصادر بعيدة تماما عن مجال نفوذها . وتوقفت هذه المساعدات الأوربية للمستوطنات الصليبية على مدى التطور الفكرى فى أوربا.

لقد وجد صنفان من العلاقات التى تربط بين المملكة الصليبية وبين أوربا المسيحية وهما، المادية والأيديولوجية ، فلم تعتمد مشاركة أوربا فى تمويل الحملات الصليبية على الحماس الدينى المسيحى فقط، بل أيضا اعتمد هذا التمويل على درجة ازدهار أوربا الاقتصادى، وارتبطت عملية الهجرة والاستيطان الأوربى فى الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام بشكل مباشر بحجم هذا التمويل . وطالما أن الملوك الأوربيين أو البابوية كانت تشعر بأن لديها مصلحة فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس، فإن هذه القوى السياسية والروحية فى أوربا، لجأت إلى توجيه الجماهير الصليبية المقاتلة صوب الشرق العربى. وبعد انتهاء أحداث الحملة الصليبية الثالثة وبعد الفشل الذريع الذى حاق بالحملة الصليبية الرابعة ، لم يعد هناك حملة صليبية كبيرة- على الرغم من أننا يمكن أن نتخيل مثل هذه الحملة- استطاعت القوى السياسية والدينية فى أوربا أن تحدث حركة واسعة للجماهير ، باستثناء حملة الملك الفرنسى لويس التاسع (الحملة الصليبية السابعة). ويلخص لنا شاعر التروبادور الفصيح ريتيبيف Rutebeuf هذا الوضع قائلا: «واحسرتاه أنطاكية ، واحسرتاه الأرض المقدسة، لقد جأر الصليبيون بمر الشكوى: فلم يعد جودفرى البويونى بينهم، فانطفأت جذوة الحب فى قلوب الصليبيين المسيحيين . ولم يهتم الشيوخ أو الشباب بالحرب من أجل الرب».

ومن الملاحظ أن تفسير عوامل وأسباب انهيار النشاط الاستعمارى الصليبى يخرج عن نطاق هذه الدراسة . ومهما يكن من أمر ، فإن ثمة حقيقة مؤداها أن هذا الانهيار، والتدهور للنشاط الاستيطانى الصليبى وضع نهاية للحملات الصليبية ولعملية الهجرة الأوربية الآمنة إلى الأراضى المقدسة. وظلت البابوية هى القوة الوحيدة فقط التى تؤازر وتناصر باخلاص مملكة بيت المقدس اللاتينية . وكانت الإمبراطورية الرومانية (إمبراطورية شارلمان) الممثل الرسمى الثانى للأيديولوجية المسيحية الشاملة وهى الإمبراطورية التى فقدت وخسرت دعواها ومكانتها العالمية على أثر ظهور الملكيات الاقطاعية؛ إذ أنه بحلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادى عانت البابوية الضعف بشكل واضح وقلما كانت تستطع تقديم أى عون ومساعدة للكيان الصليبى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى وهى المساعدات التى كان لها

أهمية عملية خلال فترة بابوية البابا انوسنت الثالث (١١٩٩-١٢١٦م) . لقد انهارت سلطة البابوية فى الوقت الذى بات على الصليبيين مواجهة خطر داهم تمثل فى القوة الإسلامية الموحدة بقيادة دولة سلاطين المماليك ، وعندئذ تخلت البابوية عن المملكة الصليبية تعانى الضعف وتواجه مصيرها البائس حيث أصبحت على وشك السقوط والانهيار. وكان ضعف سلطة البابوية يعنى اختفاء إحدى القوى فى الغرب الأوربى التى اعتمدت عليها المملكة الصليبية فى الحفاظ على وجودها . وهكذا يمكن القول ، إن الاستقلال السياسى للمستوطنات الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام لم يكن هو الوصفة الطبية التى يحتاج إليها المشروع الاستيطانى والاستعمارى الصليبى.

ب- الاستيطان والمستوطنون «التجربة الايطالية»

لقد استطاع الجيل الأول من المهاجرين الصليبيين تأسيس مجتمع جديد ، عقب الغزو الصليبى لمنطقة الشرق الغربى الإسلامى، وبمرور الوقت تشكل هذا المجتمع الصليبى على غرار النماذج التى جلبها الصليبيون معهم من أوربا وبعد مدة من الزمن تكاملت موجات الهجرة الصليبية من أوربا ، دون صعوبة تذكر ، وذلك مع أطر وأشكال التماسك الاجتماعى القائم . بيد أن النجاح الصليبى فى مجال التنظيم الاجتماعى لم يكن متطابقا مع التكامل المؤسساتى. ولم تكتمل عملية دمج النظم المؤسساتية ، إذ كان بعض الأفراد والجماعات الصليبية مثل الهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاسبتارية- التيوتون) والذين قاموا بدور جيد ومحدد فى الدفاع عن المملكة الصليبية ، غير مندمجين مع بعضهم البعض بشكل أساسى. إذ كانت الهيئات الدينية العسكرية جزءاً من المستوطنة الصليبية ، وفى نفس الوقت لم تعترف هذه الهيئات الدينية العسكرية بالسيادة السياسية لمملكة بيت المقدس اللاتينية (على الرغم من أنهم لم يقوضوا هذه السلطة السياسية للمملكة) . فلم يكن هناك رباط إقطاعى يربطهم بالملك الصليبى ولم يخضعوا لسيادة المملكة الصليبية بكل معنى الكلمة . وهكذا ظل الوضع السياسى للهيئات الدينية العسكرية فى المملكة الصليبية غامضًا غير واضح، فى حين كانوا يشكلون كيانات سياسية مستقلة داخل إمارتى أنطاكية وطرابلس الصليبيتين . واختلف الوضع السياسى للهيئات الدينية عن الوضع السياسى للكوميونات التجارية الايطالية ، وهى الكوميونات التى تحدد وضعها السياسى بشكل قانونى فى اطار المعاهدات التى عقدت بين الحكام الصليبيين (الملك ، أو البارونات الصليبيين فى الفترة المتأخرة) وبين المدن الإيطالية والأوربية الأم ((البندقية - جنوا- بيزا- أمالفى- مرسيليا).

ويمكن وصف عملية استقرار أبناء الكوميونات الإيطالية فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام بأنها عملية استيطانية مركبة ومتوازنة، بعيدة عن قوانين وتشريعات ومؤسسات الاستيطان الصليبى. ولم يكن الغرض من الاستيطان الايطالى فى هذه المناطق هو فرض السيادة السياسية على السكان المحليين ولكن الهدف الأساسى للاستيطان الايطالى هو الاستغلال الاقتصادى فى هذه الأقاليم الصليبية وغزو الأسواق الصليبية والإسلامية فى بلاد الشام وتحقيق الأرباح الطائلة . وعندما تم الغزو الصليبى للمدن والاقاليم الإسلامية ، استقر الايطاليون فى هذه المدن، ولم يكن هذا مألوفا من قبل ، وحصل هؤلاء التجار الإيطاليون على منح وامتيازات عديدة فى هذه المدن الصليبية فى شكل أحياء خاصة بهم وضياع ريفية فى هذه الأقاليم الإسلامية. فقد كان الهدف الرئيسى للمنشآت التجارية الايطالية فى المناطق الصليبية منذ فترة باكرة من الغزو الصليبى هو اتخاذ هذه المناطق الصليبية قاعدة وأساسًا لنشاطهم السياسى والتجارى. وإذا كان الصليبيون قد حكموا واستغلوا هذه المناطق ، فإن الإيطاليين قدموا المساعدات السخية للصليبيين التى لم تكن على أسس اقطاعية . وأصبح الايطاليون مستقلين إلى حد ما بفضل الضياع الريفية والامتيازات التجارية والاقليمية التى حصلوا عليها فى المناطق والمدن الصليبية- وإن كانوا لم يتمتعوا تمامًا بالسلطة المطلقة فى هذه المناطق . بيد أن هذه الممتلكات الريفية والحقوق العادية ذات اعتبارات ثانوية ولكن الأكثر أهمية بالنسبة للإيطاليين هو الإطار المتجانس للمملكة الصليبية والامتيازات التجارية والإقليمية التى حصلوا عليها فى كل أنحاء الأقطار والمناطق فى المملكة الصليبية ، وأيضا الامتيازات التى حصل عليها الإيطاليون فى الأقطار الصليبية المجاورة للمملكة.

لقد استخدام الايطاليون المملكة الصليبية كقاعدة وأساس لعملياتهم التجارية، وكسوق تجارى لتصريف بضائعهم وكسوق لتصدير منتجاتهم الخام والمصنعة إلى أى مكان، حيث ساهمت الطرق التجارية الجيدة والعلاقات الودية فى تحقيق الإيطاليين الكثير من الأرباح والفوائد.

ومن إحدى الميزات الفريدة الواضحة للحروب الصليبية- إذا نظرنا إليها كحركة استيطانية- هى أن الوجود الصليبى الاستيطانى والحركة الاستيطانية كانت على مستويين، وكان لكل حركة استيطانية أهدافها ، وأساليبها ، وسماتها وانجازاتها الخاصة.

وعلى الرغم من وجود تشابه بين مفردات المشروعات الاستيطانية الصليبية، فإن النشاط

الاستيطانى الإيطالى للمدن الكبرى (البندقية ، جنوا ، وبيزا) كان يختلف فى أوجه كثيرة . فالكوميونات التجارية الأوربية الأخرى مثل البروفنسال والقطالونيين قد أضيفوا إلى قائمة الأحياء التجارية المتغايرة الخواص والمتنافرة فى المدن والأقاليم الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى.

ولايمكن أن نخوض كثيرا فى الحديث عن بواعث ودوافع الايطاليين للاشتراك فى الحروب الصليبية هذه الدوافع التى سوف تبرز لنا اختلافا ذا معنى عن الاتجاه السائد لدوافع الحروب الصليبية*. ومن الطبيعى أن تمثل الدوافع المادية أهمية أكبر لدى هذه الكوميونات التجارية الايطالية والبرفنسالية والقطالونية عنها لدى الجموع الصليبية التى شاركت فى الحروب الصليبية. وقد تأكدت هذه الحقيقة من خلال صمت المصادر التاريخية البندقية، أو الجنوية ، أو البيزاوية عن ذكر أية تلميحات، إلى التوقعات المسيحية**، وكان هذا الصمت أمرًا مألوفا فى كثير من الوثائق التاريخية لمؤرخى منطقة ما وراء جبال الألب خلال فترة الحروب الصليبية. بيد أن صمت هذه المصادر التاريخية لايؤكد لنا غياب الدافع الدينى لدى الإيطاليين، ولكنه يكشف لنا فقط- ودائما كانت الغطرسة من أهم سمات المصادر التاريخية الايطالية - عدم الحماس الدينى القوى لدى الإيطاليين ، هذا الحماس الذى تأجج بشكل قوى بفعل تأثير الايمان بالخوارق والمعجزات والرؤى المقدسة المسيحية والغيبيات على المشاركين الصليبيين ، ويذكر لنا المؤرخ الجنوى الشهير كافارو الكاسكيفلونى Caffara de Caschifeleone - أحد الذين شاركوا فى أحداث الحملات الصليبية الباكرة ضد الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام- أنه كان يوجد توازن غامض بين الطموحات الدينية وحب المال والكسب فى دوافع الإيطاليين . ومن نافلة القول الإشارة إلى أنه كان هناك شعور عجيب بسبب الصراع بين هؤلاء التجار

---

* لاشك أن الدوافع الاقتصادية والرغبة فى تحقيق الأرباح التجارية هى التى جعلت المدن الايطالية (البندقية- جنوا- بيزا- أمالفى) تشارك بجدية فى تقديم العون المادى والعسكرى للصليبيين ، وبطبيعة الأحوال أدت اختلاف المصالح الاقتصادية بين الكومونات التجارية فى المناطق الصليبية إلى التنافس فيما بنهم ، وشهدت شوارع عكا حروبا طويلة بين الأحياء الايطالية. «المترجم»

** الحقيقة أن القضية الصليبية لم تشغل بال التجار الايطاليين على الاطلاق ، فالتاجر يسعى إلى الربح أينما وجد، ويكفى أن نقول أن شعار البنادقة كان «فلنكن أولا بنادقة ثم بعد ذلك مسيحيين كما أن العقد التجارى البندقى كان يبدأ عادة بفقرة لها دلالة وهى «بسم الربح وبسم الرب» (المترجم) .

الايطاليين أبناء الكوميونات التجارية من أجل الحصول على المكاسب الدينيوية والأرباح المالية، فى الوقت الذى كانت تتراكم عليهم الواجبات الدينية والديون السماوية الإلهية. ويذكر البرت الآخنى Albert of Achen أحد المعاصرين الأحداث الحملة الصليبية والذى ينتمى إلى المناطق الواقعة عبر جبال الألب، أن كل الايطاليين من البنادقة ، والجنوية ، والأمالفيين ، والبيازنة ، الذين شاركوا فى الحروب الصليبية، كانوا عبارة عن أناس شاركوا فى هذه الحروب من أجل السلب والنهب، وأبحروا للبحث عن السرقة والنهب فكانوا كاللصوص والقراصنة المعتدين.

وإذا أردنا التعرف على الأهمية التاريخية للتجربة الاستيطانية الايطالية ، فإنه يجب علينا أن نحلل معظم خصائصها المدهشة والغريبة. ويجب أن تشمل هذه الخصائص ثلاثة أمور: تنظيم الحملات العسكرية الباكرة ، ومستوى علاقة هذه المستوطنات الإيطالية بأوطانهم الأم (البندقية ، أوجنوا ، أوبيزا) ، ونظام الحكم والادارة المتقن الذى طبقته المدن الأم هذه فى إحكام سيطرتها على هذه المستوطنات .

ويتعلق الأمر الأول بالحملات الصليبية الباكرة التى شارك فيها الإيطاليون . ولاشك أن نظام تمويل الحملات العسكرية البحرية يختلف تمامًا عن نظام تمويل الجيوش البرية التى شاركت فى الحروب الصليبية . فقد كان المحارب الصليبى من النبلاء يستطيع أن يجمع المال والمساعدات المادية الأخرى كالمؤن من الأقاليم الأوروبية الواقعة عبر جبال الألب ، وفى الغالب كان يرهن أملاكه وضياعه من أجل عملية أن يلتمس العون والمساعدة من خلال التحاقه ببقية المحاربيين فى حملة يقودها أحد القادة العسكرين الصليبيين الكبار، وقد حدث مثل هذا الأمر لأحد النبلاء وهو تانكرد ، وظل هذا مصير الفارس العادى. بينما كانت عملية إعداد السفن الحربية ومعداتها من المشكلات الأساسية التى تواجه المدن البحرية عند تمويلها للحملات العسكرية البحرية، وذلك لأن هذه المتطلبات الحربية تحتاج إلى استثمار كبير وضخم لرأس المال فى مغامرة عسكرية يكتنفها أخطار وأهوال ، وخلال أقل من عشر سنوات تم تدشين أساطيل حربية قوية ايطالية وانطلقت هذه الأساطيل الايطالية تعمل بسرعة فى مجال الحرب.

وبصدد القضية المتعلقة بتمويل إعداد الأساطيل الحربية نجد اختلافات واضحة بين أساليب المدن الإيطالية لهذا التمويل ، فإذا كانت كل المدن التجارية الإيطالية فى الفترة المتأخرة من الوجود الصليبى قد شاركت بشكل جزئى فى عملية تمويل الأساطيل الحربية خلال أعمال

القرصنة الناجحة والسلب والنهب التى مارستها فى منطقة الشرق العربى الإسلامى، فإن عملية التمويل هذه فى الفترة الباكرة من الغزو الصليبى قد اختلفت من مدينة ايطالية إلى أخرى (مدن البندقية ، وجنوا ، وبيزا) فقد أطلقت جنوا أساطيلها الحربية فى وقت مبكر من الحروب الصليبية- والتى شاركت فى احتلال الصليبيين لمدينتى أنطاكية وبيت المقدس- فى صورة مشروع دون مشاركة من جانب سلطات المدينة. بينما وجدنا سلطات المدينة أو قواتهم فى كل من بيزا والبندقية قد تتدخل وتشارك فى تمويل هذه الحملات العسكرية البحرية منذ البداية.

وسجل المؤرخ الجنوى كافارو الكاسيكيفيللونى أسماء عشرة من النبلاء الجنوية الذين قادوا أول أسطول جنوى شارك فى الحروب الصليبية. وذكرنا أن هؤلاء القادوا جاءوا على رأس اثنتى عشرة سفينة حربية مجهزة وسفينة نقل تحمل على متنها من ثلاثة إلى أربعة آلاف محارب وبحارة. ولم نعرف ما إذا كان هؤلاء المحاربون قد تحملوا أجرة النقل، ومن الممكن أن يكون هؤلاء الرجال المحاربون (على الرغم من أنهم لم يكونوا محترفين) قد ساهموا بأنفسهم فى تحمل نفقاتهم . ومع ذلك، فإن إرسال أسطول حربى مثل هذا الأسطول الجنوى كان يتطلب نفقات مالية باهظة . ولذا بات من الضرورى أن يساهم قادة هذه الحملة العسكرية البحرية فى تمويلها ، إذ كانوا يستثمرون أموالهم وأموال البعض الآخر من غير المشاركين بشكل مباشر فى هذه الحملة. وعرف أسماء الكثير من أعضاء عائلات الفيكونتات وهم الأعضاء الذين كانوا يتقلدون مناصب ووظائف مربحة ولاسيما الوظائف الخاصة بحماية الكنيسة . ومنذ فترة باكرة استثمر أعضاء هذه العائلات أموالهم فى الأعمال التجارية ومن المؤكد أن هذه الاستثمارات قد تعددت لتشمل الاستثمار فى مجال بناء السفن، ومن المحتمل أن السفن الجنوية التى شاركت فى بداية الحروب الصليبية قد تم تدشينها ما بين عامى ١٠٩٦ حيث وصلت دعوة البابا أربان الثانى إلى جنوا- وعام ١٠٩٧، وهو الموعد الذى تحدد لانطلاق الأسطول صوب الشرق، وإن كان هذا بعيد الاحتمال . وعلى الأرجح، فإن بعض هذه السفن قد شيدت منذ فترة باكرة عن التاريخ السابق، أى قبل عامى ١٠٩٦، ١٠٩٧م وتم استخدامها فى هذه الحملة الصليبية، وفى الوقت التالى للحملة العسكرية البحرية سمعنا مرة ثانية فى عام ١٠٩٧ أن اثنتين من السفن الجنوية كانتا ملكا لاخوة أمبرياتش Embriaci (الذين أصبحوا حكاما لمدينة جبيل الصليبية) قد انطلقتا صوب الشرق، وقد أعقبها فى عام ١١٠٠م قيام أربعة وعشرين سفينة

حربية، وأربع سفن نقل ملكا لوليام إمبرياتش William Embriaca تحمل على متنها ثمانية آلاف مقاتل، فى طريقهم إلى منطقة الشرق العربى أيضا، وفى عام ١١٠١ انطلقت ثمانى سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف، وثمانى سفن صغيرة (غلابى)، وسفينة نقل صوب الشرق، أيضًا. وإذا افترضنا أن بعض هذه السفن الجنوية قد استخدمت فى حملات عسكرية بحرية أخرى (وكانت بعض السفن مجردة من التجهيزات العسكرية فى الأراضى المقدسة مثل سفن أسرة أمبرياتش، التى اشترت سفينة جديدة من أجل رحلة العودة)، فإن هذا يعنى أن الاستثمار الجنوى فى مجال بناء السفن قد شهد نشاطا ملحوظا لم يسبق له مثيل من قبل. وكان يتم تمويل بناء السفن جزئيا من العائد المالى المرتفع والسريع للاستثمارات الأولية، وأيضًا من عائد الأموال المتجدد لطبقة التجار الجنويين. ومن خلال معرفتنا لنمط التجارة الجنوية مع الشرق الصليبى فى الفترة المتأخرة، فإنه يمكننا أن نفترض أن الاستثمارات التجارية الجنوية فى المناطق الصليبية لم تكن ضخمة، ولكنها كانت تحقق أرباحًا عالية. فقد تم استثمار مبالغ مالية كبيرة خلال هذه الفترة الصليبية وكان من المتوقع تحقيق عائد مالى كبير لهذه الاستثمارات. وقلما كان البحارة والركاب يقومون باستثمار أموالهم، بيد أنهم كانوا يتوقعون حصولهم على نصيب من غنائم الغزو والقرصنة.

ويمكن أن نعتبر الحملات العسكرية البحرية الجنوية الباكرة من الناحية التنظيمية بمثابة النماذج الأولى للشركات التجارية التى تأسست خارج أوربا. لقد كان تمويل هذه الحملات البحرية والأساطيل يتم من خلال أعضاء ومقاتلى هذه الحملات، وزودت هذه الحملات بالمقاتلين البحارة وكان يتوقع عائد مالى لهذه الاستثمارات. ومن خلال الحملة الجنوية فى عام ١١٠١م- التى اشتركت مع الملك الصليبى بلدوين الأول فى احتلال قيسارية- عرفنا بعض تفاصيل عملية تقسيم الغنائم والأسلاب، وبعد احتلال قيسارية، قسمت الغنائم والأسلاب على النحو التالى: ١٠٪ للكنيسة، ٥٪ لملاك السفن، وعندئذ حصل المشتركون على مكافأة وفقا لرتبة ومكانة المقاتل، وأخيرا كان كل مشترك يحصل على ٤٨ قطعة من نقود بواتييه الفرنسية ورطلين من الفلفل. وبتقسيم الغنائم التى وصفناها بصيغة مقبولة وباعتبارها بمثابة أموال قسمت على المشتركين من عائد وأرباح الاستثمارات فإن الشركة التجارية الجنوية الأصلية الأولى كانت قد انتهت وتلاشت فى عام ١١٠١م. وتطلبت العقود التجارية وحالات المضاربة والمغامرات التجارية الجديدة وجود شركة تجارية جديدة، بيد أننا لم

ندهش كثيرا إذا وجدنا أن بعض الأفراد والعائلات الجنوية قد قاموا بتمويل الأساطيل الجنوية بشكل متكرر . وبعد الغزو، استطاع عدد من العائلات الجنوية النبيلة-وهى عائلات القناصل أن تمارس سياسة الاحتكار التجارى فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام، إذ كان أعضاء هذه العائلات يعتلون المناصب المرموقة فى أوطانهم ، وهى وظيفة القناصل ، وكان هؤلاء الأعضاء يمثلون طبقة ارستقراطية تجارية فى المدينة الأم (جنوا) .

وقد سلكت كل من بيزا والبندقية طريقا مختلفا. إذ كان دايمبرت Daimbert قائد الحملة البحرية، والأسطول البيزى (حملة عام ١٠٩٩م) أكثر من رئيس أساقفة. فلم تقتصر أهمية دايمبرت فى بيزا لكونه يحتل منصبًا كنسيا مرموقًا فى كنيسة المدينة فحسب، بل كان أيضا يحتل منصبًا وظيفيًا مرموقًا فى الجمهورية التى تأسست حديثا. وقبل أربعة وعشرين عاما ، وفى عام ١٠٨٥م، برزت أهمية دايمبرت فى تلك الوساطة التى قام بها لانهاء حرب أهلية نشبت فى بيزا وكانت الأطراف المتصارعة تشمل ماركيز توسكانى (الذى ضعف نفوذه وقوته) ، والعائلات النبيلة التى أرادت الاطاحة بممثل الماركيز فى المدينة والذى كان يحكم بيزا، وهو الفيكونت الذى انضم إلى الحزب الشعبى. وأخيراً تحولت بيزا إلى كوميون مستقل بموجب «معاهدة السلام» التى توسط دايمبرت فى ابرامها . وبعد عامين ، وفى عام ١٠٨٧م ظهر أول قناصلة بيزا، وعندئذ أصبح دايمبرت قائدا لأسطول بيزى يضم ١٢٠ سفينة ، وكان بمثابة كاهن وقائد Rector et ductor ومثل الكوميون البيزى فى قيادة الجيوش الصليبية المتجهة صوب الشرق العربى. وعلى عكس الوضع بالنسبة للأسطول الجنوى، كان الأسطول البيزى يلقى الرعاية من حكومة الكوميون. وهذا لايعنى أن كوميون بيزا قد تكفل بالتمويل الكامل للحملة والأسطول البيزى ، وكانت هذه السفن المائة والعشرين التى شملها الأسطول البيزى ملكا لكبار التجار البيازنة، على الرغم من أن بعض هذه السفن ربما شيدتها مدينة بيزا، أو شيدتها كنيسة المدينة الغنية.

وكانت هذه المشاركة الرسمية لكوميون بيزا تشبه إلى حد ما صورة المشاركة الرسمية لمدينة البندقية فى تمويل الأساطيل الحربية، بيد أن المساهمة الرسمية للبندقية واعداد الأساطيل كانت أكثر وضوحا . وكان الضمان البندقى الحكومى للأسطول شكليا، لأنها كانت ترتبط بعلاقات تجارية منذ فترة طويلة مع منطقة الشرق وخاصة مع البيزنطين وترجع هذه العلاقات التجارية إلى قرون سابقة للحروب الصليبية . ووصل الأسطول البندقى إلى منطقة الشرق العربى فى

نفس الوقت الذى وصلت فيه الحملة الصليبية إلى أنطاكية واحتلالها واحتلال مدينة المقدس. ويمكن تتبع إحدى المدونات التاريخية التى سجلت أحداث الحملة البندقية الباكرة التى بدأت فى صيف عام ١٠٩٩ ووصلت إلى الأراضى المقدسة فى عام ١١٠٠ واحتلت ميناء حيفا عديم الأهمية. فقد كتب الراهب ليدو Lido من غير قصد قصة هذه الحملة البندقية ، وكان الموضوع الأساسى فى هذه القصة هو نقل رفاة القديس نيقولا من الميرا إلى البندقية ، وهذه العملية التى كانت تعتبر من أهم الأعمال اللصوصية الدينية فى ذلك الوقت . واستعاد هذا الراهب المؤرخ جزءاً من روح المؤرخ الجنوى كافارو بالنسبة للجنوية . ونستطيع تصور هذا الوضع من خلال الاقتباس المباشر من رواية هذا الراهب المؤرخ ليدو إذ يقول :

«وبعد سنوات ثلاثة من بداية الحملة الصليبية الأولى، شارك الأسطول البندقى فى الحروب الصليبية بسبب الوضع الحساس لمدينة البندقية . وبينما استخدم المشاركون الآخرون الخيول والفرسان فى هذه الحروب ، فإن البنادقة كانوا أكثر تمرسا فى الحروب البحرية من أية أمة أخرى، فقد اعتادت البندقية احراز النصر فى الحروب، والبنادقة أكثر استعدادا ومثابرة فى الانفاق على بناء سفن الأسطول من أجل خدمة «طريق الرب» وأعنى المشاركة فى الحروب الصليبية. وأنهم قد زودوا هذه السفن بعدد كاف من المحاربين والعتاد العسكرى، ولم يتضح الشخص الذى سيقود الأسطول البندقى والجيش المحارب، وقد تم اجماع رجال كنيسة القديس مارك على اختيار هنرى أسقف كاستيلانا ليكون كاهنا لهذا الأسطول ، واختيار يوحنا John، ابن الدوج البندقى ميخائيل ، وقام الاثنان بقيادة الجيش والأسطول البندقى. وعلى الرغم من أن هنرى أسقف كاستيلانا ويوحنا لم يكونا راغبين فى هذه القيادة ، فإنهم فى النهاية أذعنوا لأمر البطريرك وقبلا هذه القيادة، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أمر الدوج البندقى وإلى صلوات رجال الدين والعلمانيين».

لقد كانت جمهورية البندقية ترعى وتكفل أولى حملاتها إلى المناطق الصليبية فى فلسطين

لقد كانت جمهورية البندقية ترعى وتكفل أولى حملاتها إلى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام. وكان هنرى كونتارين Henry Contarenus أسقف كاستيلانا ابن الدوج دومينيكو كونتارين Domenico Contarenus ، ينتمى إلى طبقة النبلاء الحاكمة فى المدينة مثل دايمبرت ، رئيس أساقفة بيزا ، قد خدم فى هذه الحملة ككاهن، وتركزت قيادة الجيش والأسطول فى يد جيوفانى ميخائيل- ابن الدوج الحاكم فيتال ميخائيل Vial Michiel .

وعلاوة على ذلك ، فإن قيادة الدوج لهذه الحملة كانت قيادة شكلية. ومما يذكر أن المعركة القصيرة الظافرة التى خاضها الأسطول البندقى ضد الأسطول البيزى فى جزيرة رودس (فى خريف ١٠٩٩) قد جعلت البنادقة أكثر وعيًا وحذراً من أخطار الحرب فى شرق البحر المتوسط عن البيازنة أو الجنوية أو القادمين الصليبيين الجدد. وكانت السمة المميزة لحملة البنادقة خليطا من التقوى والوحشية والطمع ، ويشهد بذلك الظروف التى عاشها البيازنة تحت سيطرة البنادقة قبل أن يتحرروا من هذه السيطرة: فلم يعد البنادقة يرتادون أسواق بيزنطة للأغراض التجارية مرة ثانية ، ولم يعد البنادقة أيضا يحاربون اخوانهم المسيحيين مرة ثانية فى المستقبل، وبات عليهم عبور البحر من أجل التفانى فى انقاذ الضريح المقدس. وانتهت حملة البندقية- وفقا للاقتباس الذى استخلصناه من رواية الراهب ليدو Ledo - بانتصار مزدوج أحرزه البنادقة تمثل فى الحج والنصر العسكرى.

ولم تكن امتيازات والتزامات الكوميونات التجارية أقل أهمية بالنسبة لمستقبل الحركة الاستيطانية الاستعمارية الايطالية ، فإننا نهتم كثيرا بالوضع القانونى لهذا النمط وكان عبارة عن فكرة خاصة للعلاقات المعقدة والمحكمة - والذى سوف يلعب دوراً رئيسًا فى تاريخ الاستيطان الإيطالى فى المملكة الصليبية. فلم تكن هذه الامتيازات تمنح (ولاحتى للجنوية) لمجموعة الغزاة الايطاليين ، المشاركين الحقيقيين فى هذه الحملات العسكرية ، ولكن هذه الامتيازات كانت تمنح إلى جماعة معينة وإلى الذين ينحدرون من سلالتهم من بعدهم. وكانت مثل هذه الامتيازات أمرا مألوفا لدى المؤسسات الدينية (مثل الأديرة والهيئات الديرية) وأيضا لدى المجموعات العرقية (مثل اليهود)، بيد أن هذه الامتيازات كانت تشكل فكرة جديدة بين المسيحيين العلمانيين . وحقيقة الأمر أن هذه الامتيازات كانت بمثابة مقدمة لعنصر جديد يدخل فى بنية التشريعات القانونية لهذه الفترة، ومن المؤكد أن هذه الامتيازات كانت تحاكى النماذج والأنماط الاقطاعية، بيد أنها كانت تقبل فقط وبشكل ضمنى فكرة التبعية الإقطاعية الجماعية، ولكن أبناء الكوميونات لم يعتبروا أنفسهم أفصالاً تابعين للمملكة الصليبية. وبالتجربة والخطأ ، ظلت المصلحة والمنفعة هى التى تؤثر فى شكل ونمط هذه الامتيازات فى المستقبل .

فإذا حدث وأن استمرت الامتيازات ، فإنه لايمكن الغاؤها عندما تنحل الرابطة التى نظمت هذه الحملة العسكرية الصليبية . وكان هذا الأمر مهمًا بشكل خاص لجنوا ، والتى كانت

حملاتها العسكرية البحرية بمنأى عن رعاية الدولة الرسمى. وقد اتضح ظروف أحد الكوميونات الايطالية التجارية الأخرى فى شكل المنح التى أعطيت للبيازنة بموجب المعاهدة التى عقدت بين الطرفين البيزى والصليبى فى أواخر عام ١١٨٨ وذلك فى أعقاب النجاح الذى أحرزه الصليبيون للدفاع عن مدينة صور، فقد منح كونراد مونتفرات للبيازنة أملاكا فى مدينتى عكا وصور. كما أقرت وثيقة هذه المنحة التى أعطيت للبيازنة، بأن البيازنة إذا قسموا هذه الأملاك الممنوحة لهم فيما بينهم بالتساوى، فإن هذه الامتيازات الممنوحة لهم ستظل معمولا بها طالما استمرت رابطة كوميون بيزا فى المناطق الصليبية . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الهبة ستظل شرعية حتى بعد انحلال هذه الجماعة البيزاوية وسوف يمتلك كل عضو من أعضاء الرابطة البيزاوية نصيبه الخاص من هذه الممتلكات . ولم نعرف ما إذا كان هذا الشكل من الامتيازات قد منح فى وقت مبكر من الوجود الصليبى، على الرغم من أن هذا الوضع كان أمراً ممكنا من الناحية النظرية. والحقيقة أن فكرة الاستحقاق الجماعى للامتيازات كانت هى الفكرة السائدة خلال الفترة الصليبية. وهكذا فإن الامتيازات الباكرة التى منحت للجنوية كانت هى الامتيازات التى منحها لهم الأمير الصليبى بوهمند فى عام ١٠٩٨م فى مدينة أنطاكية ، وامتد هذا النمط من الاميتازات ليشمل القسم الذى فرض على الجنوية تأديته لأمير أنطاكية الصليبى، والذى كان يؤديه أعضاء كوميون جنوا وكل هؤلاء الأسماء الجنوية التى ذكرناهم آنفا، والذين سوف يعيشون فى أنطاكية أو فى أى مكان أو أية منطقة تخضع لسيادة بوهمند، والقادرين على تأدية هذا القسم. وهكذا نشأ نوع من التبعية والرابطة بين الجنوية والأمير الصليبى بوهمند وكانت هذه الرابطة تشمل أى جنوى سيأتى إلى منطقة نفوذ هذا الأمير الصليبى فى المستقبل القريب أو البعيد . وبحلول عام ١١٠٤م منح الملك الصليبى بلدوين الأول امتيازا لكنيسة القديس لورانس الجنوية وهى كاتدرائية القديس لورانزو والتى سوف تلعب من الآن فصاعداً دوراً رئيسًا فى تاريخ المستوطنات الجنوية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى.

وإذا كانت الامتيازات التى منحها الحكام الصليبيون قد شملت الكنائس البيزاوية والبندقية نظرا للدور المهم الذى قام به أساقفتها فى الحملات الصليبية الباكرة ، فإن الامتيازات التى منحت لكنيسة جنوا يؤكد هذا التفسير الخاص لمنح مثل هذه الامتيازات . فقد كان النبلاء التجار من الجنوية يبحثون لأنفسهم عن لقب من وراء الامتيازات التى اكتسبوها منذ بداية الوجود الصليبى. وكان الامتياز الفردى غير مطروح فى مسألة امتيازات

الجنوية. إذ كان امتيازاً جماعيًا وكان منح الامتيازات للكنيسة الجنوية أمراً مقبولاً ظاهراً . وأصبح للهبة والمنحة التى تعطى لأية موسسة دينية مزايا وفوائد جمة واضحة .... الخ . إذ عضدت هذه المنح الامتيازات سلطة رجال الدين الذين ضمنوا للأمير الصليبى وفاء الإيطاليين بوعودهم فى تقديم العون والمساعدة للصليبيين . ويجب أن نتذكر دائما بأن الحملة الجنوية الباكرة جداً كانت تتزامن مع حركة التطور التى شهدها الكوميون والتى أفرزت كوميون جنوا . وعلى الأرجح أن أسقف جنوا قد لعب دوراً مؤثرا وفعالاً فى حركة التطور هذه. وخلال فترة التكوين الحديثة لكوميون جنوا كانت الهبات والامتيازات الصليبية تقدم للجنوية وتمنح لهم باسم الكنيسة الشهيرة للمدينة.

لقد طرحت السمة الجماعية للامتيازات الجنوية مشكلة ، وهى المشكلة التى قلما واجهها القادة الصليبيون من قبل، بمعنى أن الأطراف المتعاقدة الصليبى والجنوى قد حددوا الالتزامات والواجبات المتبادلة بينهما. فقد كان الاتفاق الذى يمنح بموجبه الامتيازات للجنوية يعرف باسم «معاهدة الأمان والسلام» وعرفت معاهدة امتيازات البيازنة باسم «معاهدة الوفاق والميثاق» . ولم يقدم الجنوية يمين الولاء والقسم الاقطاعى للحكام الصليبيين مقابل حصولهم على هذه الامتيازات ، بيد أن القسم الذى كان يؤديه الطرفان الجنوى والصليبى كان قسما متبادلا محدداً مؤداه: ألايعتدى أى طرف على الآخر بالقتل أو بتر الأعضاء ، وألايقوم أى طرف بسجن أى عضو من أعضاء الطرف الآخر، وألا يصادر أى طرف أملاك الطرف الآخر. وكان مثل هذا القسم يمثل شعاراً سياسيًا للمعاهدة التى تبرم بين دول ، كانت ما تزال تطفح بروح الفروسية*. وفى أواخر عام ١١٥٦م اتفق بلدوين الرابع والبيازنة على وقف أعمال العنف المتبادلة بينهما . وبمرور الوقت تغير هذا القسم وأصبح قسما يتسم بمزيد من الفروسية والشرف والكياسة ، فقد اتسم على الأقل بالتزامات ذات أهمية . وفى عام ١١٦٩م أقسم الجنوية لبوهمندا أمير أنطاكية الصليبى قسما مؤداه: أنهم سوف يقدمون له العون والمساعدة، وسوف يحافظون على كرامته وشرفه وتمجيده كثيرا، وأن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن امارته وممتلكاته، وأنهم سوف يحافظون على كل الممتلكات الصليبية ضد أى اعتداء يهددها . ومما يذكر أن القسم الذى كان يؤديه الايطاليون للحكام الصليبيين فى الفترة الباكرة من الوجود الصليبى كان يتسم بالخشونة والصرامة (ويمكن تفسير هذه الخشونة والصرامة فى ضوء ظروف

---

* كان مثل هذا القسم مألوفا فى الجنوب الفرنسى خلال الحقبة الصليبية. (المؤلف) .

التوتر الصليبى فى بداية هذا الوجود الصليبى) وظل كذلك ولاسيما فى أواخر عام ١١٩٣م حينما طلب هنرى كونت شامبنى حاكم المملكة الصليبية من قناصل وأبناء كوميون بيزا أن يقسموا له بأنهم سوف يحافظون على شرفه وحياته وأرضه ضد أى اعتداء طالما أنهم يعيشون فى رحاب مملكته ومنطقة نفوذه.

وتمثلت السمة الخاصة التى ميزت المعاهدات الباكرة بين الكوميونات التجارية الإيطالية وبين الحكام الصليبيين فى ذلك الأسلوب الذى لجأ إليه الحكام الصليبيون لسن قوانين خاصة تستخدم فى فض المنازعات بين الكوميونات الإيطالية وبين الملك الصليبى. وكان من العسير الاعتماد على القوانين الإقطاعية الموجودة لتسوية مثل هذه النزاعات وهى القوانين الخاصة التى كانت ضرورية فى إبرام المعاهدات المحددة. وهكذا فإن بلدوين الأول (عام ١١٠٤م) كان قد ألزم نفسه بأن يفى بمطالب الجنوية الذين يجأرون إليه بالشكوى بعد ثلاثين يوما من تقديم مطلبهم ورفع دعواهم؛ والتزم أيضا برتراند Bertrand أمير طرابلس الصليبى بنفس التعهد تجاه الجنوية بعد رفع الدعوى بخمسة عشر يومًا فقط. ومع ذلك ، لم يذكر أى اجراء للتقاضى بهذا الخصوص ، الأمر الذى يجعل من العسير أن نتصور حدوث إقامة العدالة بشكل عادى ومألوف. وربما كان هذا واضحا بشكل أكبر فى طبيعة التحكيم أكثر منه فى اجراءات التقاضى. وفى فترة متأخرة حاول الحكام الصليبيون اعداد مثل هذه القضايا فى صياغات عادية ، وهكذا فإن بوهمند الذى منح الجنوية امتيازا فى أنطاكية (فى عام ١١٦٩) قد وعد بالنظر فى شكاوى الجنوية خلال أربعين يوما بعد رفع الدعوى (وهى المدة العادية المحددة للنظر فى القضايا الاقطاعية)، وفى حالة حدوث ما يعوق هذا التقاضى (هذه العوائق والعقبات التى كانت متماثلة مع الاجراء الصليبى) فإنه كانت تمد فترة ومدة التقاضى والنظر فى الدعوى المقامة خلال خمسة عشر يومًا تالية للمدة المحددة، وعندئذ كان هذا الاجراء الذى يتخذ بعد هذه المدة يتفق مع قوانين وأعراف المحكمة الصليبية فى أنطاكية.

وكان الوضع الجديد المتمثل فى امتيازات جماعية من ناحية وإقامة وتدشين مملكة صليبية من ناحية أخرى ، يفسر لنا هذه المعاهدات والاتفاقيات بين الحكام الصليبيين وبين الكوميونات التجارية الإيطالية . لقد كانت هذه المعاهدات جزءًا من التجربة الاستعمارية الجديدة، إذ كانت المعاهدة بمثابة التلاقى الأول بين الطرفين الصليبى والايطالى، حيث عرف كل طرف من طرفى المعاهدة (الصليبى والايطالى) اختصاصاته فى ضوء شروط وبنود هذه المعاهدات، ولم تتضح

الفائدة الممكنة لهذه المعاهدات ولم تتضح أيضًا المطالب والدعاوى المضادة لكل طرف من الأطراف المتنافسة . فقد حصل أبناء الكوميونات الايطالية التجارية على كل الامتيازات الرئيسة فى الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، وتزامنت هذه الامتيازات مع حالة التوسع الصليبى الأولى وتأسيس الكيان الصليبى الجديد. وهنا ، نصل إلى مرحلة جديدة للتطور ، هذه المرحلة التى تمثلت فكرتها الرئيسة فى تحديد الوضع القانونى للمكتسبات التى حققها الكوميونات الإيطالية وجها لوجه مع حكام المملكة الصليبية ومكانة أبناء هذه الكوميونات لدى المدن الإيطالية الأم .

وثمة سؤال يطرح نفسه وهو ما هى مصلحة المدن الإيطالية الأم فى مستعمراتها الموجودة فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين؟ وهل كان من المتوقع أن تحصل هذه المدن الأم على موارد مالية مباشرة أو مزايا وفوائد مباشرة من ممتلكاتهم فى هذه المناطق الصليبية؟ فالحقيقة أن الكوميونات الإيطالية حصلت على أحياء خاصة بها فى المدن البحرية المهمة فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس. واشتملت هذه الأحياء الايطالية الخاصة على ممتلكات حقيقية للكوميون وفى بعض الأحيان كانت تضم هذه الأحياء الايطالية موارد مالية محددة من مصادر الدخل المختلفة لصالح الكوميون . ولم تشر الوثائق التاريخية إلى ما إذا كان أى دخل مالى من الموارد المالية المختلف فى المستعمرة قد ذهب إلى المدن الأم. فقد كان أبناء الكوميونات الايطالية والسكان الآخرون الذين يقطنون الحى الإيطالى يدفعون إيجارات مقابل إقامتهم فى البيوت والمساكن التابعة للكوميون أو كانوا يدفعون ضريبة اقطاعية a Cens (مبلغ مالى رمزى اعترافا بالتبعية) مقابل تملكهم للممتلكات التابعة للكوميون . وادخرت بعض المنازل والبيوت لأغراض خاصة، وهى المنازل التى كان يسأجرها مواطنو الكوميون فى أثناء رحلة السفر إلى منطقة الشرق العربى . ولم تكن منشآت الكوميون ذات المنفعة العامة مثل الأفران، والمسالخ، والحمامات تحظى بالأعفاء الصليبى فقط، بل أصبحت هذه المنشآت احتكاراً خاصًا للكوميون . وكانت هناك موارد مالية إضافية أخرى تجلب من عائد الرسوم المالية التى تفرض على المتقاضين من مواطنى حى الكوميون والتى كان يدفعها أيضا سكان الحى الايطالى من غير الإيطاليين فى بعض القضايا المحددة.

وكانت هذه المبالغ المالية من رسوم القضايا وايجارات المنازل فى الحى الإيطالى ذات أهمية كبيرة للكوميون. وكان من الطبعى أن يخصص جزء من هذه الموارد المالية للإنفاق على الإدارة

المحلية، وذلك فى صورة مرتبات للموظفين ، والانفاق على الكنائس الكبرى. وكان هناك حاجة للمال ليكفل سيطرة قوية للسلطات المحلية . وأحيانا ، كانت أموال الخزانة المحلية تستخدم لدفع النفقات الخارجية . فعلى سبيل المثال، أمر الدوج البندقى ماجيور كونسيجليو -Mag giore Consiglio ممثليه فى الأراضى المقدسة أن يرسلوا المال إلى موظفيه فى أرمينيا .

وباتت هناك حاجة إلى المال أيضا خلال فترة الصراع بين أبناء الكوميونات الايطالية فى الأحياء الايطالية فى المدن الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى وذلك لبناء الأسوار والاستحكامات الدفاعية حول هذه الأحياء ، والإنفاق منها على شراء المعدات العسكرية واستئجار المقاتلين للدفاع عن هذه الأحياء ضد هجمات بعضهم البعض، ومن المؤكد أن مثل هذه النفقات كانت تفوق الموارد المحلية للمستوطنات الايطالية. ولكثرة النفقات المحلية الباهظة ، فإننا نشك فى حقيقة ارسال أية مبالغ مهمة إلى المدن الأم.

ومن المنطقى الافتراض بأن المنفعة الذاتية الرئيسة للمدينة الأم لم تتحقق من خلال الموارد المالية التى تجلب من مستعمراتها فى منطقة الشرق العربى، بيد أن هذه المصلحة كانت تتحقق بشكل أكيد فى فتح افاق تجارية ومصرفية أمام مواطنى هذه المدن الايطالية . وكان العائد الحقيقى للمدينة الأم يجلب من طبقة التجار الأثرياء فى الوطن الأم، التى ازدهرت أعمالهم التجارية فى مستعمراتها فى المناطق الصليبية.

وعلى الرغم من الاختلاف الواضح لأغراض العلاقات بين المدن الأم ومستعمراتها الشرقية ، فإن هذه العلاقات قد تطورت فى كل مكان من المناطق الصليبية فى خطوط متشابهة . وفى العادة ، كان هذا يعنى تنظيم هذه العلاقات عن طريق إنشاء آلية حكومية للإشراف على هذه المستوطنات ، وأصبحت هذه الظاهرة ذات أهمية قصوى فى تاريخ الاستيطان . وكانت المستوطنات الإيطالية فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ترتبط أساسًا بالمدينة الأم. بيد أن هذه الرابطة كانت ذات درجات مختلفة ومعان مختلفة أيضًا. وهكذا فإن مدينة جبيل التى كانت تابعة لكوميون جنوا ظل يطلق على جزء منها اسم جنوا فيما وراء البحار حتى بعد أن خرجت هذه المدينة عن السيادة الجنوية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . ونجد مرة ثانية أن ثلث مدينة صور الذى كان تابعًا للسيطرة البندقية لم يتمتع بالحكم الذاتى فحسب، بل كان البنادقة يتمتعون أيضًا بمركز ووضع سياسى مرموق فى المملكة الصليبية لدرجة أنهم اعتبروا هذا الجزء البندقى فى مدينة صور بمثابة جزء من البندقية ومثل هذا النفوذ السياسى للبنادقة

والحكم الذاتى الذى مارسوه فى القطاع البندقى فى مدينة صور لم يكن يطبق عمليا فى الأحياء الجنوية والبيزية فى كل مكان من المدن الصليبية، وليس من قبيل المبالغة إذا قلنا إنه بمرور الوقت تولد اتجاه عام من التطور أدى إلى رفع مكانة وقدر المستوطنات الايطالية ليس فحسب فى مجال التمتع بالحكم الذاتى فى الأحياء الإيطالية فى المدن الصليبية ، بل كانت أيضا هذه المستوطنات عبارة عن كيانات منفصلة سياسيا عن المدن الأم.

والحقيقة أننا لم نعرف أو نتبين كيف استطاعت المدن الإيطالية الأم أن تتولى سلطة الإشراف على مكتسبات مواطنيها فى الخارج. وربما لم تطرح مثل هذه القضايا أمام كوميون بيزا وكوميون البندقية ، وذلك بسبب حملاتهم العسكرية المؤازرة للصليبيين التى حظيت برعاية الدولة منذ البداية . وبالنسبة لكوميون جنوا لم تحظ الحملات العسكرية الجنوية برعاية الدولة. وعلى أى حال، فإنه ليس هناك داع للافتراض بأن تدخل المدينة الأم فى شئون المستوطنات كان يلقى النفور والاستياء والمعارضة من جانب كل من السلطات الصليبية والمستوطنين الايطاليين . واهتم المستوطنون الإيطاليون اهتماما كبيراً باقامة علاقات مباشرة مع المدينة الأم- مصدر القوى والدعم الفعال- وكانت المدينة الأم تجنى الفائدة من وراء هذه العلاقات فى شكل حماية نفوذها السياسى فى هذه المستوطنات.

ولكى تضمن المدينة الأم تطور مستعمراتها فى الخارج بات عليها أن تضطلع بمهمة الإدارة فى هذه المستوطنات . لقد كان النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى بمثابة فترة التجريب والتجربة فى مجال الاستيطان، وتميزت هذه الفترة التجريبية باتجاهين ونزعتين: تمثل الاتجاه الأول فى استخدام الأنماط الإدارية الإقطاعية المعروفة جيداً ، مثل منح الإقطاعات، والاتجاه الثانى تمثل فى إدخال واستحداث نظام بيروقراطى (وظيفى) فى الإدارة فى المستوطنات الإيطالية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى (مناطق ما وراء البحار) وكان مشروع الاستيطان الجنوى هو المشروع الرائد خلال هذه المرحلة التجريبية.

كانت جنوا أول من قامت بتعيين موظفين لحماية أملاكها الجديدة وامتيازاتها فى المناطق الصليبية وعُرف هؤلاء الموظفون باسم الحكام وكان رئيس أساقفة كنيسة القديس لورانس الجنوية هو أول الموظفين الذى تم تعيينه فى منصب وظيفى. وكانت الخطوات التالية عبارة عن محاولة لاستخدام الآلية الإدارية الاقطاعية ، فقد كانت مدينة جبيل أولى الممتلكات التى حصل عليها الجنوية فى الإمارات الصليبية وهى مدينة جبال التوراتية (وهى مدينة بيلوس

التى عرفت فى العصر البيزنطى)، وعرفها الصليبيون باسم جبيل. فقد حصل الجنوية على ثلث هذه المدينة بموجب الامتياز الأول الذى حصلوا عليه من الحكام الصليبيين . بيد أنه فى عام ١١٠٩ حصل الجنوية على كل المدينة ملكا لهم ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يصبح فيها مالك غير اقطاعى يتملك مدينة صليبية كاملة. وقامت جنوا بمنح هذه المدينة كاقطاع لنبلاء أسرة اميرياتش الجنوية ، الذين أصبحوا أفصالا إقطاعيين لكوميون جنوا ، وفى نفس الوقت أصبحوا أفصالا إقطاعيين لكونت طرابلس الصليبى . ومن الناحية القانونية ، كان كونت طرابلس الصليبى هو السيد الإقطاعى الأعلى لأفراد أسرة أميرياتش الجنوية الحاكمة فى جبيل، بيد أن نبلاء أسرة أميرياتش سادة جبيل كانوا فى نفس الوقت كما ذكرنا آنفا أفصالا اقطاعيين لكوميون جنوا أى لكنيسة جنوا. ولايمكن تفسير هذه العلاقة الإقطاعية على أنها ولاء وتبعية إقطاعية حقيقية للكونت الصليبى بالمعنى الاقطاعى أوأنها علاقة اقطاعية صغرى (صغار الأفصال) للكوميون . ومن الناحية النظرية كان على نبلاء أسرة أميرياتش الحاكمة فى جبيل أن يقدموا اثنين من القسم الاقطاعى لاثنين مختلفين من كبار السادة الاقطاعيين مقابل تملكهم لمدينة جبيل، والسادة الاقطاعيين هما كوميون جنوا والكونت الصليبى. وكان منح جبيل للجنوية ومنحهم أيضا الممتلكات الأخرى فى صورة إقطاع فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام يتم وفق شروط متبادلة محددة للغاية. ولم نعرف شروط هذه المنح قبل منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، بيد أنه فى عام ١١٥٤ وهو عام الأزمة التى أعقبت فشل الأسطول الجنوى فى غرب البحر المتوسط - قام كوميون جنوا بالزام أعضاء أسرة اميرياتش التى تشرف على ممتلكات الكوميون فى أنطاكية بدفع بعض المبالغ المالية لمدة الثمانية والعشرين عاما القادمة وهى عبارة عن ٨٠ ثمانين من الجنيهات الجنوية تدفع للكوميون سنوياً طوال المدة السابقة مقابل أملاكها فى جبيل واللاذقية ، ومبلغ ٢٧٠ بيزنت تدفع لمذبح كنيسة القديس لورانس فى جنوا مقابل أملاكها فى طرابلس ، ومبلغ ٥٠ جنيه جنوى مقابل أملاكها فى عكا (وأصبح على أعضاء أسرة أميرياتش أن تدفع ١٠٠ جنيه جنوى لمدة السنوات الأربعة القادمة).

وكان تقليد سلطة الحكم فى جبيل أمراً سياسيًا . فقد تسلم وليم أميرياتش من كوميون جنوا من خلال برلمان عام «راية حريرية كرمز لتقليده منصب الحاكم للأماكن التى ذكرناها آنفا» حتى انتهاء المدة المحددة لحكمه . فقد اعتبر الحكام الجنوية هذا التقليد محدد المدة، ولذا كانوا يطلبون دائما تجديد هذا التقليد فى نهاية المدة المحددة. ولذا وعد وليم اميرتاتس Wil-liam Embriaco بأنه «سوف يستمر فى حكم هذه الأماكن السابقة وفقًا لإرادة قناصل جنوا

حتى تنتهى المدة المحددة لحكمه لهذه المناطق». ويبدو أن دفع الأموال المتفق عليها لكوميون جنوا قد استمر حتى عام ١١٦٨م، بيد أنه فى عام ١١٧٩ تملص وليم أمبرياتش من دفع هذه المبالغ المقررة للكوميون ، وفى عام ١١٨٦ تملص أيضا من دفع هذه المقررات المالية للبابا أربان الثالث الذى هدده بفرض عقوبة الحرمان الكنسى عليه ومصادرة إقطاعه ، بيد أن هذه التهديدات البابوية لم تصبح ذات طائل . فقد خسر كوميون جنوا مدينة جبيل وأصبح إقطاعة لأعضاء أسرة اميرياتش ، وهى الأسرة التى حكمتها مقابل تأدية خدمة اقطاعية لكونت طرابلس الصليبى. وظلت هناك بعض الروابط والعلاقات بين جنوا ومستعمراتها الخارجية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى وذلك بسبب وجود المستوطنين الجنوية فى جبيل ، بيد أنه لم تقم علاقات أساسية بين هذه المستوطنة الجنوية فى جبيل وبين جنوا . والحقيقة أن تحرر أسرة أميرياتش من العلاقة الاقطاعية التى تربطها بكوميون جنوا لم يشمل كل الممتلكات الجنوية. وخلال الحملة الصليبية الثالثة قدمت جنوا مساعدات ضخمة للدفاع عن مدينة صور وقامت بنقل الجيوش الصليبية على متن سفنها (وكان لنقل الجيوش الصليبية اعتبارات مهمة) ، ولذا استطاع كوميون جنوا أن يسترد امتيازاته وممتلكاته خارج مدينة جبيل.

لقد أخفقت التجربة العملية للحفاظ على الامتيازات والممتلكات الاستيطانية الإيطالية من خلال الإدارة الإقطاعية وانتهت هذه التجربة بكارثة . وعرف هذا الدرس ووعى جيداً ولم يتكرر مرة ثانية فى المملكة الصليبية . فلم تحاول بيزا تطبيق مثل هذا النظام الاقطاعى فى مستوطناتها الخارجية فى المناطق الصليبية فى حين طبقتها البندقية جزئيا بحكمه ودراية . وعندما عقدت معاهدة سنة ١١٢٣م، التى منحت للبندقية ثلث مدينة صور الصليبية قام الملك الصليبى بلدوين الثانى فى عام ١١٢٥م باقرار هذه المعاهدة ، واشترطت هذه المعاهدة أن يقدم الكوميون البندقى فى المستقبل ثلاثة من الفرسان المحاربين لجيس الملك الصليبى كخدمة اقطاعية عسكرية. وعندئذ منح الجنوية جزءا من ممتلكاتهم للنبيل البندقى رولاند كونتارين Roland Contarenus وألزموه بتقديم هذه الالتزامات العسكرية المستحقة للملك الصليبى. وتجاوزت هذه الأملاك الممنوحة للبنادقة قيمة الخدمة العسكرية المستحقة عليها . فكانت هذه الممتلكات والأملاك البندقية عبارة عن ١٠-١٢ قرية كاملة (من اجمالى ٢١ قرية) وكان للكوميون أملاك فى هذه القرى. وكانت هناك أسرة نبيلة حاكمة بندقية وهى أسرة بانتاليون Pantaleon تسلمت اقطاعات من الكوميون البندقى مقابل خدمات غير معروفة على وجه

الدقة. وهكذا تم تقسيم أكثر من نصف الممتلكات الريفية لكوميون البندقية . وفى تلك الآونة استطاع البنادقة التمرس على مصاعب الادارة وأخطارها من خلال المؤسسات الاقطاعية ، فقد أوصت أرملة رولاندكونتارين Ronland Contarenus السيدة جويد Guide بأملاكها ونفسها مباشرة إلى الملك الصليبى (بعد عام ١١٦٤) هذا الملك الذى ألحق هذه الممتلكات بالإرث الاقطاعى الملكى وضمها إلى الأملاك الملكية.

وكانت المسافة البعيدة بين المستوطنة الإيطالية والمدينة الأم يجعل من الاشراف والسيطرة الاقطاعية على هذه المستوطنة أمراً صعبًا . وأصبح من مصلحة كل من كونت طرابلس الصليبى والملك الصليبى فى بيت المقدس خرق هذه الامتيازات التى منحوها لأعضاء وأبناء الكوميونات الايطالية بسخاء، وذلك من خلال قنوات إقطاعية محفوفة بالمخاطر . ومن هنا بات من المنطقى أن يعتمد تطوير أى نظام ادارى آخر على أسس بيروقراطية. والحقيقة أن نواة النظام الادارى للمستوطنات الايطالية فى المملكة الصليبية قد تأسست بعد المنح والامتيازات الباكرة التى اعطيت للكوميونات الايطالية فى المناطق الصليبية، ولاسيما بعد أن عاد المشاركون فى الحملات الصليبية العسكرية إلى أوطانهم فى أوربا . وكان لقب الموظف الأول المهم فى هذا النظام الادارى الباكر غير واضح وغير معروف *. وبعد مدة عرف هذا اللقب باسم الفيسكونت Viscount وهو اللقب الذى أثيرت حوله الكثير من القضايا حول أصله. وباستثناء البندقية، عرف هذا اللقب فى كل المستوطنات الايطالية فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس. بيد أن هذا اللقب أيضا وجد فى الآلية الادارية للمملكة الصليبية ، ولم يكن هذا المنصب الوظيفى الحكومى فى الجهاز الادارى الصليبى وراثيا ، فقد وجد هذا المنصب أولا فى الجهاز الادارى فى المدن الملكية الصليبية ، ثم عرف بعد ذلك فى المدن التابعة للامارات الصليبية . إذ كان الفيسكونت يرأس المحكمة البرجوازية . وهكذا يمكن أن ننسب هذا اللقب (الفيسكونت) إلى الأصل الايطالى أو هل يمكننا أن نفترض بأن الإيطاليين قد أخذوا هذا اللقب ونقلوه عن النظام الإدارى الصليبى؟ ومن سوء الحظ أن كل المصادر التاريخية لم توضح هذا ، ومهما كان الحال، فإن لقب فيسكونت Vicecome قد وجد فى جنوا فى ذلك الوقت وكان لهذا اللقب دلالته الاقطاعية المحددة. إذ كان الفيسكونت سيدا اقطاعيا أعلى فى مدينة

---

* ظل لقب الفيكونت Viceomes لأول مرة فى كونتية طرابلس بعد الاحتلال الصليبى لمدينة جبيل ، واحتفظ الكونت الصليبى لنفسه بثلثى هذه المدينة (المؤلف) .

جنوا وفى كونتادو Contado . وظل أعضاء أسرة القنصل (الذين ينحدرون من نسل القنصل يـــدون Ydo منذ القرن العاشر الميلادى) يمارسون سلطتهم السياسية الواسعة فى جنوا حتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، وجاء عدد كبير من قناصل الكوميون الجنوى من فروع مختلفة من هذه الأسرة (عائلة القنصل يدو Ydo)، على الرغم من أن الوظيفة الاقطاعية القديمة لم تكن قد أنشئت . ومع تأسيس الكوميون أصبح القناصل هم كبار الموظفين الاداريين. وإذا اعتبرنا أن لقب «القنصل » كان ذا أصل جنوى، فإننا سوف نصطدم بظاهرة غريبة ، وهى نقل مؤسسة ونظام ادارى جنوى إلى منطقة الشرق العربى، فى الوقت الذى انهار هذا النظام واختفى فى المدينة الأم (جنوا) . ويبدو أن هذا النظام الادارى (نظام القنصل) كان غريبًا ، وسوف نجد ظاهرة مشابهة فى تطور الادارة الجنوية فى الفترة الأخيرة فى المستوطنات الجنوية الخارجية التى كانت توجد فى المملكة الصليبية والامارات التابعة لها . ومهما كان الأصل الإيطالى للقب فيسكونت الذى عرف فى النظام الادارى فى المستوطنات الايطالية فى المناطق الصليبية (وهو اللقب الذى اقتبسه البروفنسال والقطالونيون) ، فإن كوميون بيزا فى الربع الثالث من القرن الثانى عشر الميلادى هو أول من أدخل لقب القنصل فى الجهاز الادارى فى عام ١١٧٩م، وبعدها أدخل باقى الكوميونات الايطالية هذا اللقب إلى الجهاز الإدارى فى مستوطناتهم الخارجية فى المناطق الصليبية كموظف جديد. وأصبح الفيسكونت موظفًا تابعًا للقنصل فى إطار تسلسل الدرجات الوظيفية الإدارية ، على الرغم من أنه أحيانا كان لقب الفيسكونت مقرونا بلقب القنصل الجديد. ولم يكن التغيير فى اللقب الوظيفى الادارى من قبيل المصادفة ولكنه كان يشير هذا التغيير إلى تنامى أهمية المستوطنات الايطالية الخارجية لدى المدن الايطالية الأم. وتطابق لقب «القنصل» مع لقب أعلى موظف فى الجمهورية البندقية الارستقراطية . ومما يذكر أن البندقية فقط هى التى تجنبت هذا اللقب ولم تدخله فى جهازها الادارى ، بيد أن اهتمامها الخاص بأملاكها وممتلكاتها فى مستوطناتها الخارجية قد ظهر جليا من خلال تعيينها موظف كبير يحكم هذه المستوطنة وعرف هذا الموظف الكبير باسم البايل bailus .

وفى أثناء العصر الثانى من المملكة اللاتينية فى بيت المقدس (١١٨٧-١٢٩١م) ، تم إشراف وسيطرة الكوميونات الايطالية على مستوطناتها الخارجية بشكل أفضل، أو ربما أحكمت هذه المدن الأم (البندقية- جنوا- بيزا- أمالفى) سيطرتها تماما على هذه المستوطنات. وحاولت كل هذه الكوميونات الايطالية اقامة تمثيل مركزى لها فى مستوطناتها فى منطقة الشرق العربى. ووجد ممثلو هذه الكوميونات فى مدينتى عكا وصور. وهكذا أصبح البايل

bailus البندقى يمثل أعلى سلطة ادارية للمستوطنات البندقية فى بلاد الشام ، بحيث يخضع تحت سيادته الموظفون المحليون البنادقة ، وعرف الموظف المحلى البندقى الأدنى باسم الفيسكونت. وأنشأت جنوا وبيزا نظاما اداريًا مميزاً ومهمًا، وكان هذا النظام عبارة عن اثنين من القناصل العموميين، وأحيانا كان هؤلاء الموظفون يعرفون باسم «قناصل وفيسكونتات بلاد الشام» وكان صغار الموظفين يعرفون بنفس هذه الألقاب ، بيد أن اختصاصات صغار الموظفين كانت محددة فى ضوء تعليمات وأوامر القنصل المقيم فى المدن المهمة مثل عكا، أو بيروت ، أو صور . وبدأت بيزا نظامها الادارى باثنين من القناصيل فى عام (١١٩٢م) مثل جنوا ، ولكنها أضافت قنصلاً ثالثا وبعد ذلك أضافت قنصلا مرة ثانية، وكان يعرف باسم «قنصل كوميون البيازنة فى عكا وكل المستوطنات البيزية فى بلاد الشام». واتسم هذا النظام الادارى الذى أدخله كوميون بيزا بالكفاءة والفعالية ، ولكن من المحتمل أن هذا ا النظام الإدارى البيزاوى كان نظاما للسيطرة المتبادلة . وثمة نظام إدارى غريب سوف نذكره وهو الاتحاد الفيدرالى لكوميونى البروفنسال والقطالونيين فى مدينة صور وذلك فى شكل ستة أو سبعة من القناصل ومحكمة عامة، يرأسها فيسكونت . وكان لكوميون مرسيليا ومونبيليه اثنان من القناصل يقيمان فى مدينة عكا. وكان يتم تنظيم اجراء تعيين هؤلاء الموظفين وتحديد اختصاصاتهم فى هذه المستوطنات الإيطالية الخارجية الموجودة فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام . وهكذا فإن الدوج البندقى ماجيور كونسيجليو Maggior Consiglio كان يناقش أدق تفاصيل موضوع اختيار البايل baiulo البندقى واختصاصاته ونشاطه فى المستوطنات البندقية فى المملكة الصليبية. إذ كان يتم اختيار البايل البندقى ومستشاريه فى مدينة البندقية وفيها أيضا كان يتقرر رحيلهم إلى هذه المستوطنات لتسلم وظائفهم المرتقبة (وكان هؤلاء يعرفون باسم السادة) وتسلم التعليمات والأوامر المهمة التى كان يصدرها الدوج البندقى ماجيور كونسجليو من وقت لآخر وهى التعليمات والقرارات المهمة التى كانت ترسل إلى المستوطنات البندقية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين. وكان يعمل تحت تصرف البايل البندقى بشكل مباشر جندى مشاه a Sergeant لحراسته وحامل للدروع Squire بالإضافة إلى كاتب حكومى رسمى Official notary . فقد كان البايل البندقى ومستشاروه يمثلون المدينة الأم (البندقية) فى علاقاتها مع المستوطنين وعلاقاتها أيضًا مع السلطات الصليبية . وهكذا استطاعت المدينة الأم أن تبسط سيادتها على مستوطناتها الخارجية من خلال هذه البايل ومستشاريه ، وذلك عن طريق الأوامر والقرارات التفصيلية المهمة التى كانت

تصدر من المدينة الأم. ومن ناحية أخرى، فإن البايل البندقى مارسيجليو زورزى Marsiglio Ziorzi قد تمتع بحرية المشاركة فى القضايا السياسية المهمة فى المملكة الصليبية، على الرغم من أن هذا الدور الذى لعبه هذا البايل البندقى ربما كان فى اطار التعليمات الصادرة له من الدوج البندقى ماجيور كونسيجليو. وكما كان الوضع بالنسبة لموظفى الكوميون، وكان البايل ومستشاروه والكاتب الرسمى يتقاضون مرتبات شهرية*، وقد توفرت لهم نفقات ومخصصات مالية سخية . وكان هناك اثنان من الموظفين التابعين يساعدون البايل فى ادارة أملاك الكوميون وهما الحاجبين أو أمناء الخزانة والمال (Chamberlain) . ومن اختصاصات هذين الموظفين الاشراف على أملاك الكوميون المستأجرة ، وتحصيل هذه الايجارات وارسالها إلى خزانة الكوميون (Caeslla Communis) ، وحفظ دفاتر الحسابات (quaterna). ومما يذكر أن البايل ومساعدوه . قد اعتادوا فحص دفاتر الحسابات هذه وكذلك زيارة الأملاك الكوميونية . وكانت رئاسة البايل البندقى لمحكمة البنادقة فى الحى البندقى المتمتع بالحكم الذاتى لاتقل أهمية عن اختصاصاته الأخرى. وهى المحكمة التى كان يعهد إليها النظر فى جزء من القضايا العامة فى المملكة الصليبية . وفى الغالب، كانت محكمة البنادقة تعقد للنظر فى المنازعات التى تنشب بين كل سكان الحى البندقى (بما فيهم سكان الحى من غير البنادقة). وبالإضافة إلى ذلك، كانت من اختصاصاتها أيضا تسجيل العقود التجارية التى تبرم بين التجار البنادقة . وكان تسجيل هذه العقود يتم فى حضور البايل البندقى وتحت اشرافه ، ويشهد عليها مستشاروه . واتسم اشراف البايل على هذه المحكمة بالقوة والصرامة . وحرم على البايل البندقى نقل متاجر خاصة به عند ذهابه إلى منطقة الشرق العربى لاستلام عمله، على الرغم من أنه لم يتضح لنا ما إذا كان البايل البندقى قد حرم من ممارسة التجارة فى أثناء وظيفته . وفى محاولة لمنع التحيز والمحاباة لم يكن يسمح للبايل البندقى نقل أى أملاك كوميونية أو التنازل عنها لأى فرد من أفراد عائلته بالبيع أو الهبة ، والأمر اللافت للنظر هو

---

* كان البايل البندقى يتقاضى راتبا سنويا قدره ١٤٠٠ بيزنت، وهو ما يعادل تقريبًا اقطاعات ثلاثة من الفرسان؛ وكان الجندى المشاه Sergeant يتقاضى راتبا شهريا قدره ٢٥ بيزنت وثوبين من القماش ، وذلك وفقا لقرار أصد رفى عام ١٢٧٠م. ففى عام ١٢٧٦ تقرر أن يتقاضى الجندى المشاه المرافق للبايل ١٢ بيزنت شهريا بالإضافة إلى ٣ بيزنتات للنفقات . وحصل هؤلاء الموظفون على نفقات النقل : فكان البايل يتقاضى ٤٠ دينار بندقى و ١٠ دينار بندقى مقابل نقل حصانه (المؤلف).

كيف استطاع ماجيور كونسيجليو وهو يجلس فى البندقية أن يتدخل لتسوية الأعمال التجارية اليومية فى مستوطنته ، على الرغم من أن بعض الأوامر والتعليمات الصادرة من البندقية تعتبر جزءاً من السياسة العامة والتى كانت تطبق فى المستوطنات الايطالية فى المملكة الصليبية. ففى عام ١٢٧٢م أصدرت البندقية قرارا يلزم عشرين شخصًا من كبار الأثرياء البرجوازية البنادقة الذين يقيمون فى مدينة عكا بأن يمكثوا داخل أسوار وبوابات الحى البندقى فى عكا لمدة عام كامل على الأقل. وقبل ذلك بعام وفى سنة (١٢٧١م) كان المجلس التشريعى البندقى قد تخلى عن قراراته وأعطى لليهود (والذين ربما كانوا من سكان الحى البندقى السابقين أى كانوا يستقرون فيه قبل الوجود البندقى ، والذين كانوا يخضعون لمحكمة البنادقة) حق الاقامة والسكنى داخل الحى البندقى. وأصدرت الأوامر للمستوطنين البنادقة فى الحى البندقى بعدم تأجير بيوتهم ومنازلهم ودكاكينهم وحوانيتهم فى عكا حتى يتم تأجير بيوت ودكاكين ومساكن الكوميون وذلك لتأكد نفوذ وسلطان الكوميون وحماية مصالحها فى هذه المستوطنات . وفى نفس الوقت أصدر الدوج البندقى قوانين وقرارات ذات طبيعة سياسية وتجارية للبايل البندقى وكلفه بتنفيذها. وأهم هذه القرارات هو قرار يحظر على التجار البنادقة نقل السلع الاستراتيجية مثل الحديد والأخشاب من أوربا وتصديرها إلى الأسواق الإسلامية دون تصريح خاص من البايل البندقى. وكان الهدف من هذا القرار هو وقف عملية تهريب هذه المواد التجارية الاستراتيجية (الحديد والأخشاب) اللازمة للبناء إلى الأقطار الإسلامية وثمة قرار آخر أصدرته السلطات البندقية يمنع الاستيراد من الأسواق الإسلامية فى الشرق العربى مالم تكن أملاك وبضائع بندقية.

ووجد مثل هذا التشريع الخاص بحظر تصدير واستيراد بعض السلع إلى الأسواق الإسلامية أيضا فى كوميون بيزا. وتجدر الإشارة إلى أن القنصل البيزى فى عكا وفى كل أنحاء بلاد الشام وأيضًا مستشاريه الاثنين والكاتب كان كل هؤلاء يتم اختيارهم عن طريق الاقتراع السرى الذى يجرى تحت إشراف ماجيور كونسيجليو وذلك فى حضور اثنين من الرهبان الفرنسيسكان واثنين من الرهبان الدومينيكان فى كاتدرائية المدينة ، وكان الأشخاص الذين يقع عليهم الاختيار يتقلدون وظائفهم طوال حياتهم ، وكانت عملية اختيار هؤلاء الموظفين هذه، تعنى أن كل قنصل جديد كان عليه أن يصطحب معه طاقما إداريا جديداً وكاملا من الأشخاص. وكان جميع هؤلاء الموظفين يتقاضون مرتبات وهى المرتبات التى كانت تعرف باسم

الاقطاعات، ومن المحتمل أن هذه المرتبات والأجور كانت تدفع من الموارد المالية المحلية للمستوطنة . وتجدر الإشارة إلى أن مستشارى القنصل ، كان أحدهما محاميا Lawer iuris peritus والآخر كان تاجراً ثريا مشهوراً (Publicus mercator) . لقد كانت التشريعات البيزية تؤكد وتشدد على أهمية الحفاظ على امتيازات البيازنة وحق التمتع بالحكم الذاتى. وهكذات كانت هذه التشريعات تفرض غرامة مالية ثقيلة الوطأة على القنصل إذا سمح لأى شخص من غير البيازنة التمتع بامتيازات الاعفاءات الجمركية فى ميناء عكا.

ولكى نعقد مقارنة بين هذا التشريع البيزى وبين غيره من التشريعات الأخرى يجب علينا أن نحلل التشريع الشبيه له فى مرسيليا، وهو التشريع الذى حظى بالاهتمام ليس فقط بسبب أنه يتعامل مع كوميون غير ايطالى، ولكن أيضًا ترجع أهميته إلى أن المارسيليين الذين جاءوا إلى المملكة الصليبية فى فترة متأخرة قد تمتعوا بقليل من الامتيازات . وهكذا كانت إدارة وتنظيم كوميون مرسيليا لمستوطناتها فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين يمثل مرحلة أولية إلى حد كبير، وهو التنظيم الذى كان يوجد فى الكوميونات الايطالية قبل الحقبة الصليبية بمائة عام على الأقل، فلم يكن للمارسيليين قنصل- وتؤكد ذلك القوانين البلدية المحلية المارسيلية - فإذا تواجد فى المدينة الصليبية عشرين من المستوطنين من مرسيليا ، فإنهم كانوا ينتخبون من بينهم قنصلاً يقوم بمهام واختصاصات هذه الوظيفة . وبالنسبة للمدن التى كان يتواجد بها أعداد كبيرة من أهالى مرسيليا فإن السلطات المارسيلية المحلية كانت تختار القنصل المارسيلى ومستشاريه ، وكانت لجنة اختيار هؤلاء الموظفين تضم رئيس أساقفة كنيسة مرسيليا ، وعمدة المدينة ، ورؤساء النقابات . وعلى الرغم من أن القنصل المارسيلى المنتخب كان قنصلاً رسميا، فإن مكانته اختلفت عن وضع زملائه البيازنة والبنادقة . إذ كان هذا القنصل المارسيلى فى الأصل تاجراً يعمل فى تجارة الشرق، وهو من نمط الرجال الذين حرموا من هذه الوظيفة فى البندقية . بيد أن كوميون مرسيليا كانت تحظر هذه الوظيفة (قنصل) على أى شخص يتمتع بامتياز ووضع شخصى فى بلاد الشام، كما كانت تحظر وظيفة القنصل المارسيلى أيضا على أصحاب وقادة السفن. وإذا رفض شخص هذا المنصب فإنه يقع تحت طائلة عقوبة الغرامة المالية الباهظة . ومن اختصاصات القنصل المارسيلى ومستشاريه وجهازه الإدارى حماية امتيازات الكوميون ، وحماية الأعمال التجارية للتجار المارسيليين، وأيضا النظر فى القضايا وتسوية المنازعات بين الأفراد ، وتسجيل الصكوك والعقود التجارية. وامتدت سلطات القنصل المارسيلى أيضا إلى فرض الغرامات المالية على المستوطنين

المارسيليين ، بيد أن الكاهن ورئيس الأساقفة المارسيلى كان فى استطاعته أن يلغى هذه الغرامة . لقد كان القناصل بشكل عام مسئولين عن حفظ سجلات ودفاتر المحكمة واسندت هذه المهمة إلى كاتب المحكمة ، وإذا تغيب هذا الكاتب تعهد هذه المهمة إلى كاتب السفينة . وعندما كان يعود القنصل وموظفوه إلى مرسيليا فإن هذه السجلات والدفاتر تودع فى خزانة المحكمة . ويبدو أن الموظفين المارسيليين لم يتقاضوا مرتبات . ولكنهم كانوا يتقاسمون فى نصف الغرامات المالية مع سلطات مرسيليا *. وكانت هناك وظيفة ادارية مهمة فى الجهاز الإدارى فى المستوطنات الايطالية فى المملكة الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين وهى تلك الوظيفة التى كان يتقلدها رئيس الفندق (الفنداقى) Fondaco ، وشريكه الذى كان يعرف باسم محصل أجرة الشحن والنقل nabelinus**. ويبدو أن الفنداقى ومحصل أجرة الشحن والنقل كانا من المستقرين الدائمين فى المستوطنة ، وعلى الرغم من أنهما كانا تحت سيادة وحكم القنصل ، فإن هؤلاء الموظفين (الفنداقى ومحصل أجرة الشحن والنقل) كانوا يتقلدون وظائفهم فى شكل منحة من رئيس أساقفة كنيسة مرسيليا ، حيث كانوا يؤدون القسم الخاص بهذه الوظيفة .

جـ- المجتمع الاستيطانى

لقد تمخض عن الحملة الصليبية الأولى احتلال الصليبيين مناطق عديدة فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى بلاد الشام وفلسطين، وإنشاء هيكل طبيعى من الأرض امتلأ بموجات بشرية أوربية نزحت إلى هذه المناطق ، ولاسيما الفرنج الفرنسيين وتأسست الإمارات الصليبية ونشأ مجتمع صليبى جديد، وإذا كان الغزو الصليبى الحقيقى الفعلى عبارة عن عملية قصيرة جداً فإن عملية التنظيم السياسى والاجتماعى للمجتمع الصليبى الجديد استغرقت جيلين حتى أصبح هذا التنظيم وهذه المؤسسات قادرة على ممارسة وظيفتها بكفاءة ، واقتدار .

---

* كان القنصل المارسيلى يتقاضى عشر القيمة فى القضايا التى تعادل قيمتها أكثر من ١٠ بيزنتات وذلك من الخاسر، وثلث القيمة فى القضايا التى قيمتها تعادل أقل من ١٠ بيزنتات من الطرف الذى يخسر هذه القضية. (المؤلف) .

** لم يتضح أصل كلمة nabelinus وربما تكون هذه الكلمة مأخوذة عن كملة nabulum التى تعنى أجرة الشحن أو النقل ، ولذا يمكن ترجمة هذه الكلمة بأنها محصل أجرة النقل والشحن (المؤلف) .

ولم يكن تطور الأنماط السياسية والاجتماعية لهذا المجتمع الصليبى من قبيل المصادفة، وبداية لايمكن أن نتخيل أيضا أن البناء الاجتماعى لهذا المجتمع الصليبى كان متماسكًا. ومع ذلك، فإن الدولة أو المجتمع لم ينتهج برنامجًا سياسيًا ، إذ كان رجال الدين الأوربيين الكاثوليك لديهم القوة الكافية للتغلب على الخلاف المستعر الناشب بين الأطراف المتنافسة . وتمركز السكان الصليبوين فى الأراضى العربية وفقا لمجموعاتهم الكبرى وأصولهم العرقية والثقافية ، فاستقر النورمان فى أنطاكية وتمركز البروفنسال فى طرابلس . وكان سكان المملكة الصليبية خليطا من الصليبيين الأوربيين، بيد أن العنصر السكانى السائد فى هذه المملكة كان نازحًا من الشمال الفرنسى، وساعد هذا التمركز السكانى الصليبى فى الداخل على التكامل السكانى ، على الرغم من أن هذا التمركز السكانى الصليبى الداخلى قد أدت إلى تدهور بعض الكيانات العرقية أو الثقافية الأخرى.

واستطاع المهاجرون الصليبيون أن ينقلوا إلى مجتمعهم الجديد فى بلاد الشام وفلسطين تقاليدهم وعاداتهم وثقافتهم الأوربية. ومهما تعددت العناصر الاجتماعية الأوربية التى استقرت فى هذه المناطق الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى والفترات التالية لها، فإن هذه العناصر الصليبية استطاعت أن تنشىء نمطا من المجتمع الأوربى. واستطاع الحراك الاجتماعى الذى كان من أبرز سمات الأقطار الأوربية التى نزح منها هؤلاء السكان الصليبيون أن يرفع الرتب الاجتماعية وأن يملأ الثغرات والفجوات التى وجدت بين هؤلاء السكان المستقرين . وكانت إحدى الملامح المهمة للبناء الاجتماعى الصليبى تختلف عن ملامح البناء الاجتماعى فى الأقطار الأوربية التى نزح منها السكان الصليبيون. إذ كان المجتمع الصليبى مجتمعًا إقطاعيًا فقط، ولم يعرف هذا المجتمع الصليبى الأوربى القنية أو العبودية *. ولم تعرف الرتب الاجتماعية فى المجتمع الصليبى أى نمط من التبعية القانونية أو الاقتصادية . وعلى الرغم من تدرج الرتب الاجتماعية فى المجتمع

---

* لم تعرف العبودية أو القنية فى مجتمع الفرنجة فى منطقة الشرق العربى، وإن كانت قد وجدت بشكل قليل جدا بسبب وقوع الأسرى فى أثناء الحروب بين الطرفين الإسلامى والصليبى ، وهم الأسرى الذين انحدروا إلى مرتبة العبيد ، وتم استغلالهم فى مجال بناء وتشييد التحصينات والقلاع . وقامت الهيئات الدينية العسكرية باستغلال هؤلاء الأسرى واستخدمتهم كصناع وأرباب حرف . =

الصليبى، فإن هذا المجتمع كان مجتمع أحرار، يتمتع أعضاؤه من الصليبيين بمكانة ووضع قانونى أرقى من أى وضع قانونى يتمتع به السكان المحليون الذين يعيشون وسط هذا المجتمع الصليبى. ولم تحدد لنا النظريات الاجتماعية هذا الاختلاف الجدير بالملاحظة : هذا الاختلاف الذى اعتمد على منطق الأيديولوجية الصليبية ، هذه الأيديولوجية التى منحت الحرية لكل الجموع الصليبية المشاركة فى الحروب الصليبية ولاسيما المحاربين من غير الأحرار أى الاقنان والعبيد والفلاحين غير الأحرار. فالقن الذى يظفر فى الوصول إلى المملكة الصليبية يصبح حراً بشكل تلقائى ولايمكن لأحد أن يحط من قدره أو يحوله إلى نظام العبودية أو القنية، وهو النظام الذى لم يكن موجوداً فى المملكة الصليبية. وهكذا أقام المستعمرون الجدد مجتمعهم الصليبى الخاص وتم اعفاؤهم من القنية أو العبودية . ومارس السكان المحليون المقهورون أعمال الزراعة وفلاحة الأرض ، واستطاع هذا المجتمع الجديد أن يبتكر نمطا ونظاما للتعايش مع السكان المحليين . ومن الناحية النظرية ، كانت هناك ثلاثة حلول اجتماعية ممكنة هى : أولا : مجتمع لاتينى مسيحى صرف على نحو محصور ، ثانيا: أو مجتمع مختلط من الأوربيين الغربيين والشرقيين المحليين (المسلمين والمسيحيين) ، ثالثا: أو مجتمع خليط من البيزنطيين والمسيحيين الشرقيين. وكانت الإمكانية الاجتماعية الأولى تعنى حدوث عملية احلال صليبى وطرد السكان المحليين ، وكانت عملية الإحلال الصليبى تتم من خلال المستوطنين المهاجرين الذين يحلون محل السكان المحليين وخلق مجتمع قابل للنمو حيث استطاع القادمون الأوربيون الجدد القيام بكل المهام الاقتصادية والوظائف الاجتماعية ... الخ . إذ كان الفلاح ، والتاجر ، والصانع ، والموظف - المحكومين والحكام- من بين السكان الأوربيين المستوطنين . وكان المجتمع الآخر- وهو المجتمع المختلط من الأوربيين والشرقيين المحليين (المسلمين والمسيحيين) . يعنى الحفاظ على السكان المحليين واستعبادهم ، واستخدامهم كمصدر للدخل وذلك عن طريق استخدام النفوذ السياسى والعسكرى على السكان المحليين.

= ونعرف أيضا أن هؤلاء العبيد (أسرى الحرب) لم يعملوا فى مجال الزراعة ، على الرغم من أنهم أحيانا كانوا يستخدمون فى الأعمال المنزلية. وفى الغالب كانت المصادر الصليبية تخلط بين هؤلاء الأسرى (العبيد) وبين صغار الأقنان . (المؤلف) .

والحقيقة أن الواقع الديموغرافى (السكانى) هو الذى كان يقرر أحد هذين الاختيارين والنوعين من المجتمعات . وتقدر المصادر التاريخية عدد الصليبيين المحاربين الذين حاصروا مدينة بيت المقدس (فى يولية ١٠٩٩م) بحوالى عشرين ألفا. وكان عدد أفراد هذا الجيش الصليبى كبيراً، واستطاع هذا العدد أن يصبح عاملا مهما فى احتلال الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام والاستقرار بها. وبعد شهور قليلة- وفى نهاية عام ١٠٩٩م - تضاءل عدد الصليبيين بشكل خطير وتقلص إلى مئات من الأسر والفرسان والعامة. فلم تكن الأرض التى استقر بها الصليبيون فى المنطقة العربية خالية من السكان أو مأهولة بها. وهنا لجأ الصليبيون إلى طرد وابعاد السكان المحليين (كما حدث فى المدن العربية التى احتلها الصليبيون قبل عام ١١١٠م) وأصبح هذا الطرد والإبعاد للسكان المحليين سلوكا صليبيًا عمليًا ، إذ تقاطرت موجات من الأوربيين المهاجرين إلى هذه المناطق ، وأصبح لديهم الاستعداد النفسى للاستقرار الدائم فى هذه المدن والمناطق الجديدة التى احتلها الصليبيون فى منطقة الشرق العربى الإسلامى والعمل كفلاحين . بيد أن مهنة الزراعة والفلاحة لم تكن من المهن التى تروق للصليبيين فى أى وقت من أوقات الوجود الصليبى منذ البداية والنهاية . فقد كانت المدن والقرى الفلسطينية مأهولة بالسكان المحليين ، الذين قاموا بزراعة الأرض ولاسيما هؤلاء الفلاحين المحليين الذين يقطنون القرى المحيطة بالمدن. وانتشرت قبائل البدو الرحل على امتداد حواف الحدود بين الأقطار الإسلامية ومناطق السيادة الصليبية . ومن ناحية أخرى، فإن الفرسان الصليبيين لم يكن يتخيلوا أبدا أنهم سوف يمارسون مهنة الزراعة فى المناطق الصليبية. وإذا كانت حياتهم السابقة فى مجتمعاتهم الأوربية وتدريباتهم على الفروسية تعدهم لمهنة الحرب فقط دون سواها من المهن الأخرى، فإنهم اعتمدوا فى حياتهم وكسب أرزاقهم على الايجارات النقدية وأعمال السخرة التى فرضت على الفلاحين ومستأجرى الأراضى الزراعية فى مجتمع زراعى. وعلى الرغم من أن الصليبيين من غير النبلاء كانوا فى الأغلب ينتمون إلى طبقة الفلاحين فإن هؤلاء لم يصبحوا أقنانًا حتى ولو استمر هذا الصليبى غير النبيل هذا لم يرغب فى أن يصبح فلاحا مستأجراً . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن معظم المهاجرين الأوربيين إلى المملكة الصليبية قد اجبروا على الإقامة فى المدن الصليبية لاعتبارات سكانية (ديموغرافية) وأمنية . وعلى الرغم من أن الصليبيين قد طردوا السكان المحليين من المدن، فإنه كان من المستحيل الاستغناء عن السكان المحليين فى القرى حيث مراكز الانتاج الزراعى.

لقد ساهمت الظروف السابقة فى أن تفرض على الصليبيين نمطا واضحا من المعايشة مع السكان المحليين : فلم يعتزم الصليبيون لأن يكونوا منتجين للمحاصيل الزراعية الغذائية ، أو منتجين لأى نوع آخر من الثروة، إذ أنهم اعتبروا أنفسهم طبقة حاكمة، تستغل السكان المحليين اقتصاديا . ولذا أصبح لزاما على السكان المحليين انتاج الغذاء للصليبيين عن طريق الضغط السياسى والعسكرى الصليبى عليهم. وهكذا أصبحت العلاقة بين الحكام الصليبيين الغزاة وبين السكان المحليين منذ بداية الوجود الصليبى علاقة نهبية بين مستغل صليبى وسكان محليين تعرضوا للابتزاز والاستغلال .

ولم تكن مثل هذه العلاقة النهبية بين الحكام والمحكومين أمراً غريبًا فى المناطق التى احتلتها أوربا فى نفس الفترة المعاصرة . وتتمثل السمة التى كانت تميز الحركة الاستيطانية الصليبية فى حقيقة أن الأفكار العامة التى تمخضت بشكل مباشر عن الغزو الصليبى ظلت مستمرة وباقية طوال فترة الوجود الصليبى التى استمرت زهاء قرنين من الزمان. وكان الوضع الاستيطانى هدفا حتميا من أهداف الغزاة الصليبيين من أجل استمرارية اطار التعايش بين الصليبيين وبين السكان المحليين . وأصبح الأساس الاقتصادى لسياسة الاستيطان عقيدة الأيديولوجية الاجتماعية والدينية للصليبيين . وهنا أخفقت كل محاولات ابعاد السكان المحليين عن القرى وبات على المجتمع الصليبى استيعاب هذه الطاقات المنتجة التى تقوم بزراعة الأراضى وهى الطاقات التى أصبح لها ضرورة قصوى على المستوى الاقتصادى والغذائى للمجتمع الصليبى اللاتينى .

لقد قدر للصليبيين أن ينشئوا مجتمعًا صليبيًا مزدوجًا . وكان استخدام مصطلحات مثل الغزاة ، والمقهورين ، والمستغلين ، والذين تعرضوا لهذا الاستغلال مناسبا تماما ويتفق مع الواقع الاجتماعى ، ولكى ندرك المعنى الفعلى لهذه المصطلحات يجب علينا أن نذهب إلى نقطة أبعد من دلالاتها الاقتصادية إلى حد بعيد. ومن المرجح ، أن الاستغلال الصليبى للسكان المحليين كان أقل قسوة وحدة من الاستغلال والابتزاز الذى تعرض له هؤلاء السكان على يد الحكام المسلمين خلال فترة السيادة الإسلامية لهذه المناطق ، وأيضا أقل قسوة وحدة من المعاملة التى لاقاها الفلاحون المحليون فى الأقطار الإسلامية المجاورة للمملكة الصليبية. وكثيرا ما فقد الفلاح المحلى أملاكه وممتلكاته منذ زمن طويل، وتحول إلى فلاح تابع لأحد كبار ملاك الأراضى الزراعية المسلمين ، أو تابع لأحد تجار المدينة الأثرياء ، أو تابع لهيئة دينية

اسلامية وهى «الأوقاف الإسلامية». وكما ذكرنا آنفا فقد كان الفلاح المحلى يعانى من استغلال وظلم الحكام المسلمين من الناحية الاقتصادية ، هذا الاستغلال الذى كان يفوق استغلال وظلم الحكام الصليبيين له. ولم تكن المملكة الصليبية الجديدة أكثر ظلما وتعسفا للسكان المحليين، باستثناء المضايقات والمشاق الطارئة المتعلقة بالحرب أو المتعلقة باستبداد السادة المحليين الصليبيين التى تعرض لها هؤلاء السكان . بيد أن الدور الاستغلالى والاستبدادى الذى قام به الحكام الصليبيون كان يهدف إلى انشاء اطار كامل للعلاقات بين الحكام الصليبيين والمحكومين من السكان المحليين . وكانت الجماعة المحلية التى عانت من قسوة وجور واستغلال الحكام المسلمين تمثل جزءاً من نفس المجتمع الإسلامى- إذ كانت قسوة وصرامة الحكم الإسلامى تمثل معتقداً مهمًا من معتقدات المجتمع الإسلامى- وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفلاح المسلم كان ينتمى إلى نفس الكيان الثقافى الذى ينتمى إليه الحاكم المسلم المستغل والجائر. إذ كان على هذا الفلاح المسلم أن يتقبل ويرضى بقدره ونصيبه فى هذه الحياة الدنيا ويؤمن دون استياء أو قنوط بهذا القدر ، وذلك أشبه بما كان يحدث للقن فى أوربا العصور الوسطى، أو أصبح على هذا المسلم أن يعتبر استغلال وظلم حكامه المسلمين له بمثابة عقاب دنيوى لذنوبه وآثامه التى اقترفها فى حياته الدنيا . وعلى الرغم من أن الفكرة الاجتماعية المتداولة وتعاليم الدين الإسلامى كانت تدين وترفض قسوة وجبروت كبار ملاك الأراضى الزراعيين من المسلمين والحكام الجائرين ، فإنه لم يكن هناك شعور من جانب هؤلاء الجائرين بالخزى من هذه القسوة ولكن تنامى شعور الاستياء والسخط لدى السكان المحليين بسبب الظلم الاجتماعى والاقتصادى الذى لحق بهم. وكان نفس الاستغلال الذى لحق بالسكان المحليين على يد الحكام الصليبيين يعنى شيئا مختلفا . إذ أن الاستياء والنفور من جانب السكان المحليين لم يكن ذات صبغة اقتصادية ، بل كان ذات صبغة دينية. إذ كان الشعور بالخزى والإذلال الذى انتاب السكان المحليين بسبب خضوع السكان المسلمين لحكام صليبيين مسيحيين يختلفون معهم فى العقيدة ، ومن الواضح أن هؤلاء السكان المحليين المسلمين اعتبروا مثل هذا الخضوع أمراً لايرضى عنه الله سبحانه وتعالى. فقد كان الحاكم الصليبى المستغل غريبًا ، وعدواً للإسلام ، ومدمراً للدين الإسلامى. الأمر الذى أدى إلى وجود هوة سحيقة ومأذق من الصعب بل من المستحيل اجتيازه ، هذه الهوة التى كان يمكن علاجها عن طريق المعاملة اللينة من جانب الحكام الصليبيين تجاه السكان المحليين.

وهكذا لم يحظ الحكم الصليبى بقبول السكان المحليين على المستويين الأيديولوجى والواقعى العملى. فلم يحدث اندماج بين هؤلاء السكان المحليين وبين الصليبيين وأصبحت عملية التقارب والعلاقات الودية بين الطرفين الصليبى والإسلامى أمراً عسيراً ، حيث رفض كل طرف الطرف الآخر. لقد كان استمرار الوضع الاستيطانى الصليبى ذا أهمية قصوى وثمة سؤال وهو لماذا استمد الوضع الاستيطانى الصليبى؟ لماذا لم يتغير هذا الوضع الاستيطانى طوال فترة الوجود الصليبى التى استمرت قرنين من الزمان ؟ تلك أسئلة يمكن أن تجول بخاطر الباحث ، واعتقد أن السبب الواضح لهذا يتمثل فى اعتماد الغزاة الصليبيين على السكان المحليين المقهورين اقتصاديًا ولاسيما فى غذائهم اليومى. وأصبح هذا المطلب وهذه الحاجة تمثل أهمية لدى الصليبيين تفوق سيادتهم السياسية على هؤلاء السكان. ونظرا لأن الصليبيين قد انتهجوا سياسة كانت ترمى إلى نبذ ورفض عملية التقارب بين السكان المحليين والصليبيين فإن هذه السياسة استطاعت أن تفوض أساس النظام القائم وأن تحبط محاولات الاندماج الاجتماعى بين الطرفين. فمن الناحية النظرية، كان يمكن الاندماج الاجتماعى والوحدة الاجتماعية بين السكان المحليين وبين السكان الصليبيين. وكان الاختلاف الأيديولوجى بين الفرنجة وغير الفرنجة عقيدة الغزاة الصليبيين. بيد أن هذا الاختلاف لم يكن من الضرورى أن يحدث وضعا اجتماعيا ثابتا لايقبل التغير . ولاشك أن العنصر البشرى فقط هو الذى فرض هذه الاستمرارية للوضع الاستيطانى الصليبى . فلم يكن الغزاة الصليبيون هم فقط الذين جنوا وقطفوا الثمار الدانية للغزو بل شاركهم فى ذلك أيضا ذرياتهم وجموع المهاجرين الأوربيين الذين تقاطروا إلى هذه المناطق الصليبية فى المستقبل . واعتمدت مشاركة هؤلاء المهاجرين الأوربيين على أساس انتمائهم لهذا التراث المسيحى والعقيدة المسيحية الكاثوليكية ، ومن وجهة النظر الصليبية الكاملة اعتمدت هذه المشاركة أيضا على أساس الصفة المشتركة للتراث اللاتينى الذى يجمع بين هؤلاء المهاجرين الأوربيين.

ويمكن أن يؤدى بنا هذا السبب إلى الافتراض بأن مسلم محلى قد ارتد عن ديانته واعتنق المسيحية ، سوف يحصل على كافة حقوق المواطنة فى المجتمع الصليبى. والحقيقة أن قانون مملكة بيت المقدس اللاتينية كان يدعم مثل هذا . بيد أن أعداداً كبيرة من المسلمين الشوام المقهورين لم يتحولوا إلى الديانة المسيحية . ومن المؤكد أن عملية الارتداد إلى الديانة المسيحية بين المسلمين كانت تتم بشكل فردى ولم تكن ظاهرة جماعية. وكان يمكن استيعاب

المجتمع الصليبى لمن يتحول إلى المسيحية من المسلمين. ومن المعروف أن الشخص الذى يعتنق دينًا جديداً لم يقطع صلته فقط بديانته السابقة وبأرباب هذه الديانة من اخوانه فى الدين بل كان أيضا يلجأ إلى تعلم لغة أخوته الجدد فى الدين وأعنى لغة الصليبيين وهى اللغة الفرنسية، وأيضا المذهب الكاثوليكى، والاندماج الاجتماعى فى أية طبقة اجتماعية من طبقات المجتمع المسيحى الصليبى الجديد (كطبقة النبلاء أو طبقة البرجوازية) . وكان من الممكن حدوث مثل ذلك إذا اعتبر المجتمع الصليبى هذا الارتداد إلى الدين المسيحى (التنصير) وسط المسلمين المحليين هدفا جديرا بالأهمية وذا قيمة ، واعلان النشاط التنصيرى المناسب فى هذه المناطق ، سواء فى المجال الدين أو الثقافى أو الاثنين معا . وتكمن الخصوصية التى تميز المملكة اللاتينية فى بيت المقدس فى حقيقة أن المجتمع الصليبى لم يكن مجتمعًا تنصيريًا ولم يقم الصليبيون بأى نشاط تنصيرى. لقد كانت الأسس والعوامل التى قامت عليها السيادة الصليبية فى المناطق العربية تعارض مثل هذه الجهود التنصيرية. وينحى جاك الفيترى Jacque de Vitry أسقف كنيسة عكا فى الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى باللائمة القاسية على الصليبيين الذين أهملوا النشاط التنصيرى. وكان يرى هذا الأسقف الأوربى أيضا أن تقديم موعظة دينه تخدم العقيدة المسيحية للمنشقين المسيحين، والهراطقة ، والمسلمين ، لهى من الأمور الأكثر أهمية وخطورة عن أى شىء آخر . بيد أن دهشة جاك الفيترى أسقف عكا واستهجانه لسلوك الصليبيين قد وجدت معارضة- وكان هذه الدهشة متناقضة فى جميع الأحوال - من جانب الصليبيين فى المملكة اللاتينية ؛ فقد كان الصليبيون يعدون أنفسهم للحرب والموت من أجل عقيدتهم المسيحية، وليس من أجل القيام بمهمة التنصير.

ومن الناحية النظرية ، يمكن أن نتخيل وضعًا مختلفًا . وثمة سؤال يطرح نفسه وهو هل كان من الممكن المحافظة على النظام الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع الصليبى بعد عملية تحول المسلمين إلى الديانة المسيحية؟ وبعد كل هذا ، فإن أى قن Serf أوربى كان مسيحيًا مثل سيده ، وعندئذ بدأ يظهر فى أوربا نمطا من القنية . وكانت امكانية التحول إلى الديانة المسيحية دون تغير فى الوضع الاجتماعى أمراً غير عملى على أرض الواقع . وعلى أى حال، فقد افتقرت ظروف التنصير والتحول إلى الديانة المسيحية خلال فترة الوجود الصليبى فى بلاد الشام وفلسطين إلى استيعاب البواعث والحوافز المادية.

وفى هذا السياق ، كان وضع المسيحيين الشرقيين أكثر أهمية حيث قام هؤلاء المسيحيون الشرقيون بتقديم العون للنظام الاستيطانى الصليبى. وهنا لم يعتبر الصليبيون المسيحيين الشرقيين عدوا لهم، بل تعاملوا معهم على أنهم طائفة مسيحية تختلف فقط فى المذهب مع الصليبيين (الكاثوليك) . وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأيديولوجية التى رفعها الصليبيون فى أثناء الحملة الصليبية الأولى كانت ترفع شعاراً براقا هو تحرير المسيحيين الشرقيين من ظلم ونير الحكام المسلمين . وهنا كان المسيحيون الشرقيون يشكلون جماعة مسيحية كبيرة، وهى الجماعة التى حافظت على أماكن اقامتهم وأقاليمهم . وكان المسيحيون الشرقيون الذين لايحتاجون إلى عملية الارتداد - كما كان الوضع بالنسبة للمسلمين - قادرين على الاندماج والوحدة فى البنية السياسية للمجتمع الصليبى الأوربى . ولم يحدث مثل هذا الاندماج على أرض الواقع، وتركت هذه الجماعات المسيحية الشرقية خارج نطاق المجتمع الصليبى المنتصر والظافر.

وفى القرن الثالث عشر الميلادى بذلت الهيئات الدينية المتسولة (التى كانت تعيش على الصدقات) جهوداً مضنية من أجل القيام بالنشاط التنصيرى فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين ، وتوحيد الكنيسة المسيحية العالمية . وخلال مدة ما توصلت هذه الهيئات الدينية المتسولة إلى اتفاق مع الطوائف المسيحية الشرقية مثل : المارون ، والأرمن، واليعاقبة، والنساطرة . وباستثناء المارون، لم يتم انجاز أى شىء فى هذا السبيل . فقد انقسمت الكنائس الشرقية وتفرعت على أساس اقليمى ، ومارست جماعاتها الدينية سياسات مستقلة ومنفصلة. وفى الغالب، كانت هذه الطوائف الدينية الشرقية تعارض زعماءها الرسميين لأسباب نفعية، ومن وقت لآخر حاول أساقفة هذه الطوائف الدينية الوصول إلى اتفاق مع كنيسة روما على أسس مشابهة تتعلق بالوحدة.

بيد أن معارضة رجال الدين الصليبيين للسياسة الجديدة لكنيسة روما كانت ذات أهمية . ففى القرن الثالث عشر الميلادى، حاول رجال الدين الصليبيون فرض الرتب الكنسية اللاتينية (الهيراركية اللاتينية) على الكنائس المحلية، وهى المحاولة التى جردت أساقفة الكنائس البيزنطية من رتبهم الكنسية ، وجعلت كبار أساقفتهم أساقفة مساعدين للأساقفة اللاتين . بيد أن هذه المحاولة باءت بالفشل من الناحية العملية. وبحلول القرن الثالث عشر الميلادى، ظهرت أفكار جديدة فى كنيسة روما، واستطاعت هذه الأفكار أن تفرز صياغات دينية جديدة

يمكن قبولها - على الأقل على المستوى الفعلى- وتهدف إلى اعتراف المسيحيين الشرقيين بسيادة البابوية وسمو كنيسة روما، جنبا إلى جنب مع قبول الاستقلال الذاتى للكنائس المحلية الشرقية . وكان هذا يعنى أن هذا التحول فى سياسة كنيسة روما قد تم على أساس عرقى وليس على أساس عقدى دينى، وتحول المسيحيون البيزنطيون إلى طاعة رجال الدين اللاتين الكاثوليك فى المناطق الصليبية . وأخفقت كل محاولات التبعية هذه ، بداية من الكنيسة الأرمينية فى القرن الثانى عشر الميلادى، وتبعها الكنائس البيزنطية ، وكنائس اليعاقبة والملكانيين. ومهما كانت السياسة العامة لبابوات روما الكاثوليك ، فإن رجال الدين الصليبيين لم يكونوا راغبين فى فى الوحدة مع هذه الكنائس المحلية الشرقية على مستوى كبار رجال الدين (القمة) ، وهى الوحدة التى سوف تبقى على الانشقاق المذهبى بين الكنائس . فاذا كانت هناك وحدة كنسية- فى صورة نموذج الوحدة والاندماج العلمانى- فإنها كانت تعنى اندماجا كاملا بين الكنائس وهيمنة مطلقة لرجال الدين الصليبيين على هذه الكنائس ، ومثل هذه الوحدة تكون من وجهة النظر الصليبية.

وهكذا لم يحدث الاندماج الدينى بين الكنائس المسيحية المحلية والكنائس الصليبية الكاثوليكية ، ويعزو السبب فى ذلك إلى أن رجال الدين الصليبيين قد أرادوا فرض هذا الاندماج الدينى وفقًا لشروطهم الخاصة. وعلى المستوى الدينى والكنسى ، ورفض المسيحيون الشرقيون هذا الاندماج ، وهو الاندماج الذى لم يحدث فى إطار الدولة والمجتمع . ومن المؤكد أن وضع المسيحيين المحليين الشرقيين كان أفضل حالاً من المسلمين ، أو اليهود أو السامرة . وعلى الرغم من تفضيل الصليبيين للمسيحيين المحليين دون الطوائف الدينية الأخرى على المستوى العملى، فإن قانون المملكة الصليبية -بشكل أساسى- لم يمنحهم أى امتياز أو أى وضع يختلف عن باقى السكان المحليين. وهكذا فإن الحقيقة التى تقول إن المملكة اللاتينية فى بيت المقدس لم تقم بأى دور تنصيرى* (هذا الدور الذى يشبه ما قام به الرجل الأبيض فى أوربا فى العصر الحديث) ، قد أدت إلى حرمان هذه المملكة الصليبية من العماد الروحى والدينى لوجودها ، باستثناء قيامها بدور الحارس والحامى للأماكن المقدسة المسيحية . فلم يكن للمملكة الصليبية أى ثقل دينى، باستثناء تبعية كنيستها للكنيسة الكاثوليكية العالمية فى روما. إذ كان وضع الأرض المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام جزءًا شرعيا من التراث

---

* الواقع أن عدم قيام الصليبيين بأى نشاط تنصيرى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى ينفى الأسس الدينية للحركة الصليبية (المترجم) .

المسيحى، وهذا يعنى ببساطة أن امتلاك هذه الأرض يعد أمراً مشروعًا للمسيحيين الكاثوليك . فلم يحول الصليبيون هذه المناطق العربية إلى قطر مسيحى، بل قاموا بغرس مجتمع مسيحى للعيش فى فلسطين ليكون بمثابة عامل من عوامل الهيمنة والسيطرة الصليبية على بلاد الشام وفلسطين ويمكن أن تعتبر عدم التحول هذا بمثابة إفلاس أيديولوجى للدعاوى الدينية التى رفعها الصليبيون من أجل السيطرة على الأراضى المقدسة . فلم يقم الصليبيون بطرد سكان هذه المناطق العربية التى خضعت لسيطرتهم ولم يندمج الصليبيون اجتماعيا مع المسيحيين المحليين من أهالى هذه المناطق . لقد كانت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس مملكة أرضية من وجهة النظر العلمانية ، لاتتمتع بمكانة خاصة بصرف النظر عن الحقيقة القائلة بأن هذه المملكة شيدت فى أعقاب الغزو الصليبى للأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام. وكان الصليبيون بعد الحملة الصليبية الأولى ينشدون بقاء المملكة الصليبية وضمان وجودها.

لقد ناقشنا اشكاليات خلق مجتمع مندمج من وجهة نظر الغزاة الصليبيين. وفى هذا السياق ، ربما تعنى كلمة اندماج أشياءً كثيرة ، مثل تحول إلى العقيدة المسيحية ، واستيعاب إجمالى وقبول متدرج للمجتمع المقهور فى إطار الدولة والمجتمع الصليبى. ومن الواضح، أن هذا الاندماج الاجتماعى بين المجتمعين الإسلامى والصليبى لم يعتمد على الصليبيين فقط ، بل كان يتوقف أيضا على رغبة أولئك الذين سيضمهم هذا المجتمع الصليبى الجديد وأعنى السكان المحليين، وكذلك على رغبة هؤلاء السكان المحليين فى هجر تراثهم الثقافى والحضارى. فالاندماج الاجتماعى والوحدة كان من الممكن تحقيقه فى مجتمع ليس متعدد الأجناس والأعراق، وعلى الرغم من عدم هجر السكان المحليين لتراثهم الثقافى والحضارى، فإن عناصر التقاليد والأعراف المنبوذة ظلت تؤثر على المجتمع الجديد. وبصرف النظر عن الصياغة الواضحة لسياسة الاندماج الاجتماعى ، فإن نجاح هذه السياسة كان يعتمد أساسا على عاملين: أولا ثقة السكان المحليين المقهورين فى التفوق الحضارى للغزاة الصليبيين وتفوق مؤسساتهم . والعامل الثانى هو تخلى السكان المحليين عن ثقافتهم وحضارتهم - وذلك عن طريق تفككهم الاجتماعى وتغيير نمط حياتهم . والواقع أن هذا لم يحدث بالنسبة للسكان المحليين فى بلاد الشام وفلسطين. إذ كان هؤلاء السكان يشكلون مجتمعا مترابطا غرست جذوره فى هذه الأراضى منذ قرون عديدة، ولم يكونوا قبائل متفرقة متناثرة أو قبائل بدوية دائمة التنقل والترحال على الحدود يمكن تفسخ تماسكها الاجتماعى وتعرضها للتأثيرات الخارجية . فقد ترك الصليبيون السكان المحليين حسب رغباتهم ، طالما أنهم يدفعون الضرائب

المقررة عليهم للسلطات الصليبية . إذ كان عدم إدخال نظام الضيعة المعروف فى أوربا فى المناطق الصليبية والاحتفاظ بنظام مجتمع القرية برؤسائه وشيوخه التقليديين يعنى أن الصليبيين قد نهجوا منذ البداية سياسة عدم التدخل فى النظام الاجتماعى التقليدى الذى كان موجودا من قبل فى بلاد الشام وفلسطين . ولم يحاول الصليبيون تحطيم الأشكال والأنماط التقليدية للحياة الاجتماعية للسكان المحليين.

وعلى النقيض من ذلك، فإن السكان المحليين الشوام كانوا يحتقرون الغزاة الصليبيين ويضمرون لهم الحقد والكراهية . فقد أشار الفارس والمؤرخ أسامة بن منقذ فى مذكراته التى دونها فى القرن الثانى عشر الميلادى والتى تعرف باسم «الاعتبار» إلى النظام القضائى الفرنجى كما صور لنا طباع الفرنجة عن قرب، وانتقد واحتقر طباع وسلوكيات وتصرفات الصليبيين دون مواربة أو خشية ، وهذا لايعنى أن ابن منقذ قد رفض إجمالى سلوكياتهم . فقد أعجب اسامة بن منقذ بشجاعة الفرنج العسكرية وامتدح فروسيتهم . وهذا لايقلل من حقيقة أن اسامة بن منقذ كان ينظر إلى الصليبيين باعتبارهم برابرة متخلفين حضاريًا ، وأنهم يتميزون بالقوة الجسمانية كما كان يحتقر ديانتهم المسيحية ويخلع عليهم صفة الكفر والشرك بالله، كما احتقر أيضا استخدام الشعوذة والخرافات فى علاجهم الطبى لبعض المرضى منهم وهى الطرق البدائية فى الطب ، وأيضا انتقد نظمهم القضائية البدائية ، والاجراءات المتعلقة بمحاكمهم لفض النزاعات بينهم ، وهى الوسائل البدائية الغربية فى إقامة البينة. وكانت مذكرات اسامة بن منقذ المعروفة باسم «الاعتبار» تمثل شهادة أحد أفراد الارستقراطية العربية الإسلامية الخالصة ، وقلما يمكن مقارنتها بطبقة الفلاحين الفلسطينية . ومع ذلك، فإن ما ذكره أسامه بن منقذ عن الفرنجة الصليبيين قد وجد استجابة سريعة- على الرغم من أن المعلومات التى أوردها فى مذكراته كانت صحيحة وأقل تحريفا- وسط الطبقة الدنيا من السكان المحليين الشوام. وبعيداً عن احتقار السكان المحليين للصليبيين ، فإن هؤلاء السكان المحليين الشوام اعتبروا أنفسهم أكثر تفوقا حضاريا من هؤلاء الغزاة الصليبيين.

وبغض النظر عن إقرار وتأييد انتقاد الصليبيين الذى جاء على لسان ابن منقذ فى مذكراته، فإنه لاشك أن بداية القرن الثانى عشر الميلادى كانت تمثل مرحلة باكرة من الاحتكاك الحضارى الملموس بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى الكاثوليكى وهو الاحتكاك الذى استمر ما يقرب من قرنين من الزمان ، وتركت الحضارة العربية الإسلامية تأثيرها الواضح والملموس على الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى بشكل يفوق تأثير أية حضارة عالمية

أخرى ، كالحضارة الرومانية والجرمانية الكلاسيكية القديمة السالفة . فقد شهدت الدولة الإسلامية تطوراً فى مجال الفكر، والأدب، والفن، والحضارة المادية، والانجازات التقنية ، والمعارف الطبية، والخبرة الجغرافية- إذا تجاوزنا عن النمط المهذب وظروف الحياة المترفة التى عاشتها الطبقات الثرية فى الدولة الإسلامية- وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش فى مستوى حضارى أقل من العالم الإسلامى بكثير. وكان من النادر ادراك الصليبيين لمزايا الحضارة العربية الإسلامية فى الشرق وانجازاتها . فمن الناحية الحضارية والثقافية لم يساهم الصليبيون إلا بالنذر اليسير لتدنى مستواهم الحضارى، فى حين كان المجتمع الإسلامى - على الرغم من حالة التفكك السياسى التى أصابته - كان ما يزال يحتفظ ببعض مقومات قوته ووجوده، ولم يكن من السهل تفككه أو انهيار على أثر صدمة وهزة استعمارية خارجية حتى لو افترضنا أن مثل هذه الهزة والصدمة كانت مقصودة بشكل قوى . ولم يحدث اندماج اجتماعى أو سياسى بين المجتمعين المتنافرين الإسلامى والصليبى، ولم يبق هناك شكل محدد لهذين المجتمعين الإسلامى والصليبى، فقد كانت المشاعر النفسية والاجتماعية لهذين المجتمعين تخلق اتجاها عدائيا إزاء بعضهما الآخر، وكتب الكثير عن حالة الاستشراق الحضارى The Orientalization Or Levantization أى يتبنى المجتمع الصليبى التقاليد والقيم الشرقية . ومن الصعب أن نغفل الشعور بأن الكثير من هذه الاستنتاجات والنتائج كانت تصطبغ بالصبغة التحررية للعلماء المغالين فى التفكير (العلماء والمؤرخين الرومانتيكيين) ففى بعض الحالات حدث استشراق مرغوب فيه ، وكانت هناك محاولة مقصودة لتطبيق سياسة الاستشراق فى المستوطنات الأوربية فى مناطق شمال أفريقيا والشرق الأدنى .

ففى غضون عشرة أجيال أى مدة مائتى عام وهى فترة الوجود الطبعى للمجتمع الصليبى فى المنطقة العربية استطاعت البيئة العربية الشرقية بلاشك أن تترك تأثيرها الواضح على المستوطنات الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. بيد أن هذه الحقائق يمكن تصورها فى وضعها الصحيح. فتعبير الاستشراق الحضارى الذى كان ينطبق على الصليبيين يتعارض مع التعبير الحديث لهذه الكلمة والذى يعنى نبذ السلوك المحلى كعملية ناتجة لهذا الاستشراق. وخلال القرن الثانى عشر الميلادى لم ينتقص من قدر الأوربى الصليبى الذى عاش فى منطقة الشرق العربى لكونه مستشرقا . وعلى العكس من ذلك ، فإن الاستشراق كان يعنى للأوربى الوصول إلى مستوى حضارى وثقافى أعلى من نظيره فى الغرب الأوربى. فالدماثة ورقة

الطباع الإسلامية فى مواجهة القسوة والغلظة التى ميزت المجتمع الصليبى، والرفاهية والترف فى المجتمع الإسلامى فى مواجهة قسوة الحياة فى المجتمع الصليبى وسعة الأفق فى الحضارة الإسلامية التى كانت تناسب مناطق السيادة الإسلامية مقابل الجهل وضيق الأفق الأوربى الصليبى، وتعتمد دراسة كل هذه الأشياء أساسا على الكتاب المقدس (العهدين القديم والجديد أى التوراة والإنجيل) ، وعلى كتابات آباء الكنيسة التى كانت تصور هذه السمة الغربية، وهكذا فإن مثل هذه التناقضات فى معالم كل من الحضارتين الإسلامية والأوربية كانت تمثل تهديدا لعملية الاستشراق الحضارى بين الصليبيين وذلك للتفاوت الحضارى بين المجتمعين.

وقد ذكرنا المعنى الموضوعى لمصطلح «الاستشراق» ، ووصلنا إلى رأى مستقل بشكل متزامن ، بيد أن مصطلح الاستشراق وما يحمل من معنى كان يتعارض مع تطور الأوربيين المعاصرين فى منطقة الغرب الأوربى، والذين عالجوا هذا الأمر ونظروا إليه بمقياس مختلف. واعتمدت نظرة الأوربيين على صحة ديانتهم المسيحية دون الإسلام ، وأن جنسهم هو الأرقى بين الأجناس البشرية ، بغض النظر عن التطور الحضارى فى العالم العربى الإسلامى. فقد اعتقدوا أن الاستشراق يعنى التخنث المرذول المحتقر ويعنى أيضا الترف المذموم ، وعدم الكرامة ، والاعتقاد فى تأملات وأفكار سخيفة ، وتستر على جريمة شنعاء نفذتها قوى الشر البشرى، وأن الاستشراق أيضا يتعارض مع الحقائق التى أوحت بها الأناجيل المقدسة، ويمكن الاستشهاد بكثير من النصوص التى أوردها المؤرخون اللاتين لكى تصور هذا الاتجاه . ومن أبرز هذه النصوص التى تمثل الاتجاه المعارض للنزعة الاستشراقية مجموعة الخطب اللاذعة الشهيرة التى ألقها جاك الفيترى Jacque de Vitry أسقف كنيسة عكا فى القرن الثالث عشر الميلادى، والذى كان أحد شهود العيان*. فالاستشراق بمعناه الحالى المذموم يعنى أن المؤسسات الصليبية كانت تناسب تمامًا تلك المناطق العربية التى نشأت فيها . ومن الواضح أن

---

* ولاشك أن الأوربيين كانوا يجهلون الأوضاع الحضارية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. فنجد الحاج الألمانى ثيودوريتش Theorderich الذى زار الأماكن المقدسة فى فلسطين فى عام ١١٧٢ م يذكر لنا وصفا تفصيليا لكل الأماكن المقدسة التى زارها فى أثناء رحلة الحج دون أن يذكر أية معلومات عن نمط حياة السكان المحليين . ويضيف الرحالة الألمانى فورزبرج Würzburg الذى زار الأماكن المقدسة فى فلسطين فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى فى الفصل الأخير من مؤلف بأنه قد أغفل عن ذكر ووصف الكثير من الكنائس الصغيرة التى وجدت هناك وهى الكنائس التى حظيت باهتمام ورعاية كل شعوب المنطقة على اختلاف أجناسهم (المؤلف) .

الاتجاهات المؤيدة لسياسة الاستشراق كانت ترتبط أساسًا بالطبقة الدنيا من المجتمع الصليبى ولم يكن اتجاها عاما بين باقى طبقات المجتمع الصليبى.

وعلى الرغم من مزايا وفوائد سياسة الاستشراق وتشجيع البيئة العربية التى وجد فيها الصليبيون، فإن الاستشراق بين المجتمع الصليبى كان محدودا بسبب الاتجاه الصليبى الرئيسى الرافض له. وما تشير إليه النصوص التاريخية والمصادر التاريخية العديدة من احتكاك حضارى بين الصليبى وبيئته الجديدة فى منطقة يلقى ظلالاً قاتمة على صورة هذا الاحتكاك ويشوهها . ويصبح تصنيف هذه الاحتكاك الحضارى بين الصليبيين وبين منطقة الشرق العربى أمراً ممكنا وذا معنى ، إذا استطعنا أن نقف على تفاصيل التفاعل الاجتماعى المستمر بين الصليبيين فى المناطق التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى فى المملكة اللاتينية .

ولاشك فإن معظم الاحتكاك الحضارى بين الصليبيين وبين الحضارة العربية الإسلامية كان على مستوى الحضارة المادية . ومهما كان شكل علاقة المستوطن الصليبى بالمواطن المحلى، فإن هذه العلاقة لم تستطع أن تخفى روح الصراع والعداء والمواجهة الطويلة بينهما ولاسيما فى أثناء الحروب العسكرية بين الطرفين الإسلامى والصليبى . فقد تكيف الصليبيون مع مظاهر الترف الشرقى. وحتى المتحمسين الدينيين من الصليبيين لم يستطيعوا إنكار أفضلية وأريحية الحياة فى الشرق، وإن كان الرهبان قد انتقدوا حياة الترف التى عاشها الصليبيون فى الشرق. وقد أشار أحد الرهبان الأوربيين الذين جاءا من وراء جبال الألب وهو لودولف فون سيخيم Ludolph Non Suchem إلى هذه المعارضة وهذا الانتقاد قائلاً: «إن شوارع مدينة عكا نظيفة إلى حد بعيد، وقد شيدت منازلها المرتفعة من الحجر المنحوت ، وزينت منازل عكا بالنوافذ الزجاجية والرسومات الملونة الرائعة ، ولم تكن هذه القصور والمنازل فى عكا لتوفير السكن فقط، بل أيضا كانت من أجل توفير الرفاهية والسعادة ولم يشهد العالم أجمع مثل جمال وفخامة قصور مدينة عكا».

وكانت شوارع عكا تفرش بالسجاد والفرش فى أثناء المناسبات الدينية، وقد زينت هذه الفرش والسجاد بخيوط ذهبية وفضية . وسوف يتذكر المرء المستودعات الست الكبيرة التى شيدت فى مدينة صور. وكذلك قصر أمراء بيروت الصليبيين الذى وصفناه آنفا وذلك لكى ندرك على الفور أن الصليبيين كانوا أكثر إقبالا على النمط الترفى للحياة الذى لمسوه فى الشرق. لقد قبل الصليبيون وارتضوا نمط المنازل ذات السقوف المسطحة ، والتى كانت ملائمة ومفيدة لظروف الشرق الاقتصادية والاجتماعية، إذ كانت نوافذ هذه المنازل ضيقة ذات واجهات

زجاجية مزخرفة ، وكانت المنازل تشيد من الأحجار ، تلك الأحجار التى كانت بمثابة مادة عازلة ضد الحر والبرد . وهنا اكتملت ثورة التغير فى البناء لدى الصليبيين ومع ذلك فإنه يمكن تحديد مجال هذا التغيير كما أن هذا البيان يمكن أن يكون وافيا بالغرض . وقد ذكرنا من قبل أن الصليبيين قد أعرضوا عن الإقامة فى القرى والمناطق فى منطقة الشرق العربى الإسلامى وآثروا السكنى والإقامة فى المدن لأسباب أمنية*. وحتى هذه المدن التى قام بها الصليبيون لم تكن من تشيدهم، وباستثناء مدينة عكا -التى أضافوا فيها حيا سكنيا لهم- لم يضف الصليبيون أحياء جديدة لهم فى المدن التى أقاموا بها بل أنهم سكنوا منازل المسلمين بعد طردهم منها فى أعقاب الغزو الصليبى لهذه المدن العربية . وهكذا فإن تصميم أية مدينة صليبية من حيث الأسواق والمنازل قد جاء وفق النمط الإسلامى مالم تكن هذه المدينة ذات أصل قديم . ومن المفترض أن الصليبيين قد شيدوا منازل جديدة على النمط المحلى فى هذه المدن لطبقة العامة منهم.

وإذا انتقلنا من شكل المنزل إلى شكل القصر الصليبى- ما لم يكن هذا القصر مقرا لاقامة الحاكم المسلم المحلى السابق- فإننا نجد أن هذا القصر الصليبى كان تقليدا للقصر الشرقى مثلما كان الوضع فى القصر الصليبى فى بيروت ، حيث امتزجت فيه العناصر المعمارية الإسلامية والبيزنطية . ومما يذكر أن المقارنة بين الأبراج والحصون التى شيدت فى أوربا العصور الوسطى فى القرن الثانى عشر الميلادى وبين الأبراج الإسلامية المعاصرة لها لاتحتاج إلى تفسير إضافى للتشابه بينهما . ولاشك فقد تخلى الصليبى عن تصوره وفكرته التقليدية عن تلك المساكن المناسبة للفارس والنبيل . وكانت المزايا الفنية والتقنية لنمط وشكل البيوت فى الشرق عظيمًا بيد أن التعصب الأهوج اللاعقلانى من جانب الصليبيين قد منعهم من تبنى هذا النمط الشرقى فى بناء الدور.

لقد كانت العمارة العسكرية والدينية الصليبية بمنأى عن التأثير الشرقى، فالقباب التى كانت تعلو الكنائس الشرقية قبل الوجود الصليبى أو التى كانت تعلو المساجد قلما كان

---

* آثر الصليبيون الإقامة فى المدن بدلا من القرى لتوفير الأمن والأمان لهم فى المدن حيث وجود الحامية الصليبية ووجود الحصون والقلاع والأسوار التى كانت من أبرز سمات المدن التى سكنها الصليبيون فى المنطقة العربية الإسلامية. كما أن شعورهم كأقلية سكانية ولد فيهم الخوف من الاقامة فى القرى خشية اعتداء السكان المحليين عليهم . بالإضافة إلى أن الصليبيين لم يعملوا فى الزراعة إذ كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين فقط . (المترجم) .

الصليبيون يستخدمونها فى مبانيهم الجديدة. فقد شيدت الكنائس الصليبية فى فترة باكرة وفقا للنمط المعمارى الرومانسى من حيث التخطيط والمظهر الخارجى ، وربما ظهرت الزخرفة الشرقية على افريز أو عمود معمارى، وهذا خير شاهد على حقيقة أن البنائين المحليين الشرقيين قد شاركوا فى تشييد مثل هذه المنشآت والمبانى الصليبية . وكانت الأعمدة المعمارية التى تنسب إلى كورنثة والتى تتسم بالطابع البيزنطى فى العصر الباكر بمثابة الومضة الأخيرة للفن المعمارى المحلى الذى كان مازال معروفا لدى الفنانين المسيحيين الشوام. وربما تحولت المئذنة بسهولة إلى برج الكنيسة، بيد أن الصليبيين عندما شيدوا أبراج كنيسة الضريح المقدس اقتبسوا النمط المعمارى لهذه الأبراج من النمط المعمارى الموجود فى جنوب فرنسا آنذاك. فالاقتباسات المعمارية المحلية لم يحول الكنائس والأديرة الصليبية إلى النمط الشرقى ، ولم يندمج النمطان المعماريان الشرقى والغربى معًا فى بناء هذه المنشآت الدينية الصليبية. واستطاع الغرب الأوربى أن يفرض طرازه المعمارى الفنى المجازى، وعندما عجز المعماريون الغربيون عن ابتكار أنماط معمارية جديدة فإن هذا العجز المجازى قد فرض عليهم قبول وتبنى العناصر المعمارية المحلية التى كانت أكثر ملاءمة . ومن المحتمل أن العمارة العسكرية الصليبية قد تأثرت كثيرا بالعناصر المعمارية الشرقية ، وفى الغالب كان استيعاب العمارة العسكرية الصليبية للعناصر الشرقية استجابة للتحدى الإسلامى والمواجهة الإسلامية . بيد أن النماذج المتبقية من الأجزاء الداخلية من الكنائس الصليبية كانت أوربية الطابع من حيث الفكرة والتنفيذ . ويتمثل هذا الطابع الأوربى فى سرداب كنيسة القديس يوحنا فى مدين عكا (ومن المحتمل أن هذا السرداب كان مخصصًا لحجرة طعام فرسان الاسبتارية) ، وكذلك الجزء الداخلى من الصالة الكبيرة فى قلعة الحاج، وحجرات قلعة مونتفورت Montfort المخصصة لفرسان التيوتون ، وحجرات قلعة الاسبتارية فى بيت جبرين ، والبوابة الرئيسة لقلعة قيسارية. واليوم تدل بقايا هذه الآثار السابقة على التأثير الأوربى المعمارى بصورة أكثر عن الفترة السابقة التى كانت فيها هذه المنشآت مأهولة بالسكان الصليبيين حيث كانت أسقف هذه القصور والقلاع مغطاة بالسجادات والفرش الشرقية . وكان الحكام الصليبيون أكثر ميلاً إلى الترف والأبهة وتمثل ذلك فى حجرات الاستقبال الملحقة بقلاعهم ، وكانوا أكثر ميلا وشغفًا باستخدام الزخارف المعمارية الشرقية الإسلامية ، والعودة إلى النمط الرومانسكى الفرنسى فى العمارة أو النمط المعمارى القوطى.

وظهر التأثير الشرقى أيضا على المجتمع الصليبى بصورة كبيرة فى مجال الطعام والملبس. فقد استطاع فن الطهى الشرقى أن يفتح عالما جديداً من حيث المذاق والرائحة أمام المستوطنين الصليبيين؛ فقد ظهرت الفاكهة ، والتوابل ، والبهارات التى لم يعرفها الصليبيون من قبل. وعلى أى حال، لم تضف المناطق العربية فى فلسطين وبلاد الشام الكثير إلى المائدة الصليبية من حيث طريقة طهى اللحم أو طهى لحم الغزال . إذ كانت الثروة الحيوانية فى القطر الفلسطينى فقيرة إذا ما قورنت بحجم الثروة الحيوانية فى أوربا . واستطاع فن الطهى الشرقى غزو المستوطنات الصليبية ، وتسرب السرور والرضا إلى المطبخ الصليبى بسبب تزاوج الصليبيين بسيدات بيزنطيات وأرمينيات على مستوى الملوك والأمراء، أوبسبب تزاوج أفراد الطبقة الدنيا من الصليبيين بنساء من الأرمن أو من الشوام اللاتى تحولن إلى النصرانية* ، ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى عادة الطهى فى المطاعم العامة فى المدن الصليبية ، ولاسيما مدينة بيت المقدس. ووجدت مثل هذه العادة وهى طهى الطعام خارج البيوت فى مدن الشرق العربى الإسلامى قبل الوجود الصليبى ، وبعد الغزو الصليبى كانت على هذه المطاعم أن تزود الحجاج المسيحيين بالطعام ، هؤلاء الحجاج الذين لم يختلفوا كثيرا عن السياح فى عصرنا الحالى. ولى نعرف انطباع أحد الأوربيين علينا تتبع ما قاله الحاج ثيتمار Thietmar فى عام ١٢١٧م عن السوق أو البازار الشرقى حيث قال: «وأهل دمشق أكثر بهجة مثل مدينتهم . فهم يصنعون مختلف الأطعمة الشهية التى لم تخطر على بال إنسان قط، ويتفننون فى صنع أصناف كثيرة من المأكولات وقد رأيت عشرين صنفا من الخبز أو أكثر، وتذوقت بعض هذه الأصناف من الخبز. ونادراً ما كان الدماشقة يصنعون طعامهم فى منازلهم، وذلك لأنه جرت العادة أن يتم طهى الأطعمة فى سوق عام يسمى سوق الطهى، وكانت هذه المأكولات والأطعمة المطهية يحملها العمال حول المدينة لبيعها**.

---

* كان ارتداد بعض المسلمات الشوام إلى النصرانية يمثل حالة فردية فى أضيق نطاق، واعتقد أن هذا التحول إلى النصرانية كان بفعل الضغط الصليبى والقمع وقد أشار المؤرخ اللاتينى الشهير فوشيه الشارترى إلى ذلك (المترجم) .

** كان من أهم أسواق مدينة بيت المقدس خلال الحقبة الصليبية سوق الطعام المطهى وقد خصص شارع لهذا السوق ، وكان هذا السوق يعرف باسم شارع الملكسينات Malquisinat (المترجم) .

وفى مدن مثل بيت المقدس وعكا- وربما أيضا فى مدينة صور- كان الوسطاء فى تجارة هذه المأكولات المطهية من المسيحيين المحليين الأصليين، ويمكن أن نعزو ذلك إلى إبادة السكان المحليين المسلمين فى هذه المدن التى سقطت فى يد الصليبيين فى أعقاب الغزو، كما أن المسلمين قد حرموا من العودة إلى بيت المقدس والاستقرار بها وأصبح محظورا عليهم الإقامة بها. وهنا وجد المستوطن الصليبى لأول مرة البهارات والتوابل بكميات كبيرة . وظل الصليبيون لأجيال عديدة يحصلون على السكر والشراب الحلو (بسبب مذاقه الجميل وسعره المعتدل) وكانوا يحصلون على هذا الشراب الحلو مباشرة عن طريق مص قصب السكر العجيب أو على شكل عصير قصب حلو. ففى أثناء الحملة الصليبية الأولى، لم يجد فولك الشارترى Folk of Chartres كلمات كافية لكى يصف نبات قصب السكر العجيب عندما رآه لأول مرة، إذ قال لقد وجدت الكثير من الأشياء العجيبة المدهشة. وكما نرى اليوم فقد استخدمت نباتات كثيرة من البهارات والتوابل ، وكانت هذه النباتات العطرية تنمو فى أراض بعيدة ويمكن الحصول عليه بسعر رخيص . ولم يتجاوز المؤرخ خوانقيل (مؤرخ سيرة الملك لويس التاسع ملك فرنسا) الحقيقة عندما يقول إن بهارات وتوابل بلاد الشام وفلسطين تأتى مباشرة من الفردوس (الجنة) ، وفى ذلك يقول جوانفيل: وعلى جانبى نهر النيل فى مصر كانت توجد البهارات والتوابل ، التى يشحنها التجار فى مراكب تسير فى عرض النهر ، وعندما ينبلج الصباح ، كان هؤلاء التجار يعرضون بضائعهم من التوابل والبهارات للبيع. وكانت هناك أنواع من التوابل تباع بالوزن مثل الزنجبيل ، والرواند ، والصبر، وأعشاب القرفة . وقد قيل إن بهارات مناطق بلاد الشام وفلسطين كانت تأتى من الجنة الأرضية إن الرياح تصطدم بأسفل أشجار هذه النباتات العطرية فى الفردوس ، مثلما تساعد هذه الرياح فى جفاف أغصان الأشجار فى غاباتنا فى أوربا ، وما تحمله السفن من هذه البهارات والتوابل يقوم التجار ببيعه بالوزن.

والواقع أن ماكتبه المؤرخ اللاتينى جوانفيل يرجع إلى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، وهو الوقت الذى استطاعت فيه السفن التجارية الإيطالية والبروفنسالية أن تنفذ وتصل إلى أسواق شامبنى المحلية، ولم تكن هذه البهارات غريبة على الأسواق المحلية الأوربية.

ومن السهل قبول أسباب متعة الطعام ونكهته الجيدة التى يتم طهيه فى المطاعم والمطابخ العامة. إذ كان السكر أو عسل النحل يستخدم فى صنع الشراب الحلو أو فى حشو الفطائر

الشرقية. وبرع السكان المحليون في بلاد الشام وفلسطين خلال الحقبة الصليبية فى صناعة المخللات من الليمون والبرتقال والنارنج وذلك لكى يؤكل مع لحم الدجاج والسمك والأطعمة الأخرى، وهى المخللات التى كانت تكسب الأكل طعما ومذاقا شهيًا . وكانت الأغذية المحفوظة من الكمثرى والبرتقال والموز ذات الطعم الحلو، تشبه المربى الصافية وعسل النحل المستخلص من أقراص العسل، واستطاعت كل هذه الأنواع من الأطعمة أن تضاف إلى قائمة الأطعمة الدسمة فى شمال فرنسا. ولم يعد المطبخ الصليبى يستخدم الزبد أو دهن الخنزير فى طهى الطعام ، وإنما استخدم زيت الزيتون. إذا كان إنتاج الزيتون فى المناطق الصليبية وفيراً. لقد استطاع الصليبيون إحياء المجد القديم للقطر الفلسطينى، من حيث تصنيع النبيذ (الخمور) من الكروم المحلى، وذلك الإنتاج الذى تقلص فى أثناء فترة السيادة الإسلامية فى هذه المناطق وذلك لأن الإسلام يحرم شرب الخمر وتصنيعه . وكان التين، والرمان، والزيتون والأرز ، والحنطة والبسلة (التى كانت تسخدم كطعام شهى) ، وكذلك الفاكهة العجيبة المنتجة فى دمشق فى كل فصول السنة والثلوج التى تغطى قمة جبل حرمون والتى تستخدم فى صناعة الشراب الحلو المثلج (الشربات) ، كانت كل هذه المنتجات الجديدة بالنسبة للصليبيين ، تظهر منطقة الشرق العربى فى أبهى صورة . لقد استطاع التأثير الشرقى فى مجال الأطعمة والتذوق أن يتغلب على العرف والتقليد الأوربى . وعلى الرغم من استخدام الموائد والكراسى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى بشكل معتاد، فإن الفرسان الصليبيين الذين ولدوا فى المنطقة العربية قد تعلموا طريقة جلوس القرفصاء فى أثناء تناولهم الطعام. وكانت الأطعمة الشرقية تناسب مناخ المنطقة العربية التى احتلها الصليبيون وذلك بشكل أكبر من الأطعمة الأوربية، وتعلم الصليبيون فى هذه البيئة الجديدة تناول كميات أقل من الطعام. فلم تتفق الشهية والرغبة الجامحة للأكل لدى أهل شمال فرنسا مع ظروف المناخ الشرقى والبيئة الشرقية الجديدة التى عاش فيها الصليبيون. وارتفعت نسبة الوفيات بين الصليبيين . وما حدث للمستوطنين من عدم توافق نفسى فى هذه البيئة الجديدة ظل قدراً مشتركا لجميع الصليبيين الجدد طوال فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية التى استمرت قرنين من الزمان. إذ ساعد المناخ الفلسطينى فى إهلاك المئات والآلاف من الصليبيين.

وإذا كان الصليبيون قد أقروا وقبلوا الطعام الشرقى فإنهم تعرفوا أيضا على عادات ارتداء الملابس الشرقية الفاخرة . فقد كانت الكوفية التى يرتديها الأمير الصليبى تانكرد (وهى نوع من غطاء الرأس) والتى تظهر على أحد وجهى عملته ونقوده تلقى اهتماما كبيراً ، بيد أن

عزو هذه الكوفية إلى الاستشراق الحضارى للصليبيين يعد أمرا مبالغا فيه. فقد كان الأمير تانكرد يتحدث اللغة العربية ، والتى تعلمها فى جنوب ايطاليا ، مثل رفيقه وابن وطنه ريتشارد من برينكيبيت Richard de Principatu الأمر الذى جعله يستجيب لرسم الكوفية العربية على وجهى عملته . ومهما كان الوضع، فإنه كان من الناحية العملية أن يغطى المرء رأسه بخوذة مبطنة بقماش تقيه حرارة مناخ بلاد الشام . ولاشك أن النبلاء الصليبيين استخدموا الملابس الحريرية، واستخدموا القماش الشرقى المطرد غالى الثمن وذلك فى أثناء الاحتفالات الدينية. وهنا نجد جوانفيل قد اشترى مخملا صوفيا وحريريًا للملكة الفرنسية مرجريت أم الملك لويس التاسع، وهو المخمل الذى سجدت أمامه الملكة احتراما وتقديسًا ، واتخذته ضمن الذخائر المقدسة. لقد كانت الإمارات الصليبية بمثابة حجر الزاوية والمحطة الرئيسة لانتقال المنسوجات والأقمشة الشرقية بأنواعها المختلفة إلى أسواق أوربا ، وهى الأقمشة التى كانت تحتاج إليها طبقة النبلاء ورجال الدين الكنسيين على السواء ، وكان يمكن للأوربيين تجنب وتفادى الاحتكار البيزنطى لتصدير الأقمشة غالية الثمن من خلال اتصالهم المباشر بأسواق مصر، ودمشق وبغداد ، وأيضا بالاعتماد على بعض الصناعات المحلية فى بلاد الشام . واستخدمت النساء الشرقيات اللاتى تنتمين إلى بيوت الأمراء والحكام الأصباغ فى شعرهن المستعار (الباروكات) . كما استخدمن العطور وأدوات الزينة، وهى الأدوات التى لم يعرفها النبلاء الصليبيون ولا رجال الكنيسة . وعلى الرغم من أن الصليبيين قد أقروا هذه العادات المحلية الشرقية فى مجال المأكل والملبس على نطاق واسع، فإننا اكتشفنا وجود بعض العوائق والاتجاه المضاد لتبنى الصليبيين الأنماط المعمارية الشرقية .

ولاشك أن المملكة الصليبية قد تمتعت بامتياز سن القوانين الرسمية لكونها أول دولة مسيحية فى الخارج . ففى وقت مبكر من عام ١١٢٠م، هدد أعضاء المجلس الكنسى الذى عقد فى نابلس بفرض عقوبة السجن الملكية على كل مسلم يرتدى زيًا صليبيًا ، وجاء هذا التحريم والحظر من جانب واحد، إذ لم تكن هناك ضرورة وحاجة لفرض هذا التحريم على الصليبيين من ارتداء الملابس الإسلامية . وجاء هذا الحظر بهدف وضع حد لأى اختلاط ممكن بين السكان الصليبيين والسكان المحليين. وكان تورط الصليبى فى ارتداء الملابس المحلية الإسلامية يعد ضربًا من ضروب الفسق والانحلال ، وهكذا يمكن القول إن اقرار الصليبيين للأقمشة والملابس الشرقية لايعنى أنهم تقبلوا الزى الذى كان يرتديه المسلمون المحليون . ومن خلال صمت المصادر التاريخية الأوربية عن هذا الموضوع تتضح لنا موجة النقد التى كان

يتعرض لها الصليبيون الذين حاولوا تقليد الأزياء الشرقية الإسلامية ، ويمكن أن نستنتج أيضا أن الصليبيين اتبعوا طراز وأشكال الملابس الأوربية. وكان من المخزى أيضا أن يرتدى المسيحيون الشوام نفس الملابس الفاخرة التى يرتديها المسلمون الشوام ماعدا ذلك النمط المحدد من الحزام أو الزنار الصوفى (والذى كان يعرف فى المصادر الصليبية باسم زنار وحزام المسيحية). وفى الغالب كان الصليبيون يقتلون المسيحيين الشوام ظنا منهم أنهم من المسلمين لأنهم كانوا يرتدون الملابس الإسلامية الفاخرة ويطلقون لحاهم متشبهين بالمسلمين إذ كان الزى، هو الذى يحدد هوية الشخص الصليبى أو غير الصليبى . وعلى سبيل المثال ، لم ترتدى النساء الصليبيات السراويل ولم يكن السروال جزءاً من ملابسهن ، على الرغم من أننا قد عرفنا أن بعض الأزواج ، من أبناء الطبقات الدنيا فى المجتمع الصليبى قد فرضوا على زوجاتهن ارتداء الحجاب ، كما أن أفراد طبقة النبلاد الصليبية كانوا يحصلون على معظم الملابس الشرقية غالية الثمن من الحكام المسلمين على سبيل الهبة أو الهدية . ولاشك فى أن الرأى العام الصليبى كان يعارض ارتداء الصليبيين الملابس الشرقية . فقد حاول هنرى الشامبنى إقامة علاقات ودية مع صلاح الدين الأيوبى فبعث إليه الرسالة التالية :

«تعرف يا سيدى أن استخدام ولبس الزى الإسلامى الذى يرتديه المسلمون من التنك والعمامة أمر يلحق بنا الخزى والعار ولكننى سوف أرتدى هذه الملابس توطيدا لصداقتنا وتبجيلا لشخصك».

ونظرا لأن الزى كان يرتبط بشكل مباشر بالمظهر الخارجى للشخص ، فإننا لاندهش إذا عرفنا أن الصليبيين قد لبسوا الزى الأوربى واتبعوا التقاليد الأوربية فى الملابس والأزياء. والواقع أن المحاربين الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى كانوا يطلقون لحاهم . وعندما طلب الملك بلدوين الأول بعض الأموال التى يحتاج إليها بشكل ملح هدد حماه (والد زوجته) الأرمنى بأنه سوف يزيل لحيته إذا لم يدفع له هذه الديون المستحقة عليه. وعلى أى حال ، فقد اختفت عملية إطلاق اللحى بين السكان الصليبيين بحلول منتصف القرن الثانى عشر الميلادى. وتمثل أسماء الصليبيين الذين أطلقوا لحاهم والذين ورد ذكرهم فى المصادر التاريخية حالة استثنائية . وبنهاية القرن الثانى عشر الميلادى يذكر لنا المؤرخ والشاعر المسلم أسامة بن منقذ إشارات عن أحد النبلاء الصليبيين، إذ يذكر هذا المؤرخ المسلم أن هذا النبيل الصليبى كان ضخم الجسم حليق الذقن ، وفقا للنمط السائد فى أوربا الوطن الأم.

ومما يذكر أن ثمة عوائق واضحة عرقلت عملية تأثر الطوائف الرهبانية ورجال الكنيسة والهيئات الدينية العسكرية بالملابس المحلية الشرقية، ولم نستطع استخلاص بعض الاستنتاجات من وراء هذه الحقيقة لأننا نتعامل هنا مع عادات شكلية مألوفة فى أوربا وفى منطقة الشرق الصليبى . فالعباءات الصوفية البيضاء التى كان يرتديها أعضاء الهيئات الدينية العسكرية قد تأثرت بعض الشيء بالملابس والأزياء الشرقية إذ كان شكلها يشبه العباءة التى يرتديها المسلمون ، والتى أثرت حاليا على شكل العباءة البيضاء المزودة بغطاء الرأس المنتشرة فى معظم شمال أفريقيا ولاسيما فى بلاد المغرب العربى. ولاشك أن هذا النوع من العباءات يلائم المناخ الحار فى هذه المناطق .

ويتمثل المجال الثالث من مجالات الاحتكاك الحضارى بين المجتمعين الإسلامى والصليبى فى مجال اللغة. فقد تخيل البعض أن إدخال بعض الكلمات والمصطلحات العربية إلى اللغات الأوربية دليلاً على الاستشراق الحضارى للمجتمع الصليبى. الأمر الذى جعل بعض المؤرخين المسيحيين اللاتين يشيرون إلى أن بعض الصليبيين قد عرفوا اللغة العربية. وتؤكد بعض المصادر التاريخية عكس هذا الاستنتاج الخاص بمعرفة الصليبيين باللغة العربية. إذ إن الكلمات والمصطلحات العربية التى دخلت إلى اللغات الأوربية والتى ذكرتها المصادر الصليبية لم تزد عن أربعين كلمة، وكان ثلث هذه الكلمات والمفردات العربية التى دخلت فى اللغات الأوربية تخصص للتعامل مع المسلمين ولاسيما فى الحياة العامة والتعامل اليومى بين المسلمين والصليبيين، ومن أهم هذه المفردات العربية ، كلمات مثل القاضى ، والرئيس والمملوك ، والترجمان ، والفقيه ، ولفظة المحمدية (وهى مشتقة من كلمة محمد) ، وأيضا كلمة مسجد وكلمة خليفة ، وكلمة محمد. وفى النهاية تحولت مهمة الترجمان إلى وظيفة رسمية فى الجهاز الإدارى الصليبى ، وتحول إلى نوع من الإقطاع الزراعى ، وتمثلت أهمية الترجمان فى قيامه بدور المترجم بين السيد الإقطاعى وبين فلاحيه من المسلمين لاختلاف اللغة بينهما . وكانت بعض الكلمات والمفردات العربية مشتقة من بعض المصطلحات التجارية والزراعية ، مثل كلمة المعصرة- التى تستخدم فى عصر الزيوت والنبيذ، وكلمة الجرة Jar التى كانت عبارة عن وعاء ومكيال للمواد السائلة ، وكلمة قنطار، وكلمة الرطل، والكلمات المعبرة عن الموازين المتداولة فى منطقة الشرق العربى الإسلامى مثل الغرارة ، ووحدات العملة مثل الروبية، والمصطلحات الخاصة بالرسوم الجمركية والضرائب مثل الخراج والجزية ، ومكتب الجمرك الذى كان يعرف باسم الديوان (مكان تمكيس التجارة) ، ووحدات العملة والنقود

الإسلامية مثل الدرهم . وكلمة المحتسب وهو الموظف الذى كان يشرف على الأسواق، وأسماء أماكن وصول التجار مثل كلمة الرباط، وسق البز وهو سوق الأقمشة ، وسوق الديك (سوق الطيور) ، وكلمة الفندق ، والذى كان عبارة عن سوق صغير*.

وثمة كلمات عربية محلية، مثل كلمة سمسم، وكلمة السكر، والأقمشة مثل قماش الساميت Samite وقماش البلداخين Baldachin ، وقماش الدمسق ، وقماش الوبر أو المخمل Camlet ، وقماش الموسلين Muslin، وأسماء الأسلحة مثل الرمح والقوس Shield . وظهرت مفردات وأسماء عربية فى اللغات الأوربية مثل البرميل لخزن المياه، والقافلة Caravan وهى سفينة النقل الموسمية، وكلمة ارسينال Arsenal (دار صناعة واصلاح السفن).

وظهرت بعض الكلمات العربية المقتبسة من الفارسية مثل كلمة اليزك والتى تعنى وحدة الجيش أو السرية، وكلمة الخليج التى تعنى القناة ، وكلمة التابوت، وكلمات أخرى مثل مسكين التى تعنى الرجل الفقير ، وكذلك الكلمات المتعلقة بالأدوات الموسيقية مثل آلة النقارة (الطبلة، والقيثارة ، والسلامية) .

وثمة أسماء جغرافية ذات أصل شرقى تم تداولها بين الصليبيين مثل كلمة كفر التى تعنى القرية، وكلمة بيت التى تعنى منزلاً، وكلمة عين التى تعنى مصدر مياه، وأحيانا كان يتم تداول كلمة جبل أيضا ، على الرغم من أن كلمة كفر قد أصبحت فى اللغة اللاتينية الصليبية

---

* الواقع أن الباحث يلحظ كثرة الألفاظ العربية المستخدمة حتى اليوم فى كثير من اللغات الغربية الأوربية. فعدد الألفاظ العربية فى اللغتين الأسبانية والبرتغالية أضخم مما يتصوره العقل. وقد عمل المستشرق دوزى معجمًا للألفاظ ذات الأصل العربى الشائعة فى هاتين اللغتين ، كذلك تركت اللغة العربية أثرا واضحا فى فرنسا- لاسيما فى جنوب فرنسا- حتى أن اللهجات السائدة فى أفرن Auvergne وليموزان Lim-ousin محشوة بالكلمات العربية ، كما أن أسماء الأعلام فيهما ذات مسحة عربية واضحة . أما اللغة الانجليزية ففيها وحدها ما يقرب من ألف كلمة مشتقة من أصل عربى، منها حوالى مائتين وستين كلمة من الكلمات الشائعة الكثيرة الاستخدام فى الحياة اليومية وقد قسم أحد العلماء الأوربيين هذه الكلمات تقسيمًا موضوعيًا ، فمنها ما هو خاص بأسماء الحيوانات والطيور، ومنها ما يرتبط بالفلك والكيمياء والنبات أو بالأقمشة والملابس، أو بالمأكل والمشرب- هذا عدا الاصطلاحات الخاصة بالطب والموسيقى والحروب. (سعيد عاشور : المدينة الإسلامية ، الانجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٨٢م، ص٨٤-٨٥) (المترجم) .

باسم Casale ، حيث كانت هذه القرية الصليبية تحمل اسم مالكها وصاحبها الصليبى ، مثل قرية روبرت Casale Roberti ونجد أيضا كلمة أودية والتى عرفت فى اللاتينية Vallis.

والحقيقة أن اقتباس اللغة الأوربية لعدد قليل من الكلمات والمفردات العربية طوال ما يقرب من قرنين من الزمان قلما يثبت أن اللغة العربية قد تركت تأثيراً كبيراً على الصليبيين . وبالمقارنة بين اللغتين الأسبانية والإيطالية وبين اللغة الفرنسية من حيث اقتباس المفردات العربية، نجد أن عدداً قليلاً من الكلمات والمفردات العربية قد دخلت مفردات اللغة الفرنسية الصليبية . وعلى الرغم من احتمال تداول عدد كبير من مفردات اللغة العربية واستخدامها فى أسواق بيت المقدس ، وعكا، وصور ، فإن هذه الكلمات لم تجد طريقها إلى المصادر التاريخية المكتوبة.

وعندئذ يمكن القول إن معرفة الصليبيين باللغة العربية لم تكن شائعة على نطاق واسع. وهكذا كانت هناك حاجة لوجود مترجمين حكوميين فى المجتمع الصليبى ، واية ذلك أنه كانت هناك إشارة خاصة لأسماء الصليبيين الذين تحدثوا اللغة العربية فى المصادر الغربية والشرقية. وإذا كان الجاسوس الصليبى الذى اتهم بالتواطؤ مع المسلمين فى عام ١١٤٦م قد أرسل مرة ثانية على رأس بعثة صليبية نظرا لإلمامه ومعرفته باللغة العربية لغة المسلمين وعاداتهم فإن هذا لايكفى دليلا على أن معرفة الصليبيين كانت شائعة بل كانت نادرة . والواقع أن تقليد الصليبيين للنقود العربية منذ الفترة الباكرة من وجودهم يؤكد جهلهم باللغة العربية.

لقد تعلم الصليبيون اللغة العربية لأسباب عديدة ، منها حاجة بعض أفراد الطبقات الدنيا من الصليبيين لهذه المفردات والكلمات العربية لاستخدامها فى حياتهم اليومية أو على الأقل للتحدث بها فى السوق وممارسة التجارة للحصول على الربح المادى، بيد أنه كان هناك اتجاه عام مختلف يسود بين أبناء الطبقات العليا من المجتمع الصليبى وهو الاتجاه الذى يعارض تعلم الصليبيين للغة العربية. ففى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى كان وليم الصورى * أحد

---

* يعد وليم الصورى من أبرز مؤرخى العصور الوسطى ، ومن أشهر مؤرخى الحروب الصليبية . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد نسبة ومولده . ويرى المؤرخ الانجليزى بيورى أن وليم الصورى قد ولد فى عام ١١٢٧ فى مدينة بيت المقدس. ويرى البعض الآخر أنه ولد فى سنة ١١٣٠ م، وأيا كان تاريخ مولده، فالمتتبع لأحداث عمره، يرى أنه عاش أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير من عمره طالبا للعلم سواء فى مملكة بيت المقدس الصليبية أو فى فرنسا وإيطاليا، ومنكبا على الدراسات اللاهوتية، ومشرفا على =

الشخصيات الصليبية البارزة فى المملكة الصليبية يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة. وهو المؤرخ اللاتينى الذى كتب عن التاريخ الباكر للعالم الإسلامى ومن سوء الحظ أن هذا العمل التاريخيى قد فقد وضاع ولم يعثر عليه خلفاؤه من بعده، وفى الربع الثالث من القرن الثالث عشر الميلادي، كان وليم الصورى على دراية تامة باللغة العربية، يتحدث بها بشكل جيد ، وقد كتب وصفًا مختصراً لكيفية نشر الإسلام وكان هذا الوصف الذى كتبه وليم الصورى لأغراض تنصيرية . وقد تعلم أحد الرهبان الدومينيكان المدعو يف البريتون Yve le Breton اللغة العربية من أجل تيسير مهمته ونشاطه التنصيرى . وابتعث أحد قادة هيئة فرسان الداوية والذى كان يعرف باسم ليون كازالير Lion Cazalier من مدينة صفد (فى عام ١٢٦٦م) إلى السلطان المملوكى الشهير الظاهر بيبرس لأنه كان يتقن اللغة العربية . وتحدث باللغة العربية أيضا أحد أفراد النبلاء الصليبيين وهو نيكولاس Nicholas من عكا والذى كان قد تعلمها على يد أحد الفرسان الصليبيين وهو فيليب مينبيف Philip Mainebeuf من عكا ، بيد أن أحد أعضاء العائلات الارستقراطية الصليبية الذين ولدوا فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس وهو همفرى Humphrey كان يعرف اللغة العربية، وهو الشخص الذى قام بمهمة الترجمة بين الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد وبين الملك العادل الأيوبى عند أرسوف وأيضا بين الملك العادل وبين الأمير الصليبى بلدوين الابلينى. ولاشك أن الصليبيين كانوا يكتسبون معرفة بعض المفردات والكلمات العربية من خلال التعامل المتكرر مع المجتمع الإسلامى على الرغم من أن هذه التعاملات كانت قليلة ونادرة . إذ إن علاقات التآخى والود مع المسلمين كانت تجد معارضة ونفورا من جانب الصليبيين . ويكفى أن نتذكر موقف الصليبيين تجاه الامبراطور الألمانى فردريك الثانى (على الرغم من عدم استقرار ظروف المملكة الصليبية) ، وهو الموقف العدائى المعروف فى كل مكان آنذاك . وثمة قصة صداقة بين ريجنالد منصور Reginald Mansue ابن كونستابل أنطاكية وبين أمير بلنياس* ومرقية** Bulunyas and Marakiyeh

---

= ديوان الرسائل فى بلاط الامبراطور البيزنطى امانويل كومنين ، بالإضافة إلى أنه ارتقى المناصب الدينية وصار رئيس أساقفة مدينة صور. كما أنه حظى بمكانة مرموقة لدى الملك الصليبى عمورى ، وترك لنا كتابا تاريخيا مهما عن تاريخ المملكة الصليبية فى بيت المقدس (المترجم) .

* بلنياس : كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر ولعلها سميت باسم الحكيم بلنياس صاحب الطلسمات (ياقوت الحموى: معجم البلدان (دار صادر ، بيروت ١٩٩٥) ، جـ١ ص٤٨٩) .

** مرقية : قلعة حصينة فى سواحل حمص ، كانت خربت فجددها معاوية ورتب فيها الجند وأقطعهم القطائع. (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص١٠٩) .

المسلم ، والذى قضى أيامًا فى ضيافة أصدقائه المسلمين فى حدائق وبساتين هذا الحاكم المسلم ومن ثم فقد دعا أصدقاءه المسلمين لزيارة قلعته . بيد أن قصة الصداقة هذه كان يتخللها أيضا قصة الصليبى المتحمس الغيور الذى طرد المسلمين.

والواقع أن التأثيرات العميقة لعدم الاندماج الاجتماعى أو السياسى بين المجتمعين الإسلامى والصليبى، وسياسة التفرقة العنصرية التى اتبعها الصليبيون ، لم تقتصر تأثيراتها فقط على مجال الهيمنة الاجتماعية والسياسية للصليبيين، بل انعكس تأثيراتها أيضا على مجال الاتجاه الفكرى الصليبى، وخلق حواجز فى وجه الاتصال والعلاقات الثقافية بين المجتمعين الإسلامى والصليبى. وربما كانت سياسة عدم الاندماج الاجتماعى بين المجتمعين الإسلامى والصليبى إحدى العوامل المهمة والرئيسة المسئولة عن فشل مملكة بيت المقدس اللاتينية فى القيام بدور الوسيط الثقافى والفكرى بين منطقة الشرق العربى الإسلامى وبين الغرب الأوربى المسيحيى . ولاشك أن حالة الحرب الدائمة التى عاشتها هذه المملكة الصليبية هى التى وقفت حجر عثرة أمام هذه المملكة الصليبية للقيام بهذا الدور ، ولانستطيع أن نؤكد تمامًا وجهة النظر التى تنحى باللائمة على السمة العسكرية للمستوطنات الصليبية باعتبارها عائقًا أمام التأثير والتأثر الفكرى بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية الغربية، لقد كان الصليبيون تواقين لدراسة اللغة العربية وتعلمها ، ودراسة الثقافة والدين الإسلامى ، وقد استطاعوا ذلك ، مثل وليم الصورى، أسقف مدينة صور الذى أتقن اللغة العربية، وكذلك بعض العلماء الأقل شهرة ، مثل بيزان ستيفن Pisan Stephen من أنطاكية ، والذى كان أحد خريجى جامعة سالرنو ، وهو العالم الذى قام فى عام ١١٢٧م بترجمة المؤلفات والكتب الطبية للعالم المسلم على بن عباس (فى القرن العاشر الميلادى) ، كما قام أيضا بترجمة بعض المؤلفات الفلسفية العربية . وكان هناك فيليب الطرابلسى، أحد رجال الدين الذين عملوا تحت سيادة جى من فالنس Guy de Valence وكان فيليب هذا أسقفا فى كنيسة طرابلس ، وقد قام فى عام ١٢٥٠م بترجمة كتاب أرسطو المشهور المعروف باسم سر الأسرار Secretum Se-cretorum . ونذكر أيضا أماليك الأسبانى ، الذى قام فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بترجمة بعض أجزاء واسفار العهد القديم (التوراه) إلى اللغة الاسبانية واستكملت هذه الترجمة على يد أحد الرحالة الذين زاروا فلسطين ، وقد اهديت هذه هذه الترجمة لريموند رئيس أساقفة توليدو Toledo ، مؤسس مركز الترجمة الكبير فى المدينة ومن الملاحظ أن

أماريك هذا كان على دراية تامة بالنسخة العبرية للكتاب . المقدس ولديه دراية ومعرفة أيضا باللغتين العبرية والآرامية. واعتمدت الترجمة الأسبانية الباكرة للعهد القديم (التوراه) فى الأساس على الأصل العبرى للكتاب المقدس بصورة أكثر من الترجمة اللاتينية . ويبقى السؤال الرئيسى الغريب وهو لماذا لم يتضمن التراث المعرفى الصليبى المعرفة الجغرافية الإسلامية المهمة؟ ولاشك ، فإن الصليبيين الذين كانوا يقطنون مدنا مثل أنطاكية وبيت المقدس ، كانوا فى حاجة إلى اكتساب كنوز المعرفة الشرقية الإسلامية الموجودة فى هذه المدن. فقد تسلم المؤرخ الصليبى وليم الصورى من الملك الصليبى عمورى (أماريك) المصادر التاريخية العربية بسبب فقده لوثائق وكتب الأمراء المسلمين الشرقيين، وكان من بين هذه الكتب التاريخية والحوليات الشرقية حولية يوطيخيوس الاسكندرى Eutychius of Alexandria (والمعروف باسم سعيد بن البطريق) . وكان ثيودور Theodorus فيلسوف الامبراطور فردريك الثانى ومستشاره الثقافى من أهل أنطاكية الذين يتقنون اللغة العربية . وخدم عدد كبير من الأطباء الشوام المحليين فى بلاط الأمراء الصليبيين سواء كان هؤلاء الأطباء يقيمون فى أقاليم ومدن المملكة الصليبية أو فى الأقطار العربية المجاورة لها. وأهدى بعض العلماء المسلمين الشرقيين للملك الصليبى عمورى (أماريك) كتابا فى علم التنجيم والتنبؤ . والسؤال الذى يطرح نفسه هو ألم يكن التأثر الصليبى بالثقافة الإسلامية متاحا وممكنا ، بيد أن هذا الأمر كان يعتمد على درجة قبول الصليبيين والمجتمع الصليبى لكنوز الحضارة العربية الإسلامية. والعلوم الإسلامية ، وكانت استجابة هذا المجتمع الصليبى للمعارف الإسلامية سلبية إلى حد ما .

وثمة سؤال أيضا يطرح نفسه وهو هل يمكن القول بأن السمة العسكرية والتجارية للمنشآت والمستوطنات الصليبية كانت الأساس والسبب لجمود الانجازات الروحية والفكرية للصليبيين فى منطقة الشرق العربى الإسلامى؟ الواقع أننا لايمكن الاعتقاد بأن مثل هذا السبب يقدم إجابة مقنعة لهذا السؤال. فإذا كانت هناك حاجة للبراهين التى تؤكد مثل هذا الرأى فإنه يجب الإشارة إلى الحروب الإسلامية الصليبية كان يتخللها فترات سلام وهدن بين الطرفين المتحاربين الإسلامى والصليبى وخلال فترات السلم والهدن هذه كانت القوافل التجارية تنتقل بين الطرفين عبر الطرق التجارية المعتادة . وتردد عدد من العلماء المسلمين لزيارة فلسطين وبلاد الشام وقام عدد من العلماء المسيحيين المحليين بزيارة المدن الصليبية . ولاشك ، فقد كانت هناك احتمالات للاتصال الثقافى والفكرى بين الجانبين الإسلامى والصليبى ، حتى خلال الظروف

الراهنة التى عاشتها هذه المملكة الصليبية وإن كانت هذه الاتصالات الثقافية والفكرية بين الجانبين الإسلامى والصليبى أقل من مثيلتها بين هذين الجانبين فى صقلية أو فى منطقة أسبانيا التى لم تهدأ الحروب فيها بين المسلمين والمسيحيين الأسبان. فقد انتقلت بعض المعارف والعلوم الإسلامية من أسبانيا إلى الغرب الأوربى، وترجمت بعض المقالات والمعارف العربية الأدبية إلى اللغة اللاتينية وانتقلت بدورها إلى الثقافة والآداب الأوربية . ومن المحتمل أن أناشيد الفقراء Chansons des Chetifs قد دونت فى أنطاكية . ولم يهتم الصليبيون بترجمة مثل هذه الأعمال الأدبية . وحضر عدد من العلماء الأوربيين لزيارة منطقة الشرق العربى الإسلامى من أجل جمع هذه الأعمال الأدبية المحلية ونقلها إلى أوربا ، والاقتباس من هذه القصص الشرقية الخرافية . ومن الطبعى أن يسلك بعض هؤلاء العلماء الأوربيين سلوكا يشبه سلوك السياح فى الوقت الحالى. ويقول أحد الحجاج الأوربيين الذي زاروا المناطق الصليبية فى منطقة الشرق العربى فى عام ١٢١٧م وهو ثيتمار Thietmar بكل شجاعة وثقة : « لقد مكثت فى دمشق ستة أيام كاملة ، واستطعت خلال هذه المدة القصيرة التعرف على تعاليم الدين الإسلامى ونمط حياة المسلمين . وقد عرفت خلال هذه الاقامة القصيرة تلك الرذيلة التى انتشرت بين المسلمين آنذاك وهى اللواط والشذوذ الجنسى ، وهى الرذيلة التى هددت مستقبل كيان العالم الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وقد شاهدت أيضا مدى تقاعس المسلمين عن تأدية واجب الجهاد وعن تأدية واجباتهم المادية وعدم اصغائهم لدعوة علماء الدين فى المساجد من أجل الاستعداد للجهاد الإسلامى ! ومن هذا يمكن أن نستنتج دون عجب : بأن حياة المسلمين كانت غير مألوفة وغريبة وأن قانونهم الأخلاقى والعقيدى قد اعتراه الفساد ».

لقد توقف الشرط الأساسى لتفتح الصليبيين وتقبلهم للثقافة والآداب الإسلامية على مدى تقديرهم الأهمية والقيمة النفعية لتلك المنجزات الثقافية والأدبية لأعدائهم . وثمة عامل منفعى (كان العامل المادى من العوامل التى تحظى باهتمام الصليبيين) يمكن أن نتخيله فى المجال الثقافى غير المادى . فعلى سبيل المثال، لم يكن الدافع الذى حفز الصليبيين لدراسة القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية ضربًا من ضروب الفضول الإنسانى، ولكنه كان أساسا من أجل تزويد الصليبيين بأدوات وأسلحة الجدل الدينى التى تستخدم فى النشاط التنصيرى . وعلى الرغم من أن مثل هذه التطورات الثقافية كانت أمراً متداولاً فى الغرب الأوربى الكاثوليكى ، فإن الإمارات الصليبية لم تعبأ كثيرا بمثل هذه التطورات الثقافية . وعلى الرغم

من الشجاعة والفروسية التى اشتهر بها المحارب الصليبى ، فإن المسلمين كانوا يطلقون على الصليبيين لقب القوم الملاعين . ومع هذا فإن المسلمين لم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم بفروسية وشجاعة المحارب الصليبى. وتولد هذا الإعجاب فقط عندما اقتربت المملكة الصليبية فى بيت المقدس من التدهور والسقوط الذى رفع من قدر الدين الإسلامى ورفعت من قدر المسلمين إلى الذروة ، بيد أن هذا التقدير والتقييم الصحيح للدين الإسلامى وأخلاقياته لم يتشكل داخل الوسط والمحيط الصليبى تماما ، ولكنه تشكل على يد أعضاء البعثات التنصيرية من الأوروبيين ، الذين حضروا إلى منطقة الشرق العربى الإسلامى بقصد التعرف إلى تفاصيل عقيدة وسلوكيات أعدائهم وخصومهم المسلمين. وظل وليام الطرابلس William of Tripoli يشغل اهتمامه بالدين الإسلامى واهتم أيضا بكيفية استخدام بعض معتقدات المسلمين لنشر المسيحية ، بيد أنه بعد جيل كامل من وفاة وليم الطرابلسى استطاع ريكولدو من مونت كروس Riccoldo de Monte Croce أن يسجل ويدون تقريرا كاملا متجانسا عن الإسلام والمسلمين*. ولكن المجتمع الصليبى ظل غير متفتح للثقافة والمعارف الإسلامية.

ومن المحقق أن عدم استجابة الصليبيين للثقافة والآداب العربية الإسلامية لم تكن نتيجة التعصب الأعمى ضد المسلمين . ومهما كانت العيوب والتهم التى الصقت بالصليبيين، فإنهم لم يكونوا متعصبين البتة . وآية ذلك أن مساجد المسلمين ظلت قائمة فى المدن التى احتلها الصليبيون ، وظلت الحرية الدينية جزءا من البناء السياسى للكيان الصليبى، بيد أن تحررهم العقلى (الليبرالية) فى أمور التسامح الدينى قد أدى إلى استهجانهم لفكرة الازدواج الثقافى

---

* نصح وليم الطرابلسى احدى البعثات التنصيرية الأوربية باستخدام بعض المعتقدات المسيحية التى تتفق وتعاليم الدين الإسلامى من أجل اقناع المسلمين وتحويلهم إلى النصرانية . ودون ريكولدو Riccoldo تقريرا متقنًا عن الطوائف المسيحية الشرقية وأبدى اعجابه بالمسلمين . وقد استهل تقريره بوصف مسهب لأخلاقات المسلمين قائلا : «واستقبلنا المسلمون فى بغداد فى مدارسهم وفى أديرة المدينة ومعابدها باحترام وترحاب كاستقبال ملائكة الرب ، واستقبلنا المسلمون فى بغداد فى منازلهم ، وتعلمنا هناك تعاليم الدين الإسلامى وسلوكيات وعادات المسلمين. وقد انهمكنا فى تعلم ومعرفة واتقان سلوكيات التعاليم الإسلامية النادرة. وباختصار ، فإننا نشير هنا إلى أفعال المسلمين المقدسة التى أدت إلى ارتباك المسلمين أكثر من تزكيتهم. ولكى نعرف الكثير عن سلوكيات المسلمين وعاداتهم يجب أن نتعرف على سلوكيات المسلمين من خلال صلاتهم وأعمالهم التقوية، وأعمال العطف على الفقراء واحترام الأديان السماوية الثلاثة. (المؤلف) .

فى المستوطنات الصليبية أو ادخالها إلى أية مستوطنة صليبية انتشرت بها بعض الآداب والثقافة الأوربية . فالشاعر الألمانى فريدانك Freidank ، والذى كان أحد الذين شاركوا فى حملة الامبراطور الألمانى فردريك الثانى الهوهنشتاوفن يتحدث بايجاز بليغ عن مدينة عكا قائلاً: «والذى لفت نظرى فى مدينة عكا، هو أنه لم يكن هناك فرق أو تمييز بين المسيحى والمسلم فيها ... وجميع سكان هذه المدينة من الشباب أو الشيوخ يتحدثون اللغة العربية. وبالنسبة لسكان مدينة عكا ، فإن المسلم يعادل اثنين من المسيحيين أو أكثر (فى مجال الدية) ». وخلاصة القول ، فإننا لايمكن أن ننكر تأثير الظروف السياسية غير المواتية للمملكة الصليبية، بالإضافة إلى عوامل أخرى مهمة والتى كانت وراء عدم تقبل المجتمع الصليبى للثقافة العربية الإسلامية. وهكذا أخفقت المستوطنات الصليبية فى المنطقة العربية فى أن تلعب دوراً كبيراً فى نقل الثقافة والحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربى الكاثوليكى. وعلى الرغم من أن الصليبيين لم يكن لديهم برنامج لنقل الثقافة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوربى ، فإن الغزو الصليبى السريع للمناطق العربية وسمة الحروب الصليبية فى هذه المناطق (فيما وراء البحار) لم تكن تحظى بالانتشار ، وتركزت نتائج هذه الحروب الصليبية فى خلق وضع أوربى خاص، وهو الوضع والموقف الأوربى الذى كان مسئولا عن الشخصية والسمة الثقافية للمستوطنات الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين. ونشير إلى الفكرة العامة الخاصة بـ «الحدود أو التخوم» كما وجدت فى أسبانيا ، وصقلية ، والشرق السوفيتى. ففى كل الحركات الاستيطانية الأوربية ، لعبت «الحدود أو التخوم» دوراً مهما فى مستقبل المستوطنات المختلفة. فلم تكن «التخوم» حداً عسكريا فقط ، بل كانت أيضا بمثابة منطقة مواجهة جبهة بين الأطراف المتحاربة ، وكانت «التخوم» أيضا مجالا للاتصالات الممتدة بين الشعوب والحضارات والثقافات . وكانت معرفة العدو غير مناطق الحدود والتخوم هذه والتى ظلت لعشرات السنين تلعب دوراً مهما فى التوسع الاستيطانى والاستعمارى. إذ كان من السهل التعرف على مزايا وعيوب . أو قوة وضعف الأعداء والخصوم وتحديد أدوات هذه التحديات وذلك من خلال عمليات الاستطلاع من مناطق الحدود والتخوم. وكانت منطقة الحدود هذه تشهد تمازجًا حضاريًا وثقافيا بين الطرفين المتحاربين الإسلامى والصليبى. وهكذا فقد حدث فى مناطق الحدود والتخوم انصهاراً حضاريًا وثقافيًا بين المسلمين والصليبيين فى أسبانيا على الرغم من الاتجاهات العدائية المتأصلة التى كانت تقف فى وجه مثل هذا الانصهار والتمازج الحضارى. وخلال مرحلة التوسع الاستيطانى التالية، اكتسب الصليبيون معرفة بعدوهم

الإسلامى ، وتقبلوا أيضا النظام الاجتماعى والثقافى الإسلامى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ثقافة المستعمر قد تأثرت جزئيًا بثقافة عدوه المسلم، وكان الفرق الواضح فى المستوى الحضارى والثقافى بين الطرفين الإسلامى والصليبى من الأمور التى تفتح لنا طريقا مستنيراً نحو فهم الموضوع . وكانت مثل هذه المناطق الحدودية تتسع فى المساحة بسبب عمليات الغزو ومايقتطع من أرض العدو يتحول بشكل طبيعى إلى «منطقة حدود». وإذا لم يهجر السكان الأصليون هذه المناطق ، فإن هذه المناطق تستطيع بسهولة القيام بدور مؤثر فى عملية واحداث التأثير الثقافى والحضارى المتبادل بين المجتمعين المحلى والاستيطانى . وسوف يعتمد دور منطقة الحدود أو التخوم فى إحداث التأثير الثقافى المتبادل بشكل كبير على التوسع المتجدد والمتقطع خلال الفترة الفاصلة السابقة. ففى بداية انشاء المستوطنات الصليبية فى المنطقة العربية (فيما وراء البحار) لم تكن هناك مناطق حدود فاصلة بين الصليبيين وبين المسلمين ، حيث كانت التحصينات التى شيدت خلال الفترات التاريخية السابقة للوجود الصليبى تقوم بمهمة منطقة الحدود بين المسلمين وبين الصليبيين.

والواقع أن المستوطنات الصليبية فى المنطقة العربية التى تمخضت عن الحملة الصليبية كانت تفتقر إلى ظروف مناطق الحدود والتخوم التى أشرنا إليها من قبل. فلم تكن هناك تخوم شائعة أو منطقة اتصال بين المسلمين وبين الصليبيين، ولم يتعرف الطرفان المتصارعان الإسلامى والصليبى على حضارة وثقافة أحدهما الآخر. وبات لدى كل طرف من الطرفين فكرة خاطئة عن الطرف الآخر، وهى الفكرة المتعلقة بخصائص وسمات كل مجتمع من المجتمعين ، ونمط الحياة، والعقيدة، والثقافة ، والعلوم لدى كل طرف ، وفى الغالب ظلت هذه الفكرة أسيرة الأوهام والخرافات والشعوذة. وهكذا فإن الحماسة الدينية والتعصب الدينى المقيت الذى ميز محاربى الحملة الصليبية الأولى قد أحدث اتجاهًا عنيدا وعائقًا أمام التأثير الثقافى المتبادل بين المجتمعين الإسلامى والصليبى. إذ كانت فترة الغزو الصليبى قصيرة فى حد ذاتها ، وقصيرة أيضا أمام الصليبيين لكى يحولوا تحصيناتهم إلى منطقة حدود بالمعنى الاصطلاحى الذى وصفناه آنفا. فقد استطاع الصليبيون خلال الجيل الأول من الغزو السيطرة على المدن العربية، التى كانت تمثل مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى ، وتعرض المثقفون المسلمون فى هذه المدن لأعمال القمع والقتل على يد الصليبيين. ولم تعد صفوة المفكرين والمثقفين المسلمين (وأيضا المفكرين المسيحيين الشوام) للإقامة مرة ثانية فى مدن المملكة الصليبية التى هجروها فرارا

من قمع الصليبيين واضطهادهم . وهكذا انحصرت الاتصالات بين الشرق العربى والغرب الأوربى على المستوى العسكرى والتجارى، وقامت التجارة بينهما فى أسواق الاقطار المجاورة للمملكة الصليبية، بيد أن مستوى الاتصالات بينهما فى مجال الثقافة والفكر كانت نادرة . ولم تستطع رحلات الحج أو الزيارة إلى المناطق الإسلامية المجاورة أن تملأ هذه الفجوة الخاصة بضآلة التأثير الثقافى والفكرى بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى الكاثوليكى . وخلال الفترة الأخيرة لم يكن أعضاء البعثات التصنيرية من بين الصليبيين الذين ولدوا فى بلاد الشام والذين كانوا يعرفون باسم «البولان» ، بيد أن أشهر أعضاء هذه البعثات التنصيرية وهو ريكولاس من جبل كروس Riccolus de Monte Croce كان أوربى الأصل . وفى نفس الوقت تأثرت أوربا بالحضارة العربية الإسلامية من خلال المعابر الثقافية والحضارية فى أسبانيا وصقلية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المستوى الثقافى المتواضع للمملكة اللاتينية فى بيت المقدس يفسر لنا تساؤلا يقول لماذا لم تصبح المستوطنات الصليبية فى المنطقة العربية مركزا للتبادل الثقافى والحضارى بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى الكاثوليكى . والحقيقة أنه ليس من الصواب الافتراض بأن هذه المستوطنات الصليبية ظلت فى حالة حرب دائمة ضد المسلمين وأن قعقعة السيوف أخرست وكبتت كل الأصوات الأخرى. بيد أن المملكة اللاتينية فى بيت المقدس لم تصبح مركزا للنشاط الثقافى والفكرى، وظلت بمثابة مركز لنشر الحضارة والثقافة الأوربية المحلية والهامشية . فقد ضمت هذه المملكة الصليبية مدارس أبروشية ، وديرية وكاتدرائية - ولم تترك هذه المدارس رصيداً ثقافيا مهما. فلم يكن هناك فى المملكة الصليبية مراكز للترجمة ، ولم يتأسس فيها جامعة فى أى عصر من عصورها التاريخية. ولما كان أى جيل صليبى يعتقد فى أهمية أن ينقل خبرته إلى الأجيال التالية فإنه كان يكفى لهذه الأجيال أن تهتم بالحياة اليومية ، وتقليد الجيل السابق فى مجال الفروسية والسلوكيات الخاصة بالعلاقات والمعاملات التجارية والتقنية . ولم يكن من قبيل المصادفة أن يقبل أبناء الارستقراطية الصليبية على دراسة القانون، والأعراف والعادات الأوربية. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن القانون كان يمثل حجر الزاوية بالنسبة لامتيازات أفراد هذه الطبقة الارستقراطية الصليبية ، ولذا بات من الطبعى أن يحظى القانون باهتمام أبناء هذه الطبقة وأصبح عنصراً تقليديا يجب المحافظة عليه. ومع شيوع وانتشار هذه الطبقة الارستقراطية فى أوربا وفى

مستعمراتها الشرقية، فإن أى قطر أوربى لم يسىء استخدام قوانين الامتيازات هذه مثلما حدث فى المستوطنات الصليبية فى منطقة الشرق العربى. فقد أطلق أحد مشرعى القانون فى العصور الوسطى العظام لقب المجادلين Silbenstecher- hairsplitter على القضاة الصليبية فى المملكة اللتينية وكان هذا هو الجانب المهم فقط فى الحياة الفكرية التى وجدت فى المملكة اللاتينية.

وكان عدم وجود أية مدرسة فى المملكة اللاتينية بالمعنى المتداول للكلمة فى العصور الوسطى لايرمز فقط للمستوى الفكرى لهذه المملكة ، ولكن غياب المدارس فى المملكة اللاتينية يلعب دوراً حاسما فى سياق حديثنا الذى يتعلق بالتأثير الثقافى والحضارى المتبادل بين الشرق العربى والغرب الأوربى فى العصور الوسطى ودور المستوطنات الصليبية كمعبر من معابر الثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوربا. وكان نقل الثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوربا خلال الفترة الصليبية أمراً نادراً مما يؤكد أن هذا النشاط الثقافى فى المملكة اللاتينية كان نشاطا فردياً أحادياً أى لم تشجعه مؤسسة حكومية . وكانت إمكانية انتشار معارف أحد العلماء أمراً محدوداً وأصبحت مدة حياة هذه المعرفة فى دنيا الثقافة قصيرة الأجل نسبيًا. وعلى الرغم من أن أى مركز ثقافى، أو كلية ، أو جامعة ، أو أية مدرسة خاصة لاتستطيع باستمرار أن تكفل وجود مستو عال من الفكر والثقافة، فإن وجود مثل هذه المؤسسات التعليمية تصبح بمثابة مستودعات للثقافة والمعرفة والعلوم . والحقيقة التى تقول إن المملكة اللاتينية لم تشهد جامعات مثل جامعتى سالرنو وتوليدو Toledo تفسر لنا افتقار هذه المملكة اللاتينية إلى آلية للحفاظ على الثقافة والعلوم الإسلامية التى اكتسبها الجيل السابق ونقلها إلى أوربا.

وفى النهاية كانت هناك حروب صليبية متتالية ، تكرارا للنمط الأول الذى كانت عليه الحملة الصليبية الأولى. والحقيقة أن تدفق تيار الحجاج الأوربيين المستمر إلى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس فى أثناء القرن الثانى عشر الميلادى ، ولاسيما فى أثناء الحملات الصليبية الصليبية الكبرى، كان قد أحدث مذيبًا روحانيا لحل معضلة النماذج والاحتكاك الثقافى والفكرى بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى الكاثوليكى، ولم تستطع المستوطنات الصليبية أن تكون شبكة ثقافية لاستيعاب هذه الموجات من القادمين الصليبيين الجدد. إذ كانت كل حملة صليبية جديدة أو كل موجة من الهجرة الأوربية بمثابة تعضيد للعنصر الأوربى فى هذه

المملكة اللاتينية وكفلت استمرار قوة هذه الدولة الصليبية وأهميتها السياسية. وهذا يمكن أن يفسر لنا ظهور أصوات من الصليبيين المستنيرين فى القرن الثالث عشر الميلادى تعطى قدرا كبيراً للإسلام. ففى القرن الثالث عشر الميلادى، ضعف تيار الهجرة الأوربية إلى المناطق والمستوطنات الصليبية إلى أن توقف تيار الهجرة الأوربية نهائيا واختفت الحملات الصليبية الكبرى أيضًا . وكما اثبتت التجارب، فإن المجتمعات تتأثر ببعضها البعض فى مناطق الاتصالات الطبيعية والواضحة بينهما. وهذه المجتمعات عادة تختار ما يناسب نظامها الفكرى والعاطفى. ومما يذكر أن أفراد الطبقات الاجتماعية الراقية والمهمة فى أى مجتمع تعد أكثر ميلا إلى الانجذاب صوب الثقافة الأجنبية الراقية والمتطورة.

ويبدو أن مثل هذه العملية الانتقائية من الاقتباس والاستيعاب الجزئى للثقافة الأجنبية كانت تمثل أمراً فاسداً ومشينًا لدى الكثير من القادمين الأوربيين الجدد، وأيضا لدى بعض المؤرخين فى العصر الحديث. والواقع أن بعض المؤرخين قد اعتبروا مثل هذا الاتجاه الصليبى من جانب أبناء الطبقات الراقية بمثابة حقيقة يقينية، لبدايات الانصهار والاندماج الثقافى والاجتماعى بين المجتمعين الإسلامى والصليبى، وهى الظاهرة التى لم تتحقق بين هذين المجتمعين على أرض الواقع والتى لم يتصور الصليبيون تحقيقها من الناحية العملية. ويمكن أن نتلمس قدراً كبيراً من الحقيقة من خلال الملاحظة التى أبداها أحد المثقفين المسلمين وهوأسامة بن منقذ الذى يقول : «إن الفرنج جنس ملعون ، والذين لم يندمجوا إلا مع جنسهم». وكما توقعنا ، فإن الاتجاه الصليبى لرفض الاندماج الاجتماعى مع المجتمع الإسلامى كان قويا وسط القادمين الصليبيين الجدد، والذين حضروا بصحبة الحملات الصليبية الكبرى، وأيضا وسط الحجاج أو صغار المهاجرين ، وبصورة أشدو أقوى وسط الصليبيين المقيمين فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين. ولنقتبس هذا المعنى من قول أسامة بن منقذ حيث يقول : «ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا أو عاشروا المسلمين فهم أصلح من الغربى البعيد العهد ببلادهم ولكنهم شاذ لايقاس عليه» . والعبارتان الأولى والثانية واضحتان بيدأن هذا الكلام كان أوضح من كلامه السابق. ونفهم من شهادة أسامة بن منقذ ورأيه فى الصليبيين أنه كان يوجد فى المملكة اللاتينية أغلبية دائمة من القادمين الجدد، وما قاله ابن منقذ فى هذا الصدد من الصعب إثباته أو دحضه. وعلى أية حال ، فإنه من الممكن الافتراض بأن القرن الثانى عشر الميلادى، كان يمثل الفترة التى شهدت توافد أعداد كبيرة من المهاجرين الأوربيين بشكل

مستمر إلى المناطق الصليبية، وكان هذا القرن يمثل حقيقة الوضع الذى ذكره أسامة بن منقذ والتعلق بوجود أغلبية دائمة من القادمين الأوروبيين الجدد فى المملكة اللاتينية. وكان هذا المؤرخ والفارس المسلم (أسامة بن منقذ) يرى بشكل وبآخر أن كل المجتمع الصليبى بشكل عام قد اعتاد عدم الاندماج الثقافى والاجتماعى مع المجتمع الإسلامى.

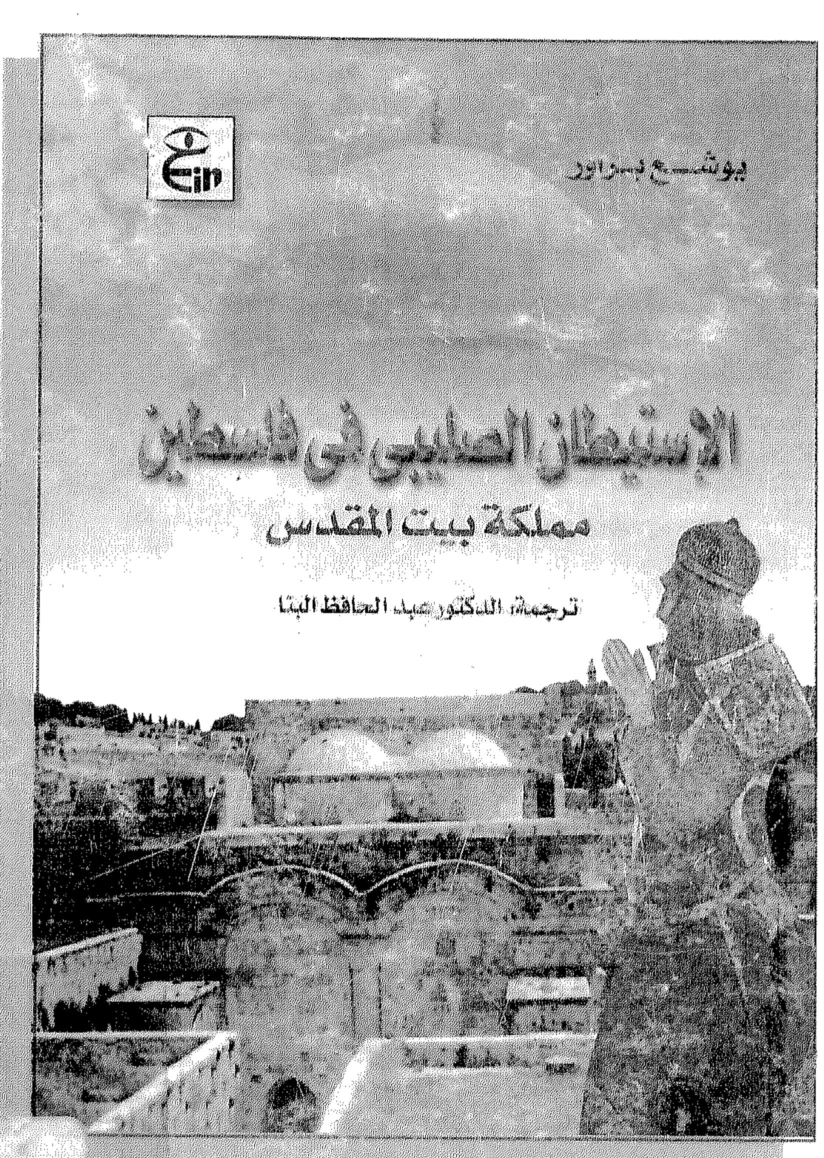
وظلت بعض المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين بمنأى عن تأثير الثقافة والحضارة الإسلامية المحلية، وظلت ثقافة هذه المستوطنات الصليبية ذات طابع أوربى تمامًا. وكانت هذه المناطق الصليبية تمثل سلسلة كاملة من المؤسسات الاجتماعية ونظام الحكم والإدارة السياسية، والتصنيف الطبقى وقواعد السلوك للطبقات المختلفة للمجتمع الصليبى. فقد كانت المؤسسات القضائية والاجراءات القانونية فى المملكة الصليبية أوربية الطابع وكان هذا يعنى خلق مجتمع أوربى أبدى فى هذه المناطق الصليبية. وعلى الرغم من تغير بعض مظاهر الثقافة والحضارة المادية ، فإن المجالات الدينية، والفكرية ، والفنية ، والاجتماعية والسياسية فى المملكة الصليبية لم تتأثر بهذا التغير والتحول ، وقلما كان مثل هذا التأثير يصل إلى هذه المجالات المتعددة طوال فترة الوجود الصليبى والتى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان.

ولاشك فقد تمخض عن وجود مثل هذه العوائق والحواجز والقيود التى منعت التأثير الحضارى المتبادل بين الشرق العربى والغرب الأوربى نتائج بعيدة المدى. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو هل أدت سياسة عدم الاندماج الصليبى هذه فى المنطقة العربية إلى تأثر، علاقة الصليبيين بتراثهم الأوربى بدرجة معينة ؟ فالواقع أن كل مؤسسات الصليبيين السياسية والاجتماعية ، ونظامهم العسكرى وبعض مظاهر إبداعاتهم الفنية كانت تصطبغ بصبغة تقليدية قوية. وعلى الرغم من الاتصالات المستمرة للمناطق الصليبية مع الغرب الأوربى، والتى ولدت عند الصليبيين شعوراً بأنهم جزء من أوربا ، فإن الصليبيين كرهوا أن يصبحو تابعين لهؤلاء الأوربيين الذين حضروا إلى الأراضى المقدسة فى الفترة الأخيرة والذين نقلوا معهم التطورات الأوربية. فقد أظهر الصليبيون السمات والخصائص الأوربية التى ترجع إلى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى. ومن المحتمل أن هذه السمات والخصائص الأوربية التقليدية المتأصلة التى أظهرها الصليبيون كانت نتيجة عدة عوامل . ففى المقام الأول ، كان العامل الأول يتمثل فى شعور الصليبين بأنهم يمثلون مجتمعًا استيطانيًا صغيرا وخلق هذا الشعور لديهم فكرة عاطفية وحاجة لاتباع النظام الأوربى القائم، الذى يتفق مع أعراف وعادات أجدادهم فى أوطانهم

الأوربية . وكان يمكن تحول وتعديل مثل هذا الاتجاه الصليبى المعادى للتأثر الشرقى فى المجال الثقافى وذلك إذا كان العنصر الحضارى الإسلامى الدخيل قويًا سائداً بحيث يستطيع أن يعضد العلاقات العاطفية القائمة عن طريق نزعة أخرى ترمى إلى الولاء والإخلاص للدولة الصليبية . ولاشك أن صفوة المجتمع كانت وراء هذا التحول فى الموقف الصليبى إزاء التأثر بالثقافة الإسلامية، ولاسيما طبقة المفكرين والعلماء ، الذين كانوا أقل قنوطا وجزعًا وأكثر فهما للأمور، والذين كانت تحدوهم الرغبة أيضا قطع علاقاتهم بأوطانهم فى أوربا. والواقع أن مثل هذه العوامل التى تشجع مثل هذا التحول فى الاتجاه الصليبى للانسلاخ والانفصال عن أوربا لم تتوافر فى مملكة بيت المقدس اللاتينية . فمنذ بداية الوجود الصليبى فى المنطقة العربية كان التأثير الفرنسى عاملا حاسما فى البناء السياسى والحضارى للمملكة اللاتينية، وأصبح هذا التأثير الفرنسى عنصرا سائدا ومهيمنا على كل العناصر الحضارية الأخرى فى المجتمع الصليبى . وأخيراً، نؤكد على الغياب الكلى للصفوة المثقفة من العلماء والمفكرين فى هذه المملكة الصليبية.

وظهر اتجاه صليبى آخر يؤيد عملية الاندماج الاجتماعيى والثقافى مع المجتمع الإسلامى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى ، ولعب هذا الاتجاه الجديد دوراً مهما ، وإن لم يكن قد تخلص نهائيا من الملامح والمقومات القائمة للمجتمع الصليبى. فالمجتمع الصليبى الذى أقر الحواجز والعقبات أمام الاندماج الدينى والاجتماعى وتبنى الثقافة والحضارة الإسلامية كان لابد أن يعتمد على تراثه الحضارى الأوربى الغربى لكى يعضد وجوده. وأصبح التراث الحضارى الأوربى مقدسًا فى جوهره وفى عناصره الجزئية الأساسية . وكان الاستياء والنفور الصليبى من الأفكار الجديدة خير دليل على تحجر وجمود التراث الصليبى فى هذه المناطق الصليبية، وهى الأفكار التى كان ينظر إليها على أنها تمثل باكورة مراحل التحول بكل معنى الكلمة . وكان يتبع هذه المرحلة تمجيد الماضى وتقديسه وعلى الرغم من أننا لم نستطع نبذ ورفض كل العوامل التى هيمنت على النزعة الصليبية الخاصة برفض الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، فإن التراث الصليبى الأصلى قد شهد تطورات جديدة. وهكذا فإن تمجيد تراث الماضى والارتباط بالتقاليد والنظم الموروثة وأهميته لمجتمع وليد فى دولة فى حالة نمو وتطور، يصرفنا إلى الأهمية غير المنظورة لمبادىء وقواعد أساسية تنطوى على مفارقة تاريخية.

رقم الإيداع ٢٠٠١/٤٩٣٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 054 - 0
دار روتابرينت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
مهندس / يوسف عز
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق







للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES